مدارك التنزيل وحقائق التأويل

تفسير النسفي

للإمام

أبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي

المتوفى سنة ٧١٠هـ رحمه الله تعالى

حققه وعلق عليه

الدكتور محمد محمد علي درويش

رئيس قسم الأحوال الشخصية

عضو هيئة التدريس في جامعة الإمام الشافعي بإندونيسيا

راجعه وقدم له

الدكتور أحمد محمد الفاضل

أستاذ التفسير وعلوم القرآن الكريم

عضو هيئة التدريس في كلية العلوم الإسلامية

جامعة السلطان محمد الفاتح في إسطنبول

المجلد الأول

دار تحقيق الكتاب

للطباعة والنشر والتوزيع

دار تحقيق الكتاب

Title: Tafsir al Nasafi

Autor: Abd Allah b. Ahmed al-Nasafi

Editor: Dr.Mohamad al Darwish

Publisher: Dar Tahkik Al Kitab

Pages: 696

Year: 2018

Printed in : Lebanon

Edition: 1

الكتاب: مدارك التنزيل وحقائق التأويل (تفسير النسفي)

المؤلف: عبد الله بن أحمد النسفي

تحقيق: محمد محمد علي درويش

الناشر: دار تحقيق الكتاب

عدد الصفحات: 696 (المجلد الأول)

سنة الطباعة: 2018

بلد الطباعة: لبنان

الطبعة: الأولى (لونان، ورق شاموا)




ISBN 978-9933-9252-0-8

DAR TAHKIK AL KITAB

Büyük Reşit Paşa Caddesi Yümni İş Merkezi
No:16/B D:8 Vezneciler/Fatih/İstanbul/Turkey ✆ : +9 (0212)5190979
Merkez :1.Cadde No:66 MİDYAT/MARDİN ✆ : +9 (0482)4622775
www. tahkikalkitab.com : info@tahkikalkitab.com

Dar Tahkik Al Kitab, Nursabah Yayıncılık
Matbaacılık Ltd.Şti'nin Tescilli Markasıdır
دار تحقيق الكتاب هي دار تابعة لمؤسسة دار نور الصباح

مدارك التنزيل وحقائق التأويل

تفسير النسفي

١


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله الكريم المنان، الذي أكرمنا بأفصحِ لسان، وَسِع أعظمَ بيان، أنزله على أكمل إنسان، سيدنا محمد عظيم الشأن، ليكون للعالمين بشيراً ونذيراً، فوضَّحه وفسّره تفسيراً، فهو إمام العلماء والمفسرين، ورحمة الله للعالمين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فقد قال العلماء: إن علم التفسير وما يتصل به من أشرف العلوم وأفضلها، لأنه يتعلق بكتاب الله تعالى، وليس ثَمَّ كلام أشرف وأعظم وأبين وأبلغ وأكرم من كلامه سبحانه وتعالى، لذلك كان للتفسير هذه المكانة السامقة بين العلوم الإسلامية، حتى سمّاه بعضهم أمَّ العلوم باعتبار أن الفنون الإسلامية تحتاج إليه وتنهل من مَعينه.. كذلكم المفسر الفذُّ في تفسيره، يحتاج إلى التبحر والتضلع من علوم عدة كالنحو والإعراب والصرف والبلاغة والعقائد والفقه وأصوله.. وهذا ما نلحظه عندما ننظر في كتب التفسير الرصينة كجامع البيان للإمام الطبري والكشاف للزمخشري والتفسير الكبير للرازي، فما من علم إلا ويكون حاضراً فيها..

وكتب التفسير متنوعة في مناهجها وأساليبها فمنها ما يُعنى بفن دون فن أو طريقة دون طريقة، ومنها ما يسهب صاحبه حتى يخوض في لجج بحار من العلوم تكاد لا تجد لها ساحلاً، ومنها ما يختصر فيقف بك على المراد دون إطناب، ومنها ما يتوسط فيُجلي لك المعنى ثم يطرق طرقاً يسيراً مسائل وقضايا في الفقه والنحو والبلاغة والعقائد والفرق والقراءات، ومن هذا الصنف (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) للإمام النسفي المشهور بتفسير النسفي.

هذا التفسير في أصله عصارة لكشاف الزمخشري من حيث الإعراب والبلاغة فحسب، لكنه متميز عنه بأمور، منها:

- وضوح العبارة وسلامتها وسهولتها، فهي رصينة لكنها واضحة مستقيمة، وبهذا حاز قصب السبق على كثير من كتب التفسير في هذا المضمار.
- ذكر القراءات المتواترة مع التحقيق فيها، ونسبتها لأصحابها غالباً، وقد يشير إلى بعض القراءات الشاذة.

- الاستدلال لمذهب الحنفية في آيات الأحكام، لذلك يستفيد منه الباحث في الأدلة من الكتاب والسنة فربما يجد فيه من الأدلة ما لا يجده في المطولات التي اختصت بهذا الشأن.
- أنه تجنب كثيراً من الروايات الساقطة والضعيفة التي أوردها الزمخشري وملأ بها تفسيره.
- بيان مذهب أهل السنة والجماعة في العقائد وخاصة الماتريدية والاستدلال له من الآيات بأسلوب رائق شائق ولعل هذا الجانب - في رأيي - أهم ما يتميز به.
- الرد على الفرق والمذاهب الإسلامية المخالفة لأهل السنة والجماعة - ومنهم المعتزلة - فهو بذلك يرد على الزمخشري نفسه الذي استفاد منه في جوانب أخرى من تفسيره، لذلك نقرر أن النسفي لم يكن مجرد ناقل ومختصر للكشاف بل كان ناقداً متميزاً.
- نقض مذاهب الزنادقة كالباطنية وغيرهم وذلك في مواضع كثيرة من تفسيره، وقد يكون استنباط الرد من الآية أو الآيات دقيقاً فيلمحه الإمام النسفي ويقتنصه اقتناصاً عجيباً.. يُنظر مثلاً كلامه في الرد على مدعي العصمة لغير الأنبياء عند قوله تعالى من سورة النمل (فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين).

لما اجتمعت هذا المزايا والخصائص في تفسير النسفي، كان له هذه الشهرة وهذا القبول بين العلماء وطلاب العلم، فقد عُني به العلماء من قبل ومن بعد، فكان مقرراً في حلقات العلم والمعاهد وكليات العلوم الإسلامية، وقد أكرمني الله تعالى فدَرَستُه في معهد الفتح الإسلامي بدمشق على أيدي أشياخنا رحمهم الله تعالى ثم درَّستُه بعد ذلك سنوات مديدة، ثم أقرأتُه في جامعة بلاد الشام - قسم الفتح - نحواً من ست سنوات، ولما هاجرت إلى اسطنبول وشرعت في التدريس بجامعة السلطان محمد الفاتح قررتُه في كلية العلوم الإسلامية بعد أن كان المقرر سوراً من أحد التفاسير المعاصرة، فوجد الطلاب والطالبات - وأكثرهم أتراك - في فهمه صعوبة، لكنهم بعد أيام معدودات صاروا يتمتعون بقراءته وفهمه وما فيه من فوائد ولطائف، فسررت لذلك وحمدت الله تعالى على هذا التوفيق في الاختيار..

وهذا التفسير مع أهميته هذه وكونها مقرراً في كثير من المعاهد والكليات، لم يحظ بتحقيق دقيق، بل كل الطبعات التي كنا نقرأ فيها لا تخلو من خلل ونقص، وإن كانت أنيقة من حيث الورق والسِّجِل..!! وغاية أحسنها تحقيقاً تخريج بعض الأحاديث التي يسهل البحث عنها كأحاديث البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم.. أما تحقيق المسائل العلمية من مصادرها الأصلية وضبط مشكل النص ونسبة شواهد الشعر والنثر وغير ذلك من المهمات فهو بمنأى عنها..!!

وهيأ الله تعالى الأخ الشيخ الدكتور محمد درويش الأستاذ في جامعة الإمام الشافعي بأندونيسيا، فحقق هذا السِّفر الجليل تحقيقاً دقيقاً واسعاً أخذ من وقته نحواً من ثلاث سنوات، استدرك كل النقص الذي كان يعتري الطبعات السابقة، فكان بحق عملاً متميزاً يستحق محققه الدعاء والشكر عليه..

وأهم ما يميز هذا العمل:

- ضبط النص ضبطاً دقيقاً وذلك بالرجوع إلى مخطوطات الكتاب مع مقارنتها بالنسخ المطبوعة ليكون كما أراده صاحبه لمّا سكبَ على أوراقه حِبْرَه ومِدادَه، كما ضبط المشكل من الكلمات، اتباعاً للقاعدة: إنما يُشكَل من الكلمات المُشكِل.
- تخريج الأحاديث والآثار الموقوفة والمقطوعة، ونسبتها إلى مصادرها الأصلية، والحكم على كثير منها، والتنبيه على الموضوعات التي جاءت في هذا التفسير.
- العناية الفائقة بتوثيق الأحكام الفقهية التي يعرض لها المفسر، وينسبها للمذاهب، وذلك بالإحالة إلى كتب الفقه المعتمدة في كل مذهب، فما ترك المحقق مسألة فقهية وردت إلا وربطها بمصدرها الفقهي، وهذا وحده جهد عظيم يحتاج إلى تعب وأناة وصبر.
- تخريج مسائل أصول الفقه وقواعده أو شرحها وبيانها، والإفاضة في ذلك، ولا عجب في هذا فالمحقق متخصص في علم الأصول، وكان موضوعَ بَحثِه في الماجستير والدكتوراه.
- الاهتمام البالغ بالمسائل اللغوية والنحوية والبلاغية وكل ما يتعلق بعلوم العربية، مع التوثيق من الكتب المؤلفة في تلك الفنون.
- تخريج الشواهد الشعرية، وذكر أبحرها، ونسبتها إلى أصحابها، وعدم الاكتفاء بالإحالة إلى مراجع قريبة، بل الإحالة إلى دواوين الشعر إن وجدت.

وغير ذلك من مسائل التحقيق التي سيجدها القارئ بارزة في هذا التفسير، فللمحقق الدكتور محمد درويش منا وافر الشكر، ونسأله تعالى أن يُجزل له الثواب والأجر.

ومن اللطائف التي كانت بيني وبين الشيخ محمد درويش إبّانَ مراجعتي لهذا التفسير، أننا كنا نختلف في بعض القضايا أو فهم بعض العبارات، فأعرض رأيي ويعرض رأيه، ثم نتفق على رأي فنرجحه على الآخر، بيد أننا في بعض الأحايين نتناقش أياماً فأقول له بعد طول النزاع العلمي: لنرجع إلى إخواننا نشاورهم في المسألة المتنازع فيها حتى ننتهي إلى رأي فيما اختلفنا فيه..!!

ولا بد من الإشارة في النهاية إلى جهد الأستاذ محمد فاتح ناص صاحب دار نور الصباح في اسطنبول، فقد عجبت من شدة حرصه على أن يخرج الكتاب خالياً من الخطأ بالغاً غاية الكمال قدر طاقة الإنسان، ولو تضاعفت النفقات في سبيل ذلك، وهذا قلما تجده عند غيره، فالله تعالى أسأل أن يجزيه أعظم الثواب وأن يزيد له في العطاء..

وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين..

اسطنبول/ ١/ ٨/ ٢٠١٧

الدكتور أحمد محمد الفاضل

الأستاذ المساعد وعضو هيئة التدريس

في كلية العلوم الإسلامية

جامعة السلطان محمد الفاتح في اسطنبول

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم لك الحمد والشكر كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، سبحانك لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك.

وصل اللهم على سيدنا محمد النبي الأمي الحبيب العالي القدر العظيم الجاه، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد. . فإن القرآن العظيم كتاب هداية للبشرية، يهديهم للتي هي أقوم، ويرشدهم إلى ما فيه صلاح أمورهم في الدنيا والآخرة.

ومن أهم ما ينبغي أن يهتم به المسلم ويحرص عليه تدبرُ القرآن وتفهمُ معانيه، فذاك طريق الفلاح في الدنيا والآخرة، ولا يحصل ذلك إلا بالرجوع إلى ما كتبه العلماء المفسرون لكلام الله سبحانه وتعالى.

ومن كتب التفسير النافعة التي شاعت بين العلماء وتلقَّوها بالقبول كتابُ تفسير النسفي المسمَّى «مدارك التنزيل وحقائق التأويل».

وقد أكرمني الله سبحانه وتعالى بتحقيق هذا التفسير الجليل، فله الحمد والمنة على عظيم جوده وعطائه.

منهج التحقيق:

* عزو الآيات القرآنية التي يوردها الإمام النسفي في غير سُوَرِها.
* تخريج الأحاديث النبوية.
* عزو القراءات القرآنية إلى مصادرها.
* توثيق ما ينقله الإمام النسفي من عبارات المؤلفين ويصرحُ باسم صاحبه.
* ضبط الكلمات التي قد تشكل قراءتها.
* إيضاح العبارات المشكلة.

أسأل الله العظيم أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم وأن ينفع به إنه خير مسؤول.

والحمد لله رب العالمين.

الإمام النسفي

اسمه ونسبه ووفاته:

هو الإمام الفقيه الأصولي المفسر عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، أبو البركات، حافظ الدين. ينسب إلى نسفَ، وهي مدينة تقع الآن في جمهورية أوزبكستان. توفي سنة (٧١٠ هـ)، وقيل: (٧٠١هـ) رحمه الله تعالى(١).

شيوخه وتلاميذه:

من شيوخه الذين أخذ العلم عنهم:

* الإمام العلامة فقيه المشرق محمد بن عبد الستار الكردري شمس الأئمة، برع في المذهب الحنفي وأصوله، وتفقه عليه خلقٌ ورحلوا إليه، توفي سنة (٦٤٢هـ) رحمه الله تعالى(٢).

* الإمام العلامة محمد بن محمود الكردري بدر الدين خواهر زاده، تفقه على خاله شمس الدين الكردري، توفي سنة (٦٥١هـ) رحمه الله تعالى(٣).

* الإمام العلامة علي بن محمد بن علي حميد الدين الضرير البخاري، توفي سنة (٦٦٦هـ) رحمه الله تعالى(٤).

وممن أخذ عنه العلم:

الإمام العلامة الحسين بن علي بن حجاج بن علي، حسام الدين الصغناقي، الحنفي، الفقيه الكبير، البارع المتفنن، شارح «الهداية»(٥).

ثناء العلماء عليه:

قال عنه الحافظ عبد القادر: (أحد الزهاد المتأخرين، صاحب التصانيف المفيدة في الفقه والأصول)(٦).

---

(١) انظر «الفوائد البهية» (ص١٠٢).
(٢) انظر «سير أعلام النبلاء» (٢٣/ ١١٢) و«الفوائد البهية» (ص١٠٢)، و«الأعلام للزركلي» (٧/ ٢٨).
(٣) انظر «الفوائد البهية» (ص١٠٢) و«الجواهر المضية» (٣/ ٣٦٢).
(٤) انظر «الفوائد البهية» (ص١٠٢) و«تاج التراجم» (ص ٢١٥).
(٥) انظر «المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي» (٥/ ١٦٣).
(٦) «الجواهر المضية في طبقات الحنفية» (١/ ٢٧٠).

وصفه الحافظ ابن حجر بقوله: (علامة الدنيا)[١].

وقال عنه يوسف بن تغري بردي: (أحد العلماء الزهاد، وصاحب التصانيف المفيدة في الفقه والأصول والعربية، وغير ذلك، نشأ على قدم هائل، وتفقه بجماعة من أعيان العلماء، حتى برع في الفقه والأصول والعربية واللغة)[٢].

من مؤلفاته:

* «عمدة العقائد» في الكلام[٣].
* «الكافي في شرح الوافي» في الفقه الحنفي، وكلاهما له[٤].
* «المستصفى»، ومختصرُه «المصفَّى» في شرح منظومة أبي حفص النسفي في الخلاف[٥].
* «شرح النافع» في الفقه لأبي القاسم محمد بن يوسف الحسيني السمرقندي[٦].
* «كنز الدقائق» في الفقه[٧].
* «فضائل الأعمال»[٨].
* «منار الأنوار» في أصول الفقه، وشرحه «كشف الأسرار»[٩].



(١) «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» (٣/ ١٧).
(٢) «المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي» (٧/ ٧٢).
(٣) انظر «هدية العارفين» (١/ ٤٦٤).
(٤) انظر «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» (٢/ ١٩٩٧).
(٥) انظر المرجع السابق (٢/ ١٨٦٧).
(٦) انظر المرجع السابق (٢/ ١٩٢١).
(٧) انظر المرجع السابق (٢/ ١٥١٦).
(٨) انظر المرجع السابق (٢/ ١٢٧٤).
(٩) انظر المرجع السابق (٢/ ١٨٢٣).

مدارك التنزيل وحقائق التأويل

هذا الكتاب المبارك لقي قبولاً عند العلماء، وأقبل عليه طلاب العلم ينهلون من معينه.

يُعَدّ هذا التفسير اختصاراً لتفسيرِ الزمخشري «الكشاف»، وتفسيرِ البيضاوي «أنوار التنزيل وأسرار التأويل»، غير أنه ترك ما في الكشاف من الاعتزالات، وجرى فيه على مذهب أهل السُّنَّة والجماعة، وهو تفسير وسط بين الطول والقِصر، جمع فيه الإمام النسفي بين وجوه الإعراب والقراءات، وضمنه ما اشتمل عليه الكشاف من النكت البلاغية، والمحسِّنات البديعية، والكشف عن المعاني الدقيقة الخفية، وأورد فيه ما أورده الزمخشري في تفسيره من الأسئلة والأجوبة، لكن لا على طريقته من قوله: فإن قيل.. قلت، بل جعل ذلك في الغالب كلاماً مدرجاً في ضمن شرحه للآية، كما أنه لم يقع فيما وقع فيه صاحب «الكشاف» من ذكره للأحاديث الموضوعة في فضائل السور[(١)].

وسأحاول إيضاح الأمور التي تناولها هذا التفسير في الفِقرات التالية:

أولاً: القراءات القرآنية

أنواع القراءات التي يوردها:

يورد الإمام النسفي كثيراً من القراءات المتواترة، ويقتصر غالباً على القراءات السبع منسوبة لأصحابها، وقد يورد بعض القراءات الشاذة إما مع التصريح بشذوذها، أو لا.

وقد لا يصرح باسم القارئ ويكتفي بقوله: وقرئ كذا.

ويرمز غالباً للقراءات بالكلمات التالية: (مكي) والمراد: القارئ ابن كثير، (مدني) والمراد: القارئ نافع، (حجازي) ويشمل: المكي والمدني، (بصري) والمراد: القارئ أبو عمرو، (كوفي) والمراد: القراء عاصم وحمزة والكسائي، (عراقي) ويشمل: البصري والكوفي، (شامي) والمراد: القارئ ابن عامر.

وقد ينسب القراءة لرسول الله ﷺ، كما قال في آية: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]: وفي قراءة رسول الله: ﴿من أنفَسِهم﴾[(٢)].

---

(١) انظر «التفسير والمفسرون» (١/ ٢١٦).

(٢) انظر [١/ ٣٠٣]

وإنما ينسب المفسرون بعض القراءات لرسول الله ﷺ لأن المحدثين هم الذين نقلوها عنه ﷺ ولم يروها القراءُ من طرقهم[١].

توجيه القراءات:

لم يكتف الإمام النسفي رحمه الله بذكر القراءات، ولكنه عُنِيَ بتوجيهها من الناحية النحوية والصرفية واللغوية والبلاغية.

وتوجيهه للقراءات يستفاد منه أمور، منها:

* بيان اختلاف الإعراب باختلاف القراءة دون اختلاف المعنى.

ومن ذلك قوله عند آية: ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ [هود: ٦٦]: بإضافة الخزي إلى اليوم وانجرارِ اليوم بالإضافة، وبفتحها: مدنيٌّ وعليٌّ؛ لأنه مضاف إلى إذْ، وهو مبني، وظروف الزمان إذا أضيفت إلى الأسماء المبهمة والأفعال الماضية.. بنيت واكتسبت البناء من المضاف إليه[٢].

* بيان اختلافِ المعنى باختلاف القراءة.

ومن ذلك قوله عند آية: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦]: والإنساء: أن يذهب بحفظها عن القلوب، ﴿أو نَنسأْها﴾: مكيٌّ وأبو عمرو؛ أي: نؤخرها؛ من: نسأتُ؛ أي: أخرتُ.

* بيان اتفاقِ القراءة مع القواعد النحوية ودفع الإشكال عنها.

ومن ذلك كلامه عن قراءة: ﴿إنَّ هذان لساحران﴾:

فذكر لها توجيهاتٍ منها: أنها لغة بلحارث بن كعب وخثعم ومراد وكنانة، فالتثنية في لغتهم بالألف أبداً، فلم يقلبوها ياء في الجر والنصب[٣].

أنواع توجيهات القراءات:

* **التوجيه النحوي:**

من ذلك قوله عند آية: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم﴾ [البقرة: ٢٤٠]: بالنصب شامي وأبو عمرو وحمزة وحفص؛ أي: فليوصوا وصية، عن الزجاج، غيرُهم: بالرفع؛ أي: فعليهم وصية.

---

(١) انظر «تفسير الألوسي» (٩/ ٢٤٤).
(٢) انظر [٢/ ٦٥]
(٣) انظر [٢/ ٣٣٨]

* **التوجيه اللغوي:**

من ذلك قوله عند آية: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ [الفجر:٣]: والوِتر: حمزةُ وعليٌّ، بفتح الواو: غيرُهما، وهما لغتان، فالفتحُ حجازي، والكسرُ تميمي[(١)].

* **التوجيه الصرفي:**

ومن ذلك قولُه عند آية: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٤٦]: وعن الحسن: بضمِّ الراء، وعن البعض: بفتحِها، فالفتح على القياس؛ لأنه منسوب إلى الرب، والضمُّ والكسرُ من تغييرات النسب[(٢)].

* **التوجيه البلاغي:**

من ذلك قوله عند آية: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]: وقيل: الورود بمعنى الدخول لكنه يختص بالكفار؛ لقراءة ابن عباس: ﴿وإنْ منهم﴾، وتحمل القراءة المشهورة على الالتفات[(٣)].

ثانياً: المسائل العقدية

تناول عدداً من قضايا العقيدة الإسلامية، وبيّن مذهبَ أهل السنة فيها، وأبطل قول مخالفيهم.

ومن ذلك مسألة رؤية الله، وخلق أفعال العباد، وعدم وجوب الأصلح على الله سبحانه وتعالى وغيرها.

وذلك كقوله عند آية: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]:

والآية حجة لنا على المعتزلة في الأصلح؛ فإنه أخبر أنه ختم على قلوبهم، ولا شكَّ أن ترك الختم أصلحُ لهم.

ثالثاً: المسائل الفقهية

ذكر عدداً من مسائل الفقه مبيناً مذهب الحنفية فيها، وقد يذكر قول غيرهم من الفقهاء.

ومن ذلك قوله عند آية: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم﴾ [الأنفال: ٣٨]:

---

(١) انظر [٣/ ٦٠٥]

(٢) انظر [١/ ٢٩٤]

(٣) انظر [٢/ ٣١٥]

وبه احتج أبو حنيفة رحمه الله في أن المرتد إذا أسلم.. لم يلزمه قضاء العبادات المتروكة[١].

رابعاً: المسائل الأصولية

ذكر بعض المسائل الأصولية، ومن ذلك نفيه حجية مفهوم المخالفة عند حديثه عن آية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾ [النساء: ١٩] فقال: والتقييد بالكره لا يدل على الجواز عند عدمه؛ لأن تخصيص الشيء بالذكر لا يدل على نفي ما عداه[٢].

خامساً: الأمور البلاغية

عني الإمام النسفي كثيراً بإظهار النكات البلاغية في القرآن الكريم؛ وذلك لأن إمامَه في تفسيره كشافُ الزمخشري، وكانت أهمُّ قضية في «الكشاف» هي الناحيةَ البلاغيةَ في كتاب الله عزَّ وجلَّ.

ومن ذلك قوله عند آية: ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف: ٧٧]: يكاد يسقط، استعيرت الإرادة للمداناة والمشارفة، كما استعير الهمُّ والعزمُ لذلك[٣].

سادساً: مصادر الإمام النسفي

سبق أن ذكرت أن هذا التفسير يعدُّ اختصاراً لـ«الكشاف» للزمخشري، و«أنوار التنزيل» للبيضاوي، فهذان أهم مصادر هذا التفسير.

ومن مصادره أيضاً:

- «الكتاب» في النحو للإمام سيبويه المتوفَّى (١٨٠ هـ) رحمه الله.
- «معاني القرآن» للإمام الفراء المتوفى (٢٠٧هـ) رحمه الله.
- «معاني القرآن» للإمام الأخفش المتوفى (٢١٥هـ) رحمه الله.
- «معاني القرآن وإعرابه» للإمام الزجاج المتوفى (٣١١هـ) رحمه الله.
- «تأويلات أهل السنة» للإمام أبي منصور الماتريدي المتوفَّى (٣٣٣هـ) رحمه الله.
- «الصحاح» للإمام الجوهري المتوفى (٣٩٣هـ) رحمه الله.

---

(١) انظر [١/٦١٩]
(٢) انظر [١/٣٣٨]
(٣) انظر [٢/٢٨٥]

- «المبسوط» للإمام السرخسي المتوفَّى (٤٨٣هـ) رحمه الله.
- تبصرة الأدلة في «أصول الدين» لأبي المعين النسفي (ت ٥٠٨ هـ).
- «كشف المعضلات» للإمام الباقولي المتوفَّى نحو (٥٤٣ هـ) رحمه الله.
- «التبيان في إعراب القرآن» للإمام العكبري المتوفى (٦١٦هـ) رحمه الله.
- «الكافي» للإمام النسفي رحمه الله.
- «كشف الأسرار شرح المنار» للإمام النسفي رحمه الله.

وأخيراً

أتقدم بالشكر الجزيل للأخ الكريم الشيخ الأديب الدكتور أحمد محمد الفاضل، المتخصص بعلم التفسير وعلوم القرآن، فقد تفضل بمراجعة هذا الكتاب مراجعة دقيقة، وأبدى ملاحظات قيمة كان لها أثر جليل في إتقان هذا العمل، فجزاه الله خير الجزاء.

كما أشكر الأستاذ محمد فاتح ناص صاحب دار نور الصباح على ما قدمه من جهد وتسهيلات في تيسير هذا العمل، جعله الله ذخراً له يوم الدين.

وكتبه محمد محمد علي درويش

عضو في الهيئة التدريسية في جامعة الإمام الشافعي بإندونيسيا

في ٢/٨/٢٠١٧م





وصف النسخ الخطية

١ - المخطوطة (أ):

المصدر: مكتبة ولي الدين برقم (٢٥٤)، تركيا، وهي نسخة كاملة، مقابلة، تقع في مجلدين:

المجلد الأول: عدد اللوحات (٢٨١) لوحة، عدد الأسطر (٢٧)، الخط: نسخ عادي، الناسخ: عبيد بن حافظ حاجي، تاريخ النسخ: السابع عشر من الشهر الحرام ذي الحجة سنة (٨١١ هـ).

المجلد الثاني: عدد اللوحات (٣٠١) لوحة، عدد الأسطر (٢٧)، الخط: نسخ عادي، الناسخ: نعمت الله بن إبراهيم الفقير، سنة النسخ: أواخر الشهر المبارك ذي الحجة من شهور سنة (٨٢١هـ).

٢ - المخطوطة (ب):

المصدر: مكتبة فيض الله برقم (٢٣١)، تركيا، وتقع في مجلد واحد يحوي النصف الأول من الكتاب فقط، عدد اللوحات: (٣٤٨) لوحة، تاريخ النسخ: (٨١٤هـ).

٣ - المخطوطة (ج):

المصدر: مكتبة راغب باشا برقم (٢٢٩)، تركيا، وهي نسخة كاملة، مقابلة، تقع في مجلد واحد، عدد اللوحات: (٥٨١) لوحة، الخط: نسخي جميل، الناسخ: علي بن يوسف بن محمد بن يوسف، تاريخ النسخ: الحادي عشر ربيع الآخر سنة (٨٨٥هـ).

منهج العمل:

المقابلة على النسخة (أ)، مع الاستئناس بالمخطوطة (ب) في النصف الأول من الكتاب، والاستئناس بالمخطوطة (ج) في النصف الثاني من الكتاب، وكذا عند وجود اللوحات الساقطة من (ب).

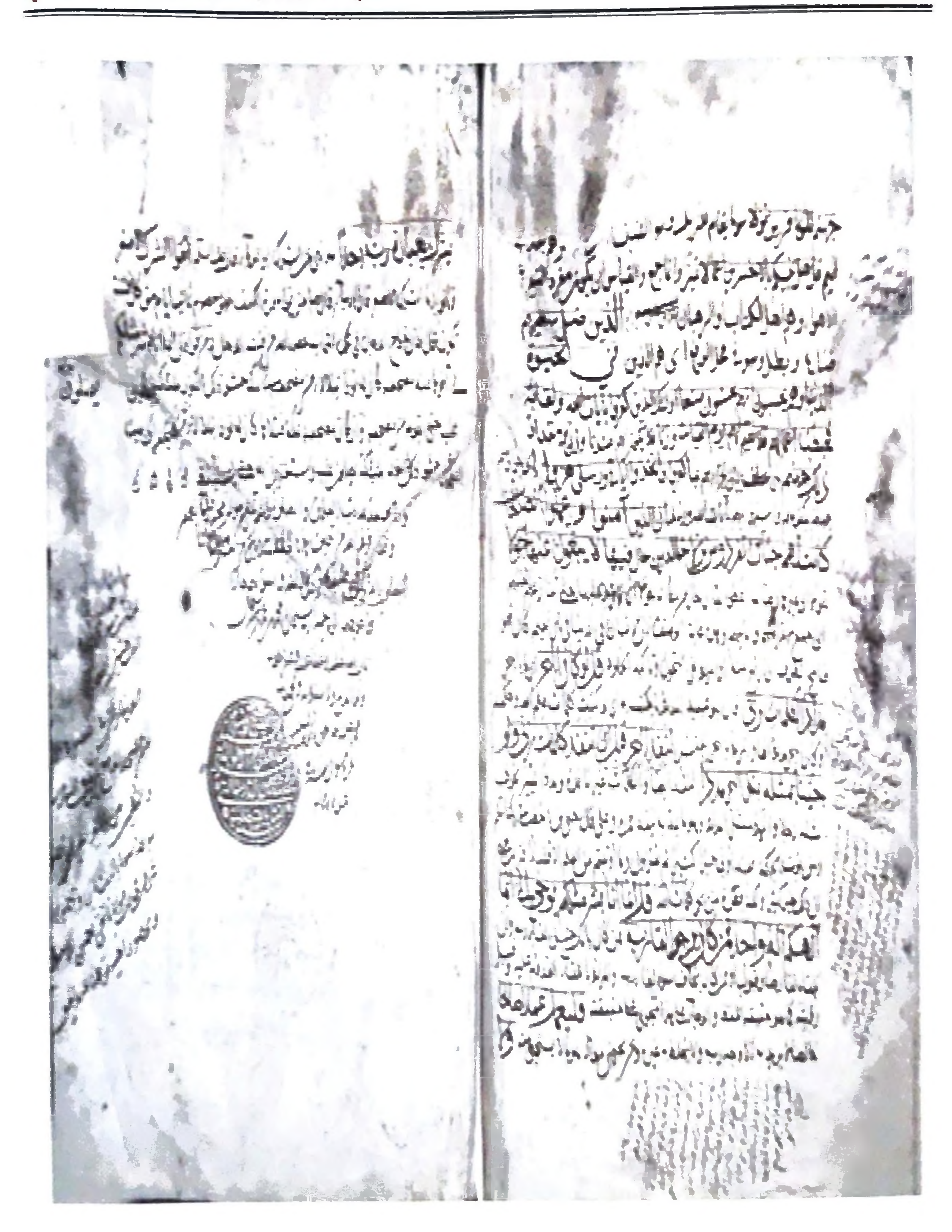


صور المخطوطات

اللوحة الأولى من (أ)

اللوحة الأخيرة من (أ)

اللوحة الأولى من (ب)



اللوحة الأخيرة من (ب)

اللوحة الأولى من (ج)

اللوحة الأخيرة من (ج)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المنزَّهِ بذاته عن إشارة الأوهام[١]، المقدسِ بصفاته عن إدراك العقول والأفهام، المتصفِ بالألُوهية قبلَ كلِّ موجودٍ، الباقي بنعت السَّرْمَدِيَّةِ بعدَ كلِّ مَحدودٍ[٢]، الملكِ الذي طَمَسَتْ سُبُحاتُ جلالِه الأبصارَ[٣]، المتكبرِ الذي أزاحت سَطَواتُ كبريائِه الأفكارَ[٤]، القديمِ الذي تعالى عن مُماثَلَةِ الحَدَثان، العظيمِ الذي تَنَزَّهَ عن مُماسَّة المكان، المتعالي عن مُضاهاةِ الأجسامِ، ومشابهةِ الأنام، القادرِ الذي لا يُشارُ إليه بالتكييف، القاهرِ الذي لا يُسألُ عن التحميل والتكليفِ، العليمِ الذي خلق الإنسانَ وعلمه البيانَ، الحكيمِ الذي نزَّل القرآنَ شفاءً للأرواح والأبدان.

والصَّلاةُ والسلامُ على المُسْتَلِّ من أَرُوْمَةِ البلاغةِ والبَراعةِ[٥]، المُحتلِّ في بُحْبُوحَةِ النَّصاحةِ والفصاحةِ[٦]، محمدٍ المبعوثِ إلى خليقته، الداعي إلى الحقِّ وطريقتِه، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وشيعتِه[٧]، وعلى الآخذين بعهوده وشريعته.

قال مولانا الشيخُ الإمامُ المعظَّمُ، والحَبْرُ الهُمام المقدَّمُ[٨]، أستاذُ أهل الأرض، مُحيي السنة والفرض، كَشَّافُ حقائقِ أسرارِ التنْزيل، مِفتاحُ دقائقِ التأويل، تُرجمانُ كلامِ الرحمن، صاحبُ علمي المعاني والبيان، الجامعُ بين الأصول والفروع، المرجوعُ إليه في المعقول والمسموع، حافظُ الملة والدين، شيخُ الإسلام والمسلمين، وارثُ علوم الأنبياء والمرسلين، أكملُ فُحول المجتهدين، قُدوةُ قُرُومِ المحققين[٩]، ذو السعاداتِ والكراماتِ أبو البركاتِ عبدُ الله بنُ أحمدَ بنِ محمودٍ النسفيُّ، متع الله الإسلامَ بِطولِ بَقائِه، والمسلمين بِيُمْنِ لِقائه رحمه الله:

---

(١) الوهم لا يدرك إلا المحسوسات، فلا يصلح لمعرفة الله؛ لأنه منزه عن مشابهة المحسوسات. انظر «الإكليل» (١/ ٧).

(٢) **السرمدية**: الدائمة.

(٣) **السُّبُحات**: الأنوار.

(٤) **السطوة**: القهر بالبطش.

(٥) **الأرُومة**: الأصل، **البراعة**: أن تتم له كل فضيلة وجمال.

(٦) **بحبوحة المكان**: وسطه، **النصاحة**: الخلوص من كل شائبة.

(٧) **شيعته**: أتباعه وأنصاره.

(٨) **الهُمام**: السيد الشجاع السخي.

(٩) **القُروم**: جمع قَرْم، وهو الفحل.

قد سألني مَن تتعين إجابتُه كتاباً وَسَطاً في التأويلات، جامعاً لوجوه الإعراب والقراءاتِ، متضمناً لدقائقِ عِلْمِ البديعِ والإشاراتِ[1]، حالياً بأقاويلِ أهلِ السنةِ والجماعةِ، خالياً عن أباطيلِ أهلِ البدعِ والضلالةِ، ليس بالطويل المُمِلِّ، ولا بالقصير المُخِلِّ، وكنتُ أُقدِّم فيه رِجلاً وأُؤَخِّرُ أخرى؛ استقصاراً لِقوةِ البشر عن دَرْكِ هذا الوَطَر[2]، وأخذاً لسبيل الحَذَرِ عن ركوب مَتْنِ الخَطَر، حتى شَرَعتُ فيه بتوفيق اللهِ والعوائقُ كثيرةٌ، وأَتْمَمْتُه في مُدة يسيرةٍ، وسميته بـ «مدارك التنزيل وحقائق التأويل»، وهو المُيَسِّرُ لكل عسير، وهو على ما يشاء قديرٌ، وبالإجابة جديرٌ.



---

(١) المراد بعلم الإشارات: ما دل عليه القرآن بغير صريح العبارة من العلوم والمعارف. انظر «الإكليل» (١/ ١١).
(٢) **الوطر**: الحاجة.

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ....

سورة فاتحة الكتاب

مكيةٌ، وقيل: مدنيةٌ، والأصحُّ أنها مكية ومدنية، نزلت بمكةَ حين فُرضت الصلاةُ، ثم نزلت بالمدينة حين حُوِّلَت القِبلةُ إلى الكعبة[١].

وتُسمَّى أمَّ القرآن؛ للحديث[٢]، ولاشتمالها على المعاني التي في القرآن، وسورةَ الوافيةِ والكافيةِ؛ لذلك، وسورةَ الكنْزِ؛ لقوله عليه السلام[٣]: «فاتحة الكتاب كنز من كنوز عرشي»[٤]، وسورةَ الشفاءِ، والشافيةَ؛ لقوله عليه السلام: «فاتحة الكتاب شفاء من كلِّ داءٍ»[٥]، وسورةَ المثاني؛ لأنها تُثَنَّى في كلِّ صلاةٍ[٦]، وسورةَ الصلاة؛ لما نَروي[٧]؛ ولأنها تكون واجبةً أو فريضةً[٨]، وسورةَ الحمدِ والأساسِ؛ فإنها أساسُ القرآن، قال ابن عباس رضي الله عنهما: إذا اعْتَلَلْتَ أو اشتكيت.. فعليك بالأساس[٩]. وآيُها سبعٌ بالاتفاق.

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قراءُ المدينةِ والبصرةِ والشامِ: على أن التسمية ليست بآية من الفاتحة ولا من غيرها من السور، وإنما كُتبت للفصل والتبرك للابتداء بها، وهو مذهب أبي حنيفة ومن تابعه رحمهم الله؛ ولذا لا يُجهَر بها عندهم في الصلاة[١٠].

وقراءُ مكةَ والكوفةِ: على أنها آية من الفاتحة ومِن كل سورة، وعليه الشافعيُّ وأصحابُه

---

(١) أورد الثعلبي في «تفسيره» (١/ ٩٠) الأقوال الثلاثة، وذكر أن أكثر العلماء على أنها مكية.

(٢) هو ما رواه مسلم (٣٩٤) عن سيدنا عبادة بن الصامت رضي الله عنه مرفوعاً: «لا صلاةَ لمن لم يقرأ بأم القرآن».

(٣) حكايةً عن الله عزَّ وجلَّ.

(٤) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤/ ٣٩) عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

(٥) رواه الدارمي في «سننه» (٣٤١٣).

(٦) **تثنى**: تُكَرَّرُ.

(٧) هو حديث مسلم (٣٩٥): «قال الله تعالى: قسمت الصلاةَ بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل...»، والمراد بالصلاة: الفاتحة، وسميت بذلك؛ لأنها تُقرأ دائماً في سائر الصلوات. انظر «شرح أبي داود للعيني» (٣/ ٤٩٠).

(٨) واجبة عند الحنفية، وفريضة عند غيرهم.

(٩) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١/ ١٢٨).

(١٠) انظر «الدر المختار» (١/ ٤٩٠).

رحمهم الله؛ ولذا يجهرون بها[١]، وقالوا: قد أثبتها السلفُ في المصحف مع الأمر بتجريد القرآن[٢]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: من تركها.. فقد ترك مئةً وأربعَ عشرةَ آيةً من كتاب الله[٣].

ولنا: حديثُ أبي هريرة قال: سمعت النبي عليه السلام يقول: «قال الله تعالى: قَسمت الصلاةَ - أي: الفاتحةَ - بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ قال: حمِدني عبدي، وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾ قال الله تعالى: أثنى عليَّ عبدي، وإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ قال: مَجَّدَني عبدي[٤]، وإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ قال: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل»[٥]؛ فالابتداءُ بقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ دليلٌ على أن التسميةَ ليست من الفاتحة، وإذا لم تكن من الفاتحة.. لا تكونُ من غيرها إجماعاً، والحديثُ مذكورٌ في صِحاح «المصابيح»[٦].

وما ذكروا.. لا يضرُّنا[٧]؛ لأن التسمية آيةٌ من القرآن أُنزلت للفصل بين السورِ عندنا، ذكره فخرُ الإسلام في «المبسوط»[٨]، وإنما يرد علينا أنْ لو لم نجعلْها آيةً من القرآن، وتمامُ تقريرِه في «الكافي»[٩].

وتعلقت الباءُ بمحذوفٍ تقديرُه: باسم الله أقرأ، أو أتلو؛ لأن الذي يتلو التسميةَ مقروءٌ، كما أن المسافر إذا حلَّ وارتحلَ فقال: باسم الله والبركاتِ.. كان المعنى: باسم الله أَحُلُّ، وباسم الله

---

(١) انظر «المجموع» (٣/ ٢٨٩).

(٢) أي: بتجريده عمّا ليس منه.

(٣) روى نحوه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤/ ٢٤).

(٤) **مجدني**: عَظَّمني.

(٥) رواه مسلم (٣٩٥).

(٦) «مصابيح السنة» (١/ ٣١٩).

(٧) أي: قول الشافعية: قد أثبتها السلفُ في المصحف مع الأمر بتجريد القرآن عما ليس منه.

(٨) «المبسوط» (١/ ١٦).

(٩) هو كتاب «الكافي شرح الوافي» في الفقه الحنفي، وكلاهما للإمام النسفي، ولم يطبع بعدُ فيما أعلم.

أرتحلُ، وكذا الذابحُ، وكلُّ فاعل يَبدأُ في فعله باسم الله.. كان مُضمِراً ما جَعل التسميةَ مَبدأً له، وإنما قُدِّرَ المحذوفُ متأخِّراً؛ لأن الأهمَّ من الفعلِ والمتعلَّقِ به هو المتعلِّقُ به(١)، وكانوا يَبدؤون بأسماء آلهتهم فيقولون: باسم اللّاتِ، وباسم العُزَّى، فوجب أن يقصِدَ الموَحِّدُ معنى اختصاصِ اسمِ اللهِ عزَّ وجلَّ بالابتداء، وذا بتقديمِه وتأخيرِ الفعل.

وإنما قُدِّمَ الفعلُ في ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١]؛ لأنها أولُ سورة نزلت في قول(٢)، وكان الأمر بالقراءة أهمَّ، فكان تقديمُ الفعلِ أَوْقَعَ، ويجوز أن يُحمل (اقرأ) على معنى: افعل القراءةَ وحَقِّقْها، كقولهم: فلانٌ يُعطي ويَمنع، غيرَ متعدٍّ إلى مَقروء به، وأن يكون (باسم ربك) مفعولَ (اقرأ) الذي بعدَه.

واسمُ اللهِ يتعلق بالقراءة تَعَلُّقَ الدُّهنِ بالإنبات في قوله: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠](٣)، على معنى: مُتبركاً باسم الله أَقرأُ(٤)، وفيه تعليمُ عبادِه كيف يتبركون باسمه، وكيف يعظمونه.

وبُنِيَتِ الباءُ على الكسر؛ لأنها تُلازم الحرفيةَ والجرَّ، فكُسرت لِتُشابِهَ حركتُها عملَها، والاسمُ: من الأسماء التي بَنَوا أوائلَها على السكون، كالابنِ والابنةِ وغيرِهما؛ فإذا نطقُوا بها مبتدئين.. زادُوا همزةً تَفادِياً عن الابتداء بالساكن، وإذا وقعت في الدَّرْجِ.. لم يَفتقر إلى زيادة شيء.

ومنهم مَن لم يَزِدْها، واستغنى عنها بتحريك الساكن فقال: سِمٌ وسُمٌ، وهو من الأسماء المحذوفةِ الأعجازِ كَيَدٍ ودمٍ، وأصلُه: سِمْوٌ(٥)؛ بدليل تصريفِه كأسماء، وسُمَيّ وسَمَّيْتُ.

واشتقاقُه من السُّمُوِّ، وهو الرفعةُ؛ لأن التسمية تَنويهٌ بالمسمى وإشادةٌ بذكره، وحذفت

---

(١) ضبط في الأصل بكسر اللام في الأول وفتحها في الثاني، والصواب ما أثبته؛ لأن المتعلِّقُ هو (باسم الله) وهو الأهم فلذا قدم.

(٢) قال الإمام النووي في «شرح مسلم»: (٢/ ١٩٩): وهذا هو الصواب الذي عليه الجماهير من السلف والخلف.

(٣) أي: أن الباء متعلقة بحالٍ محذوف، والتقدير: تنبت متلبسةً بالدهن.

(٤) تقدم أن الباء متعلقة بالفعل المحذوف: أقرأ، وهنا يعلقها بحال محذوف وهو: متبركاً، ويمكن الجمع بين الموضعين بأن متبركاً هو العامل المباشر، وأقرأ هو العامل بالواسطة، أي: أنه العامل في الحال العاملة في الباء. انظر «فتوح الغيب» (١/ ٦٨٩)، ففيه إشارة لطيفة إلى هذه النكتة.

(٥) في السين قولان: الكسر والضم.

الألفُ في الخطِّ هنا وأُثبتت في قوله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١]؛ لأنه اجتمع فيها[١]؛ مع أنها تسقطُ في اللفظ.. كثرةُ الاستعمالِ، وطُوِّلَتِ الباءُ عوضاً من حذفها، وقال عمر بن عبد العزيز لكاتبه: طَوِّلِ الباءَ وأظهرِ السيناتِ ودَوِّرِ الميمَ. و(الله) أصله: الإلهُ، ونظيرُه: الناس، أصله: الأُناس، حُذفت الهمزةُ وعُوِّضَ منها حرفُ التعريفِ.

والإلهُ: من أسماء الأجناس، يقعُ على كلِّ معبودٍ بحق أو باطل، ثمَّ غلبَ على المعبودِ بالحقِّ، كما أن النجمَ: اسمٌ لكل كوكبٍ ثم غلبَ على الثُّريا.

وأما (الله) بحذف الهمزة.. فمختصٌّ بالمعبود بالحق، لم يُطلق على غيره، وهو اسمٌ غيرُ صفةٍ؛ لأنك تَصفُه ولا تصفُ به، لا تقولُ: شيءٌ إلهٌ، كما لا تقولُ: شيءٌ رجلٌ، وتقول: إلهٌ واحدٌ صمدٌ؛ ولأن صفاتِه تعالى لا بدَّ لها من موصوف تجري عليه، فلو جعلتَها كلَّها صفاتٍ.. لبقيت غيرَ جاريةٍ على اسمٍ موصوفٍ بها، وذا لا يجوزُ.

ولا اشتقاقَ لهذا الاسمِ عندَ الخليلِ والزجاجِ ومحمدِ بنِ الحسنِ والحسينِ بن الفضل[٢]، وقيل: معنى الاشتقاقِ: أن يَنْتَظِمَ الصيغتين فصاعداً معنىً واحدٌ، وصيغةُ هذا الاسمِ وصيغةُ قولِهم: أَلِهَ: إذا تَحيَّرَ.. ينتظمهما معنَى التحيُّرِ والدهشةِ، وذلك أن الأوهامَ تتحيَّرُ في معرفة المعبودِ، وتُدْهَشُ الفِطَنُ؛ ولذا كثرَ الضلالُ وفشا الباطلُ وقلَّ النظرُ الصحيحُ، وقيل: هو من قولهم: أَلَه يَأْلَهُ ألهاً[٣]: إذا عَبَدَ، فهو مصدرٌ بمعنى مَألوهٍ؛ أي: معبودٍ، كقوله: ﴿هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ﴾ [لقمان: ١١]؛ أي: مَخلوقُه.

وتُفَخَّمُ لامُه إذا كان قبلها فتحةٌ أو ضمةٌ، وتُرَقَّقُ إذا كان قبلَها كسرةٌ، ومنهم من يُرَقِّقُها بكلِّ حالٍ، ومنهم من يُفَخِّمُ بكلِّ حالٍ، والجمهورُ على الأول[٤].

و(الرحمنُ): (فعلان) مِن: رَحِمَ، وهو الذي وسعت رحمتُه كلَّ شيءٍ، كغَضبانَ مِن: غَضِبَ، وهو الممتلئُ غضباً، وكذا (الرحيم): (فَعِيْلٌ) منه، كمَرِيض مِن: مَرِضَ.

---

(١) أي: في التسميةِ.

(٢) انظر «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص ٢٥)، و«التفسير البسيط» للواحدي (١/٤٤٨).

(٣) في «القاموس المحيط»: أَلَهَ إلاهَةً وأُلُوهَةً وأُلُوهِيَّةً.

(٤) في «النشر في القراءات العشر» (٢/١١٥): أجمع القراء وأئمة أهل الأداء على تغليظ اللام من اسم الله تعالى إذا كان بعد فتحة، أو ضمة سواء كان في حالة الوصل، أو مبدوءاً به، فإن كان قبلها كسرة.. فلا خلاف في ترقيقها؛ سواء كانت الكسرة لازمة، أو عارضة زائدة، أو أصلية.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ....

وفي (الرحمن) من المبالغة ما ليس في (الرحيم) لأن في (الرحيم) زيادةً واحدةً، وفي (الرحمن) زيادتين، وزيادةُ اللفظِ تدلُّ على زيادة المعنى[١]؛ ولذا جاء في الدعاء: يا رحمن الدنيا؛ لأنه يَعُمُّ المؤمنَ والكافرَ، ورحيمَ الآخرةِ؛ لأنه يخصُّ المؤمنَ.

وقالُوا: (الرحمن) خاصٌّ تسميةً؛ لأنه لا يوصفُ به غيرُه، عامٌّ معنىً؛ لما بَيَّنّا[٢]، و(الرحيم) بِعَكسه؛ لأنه يوصفُ به غيرُه ويَخُصُّ المؤمنين؛ ولذا قُدِّمَ (الرحمنُ) وإن كان أبلغَ والقياسُ الترقي من الأدنى إلى الأعلى، يقال: فلانٌ عالمٌ نِحْريرٌ؛ لأنه كالعَلَمِ لمّا لم يُوصَفْ به غيرُ اللهِ، ورحمةُ الله: إنعامُه على عباده، وأصلُها: العطفُ، وأما قولُ الشاعرِ في مُسيلِمَةَ[٣]:

[من: البسيط]

.... وأنتَ غيثُ الورى لا زِلْتَ رحمانَا

فَبابٌ مِن تَعَنُّتِهِم في كفرهم.

ورحمن: غيرُ منصرف عندَ من زعمَ أن الشرطَ انتفاءُ (فَعْلانةٍ)؛ إذ ليس له (فَعْلانةٌ)، ومَن زعمَ أن الشرطَ وجودُ (فَعْلَى) صَرَفَهُ؛ إذ ليس له (فَعْلَى)، والأولُ: الوجهُ[٤].

«١» ﴿ٱلْحَمْدُ﴾: الوصفُ بالجميل على التفضيل[٥]، وهو رفعٌ بالابتداء، وأصلُه النصبُ، وقد قرئ به[٦]؛ بإضمار فعلِه على أنه من المصادر المنصوبة بأفعال مضمرة في معنى الإخبار، كقولهم: شكراً وكفراً، والعدولُ عن النصب إلى الرفع للدلالة على ثبات المعنى واستقرارِه، والخبرُ: ﴿لِلَّهِ﴾، واللامُ متعلقٌ بمحذوفٍ؛ أي: واجبٌ أو ثابتٌ.

---

(١) هذا في الغالب، وقد تنقص الحروف فيزيد المعنى نحو: حَذِرٍ، فهو دالٌّ على شدة الحذر؛ لأنه صيغة مبالغة، فمعناه زائد على: حاذِرٍ.

(٢) أي: لأنه يَعُمُّ المؤمنَ والكافرَ.

(٣) صدر البيت:

سموتَ في المجد يا ابن الأكرمين أباً

انظر «فتوح الغيب» (١/ ٧١١).

(٤) الوصفُ على وزن (فَعلان) المزيد فيه ألف ونون: إن كان مؤنثه (فَعلى) فهو غير منصرف، نحو: سكران، سَكرى، وإن كان مؤنثه (فَعلانة) فهو منصرف، نحو: ندمان، ندمانة، وإن لم يكن له مؤنث.. ففيه خلاف، والصحيح منعُ صرفه، نحو: رحمن. انظر «توضيح المقاصد» للمرادي (٣/ ١١٩١).

(٥) أي: على جهة التفضيل.

(٦) انظر «المحرر الوجيز» (١/ ٦٦)، والتقدير: نحمد الحمد.

﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١﴾ ....

وقيل: الحمد والمدح أخوان، وهو: الثناءُ والنداءُ على الجميل من نعمةٍ وغيرِها، تقول: حمِدت الرجلَ على إنعامه، وحمِدتُه على شجاعته وحَسَبِهِ، وأما الشكرُ.. فعلى النعمة خاصةً، وهو بالقلب واللسان والجوارح، قال[١]: [من: الطويل]

أفادتكمُ النَّعماءُ مِنّي ثلاثةً ... يدي ولساني والضميرَ المُحَجَّبا

والحمدُ باللسان وحدَه، وهو إحدى شُعَبِ الشكرِ، ومنه الحديثُ: «الحمدُ رأسُ الشكرِ، ما شكرَ اللهَ عبدٌ لم يَحْمَدْهُ»[٢]، وجَعَلَه رأسَ الشكرِ؛ لأن ذكرَ النعمةِ باللسان أَشْيَعُ لها من الاعتقادِ وآدابِ الجوارحِ؛ لخفاءِ عملِ القلبِ، وما في عملِ الجوارحِ من الاحتمال.

ونقيضُ الحمدِ: الذمُّ، ونقيضُ الشكرِ: الكُفرانُ.

وقيل: المدحُ: ثناءٌ على ما هو له من أوصاف الكمال، ككونِه باقياً قادراً عالماً أبديّاً أزليّاً، والشكرُ: ثناءٌ على ما هو منه من أوصاف الإفْضالِ، والحمدُ يَشْمَلُهُما، والألف واللام فيه: للاستغراق عندنا، خلافاً للمعتزلة، ولذا قُرِنَ باسم الله؛ لأنه اسمُ ذاتٍ فيستجمعُ صفاتِ الكمالِ، وهو بناءٌ على مسألة خلق الأفعال، وقد حققته في مواضع[٣].

﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١﴾ الربُّ: المالك، ومنه قولُ صفوانَ لأبي سفيانَ: لَأَنْ يَرُبَّنِيْ رجلٌ من قريشٍ أحبُّ إلي من أَنْ يَرُبَّنِي رجلٌ من هَوازِنَ[٤]. تقول: رَبَّهُ يَرُبُّهُ رَبًّا فهو رَبٌّ، ويجوزُ أن يكون وصفاً بالمصدر؛ للمبالغةِ كما وصفَ بالعدل.

ولم يطلقوا الربَّ إلّا في الله وحدَه، وهو في العبيد مع التقييد، ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ﴾ [يوسف: ٢٣]، ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٥٠]، وقال الواسطي: هو الخالقُ ابتداءً، والمربي غِذاءً، والغافرُ انتهاءً. وهو اسمُ اللهِ الأعظمُ، والعالَمُ: كلُّ ما عُلِمَ به الخالقُ من الأجسام والجواهر والأعراض، أو كلُّ موجودٍ سوى الله تعالى؛ سُمِّيَ به؛ لأنه عَلَمٌ على وجوده.

---

(١) أورده الزمخشري في «ربيع الأبرار» (٥/ ٢٧٧)، والضميرُ المحجبُ: القلبُ.

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٦/ ٢٣٠) عن سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٣) عندنا: أفعالُ العباد بخلق الله، فجميع المحامد راجعة إليه، فصح الاستغراق، وعند المعتزلة: أفعالُ العباد يخلقها العباد، فمحامدهم راجعة إليهم. انظر «الإكليل» (١/ ٣٤).

(٤) يربني: يكون سيداً عَلَيَّ، وقالةُ صفوانَ هذه ردٌّ على أخيه لِأُمِّهِ كَلَدَةَ بنِ الحنبل؛ لِفرحِه بانتصار هوازنَ على المسلمين في غزوة حنين. انظر «شرح مشكل الآثار» (٦/ ٤١٢)، وكلاهما أسلما بعد ذلك رضي الله عنهما.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٣﴾ ....

وإنما جُمِعَ بالواو والنون مع أنه مختصٌّ بصفات العقلاء أو ما في حكمِها من الأعلام؛ لما فيه من معنى الوصفيةِ وهي الدلالةُ على معنى العِلم.

《٢》 ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢﴾: ذِكرُهما قدْ مَرَّ، وفيه دليلٌ على أن التسميةَ ليست من الفاتحة؛ إذ لو كانت منها.. لما أعادَهما؛ لِخُلُوِّ الإعادةِ عن الإفادةِ[١].

《٣》 ﴿مَٰلِكِ﴾: عاصمٌ وعليٌّ، ﴿مَلِكِ﴾: غيرُهما[٢]، وهو الاختيار عند البعض؛ لاستغنائه عن الإضافة؛ ولقولِه: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ [غافر: ١٦][٣]؛ ولأن كلَّ مَلِكٍ مالكٌ، وليس كلُّ مالكٍ مَلِكاً؛ ولأن أمرَ الملكِ يَنْفُذُ على المالكِ دونَ عَكْسِهِ، وقيل: (المالك) أكثرُ ثواباً؛ لأنه أكثرُ حروفاً، وقرأ أبو حنيفةَ والحسنُ رضي الله عنهما: ﴿مَلَكَ يوم﴾[٤].

﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٣﴾؛ أي: يومِ الجزاء، ويقال: «كما تَدِيْنُ تُدانُ»[٥]. أي: كما تَفْعَلُ تُجازَى، وهذه إضافة اسم الفاعل إلى الظرف على طريق الاتساع[٦]، كقولهم[٧]: [من: الرجز]

يـا سـارقَ الـلـيـلـةِ أهـلَ الـدارِ

أي: مالكِ الأمرِ كلِّه في يوم الدين، والتخصيصُ بيوم الدين لأن الأمر فيه لله وحده، وإنما ساغ وقوعُه صفةً للمعرفة مع أن إضافةَ اسمِ الفاعلِ إضافةٌ غيرُ حقيقيةٍ[٨]؛ لأنه أُرِيدَ به الاستمرارُ، فكانت الإضافةُ حقيقيةً[٩]، فساغَ أن يكون صفةً للمعرفةِ.

وهذه الأوصافُ التي أُجريت على اسم اللهِ سبحانه وتعالى مِن كونِه ربّاً؛ أي: مالكاً للعالمين، ومُنعِماً بالنعم كلِّها، ومالكاً للأمر كلِّه يومَ الثواب والعقاب بعدَ الدلالةِ على اختصاصِ

---

(١) وبناء على أن البسملة آية من الفاتحة.. فالحكمةُ من التكرار الإعلامُ بأن العناية بالرحمة أكثر منها بسائر الأمور. انظر «تفسير الرازي» (١/ ٢٠٨).

(٢) انظر «النشر في القراءات العشر» (١/ ٢٧١).

(٣) لأن المرادَ باليوم: يومُ الدين، وقد ذكر فيه المُلْكُ، والمَلِكُ يُؤخذُ منه. انظر «نواهد الأبكار» (١/ ١٨٨).

(٤) انظر «تفسير الثعلبي» (١/ ١١٤).

(٥) هذا جزء من حديث رواه البيهقي في «الأسماء والصفات» (١/ ١٩٧) مرسلاً.

(٦) أي: جعل الظرف بمنزلة المفعول به. انظر «فتوح الغيب» (١/ ٧٣٥).

(٧) هذا من شواهد «الكتاب» لسيبويه (١/ ١٧٧).

(٨) هذا إن كان زمنه الحال أو الاستقبال.

(٩) لأن الاستمرار يتناول الزمن الماضي وغيره، لذا كانت الإضافة حقيقية تفيد التعريف.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٤﴾ ....

الحمدِ به في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ دليلٌ على أن مَن كانت هذه صفاتِه.. لم يكن أحدٌ أحقَّ منه بالحمدِ والثناءِ عليه.

《٤》 ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٤﴾ إيّا: عند الخليل وسيبويه: اسمٌ مضمرٌ، والكافُ: حرفُ خطابٍ عند سيبويه، ولا محلَّ له من الإعراب، وعند الخليل: هو اسمٌ مضمرٌ أُضِيفَ إيّا إليه؛ لأنه يشبهُ المُظهرَ؛ لِتقدُّمِه على الفعل والفاعل[(١)]، وقال الكوفيون: (إياك) بكمالِها اسمٌ[(٢)].

وتقديمُ المفعول لقصدِ الاختصاصِ، والمعنى: نَخُصُّكَ بالعبادة، وهي أقصى غايةِ الخضوعِ والتذللِ، ونَخُصُّكَ بطلب المعونةِ.

وعدلَ عن الغيبة إلى الخطاب للالتفات، وهو قد يكون من الغَيبةِ إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغَيبةِ، ومن الغيبةِ إلى التكلُّم، كقولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس: ٢٢][(٣)]، وقولِه: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ﴾ [فاطر: ٩][(٤)]، وقول امرئِ القيس[(٥)]: [من: المتقارب]

تطاولَ ليلُكَ بالأثْمُدِ ... ونامَ الخَلِيُّ ولم تَرْقُدِ

وباتَ وباتَتْ له ليلةٌ ... كَلَيْلَةِ ذي العائرِ الأَرْمَدِ

وذلك من نبإٍ جاءني ... وخُبِّرْتُهُ عن أبي الأسودِ

فالتفتَ في الأبيات الثلاثةِ حيثُ لم يقل: لَيلِي، وبِتُّ، وجاءك، والعربُ يستكثرون منه، ويَرونَ الكلامَ إذا انْتَقَلَ مِن أُسلوبٍ إلى أسلوبٍ أدخلَ في القلوبِ عندَ السامع وأحسنَ تَطْرِيَةً لنشاطه[(٦)]، وأملأَ باستلذاذِ إصغائِه، وقد تَخْتَصُّ مواقعُه بفوائدَ ولطائفَ قَلَّما تَتَضِحُ إلا للحُذّاقِ المَهَرَةِ، والعلماءِ النَّحارِيْرِ، وقليلٌ ما هُم.

ومما اختَصَّ به هذا الموضعُ أنه لمّا ذكرَ الحقيقَ بالحمدِ والثناءِ، وأَجْرى عليه تلك الصفاتِ

---

(١) أي: أن إيّا: يشبه الاسمَ الظاهرَ؛ فلذا أُضيف إلى ما بعده.

(٢) انظر «الكتاب» لسيبويه (١/ ٢٧٩) و«الإنصاف في مسائل الخلاف» (٢/ ٦٩٥).

(٣) ولو لم يلتفت.. لقيل: بِكُم.

(٤) ولو لم يلتفت.. لقيل: فساقه.

(٥) «ديوان امرئ القيس» (ص٥٣)، **والأثْمُدُ**: اسم موضع، **والخليُّ**: الخالي من الهموم، **والعائرُ**: المصابُ بالرَّمَد.

(٦) **تطرية**: تجديداً.

﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٥﴾ ....

العظامَ. تعلقَ العلمُ بمعلوم عظيمِ الشأنِ، حَقيقٍ بالثناءِ وغايةِ الخضوعِ والاستعانةِ في المُهِمّاتِ، فخُوطِبَ ذلك المعلومُ المتميِّزُ بتلك الصفاتِ فقيل: إياك يا مَنْ هذه صفاتُه نعبدُ ونستعينُ، لا غيرَك[١].

وقُدِّمت العبادةُ على الاستعانة؛ لأن تقديمَ الوسيلةِ قبلَ طلبِ الحاجةِ أقربُ إلى الإجابة؛ أو لنظمِ الآيِ، كما قُدِّمَ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ وإن كان الأبلغُ لا يُقدمُ[٢].

وأُطلقت الاستعانةُ؛ لتتناولَ كلَّ مُستعانٍ فيه، ويجوزُ أن يُرادَ الاستعانةُ به وبتوفيقه على أداء العبادةِ، ويكونُ قولُه: ﴿ٱهۡدِنَا﴾ بياناً للمطلوب من المعونة، كأنه قيل: كيف أُعينُكم؟ فقالوا:

﴿٥﴾ ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٥﴾ أي: ثَبِّتنا على المنهاج الواضحِ، كقولك للقائم: قمْ حتى أعودَ إليك؛ أي: اثْبُتْ على ما أنت عليه، أو: اهدِنا في الاستقبال كما هديتنا في الحال.

وهدى: يتعدى إلى مفعول بنفسه، فأما تعديتُه إلى مفعول آخر. فقد جاءَ متعدياً إليه بنفسه كهذه الآية، وقد جاء متعدياً باللّامِ، وبـ: إلى، كقوله تعالى: ﴿هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: ٤٣]، وقولِه: ﴿هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الأنعام: ١٦١].

و(السراط): الجادَّة، مِن: سَرَطَ الشيءَ؛ إذا ابتَلَعه؛ لأنه يَسْرُطُ السّابلةَ إذا سَلَكُوه[٣]، و(الصراط): مِن قَلْبِ السينِ صاداً؛ لِتُجانِسَ الطاءَ في الإطباقِ؛ لأن الصادَ والضادَ والطاءَ والظاءَ حروفُ الإطباقِ، وقد تُشَمُّ الصادُ صوتَ الزاي؛ لأن الزاي إلى الطاء أقربُ؛ لأنهما مَجْهورتان، وهي قراءة حمزة، والسينُ: قراءةُ ابنِ كثيرٍ في كل القرآن، وهي الأصل في الكلمة، والباقون: بالصادِ الخالصةِ[٤]، وهي لغةُ قريشٍ، وهي الثابتةُ في الإمامِ[٥]، ويُذكَّرُ ويؤنثُ كالطريق والسبيلِ، والمرادُ به: طريقُ الحقِّ وهو مِلَّةُ الإسلام.

---

(١) وأيضاً للترقي من البرهان إلى العِيان، والانتقالِ من الغَيبة إلى الشهود، فكأن المعلوم صار عِياناً، والمعقولَ مشاهداً، والغَيبةَ حضوراً، بَنَى أولَ الكلام على ما هو مبادي حال العارف من الذكر والفكر والتأمل في أسمائه، والنظر في آلائه، والاستدلال بصنائعه على عظيم شأنه وباهر سلطانه، ثم قَفَّى بما هو منتهى أمره، وهو أن يخوض لُجَّةَ الوصول، ويصيرَ من أهل المشاهدة فيراه عِياناً، ويُناجيه شِفاهاً. انظر «تفسير البيضاوي» (١/ ٢٩).

(٢) ولأن العبادة من حقوق الله تعالى، والاستعانة من حقوق المستعين. انظر «تفسير أبي السعود» (١/ ١٧).

(٣) **السّابلة**: الذين يسيرون في الطريق.

(٤) (الصراط) (صراط): قرأ قنبل ورويس: بالسين فيهما حيث وقعا، وقرأ خلف عن حمزة بالصاد مشمة صوت الزاي حيث وقعا كذلك، وقرأ خلاد مثل خلف في (الصراط) في هذه السورة، والباقون: بالصاد الخالصة في جميع القرآن. انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٥).

(٥) هو المصحف الذي أمر سيدُنا عثمان رضي الله عنه بجمعه وكتابته، وأجمع الصحابة عليه رضي الله عنهم.

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ۝٦ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝٧﴾

《٦》 ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ۝٦﴾: بدلٌ من ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، وهو في حكم تكريرِ العامل، وفائدتُه: التوكيدُ والإشعارُ بأن الصراط المستقيمَ تفسيرُه: صراطُ المسلمين؛ ليكون ذلك شهادةً لصراطِ المسلمين بالاستقامة على أبلغِ وجهٍ وآكَدِه، وهم المؤمنون، أو: الأنبياءُ عليهم السلام، أو: قومُ موسى قبل أن يُغَيِّروا.

《٧》 ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝٧﴾: بدلٌ من ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: أن المُنْعَمَ عليهم هم الذين سَلِمُوا من غضبِ اللهِ والضلالِ، أو: صفةٌ لـ﴿الَّذِينَ﴾ يعني: أنهم جمعوا بين النِّعمةِ المطلَقةِ وهي نعمةُ الإيمانِ، وبين السلامةِ من غضبِ اللهِ والضلال، وإنما ساغَ وقوعُه صفةً لـ ﴿الَّذِينَ﴾ وهو معرفةٌ، و(غير): لا يتعرفُ بالإضافةِ؛ لأنه إذا وقعَ غَيْرٌ بينَ متضادَّين وكانا معرفتين.. تَعرَّفَ بالإضافةِ، نحو: عجبتُ من الحركةِ غيرِ السكونِ، والمنعَمُ عليهم، والمغضوبُ عليهم مُتضادانِ، ولأن ﴿الَّذِينَ﴾ قريبٌ من النكرة؛ لأنه لم يُرَدْ به قومٌ بأعيانهم، و(غير المغضوب عليهم) قريبٌ من المعرفة؛ للتخصيصِ الحاصلِ له بالإضافةِ، فكلُّ واحدٍ منهما فيه إبهامٌ من وجهٍ واختصاصٌ من وجهٍ فاستويا، و(عليهم) الأولى: محلُّها: النصبُ على المفعوليةِ، ومحلُّ الثانيةِ: الرفعُ على الفاعليةِ[1]، وغضبُ اللهِ: إرادةُ الانتقام من المكذِّبين، وإنزالُ العقوبةِ بهم، وأن يفعلَ بهم ما يفعلُه الملكُ إذا غضبَ على مَن تحتَ يدِهِ، وقيل: المغضوبُ عليهم: هم اليهودُ؛ لقوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٦٠]، والضالون: هم النصارى؛ لقوله: ﴿قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ﴾ [المائدة: ٧٧]، و(لا): زائدةٌ عند البصريين للتوكيد، وعند الكوفيين هي بمعنى: غَيْرٍ.

آمين: صوتٌ سُمِّيَ به الفعلُ الذي هو: استجب، كما أنَّ رُويد: اسمٌ لـ: أمهل، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: سألت رسول الله ﷺ عن مَعْنَى: آمين فقال: «افعل»[2]، وهو مبنيٌّ، وفيه لغتان: مدُّ ألفِه، وقصرُها وهو الأصل، والمدُّ بإشباع الهمزة، قال[3]: [من: البسيط]

يـا ربِّ لا تَسْلُبَنِّي حُبَّها أبداً ... ويرحمُ اللهُ عبداً قال آمينا

---

(١) أي: في محل رفعِ نائبُ فاعلٍ لقوله: (المغضوبِ)، والنسفيُّ رحمه الله يسمي نائب الفاعل فاعلاً، تبعاً للزمخشري.

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١/ ١٢٥).

(٣) البيت لقيس بن الملوح، وهو في «ديوانه» (ص٣١)

وقال[١]: [من: الطويل]

.... أَمـيـنَ فـزادَ اللهُ مـا بـيـنـنـا بُـعـداً

وقال ﷺ: «لَقَّنَنِي جبريلُ عليه السلام آمينَ عندَ فراغي من قراءة فاتحةِ الكتابِ وقال: إنه كالخَتْمِ على الكتاب»[٢]، وليس من القرآن؛ بدليل أنه لم يثبت في المصاحف.

❁ ❁ ❁

(١) هذا الشطر الثاني، وأوله:

تَـبـاعَـدَ مـنـي فُـطْـحُـلٌ إذْ سَـأَلْـتُـهُ

وهو لجُبَيْرِ بنِ الأَضْبَطِ، انظر «تاج العروس» (٣٠/ ١٨٢).

(٢) في «المصنف» لابن أبي شيبة (٢/ ١٨٧): أن جبرائيل عليه السلام أقرأ النبيَّ ﷺ فاتحةَ الكتاب، فلما قال: ﴿ولا الضالين﴾ قال: «قل: آمين»، فقال: «آمين».

﴿الٓمٓ ۝١﴾ ....

سورة البقرة

«١» ﴿الٓمٓ ۝١﴾ ونظائرُها: أسماءٌ، مُسمياتُها الحروفُ المبسوطةُ التي منها ركِّبت الكلم، فالألفُ: تدل على الأوسطِ من حروفِ: قال، واللامُ: تدل على الحرف الأخير منه، وكذلك ما أشبهها؛ والدليلُ على أنها أسماءٌ: أن كلّاً منها يدل على معنى في نفسه، ويُتَصَرَّفُ فيها بالإمالة والتفخيم، وبالتعريف والتنكير، والجمع والتصغير، وهي مُعْرَبَةٌ، وإنما سُكنت سكونَ زيد وغيره من الأسماء حيث لا يَمَسُّها إعرابٌ؛ لِفَقْدِ مقتضيه[١]، وقيل: إنها مبنيةٌ كالأصوات، نحوُ: غاقِ في حكاية صوت الغراب.

ثم الجمهورُ على أنها أسماءُ السور، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أقسم الله بهذه الحروف[٢]. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: إنها اسم الله الأعظم. وقيل: إنها من المتشابه الذي لا يعلم إلا الله[٣]، وما سميت معجمةً إلا لإعجامها وإبهامها.

وقيل: وُرُودُ هذه الأسماء على نَمَطِ التعديد كالإيقاظ لمن تُحُدِّيَ بالقرآن، وكالتحريك للنظر في أن هذا المتلوَّ عليهم وقد عجزوا عنه عن آخرهم. . كلامٌ منظومٌ من عينِ ما ينظِمون منه كلامَهم؛ ليؤديَهم النظر إلى أن يستيقنوا أنْ لم تتساقط مَقدِرتُهم دونه، ولم يظهر عجزهم عن أن يأتوا بمثله بعد المراجعات المتطاولةِ وهم أمراءُ الكلام إلا لأنه ليس من كلام البشر، وأنه كلام خالقِ القُوى والقُدَر، وهذا القول من الخَلاقةِ بالقبولِ بمَنْزِلٍ، وقيل: إنما وردت السورُ مصدرةً بذلك؛ ليكون أولُ ما يَقرعُ الأسماعَ مستقِلاً بوجه من الإغراب، وتَقدمةً من دلائل الإعجاز، وذلك أن النطق بالحروف أنفسِها كانت العرب فيه مستويةَ الأقدام؛ الأُمِّيون منهم وأهلُ الكتاب، بخلاف النطق بأسامي الحروف؛ فإنه مختص بمن خطَّ وقرأ وخالط أهل الكتاب وتعلَّمَ منهم، وكان مستبْعَداً من الأمي التكلمُ بها استبعادَ الخطِّ والتلاوة؛ فكان حكمُ النطق بذلك مع اشتهارِ أنه ﷺ لم يكن ممن اقتبس شيئاً من أهله حكمَ الأقاصيص المذكورة في القرآن التي لم تكن قريش ومن يُضاهيهم في شيء من الإحاطة بها؛ في أن ذلك حاصلٌ له من جهة الوحي، وشاهدٌ لصحة نبوته.

---

(١) المراد بمقتضي الإعراب هنا: السبب الموجِب لتغير آخر الاسم، وهو دخول العوامل، فالألف من (الم) لم يدخل عليها عامل؛ لذلك سكنت.

(٢) رواه الطبري في «التفسير» (١/ ٢٠٧).

(٣) ذكر الصاوي في «حاشيته على تفسير الجلالين» (١/ ٦) أن هذا أرجح الأقوال.

....

واعلم: أن المذكور في الفواتح نصفُ أسامي حروفِ المعجم، وهي الألف واللام والميم والصاد والراء والكاف والهاء والياء والعين والطاء والسين والحاء والقاف والنون، في تسعٍ وعشرين سورةً على عدد حروف المعجم.

وهي مشتملة على أنصاف أجناس الحروف:

فمن المهموسة نصفُها: الصاد والكاف والهاء والسين والحاء.

ومن المجهورة نصفُها: الألف واللام والميم والراء والعين والطاء والقاف والياء والنون.

ومن الشديدة نصفُها: الألف والكاف والطاء والقاف.

ومن الرِّخوة نصفُها: اللام والميم والراء والصاد والهاء والعين والسين والحاء والياء والنون.

ومن المُطْبَقَةِ نصفُها: الصاد والطاء.

ومن المنفتحة نصفُها: الألف واللام[1] والميم والراء والكاف والهاء والعين والسين والحاء والقاف والياء والنون.

ومن المسْتَعْلِيَة نصفُها: القاف والصاد والطاء.

ومن المنخفِضة نصفُها: الألف واللام والميم والراء والكاف والهاء والياء والعين والسين والحاء والنون.

ومن حروف القلقلة نصفُها: القاف والطاء.

وغيرُ المذكورة من هذه الأجناس مَكْثُورة[2] بالمذكورة منها، وقد علمت أن معظم الشيء يُنزلُ منزلةَ كلِّه، فكأن الله تعالى عدَّدَ على العرب الألفاظَ التي منها تراكيبُ كلامهم؛ إشارةً إلى ما مرَّ من التبكيت لهم، وإلزام الحجة إياهم، وإنما جاءت مفرقةً على السور؛ لأن إعادة التنبيه على أنَّ المتحدَّى به مؤلَّفٌ منها لا غيرُ.. أَوْصَلُ إلى الغرض، وكذا كلُّ تكرير وردَ في القرآن؛ فالمطلوب منه تمكينُ المكرَّرِ في النفوس وتقريرُه.

---

(١) لم يرد في الأصل قوله: (واللام)، ولكنها استدركت على الهامش في (ب)، وذِكرُها هو الصواب، وقد وردت في «الكشاف» (١/ ٧١).

(٢) **مكثورة**: مغلوبةٌ بالكثرة، فالمذكورة غالبة على غير المذكورة. انظر «فتح الغيوب» (٢/ ٣٩).

ولم تَجِئْ على وتيرة واحدة، بل اختلفت أعداد حروفها؛ مثل: ﴿صٓ﴾ [ص: ١] و﴿قٓ﴾ [ق: ١] و﴿نٓ﴾ [القلم: ١] و﴿طه﴾ [طه: ١] و﴿طسٓ﴾ [النمل: ١] و﴿يسٓ﴾ [يس: ١] و﴿حمٓ﴾ [غافر: ١] و﴿الٓمٓ﴾ [البقرة: ١] و﴿الٓرٰ﴾ [يونس: ١] و﴿طسٓمٓ﴾ [الشعراء: ١] و﴿الٓمٓصٓ﴾ [الأعراف: ١] و﴿الٓمٓرٰ﴾ [الرعد: ١] و﴿كٓهيعٓصٓ﴾ [مريم: ١] و﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾ [الشورى: ١- ٢]؛ فوردت على حرف وحرفين وثلاثة وأربعة وخمسة؛ كعادة افْتِنانِهم في الكلام، وكما أن أبنية كلماتهم على حرف وحرفين إلى خمسة أحرف فَسُلِكَ في الفواتح هذا المسلكُ.

و﴿الٓمٓ﴾: آيةٌ حيث وقعت، وكذا ﴿الٓمٓصٓ﴾ [الأعراف: ١]: آيةٌ، و﴿الٓمٓرٰ﴾ [الرعد: ١]: لم تُعَدَّ آيةً، وكذا ﴿الٓرٰ﴾ [يونس: ١]: لم تُعَدَّ آيةً في سُوَرِها الخمسِ، و﴿طسٓمٓ﴾ [الشعراء: ١]: آيةٌ في سورتها، و﴿طه﴾ [طه: ١] و﴿يسٓ﴾ [يس: ١]: آيتان، و﴿طسٓ﴾ [النمل: ١]: ليست بآية، و﴿حمٓ﴾ [غافر: ١]: آية في سُوَرِها كلِّها، و﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾ [الشورى: ١- ٢]: آيتان، و﴿كٓهيعٓصٓ﴾ [مريم: ١]: آيةٌ، و﴿صٓ﴾ [ص: ١] و﴿قٓ﴾ [ق: ١] و﴿نٓ﴾ [القلم: ١] ثلاثتُها: لم تُعَدَّ آية، وهذا عند الكوفيين، ومَن عداهم.. لم يعدَّ شيئاً منها آيةً، وهذا علم توقيفي لا مجالَ للقياس فيه كمعرفة السور.

ويوقف على جميعها وقفَ التمام[١] إذا حُملت على معنى مستقل غير محتاج إلى ما بعده، وذلك إذا لم تُجعل أسماءً للسور، ونُعِقَ بها كما يُنْعَقُ بالأصوات[٢]، أو جُعلت وحدَها أخبارَ ابتداءٍ محذوف، كقوله: ﴿الٓمٓ﴾ [آل عمران: ١] أي: هذه الم، ثم ابتدأ فقال: ﴿اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ٢].

ولهذه الفواتح محلٌّ من الإعراب فيمن جعلها أسماءً للسُّور؛ لأنها عنده كسائر الأسماء الأعلام، وهو: الرفعُ على الابتداء، أو: النصبُ، أو: الجرُّ؛ لصحة القسم بها، وكونِها بمنزلة: اللهَ واللهِ على اللغتين[٣]، ومن لم يجعلها أسماءً للسور.. لم يُتصَوَّرْ أن يكون لها محلٌّ في مذهبه؛ كما لا محلَّ للجملة المبتدأة، وللمفردات المعدودة.

---

(١) **وقف التمام**: الوقفُ على كلام تمَّ معناه وليس متعلقاً بما بعده لا لفظاً ولا معنى، وأكثرُ ما يكون هذا الوقف في رؤوس الآي وانتهاءِ القصص. انظر «هداية القاري إلى تجويد كلام الباري» (١/ ٣٧٠).

(٢) **نَعق بغنمه**: صاح بها وزجرها، والمراد هنا: النطق بها.

(٣) **اللغتان**: نصب المقسم به وجرُّه إذا حذف حرف القسم، والأقوى النصبُ. انظر «الكتاب» لسيبويه (٣/ ٤٩٧).

﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ ....

«٢» ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي: ذلك الكتابُ الذي وُعِدَوا به على لسان موسى وعيسى عليهما السلام، أو: (ذلك): إشارةٌ إلى ﴿الٓمٓ﴾، وإنما ذُكِّرَ اسمُ الإشارةِ والمشارُ إليه مؤنث وهو السورة؛ لأن (الكتاب) إن كان خبرَه.. كان (ذلك) في معناه، ومُسمّاه مُسمّاه[١]؛ فجازَ إجراءُ حكمِه عليه في التذكير[٢]، وإن كان صفتَه.. فالإشارةُ به إلى الكتاب صريحاً[٣]؛ لأن اسم الإشارة مشارٌ به إلى الجنس الواقعِ صفةً له؛ تقولُ: هندٌ ذلك الإنسانُ، أو ذلك الشخصُ فعلَ كذا.

ووجهُ تأليفِ (ذلك الكتابُ) مع (الم) إن جُعلت (الم) اسماً للسورة: أن يكون (الم): مبتدأً، و (ذلك): مبتدأً ثانياً، و(الكتابُ): خبرَه، والجملةُ: خبرٌ للمبتدأ الأول، ومعناه: أن ذلك هو الكتابُ الكاملُ، كأنَّ ما عداه من الكتب في مقابلته ناقصٌ؛ كما تقولُ: هو الرجل؛ أي: الكاملُ في الرجولية، الجامعُ لما يكونُ في الرجال من مَرْضِيَّاتِ الخصالِ، وأن يكون (الم): خبرَ مبتدأٍ محذوف؛ أي: هذه الم جملةٌ، و(ذلك الكتاب): جملةٌ أخرى، وإن جُعلت (الم) بمنزلة الصوت.. كان (ذلك): مبتدأً، خبرُه: (الكتابُ) أي: ذلك الكتابُ المنزلُ هو الكتاب الكامل، ﴿لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ﴾: لا شكَّ، وهو مصدرُ: رابني: إذا حَصَّل فيك الرِّيبةَ؛ وحقيقةُ الرِّيبة: قلقُ النفسِ واضطرابُها، ومنه قولُه عليه السلام: «دع ما يَريبك إلى مالا يَريبك؛ فإن الشك رِيبةٌ؛ وإن الصدق طُمأنينةٌ»[٤]؛ أي: فإنَّ كونَ الأمرِ مشكوكاً فيه مما تَقلقُ له النفس ولا تستقرُّ، وكونَه صحيحاً صادقاً مما تطمئنُّ له وتسكنُ، ومنه: رَيبُ الزمان؛ وهو ما يُقلِقُ النفوسَ ويَشْخَصُ بالقلوب من نوائبه[٥].

وإنما نفَى الريبَ على سبيل الاستغراق وقد ارتاب فيه كثيرٌ؛ لأن المنفيَّ كونُه متعلَّقاً للريب ومظِنَّةً له؛ لأنه من وضوح الدلالة له وسطوعِ البرهان بحيث لا ينبغي لمرتاب أن يقع فيه، لا أن أحداً لا يرتابُ.

---

(١) أي: إن أعرب (الكتاب) خبراً لاسم الإشارة.. كان اسم الإشارة (ذلك) بمعنى (الكتاب)، ومسمى (الكتاب) هو مسمى اسمِ الإشارة، فتذكيرُ اسم الإشارة يكون للمطابقة بين المبتدأ والخبر.

(٢) وكقوله تعالى حكاية عن سيدنا إبراهيم: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦] إشارة إلى (الشمس).

(٣) فيكون الكتاب مشاراً إليه؛ فلذا كان اسم الإشارة مذكراً.

(٤) رواه الترمذي (٢٥١٨)، والنسائي في «المجتبى» (٨/ ٣٢٧) عن سيدنا الحسن بن علي رضي الله عنهما.

(٥) أي: يُقلقها، كأنه يرفعها من مكانها؛ لقلقها وانزعاجها. انظر «تاج العروس» (١٨/ ٨).

وإنما لم يقل: لا فيه ريب، كما قال: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ [الصافات: ٤٧] لأن المراد في إيلاء الريب حرفَ النفي: نفيُ الريب عنه، وإثباتُ أنه حق لا باطل، كما يزعم الكفار، ولو أُولِيَ الظرفَ.. لَبَعُدَ عن المراد، وهو أن كتاباً آخر فيه ريبٌ، لا فيه[1]، كما في قولِه تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ [الصافات: ٤٧] ففيه تفضيلُ خمرِ الجنةِ على خمور الدنيا بأنها لا تَغتالُ العقولَ كما تَغتالُها هي[2].

والوقفُ على (فيه) هو المشهور، وعن نافع وعاصم: أنهما وقفا على (لا ريب)[3]، ولا بدَّ للواقف أن ينويَ خبراً، والتقدير: لا ريب فيه، ﴿فِيهِ هُدًى﴾ ﴿فيهِ﴾: بإشباع كل هاءٍ: مكيٌّ[4]، ووافقه حفص في ﴿فِيهِۦ مُهَانًا﴾ [الفرقان: ٦٩][5]، وهو الأصل، كقولك: مررت به، ومن عنده، وفي داره، وكما لا يقال: في دارِهِ، ومن عندِهِ[6].. وجب ألّا يقال: فيه، وقال سيبويه: ما قاله[7] مؤدٍّ إلى الجمع بين ثلاثةِ أحرفٍ سواكنَ: الياءُ قبل الهاء، والهاءُ؛ إذ الهاءُ المتحركةُ في كلامهم بمنزلة الساكنة؛ لأن الهاء خَفِيَّةٌ، والخفيُّ قريب من الساكن، والياءُ بعدها[8]، والهدَى: مصدرٌ على (فُعَل)، كالبُكى، وهو الدلالة الموصِلةُ إلى البُغية[9]؛ بدليل وقوع الضلالة في مقابلته في قوله: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾[10].

---

(١) لأن تقديم (فيه) يفيد الحصر؛ فيكون مفيداً أن نفي الريب عنه مقصور عليه، وأن غيره من الكتب فيه الريب، وهو غير مقصود هنا. انظر «التحرير والتنوير» (١/ ٢٢٤).

(٢) أي: تذهب العقول.

(٣) انظر «الكشاف» (١/ ٧٦)، ونقل الداني هذا الوقف عن نافع في «المكتفى» (ص١٥٨).

(٤) الذي انفرد به ابن كثير عن باقي القراء هو إشباع هاء الضمير التي قبلها ساكن وبعدها متحرك. انظر «البدور الزاهرة» (ص١٦).

(٥) انظر «النشر في القراءات العشر» (١/ ٣٠٥).

(٦) أي: بلا إشباع.

(٧) أي: ما ذهب إليه القارئ ابن كثير من إشباع (فيه).

(٨) توجيه قراءة الإشباع: أن الهاء اسم على حرف واحد خفي ضعيف، فقوَّوْهُ بزيادة واو، فصار فيهو، فهذا هو الأصل، ثم كسرت الهاء لوجود ياء قبلها، فقلبت الواو ياء؛ لئلا يُنتقل من كسر إلى ضم. انظر «الكشف عن وجوه القراءات السبع» (١/ ١٠٧).

(٩) فمعنى هداه: أوصله إلى المطلوب، والقول الآخر أنه: الدلالةُ على ما يوصل إلى البغية وإن لم يقع الوصول؛ بدليل: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧] أثبت الهدى مع عدم الاهتداء، وهذا القول رجحه كثيرون كالرازي وأبي السعود. انظر «تفسير الرازي» (٢/ ٢٦٦)، و«تفسير أبي السعود» (١/ ٢٧)، و«حاشيه الشهاب على تفسير البيضاوي» (١/ ١٩٠).

(١٠) لأن الضلال عدم الوصول إلى المطلوب، فيكون مقابله وهو الهدى معتبراً فيه الوصول إلى المطلوب. انظر «تفسير أبي السعود» (١/ ٢٥)، ولأبي السعود اعتراض طويل على هذا الاستدلال.

وإنما قيل: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ والمتقون مهتدون؛ لأنه كقولك للعزيز المكرَّم: أعزك الله وأكرمك؛ تريد طلبَ الزيادة إلى ما هو ثابت فيه واستدامتَه، كقوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ ولأنه سماهم عند مُشارَفَتِهم لاكْتساءِ لباسِ التقوى متقين[(١)]، كقوله عليه السلام: «من قتل قتيلاً.. فله سَلَبُه»[(٢)]، وكقولِ ابن عباس رضي الله عنهما: إذا أراد أحدكم الحج.. فليعجل؛ فإنه يمرض المريض[(٣)]. فسمَّى المشارفَ للقتل والمرض قتيلاً ومريضاً.

ولم يقل: هدىً للضالين؛ لأنهم فريقان: فريقٌ علمَ بقاءَهم على الضلالة، وفريقٌ علمَ أن مصيرهم إلى الهدى، وهو هدىً لهؤلاء فحسبُ، فلو جيء بالعبارة المفْصِحَةِ عن ذلك.. لقيل: هدى للصائرين إلى الهدى بعد الضلال، فاختُصرَ الكلام بإجرائه على الطريقة التي ذكرنا وقيل: (هدى للمتقين) مع أن فيه تصديراً للسورة التي هي أُولى الزهراوين[(٤)]، وسَنامُ القرآن[(٥)] بذكر أولياء الله.

والمتقي في اللغة: اسم فاعل، من قولهم: وقاه فاتقى، ففاؤها واو، ولامها ياء، فإذا بَنيتَ من ذلك (افْتَعَلَ) قَلَبْتَ الواوَ تاءً وأدْغمتَها في التاء الأخرى فقلتَ: اتقى، والوِقايةُ: فَرْطُ الصيانة.

وفي الشريعة: مَن يقي نفسَه تعاطيَ ما يستحق به العقوبة مِنْ فِعلٍ أو تَركٍ.

ومحلُّ (هدىً): الرفعُ؛ لأنه خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، أو: خبرٌ مع (لا ريب فيه) لـ (ذلك)، أو: النصبُ على الحال من الهاء في (فيه).

والذي هو أرسخُ عِرْقاً في البلاغة أن يقال[(٦)]: إن قوله: (الم): جملةٌ برأسها، أو: طائفةٌ من حروف المعجم مستقلةٌ بنفسها، و(ذلك الكتاب): جملةٌ ثانيةٌ، و(لا ريب فيه): ثالثةٌ، و(هدى للمتقين): رابعةٌ، وقد أُصيب بترتيبها مَفصِلُ البلاغة؛ حيث جيء بها متناسقةً هكذا من

---

(١) وهذا مجاز مرسل علاقتُه اعتبار ما سيكون.

(٢) رواه البخاري (٣١٤٢)، ومسلم (١٧٥١) عن سيدنا أبي قتادة رضي الله عنه.

(٣) رواه ابن ماجه مرفوعاً (٢٨٨٣) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) كما في حديث مسلم (٨٠٤): «اقرؤوا الزهراوين البقرة، وسورة آل عمران»، وسميتا الزهراوين؛ لنورهما وهدايتهما وعظيم أجرهما. انظر «شرح مسلم» للنووي (٦/ ٨٩).

(٥) كما في حديث الترمذي (٢٨٧٨): «وإن سَنام القرآن سورةُ البقرة»، وسَنامُ كلِّ شيءٍ: أعلاه.

(٦) عرقاً: ثباتاً.

﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ ....

غير حرف عطف، وذلك لمجيئها متآخيةً آخذاً بعضُها بِعُنُق بعض؛ فالثانيةُ متحدةٌ بالأولى، معتنقةٌ لها، وهَلُمَّ جرّاً إلى الثالثة والرابعة.

بيان ذلك: أنه نبَّهَ أولاً على أنه الكلام المتحدَّى به، ثم أُشيرَ إليه بأنه الكتاب المنعوت بغاية الكمال، فكانَ تقريراً لجهةِ التحدِّي، ثم نفى عنه أن يتشبثَ به طَرَفٌ من الرَّيب، فكان شهادة وتسجيلاً بكماله؛ لأنه لا كمالَ أكملُ مما للحق واليقين، ولا نقصَ أنقصُ مما للباطل والشبهة، وقيل لعالم: فِيْمَ لَذَّتُكَ؟ قال: في حُجَّةٍ تتبختَرُ اتضاحاً، وفي شبهة تتضاءلُ افتضاحاً، ثم أخبرَ عنه بأنه هدىً للمتقين، فقرَّرَ بذلك كونَه يقيناً لا يحومُ الشكُّ حولَه، وحقّاً لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه، ثم لَمْ تَخْلُ كلُّ واحدة من الأربع بعد أن رُتِّبَتْ هذا الترتيبَ الأنيقَ، ونُظِمَتْ هذا النظمَ الرشيقَ من نُكتةٍ ذاتِ جزالة؛ ففي الأُولى: الحذفُ والرمزُ إلى المطلوب بألطفِ وجهٍ، وفي الثانية: ما في التعريف من الفخامة، وفي الثالثة: ما في تقديم الريب على الظرف، وفي الرابعة: الحذفُ ووضعُ المصدر الذي هو هدىً موضعَ الوصفِ الذي هو هادٍ؛ كأن نفسَه هدايةٌ، وإيرادُه مُنكَّراً ففيه إشعارٌ بأنه هدىً لا يُكْتَنَهُ كُنْهُهُ، والإيجازُ في ذكر المتقين كما مرَّ.

«٣» ﴿ٱلَّذِينَ﴾: في موضع رفع، أو: نصب على المدح؛ أي: هم الذين يؤمنون، أو أعني: الذين يؤمنون، أو: هو مبتدأ، وخبرُه: (أولئك على هدى)، أو: جرٌّ على أنه صفةٌ للمتقين، وهي صفة واردةٌ بياناً وكشفاً للمتقين، كقولك: زيد الفقيه المحقِّقُ؛ لاشتمالها على ما أُسِّسَت عليه حالُ المتقين من الإيمانِ الذي هو أساسُ الحسنات، والصلاةِ والصدقةِ، فهما أُمّا العباداتِ البدنية والمالية، وهما العِيارُ على غيرهما[١]؛ ألا ترى أن النبي عليه السلام سمَّى الصلاةَ عِمادَ الدين[٢]، وجعل الفاصلَ بينَ الإسلام والكفر تركَ الصلاة[٣]، وسمَّى الزكاةَ قَنطرةَ

---

(١) **العيار**: كل ما تُقدر به الأشياء من كيل أو وزن؛ أي: من كانت فيه هاتان العبادتان.. كان ذلك دليلاً على أنه يقيم سائر العبادات. انظر «فتوح الغيب» (٢/ ٧٩).

(٢) روى ابن بطة في «الإبانة الكبرى» (٢/ ٦٣٩) عن سيدنا ابن عمر رضي الله عنه مرفوعاً: «وصلاة الخمس عمود الدين»، وفي «الترغيب في فضائل الأعمال» لابنِ شاهين (ص١٣٠): «الصلاة عماد الإسلام»، وفي «الترمذي» (٢٦١٦): «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة».

(٣) كما في حديث مسلم (٨٢): «إن بين الرجل وبين الشرك والكفر تركَ الصلاة»، ومذهبُ جماهير السلف والخلف: أن تارك الصلاة كسلاً لا يكفر، بل يفسق، والحديثُ له تأويلات منها: أن فعله فعلُ الكفار. انظر «شرح مسلم» للنووي (٢/ ٧١).

الإسلام[١]، فكان من شأنهما استتباعُ سائر العبادات، ولذلك اختُصر الكلامُ؛ بأن استُغنيَ عن عدِّ الطاعات بذكر ما هو كالعُنوان لها، مع ما في ذلك من الإفصاح عن فضل هاتين العبادتين، أو: صفةٌ مَسْرُودَةٌ مع (المتقين) تفيدُ غيرَ فائدتِها[٢]، كقولك: زيد الفقيه المتكلم الطبيب، ويكون المراد بـ(المتقين): الذين يجتنبون السيئات.

﴿يُؤْمِنُونَ﴾: يصدِّقون، وهو (إِفْعالٌ) من الأمن، وقولهم: آمنه؛ أي: صدَّقه، وحقيقتُه: آمَنَهُ التكذيبَ والمخالفةَ، وتعديتُه بالباء لتضمُّنِه: معنى: أَقَرَّ واعترفَ، ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: يصدقون بما غاب عنهم مما أنبأهم به النبيُّ عليه السلام من أمرِ البعث والنشور والحساب وغيرِ ذلك، فهو بمعنى: الغائب؛ تسميةً بالمصدر، من قولك: غاب الشيء غيباً، هذا إن جعلته صلةً للإيمان[٣]، وإن جعلته حالاً.. كان بمعنى الغَيبةِ والخفاءِ؛ أي: يؤمنون غائبين عن المؤمَنِ به، وحقيقتُه: متلبسين بالغيب، والإيمانُ الصحيحُ: أن يُقِرَّ باللسان، ويصدِّقَ بالجَنان، والعملُ ليس بداخل في الإيمان[٤]، ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: يُؤدُّونها، فعَبَّرَ عن الأداء بالإقامة؛ لأن القيام بعضُ أركانها، كما عَبَّرَ عنه بالقنوت؛ وهو القيام، وبالركوع والسجود والتسبيح؛ لوجودها فيها، أو: أُريدَ بإقامة الصلاةِ: تعديلُ أركانها؛ مِن: أقام العودَ: إذا قَوَّمَه، أو: الدوامُ عليها والمحافظةُ؛ مِن: قامت السوق: إذا نَفَقَتْ؛ لأنه إذا حُوفِظَ عليها.. كانت كالشيءِ النافقِ الذي تَتَوَجَّهُ إليه الرغَباتُ، وإذا أُضيعت.. كانت كالشيءِ الكاسدِ الذي لا يُرغبُ فيه، والصلاة: (فَعَلَةٌ) مِن: صلَّى، كالزكاة مِن: زكَّى، وكتابتها بالواو على لفظ المفخَّم[٥]، وحقيقةُ صلَّى: حرَّكَ

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٨٩٣٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤/ ٢٦٧)، **وقنطرة الإسلام**: الجِسْرُ الذي يُعْبَرُ منه إلى الإسلام. انظر «التيسير بشرح الجامع الصغير» (٢/ ٤٦).

(٢) قوله: أو صفة: عطفٌ على قوله: وهي صفة واردة...، ومعنى مسرودة: مذكورة بعدها، يقال: سرد الحديث: إذا تابَعَهُ.

(٣) أي: متعلقاً بالفعل (يؤمنون)، والنحاة يسمون كلّاً من الجار والمجرور والظرف المتعلِّق بالعامل صلةً له.

(٤) العمل شرط كمال الإيمان عند أهل السنة، فمن تركه.. فهو مؤمن لكن فاتَه كمالُ الإيمان، ومن ترك معلوماً من الدين بالضرورة؛ استحلالاً، أو عناداً للمشرع، أو شكّاً في مشروعيته.. فهو كافر. انظر «شرح الباجوري على جوهرة التوحيد» (ص٩٤).

(٥) أي: على لغة تفخيم اللام، ويرى ابن عاشور أن كتابتها بالواو إشارةٌ إلى أن الألف أصلها واوٌ؛ لأنها مشتقة من الصَّلا، وألفه منقلبة عن واو، كما كتبت (الزكاة، والربا، والحياة) بالواو إشارةً إلى الأصل. انظر «التحرير والتنوير» (١/ ٢٣٤).

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾ ....

الصَّلَوَيْنِ[1]؛ لأن المصليَ يفعل ذلك في ركوعه وسجوده، وقيل للداعي: مُصَلٍّ؛ تشبيهاً في تَخَشُّعِهِ بالراكع والساجد، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾: أعطيناهم، و(ما): بمعنى: الذي، ﴿يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾: يتصدقون، أدخل (مِن) التبعيضية صيانةً لهم عن التبذير المنهيِّ عنه، وقدَّمَ المفعول دلالةً على كونه أهمَّ، والمراد به: الزكاةُ؛ لاقترانه بالصلاة التي هي أختُها، أو: هي وغيرُها من النفقات في سبل الخير؛ لمجيئه مطلقاً، وأنفقَ الشيءَ وأَنْفَدَهُ: أخَوانِ، كـ: نَفَقَ الشيءُ ونَفِدَ، وكلُّ ما جاء مما فاؤه نونٌ، وعينُه فاءٌ.. فدالٌّ على معنى الخروجِ والذهابِ، ودلَّت الآيةُ على أن الأعمالَ ليست من الإيمان؛ حيث عَطف الصلاةَ والزكاةَ على الإيمان، والعطفُ يقتضي المُغايَرَة.

《٤》 ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾: هم مؤمنو أهلِ الكتاب، كعبد الله بن سَلَام وأضرابِه من الذين آمنوا بكلِّ وحيٍ أُنزلَ من عند الله، وأيقنوا بالآخرة إيقاناً زال معه ما كانوا عليه مِن أنه لا يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، وأن النار لن تَمَسَّهم إلا أياماً معدوداتٍ، ثم إنْ عَطَفْتَهُم على ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ دخلوا في جملة المتقين، وإن عطفتهم على ﴿الْمُتَّقِينَ﴾ لم يدخلوا، فكأنه قيل: هدى للمتقين، وهدى للذين يؤمنون بما أنزل إليك، أو: المرادُ به: وصفُ الأَوَّلِينَ، وَوُسِّطَ العاطفُ كما يُوَسَّطُ بين الصفات في قولك: هو الشجاع والجواد، وقولِه[2]: [من: المتقارب]

إلى المَلِكِ القَرْمِ وابنِ الهُمَامِ ... ولَيثِ الكتيبةِ في المُزْدَحَم

والمعنى: أنهم الجامعون بين تلك الصفات وهذه.

﴿بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يعني: القرآنَ، والمرادُ: جميعُ القرآنِ، لا القدرُ الذي سبق إنزالُه وقتَ إيمانهم؛ لأن الإيمان بالجميع واجبٌ، وإنما عَبَّرَ عنه بلفظ الماضي وإن كان بعضُه مُتَرَقَّباً؛ تغليباً للموجود على ما لم يوجد؛ ولأنه إذا كان بعضُه نازلاً وبعضُه منتظرَ النُّزول.. جُعِلَ كأنَّ كلَّه قد نزل، ﴿وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ يعني: سائرَ الكتب المنزلة على النبيين، ﴿وَبِالْآخِرَةِ﴾ وهي: تأنيث الآخِرِ الذي هو ضدُّ الأول، وهي صفة، والموصوفُ محذوفٌ وهو الدار؛ بدليل قولِه: ﴿تِلْكَ

---

(١) أي: الأَلْيَتَيْنِ.

(٢) البيت في «معاني القرآن» للفراء (١/ ١٠٥)، والقَرم: السيد، والهُمام: الملك العظيمُ الهمةِ، والسيدُ الشجاعُ السخيُّ، والكتيبة: الجيش، والمُزدَحَم: محل الازدحام، وأراد به المعركة. انظر «خزانة الأدب» (١/ ٤٥١).

﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ ....

ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾ [القصص: ٨٣] وهي من الصفات الغالبةِ[١]، وكذلك الدنيا، وعن نافع: أنه خَفَّفَها؛ بأنْ حذفَ الهمزةَ وألقى حركتَها على اللام[٢]، ﴿هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾ الإيقانُ: إتقانُ العلم بانتفاء الشكِّ والشبهةِ عنه.

《٥》 ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى﴾: الجملةُ في محل الرفعِ إن كان ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ مبتدأً، وإلا.. فلا محلَّ لها، ويجوز أن يجريَ الموصولُ الأولُ على ﴿ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾، وأن يرتفع الثاني على الابتداء، و(أولئك): خبرُه، ويُجعل اختصاصُهم بالهدى والفلاح تعريضاً بأهل الكتاب الذين لا يؤمنون بنبوة رسول الله ﷺ وهم ظانُّون أنهم على الهدى، وطامعون أنهم ينالون الفلاح عندَ اللهِ، ومعنى الاستعلاءِ في (على هدى): مَثَلٌ لتمكُّنهم من الهدى واستقرارِهم عليه وتمسُّكِهم به؛ شُبِّهَتْ حالُهم بحال مَن اعْتَلَى الشيءَ وَرَكِبَه، ونحوُه: هو على الحقِّ، وعلى الباطل، وقد صرحوا بذلك في قولهم[٣]: جعل الغَوايةَ مَركباً، وامْتَطى الجهلَ، واقْتَعَدَ غاربَ الهوى[٤]، ومعنى ﴿هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: أُوتوه من عنده، ونُكِّرَ (هدىً) ليفيد ضرباً مبهماً لا يُبلغُ كُنْهُهُ؛ كأنه قيل: على أيِّ هدىً، ونحوُه: لقد وقعتُ على لحمٍ؛ أي: على لحم عظيم، ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ أي: الظافرون بما طلبوا، الناجون عما هربوا، فالفلاحُ: دَرْكُ البُغيةِ، والمفلحُ: الفائزُ بالبغية؛ كأنه الذي انفتحت له وجوهُ الظَّفَر، والتركيبُ دالٌّ على معنى الشَّقِّ والفتح، وكذا أخواتُه في الفاء والعينِ نحوُ: فلقَ، وفلذَ، وفَلَى[٥]، وجاء بالعاطف هنا بخلاف قوله: ﴿أُولَٰئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]؛ لاختلافِ الخبرين المقتضيين للعطف هنا[٦]، واتحادِ الغفلةِ والتشبيهِ بالبهائم ثَمَّ، فكانت الثانية مُقَرِّرَةً للأولى[٧]، فهي من العطف

---

(١) هي: ما استعمل من الصفات في موصوف معين، فلا يُحتاج معها إلى ذكر موصوف، والآخرةُ: غلبت في الحياة الباقية بعد البعث. انظر «الدر المصون» (٢/ ٥٨٧) و«الكليات» (ص ٥٤٦).

(٢) انظر «النشر في القراءات العشر» (١/ ٤٠٨).

(٣) أي: بإرادة معنى الاستعلاء والركوب فيما يُشبه الآيةَ. انظر «فتوح الغيب» (٢/ ١٠٩).

(٤) الغارب: ما بين العنق والسَّنام.

(٥) فَلَذَ له من المال: قطع له منه، وَفَلَاه بالسيف: قطع به رأسه.

(٦) وجهُ العطف: أن بين الجملتين توسطاً بين كَمالَي الاتصالِ والانقطاعِ، وهذا يقتضي العطف؛ لأنه الأصل في ذكر الجمل بعضها بعد بعض. انظر «فتوح الغيب» (٢/ ١١٣)، و«التحرير والتنوير» (١/ ٢٤٦).

(٧) فبين الجملتين كمالُ الاتصال، وهذا يقتضي الفصل؛ أي: ترك العطف.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾ ....

بِمَعْزِلٍ، و(هم): فَصْلٌ، وفائدتُه: الدلالةُ على أن الوارد بعده خبرٌ لا صفةٌ، والتوكيدُ، وإيجابُ أن فائدة المسند ثابتة للمسند إليه دون غيره، أو: هو مبتدأ، و(المفلحون): خبره، والجملةُ: خبرُ (أولئك).

فانظر كيف كرَّرَ اللهُ عزَّ وجلَّ التنبيهَ على اختصاص المتقين بِنَيْلِ ما لا ينالُه أحدٌ على طُرُقٍ شتَّى، وهي ذكرُ اسمِ الإشارة، وتكريرُه؛ ففيه تنبيهٌ على أنهم كما ثبت لهم الأَثَرَةُ بالهدى فهي ثابتةٌ لهم بالفلاح، وتعريفُ (المفلحون)؛ ففيه دلالة على أن المتقين هم الناسُ الذين بَلَغَكَ أنهم يفلحون في الآخرة، كما إذا بَلَغَكَ أن إنساناً قد تاب من أهل بلدك فاستخبرت من هو؟ فقيل: زيدٌ التائبُ؛ أي: هو الذي أُخبرتَ بتوبته، وتوسيطُ الفصلِ بينه وبين (أولئك) لِيُبَصِّرَكَ مراتبَهم، ويرغبكَ في طلب ما طلبوا، وينشطكَ لتقديم ما قدموا، اللهمَّ زَيِّنَّا بلباسِ التقوى، واحشرنا في زمرة مَن صَدَّرت بذكرهم (سورةَ البقرة).

《٦》 لَمّا قَدَّمَ ذكرَ أوليائه بصفاتهم المقرِّبَةِ إليه، وبَيَّنَ أن الكتاب هدىً لهم.. قَفَّى على أَثَرِهِ بذكرِ أضدادِهم، وهم العتاةُ المردةُ الذين لا ينفع فيهم الهدَى بقوله:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الكُفْرُ: سَتْرُ الحق بالجحود، والتركيبُ دالٌّ على السَّترِ؛ ولذا سميَ الزارعُ كافراً، وكذا الليلُ[(١)]، ولم يأت بالعاطف هنا كما في قوله: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣-١٤]؛ لأن الجملة الأولى هنا مَسُوقةٌ بياناً لذكر الكتاب[(٢)]، لا خبراً عن المؤمنين[(٣)]، وسيقت الثانية للإخبار عن الكفار بكذا؛ فبين الجملتين تفاوتٌ في المراد، وهما على حدٍّ لا مجالَ للعطف فيه، ولئن كان مبتدأً على تقديرٍ.. فهو كالجاري عليه[(٤)]، والمراد

---

(١) قال الشاعر:

لـي فـيـك أجـر مـجـاهـد ... إن صـح أن الـلـيـل كـافـر.

انظر «تاج العروس» (١٤/ ٥٤).

(٢) وهي جملة: (الذين يؤمنون بالغيب...)، وإنما تكون جملةً على غيرِ وجهِ الصفةِ من الوجوه السابقة.

(٣) ليس المراد بالخبر هنا الاصطلاحَ النحوي، بل المعنى اللغوي، وهو الحديثُ عنهم.

(٤) الضمير في (كان): يعود على (الذين) في (الذين يؤمنون بالغيب...)، وضميرُ (عليه) للكتاب؛ أي: وإن أعرب (الذين) مبتدأً.. فإنه من حيث المعنى كالوصف للكتاب؛ لأنه جواب لسؤالٍ ناشئٍ عن وصف الكتاب بأنه هدىً للمتقين، فكأنه قيل: من هم؟ فأجيب: (الذين يؤمنون بالغيب...). انظر «حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي» (١/ ٢٥٨).

﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾ ....

بـ (الذين كفروا): أناسٌ بأعيانهم علم الله أنهم لا يؤمنون كأبي جهل وأبي لهب وأضرابهما، ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾: بهمزتين: كوفيٌّ[1]، و(سواءٌ): بمعنى الاستواء، وُصِفَ به كما يوصف بالمصادر، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ﴾ [آل عمران: ٦٤]؛ أي: مستويةٍ، وارتفاعُه على أنه خبرٌ لـ (إنَّ)، و(أأنذرتهم): مرتفعٌ به على الفاعلية، كأنه قيل: إن الذين كفروا مُسْتوٍ عليهم إنذارُك وعدمُه، أو: يكون (سواء) خبراً مقدماً، و(أأنذرتهم أم لم تنذرهم): في موضع الابتداء؛ أي: سواء عليهم إنذارك وعدمه، والجملةُ خبرٌ لـ (إنَّ)، وإنما جاز الإخبارُ عن الفعل مع أنه خبرٌ أبداً؛ لأنه من جنس الكلام المهجورِ فيه جانبُ اللفظ إلى جانب المعنى[2]، والهمزةُ و(أم): مجرَّدَتان لمعنى الاستواء، وقد انسلخ عنهما معنى الاستفهام رأساً، قال سيبويه: جرى هذا على حرف الاستفهام كما جرى على حرف النداء قولك: اللهم اغفر لنا أيتُها العصابةُ[3]؛ يعني: أن هذا جرى على صورة الاستفهام ولا استفهامَ، كما أن ذلك جرى على صورة النداء ولا نداءَ، والإنذارُ: التخويفُ من عقاب الله بالزجر عن المعاصي، ﴿لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾: جملةٌ مؤكِّدة للجملة قبلها، أو: خبرٌ لـ (إنَّ)، والجملةُ قبلها: اعتراضٌ، أو: خبرٌ بعد خبرٍ، والحكمةُ في الإنذار مع العلم بالإصرار: إقامةُ الحجة؛ وليكون الإرسال عامّاً؛ وليثاب الرسولُ ﷺ.

«٧» ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ قال الزجاج: الختمُ: التغطية[4]؛ لأن في الاستيثاق من الشيء بضربِ الخاتَمِ عليه تغطيةً له؛ لئلا يُطلعَ عليه، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: طبع الله على قلوبهم فلا يعقلون الخير، يعني: أن الله طبعَ عليها فجعلها بحيث لا يخرجُ منها ما فيها من الكفر، ولا يدخلُها ما ليس فيها من الإيمان.

وحاصلُ الختمِ والطبعِ: خَلْقُ الظلمةِ والضيقِ في صدر العبد عندنا، فلا يؤمن ما دامت تلك الظلمةُ في قلبِه، وعند المعتزلة: إعلامٌ مَحْضٌ على القلوب بما يُظهِرُ للملائكة أنهم كفار فيلعنونهم ولا يدعون لهم بخير[5]، وقال بعضهم: إن إسناد الختم إلى الله تعالى مجازٌ، والخاتِمُ

---

(١) انظر «النشر في القراءات العشر» (١/ ٣٦٣).

(٢) أي: قُصد به المصدر، نحو: تسمعُ بالمعيدي خيرٌ مِن أن تراه، فالفعل (تسمعُ): مبتدأ؛ لأن المعنى: سماعُك. انظر «فتوح الغيب» (٢/ ١٢٣).

(٣) «الكتاب» لسيبويه (٣/ ١٧٠).

(٤) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (١/ ٨٢).

(٥) أي: وضع علامة على القلوب.

في الحقيقة الكافرُ، إلا أنه تعالى لما كان هو الذي أَقْدَرَهُ ومَكَّنَه.. أسندَ إليه الختمَ كما يُسندُ الفعل إلى السبب فيقالُ: بنى الأميرُ المدينةَ؛ لأن للفعل ملابساتٍ شتّى[1]؛ يُلابسُ الفاعلَ والمفعولَ به والمصدرَ والزمانَ والمكانَ والمسبَّبَ له، فإسنادُه إلى الفاعل حقيقةٌ، وقد يُسْنَدُ إلى هذه الأشياءِ مجازاً؛ لمضاهاتها الفاعلَ في مُلابسةِ الفعلِ كما يُضاهي الرجلُ الأسدَ في جُرْأَتِه فيستعارُ له اسمُه، وهذا فرعُ مسألةِ خلقِ الأفعال.

﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ وَحَّدَ السمعَ كما وَحَّدَ البطنَ في قوله[2]: [من: الوافر]

كـلـوا فـي بـعـضِ بـطـنـكـم تَـعِـفُّـوا ....

لأمن اللبس؛ ولأن السمع مصدرٌ في أصله؛ يقال: سمعت الشيءَ سَمعاً وسَماعاً، والمصدر لا يجمع؛ لأنه اسمُ جنسٍ يقعُ على القليل والكثير، ولا يُحتاج فيه إلى التثنية والجمع[3]، فلُمِحَ الأصلُ، وقيل: المضافُ محذوفٌ؛ أي: وعلى مواضع سمعهم، وقرئ: ﴿وعلى أسماعهم﴾[4]، ﴿وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾: بالرفع، خبرٌ ومبتدأٌ، والبصرُ: نورُ العين، وهو: ما يُبصر به الرائي، كما أن البصيرة نورُ القلب، وهي: ما به يَستبصرُ ويَتأمَّلُ، وكأنهما جوهران لطيفان، خلقهما الله تعالى فيهما، آلَتين للإبصار والاستبصار[5]، والغِشاوةُ: الغِطاءُ، (فِعالَةٌ) مِنْ: غَشّاهُ: إذا غَطّاه، وهذا البناءُ لما يشتمل على الشيءِ كالعِصابة والعِمامة والقِلادة، والأسماءُ داخلةٌ في حكم الختم لا في حكم التغشية؛ لقوله: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ [الجاثية: ٢٣]؛ ولِوَقفهم على (سمعهم) دون (قلوبهم)، ونصبَ المفضَّلُ وحدَه (غشاوةً) بإضمار: جعل[6]، وتكريرُ الجارِّ في قوله: (وعلى سمعهم) دليلٌ على شدة الختم في الموضعين.

---

(١) أي: تعلقات.

(٢) البيت لا يعرف قائله، وهو من شواهد «الكتاب» لسيبويه (١/ ٢١٠)، وتمامه:

فـإنَّ زمـانَـكُـمْ زَمَـنٌ خَـمِـيـصُ.

والخميص: الجائع؛ أي: جياعٌ أهلُه.

(٣) يجوز أن يجمع المصدر إن تَعَدد فاعلوه، أو اختلفت أنواعه، نحو: أسفارُ الناس كثيرةٌ. انظر «إعراب ما يشكل من ألفاظ الحديث» للعكبري (ص٨٢).

(٤) انظر «المحرر الوجيز» (١/ ٨٨) وهي شاذة.

(٥) ضمير (كأنهما): للبصر والبصيرة، وضمير (فيهما): للعين والقلب، و(آلتين): حال.

(٦) انظر «المحرر الوجيز» (١/ ٨٨).

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨﴾ ....

قال الشيخ الإمام أبو منصور رحمه الله: الكافرُ لمّا لم يسمع قولَ الحق، ولم ينظرْ في نفسه وغيره من المخلوقات؛ ليرى آثارَ الحدثِ فيعلمَ أن لا بدَّ من صانع.. جُعِلَ كأنَّ على بصره وسمعه غشاوةً وإن لم يكن ذلك حقيقةً[1]. وهذا دليلٌ على أن الأسماع عنده داخلةٌ في حكم التغشية.

والآيةُ حجةٌ لنا على المعتزلة في الأصلح؛ فإنه أَخْبرَ أنه ختمَ على قلوبهم، ولا شكَّ أن تركَ الختمِ أصلحُ لهم.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾: العذاب: مثلُ النَّكال بناءً ومعنىً؛ لأنك تقول: أَعْذَبَ عن الشيء: إذا أمسك عنه، كما تقول: نكل عنه، والفرقُ بين العظيمِ والكبيرِ: أن العظيمَ يقابل الحقير، والكبيرَ يقابل الصغير؛ فكانَ العظيمُ فوقَ الكبيرِ، كما أن الحقيرَ دونَ الصغيرِ[2]، ويُستعملان في الجُثثِ والأحداثِ جميعاً؛ تقول: رجلٌ عظيمٌ وكبيرٌ؛ تُريدُ: جثتَه أو خَطَرَه، ومعنى التنكيرِ: أنَّ على أبصارهم نوعاً من التغطية غيرَ ما يتعارفُه الناس، وهو غطاءُ التعامي عن آيات الله، ولهم من بين الآلام العظامِ نوعٌ عظيمٌ من العذاب لا يَعلمُ كُنْهَهُ إلا اللهُ.

《٨》 ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ افتتحَ سبحانَه وتعالى بذكر الذين أخلصوا دينَهم لله، وواطَأَتْ فيه قلوبُهم ألسنتَهم، ثم ثَنَّى بالكافرين قلوباً وألسنةً، ثم ثَلَّثَ بالمنافقين الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبُهم، وهم أخبثُ الكفرة؛ لأنهم خَلَطُوا بالكفر استهزاءً وخداعاً؛ ولذا نزل فيهم: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]، وقال مجاهد: أربعُ آياتٍ من أول السورةِ في نعت المؤمنين، وآيتان في ذكر الكافرين، وثلاثَ عشرةَ آيةً في المنافقين. نَعَى عليهم فيها نُكرَهم وخُبثَهم وسَفَهَهم[3]، واستَجْهَلَهُم واستهزأ بهم وتَهَكَّم بفعلهم، وسَجَّلَ بطغيانهم وعَمَهِهِم، ودعاهم صُمّاً بُكماً عُمياً، وضرب لهم الأمثال الشنيعةَ، وقصةُ المنافقين عن آخرها: معطوفةٌ على قصة الذين كفروا، كما تُعطفُ الجملةُ على الجملة.

وأصلُ ناسٍ: أُناسٌ، حُذفت همزتُه تخفيفاً، وحذفها مع لام التعريف كاللازم، لا يكادُ

---

(١) «تأويلات أهل السنة» (١/ ١٦).

(٢) أي: إذا كان الحقير مقابلاً للعظيم، والصغير مقابلاً للكبير.. يلزم أن يكون العظيم فوق الكبير؛ لأن العظيم لا يكون حقيراً، لأن الضدين لا يجتمعان. انظر «فتوح الغيب» (١/ ١٤٧).

(٣) نعى: شنّع، ونُكرهم: دهاءهم.

....

يُقالُ: الأُناس، ويشهدُ لأصله: إنسانٌ وأَناسيُّ وإِنسٌ، وسُمُّوا؛ لظهورِهم وأنهم يُؤْنَسُون؛ أي: يُبصَرون، كما سُمِّيَ الجنُّ لاجْتِنانِهم، ووزنُ ناسٍ: (فُعالٌ) لأن الزِّنَةَ على الأصول؛ فإنك تقول: وزنُ قِهْ: (اِفْعِل) وليس معك إلا العينُ، وهو من أسماء الجمع، ولامُ التعريف فيه للجنس، و(مَن): موصوفةٌ، و(يقول): صفةٌ لها؛ كأنه قيلَ: ومن الناس ناسٌ يقولون كذا[1].

وإنما خَصُّوا الإيمانَ بالله وباليوم الآخر، وهو الوقتُ الذي لا حدَّ له، وهو الأبدُ الدائمُ الذي لا ينقطعُ؛ لتأخره عن الأوقات المنقضية، أو الوقتُ المحدود من النشور إلى أن يدخلَ أهلُ الجنةِ الجنةَ، وأهلُ النارِ النارَ.. لأنهم أَوْهَموا في هذا المقال أنهم أَحاطُوا بجانِبَي الإيمانِ أَوَّلِه وآخِرِه، وهذا لأن حاصلَ المسائلِ الاعتقاديةِ يرجعُ إلى مسائلِ المبدأِ، وهي العلمُ بالصانعِ وصفاتِه وأسمائِه؛ ومسائلِ المعادِ، وهي العلمُ بالنشورِ والبعثِ من القبور والصراطِ والميزانِ وسائرِ أحوالِ الآخرةِ، وفي تكرير الباءِ إشارةٌ إلى أنهم ادَّعَوا كلَّ واحدٍ من الإيمانين على صفةِ الصحةِ والاستحكام.

وإنما طابقَ قولُه: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨﴾ وهو في ذكرِ شأنِ الفاعلِ لا الفعلِ قولَهم: (آمنا بالله وباليوم الآخر) وهو في ذكرِ شأنِ الفعلِ لا الفاعلِ؛ لأن المرادَ: إنكارُ ما ادَّعَوهُ ونَفْيُه على أبلغِ وَجْهٍ وآكَدِه، وهو إخراجُ ذواتِهم مِن أن تكونَ طائفةً من المؤمنين، ونحوُه: قولُه تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة: ٣٧]، فهو أبلغُ من قولِك: وما يخرجون منها.

وأطلقَ الإيمانَ في الثاني بعد تَقييدِه في الأولِ؛ لأنه يحتمل أن يُرادَ: التقييدُ، ويتركَ لدلالةِ المذكورِ عليه[2]، ويحتملُ أن يُرادَ: نفيُ أصلِ الإيمانِ وفي ضِمنِه نفيُ المذكورِ أوّلاً.

والآيةُ تنفي قولَ الكرّاميةِ: إن الإيمانَ هو الإقرارُ باللسان لا غيرُ؛ لأنه نَفى عنهم اسمَ الإيمانِ مع وجودِ الإقرارِ منهم، وتؤيدُ قولَ أهلِ السنة: إنه إقرارٌ باللسان وتصديقٌ بالجَنان.

---

(١) الإعراب المشهور أن يكون (مِن الناس): خبراً مقدماً، و(مَنْ): مبتدأً مؤخراً، ولكن الأولى من حيث المعنى: ما ذهب إليه أبو السعود في «تفسيره» (١/ ٣٩) وهو أن محل (من الناس): الرفعُ على أنه مبتدأ باعتبار مضمونه، أو: نعتٌ لمبتدأٍ محذوف، و(مَن): خبرٌ؛ والمعنى: وبعضُ الناس، أو: وبعضٌ مِن الناس مَن يقول.

(٢) قوله: (لأنه يحتمل...) الأولى أن يقال: فيحتمل؛ إذ لا معنى للتعليل هنا، وعبارة البيضاوي في «تفسيره» (١/ ٤٤): (وأطلق الإيمان على معنى أنهم ليسوا من الإيمان في شيء، ويحتمل أن يُقيد بما قيَّدوا به؛ لأنه جوابه).

﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ٩﴾ ....

ودخلت الباءُ في خبر (ما) مؤكدةً للنفي؛ لأنه يَستدلُّ به السامعُ على الجَحْدِ إذا غَفَلَ عن أول الكلام، و(مَن): مُوَحَّدُ اللفظِ؛ ولذا قيل: (يقول)، وجُمِعَ (وما هم بمؤمنين) نظراً إلى معناه.

«٩» ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ أي: رسولَ الله، فحُذِفَ المضافُ كقوله: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]، كذا قالَه أبو علي وغيرُه؛ أي: يُظهرون غيرَ ما في أنفسهم، فالخداعُ: إظهارُ غيرِ ما في النفس، وقد رفعَ منزلةَ النبيِّ ﷺ حيث جعلَ خِداعَه خِداعَه، وهو كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ [الفتح: ١٠]، وقيل: معناه: يخادعون الله في زعمِهم؛ لأنهم يظنون أن اللهَ ممن يصحُّ خِداعُه، وهذا المثالُ يقعُ كثيراً لغيرِ اثنين[١]؛ نحوُ قولِك: عاقبت اللص، وقد قرئ: ﴿يَخْدَعون اللهَ﴾[٢]، وهو بيان لـ (يقول)، أو: مستأنفٌ، كأنه قيل: ولِمَ يدَّعون الإيمان كاذبين؟ وما منفعتُهم في ذلك؟ فقيل: (يخادعون)، ومنفعتُهم في ذلك: متاركتُهم عن المحاربة التي كانت مع من سواهم من الكفار، وإجراءُ أحكام المؤمنين عليهم، ونيلُهم من الغنائم، وغيرُ ذلك.

قال صاحبُ «الوقوفِ»: الوقفُ لازم على بـ (مؤمنين)[٣]؛ لأنه لو وصل.. لصار التقدير: وما هم بمؤمنين مخادعين، فينتفي الوصفُ، كقولك: ما هو برجل كاذب، والمرادُ نفيُ الإيمان عنهم، وإثباتُ الخداع لهم[٤].

ومَن جعل (يخادعون) حالاً من الضمير في (يقول)، والعاملُ فيها: (يقول) والتقديرُ: يقول: آمنّا مخادعين، أو: حالاً من الضمير في (بمؤمنين)، والعاملُ فيها: اسمُ الفاعل، والتقديرُ: وما هم بمؤمنين في حال خداعهم.. لا يقفُ، والأولُ: الوجه.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: يخادعون رسولَ الله والمؤمنين بإظهار الإيمان وإضمار الكفر، ﴿وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾ أي: وما يُعامِلون تلك المعاملةَ المشَبَّهَةَ بمعاملةِ المخادعين إلا أنفسَهم؛ لأن ضررَها يلحقُهم، وحاصلُ خداعِهم وهو العذاب في الآخرة يرجعُ إليهم، فكأنهم خَدَعوا

---

(١) أي: أن صيغة المفاعلة تقع كثيراً لغير المشاركة، نحو: عافاه الله.

(٢) انظر «تفسير الثعلبي» (١/ ١٥٣) وهي شاذة.

(٣) الوقف اللازم: ما يوهم تركُه غير المعنى المراد. انظر «الوقف والابتداء» للسجاوندي (ص١٠٥)، وهو لزوم اصطلاحي لا شرعي؛ فلا إثم في وصله إلا إن قصد القارئ تغيير المعنى المراد؛ إذ ليس في القرآن وقف واجب. انظر «المنح الفكرية شرح المقدمة الجزرية» (ص٢٦٦).

(٤) «علل الوقوف» للسجاوندي (١/ ١٨٠).

﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ١٠﴾ ....

أنفسَهم، ﴿وما يخادعون﴾: أبو عمرو، ونافع، ومكي[١]؛ للمطابقة، وعذرُ الأولين أنَّ: خدعَ وخادعَ هنا بمعنىً واحدٍ، والنفْسُ: ذاتُ الشيء وحقيقتُه، ثم قيل للقلب والروح: النفْسُ؛ لأن النفَسَ بهما، وللدم: نفْسٌ؛ لأن قِوامَها بالدم، وللماء: نَفْسٌ؛ لِفَرْطِ حاجتها إليه، والمرادُ بالأنفس ههنا: ذواتُهم، والمعنى بمخادعتِهم ذواتِهم: أن الخداعَ لاصِقٌ بهم لا يَعدُوهم إلى غيرهم، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ ٩﴾ أن حاصلَ خداعِهم يرجعُ إليهم، والشُّعورُ: علمُ الشيءِ علمَ حِسٍّ؛ من الشِّعار، وهو ثوب يَلِي الجسدَ، ومشاعرُ الإنسان: حواسُّه؛ لأنها آلات الشعور، والمعنى: أن لحوق ضررِ ذلك بهم كالمحسوس، وهمْ لتمادِي غفلتِهم كالذي لا حِسَّ له.

«١٠» ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: شكٌّ ونفاقٌ؛ لأن الشك تردُّدٌ بين الأمرين، والمنافقُ مترددٌ؛ في الحديث: «مثلُ المنافق كمثل الشاة العائرةِ بين الغَنَمَيْنِ»[٢]، والمريضُ متردد بين الحياة والموت؛ ولأن المرض: ضدُّ الصحة، والفسادُ يقابلُ الصحةَ، فصار المرضُ اسماً لكل فسادٍ، والشكُّ والنفاقُ: فسادٌ في القلب، ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ أي: ضَعفاً عن الانتصار، وعَجْزاً عن الاقتدار، وقيل: المراد به: خلقُ النفاقِ في حالةِ البقاءِ بخلقِ أمثالِه، كما عُرِفَ في زيادة الإيمان، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ﴾: (فَعِيلٌ) بمعنى (مُفْعِلٍ)؛ أي: مُؤلِم[٣]، ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ١٠﴾: كوفيٌّ[٤]؛ أي: بِكَذِبهم في قولهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾، فـ(ما) مع الفعل بمعنى: المصدر، والكذبُ: الإخبارُ عن الشيء على خلاف ما هو به، ﴿يُكَذِّبُونَ﴾: غيرُهم[٥]؛ أي: بتكذيبهم النبيَّ فيما جاء به، وقيل: هو مبالغة في: كَذَبَ، كما بُولِغَ في: صَدَقَ فقيل: صَدَّقَ، ونَظيرُهما: بانَ الشيءُ، وبَيَّنَ[٦].

---

(١) انظر «النشر في القراءات العشر» (٢/ ٢٠٧).

(٢) رواه مسلم (٢٧٨٤) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، **والعائرة**: المترددةُ الحائرةُ لا تدري لأيِّهما تتبع. انظر «شرح مسلم» للنووي (١٧/ ١٢٨).

(٣) يُقرأ اسمَ مفعول؛ أي: العذاب يتألَّمُ من شدته، فكأنَّه لشدته كأنَّ الألمَ قام به، وهو أبلغ؛ حيث أسند الألم للعذاب، وهو في الحقيقة إنما يسند للشخص المعذَّب، ويصح قراءته اسمَ فاعل. انظر «الفتوحات الإلهية على تفسير الجلالين» (١/ ١٩)، و«حاشية الصاوي على الجلالين» (١/ ١٠).

(٤) انظر «النشر في القراءات العشر» (٢/ ٢٠٧).

(٥) انظر المرجع السابق (٢/ ٢٠٨).

(٦) وقيل: للكثرة، والكثرةُ تفيد صدور الكذب مراتٍ، والمبالغةُ لا تستدعي المرات، بل المراد: أن الشخص بليغ في كذبه، كأنه بمنزلة مرار كثيرة. انظر «فتوح الغيب» (٢/ ١٨٣).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ۝١٢ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ۗ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ۝١٣﴾ ....

«١١» ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾: معطوفٌ على ﴿يَقُولُ آمَنَّا﴾ لأنك لو قلت: ومن الناس من إذا قيل لهم: ﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ لكان صحيحاً، والفسادُ: خروجُ الشيءِ عن حال استقامتِه وكونِه منتفعاً به، وضدُّه الصلاحُ، وهو الحصولُ على الحال المستقيمةِ النافعة، والفسادُ في الأرض: هَيْجُ الحروبِ والفتن؛ لأن في ذلك فسادَ ما في الأرض، وانتفاءَ الاستقامةِ عن أحوال الناس والزروع، والمنافعِ الدينية والدنيوية، وكان فسادُ المنافقين في الأرض أنهم كانوا يُمايِلون الكفار ويُمالِئُونهم على المسلمين بإفشاء أسرارِهم إليهم، وإغرائِهم عليهم، وذلك مما يؤدي إلى هَيْجِ الفتن بينهم، ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١﴾ بين المؤمنين والكافرين بالمداراةِ؛ يعني: أن صفة المصلحين خَلَصَتْ لنا وتمحَّضت من غير شائبةِ قادحٍ فيها من وجهٍ من وجوه الفساد؛ لأن (إنما) لقَصرِ الحكم على شيءٍ، أو لِقَصرِ الشيءِ على حُكمٍ، كقولك: إنما ينطلق زيد، وإنما زيد كاتب[1]، وما: كافةٌ؛ لأنها تكُفُّها عن العمل.

«١٢» ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ۝١٢﴾ أنهم مفسدون، فَحُذِفَ المفعولُ؛ للعلم به. (ألا): مركبةٌ من همزة الاستفهام وحرفِ النفي؛ لإعطاء معنى التنبيهِ على تَحَقُّقِ ما بعدها، والاستفهامُ إذا دخل على النفي. . أفاد تحقُّقاً، كقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ﴾ [القيامة: ٤٠] ولكونها في هذا المَنْصِبِ من التحقيق لا تقعُ الجملةُ بعدها إلا مُصدرةً بنحو ما يُتلقى به القسمُ.

قد ردَّ اللهُ ما ادَّعوه من الانتظام في جملة المصلحين أبلغَ ردٍّ وأدلَّه على سُخْطٍ عظيم، والمبالغةُ فيه من جهة الاستئنافِ، وما في (أَلَا) و(إِنَّ) من التأكيد، وتعريفِ الخبرِ، وتوسيط الفصلِ، وقولِه: (لا يشعرون).

«١٣» ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾: نصحوهم من وجهين: أحدُهما: تقبيحُ ما كانوا عليه؛ لِبُعْدِهِ من الصواب وَجَرِّهِ إلى الفساد، وثانيهما: تبصيرُهم الطريقَ الأَسَدَّ من اتباعِ ذوي الأحلامِ، فكان من جوابهم أنْ سَفَّهُوهم لفرط سفههم وجهَّلوهم؛ لتمادي جهلِهم، وفيه تسليةٌ للعالم مما يَلقى من الجَهَلَةِ.

(١) ويقال أيضاً: لقصر الصفة على الموصوف كالمثال الأول؛ ففيه قصر الانطلاق على زيد، ولقصر الموصوف على الصفة كالمثال الثاني؛ ففيه قصر زيد على الكتابة.

﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ....﴾

وإنما صح إسنادُ: (قيل) إلى (لا تفسدوا) و(آمنوا) مع أن إسنادَ الفعل إلى الفعل لا يصحُّ؛ لأنه إسنادٌ إلى لفظ الفعلِ، والممتنعُ إسنادُ الفعل إلى معنى الفعلِ؛ فكأنه قيل: وإذا قيل لهم هذا القولُ، ومنه: زعموا مطيةُ الكذب.

وما في (كما): كافّةٌ، ك: ما في ربما، أو: مصدريةٌ، ك: ما في ﴿بِمَا رَحُبَتْ﴾ [التوبة: ٢٥]، واللامُ في (الناس) للعهد؛ أي: كما آمن الرسولُ ﷺ ومن معه، وهم ناسٌ معهودون، أو عبدُ الله بن سلام وأشياعُه؛ أي: كما آمن أصحابُكم وإخوانُكم، أو للجنس؛ أي: كما آمن الكاملون في الإنسانية، أو جُعِلَ المؤمنون كأنهم الناسُ على الحقيقة ومَن عَداهم كالبهائم، والكافُ في (كما): في موضع النصب؛ لأنه صفةُ مصدرٍ محذوفٍ؛ أي: إيماناً مثلَ إيمانِ الناس، ومثلُه: ﴿كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾.

والاستفهامُ في (أنؤمن): للإنكار، واللامُ في (السفهاء): مُشارٌ بها إلى (الناس)، وإنما سَفَّهوهُم وهم العقلاءُ المراجيحُ[1]؛ لأنهم لجهلِهم اعتقدوا أن ما هم فيه هو الحقُّ، وأن ما عداه باطلٌ، ومَن ركبَ مَتْنَ الباطل.. كان سفيهاً، والسَّفَهُ: سخافةُ العقلِ وخِفَّةُ الحِلْمِ.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ أنهم هم السفهاء، وإنما ذَكَرَ هنا (لا يعلمون)، وفيما تقدم (لا يشعرون) لأنه قد ذكرَ السَّفَهَ وهو جهلٌ، فكان ذكرُ العلم معه أحسنَ طِباقاً له؛ ولأن الإيمان يُحتاجُ فيه إلى نظر واستدلالٍ حتى يكتسبَ الناظرُ المعرفةَ، أما الفسادُ في الأرض.. فأمرٌ مبنيٌّ على العادات فهو كالمحسوس، و(السفهاءُ): خبرُ (إن)، و(هم): فصلٌ، أو: السفهاءُ: خبرُ (هم)، والجملةُ: خبرُ (إن).

《١٤》 ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾، وقرأ أبو حنيفة رحمه الله: ﴿وإذا لاقَوا﴾[2] يقال: لقيتُه، ولاقيتُه: إذا استقبلتَه قريباً منه.

الآيةُ الأولى في بيان مذهب المنافقين والترجمةِ عن نفاقهم، وهذه في بيان ما كانوا يعملون مع المؤمنين من الاستهزاء بهم ولقائِهم بوجوه المصادقين وإيهامِهم أنهم معهم.

﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾: خلوتُ بفلان وإليه: إذا انفردتَ معه، وبـ: إلى أبلغُ؛ لأن فيه دلالة

(١) المراجيح: جمع مِرجاح، وهو الذي له رزانةُ العقل ورصانتُه.

(٢) انظر «الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها» (ص ٤٨١).

﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ ....

الابتداء والانتهاء[(١)]، ويجوز أن يكون مِن: خلا بمعنى: مَضَى، و(شياطينِهم): الذين ماثلوا الشياطين في تمردِهم وهم اليهودُ، وعن سيبويه: أن نون الشياطين أصليةٌ؛ بدليل قولهم: تَشَيْطَنَ، وعنه: أنها زائدةٌ[(٢)]، واشتقاقُه مِن: شَطَنَ: إذا بَعُدَ؛ لِبُعْدِهِ من الصلاح والخير، أو مِن: شاطَ: إذا بَطَلَ، ومن أسمائه: الباطلُ، ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ﴾: إنا مُصاحِبوكم ومُوافِقوكم على دينكم، وإنما خاطبوا المؤمنين بالجملة الفعليةِ وشياطينَهم بالاسمية مُحَقَّقَةً بـ (إن) لأنهم في خطابهم مع المؤمنين.. في ادعاءِ حدوثِ الإيمانِ منهم، لا في ادعاءِ أنهم أَوْحَدِيُّونَ في الإيمان[(٣)]، إما لأن أنفسَهم لا تساعدُهم عليه؛ إذ ليس لهم من عقائدهم باعثٌ ومحركٌ، وإما لأنه لا يَروجُ عنهم لو قالُوه على لفظِ التوكيدِ والمبالغةِ، وكيف يَطمعُون في رَواجِهِ وهم بين ظهرانَي المهاجرين والأنصار[(٤)]؟ وأما خطابهم مع إخوانهم.. فقد كان عن رغبةٍ، وكان مُتَقَبّلاً منهم رائجاً عنهم، فكان مَظِنَّةً للتحقيق، ومَئِنَّةً للتوكيد[(٥)]، وقولُه: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾: توكيدٌ لقوله: (إنا معكم)؛ لأن معناه: الثباتُ على اليهودية، وقولُه: (إنما نحن مستهزئون): ردٌّ للإسلام، ودفعٌ له منهم؛ لأن المستهزئَ بالشيءِ المستخِفَّ به منكرٌ له، ودافعٌ لكونه مُعتدّاً به، ودفعُ نقيضِ الشيءِ تأكيدٌ لثباته، أو: استئنافٌ، كأنَّهم اعترضُوا عليهم بقولهم حينَ قالُوا لهم: (إنا معكم): إن كنتم معنا.. فَلِمَ تُوافقون المؤمنين؟ فقالُوا: (إنما نحن مستهزئون)، والاستهزاءُ: السخريةُ والاستخفافُ، وأصلُ البابِ: الخِفَّةُ، مِن (الهَزْءِ) وهو: القتل السريع، وهَزَأَ يَهْزَأُ: مات على المكان[(٦)].

《١٥》 ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ أي: يُجازيهم على استهزائهم، فَسَمَّى جزاءَ الاستهزاءِ باسمه، كقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٩٤]، فسمَّى جزاءَ السيئةِ سيئةً، وجزاءَ الاعتداءِ اعتداءً وإن لم يكن الجزاءُ سيئةً واعتداءً، وهذا لأن

---

(١) في هامش (أ) زيادة: (أي: إذا خَلَوا من المؤمنين إلى الشياطين).

(٢) يُفهم من «الكتاب» لسيبويه (٣/ ٢١٨) أن الشيطان إن أخذ من التشيطن.. فالنون أصلية، وإن أخذ من شيَّط.. فالنون زائدة.

(٣) **أوحديون**: متفردون؛ أي: لم ينطقوا بعبارة تفيد الحصر، فلم يقولوا: إنما نحن مؤمنون.

(٤) **ظهرانَي**: مثنى (ظهر)، وزيدت فيه ألف ونون مفتوحة تأكيداً، ومعناه: أن ظهراً منهم قُدّامَه، وظهراً منهم وراءَه، فهو مكنوفٌ من جانبيه، ومن جوانبِه إذا قيل: (بين أظهرهم)، ثم كثر حتى استعمل في الإقامة بين القوم مطلقاً. انظر «النهاية في غريب الحديث والأثر» (٣/ ١٦٦).

(٥) أي: موضعاً للتأكيد، **والمئنة**: اسمُ مكانٍ مِنْ (إنَّ) التأكيدية. انظر «تاج العروس» (٣٦/ ١٤٠).

(٦) أي: فجأة.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾ ....

الاستهزاء على الله تعالى لا يجوز من حيثُ الحقيقةُ؛ لأنه من باب العبث، وتعالى عنه، قال الزجاج: هو الوجه المختار[1].

واستئنافُ قوله تعالى: (الله يستهزئ بهم) من غيرِ عطفٍ في غاية الجَزالةِ والفَخامةِ، وفيه: أن الله هو الذي يستهزئُ بهم الاستهزاءَ الأبلغَ الذي ليس استهزاؤُهم إليه باستهزاءٍ؛ لِما ينزلُ بهم من النَّكالِ والذُّلِّ والهَوانِ، ولما كانت نِكاياتُ الله وبلاياه تنزل عليهم ساعةً فساعةً.. قيلَ: (الله يستهزئ بهم)، ولم يُقلْ: مستهزئ بهم؛ ليكون طبقاً لقولِه: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾، ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾: يُمْهِلُهُم، عن الزجاج[2]، ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾: في غُلُوِّهِم في كفرهم، ﴿يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾: حالٌ؛ أي: يتحيَّرون ويتردَّدون، وهذه الآيةُ حجةٌ على المعتزلةِ في ترك الأصلح.

《١٦》 ﴿أُولَٰئِكَ﴾: مبتدأٌ، خبرُه: ﴿الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾ أي: استبدلُوها به، واختارُوها عليه، وإنما قال: (اشتروا الضلالةَ بالهدى) ولم يكونوا على هدىً؛ لأنها في قوم آمنُوا ثم كفرُوا، أو: في اليهود الذين كانوا مؤمنين بمحمد ﷺ، فلما جاءهم.. كفروا به، أو جُعلُوا لِتَمَكُّنِهم منه كأنَّ الهدى قائمٌ فيهم فتركُوه بالضلالة.

وفيه دليلٌ على جوازِ البيعِ تعاطياً؛ لأنهم لم يتلفظُوا بلفظ الشراءَ ولكن تركوا الهدى بالضلالة عن اختيارهم، وسَمَّى ذلك شراءً، فصار دليلاً لنا على أن من أخذَ شيئاً مِن غيرِه وتركَ عليه عوضَه برضاه.. فقد اشتراه وإن لم يتكلمْ به.

والضلالةُ: الجَوْرُ عن القصدِ وفَقْدُ الاهتداءِ، يقال: ضلَّ منزلَه، فاستُعيرَ للذهاب عن الصواب في الدِّين.

﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ﴾ الربح: الفضْلُ على رأس المال، والتجارةُ: صناعةُ التاجر، وهو الذي يبيع ويشتري للربح، وإسنادُ الربحِ إلى التجارة من الإسناد المجازي، ومعناه: فما رَبِحُوا في تجارتهم؛ إذ التجارةُ لا تَربحُ، ولمّا وقعَ شراءُ الضلالةِ بالهدى مجازاً.. أَتْبَعَهُ ذكرَ الربحِ والتجارةِ ترشيحاً له[3]، كقوله[4]: [من: الطويل]

---

(١) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (١/ ٩٠).

(٢) المرجع السابق (١/ ٩١).

(٣) الترشيح في الاستعارة: أن يذكر ما يناسب المشبه به، وفي الآية شبه اختيار الضلالة على الهدى بالشراءِ، فكان ذكر الربح ترشيحاً؛ لأنه يناسب المشبه به وهو الشراء. انظر «البلاغة العربية» (٢/ ٢٥٢).

(٤) نسبه المبرد في «الفاضل» (ص٤٧) للكميت، وليس في «ديوانه»، والنَّسر: طائر أبيض، وعزَّ: غلبَ، وابنُ =

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾

ولمّـا رأيـت النَّـسـرَ عـزَّ ابـنَ دأْيَـةٍ وَعَـشَّـشَ فـي وَكْـرَيْـهِ جـاشَ لـه صَـدري

لمّا شَبَّهَ الشيبَ بالنَّسرِ، والشَّعْرَ الفاحمَ بالغُرابِ.. أَتْبَعَهُ ذكرَ التَّعشيشِ والوَكْرِ.

﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾ لطرق التجارة كما يكون التجار المتصرفون العالمون بما يُربحُ فيه ويُخْسَرُ؛ والمعنى: أن مطلوب التجار سلامةُ رأسِ المالِ والربح، وهؤلاءِ قد أضاعوهما، فرأسُ مالِهم الهدى ولم يَبْقَ لهم مع الضلالة، وإذا لم يبقَ لهم إلا الضلالةُ.. لم يُوْصَفُوا بإصابة الربحِ وإن ظَفِرُوا بالأغراضِ الدنيويةِ؛ لأن الضالَّ خاسرٌ؛ ولأنه لا يقالُ لمن لم يَسلم له رأسُ ماله: قدْ رَبِحَ، وقيل: (الذين): صفة (أولئك)، و(فما ربحت تجارتهم) إلى آخر الآيةِ: في محلِّ رفعِ خبرُ (أولئك).

《١٧》 ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾: لمّا جاء بحقيقة صِفَتِهم.. عَقَّبَها بضربِ المثلِ زيادةً في الكشفِ، وتتميماً للبيان.

ولِضَرْبِ الأمثالِ في إبرازِ خفياتِ المعاني، ورَفْعِ الأستارِ عن الحقائقِ تأثيرٌ ظاهرٌ، ولقد كَثُرَ ذلك في الكتب السماوية، ومن سُوَرِ الإنجيلِ سورةُ الأمثالِ.

والمثلُ في أصلِ كلامِهم هو: المِثْلُ، وهو: النَّظِيرُ، يقال: مِثْلٌ ومَثَلٌ ومَثِيلٌ، كَشِبْهٍ وشَبَهٍ وشَبِيهٍ، ثم قيل للقولِ السائرِ المُمَثَّلِ مَضْرِبُه بمورِدِه: مَثَلٌ[1]، ولم يَضربوا مثلاً إلا قولاً فيه غرابةٌ، ولذا حُوفِظَ عليه فلا يُغَيَّرُ.

وقد استعيرَ المَثَلُ للحالِ أو الصفةِ أو القصةِ إذا كان لها شأنٌ وفيها غرابةٌ، كأنّه قيل: حالُهم العجيبةُ الشأنِ كحالِ الذي استوقدَ ناراً، وكذلك قولُه: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الرعد: ٣٥] أي: وفيما قصصنا عليك من العجائب قصةُ الجنةِ العجيبةِ الشأنِ، ثم أخذَ في بيانِ عجائبِها، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠] أي: الوصفُ الذي له شأنٌ من العظمةِ والجلالةِ.

ووُضِعَ (الذي) موضعَ (الذين) كقوله: ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ [التوبة: ٦٩]، فلا يكونُ تمثيلَ الجماعةِ بالواحدِ، أو: قُصِدَ جنسُ المستوقدين، أو: أُريدَ الفوجُ الذي استوقدَ ناراً، على أن ذواتِ المنافقين لم يُشَبَّهُوا بذاتِ المستوقِدِ حتى يلزمَ منه تشبيهُ الجماعةِ بالواحدِ، إنما شُبِّهَت قصتُهم بقصةِ المستوقِدِ.

= دأية: كُنيةُ الغراب الأسود، وهو غير منصرف، ولكن صرف في البيت للضرورة، وعشَّش: سَكَنَ، والوَكْرُ: عِشُّهُ، جاش: اضطرب، ومراده بالوكرين: الرأس واللحية، أو جانبا الرأس. انظر «الإكليل» (١/ ١٤٤).

(١) السائر: المشهور، الممثل: المشبه، مضربُه: ما يضرب له ثانياً، مورده: ما ورد فيه أولاً.

....

ومعنى (استوقد): أَوْقَدَ[1]، وَوُقُودُ النارِ: سُطُوعُها، والنار: جوهرٌ لطيفٌ مضيءٌ حارٌّ محرقٌ، واشتقاقُها من: نارَ يَنُورُ: إذا نفرَ؛ لأن فيها حركةً واضطراباً.

﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾ الإضاءةُ: فَرْطُ الإنارةِ، ومصداقُه قولُه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥]، وهي في الآية متعديةٌ، ويحتملُ أن تكون غيرَ متعديةٍ مسندةً إلى (ما حوله)، والتأنيثُ للحمل على المعنى؛ لأن ما حولَ المستوقدِ أماكنُ وأشياءُ، وجوابُ (فلما): ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾، وهو ظرفُ زمانٍ، والعاملُ فيه: جوابُه، مثلُ إذا، و(ما): موصولةٌ، و(حولَه): نصبٌ على الظرفِ، أو: نكرةٌ موصوفةٌ، والتقديرُ: فلما أضاءت شيئاً ثابتاً حولَه، وجَمْعُ الضميرِ وتوحيدُه للحَمْلِ على اللفظِ تارةً، وعلى المعنى أُخرى.

والنُّور: ضوءُ النارِ، وضوءُ كلِّ نَيِّرٍ، ومعنى أذهبه: أزاله وجعله ذاهباً، ومعنى ذهب به: استصحبَه ومضى به، والمعنى: أخذَ الله بنورهم وأمسكَه، ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ﴾ [فاطر: ٢]، فكان أبلغَ من الإذهاب، ولم يقل: ذهب الله بضوئهم؛ لقوله: (فلمّا أضاءت)؛ لأن ذِكْرَ النورِ أبلغُ؛ لأن الضوءَ فيه دلالةٌ على الزيادة، والمرادُ إزالةُ النور عنهم رأساً، ولو قيل: ذهب الله بضوئهم.. لأوهمَ الذهابَ بالزيادةِ وبقاءَ ما يسمَّى نوراً، ألا ترى كيف ذكر عَقِيْبَهُ: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ﴾ والظُّلْمةُ: عَرَضٌ يُنافِي النُّورَ، وكيف جَمَعَها! وكيف نَكَّرَها! وكيف أَتْبَعَها ما يدلُّ على أنها ظلمةٌ لا يَتراءَى فيها شَبَحانِ؛ وهو قوله: ﴿لَّا يُبْصِرُونَ ١٧﴾.

وترك بمعنى: طَرَحَ وخَلَّى إذا عُلِّقَ بواحد، فإذا عُلِّقَ بشيئين.. كان مُضَمَّناً معنى: صيَّر، فيجري مَجرَى أفعالِ القلوبِ، ومنه: (وتركهم في ظلمات) أصلُه: هم في ظلمات، ثم دخلَ ترك فنصبَ الجزأين، والمفعولُ الساقطُ مِن (لا يبصرون) مِن قَبِيْلِ المتروكِ المطَّرَحِ، لا مِن قبيلِ المُقدَّرِ المنويِّ؛ كأنَّ الفعلَ غيرُ متعدٍّ أصلاً.

وإنما شُبِّهَتْ حالُهم بحالِ المستوقدِ؛ لأنهم غِبَّ الإضاءة وَقَعُوا في ظلمةٍ وحَيرةٍ، نَعَمْ، المنافقُ خابطٌ في ظلماتِ الكفرِ أبداً، ولكنَّ المرادَ: ما استضاؤوا به قليلاً من الانتفاعِ بالكلمةِ المُجراةِ على ألسنتهم، ووراءَ استضاءتِهم بنورِ هذه الكلمةِ ظلمةُ النفاقِ المفضيةُ بهم إلى ظلمةِ العقابِ السَّرمدِ.

---

(١) فالسين والتاء زائدتان، فإن جعلتا للطلب.. فلا بد من تقدير؛ أي: طلبوا ناراً واستدعَوها فأوقدوها فَلَمَّا أضاءَتْ... وإنما احتيج للتقدير؛ لأن الإضاءة لا تتسبب عن الطلب، وإنما تتسبب عن الإيقاد. انظر «تفسير الألوسي» (١/ ١٦٦).

صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٌ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ ....

وللآية تفسيرٌ آخرُ، وهو أنهم لما وُصِفُوا بأنهم اشتروا الضلالةَ بالهدَى. . عُقِّبَ ذلك بهذا التمثيل؛ ليُمَثِّلَ هُداهم الذي باعوه بالنار المضيئةِ ما حولَ المستوقدِ، والضلالةُ التي اشتروها بذهابِ اللهِ بنورِهم، وتركِهِ إياهم في الظلماتِ، وتنكيرُ النارِ للتعظيم.

《١٨》 ﴿صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٌ﴾ أي: هم صمٌّ، كانت حواسُّهم سليمةً، ولكن لما سدُّوا عن الإصاخةِ إلى الحقِّ مسامِعَهم، وأَبَوا أن يُنطِقُوا به ألسنتَهم، وأن يَنظروا أو يَتَبَصَّرُوا بعيونِهم. . جُعلوا كأنما إِيْفَتْ مشاعرُهم[1].

وطريقتُه عند علماءِ البيانِ طريقةُ قولِهم: هم لُيُوثٌ، للشجعانِ، وبحورٌ، للأسخياءِ، إلّا أنَّ هذا في الصفات، وذلك في الأسماء، وما في الآية تشبيهٌ بليغٌ في الأصح، لا استعارةٌ؛ لأن المستعارَ له مذكورٌ، وهم المنافقون، والاستعارةُ إنما تُطلقُ حيثُ يُطوَى ذِكْرُ المستعارِ له، ويُجْعَلُ الكلامُ خِلْواً عنه، صالحاً لأن يُرادَ به المنقولُ عنه والمنقولُ إليه لولا دلالةُ الحالِ أو فَحْوَى الكلام.

﴿فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾: لا يعودون إلى الهدى بعد أن باعُوه، أو: عن الضلالةِ بعدَ أنِ اشترَوها؛ لِتَنَوُّعِ الرجوعِ إلى الشيءِ وعنه، أو: أراد أنهم متحيرون بَقُوا جامِدِينَ في مكانِهم لا يَبْرَحُون ولا يَدْرُون أيتقدمون أم يتأخرون؟

《١٩》 ﴿أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ﴾: ثَنَّى اللهُ سبحانه في شأنِهم بتمثيلٍ آخرَ لزيادةِ الكشفِ والإيضاحِ، وشَبَّهَ المنافقَ في التمثيلِ الأولِ بالمستوقدِ ناراً، وإظهارَه الإيمانَ بالإضاءةِ، وانقطاعَ انتفاعِه بانطفاءِ النارِ، وهنا شَبَّهَ دينَ الإسلامِ بالصَّيِّبِ؛ لأن القلوبَ تَحيا به حياةَ الأرضِ بالمطرِ، وما يتعلقُ به من شُبَهِ الكفارِ بالظلماتِ، وما فيه من الوعدِ والوعيدِ بالرعدِ والبرقِ، وما يُصيبُهم من الأفزاعِ والبلايا من جهةِ أهلِ الإسلامِ بالصواعقِ.

والمعنى: أو كَمَثَلِ ذَوِي صَيِّبٍ، فَحَذَفَ مثل؛ لدلالةِ العطفِ عليه، وذَوِي؛ لدلالةِ (يجعلون) عليه.

والمراد: كمثلِ قومٍ أخذتْهم السماءُ بهذه الصفةِ فَلَقُوا منها ما لَقُوا، فهذا تشبيهُ أشياءَ

---

(١) إِيْفَتْ: فعلٌ ماض مبني لما لم يسم فاعله، مِن: آفَ؛ أي: أصابته آفةٌ وهي: العاهة.

....

بأشياءَ، إلّا أنه لم يُصرِّحْ بذكرِ المشبَّهاتِ كما صُرِّحَ في قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ﴾ [غافر: ٥٨]، وقولِ امرئ القيسِ: [من: الطويل]

كأنَّ قلوبَ الطيرِ رَطْباً ويابساً ... لَدَى وَكْرِها العُنّابُ والحَشَفُ البالِي

بل جاءَ به مَطوِيّاً ذِكْرُه على سَنَنِ الاستعارةِ.

والصحيح: أن التَّمثيلين من جملة التمثيلاتِ المُركَّبةِ دونَ المُفرَّقةِ، لا يُتكَلَّفُ لواحدٍ واحدٍ شيءٌ يُقدَّرُ شبهُه به.

بيانه: أن العرب تأخذُ أشياءَ فُرادَى معزولاً بعضُها من بعضٍ، لم يأخذْ هذا بِحُجْزَةِ ذاك، فتُشَبِّهُها بنظائرها، كما فعلَ امرؤُ القيسِ، وتُشَبِّهُ كيفيةً حاصلةً من مجموعِ أشياءَ قد تَضامَّت وتلاصَقَت حتى عادت شيئاً واحداً.. بأخرى مِثلِها، كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا...﴾ [الجمعة: ٥] الآيةَ، فالمرادُ: تشبيهُ حالِ اليهودِ في جهلها بما معها من التوراةِ بحالِ الحمارِ في جهله بما يحملُ من أسفارِ الحكمةِ، وتَساوِي الحالتين عنده مِن حملِ أسفارِ الحكمةِ وحملِ ما سواها من الأوقارِ، لا يَشعرُ من ذلك إلا بما يمرُّ بدَفَّيْهِ من الكدِّ والتعبِ[1].

وكقوله: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الكهف: ٤٥]، فالمرادُ: قلةُ بقاءِ زهرةِ الدنيا كَقِلَّةِ بقاءِ الخَضِرِ، فهو تشبيهُ كيفيةٍ بكيفةٍ، فأما أن يُرادَ تشبيهُ الأفرادِ بالأفرادِ غيرَ منوطٍ بعضُها ببعضٍ، ومُصيرةٍ شيئاً واحداً.. فلا.

فكذلك لما وُصِفَ وقوعُ المنافقين في ضلالتِهم وما خَبَطُوا فيه من الحَيْرَةِ والدَّهْشَةِ.. شُبِّهَت حَيْرَتُهم وشدةُ الأمرِ عليهم بما يكابدُ من طَفِئَتْ نارُه بعد إيقادِها في ظلمةِ الليل، وكذلك مَن أخذته السماءُ في الليلة المظلمةِ مع رعدٍ وبرقٍ وخوفٍ من الصواعقِ، والتمثيلُ الثاني أبلغُ؛ لأنه أدَلُّ على فَرْطِ الحَيْرَةِ وشدةِ الأمرِ؛ ولذا أُخِّرَ، وهم يَتدَرَّجُون في نحو هذا من الأهونِ إلى الأغلظِ.

وعُطِفَ أحدُ التمثيلين على الآخر بـ (أو) لأنها في أصلها لِتساوِي الشيئين فصاعداً في الشكِّ عند البعض، ثم استُعيرَت لمجردِ التساوي، كقولك: جالسِ الحسنَ أو ابنَ سيرين؛ تريدُ أنهما سِيّانِ في استِصْوابِ أن يُجالَسا، وقولِه تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤] أي: الآثمُ والكفورُ سِيّانِ في وجوبِ العصيانِ، فكذا هنا معناه: أن كيفيةَ قصةِ المنافقين مُشبِهةٌ

---

(١) دفّاه: جنباه.

لِكَيْفِيَّتَي هاتينِ القصتينِ، وأنّ القصتينِ سواءٌ في استقلالِ كلِّ واحدة منهما بوجهِ التمثيلِ، فبأيَّتِهما مثّلتَها.. فأنت مصيبٌ، وإن مثّلتها بهما جميعاً.. فكذلك.

والصيب: المطرُ الذي يَصُوبُ؛ أي: ينزلُ ويقعُ، ويقال للسحاب: صيبٌ أيضاً، وتنكيرُ (صيب) لأنه نوعٌ من المطرِ شديدٌ هائلٌ، كما نُكِّرت النارُ في التمثيل الأولِ، والسماءُ: هذه المِظَلَّةُ، وعن الحسن: أنها موجٌ مكفوفٌ.

والفائدةُ في ذكر السماءِ والصيبُ لا يكونُ إلا من السماءِ: أنه جاء بالسماء معرفةً، فأفادَ أنه غَمامٌ آخِذٌ بآفاق السماءِ، ونَفَى أن يكون من سماءٍ؛ أي: من أفقٍ واحدٍ من بينِ سائرِ الآفاقِ، لأنَّ كلَّ أفقٍ من آفاقِها سماءٌ، ففي التعريفِ مبالغةٌ، كما في تنكيرِ (صيبٍ) وتركيبِه وبنائِه[1]، وفيه دليلٌ على أن السحابَ من السماءِ ينحدرُ، ومنها يأخذُ ماءَه، وقيل: إنه يأخذه من البحرِ ويرتفعُ.

(ظلمات): مرفوعٌ بالجارِّ والمجرورِ؛ لأنه قد قَوِيَ؛ لكونِه صفةً لـ: (صيب)، بخلاف ما لو قلت ابتداء: (فيه ظلمات)؛ ففيه خلافٌ بين الأخفشِ وسيبويه[2].

والرعد: الصوتُ الذي يُسمعُ من السحاب؛ لاصطكاكِ أجرامِ السحاب، أو: مَلَكٌ يَسوقُ السحابَ، والبرقُ: الذي يَلْمَعُ من السحابِ؛ مِن: بَرَقَ الشيءُ بريقاً: إذا لَمَعَ، والضميرُ في (فيه): يعودُ إلى الصيبِ، فقد جَعَلَ الصَّيِّبَ مكاناً للظلمات، فإن أريدَ به السحابُ.. فظلماتُه إذا كان أَسْحَمَ مُطْبِقاً.. ظلمتا سُحْمَتِهِ وتَطْبِيْقِه مضمومةً إليهما ظلمةُ الليلِ، وأما ظُلُماتُ المطرِ.. فظلمةُ تكاثُفِه بتتابعِ القطرِ، وظلمةُ أظلالِ غمامِه مع ظُلْمَةِ الليل.

وجعلُ الصيبِ مكاناً للرعدِ والبرقِ على إرادةِ السحابِ به ظاهرٌ، وكذا إن أُريدَ به المطرُ؛ لأنهما مُلْتَبِسانِ به في الجملة، ولم يُجْمَعِ الرعدُ والبرقُ؛ لأنهما مصدران في الأصل؛ يقال: رَعَدَتِ السماء رعداً، وبَرَقَتْ بَرْقاً، فَرُوعِيَ حكمُ الأصل بِأَنْ تُرِكَ جَمْعُهُما، ونُكِّرت هذه الأشياءُ؛ لأن المرادَ أنواعٌ منها، كأنه قيل: فيه ظلماتٌ داجيةٌ، ورعدٌ قاصفٌ، وبَرْقٌ خاطفٌ.

﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم﴾ الضميرُ لأصحابِ الصَّيِّبِ وإن كان محذوفاً، كما في قوله: ﴿أَوْ

---

(١) فتنكيره للتعظيم والتهويل، وتركيبُه أي: مادّةُ حروفه من الصاد المستعلية، والياء المشدّدة، والباء الشديدة يدل على المبالغة، وبناؤه؛ أي: صيغته؛ لأنّ (فَيعلاً) صفة مشبهة مفيدةٌ للثبوت والدوامِ المستلزمِ للكثرة. انظر «حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي» (١/٣٩٣).

(٢) الأخفش يجيز عمل الظرف وإن لم يعتمد.

﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ ....

هُمْ قَآئِلُونَ﴾ [الأعراف: ٤] لأن المحذوفَ باقٍ معناه وإن سقط لفظُه، ولا محلَّ لـ (يجعلون) لكونه مستأنَفاً؛ لأنه لما ذكرَ الرعدُ والبرقُ على ما يُؤذنُ بالشِّدَّةِ والهَوْلِ.. فكأنَّ قائلاً قال: فكيف حالُهم مع مثل ذلك الرعد؟ فقيل: (يجعلون أصابعهم في آذانهم)، ثم قال: فكيف حالُهم مع مثل ذلك البرق؟ فقال: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾.

وإنما ذَكَرَ الأصابعَ ولم يَذْكُرِ الأناملَ ورؤوسُ الأصابعِ هي التي تُجْعَلُ في الآذانِ؛ اتساعاً، كقوله: ﴿فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨] والمرادُ إلى الرُّسْغِ، ولأنَّ في ذكر الأصابعِ من المبالغةِ ما ليس في ذِكْرِ الأناملِ.

وإنما لم يذكر الأُصْبُعُ الخاصُّ الذي تُسدُّ به الأذنُ؛ لأن السبابةَ (فَعّالَة) من السَّبِّ فكان اجتنابُها أولى بآداب القرآن، ولم يَذْكُرِ المسبحةَ؛ لأنها مستحدثةٌ غيرُ مشهورةٍ.

﴿مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ﴾: متعلقٌ بـ (يجعلون)؛ أي: من أجل الصواعقِ (يجعلون أصابعَهم في آذانهم).

والصاعقةُ: قصفةُ رعدٍ تَنْقَضُّ معها شِقَّةٌ من نار، قالوا: تنقدحُ من السحاب إذا اصْطَكَّتْ أجرامُه، وهي نارٌ لطيفةٌ حَدِيدةٌ لا تَمُرُّ بشيء إلّا أَتَتْ عليه، إلا أنها معَ حِدَّتِها سريعةُ الخُمُودِ، يُحكَى أنها سقطتْ على نخلةٍ فأحرقتْ نحوَ النصفِ ثم طَفِئَتْ، ويُقال: صَعَقَتْهُ الصاعقةُ؛ إذا أَهلكَتْهُ فَصَعِقَ؛ أي: مات، إما بِشدَّةِ الصوتِ، أو بالإحراقِ.

﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾: مفعولٌ له، والموتُ: فسادُ بِنْيَةِ الحيوان، أو: عَرَضٌ لا يَصِحُّ معه إحساسٌ معاقِبٌ للحياة.

﴿وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ يعني: أنهم لا يَفُوتُونه كما لا يَفُوتُ المُحاطُ به المحيطَ، فهو مجازٌ، وهذه الجملةُ اعتراضٌ لا محلَّ لها.

«٢٠» ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾: الخطفُ: الأخذُ بسرعةٍ، وكاد: يُستعملُ لتقريبِ الفعلِ جدّاً، وموضعُ (يخطفُ): نصبٌ؛ لأنه خبرُ كادَ.

﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم﴾ (كلَّ): ظرف، و(ما): نكرةٌ موصوفةٌ، معناها الوقتُ، والعائدُ محذوفٌ؛ أي: كلَّ وقتٍ أضاءَ لهم فيه، والعاملُ فيه: جوابُها، وهو: ﴿مَّشَوْاْ فِيهِ﴾ أي: في ضوئِه، وهو استئنافٌ ثالثٌ، كأنّه جوابٌ لمن يقول: كيف يَصنعون في تارَتَي خُفُوقِ البرق وخَفْيَتِه؟

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ ....

وهذا تمثيلٌ لِشدةِ الأمرِ على المنافقين بشدَّتِه على أصحابِ الصيِّبِ، وما هم فيه من غايةِ التحيُّرِ والجهلِ بما يأتُون وما يَذَرُون، إذا صادفُوا من البرق خَفْقَةً مع خوفِ أن يَخْطَفَ أبصارَهم.. انتهزوا تلك الخَفْقَةَ فُرْصَةً فَخطَوا خُطُواتٍ يسيرةً، فإذا خَفِيَ وفَتَرَ لمعانُه.. بقُوا واقفين، و(أضاء) مُتعَدٍّ؛ أي: كلَّما نوَّرَ لهم مَمْشىً ومَسْلَكاً.. أخذوه، والمفعولُ محذوفٌ، أو: غيرُ متعدٍّ؛ أي: كلَّما لَمَعَ لهم.. مَشَوا في مَطْرَحِ نُوره، والمشْيُ: جنسُ الحركةِ المخصوصةِ، فإذا اشتدَّ.. فهو سَعْيٌ، فإذا ازدادَ.. فهو عَدْوٌ.

﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ﴾: (أظلم): غيرُ متعدٍّ، وذُكِرَ معَ (أضاء): (كلما)، ومع (أظلم): (إذا)؛ لأنهم حِراصٌ على وجودِ ما همُّهُم به معقودٌ مِن إمكانِ المشْيِ، فكلما صادفُوا منه فُرصةً.. انتهزُوها، ولا كذلك التوقفُ ﴿قَامُوا۟﴾: وقفُوا وثَبتُوا في مكانهم، ومنه: قام الماء: جَمَدَ، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ﴾ بِقَصِيفِ الرعدِ، ﴿وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ بِوَمِيْضِ البرقِ، ومفعولُ (شاء) محذوفٌ؛ لدلالةِ الجوابِ عليه؛ أي: ولو شاء الله أن يذهبَ بسمعهم وأبصارِهم.. لذهبَ بها، ولقد تَكاثرَ هذا الحذفُ في شاء، وأراد، لا يَكادُونَ يُبرزون المفعولَ إلا في الشيءِ المستَغْرَبِ كنحوِ قولِه[1]: [من: الطويل]

فلو شِئْتُ أن أبكيْ دماً لَبَكَيْتُه ... عليه ولكنْ ساحةُ الصبرِ أوسعُ

وقولِه تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ [الأنبياء: ١٧]، ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [الزمر: ٤]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ أي: إن الله قادرٌ على كل شيء.

《٢١》 لـمّا عدَّدَ الله فِرَقَ المكلفين من المؤمنين والكفارِ والمنافقين، وذَكَرَ صفاتِهم وأحوالَهم، وما اختصت به كلُّ فرقةٍ مما يُسعدُها ويُشقيها، ويُحظِيها ويُردِيها.. أقبلَ عليهم بالخطاب، وهو من الالتفاتِ المذكورِ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ قال علقمة: ما في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾.. فهو خطابٌ لأهلِ مكةَ، وما فيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.. فهو خطابٌ لأهلِ المدينةِ، وهذا خطابٌ لمشركي مكةَ، و(يا): حرفٌ وضعَ لنداءِ البعيدِ، وأيْ والهمزةُ: للقريب، ثم استعملَ في مناداةِ مَن غَفل وسَها وإن قَرُبَ ودَنا؛ تنزيلاً له منزلةَ مَنْ بَعُدَ ونأى، فإذا نُوديَ به القريبُ المُفاطِنُ.. فذاك للتأكيدِ المؤذِنِ بأنَّ الخطابَ الذي يَتْلُوه مُعْتَنىً به جِدّاً، وقولُ الداعي: يا ربِّ وهو أقربُ إليه من حبلِ الوريدِ.. استقصارٌ منه لنفسه، واستبعادٌ لها من مَظانِّ الزُّلفى؛ هضماً لنفسه، وإقراراً عليها بالتفريط، مع فَرْطِ التَّهالُكِ على استجابةِ دعوتِه.

---

(١) قائله: إسحاق بن حسان الخريمي. انظر «الكامل» للمبرد (٤/ ٣).

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ ....

وأي: وُصْلَةٌ إلى نداء ما فيه الألف واللام، كما أنَّ ذو والذي: وُصلتانِ إلى الوصفِ بأسماءِ الأجناسِ، ووصفِ المعارفِ بالجُملِ، وهو اسمٌ مبهمٌ يفتقرُ إلى ما يُزيلُ إبهامَه، فلا بدَّ أنْ يَرْدَفَه اسمُ جنسٍ أو ما يجري مجراه يتصفُ به حتى يَتَّضِحَ المقصودُ بالنداءِ، فالذي يعمل فيه يا: أيٌّ، والتابعُ له صفتُه، نحو: يا زيدُ الظريفَ، إلا أنَّ أيّاً لا يستقلُّ بنفسِه استقلالَ زيد، فلم ينفكَّ عن الصفةِ، وكلمةُ التنبيهِ المقحمةُ بينَ الصفةِ وموصوفِها لتأكيدِ معنى النداءِ؛ وللعوضِ عمّا يستحقُّه أيٌّ من الإضافة.

وكثُرَ النداءُ في القرآن على هذه الطريقةِ؛ لأن ما نادى الله به عبادَه من أوامره ونواهيْه ووعدِه ووعيدِه أمورٌ عِظامٌ، وخُطوبٌ جِسامٌ، يجبُ عليهم أن يَتَيَقَّظُوا لها ويميلُوا بقلوبهم إليها، وهم عنها غافلون، فاقتضَت الحالُ أن ينادَوا بالآكدِ الأبلغِ.

﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾: وَحِّدُوه، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كلُّ عبادة في القرآن فهي توحيد، ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾: صفةٌ مُوضِّحَةٌ مُمَيِّزَةٌ؛ لأنهم كانوا يسمُّون الآلهةَ أرباباً، والخلقُ: إيجادُ المعدومِ على تقديرٍ واستواءٍ، وعندَ المعتزلةِ: إيجادُ الشيءِ على تقديرٍ واستواءٍ، وهذا بناءً على أن المعدومَ شيءٌ عندَهم؛ لأن الشيءَ ما صحَّ أن يُعلمَ ويُخبرَ عنه عندَهم، وعندنا: هو اسمٌ للموجودِ، ﴿خلقكم﴾: بالإدغام: أبو عمرو[1]، ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾: احتج عليهم بأنه خالقُهم وخالقُ مَن قبلَهم؛ لأنهم كانوا مُقِرِّينَ بذلك، فقيل لهم: إذ كنتم مُقِرِّينَ بأنه خالقُكم.. فاعبدوه، ولا تعبدوا الأصنامَ؛ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ أي: اعبدُوا على رجاءِ أن تَتَّقُوا فَتَنْجُوا بسببه من العذاب، ولعل: للترجي والإطماع، ولكنَّه إطماعٌ من كريم، فيجري مَجرَى وعدِه المحتومِ وفاؤُه، وبه قال سيبويه، وقال قُطْرُبٌ: هو بمعنى: كي؛ أي: لكي تتقوا[2].

《٢٢》 ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: صيَّرَ، ومحلُّ الذي: نصبٌ على المدح، أو: رفعٌ بإضمارِ: هو، ﴿فِرَٰشًا﴾: بساطاً تقعُدون عليها، وتنامون وتتقلبون، وهو مفعولٌ ثانٍ لـ(جعل)، وليس فيه دليلٌ على أن الأرض مُسَطَّحَةٌ، أو كُرِيَّةٌ؛ إذِ الافتراشُ ممكن على التقديرين[3]، ﴿وَٱلسَّمَآءَ

---

(١) برواية السوسي. انظر «البدور الزاهرة» (ص٢٦).

(٢) نقل ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١/ ١٠٥) عن سيبويه وأئمة اللغة أنها للترجي صادراً من البشر؛ أي: راجين التقوى.

(٣) ولكن ثبت علمياً بالمشاهدة أن الأرض كرة، فلم يبقَ لهذا الخلاف اعتبار.

....

﴿بِنَآءً﴾: سقفاً، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢]، وهو مصدرٌ سُمِّيَ به المبنيُّ، ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾: مطراً، ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ﴾: بالماء، نَعَمْ، خروجُ الثمراتِ بقدرتِه ومشيئتِه وإيجادِه، ولكنْ جعلَ الماءَ سبباً في خروجِها، كماءِ الفحلِ في خلقِ الولدِ، وهو قادرٌ على إنشاءِ الكلِّ بلا سببٍ، كما أنشأَ نفوسَ الأسبابِ والموادِّ، ولكنَّ له في إنشاءِ الأشياءِ مُدرِّجاً لها من حالٍ إلى حالٍ، وناقلاً من مرتبةٍ إلى مرتبةٍ.. حِكَماً وعِبَراً لِلنُّظَّارِ بعيونِ الاستبصارِ، و(مِن) في: ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾: للتبعيض، أو: للبيان، ﴿رِزْقًا﴾: مفعولٌ له إن كانت للتبعيض[1]، ومفعولٌ به لـ(أخرج) إن كانت للبيان[2]، وإنما قيل: (الثمرات) دون الثمرِ والثمارِ وإن كان الثمرُ المخرجُ بماءِ السماءِ كثيراً؛ لأن المرادَ جماعةُ الثمرةِ؛ ولأن الجموعَ يَتَعاوَرُ بعضُها موقعَ بعضٍ؛ لالتقائِها في الجَمْعِيَّةِ[3]، ﴿لَّكُمْ﴾: صفةٌ جاريةٌ على الرِّزْقِ إن أريد به العينُ، وإن جعل اسماً للمعنى.. فهو مفعولٌ به، كأنه قيل: رِزْقاً إياكم[4]، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ هو متعلِّقٌ بالأمرِ؛ أي: اعبدوا ربَّكم فلا تجعلوا له أنداداً؛ لأن أصلَ العبادةِ وأساسَها التوحيدُ وألّا يُجعلَ له نِدٌّ، ولا شريكٌ، ويجوزُ أن يكون (الذي) رفعاً على الابتداءِ، وخبرُه: (فلا تجعلوا)، ودخولُ الفاءِ لأن الكلامَ يتضمنُ الجزاءَ؛ أي: الذي حفَّكم بهذه الآياتِ العظيمةِ والدلائلِ النيِّرَةِ الشاهدةِ بالوحدانيةِ.. فلا تتخذوا له شركاءَ.

والنِّدُّ: المثل، ولا يقال إلا للمِثْلِ المخالِفِ المناوِئِ، ومعنى قولِهم: ليس لله نِدٌّ، ولا ضِدٌّ: نَفْيُ ما يَسُدُّ مَسَدَّهُ، ونَفْيُ ما يُنافِيه.

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أنها لا تخلقُ شيئاً، ولا تَرْزُقُ، واللهُ الخالقُ الرازقُ، أو: مفعولُ (تعلمون) متروكٌ؛ أي: وأنتم من أهل العلم، وجَعْلُ الأصنامِ لله أنداداً غايةُ الجهلِ، والجملةُ: حالٌ من الضمير في: (فلا تجعلوا).

---

(١) ويكون (رِزقاً) مراداً به المصدرُ؛ والمعنى: أخرج بعضَ الثمراتِ لِرَزْقِكُم.

(٢) ويكون (رزقاً) اسماً للشيء المرزوق؛ والمعنى: أخرج رِزْقاً لكم هو الثمرات.

(٣) أي: أن (الثمرات) جمع قلة، مع أن ما يخرج من الثمر كثيرٌ، فَلِمَ لم يُؤْتَ بجمع الكثرة؟ والجواب: أن مفرد (الثمرات): الثمرةُ المرادُ بها الثمار، فكلُّ فردٍ من أفرادِ الثمراتِ دالٌّ على جمعٍ، فـ(الثمرات) كأنها جمع الجمع، فصارت جمعَ كثرة بهذا الاعتبار، ويجاب أيضاً: بأن الجموع تتعاور؛ أي: يقوم بعضُها مقامَ الآخر.

(٤) أي: إن قصد بـ(رزقاً) العينُ؛ أي: الشيء المرزوق.. فيكون (لكم) متعلقاً بصفةِ (رزقاً)؛ أي: كائناً لكم، وإن قصد بـ(رزقاً) أن يكون اسماً للمعنى؛ أي: مصدراً.. فيكون (لكم) متعلقاً بـ(رزقاً)، والضمير المجرور باللام في محل نصب مفعولٌ به للمصدر.

﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ ....

《٢٣》 ولما احتجَّ عليهم بما يُثْبِتُ الوحدانيةَ ويُبطلُ الإشراكَ؛ لخلقِهم أحياءً قادرين، وخلقِ الأرضِ التي هي مَثواهم ومُسْتَقَرُّهم، وخَلقِ السماءِ التي هي كالقُبَّةِ المضروبةِ، والخَيْمَةِ المُطَنَّبَةِ على هذا القرار[١]، وما سَوَّاه عزَّ وجلَّ مِنْ شِبْهِ عَقْدِ النكاح بين المُقِلَّةِ والمُظِلَّةِ[٢]؛ بإنزالِ الماءِ منها عليها، والإخراجِ به من بطنِها أشباهَ النسلِ من الثمارِ رزقاً لبني آدم، فهذا كلُّه دليلٌ موصلٌ إلى التوحيد، مبطلٌ للإشراك؛ لأن شيئاً من المخلوقات لا يقدِرُ على إيجادِ شيءٍ منها.. عطف على ذلك ما هو الحجةُ على إثباتِ نبوةِ محمدٍ ﷺ، وما يُقَرِّرُ إعجازَ القرآنِ فقال:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا﴾ (ما): نكرةٌ موصوفةٌ، أو بمعنى: الذي، ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾: محمدٍ عليه السلام، والعبد: اسم لمملوك من جنسِ العقلاءِ، والمملوكُ موجودٌ قُهِرَ بالاستيلاءِ، وقيل: (نزلنا) دون أنزلنا؛ لأن المرادَ النزولُ على سبيل التدريج والتنجيم، وهو من مَحَازِّه لمكان التحدي[٣]، وذلك أنهم كانوا يقولون: لو كان هذا من عند الله.. لم ينزِلْ هكذا نجوماً؛ سورةً بعدَ سورةٍ، وآياتٍ غِبَّ آياتٍ على حَسَبِ النوازلِ[٤]، وعلى سَنَنِ ما نَرى عليه أهلَ الخطابةِ والشعرِ مِن وُجودِ ما يُوجَدُ منهم مُفَرَّقاً حيناً فحيناً، شيئاً فشيئاً، لا يُلْقِي الناظمُ ديوانَ شِعْرِه دُفْعَةً، ولا يرمِي الناثرُ بِخُطَبِهِ ضَرْبَةً، فلو أنزلَه اللهُ.. لأنزلَه جُمْلَةً، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢]، فقيل: إنِ ارْتبتم في هذا الذي وَقَعَ إنزالُه هكذا على تدريج.. ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ﴾ أي: فهاتوا أنتم نَوْبَةً واحدةً مِن نُوَبِهِ، وهَلُمُّوا نجماً فرداً مِن نُجُومِه: سورةً مِن أصغرِ السُّوَرِ، والسُّورةُ: الطائفةُ من القرآن، المترجمةُ[٥]، التي أقلُّها ثلاثُ آياتٍ، وَوَاوُها إن كانت أصلاً.. فإما أن تُسمَّى بِسُورِ المدينةِ وهو حائِطُها؛ لأنها طائفةٌ من القرآن محدودةٌ مَحُوزةٌ على حيالِها، كالبلدِ المُسَوَّرِ؛ أو لأنها محتويةٌ على فُنُونٍ من العلم،

---

(١) **المطنبة**: المشدودة بالأطناب، وهي الحبال.

(٢) **المقلة**: الأرض؛ لأنها تُقل من فوقَها؛ أي: تحملهم، **والمظلة**: السماءُ.

(٣) **المَحازُّ**: جمع مَحَزٍّ، وهو موضع الحزِّ؛ أي: القطع، ومراده: أن هذه الآية موضعٌ مناسبٌ لاعتبار التدريج في نزوله؛ لأنه موضع تحدٍّ، والتحدي بأن يأتوا بمثل نجم من نجومه أسهلُ من أن ينزل جملة واحدة ويُتحدّى به؛ لأن التحدي بالأسهل أبلغُ في إقامة الحجة. انظر «الإكليل» (١/ ٢٠٦).

(٤) **غِبَّ آيات**: بعد آيات.

(٥) **المترجمةُ**: المسماةُ باسمٍ خاصٍّ.

....

وأجناسٍ من الفوائدِ، كاحتواءِ سُورِ المدينةِ على ما فيها، وإما أن تُسمَّى بالسورةِ التي هي الرتبةُ؛ لأن السُّوَرَ بمنزلة المنازلِ والمراتبِ، يَترَقَّى فيها القارئُ، وهي أيضاً في نفسها مُرتَّبَةٌ؛ طِوالٌ، وأوساطٌ، وقِصارٌ، أو: لِرِفْعَةِ شأنِها، وجَلالَةِ مَحلِّها في الدين، وإن كانت منقلبةً عن همزة.. فلأنها قِطعةٌ وطائفةٌ من القرآن، كالسُّؤْرَةِ التي هي البقيةُ مِنَ الشيء.

وأما الفائدةُ في تفصيلِ القرآنِ وتقطيعِه سُوَراً.. فهي كثيرة؛ ولذا أنزلَ الله تعالى التوراة والإنجيلَ والزبورَ وسائرَ ما أوحاه إلى أنبيائِه مُسَوَّرَةً مترجمةَ السُّوَرِ، وبَوَّبَ المصنفون في كلِّ فَنٍّ كُتُبَهم أبواباً مُوَشَّحَةَ الصُّدُوْرِ بالتراجِم:

منها: أن الجنسَ إذا انطوتْ تحتَه أنواعٌ، واشتملَ على أصنافٍ.. كانَ أحسنَ من أن يكونَ بياناً واحداً.

ومنها: أن القارئَ إذا ختمَ سُورةً، أو باباً من الكتابِ، ثم أخذَ في آخرَ.. كان أنشطَ له، وأَبْعَثَ على الدَّرْسِ والتحصيلِ منه لوِ استمرَّ الكتابُ بِطُولِه، ومِن ثَمَّ جَزَّأَ القُراءُ القرآنَ أسباعاً وأجزاءً وعُشُوراً وأخماساً.

ومنها: أن الحافظَ إذا حَذَقَ السُّورة.. اعتقدَ أنه أخذَ من كتابَ اللهَ طائفةً مستقلةً بنفسِها، لها فاتحةٌ وخاتمةٌ، فَيَعْظُمُ عنده ما حَفِظَهُ، وَيَجِلُّ في نفسِه، ومنه: حديثُ أنسٍ رضيَ اللهُ عنه: كان الرجلِ إذا قرأَ البقرةَ وآلَ عمرانَ.. جلَّ فينا[1]. ومن ثمَّ كانت القراءةُ في الصلاةِ بسورةٍ تامّةٍ أفضلَ.

﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾: متعلقٌ بسورةٍ صفةٌ لها، والضميرُ لـ (ما نزلنا) أي: بسورةٍ كائنةٍ مِنْ مثلِه؛ يعني: فأتوا بسورةٍ مما هو على صفتِهِ في البيانِ الغريبِ، وعلوِّ الطبقةِ في حُسْنِ النظم؛ أو لعبدِنا؛ أي: فأتوا ممن هو على حالِه من كونِه أُمِّيّاً لم يقرأ الكتبَ، ولم يأخذْ من العلماءِ، ولا قصدَ إلى مثلٍ ونظيرٍ هنالك[2]، وَرَدُّ الضميرِ إلى المنزلِ أولى؛ لِقولِه تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [يونس: ٣٨]، ﴿فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [هود: ١٣]، ﴿عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٨] ولأن الكلامَ مع ردِّ الضميرِ إلى المنزلِ أحسنُ ترتيباً، وذلك أن الحديثَ

---

(١) رواه البيهقي في «إثبات عذاب القبر» (ص ٥٦) عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

(٢) أي: ليس المقصود بقوله: (من مثله) أن هناك مثلاً يطلب الإتيان بسورة منه، وهذا كما يقال: (مثلك لا يدع الصلاة)، فالمراد: من كان على صفتك. انظر «الإكليل» (١/ ٢١٥).

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ ....

في المنزَلِ، لا في المنزَلِ عليهِ، وهو مَسُوْقٌ إليه؛ فإن المعنى: وإنِ ارتبتم في أن القرآنَ منزلٌ من عند الله.. فهاتُوا أنتم نُبَذاً مما يماثِلُه، وقضيةُ الترتيبِ لو كان الضميرُ مردوداً إلى رسول الله ﷺ.. أنْ يُقالَ: وإن ارتبتم في أن محمداً منزلٌ عليه.. فهاتُوا قرآناً من مثلِه؛ ولأن هذا التفسيرَ يُلائمُ قولَه: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم﴾: جمعُ شهيدٍ؛ بمعنى: الحاضرِ، أو: القائمِ بالشهادة، ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: غيرَ اللهِ، وهو متعلقٌ بـ: (شهداءكم) أي: ادعوا الذين اتخذتموهم آلهةً من دون الله، وزعمتم أنهم يشهدون لكم يومَ القيامةِ أنكم على الحقِّ، أو: مَن يَشهدُ لكم بأنه مثلُ القرآن، ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ أنَّ ذلك مختلقٌ، وأنه من كلام محمدٍ ﷺ، وجوابُ الشرطِ محذوفٌ يدلُّ عليه ما قبله؛ أي: إن كنتم صادقين في دعواكم.. فأتُوا بمثلِه، واستعينُوا بآلهتكم على ذلك.

«٢٤» ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾: لما أرشدَهم إلى الجهةِ التي منها يتعرفون صدقَ النبيِّ عليه السلام.. قال لهم: فإذا لم تُعارِضوه، وبانَ عَجْزُكم، وَوَجَبَ تصديقُه.. فآمِنُوا، وخافُوا العذابَ المُعَدَّ لمن كَذَّبَ وعانَدَ، وفيه دليلانِ على إثباتِ النبوةِ:

صحة كون المتحدَّى به معجزاً، والإخبارُ بأنهم لن يفعلوا، وهو غيبٌ لا يَعْلَمُه إلا اللهُ.

ولما كان العَجْزُ عن المعارضةِ قبلَ التأملِ كالمشْكُوْكِ فيه لَدَيْهِم؛ لاتِّكالِهم على فَصاحَتِهم، واعتمادِهم على بلاغتِهم.. سِيْقَ الكلامُ معَهم على حَسَبِ حُسبانِهم، فَجِيءَ بـ: (إنْ) الذي للشك، دون (إذا) الذي للوجوب[1]، وعبَّرَ عن الإتيانِ بالفعل؛ لأنه فِعْلٌ من الأفعال، والفائدةُ فيه: أنه جارٍ مَجرَى الكنايةِ التي تُعطيك اختصاراً؛ إذْ لو لم يُعْدَلْ مِن لَفْظِ الإتيانِ إلى لفظِ الفعلِ.. لاسْتُطِيْلَ أنْ يُقالَ: (فإن لم تأتوا بسورةٍ مِن مِثلِه، ولن تأتُوا بسورةٍ من مثله)[2].

ولا محلَّ لقوله: (ولن تفعلوا)؛ لأنها جملةٌ اعتراضيةٌ، وَحَسَّنَ هذا الاعتراضَ أن لفظ الشرطِ للتردُّدِ، فقَطَعَ الترددَ بقوله: (ولن تفعلوا)، ولا، ولن: أُختانِ في نَفْيِ المستقبل، إلا أن

---

(١) أي: إن قيل: عدمُ إتيانهم بمثله أمرٌ مقطوعٌ به، فيناسبه (إذا) لأنها تستعمل في الأمر المتيقَّنِ حصُولُه.. فالجوابُ أن الكفار ليسوا على يقين من العجز عن المعارضة، فاستعملت (إن) لتناسب حالهم من ظنهم القدرة على ذلك.

(٢) أي: أن قوله: (لم تفعلوا) أجري مجرى الضمير في أنه إذا تقدم أشياءُ.. يُجاءُ به، أو باسم الإشارة فيُعَبَّرُ بهما عن تلك الأشياء، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]. انظر «فتوح الغيب» (١/ ٣٣٤).

في لَنْ تأكيداً، وعن الخليل: أصلُها: لا أن[1]، وعندَ الفراءِ: لا، أُبْدِلَتْ ألفُها نوناً، وعند سيبويه: حرفٌ موضوعٌ لتأكيدِ نَفْيِ المستقبلِ. وإنما عُلِمَ أنه إخبارٌ عن الغيبِ على ما هو به حتى صارَ معجزةً؛ لأنهم لو عارضُوه بشيءٍ.. لاشتهرَ، فكيف والطاعنون فيه أكثرُ عدداً مِن الذّابِّينَ عنه؟

وشَرَطَ في اتقاءِ النارِ انتفاءَ إتيانِهم بسورةٍ من مثلِه؛ لأنهم إذا لم يأتوا بها وتَبَيَّنَ عجزُهم عن المعارضة.. صحَّ عندهم صدقُ الرسولِ، وإذا صحَّ عندَهم صدقُه ثم لزمُوا العنادَ وأبَوا الانقيادَ.. استوجبوا النار، فقيل لهم: إنِ استبنتم العجزَ.. فاتركُوا العنادَ، فَوُضِعَ: (فاتقوا النار) مَوْضِعَهُ؛ لأن اتقاءَ النارِ سببُ تركِ العنادِ، وهو من باب الكناية، وهي مِن شُعَبِ البلاغةِ، وفائدتُه: الإيجازُ الذي هو من حِلْيَةِ القرآن[2].

والوَقُودُ: ما تُرفعُ به النارُ؛ يعني: الحطبَ، وأما المصدرُ.. فمضمومٌ، وقد جاء فيه الفتحُ، وصلةُ الذي والتي يجبُ أن تكون معلوماً للمخاطبِ، فيحتملُ أن يكونوا سمعُوا من أهل الكتاب، أو من رسولِ الله، أو سمعُوا قبلَ هذه الآيةِ قولَه تعالى: ﴿نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦]، وإنما جاءت النارُ مُنكَّرَةً ثَمَّ، ومُعَرَّفَةً هنا؛ لأن تلك الآيةَ نزلت بمكةَ، ثم نزلت هذه الآيةُ بالمدينةِ مُشاراً بها إلى ما عرفوه أولاً.

ومعنَى قولِه تعالى: (وقودها الناس والحجارة): أنها نارٌ ممتازةٌ عن غيرِها من النيران بأنَّها تَتَّقِدُ بالناس والحجارةِ، وهي حجارةُ الكبريتِ، فهي أشدُّ تَوَقُّداً، وأبطأُ خُموداً، وأَنْتَنُ رائحةً، وأَلْصَقُ بالبدنِ، أو: الأصنامُ المعبودةُ، فهي أشدُّ تحسراً[3]، وإنما قُرِنَ الناسُ بالحجارة؛ لأنهم قَرَنُوا بها أنفسَهم في الدنيا؛ حيثُ عبدُوها وجعلُوها لله أنداداً، ونحوُه: قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] أي: حَطَبُها، فَقَرَنَهُمْ بها مُحَمَّاةً في نار جهنمَ إبلاغاً في إيلامِهم. ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ٢٤﴾: هُيِّئَتْ لهم، وفيه دليلٌ على أن النارَ مخلوقةٌ، خلافاً لما يقولُه جَهْمٌ.

---

(١) «الكتاب» لسيبويه (٣/ ٥).

(٢) **الكناية**: لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه، فقوله: (فاتقوا النار): كنايةٌ عن ترك العناد؛ لأنه يلزم من اتقاء النار ترك العناد. انظر «البلاغة العربية» (٢/ ١٢٧).

(٣) **التحسُّر**: الندم الشديد على ما فات.

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥﴾ ....

《٢٥》 سنةُ اللهِ في كتابِه أن يذكرَ الترغيبَ مع الترهيبِ؛ تنشيطاً لاكتسابِ ما يُزْلِفُ، وتَثْبِيطاً عن اقترافِ ما يتلفُ، فلما ذكرَ الكفارَ وأعمالَهم، وأَوْعَدَهم بالعقاب.. قَفّاه بذكرِ المؤمنين وأعمالِهم وتبشيرِهم بقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، والمأمورُ بقوله: (وبشر): الرسولُ عليه السلام، أو: كلُّ أحدٍ، وهذا أحسنُ؛ لأنه يُؤْذِنُ بأن الأمر لِعِظَمِهِ وفخامةِ شأنِه مَحْقُوْقٌ بأن يُبَشِّرَ به كلُّ مَن قَدَرَ على البِشارةِ به.

وهو معطوفٌ على: ﴿فَٱتَّقُواْ﴾، كما تقول: يا بني تميمٍ احذَرُوا عقوبةَ ما جَنَيْتُمْ، وبَشِّرْ يا فلانُ بني أَسَدٍ بإحساني إليهم، أو: جملةُ وصفِ ثوابِ المؤمنين معطوفةٌ على جملةِ وصفِ عقابِ الكافرين، كقولك: زيدٌ يعاقَبُ بالقيد والإرهاقِ، وبَشِّرْ عَمْراً بالعفْوِ والإطلاق.

والبشارةُ: الإخبار بما يُظْهِرُ سرورَ المخبَرِ به، ومِن ثَمَّ قال العلماء: إذا قال لعبيدِه: أَيُّكم بَشَّرني بقدوم فلانٍ فهو حُرٌّ، فَبَشَّرُوه فُرادَى.. عَتَقَ أولُهم؛ لأنه هو الذي أظهرَ سرورَه بخبرِه دون الباقين، ولو قال: أَخْبَرَني مكانَ بشرني.. عتقُوا جميعاً؛ لأنهم أخبروه.

ومنه البَشَرَةُ: لظاهرِ الجلدِ، وتباشيرُ الصبحِ: ما ظهر من أوائلِ ضوئِه، وأما ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١] فمنَ العكسِ في الكلام الذي يُقصدُ به الاستهزاءُ الزائدُ في غيظِ المستهزَأِ به، كما يقولُ الرجلُ لِعَدُوِّهِ: أَبشرْ بِقتل ذُرِّيَتِكَ وَنَهْبِ مالك.

والصالحةُ: نحوُ الحسنةِ في جَرْيِها مَجرى الاسم، والصالحاتُ: كلُّ ما استقامَ من الأعمال بدليل العقلِ والكتابِ والسنةِ، واللامُ: للجنس، والآيَةُ حجةٌ على من جعل الأعمالَ إيماناً؛ لأنه عَطَفَ الأعمالَ الصالحةَ على الإيمانِ، والمعطوفُ غيرُ المعطوفِ عليه، ولا يقال: إنكم تقولون: يجوزُ أن يدخلَ المؤمنُ الجنةَ بدون الأعمالِ الصالحةِ واللهُ تعالى بشَّرَ بالجنةِ لمن آمنَ وعملَ صالحاً؛ لأن البشارةَ المطلقةَ بالجنةِ شرطُها اقترانُ الأعمالِ الصالحةِ بالإيمانِ، ولا نجعلُ لصاحب الكبيرةِ البشارةَ المطلقةَ، بل نُثبتُ بشارةً مقيدةً بمشيئةِ الله، إنْ شاء.. غفرَ له، وإن شاء.. عذَّبَه بقدر ذنوبِه ثم يدخله الجنة.

﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾ أي: بأن لهم، وموضعُ (أنَّ) وما عملت فيه: النصبُ بـ (بشِّر) عند سيبويه، خلافاً للخليل، وهو كثيرٌ في التنزيل[١]، والجنةُ: البستانُ من النخلِ والشجرِ المتكاثفِ، والتركيبُ دائرٌ على معنى السَّتْرِ، ومنه: الجِنُّ والجُنونُ والجَنِيْنُ والجَنَّةُ والجانُّ والجَنانُ، وسمِّيت دارُ الثوابِ جنةً؛ لما فيها من الجِنان.

والجنةُ مخلوقةٌ؛ لقوله تعالى: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾، خلافاً لبعضِ المعتزلةِ، ومعنى جمعِ الجنةِ وتنكيرِها: أن الجنةَ اسمٌ لدارِ الثوابِ كلِّها، وهي مشتملةٌ على جنانٍ كثيرةٍ مرتبةٍ مراتبَ بحَسَبِ أعمالِ العاملين؛ لكلِّ طبقةٍ منهم جناتٌ من تلك الجنانِ.

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الجملةُ: في موضعِ النصبِ صفةٌ لـ (جناتٍ)، والمرادُ: من تحتِ أشجارِها، كما ترى الأشجارَ النابتةَ على شواطئِ الأنهارِ الجاريةِ، وأنهارُ الجنةِ تجري في غيرِ أُخْدُوْدٍ، وأَنْزَهُ البساتينِ ما كانت أشجارُها مُظِلَّةً، والأنهارُ في خِلالِها مُطَّرِدَةً، والجَرْيُ: الاطِّرادُ، والنهر: المجرَى الواسعُ، فوقَ الجدولِ ودونَ البحرِ، يقال للنيلِ: نهرُ مصرَ، واللغةُ العاليةُ: النَّهَرُ[٢]، ومدارُ التركيبِ على السَّعَةِ، وإسنادُ الجَرْيِ إلى الأنهارِ مجازيٌّ[٣]، وإنما عَرَّفَ الأنهارَ؛ لأنه يحتملُ أن يُرادَ بها أنهارُها، فَعُوِّضَ التعريفُ باللامِ من تعريفِ الإضافةِ، كقوله تعالى: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤][٤]، أو: يُشارُ باللام إلى الأنهارِ المذكورةِ في قوله: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ...﴾ الآية [محمد: ١٥] الآيةَ، والماءُ الجاري من النعمة العظمَى، واللذةِ الكُبْرَى؛ ولذا قَرَنَ اللهُ تعالى الجناتِ بذكرِ الأنهارِ الجاريةِ، وقَدَّمَهُ على سائرِ نعوتها.

﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟﴾: صفةٌ ثانيةٌ لـ (جنات)، أو جملةٌ مستأنفةٌ؛ لأنه لما قيل: إن لهم جناتٍ.. لم يَخلُ خَلَدُ السامعِ أن يقعَ فيه[٥]: أثمارُ تلك الجناتِ أشباهُ ثمارِ جناتِ الدنيا أم أجناسٌ أخرُ لا تُشابِهُ هذه الأجناسَ؟ فقيل: إن ثمارَها أشباهُ ثمارِ جناتِ الدنيا؛ أي: أجناسُها أجناسُها وإن تَفاوَتَتْ إلى غايةٍ لا يعلمها إلا الله.

---

(١) إذا حذف حرف الجرّ قبل أن المصدرية.. فالمصدر المؤول منصوب بنزع الخافض عند سيبويه، ومجرور بحرف الجر المقدر عند الخليل. انظر «شرح الكافية الشافية» (٢/ ٦٣٤).

(٢) أي: اللغة الفصيحة بفتح هاء نَهَر.

(٣) أي: مجاز عقلي، من إسناد الفعل إلى محلّه، والأصلُ: جَرَى ماءُ النَّهَرِ.

(٤) أي: رأسي.

(٥) الخَلَدُ: العقل.

....

﴿مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى﴾ أي: كلما رزقوا من الجنات من أيِّ ثمرةٍ كانت، مِن تُفّاحِها، أو رُمّانِها، أو غيرِ ذلك رزقاً.. قالوا ذلك، فـ (مِن) الأولى والثانيةُ كلتاهما: لابتداء الغاية؛ لأن الرزقَ قد ابتدئَ من الجناتِ، والرزقَ من الجنات قد ابتُدئَ من ثَمَرةٍ، ونظيرُه: أن تقول: رَزَقَنِي فلانٌ، فيقال لك: من أين؟ فتقول: مِن بُستانِه، فيقال: مِنْ أيِّ ثمرةٍ رَزَقَكَ من بستانِه؟ فتقول: من الرُّمانِ، وليس المراد بالثمرةِ التفاحةَ الواحدةَ، أو الرمانة الفَذَّةَ[1]، وإنما المرادُ نوعٌ من أنواع الثمار، ﴿رُزِقْنَا﴾ أي: رُزِقْناهُ، فَحُذِفَ العائدُ، ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبلِ هذا، فلما قُطِعَ عن الإضافة بُنِيَ، والمعنَى: هذا مثلُ الذي رُزِقناهُ من قبلُ وشِبْهُهُ؛ بدليل قولِه: ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾، وهذا كقولك: أبو يوسفَ أبو حنيفة؛ تريدُ أنه لاستحكامِ الشَّبَهِ كأن ذاتَه ذاتُه.

والضميرُ في (به): يرجع إلى المرزوقِ في الدنيا والآخرةِ جميعاً؛ لأن قولَه: (هذا الذي رزقنا من قبل) انطَوى تحتَه ذِكْرُ ما رُزِقُوه في الدارين.

وإنما كان ثمارُ الجنةِ مثلَ ثمارِ الدنيا ولم تكن أجناساً أُخَرَ؛ لأن الإنسانَ بالمألوفِ آنَسُ، وإلى المعهودِ أَمْيَلُ، وإذا رأى ما لم يألَفْهُ.. نَفَرَ عنه طَبْعُهُ، وعافَتْهُ نفسُه؛ ولأنه إذا شاهدَ ما سلفَ له به عهدٌ، ورأى فيه مَزِيّةً ظاهرةً، وتفاوتاً بَيِّناً.. كان استعجابُه به أكثرَ، واستغرابُه أوفرَ، وتكريرُهم هذا القولَ عندَ كلِّ ثمرةٍ يُرْزَقُونَها.. دليلٌ على تناهي الأمرِ وتمادِي الحالِ في ظهورِ المزيَّةِ، وعلى أن ذلك التفاوتَ العظيمَ هو الذي يَسْتَمْلِي تعجبَهم في كلِّ أوانٍ.

أو إلى الرزق[2]، كما أن (هذا) إشارةٌ إليه، والمعنَى: أن ما يُرْزَقُونَهُ من ثمرات الجنةِ يأتيهم متجانِساً في نفسِه، كما يُحكَى عن الحسن: يؤتى أحدُهم بالصحفةِ فيأكلُ منها، ثم يُؤتَى بالأُخرى فيقول: هذا الذي أُتِينا به من قبلُ، فيقول الملك: كُلْ؛ فَاللونُ واحدٌ والطعمُ مختلفٌ. وعنه عليه السلام: «والذي نفسُ محمدٍ بيده إن الرجلَ من أهل الجنةِ ليتناولُ الثمرةَ ليأكلها فَما هي بِواصلةٍ إلى فِيْهِ حتى يُبْدِلَها اللهُ مكانَها مثلَها»[3]، فإذا أبصرُوها والهيئةُ هيئةُ الأولى.. قالوا ذلك.

---

(١) الفذة: الواحدة.

(٢) معطوف على قوله: (إلى المرزوق).

(٣) روى الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٤٤٩) عن سيدنا ثوبان رضي الله عنه مرفوعاً: «لا ينزعُ رجلٌ من أهل الجنة من ثمرها شيئاً إلا أخلفَ اللهُ مكانَها مثلَها».

....

وقولُه: (وأتوا به متشابهاً): جملةٌ معترضةٌ للتقريرِ[1]، كقولِك: فلانٌ أحسنُ بفلان، ونعمَ ما فعل، ورأى من الرأي كذا وكذا، وكان صواباً[2]، ومنه: ﴿وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤][3].

﴿وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ﴾: (أزواجٌ): مبتدأٌ، و(لهم): الخبرُ، و(فيها): ظرفٌ للاستقرار[4]، ﴿مُّطَهَّرَةٞ﴾ من مساوي الأخلاق، لا طمحاتٌ ولا مرحاتٌ[5]، أو: مما يَختَصُّ بالنساء من الحيض والاستحاضةِ، وما لا يختصُّ بهن من البول والغائطِ وسائرِ الأقذارِ والأدناسِ، ولم تجمع الصفةُ كالموصوفِ؛ لأنهما لغتان فصيحتان، ولم يقل: طاهرةٌ؛ لأن (مطهرة) أبلغُ؛ لأنها تكون للتكثير، وفيها إشعارٌ بأنَّ مُطهِّراً طَهَّرَهُنَّ، وما ذلك إلا اللهُ عزَّ وَجلَّ، ﴿وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥﴾: الخلدُ: البقاءُ الدائمُ الذي لا ينقطعُ، وفيه بطلانُ قولِ الجهميةِ؛ فإنهم يقولون بفناءِ الجنةِ وأهلِها؛ لأنه تعالى وُصِفَ بأنه الأولُ والآخِرُ، وتحقيقُ وصفِ الأوَّلِيَّةِ بِسَبْقِهِ على الخلقِ أجمَعَ، فيجب تحقيقُ وصفِ الآخِريةِ بالتأخر عن سائر المخلوقاتِ، وذا إنما يتحققُ بعدَ فناءِ الكلِّ، فوجبَ القولُ به ضرورةً؛ ولأنه تعالى باقٍ، وأوصافُه باقيةٌ؛ فلو كانت الجنةُ باقيةً مع أهلِها.. لَوَقَعَ التشابُهُ بينَ الخالقِ والمخلوقِ، وذا محالٌ.

قلنا: الأولُ في حقه هو: الذي لا ابتداءَ لوجودِه، والآخِرُ هو: الذي لا انتهاءَ له، وفي حقنا الأول: هو الفردُ السابقُ، والآخِرُ: هو الفرد اللاحقُ، واتِّصافُه بهما لبيانِ صفةِ الكمالِ وَنَفْيِ النقيصةِ والزوالِ، وذا في تنزيهِهِ عن احتمالِ الحدوثِ والفناءِ، لا فيما قالُوه، وأَنَّى يَقَعُ التشابُهُ في البقاءِ، وهو تعالى باقٍ لِذاتِهِ، وبقاؤُه واجبُ الوجودِ، وبقاءُ الخلقِ به، وهو جائزُ الوجودِ؟

---

(١) هذا مبني على جواز الاعتراض في آخر الكلام، والأكثر أن يسمى تذييلاً، وهو تعقيب الكلام بما يشتمل على معناه تأكيداً. انظر «الإكليل» (١/ ٢٨٣)، وفي «روح المعاني» (١/ ٢٠٦): أن هذه الجملة تذييل للكلام السابق، لا محلَّ له من الإعراب، ويحتمل الاستئناف، والحالية بتقدير: قد.

(٢) فجملة: ونعم ما فعل: تقريرٌ وتأكيدٌ لما قبلها، وكذا: وكان صواباً.

(٣) فجملة: (وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ): تأكيدٌ لما وصفت من حالهم وتقريرٌ؛ بأن ذلك من عاداتهم الثابتة المستمرة، أو تصديقٌ لها من الله عز وجل. انظر «تفسير البيضاوي» (٤/ ١٦٠).

(٤) أي: متعلقٌ بالخبر المحذوف: مستقر، وليس خبراً ثانياً.

(٥) الطامح من النساء: التي تُبغِضُ زوجها وتنظر إلى غيره، والمرحة: المتكبرة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ ....

«٢٦» لما ذكرَ اللهُ تعالى الذبابَ والعنكبوتَ في كتابه، وضربَ به مثلاً.. ضحكت اليهودُ، وقالُوا: ما يُشبهُ هذا كلامَ اللهِ، فنزلَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً﴾ أي: لا يتركُ ضربَ المثلِ بالبعوضةِ تركَ مَنْ يَستحِيي أن يتَمثَّلَ بها لحقارتِها، وأصْلُ الحياءِ: تغيُّرٌ وانكسارٌ يعتري الإنسانَ من تخوُّفِ ما يُعابُ به ويذمُّ، ولا يجوزُ على القديم التغيرُ وخوفُ الذمِّ[١]، ولكنَّ التركَ لما كان من لوازمِهِ.. عُبِّرَ عنه به، ويجوزُ أن تقعَ هذه العبارةُ في كلامِ الكفرةِ فقالوا: أما يستحْيِي ربُّ محمدٍ أن يضربَ مثلاً بالذبابِ والعنكبوتِ؟ فجاءت على سبيلِ المقابلةِ وإطباقِ الجواب على السؤالِ، وهو فنٌّ من كلامِهم بديعٌ.

وفيه لغتانِ: التعدي بنفسه، وبالجار، يقال: استحْيَيْتُهُ واستحييتُ منه، وهما محتمِلَتانِ هنا، وضَرْبُ المثلِ صُنْعُهُ؛ مِن ضربِ اللبِنِ، وضربِ الخاتمِ.

و(ما) هذه: إبهاميةٌ، وهي التي إذا اقترنت باسمٍ نكرةٍ.. أبهمته إبهاماً، وزادته عموماً، كقولك: أعطني كتاباً ما؛ تريدُ: أيَّ كتابٍ كان، أو: صلةٌ للتأكيدِ، كالتي في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٥] كأنه قال: لا يستحيي أن يضرب مثلاً ألبتةَ، و(بعوضة): عطفُ بيانٍ لـ (مثلاً)، أو مفعولٌ لـ (يضرب)، و(مثلاً): حالٌ من النكرةِ مقدمةٌ عليه[٢]، أو انتصبا مفعولين على أنَّ ضرب بمعنى: جعل، واشتقاقُها من البَعْضِ، وهو القطعُ، كالبَضْعِ والعَضْبِ، يقال: بَعَضَهُ البعوضُ، ومنه: بَعْضُ الشيءِ؛ لأنه قطعةٌ منه، والبعوضُ في أصله: صفةٌ على (فَعُولٍ) كالقَطُوعِ، فغَلَبَتْ. ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾: فما تجاوزَها وزادَ عليها في المعنَى الذي ضُرِبَتْ فيه مثلاً، وهو القِلَّةُ والحقارة، أو: فما زاد عليه في الحَجْمِ، كأنه أرادَ بذلك ردَّ ما استنكروه من ضرب المثلِ بالذبابِ والعنكبوتِ؛ لأنهما أكبُر من البعوضة، ولا يقال: كيف يُضربُ المثلُ بما دون البعوضةِ وهيَ النهايةُ في الصِّغَرِ؛ لأن جناحَ البعوضةِ أقلُّ منها، وأصغرُ بدرجاتٍ وقد ضربَه رسولُ الله ﷺ مثلاً للدنيا[٣].

---

(١) في النسخ الخطية: (التغير والخوف والذم)، وما أثبته من المطبوع (١/ ٣٩) وهو أولى.

(٢) مقدمة عليه؛ أي: على صاحب الحال.

(٣) كما في «سنن الترمذي» (٢٣٢٠) مرفوعاً: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة.. ما سقى كافراً منها شربة ماء».

....

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ الضميرُ: للمثل، أو لـ (أن يضرب)، و(الحق): الثابت الذي لا يسوغُ إنكارُه؛ يقال: حقَّ الأمرُ: إذا ثبتَ ووجبَ، ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾: في موضع النصبِ على الحالِ، والعاملُ: معنَى الحقِّ[1]، وذو الحالِ: الضميرُ المستترُ فيه، ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾: يوقفُ عليه؛ إذْ لو وُصِلَ.. لصارَ ما بعده صفةً له، وليس كذلك[2]، وفي قولهم: (ماذا أراد الله بهذا مثلا) استحقارٌ، كما قالت عائشة رضي الله عنها في عبد الله بنِ عمرٍو: (يا عجباً لابن عمرٍو هذا) مُحَقِّرَةً له[3]، و(مثلاً): نصبٌ على التمييز، أو على الحال، كقوله: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ [الأعراف: ٧٣]، و(أما): حرفٌ فيه معنَى الشرطِ؛ ولذا يجابُ بالفاءِ، وفائدتُه في الكلام: أن يعطيَه فضلَ توكيدٍ؛ تقول: زيدٌ ذاهبٌ، فإذا قصدتَ توكيدَه، وأنه لا محالةَ ذاهبٌ.. قلتَ: أما زيدٌ.. فذاهب؛ ولذا قال سيبويه: في تفسيره: مهما يكن من شيء.. فزيدٌ ذاهبٌ[4]، وهذا التفسير يفيدُ كونَه تأكيداً، وأنه في معنى الشرط.

وفي إيرادِ الجملتين مصدرتين به، وأنْ لم يقلْ[5]: فالذين آمنوا يعلمون، والذين كفروا يقولون.. إحمادٌ عظيمٌ لأمر المؤمنين، واعتدادٌ بليغٌ بعلمِهم أنه الحقُّ، وَنَعْيٌ على الكافرين إغفالَهم حظَّهم، وَرَمْيُهُمْ بالكلمة الحمقاءِ.

و(ماذا): فيه وجهان: أن يكون (ذا) اسماً موصولاً بمعنى: الذي، و(ما) استفهاماً، فيكونُ كلمتين، وأن تكونَ (ذا) مركبةً مع (ما) مجعولتين اسماً واحداً للاستفهام، فيكونُ كلمةً واحدةً، فـ (ما) على الأول: رفعٌ بالابتداء، وخبرُه: (ذا) مع صلته؛ أي: (أراد)، والعائدُ محذوفٌ، وعلى الثاني: منصوبُ المحلِّ بـ (أراد)، والتقدير: أيَّ شيءٍ أرادَ اللهُ.

---

(١) أي: أن الثبات المفهوم من (الحق) هو ناصب الحال.

(٢) أي: أن الوقف على (مثلاً): لازم؛ لأنه لو وصل.. لتوهم أن جملة: (يضل) صفة له. انظر «علل الوقوف» (١/ ١٩٣).

(٣) روى مسلم (٣٣١) عن عبيد بن عمير قال: بلغ عائشة أن عبد الله بن عمرو يأمر النساء إذا اغتسلن أن ينقضن رؤوسَهن فقالت: (يا عجباً لابن عمرو هذا يأمر النساء إذا اغتسلن أن ينقضن رؤوسهن! أفلا يأمرهن أن يحلقن رؤوسهن؟).

(٤) «الكتاب» لسيبويه (٣/ ١٣٧).

(٥) المصدر: أن لم يقل: معطوفٌ على إيراد.

. . . .

والإرادةُ: مصدرُ: أردتُ الشيءَ: إذا طَلَبَتْهُ نفسُك، ومالَ إليه قلبُك، وهي عند المتكلمين: معنىً يقتضِي تخصيصَ المفعولاتِ بوجهٍ دونَ وجهٍ، واللهُ تعالى موصوفٌ بالإرادة على الحقيقةِ عند أهلِ السنةِ، وقال معتزلةُ بغدادَ: إنه تعالى لا يوصفُ بالإرادة على الحقيقة، فإذا قيل: أراد اللهُ كذا؛ فإن كان فِعْلَه.. فمعناه أنه فعلَ وهو غيرُ ساهٍ ولا مكرَهٌ عليه، وإن كان فِعْلَ غيرِه.. فمعناه أنه أمر به.

﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًاۚ﴾: جارٍ مجرى التفسيرِ والبيانِ للجملتين المصدَّرتين بـ (أما) وأن فريقَ العالِمين بأنه الحقُّ، وفريقَ الجاهلين المستهزئين به.. كلاهما موصوفٌ بالكثرة، وأن العلم بكونه حقّاً من باب الهدى، وأن الجهل بِحُسْنِ مَوردِه من باب الضلالةِ، وأهلُ الهدى كثيرٌ في أنفسهم، وإنما يُوْصَفُون بالقلة بالقياس إلى أهل الضلالة، ولأن القليل من المهتدين كثيرٌ في الحقيقةِ وإن قَلُّوا في الصورة[1]: [من: البسيط]

إن الكرام كثيرٌ في البلادِ وإنْ قلُّوا كما غيرُهم قُلٌّ وإن كثُروا

والإضلالُ: خلقُ فعلِ الضلالِ في العبد، والهدايةُ: خلقُ فعلِ الاهتداء.

هذا هو الحقيقةُ عندَ أهلِ السنةِ، وسياقُ الآيةِ لبيان أن ما استنكرَهُ الجهلةُ من الكفارِ واستغربُوه؛ من أن تكون المحقَّراتُ من الأشياءِ مضروباً بها المثلُ ليس بموضعِ الاستنكارِ والاستغرابِ؛ لأن التمثيلَ إنما يُصارُ إليه؛ لما فيه مِن كشفِ المعنى وإدناءِ المتوَهَّم من المشاهَدِ، فإن كان المتمثَّلُ له عظيماً.. كان المتمثَّلُ به مثله، وإن كان حقيراً.. كان المتمثَّلُ به كذلك، ألا تَرى أن الحقَّ لمّا كان واضحاً جليّاً.. تمثَّل له بالضياءِ والنورِ، وأنّ الباطلَ لما كان بضدِّ صفتِه.. تمثل له بالظُّلْمَةِ.

ولما كانت حالُ الآلهةِ التي جعلَها الكفارُ أنداداً لله لا حالَ أحقرُ منها وأقلُّ؛ ولذلك جُعِلَ بيتُ العنكبوتِ مَثَلَها في الضعفِ والوَهْنِ، وجُعلت أقلَّ من الذبابِ، وضُربت لها البعوضةُ فالذي دونَها مثلاً.. لم يُستنكرْ، ولم يُستبدعْ، ولم يُقَلْ للمُمَثِّلِ: اسْتَحْيِ مِن تمثيلِها بالبعوضة؛ لأنه مصيبٌ في تمثيلِه، مُحِقٌّ في قوله، سائقٌ للمثل على قضيةِ مَضْرِبِه، ولبيانِ أن المؤمنين الذين عادتُهم الإنصافُ والنظرُ في الأمور بناظرِ العقلِ إذا سمعُوا بهذا التمثيلِ.. علمُوا أنه الحق، وأن الكفار الذين غلبهم الجهلُ على عقولهم كابَرُوا وعانَدُوا وقَضَوا عليه بالبطلان، وقابَلُوه بالإنكار، وأن ذلك سببُ هُدَى المؤمنين، وضلالِ الفاسقين.

---

(١) البيت لأبي تمام، وهو في «ديوانه» بشرح التبريزي (١/ ٣٢٩).

﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ ....

والعجبُ منهم كيفَ أنكرُوا ذلك! وما زال الناسُ يضربون الأمثالَ بالبهائم والطيورِ وخَشاشِ الأرضِ[1]، فقالوا: أجمعُ مِن ذَرَّةٍ[2]، وأَجْرَأُ من الذبابِ، وأسمعُ من قُرادٍ[3]، وأضعفُ من فَراشةٍ، وآكَلُ من السُّوسِ، وأضْعَفُ من بعوضةٍ، وأَعَزُّ من مُخِّ البعوضِ[4]. ولكنْ دَيْدَنُ المحجوجِ والمبهوتِ أن يرضَى لفرطِ الحَيْرَةِ بدفعِ الواضحِ وإنكارِ اللائحِ.

﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ هو مفعولُ (يُضل)، وليس بمنصوبٍ على الاستثناء؛ لأنَّ (يضل) لم يستوفِ مفعولَه، والفِسقُ: الخروجُ عن القصدِ، و في الشريعةِ: الخروجُ عن الأمر بارتكابِ الكبيرةِ، وهو النازلُ بين المنزلتين؛ أي: بين منزلةِ المؤمنِ والكافرِ عندَ المعتزلةِ، وسيمرُّ عليك ما يُبطله إن شاء اللهُ.

《٢٧》 ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ﴾ النقضُ: الفسخُ وفكُّ التركيبِ، والعهدُ: المَوْثِقُ، والمرادُ بهؤلاء الناقضين لعهدِ اللهِ: أحبارُ اليهودِ المتعنتون، أو: منافقوهم، أو: الكفارُ جميعاً، وعهدُ اللهِ: ما رُكِزَ في عقولِهم من الحُجَّةِ على التوحيد، كأنه أمرٌ وصّاهم به، ووَثَّقَه عليهم، أو: أَخْذُ الميثاقِ عليهم بأنه إذا بُعِثَ إليهم رسولٌ يُصَدِّقُهُ اللهُ بمعجزاته.. صَدَّقُوه واتبعُوه ولم يكتمُوا ذكرَه، أو أَخَذَ اللهُ العهدَ عليهم ألّا يسفكُوا دماءَهم، ولا يَبغي بعضُهم على بعضٍ، ولا يَقطعُوا أرحامَهم، وقيل: عَهِدَ اللهُ إلى خلقِه ثلاثةَ عُهُود:

العهدُ الأولُ: الذي أخذَه على جميعِ ذريةِ آدمَ عليه السلام بأن يُقِرُّوا بربوبيتِه، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وعهدٌ خَصَّ به النبيين أن يُبلغُوا الرسالةَ، ويقيمُوا الدينَ، وهو قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٧].

وعهدٌ خَصَّ به العلماءَ، وهو قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

---

(١) خشاش الأرض: حشراتها.
(٢) الذرة: صغار النمل، وهي تجمع القوت وتدخره كثيراً. انظر «جمهرة الأمثال» (١/ ٣٣٤).
(٣) القُرادُ: دُوَيبَّة تَعَضُّ الإبل، تَسْمع صوتَ أخفاف الإبل من مسافة طويلة. انظر «مجمع الأمثال» (١/ ٣٤٩).
(٤) أعزُّ: اسم تفضيل من: عزَّ الشيءُ؛ أي: لم يُقدر على تحصيله.

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ ....

﴿مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾: أصلُه من الوَثاقةِ، وهي: إحكامُ الشيءِ، والضميرُ للعهدِ، وهو: ما وَثَّقُوا به عهدَ اللهِ من قبولِه وإلزامِه أنفسَهم، ويجوزُ أن يكون بمعنى: تَوْثِقَتِهِ، كما أن الميعادَ بمعنى الوعدِ، أو: للهِ تعالى[1]؛ أي: من بعد تَوثقتِه عليهم، و(مِن): لابتداء الغاية.

﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ هو قطعُهم الأرحامَ وموالاةَ المؤمنين، أو: قطعُهم ما بين الأنبياءِ من الوُصلةِ والاجتماعِ على الحقِّ في إيمانهم ببعضٍ، وكفرِهم ببعضٍ، والأمرُ: طلبُ الفعلِ بقولٍ مخصوصٍ على سبيل الاستعلاء، و(ما): نكرةٌ موصوفةٌ، أو بمعنى: الذي، و(أن يوصل): في موضعِ جرٍّ بدلٌ من الهاءِ؛ أي: بِوَصْلِهِ، أو: في موضعِ رفعٍ؛ أي: هو أن يوصل.

﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بقطعِ السبيلِ، والتعويقِ عن الإيمان، ﴿أُولَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ، ﴿هُمُ﴾: فصلٌ، والخبرُ: ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ أي: المغبونون؛ حيثُ استبدلوا النقضَ بالوفاءِ، والقطعَ بالوصلِ، والفسادَ بالصلاحِ، والعقابَ بالثوابِ.

《٢٨》 ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ معنى الهمزةِ التي في (كيف): مثلُه في قولك: أتكفرون بالله ومعكم ما يَصْرِفُ عن الكفرِ ويدعو إلى الإيمان! وهو الإنكارُ والتعجبُ، ونظيرُه قولك: أَتَطِيرُ بغير جناح! وكيف تطيرُ بغير جناح! والواوُ في ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا﴾: نُطَفاً في أصلاب آبائكم: للحال، وقَدْ: مضمرةٌ[2]، والأموات: جمعُ ميْتٍ، كالأقوال جمعُ قَيْلٍ، ويقال لعادم الحياةِ أصلاً: ميتٌ أيضاً، كقوله تعالى: ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ [الفرقان: ٤٩]، ﴿فَأَحْيَٰكُمْ﴾ في الأرحام، ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عندَ انقضاءِ آجالكم، ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ للبعث، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾: تصيرون إلى الجزاء، أو: ثم يحييكم في قبوركم، ثم إليه ترجعون للنُّشور.

وإنما كان العطفُ الأول بالفاء، والبواقي بـ (ثم) لأن الإحياءَ الأولَ قد تَعَقَّبَ الموتَ بلا تراخٍ، وأما الموتُ.. فقد تراخَى عن الحياةِ، والحياةُ الثانيةُ كذلك تتراخى عن الموت إن أريد النشورُ، وإن أُريدَ إحياءُ القبرِ.. فمنه يكتسب العلم بتراخيه[3]، والرجوعُ إلى الجزاء أيضاً مُتراخٍ عن النشور.

---

(١) أي: الضمير للعهد... أو الله.

(٢) الفعل الماضي المثبت إن كانت جملته حالاً.. فلا بد من تقدير: قدْ قبلَه إن لم تكن مذكورة؛ لتقريب زمنه من الحال. انظر «فتوح الغيب» (١/ ٤١٤).

(٣) أي: نعلم مِن (ثُمَّ) أن الإحياء في القبر متراخ عن الموت.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ ....

وإنما أُنكر اجتماعُ الكفرِ مع القصةِ التي ذكرها؛ لأنها مشتملةٌ على آياتٍ بيناتٍ تصرفُهم عن الكفر؛ ولأنها تشتمل على نِعَمٍ جسامٍ حقُّها أن تُشكرَ ولا تُكفرَ.

«٢٩» ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لأجْلِكُم، ولانتفاعكم به في دنياكم ودينكم؛ أما الأولُ.. فظاهرٌ، وأما الثاني.. فالنظرُ فيه وما فيه من العجائبِ الدالةِ على صانعٍ قادرٍ حكيمٍ عليمٍ، وما فيه من التذكيرِ بالآخرة؛ لأن ملاذَّها تُذَكِّرُ ثوابَها، ومكارِهَها تُذَكِّرُ عقابَها[1]، وقد استدلَّ الكرخيُّ، وأبو بكر الرازيُّ، والمعتزلةُ بقوله: (خلق لكم) على أن الأشياءَ التي يصحُّ أن ينتفعَ بها خُلقت مباحةً في الأصل[2]، ﴿جَمِيعًا﴾: نصبٌ على الحال مِن (ما)، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ الاستواء: الاعتدالُ والاستقامةُ، يقال: استوى العود؛ أي: قام واعتدل، ثم قيل: استوى إليه كالسهم المرسل: إذا قَصَدَه قَصْداً مُسْتَوِياً من غير أن يلويَ على شيءٍ، ومنه: قوله: (ثم استوى إلى السماء) أي: أقبلَ وعمدَ إلى خلقِ السمواتِ بعدَ ما خلقَ ما في الأرضِ من غيرِ أن يريدَ فيما بين ذلك خَلْقَ شيءٍ آخرَ، والمرادُ بالسماءِ: جهاتُ العُلْوِ؛ كأنه قيل: ثم استوى إلى فوقٍ، والضميرُ في: ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ﴾: مبهمٌ يُفَسِّرُهُ: ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾، كقولهم: رُبَّهُ رجلاً، وقيل: الضميرُ راجعٌ إلى السماءِ، ولفظُها واحدٌ، ومعناها الجمعُ؛ لأنها في معنى الجنس، ومعنى تسويتِهن: تعديلُ خَلْقِهِنَّ وتقويمُه، وإخلاؤُه من العِوَجِ والفُطُورِ، أو: إتمامُ خلقِهن، و(ثم) هنا: لبيانِ فضلِ خلقِ السمواتِ على خلق الأرضِ، ولا يناقضُ هذا قولَه: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠] لأنَّ جِرمَ الأرضِ تَقَدَّمَ خلقُه خلقَ السماءِ، وأمَّا دَحْوُها.. فمتأخرٌ[3]، وعن الحسن: خلقَ اللهُ الأرضَ في موضع بيتِ المقدسِ كهيئةِ الفِهرِ[4]، عليها دخانٌ مُلتزِقٌ بها، ثم أصْعَدَ الدخانَ، وخلقَ منه السمواتِ، وأمسكَ الفِهرَ في موضعِها، وبسطَ منها الأرضَ، فذلك قولُه: ﴿كَانَتَا رَتْقًا﴾ [الأنبياء: ٣٠] وهو الالتزاق، ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ فَمِنْ ثَمَّ خَلَقَهُنَّ خلقاً مستوياً مُحكماً من غيرِ تفاوتٍ، مع خلقِ ما في الأرض على حَسَبِ حاجاتِ

---

(١) أي: ما في الدنيا من اللذات يذكر بنعيم الآخرة، وما في الدنيا من المنغصات يذكر بعقاب الآخرة.
(٢) «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٣٣).
(٣) دَحْوُها: بَسْطُها.
(٤) الفهر: حجرٌ ملءُ الكفِّ.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٣٠﴾ ....

أهلِها ومنافعِهم، ﴿وَهْوَ﴾ وأخواتُه: مدنيٌّ غيرَ ورشٍ، وأبو عمرٍو وعليٌّ[1]؛ جعلوا الواوَ كأنَّها من نفسِ الكلمةِ، فصارَ بمنزلةِ: عَضُدٍ، وهم يقولون في: عَضُدٍ: عَضْدٌ؛ بالسكون[2].

«٣٠» لما خلق الله تعالى الأرضَ.. أسكنَ فيها الجنَّ، وأسكنَ في السماءِ الملائكةَ، فأفسدَتِ الجنُّ في الأرض، فبعث إليهم طائفةً من الملائكةِ فطردتهم إلى جزائرِ البحارِ، ورؤوس الجبالِ، وأقاموا مكانَهم، فأمر نبيَّه أن يذكرَ قصتَهم فقال:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ (إذ): نصبٌ بإضمار: اذكر، والملائكةُ: جمعُ مَلْأَك، كالشمائلِ جمعُ شَمْأَلٍ، وإلحاقُ التاءِ لتأنيثِ الجمع، ﴿إِنِّى جَاعِلٌ﴾ أي: مُصَيِّرٌ، مِن: جعلَ الذي له مفعولان، وهما: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، وهو مَنْ يَخْلُفُ غيرَه (فَعِيْلَة) بمعنى: (فاعلة)، وزيدت الهاءُ؛ للمبالغة.

والمعنى: خليفةً منكم؛ لأنهم كانوا سكانَ الأرضِ، فَخَلَفَهُم فيها آدمُ وذريتُه.

ولم يَقُلْ: خَلائفَ أو خُلفاءَ؛ لأنه أريد بالخليفةِ: آدمُ، واستغنَى بذكره عن ذكرِ بَنِيْهِ، كما تَستغني بذكرِ أبي القبيلةِ في قولك: مُضَرُ، وهاشمٌ، أو: أُرِيدَ: مَنْ يَخْلُفُكم، أو: خَلَفاً يخلُفُكم، فوُحِّدَ؛ لذلك.

أو خليفةً منِّي؛ لأنَّ آدمَ كان خليفةَ اللهِ في أرضِه، وكذلك كلُّ نبيٍّ، قال الله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦].

وإنما أخبرَهم بذلك؛ ليسألوا ذلك السؤالَ، ويُجابُوا بما أجيبوا به، فيعرفُوا حكمتَه في استخلافِهم قبلَ كونِهم؛ أو: لِيُعَلِّمَ عبادَه المشاورةَ في أمورِهم قبل أن يُقدمُوا عليها وإن كان هو بعلمِه وحكمتِه البالغةِ غنيّاً عن المشاورة.

﴿قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾: تعجبٌ من أن يستخلفَ مكانَ أهلِ الطاعةِ أهلَ المعصيةِ وهو الحكيم الذي لا يَجْهَلُ، وإنما عرفُوا ذلك بإخبارٍ من اللهِ تعالى، أو من جهةِ اللوحِ، أو قاسُوا أحدَ الثَّقَلين على الآخرِ، ﴿وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ أي: يَصُبُّ، والواوُ في ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ﴾:

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٧).

(٢) أي: أن وجه تسكين هاء: (وهْو) تشبيهها بكلمة: عَضُدٍ، فتجعل الواو العاطفة كأنها من أصل الكلمة.

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ ...﴾

للحال، كما تقول: أتحسنُ إلى فلانٍ وأنا أحقُّ منه بالإحسان! ﴿بِحَمْدِكَ﴾: في موضع الحال؛ أي: نسبحُ حامدين لك، ومتلبِّسِينَ بحمدك، كقوله: ﴿وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ﴾ [المائدة: ٦١] أي: دخلوا كافرين، ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾: ونُطهِّرُ أنفسَنا لك، وقيل: التسبيحُ والتقديسُ تَبْعِيْدُ اللهِ من السوءِ؛ من: سَبَحَ في الأرض، وقَدَسَ فيها: إذا ذهبَ فيها وأَبْعَدَ.

﴿قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ أي: أعلمُ من الحِكَمِ في ذلك ما هو خَفِيٌّ عليكم؛ يعني: يكونُ فيهم الأنبياءُ والأولياءُ والعلماءُ، و(ما): بمعنى: الذي، وهو مفعولُ (أعلم)، والعائدُ محذوفٌ؛ أي: ما لا تعلمونه، ﴿إنيَ﴾: حجازيٌّ، وأبو عمرو[1].

《٣١》 ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ﴾: هو اسمٌ أعجميٌّ، وأقربُ أمرِه أن يكون على (فاعَل) كآزَرَ، واشتقاقُهم آدمَ من الأُدْمَةِ أو: مِن أَدِيْمِ الأرضِ، كاشتقاقهم يعقوب من العَقِبِ، وإدريس من الدَّرْسِ، وإبليس من الإبلاسِ[2].

﴿ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ أي: أسماءَ المسمياتِ، فَحُذِفَ المضافُ إليه؛ لكونه معلوماً مدلولاً عليه بذكر الأسماءِ؛ إذ الاسمُ يدلُّ على المسمَّى، وعُوِّضَ منه اللامُ، كقوله تعالى: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤]، ولا يصحُّ أن يقدرَ: وعلم آدم مُسَمَّياتِ الأسماءِ؛ على حذف المضافِ، وإقامةِ المضافِ إليه مُقامَه؛ لأن التعليمَ تعلقَ بالأسماءِ، لا بالمسمياتِ؛ لقوله تعالى: ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾، و﴿أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾، ولم يقُلْ: أنبئوني بهؤلاء، وأنبئهم بهم.

ومعنَى تعليمِه أسماءَ المسمياتِ: أنه تعالى أراه الأجناسَ التي خلقَها، وعلَّمَه أن هذا اسمُه: فَرَسٌ، وهذا اسمُه: بَعِيْرٌ، وهذا اسمُه: كذا، وهذا اسمُه: كذا، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: علَّمه اسمَ كلِّ شيءٍ، حتى القصعةَ والمِغْرَفَةَ.

﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ أي: عَرَضَ المسمياتِ، وإنما ذَكَّرَ؛ لأن في المسمياتِ العقلاءَ،

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٢٨).

(٢) هذه أعلام أعجمية، فلا يحسنُ القول باشتقاقها من المصادر والألفاظ العربية، **وأديم الأرض**: ظاهر وجهها، **والأدمة**: السمرة، **والعقب**: الولد وولد الولد، وسيدُنا يعقوب مِن أعقاب سيدنا إبراهيم، **والدَّرْسُ**: دراسة العلم، **والإبلاس**: اليأس، وإبليسُ يائسٌ من رحمة الله. انظر «الإكليل» (١/ ٣١٥).

﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ ....

فَغَلَّبَهُم[١]، وإنما استنبأهم وقد علم عجزَهم عن الإنباء؛ على سبيل التبكيت[٢]، ﴿فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى﴾: أخبروني ﴿بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ في زعمكم أني أَسْتَخْلِفُ في الأرض مفسدين سفّاكين للدماء، وفيه ردٌّ عليهم، وبيانُ أن فيمن يستخلفُه من الفوائدِ العلميةِ التي هي أصولُ الفوائدِ كلِّها.. ما يَستأهلُون لأجلِه أن يستخلفوا.

《٣٢》 ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ﴾: تنزيهاً لك أن يخفَى عليك شيءٌ، أو: عن الاعتراضِ عليك في تدبيرك، وأفادَتْنا الآيةُ أن علمَ الأسماء فوقَ التَّخَلِّيْ للعبادةِ؛ فكيف بعلم الشريعةِ؟ وانتصابُه على المصدرِ، تقديرُه: سبَّحت اللهَ تسبيحاً، ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ وليس فيه علمُ الأسماء، و(ما): بمعنى: الذي، والعلمُ بمعنَى: المعلوم؛ أي: لا معلومَ لنا إلا الذي علمتنا، ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ﴾ غيرُ المعلَّم، ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾ فيما قضيتَ وقدرتَ، والكاف: اسمُ إنَّ، و(أنت): مبتدأ، وما بعده: خبرُه، والجملةُ: خبرُ (إن)، أو: (أنت): فَصْلٌ، والخبرُ: العليمُ، والحكيمُ: خبرٌ ثانٍ.

《٣٣》 ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ سَمَّى كلَّ شيءٍ باسمه ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: ما غابَ فيهما عنكم مما كان، ومما يكون، ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾: تُظهِرون، ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾: تُسِرُّون.

《٣٤》 ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ﴾ أي: اخضعُوا له، وأَقِرُّوا بالفضل له، عن أبي بنِ كعب، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كان ذلك انحناءً، ولم يكن خُرُوراً على الذَّقَنِ، والجمهورُ على أن المأمورَ به وضعُ الوجهِ على الأرض، وكان السجودُ تحيةً لآدم عليه السلامُ في الصحيح؛ إذ لو كان لله تعالى.. لما امتنع عنه إبليسُ، وكان سجودُ التحيةِ جائزاً فيما مضَى، ثم نسخَ بقوله عليه السلام لسلمانَ حين أرادَ أن يسجدَ له: «لا ينبغي لمخلوقٍ أن يسجدَ لأحدٍ إلا لله تعالى»[٣].

---

(١) أي: جاء الضمير في (عرضهم) مذكراً؛ تغليباً للمذكر العاقل على غيره.

(٢) التبكيت: الإلزام والإسكات.

(٣) روى أبو نعيم في «تاريخ أصبهان» (٢/ ٦٤) عن سيدنا سلمان رضي الله عنه أنه لقي رسول الله ﷺ في بعض سكك المدينة فذهب يسجد له، فقال رسول الله ﷺ: «يا سلمان، أتسجد لي؟ أرأيت لو مِتُّ.. أكنت ساجداً لغيري؟» قال: إنما أسجد للنور الذي خلقه الله بين عينيك، قال: «فلا تسجد لي، واسجد للحي الذي لا يموت...»

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ ....

﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ الاستثناءُ متصلٌ؛ لأنه كان من الملائكة، كذا قاله عليٌّ وابنُ عباسٍ وابنُ مسعود رضي الله عنهم[1]؛ ولأن الأصلَ أن الاستثناءَ يكون من جنس المستثنى منه؛ ولهذا قال: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢]، وقوله: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الكهف: ٥٠]: معناه: صار من الجن، كقوله: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣]، وقيل: الاستثناءُ منقطعٌ؛ لأنه لم يكن من الملائكة، بل كان من الجن بالنصِّ، وهو قول الحسنِ وقتادةَ؛ ولأنه خُلقَ من نارٍ، والملائكةُ خُلِقُوا من النورِ؛ ولأنه أبى وعصى واستكبر، والملائكةُ لا يعصُون الله ما أمرهم، ولا يستكبرون عن عبادته، ولأنه قال: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾ [الكهف: ٥٠]، ولا نسلَ للملائكةِ، وعن الجاحظ: أن الجنَّ والملائكةَ جنسٌ واحدٌ، فمن طَهُرَ منهم.. فهو مَلَكٌ، ومن خَبُثَ.. فهو شيطانٌ، ومن كان بينَ بينَ.. فهو جنٌّ.

﴿أَبَىٰ﴾: امتنعَ مما أمر به، ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾: تَكَبَّرَ عنه، ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾: وصارَ من الكافرين بإبائِه واستكبارِه، وردِّهِ الأمرَ، لا بِتَرْكِ العملِ بالأمرِ؛ لأن تركَ السجودِ لا يُخرِجُ من الإيمان، ولا يكون كفراً عند أهل السنة، خلافاً للمعتزلة والخوارجِ، أو: كان من الكافرين في علم الله؛ أي: وكان في علم الله أنه يكفرُ بعد إيمانِه، لا أنه كان كافراً أبداً في علم الله، وهي مسألة الموافاة[2].

《٣٥》 ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ﴾: أمرٌ مِنْ: سَكَنَ الدارَ يسكنُها سُكنَى: إذا أقامَ فيها، ويقال: سَكَنَ المتحركُ سُكُوناً، ﴿أَنتَ﴾: تأكيدٌ للمُسْتَكِنِّ في: (اسكن) ليصحَّ عطفُ: ﴿وَزَوْجُكَ﴾ عليه،

---

(١) قول سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٥٠٣).

(٢) عند الأشاعرة: السعادةُ والشقاوةُ مقدرتان في الأزل لا تتغيران، فإن مات على الإيمان.. دلَّ ذلك على أنه كان في الأزل من السعداء وإن سَبَقَ منه كفرٌ قبل وفاته، وإن ختم له بالكفر.. دلَّ ذلك على أنه في الأزل كان من الأشقياء وإن سبق منه الإيمان قبل وفاته، وعند الماتريدية: السعادةُ: هي الإيمان في الحال، والشقاوة: هي الكفر في الحال، فمن كان مؤمناً ثم مات على الكفر.. فقد انقلبت سعادته شقاوة، وكذا العكس، وهذه هي الموافاة؛ أي: أن العبرة بالإيمان الذي يوافي العبدُ عليه؛ أي: يأتي متصفاً به في آخر حياته، ولكنهم متفقون على أن من مات مسلماً مخلدٌ في الجنة، ومن مات كافراً مخلدٌ في العذاب. انظر «شرح جوهرة التوحيد» للباجوري (ص١٧٣)، و«الإكليل» (١/ ٣٣٩).

﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ ....

﴿ٱلْجَنَّةَ﴾: هي جنةُ الخلدِ التي وُعِدَت للمتقين؛ للنقل المشهور، وللامِ التعريف، وقالت المعتزلة: كانت بستاناً باليمن؛ لأن الجنة لا تكاليفَ فيها، ولا خروجَ عنها، قلنا: إنما لا يخرجُ منها مَن دَخَلَها جزاءً، وقد دخلَ النبيُّ عليه السلام ليلةَ المعراجِ ثم خرَجَ منها[1]، وأهلُ الجنةِ يُكلفون المعرفةَ والتوحيدَ.

﴿وَكُلَا مِنْهَا﴾: من ثمارها، فحذف المضاف، ﴿رَغَدًا﴾: وصفٌ للمصدرِ؛ أي: أكلاً رغداً واسعاً، ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ (شئتما) وبابُه: بغير همزٍ: أبو عمرو[2]، و(حيث): للمكان المبهَمِ؛ أي: أيَّ مكانٍ من الجنة شئتُما، ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ أي: الحنطةَ؛ ولذا قيل: كيف لا يعصي الإنسانُ وَقُوْتُهُ من شجرةِ العصيانِ، أو: الكَرْمَةِ؛ لأنَّها أصلُ كلِّ فتنةٍ، أو: التِّيْنَةِ[3]، ﴿فَتَكُونَا﴾: جزمٌ، عطفٌ على: (تقربا)، أو: نصبٌ، جوابٌ للنهي، ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾: من الذين ظلَمُوا أنفسَهم، أو: من الضارِّين أنفسَهم.

《٣٦》 ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾ أي: عن الشجرة؛ أي: فَحَمَلَهما الشيطانُ على الزلةِ بسببها، وتحقيقُه: فأصدرَ الشيطانُ زَلَّتَهُما عنها، أو فَأَزَلَّهُما عن الجنة؛ بمعنى: أذهبَهما عنها، وأَبْعَدَهُما، ﴿فأزالهما﴾: حمزةُ[4].

وَزَلَّةُ آدمَ بالخطأِ في التأويل؛ إما بحمل النهيِ على التنزيه دون التحريم، أو: بحملِ اللام على تعريف العهدِ وكان اللهُ تعالى أراد الجنس[5]، والأولُ الوجهُ، وهذا دليلٌ على أنه يجوزُ إطلاقُ اسمِ الزلةِ على الأنبياء عليهم السلام كما قال مشايخُ بُخارَى؛ فإنه اسم لفعل يقعُ على خلاف الأمر من غير قصدٍ إلى الخلاف، كَزَلَّةِ الماشي في الطين، وقال مشايخُ سَمَرْقَنْدَ: لا يطلقُ اسمُ الزلةِ على أفعالهم كما لا تُطلقُ المعصيةُ، وإنما يقال: فعلُوا الفاضلَ وتركوا الأفضلَ فعوتبوا عليه.

---

(١) رواه البخاري (٣٤٩) ومسلم (١٦٣) عن سيدنا أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٠).

(٣) الأولى ألّا نشتغل بتعيين الشجرة؛ إذ لا يترتب على ذلك فائدة.

(٤) انظر «البدور الزاهرة» (ص٣٠).

(٥) أي: يحتمل أن سيدنا آدم حمل أل في (الشجرة) على العهد؛ أي: شجرة معهودة معينة، فاجتنب تلك الشجرة المعينة وأكل من أخرى من جنسها فعوتب؛ لأن الله أراد نهيه عن كل هذا الجنس.

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧﴾ ....

﴿فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ﴾ من النعيمِ والكرامةِ، أو: من الجنة إن كان الضميرُ للشجرة في: (عنها)، وقد تَوَصَّلَ إلى إزلالهما بعد ما قيل له: ﴿فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ﴾ [الحجر: ٣٤] لأنه منع عن دخولها على جهةِ التكرمة كدخول الملائكة، لا عن دخولها على جهة الوسوسةِ ابتلاءً لآدمَ وحواءَ، ورويَ: أنه أراد الدخول فَمَنَعَتْهُ الخزَنَةُ فدخلَ في فمِ الحيَّةِ حتَّى دخلَت به، وقيل: قامَ عند البابِ فنادى[١].

﴿وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ﴾ الهبوطُ: النزولُ إلى الأرض، والخطابُ لآدمَ وحواءَ وإبليسَ، وقيل: والحيةِ، والصحيحُ لآدمَ وحواءَ، والمرادُ: هما وذريتُهما؛ لأنّهما لما كانا أصلَ الإنسِ ومُتَشَعَّبَهم.. جُعلا كأنهما الإنسُ كلُّهم، ويدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢا﴾ [طه: ١٢٣]، ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ﴾ المراد به: ما عليه الناسُ من التباغِي والتعادِي وتضليلِ بعضهم لبعضٍ، والجملةُ: في موضع الحالِ من الواو في (اهبطوا) أي: اهبطوا مُتعادِين، ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ﴾: موضعُ استقرارٍ، أو استقرارٌ[٢]، ﴿وَمَتَٰعٌ﴾: وتَمَتُّعٌ بالعيشِ ﴿إِلَىٰ حِينٖ ٣٦﴾: إلى يوم القيامة، أو: إلى الموت، قال إبراهيمُ بنُ أدهمَ: أَوْرَثَتْنا تلك الأَكْلَةُ حزناً طويلاً[٣].

《٣٧》 ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ﴾ أي: استقبلَها بالأخذِ والقبولِ والعملِ بها، وبنصبِ ﴿آدم﴾ ورفع ﴿كلمات﴾: مكيٌّ[٤]؛ على أنها استقبلَتْهُ، بأن بَلَغَتْهُ واتصلت به، وهنَّ قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وفيه موعظةٌ لذريتهما، حيثُ عَرَفُوا كيفيةَ السبيلِ إلى التَّنَصُّلِ من الذنوب، وعن ابن مسعود رضي الله عنه: إنَّ أحبَّ الكلامِ إلى الله تعالى ما قالَه أبونا حين اقترفَ الخطيئةَ: سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جَدُّك، ولا إله إلا أنت، ظلمتُ نفسي فاغفر لي؛ إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت[٥]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: قال: يا رب ألم تخلقني بيدك؟ قال: بلى، قال: يا رب ألم تنفخْ فيَّ من روحك؟ ألم تَسبِقْ رحمتُك غضبَك؟ ألم تُسكِنِّي جنتَك؟ وهو تعالى

---

(١) الأولى عدم الخوض في كيفية وسوسته لهما؛ إذ لا فائدة لذلك.

(٢) أي: أن (مستقر): إما ظرف مكان، أو مصدر.

(٣) روى ابن أبي الدنيا في «العقوبات» (ص ٨٣) عن عبد الله بن مرزوق قال: أورثتنا تلك الأكلة شرّاً طويلاً، ثم بكى.

(٤) انظر «النشر في القراءات العشر» (٢/ ٢١١).

(٥) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١/ ٢١٠) وليس فيه ذكر سيدنا آم عليه الصلاة والسلام.

﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾ ....

يقول: بلى بلى، قال: فلِمَ أخرجتَني من الجنة؟ قال: بِشُؤْم معصيتك، قال: فلو تُبْتُ.. أراجعي أنت إليها؟ قال: نعم[1]، ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾: فرجعَ عليه بالرحمة والقبولِ، واكتفى بذكرِ توبةِ آدمَ؛ لأن حواءَ كانت تبعاً له، ولقد طُوِيَ ذكرُ النساءِ في أكثر القرآن والسنة لذلك، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾: الكثيرُ القبولِ للتوبة، ﴿ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ على عبادِه.

《٣٨》 ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا﴾: حالٌ؛ أي: مجتمعين، وكَرَّرَ الأمرَ بالهبوط؛ للتأكيد، أو: لأن الهبوطَ الأولَ من الجنة إلى السماء، والثاني من السماء إلى الأرضِ؛ أو: لما نِيطَ به من زيادةِ قولِه: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ أي: رسولٌ أبعثه إليكم، أو: كتابٌ أنزله عليكم؛ بدليل قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ في مقابلةِ قولِه: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ﴾ أي: بالقبول والإيمانِ به ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في المستقبل، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ على ما خلفوا، والشرطُ الثاني مع جوابِه جوابُ الشرطِ الأولِ، كقولك: إن جئتني؛ فإن قدرتُ.. أحسنتُ إليك، (فلا خوفَ): في كل القرآن: يعقوبُ[2].

《٣٩》 ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ﴾: مبتدأٌ، والخبرُ: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي: أهلُها ومستحِقُّوها، والجملةُ: في موضعِ الرفعِ خبرُ المتبدأِ؛ أعني: (والذين)، ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

《٤٠》 ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: هو يعقوب عليه السلام، وهو لقبٌ له، ومعناه في لسانهم: صفوةُ اللهِ، أو عبدُ اللهِ، فـ(إسرا) هو العبد، أو: الصفوة، و(إيل) هو: اللهُ بالعبرية، وهو غيرُ منصرفٍ؛ لوجود العلميةِ والعُجمةِ، ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ ذِكرُهم النعمةَ: ألّا يُخِلُّوا بشكرها، ويُطيعوا مانِحَها، وأراد بها: ما أنعمَ به على آبائِهم مما عَدَّدَ عليهم؛ من الإنجاءِ من فرعون وعذابِه، ومن الغَرَقِ، ومن العفوِ عن اتخاذِ العجلِ، والتوبةِ عليهم، وما أنعمَ به عليهم من إدراك زمنِ محمدٍ ﷺ المبشرِ به في التوراة والإنجيل، ﴿وَأَوْفُوا۟﴾: أَدُّوا وافياً تاماً؛ يقال: وَفَيْتُ له بالعهدِ، فأنا وافٍ به، وأوفيتُ له بالعهدِ، فأنا مُوفٍ به، والاختيارُ: أَوْفَيْتُ، وعليه نزلَ التنزيلُ، ﴿بِعَهْدِىٓ﴾: بما عاهَدْتُموني عليه؛ من الإيمان بي، والطاعةِ لي، أو: من الإيمانِ بنبيِّ

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٥٤٢).

(٢) انظر «النشر في القراءات العشر» (٢/ ٢١١).

﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِۦ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ ....

الرحمةِ، والكتابِ المعجز، ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾: بما عاهدتُكم عليه من حُسنِ الثواب على حسناتِكم، والعهدُ يُضافُ إلى المعاهِد والمعاهَد جميعاً، وعن قتادةَ: هما: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ﴾ و﴿لَأُكَفِّرَنَّ﴾ [المائدة: ١٢]، وقال أهلُ الإشارة: أَوْفُوا في دار مِحْنَتي على بِساطِ خِدمتي بحفظِ حُرمتي أُوْفِ في دار نِعمتي على بِساطِ كرامتي بسرورِ رُؤيتي، ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾ فلا تنقضُوا عهدي، وهو من قولِك: زيداً رَهِبْتُه، وهو أوكدُ في إفادة الاختصاصِ من: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥][١].

و(إياي): منصوبٌ بفعلِ مضمرٍ دلَّ عليه ما بعده، وتقديرُه: فارهبوا إياي فارهبون[٢]، وحُذفَ الأولُ؛ لأن الثانيَ يدلُّ عليه، وإنما لم ينتصب بقولِه: (فارهبون) لأنه أخذَ مفعولَه، وهو الياءُ المحذوفةُ، وكسرةُ النون دليلُ الياءِ، كما لا يجوزُ نصبُ زيدٍ في: زيداً فاضربه بـ: اضرب، الذي هو ظاهرٌ.

《٤١》 ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ﴾ يعني: القرآنَ، ﴿مُصَدِّقًا﴾: حالٌ مؤكِّدٌ من الهاءِ المحذوفةِ، كأنه قيل: أنزلته مصدقاً ﴿لِّمَا مَعَكُمْ﴾ من التوراة؛ يعني: في العبادة والتوحيدِ والنبوةِ وأمرِ محمد عليه السلام، ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِۦ﴾ أي: أولَ مَن كفرَ به، أو: أولَ حزبٍ، أو: فَوجٍ كافرٍ به، أو: ولا يكنْ كلُّ واحدٍ منكم أولَ كافر به، وهذا تعريضٌ بأنه كان يجب أن يكونوا أولَ مَن يؤمنُ به؛ لمعرفتِهم به وبصفتِه، والضميرُ في (به): يعودُ إلى القرآن، ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ﴾: ولا تستبدلوا ﴿بِـَٔايَٰتِى﴾: بتغييرها وتحريفها ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: قال الحسن: هو الدنيا بحذافيرها، وقيل: هو الرياسةُ التي كانت لهم في قومهم، خافُوا عليها الفواتَ لو اتبعوا رسولَ الله، ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾: فخافوني، ﴿فارهبوني﴾، ﴿فاتقوني﴾: بالياء في الحالين، وكذلك كلُّ ياءٍ محذوفةٍ في الخطِّ: يعقوبُ[٣].

《٤٢》 ﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ لَبْسُ الحقِّ بالباطلِ: خَلْطُهُ، والباءُ إن كانت صلةً، مِثْلُها في قولك: لَبَسْتُ الشيءَ بالشيءِ: خَلَطْتُهُ به.. كان المعنى: ولا تكتبُوا في التوراة ما ليس منها، فيختلطَ الحقُّ المنزلُ بالباطلِ الذي كتبتم، حتى لا يُميزَ بين حقِّها وباطلِكم، وإن كانت باءَ

---

(١) لأن ضمير المتكلم أعرف من ضمير المخاطب، ولتكرير المفعول في (وإياي فارهبون). انظر «الإكليل» (١/ ٣٥٥).

(٢) الأولى أن يقدر: (إياي ارهبوا فارهبون) لأن المفعول به إن كان ضميراً منفصلاً.. وجب تقديمه.

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٣٠).

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ....

الاستعانةِ كالتي في قولك: كتبتُ بالقلمِ.. كان المعنى: ولا تجعلوا الحقَّ ملتبِساً مشتبِهاً بباطِلكم الذي تكتبونه، ﴿وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾: هو مجزومٌ داخلٌ تحتَ حكمِ النهي؛ بمعنى: ولا تكتمُوا، أو: منصوبٌ بإضمار: أنْ، والواوُ: بمعنى الجمعِ؛ أي: ولا تجمعوا بين لَبْسِ الحقِّ بالباطلِ وكتمانِ الحقِّ، كقولك: لا تأكلِ السمكَ وتشربَ اللبنَ، وهما أمران متميزان؛ لأن لَبْسَ الحقِّ بالباطلِ: ما ذَكَرْنا مِن كَتْبِهِمْ في التوراة ما ليس منها، وكتمانَهم الحقَّ أن يقولُوا: لا نجدُ في التوراةِ صفةَ محمدٍ، أو حُكْمَ كذا، ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾: في حال علمِكم أنكم لابِسُون كاتِمون، وهو أقبحُ لهم؛ لأن الجهلَ بالقبيحِ ربما عُذِرَ مرتكبُه.

《٤٣》 ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: صلاةَ المسلمين وزكاتَهم، ﴿وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ منهم؛ لأن اليهودَ لا ركوعَ في صلاتهم؛ أي: أسلِموا واعمَلُوا عملَ أهلِ الإسلام، وجازَ أن يُرادَ بالركوعِ: الصلاةُ، كما يُعَبَّر عنها بالسجودِ، وأن يكونَ أمراً بالصلاةِ معَ المصلين؛ يعني: في الجماعة؛ أي: صلُّوها مع المصلين، لا منفردين.

《٤٤》 والهمزةُ في: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ﴾: للتقرير مع التوبيخ والتعجبِ من حالهم، ﴿بِٱلْبِرِّ﴾ أي: سَعَةِ الخير والمعروفِ، ومنه البَرُّ؛ لِسَعَتِهِ، ويتناولُ كلَّ خيرٍ، ومنه قولُهم: صدقت وبَرَرْتَ، وكان الأحبارُ يأمرونَ مَن نَصَحُوه في السِّرِّ مِن أقارِبهم وغيرِهم باتباعِ محمدٍ ﷺ، ولا يتبعونه، وقيل: كانوا يأمرون بالصدقة ولا يتصدقون، وإذا أُتُوا بالصدقات لِيُفَرِّقُوها.. خانُوا فيها، ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾: وتَتْرُكونها من البِرِّ كالمنسيات، ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾: تبكيتٌ[1]؛ أي: تتلون التوراة وفيها نعتُ محمدٍ عليه السلام، أو فيها الوعيدُ على الخيانةِ وتركِ البِرِّ، ومخالفةِ القولِ العملَ، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾: أفلا تَفْطَنُونَ لقبحِ ما أقدمتم عليه حتَّى يصدَّكم استقباحُه عن ارتكابِه؟ وهو توبيخٌ عظيم.

《٤٥》 ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟﴾ على حوائجكم إلى الله ﴿بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: بالجمع بينهما، وأن تُصَلُّوا صابرين على تكاليفِ الصلاةِ، محتملين لمشاقِّها، وما يجب فيها من إخلاصِ القلبِ، ودفعِ الوساوسِ الشيطانيةِ، والهواجسِ النفسانيةِ، ومراعاةِ الآدابِ والخشوعِ، واستحضارِ العلمِ بأنه انتصابٌ بين يَدَيْ جبارِ السموات والأرضِ، أو: واستعينوا على البلايا والنوائبِ بالصبرِ

---

(١) تبكيت: أي تَعْيِيرٌ لهم، وتقبيح لفعلهم.

﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ ....

عليها، والالتجاءِ إلى الصلاةِ عندَ وقوعِها، وكان رسولُ الله ﷺ إذا حَزَبَهُ أمرٌ.. فَزِعَ إلى الصلاة[١]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه نُعي إليه أخوه قُثَمُ وهو في سفر فاسترجعَ وصلّى ركعتين، ثم قال: واستعينوا بالصبر والصلاة[٢].

وقيل: الصبرُ: الصومُ؛ لأنه حبسٌ عن المفطرات، ومنه قيل لشهر رمضانَ: شهرُ الصبرِ، وقيل: الصلاةُ: الدعاءُ؛ أي: استعينوا على البلايا بالصبرِ، والالتجاءِ إلى الدعاءِ، والابتهال إلى الله في دفعه.

﴿وَإِنَّهَا﴾ الضمير: للصلاة، أو للاستعانة، ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾: لشاقَّةٌ ثقيلةٌ؛ من قولك: كَبُرَ عليَّ هذا الأمرُ ﴿إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾؛ لأنهم يتوقَّعُون ما ادُّخرَ للصابرين على متاعِبِها، فتهون عليهم؛ ألا ترى إلى قوله:

«٤٦» ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ أي: يتوقَّعون لقاءَ ثوابِه ونيلَ ما عنده، ويطمعُون فيه، وفُسِّرَ (يظنون) بـ: يتيقنون؛ لِقراءةِ عبدِ الله: ﴿يعلمون﴾[٣] أي: يعلمون أنه لا بدَّ من لقاءِ الجزاءِ، فيعملون على حَسَبِ ذلك، وأما مَن لم يُوقن بالجزاء، ولم يَرْجُ الثوابَ.. كانت عليه مشقةً خالصةً، والخشوعُ: الإخباتُ والتطامُنُ، وأما الخضوعُ.. فاللينُ والانقيادُ، وفُسِّرَ اللقاءُ بالرؤيةِ، و(ملاقوا ربهم) بـ: معاينوه بلا كيفٍ، ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾: لا يملكُ أمرَهم في الآخرة أحدٌ سواه.

«٤٧» ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ التكريرُ للتأكيد، ﴿وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ﴾: نصبٌ عطفٌ على (نعمتي) أي: اذكروا نعمتي وتفضيلي، ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾: على الجمِّ الغفيرِ من الناس؛ يقال: رأيت عالَماً من الناس، والمرادُ الكثرةُ.

«٤٨» ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا﴾ أي: يومَ القيامةِ، وهو مفعولٌ به، لا ظرفٌ، ﴿لَّا تَجْزِى نَفْسٌ﴾ مؤمنةٌ ﴿عَن نَّفْسٍ﴾ كافرةٍ ﴿شَيْـًٔا﴾ أي: لا تقضي عنها شيئاً من الحقوق التي لَزِمَتْها، و(شيئاً): مفعولٌ

---

(١) رواه بنحوه أبو داود (١٣١٩) عن سيدنا حذيفة رضي الله عنه.

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٢/ ١٧٤).

(٣) انظر «الكشاف» (١/ ١٦٣).

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ ....

به، أو: مصدرٌ؛ أي: قليلاً من الجزاءِ، والجملةُ: منصوبةُ المحلِّ صفةٌ لـ (يوماً)، والعائدُ منها إلى الموصوف محذوفٌ تقديرُه: لا تجزي فيه، ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾، ﴿ولا تقبل﴾: بالتاءِ: مكيٌّ، وبصريٌّ[١]، والضميرُ في: (منها): يرجعُ إلى النفس المؤمنة؛ أي: لا تقبلُ منها شفاعةٌ للكافرة، وقيل: كانت اليهودُ تَزْعُمُ أن آباءهم الأنبياءَ يشفعون لهم فأُوْيِسُوا، وهو كقوله: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]، وتَشَبُّثُ المعتزلةِ بالآية في نفي الشفاعةِ للعصاةِ مردودٌ؛ لأن المنفيَّ شفاعةُ الكفارِ، وقد قال عليه السلام: «شفاعتي لأهل الكبائرِ من أمتي، مَن كَذَّبَ بها.. لم يَنَلْها»[٢]، ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي: فديةٌ؛ لأنها معادِلةٌ للمَفْدِيِّ[٣]، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾: يُعانُون، وجمعَ؛ لدلالةِ النفسِ المُنَكَّرَةِ على النفوسِ الكثيرةِ[٤]، وذُكِّرَ لمعنى العبادِ أو الأناسيِّ.

《٤٩》 ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أصلُ (آل): أهلٌ؛ ولذلك يُصغَّرُ بأُهيل، فأبدلتْ هاؤه ألفاً، وخُصَّ استعمالُه بأُولي الخَطَرِ كالملوكِ وأشباهِهم، فلا يقال: آلُ الإسكافِ والحجّام[٥]، و(فرعون): عَلَمٌ لمن مَلَكَ العمالقةَ، كقيصرَ لملكِ الرومِ، وكسرى لملكِ الفُرس، ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾: حالٌ من (آل فرعون) أي: يُولُونكم؛ مِنْ: سامَه خَسْفاً: إذا أَوْلاه ظُلماً، وأصلُه مِنْ: سامَ السلعةَ: إذا طَلَبَها، كأنَّها بمعنى: يَبْغُونكم ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ ويُريدونكم عليه، ومساومةُ البيعِ: مُزايدةٌ، أو مُطالبة، و(سوء): مفعولٌ ثانٍ لـ (يسومونكم)، وهو مصدرُ: السَّيِّئِ؛ يقال: أعوذ بالله من سوء الخلقِ، وسوءِ الفعلِ؛ يُرادُ: قبحُهما، ومعنى (سوء العذاب) والعذابُ كلُّه سَيِّئ: أَشَدُّهُ وأَفْظَعُه.

﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾: بيانٌ لقولِه: (يسومونكم) ولذا تُرِكَ العاطفُ، ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾: يتركون بناتِكم أحياءً للخدمةِ، وإنما فعلُوا بهم ذلك؛ لأن الكهنةَ أنذرُوا فرعونَ بأنه يولدُ مولودٌ يزولُ ملكُه بسببه، كما أنذروا نمرودَ فلم يغنِ عنهما اجتهادُهما في التَّحَفُّظِ، وكان ما شاء الله،

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٣٢).

(٢) رواه أبو داود (٤٧٣٩) والترمذي (٢٤٣٥) عن سيدنا أنس رضي الله عنه، دون قوله: (مَن كَذَّبَ بها.. لم يَنَلْها).

(٣) معادلة: مماثلة.

(٤) أي: كلمة (نفس) في قوله: (لا تجزي نفس): تدل على الكثرة؛ لأن النكرة في سياق النفي تعم.

(٥) الإسكاف: صانع الخِفاف، وقيل: كلُّ صانع.

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾ ....

﴿وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ﴾: محنةٌ إن أشيرَ بـ (ذلكم) إلى صنع فرعونَ، ونعمةٌ إن أشير به إلى الإنجاء، ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾: صفةٌ لـ (بلاء)، ﴿عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾: صفةٌ ثانيةٌ.

《٥٠》 ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا﴾: فَصَلْنا بين بعضِه وبعضٍ حتى صارت فيه مسالكُ لكم، وقرئ ﴿فرَّقنا﴾[١] أي: فَصَّلنا؛ يقال: فَرَقَ بين الشيئين، وَفَرَّقَ بين الأشياء؛ لأن المسالك كانت اثني عشرَ على عدد الأسباطِ، ﴿بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ كانوا يسلكُونه، ويتفرقُ الماءُ عندَ سلوكهم، فكأنما فُرِقَ بهم، أو: فَرَقْناه بسببكم، أو فَرَقْناه مُلْتبساً بكم، فيكونُ في موضع الحال[٢].

روي: أن بني إسرائيلَ قالوا لموسى عليه السلام: أين أصحابُنا فنحن لا نرضى حتى نراهم، فأُوحيَ إليه أن قُلْ بعصاك هكذا، فقال بها على الحيطانِ فصارت فيها كُوىً، فَتراءَوا وتَسامعُوا كلامَهم[٣].

﴿فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ إلى ذلك، وتشاهدونه، ولا تَشُكُّون فيه.

《٥١》 وإنما قال: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ﴾ لأن الله تعالى وَعَدَهُ بالوحيِ، وَوَعَدَه المجيءَ للميقات إلى الطور، ﴿وعدنا﴾: حيثُ كان: بَصْرِيٌّ[٤]، لما دخل بنو إسرائيلَ مصرَ بعدَ هلاكِ فرعونَ، ولم يكن لهم كتابٌ يَنتهُون إليه. . وعدَ الله موسى أن يُنزلَ عليه التوراةَ، وضَرَبَ له ميقاتاً ذا القعدةِ وعشرَ ذي الحجةِ وقال: ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾؛ لأنَّ الشهورَ غُرَرُها بالليالي، و(أربعين): مفعولٌ ثانٍ لـ (واعدنا)، لا ظرفٌ؛ لأنه ليس معناه: واعدناه في أربعين ليلة، ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ أي: إلهاً، فحُذِفَ المفعولُ الثاني، (اتخذتم)، وبابُه: بالإظهار: مكيٌّ وحفصٌ[٥]، ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾: من بعدِ ذهابِه إلى الطور، ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾﴾ أي: بوَضْعِكُم العبادةَ غيرَ موضعِها، والجملةُ: حالٌ؛ أي: عبدتموه ظالمين.

《٥٢》 ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم﴾: مَحَوْنا ذنوبَكم عنكم ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾: من بعد اتخاذِكم العجلَ؛ ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾: لكي تشكروا النعمةَ في العفوِ عنكم.

---

(١) انظر «المحرر الوجيز» (١/ ١٤١) وهي قراءة شاذة.

(٢) أي: الباءُ في: (بكم) يحتمل كونُها لشِبْه الآلة، وهو مراده بقوله: يتفرقُ الماءُ عندَ سلوكهم، فكأنما فُرِقَ بهم، أو: للسببية، وذاك قولُه: فرقناه بسببكم، أو: للمصاحبة، والمعنى: ملتبساً بكم. انظر «الإكليل» (١/ ٣٧٤).

(٣) كوىً: نوافذ تحصل الرؤية بها.

(٤) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٣٢).

(٥) انظر المرجع السابق (ص ٣٣).

﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝٥٣ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٤ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٥﴾ ....

《٥٣》 ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ﴾ يعني: الجامعَ بين كونه كتاباً منزلاً وفرقاناً يَفْرُقُ بين الحقِّ والباطلِ، وهو التوراةُ، ونظيرُه: رأيتُ الغيثَ والليثَ؛ تريد: الرجلَ الجامعَ بين الجُودِ والجَراءةِ، أو: التوراةَ والبرهانَ الفارقَ بين الكفرِ والإيمانِ من العصا واليدِ وغيرِهما من الآيات، أو: الشرعَ الفارقَ بين الحلالِ والحرامِ، وقيل: الفرقانُ: انفراقُ البحرِ، أو: النصرُ الذي فَرَقَ بينه وبين عدوِّه، ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝٥٣﴾: لكي تهتدُوا.

《٥٤》 ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾: للذين عبدُوا العجل: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ معبوداً، ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ هو الذي خلق الخلقَ بريئاً من التفاوتِ. وفيه تقريعٌ لما كان منهم مِن تركِ عبادةِ العالمِ الحكيمِ الذي بَرَأَهُم أَبْرِياءَ من التفاوتِ إلى عبادةِ البقرِ الذي هو مَثَلٌ في الغباوةِ والبَلادةِ، ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ قيل: هو على الظاهرِ وهو البَخْعُ[1]، وقيل: معناه: قَتْلُ بعضِهم بعضاً، وقيل: أُمِرَ مَن لم يعبدِ العجلَ أن يَقتلُوا العبدةَ، فَقُتِلَ سبعون ألفاً.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ التوبةُ والقتلُ ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ من الإصرارِ على المعصيةِ ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾: المفضالُ بقبولِ التوبةِ وإن كثرت، ﴿ٱلرَّحِيمُ ۝٥٤﴾: يَعفُو الحَوْبَةَ وإن كَبُرَتْ. والفاءُ الأولى: للتسبيبِ؛ لأن الظلمَ سببُ التوبةِ، والثانية: للتعقيب؛ لأن المعنى: فاعزموا على التوبة، فاقتلوا أنفسكم؛ إذْ اللهُ تعالى جعلَ توبتَهم قتلَ أنفسِهم، والثالثةُ: متعلقةٌ بشرطٍ محذوفٍ كأنه قال: فإن فعلتم.. فقد تاب عليكم.

《٥٥》 ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾: عِياناً، وانتصابُها على المصدر، كما تُنْصَبُ القُرفصاءُ بفعل الجلوسِ، أو على الحالِ مِن: (نرى) أي: ذوي جهرةٍ، ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ أي: الموتُ، قيل: هي نارٌ جاءت مِن السماءِ فأحرقتهم.

روي: أن السبعين الذين كانُوا مع موسى ﷺ عند الانطلاق إلى الجبل قالوا له: نحن لم نعبدِ العجلَ كما عَبَدَه هؤلاءِ فأرنا الله جهرةً، فقال عليه السلام: سألتُه ذلك فأباه عليَّ، فقالوا: إنك رأيت الله تعالى، فلن نؤمنَ لك حتى نرى الله جهرةً، فبعث الله عليهم صاعقةً فأحرقَتْهم.

---

(١) **البخع**: أن يقتل الرجل نفسه.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٥٦ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٥٧ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ۝٥٨﴾

وتعلقت المعتزلةُ بهذه الآيةِ في نفي الرؤيةِ؛ لأنه لو كان جائزَ الرؤيةِ.. لما عُذِّبُوا بسؤالِ ما هو جائزُ الثبوتِ، قلنا: إنما عوقبُوا بكفرِهم؛ لأن قولَهم: إنك رأيت الله، فلن نؤمن لك حتى نرى الله جهرةً كُفْرٌ منهم؛ ولأنهم امتنعُوا عن الإيمانِ بموسى بعدَ ظهورِ مُعجزتِه حتى يَرَوا ربَّهم جهرةً، والإيمانُ بالأنبياء واجبٌ بعد ظهورِ معجزتِهم، ولا يجوزُ اقتراحُ الآياتِ عليهم؛ ولأنهم لم يَسألوا سؤالَ استرشادٍ، بل سؤالَ تعنتٍ وعنادٍ.

﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٥﴾ إليها حينَ نزلت.

《٥٦》 ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم﴾: أحييناكم، وأصله: الإثارةُ، ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٥٦﴾ نعمةَ البعثِ بعد الموتِ.

《٥٧》 ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾: وجعلنا الغمامَ يُظلُّكم، وذلك في التِّيهِ، سَخَّرَ اللهُ لهم السحابَ يَسِيْرُ بِسيرهم، يُظلهم من الشمس، وينزلُ بالليل عمودٌ من نارٍ يَسيرون في ضوئِه، وثيابُهم لا تَتسخُ ولا تَبلى.

﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ﴾: التَّرَنْجَبِيْنَ[1]، وكان ينزلُ عليهم مثلَ الثلجِ من طلوعِ الفجرِ إلى طلوع الشمسِ، لكلِّ إنسانٍ صاعٌ، ﴿وَالسَّلْوَىٰ﴾ كان يبعث اللهُ عليهم الجَنُوبَ فتَحشُر عليهم السلوى، وهي السُّمَانَى، فيذبحُ الرجل منها ما يكفيه، وقلنا لهم: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ﴾: لذيذاتِ أو حلالاتِ ﴿مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا﴾ يعني: فظلموا بأن كفروا هذه النعمَ، وما ظلمونا، ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٥٧﴾ أنفسَهم: مفعولُ (يظلمون)، وهو خبرُ كانَ.

《٥٨》 ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ لهم بعدَ ما خرجُوا من التِّيه: ﴿ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ أي: بيتَ المقدسِ، أو: أريحاءَ، والقريةُ: المجتمعُ؛ مِن: قَرَيْتُ؛ لأنها تجمعُ الخلقَ، أُمِرُوا بدخولها بعد التيه، ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾: من طعام القريةِ وثمارِها ﴿حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾: واسعاً، ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ﴾: باب القريةِ، أو بابَ القُبَّةِ التي كانوا يصلُّون إليها، وهم لم يَدخلوا بيتَ المقدس في حياة موسى عليه

(١) هو شيءٌ حلوٌ يشبه العسل.

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ ....

السلام، وإنما دخلوا البابَ في حياته، ودخلوا بيتَ المقدس بعدَه، ﴿سُجَّدًا﴾: حالٌ، وهو جمعُ ساجدٍ، أُمروا بالسجود عند الانتهاء إلى الباب شكراً لله تعالى، وتواضعاً، ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾: (فِعْلَةٌ) مِن الحطِّ، كالجِلسةِ، وهي خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ؛ أي: مسألتُنا حِطَّةٌ، أو: أَمْرُكَ حِطَّةٌ، والأصلُ: النصبُ، وقد قرئَ به[1]، بمعنَى: حُطَّ عنا ذنوبنا حِطَّةً، وإنما رُفعت لِتُعْطِيَ معنى الثباتِ، وقيل: أَمْرُنا حِطَّةٌ؛ أي: أَنْ نَحُطَّ في هذه القريةِ ونَستقرَّ فيها، وعن علي رضي الله عنه: هو بسم الله الرحمن الرحيم، وعن عكرمةَ: هو لا إله إلا الله، ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَـٰيَـٰكُمْ﴾: جمعُ خطيئةٍ، وهي الذنبُ، ﴿يُغفَر﴾: مدنيٌّ، ﴿تُغفَر﴾: شاميٌّ[2]، ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ أي: من كان محسناً منكم.. كانت تلك الكلمةُ سبباً في زيادة ثوابِه، ومن كان مسيئاً.. كانت له توبةً ومغفرةً.

《٥٩》 ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾: فيه حذفٌ، وتقديرُه: فبدل الذين ظلموا بالذي قيل لهم قولاً غيرَ الذي قيل لهم، فـ (بدَّلَ): يتعدَّى إلى مفعولٍ واحدٍ بنفسه، وإلى آخرَ بالباء، فالذي مع الباءِ متروكٌ، والذي بغير باءٍ موجودٌ؛ يعني: وضعُوا مكانَ (حطة) قولاً غيرَها؛ أي: أُمِرُوا بقولٍ معناه: التوبةُ والاستغفارُ، فخالفوه إلى قولٍ ليس معناه معنَى ما أُمِرُوا به، ولم يمتثلوا أمرَ اللهِ، وقيل: قالوا مكانَ (حطة): حِنْطَةٌ، وقيل: قالوا بالنَّبَطِيَّة: حِطّا سَمقاثا؛ أي: حنطةٌ حمراءُ؛ استهزاءً منهم بما قيل لهم؛ وعدولاً عن طلبِ ما عندَ اللهِ إلى طلبِ ما يشتهون من أعراض الدنيا.

﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا﴾: عذاباً، وفي تكريرِ (الذين ظلموا) زيادةٌ في تقبيح أَمْرِهم، وإيذانٌ بإنزال الرجزِ عليهم؛ لِظُلمِهم، ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: صفةٌ لـ (رجز)، ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾: بسببِ فِسقهم، رويَ: أنه ماتَ منهم في ساعةٍ بالطاعونِ أربعةٌ وعشرونَ ألفاً، وقيل: سبعون ألفاً.

《٦٠》 ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾: موضعُ (إذْ): نصبٌ؛ كأنه قيل: واذكروا إذ استسقى؛

---

(١) انظر «الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها» (ص ٤٨٥) وهي شاذة.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٣٢).

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ ....

أي: استدعى أن يُسقى قومُه، ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ عَطِشُوا في التيهِ فدعا لهم موسى بالسقيا، فقيل له: (اضرب بعصاك الحجر)، واللامُ: للعهدِ والإشارةُ إلى حَجَرٍ معلومٍ؛ فقد رُويَ: أنه حَجَرٌ طُوريٌّ حَمَلَه معَه وكان مُربعاً، له أربعةُ أوجهٍ، كانت تنبعُ من كل وجهٍ ثلاثُ أعْيُنٍ، لكلِّ سِبْطٍ عينٌ، وكانوا ستَّ مِئةِ ألفٍ، وسَعَةُ المعسكرِ اثنا عشرَ ميلاً، أو: للجنسِ؛ أي: اضرب الشيءَ الذي هو الحجرُ، وهذا أظهرُ في الحجةِ، وأَبْيَنُ في القدرة.

﴿فَٱنفَجَرَتْ﴾ الفاءُ: متعلقةٌ بمحذوفٍ؛ أي: فضربَ فانفجرت؛ أي: سالت بكثرةٍ، أو: فإن ضربتَ.. فقد انفجرتْ، وهي على هذا فاءٌ فصيحةٌ، لا تقعُ إلا في كلامٍ بليغٍ[1]، ﴿مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ على عددِ الأسباطِ، وقرئَ بكسرِ الشينِ وبفتحِها[2]، وهما لغتان، و(عيناً): تمييزٌ.

﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾: كلُّ سِبْطٍ ﴿مَّشْرَبَهُمْ﴾: عينَهم التي يشربون منها، وقلنا لهم: ﴿كُلُوا۟﴾ مِن المنِّ والسلوى، ﴿وَٱشْرَبُوا۟﴾ من ماءِ العيونِ ﴿مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾ أي: الكلُّ مما رزقكم الله، ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: لا تفسدوا فيها، والعَيْثُ: أشدُّ الفساد، ﴿مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾: حالٌ مؤكِّدةٌ؛ أي: لا تتمادَوا في الفسادِ في حالِ فسادِكم؛ لأنهم كانوا مُتمادِين فيه.

《٦١》 ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾: هو ما رُزِقُوا في التِّيهِ من المنِّ والسَّلْوَى، وإنما قالوا: (على طعام واحد) وهما طعامان؛ لأنهم أرادُوا بالواحد ما لا يتبدَّلُ، ولو كان على مائدة الرجلِ ألوانٌ عِدَّةٌ يداومُ عليها كلَّ يوم لا يُبَدِّلُها.. يقالُ: لا يأكل فلانٌ إلا طعاماً واحداً، ويُرادُ بالوحدةِ نفيُ التبدلِ والاختلافِ، أو: أرادُوا أنهما ضَرْبٌ واحدٌ؛ لأنهما معاً من طعام أهلِ التلذُّذِ والتَّرَّفِ، وكانوا من أهلِ الزراعاتِ فأرادُوا ما أَلِفُوا من البقول والحبوبِ وغيرِ ذلك.

﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾: سله، وقل له: أَخْرِجْ لنا ﴿يُخْرِجْ لَنَا﴾: يظهرْ لنا ويوجدْ ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا﴾: هو ما أنبتته الأرضُ من الخُضَرِ، والمرادُ به أطايبُ البقولِ كالنَّعناعِ والكَرَفْسِ

---

(١) سميت فصيحة؛ لأنها تفصح عن محذوف هو سبب لما بعده، وقيل: لاختصاصها بكلام الفصحاء. انظر «نواهد الأبكار» (٢/ ٢٤٥).

(٢) وهما شاذتان. انظر «المحرر الوجيز» (١/ ١٥٢).

والكُرّاثِ ونحوِهما مما يأكلُه الناسُ، ﴿وَقِثَّآئِهَا﴾ يعني: الخيارَ، ﴿وَفُومِهَا﴾: هو الحنطةُ، أو: الثومُ؛ لقراءة ابن مسعود: ﴿وثومِها﴾[١]، ﴿وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ﴾: أقربُ منزلةً، وأدْوَنُ مِقداراً، والدُّنُوُّ، والقُرْبُ يُعَبَّرُ بهما عن قلةِ المقدارِ، ﴿بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾: أَرْفَعُ وأَجَلُّ.

﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا﴾ من الأمصارِ؛ أي: انْحَدِرُوا إليه من التِّيْهِ، وبلادُ التِّيْهِ: ما بين بيت المقدسِ إلى قِنَّسْرِين[٢]، وهي اثنا عشرَ فرسخاً في ثمانيةِ فراسخَ[٣]، أو: مصرَ فرعونَ، وإنما صَرَفَهُ مع وجودِ السببينِ وهما: التعريفُ والتأنيثُ؛ لإرادةِ البَلَدِ، أو لِسُكُونِ وَسَطِه، كنوحٍ ولوطٍ، وفيهما العجمةُ والتعريفُ، ﴿فَإِنَّ لَكُم﴾ فيها ﴿مَّا سَأَلْتُمْ﴾ أي: فإن الذي سألتم يكونُ في الأمصارِ لا في التِّيْهِ.

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ أي: الهوانُ والفقرُ؛ يعني: جُعِلَتِ الذلةُ محيطةً بهم، مشتملةً عليهم، فَهُمْ فيها كما يكونُ في القُبَّةِ مَن ضُرِبت عليه[٤]، أو: أُلْصِقَتْ بهم حتى لَزِمَتْهم ضربةَ لازبٍ[٥]، كما يُضربُ الطينُ على الحائط فيلزمُه[٦]، فاليهودُ صاغرون أذلاءُ أهلُ مَسْكَنَةٍ وفقرٍ؛ إما على الحقيقةِ، وإما لِتَصاغُرِهم، وتَفاقُرِهم خِيْفَةَ أن تُضاعَفَ عليهم الجزيةُ، ﴿عليهُمُ الذلة﴾: حمزةُ وعليٌّ، وكذا كلُّ ما كان قبلَ الهاءِ ياءٌ ساكنةٌ، وبِكَسْرِ الهاءِ والميمِ: أبو عَمْرٍو، وبِكَسْرِ الهاءِ وضمِّ الميمِ: غيرُهم[٧]، ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾: مِن قولك: باءَ فلانٌ بفلانٍ؛ إذا كان حقيقاً بأن يقتلَ به؛ لمساواتِه له؛ أي: صارُوا أَحِقّاءَ بغضبِه، وعن الكسائيِّ: رجعوا.

﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارةٌ إلى ما تقدمَ مِن ضربِ الذلةِ والمسكنةِ والخَلاقَةِ بالغضب، ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾: بالهمزةِ: نافعٌ، وكذا بابُه[٨]؛ أي: ذلك بسبب كفرِهم،

---

(١) انظر «المحتسب» لابن جني (١/ ٨٨).

(٢) قنسرين: قرية في سوريا تقع جنوبَ مدينةِ حلب.

(٣) الفرسخ: (٥٥٤٤ متراً). انظر «الفقه الإسلامي وأدلته» (١/ ٧٥).

(٤) ففي (الذلة): استعارة مكنية حيث شبهت بالقبة.

(٥) اللازب: الثابت الشديد الثبوت، يقال: صار ضَرْبَةَ لازِبٍ، أيْ: لازماً ثابتاً.

(٦) ففي كلمة (ضربت): استعارة تصريحية؛ حيث شبه إلصاق الذلة بهم بضرب الطين على الحائط.

(٧) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٣٣).

(٨) انظر المرجع السابق (ص ٣٤).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ....﴾

وقتلِهم الأنبياءَ، وقد قَتلت اليهودُ شعياءَ وزكريّا ويَحيَى. والنبيُّ: من النبأِ؛ لأنه يخبرُ عن الله تعالى، (فَعِيل) بمعنَى: (مفعِل)، أو بمعنى: (مفعَل)، أو مِن: (نبا)؛ أي: ارتفع، والنَّبْوَةُ: المكانُ المرتفع، ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ عندهم أيضاً؛ فإنهم لو أَنْصَفُوا.. لم يَذكرُوا شيئاً يستحقون به القتلَ عندهم، وهو في محلِّ النصبِ على الحالِ من الضميرِ في (يقتلون) أي: يقتلونهم مبطلين.

﴿ذَٰلِكَ﴾: تكرارٌ للإشارة، ﴿بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾: بسبب ارتكابِهم أنواعَ المعاصي، واعتدائِهم حدودَ اللهِ في كلِّ شيءٍ معَ كفرِهم بآياتِ الله وقتلِهم الأنبياءَ، وقيل: هو اعتداؤُهم في السبت، ويجوز أن يُشارَ بـ (ذلك) إلى الكفرِ وقتلِ الأنبياء؛ على معنى: أن ذلك بسبب عصيانِهم واعتدائِهم؛ لأنهم انْهَمَكُوا فيهما وغَلَوا حتى قَسَتْ قلوبُهم، فَجَسَرُوا على جحود الآياتِ[١]، وقتلِ الأنبياءِ، أو: ذلك الكفرُ والقتلُ معَ ما عَصَوا[٢].

«٦٢» ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بألسنتهم من غير مُواطأةِ القلوبِ، وهم المنافقون، ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾: تَهَوَّدُوا؛ يقال: هادَ يهودُ وتَهَوَّدَ: إذا دخلَ في اليهوديةِ، وهو هائدٌ، والجمعُ: هُودٌ، ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾: جمعُ: نصرانٍ، كندمانٍ وندامَى؛ يقال: رجلٌ نصرانٌ، وامرأةٌ نصرانةٌ، والياءُ في نصرانيٌّ: للمبالغةِ، كالتي في أَحْمَرِيٍّ؛ سُمُّوا نصارَى؛ لأنهم نَصَرُوا المسيحَ، ﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾: الخارجين من دينٍ مشهورٍ إلى غيره، مِن: صبأ: إذا خرجَ من الدِّينِ، وهم قومٌ عدلُوا عن دين اليهوديةِ والنصرانيةِ وعبدُوا الملائكةَ، وقيل: هم يقرؤون الزَّبور، ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ﴾ من هؤلاء الكفرة إيماناً خالصاً، ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾: ثوابُهم ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ في الآخرة، ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ ومحلُّ (من آمن): الرفعُ إن جعلته مبتدأً خبرُه: (فلهم أجرهم)، والنصبُ إن جعلتَه بدلاً من اسم (إنَّ) والمعطوفِ عليه، فخبرُ (إن) في الوجه الأولِ: الجملةُ، كما هي[٣]، وفي الثاني: (فلهم)، والفاءُ: لِتَضَمُّنِ (مَن) معنى الشرطِ.

«٦٣» ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾ بقبولِ ما في التوراةِ، ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ أي: الجبلَ حتى

---

(١) جسر على الأمر: أقدم عليه.

(٢) فتكون الباء في (بما عصوا): للمصاحبة.

(٣) أي: جملة: (من آمن...).

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةًۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾

قبلتم وأعطيتم الميثاقَ، وذلك أن موسى عليه السلام جاءهم بالألواحِ، فرأَوا ما فيها من الآصارِ والتكاليفِ الشاقَّةِ، فكَبُرت عليهم، وأَبَوا قبولَها، فأُمِرَ جبريلُ عليه السلام فقلعَ الطورَ من أصلِه ورفعَه، فَظَلَّلَه فوقَهم وقال لهم موسى: إن قبلتم وإلا.. أُلْقِيَ عليكم، حتى قَبِلُوا، وقلنا لكم: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم﴾ من الكتاب؛ أي: التوراةَ ﴿بِقُوَّةٍ﴾: بِجِدٍّ وعزيمةٍ، ﴿وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ﴾: واحفظوا ما في الكتاب، وادْرُسُوه ولا تنسَوه ولا تغفُلوا عنه ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾: رجاءً منكم أن تكونوا متقين.

《٦٤》 ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم﴾: ثم أعرضتم عن الميثاقِ والوفاءِ به ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾: من بعد القبولِ، ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ بتأخير العذابِ عنكم، أو: بتوفيقكم للتوبة ﴿لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾: الهالكين في العذاب.

《٦٥》 ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾: عَرَفْتُم، فيتعدَّى إلى مفعولٍ واحدٍ ﴿ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾: هو مصدرُ: سَبَتَتِ اليهودُ: إذا عظَّمت يومَ السبتِ، وقد اعتدَوا فيه؛ أي: جاوزُوا ما حُدَّ لَهم فيه؛ من التجردِ للعبادةِ وتعظيمه، واشْتَغَلُوا بالصيدِ، وذلك أن الله تعالى نهاهم أن يَصيدُوا في السبت، ثم ابتلاهم، فما كان يبقَى حوتٌ في البحر إلا أخرجَ خُرطُومَه يومَ السبتِ، فإذا مضى.. تفرقت، فحفروا حياضاً عند البحر، وشرعُوا إليها الجداولَ، فكانت الحيتانُ تدخلُها يوم السبت؛ لِأَمْنِها من الصيد، وكانوا يسدُّون مشارعَها من البحر، فيصطادونها يوم الأحد، فذلك الحبسُ في الحياض هو اعتداؤهم، ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟﴾ بتَكْوِيْنِنا إياكم ﴿قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾﴾: خبرُ (كان) أي: كونوا جامعين بين القِرديةِ والخُسُوءِ، وهو الصَّغارُ والطَّرْدُ.

《٦٦》 ﴿فَجَعَلْنَٰهَا﴾ يعني: المسخةَ ﴿نَكَٰلًا﴾: عِبرةً تُنَكِّلُ مَن اعتبَرَ بِها؛ أي: تَمْنَعُهُ، ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾: لما قبلها، ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾: وما بعدها من الأممِ والقرونِ؛ لأن مَسْخَتَهم ذُكِرَتْ في كتب الأوَّلين فاعتبَرُوا بها، واعتبَر بها مَن بَلَغَتهم من الآخرين، ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾ الذين نَهَوْهم عن الاعتداء من صالحي قومهم، أو لِكُلِّ مُتَّقٍ سَمِعَها.

《٦٧》 ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ أي: واذكروا إذْ قال موسى، وهو معطوفٌ على (نعمتي)

﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ ....

في قولِه: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ كأنّه قال: اذكروا ذاك، واذكروا إذْ قال موسى، وكذلك هذا في الظروف التي مضت؛ أي: اذكروا نعمتي، واذكروا وقتَ إنجائِنا إياكم، واذكروا وقتَ فَرْقِنا، واذكروا نعمتي، واذكروا وقتَ استسقاءِ موسى ربَّه لقومه، والظروفُ التي تأتي إلى قوله: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن﴾ أي: بأن ﴿تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾: قال المفسرون: أولُ القصةِ مؤخرٌ في التلاوةِ، وهو قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا﴾، وذلك أن رجلاً مُوسِراً اسمُه عاميلُ، قتلَه بنو عمِّهِ؛ لِيَرِثُوه، وطرحُوه على باب مدينةٍ، ثم جاؤُوا يطالبون بديته، فأمرهم اللهُ أن يذبحوا بقرةً ويضربوه ببعضِها؛ ليحيا فيخبرَهم بقاتله، ﴿قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾: أتجعلُنا مكانَ هُزُءٍ، أو أهلَ هُزُءٍ، أو الهزءَ نفسَه؛ لِفَرْطِ الاستهزاءِ[١]، ﴿هُزْأً﴾: بسكون الزاي والهمزةِ: حمزةُ، وبضمتين والواوِ: حفصٌ، غيرُهما: بالتثقيل والهمزة[٢].

﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ﴾ العياذُ واللياذُ مِن وادٍ واحدٍ ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾؛ لأن الهزءَ في مثل هذا من بابِ الجهلِ والسَّفهِ، وفيه تعريضٌ بهم؛ أي: أنتم جاهلون؛ حيث نَسَبْتُمُوني إلى الاستهزاءِ.

《٦٨》 ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ﴾: سؤالٌ عن حالها وصفتِها؛ لأنهم كانوا عالمين بماهِيَّتِها؛ لأن (ما) وإن كانت سؤالاً عن الجنسِ، و(كيفَ) عن الوصف، ولكن قد تقعُ (ما) موقعَ (كيف)، وذلك أنهم تعجبُوا من بقرةٍ ميتةٍ يُضربُ ببعضِها ميتٌ فيحيا، فسألوا عن صفةِ تلك البقرةِ العجيبةِ الشأنِ، و(ما هي): خبرٌ، ومبتدأٌ.

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ﴾: مُسِنَّةٌ، وسميت فارِضاً؛ لأنها فرضت سِنَّها؛ أي: قطعتها وبَلَغَتْ آخرَها، وارتفعَ (فارض) لأنه صفةٌ لـ (بقرة)، وقولُه: ﴿وَلَا بِكْرٌ﴾: فَتِيَّةٌ، عطفٌ عليه، ﴿عَوَانٌۢ﴾: نَصَفٌ[٣]، ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾: بين الفارضِ والبكرِ، ولم يقل: بينَ ذينِك، مع أن بينَ يقتضي

---

(١) كلمة (هزواً): مصدر، وقد وقع مفعولاً ثانياً لـ (تتخذنا) وأصله خبر، والخبرُ إن وقع مصدراً.. فإما أن يقدر مضاف قبله؛ لذا قال: (مكان هزء، أو أهل هزء)، أو لا يقدر مضاف لإفادة المبالغة، وهو مراده بقوله: (الهزءَ نفسه).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٣٤).

(٣) نَصَفٌ: متوسطةُ السنّ لا صغيرةٌ ولا كبيرةٌ.

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ . .

شيئين فصاعداً؛ لأنه أراد بينَ هذا المذكورِ، وقد يجري الضمير مَجْرَى اسمِ الإشارة في هذا، قال أبو عبيدة: قلت لرؤبةَ في قوله[١]: [من: الرجز]

فيها خطوطٌ من سوادٍ وبَلَق ... كأنه في الجلدِ توليعُ البَهَق

إن أردت الخطوط.. فقل: كأنها، وإن أردت السوادَ والبلقَ.. فقل: كأنهما، فقال: أردتُ: كأن ذاك[٢]، ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ أي: تؤمرُونه؛ بمعنى: تؤمرون به، أو أَمْرَكُم؛ بمعنى: مأمورَكم، تسميةً للمفعول بالمصدرِ، كضربِ الأميرِ[٣].

«٦٩» ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾ موضعُ (ما): رفعٌ؛ لأن معناه الاستفهامُ، تقديرُه: ادع لنا ربك يبينْ لنا أيُّ شيءٍ لونُها، ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ الفُقُوعُ: أشدُّ ما يكون من الصفرةِ وأنصعُه؛ يقال في التوكيد: أصفرُ فاقعٌ، وهو توكيدٌ لـ (صفراء) وليس خبراً عن اللون، إلا أنه ارتفعَ اللونُ به ارتفاعَ الفاعلِ، ولا فرق بين قولك: صفراءُ فاقعةٌ، وصفراءُ فاقعٌ لونُها، وفي ذكرِ اللونِ فائدةُ التوكيدِ؛ لأن اللونَ اسمٌ للهيئة، وهي الصُّفْرَةُ، فكأنه قيل: شديدةُ الصفرةِ صُفْرَتُها، فهو من قولِك: جَدَّ جِدُّه[٤].

﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾﴾ لِحسنِها؛ والسرورُ: لذةٌ في القلب عند حصولِ نفعٍ أو تَوَقُّعِهِ، عن علي رضي الله عنه: من لبس نعلاً صفراءَ.. قَلَّ هَمُّهُ؛ لقوله تعالى: ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾﴾[٥].

«٧٠» ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾: تكريرٌ للسؤال عن حالِها وصفتِها، واستكشافٌ زائدٌ؛ ليزدادوا بياناً لوصفِها، وعن النبي عليه السلام: «لو اعترضوا أدنى بقرة فذبحوها..

---

(١) البيت في «ديوانه» (ص١٠٤) في وصف بقرة، والبلقُ: سواد وبياض، والتوليعُ: اختلاف الألوان، والبهقُ: بياض وسواد يظهر في الجلد.

(٢) «مجاز القرآن» (١/ ٤٤).

(٣) يقال عن الدينار مثلاً: هذا ضرب الأمير فلان؛ أي: مضروبه.

(٤) أي: أن صفرتها كملت جداً فسرت إلى جميع صفاتها، وسرت إلى الصفرة أيضاً، وكذا: جَدَّ جِدُّه؛ يقال فيه: إن جده وسعيه بلغ في الكمال أن سرى إلى جميع صفات المجد حتى سرى الجِدُّ إلى نفسه فجد واجتهد ذلك الجدُّ. انظر «الإكليل» (١/ ٤١٧).

(٥) روى الطبراني في «المعجم الكبير» (١٠/ ٢٦٣) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما قال: «من لبس نعلاً صفراء.. لم يزل في سرور ما دام لابسها».

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾ ....

لكفتهم، ولكن شدّدوا فشدد الله عليهم»[1]، والاستقصاءُ شؤمٌ، ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا﴾: إن البقرَ الموصوفَ بالتَّعْوِينِ والصفرةِ كثيرٌ فاشتَبَهَ علينا، ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ إلى البقرةِ المرادِ ذبحُها، أو: إلى ما خفيَ علينا من أمرِ القاتلِ، و(إن شاء الله): اعتراضٌ بين اسمِ (إن) وخبرِها، في الحديث: «لو لم يَستثنُوا.. لما بُيِّنَت لهم آخرَ الأبدِ»[2] أي: لو لم يقولوا: إن شاء الله.

«٧١» ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ﴾ (لا ذلولٌ): صفةٌ لـ (بقرة) بمعنى: بقرةٌ غيرُ ذلولٍ؛ يعني: لم تُذَلَّلْ للكرابِ وإثارةِ الأرض[3]، ﴿وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ﴾: ولا هي من النواضحِ التي يُسنَى عليها؛ لِسَقْيِ الحروث[4]، و(لا) الأولى: نافيةٌ، والثانيةُ: مزيدةٌ لتوكيدِ الأولى؛ لأن المعنى: لا ذلولٌ تثيرُ الأرضَ؛ أي: تَقْلِبُها للزراعة، وتسقي، على أن الفعلين صفتانِ لـ: (ذلول) كأنه قيل: لا ذلولٌ مثيرةٌ وساقيةٌ، ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ عن العيوبِ وآثارِ العملِ، ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾: لا لَمعةَ في نُقْبَتِها من لون آخرَ سوى الصُّفْرةِ[5]، وهي صفراءُ كلُّها حتى قَرْنُها وظِلْفُها[6]، وهي في الأصل مصدرٌ: وَشاهُ وَشْياً وَشِيَةً؛ إذا خلطَ بلونِه لوناً آخرَ.

﴿قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بحقيقةِ وصفِ البقرةِ، وما بقي إشكالٌ في أمرِها، ﴿جئت﴾ وبابُه: بغير همزٍ: أبو عمرو[7]، ﴿فَذَبَحُوهَا﴾: فحَصَّلُوا البقرةَ الجامعةَ لهذه الأوصافِ كلِّها فذبحوها، ﴿وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾؛ لغلاءِ ثمنِها، أو لخوفِ الفضيحةِ في ظهورِ القاتلِ.

رُوِيَ: أنه كان في بني إسرائيل شيخٌ صالحٌ له عِجْلَةٌ، فأتى بها الغَيْضَةَ وقال: اللهم إني استودَعْتُكها لابني حتى يكبرَ، وكان بَرّاً بوالديه، فشَبَّتِ، وكانت من أحسنِ البقرِ وأسمنِه، فساوَمُوها اليتيمَ وأمَّه حتى اشترَوها بمِلءِ مَسْكِها ذهباً[8]، وكانت البقرةُ إذْ ذاك بثلاثةِ دنانيرَ، وكانوا طلبُوا البقرةَ الموصوفةَ أربعين سنةً.

---

(١) رواه بنحوه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ١٣٧) موقوفاً عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢/ ٢٠٦).

(٣) **كراب الأرض**: قلب تربتها للزراعة.

(٤) **يسنى عليها**: يستخرج الماء من البئر بواسطتها.

(٥) **النُّقبة**: اللون.

(٦) **الظِّلْفُ** للبقرة والشاة وشبههما: كالقدم للإنسان.

(٧) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٣٤).

(٨) **المَسك**: الجلد.

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ ....

وهذا البيانُ من قبيلِ تقييدِ المطلقِ فكان نسخاً، والنسخُ قبلَ الفعلِ جائزٌ، وكذا قبلَ التمكنِ منه عندنا، خلافاً للمعتزلةِ.

《٧٢》 ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾: بتقدير: واذكروا، خُوطِبَتِ الجماعةُ؛ لوجودِ القتلِ فيهم، ﴿فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا﴾: فاختلفتم واختصمتم في شأنها؛ لأن المتخاصمين يدرأُ بعضُهم بعضاً؛ أي: يدفعُه، أو: تدافعتم؛ بمعنى: طرحَ قتلَها بعضُكم على بعضٍ، فيدفعُ المطروحُ عليه الطارحَ، أو: لأن الطرحَ في نفسه دفعٌ، وأصلُه: تَدارأتم، ثم أرادوا التخفيفَ فقلبُوا التاءَ دالاً؛ لتصيرَ من جنسِ الدالِ التي هي فاءُ الكلمةِ؛ ليُمْكِنَ الإدغامُ، ثم سكَّنُوا الدالَ؛ إذْ شرطُ الإدغامِ أن يكون الأول ساكناً، وزيدت همزةُ الوصلِ؛ لأنه لا يمكنُ الابتداءُ بالساكنِ، ﴿فادّاراتم﴾: بغير همزٍ: أبو عمرو[1].

﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾﴾: مظهرٌ لا محالةَ ما كتمتم مِن أمرِ القتلِ، لا يتركه مكتوماً، وأُعْمِلَ (مخرِج) على حكاية ما كان مستقبَلاً في وقت التدارُؤِ، وهذه الجملة اعتراضٌ بين المعطوفِ والمعطوفِ عليه، وهما: (ادارأتم)، و:

《٧٣》 ﴿فَقُلْنَا﴾ والضميرُ في ﴿اضْرِبُوهُ﴾: يرجعُ إلى النفسِ، والتذكيرُ بتأويل الشخصِ والإنسانِ، أو إلى القتيلِ لِما دلَّ عليه: (ما كنتم تكتمون)، ﴿بِبَعْضِهَا﴾: ببعضِ البقرةِ، وهو لسانُها، أو فخذُها اليمنى، أو عَجْبُها[2]، والمعنى: فَضَربُوه فحييَ، فحُذِفَ ذلك؛ لدلالةِ ﴿كَذَلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ عليه.

رويَ: أنهم لما ضربوه.. قام بإذن الله تعالى وقال: قتلني فلانٌ وفلانٌ لابنَي عَمِّهِ، ثم سقَطَ ميتاً، فأُخِذا وقُتِلا، ولم يُوَرَّثْ قاتلٌ بعد ذلك، وقولُه: (كذلك يحيي الله الموتى): إما أن يكون خطاباً للمنكِرين في زمن النبي عليه السلام، وإما أن يكون خطاباً للذين حضرُوا حياةَ القتيلِ؛ بمعنى: وقلنا لهم: كذلك يحيي الله الموتى يوم القيامة.

﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ﴾: دلائلَه على أنه قادرٌ على كل شيء؛ ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾: تَعْمَلُون على قضيةِ عقولكم، وهي أن مَن قَدَرَ على إحياء نفسٍ واحدةٍ.. قَدَرَ على إحياء جميعِها؛ لعدم

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٣٤).

(٢) العجب: العظم بين الأليتين.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾

الاختصاصِ؛ والحكمةُ في ذبح البقرةِ وضربِه ببعضها وإن قَدَرَ على إحيائه بلا واسطةٍ.. التقربُ به، والإشعارُ بحسن تقديم القُربةِ على الطلبِ، والتعليمُ لعباده تركَ التشديدِ في الأمورِ، والمسارعةَ إلى امتثال أوامرِ اللهِ من غيرِ تفتيشٍ وتكثيرِ سؤالٍ، وغيرُ ذلك.

وقيل: إنما أُمروا بذبح البقرةِ دونَ غيرِها من البهائم؛ لأنها أفضلُ قرابينهم؛ ولعبادتهم العجلَ، فأرادَ اللهُ تعالى أن يَهُوْنَ معبودُهم عندهم.

وكان ينبغي أن يُقدَّمَ ذكرُ القتيلِ والضربِ ببعض البقرة على الأمر بذبحها، وأن يقال: وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها فقلنا اذبحوا بقرة واضربوه ببعضها، ولكنه تعالى إنما قصَّ قِصصَ بني إسرائيلَ تعديداً لِما وجد منهم من الجنايات؛ وتقريعاً لهم عليها، وهاتان القصتان - وإن كانتا متصلتين - فتستقلُّ كلُّ واحدةٍ منهما بنوع من التقريع، فالأُولى لتقريعهم على الاستهزاءِ، وتركِ المسارعة إلى الامتثالِ، وما يتبع ذلك، والثانيةُ للتقريع على قتلِ النفسِ المحرمةِ، وما تبعه من الآية العظيمة.

وإنما قُدمت قصةُ الأمرِ بذبحِ البقرة على ذكر القتيلِ؛ لأنه لو عُمِلَ على عكسه.. لكانت قصةً واحدةً، ولذهب المرادُ في تثنيةِ التقريعِ، ولقد رُوْعِيَتْ نكتةٌ بعد ما استؤنفت الثانيةُ استئنافَ قصةٍ برأسِها؛ أنْ وُصِلَتْ بالأُولى بضمير البقرةِ، لا باسمِها الصريحِ في قوله: (اضربوه ببعضها)؛ ليُعلمَ أنهما قصتان فيما يرجع إلى التقريع، وقصةٌ واحدةٌ بالضمير الراجعِ إلى البقرةِ، وقيل: هذه القصةُ تشيرُ إلى أن مَن أرادَ إحياءَ قلبِه بالمشاهداتِ.. فليمت نفسَه بأنواعِ المجاهداتِ.

《٧٤》 معنى قوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾: استبعادُ القسوةِ من بعد ما يوجبُ لينَ القلوبِ ورِقَّتَها[1]، وصفةُ القلوبِ بالقسوةِ مَثَلٌ لِنُبُوِّها عن الاعتبار والاتعاظِ ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾: إشارةٌ إلى إحياء القتيلِ، أو: إلى جميع ما تقدمَ من الآيات المعدودة، ﴿فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ﴾: فهي في قسوتِها مثلُ الحجارةِ، ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ منها.

و(أشدُّ): معطوفٌ على الكافِ، تقديرُه: أو مثلُ أشدَّ قَسوةً، فحُذفَ المضافُ، وأقيمَ المضافُ إليه مُقامَه، أو: هي في أنفسها أشدُّ قسوةً؛ يعني: أن من عرفَ حالَها.. شَبَّهَها

(١) أي: كلمة (ثم) ليست للتراخي في الزمان؛ لأن قسوة قلوبهم لم تتراخ عن مشاهدة الآيات، فيكون معناها: استبعادَ وقوعِ القسوةِ بعد رؤية الآيات؛ أي: يُستبعد من العاقل قسوةُ قلبه بعد مشاهدة تلك الدلائل العظيمة.

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ ....

بالحجارةِ، أو بجوهرٍ أقسى منها وهو الحديدُ مثلاً، أو: من عَرَفَها.. شَبَّهَها بالحجارة، أو قال: هي أقسى من الحجارة، وإنما لم يقل: أقسى؛ لكونه أَبْيَنَ وأدلَّ على فَرْطِ القسوةِ[١]، وتُرِكَ ضميرُ المفضَّلِ عليه؛ لعدمِ الإلباسِ، كقولك: زيدٌ كريمٌ وعمرٌو أكرمُ.

﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ﴾: بيانٌ لزيادةِ قسوةِ قلوبِهم على الحجارة ﴿لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾: (ما): بمعنى الذي، في موضع النصبِ، وهو اسمُ (إن)، واللامُ: للتوكيد، والتَّفَجُّرُ: التَّفَتُّحُ بالسَّعة والكثرة، ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ﴾ أصلُه: يتشقق، وبه قرأ الأعمشُ[٢]، فقلبت التاءُ شيناً وأدغمت، ﴿فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾؛ يعني: أن من الحجارة ما فيه خُرُوقٌ واسعةٌ يتدفقُ منها الماءُ الكثيرُ، ومنها ما ينشقُّ انشقاقاً بالطُّولِ أو بالعرضِ فينبعُ منه الماءُ أيضاً، وقلوبُهم لا تَنْدَى، ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ﴾: يَتَرَدَّى من أعلى الجبل ﴿مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾: قيل: هو مجازٌ عن انقيادِها لأمر الله، وأنها لا تمتنع على ما يريد فيها، وقلوبُ هؤلاء لا تنقادُ ولا تفعل ما أمرت به، وقيل: المرادُ به: حقيقةُ الخشيةِ؛ على معنى: أنه يخلق فيها الحياةَ والتمييزَ، وليس شرطُ خلقِ الحياةِ والتمييزِ في الجسم أن يكون على بِنْيَةٍ مخصوصةٍ عند أهل السنة، وعلى هذا قولُه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ...﴾ الآيةَ [الحشر: ٢١]؛ يعني: وقلوبُهم لا تخشى، ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾، وبالياءِ: مكيٌّ[٣]، وهو وَعِيدٌ.

《٧٥》 ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾: الخطابُ لرسولِ الله والمؤمنين ﴿أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾: أن يؤمنوا لأجلِ دعوتِكم، ويستجيبوا لكم، كقوله تعالى: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾ [العنكبوت: ٢٦]؛ يعني: اليهودَ[٤]، ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾: طائفةٌ فيمن سلفَ منهم، ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ أي: التوراةَ، ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ كما حَرَّفُوا صفةَ رسول الله، وآيةَ الرجمِ، ﴿مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾: من بعدِ ما فهمُوه وضبطُوه بعقولِهم، ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ أنهم كاذبون مفترون؛ والمعنى: إنْ كَفَرَ هؤلاءِ وحرَّفُوا.. فلهم سابقةٌ في ذلك.

---

(١) أي: (أشد قسوة) يدلُّ على شدة القسوة أكثرَ مِن (أقسى) لأن (أشد) يدلُّ على الزيادة بالمادة والصيغة، وأما (أقسى) فيدل على الزيادة بصيغته فقط. انظر «الإكليل» (١/ ٤٣٤).

(٢) انظر «تفسير الثعلبي» (١/ ٢٢١).

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٣٥).

(٤) أي: الضمير في (يؤمنوا) يعود على اليهود.

وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ ....

«٧٦» ﴿وَإِذَا لَقُوا﴾ أي: المنافقون أو اليهود ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: المخلصين من أصحابِ محمدٍ عليه السلام ﴿قَالُوا﴾ أي: المنافقون ﴿ءَامَنَّا﴾ بأنكم على الحقِّ، وأن محمداً هو الرسولُ المبشَّرُ به، ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ﴾: الذين لم ينافقوا ﴿إِلَىٰ بَعْضٍ﴾: إلى الذين نافقُوا ﴿قَالُوا﴾ عاتبين عليهم: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم﴾: أتخبرون أصحابَ محمدٍ ﷺ ﴿بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾: بما بيَّن لكم في التوراة من صفة محمد ﷺ ﴿لِيُحَاجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ﴾: ليحتجوا عليكم بما أنزل ربُّكم في كتابه، جعلُوا محاجَّتَهم به، وقولَهم: هو في كتابكم هكذا.. محاجةً عند الله؛ ألا تراك تقول: هو في كتاب الله هكذا، وهو عند الله هكذا، بمعنىً واحدٍ، وقيل: على إضمار المضاف؛ أي: عندَ كتابِ ربكم، وقيل: ليجادِلوكم ويخاصمُوكم به بما قلتم لهم عند ربكم في الآخرة؛ يقولون: كفرتم به بعد أن وَقَفْتُم على صدقه، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾ أن هذه حجةٌ عليكم؛ حيث تعترفون به، ثم لا تتابعونه.

«٧٧» ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾ جميعَ ﴿مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾، ومن ذلك إسرارُهم الكفرَ، وإعلانهم الإيمان.

«٧٨» ﴿وَمِنْهُمْ﴾: ومن اليهود ﴿أُمِّيُّونَ﴾: لا يُحسنون الكتبَ فيطالعُوا التوراة، ويتحقَّقُوا ما فيها، ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾ التوراةَ ﴿إِلَّا أَمَانِيَّ﴾: إلا ما هم عليه من أمانيِّهم، وأن الله يعفُو عنهم ويرحمُهم، ولا تَمَسُّهم النارُ إلا أياماً معدودةً، أو: إلا أكاذيبَ مُخْتَلَقَةً سمعوها من علمائهم فتقبلُوها على التقليد، ومنه قولُ عثمانَ رضي اللهُ عنه: ما تمنيت مذ أسلمت. أو: إلا ما يقرؤون؛ من قوله[١]: [من: الطويل]

تمنى كتابَ اللهِ أولَ ليلِهِ ....

أي: لا يعلمون هؤلاءِ حقيقةَ المُنزَلِ، وإنما يقرؤون أشياءَ أخذُوها من أحبارهم، والاستثناء منقطع[٢].

---

(١) صدر بيت ذكره الخليل في «كتاب العين» (٨/ ٣٩٠)، ونسبه الماوردي في «تفسيره» (١/ ١٥٠) لسيدنا كعب بن مالك، وتتمته:

وآخرَها لاقَى حِمامَ المقادِرِ

(٢) لأن المستثنى وهو (أمانيّ) ليس من جنس المستثنى منه، وهو (الكتاب).

﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰۚ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ ....

﴿وَإِنۡ هُمۡ﴾: وما هم ﴿إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾: لا يدرُون ما فيه، فيجحدُون نبوتَك بالظنِّ، ذكرَ العلماءَ الذين عانَدُوا بالتحريف مع العلم، ثم العوامَّ الذين قلدُوهم.

«٧٩» ﴿فَوَيۡلٞ﴾: في الحديث: «ويلٌ وادٍ في جهنم»[1]، ﴿لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾: المحرَّفَ ﴿بِأَيۡدِيهِمۡ﴾: من تلقاء أنفسِهم، من غير أن يكون مُنْزَلاً، وذِكْرُ الأيدي للتأكيد، وهو من مَحازِّ التأكيد[2]، ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ﴾: عِوضاً يسيراً، ﴿فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ من الرِّشا.

«٨٠» ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ﴾: أربعين يوماً عددَ أيام عبادةِ العجلِ، وعن مجاهد: كانوا يقولون: مدةُ الدنيا سبعةُ آلاف سنة، وإنما نعذب مكانَ كلِّ ألفِ سنةٍ يوماً، ﴿قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا﴾ أي: عَهِدَ إليكم أنه لا يعذبُكم إلا هذا المقدارَ، ﴿فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ﴾: متعلق بمحذوفٍ، تقديرُه: إن اتخذتم عنده عهداً.. فلن يخلفَ الله عهده.

﴿أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ (أم): إما أن تكون معادلةً؛ أي: أتقولون على الله ما تعلمون أم تقولون عليه ما لا تعلمون؟ أو: منقطعةً؛ أي: بل أتقولون على الله ما لا تعلمون.

«٨١» ﴿بَلَىٰۚ﴾: إثباتٌ لما بعد النفي، وهو: (لن تمسَّنا النار) أي: بلى تَمَسُّكم أبداً؛ بدليل قوله: (هم فيها خالدون)، ﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ﴾: شِركاً، عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما[3]، ﴿وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾: وَسُدَّت عليه مسالكُ النجاةِ؛ بأن مات على شركه، فأما إذا مات مؤمناً.. فأعظمُ الطاعاتِ وهو الإيمان معه، فلا يكون الذنبُ محيطاً به، فلا يتناوله النص، وبهذا التأويلِ يبطلُ تَشَبُّثُ المعتزلةِ والخوارجِ، وقيل: استولت عليه، كما يحيطُ العدوُّ، ولم يَتَفَصَّ عنها بالتوبة[4]، ﴿خطيئاته﴾: مدنيٌّ[5]، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾﴾.

---

(١) رواه الترمذي (٣١٦٤) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) المَحازّ: جمع مَحزٍّ، وهو موضع الحزِّ؛ أي: القطعِ، فمعنى: محازِّ التأكيد: مواضعُ التأكيد.

(٣) روى قولَ سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما: ابنُ أبي حاتم في «تفسيره» (١/١٥٧).

(٤) لم يتفص: لم يتخلص.

(٥) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٣٥).

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَاءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ......

《٨٢》 ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

《٨٣》 ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَاءِيلَ﴾ الميثاقُ: العهدُ المؤكدُ غايةَ التأكيدِ ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾: إخبارٌ في معنى النهي، كما تقول: تذهبُ إلى فلانٍ تقولُ له: كذا؛ تريدُ الأمرَ، وهو أبلغُ من صريحِ الأمرِ والنهيِ؛ لأنه كأنه سُورِعَ إلى الامتثال والانتهاءِ فهو يخبَرُ عنه، وتنصرُه قراءةُ أُبيٍّ: ﴿لا تعبدوا﴾[1]، وقولُه: (وقولوا)، والقولُ مضمرٌ، ﴿لا يعبدون﴾: مكيٌّ، وحمزةُ، وعليٌّ[2]؛ لأن بني إسرائيلَ اسمٌ ظاهرٌ، والأسماءُ الظاهرة كلُّها غيبٌ[3]، ومعناه: ألا يعبدوا، فلما حُذفت (أن).. رُفِعَ.

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي: وأحسنوا؛ ليلتئمَ عطفُ الأمرِ وهو قوله: (وقولوا) عليه، ﴿وَذِي الْقُرْبَى﴾: القرابةِ، ﴿وَالْيَتَامَى﴾: جمع يتيمٍ، وهو الذي فقد أباه قبل الحُلُم إلى الحلم؛ لقوله عليه السلام: «لا يُتْمَ بعد البلوغ»[4]، ﴿وَالْمَسَاكِينِ﴾: جمع مسكينٍ، وهو الذي أَسْكَنَتْهُ الحاجةُ، ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾: قولاً هو حُسْنٌ في نفسِه؛ لإفراطِ حُسْنِهِ، ﴿حَسَناً﴾: حمزةُ وعليٌّ[5]، ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن الميثاق ورفضتُموه ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ﴾ قيل: هم الذين أسلموا منهم، ﴿وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾: وأنتم قومٌ عادتكم الإعراضُ عن المواثيق والتوليةُ[6].

《٨٤》 ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ أي: لا يفعلُ ذلك بعضُكم ببعضٍ، جعلَ غيرَ الرجلِ نفسَه إذا اتصل به أصلاً أو ديناً، وقيل: إذا قتلَ غيرَه.. فكأنّما قتلَ نفسَه؛ لأنه يُقتصُّ منه، ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ بالميثاقِ، واعترفتم على أنفسِكم بلزومه ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾﴾ عليها، كما تقول: فلانٌ مُقِرٌّ على نفسه بكذا، شاهدٌ عليها، أو وأنتم تشهدون اليومَ يا معشر اليهودِ على إقرارِ أسلافِكم بهذا الميثاقِ.

---

(١) انظر «المحرر الوجيز» (١/ ١٧٢).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٣٥).

(٣) أي: تُعامل معاملة الغائب فيقال: زيد رأيته.

(٤) رواه أبو داود (٢٨٧٣) عن سيدنا علي رضي الله عنه.

(٥) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٣٥).

(٦) يشير إلى أن الجملة تذييل وليست حالية. انظر «الإكليل» (١/ ٤٥٥).

﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾ ....

《٨٥》 ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَآءِ﴾: استبعادٌ لما أُسندَ إليهم من القتلِ والإجلاءِ والعدوانِ بعد أخذِ الميثاقِ منهم واقرارِهم وشهادتِهم، (أنتم): مبتدأٌ، (هؤلاء): بمعنى الذين[١]، ﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾: صلةُ (هؤلاء)، و(هؤلاءِ) مع صلتِه خبرُ (أنتم)[٢]، ﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ﴾ غيرَ مراقبين ميثاقَ اللهِ، ﴿تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم﴾: بالتخفيف: كوفيٌّ؛ أي: تتعاونون، وبالتشديد: غيرُهم[٣]، فمن خفَّفَ.. فقد حذفَ إحدى التاءين، ثم قيل: هي الثانية؛ لأن الثقلَ بها، وقيل: الأُولى، ومنْ شَدَّدَ.. قَلَبَ التاءَ الثانيةَ ظاءً وأدغم، ﴿بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾: بالمعصيةِ والظلم، ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ﴾ ﴿أُسارَى تَفْدُوهُم﴾: أبو عمرو[٤]، ﴿أُسارَى تَفْدُوهُم﴾: مكيٌّ وشاميٌّ[٥]، ﴿أَسْرَى تفدوهم﴾: حمزةُ؛ ﴿أُسارَى تُفادُوهم﴾: عليٌّ[٦]، فَدَى وفادَى: بمعنى، و(أُسارى): حال، وهو جمع أسيرٍ، وكذلك أَسْرَى.

والضميرُ في ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ﴾: للشأن، أو هو ضميرٌ مبهمٌ، تفسيرُه: ﴿إِخْرَاجُهُمْ﴾[٧]، ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ﴾: بفداء الأسرى، ﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾: بالقتال والإجلاءِ، قال السُّدِّيُّ: أخذ الله عليهم أربعةَ عهودٍ: تركَ القتلِ، وتركَ الإخراجِ، وتركَ المظاهرةِ، وفداءَ الأسيرِ، فأعرضُوا عن كلِّ ما أمروا به إلا الفداء، ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ﴾: هو إشارةٌ إلى الإيمان ببعضٍ، والكفرِ ببعضٍ، ﴿مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ﴾: فضيحةٌ وهوانٌ ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ

---

(١) هذا عند الكوفيين، فيجوز عندهم استعمال اسم الإشارة موصولاً. انظر «الإكليل» (١/ ٤٥٨).

(٢) وفيها وجوه أخرى من أحسنها: (أنتم): مبتدأ، و(هؤلاء): خبره؛ على معنى: أنتم بعد ذلك المذكور من الميثاق والإقرار والشهادة هؤلاء الناقضون، وجملةُ (تقتلون): حالٌ، العاملُ فيها اسمُ الإشارة؛ لما فيه من معنى الفعل. انظر «الدر المصون» (١/ ٤٧٤) و«تفسير الآلوسي» (١/ ٣١١).

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٣٥).

(٤) بإمالة (أسارى).

(٥) دون إمالة (أسارى).

(٦) بإمالة (أسارى). انظر هذه القراءات في «البدور الزاهرة» (ص ٣٥، وص ٣٦).

(٧) الضمير: (هو) إن كان ضمير الشأن.. فمفسرُه جملةُ: (محرم عليكم إخراجهم)، وإن كان ضميراً مبهماً.. فمفسرُه (إخراجهم).

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ۖ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ ....

﴿الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾: وهو الذي لا رَوْحَ فيه ولا فرحَ[١]، أو: إلى أشدَّ مِن عذاب الدنيا، ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾ وبالياء: مكيٌّ ونافعٌ وأبو بكر[٢].

《٨٦》 ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾: اختارُوها على الآخرة اختيارَ المشتري، ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾: ولا ينصرُهم أحدٌ بالدفع عنهم.

《٨٧》 ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾: التوراةَ، آتاه جملةً، ﴿وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ يقال: قَفَاه: إذا اتَّبعه؛ من القفا، نحو: ذَنَبَهُ من: الذَّنَبِ، وقَفَّاه به: إذا أَتْبَعَهُ إياه؛ يعني: وأرسلنا على أَثَرِهِ الكثيرَ من الرسلِ، وهم يُوشَعُ وأَشْمَوِيلُ وشَمْعُونُ وداودُ وسليمانُ وشعياءُ وأرمياءُ وعُزَيْرٍ وحزقيلُ وإلياسُ واليَسَعُ ويونسُ وزكريا ويحيى وغيرُهم.

﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾: هي بمعنى الخادمِ، ووزنُ (مريم) عند النحويين: (مَفْعَل)؛ لأن (فَعْيَلاً) لم يثبت في الأبنية، ﴿الْبَيِّنَاتِ﴾: المعجزاتُ الواضحاتُ، كإحياء الموتى، وإبراءِ الأَكْمَهِ والأبرصِ، والإخبارِ بالمغيَّباتِ.

﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ أي: الطهارةِ، وبالسكونِ حيثُ كانَ: مكيٌّ؛ أي: بالروحِ المقدسةِ، كما يقال: حاتَمُ الجودِ، ووصفُها بالقدسِ للاختصاصِ والتقريبِ، أو: بجبريلَ عليه السلامُ؛ لأنه يأتي بما فيه حياةُ القلوبِ؛ وذلك لأنه رَفَعَه إلى السماءِ حينَ قَصَدَ اليهودُ قتلَه[٣]، أو: بالإنجيلِ، كما قال في القرآن: ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، أو: باسم الله الأعظمِ الذي كان يحيي الموتى بذكره.

﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ﴾: تُحِبُّ ﴿أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ﴾: تعظَّمْتُم عن قبوله؛ ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ﴾ كعيسى ومحمد عليهما السلام، ﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ كزكريا ويحيى عليهما السلام، ولم يقل: قتلتم؛ لوفاقِ الفواصلِ؛ أو: لأن المرادَ: وفريقاً تقتلونه بعدُ؛ لأنكم تَحُومُون حولَ

---

(١) الرَّوحُ: الراحة.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٣٦) وكذا القراءةُ الآتيةُ.

(٣) أي: أن تأييد سيدنا جبريل لسيدنا عيسى هو أنه رفعه إلى السماء.

﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَـٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ ....

قتل محمد ﷺ لولا أني أعْصِمُهُ منكم؛ ولذلك سَحَرْتُموه، وسَمَمْتم له الشاةَ[1]، والمعنى: ولقد آتينا يا بني إسرائيلَ أنبياءَكم ما آتيناهم، فكلما جاءكم رسول منهم بالحق.. استكبرتم عن الإيمان به، فَوَسَّطَ بين الفاءِ وما تعلقت به همزةَ التوبيخِ والتعجبِ من شأنهم.

《٨٨》 ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾: جمعُ أغلفَ؛ أي: هي خِلْقَةً مُغَشّاةٌ بأغطيةٍ لا يَتَوَصَّلُ إليها ما جاء به محمد ﷺ، ولا تفقهُهُ، مستعارٌ من الأَغْلَفِ الذي لم يُخْتَنْ، ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ فَرَدَّ اللهُ أن تكون قلوبُهم مخلوقةً كذلك؛ لأنها خلقت على الفطرة والتمكنِ من قبول الحقِّ، وإنما طَرَدَهم بكفرهم وزيغهم، ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ (فقليلاً): صفةُ مصدرٍ محذوفٍ؛ أي: فإيماناً قليلاً يؤمنون، و(ما): مزيدةٌ، وهو إيمانُهم ببعض الكتابِ، وقيل: القلةُ بمعنى العدمِ، وقيل: (غُلْفٌ): تخفيفُ: غُلُفٍ، وقرئَ به[2]، جمعُ غلافٍ؛ أي: قلوبنا أوعيةٌ للعلوم، فنحن مستغنون بما عندنا من غيره، أو أوعيةٌ للعلوم، فلو كان ما جئتَ به حقّاً.. لقبلنا.

《٨٩》 ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أي: اليهودَ ﴿كِتَـٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: القرآنُ، ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ من كتابهم، لا يخالفُه، ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ﴾؛ يعني: القرآنَ[3]، ﴿يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: يستنصرون على المشركين، إذا قاتلوهم.. قالوا: اللهم انصرنا بالنبيِّ المبعوثِ في آخرِ الزمانِ، الذي نجدُ نعتَه في التوراةِ، ويقولون لأعدائهم من المشركين: قد أظلَّ زمانُ نبيٍّ يخرجُ بتصديقِ ما قلنا، فنقتلُكم معه قتلَ عادٍ وإرَمَ[4]، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟﴾ (ما): موصولةٌ؛ أي: ما عرفوه، وهو فاعلُ (جاء)، ﴿كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ بغياً وحسداً وحرصاً على الرياسةِ، ﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ أي: عليهم؛ وضعاً للظاهر موضعَ المضمرِ؛ للدلالةِ على أن اللعنةَ لَحِقَتْهُم لكفرهم، واللامُ: للعهد، أو: للجنسِ، ودخلوا فيه دُخولاً أَوَّلِيّاً، وجوابُ (لما) الأُولى: مضمرٌ، وهو نحوُ: كذبوا به، أو: أنكروه، أو: (كفروا): جوابُ لما الأولى والثانيةِ؛ لأن مقتضاهما واحدٌ.

---

(١) حديث سحرهم له ﷺ رواه البخاري (٥٧٦٣) ومسلم (٢١٨٩) عن سيدتنا عائشة رضي الله عنها. وحديث سَمّ الشاة له ﷺ رواه البخاري (٢٦١٧) ومسلم (٢١٩٠) عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

(٢) وهي قراءة شاذة. انظر «الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها» (ص ٤٨٩).

(٣) أي: من قبل مجيء القرآن.

(٤) أظل: قَرُبَ.

﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾ ....

《٩٠》 و(ما) في ﴿بِئْسَمَا﴾: نكرةٌ موصوفةٌ مفسِّرةٌ لفاعلِ (بئس) أي: بئس شيئاً ﴿اشْتَرَوْا بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: باعوا[1]، والمخصوصُ بالذم: ﴿أَن يَكْفُرُوا بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ﴾ يعني: القرآنَ. ﴿بَغْيًا﴾: مفعولٌ له؛ أي: حسداً وطلباً لما ليس لهم، وهو علةُ (اشتروا)، ﴿أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ﴾: لِأَنْ يُنزِلَ، أو: على أنْ يُنزِلَ؛ أي: حَسَدُوه على أن يُنزلَ اللهُ، ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ الذي هو الوحيُ، ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ وهو محمدٌ عليه السلام، ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾: فصاروا أحِقَّاءَ بغضبٍ مترادفٍ؛ لأنهم كفروا بنبيِّ الحقِّ، وبَغَوا عليه، أو كفرُوا بمحمدٍ بعدَ عيسى عليهما السلام، أو بعدَ قولِهم: عزيرٌ ابنُ الله، وقولهم: يدُ الله مغلولةٌ، وغيرَ ذلك، ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾: مُذِلٌّ.

﴿بئسما﴾ وبابُه: غيرُ مهموزٍ: أبو عمرٍو[2]، و﴿يُنْزِلَ﴾: بالتخفيفِ: مكيٌّ، وبصريٌّ.

《٩١》 ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾: لهؤلاءِ اليهودِ ﴿ءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ﴾؛ يعني: القرآنَ، أو هو مطلقٌ يتناولُ كلَّ كتابٍ ﴿قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ أي: التوراةِ، ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ أي: قالوا ذلك والحالُ أنهم يكفرون بما وراءَ التوراةِ[3]، ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾: غيرَ مخالفٍ له، وفيه ردٌّ لمقالتهم؛ لأنهم إذا كفروا بما يوافق التوراةَ.. فقد كفروا بها، و(مصدقاً): حالٌ مؤكِّدةٌ، ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ اللَّهِ﴾ أي: فَلِمَ قتلتُم، فوضعَ المستقبَلُ موضعَ الماضي، ويدلُّ عليه قولُه: ﴿مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾ أي: من قبلِ محمدٍ ﷺ، اعترض عليهم بقتلهم الأنبياءَ مع ادعائهم الإيمانَ بالتوراةِ، والتوراةُ لا تُسَوِّغُ قتلَ الأنبياءِ، قيل: قَتَلُوا في يوم واحدٍ ثلاثَ مئةِ نبيٍّ في بيت المقْدِسِ.

《٩٢》 ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَٰتِ﴾: بالآياتِ التسعِ، وأدْغمَ الدالَ في الجيمِ حيثُ

---

(١) إنما كان (اشتروا) بمعنى: باعوا؛ لأنهم بذلوا أنفسهم وحصّلوا الكفر، فكأنهم باعوها. انظر «الإكليل» (١/ ٥٠٣)

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٣٦) وكذا القراءة الآتية.

(٣) أي: الواو في (ويكفرون): حالية، ولكن الفعل المضارع المثبتَ لا تدخله واو الحال، فلا بدَّ من تقدير مبتدأ بعد الواو؛ أي: وهم يكفرون.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ ....﴾

كان: أبو عمرٍو، وحمزةُ، وعليٌّ[1]، ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ إلهاً ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾: من بعدِ خروجِ موسى عليه السلام إلى الطور ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾: هو حال؛ أي: عبدتم العجلَ وأنتم واضعون العبادةَ غيرَ موضعِها، أو: اعتراضٌ؛ أي: وأنتم قومٌ عادتُكم الظُّلمُ.

《٩٣》 ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ كَرَّرَ ذكرَ رفعِ الطورِ؛ لما نِيْطَ به من زيادةٍ ليست مع الأولى، ﴿وَٱسْمَعُواْ﴾ ما أُمِرْتُم به في التوراة، ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا﴾ قولَكَ، ﴿وَعَصَيْنَا﴾ أمرَكَ، وطابقَ قولَه جوابُهم من حيث إنه قال لهم: اسمعوا وليكنْ سماعُكم سماعَ تقبلٍ وطاعةٍ، فقالُوا: سمعنا ولكن لا سماعَ طاعةٍ[2]، ﴿وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾ أي: تداخلَهم حبُّه والحِرصُ على عبادتِه، كما يتداخل الثوبَ الصِّبْغُ، وقولُه: (في قلوبهم): بيانٌ لمكانِ الإشرابِ، والمضافُ وهو الحب محذوفٌ، ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ بسببِ كفرِهم واعتقادِهم التشبيهَ، ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ﴾ بالتوراة؛ لأنه ليس في التوراة عبادةُ العجلِ، وإضافةُ الأمرِ إلى إيمانهم تهكُّمٌ، وكذا إضافةُ الإيمان إليهم، ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾: تشكيكٌ في إيمانهم، وقدحٌ في صحةِ دعواهم.

《٩٤》 ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ﴾ أي: الجنةُ، ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾: ظرفٌ، و(لكم): خبرُ (كان)، ﴿خَالِصَةً﴾: حالٌ من الدار الآخرةِ؛ أي: سالمةً لكم، ليس لأحد سواكم فيها حقٌّ؛ يعني: إن صح قولُكم: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً، ﴿مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾: هو للجنس، ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾ فيما تقولون؛ لأن مَن أيقنَ أنه من أهل الجنة.. اشتاق إليها تخلصاً من الدار ذاتِ الشوائبِ، كما نُقلَ عن العشرةِ المبشرين بالجنة أن كلَّ واحدٍ منهم كان يحبُّ الموتَ ويَحِنُّ إليه.

《٩٥》 ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾: هو نصبٌ على الظرفِ؛ أي: لن يتمنوه ما عاشوا، ﴿بِمَا

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٣٨).

(٢) أي: قد يقال: جوابُهم: (سمعنا وعصينا): غيرُ مطابقٍ لقوله تعالى: (اسمعوا)، لأن فيه زيادة (وعصينا)، والجواب: أن جوابهم مطابق؛ لأن (اسمعوا) معناه: اسمعوا سماع طاعة، فقالوا: سمعنا سماع معصية. انظر «الإكليل» (١/٥٠٣).

وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ....

﴿قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾: بما أسلفُوا من الكفرِ بمحمدٍ ﷺ، وتحريفِ كتابِ اللهِ، وغيرِ ذلك، وهو من المعجزات؛ لأنه إخبارٌ بالغيب وكان كما أخبرَ به، كقوله: ﴿وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾، ولو تمنَّوه.. لنقل ذلك كما نقلَ سائرُ الحوادثِ، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾: تهديدٌ لهم.

«٩٦» ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ﴾ مفعولا (وجد): (هُمْ) (أَحْرَصَ)، ﴿عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ التنكيرُ يدلُّ على أن المراد حياةٌ مخصوصةٌ، وهي الحياة المتطاوِلَةُ[1]؛ ولذا كانت القراءة بها أَوْقَعَ من قراءة أُبَيٍّ: ﴿على الحياة﴾[2]، ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾: هو محمول على المعنى؛ لأن معنى (أحرص الناس): أحرصَ من الناسِ[3]، نعم قد دخل (الذين أشركوا) تحت (الناس)، ولكنهم أُفْرِدُوا بالذكر؛ لأن حرصهم شديدٌ، كما أن جبريلَ وميكائيلَ خُصّا بالذكر وإن دخلا تحت الملائكةِ، أو: أريدَ: وأحرصَ من الذين أشركوا، فحُذفَ لدلالةِ: أحرصَ الناس عليه.

وفيه توبيخ عظيم؛ لأن الذين أشركوا لا يؤمنون بعاقبةٍ، وما يعرفون إلا الحياةَ الدنيا، فحرصُهم عليها لا يُستبعدُ؛ لأنها جنَّتُهم، فإذا زاد في الحرصِ مَن له كتابٌ وهو مُقِرٌّ بالجزاءِ.. كان حقيقاً بأعظمِ التوبيخِ، وإنما زادَ حرصُهم على الذين أشركوا؛ لأنهم علموا أنهم صائرون إلى النار؛ لعلمهم بحالهم؛ والمشركون لا يعلمون ذلك.

وقوله: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾: بيانٌ لزيادة حرصِهم على طريق الاستئنافِ، وقيل: أراد بـ(الذين أشركوا): المجوسَ؛ لأنهم كانوا يقولون لملوكهم: عِشْ ألفَ نَيْرُوزَ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هو قول الأعاجم: زي هزار سال[4]، وقيل: (ومن الذين أشركوا): كلام مبتدأٌ؛ أي: ومنهم ناسٌ يودُّ أحدُهم، على حذفِ الموصوفِ، و(الذين أشركوا) على هذا: مشارٌ به إلى اليهود؛ لأنهم قالوا: عزيرٌ ابنُ اللهِ.

---

(١) ويجوز أن يكون التنكير للإبهام؛ بل قيل: إنه الأوجَهُ؛ أي: على حياة مبهمة غيرِ معلومة المقدار، ومنه يُعلم حرصُهم على الحياة المتطاولة من بابٍ أولى. انظر «تفسير الألوسي» (١/ ٣٢٩).

(٢) انظر «تفسير الثعلبي» (١/ ٢٣٨).

(٣) يريد أن (أحرص) استعمل أولاً بالإضافة: (أحرص الناس)، ثم عطف عليه المجرور بـ(مِن): (ومن الذين أشركوا)، ودخولُ (مِن) على المعطوف فيها مراعاةُ المعنى، فكأنه قيل: (أحرص من الناس ومن الذين أشركوا).

(٤) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ١٧٩)، ومعناه: عِشْ ألفَ سنةٍ. انظر «الإكليل» (١/ ٥١٧).

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾ ....

والضميرُ في: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾: لـ (أحدُهم)، وقولُه: ﴿أَن يُعَمَّرَ﴾: فاعلُ (بمزحزحه) أي: وما أحدُهم بمن يزحزحُه من النار تعميرُه، ويجوز أن يكون (هو) مبهماً، و(أن يعمَّرَ) مُوَضِّحَه، والزحزحةُ: التبعيدُ والإنجاءُ، قال في «جامع العلوم» وغيرِه: (لو يعمر): بمعنى: أن يعمر، فـ (لو) هنا نائبةٌ عن: أنْ، وأنْ مع الفعل في تأويل المصدرِ، وهو مفعولُ (يودُّ) أي: يودُّ أحدُهم تعميرَ ألفِ سنةٍ، ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ أي: بعملِ هؤلاءِ الكفارِ فيجازيْهم عليه، وبالتاءِ: يعقوبُ[1].

«٩٧» ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ﴾: بفتحِ الجيمِ وكسرِ الراءِ بلا همزةٍ: مكيٌّ، وبفتحِ الراءِ والجيمِ والهمزِ مشبعاً: كوفيٌّ غيرَ حفصٍ، وبكسرِ الراءِ والجيمِ بلا همزٍ: غيرُهم، ومَنْعُ الصرفِ فيه للتعريفِ والعجمةِ، ومعناه: عبدُ اللهِ؛ لأن (جبرَ) هو العبدُ بالسريانية، و(إيل): اسمُ اللهِ، رويَ: أن ابن صُوريا من أحبار اليهودِ حاجَّ النبيَّ ﷺ وسألَه عمَّن يهبطُ عليه بالوحيِ فقال: «جبريل»، فقال: ذاك عدوُّنا، ولو كان غيرَه.. لآمنّا، وقد عادانا مِراراً، وأشدُّها أنه أنزل على نبينا أن بيت المقدسِ سيُخَرِّبُه بُخْتَنَصَّرُ، فبعثْنا مَن يقتلُه فلقيَه ببابلَ غلاماً مسكيناً فدفعَ عنه جبريلُ وقال: إن كان ربُّكم أَمرَه بهلاكِكُم.. فإنه لا يسلطكُم عليه، وإن لم يكن إياه.. فعلى أيِّ ذنبٍ تقتلونه؟

﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ﴾: فإن جبريل نزَّلَ القرآنَ، ونحوُ هذا الإضمارِ؛ أعني: إضمارَ ما لم يسبق ذكرُه.. فيه فخامةٌ؛ حيث يجعلُ لفرطِ شهرته كأنه يدلُّ على نفسه، ويُكتفَى عن اسمه الصريح بذكر شيء من صفاته، ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ أي: حَفَّظَه إياك[2].

وخصَّ القلبَ؛ لأنه محلُّ الحفظِ كقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٤]، وكان حقُّ الكلام أن يقال: على قلبي، ولكن جاء على حكايةِ كلامِ اللهِ كما تكلم به، وإنما استقام أن يقعَ: (فإنه نزله) جزاءً للشرط؛ لأن تقديره: إن عادَى جبريلَ أحدٌ من أهل الكتاب.. فلا وجهَ لمعاداته؛ حيث نَزَّلَ كتاباً مصدقاً للكتب بين يديه؛ فلو أنصفوا.. لأحبُّوه،

---

(١) «البدور الزاهرة» (ص ٣٧) وكذا القراءة الآتية.

(٢) استفيد حفظُ قلبه ﷺ له من الاستعلاء الذي تفيده (على) فإن جبريل إذا نزل بالقرآن على قلبه الشريف.. استولى عليه وتمكن فلا يتفلت منه شيء. انظر «فتوح الغيب» (٣/٧).

﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ ٩٨ وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ ٩٩﴾ ....

وشكرُوا له صنيعه في إنزالِه ما ينفعُهم، ويصححُ المنزَلَ عليهم، وقيل: جوابُ الشرطِ محذوفٌ، تقديره: من كان عدوّاً لجبريل.. فلْيَمُت غيظاً؛ فإنه نزَّلَ الوحي على قلبك.

﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾: بأمره، ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٩٧﴾: ردٌّ على اليهود حين قالوا: إن جبريل ينزلُ بالحروبِ والشدةِ[1]، فقيل: وإنه ينزلُ بالهدى والبشرى أيضاً، (بِإِذْنِ اللهِ): حالٌ مِن ضمير الفاعِلِ في: نَزَّلَ؛ أي: مَأذوناً له، و(مصَدِّقاً): حالٌ مِن الهاءِ في (نَزَّلَهُ)، وكَذا (هُدىً وبُشْرى) أيْ: هادياً ومُبشِّراً. وقالت الباطِنيَّةُ: القرْآنُ لم يَنزِلْ على رسول الله بالأحرُف التي نقرؤُها، ولكنه إلْهامٌ أُنزِلَ عَلى قلبِه، إلّا أنَّ محمداً ﷺ عَبَّرَهُ بالعربيَّةِ، وبهذه الحروفِ الَّتِي نَقْرؤُها، فالقرآنُ ذلك الباطِنُ لا هذه الألْفاظُ؛ لِقَوْلِهِ: (نَزَّلَهُ عَلى قَلْبِكَ)، ولَكِنّا نقولُ: هذا فاسدٌ، لِأنَّ اللهَ تعالى جَعَلَهُ مُعْجِزاً بِنَظْمِهِ العجيبِ حيث قال: ﴿فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ [البَقَرَة: ٢٣] وقال: ﴿فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ [البَقَرَة: ٢٣]، وقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾ [يُوسُف: ٢] وهذا يَتَعَلَّقُ بِالنَّظْمِ.

«٩٨» ﴿مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾: بصريٌّ، وحفصٌ، ﴿ومِيكَائِلِ﴾: باختلاس الهمزة كـ: مِيكاعِل: مدنيٌّ، ﴿ومِيكائِيْل﴾: بالمدِّ وكسرِ الهمزةِ مشبعةً: غيرُهم[2]، وخُصَّ الملكانِ بالذكر؛ لفضلهما؛ كأنهما من جنسٍ آخرَ؛ إذ التغايرُ في الوصف ينزلُ منزلةَ التغايرِ في الذات، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوّٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ ٩٨﴾ أي: لهم، فجاء بالظاهر؛ ليدلَّ على أن الله إنما عاداهم؛ لكفرهم؛ وأن عداوة الملائكة كفرٌ كعداوة الأنبياءِ، ومن عاداهم.. عاداه الله.

«٩٩» ﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ ٩٩﴾: المتمردون من الكفرةِ، واللام: للجنس، والأحسنُ أن تكون إشارةً إلى أهل الكتاب، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: قال ابن صُورِيا لرسول الله ﷺ: ما جئتنا بشيء نعرفُه، وما أنزل عليك من آية فنتبعَك بها، فنزلت[3].

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ١٧٩) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنه.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٣٧).

(٣) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ١٨٣).

﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠٠ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٠١ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ۝١٠٢﴾ ....

«١٠٠» الواوُ في: ﴿أَوَكُلَّمَا﴾: للعطف على محذوفٍ تقديرُه: أكفروا بالآيات البينات وكلما[1] ﴿عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ﴾: نَقَضَه ورفَضَه، وقال: ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ لأن منهم من لم يَنْقُضْ، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠٠﴾ بالتوراة، وليسوا من الدِّينِ في شيء، فلا يَعُدُّوْنَ نقضَ المواثيقِ ذنباً، ولا يبالون به.

«١٠١» ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾: محمدٌ ﷺ، ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التوراةَ، و(الذين أوتوا الكتاب): اليهودُ، ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾؛ يعني: التوراةَ؛ لأنهم بكفرهم برسول الله المصدقِ لما معهم.. كافرون بها نابِذُون لها، أو: (كتاب الله): القرآنُ، نبذُوه بعد ما لزمَهم تلقيه بالقبول ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾: مثلٌ لتركِهم وإعراضِهم عنه، مُثِّلَ بما يُرمَى به وراءَ الظهورِ؛ استغناءً عنه، وقلةَ التفاتٍ إليه، ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٠١﴾ أنه كتاب الله.

«١٠٢» ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ أي: نبذَ اليهودُ كتابَ الله، واتبعوا كتبَ السحرِ والشعوذةِ[2]، التي كانت تقرؤُها ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ أي: على عهدِ ملكِه، وفي زمانِه، وذلك أن الشياطين كانوا يسترقُون السمعَ، ثم يضمُّون إلى ما سمعوا أكاذيبَ يُلَفِّقُونَها[3]، ويُلقونها إلى الكَهَنَةِ، وقد دَوَّنُوها في كتبٍ يقرؤونها ويعلمونها الناسَ، وفشا ذلك في زمن سليمان عليه السلام حتى قالوا: إن الجنَّ تَعْلَمُ الغيبَ، وكانوا يقولون: هذا عِلْمُ سليمانَ، وما تَمَّ لسليمانَ ملكُه

---

(١) هذا مذهب الزمخشري وجماعةٍ، ولكن مذهبُ سيبويه والجمهور أنه ليس في الآية مقدرٌ بين الهمزة وحرف العطف، ولكن قدمت الهمزة على الواو تنبيهاً على أصالتِها في التصدير، والأصل: وأكلما. انظر «مغني اللبيب» (ص ٢٢).

(٢) الشعوذة: خفة في اليد، وأخذٌ كالسحر، يُرى الشيء بغير ما عليه أصله في رأيِ العين.

(٣) يلفقونها: يزخرفونها.

....

إلا بهذا العلمِ، وبه سخرَ الجنَّ والإنسَ والريحَ، ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ﴾: تكذيبٌ للشياطينِ، ودفعٌ لما بَهَتَتْ به سليمانَ، مِن اعتقادِ السحرِ والعملِ به[١]، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ﴾ هم الذين ﴿كَفَرُواْ﴾ باستعمالِ السحرِ وتدوينِه، ﴿ولكنْ﴾: بالتخفيفِ، ﴿الشياطينُ﴾: بالرفعِ: شاميٌّ، وحمزةُ، وعليٌّ[٢]، ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾: في موضع الحال؛ أي: كفروا معلمينَ الناسَ السحرَ قاصدين به إغواءَهم وإضلالَهم، ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾: الجمهور على أن (ما): بمعنى الذي، وهو نصبٌ عطفٌ على السحرِ؛ أي: ويعلمونهم ما أنزل على الملكين، أو على (ما تتلوا) أي: واتبعوا ما أنزل على الملكين ﴿بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾: علمان لهما، وهما: عطفُ بيانٍ لـ (الملكين)، والذي أنزل عليهما هو علم السحر؛ ابتلاءً من الله للناس، مَن تعلَّمَه منهم وعملَ به.. كان كافراً إنْ كان فيه ردُّ ما لزمَ في شرط الإيمانِ، ومن تجنَّبَه، أو تعلَّمَه لا ليعملَ به[٣] ولكن لِيَتَوَقَّاه ولئلا يغترَّ به.. كان مؤمناً.

قال الشيخ أبو منصور الماتريديُّ رحمه الله: القولُ بأن السحر كفرٌ على الإطلاق.. خطأٌ، بل يجبُ البحثُ عن حقيقتِه، فإن كان في ذلك ردُّ ما لزمَ في شرط الإيمانِ.. فهو كفرٌ، وإلا.. فلا.

ثُمَّ السحرُ الذي هو كفرٌ يقتلُ عليه الذكورُ لا الإناثُ، وما ليس بكفرٍ وفيه إهلاكُ النفسِ.. ففيه حكمُ قُطّاعِ الطريقِ، ويستوي فيه الذكور والإناث، وتقبلُ توبتُه إذا تاب، ومن قال: لا تقبلُ.. فقد غلطَ؛ فإن سحرةَ فرعونَ قُبلت توبتُهم، وقيل: (أُنزلَ) أي: قُذِفَ في قلوبهما مع النهي عن العمل، قيل: إنهما ملكان اختارتهما الملائكةُ؛ لِتُرَكَّبَ فيهما الشهوةُ حين عيَّرت بني آدمَ، فكانا يحكُمان في الأرض ويصعدان بالليلِ، فَهَوِيا زُهرةَ فَحَمَلَتْهُما على شرب الخمر، فزَنَيا، فرآهما إنسانٌ فقتلاه، فاختارا عذابَ الدنيا على عذاب الآخرةِ، فهما يُعذَّبان منكوسين في جُبِّ ببابلَ[٤]، وسميت ببابلَ؛ لتَبَلْبُلِ الألسنِ بها[٥].

---

(١) بهتت: كَذَبَت.
(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٣٧).
(٣) في الأصل: (لئلا يعمل به)، وما أثبته من المطبوع (١/ ٧٤) وهو الصواب.
(٤) بين الإمام الرازي في «تفسيره» (٢/ ٣٩٣) أن هذه قصة مكذوبة.
(٥) تبلبل الألسن: تفرُّقُها على لغاتٍ.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ ....﴾

﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ﴾: وما يُعلمُ الملكانِ أحداً ﴿حَتَّىٰ يَقُولَآ﴾: حتى يُنَبِّهاه وينصحاه ويقولا له: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾: ابتلاءٌ واختبارٌ من الله، ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾: بتعلُّمِه، والعملِ به على وجهٍ يكونُ كفراً، ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا﴾: الفاءُ عطفٌ على قوله: (يعلمون الناس السحر) أي: يعلمونهم، فيتعلمون من السحرِ والكفرِ اللذين دلَّ عليهما قولُه: (كفروا)، و(يعلمون الناس السحر)، أو: على مضمرٍ، والتقدير: فيأتون فيتعلمون، والضمير: لِمَا دل عليه (من أحد) أي: فيتعلمُ الناسُ من الملكين ﴿مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ أي: علمَ السحرِ الذي يكونُ سبباً في التفريق بين الزوجين؛ بأن يُحدثَ اللهُ عنده النشوزَ والخلافَ؛ ابتلاءً منه.

وللسحرِ حقيقةٌ عند أهل السنة كثَّرهم الله، وعند المعتزلة هو تخييلٌ وتمويهٌ.

﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ﴾: بالسحر ﴿مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: بعلمِه ومشيئتِه، ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ في الآخرة، وفيه دليلٌ على أنه واجبُ الاجتنابِ، كتعلمِ الفلسفةِ التي تجرُّ إلى الغَواية، ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟﴾ أي: اليهودُ ﴿لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾ أي: استبدلَ ما تتلو الشياطينُ على كتاب الله ﴿مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾: نصيب، ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾: باعُوها، وإنما نفى العلمَ عنهم بقوله: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ مع إثباته لهم بقوله: (ولقد علموا) على سبيل التوكيد القسميِّ؛ لأن معناه: لو كانوا يعملون بعلمهم؛ جَعَلَهم حينَ لم يعملُوا به كأنَّهم لا يعلمون.

《١٠٣》 ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟﴾ برسول الله والقرآنِ، ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾ اللهَ، فتركوا ما هم عليه من نَبْذِ كتابِ اللهِ، واتباعِ كتبِ الشياطينِ ﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ أن ثواب الله خيرٌ مما هم فيه، وقد علموا، لكنه جَهَّلَهُم لما تركوا العملَ بالعلم، والمعنى: لأُثيبوا من عند الله ما هو خيرٌ، وأوثرت الجملة الاسميةُ على الفعليةِ في جواب (لو)؛ لما فيها من الدلالة على ثبات المثوبةِ واستقرارِها، ولم يقل: لمثوبةُ اللهِ خيرٌ؛ لأن المعنى: لَشيءٌ من الثواب خيرٌ لهم[1]، وقيل: (لو) بمعنى التمني، كأنَّه قيل: وَلَيْتَهم آمنوا، ثم ابتدأ: (لمثوبة من عند الله خير).

《١٠٤》 ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا﴾ كان المسلمون يقولون لرسول الله إذا أَلْقَى عليهم شيئاً من العلمِ: (راعنا يا رسول الله) أي: راقِبْنا وانتظِرْنا حتى نفهمَه

(١) أي: أن التنوين في (مثوبة) يفيد التقليل.

﴿مَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾ ....

ونحفَظَه، وكانت لليهود كلمةٌ يَتَسابُّون بها، عِبرانيةٌ أو سِريانيةٌ وهي: راعنا، فلمّا سمعوا بقول المؤمنين: (راعنا).. افْتَرَصُوه[1]، وخاطبُوا به الرسولَ وهم يَعنُون به تلك المَسَبَّةَ، فنُهِيَ المؤمنون عنها، وأُمِروا بما هو في معناها، وهو: (انظرنا)؛ مِنْ: نَظَرَه: إذا انْتَظَره، ﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾: وأحسنوا سماعَ ما يكلمُكم به رسولُ الله عليه السلام، ويلقي عليكم من المسائل بآذان واعيةٍ، وأذهانٍ حاضرةٍ، حتى لا تحتاجوا إلى الاستعادةِ وطلبِ المراعاةِ، أو: واسمعوا سماع قبول وطاعةٍ، ولا يكن سماعُكم كسماعِ اليهود حيث قالوا: سمعنا وعصينا، ﴿وَلِلْكَـٰفِرِينَ﴾: ولليهود الذين سبُّوا رسولَ الله ﷺ ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾: مؤلمٌ.

《١٠٥》 ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم﴾، وبالتخفيفِ: مكيٌّ، وأبو عمروٍ[2]، ﴿مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ (مِن) الأُولى: للبيان؛ لأن (الذين كفروا): جنسٌ تحتَه نوعان: أهلُ الكتاب، والمشركون، والثانيةُ: مزيدةٌ لاستغراقِ الخيرِ[3]، والثالثةُ: لابتداءِ الغايةِ، والخيرُ: الوحيُ، وكذلك الرحمةُ، ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ يعني: أنهم يَرَوْنَ أنفسَهم أحقَّ بأن يُوحَى إليهم، فيحسدونكم، وما يحبون أن يُنَزَّلَ عليكم شيءٌ من الوحيِ، والله يختصُّ بالنبوة من يشاء، ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾: فيه إشعارٌ بأن إيتاءَ النبوةِ من الفضل العظيم.

《١٠٦》 ولما طعنوا في النسخ فقالوا: ألا ترون إلى محمدٍ يأمرُ أصحابَه بأمرٍ، ثم ينهاهم عنه ويأمرُهم بخلافِه، ويقول اليومَ قولاً ويرجعُ عنه غداً.. نزلَ:

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ تفسيرُ النسخِ لغةً: التبديلُ، وشريعةً: بيانُ انتهاءِ الحكم الشرعي المطلقِ، الذي في تقدير أوهامِنا استمرارُه بطريق التراخي[4]، فكان تبديلاً في حقِّنا،

---

(١) افترصوه: انتهزوا هذا القولَ فُرْصةً لِسَبِّ المصطفى ﷺ.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٣٦).

(٣) أي: لتأكيد الاستغراق؛ لأن (خير) نكرة في سياق النفي، فهي تفيد الاستغراق، فلما دخلت (مِن) الزائدةُ.. أفادت تأكيدَ الاستغراقِ.

(٤) مراده بالمطلق: ما لم يلحقه توقيت ولا تأبيد، وقوله: بطريق: متعلق بـ: بيان.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾ ....

بياناً محضاً في حقِّ صاحبِ الشرعِ، وفيه جوابٌ عن البَداءِ الذي يدعيه منكروه؛ أعني: اليهود[١].

ومحلُّه: حكمٌ يحتمل الوجودَ والعدمَ في نفسه، لم يَلْتحِقْ به ما يُنافي النسخَ من توقيتٍ، أو تأبيدٍ ثبتَ نصّاً أو دلالةً[٢].

وشرطُه: التمكنُ من عَقْدِ القلب عندنا دون التمكن من الفعل، خلافاً للمعتزلة.

وإنما يجوز النسخ بالكتاب والسنة متفِقاً ومختلِفاً[٣]، ويجوز نسخُ التلاوةِ والحكم، والحكمِ دون التلاوةِ، والتلاوةِ دون الحكم، ونسخُ وصفٍ في الحكم، مثلُ الزيادةِ على النصِّ، فإنه نسخٌ عندنا، خلافاً للشافعي رحمه الله[٤].

والإنساءُ: أن يذهبَ بحفظِها عن القلوب، ﴿أو ننسأها﴾: مكيٌّ، وأبو عمرٍو[٥]؛ أي: نؤخرها، مِن: نَسَأْتُ؛ أي: أخرتُ، ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾ أي: نأتِ بآيةٍ خيرٍ منها للعباد؛ أي: بآيةٍ العملُ بها أكثرُ للثواب، ﴿أَوْ مِثْلِهَآ﴾ في ذلك؛ إذْ لا فضيلةَ لبعض الآيات على البعض، ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾ أي: قادرٌ، فهو يقدرُ على الخيرِ وعلى مثله.

«١٠٧» ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فهو يملك أمورَكم ويدبرُها، وهو أعلمُ بما يتعبدُكم به من ناسخ أو منسوخ، ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾ يَلِيْ أمرَكم، ﴿وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾: ناصرٍ يمنعُكم من العذاب.

---

(١) **البَداءُ**: ظهور أمرٍ كان خفيّاً، وهو مستحيل على الله سبحانه، ولذا كان النسخ في حق الله بياناً، وليس تبديلاً؛ لأنه يعلم الوقت الذي سيُنْهِي الحكمَ عنده.

(٢) **الحكم المؤقت** هو: الحكم الذي حدد له الشرع وقتاً ينتهي عنده، فارتفاع هذا الحكم ليس نسخاً، والحكمُ الذي لحقه تأبيد لا ينسخ عند الحنفية، والتأبيد إما أن يكون صريحاً، كأن يقال: هذا الحكم واجب عليكم أبداً، أو دلالةً، وهو الحاصل للأحكام التي لم تنسخ في حياته عليه الصلاة والسلام، فبعد وفاته تصير مؤبدة؛ إذ لا نسخ بعده.

(٣) **متفقاً**: نسخ الكتاب بالكتاب، والسنة بالسنة، **ومختلفاً**: نسخ أحدهما بالآخر.

(٤) **نسخ الوصف**: أن يرد نصٌّ مطلقٌ كقوله تعالى: ﴿أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ فهذا مطلق يتناول كل بقرة، ثم ورد نسخ الوصف وهو الإطلاق فصار مقيداً بقوله: ﴿بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ﴾.

(٥) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٣٨).

أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ ....

«١٠٨» ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾ (أم): منقطعةٌ، وتقديرُه: بل أتريدون ﴿أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ روي: أن قريشاً قالوا: يا محمدُ اجعل لنا الصفا ذهباً، ووسِّعْ لنا أرضَ مكةَ، فنُهُوا أن يقترحُوا عليه الآياتِ كما اقترحَ قومُ موسى عليه حين قالوا: اجعل لنا إلهاً، ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾: ومَن تركَ الثقةَ بالآيات المنزلةِ وشكَّ فيها واقترح غيرَها ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾: قَصْدَهُ وَوَسَطَهُ.

«١٠٩» ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم﴾: أن يـردُّوكـم ﴿مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا﴾: حالٌ مِن (كُم) أي: يردونكم عن دينكم كافرين، نزلت حين قالت اليهودُ للمسلمين بعد وقعةِ أُحُدٍ: ألم تَرَوا إلى ما أصابكم، ولو كنتم على الحقِّ.. لما هُزِمْتُم، فارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم، ﴿حَسَدًا﴾: مفعولٌ له؛ أي: لأجل الحسد، وهو الأسفُ على الخير عند الغيرِ، ﴿مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾: يتعلقُ بـ (ودَّ) أي: ودُّوا من عند أنفسهم، ومن قِبَلِ شهوتِهم، لا مِن قِبَلِ التدينِ والميلِ مع الحقِّ؛ لأنهم ودُّوا ذلك ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: مِن بعدِ علمِهم بأنَّكم على الحقِّ؛ أو: بـ (حسداً) أي: حسداً متبالِغاً منبعثاً مِن أصلِ نفوسِهم، ﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟﴾: فاسلُكوا معهم سبيلَ العفوِ والصفحِ عما يكونُ منهم من الجهلِ والعداوةِ ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾: بالقتال، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾ فهو يقدرُ على الانتقامِ منهم.

«١١٠» ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾: مـن حسـنـةٍ صلاةٍ أو صدقةٍ أو غيرِهما ﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾: تجدوا ثوابَه عند الله، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾ فلا يضيعُ عنده عملُ عاملٍ.

«١١١» والضميرُ في ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾: لأهل الكتاب من اليهود والنصارى؛ أي: وقالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا مَن كان نصارى، فَلَفَّ بين القولين؛ ثقةً بأن السامعَ يَرُدُّ إلى كلِّ فريقٍ قولَه؛

﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ ....

وأمناً من الإلباسِ؛ لما عُلِمَ من التعادي بين الفريقين، وتضليلِ كلِّ واحدٍ منهما صاحبَه، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾، وهودٌ: جمعُ هائدٍ، ك: عائذٍ، وعُوْذٍ، وَوُحِّدَ اسمُ كان لِلَفظِ (مَن)، وجُمِعَ الخبرُ لمعناه، ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾: أُشيرَ بها إلى الأمانيِّ المذكورةِ، وهي أُمْنِيَّتُهم ألّا ينزلَ على المؤمنين خيرٌ من ربِّهم، وأُمْنِيَّتُهم أن يَرُدُّوهم كفاراً، وأُمْنِيَّتُهم ألّا يدخلَ الجنةَ غيرُهم؛ أي تلك الأمانيُّ الباطلةُ أمانيُّهم، والأُمنيةُ: (أُفْعُوْلَةٌ) مِن التمني، مثلُ الأُضْحُوكة، ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾: هَلُمُّوا حُجَّتَكم على اختصاصِكم بدخول الجنةِ، وهاتِ: بمنزلةِ: هاءِ؛ في معنى: احْضُرْ، وهو متصلٌ بقولهم: (لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى)، و(تلك أمانيُّهم): اعتراض، ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ في دعواكم.

《١١٢》 ﴿بَلَىٰ﴾: إثبات لما نفَوه من دخولِ غيرِهم الجنةَ، ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾: مَن أخلصَ نفسَه له، لا يشرك به غيرَه ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾: مصدقٌ بالقرآن ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ﴾: جوابُ: (من أسلم)، وهو كلامٌ مبتدأٌ متضمنٌ لمعنى الشرطِ، و(بلى): ردٌّ لقولهم، ﴿عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

《١١٣》 ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ أي: على شيء يصحُّ ويُعْتَدُّ به، والواوُ في ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾: للحال، والكتابُ: للجنس؛ أي: قالوا ذلك وحالُهم أنهم من أهل العلمِ والتلاوةِ للكتبِ، وحقُّ من حملَ التوراةَ والإنجيلَ وآمن به ألّا يكفرَ بالباقي؛ لأن كل واحد من الكتابين مصدقٌ للآخر، ﴿كَذَٰلِكَ﴾: مثلَ ذلك القولِ الذي سمعت به ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ أي: الجَهَلَةُ الذين لا علمَ عندهم، ولا كتابَ، كعَبَدَةِ الأصنام والمُعَطِّلَةِ[1] قالوا لأهلِ كلِّ دينٍ: ليسوا على شيء، وهذا توبيخٌ عظيمٌ لهم؛ حيث نَظَمُوا أنفسَهم مع علمِهم في سِلك مَن لا يعلمُ.

﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ أي: بين اليهود والنصارى بما يَقْسِمُ لكل فريق منهم من العقاب اللائقِ به.

---

(١) المعطلة: طائفةٌ لا يؤمنون بوجود الخالق سبحانه.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ ....

«١١٤» ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ موضعُ (مَن): رفعٌ على الابتداءِ، وهو استفهامٌ، و(أظلمُ): خبرٌ؛ والمعنى: وأيُّ أحدٍ أظلمُ، و(أن يُذكرَ): ثاني مفعولَي (منع)؛ لأنك تقول: منعتُه كذا، ومثله: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ﴾ [الإسراء: ٥٩]، ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟﴾ [الإسراء: ٩٤]، ويجوز أن يحذفَ حرفُ الجرِّ مع (أن) أي: مِن أن يُذكرَ، وأن تَنْصِبَه مفعولاً له؛ بمعنى: مَنَعَها كراهةَ أن يُذكرَ، وهو حكمٌ عامٌّ لجنسِ مساجدِ اللهِ، وأنَّ مانعَها من ذكرِ اللهِ مُفْرِطٌ في الظلم، والسببُ فيه طرحُ النصارى في بيتِ المقدسِ الأذى، ومنعُهم الناسَ أن يُصَلُّوا

فيه، أو: منعُ المشركين رسولَ اللهِ ﷺ أن يدخلَ المسجدَ الحرامَ عامَ الحديبيةِ، وإنما قيل: (مساجد الله) وإن كان المنع على مسجدٍ واحدٍ وهو بيتُ المقدس أو المسجدُ الحرام؛ لأن الحكم ورد عامّاً وإن كان السبب خاصّاً، كقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١] والمنزولُ فيه: الأخنسُ بن شَرِيْقٍ، ﴿وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ﴾ بانقطاعِ الذكرِ، والمرادُ بـ (مَن): العمومُ، كما أريد العمومُ بـ (مساجد الله)، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾: المانعون ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ﴾ أي: ما كان ينبغي لهم أن يدخلوا مساجدَ الله ﴿إِلَّا خَآئِفِينَ﴾: حالٌ من الضمير في (يدخلوها) أي: على حال التَّهَيُّبِ وارتعادِ الفرائصِ من المؤمنين أن يبطِشُوا بهم[1]، فضلاً أن يستولوا عليها ويَلُوها ويمنعوا المؤمنين منها.

والمعنى: ما كان الحقُّ إلا ذلك لولا ظُلْمُ الكفرةِ وعتوُّهم، روي: أنه لا يدخل بيتَ المقدسِ أحدٌ من النصارى إلا متنكِّراً؛ خِيفةَ أن يُقتل، وقال قتادةُ: لا يوجدُ نصرانيٌّ في بيت المقدس إلا بُولغَ ضرباً[2]، ونادى منادي رسول الله ﷺ: «ألا لا يحجنَّ بعد هذا العام مشركٌ»[3].

وقيل: معناه: النهيُ عن تمكينهم من الدخولِ والتخليةِ بينهم وبينه، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، ﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾: قتلٌ وَسَبْيٌ للحربيِّ، وذِلَّةٌ بضربِ الجزيةِ للذميِّ، ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ أي: النارُ.

---

(١) الفرائص: جمع فريصة، وهي: لَحمة بين الكتف والصدر ترتعد عند الفزع.

(٢) رواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (٢/ ٥٢٣).

(٣) رواه البخاري (٤٦٥٧) ومسلم (١٣٤٧) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ ....﴾

«١١٥» ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ أي: بلادُ المشرقِ والمغربِ كلُّها له، وهو مالكُها ومُتَوَلِّيها، ﴿فَأَيْنَمَا﴾: شرطٌ ﴿تُوَلُّوا۟﴾: مجزومٌ به؛ أي: ففي أيِّ مكانٍ فعلتم التوليةَ؛ يعني: توليةَ وجوهِكم شطرَ القبلةِ؛ بدليل قولِه: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴿١٤٤﴾﴾، والجوابُ: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ أي: جهتُه التي أمرَ بها ورضيَها؛ والمعنى: أنكم إذا مُنعتُم أن تُصلُّوا في المسجد الحرام، أو في بيت المقدس.. فقد جعلتُ لكم الأرضَ مسجداً، فصلُّوا في أيِّ بُقعةٍ شِئتم من بِقاعها، وافعلوا التوليةَ فيها؛ فإن التوليةَ ممكنةٌ في كل مكان، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ أي: هو واسع الرحمةِ، يريدُ التوسِعةَ على عباده، وهو عليمٌ بمصالِحِهم، وعن ابن عمرَ رضي الله عنهما: نزلت في صلاة المسافر على الراحلة أينما توجَّهَت[١]، وقيل: عَمِيَتِ القبلةُ على قوم فصلَّوا إلى أنحاءٍ مختلفةٍ فلما أصبحُوا تبينُوا خطأَهم فعُذِرُوا[٢]، هو حجة على الشافعي رحمه الله فيما إذا استدبر[٣]، وقيل: فأينما تُوَلُّوا للدعاء والذكر.

«١١٦» ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ يريد: الذين قالوا: المسيحُ ابنُ الله، وعزيرٌ ابنُ الله، ﴿قالوا﴾: شاميٌّ[٤]، فإثباتُ الواوِ: باعتبار أنه قصة معطوفةٌ على ما قبلها، وحذفُه: باعتبار أنه استئنافُ قصة أخرى، ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾: تنزيهٌ له عن ذلك وتبعيدٌ، ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: هو خالقُه ومالكُه، ومن جملته: المسيحُ وعزيرٌ، والولادةُ تُنافي الملكَ، ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾﴾: منقادون لا يمتنع شيءٌ منهم على تكوينِه وتقديرِه، والتنوينُ في (كلٌّ): عوضٌ عن المضاف إليه؛ أي: كلُّ ما في السموات والأرضِ، أو: كلُّ مَن جعلوه لله ولداً له قانتون مطيعون عابدون مُقِرُّون بالربوبية، منكرون لما أضافوا إليهم، وجاء بـ (ما) الذي لغير أولي العلمِ معَ قولِه: (قانتون) كقوله: سبحان ما سخركن لنا[٥].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢/ ٥٣٠).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢١١).

(٣) عند الشافعية: من صلى إلى جهة بالاجتهاد فتيقن الخطأ بعد الصلاة وقبل خروج وقتها.. وجب عليه إعادتُها، أو بعد خروج الوقت.. وجب عليه قضاؤها. انظر «نهاية المحتاج» (١/ ٤٤٦).

(٤) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٣٩).

(٥) كلمة (ما): تستعمل غالباً لغير العالم، وقد تأتي للعالم كما في هذه الآية والمثال. انظر «شرح التسهيل» لابن مالك (١/ ٢١٧).

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾ ....

«١١٧» ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: مخترعُهما ومبدعُهما لا على مثالٍ سبقَ[١]، وكلُّ مَن فَعَلَ ما لم يُسبقْ إليه يقال له: أبْدَعْتَ؛ ولهذا قيل لمن خالفَ السنةَ والجماعةَ: مبتدعٌ؛ لأنه يأتي في دين الإسلام ما لم يَسبقْه إليه الصحابةُ والتابعون رضي الله عنهم، ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ أي: حكَمَ، أو: قَدَّرَ، ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾ هو مِن: كان التامةِ؛ أي: احدُثْ فيحدُثُ، وهذا مجازٌ عن سُرعةِ التكوينِ، وتمثيلٌ ولا قولَ ثَمَّ، وإنما المعنى أن ما قضاه من الأمور وأراد كونَه فإنما يتكوَّن ويدخلُ تحت الوجود من غير امتناعٍ ولا توقفٍ، كما أن المأمور المطيعَ الذي يؤمرُ فيمتثلُ ولا يكونُ منه إباءٌ[٢]، وأكَّدَ بهذا استبعادَ الولادةِ؛ لأن من كان بهذه الصفةِ من القدرةِ.. كانت صفاتُه مباينةً لصفات الأجسامِ، فأنَّى يُتصورُ التوالدُ ثَمَّ.

والوجهُ: الرفعُ في (فيكون)، وهو قراءة العامة على الاستئناف؛ أي: فهو يكونُ، أو على العطف على (يقول)، ونَصَبَهُ ابنُ عامرٍ على لفظِ (كن)؛ لأنه أمرٌ، وجوابُ الأمرِ بالفاءِ نصبٌ[٣]، وقلنا: إن (كن) ليس بأمر حقيقةً؛ إذ لا فرقَ بين أن يقال: وإذا قضى أمراً فإنما يكوِّنُه فيكونُ، وبين أن يقال: (فإنما يقول له كن فيكونُ)، وإذا كان كذلك.. فلا معنى للنصب، وهذا لأنه لو كان أمراً.. فإما أن يخاطبَ به الموجودُ، والموجودُ لا يخاطبُ بـ: كنْ، أو المعدومُ، والمعدومُ لا يخاطبُ[٤].

«١١٨» ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ من المشركين، أو من أهل الكتاب، ونفَى عنهم العلمَ؛ لأنهم لم يعملوا به، ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾: هلّا يكلمُنا كما يكلِّمُ الملائكةَ، وكلَّم موسى؛ استكباراً منهم وعُتُوّاً، ﴿أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾ جحوداً لِأنْ يكونَ ما أتاهم من آياتِ اللهِ آياتٍ، واستهانةً بها، ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: قلوبُ هؤلاءِ

---

(١) أي: (بديع) بمعنى: مُبْدِع.

(٢) العبارة في «الكشاف» (١/ ٢٠٨): كما أن المأمور المطيع الذي يؤمر فيمتثل.. لا يتوقف ولا يمتنع ولا يكون منه الإباء.

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٣٩).

(٤) قراءة ابن عامر بالنصب متواترةٌ، فلا يقبل ردّها وتضعيفها، ووجْهُها: أنه روعي صورةُ الأمر فنصب جوابُه، أو بإضمار: أنْ بعد الفاء؛ إذ يرى بعض النحاة إضمارَ: أن الناصبةِ بعدَ الحصر بـ: إنما. انظر «الدر المصون» (٢/ ٨٩).

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾ ....

ومَن قبلَهم في العمَى، ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾ أي: لقومٍ ينصفون فيوقنون أنها آياتٌ يجب الاعترافُ بها والإذعانُ لها والاكتفاءُ بها عن غيرها.

«١١٩» ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا﴾ للمؤمنين بالثواب، ﴿وَنَذِيرًا﴾ للكافرين بالعقاب، ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾: ولا نسألك عنهم ما لهم لم يؤمنوا بعدَ أن بَلَّغْتَ وبَلَغْتَ جُهْدَكَ في دعوتِهم، وهو حالٌ، كـ (نذيراً) و(بشيراً) و(بالحقِّ) أي: وغيرَ مسؤولٍ، أو: مستأنفٌ، كقراءةِ نافعٍ: ﴿ولا تَسألْ﴾ على النهي[1]، ومعناه: تعظيمُ ما وقع فيه الكفارُ من العذابِ، كما تقول: كيف فلانٌ؟ سائلاً عن الواقعِ في بليةٍ، فيقال لك: لا تسألْ عنه، وقيل: نهى الله تعالى نبيَّه عن السؤال عن أحوال الكفرة حين قال: «ليت شعري ما فعل أبواي؟»[2].

«١٢٠» ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ كأنهم قالوا: لن نرضى عنك وإن أَبْلَغْتَ في طلب رضانا حتى تتبع مِلتنا؛ إقناطاً منهم لرسول الله عن دخولهم في الإسلام، فذكرَ اللهُ عزَّ وجلَّ كلامَهم، ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ﴾ الذي رضيَ لعباده ﴿هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: الإسلامُ، وهو الهدَى كلُّه، ليس وراءَه هدىً، والذي تَدْعُون إلى اتباعه ما هو بهدىً، إنما هو هوىً؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ أي: أقوالَهم التي هي أهواءٌ وبِدَعٌ ﴿بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي: من العلم بأن دينَ اللهِ هو الإسلامُ، أو: من الدين المعلومِ صحتُه بالبراهين الواضحةِ، والحُجَجِ اللائحةِ ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ﴾: من عذاب اللهِ ﴿مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾: ناصرٍ.

«١٢١» ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأٌ، ﴿ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾: صلتُه، وهم مؤمنو أهلِ الكتابِ، وهو التوراة أو: الإنجيلُ، أو: أصحابُ النبيِّ عليه السلام، والكتابُ: القرآنُ، ﴿يَتْلُونَهُۥ﴾: حال

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٣٩).

(٢) رواه ابن الأعرابي في «معجمه» (١/ ٣٩٤)، قال السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٢٧١): هذا مُرسل ضَعِيف الإسناد.

ووالدا المصطفى ﷺ من أهل الفترة، وهم ناجون من العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾. انظر «شرح جوهرة التوحيد» للباجوري (ص٦٨).

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٢ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ١٢٣ ۞وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤﴾ ....

مُقَدَّرَةٌ مِن (هم) لأنهم لم يكونوا تالِينَ له وقتَ إيتائه[1]، ونُصِبَ على المصدرِ: ﴿حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ أي: يقرؤونه حقَّ قراءتِه في الترتيلِ، وأداءِ الحروفِ والتدبرِ والتفكرِ، أو: يعملون به، ويؤمنون بما في مضمونِه، ولا يُغيِّرون ما فيه مِن نعتِ النبيِّ ﷺ، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأٌ، خبرُه: ﴿يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾، والجملةُ: خبرُ (الذين)، ويجوزُ أن يكون (يتلونه) خبراً، والجملةُ: خبرٌ آخرُ، ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٢١﴾ حيثُ اشترَوا الضلالةَ بالهدَى.

《١٢٢》 ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: أنعمتُها عليكم، ﴿وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٢﴾: وتَفضيلِي إياكم على عالَمِي زمانِكم.

《١٢٣》 ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ١٢٣﴾ (هم): رفعٌ بالابتداءِ، والخبرُ: (يُنصرون)، والجملُ الأربعُ وَصْفٌ لـ (يوماً) أي: واتقوا يوماً لا تجزي فيه، ولا يقبلُ فيه، ولا ينفعُها فيه، ولا هم ينصرون فيه، وتكريرُ هاتين الآيتين لتكرارِ المعاصي منهم، وخَتْمِ قصةِ بني إسرائيلَ بما بَدَأَ به.

《١٢٤》 ﴿وَإِذِ﴾ أي: واذكر إذ ﴿ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ﴾: اختبرَه بأوامرَ ونواهٍ، والاختبارُ منّا لظهورِ ما لم نَعلم، ومن اللهِ لإظهار ما قد عَلِمَ، وعاقبةُ الابتلاءِ ظهورُ الأمرِ الخفيِّ في الشاهدِ والغائبِ جميعاً؛ فلذا تجوزُ إضافتُه إلى الله تعالى، وقيل: اختبارُ اللهِ عبدَه مجازٌ عن تمكينِه من اختيارِ أحدِ الأمرين؛ كأنه يمتحنُه ما يكون منه حتى يجازيَه على حسبِ ذلك، وقرأ أبو حنيفة رضي اللهُ عنه: ﴿إبراهيمُ ربَّه﴾: برفعِ (إبراهيم)[2]، وهي قراءة ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما؛ أي: دعاه بكلماتٍ من الدعاءِ فِعْلَ المختبرِ؛ هل يجيبُه إليهنَّ أمْ لا؟ ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أي: قام بهنَّ حقَّ القيامِ، وأدّاهن أحسنَ التأديةِ من غير تفريطٍ وتوانٍ، ونحوُه: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٧].

ومعناه في قراءة أبي حنيفةَ رحمه الله: فأعطاه ما طلبَه، لم يَنقص منه شيئاً، والكلماتُ على هذا: ما سألَ إبراهيمُ ربَّه في قوله: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا﴾، ﴿وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ﴾، ﴿وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا﴾، ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآ﴾، والكلماتُ على القراءةِ المشهورةِ: خمسٌ في الرأسِ: الفَرْقُ[3]،

---

(١) فيكون التقدير: آتيناهم الكتاب مقدرة تلاوتُهم إياه بعد إيتائه، والله أعلم.

(٢) انظر «الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها» (ص٤٩١).

(٣) أي: فرق شعر الرأس.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ ....

وقصُّ الشاربِ، والسواكُ، والمضمضةُ، والاستنشاقُ، وخمسٌ في الجسدِ: الختانُ، وتقليمُ الأظفارِ، ونتفُ الإبطِ، وحلقُ العانةِ، والاستنجاءُ[(١)]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هي ثلاثون سهماً من الشرائعِ: عشرٌ في (براءة): ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ...﴾ الآيةَ [التوبة: ١١٢]، وعشرٌ في (الأحزاب): ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ...﴾ الآيةَ [الأحزاب: ٣٥]، وعشرٌ في (المؤمنين) و(المعارجِ) إلى قوله: ﴿يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ٩]، و[المعارج: ٣٤][(٢)]، وقيل: هي مناسك الحج.

﴿قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ﴾ هو: اسمُ مَن يُؤتمُّ به؛ أي: يأتمون بك في دينهم، ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ﴾ أي: واجعل من ذريتي إماماً يُقتدى به، وذريةُ الرجلِ: أولادُه، ذكورهم وإناثُهم فيه سواءٌ، (فُعِّيْلَة) من: الذَّرْءِ؛ أي: الخلقِ، فأُبدلت الهمزةُ ياءً، ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾: بسكون الياء: حمزةُ، وحفصٌ[(٣)]؛ أي: لا تُصيبُ الإمامةُ أهلَ الظلمِ مِن ولدِك؛ أي: أهلَ الكفر، أخبرَ أن إمامة المسلمين لا تثبتُ لأهل الكفر، وأن من أولاده المسلمين والكافرين، قال الله تعالى: ﴿وَبَـٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَـٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١١٣]، والمحسنُ: المؤمن، والظالمُ: الكافرُ.

قالت المعتزلة: هذا دليل على أن الفاسقَ لا يصلح للإمامة، قالوا: وكيف يجوز نصبُ الظالم للإمامة، والإمامُ إنما هو لكفِّ الظَّلَمَةِ؟ فإذا نُصِبَ مَن كان ظالماً في نفسه.. فقد جاء المثلُ السائرُ: من استرعَى الذئبَ.. ظَلَم[(٤)].

ولكنا نقول: المراد بالظالمِ: الكافرُ هنا؛ إذْ هو الظالمُ المطلقُ، وقيل: إنه سأل أن يكون ولده نبيّاً كما كان هو، فأُخبرَ أن الظالم لا يكون نبيّاً.

《١٢٥》 ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ﴾ أي: الكعبةَ، وهو اسم غالبٌ لها، كالنجم للثريا[(٥)]، ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾: مباءةً ومرجعاً للحُجاج والعُمّارِ، يتفرقون عنه ثم يثُوبون إليه، ﴿وَأَمْنًا﴾: وموضعَ أمنٍ،

---

(١) وردت في حديث موقوف رواه الطبري في «تفسيره» (٢/ ٩) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢/ ٨).

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٤٠).

(٤) انظر «جمهرة الأمثال» (٢/ ٢٦٥).

(٥) أي: أن (البيت) علم بالغلبة على الكعبة، كما صار (الكتاب) عند النحاة علماً بالغلبة على «كتاب سيبويه»، ومثله كثير.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾ ....

فإن الجانيَ يأوي إليه فلا يُتعرضُ له حتى يَخرجَ، وهو دليل لنا في الملتجِئ إلى الحرم[١]، ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾: وقلنا: اتخذوا منه موضعَ صلاةٍ تصلون فيه، وعنه عليه السلام: أنه أخذ بيد عمرَ فقال: «هذا مقامُ إبراهيمَ»، فقال عمر: أفلا نتخذه مصلى؟ فقال: «لم أُومر بذلك»، فلم تَغِبِ الشمسُ حتى نزلت[٢]، وقيل: (مُصَلّىً): مَدْعىً، ومقامُ إبراهيمَ: الحجرُ الذي فيه أثرُ قدميه، وقيل: الحرمُ كلُّه مقامُ إبراهيم، ﴿واتخَذُوا﴾: شاميٌّ ونافعٌ[٣]، بلفظ الماضي؛ عطفاً على (جعلنا) أي: واتخذَ الناسُ من مكانِ إبراهيمَ الذي وُسِمَ به؛ لاهتمامِه به، وإسكانِ ذريتِه عنده قِبلةً يُصلون إليها.

﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ﴾: أمرناهما ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ﴾: مدنيٌّ، وحفصٌ[٤]؛ أي: بأن طهِّرا، أو: أيْ طهِّرا؛ والمعنى: طهِّراه من الأوثانِ والأنجاسِ والخبائثِ كلِّها، ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾: للدائرين حولَه، ﴿وَٱلْعَـٰكِفِينَ﴾: المجاورين الذين عكفُوا عنده؛ أي: أقاموا لا يبرحُون، أو: المعتكفِين، وقيل: (للطائفين): للنُّزَّاعِ إليه من البلادِ[٥]، (والعاكفين): والمقيمين من أهل مكة، ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾: المصلين، جَمْعًا: راكعٍ وساجدٍ.

《١٢٦》 ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا﴾ أي: اجعل هذا البلدَ، أو: هذا المكانَ ﴿بَلَدًا ءَامِنًا﴾: ذا أمنٍ، كـ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١]، أو آمناً منْ فيه، كقولك: ليل نائم[٦]، فـ(هذا): مفعولُ أولُ، و(بلداً): مفعولٌ ثانٍ، و(آمناً): صفةٌ له.

﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ لأنه لم يكن لهم ثمرةٌ، ثم أُبدلَ ﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾

---

(١) عند الحنفية: من فعل ما يوجب قتله ثم التجأ إلى الحرم.. لم يقتل فيه ولم يُخرَج عنه للقتل، لكن يمنع عنه الطعام والشراب حتى يضطر فيَخْرُجَ من الحرم فحينئذ يُقتل خارجه، ولو فعل ما يوجب قتله في الحرم.. قُتلَ فيه، وعند الشافعية: يقتل في الحرم وإن لجأ إليه. انظر «الدر المختار» (٦/ ٥٤٧)، و«النجم الوهاج» (٨/ ٤٢٦).

(٢) رواه بنحوه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ١٤٥)، وفي «البخاري» (٤٠٢) عن سيدنا عمر رضي الله عنه: قلت: يا رسول الله، لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى، فنزلت: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾.

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص٤٠).

(٤) أي: بفتح الياء. انظر المرجع السابق.

(٥) النزاع إليه: القادمين إليه.

(٦) وصف البلد بأنه آمن إما على النَّسَبِ؛ أي: بلداً ذا أمنٍ، ومعناه: منسوباً للأمن، أو: مجازٌ عقلي بإسناد الأمن إلى المكان، والمراد أهله، كما أسند إلى زمان الفعل في قولهم: ليل نائم. انظر «الإكليل» (١/ ٥٩٨).

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ ....

مِن: (أهله) بدلَ البعضِ من الكلِّ؛ أي: وارزق المؤمنين من أهله خاصةً؛ قاسَ الرزقَ على الإمامةِ، فخصَّ المؤمِن به، ﴿قَالَ﴾ الله تعالى جواباً له: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي: وأَرْزُقُ مَن كفر، ﴿فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾: تمتيعاً قليلاً، أو: زماناً قليلاً إلى حينِ أجلِه، ﴿فَأُمْتِعُه﴾: شاميٌّ[1]، ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ﴾: أُلْجِئُهُ ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾: المرجعُ الذي يصير إليه النارُ، فالمخصوصُ بالذمِّ محذوفٌ[2].

«١٢٧» ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ﴾: حكايةُ حالٍ ماضيةٍ[3] ﴿إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ﴾ هي: جمعُ قاعدةٍ، وهي: الأساسُ والأصلُ لما فوقه، وهي صفة غالبةٌ، ومعناها: الثابتةُ، ورفعُ الأساسِ البناءُ عليها؛ لأنها إذا بنيَ عليها.. نُقلت عن هيئة الانخفاضِ إلى هيئةِ الارتفاعِ، وتطاولت بعدَ التقاصر، ﴿مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾: بيتِ اللهِ، وهو الكعبة.

﴿وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ هو: عطفٌ على إبراهيمَ، وكان إبراهيمُ يبني وإسمعيل يناولُه الحجارة: ﴿رَبَّنَا﴾ أي: يقولان: ربنا، وهذا الفعل في محل النصب على الحال، وقد أظهره عبدُ الله في قراءتِه[4]، ومعناه: يرفعانها قائلين: ربنا ﴿تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ تَقَرُّبَنا إليك ببناء هذا البيت، ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لِدُعائِنا، ﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ بضمائرنا ونيّاتِنا، وفي إبهام القواعدِ وتَبْيِيْنِها بعد الإبهامِ تفخيمٌ لشأنِ المبيَّنِ.

«١٢٨» ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾: مخلِصين لك أَوْجُهَنا؛ مِن قولِه: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١١٢]، أو: مستسلمين؛ يقال: أسلمَ له، واستسلمَ: إذا خضعَ وأذعنَ؛ والمعنى: زِدْنا إخلاصاً أو: إذعاناً لك، ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ﴾: واجعلْ من ذريتنا ﴿أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾، و(من): للتبعيض، أو: للتبيين، وقيل: أراد بالأمةِ أمةَ محمدٍ عليه السلام، وإنما خصَّا بالدعاءِ ذريتَهما؛ لأنهم أولى بالشفقةِ، ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦].

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٤٠).
(٢) وهو النار.
(٣) لأن الرفع قد وقع فهو ماض، فاستعمل المضارع مكان الماضي، وفائدتُه: تصويره للمخاطب كأنه يشاهده يحصل الآن. انظر «الإكليل» (١/٥٩٩).
(٤) أي: سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. انظر «المحرر الوجيز» (١/٢١١).

﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩ وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٣٠﴾ ....

﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾: منقولٌ مِن: رأى؛ بمعنى: أبصرَ، أو عرف[(١)]؛ ولذا لم يتجاوز مفعولين؛ أي: وبَصِّرنا مُتَعَبَّدَاتِنا في الحجِّ، أو: عَرِّفْناها، وواحدُ المناسك مَنْسِكٌ: بفتحِ السينِ وكسرِها، وهو المتَعَبَّدُ؛ ولهذا قيل للعابد: ناسكٌ، ﴿وأَرْنا﴾: مكيٌّ، قاسَه على: فَخْذٍ، في: فَخِذٍ، وأبو عمرو يُشِمُّ الكسرةَ[(٢)]، ﴿وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ﴾ ما فَرَطَ منا من التقصير، أو: استتابا لذريتِهما، ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨﴾.

«١٢٩» ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ﴾: في الأمة المسلمةِ ﴿رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾: من أنفسهم، فبعثَ الله فيهم محمداً عليه السلام، قال عليه السلام: «أنا دعوة أبي إبراهيمَ، وبُشرى عيسى، ورؤيا أمي»[(٣)]، ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ﴾: يقرأُ عليهم، ويبلغُهم ما تُوحي إليه من دلائل وحدانيتِك وصِدْقِ أنبيائِك، ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾: القرآنَ، ﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾: السنةَ، وفَهْمَ القرآنِ، ﴿وَيُزَكِّيهِمۡ﴾: ويطهرُهم من الشركِ وسائرِ الأرجاسِ، ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ﴾: الغالبُ الذي لا يُغْلَبُ، ﴿ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩﴾ فيما أَوْلَيْتَ.

«١٣٠» ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾: استفهامٌ بمعنى: الجحدِ وإنكارِ أن يكون في العقلاء مَن يرغبُ عن الحقِّ الواضحِ الذي هو ملةُ إبراهيمَ، والملةُ: السنةُ والطريقةُ، كذا عن الزجاج[(٤)]، ﴿إِلَّا مَن﴾: في محلِّ الرفعِ على البدل من الضمير في (يرغب)، وصحَّ البدل؛ لأن (من يرغب) غيرُ موجَب، كقولك: هل جاءك أحدٌ إلا زيدٌ، والمعنى: وما يرغبُ عن ملة إبراهيمَ إلا مَن ﴿سَفِهَ نَفۡسَهُۥ﴾ أي: جهلَ نفسَه؛ أي: لم يُفَكِّرْ في نفسِه، فَوُضِعَ (سفه) موضعَ: جهلَ، وعُدِّيَ كما عُدِّيَ، أو: معناه: سَفِهَ في نفسِه، فحُذفَ (في) كما حُذِفَ: مِن، في قوله: ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، و(على) في قوله: ﴿وَلَا تَعۡزِمُواْ عُقۡدَةَ ٱلنِّكَاحِ﴾ [البقرة: ٢٣٥]،

---

(١) الأصل: رأى؛ بمعنى: أبصر، أو عَرَفَ، متعدٍّ لمفعول واحد، ثم زيدت همزة النقل فصار الماضي: أرَى، متعدٍّ لاثنين، والأمر منه: أرِ.

(٢) أي: يقرأ باختلاس الكسرة. انظر «البدور الزاهرة» (ص ٤٠)، والاختلاس: خطفُ الحركةِ والإسراعُ بها. انظر «إبراز المعاني من حرز الأماني» (ص٤٢).

(٣) رواه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٤١٩) عن سيدنا عرباض بن سارية رضي الله عنه.

(٤) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (١/ ٢٠٩).

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾

والوجهان عن الزجاج[(١)]، وقال الفراء: هو منصوب على التمييز[(٢)]، وهو ضعيف؛ لكونه معرفة، ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾: بيانٌ لخطإِ رأيِ مَن يرغبُ عن ملتِه؛ لأن مَن جمعَ كرامةَ الدارين.. لم يكن أحدٌ أولى بالرغبة في طريقتِه منه.

《١٣١》 ﴿إِذْ قَالَ﴾: ظرفٌ لـ(اصطفيناه)، أو: انتصب بإضمار: اذكر، كأنه قيل: اذكر ذلك الوقتَ؛ لتعلم أنه المصطفَى الصالحُ الذي لا يُرغبُ عن ملة مثله ﴿لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ﴾: أَذْعِنْ وأَطِعْ، أو: أخلص دينَك لله، ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ أي: أخلصتُ، أو: انقدتُ.

《١٣٢》 ﴿وَوَصَّىٰ﴾ ﴿وأوصى﴾: مدنيٌّ، وشاميٌّ[(٣)]، ﴿بِهَآ﴾: بالملةِ، أو: بالكلمة، وهي: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾، ﴿إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ هو: معطوفٌ على (إبراهيم) داخلٌ في حكمه، والمعنى: ووصَّى بها يعقوبُ بَنيه أيضاً ﴿يَٰبَنِىَّ﴾: على إضمار القول، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ أي: أعطاكم الدين الذي هو صفوة الأديانِ، وهو دين الإسلامِ، ووفقكم للأخذ به، ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾: فلا يكنْ موتُكم إلا على حالِ كونِكم ثابتين على الإسلام، فالنهيُ في الحقيقة عن كونهم على خلاف حالِ الإسلامِ إذا ماتوا، كقولك: لا تصلِّ إلا وأنت خاشع، فلا تنهاه عن الصلاة، ولكن عن تركِ الخشوعِ في صلاته.

《١٣٣》 ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾ (أم): منقطعةٌ، ومعنى الهمزةِ فيها: الإنكارُ، والشهداءُ: جمع شهيدٍ؛ بمعنى: الحاضرِ؛ أي: ما كنتم حاضرين يعقوبَ عليه السلام إذْ حضره الموتُ؛ أي: حين احتُضِرَ، والخطابُ للمؤمنين؛ بمعنى: ما شهدتم ذلك، وإنما حصل لكم العلمُ به من طريق الوحي؛ أو: متصلةٌ، ويقدَّر قبلها محذوفٌ، والخطاب لليهودِ؛ لأنهم كانوا يقولون: ما مات نبي إلا على اليهودية، كأنه قيل: أتدَّعون على الأنبياء اليهوديةَ أم كنتم شهداءَ إذ حضر يعقوبَ الموتُ؟ ﴿إِذْ قَالَ﴾: بدلٌ مِن (إذ) الأولى، والعاملُ فيهما:

---

(١) المرجع السابق (١/ ٢١١).

(٢) «معاني القرآن» للفراء (١/ ٧٩).

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص٤٠).

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ ....

(شهداء)، أو: ظرفٌ لـ (حضر)، ﴿لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ (ما): استفهامٌ في محل النصب بـ (تعبدون) أي: أيَّ شيءٍ تعبدون؟ و(ما): عامٌّ في كل شيء، أو: هو سؤالٌ عن صفة المعبودِ، كما تقول: ما زيد؟ تريدُ: أفقيهٌ أم طبيب؟ ﴿مِنۢ بَعْدِى﴾: من بعد موتي، ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ﴾ أُعِيدَ ذكرُ الإلهِ؛ لئلا يُعطفَ على الضمير المجرورِ بدون إعادةِ الجارِّ، ﴿إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ﴾: عطفُ بيانٍ لـ (آبائك)، وجُعِلَ إسماعيلُ من جملة آبائِه وهو عمه؛ لأن العمَّ أبٌ، قال عليه السلام في العباس: «هذا بقية آبائي»[1]، ﴿إِلَـٰهًا وَٰحِدًا﴾: بدلٌ من (إلهَ آبائك)، كقوله: ﴿بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَـٰذِبَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [العلق: ١٥ ـ ١٦]، أو: نصبٌ على الاختصاص؛ أي: نريدُ بإلهِ آبائك إلهاً واحداً ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾: حالٌ من فاعل (نعبد)، أو: جملةٌ معطوفةٌ على (نعبد)، أو: جملةٌ اعتراضيةٌ مؤكِّدةٌ.

《١٣٤》 ﴿تِلْكَ﴾: إشارةٌ إلى الأمة المذكورةِ التي هي إبراهيمُ ويعقوبُ وبنوهما الموحِّدُون ﴿أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾: مضت، ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ أي: إن أحداً لا ينفعُه كسبُ غيرِه متقدماً كان أو متأخراً، فكما أن أولئك لا ينفعهم إلا ما اكتسبوا فكذلك أنتم لا ينفعُكم إلا ما اكتسبتم، وذلك لافتخارهم بآبائهم، ﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾: ولا تؤاخَذُون بسيآتهم.

《١٣٥》 ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ﴾ أي: قالت اليهود: كونوا هوداً، وقالت النصارى: كونوا نصارى، وجُزِمَ ﴿تَهْتَدُوا۟﴾؛ لأنه جواب الأمر، ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾: بل نتبع ملةَ إبراهيمَ ﴿حَنِيفًا﴾: حالٌ من المضاف إليه، نحو: رأيت وجهَ هندٍ قائمةً، والحنيفُ: المائلُ عن كل دينٍ باطلٍ إلى دين الحقِّ، ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾: تعريضٌ بأهل الكتاب وغيرِهم؛ لأن كلّاً منهم يدَّعي اتباعَ ملةِ إبراهيمَ وهو على الشرك.

《١٣٦》 ﴿قُولُوٓا۟﴾: خطابٌ للمؤمنين، أو للكافرين؛ أي: قولوا؛ لتكونوا على الحقِّ، وإلا.. فأنتم على الباطل، ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ أي: القرآنِ، ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٦/ ٣٨٢).

﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ ....

﴿وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ السِّبْطُ: الحافد[1]، وكان الحسنُ والحسينُ سِبْطَيْ رسولِ اللهِ ﷺ، والأسباطُ: حَفَدَةُ يعقوبَ، ذَراري أبنائِهِ الاثني عشرَ، ويُعَدَّى أُنزِلَ بـ: إلى وبـ: على؛ فلذا ورد هنا بـ: إلى، وفي (آل عمران): بـ: على، ﴿وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: لا نؤمنُ ببعض ونكفرُ ببعض كما فعلت اليهودُ والنصارى، و(أحد): في معنى الجماعةِ؛ ولذا صح دخولُ (بين) عليه، ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾: لله مخلصون.

«١٣٧» ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾ ظاهرُ الآيةِ مشكلٌ؛ لأنه يوجبُ أن يكون لله تعالى مِثْلٌ، وتعالى عن ذلك، فقيل: الباءُ زائدةٌ، و(مثل): صفةٌ لمصدرٍ محذوفٍ، تقديرُه: فإن آمنوا إيماناً مثلَ إيمانِكم، والهاءُ يعودُ إلى الله عزَّ وجلَّ، وزيادةُ الباءِ غيرُ عزيزٍ، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا﴾ [يونس: ٢٧]، والتقديرُ: جزاءُ سيئةٍ مثلُها، كقوله في الآية الأخرى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، وقيل: المثلُ زيادةٌ؛ أي: فإن آمنوا بما آمنتم به؛ يؤيدُه: قراءةُ ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿بما آمنتم به﴾[2]، و(ما) بمعنى: الذي؛ بدليل قراءةِ أُبيٍّ: ﴿بالذي آمنتم به﴾[3]، وقيل: الباءُ: للاستعانة، كقولك: كتبت بالقلم؛ أي: فإن دخلوا في الإيمان بشهادةٍ مثلِ شهادتِكم التي آمنتم بها، ﴿وَّإِن تَوَلَّوْا۟﴾ عما تقولون لهم، ولم ينصفوا، أو: وإن تولَّوا عن الشهادةِ والدخولِ في الإيمان بها ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ﴾ أي: فما هم إلا في خلافٍ وعداوةٍ، وليسوا من طلب الحقِّ في شيء، ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾: ضمانٌ من الله لإظهار رسولِه عليهم، وقد أنجزَ وعدَه بقتل بعضِهم، وإجلاءِ بعض، ومعنى السينِ: أن ذلك كائنٌ لا محالةَ وإن تأخرَ إلى حينٍ، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لما ينطقون به، ﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ بما يُضمرون من الحسدِ والغِلِّ، وهو معاقبُهم عليه، فهو وعيدٌ لهم، أو وعدٌ لرسول الله عليه السلام؛ أي: يَسمعُ ما تدعو به، ويَعلمُ نيتَك وما تريدُه من إظهار دينِ الحقِّ، وهو مستجيبٌ لك، وموصلك إلى مُرادِك.

«١٣٨» ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾: دينَ اللهِ، وهو مصدر مؤكِّدٌ منتصِبٌ عن قوله: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾، وهي (فِعْلَةٌ) مِن: صَبَغَ، كالجِلسةِ مِن: جلس، وهي الحالةُ التي يقعُ عليها الصَّبْغُ، والمعنى: تطهيرَ اللهِ؛

---

(١) الحافد: ولد الولد.

(٢) انظر «تفسير الثعلبي» (٨/ ٣٠٦).

(٣) في «تفسير الطبري» (٣/ ١١٤) نسبت لسيدنا ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾ ....

لأن الإيمان يطهرُ النفوسَ، والأصلُ فيه: أن النصارى كانوا يغمسُون أولادَهم في ماء أصفرَ يسمُّونه المعموديةَ، ويقولون: هو تطهيرٌ لهم، فإذا فعل الواحدُ منهم بولده ذلك.. قال: الآنَ صار نصرانياً حقّاً، فأُمرَ المسلمون بأن يقولُوا لهم: قولوا: آمنا بالله، وصَبَغَنا اللهُ بالإيمانِ صِبْغَتَه، ولم نُصْبَغْ صِبْغَتَكم، وجيءَ بلفظِ الصِّبْغَةِ للمشاكلة[1]، كقولك لمن يَغْرِسُ الأشجارَ: اغْرِسْ كما يَغرسُ فلانٌ؛ تريدُ رجلاً يَصْطَنِعُ الكرامَ[2]، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾: تمييزٌ؛ أي: لا صبغةَ أحسنُ من صِبغتِه؛ يريدُ: الدينَ، أو: التطهيرَ، ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾: عطفٌ على (آمنا بالله)، وهذا العطفُ يدلُّ على أن قوله: (صبغةَ الله) داخلٌ في مفعولِ: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ أي: قولوا هذا، وهذا، ونحن له عابدون؛ ويردُّ قولَ مَن زعمَ أن (صبغة الله) بدلٌ مِن ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾، أو: نصبٌ على الإغراءِ؛ بمعنى: عليكم صبغةَ اللهِ؛ لما فيه من فَكِّ النظمِ، وإخراجِ الكلامِ عن الْتِئامِهِ، وانتصابُها على أنها مصدرٌ مؤكِّدٌ هو الذي ذكره سيبويهِ[3]، والقولُ ما قالت حذامِ[4].

《١٣٩》 ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ﴾ أي: أتجادلونَنا في شأن اللهِ واصطفائِه النبيَّ من العرب دونَكم، وتقولون: لو أنزل اللهُ على أحدٍ.. لأنزلَ علينا، وترونَكم أحقَّ بالنبوة منا، ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾: نشتركُ جميعاً في أننا عبادُه، وهو ربُّنا، وهو يصيبُ برحمتِه وكرامتِه من يشاءُ من عباده، ﴿وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾؛ يعني: أن العمل هو أساس الأمرِ، وكما أن لكم أعمالاً فلَنا كذلك، ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ أي: نحن له موحِّدون، نُخْلِصُه بالإيمان، وأنتم به مشركون، والمخلصُ أحرَى بالكرامةِ، وأولى بالنبوة من غيرِه.

《١٤٠》 ﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾: بالتاءِ: شاميٌّ وكوفيٌّ غيرَ أبي بكرٍ[5]، و(أم) على هذا معادِلةٌ

---

(١) المشاكلة هي: أن يذكر الشيء بلفظ غيره، لوقوعه في صحبته. انظر «جواهر البلاغة» (ص ٣٠٩).

(٢) يصطنع الكرام: يَصنَعُهم ويخرجُهم، أو: يصنع فعل الكرام.

(٣) في «الكتاب» لسيبويه (١/ ٣٨٢): وقال قومٌ: صبغةَ الله: منصوبةٌ على الأمر، وقال بعضُهم: لا، بل توكيداً.

(٤) يشير إلى قول الشاعر: [من: الوافر]

إذا قالَتْ حَذامِ فَصدِّقوها ... فإنَّ القولَ ما قالَتْ حَذامِ

وصار هذا البيت مثلاً يضرب في تصديق المخبر. انظر «المستقصى في أمثال العرب» (١/ ٣٤٠).

(٥) انظر «البدور الزاهرة» (ص٤٠) وكذا القراءة الآتية.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾ ....

للهمزة في (أتحاجوننا) يعني: أيَّ الأمرين تأتُون؟ المحاجَّةَ في حكمِ اللهِ أم ادعاءَ اليهوديةِ والنصرانيةِ على الأنبياءِ، أو: منقطعةٌ؛ أي: بل أتقولون، غيرُهم: بالياء، وعلى هذا لا تكون الهمزة إلا منقطعةً[1] ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾.

ثم أمرَ نبيَّه عليه السلام أن يقول مستفهماً رادّاً عليهم بقولِه: ﴿قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ يعني: أن الله شهدَ لهم بملة الإسلامِ في قوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ [آل عمران: ٦٧]، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: كتمَ شهادةَ الله التي عنده أنه شهدَ بها، وهي شهادته لإبراهيمَ بالحنيفيةِ، والمعنى: أن أهل الكتاب لا أحدَ أظلمُ منهم؛ لأنهم كتمُوا هذه الشهادةَ وهم عالمون بها، أو: أنا لو كتمنا هذه الشهادةَ.. لم يكن أحدٌ أظلمَ منا، فلا نكتمُها، وفيه تعريضٌ بكتمانِهم شهادةَ اللهِ لمحمد عليه السلام بالنبوة في كتبِهم، وسائرَ شهاداتِه، و(مِن) في قوله: (من الله): مثلُها في قولك: هذه شهادةٌ مني لفلان، إذا شهدتَ له؛ في أنها صفةٌ لها[2]، ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾ من تكذيب الرسلِ، وكتمانِ الشهادةِ.

《١٤١》 ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾ كُرِّرَت للتأكيدِ؛ ولأن المراد بالأول: الأنبياءُ عليهم السلام، وبالثاني: أسلافُ اليهودِ والنصارى.

《١٤٢》 ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾: الخِفافُ الأحلامِ؛ فأصلُ السَّفَهِ: الخفةُ، وهم اليهودُ؛ لكراهيتِهم التوجهَ إلى الكعبة، وأنهم لا يَرَون النسخَ، أو: المنافقون؛ لحرصهم على الطعنِ والاستهزاءِ، أو: المشركون؛ لقولهم: رغبَ عن قبلةِ آبائِه ثم رجع إليها، والله ليرجعنّ إلى دينهم، وفائدةُ الإخبارِ بقولهم قبلَ وقوعِه: توطينُ النفسِ؛ إذ المفاجأةُ بالمكروه أشدُّ، وإعدادُ الجوابِ

---

(١) الأولى: لا تكون (أم) إلا منقطعة.
وإنما كانت منقطعة لأن ما بعد الهمزة خطاب: (أتحاجوننا)، وما بعد (أم) غائب: (يقولون)، وذكر أبو حيان في «البحر المحيط» (١/ ٥٨٧) أنه يمكن أن تكون متصلة على قراءة الياء، ويكون ذلك من الالتفات.

(٢) أي: (من الله): متعلقان بصفة محذوفة لـ (شهادة)، ويجوز أن يتعلقا بحال محذوف؛ لأن (شهادة) نكرة موصوفة؛ فالظرف (عنده) متعلق بصفة محذوفة.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ ....

قبلَ الحاجةِ إليه أَقطعُ للخصم؛ فقبلَ الرمي يُراشُ السهمُ[١]، ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ﴾: ما صَرفَهم ﴿عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ يَعنون بيتَ المَقدسِ، والقِبلةُ: الجهةُ التي يستقبلُها الإنسانُ في الصلاة؛ لأن المصليَ يقابلُها، ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ أي: بلادُ المشرقِ والمغربِ والأرضُ كلُّها له، ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ من أهلِها ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾: طريقٍ مُستوٍ؛ أي: يُرشدُ مَن يشاءُ إلى قِبلةِ الحقِّ، وهي الكعبةُ التي أُمر بالتوجُّهِ إليها، أو: الأماكنُ كلُّها لله، فيأمرُ بالتوجهِ إلى حيثُ شاءَ، فتارةً إلى الكعبة، وطَوراً إلى بيتِ المقدسِ، لا اعتراضَ عليه؛ لأنه المالكُ وحدَه.

《١٤٣》 ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ﴾: ومثلَ ذلك الجَعلِ العجيب جعلناكم، فالكافُ للتشبيهِ، و(ذا): جَرٌّ بالكافِ، واللامُ للفرق بين الإشارةِ إلى القريبِ، والإشارةِ إلى البعيد، والكافُ للخطاب لا محلَّ لها من الإعراب، ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾: خياراً، وقيل للخيارِ: وسطٌ؛ لأن الأطراف يَتسارعُ إليها الخللُ، والأوساطُ محميةٌ؛ أي: كما جعلتُ قبلتَكم خيرَ القِبَل.. جعلتُكم خيرَ الأمم[٢]، أو: عُدولاً؛ لأن الوسطَ عدلٌ بينَ الأطرافِ، ليس إلى بعضِها أقربَ مِن بعضٍ؛ أي: كما جعلنا قبلتَكم متوسطةً بينَ المشرقِ والمغربِ جعلناكم أمةً وسطاً بين الغُلُوِّ والتقصيرِ؛ فإنَّكم لم تَغْلُوا غُلُوَّ النصارى حيثُ وصفُوا المسيحَ بالألوهية، ولم تُقَصِّرُوا تقصيرَ اليهودِ حيث وصفُوا مريمَ بالزنا، وعيسى بأنه ولدُ الزنا، ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ﴾: غيرُ منصرفٍ؛ لمكانِ ألفِ التأنيثِ، ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾: صلةُ شهداء، ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾: عطفٌ على (لتكونوا)، رويَ: أن الأمم يوم القيامة يجحدون تبليغَ الأنبياءِ، فيطالبُ اللهُ الأنبياءَ بالبينةِ على أنهم قد بَلَّغُوا وهو أعلمُ، فيؤتَى بأمّةِ محمدٍ عليه السلام فيشهدون، فيقول الأممُ: مِن أين عَرفتم؟ فيقولون: علمنا ذلك بإخبار اللهِ تعالى في كتابه الناطقِ، على لسان نبيه الصادقِ، فيؤتَى بمحمد عليه السلام فيُسألُ عن حال أمتِه فيُزكِّيهم، ويشهدُ بعدالتِهم[٣]، والشهادةُ قد تكون بلا مشاهدةٍ، كالشهادة بالتسامُعِ

---

(١) هذا مثلٌ يضرب في تهيئة الآلة قبل الحاجة إليها. انظر «مجمع الأمثال» (٢/ ١٠١)، ومعنى: يراش: يُلزقُ عليه الريش.

(٢) في بعض المطبوع هنا زيادة، وهي: «وعلة الجعل» أي: لتعلموا بالتأمل فيما نصب لكم من الحجج، وأنزل عليكم من الكتاب أنه تعالى ما بخل على أحد وما ظلم، بل أوضح السبل، وأرسل الرسل، فبلغوا ونصحوا، ولكن الذين كفروا حملهم الشقاء على اتباع الشهوات، والإعراض عن الآيات، فتشهدون بذلك على معاصريكم وعلى الذين من قبلكم، أو بعدكم».

والظاهر أنها ليست من «تفسير النسفي»؛ لأنها لا تناسب هذا الموضع، ومكانُها المناسب بعد قوله تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾. وقد وردت هكذا في «تفسير البيضاوي» على الصواب.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٣٦٩) بنحوه، وفي «البخاري» (٤٤٨٧) بنحوه مرفوعاً من حديث أبي سعيد الخدري.

....

في الأشياء المعروفةِ[١]، ولما كان الشهيدُ كالرقيب.. جيءَ بكلمةِ الاستعلاءِ، كقوله تعالى: ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [المائدة: ١١٧]، وقيل: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ في الدنيا فيما لا يصحُّ إلا بشهادةِ العدولِ الأخيارِ، ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾: يزكيكم ويُعْلِمُ بعدالتكم.

واستدلَّ الشيخُ أبو منصورٍ رحمه الله بالآية: على أن الإجماع حجةٌ؛ لأن الله تعالى وصف هذه الأمة بالعدالةِ، والعدلُ هو المستحقُّ للشهادة وقبولِها، فإذا اجتمعوا على شيء وشهدوا به.. لزمَ قبولُه[٢].

وأُخِّرت صلةُ الشهادةِ أوّلاً، وقُدِّمت آخراً[٣]؛ لأن المرادَ في الأول: إثباتُ شهادتهم على الأممِ، وفي الآخِرِ: اختصاصُهم بكون الرسول شهيداً عليهم.

﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ﴾ أي: وما جعلنا القبلةَ الجهةَ التي كنت عليها وهي الكعبةُ، فـ (التي كنت عليها) ليست بصفةٍ للقبلة، بل هي ثاني مفعولَي: جعل.

روي: أن رسول الله ﷺ كان يصلي بمكةَ إلى الكعبةِ ثم أُمرَ بالصلاة إلى صخرة بيتِ المقدسِ بعد الهجرةِ؛ تأليفاً لليهود، ثم حُوِّلَ إلى الكعبة[٤]، وفيه دليلٌ على جواز نسخ السنة بالكتاب، بخلاف ما يقوله الشافعي رحمه الله تعالى؛ لأن التوجه إلى بيت المقدس ثبت بوحي غيرِ متلوٍّ وقد نسخ بالكتاب[٥]، ﴿إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ﴾ أي: وما جعلنا القبلةَ التي تُحبُّ أن تَستقبلَها الجهةَ التي كنتَ عليها أوّلاً بمكةَ إلا امتحاناً للناسِ وابتلاءً؛ لنعلمَ الثابتَ على الإسلامِ الصادقَ فيه ممن هو على حَرْفٍ ينكصُ على عَقِبيه؛ لِقَلَقِه فقد ارتد جماعة عن الإسلام عند تحويل القبلة[٦].

---

(١) الشهادة بالتسامع: أن يشهد على شيء لم يره إذا أخبره به من يثق به، وهي جائزة في أمور منها: النسب، والموت، والنكاح. انظر «اللباب في شرح الكتاب» (٤/ ٦٧).

(٢) «تأويلات أهل السنة» (١/ ١٠١).

(٣) صلة الشهادة: الجار والمجرور: (على الناس) (عليكم).

(٤) لم أجد هذه الرواية، وفي «مسند الإمام أحمد» (١/ ٣٢٥): كان رسول الله ﷺ يصلي وهو بمكة نحو بيت المقدس، والكعبة بين يديه، وبعد ما هاجر إلى المدينة ستة عشر شهراً، ثم صرف إلى الكعبة، ولكن هذا لا يفيد أن القبلة الأولى هي الكعبةُ. انظر «تفسير أبي السعود» (١/ ١٧٣).

(٥) قال الشافعي (١/ ٢٢٢) في «الرسالة»: فإذا كانت السنة تدل على ناسخ القرآن، وتفرق بينه وبين منسوخه.. لم يكن أن تنسخ السنة بقرآن إلا أحدث رسول الله مع القرآن سنة تنسخ سنته الأولى.

(٦) وفي الآية وجه آخر، وهو أن المراد بقوله: (القبلة التي كنت عليها) بيتُ المقدس، والمعنى: وما جعلنا قبلتَك =

قال الشيخ أبو منصور رحمه الله: معنى قوله: (لنعلم) أي: لنعلم كائناً وموجوداً ما قد علمناه أنه يكونُ ويوجدُ[1]، فالله تعالى عالمٌ في الأزل بكلِّ ما أراد وجودَه أنه يوجدُ في الوقت الذي شاءَ وجودَه فيه، ولا يوصفُ بأنه عالم في الأزل بأنه موجود كائن؛ لأنه ليس بموجود في الأزل، فكيف يعلمُه موجوداً، فإذا صار موجوداً.. يدخلُ تحت علمِه الأزليِّ، فيصيرُ معلوماً له موجوداً كائناً، والتغيُّرُ على المعلومِ لا على العلمِ، أو: لنميزَ التابعَ من الناكصِ، كما قال: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: ٣٧]، فوضعَ العلمُ موضعَ التميزِ؛ لأن العلم به يقع التميزُ، أو: ليعلمَ رسولُ الله ﷺ والمؤمنون، وإنما أسند علمَهم إلى ذاته؛ لأنهم خواصُّه، أو: هو على ملاطفةِ الخطابِ لمن لا يعلمُ، كقولك لمن يُنكر ذَوبَ الذهبِ: فَلْيُلْقِهِ في النار؛ لنعلمَ أيذوب؟

﴿وَإِن كَانَتْ﴾ أي: التحويلةُ، أو: الجَعْلَةُ، أو: القِبلةُ، و(إنْ): هي المخففةُ، واللامُ في ﴿لَكَبِيرَةً﴾ أي: ثقيلةً شاقَّةً، وهي: خبرُ كانَ.. فارقةٌ.

﴿إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ أي: هداهم اللهُ، فحُذفَ العائدُ؛ أي: إلا على الثابتين الصادقين في اتباع الرسول.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ أي: صلاتَكم إلى بيت المقدسِ؛ سَمَّى الصلاةَ إيماناً؛ لأن وجوبها على أهل الإيمان، وقبولَها من أهل الإيمان، وأداءَها بالجماعة دليلُ الإيمان، ولما توجَّهَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى الكعبةِ.. قالوا: كيف بمن مات قبلَ التحويلِ مِن إخواننا؟ فنزلت[2]، ثم عَلَّلَ ذلك فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ﴾: مهموزٌ مُشبَعٌ: حجازيٌّ، وشاميٌّ، وحفصٌ، ﴿رؤف﴾: غيرُهم[3]، بوزنِ (فَعُل)، وهما للمبالغة، ﴿رَّحِيمٌ ١٤٣﴾: لا يُضيع أجورَهم، والرأفةُ: أشدُّ من الرحمةِ، وجُمِعَ بينهما كما في ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٢].

= بيتَ المقدس إلَّا لِنَعْلَمَ الآن بعد التحويل إلى الكعبة من يتبعك مِمَّنْ لا يتبعك، كبعض أهل الكتاب ارتدوا لما تحولت القِبْلَةُ، فالمفعول الثاني محذوف، و(التي): صفة للقبلة. انظر «روح المعاني» (١/ ٤٠٥).

(١) «تأويلات أهل السنة» (١/ ١٠٢).

(٢) رواه أبو داود (٤٦٨٠) والترمذي (٢٩٦٤) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما، ونحوه في «البخاري» (٤٠) عن سيدنا البراء بن عازب رضي الله عنه، ومعنى: (كيف بمن مات؟): كيف يُصنع بمن مات؟

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص٤٢).

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ۚ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾

《١٤٤》 ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾: تَرَدُّدَ وجهِك، وتَصَرُّفَ نظرِك في جهةِ السماء، وكان رسول الله ﷺ يتوقعُ من ربه أن يحوِّلَه إلى الكعبةِ؛ موافقةً لإبراهيمَ، ومخالفةً لليهود؛ ولأنها أدعى للعرب إلى الإيمان؛ لأنها مفخرتُهم ومَزارُهم ومطافُهم، ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾: فلنعطينك ولنمكنَنَّك من استقبالها؛ من قولك: وَلَّيْتُه كذا: إذا جعلتَه والياً له، أو: فلنجعلنَّكَ تلي سَمْتَها دون سمتِ بيتِ المقدس، ﴿قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾: تُحبُّها، وتميل إليها؛ لأغراضِك الصحيحةِ التي أضمرتَها ووافقت مشيئةَ اللهِ وحكمتَه، ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي: نحوَه، و(شطر): نصبٌ على الظرف؛ أي: اجعل توليةَ الوجهِ تلقاءَ المسجدِ؛ أي: في جهتِه وسمتِه؛ لأن استقبال عينِ القبلةِ متعسرٌ على النائي، وذكرُ المسجدِ الحرامِ دون الكعبةِ دليلٌ على أن الواجب مراعاةُ الجهةِ دون العينِ.

روي: أنه عليه السلام قدمَ المدينةَ فصلى نحوَ بيتِ المقدسِ ستةَ عشرَ شهراً، ثم وُجِّهَ إلى الكعبة[1].

﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾ من الأرض وأردتم الصلاةَ ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ أي: التحويلُ إلى الكعبة هو الحقُّ؛ لأنه كان في بشارة أنبيائهم برسول الله عليه الصلاة والسلام أنه يصلي إلى القبلتين، ﴿مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾: بالياء: مكيٌّ، وأبو عمرٍو، ونافعٌ، وعاصمٌ، وبالتاء: غيرُهم[2]، فالأول: وعيدٌ للكافرين بالعقاب على الجحودِ والإباءِ، والثاني: وعدٌ للمؤمنين بالثوابِ على القبولِ والأداءِ.

《١٤٥》 ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أرادَ: ذوي العنادِ منهم ﴿بِكُلِّ آيَةٍ﴾: برهانٍ قاطعٍ أن التوجهَ إلى الكعبة هو الحقُّ ﴿مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ لأن تركَهم اتباعَك ليس عن شُبهةٍ تُزيلُها بإيراد الحجةِ، إنما هو عن مكابرةٍ وعنادٍ مع علمهم بما في كتبهم من نعتك أنك على الحقِّ، وجوابُ

---

(١) رواه البخاري (٤٠) ومسلم (٥٢٥) عن سيدنا البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٤٢).

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ١٤٧﴾ ....

القسمِ المحذوفِ سدَّ مسدَّ جوابِ الشرطِ[1]، ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ﴾: حَسْمٌ لأطماعِهم إذْ كانوا اضطربُوا في ذلك وقالُوا: لو ثبت على قبلتنا.. لكنّا نرجُو أن يكون صاحبَنا الذي نَنْتَظِرُه، وطمعُوا في رجوعه إلى قبلتِهم، وَوُحِّدَتِ القبلةُ وإن كان لهم قبلتان؛ فلليهود قبلةٌ، وللنصارى قبلةٌ؛ لاتحادهم في البطلان، ﴿وَمَا بَعۡضُهُم بِتَابِعٖ قِبۡلَةَ بَعۡضٖۚ﴾ يعني: أنهم مع اتفاقهم على مخالفتِك مختلفون في شأنِ القبلةِ، لا يُرجَى اتفاقُهم، كما لا تُرجَى موافقتُهم لك، فاليهودُ تستقبلُ بيتَ المقدسِ، والنصارى مَطلِعَ الشمسِ.

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ أي: من بعد وضوحِ البرهانِ، والإحاطةِ بأن القبلة هي الكعبةُ، وأن دين الله هو الإسلامُ ﴿إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٥﴾: لمن المرتكبين الظلمَ الفاحشَ، وفي ذلك لطفٌ للسامعين، وتهييجٌ للثبات على الحقِّ، وتحذيرٌ لمن يترِكُ الدليل بعد إنارته ويتبعُ الهوى، وقيل: الخطابُ في الظاهر للنبي عليه السلام والمرادُ: أمتُه، ولزم الوقف على (الظالمين)؛ إذْ لو وُصِلَ.. لصار:

《١٤٦》 ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ صفةً لـ(الظالمين) وهو مبتدأٌ[2]، والخبرُ: ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ﴾ أي: محمداً عليه السلام، أو: القرآنَ، أو: تحويلَ القبلةِ، والأولُ أظهرُ؛ لقوله: ﴿كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ﴾، قال عبد الله بن سلام: أنا أعلمُ به مني بابني، فقال له عمر: ولم؟ قال: لأني لستُ أشكُّ في محمد أنه نبي، فأمّا ولدِي.. فلعل والدتَه خانت، فقبَّل عمر رأسه[3]، ﴿وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ﴾ أي: الذين لم يسلموا ﴿لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ﴾ حسداً وعناداً ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦﴾ لأن الله تعالى بيَّنَه في كتابهم.

《١٤٧》 ﴿ٱلۡحَقُّ﴾: مبتدأٌ، خبرُه: ﴿مِن رَّبِّكَۖ﴾، واللامُ: للجنس؛ أي: الحقُّ من الله لا من غيرِه؛ يعني: أن الحق ما ثبت أنه من الله كالذي أنت عليه، وما لم يثبت أنه من الله كالذي عليه أهل الكتاب.. فهو الباطل، أو: للعهدِ، والإشارةُ إلى الحقِّ الذي عليه رسولُ الله عليه الصلاة

---

(١) لما اجتمع القسم والشرط في (لئن)، وتقدم القسم.. جعلت جملة: (ما تبعوا قبلتك): جوابَ القسم، وحذف جواب الشرط.

(٢) «علل الوقوف» للسجاوندي (١/ ٢٥٢).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ١٤٠).

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٤٨) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٩) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٠)﴾ ....

والسلام، أو: خبرُ مبتدأٍ؛ أي: هو الحقُّ، و(من ربك): خبرٌ بعدَ خبرٍ، أو: حال، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١٤٧)﴾: الشاكِّين في أنه من ربك.

«١٤٨» ﴿وَلِكُلٍّ﴾ من أهل الأديان المختلفة ﴿وِجْهَةٌ﴾: قبلة، وقرئَ بها[1]، والضميرُ في ﴿هُوَ﴾: لـ: كلٍّ، وفي ﴿مُوَلِّيهَا﴾: لـ: الوِجهة؛ أي: هو مُولِّيها وَجْهَهُ، فحُذفَ أحدُ المفعولين، أو: (هو): الله تعالى؛ أي: الله مولِّيها إياه، ﴿هو مُولَّاها﴾: شاميٌّ[2]؛ أي: هو مُولَّى تلك الجهةَ؛ قَدْ وُلِّيها؛ والمعنى: ولكلِّ أمةٍ قِبلةٌ يُتوجهُ إليها، منكم ومن غيركم ﴿فَاسْتَبِقُوا﴾ أنتم ﴿الْخَيْرَاتِ﴾: فاستبقوا إليها غيرَكم، من أمرِ القبلةِ وغيرِه[3]، ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا﴾ أنتم وأعداؤكم ﴿يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ يومَ القيامةِ فيفصلُ بين المُحِقِّ والمبطلِ، أو: ولكلٍّ منكم يا أمةَ محمدٍ وِجهةٌ يُصلِّي إليها؛ جنوبيةٌ، أو شماليةٌ، أو شرقيةٌ، أو غربيةٌ، فاستبقوا الفاضلاتِ من الجهاتِ، وهي: الجهات المسامتةُ للكعبة وإن اختلفت، أينما تكونوا من الجهات المختلفةِ. يأتِ بكم الله جميعاً: يجمعُكم، ويجعلُ صلواتِكم كأنها إلى جهة واحدةٍ، كأنما تصلُّون حاضرِي المسجدِ الحرام؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٤٨)﴾.

«١٤٩» ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾: ومن أيِّ بلدٍ خرجت للسفر ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ إذا صليتَ، ﴿وَإِنَّهُ﴾: وإن هذا المأمورَ به ﴿لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٩)﴾، وبالياء: أبو عمرو[4].

«١٥٠» ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ وهذا التكرير لتأكيدِ أمرِ القبلةِ وتشديدِه؛ لأن النسخَ من مظانِّ الفتنةِ والشُّبهةِ، فكُرِّرَ عليهم؛

---

(١) تروى عن سيدنا أُبي. انظر «تفسير الثعلبي» (٢/ ١٤).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٤٢).

(٣) أي: أن لفظ (الخيرات) عام يتناول كل عمل صالح. انظر «الإكليل» (١/ ٦٦٦).

(٤) انظر «البدور الزاهرة» (ص٤٢).

كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ ....

ليثبتُوا، على أنه نِيطَ بكلِّ واحدٍ ما لم يُنَطْ بالآخرِ فاختلفت فوائدُها؛ ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ أي: قد عَرَّفَكم اللهُ جلَّ ذِكْرُهُ أمرَ الاحتجاجِ في القبلة بما قد بَيَّنَ في قوله: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ لئلا يكونَ للناس: لليهود عليكم حجةٌ في خلافِ ما في التوراةِ مِن تحويل القبلةِ، وأُطلقَ اسمُ الحجةِ على قول المعاندين؛ لأنهم يَسوقونه سياقَ الحجةِ، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾: استثناءٌ من (الناس) أي: لئلا يكونَ حجةٌ لأحدٍ من اليهود إلا المعانِدين منهم، القائلين: ما ترك قبلتَنا إلى الكعبة إلا ميلاً إلى دين قومِه، وحُبّاً لبلدِه، ولو كان على الحقِّ.. لَلَزِمَ قِبلةَ الأنبياءِ عليهم السلام، أو: معناه: لئلا يكونَ للعرب عليكم حجةٌ واعتراضٌ في ترككُم التوجهَ إلى الكعبةِ التي هي قِبلةُ إبراهيمَ وإسمعيلَ أبي العربِ، إلا الذين ظلموا منهم، وهم أهل مكةَ حين يقولون: بَدا لَهُ فرجعَ إلى قبلةِ آبائِه، ويوشكُ أن يرجع إلى دينِهم، ثم استأنف منبِّهاً بقوله:

﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾: فلا تخافُوا مَطاعنَهم في قبلتِكم؛ فإنهم لا يضرُّونكم، ﴿وَٱخْشَوْنِى﴾ فلا تُخالِفُوا أمري؛ ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ﴾ أي: عرَّفْتُكم؛ لئلا يكونَ عليكم حجةٌ؛ ولأتمَّ نعمتي عليكم بهدايتي إياكم إلى الكعبة؛ ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾: ولكي تهتدُوا إلى قبلة إبراهيمَ.

«١٥١» الكافُ في ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ﴾: إما أن يتعلق بما قبلَه؛ أي: ولأتم نعمتي عليكم في الآخرة بالثواب كما أَتْمَمْتُها عليكم في الدنيا بإرسال الرسول، أو: بما بعدَه؛ أي: كما ذَكَرْتُكم بإرسال الرسولِ.. فاذكروني بالطاعة أذكرْكُم بالثواب، فعلى هذا يوقفُ على ﴿تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾، وعلى الأول: لا، ﴿رَسُولًا مِّنكُمْ﴾: مِن العرب ﴿يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا﴾: يقرأُ عليكم القرآن، ﴿وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾: القرآنَ، ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾: السنةَ والفقهَ، ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾: ما لا سبيلَ إلى معرفته إلا بالوحيِ.

«١٥٢» ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ﴾ بالمعذِرةِ ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالمغفرةِ، أو: بالثناء والعطاءِ، أو: بالسؤال والنَّوالِ، أو: بالتوبةِ وعفوِ الحَوْبةِ، أو: بالإخلاصِ والخلاصِ، أو: بالمناجاةِ والنجاةِ، ﴿وَٱشْكُرُواْ لِى﴾ ما أنعمتُ به عليكم، ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾: ولا تجحدُوا نعمائي.

«١٥٣» ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ﴾ فبِهِ تُنالُ كلُّ فضيلةٍ، ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ فإنها تنهى عن كل رذيلةٍ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ بالنصر والمعونةِ.

﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ ....﴾

《١٥٤》 ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: نزلت في شهداء بدرٍ[1]، وكانوا أربعةَ عشرَ رجلاً، ﴿أَمْوَٰتٌۢ﴾ أي: هم أموات، ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ أي: هم أحياءٌ، ﴿وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾: لا تعلمون ذلك؛ لأن حياة الشهيد لا تُعلمُ حِسّاً، عن الحسن رضي الله عنه: أن الشهداء أحياءٌ عند الله تُعرضُ أرزاقُهم على أرواحهم، فيصلُ إليهم الرَّوحُ والفرحُ، كما تعرضُ النارُ على أرواح آلِ فرعونَ غُدُوّاً وعشيّاً فيصلُ إليهم الوجعُ، وعن مجاهدٍ: يرزقون ثمر الجنة، ويَجدون ريحها، وليسوا فيها.

《١٥٥》 ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾: ولنصيبنَّكم بذلك إصابةً تُشبهُ فعلَ المختبرِ لأحوالكم هل تصبرون على ما أنتم عليه من الطاعة أم لا؟ ﴿بِشَىْءٍ﴾: بقليل من كلِّ واحدةٍ من هذه البلايا وطَرَفٍ منه، وقَلَّلَ؛ ليؤذِنَ أن كلَّ بلاءٍ أصاب الإنسانَ وإن جلَّ ففَوْقَهُ ما يَقِلُّ إليه، ويريَهم أن رحمته معهم في كلِّ حالٍ، وأعلمَهم بوقوع البلواءِ قبلَ وقوعِها؛ لِيُوَطِّنُوا نفوسَهم عليها، ﴿مِّنَ ٱلْخَوْفِ﴾: خوف العدوِّ أو الله، ﴿وَٱلْجُوعِ﴾ أي: القحطِ، أو: صومِ رمضانَ، ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ﴾: بموتِ المواشي، أو: بالزكاةِ، وهو: عطفٌ على (شيءٍ)، أو: على (الخوف) أي: وشيءٍ من نقص الأموالِ، ﴿وَٱلْأَنفُسِ﴾: بالقتل والموت، أو: بالمرض والشيبِ، ﴿وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾: ثمراتِ الحرثِ، أو: موتِ الأولاد؛ لأن الولد ثمرةُ الفؤادِ، ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ على هذه البلايا، أو: المسترجعين عندَ البلايا؛ لأن الاسترجاعَ تسليمٌ وإذعانٌ، وفي الحديث: «من استرجع عند المصيبة.. جبرَ الله مصيبتَه، وأحسنَ عُقباه، وجعلَ له خلفاً صالحاً يَرضاه»[2]، وطَفِئَ سراجُ رسولِ الله ﷺ فقال: «إنا لله وإنا إليه راجعون»، فقيل: أمصيبةٌ هي؟ قال: «نعم، كلُّ شيءٍ يؤذي المؤمن.. فهو له مصيبة»[3]، والخطابُ لرسول الله ﷺ، أو لكلِّ مَن يتأتَّى منه البشارة.

《١٥٦》 ﴿ٱلَّذِينَ﴾: نصبٌ صفةٌ لـ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، ولا وقفَ عليه، بل يوقفُ على (راجعون)، ومَن ابتدأ بـ(الذين) وجعل الخبرَ (أولئك).. يقفُ على (الصابرين) لا على (راجعون)، والأولُ

---

(١) رواه ابن منده في «معرفة الصحابة» (ص٣٢٥).

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٢/ ١٧٨) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) رواه أبو داود «في المراسيل» (ص٢٩٧).

﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ ......

الوجهُ؛ لأن (الذين) وما بعده بيانٌ لـ ﴿الصَّابِرِينَ﴾[(١)]، ﴿إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ﴾: مكروهٌ، اسمُ فاعلٍ مِن: أصابته شدةٌ؛ أي: لَحِقَتْهُ، ولا وقفَ على (مصيبة)؛ لأن ﴿قَالُوا﴾: جوابُ (إذا)، و(إذا) وجوابُها: صلةُ (الذين)، ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾: إقرارٌ له بالملك، ﴿وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾: إقرارٌ على نفوسِنا بالهُلكِ.

«١٥٧» ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ الصلاةُ: الحُنُوُّ والتَّعَطُّفُ، فَوُضِعَتْ موضعَ الرأفةِ، وجمعَ بينها وبين الرحمةِ، كقوله: ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: ٢٧]، ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧]، والمعنى: عليهم رأفةٌ بعدَ رأفةٍ، ورحمةٌ أيُّ رحمةٍ، ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ لطريقِ الصوابِ؛ حيث استرجعُوا وأذعنُوا لأمر الله، قال عمر رضي الله عنه: نعم العِدلان ونعم العِلاوة[(٢)]؛ أي: الصلاةُ والرحمةُ، والاهتداءُ.

«١٥٨» ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ﴾ هما: عَلَمانِ للجبلين، ﴿مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾: من أعلام مناسكِه ومُتعبَّداتِه، جمعُ شَعِيرةٍ، وهي: العلامةُ، ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ﴾: قصدَ الكعبةَ، ﴿أَوِ اعْتَمَرَ﴾: زارَ الكعبةَ، فالحجُّ: القصدُ، والاعتمارُ: الزيارةُ، ثم غَلَبا على قَصدِ البيتِ وزيارتِه؛ للنسكين المعروفين، وهما في المعاني: كالنجم والبيتِ في الأعيانِ[(٣)]، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ﴾: فلا إثمَ عليه ﴿أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ أي: يتطوَّفَ، فَأُدْغِمَ التاءُ في الطاءِ، وأصلُ الطوفِ: المشيُ حولَ الشيءِ، والمرادُ هنا: السعيُ بينهما، قيل: كان على الصفا إِسافٌ، وعلى المروة نائِلَةُ، هما صنمان[(٤)]، يُروى أنهما كانا رجلاً وامرأةً زنيا في الكعبة، فَمُسِخا حجرين، فَوُضِعا عليهما؛ ليُعْتَبَرَ بهما، فلما طالت المدةُ.. عُبِدا من دون الله، وكان أهل الجاهلية إذا سَعَوا.. مَسَحُوهما، فلما جاء الإسلامُ وكُسِرَتِ الأوثانُ.. كره المسلمون الطوافَ بينهما؛ لأجل فعلِ الجاهليةِ، فَرُفِعَ عنهم الجُناحُ بقوله: (فلا جناح)، وهو دليلٌ على أنه ليس بركن كما قال مالكٌ والشافعيُّ رحمهما الله

---

(١) العبارة في الأصل: (بيان الصبر)، وما أثبته من المطبوع (١/ ١٠٤) وهو أولى.

(٢) رواه البخاري (٢/ ٨٣) تعليقاً بصيغة الجزم، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٤/ ٦٥)، والعِدلان: الصلاة والرحمة، والعلاوة: الاهتداء. انظر «فتح الباري» (٣/ ١٧٢).

(٣) فالحج والاعتمار: كلٌّ منهما علمٌ بالغلبة على أمر معنوي، والبيت والنجم: كل منهما علم بالغلبة على أمر محَسٍّ.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٣/ ٢٣١).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ ....

تعالى[١]، وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ أي: بالطواف بهما، مُشْعِرٌ بأنه ليس بركن، ﴿ومن يَطَّوَّعْ﴾: حمزةُ، وعليٌّ[٢]؛ أي: يتطوَّع، فأدْغما التاءَ في الطاءِ؛ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ﴾: مُجازٍ على القليل كثيراً، ﴿عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾ بالأشياءِ صغيراً أو كبيراً.

《١٥٩》 ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ من أحبار اليهود ﴿مَآ أَنزَلْنَا﴾ في التوراة ﴿مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: من الآيات الشاهدةِ على أمرِ محمدٍ عليه السلام، ﴿وَٱلْهُدَىٰ﴾: والهدايةِ إلى الإسلام بوصفه عليه السلامُ ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ﴾: أوضحناه ﴿لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾: في التوراة، لم ندعْ فيه موضعَ إشكالٍ، فعَمَدُوا إلى ذلك المبيَّنِ فكتمُوه، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾: الذين يتأتَّى منهم اللَّعنُ، وهم الملائكةُ والمؤمنون من الثقلين.

《١٦٠》 ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ عن الكتمان وتركِ الإيمان، ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾ ما أفسدُوا من أحوالهم، وتداركوا ما فَرَطَ منهم، ﴿وَبَيَّنُوا۟﴾: وأظهرُوا ما كتمُوا ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾: أقبلُ توبتَهم، ﴿وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾.

《١٦١》 ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ يعني: الذين ماتُوا من هؤلاء الكاتمين ولم يتوبُوا ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾﴾: ذكرَ لَعْنَتَهم أحياءً، ثم لَعْنَتَهم أمواتاً، والمرادُ بالناس: المؤمنون، أو: المؤمنون والكافرون؛ إذْ بعضُهم يلعنُ بعضاً يومَ القيامةِ، قال الله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨].

《١٦٢》 ﴿خَٰلِدِينَ﴾: حالٌ مِن: همْ في ﴿عَلَيْهِمْ﴾، ﴿فِيهَا﴾: في اللعنةِ، أو: في النار،

---

(١) استدل الحنفية بنفي الجناح على أن السعي ليس ركناً؛ لأن مثل هذا التركيب (لا جناح) يُستعمل للإباحة، وما يستعمل للإباحة ينفي الركنية والإيجاب، إلا أنهم قالوا بالوجوب؛ لحديث: «اسعَوا فإن الله كتب عليكم السعي» رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (٥/ ٩٨)، وهو حديث آحاد يثبت به الوجوب لا الركنية، فيجبر تركه بدم، وهو ركنٌ عند المالكية والشافعية. انظر «العناية شرح الهداية» (٢/ ٤٦١)، و«الذخيرة» للقرافي (٣/ ٢٥٠) و«نهاية المحتاج» (٣/ ٣٢١).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٤٣).

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ ....

إلا أنها أُضمرت؛ تفخيماً لشأنها؛ وتهويلاً، ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾: مِن الإنظارِ؛ أي: لا يُمهَلُون، أو: لا يُنْتَظَرُون ليعتذرُوا، أو: لا يُنظرُ إليهم نظرَ رحمةٍ.

《١٦٣》 ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾: فَرْدٌ في أُلوهيته، لا شريكَ له فيها، ولا يصحُّ أن يُسمَّى غيرُه إلهاً، ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: تقريرٌ للوحدانية بنفي غيرِه وإثباتِه، وموضعُ (هو): رفعٌ؛ لأنه بدلٌ مِن موضعِ (لا إلهَ)[١]، ولا يجوزُ النصبُ هنا؛ لأن البدلَ يدلُّ على أن الاعتمادَ على الثاني، والمعنى في الآية على ذلك، والنصبُ يدلُّ على أن الاعتماد على الأول[٢]، ورَفْعُ ﴿الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ أي: المُولِي لجميع النعمِ أُصولِها وفروعِها، ولا شيءَ سواه بهذه الصفةِ، فما سواه: إما نعمةٌ، وإما مُنْعَمٌ عليه.. على أنه خبرُ مبتدأٍ، أو: على البدلِ مِن (هو)، لا على الوصفِ؛ لأن المضمرَ لا يوصفُ.

《١٦٤》 ولما عجبَ المشركون من إلهٍ واحدٍ، وطلبُوا آيةً على ذلك.. نَزَلَ ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾: في اللونِ والطُّوْلِ والقِصَرِ، أو: تعاقُبِهما في الذهابِ والمجيءِ، ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ﴾: بالذي ينفعهم، مما يُحملُ فيها، أو: بنفعِ الناسِ[٣]، و(مِن) في ﴿وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾: لابتداءِ الغايةِ، وفي ﴿مِن مَّاءٍ﴾: مطرٍ: لبيانِ

---

(١) لأن (لا إله): مُرَكَّبٌ في محل رفع مبتدأ.

(٢) أي: إذا رفع وأعرب بدلاً.. فهو المقصود الحكم وهذا معنى قوله: الاعتماد على الثاني، وإن نصب.. فلا يكون بدلاً، فيكون الأول هو المقصود بالحكم والاعتماد عليه.

وهذا القول في منع النصب مع تعليله ذكره أبو القاسم الكرماني في «غرائب التفسير» (١/ ١٨٨)، وذكر ابنُ هشام أن كلامَ الكرماني لا يقتضي منعَ النصب مطلقاً، بل منعه في الآية من جهة الأرجحيةِ التي يجب حمل أفصح الكلام عليها، وذكر أن نصبَ الاسم بعد إلا جائزٌ، وله تخريجان: إما منصوب على الاستثناء بتقدير الخبر محذوفاً؛ أي: لا إلهَ في الوجود إلا اللهَ، وإما على جعل: إلا: صفةً لـ: إله في محل نصب وظهرت الفتحة التي تستحقها على الاسم بعدها، والتقدير: لا إلهَ غيرَ اللهِ. انظر «إعراب لا إله إلا الله» لابن هشام (ص٦٤).

(٣) أي: أن (ما): إما اسم موصول، أو: حرف مصدري.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ ....

الجنسِ؛ لأن ما ينزل من السماء مطرٌ وغيرُه، ثم عُطِفَ على (أنزل): ﴿فَأَحْيَا بِهِ﴾: بالماء ﴿ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾: يُبْسِها، ثم عُطِفَ على (فأحيا): ﴿وَبَثَّ﴾: وفرَّق ﴿فِيهَا﴾: في الأرض ﴿مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾: هي كلُّ ما يدِبُّ، ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ ﴿الريح﴾: حمزةُ، وعليٌّ[1]؛ أي: وتقليبها في مهابِّها؛ قَبولاً ودَبوراً[2]، وجَنوباً وشَمالاً، وفي أحوالها؛ حارةً وباردةً وعاصفةً ولَيِّنَةً وعُقُماً[3]، ولواقحَ، وقيل: تارةً بالرحمة، وطَوراً بالعذاب، ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ﴾: المذللِ المنقادِ لمشيئة الله، فيمطرُ حيث شاء، ﴿بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾: في الهواء، ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾: ينظرون بعيون عقولهم، ويعتبرون، فيستدلُّون بهذه الأشياء على قدرة مُوجِدِها، وحكمةِ مُبدِعها، ووحدانيةِ مُنشِئِها، وفي الحديث: «ويل لمن قرأ هذه الآية فمجَّ بها»[4] أي: لم يتفكر فيها، ولم يعتبِر بها.

《١٦٥》 ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: ومع هذا البرهان النيِّرِ من الناس ﴿مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾: أمثالاً من الأصنام، ﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾: يعظمونهم ويخضعون لهم تعظيمَ المحبوبِ، ﴿كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾: كتعظيم الله والخضوعِ له؛ أي: يحبون الأصنامَ كما يحبون الله؛ يعني: يُسَوُّونَ بينهم وبينه في مَحبَّتِهم؛ لأنهم كانوا يُقِرُّون بالله ويتقربون إليه، وقيل: يُحبونهم كحبِّ المؤمنين اللهَ، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ من المشركين لآلهتهم؛ لأنهم لا يَعدِلُون عنه إلى غيره بحالٍ، والمشركون يَعدِلون عن أندادهم إلى الله عند الشدائدِ فيفزعون إليه ويخضعون له.

﴿وَلَوْ يَرَى﴾ ﴿ترى﴾: نافعٌ، وشاميٌّ[5]، على خطاب الرسولِ، أو: كلِّ مخاطبٍ؛ أي: ولو ترى ذلك.. لرأيت أمراً عظيماً، ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾: إشارةٌ إلى مُتخذِي الأندادِ، ﴿إِذْ يَرَوْنَ﴾ ﴿يُرَونَ﴾: شاميٌّ، ﴿ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾: حالٌ، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾: شديدٌ عذابُه؛ أي: ولو يعلمُ هؤلاءِ الذين ارتكبوا الظلمَ العظيمَ بشركهم أن القدرة كلَّها لله على كلِّ

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٤٣).

(٢) القَبول: ريحُ الصبا، وسميت القَبولَ؛ لأنها تقابل الدَّبور، أو لأنها تستقبل باب الكعبة، أو لأن النفس تقبلها، والدَّبور: ريح تَهُبُّ من جهة المغربِ تُقابلُ الصَّبا.

(٣) عُقُم: جمع عقيم، وهي: التي لا تأتي بالغيث.

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢/ ٣٣) بلا إسناد.

(٥) انظر «البدور الزاهرة» (ص٤٣) وكذا القراءة الآتية.

إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ ....

شيءٍ من الثواب والعقاب دون أندادِهم، ويعلمون شدةَ عقابِه للظالمين إذا عايَنُوا العذابَ يومَ القيامةِ. لكان منهم ما لا يدخلُ تحت الوصفِ من الندمِ والحسرةِ، فحُذِفَ الجوابُ؛ لأنَّ (لو) إذا جاءَ فيما يُشَوِّقُ إليه أو يُخَوِّفُ منه قلَّما يوصلُ بجوابٍ؛ ليذهبَ القلبُ فيه كلَّ مَذهبٍ، و(لو): يليها الماضي، وكذا (إذ) وَضْعُها لتدلَّ على الماضي، وإنما دخلتا على المستقبل هنا؛ لأن إخبارَ الله تعالى عن المستقبلِ باعتبار صدقِه كالماضي.

《١٦٦》 ﴿إِذْ تَبَرَّأَ﴾: مدغمةُ الذالِ في التاءِ حيث وقعت: عراقيٌّ غيرَ عاصم[1]، وهو بدلٌ من ﴿إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾، ﴿ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟﴾ أي: المتبوعون، وهم الرؤساءُ، ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾: من الأتباع، ﴿وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾: الواوُ: للحال؛ أي: تبرؤوا في حال رؤيتهم العذابَ، ﴿وَتَقَطَّعَتْ﴾: عطفٌ على (تبرأ)، ﴿بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾: الوُصَلُ التي كانت بينهم من الاتفاق على دين واحدٍ، ومن الأنسابِ والمحابِّ.

《١٦٧》 ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾ أي: الأتباعُ: ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾: رجعةً إلى الدنيا ﴿فَنَتَبَرَّأَ﴾: نصبٌ على جواب التمني؛ لأن (لو) في معنى التمني، والمعنى: ليت لنا كَرَّةً فنتبرأَ ﴿مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا﴾ الآن، ﴿كَذَٰلِكَ﴾: مثلَ ذلك الإراءِ الفظيعِ ﴿يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: عبادتَهم الأوثانَ ﴿حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ﴾: نداماتٍ، وهي مفعولٌ ثالثٌ لـ (يريهم)، ومعناه: أن أعمالهم تنقلب حسراتٍ عليهم فلا يَرون إلا حسراتٍ مكانَ أعمالِهم، ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ بل هم فيها دائمون.

《١٦٨》 ونزلَ فيمن حرَّموا على أنفسهم البَحائرَ ونحوَها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟﴾: أمرُ إباحةٍ ﴿مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: (من): للتبعيضِ؛ لأن كل ما في الأرض ليس بمأكولٍ ﴿حَلَٰلًا﴾: مفعولُ (كلوا)، أو: حالٌ من (ما في الأرض)، ﴿طَيِّبًا﴾: طاهراً من كل شُبهة، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾: طُرُقَه التي يدعوكم إليها، وبسكون الطاءِ: أبو عمرو غيرَ عباسٍ، ونافعٌ، وحمزةُ، وأبو بكر[2]، والخُطوةُ في الأصل: ما بين قدمَي الخاطي؛ يقال: اتبع خُطُواتِه: إذا اقتدى به

---

(١) انظر المرجع السابق (ص٤٤).

(٢) انظر المرجع السابق (ص٤٣).

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوٓءِ وَالْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ....

واستنَّ بِسُنَّتِه، ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾﴾: ظاهرُ العداوةِ لا خفاءَ به، وأبانَ: متعدٍّ ولازمٌ، ولا يناقضُ هذه الآيةَ قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ أي: الشيطانُ؛ لأنه عدوٌّ للناس حقيقةً، ووليُّهم ظاهراً؛ فإنَّه يُريهم في الظاهر الموالاةَ، ويزينُ لهم أعمالَهم، ويريدُ بذلك هلاكَهم في الباطن.

«١٦٩» ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم﴾: بيانٌ لِوجوبِ الانتهاءِ عن اتباعِه، وظهورِ عداوتِه؛ أي: لا يأمرُكم بخيرٍ قَطُّ، إنما يأمركم ﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾: بالقبيح، ﴿وَٱلْفَحْشَآءِ﴾: وما يتجاوزُ الحدَّ في القُبحِ من العظائم، وقيل: السوءُ ما لا حدَّ فيه، والفحشاءُ: ما فيه حدٌّ، ﴿وَأَن تَقُولُوا۟﴾: في موضع الجرِّ بالعطفِ على (بالسوء) أي: وبأن تقولوا ﴿عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ هو: قولُكم: هذا حلالٌ وهذا حرامٌ بغير علم، ويدخل فيه: كلُّ ما يضاف إلى الله تعالى مما لا يجوز عليه.

«١٧٠» ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ الضميرُ: للناس، وعُدِلَ بالخطاب عنهم على طريق الالتفاتِ، قيل: هم المشركون، وقيل: هم طائفةٌ من اليهود، لما دعاهم رسولُ الله ﷺ إلى الإيمانِ واتباعِ القرآن ﴿قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا﴾: وجدنا ﴿عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾؛ فإنهم كانوا خيراً منا وأعلَمَ، فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ الواو: للحال، والهمزةُ: بمعنى الردِّ والتعجيبِ، معناه: أيتبعونهم ولو كان آباؤهم ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا﴾ من الدينِ، ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ للصواب.

«١٧١» ثم ضرب لهم مثلاً فقال: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ المضافُ محذوفٌ؛ أي: ومثلُ داعِي الذين كفروا ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ﴾: يصيحُ، والمرادُ ﴿بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾: البهائمُ، والمعنى: ومثلُ داعيهم إلى الإيمان في أنهم لا يسمعون من الدعاء إلا جَرْسَ النَّغمةِ[1]، ودَوِيَّ الصوتِ، من غيرِ إلقاءِ أذهانٍ، ولا استبصارٍ كمثل الناعقِ بالبهائمِ التي لا تسمعُ إلا دعاءَ الناعقِ ونداءَه الذي هو تصويتٌ بها، وزجرٌ لها، ولا تَفْقَهُ شيئاً آخرَ كما يفهمُ العقلاءُ، والنعيقُ: التصويتُ؛ يقال: نَعَقَ المؤذنُ، ونعقَ الراعي بالضأنِ، والنداءُ: ما يُسمَعُ، والدعاءُ قد يُسمَع وقد

(١) الجَرْسُ: الصوتُ الخفيُّ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٧٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٤﴾ ...

لا يُسمَعُ، ﴿صُمُّۢ﴾: خبرُ مبتدأٍ مضمرٍ؛ أي: هم صمٌّ، ﴿بُكۡمٌ﴾: خبرٌ ثانٍ، ﴿عُمۡيٞ﴾ عن الحقِّ، خبرٌ ثالثٌ، ﴿فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٧١﴾ الموعظةَ.

«١٧٢» ثم بين أن ما حرَّمه المشركون حلالٌ بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾: من مُسْتَلَذَّاتِه، أو: من حلالاتِه، ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ﴾ الذي رَزَقَكُموها ﴿إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢﴾: إن صحَّ أنكم تختصُّونه بالعبادةِ، وتُقِرُّون أنه مُولي النعمِ.

«١٧٣» ثم بيَّنَ المحرَّمَ فقال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ﴾: وهي كلُّ ما فارقَهُ الرُّوحُ من غير ذكاةٍ مما يذبح، و(إنما): لإثباتِ المذكورِ ونفْيِ ما عداه؛ أي: ما حرم عليكم إلا الميتةَ، ﴿وَٱلدَّمَ﴾؛ يعني: السائلَ؛ لقولِه في موضعٍ آخرَ: ﴿أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا﴾ [الأنعام: ١٤٥]، وقد حَلَّتِ الميتانِ والدَّمانِ بالحديثِ[١]، ﴿وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ﴾ يعني: الخنزيرَ بجميعِ أجزائِه، وخَصَّ اللحمَ؛ لأنه المقصودُ بالأكل، ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ﴾ أي: ذبحَ للأصنامِ، فَذُكِرَ عليه غيرُ اسمِ الله، وأصلُ الإهلالِ: رفعُ الصوتِ؛ أي: رُفِعَ به الصوتُ للصنمِ، وذلك قولُ أهلِ الجاهلية: باسم اللات والعُزَّى، ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ﴾ أي: أُلْجِئَ، بكسرِ النونِ: بصريٌّ، وحمزةُ، وعاصمٌ؛ لالتقاء الساكنين؛ أعني: النونَ والضاد، وبضمِّهَا: غيرُهم؛ لضمةِ الطاءِ[٢]، ﴿غَيۡرَ﴾: حالٌ؛ أي: فأكلَ غيرَ ﴿بَاغٖ﴾ للذةٍ وشهوةٍ؛ ﴿وَلَا عَادٖ﴾: متعدٍّ مقدارَ الحاجةِ، وقولُ مَن قال: غيرَ باغٍ على الإمام، ولا عادٍ في سفرٍ حرام.. ضعيفٌ؛ لأن سفرَ الطاعةِ لا يبيحُ بلا ضرورةٍ، والحبسُ بالحضرِ يبيحُ بلا سفرٍ؛ ولأن بِبَغْيِهِ لا يُخرجُ عن الإيمانِ، فلا يستحقُّ الحِرمانَ.

ثم المضطرُّ يباح له قدرُ ما يقعُ به القِوامُ وتبقى معه الحياةُ دون ما فيه حصولُ الشِّبَعِ؛ لأن الإباحة للاضطرار، فتُقَدَّرُ بقَدَرِ ما تندفع الضرورة، ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ﴾ في الأكل؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ﴾ للذنوب الكبارِ، فأنَّى يُؤاخِذُ بتناول الميتةِ عند الاضطرار؟ ﴿رَّحِيمٌ ١٧٣﴾ حيثُ رَخَّصَ.

«١٧٤» ونزل في رؤساء اليهودِ وتغييرِهم نعتَ النبيِّ عليه السلام، وأخذِهم على ذلك الرِّشا:

---

(١) عن سيدنا ابن عمر رضي الله عنه أن سيدنا رسول الله ﷺ قال: «أحلت لكم ميتتان ودمان، فأما الميتتان.. فالحوت والجراد، وأما الدمان.. فالكبد والطحال» رواه ابن ماجه (٣٣١٤).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٤٤).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ۝١٧٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ۝١٧٦﴾ ....

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ في صفة محمدٍ عليه السلام، ﴿وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾ أي: عِوضاً، أو: ذا ثمنٍ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ﴾: مِلءَ بطونهم، تقول: أكلَ فلانٌ في بطنه، وأكلَ في بعضِ بطنِه، ﴿إِلَّا ٱلنَّارَ﴾؛ لأنه إذا أكلَ ما يَتَلَبَّسُ بالنار لكونها عقوبةً عليه.. فكأنه أكلَ النارَ، ومنه قولُهم: أكلَ فلانٌ الدمَ: إذا أكلَ الديةَ التي هي بدلٌ منه، قال[1]: [من: الرجز]

.... يـأكـلـن كـلَّ لـيـلـةٍ إكـافـا

أي: ثمنَ الإكافِ، فسمّاه إكافاً؛ لتَلَبُّسه به بكونه ثمناً له، ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ كلاماً يَسُرُّهم، ولكن بنحو قولِه: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمۡ﴾: ولا يطهرُهم من دَنَسِ ذُنوبهم، أو: لا يُثْنِي عليهم، ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٧٤﴾: مُؤْلِم، فحرفُ النفيِ مع الفعلِ: خبرُ (أولئك)، و(أولئك) مع الخبر: خبرُ (إن)، والجملُ الثلاثُ: معطوفةٌ على خبرِ (إن)، فقد صارَ لـ(إن) أربعةُ أخبارٍ من الجُمل.

《١٧٥》 ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾: بكتمانِ نعتِ محمدٍ عليه السلام، ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ۝١٧٥﴾: فأيُّ شيءٍ صَبَّرَهم على عملٍ يؤدي إلى النار؟ وهذا استفهامٌ معناهُ: التوبيخُ[2].

《١٧٦》 ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ﴾ أي: ذلك العذابُ بسببِ أن الله نزلَ ما نزلَ من الكُتُبِ بالحقِّ، ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ﴾ أي: أهلَ الكتابِ ﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾: هو للجنس؛ أي: في كُتُبِ الله فقالوا في بعضِها: حقٌّ، وفي بعضِها: باطلٌ ﴿لَفِي شِقَاقِۭ﴾: خلافٍ ﴿بَعِيدٖ﴾ عن الحقِّ؛ أو: كُفْرُهم ذلك بسببِ أن الله نزلَ القرآنَ بالحقِّ كما يعلمون، وإن الذين اختلفوا فيه لفي شقاقٍ بعيدٍ عن الهدى.

---

(١) قبل هذا الشطر:

إن لـنـا أحـمـرة عـجـافـا

أحمرة: جمعُ حمار، **والعجاف**: جمعُ أعجفَ على غير القياس، وهو الهزيل، **والإكاف**: ما يوضع على الحمار ليجاس عليه الراكب، والمعنى: أن هذه الحمر تأكل علفاً بثمن إكاف. انظر «الإكليل» (١/ ٢٤).

(٢) وقيل: (ما أصبرَهم): صيغةُ تعجب، والمراد: التعجيبُ من حالهم الهائلة التي هي ملابستُهم لما يؤدي إلى النارِ قطعاً كأنه عينُها. انظر «تفسير أبي السعود» (١/ ١٩٢).

﴿لَيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾

《١٧٧》 ﴿ليسَ البرُّ أن تُولُّوا﴾ أي: ليس البرُّ توليتَكم[١] ﴿وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾، والخطابُ لأهل الكتاب؛ لأن قبلةَ النصارى مشرِقُ بيتِ المقدسِ، وقبلةَ اليهود مغربُه، وكلُّ واحدٍ من الفريقين يزعُم أن البرَّ التوجهُ إلى قبلته، فردَّ عليهم بأن البرَّ ليس فيما أنتم عليه؛ فإنه منسوخ، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ﴾ بِرُّ ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾، أو: ذا البرِّ مَن آمن، والقولان على حذف المضافِ، والأولُ أجودُ[٢]، والبرُّ: اسمٌ للخيرِ، ولكلِّ فعلٍ مَرْضِيٍّ، وقيل: كثرَ خوضُ المسلمين وأهلِ الكتاب في أمرِ القبلةِ، فقيل: ليس البرُّ العظيمُ الذي يجب أن تذهلُوا بشأنه عن سائرِ صنوفِ البرِّ أمرَ القبلةِ، ولكن البرَّ الذي يجبُ الاهتمامُ به برُّ مَن آمن وقامَ بهذه الأعمالِ[٣].

﴿لَيْسَ ٱلْبِرَّ﴾: بالنصبِ على أنه خبرُ (ليس)، واسمه: ﴿أَن تُوَلُّوا۟﴾: حمزةُ، وحفصٌ[٤]، ﴿ولكنِ البرُّ﴾: نافعٌ، وشاميٌّ، وعن المبرد: لو كنتُ ممن يقرأُ القرآنَ.. لقرأتُ: ولكن البَرَّ[٥]، وقرئَ: ﴿ولكن البارَّ﴾[٦].

﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أي: يوم البعثِ، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: جنسِ كتبِ الله، أو: القرآنِ، ﴿وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ أي: على حبِّ الله، أو: حبِّ المالِ، أو: حبِّ الإيتاءِ؛ يريد: أن يعطيَه وهو طيبُ النفسِ بإعطائه، ﴿ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: القرابةِ، وقدَّمَهم؛ لأنهم أحقُّ؛ قال

---

(١) يفسر قراءة رفع (البر) وسيأتي كلامه عن قراءة النصب بعدُ.

(٢) لأن التقدير يكون عند الحاجة إليه، والحاجةُ إلى التقدير تظهر عند الوصول إلى كلمة (مَن)، وإنما لزم التقدير في الآية؛ لأن البرَّ ليس هو عينَ مَنْ آمن، وإنما البرُّ العملُ الصالح ممن آمن. انظر «الإكليل» (٢/ ٢٦).

(٣) وهذا المعنى أولى من الأول؛ إذ لو كان قوله: (ليس البرَّ أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب) ردّاً على أهل الكتاب، وبيانَ أن قبلتهم منسوخة.. لقيل بعدها: ولكن البرَّ التوجهُ للكعبة.

(٤) انظر «البدور الزاهرة» (ص٤٤) وكذا القراءة الآتية.

(٥) أي: بفتح الباء فيكون صفة مشبهةً فيصح وقوع (من آمن) خبراً بلا تقدير، ولعل هذا القول لم يثبت عنه؛ ولو كان ثابتاً.. فهو خطأ منه؛ إذ يوهم أن القراءة تثبت بالاجتهاد، والقراءة إنما تثبت بالنقل عن النبي ﷺ، وأيضاً فالقراءة المتواترة بالكسر أفصحُ؛ لأن أول الآية: (ليس البرَّ) وهو مصدر، فلو فتح في (ولكن البر).. لفاتت المطابقة. انظر «فتوح الغيب» (٣/ ٢٠٥)، و«التحرير والتنوير» (٢/ ١٢٩).

(٦) انظر «الكشاف» (١/ ٢٤٣).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٨﴾ ....

عليه الصلاة والسلام: «صدقتك على المسكين صدقة، وعلى ذوي رحمك صدقةٌ وصلةٌ»[1]، ﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ والمرادُ: الفقراءُ من ذوي القربى واليتامَى، وإنما أَطْلَقَ لعدمِ الإلباس، ﴿وَٱلۡمَسَٰكِينَ﴾ المسكينُ: الدائمُ السكونِ إلى الناسِ؛ لأنه لا شيءَ له، كـ: السِّكِّير: للدائم السُّكْرِ[2]، ﴿وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾: المسافرَ المنقطعَ، وهو جنسٌ وإن كان مفرداً لفظاً، وجعلَ ابناً للسبيل؛ لملازمته له، أو: هو الضيفُ، ﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾: المستطعِمين، ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾: وفي معاونة المكاتَبين حتى يَفُكُّوا رقابَهم، أو: في فكِّ الأُسارى، ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: المكتوبةَ، ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾: المفروضةَ، قيل: هو تأكيد للأول، وقيل: المرادُ بالأول: نوافلُ الصدقاتِ والمبارِّ، ﴿وَٱلۡمُوفُونَ﴾: عطفٌ على (من آمن)، ﴿بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ﴾ اللهَ أو الناسَ، ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾: نصبٌ على المدحِ والاختصاصِ إظهاراً لفضلِ الصبرِ في الشدائدِ ومواطنِ القتالِ على سائرِ الأعمالِ، ﴿فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ﴾: الفقرِ والشدةِ، ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾: المرضِ والزَّمانَةِ، ﴿وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ﴾: وقتَ القتالِ، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ﴾ أي: أهلُ هذه الصفةِ هم الذين صدَقُوا في الدِّين، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ١٧٧﴾.

《١٧٨》 رويَ: أنه كان بين حَيَّيْنِ من أحياء العربِ دماءٌ في الجاهلية، وكان لأحدهما طَوْلٌ على الآخر، فأقسمُوا لنقتلنَّ الحرَّ منكم بالعبدِ، والذكرَ بالأنثى، والاثنين بالواحدِ، فتحاكمُوا إلى رسول الله ﷺ حين جاءَ اللهُ بالإسلامِ فنزل[3]:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ﴾ أي: فُرِضَ ﴿عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ﴾ وهو: عبارةٌ عن المساواةِ، وأصلُه: مِن قصَّ أثرَه واقتصَّه: إذا اتَّبعه، ومنه القاصُّ؛ لأنه يَتَّبِعُ الآثارَ والأخبارَ، ﴿فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ﴾: جمعُ: قتيلٍ؛ والمعنى: فُرِضَ عليكم اعتبارُ المماثلةِ والمساواةِ بين القتلى، ﴿ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ﴾: مبتدأٌ وخبرٌ؛ أي: الحرُّ مأخوذٌ، أو مقتولٌ بالحرِّ، ﴿وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ﴾، وقال الشافعي رحمه الله:

---

(١) رواه الترمذي (٦٥٨)، والنسائي في «المجتبى» (٥/ ٩٢)، وابن ماجه (١٨٤٤) عن سيدنا سلمان بن عامر رضي الله عنه.

(٢) في «الكشاف» (١/ ٢٤٤): (كالمسكير)، وهو المناسب للمسكين.

(٣) روى نحوه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢٩٣).

لا يقتل الحرُّ بالعبدِ؛ لهذا النصِّ[1]، وعندنا: يجري القصاصُ بين الحرِّ والعبدِ بقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ﴾ [المائدة: ٤٥]، كما بين الذكر والأنثى، وبقوله عليه السلام: «المسلمون تتكافأ دماؤهم»[2]، وبأن التفاضلَ غيرُ معتبرٍ في الأنفس؛ بدليل: أن جماعة لو قَتَلُوا واحداً.. قُتِلُوا به، وبأن تخصيص الحكمِ بنوعٍ لا ينفيه عن نوعٍ آخرَ، بل يَبقَى الحكمُ فيه موقوفاً على ورودِ دليلٍ آخرَ، وقد ورد كما بيَّنَّا.

﴿فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾ قالوا: العفوُ: ضدُّ العقوبةِ، يقال: عفوت عن فلان: إذا صفحتَ عنه، وأعرضتَ عن أن تعاقبه، وهو يُعدَّى بـ: عن إلى الجاني، وإلى الجناية: ﴿ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم﴾، ﴿وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى: ٢٥]، وإذا اجتمعا.. عُدِّيَ إلى الأول باللام، فتقول: عفوت له عن ذنبه، ومنه الحديث: «عفوت لكم عن صدقه الخيل والرقيق»[3]، وقال الزجاج: (مَن عُفيَ له) أي: مَن تُرك له القتلُ بالديةِ[4]، وقال الأزهري: العفوُ في اللغة: الفضلُ[5]، ومنه: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ﴾، ويقال: عفوتُ لفلان بمالٍ: إذا أفضلتَ له وأعطيته، وعفوتُ له عمّا لي عليه: إذا تركتَه، ومعنى الآية عند الجمهور: فمن عُفيَ له من جهة أخيه شيءٌ من العفو، على أن الفعل مسندٌ إلى المصدرِ، كما في: سِيرَ بزيدٍ بعضُ السَّيرِ، والأخُ وليُّ المقتولِ، وذُكِر بلفظ الأُخُوَّةِ؛ بعثاً له على العطف؛ لما بينهما من الجنسيةِ والإسلامِ، و(مَن) هو: القاتلُ المعفوُّ له عمّا جَنَى، وتُرِكَ المفعولُ الآخرُ استغناءً عنه، وقيل: أقيم (له) مُقامَ: عنه. والضميرُ في (له) و(أخيه): لـ(مَن)، وفي: (إليه): للأخِ، أو للمُتَّبِعِ الدالِّ عليه: (فاتباع)؛ لأن المعنى: فليتَّبِعِ الطالبُ القاتلَ بالمعروف؛ بأن يطالبَه مطالبةً جميلةً، وليؤدِّ إليه المطلوبُ؛ أي: القاتلُ بدلَ الدمِ أداءً بإحسانٍ؛ بألّا يَمْطُلَهُ ولا يَبْخَسَهُ، وإنما قيل: شيءٌ من العفوِ؛ ليعلمَ أنه إذا عُفِيَ عن بعض الدم، أو عفا عنه بعض الورثة.. تَمَّ العفوُ، وسقطَ القصاصُ، ومن فَسَّرَ (عُفيَ) بـ: تُرِكَ.. جَعلَ (شيء) مفعولاً به[6]، وكذا من فسَّره

---

(١) «الأم» للشافعي (٦/ ٢٦).

(٢) رواه أبو داود (٢٧٥١)، وابن ماجه (٢٦٨٥) عن سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، والنسائي في «المجتبى» (٨/ ٢٤) عن سيدنا علي رضي الله عنه.

(٣) رواه ابن ماجه (١٧٩٠) عن سيدنا علي رضي الله عنه.

(٤) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (١/ ٢٤٨).

(٥) «تهذيب اللغة» (٣/ ١٤٥).

(٦) يريدُ أن أصله مفعول به، ولكن لما بني (عفي) لما لم يسم فاعله.. ارتفع (شيء) على أنه نائب فاعل.

﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝١٧٩ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ۝١٨٠﴾ ....

بـ: أعطى؛ يعني: أن الولي إذا أُعطيَ له شيءٌ من مال أخيه؛ يعني: القاتلَ بطريق الصلحِ.. فليأخذْه بمعروفٍ من غير تعنيفٍ، ولْيؤدِّهِ القاتلُ إليه بلا تسويفٍ، وارتفاعُ (اتباع): بأنه خبرُ مبتدأٍ مضمرٍ؛ أي: فالواجبُ اتباعٌ، ﴿ذَٰلِكَ﴾ الحكمُ المذكورُ مِن العفوِ، وأخذِ الديةِ: ﴿تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾؛ فإنه كان في التوراة: القتلُ لا غيرُ، وفي الإنجيلِ: العفوُ بغير بدلٍ لا غيرُ، وأبيحَ لنا القصاصُ والعفوُ وأخذُ المالِ بطريقِ الصلحِ توسعةً وتيسيراً.

والآيةُ تدلُّ: على أن صاحب الكبيرة مؤمنٌ؛ للوصف بالإيمان بعد وجود القتلِ؛ ولبقاء الأُخُوَّةِ الثابتةِ بالإيمان، ولِاستحقاقِ التخفيفِ والرحمة.

﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ التخفيفِ فتجاوزَ ما شُرعَ له من قتلِ غيرِ القاتلِ، أو القتلِ بعدَ أخذِ الديةِ ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٧٨﴾: نوعٌ من العذاب شديدُ الألمِ في الآخرةِ.

《١٧٩》 ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾: كلامٌ فصيحٌ؛ لما فيه من الغرابةِ؛ إذِ القصاصُ قتلٌ وتفويتٌ للحياة، وقد جُعلَ ظرفاً للحياةِ، وفي تعريفِ القصاصِ وتنكيرِ الحياةِ بلاغةٌ بيِّنةٌ؛ لأن المعنى: ولكم في هذا الجنسِ من الحكم الذي هو القصاصُ حياةٌ عظيمةٌ؛ لمنعِه عمّا كانُوا عليه مِن قتلِ الجماعةِ بواحدٍ متى اقتدرُوا، فكان القصاصُ حياةً وأيَّ حياةٍ، أو: نوعٌ من الحياةِ، وهي الحياةُ الحاصلةُ بالارتداعِ عن القتلِ؛ لوقوع العلمِ بالقصاصِ من القاتلِ؛ لأنه إذا هَمَّ بالقتلِ فتذكرَ الاقتصاصَ.. ارتدعَ فَسلِمَ صاحبُه من القتل، وهو من القَوَدِ، فكان شرعُ القصاصِ سببَ حياةِ نفسَين، ﴿يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾: يا ذوي العقولِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝١٧٩﴾ القتلَ؛ حذراً من القصاصِ.

《١٨٠》 ﴿كُتِبَ﴾: فرضَ ﴿عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ أي: إذا دنا منه وظهرت أمارته ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾: مالاً كثيراً، لما روي عن علي رضي الله عنه: أن مولىً له أراد أن يوصي وله سبعُ مئةٍ، فمنعه وقال: قال الله تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾، والخيرُ هو المالُ، وليس لك مال[1]، وفاعلُ (كُتب): ﴿ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾[2]، وكانت الوصية للوارث في بَدْءِ الإسلامِ، فنسخت بآية المواريثِ كما بيناه في «شرح المنار»[3]، وقيل: هي غيرُ منسوخةٍ؛ لأنها نزلت

(١) رواه عبد الرزاق الصنعاني في «المصنف» (٩/ ٦٢) ولفظه: وليس لك كثيرُ مالٍ.
(٢) أي: نائب فاعله.
(٣) «كشف الأسرار» (٢/ ١٥١).

﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ ....

في حقِّ من ليس بوارث بسبب الكفرِ؛ لأنهم كانوا حديثي عهدٍ بالإسلام، يسلمُ الرجلُ ولا يسلمْ أبواه وقرابته، والإسلامُ قطعَ الإرثَ فشُرعت الوصيةُ فيما بينهم قضاءً لحقِّ القرابةِ ندباً، وعلى هذا: لا يُرادُ بـ (كُتب): فُرِضَ، ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: بالعدل، وهو ألا يوصيَ للغنيِّ ويدعَ الفقيرَ، ولا يتجاوزَ الثلثَ، ﴿حَقًّا﴾: مصدرٌ مؤكِّدٌ؛ أي: حقَّ ذلك حقاً ﴿عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾﴾: على الذين يتقون الشركَ.

«١٨١» ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ﴾: فمَن غيَّرَ الإيصاءَ عن وجهه إن كان موافقاً للشرع من الأوصياء والشهودِ ﴿بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ﴾ أي: الإيصاءَ ﴿فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾: فما إثمُ التبديلِ إلا على مُبَدِّلِيه دون غيرهم مِن الموصِي والموصَى له؛ لأنهما بريئان من الحَيف؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لقول الموصِي ﴿عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾﴾ بجَوْرِ المُبَدِّلِ.

«١٨٢» ﴿فَمَنْ خَافَ﴾: علمَ، وهذا شائعٌ في كلامِهم، يقولون: أخافُ أن تُرسلَ السماءُ، يريدون الظنَّ الغالبَ الجاريَ مَجرى العِلْم، ﴿مِن مُّوصٍ﴾: ﴿مُوَصٍّ﴾: كوفيٌّ غيرَ حفصٍ[1]، ﴿جَنَفًا﴾: ميلاً عن الحق بالخطإِ في الوصيةِ، ﴿أَوْ إِثْمًا﴾: تَعَمُّداً للحَيفِ ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾: بين الموصَى لهم، وهم الوالدانِ والأقربون بإجرائِهم على طريقِ الشرع ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ حينئذٍ؛ لأن تبديلَه تبديلُ باطلٍ إلى حقٍّ، ذكرَ من يبدلُ بالباطل، ثم مَن يبدلُ بالحق؛ ليُعلم أن كلَّ تبديلٍ لا يُؤْثِمُ، وقيل: هذا في حال حياة الموصِي؛ أي: فمن حضرَ وصيتَه فرآه على خلاف الشرعِ فنهاه عن ذلك وحمَلَه على الصلاح.. فلا إثمَ على هذا الموصِي بما قال أوّلاً، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

«١٨٣» ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ﴾ أي: فُرض ﴿عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ هو: مصدرُ: صام، والمراد: صيامُ شهرِ رمضانَ، ﴿كَمَا كُتِبَ﴾ أي: كتابةً مثلَ ما كُتب، فهو صفةُ مصدرٍ محذوفٍ، ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾: على الأنبياء والأمم من لَدُنْ آدمَ عليه السلام إلى عهدكم، فهو عبادة قديمةٌ، والتشبيهُ باعتبار أن كل واحدٍ صومُ أيامٍ[2]؛ أي: أنتم متعبَّدون بالصيام في أيامٍ كما تُعُبِّدَ

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٤٥).
(٢) أي: كلّ واحد من الصومين.

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ ...﴾

مَن كان قبلَكم[(١)]، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ المعاصِيَ بالصيام؛ فالصائم أَظْلَفُ لنفسه[(٢)]، وأَرْدَعُ لها من مُواقعة السوء، أو: لعلكم تنتظمون في زُمرة المتقين؛ إذ الصومُ شعارُهم.

《١٨٤》 وانتصابُ ﴿أَيَّامًا﴾ بـ﴿ٱلصِّيَامُ﴾ أي: كتب عليكم أن تصوموا أياماً ﴿مَّعْدُودَٰتٍ﴾: مُوَقَّتاتٍ بعددٍ معلومٍ؛ أي: قلائلَ، وأصلُه: أن المال القليل يُقدر بالعددِ لا الكثيرَ، ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ يخافُ من الصوم زيادةَ المرض، ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾: أو راكبَ سفر[(٣)]، ﴿فَعِدَّةٌ﴾: فعليه عدةٌ؛ أي: فأفطر.. فعليه صيام عددِ أيامِ فِطرِه، والعِدَّةُ: بمعنى المعدودِ؛ أي: أُمِرَ أن يصوم أياماً معدودةً مكانَها ﴿مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ سِوَى أيامِ مرضِه وسفرِه، و(أخر): لا ينصرفُ للوصفِ والعدلِ عن الألف واللامِ؛ لأن الأصلَ في (فُعْلَى) صفةً: أن تُستعملَ في الجمع بالألف واللامِ، كـ: الكُبْرَى والكُبَرِ، والصُّغْرَى والصُّغَر.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾: وعلى المطيقين للصيام الذين لا عذرَ لهم إن أفطروا ﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾: نصفُ صاعٍ من بُرٍّ، أو صاعٌ من غيره، فـ(طعامُ): بدلٌ من (فدية)، ﴿فديةُ طعامِ مساكين﴾: مدنيٌّ، وابنُ ذَكوان[(٤)]، وكان ذلك في بَدءِ الإسلام، فُرِضَ عليهم الصومُ ولم يتعودُوه فاشتدَّ عليهم فرُخصَ لهم في الإفطار والفديةِ، ثم نُسخ التخييرُ بقوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾؛ ولهذا كُرِّرَ قولُه: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾؛ لأنه لما كان مذكوراً مع المنسوخِ ذُكرَ مع الناسخ؛ لِيَدُلَّ على بقاءِ هذا الحكمِ، وقيل: معناه: لا يطيقونه، فأضمرَ: لا؛ لقراءةِ حفصةَ كذلك[(٥)]، وعلى هذا لا يكون منسوخاً، ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾: فزادَ على مقدارِ الفديةِ

---

(١) أي: فالتشبيه ليس معناه الاتفاقَ بين صيامنا وصيامهم من جميع الوجوه، بل في أصل الصوم، فاختلاف الصومين في بعض الأحكام وعدد الأيام لا يفسدُ التشبيه.

(٢) ظَلَفَ نفسَه عن الشيء يَظْلِفها ظَلْفاً: مَنَعَها من أن تفعله أو تأتيه.

(٣) يشير أن (على) فيها استعارة؛ حيث شبه تلبس الصائم بالسفر باستعلاء الراكب على المركوب. انظر «الإكليل» (٤٩/١).

(٤) انظر «البدور الزاهرة» (ص٤٥).

(٥) قراءة شاذة، نقلها الماوردي في «تفسيره» (٢٣٨/١) عن سيدنا ابن عباس، ومجاهد رضي الله عنهما.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ ....

﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾: فالتطوعُ، أو: الخيرُ خيرٌ له[(١)]، ﴿يَطَّوَّعْ﴾ بمعنى: يَتَطَوَّعْ: حمزةُ، وعليٌّ[(٢)]، ﴿وَأَن تَصُومُوا۟﴾ أيُّها المطيقون ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مِن الفديةِ وتَطَوُّعِ الخيرِ، وهذا في الابتداءِ، وقيل: وأن تصوموا في السفر والمرضِ خيرٌ لكم؛ لأنَّه أشقُّ عليكم، ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾ شرطٌ محذوفُ الجوابِ[(٣)].

《١٨٥》 ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾: مبتدأٌ، خبرُه: ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ أي: ابتُدِئَ فيه إنزالُه، وكان ذلك في ليلةِ القدرِ، أو: أُنزلَ في شأنِه القرآنُ، وهو قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾[(٤)]، أو: هو بدلٌ من الصيام، أو: خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ؛ أي: هي شهرُ[(٥)]، والرَّمَضانُ مصدرُ: رَمِضَ: إذا احترقَ؛ من الرمضاءِ فأضيفَ إليه الشهرُ، وجُعِلَ عَلَماً، ومُنِعَ الصرف للتعريفِ والألفِ والنونِ، وسمَّوه بذلك؛ لارتِماضِهم فيه مِن حرِّ الجوعِ، ومُقاساةِ شدتِه؛ ولأنهم سمَّوا الشهورَ بالأزمنة التي وقعت فيها، فوافقَ هذا الشهرُ أيامَ رَمَضِ الحرِّ.

فإن قلت: ما وجهُ ما جاء في الحديث: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً...»[(٦)]؛ مع أن التسمية واقعةٌ مع المضافِ والمضافِ إليه جميعاً؟

---

(١) أي: أن الضمير (هو) إما أن يعود على المصدر المفهوم من (تطوع) فالتقدير: فالتطوعُ خير له، أو يعود على (خيراً) والتقدير: فالخير خير له؛ والمعنى: فالخيرُ الذي تطوعَه أَزْيَدُ له في الخير. انظر «الإكليل» (٢/ ٥٠).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٤٣).

(٣) أي: فالصومُ خيرٌ لكم.

(٤) في «السنن الكبرى» للنسائي (٧٩٣٧) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنه قال: فُصِلَ القرآنُ من الذكر فوضع في بيت العزة في السماء الدنيا، فجعل جبريل عليه السلام ينزل على النبي ﷺ يرتله ترتيلاً.
قال العلامة الدكتور نور الدين عتر: وقد تضافرت الأسانيد الصحيحة إلى ابن عباس تثبت قوله بنزول القرآن جملة واحدة إلى بيت العزة في السماء الدنيا ليلة القدر في رمضان، وبهذا قال أكثر العلماء. انظر «علوم القرآن الكريم» (ص٢٦).

(٥) الضمير هيَ: يعود على الأيام.

(٦) الحديث: «من صام رمضان، إيماناً واحتساباً.. غفر له ما تقدم من ذنبه» رواه البخاري (٣٨) ومسلم (٧٥٩) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

....

قلت: هو من باب الحذفِ لِأَمْنِ الإلباسِ.

﴿القران﴾: حيثُ كان غيرُ مهموزٍ: مكيٌّ[١]، وانتصب: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾: على الحال؛ أي: أنزلَ وهو هدايةٌ للناس إلى الحقِّ، وهو آياتٌ واضحاتٌ مكشوفاتٌ مما يهدي إلى الحقِّ، ويفرِّقُ بين الحق والباطلِ، ذَكَرَ أوّلاً أنه هدىً، ثم ذَكَرَ أنه من جملةِ ما هدَى به اللهُ، وفرَّقَ بين الحقِّ والباطلِ من وحيِه وكتبِه السماويّةِ الهاديةِ الفارقةِ بين الهدَى والضلالِ.

﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾: فمن كان شاهداً؛ أي: حاضراً مقيماً غيرَ مسافرٍ في الشهر.. فليصم فيه، ولا يفطرْ، و(الشهرَ): منصوبٌ على الظرف، وكذا الهاءُ في (ليصمه)، ولا يكون مفعولاً به؛ لأن المقيمَ والمسافرَ كلاهما شاهدان للشهر[٢].

﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ (فعدة): مبتدأٌ، والخبرُ محذوفٌ؛ أي: فعليه عدةٌ؛ أي: صومُ عدةٍ، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾ حيث أباحَ الفطرَ بالسفر والمرضِ، ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾، ومَن فرضَ الفطرَ على المريض والمسافرِ؛ حتى لو صاما تجبُ عليهما الإعادةُ.. فقد عدلَ عن مُوجبِ هذا النص[٣]، ﴿وَلِتُكْمِلُوا ٱلْعِدَّةَ﴾: عدةَ ما أفطرتم بالقضاء إذا زال المرضُ والسفرُ، والفعلُ المعلَّلُ محذوفٌ، مدلولٌ عليه بما سبق، تقديرُه: ولتكملوا العدةَ، ﴿وَلِتُكَبِّرُوا ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ شرعَ ذلك؛ يعني: جملةَ ما ذُكرَ من أمرِ الشاهدِ بصوم الشهرِ، وأمرِ المرخَّصِ له بمراعاةِ

عدةِ ما أفطرَ فيه، ومن الترخيصِ في إباحة الفطرِ، فقوله: (لتكملوا): علةُ الأمرِ بمراعاة العدةِ، و(لتكبروا): علةُ ما عُلِمَ من كيفية القضاءِ والخروجِ من عُهدةِ الفطرِ، و(لعلكم تشكرون):

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٤٥).

(٢) إذا فسر (شهد) بمعنى أدرك.. فـ(الشهر): مفعول به ويكون المسافر داخلاً في عموم (من شهد) فيحتاج إلى مخصِّص، وإذا فسر (شهد) بمعنى حضر وأقام.. فـ(الشهر) ظرف، والمعنى: من كان حاضراً مقيماً في الشهر.. فليصم فيه، وبذلك لا يدخل المسافر في عموم (من شهد) فلا يحتاج إلى مخصص، وهذا المعنى الثاني هو الذي يريده الإمام النسفي رحمه الله. انظر «الإكليل» (٢/ ٥٨).

(٣) هذا رأي بعض أصحاب داود الظاهري، ودليل صحة الصوم في السفر: ما رواه البخاري (١٩٤٣) ومسلم (١١٢١): أن حمزة بن عمرو الأسلمي قال للنبي ﷺ: أأصوم في السفر؟ وكان كثير الصيام، فقال: «إن شئت.. فصم، وإن شئت.. فأفطر». انظر «المجموع» للنووي (٦/ ٢٦٩).

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ ....

علةُ الترخيصِ، وهذا نوعٌ من اللفِّ لطيفِ المسلكِ، وعُدِّيَ التكبيرُ بـ (على)؛ لتضمنه معنى الحمدِ، كأنه قيل: لتكبروا الله؛ أي: لتعظموه حامدين على ما هداكم إليه، ﴿ولِتُكَمِّلُوا﴾: بالتشديدِ: أبو بكرٍ[١].

《١٨٦》 ولما قال أعرابيٌّ لرسول الله ﷺ: أقريبٌ ربُّنا فنناجيَه، أم بعيدٌ فنناديَه؟ نزلَ[٢]: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ علماً وإجابةً؛ لتعاليْه عن القرب مكاناً، ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ ﴿الداعي﴾ ﴿دعاني﴾ في الحالين: سهلٌ ويعقوبُ، ووافقهما أبو عمرو، ونافعٌ غيرَ قالونَ في الوصل، غيرُهم: بغير ياءٍ في الحالين[٣].

ثم إجابةُ الدعاءِ وعدُ صدقٍ مِن الله لا خُلْفَ فيه، غيرَ أن إجابةَ الدعوةِ تخالفُ قضاءَ الحاجةِ، فإجابةُ الدعوةِ: أن يقول العبد: يا ربِّ، فيقولَ الله: لبيك عبدي، وهذا أمر موعودٌ موجودٌ لكل مؤمن، وقضاءُ الحاجة: إعطاءُ المرادِ، وذا قد يكون ناجزاً، وقد يكون بعد مدةٍ، وقد يكون في الآخرة، وقد تكون الخِيَرَةُ له في غيره، ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ إذا دعوتُهم للإيمان والطاعةِ كما أني أجيبُهم إذا دعونَي لحوائجِهم، ﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ واللامُ فيهما: للأمر، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾: ليكونوا على رجاءٍ مِن إصابة الرُّشدِ، وهو: ضدُّ الغَيِّ.

《١٨٧》 كان الرجل إذا أمسى.. حلَّ له الأكلُ والشربُ والجماعُ إلى أن يصليَ العشاءَ الآخرةَ أو يرقدَ، فإذا صلاها أو رقدَ ولم يفطر.. حَرُمَ عليه الطعامُ والشرابُ والنساءُ إلى القابلةِ، ثم إن عمر رضي الله عنه واقعَ أهله بعد صلاة العشاء الآخرة، فلما اغتسل.. أخذ يبكي ويلومُ

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٤٦).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٣/ ٤٨٠).

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٤٦).

نفسه، فأتى النبي عليه السلام وأخبره بما فعل، فقال عليه السلام: «ما كنت جديراً بذلك»، فنزل[١]:

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ﴾ أي: الجماعُ، ﴿إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ﴾ عُدِّيَ بـ (إلى)؛ لتضمينه معنى الإفضاءِ، وإنما كُنِّيَ عنه بلفظ (الرفث) الدالِّ على معنى القبح، ولم يقل الإفضاءُ إلى نسائكم؛ استقباحاً لما وُجد منهم قبل الإباحةِ، كما سمّاه اختياناً لأنفسِهم، ولما كان الرجل والمرأة يعتنقان، ويشتملُ كل واحد منهما على صاحبه في عِناقه.. شُبه باللباسِ المشتملِ عليه بقوله: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ﴾، وقيل: (لباس) أي: سترٌ عن الحرامِ، (وهن لباس لكم): استئنافٌ كالبيان لسبب الإحلالِ، وهو أنه إذا كانت بينكم وبينهن مثلُ هذه المخالطةِ والملابسةِ.. قلَّ صبرُكم عنهن، وصَعُبَ عليكم اجتنابُهن؛ فلذا رُخِّصَ لكم في مباشرتهن.

﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾: تظلمونَها بالجماعِ، وتُنْقِصُونَها حظَّها من الخير، والاختيانُ من الخيانةِ، كالاكتسابِ من الكسبِ، فيه زيادةٌ وشدةٌ، ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ حين تُبتم مما ارتكبتم من المحظور، ﴿وَعَفَا عَنكُمْۖ﴾ ما فعلتم قبلَ الرخصة، ﴿فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ﴾: جامعوهن في ليالي الصومِ، وهو أمرُ إباحةٍ، وسُميت المجامعةُ مباشرةً؛ لالتصاق بشرتيهما، ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ﴾: واطلبوا ما قسمَ اللهُ لكم، وأثبتَ في اللوح من الولدِ بالمباشرةِ؛ أي: لا تباشروا لِقضاءِ الشهوةِ وحدَها، ولكن لابتغاء ما وضع اللهُ له النكاحَ من التناسلِ، أو: وابتغُوا المحلَّ الذي كتبَه الله لكم، وحلَّلَه، دون ما لم يكتب لكم من المحلِّ المحرمِ، ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ﴾ هو: أولُ ما يبدُو من الفجر المعترِضِ في الأفقِ كالخيطِ الممدودِ، ﴿مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ وهو: ما يمتدُّ من سواد الليل، شُبِّها بخيطَين أبيضَ وأسودَ؛ لامتدادِهما، ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِۖ﴾: بيانُ أن الخيط الأبيضَ من الفجرِ لا من غيرِه، واكتفى به عن بيان الخيط الأسودِ؛ لأن بيان أحدِهما بيانٌ للآخر، أو: (من): للتبعيضِ؛ لأنه بعضُ الفجرِ وأولُه.

وقوله: (من الفجر): أخرجَه من باب الاستعارةِ وصيرَه تشبيهاً بليغاً، كما أن قولك: رأيت أسداً مجازٌ، فاذا زِدْتَ: مِن فلانٍ.. رجعَ تشبيهاً[٢].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٣/ ٥٠٢).

(٢) لأن الاستعارة يحذف فيها أحدُ طرفي التشبيه: المشبه أو المشبه به، والتشبيه البليغ يذكر فيه الطرفان، وبذكر (من الفجر) يكون قد ذُكِرَ الطرفان، لأن كل واحد من الخيطين مشبه به، والفجر هو المشبه بالخيط الأبيض، والليل مشبه بالخيط الأسود، واكتفي بذكر الفجر عن الليل، فكان الليل مذكوراً دلالة. انظر «الإكليل» (٢/ ٧٠).

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١٨٨﴾ ....

وعن عديِّ بنِ حاتِمٍ قال: عَمَدْتُ إلى عِقالين أبيضَ وأسودَ فجعلتُهما تحت وسادتي فنظرت إليهما فلم يتبينْ لي الأبيضُ من الأسود، فأخبرتُ النبي عليه السلام بذلك فقال: «إنك لعريضُ القَفا» - أي: سليمُ القلبِ؛ لأنه مما يُستدلُّ به على بَلاهةِ الرجلِ وقلةِ فِطنتِه- «إنما ذلك بياض النهار وسواد الليل»[1]. وفي قوله: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ أي: الكفَّ عن هذه الأشياءِ.. دليلٌ على جواز النية بالنهار في صوم رمضان، وعلى جواز تأخير الغُسلِ إلى الفجر، وعلى نفي الوصالِ، وعلى وجوب الكفارةِ في الأكل والشربِ، وعلى أن الجنابة لا تُنافي الصوم[2].

﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾: معتكفون فيها، بيَّنَ أن الجماع يحلُّ في ليالي رمضانَ، لكن لِغَيرِ المعتكفِ، والجملةُ: في موضع الحالِ، وفيه دليلٌ على أن الاعتكاف لا يكون إلا في المسجدِ، وأنه لا يختصُّ به مسجدٌ دون مسجد[3]، ﴿تِلْكَ﴾ الأحكامُ التي ذُكِرَتْ ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾: أحكامُه المحدودةُ، ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ بالمخالفة والتغييرِ، ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾: شرائعَه ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝١٨٧﴾ المحارمَ.

«١٨٨» ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم﴾ أي: لا يأكلْ بعضُكم مالَ بعضٍ ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾: بالوجه الذي لم يُبِحْهُ اللهُ ولم يشرعْه، ﴿وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾: ولا تُدلُوا بها، فهو مجزومٌ داخلٌ

---

(١) رواه البخاري (٤٥١٠) ومسلم (١٠٩٠)، **والعقال**: خيطٌ.

(٢) أما جواز النية بالنهار في صوم رمضان.. فلأنه تعالى أباح الأفعال المذكورة إلى طلوع الفجر، ثم أمر بالصيام بعد طلوع الفجر بقوله: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ لأن (ثم): للتراخي، فإذا ابتدأ الصيام بعده.. حصلت النية بعد ما مضى جزء من النهار، وأما نفي الوصال-وهو متابعة الصوم يومين أو أكثر دون تناول شيء في الليل- فلأنه أمر بالصوم إلى الليل، فالليل ليس محلاً للصوم، فلذا يصير الصائم مفطراً عند الغروب وإن لم يتناول مفطراً، فلا يعتبر الصوم متصلاً، وأما وجوب الكفارةِ في الأكل والشربِ.. فلأن قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ لإباحة الأكل والشرب والجماع في الليل، ونسخ ما كان قبله من التحريم، وفيه إشارة إلى استواء الكل في التحريم؛ لأنه قال: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ﴾، فأفاد وجوب الكفِّ عن هذه الثلاثة بطريقٍ واحدٍ، فلم يكن للجماع اختصاص ولا مزية، وأما جواز تأخير الغُسلِ إلى الفجر، وأن الجنابة لا تنافي الصوم.. فلأن المباشرة لما كانت مباحة إلى آخر جزء من الليل.. فالاغتسال يكون بعد الفجر ضرورة، وإلا.. وجب أن تحرم المباشرة قبل آخر الليل بمقدار ما يسع للغسل. انظر «كشف الأسرار شرح أصول البزدوي» (٢/ ٢١٣)، و«روح المعاني» (١/ ٤٦٤).

(٣) استفيد الحكم الأول: من تقييد الاعتكاف بالمساجد، والثاني: من عموم لفظ المساجد. انظر «روح المعاني» (١/ ٤٦٥).

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾ ....

في حكمِ النهيِ؛ يعني: ولا تلقُوا أمرَها والحكومةَ فيها إلى الحكام؛ ﴿لِتَأْكُلُوا﴾ بالتحاكم ﴿فَرِيقًا﴾: طائفةً ﴿مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ﴾: بشهادةِ الزورِ، أو: باليمين الكاذبةِ، أو: بالصلح مع العلمِ بأن المقضيَّ له ظالمٌ، وقال عليه السلام للخصمين: «إنما أنا بشرٌ وأنتم تختصمون إليّ، ولعل بعضَكم ألحنُ بحجتِه من بعضٍ فأقضيَ له على نحو ما أسمعُ منه، فمن قضيتُ له بشيءٍ من حقِّ أخيه.. فلا يأخذَنَّ منه شيئاً؛ فإنَّما أقضي له قطعةً من نار»، فبكيا وقال كلٌّ واحدٍ منهما: حقِّي لصاحِبي[1]، وقيل: (وتدلوا بها): وتلقُوا بعضَها إلى حكام السوءِ على وجهِ الرِّشوةِ؛ يقال: أدْلَى دَلْوه؛ أي: ألقاه في البئر للاستسقاء، ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ أنكم على الباطلِ، وارتكابُ المعصيةِ مع العلمِ بقبحِها أقبحُ، وصاحبُه بالتوبيخ أحقُّ.

《١٨٩》 قال معاذ بن جبل: يا رسول الله ما بالُ الهلالِ يبدُو دقيقاً مثلَ الخيطِ ثم يزيدُ حتى يمتلئَ ويستويَ، ثم لا يزالُ ينقصُ حتى يعودَ كما بدأ، لا يكونُ على حالة واحدةٍ كالشمس؟ فنزل[2]:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ﴾: جمعُ هلالٍ، سُميَ به؛ لرفع الناس أصواتَهم عند رؤيته، ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ أي: معالمُ يوقِّتُ بها الناس مزارعَهم ومتاجرَهم ومحالَّ ديونِهم وصومَهم وفطرَهم وعدةَ نسائِهم وأيامَ حيضهن ومدةَ حملهن وغيرَ ذلك، ومعالمُ للحج يعرفُ بها وقتُه.

كان ناس من الأنصار إذا أحرمُوا.. لم يدخل أحدٌ منهم حائطاً ولا داراً ولا فُسطاطاً من باب، فإن كان من أهل المَدر.. نَقَبَ نَقْباً في ظهر بيته، منه يدخلُ ويخرجُ، وإن كان من أهل الوَبَر.. خرج من خلف الخِباءِ، فنزل[3]: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ أي: ليس

---

(١) رواه أبو داود (٣٥٨٤) عن سيدتنا أم سلمة رضي الله عنها، ونحوه في «البخاري» (٦٩٦٧)، و«مسلم» (١٧١٣).

(٢) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١/ ٢٥) من طريق الكلبي.

(٣) **الفسطاط**: بيتٌ من الشَّعْرِ، **والمدر**: الطِّين، **وأهل المدر**: من يسكنون في البيوت لا الخيام، **والخباء**: ما يصنع من الشعر أو نحوه.

في «البخاري» (١٨٠٣) و«مسلم» (٣٠٢٦) عن سيدنا البراء رضي الله عنه: «نزلت هذه الآية فينا، كانت الأنصار إذا حجوا فجاؤوا.. لم يدخلوا من قِبَلِ أبوابِ بيوتهم، ولكن من ظهورها، فجاء رجل من الأنصار، فدخل من قبل بابه، فكأنه عُيِّرَ بذلك، فنزلت».

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠﴾ ....

البرُّ بتحرُّجِكم من دخول البابِ، ولا خلافَ في رفع (البرُّ) هنا؛ لأن الآية ثمةَ تحتملُ الوجهين كما بيَّنا، فجاز الرفع والنصب ثمةَ[1]، وهذه لا تحتملُ إلا وجهاً واحداً وهو الرفع؛ إذِ الباءُ لا تدخلُ إلا على خبرِ: ليس[2]، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ﴾ برُّ ﴿مَنِ ٱتَّقَىٰۗ﴾ ما حرم الله، ﴿ٱلۡبُيُوتَ﴾ وبابُه: مدنيٌّ، وبصريٌّ، وحفصٌ[3]، وهو الأصل، مثل: كعبٍ وكعوبٍ، ومَن كسرَ الباءَ.. فلِمَكان الياءِ بعدَها، ولكن هيَ توجبُ الخروجَ من كسر إلى ضم.

وكأنه قيل لهم عند سؤالهم عن الأهلة وعن الحكمة في نُقصانها: معلومٌ أن كلَّ ما يفعلُه الله تعالى لا يكون إلا حكمةً؛ فدعُوا السؤالَ عنه وانظروا في واحدةٍ تفعلونها مما ليس من البر في شيءٍ وأنتم تحسَبونها بِرّاً، فهذا وجه اتصاله بما قبلَه.

ويحتمل أن يكون ذلك على طريق الاستطرادِ لمّا ذكرَ أنها مواقيت الحجِّ[4]؛ لأنه كان من أفعالهم في الحج، ويحتملُ أن يكون هذا تمثيلاً لتعكيسِهم في سؤالهم[5]، وإن مثلَهم فيه كمثل من يتركُ باب البيت ويدخلُ من ظهره؛ والمعنى: ليس البرُّ وما ينبغي أن تكونوا عليه بأن تعكِسُوا في مسائلكم، ولكن البرَّ برُّ من اتقى ذلك وتجنبَه ولم يَجْسُرْ على مثله.

﴿وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَاۚ﴾ أي: وباشرُوا الأمورَ من وجوهها التي يجبُ أن تُباشَرَ عليها، ولا تعكِسُوها، والمراد: وجوبُ الاعتقاد بأن جميع أفعاله تعالى حكمةٌ وصوابٌ من غير اختلاجِ شُبهة، ولا اعتراضِ شكٍّ في ذلك حتى لا يُسألَ عنه؛ لما في السؤال من الاتهام بمقارفةِ الشكِّ، لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فيما أمركم به، ونهاكم عنه؛ ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٨٩﴾: لتفوزوا بالنعيم السرمدِ.

«١٩٠» ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ المقاتلةُ في سبيل الله: الجهادُ لإعلاءِ كلمةِ الله وإعزازِ الدين، ﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾: يُناجزونكم القتالَ دون المُحاجزين، وعلى هذا يكون منسوخاً بقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]، وقيل: هي أول آية نزلت في القتال، فكان

(١) أي: في قوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾.
(٢) أي: أن الباء تزاد في خبر ليس، لا في اسمها.
(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص٤٧).
(٤) الاستطراد: أن يذكر عند سوق الكلام لغرض ما يكون له نوع تعلق به، ولا يكون السَّوق لأجله.
(٥) أي: أنهم تركوا السؤال عما لا يعرف إلا بأخذه عن النبي ﷺ، وسألوا عما يمكن معرفته دون الرجوع إلى النبي ﷺ. انظر «حاشية شيخ زاده على البيضاوي» (١/ ٤٩٩).

﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ ....

رسول الله ﷺ يقاتلُ من قاتلَ، ويكف عمن كف[1]، أو: الذين يناصبونكم القتال دون من ليس من أهل المناصَبةِ من الشيوخ والصبيانِ والرُّهبانِ والنساءِ[2]، أو: الكفرةَ كلَّهم؛ لأنهم قاصدون لمقاتلة المسلمين، فهم في حكم المقاتِلَةِ، ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾ في ابتداء القتال، أو: بقتال من نُهيتم عنه من النساء والشيوخ ونحوهما، أو: بالمُثلةِ؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾.

《١٩١》 ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾: وجدتموهم، والثَّقْفُ: وجودٌ على وجهِ الأخذِ والغَلَبةِ، ﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ أي: من مكةَ، وَعَدَهم الله تعالى فتحَ مكةَ بهذه الآيةِ، وقد فعل رسول الله ﷺ بمن لم يُسلم منهم يوم الفتح، ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ أي: شركُهم بالله أعظمُ من القتل الذي يحِلُّ بهم منكم، وقيل: الفتنةُ: عذابُ الآخرة، وقيل: المحنةُ والبلاءُ الذي ينزل بالإنسان فيعذبُ به أشدُّ عليه من القتل، وقيل لحكيم: ما أشدُّ من الموت؟ قال: الذي يُتَمَنَّى فيه الموتُ، فقد جعل الإخراجَ من الوطنِ من الفتن التي يُتَمَنَّى عندها الموتُ.

﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ أي: ولا تبدؤوا بقتالهم في الحرم حتى يبدؤوا، فـ(عند المسجدِ الحرام): يقع على الحرم كلِّه، ﴿فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ في الحرم، فعندنا: يُقتلون في الأشهر الحرم لا في الحرمِ، إلا أن يبدؤوا بالقتال معنا، فحينئذٍ نقتلُهم وإن كان ظاهرُ قولِه: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾: يبيحُ القتلَ في الأمكنة كلِّها، لكن لقوله: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ خُصَّ الحرمُ، إلا عند البَداءةِ منهم، كذا في «شرح التأويلات»[3]، ﴿كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾﴾: مبتدأٌ وخبرٌ، ﴿ولا تَقْتُلوهم﴾ ﴿حتى يَقْتُلوكم﴾ ﴿فإن قَتَلوكم﴾: حمزةُ، وعليٌّ[4].

《١٩٢》 ﴿فَإِنِ انتَهَوْا﴾ عن الشركِ والقتالِ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لما سلفَ من طُغيانِهم، ﴿رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾﴾ بقبول توبتِهم وإيمانِهم.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٣٢٥) عن أبي العالية.

(٢) الذين يناصبونكم: الذين لهم أهلية القتال.

(٣) «تأويلات أهل السنة» (١/ ١٤٣).

(٤) انظر «البدور الزاهرة» (ص٤٧).

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ ....

《١٩٣》 ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾: شركٌ، وكان: تامةٌ، و(حتى) بمعنى: كي، أو: إلى أن، ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ خالصاً، ليس للشيطان فيه نصيبٌ؛ أي: لا يُعبدُ دونَه شيءٌ، ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾: فإن امتنعوا عن الكفر.. فلا تقاتلوهم؛ فإنه لا عدوانَ إلا على الظالمين، ولم يبقَوا ظالمين، أو: فلا تظلموا إلا الظالمين غيرَ المُنتهين، سُميَ جزاءُ الظالمين ظلماً؛ للمشاكلةِ، كقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ﴾.

《١٩٤》 قاتلهم المشركون عامَ الحديبية في الشهر الحرام، وهو ذو القَعدة، فقيل لهم عند خروجهم لعمرة القضاء وكراهتم القتال وذلك في ذي القَعدة:

﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ﴾: مبتدأٌ، خبرُه: ﴿بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: هذا الشهرُ بذلك الشهرِ، وهَتكُه بهتكِه؛ يعني: تَهتِكون حُرمتَه عليهم، كما هتكُوا حُرمتَه عليكم، ﴿وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ﴾ أي: وكلُّ حُرمةٍ يجري فيها القصاصُ، مَن هَتَكَ حُرمةً، أيَّ حُرمةٍ كانت.. اقتُصَّ منه؛ بأن تُهتك له حرمةٌ، فحين هَتكوا حرمةَ شهركم.. فافعلوا بهم نحوَ ذلك، ولا تُبالُوا، وأكَّدَ ذلك بقوله: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ مَنْ: شرطيةٌ، والباء: غيرُ زائدةٍ، والتقديرُ: بعقوبة مماثلةٍ لعدوانهم، أو: زائدةٌ، وتقديره: عدواناً مثلَ عدوانهم، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في حال كونِكم منتصرين ممن اعتدى عليكم، فلا تعتدُوا إلى ما لا يَحِلُّ لكم، ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ بالنصرِ.

《١٩٥》 ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: تصدقوا في رضا الله، وهو عامٌّ في الجهاد وغيره، ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ أي: أنفسَكم، والباءُ: زائدةٌ، أو: ولا تقتلوا أنفسكم بأيديكم، كما يقال: أهلك فلانٌ نفسَه بيده: إذا تسبب لهلاكها؛ والمعنى: النهيُ عن ترك الإنفاق في سبيل الله؛ لأنه سبب الهلاك، أو: عن الإسراف في النفقة حتى يُفقِرَ نفسَه ويُضَيِّعَ عيالَه، أو: عن الإخطارِ بالنفسِ، أو: عن ترك الغزوِ الذي هو تقويةٌ للعدو، والتهلكةُ والهلاكُ والهُلْكُ: واحدٌ. ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟﴾ الظنَّ بالله في الإخلاف؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ إلى المحتاجين.

﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾﴾

《١٩٦》 ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾: وأدُّوهما تامَّين بشرائطهما وفرائضِهما لوجه الله تعالى بلا توانٍ ولا نقصانٍ، وقيل: الإتمامُ يكون بعد الشروع، فهو دليل على أن مَن شرع فيهما.. لزمه إتمامهما، وبه نقول: إن العمرة تلزم بالشروع، ولا تمسك للشافعي رحمه الله بالآية على لزوم العمرة[1]؛ لأنه أَمْرٌ بإتمامها، وقد يؤمرُ بإتمام الواجبِ والتطوعِ.

أو: إتمامُهما: أن تُحرم بهما من دُويرة أهلِك[2]، أو: أن تُفردَ لكلِّ واحدٍ منهما سفراً، أو: أن تُنفقَ فيهما حلالاً، أو: ألّا تتَّجرَ معهما، ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ يقال: أُحْصِرَ فلانٌ: إذا منعَه أمرٌ من خوفٍ، أو مرضٍ، أو عجزٍ، وحُصِرَ: إذا حبسه عدوٌّ عن المضيِّ، وعندنا: الإحصارُ يثبت بكلِّ منعٍ؛ من عدوٍّ، أو مرضٍ، أو غيرِهما؛ لظاهر النصِّ، وقد جاء في الحديث: «من كُسِرَ أو عَرِجَ.. فقد حلَّ وعليه الحجُّ من قابلٍ»[3]، وعند الشافعي رحمه الله: الإحصارُ بالعدوِّ وحدَه[4]، وظاهرُ النصِّ يدلُّ على أن الإحصار يتحققُ في العمرة أيضاً؛ لأنه ذُكر عقبَهما.

﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ﴾: فما تيسرَ منه، يقال: يَسُرَ الأمرُ واستيسرَ، كما يقال: صَعُبَ واستصعب، والهديُ: جمعُ هَدْيَةٍ؛ يعني: فإن مُنعتم من المضيِّ إلى البيت وأنتم محرمون بحجٍّ أو عمرةٍ.. فعليكم إذا أردتم التحلل ما استيسر من الهدي؛ من بعيرٍ أو بقرةٍ أو شاةٍ، و(ما): رفعٌ بالابتداءِ؛ أي: فعليكم ما استيسرَ، أو: نصبٌ؛ أي: فاهدُوا له ما استيسر.

﴿وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ﴾ الخطابُ للمحصَرين؛ أي: لا تَحِلُّوا بحلقِ الرأس حتى

---

(١) استدل الإمام الشافعي رحمه على أن العمرة فرض بهذه الآية وأدلة أخرى. انظر «الأم» (٢/ ١٤٤).

(٢) دويرة: تصغير دارٍ؛ للتلطف.

(٣) رواه أبو داود (١٨٦٢)، والترمذي (٩٤٠)، والنسائي في «المجتبى» (٥/ ١٩٨)، وابن ماجه (٣٠٧٧) عن سيدنا الحجاج بن عمرو رضي الله عنه.

(٤) عند الشافعية لا يتحلل بسبب المرض، بل يصبر حتى يبرأ، فان كان محرماً بعمرة.. أتمها، وإن كان بحجٍّ وفاته.. تحللَ بعمل عمرة وعليه القضاء، إلا إذا شرط في إحرامه أنه إذا مرض.. تحلل، فله التحلل بالمرض حينئذ، وحملوا الحديث السابق: «من كسر...» على ما إذا شرط التحلل به. انظر «المجموع» (٨/ ٣٠١).
ومعنى «فقد حلَّ»: جازَ له أن يَحِلَّ.

....

تعلموا أن الهديَ الذي بعثتموه إلى الحرم بلغَ مَحِلَّه؛ أي: مكانَه الذي يجب نحرُه فيه، وهو الحرم، وهو حجةٌ لنا في أن دم الإحصار لا يذبح إلا في الحرمِ على الشافعيِّ رحمه الله؛ إذْ عنده يجوزُ في غير الحرم[١].

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾: فمن كان منكم به مرضٌ يُحْوِجُهُ إلى الحلق، ﴿أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ﴾ وهو: القملُ أو الجراحةُ ﴿فَفِدْيَةٌ﴾: فعليه إذا احتلق فديةٌ ﴿مِّن صِيَامٍ﴾: ثلاثةُ أيام، ﴿أَوْ صَدَقَةٍ﴾ على ستة مساكين؛ لكل مسكين نصفُ صاعٍ من بُرٍّ، ﴿أَوْ نُسُكٍ﴾: شاةٌ، وهو مصدرٌ، أو: جمعُ نَسِيكَةٍ، ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾ الإحصارَ؛ أي: فإذا لم تُحصرُوا وكنتم في حال أمنٍ وسَعَةٍ ﴿فَمَن تَمَتَّعَ﴾: استمتعَ ﴿بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ﴾ واستمتاعُه بالعمرة إلى وقت الحج انتفاعُه بالتقرب بها إلى الله قبلَ انتفاعِه بالتقرب بالحج[٢]، وقيل: إذا حلَّ من عمرته.. انتفعَ باستباحةِ ما كان محرماً عليه إلى أن يُحرم بالحج، ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ هو: هَدْيُ المُتعةِ، وهو نسكٌ يؤكلُ منه ويذبحُ يومَ النحر، ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ الهديَ ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ﴾: فعليه صيامُ ثلاثةِ أيام في وقت الحجِّ، وهو أشهُرُه ما بين الإحرامين: إحرام العمرة، وإحرامِ الحج، ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾: إذا نَفَرْتُم وفرغتم من أفعال الحج، ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾: في وقوعِها بدلاً عن الهديِ، أو: في الثواب، أو: المرادُ: رفعُ الإيهامِ، فلا يتوهمُ في الواو أنها بمعنى الإباحةِ، كما في: جالس الحسنَ وابنَ سيرين، ألا ترى أنه لو جالسَهما، أو واحداً منهما.. كان ممتثلاً، ﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارةٌ إلى التمتع عندنا؛ إذْ لا تمتعَ ولا قرانَ لِحاضري المسجدِ الحرامِ عندنا، وعند الشافعي رحمه الله: إلى الحكمِ الذي هو وجوبُ الهديِ، أو الصيامِ، ولم يوجب عليهم شيئاً[٣]، ﴿لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ هم: أهلُ المواقيت فمن دونها إلى مكة، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فيما أمركم به ونهاكم عنه في الحج وغيرِه، ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾﴾ لمن لم يَتَّقِهِ.

---

(١) دليل الإمام الشافعي على ذلك: أن النبي لما أحصر عن العمرة.. نحر هديه بالحديبية، في مكان ليس من الحرم. انظر «الأم» (٢/ ١٧٣)، و«السنن الكبرى للبيهقي» (٥/ ٢١٧).

(٢) في الأصل: (إلى الحج) وما أثبته من المطبوع (١/ ١٣٦) وهو أولى.

(٣) عند الحنفية: المكيُّ ومن كان من أهل داخل المواقيت له الإفراد فقط، ولو قرن.. جاز قرانه وأساء، وعليه دمٌ، ولو تمتع.. بطل تمتعه، لكن لو خرج إلى ما بعد المواقيت قبل أشهر الحج.. فله أن يحج قارناً لا متمتعاً، وعند الشافعية: من كان مسكنه في الحرم، أو بينه وبين الحرم أقلُّ من مسافة القصر.. يصح منه القران والتمتع، لكن لا دمَ عليه. انظر «رد المحتار» (٢/ ٥٤٠)، و«نهاية المحتاج» (٣/ ٣٢٦).

﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾ ....

«١٩٧» ﴿ٱلْحَجُّ﴾ أي: وقتُ الحجِّ، كقولك: البردُ شهرانِ ﴿أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾: معروفاتٌ عند الناس، لا يُشكلْن عليهم، وهي شوال، وذو القَعدة، وعشرُ ذي الحِجة، وفائدةُ توقيت الحج بهذه الأشهر: أن شيئاً من أفعال الحج لا يصحُّ إلا فيها، وكذا الإحرامُ عند الشافعي رحمه الله، وعندنا: وإن انعقد لكنه مكروه[١]، وجُمِعَتْ؛ لِبعض الثالثِ[٢]، أو: لأن اسم الجمع يشتركُ فيه ما وراءَ الواحدِ؛ بدليل قوله: ﴿صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤].

﴿فَمَن فَرَضَ﴾: أَلْزَمَه على نفسه بالإحرام ﴿فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾: في هذه الأشهرِ ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ هو: الجماع، أو: ذِكره عند النساء، أو: الكلامُ الفاحش، ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ هو: المعاصي، أو: السِّبابُ؛ لقوله عليه السلام: «سِباب المؤمن فسوق»[٣]، أو: التنابزُ بالألقاب؛ لقوله تعالى: ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ﴾ [الحجرات: ١١]، ﴿وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾: ولا مِراءَ مع الرُّفقاءِ والخدمِ والمُكارين[٤]، وإنما أُمرَ باجتناب ذلك وهو واجب الاجتناب في كل حالٍ؛ لأنه مع الحج أسمجُ[٥]، كَلُبْسِ الحرير في الصلاة، والتطريبِ في قراءة القرآن[٦]، والمراد بالنفي: وجوبُ انتفائها، وأنها حَقِيْقَةٌ بألا تكون، وقرأ أبو عمرو، ومكيُّ الأَوَّلَين: بالرفع، فحَمَلاهما على معنى النهي، كأنه قيل: فلا يكونن رفثٌ ولا فسوقٌ، والثالثَ: بالنصب[٧]، على معنى الإخبار بانتفاء الجدال[٨]؛ كأنه قيل: ولا شكَّ ولا خلافَ في الحج[٩]، ثم حثَّ على الخير عقيبَ النهيِ عن

---

(١) عند الشافعية: لو أحرم بالحج في غير وقته.. انعقد عمرة على الصحيح. انظر «منهاج الطالبين» (ص٨٣).

(٢) أي: جمعت الأشهرُ.

(٣) رواه البخاري (٤٨) ومسلم (٦٤) عن سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه.

(٤) **المُكاري**: الذي يؤجر الدوابَّ للركوب.

(٥) **أسمج**: أقبح.

(٦) التطريب المنهي عنه: الذي يؤدي إلى الإخلال بالحروف وأحكامِ الأداء، وأما تحسين الصوت دون إخلال.. فهو مندوب. انظر «الإكليل» (٢/ ١١٠).

(٧) أي: ﴿فلا رفثٌ ولا فسوقٌ ولا جدالَ﴾. انظر «البدور الزاهرة» (ص٤٧).

(٨) أي: (فلا رفثٌ ولا فسوقٌ): خبرٌ معناه النهي، و(لا جدالَ) خبرٌ بانتفاء الجدال في شأن الحج، وليس نهياً عن الجدال أثناء أداء عبادة الحج، والأولى: أن تجعل الثلاثة: (فلا رفث ولا فسوق ولا جدال) خبراً بمعنى النهي، سواء رفع ما بعد (لا) أو بني على الفتح؛ لأن السياق للحث على اجتناب ما يتنافى مع عبادة الحج، وهو الرفث والفسوق والجدال، فلا يناسب أن ينهى عن الرفث والفسوقِ فقط، ثم يأتي خبر مجرد بأن الجدال في شأن الحج قد ارتفع، والله أعلم.

(٩) الشكُّ في الحج سببه النسيء الذي كان يفعله أهل الجاهلية، وهو: تغيير أماكن الشهور، فكان يقع الحج أحياناً =

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ....﴾

الشرِّ، وأن يستعملُوا مكان القبيحِ من الكلام الحسنَ، ومكانَ الفسوقِ البرَّ والتقوى، ومكان الجدالِ الوفاقَ والأخلاقَ الجميلة بقوله: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ وأعلمَ بأنه عالمٌ به يجازيكم عليه، وردَّ قول من نفى علمَه بالجزئيات.

كان أهلُ اليمن لا يتزودون، ويقولون: نحن متوكلون، فيكونون كَلّاً على الناس، فنزل فيهم: ﴿وَتَزَوَّدُوا﴾ أي: تزودوا، واتقوا الاستطعامَ وإبرامَ الناس والتثقيلَ عليهم؛ ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ أي: الإتقاءُ عن الإبرام والتثقيلِ عليهم، أو: تزودوا للمَعادِ باتقاء المحظورات؛ فإن خيرَ الزاد اتقاؤُها، ﴿وَاتَّقُونِ﴾: وخافوا عقابي، وهو مثلُ: (دعان)[1]، ﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾﴾: يا ذوي العقول؛ يعني: أن قضيةَ اللبِّ تقوى الله، ومن لم يتقِه من الأَلِبّاء.. فكأنه لا لُبَّ له.

《١٩٨》 ونزل في قوم زعموا أن لا حجَّ لِجَمّال وتاجرٍ، وقالوا: هؤلاءِ الداجُّ وليسوا بالحاجِّ[2]: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا﴾: في أن تبتغُوا في مواسم الحجِّ ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾: عطاءً وتفضُّلاً، وهو النفعُ والربحُ بالتجارة والكراءِ، ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم﴾: دفعتم بكثرةٍ، وهو من إفاضةِ الماءِ، وهو صَبُّهُ بكثرة، وأصلُه: أفضتم أنفسَكم، فتُرِكَ ذِكرُ المفعول، ﴿مِّنْ عَرَفَاتٍ﴾ هي: عَلَمٌ للموقف، سُمي بجمعٍ، كـ: أذرعات، وإنما صُرفت لأن التاء فيها ليست للتأنيث، بل هي مع الألف قبلَها علامةُ جمعِ المؤنث، وسميت بذلك؛ لأنها وُصفت لإبراهيم عليه السلام، فلما رآها.. عرفها، وقيل: الْتَقَى فيها آدمُ وحواءُ فتعارفا.

= في غير ذي الحجة، فأبطل الله النسيء ورجعت الأشهر إلى ما كانت عليه، وعاد الحج في ذي الحجة فارتفع الشك في الحج، وكانت قريشٌ تخالف سائر العرب فتقف بالمشعر الحرام وسائر العرب يقفون بعرفة، فأمر الناس كلهم بالوقوف في عرفة، ولعل هذا هو المراد بأنه لا خلاف في الحج. انظر «الكشاف» (١/ ٢٤٤)، و«فتوح الغيب» (٣/ ٢٩٤).

(١) أي: قرأ أبو عمرو وأبو جعفر: بإثبات الياء وصلاً فقط، وقرأ يعقوبُ بإثباتها في الحالين. انظر «البدور الزاهرة» (ص٤٧).

(٢) روى الطبري في «تفسيره» (٤/ ١٦٧) عن سعيد بن جبير: كان بعض الحاج يُسَمَّون الداجَّ، فكانوا ينزلون في الشق الأيسر من مِنى، وكان الحاجُّ ينزلون عند مسجد مِنى، فكانوا لا يتَّجِرون، حتى نزلت: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾، فحجُّوا. والداجُّ: أتباع الحاجِّ كالخدم والأجراء والجمالين. انظر «النهاية في غريب الحديث والأثر» (٢/ ١٠١).

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴿٢٠٠﴾﴾ ....

وفيه دليلٌ على وجوب الوقوف بعرفة؛ لأن الإفاضة لا تكون إلا بعده، ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ بالتلبية والتهليلِ والتكبيرِ والثناءِ والدعواتِ، أو: بصلاة المغرب والعشاء ﴿عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ هو: قزح، وهو الجبلُ الذي يقف عليه الإمام، وعليه الميقدةُ[1]، والمَشعرُ: المَعلمُ؛ لأنه معلمٌ للعبادةِ، ووصف بالحرام؛ لحُرمته؛ وسميت المزدلفةَ وجَمعاً؛ لأن آدم عليه السلام اجتمعَ فيها مع حواءَ، وازْدلفَ إليها؛ أي: دنا منها، أو: لأنه يُجمع فيها بين الصلاتين، أو: لأن الناس يزدلفون إلى الله تعالى؛ أي: يتقربون بالوقوف فيها.

﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾ (ما): مصدريةٌ، أو: كافةٌ، أي: اذكروه ذكراً حسناً، كما هداكم هدايةً حسنةً، أو: اذكروه كما علمكم كيف تذكرونه، ولا تعدِلُوا عنه، ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ﴾: من قبل الهدى ﴿لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾﴾: الجاهلين، لا تعرفون كيف تذكرونه وتعبدونه، و(إن): مخففةٌ من الثقيلة، واللامُ: فارقة.

«١٩٩» ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾: ثم لتكن إفاضتُكم من حيث أفاض الناس، ولا تكن من المزدلفة، قالوا: هذا أمرٌ لقريش بالإفاضة من عرفات إلى جمعٍ، وكانوا يقفون بجَمْعٍ، وسائرُ الناسِ بعرفاتٍ، ويقولون: نحن قُطّانُ حَرَمِه فلا نخرجُ منه، وقيل: الإفاضةُ من عرفات مذكورةٌ، فهي الإفاضة من جَمْعٍ إلى منىً، والمرادُ بالناس على هذا: الحُمْسُ[2]، ويكون الخطاب للمؤمنين، ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ من مخالفتِكم في الموقفِ ونحوِ ذلك من جاهليتِكم، أو: من تقصيركم في أعمال الحج؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾ بكم.

«٢٠٠» ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ﴾: فإذا فرغتم من عباداتكم التي أمرتم بها في الحجِّ ونفرتم ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ أي: فاذكروا الله ذكراً مثلَ ذكرِكم آباءَكم؛ والمعنى: فأكثروا من ذكر الله وبالغوا فيه كما تفعلون في ذكرِ آبائِكم ومفاخرِهم وأيامِهم، وكانوا إذا قضَوا مناسكَهم.. وقفوا بين المسجد بمنى وبين الجبل فيُعدِّدُون فضائلَ آبائِهم، ويذكرون محاسنَ

---

(١) الميقدة: أسطوانة كان يوقد عليها الشمع ليلة مزدلفة.

(٢) الحُمْسُ: قريشٌ؛ لأنهم كانوا يتحمسون في دينهم؛ أي: يتشددون.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾ ....

أيامِهم[١]، ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ أي: أكثرَ، وهو في موضعِ جرٍّ عطفٌ على ما أضيف إليه[٢] الذكرُ في قوله: (كذكركم)، كما تقول: كذكرِ قريشٍ آباءَهم، أو: قومٍ أشدَّ منهم ذكراً، و(ذكراً): تمييزٌ.

﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ﴾: فمن الذين يشهدون الحجَّ من يسألُ الله حظوظَ الدنيا فيقول: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا﴾: اجعل إيتاءَنا؛ أي: إعطاءَنا في الدنيا خاصةً؛ يعني: الجاهَ والغنى، ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾﴾: نصيبٍ؛ لأن همَّه مقصورٌ على الدنيا؛ لكفره بالآخرة، والمعنى: أكثرُوا ذكرَ اللهِ ودعاءَه؛ فإنَّ الناس مِن بين مُقلٍّ لا يطلب بذكر الله إلا أغراضَ الدنيا، ومكثرٍ يطلبُ خيرَ الدارين، فكونوا من المكثرين؛ أي: من الذين قيل فيهم:

《٢٠١》 ﴿وَمِنْهُم﴾: ومن الذين يشهدون الحجَّ ﴿مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾: نعمةً وعافيةً، أو: علماً وعبادةً، ﴿وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾: عفواً ومغفرةً، أو: المالَ والجنةَ، أو: ثناءَ الخلق ورضا الحق، أو: الإيمانَ والأمانَ، أو: الإخلاصَ والخلاصَ، أو: السُّنَّةَ والجنةَ، أو: القناعةَ والشفاعةَ، أو: المرأةَ الصالحةَ والحورَ العِينَ، أو: العيشَ على سعادةٍ والبعثَ من القبور على بشارةٍ، ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾: احفظنا من عذاب جهنمَ، أو: عذابُ النار: امرأةُ السُّوءِ.

《٢٠٢》 ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: الداعون بالحسنتين ﴿لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟﴾: من جنسِ ما كسبوا من الأعمال الحسنةِ، وهو الثوابُ الذي هو المنافع الحسنةُ، أو: مِن أجل ما كسبوا، وسميَ الدعاءُ كسباً؛ لأنه من الأعمالِ، والأعمالُ موصوفةٌ بالكسبِ، ويجوز أن يكون (أولئك) للفريقين، وأنَّ لكلِّ فريقٍ نصيباً من جنسِ ما كسبوا، ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾: يوشك أن يقيم القيامةَ ويحاسبَ العبادَ؛ فبادِروا إكثارَ الذكر وطلبَ الآخرةِ، أو: وصفَ نفسَه بسرعةِ حسابِ الخلائقِ على كثرة عددهم، وكثرةِ أعمالِهم؛ ليدلَّ على كمال قدرتِه، ووجوبِ الحذرِ من نِقمتِه، ورويَ: أنه يحاسب الخلقَ في قدرِ حَلْبِ شاةٍ، وروي: في مقدارِ لمحةٍ.

---

(١) روى نحوه الطبريُّ في «تفسيره» (٤/ ١٩٧).

(٢) في الأصل: (عطف على الذكر)، وما أثبتُّه من المطبوع (١/ ١٤٢)، وهو الصوابُ، وهو الموافق لما في «الكشاف» (١/ ٢٧٥).

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ ....

《٢٠٣》 ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ هي: أيام التشريق، وذكرُ الله فيها التكبيرُ في أدبار الصلواتِ، وعند الجمارِ، ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ﴾: فمن عَجِلَ في النفرِ، أو استعجلَ النفرَ، وتَعَجَّلَ، واستعجلَ: يجيئان مطاوعين[1]؛ بمعنى: عَجِلَ؛ يقال: تعجلَ في الأمر، واستعجل، ومتعديين؛ يقال: تعجلَ الذهابَ، واستعجلَه، والمطاوعةُ أوْفَقُ لقولِه: (ومن تأخر)، ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ من هذه الأيام الثلاثةِ فلم يمكثْ حتى يرميَ في اليوم الثالثِ، واكتفى برمْيِ الجمارِ في يومين من هذه الأيام الثلاثةِ ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾: فلا يأثم بهذا التعجيلِ، ﴿وَمَنْ تَأَخَّرَ﴾ حتى رمَى في اليوم الثالثِ ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى﴾ الصيدَ، أو: الرفثَ والفسوقَ، أي: هو مخيرٌ في التعجيل والتأخرِ وإن كان التأخرُ أفضلَ؛ فقد يقع التخيير بين الفاضل والأفضلِ، كما خُيِّرَ المسافرُ بين الصوم والإفطارِ وإن كان الصوم أفضلَ، وقيل: كان أهل الجاهلية فريقين: منهم من جعل المتعجِّلَ آثماً، ومنهم من جعل المتأخرَ آثماً، فوردَ القرآنُ بنفْيِ المأثم عنهما، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في جميع الأمورِ، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ حين يبعثُكم من القبور.

《٢٠٤》 كان الأخنسُ بن شَرِيْقٍ حُلْوَ المنطقِ، إذا لقيَ رسولَ الله ﷺ .. ألانَ له القولَ، وادّعَى أنه يحبُّه، وأنه مسلم، وقال: يعلمُ الله أني صادقٌ، فنزل فيه[2]:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ﴾: يروقُك ويعظُم في قلبِك، ومنه الشيءُ العجيبُ الذي يعظمُ في النفس، ﴿قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (في): يتعلقُ بالقول؛ أي: يعجبُك ما يقولُه في معنى الدنيا؛ لأنه يطلبُ بادعاء المحبةِ حظَّ الدنيا، ولا يريد به الآخرةَ، أو: بـ(يعجبك) أي: يعجبُك حُلْوُ كلامِه في الدنيا لا في الآخرة؛ لِما يَرْهَقُهُ في الموقف من الحُبْسَةِ واللُّكْنَةِ، ﴿وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾ أي: يحلفُ ويقولُ: اللهُ شاهدٌ على ما في قلبي من محبتِك ومن الإسلام، ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾﴾: شديدُ الجدالِ والعداوةِ للمسلمين، والخصامُ: المخاصمةُ، والإضافةُ بمعنى (في)؛ لأن (أفعل) يضافُ إلى ما هو بعضُه؛ تقول: زيد أفضلُ القومِ، ولا يكون الشخصُ بعضَ الحدثِ، فتقديرُه: ألدُّ في الخصومةِ، أو: (الخصامُ): جمعُ: خَصْمٍ، كصعبٍ وصِعاب، والتقديرُ: وهو أشدُّ الخصومِ خصومةً.

---

(١) مطاوعين لواحد فيكونان لازمين.

(٢) روى نحوه الطبريُّ في «تفسيره» (٤/٢٢٩).

﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ ....﴾

《٢٠٥》 ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ﴾ عنك وذهب بعدَ إِلَانَةِ القول وإحلاءِ المنطقِ ﴿سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ كما فعلَ بثقيفٍ؛ فإنه كان بينه وبينهم خصومةٌ فَبَيَّتَهم ليلاً، وأهلكَ مواشيَهم، وأحرقَ زروعَهم، ﴿وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ أي: الزرعَ والحيوانَ، أو: وإذا كان والياً. . فعلَ ما يفعلُه ولاةُ السوءِ من الفساد في الأرض بإهلاك الحرث والنسلِ، وقيل: يُظْهِرُ الظلمَ حتى يمنعَ اللهُ بشؤم ظلمه القطرَ، فيَهْلِكُ الحرثُ والنسلُ، ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾.

《٢٠٦》 ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ﴾: للأخنس: ﴿اتَّقِ اللَّهَ﴾ في الإفساد والإهلاكِ ﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾: حَمَلَتْهُ النَّخوةُ وحَمِيَّةُ الجاهلية على الإثم الذي يُنهى عنه، وأَلْزَمَتْه ارتكابَه، أو: الباء: للسبب؛ أي: أخذته العزة من أجل الإثم الذي في قلبه وهو الكفر، ﴿فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ﴾ أي: كافِيْه، ﴿وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾: الفراشُ جهنم.

《٢٠٧》 ونزل في صهيب حين أراده المشركون على ترك الإسلامِ وقتلُوا نفراً كانوا معه، فاشترى نفسَه بمالِه منهم، وأتى المدينةَ[1]، أو: فيمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حتى يقتل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ﴾: يبيعُها ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾ حيثُ أثابهم على ذلك.

《٢٠٨》 ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ﴾ وبفتح السين: حجازيٌّ، وعليٌّ[2]، وهو: الاستسلام والطاعةُ؛ أي: استسلموا لله وأطيعوه، أو: الإسلامُ، والخطابُ لأهل الكتاب؛ لأنهم آمنوا بنبيهم وكتابهم، أو: للمنافقين؛ لأنهم آمنوا بألسنتهم، ﴿كَافَّةً﴾ لا يخرجْ أحدٌ منكم يدَه عن طاعته، حالٌ من الضمير في (ادخلوا) أي: جميعاً، أو: من (السّلم) لأنها تؤنث، كأنهم أُمروا أن يَدخلوا في الطاعات كلِّها، أو: في شُعب الإسلام وشرائعه كلِّها، و(كافة): من الكفِّ، كأنهم كَفُّوا أن يخرج منهم أحدٌ باجتماعهم، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾: وساوسَه؛ ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾: ظاهرُ العداوة.

---

(١) روى نحوه الحاكم في «المستدرك» (٣/ ٤٠٠).
(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٤٨) وكذا القراءة الآتية.

فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ ....

《٢٠٩》 ﴿فَإِن زَلَلْتُم﴾: مِلتم عن الدخول في السلم ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ أي: الحججُ الواضحةُ، والشواهدُ اللائحةُ، على أن ما دُعيتم إلى الدخول فيه هو الحقُّ ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾: غالبٌ لا يمنعه شيء من عذابكم، ﴿حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾﴾: لا يُعذب إلا بحقٍّ.

وروي: أن قارئاً قرأ: غفور رحيم، فسمعه أعرابيٌّ لم يقرأ القرآن، فأنكره وقال: ليس هذا كلام الله؛ إذ الحكيمُ لا يذكر الغفران عند الزلل والعصيان؛ لأنه إغراء عليه.

《٢١٠》 ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾: ما ينتظرون ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: أمرُه وبأسُه، كقوله: ﴿أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [النحل: ٣٣]، ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا﴾ [الأعراف: ٤]، أو: المأتيُّ به محذوفٌ؛ بمعنى: أن يأتيهم الله ببأسه؛ للدلالةِ عليه بقوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾، ﴿فِى ظُلَلٍ﴾: جمع ظُلةٍ، وهي: ما أظلك، ﴿مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾: السحابِ، وهو للتهويل؛ إذِ الغمامُ مظِنةُ الرحمة، فإذا أنزل منه العذابُ.. كان الأمر أفظعَ وأهولَ، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: وتأتي الملائكة الذين وُكِّلوا بتعذيبهم، أو المرادُ: حضورُهم يوم القيامة، ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: وأُتمَّ أمرُ إهلاكِهم وفُرغ منه، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾ أي: أنه مَلَّكَ العبادَ بعضَ الأمورِ فترجعُ إليه الأمور يوم النشور، ﴿تَرْجِعُ الأمورُ﴾ حيث كان: شاميٌّ، وحمزةُ، وعليٌّ.

《٢١١》 ﴿سَلْ﴾: أصله: اسْأَلْ، فنُقلت فتحةُ الهمزةِ إلى السين بعد حذفها، واستغني عن همزةِ الوصل، فصار: سل، وهو أمرٌ للرسولِ، أو: لكلِّ أحدٍ، وهو سؤال تقريعٍ، كما يُسألُ الكفرةُ يوم القيامة، ﴿بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ﴾ على أيدي أنبيائِهم، وهي معجزاتُهم، أو: من آية في الكتب شاهدةٍ على صحة دينِ الإسلام، و(كم): استفهاميةٌ، أو: خبريةٌ، ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ هي: آياتُه، وهي أجلُّ نعمةٍ من الله؛ لأنها أسباب الهدى والنجاةِ من الضلالة، وتبديلُهم إياها: أن الله أظهرَها؛ لتكون أسبابَ هُداهم، فجعلُوها أسبابَ ضلالتِهم، كقوله: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥] أو: حَرَّفُوا آياتِ الكتبِ الدالةَ على دين محمد عليه السلام، ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ﴾: من بعد ما عَرَفَها وصحَّت عندَه؛ لأنه إذا لم يعرفْها.. فكأنها غائبةٌ عنه، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾﴾ لمن استحقَّه.

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَٰتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ ....

«٢١٢» ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا﴾ المزينُ هو الشيطانُ، زينَ لهم الدنيا وحَسَّنَها في أعينهم بِوساوسِه، وحبَّبها إليهم، فلا يريدون غيرها، أو: اللهُ تعالى؛ بخلقِ الشهوات فيهم؛ ولأن جميعَ الكائنات منه، ويدلُّ عليه قراءةُ من قرأ: ﴿زَيَّنَ للذين كفروا الحيوةَ الدنيا﴾[1]، ﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ كانوا يسخرون من فقراء المؤمنين، كابنِ مسعودٍ، وعمارٍ، وصهيبٍ، ونحوِهم؛ أي: لا يريدون غيرَها، وهم يسخرون ممن لا حظَّ له فيها، أو ممن يطلب غيرَها، ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ عن الشركِ، وهم هؤلاء الفقراء ﴿فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ﴾؛ لأنهم في جنة عاليةٍ، وهم في نار هاويةٍ، ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾: بغير تقديرٍ؛ يعني: أنه يوسع على من أراد التوسعة عليه، كما وَسَّعَ على قارونَ وغيرِه، وهذه التوسعةُ عليكم من الله لحكمةٍ، وهي استدراجُكم بالنعمة، ولو كانت كرامةً.. لكان المؤمنون أحقَّ بها منكم.

«٢١٣» ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾: متفقين على دين الإسلام من آدم إلى نوح عليهما السلام، أو: هم نوحٌ ومن كان معه في السفينة، فاختلفوا، ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّـۧنَ﴾، ويدلُّ على حذفه قولُه: (ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه)، وقراءةُ عبد الله: ﴿كان الناس أمة واحدة فاختلفوا﴾[2]، وقولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَٰحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ [يونس: ١٩]، أو: كان الناس أمة واحدة كفاراً فبعث الله النبيين فاختلفوا عليهم[3]، ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ بالثواب للمؤمنين، ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ بالعقاب للكافرين، وهما حالان، ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَٰبَ﴾ أي: مع كل واحد منهم كتابَه ﴿بِالْحَقِّ﴾: بتبيانِ الحقِّ ﴿لِيَحْكُمَ﴾ اللهُ أو: الكتابُ، أو: النبيُّ المنزلُ عليه ﴿بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾: في دين الإسلام الذي اختلفوا فيه بعد الاتفاقِ، ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ﴾: في الحقِّ، ﴿إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ أي: الكتابَ المنزلَ لإزالةِ الاختلافِ؛ أي: ازدادُوا الاختلافَ لمَّا أُنزلَ عليهم الكتابُ ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا

(١) انظر «المحرر الوجيز» (١/ ٢٨٤).

(٢) أي: قراءة عبد الله بن مسعود. انظر «المحرر الوجيز» (١/ ٢٨٦).

(٣) في المطبوع (١/ ١٥٠) زيادة: (والأول: الأوجه).

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ ....

﴿جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ على صدقِه، ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾: مفعول له؛ أي: حسداً بينهم وظلماً؛ لحرصهم على الدنيا وقلةِ إنصافٍ منهم، ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ أي: هدَى اللهُ الذين آمنوا للحقِّ الذي اختلف فيه مَن اختلف، ﴿مِنَ ٱلْحَقِّ﴾: بيانٌ لما اختلفوا فيه، ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾: بعلمه، ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾.

《٢١٤》 ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ (أم): منقطعةٌ لا متصلةٌ؛ لأن شرطَها أن يكون قبلَها همزةُ الاستفهام، كقولك: أعندك زيد أم عمرو؟ أيْ: أيُّهما عندك؟ وجوابُه: زيد، إن كان عنده زيدٌ، وعمرٌو إن كان عنده عمرٌو، وأما (أم) المنقطعةُ.. فتقعُ بعد الاستفهامِ وبعد الخبرِ، وتكونُ بمعنى: بل والهمزةِ، والتقديرُ: بل أحسبتم، ومعنى الهمزةِ فيها: للتقريرِ وإنكارِ الحِسبانِ واستبعادِه، ولمّا ذَكَرَ ما كانت عليه الأمم من الاختلاف على النبيين بعد مجيءِ البيناتِ تشجيعاً لرسول الله ﷺ والمؤمنين على الثبات والصبرِ مع الذين اختلفوا عليه من المشركين وأهلِ الكتاب وإنكارِهم لآياتِه وعداوتِهم له.. قال لهم على طريقة الالتفات التي هي أبلغُ:

(أم حسبتم) ﴿أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم﴾ أي: ولم يأتِكم، وفي (لمّا) معنى التوقُّع؛ أي: أن إتيان ذلك متوقع منتَظرٌ، ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟﴾: مَضوا؛ أي: حالُهم التي هي مثلٌ في الشِّدةِ، ﴿مِن قَبْلِكُم﴾ من النبيين والمؤمنين، ﴿مَّسَّتْهُمُ﴾: بيانٌ للمثل، وهو استئنافٌ؛ كأن قائلاً قال: كيف كان ذلك المثل؟ فقيل: مستهم ﴿ٱلْبَأْسَآءُ﴾ أي: البؤسُ، ﴿وَٱلضَّرَّآءُ﴾: المرضُ والجوعُ، ﴿وَزُلْزِلُوا۟﴾: وحركوا بأنواع البلايا، وأُزعِجُوا إزعاجاً شديداً شبيهاً بالزلزلة، ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾: إلى الغاية التي قال الرسول ومن معه من المؤمنين: ﴿مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: بلغَ بهم الضجرُ، ولم يبقَ لهم صبرٌ حتى قالوا ذلك، ومعناه: طلبُ النصر وتمنيْه واستطالةُ زمانِ الشِّدةِ، فقيل لهم: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾؛ إجابةٌ لهم إلى طلبهم مِن عاجلِ النصرِ، ﴿يقول﴾: بالرفع: نافعٌ، على حكاية حال ماضيةٍ، نحو: شربت الإبلُ حتى يجيءُ البعير يجرُّ بطنَه، وغيره: بالنصبِ[1]، على إضمار: أنْ، ومعنى الاستقبال؛ لِأَنَّ: أنْ عَلَمٌ له.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٤٨).

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ ....

《٢١٥》 ولما قال عمرو بن الجَمُوحِ وهو شيخٌ كبيرٌ وله مال عظيمٌ: ماذا نُنفقُ من أموالِنا؟ وأين نضعها؟ نزلَ[١]:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ فقد تضمن قولُه: (ما أنفقتم من خير) بيانَ ما ينفقونه، وهو كلُّ خيرٍ، وبُنيَ الكلامُ على ما هو أهمُّ، وهو بيانُ المصرِف؛ لأن النفقةَ لا يُعتدُّ بها إلا أن تقعَ موقعَها، عن الحسن: هي في التطوع، ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾ فيجزي عليه.

《٢١٦》 ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ﴾: فرضَ عليكم جهادُ الكفارِ ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾: من الكَراهةِ، فوُضع المصدرُ موضعَ الوصفِ مبالغةً، كقولها[٢]: [من: البسيط]

.... فــإنــمــا هــي إقــبــال وإدبــار

كأنه في نفسه كراهةٌ؛ لفرطِ كراهتهم له، أو: هو (فُعْلٌ)؛ بمعنى: (مفعول) كالخُبْزِ؛ بمعنى: المخبوزِ؛ أي: وهو مكروهٌ لكم، ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فأنتم تكرهون الغزوَ وفيه إحدَى الحسنيين: إما الظفرُ والغنيمةُ، وإما الشهادةُ والجنةُ، ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا﴾ وهو القعودُ عن الغزو، ﴿وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ لما فيه من الذلِّ والفقرِ وحِرمانِ الغنيمةِ والأجرِ، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما هو خيرٌ لكم، ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾ ذلك، فبادروا إلى ما يأمركم به وإن شقَّ عليكم.

---

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص ٦٩).

(٢) هذا للخنساء في «ديوانها» (ص٤٦) من قصيدة ترثي فيها أخاها صخراً، جاء فيها:

وما عجولٌ على بَوٍّ تحنُّ له ... لها حنينان إعلانٌ وإسرارُ

ترتعُ ما رتَعت حتى إذا ذكرت ... فإنما هي إقبالٌ وإدبارُ

يوماً بأوجعَ مني حين فارقني ... صخرٌ وللعيشِ إحلاءٌ وإمرارُ

والعَجولُ من الإبل: الوالِهُ التي فقدت ولدها، والبوُّ: جلد يُحشى تبناً لتظنه ولدها فيثيرَ حنانها وتدرَّ اللبن.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾ ....

《٢١٧》 ونزل في سرية بعثها رسول الله ﷺ فقاتلوا المشركين وقد أهلَّ هلالُ رجبٍ وهم لا يعلمون ذلك، فقالت قريش: قد استحلَّ محمد الشهرَ الحرامَ شهراً يأمنُ فيه الخائفُ[١]: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: يسألك الكفارُ، أو: المسلمون عن القتال في الشهر الحرام ﴿قِتَالٍ فِيهِ﴾: بدلُ الاشتمالِ من (الشهرِ)، وقرئَ: ﴿عن قتال فيه﴾[٢]، على تكرير العامل، كقوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأعراف: ٧٥]، ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ أي: إثمٌ كبيرٌ، (قتال): مبتدأٌ، و(كبيرٌ): خبرُه، وجاز الابتداءُ بالنكرةِ؛ لأنها وصفت بـ (فيه)، وأكثرُ الأقاويلِ: على أنها منسوخةٌ بقوله: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾.

﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: منعُ المشركين رسولَ الله ﷺ وأصحابَه عن البيت عامَ الحديبية، وهو: مبتدأٌ، ﴿وَكُفْرٌۢ بِهِۦ﴾ أي: بالله: عطفٌ عليه، ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾: عطفٌ على (سبيل الله) أي: وصدٌّ عن سبيل الله وعن المسجد الحرام، وزعم الفراء أنه معطوف على الهاء في (به) أي: وكفرٌ به وبالمسجد الحرام، ولا يجوز عند البصريين العطفُ على الضمير المجرور إلا بإعادة الجارِّ؛ فلا تقول: مررت به وزيدٍ، ولكن تقول: وبزيد، ولو كان معطوفاً على الهاء هنا.. لقيل: وكفر به وبالمسجد الحرام[٣]، ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ﴾ أي: أهلِ المسجد الحرام، وهم رسولُ الله ﷺ والمؤمنون، وهو: عطفٌ عليه أيضاً ﴿مِنْهُ﴾: من المسجد الحرامِ، وخبرُ الأسماء الثلاثة: ﴿أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: مما فَعلَتْه السَّرِيَّةُ من القتال في الشهر الحرام على سبيل الخطأِ والبناءِ على الظن، ﴿وَٱلْفِتْنَةُ﴾: الإخراجُ، أو: الشركُ ﴿أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ في الشهر الحرام، أو: تعذيبُ الكفارِ المسلمين أشدُّ قبحاً من قتل هؤلاء المسلمين في الشهر الحرام.

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ﴾ أي: إلى الكفرِ، وهو إخبارٌ عن دوام عداوةِ

---

(١) روى نحوه الطبري في «تفسيره» (٤/ ٣٠٣).
(٢) قراءةٌ شاذةٌ. انظر «المحرر الوجيز» (١/ ٢٩٠).
(٣) مذهب الكوفيين: جوازُ العطف على الضمير المجرور دون إعادة حرف الجر، ورجحه ابن مالك. انظر «شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك» (٣/ ٢٣٩).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢١٨﴾ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ ..﴾

الكفارِ للمسلمين، وأنهم لا ينفكُّون عنها حتى يردوهم عن دينهم، و(حتى) معناها: التعليلُ، نحو: فلانٌ يعبد الله حتى يدخلَ الجنة؛ أي: يقاتلونكم كي يردوكم، وقولُه: ﴿إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْ﴾: استبعادٌ لاستطاعتِهم، كقولك لعدوك: إن ظفرتَ بي.. فلا تُبقِ عليَّ، وأنت واثقٌ بأنه لا يظفرُ بك، ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾: ومن يرجعْ عن دينِه إلى دينهم ﴿فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾ أي: يَمُتْ على الردةِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ لمَا يفوتُهم بالردة مما للمسلمين في الدنيا من ثمرات الإسلام، وفي الآخرة من الثواب وحسنِ المآب، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾ وبها احتجَّ الشافعيُّ رحمه الله على أن الردة لا تحبطُ العملَ حتى يموت عليها، وقلنا: قد علق الحَبْطُ بنفس الردة بقوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ [المائدة: ٥] والأصل عندنا: أن المطلق لا يحمل على المقيد، وعنده: يحمل عليه، فهو بناءً على هذا(١).

《٢١٨》 ولما قالت السريةُ: أيكون لنا أجرُ المجاهدين في سبيل الله؟ نزل(٢): ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾: تركوا مكة وعشائرهم، ﴿وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ مع المشركين، ولا وقفَ عليه؛ لأن ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ﴾: خبرُ (إنَّ)، قيل: مَن رجا.. طلب، ومن خاف.. هرب، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾.

《٢١٩》 نزل في الخمر أربعُ آياتٍ، نزل بمكة: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ [النحل: ٦٧]، فكان المسلمون يشربونها وهي لهم حلال، ثم إن عمرَ ونفراً من الصحابة قالوا: يا رسول الله أَفْتِنَا في الخمر؛ فإنها مَذهبةٌ للعقل، مَسلبةٌ للمال، فنزل(٣): ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِۖ﴾، فشربها قوم، وتركها آخرون، ثم دعا عبد الرحمن ابنُ عوف جماعةً فشربوا وسكِرُوا فأمَّ بعضُهم فقرأ: (قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون) فنزلَ: ﴿لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ [النساء: ٤٣](٤)، فقلَّ مَن يشربها، ثم دعا عُتبانُ بنُ مالك جماعةً فلما سكروا منها..

---

(١) انظر «تفسير الرازي» (٦/ ٣٩٣)، و«نهاية المحتاج» (١/ ١٠٩)، و«حاشية ابن عابدين» (٢/ ٧٥).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٣٨٨).

(٣) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص٧٣).

(٤) رواه أبو داود (٣٦٧١)، والترمذي (٣٠٢٦) عن سيدنا علي رضي الله عنه.

تخاصموا وتضاربوا، فقال عمر رضي الله عنه: اللهم بَيِّنْ لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلَ: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾ إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠ ـ ٩١]، فقال عمر: انتهينا يا رب[١]، وعن علي رضي الله عنه: لو وقعت قطرةٌ في بئرٍ فبُنيتْ مكانَها منارةٌ.. لم أؤذن عليها، ولو وقعتْ في بحرٍ ثم جفَّ ونبتَ فيه الكلأُ.. لم أَرْعَهُ.

والخمر: ما غلى واشتدَّ وقذفَ بالزبدِ من عصيرِ العنبِ[٢]، وسميت بمصدر: خَمَرَه خَمْراً: إذا سَتَرَه؛ لتغطيتها العقلَ، والميسِرُ: القمارُ، مصدرٌ مِنْ: يَسَرَ، كالموعِدِ مِن فِعْلِه؛ يقال: يَسَرْتُه: إذا قَمَرْتَه، واشتقاقُه من اليُسْرِ؛ لأنه أخذُ مالِ الرجلِ بِيُسْرٍ وسهولةٍ بلا كدٍّ وتعبٍ، أو: من اليسارِ؛ لأنه سَلَبَ يَسارَه.

وصفةُ الميسِرِ: أنه كانت لهم عشرةُ أقداحٍ، سبعةٌ منها عليها خطوطٌ، وهو الفذُّ، وله سهمٌ، والتوأمُ، وله سهمان، والرقيبُ، وله ثلاثةٌ، والحَلِسُ، وله أربعةٌ، والنافسُ، وله خمسةٌ، والمُسْبِلُ، وله ستةٌ، والمُعَلَّى، وله سبعةٌ، وثلاثةٌ أغفالٌ لا نصيب لها، وهي: المَنِيْحُ، والسَّفِيحُ، والوَغْدُ، فيجعلون الأقداحَ في خريطةٍ[٣]، ويضعونها على يدِ عدلٍ، ثم يُجَلْجِلُها، ويُدخلُ يدَه، ويُخرجُ باسمِ رجلٍ رجلٍ قِدْحاً منها، فمن خرج له قِدْحٌ من ذوات الأنصباءِ.. أخذَ النصيبَ الموسومَ به ذلك القِدْحُ، ومن خرج له قِدْحٌ مما لا نصيبَ له.. لم يأخذ شيئاً، وغَرِمَ ثمنَ الجَزورِ كلَّه، وكانوا يدفعون تلك الأنصباءَ إلى الفقراء، ولا يأكلون منها، ويفتخرون بذلك، ويذمُّون من لم يدخل فيه.

وفي حكم الميسرِ أنواعُ القمار من النَّردِ والشَّطرنجِ وغيرِهما، والمعنى: يسألونك عمّا في تعاطيهما؛ بدليل: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ بسبب التخاصمِ والتشاتمِ وقولِ الفُحشِ والزُّورِ، ﴿كثير﴾: حمزةُ وعليٌّ[٤]، ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ بالتجارة في الخمر، والالتذاذ بشُربها، وفي الميسر بارتفاق الفقراءِ، ونيلِ المالِ بلا كدٍّ، ﴿وَإِثْمُهُمَآ﴾: وعقابُ الإثم في تعاطيهما ﴿أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾؛ لأن أصحاب الشربِ والقمارِ يقترفون فيهما الآثامَ من وجوهٍ كثيرةٍ، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا

(١) رواه دون حادثة عتبانَ أبو داود (٣٦٧٠)، والترمذي (٣٠٤٩) والنسائي في «المجتبى» (٨/ ٢٨٦).

(٢) اشتدَّ: قويَ بحيث يصير مسكراً، الزَّبَد: الرغوة. انظر «الدر المختار ورد المحتار» (٦/ ٤٤٨).

(٣) الخريطة: وعاء من جلد.

(٤) انظر «البدور الزاهرة» (ص٤٩) وكذا القراءة الآتية.

﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ ....

يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ أي: الفضلَ؛ أي: أنفقوا ما فَضَلَ عن قدر الحاجةِ، وكان التصدق بالفضل في أول الإسلام، فإذا كان الرجل صاحبَ زرعٍ.. أمسك قوتَ سنةٍ وتصدق بالفضل، وإذا كان صانعاً.. أمسك قوتَ يومه وتصدقَ بالفضل، فنُسخت بآية الزكاة.

﴿العفوُ﴾: أبو عمرو، فمن نصبه.. جعلَ (ماذا) اسماً واحداً في موضع النصبِ بـ (ينفقون)، والتقديرُ: قل ينفقون العفوَ، ومن رفعه.. جعل (ما) مبتدأً، وخبرُه: (ذا) مع صلته، فـ (ذا) بمعنى: الذي، و(ينفقون): صلتُه؛ أي: ما الذي ينفقونه؟ فجاء الجوابُ: (العفوُ)، أي: هو العفوُ، فإعرابُ الجوابِ كإعراب السؤالِ؛ ليطابق الجوابُ السؤالَ، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الكافُ في موضع نصبٍ نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ؛ أي: تَبْيِيْناً مثلَ هذا التبيينِ ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾.

«٢٢٠» ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ أي: في أمر الدنيا ﴿وَالْآخِرَةِ﴾، و(في): يتعلق بـ ﴿تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: تتفكرون فيما يتعلق بالدارين، فتأخذون بما هو أصلحُ لكم، أو: تتفكرون في الدارين، فتؤثرون أبقاهما وأكثرَهما منافعَ، ويجوز أن يتعلق بـ (يبين) أي: يبينُ لكم الآياتِ في أمر الدارين، وفيما يتعلق بهما؛ لعلكم تتفكرون.

ولما نزل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا﴾ [النساء: ١٠].. اعتزلوا اليتامى، وتركُوا مخالطتَهم، والقيامَ بأموالهم، وذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فنزل[(١)]:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ أي: مداخلتُهم على وجه الإصلاح لهم ولأموالِهم خيرٌ من مجانبتهم، ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ﴾: وتعاشروهم، ولم تجانبُوهم ﴿فَإِخْوَانُكُمْ﴾: فهم إخوانكم في الدين، ومِن حقِّ الأخِ أن يخالِطَ أخاه، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ﴾ لأموالِهم ﴿مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ لها فيجازيه على حسب مداخلته، فاحذروه، ولا تتحرَّوا غيرَ الإصلاح، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ إعناتَكم ﴿لَأَعْنَتَكُمْ﴾: لحملَكم على العَنَتِ، وهو: المشقةُ، وأحرجَكُم فلم يُطلِقْ لكم مُداخلَتهم، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾: غالبٌ يقدرُ على أن يُعنتَ عبادَه ويُحْرِجَهم، ﴿حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾ لا يُكَلِّفُ إلا وُسعَهم وطاقتهم.

---

(١) رواه أبو داود (٢٨٧١)، والنسائي (٦/ ٢٥٦) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ....

《٢٢١》 ولما سأل مَرْثَدٌ النبيَّ عليه الصلاة والسلام عن أن يتزوجَ عناق، وكانت مشركةً.. نزلَ[1]:

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ أي: لا تتزوجوهن؛ يقال: نكحَ: إذا تزوجَ، وأنكحَ غيرَه: زوجَه، ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾: ولو كان الحال أن المشركة تعجبُكم وتحبونها، ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: ولا تُزوجوهم بمسلمةٍ، كذا قالَه الزجاجُ[2]، وقال جامعُ العلوم: حُذِفَ أحدُ المفعولين، والتقدير: ولا تُنكحوهنَّ المشركين، ﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾، ثم بيَّنَ علةَ ذلك فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ وهو إشارةٌ إلى المشركات والمشركين، ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾: إلى الكفر الذي هو عملُ أهلِ النارِ، فحقُّهم ألّا يوالَوا ولا يصاهَرُوا، ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ﴾ أي: وأولياءُ اللهِ وهم المؤمنون يَدعُون إلى الجنة والمغفرةِ وما يوصل إليهما، فهم الذين تَجِبُ موالاتُهم ومصاهرتُهم ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾: بعلمه، أو: بأمره، ﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾: يتعظون.

《٢٢٢》 كانت العرب لم يؤاكلُوا الحائضَ ولم يشاربُوها ولم يَسّاكنُوا معها، كفعل اليهود والمجوسِ، فسأل أبو الدحداحِ رسولَ الله ﷺ عن ذلك وقال: يا رسول الله كيف نصنعُ بالنساء إذا حِضْنَ؟ فنزل[3]:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾ هو مصدرٌ؛ يقال: حاضت محيضاً، كقولك: جاءَ مجيئاً، ﴿قُلْ هُوَ

---

(١) رواه أبو داود (٢٠٥١)، والترمذي (٣١٧٧) والنسائي في «المجتبى» (٦/ ٦٦) عن سيدنا عَبْد اللهِ بن عمرو بنِ العاص رضي الله عنهما، ولكن فيه أن الآية التي نزلت بسبب سؤال مرثد هي قوله تعالى: ﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾.

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (١/ ٢٩٦).

(٣) روى مسلم (٣٠٢) عن سيدنا أنس رضي الله عنه أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم.. لم يؤاكلوها، ولم يجامعوهن في البيوت، فسأل أصحابُ النبيِّ ﷺ النبيَّ ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾ إلى آخر الآية، فقال رسول الله ﷺ: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح».

﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾ ....

أَذًى﴾ أي: المحيضُ شيءٌ يُستقذَرُ ويؤذِي من يقرَبُه، ﴿فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾: فاجتنبوهن؛ أي: فاجتنبوا مجامعتَهن، وقيل: إن النصارى كانوا يجامعونهن، لا يبالون بالحيض، واليهود كانوا يعتزلونهن في كل شيء، فأمر الله بالاقتصاد بين الأمرين.

ثم عند أبي حنيفة وأبي يوسف رحمهما الله: يجتنبُ ما اشتمل عليه الإزارُ، ومحمدٌ رحمه الله لا يوجبُ إلا اعتزالَ الفرجِ[١]، وقالت عائشة رضيَ الله عنها: يجتنب شعارَ الدمِ، وله ما سوى ذلك[٢].

﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ﴾ مجامعين، أو: ولا تقرَبوا مجامعتَهن ﴿حتّى يَطَّهَّرْنَ﴾: بالتشديد: كوفيٌّ غيرَ حفصٍ؛ أي: يغتسلن، وأصله: يَتَطَهَّرْنَ، فَأُدْغِمَ التاءَ في الطاء؛ لقرب مخرجَيهما، غيرُهم: ﴿يَطْهُرْنَ﴾[٣] أي: ينقطعُ دمُهنّ.

والقراءتان كآيتين، فعملنا بهما وقلنا: له أن يقرَبَها في أكثرِ الحيض بعد انقطاع الدم وإن لم تغتسلْ؛ عملاً بقراءة التخفيفِ، وفي أقلَّ منه لا يقرَبُها حتى تغتسلَ، أو يمضيَ عليها وقتُ الصلاة؛ عملاً بقراءة التشديدِ، والحملُ على هذا أولى من العكس؛ لأنه حينئذ يجبُ ترك العمل بإحداهما؛ لما عُرِفَ، وعند الشافعي رحمه الله: لا يقرَبُها حتى تَطْهُرَ وتَتَطَهَّرَ؛ دليلُه: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ﴾: فجامعوهن، فَجَمَعَ بينهما، ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾: مِن المأتى الذي أمركم الله به، وحلَّله لكم وهو القُبُل؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ من ارتكاب ما نُهوا عنه، أو: العَوّادِين إلى الله تعالى وإن زَلُّوا فَزَلُّوا، والمحبَّةُ لمعرفته بعظم عفو الله؛ حيث لا ييأس، ﴿وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ بالماء، أو: المتنزهين من أدبار النساءِ، أو: من الجماع في الحيض، أو: من الفواحش.

《٢٢٣》 كان اليهود يقولون: إذا أتى الرجل أهله باركةً.. أتى الولدُ أحولَ، فنزل[٤]:

---

(١) انظر «حاشية ابن عابدين» (١/ ٢٩٢).

(٢) ذكره الإمام محمد بن الحسن بلا إسناد. انظر «موطأ مالك برواية محمد بن الحسن الشيباني» (ص ٥٠)، وفي «سنن الدارمي» (١/ ٦٩٦) عن عائشة رضي الله عنها، قالت لإنسان: «اجتنب شعار الدم».

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص٤٩).

(٤) رواه البخاري (٤٥٢٨)، ومسلم (١٤٣٥) عن سيدنا جابر رضي الله عنه.

وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ ...

﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾: مواضعُ حرثٍ لكم، وهذا مجازٌ، شُبِّهْن بالمحاريث تشبيهاً لما يُلقى في أرحامهن من النُّطَفِ التي منها النسلُ.. بالبذورِ، وللولدِ بالنباتِ، ووقعَ قولُه: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ بياناً وتوضيحاً لقوله: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ أي: إن المأتَى الذي أمركم الله به هو مكانُ الحرث لا مكانُ الفَرْثِ؛ تنبيهاً على أن المطلوب الأصلي في الإتيان هو طلبُ النسلِ لا قضاءُ الشهوةِ، فلا تأتوهن إلا من المأتَى الذي نِيطَ به هذا المطلوبُ، ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾: جامعوهن متى شئتم، أو كيف شئتم، باركةً أو مستلقيةً أو مضطجعةً، بعدَ أن يكون المأتَى واحداً، وهو موضعُ الحرثِ، وهو تمثيلٌ؛ أي: فأتوهن كما تأتون أراضيَكم التي تريدون أن تحرثُوها من أيِّ جهةٍ شئتم، لا يُحظَرُ عليكم جهةٌ دون جهةٍ، وقولُه: (هو أذىً)، (فاعتزلوا النساء)، (من حيث أمركم الله)، (فأتوا حرثكم أنى شئتم): من الكنايات اللطيفةِ، والتعريضاتِ المستحسَنة، فعلى كل مسلم أن يتأدب بها، ويتكلَّفَ مثلها في المحاورات والمكاتبات، ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ﴾ ما يجبُ تقديمُه من الأعمال الصالحة، وما هو خلافُ ما نهيتكم عنه، أو: هو طلب الولد، أو: التسميةُ على الوطء، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فلا تجترئُوا على المناهي، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ﴾: صائرون إليه فاستعدوا للقائه، ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾ بالثواب يا محمدُ.

وإنما جاء (يسئلونك) ثلاثَ مراتٍ بلا واو، ثُمَّ مع الواو ثلاثاً؛ لأن سؤالهم عن تلك الحوادثِ الأُوَلِ كأنه وقعَ في أحوال متفرقةٍ، فلم يؤتَ بحرفِ العطفِ؛ لأن كلَّ واحد من السؤالات سؤالٌ مبتدأٌ، وسألوا عن الحوادث الأُخَرِ في وقت واحدٍ، فجيءَ بحرف الجمع لذلك.

«٢٢٤» ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ﴾ العُرضةُ: (فُعْلَةٌ) بمعنى: (مفعول)، كالقُبضةِ، وهي: اسم ما تعرِضُه دون الشيء؛ مِن عَرَضَ العودَ على الإناءِ؛ فيتعرضُ دونَه[1]، ويصيرُ حاجزاً ومانعاً منه؛ تقول: فلانٌ عُرضةٌ دون الخيرِ، وكان الرجل يحلفُ على بعض الخيرات[2]؛ من صلة رحمٍ، أو إصلاحِ ذاتِ بَيْنٍ، أو إحسانٍ إلى أحد، أو عبادةٍ، ثم يقول: أخافُ اللهَ أن أحنَثَ في يميني، فيترك البِرَّ إرادةَ البِرِّ في يمينه[3]، فقيل لهم: (ولا تجعلوا الله عُرضة

(١) فيتعرضُ: معطوفٌ على تعرِضُه.

(٢) أي: يحلف على تركها.

(٣) فيترك البِرَّ؛ أي: عملَ الخير. إرادةَ البِرِّ؛ أي: عدمِ الحنث في يمينه.

﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ ....﴾

لأيمانكم)[١]؛ أي: حاجزاً لما حلفتم عليه، وسُمِّيَ المحلوفُ عليه يميناً؛ لتلبسِه باليمين، كقوله عليه السلام: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها...»[٢]، وقولُه: ﴿أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾: عطفُ بيانٍ لـ (أيمانكم) أي: للأمورِ المحلوفِ عليها التي هي البِرُّ والتقوى والإصلاحُ بين الناس، واللامُ تتعلق بالفعل؛ أي: ولا تجعلوا الله لأيمانكم برزخاً، ويجوز أن تكون اللامُ للتعليل، ويتعلق (أن تبروا): بالفعلِ، أو بالعُرْضَةِ؛ أي: ولا تجعلوا الله لأجل أيمانكم به عُرْضَةً لأن تبروا، ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأيمانكم، ﴿عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾﴾ بنيّاتِكم.

《٢٢٥》 ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ اللغْوُ: الساقطُ الذي لا يُعتدُّ به من كلام وغيرِه، ولغوُ اليمينِ: الساقطُ الذي لا يُعتدُّ به في الأيمان، وهو: أن يحلف على شيء يظنُّه على ما حلف عليه، والأمرُ بخلافِه؛ والمعنى: لا يعاقبُكم بِلَغْوِ اليمين الذي يحلفُه أحدُكم، وعند الشافعي رحمه الله: هو ما يجري على لسانه من غير قصدٍ للحلف؛ نحو: لا والله، وبلى والله[٣]، ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم﴾: ولكن يعاقبُكم ﴿بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾: بما اقترفَتْهُ من إثم القصد إلى الكذب في اليمين، وهو: أن يحلف على ما يعلمُ أنه خلافُ ما يقوله، وهو اليمين الغموسُ.

وتعلق الشافعيُّ بهذا النصِّ على وجوب الكفارة في الغموسِ؛ لأن كسب القلب العزمُ والقصدُ، والمؤاخذةُ غيرُ مبيَّنَةٍ هنا، وبُيِّنَت في (المائدة)، فكان البيان ثمةَ بياناً هنا، وقلنا: المؤاخذةُ هنا مُطْلَقَةٌ، وهي في دار الجزاءِ، والمؤاخذةُ ثَمَّ مقيدةٌ بدار الابتلاءِ، فلا يصحُّ حملُ البعضِ على البعضِ[٤]، ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾ حيث لم يؤاخذْكُم باللغو في أيمانكم.

《٢٢٦》 ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ﴾: يُقسمون، وهي قراءة ابن عباس رضي الله عنه[٥]، و(مِن) في ﴿مِن نِّسَآئِهِمْ﴾: يتعلق بالجارِّ والمجرورِ؛ أي: (للذين) كما تقول: لكَ مِنّي نصرةٌ، ولكَ مِنّي

---

(١) روى نحوه الطبري في «تفسيره» (٤/ ٤٢٠).

(٢) تتمته «فليكفر عن يمينه» رواه مسلم (١٦٥٠) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) انظر «حاشية ابن عابدين» (٣/ ٧٠٦)، و«نهاية المحتاج» (٨/ ١٧٩).

(٤) مما استدل به الشافعية لوجوب الكفارة: أن اليمين الغموس داخلة في عموم قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾. انظر «كفاية النبيه» (١٤/ ٤٠٦).

(٥) انظر «المحرر الوجيز» (١/ ٣٠٢).

وَإِن عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ....

معونةٌ[1]؛ أي: للمُؤلِين من نسائهم ﴿تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ أي: استقر للمُؤلين تَرَقُّبُ أربعةِ أشهرٍ، لا بـ (يؤلون)؛ لأن آلى يُعدَّى بـ: على؛ يقال: آلى فلانٌ على امرأته، وقولُ القائل: آلى فلان من امرأته، وَهَمٌ توهمَه من هذه الآية، ولك أن تقول: عُدِّيَ بـ: مِن؛ لما في هذا القسم من معنى البُعد، فكأنه قيل: يَبْعُدون من نسائهم مُؤلين، ﴿فَإِن فَآءُو﴾ في الأَشْهُرِ؛ لقراءة عبدِ اللهِ: ﴿فإن فاءوا فيهن﴾[2] أي: رجعُوا إلى الوطءِ عن الإصرار بتركه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾﴾ حيث شرع الكفارةَ.

《٢٢٧》 ﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ﴾ بترك الفيءِ فتربصُوا إلى مُضِيِّ المدة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لإيلائه ﴿عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾ بِنِيَّتِه، وهو وعيدٌ على إصرارهم وتركهم الفَيْئَةَ، وعند الشافعي رحمه الله: معناه: (فإن فاءوا) (وإن عزموا) بعد مضيِّ المدةِ؛ لأن الفاءَ للتعقيب، وقلنا: قولُه: (فإن فاءوا) (وإن عزموا): تفصيلٌ لقوله: (للذين يؤلون من نسائهم)، والتفصيلُ يَعْقُبُ المفصَّلَ، كما تقول: أنا نزيلُكم هذا الشهرَ؛ فإن أحمدتُكم.. أقمت عندكم إلى آخره، وإلّا.. لم أقم إلّا ريثَما أَتحوَّلُ[3].

《٢٢٨》 ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ﴾ أراد: المدخولَ بهن من ذواتِ الأقراء ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾: خبرٌ في معنى الأمرِ، وأصلُ الكلام: ولْتَتَربَّصِ المطلقاتُ، وإخراجُ الأمرِ في صورةِ الخبرِ تأكيدٌ للأمرِ، وإشعارٌ بأنه مما يجب أن يُتَلَقَّى بالمسارعة إلى امتثالِه، فكأنهن امْتَثَلْنَ الأمرَ بالتربصِ فهو

---

(١) (تربصُ): مبتدأ، و(للذين): متعلقٌ بالخبر المحذوف، وكذا (من نسائهم): متعلق بذلك الخبر المحذوف، والتقدير: كائنٌ للذين يؤلون من نسائهم تربصُ.
فمراده بقوله: يتعلق بالجار والمجرور: إما تعلقه بما تعلق به الجار والمجرور، أو: لمّا تعلق (للذين) بالخبر المحذوف.. صار كأنه هو الخبر، فعمل في (من نسائهم).

(٢) نسبها في «المحرر الوجيز» (١/ ٣٠٣) لسيدنا أبي بن كعب رضي الله عنه.

(٣) عند الحنفية: الفيء في المدة، والطلاق بعدها؛ فالمُولي إن فاء في المدة بالوطء لمن قدر، وبالوعد لمن عجز.. صح الفيءُ ولزم الواطئَ أن يكفر إن كان حلفه بالله، وإن لم يفئ.. بانت بعدها بطلقة، وعند الشافعية: الفيء والطلاق بعد المدة؛ عملاً بالفاء التي للتعقيب، فيطالَب بعد المدة بأحد الأمرين: الفيءِ أو الطلاقِ، فإن أبى عنهما.. طلَّقَ عليه الحاكم. انظر «حاشية ابن عابدين» (٣/ ٤٢٧)، و«نهاية المحتاج» (٧/ ٧٧).

يُخْبَرُ عنه موجوداً، ونحوُه: قولهم في الدعاء: رَحِمَكَ اللهُ. أُخْرِجَ في صورة الخبر ثقةً بالاستجابة كأنما وجدت الرحمةُ، فهو يخبرُ عنها، وبناؤُه على المبتدأِ مما زادَه أيضاً فضلَ تأكيدٍ؛ لأن الجملة الاسمية تدلُّ على الدوامِ والثباتِ بخلاف الفعليةِ، وفي ذكرِ الأنفس تهييجٌ لهن على التربص وزيادةُ بعثٍ؛ لأن أنفس النساء طوامحُ إلى الرجال، فأُمِرنَ أن يقمعنَ أنفسَهن ويغلِبنها على الطُّموح، ويُجْبِرْنَها على التربص.

﴿ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾: جمعُ قَرءٍ أو قُرءٍ، وهو الحيضُ؛ لقوله عليه السلام: «دعي الصلاة أيام أقرائك»[١]، وقولِه عليه السلام: «طلاق الأمة تطليقتان، وعدتها حيضتان»[٢]، ولم يقل: طُهران، وقولُه تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾ [الطلاق: ٤] فأقام الأشهرَ مقامَ الحيضِ دونَ الأطهارِ؛ ولأن المطلوب من العدةِ استبراءُ الرحم، والحيضُ هو الذي يُستبرأُ به الأرحامُ دون الطهرِ؛ ولذلك كان الاستبراء من الأمة بالحيضة؛ ولأنه لو كان طهراً كما قال الشافعيُّ رحمه الله تعالى.. لانقضت العدةُ بقُرأين وبعضِ الثالثِ، فانتقص العددُ عن الثلاثةِ؛ لأنه إذا طلقها في آخر الطهر.. فذا محسوبٌ من العدة عنده، وإذا طلقها في آخر الحيض.. فذا غيرُ محسوبٍ من العدة عندنا، والثلاثُ اسمٌ خاصٌّ لعدد مخصوصٍ لا يقعُ على ما دونه، ويقال: أقرأت المرأةُ: إذا حاضت، وامرأة مُقْرِئٌ[٣].

وانتصابُ (ثلاثةَ) على أنه مفعولٌ به؛ أي: يتربصن مُضِيَّ ثلاثةِ قروءٍ، أو: على الظرف؛ أي: يتربصن مدةَ ثلاثةِ قروءٍ، وجاء المميِّزُ على جمع الكثرة دون القلة التي هي الأقراءُ؛ لاشتراكهما في الجمعية اتساعاً، ولعل القروءَ كانت أكثرَ استعمالاً في جمع قُرءٍ من الأقراء، فأوثرَ عليه تنزيلاً لقليل الاستعمالِ منزلةَ المهمل.

﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾ من الولدِ، أو: من دم الحيض، أو: منهما، وذلك إذا أرادت المرأة فراقَ زوجِها.. فكتمت حملَها؛ لئلا يَنْتَظِرَ بطلاقها أن تضعَ؛ ولئلا يُشفقَ على الولد فيتركَ تسريحَها، أو: كَتَمَتْ حيضَها وقالت وهي حائض: قد طهُرت؛ استعجالاً للطلاق، ثم عَظَّمَ فعلَهن فقال: ﴿إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ لأن من آمن بالله وبعقابه لا

---

(١) رواه الدارقطني في «السنن» (١/ ٣٩٤) عن سيدتنا عائشة رضي الله عنها.
(٢) رواه أبو داود (٢١٨٩)، والترمذي (١١٨٢)، وابن ماجه (٢٠٨٠) عن سيدتنا عائشة رضي الله عنها.
(٣) انظر «بدائع الصنائع» (٣/ ١٩٤).

﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٢٩﴾ ....

يجترئُ على مثله من العظائم، ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ﴾ البعول: جمعُ بَعْلٍ، والتاءُ لاحقةٌ لتأنيثِ الجمعِ ﴿أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ أي: أزواجُهن أولى برجعتهن.

وفيه دليل: على أن الطلاق الرجعيَّ لا يُحرِّمُ الوطءَ حيث سماه زوجاً بعد الطلاق[1]، ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾: في مدة ذلك التربصِّ، والمعنى: أن الرجل إن أراد الرجعةَ وأبَتْها المرأةُ.. وجبَ إيثارُ قولِه على قولها، وكان هو أحقَّ منها، لا أن لها حقّاً في الرجعة، ﴿إِنۡ أَرَادُوٓاْ﴾ بالرجعة ﴿إِصۡلَٰحٗاۚ﴾ لما بينهم وبينهن، وإحساناً إليهن، ولم يريدُوا مُضارَّتَهن، ﴿وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ﴾: ويجب لهن من الحق على الرجال من المهر والنفقة وحسن العشرة وترك المضارة مثلُ الذي يجب لهم عليهن من الأمر والنهي ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾: بالوجه الذي لا يُنْكَرُ في الشرع وعاداتِ الناس، فلا يُكلِّفُ أحدُ الزوجين صاحبَه ما ليس له، والمرادُ بالمماثلةِ: مماثلةُ الواجبِ الواجبَ في كونه حسنةً، لا في جنس الفعلِ، فلا يجبُ عليه إذا غسلت ثيابَه، أو خَبَزَتْ له أن يفعل نحوَ ذلك، ولكن يقابلُه بما يليق بالرجال، ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞۗ﴾: زيادةٌ في الحقِّ وفضيلةٌ بالقيام بأمرِها وإن اشتركا في اللذةِ والاستمتاعِ، أو: بالإنفاق وملكِ النكاح، ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾: لا يُعترضُ عليه في أموره، ﴿حَكِيمٌ ٢٢٨﴾: لا يأمرُ إلا بما هو صوابٌ وحَسَنٌ.

《٢٢٩》 ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾ الطلاقُ بمعنى: التطليقِ، كالسلام بمعنى: التسليم؛ أي: التطليقُ الشرعيُّ تطليقةٌ بعدَ تطليقةٍ؛ على التفريق دونَ الجمعِ والإرسالِ دُفعةً واحدةً، ولم يُرِدْ بالمرتين التثنيةَ، ولكنِ التكريرُ، كقوله: ﴿ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ﴾ [الملك: ٤] أي: كرةً بعدَ كرةٍ، لا كرتين اثنتين.

وهو دليل لنا في أن الجمع بين الطلقتين والثلاثةِ بدعةٌ في طُهر واحدٍ؛ لأن الله تعالى أَمَرَنا بالتفريق؛ لأنه وإن كان ظاهرُه الخبرَ.. فمعناه الأمرُ، ولا يؤدِّي إلى الخُلْفِ في خبر الله تعالى؛ لأن الطلاق على وجه الجمعِ قد يوجدُ، وقيل: قالت أنصاريةٌ: إن زوجي قال: لا أزال أطلقُكِ، ثم أراجعُكِ، فنزلت[2]: (الطلاق مرتان) أي: الطلاقُ الرجعيُّ مرتان؛ لأنه لا رجعةَ بعدَ

---

(١) انظر «حاشية ابن عابدين» (٣/٤٠٩).

(٢) روى نحوه الواحدي في «أسباب النزول» (ص٨١).

﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٢٣٠﴾ ....

الثالثِ، ﴿فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ﴾: برجعةٍ؛ والمعنى: فالواجبُ عليكم إمساكٌ بمعروف، ﴿أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾ بألّا يراجعَها حتى تبينَ بالعدةِ، وقيل: بألّا يطلقَها الثالثةَ في الطهرِ الثالثِ.

ونزل في جميلةَ وزوجِها ثابتِ بنِ قيسِ بن شَمّاسٍ، وكانت تُبغضُه وهو يحبُّها، وقد أعطاها حديقةً، فاختلعتْ منه بها، وهو أول خُلعٍ كان في الإسلام[1]:

﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ﴾ أيُّها الأزواجُ، أو: الحكامُ؛ لأنهم الآمرون بالأخذ والإيتاء عند الترافع إليهم، فكأنهم الآخذون والمؤتون، ﴿أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا﴾: مما أعطيتموهن من المهور، ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ﴾: إلا أن يعلم الزوجان تركَ إقامةِ حدود الله فيما يلزمُهما من مَواجب الزوجيةِ؛ لما يحدث من نشوز المرأة وسوء خلقها، ﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ﴾ أيها الولاةُ، وجاز أن يكون أولُ الخطاب للأزواجِ، وآخرُه للحكام، ﴿أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا﴾: فلا جناح على الرجل فيما أخذَ، ولا عليها فيما أعطت، ﴿فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ﴾: فيما فتدت به نفسَها واختلعت به، من بذل ما أوتيت من المهر، ﴿إلا أن يُخافا﴾: حمزةُ[2]؛ على البناء للمفعولِ، وإبدالِ (ألا يقيما) من ألفِ الضميرِ، وهو من بدل الاشتمالِ، نحو: خِيفَ زيدٌ تركُه إقامةَ حدودِ الله، ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أي: ما حَدَّ من النكاح واليمين والإيلاء والطلاق والخلع وغير ذلك، ﴿فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ﴾: فلا تجاوزوها بالمخالفة، ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٢٩﴾: الضارُّون أنفسَهم.

«٢٣٠» ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ مرةً ثالثةً بعد المرتين، **فإن قلت**: الخلعُ طلاقٌ عندنا، وكذا عند الشافعي في قولٍ[3]، فكأن هذه تطليقةٌ رابعةٌ، **قلت**: الخلعُ طلاقٌ ببدل، فيكون طلقةً ثالثةً، وهذا بيان لتلك؛ أي: فإن طلقها الثالثة ببدل.. فحكمُ التحليلِ: كذا.

﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ﴾: من بعد التطليقةِ الثالثةِ ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ﴾: حتى تَتزوجَ غيرَه، والنكاحُ يُسندُ إلى المرأة كما يُسند إلى الرجل كالتزوج، وفيه دليلٌ على أن النكاحَ ينعقد

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٤/ ٥٥٧) عن ابن جريج، ورواه البخاري (٥٢٧٣) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما، وليس في «البخاري» التصريح بنزول الآية في هذه القصة.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٥٠).

(٣) انظر «حاشية ابن عابدين» (٣/ ٤٤٤)، والمعتمد عند الشافعية أن الخلع طلاق. انظر «نهاية المحتاج» (٦/ ٤٠٥).

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾﴾ ....

بعبارتها، والإصابةُ شُرطت بحديث العُسيلة، كما عُرِفَ في أصول الفقهِ[1]، والفقهُ فيه: أنه لما أقدمَ على فراقٍ لم يبق للندم مخلصٌ.. لم تحل له إلا بدخول فَحْلٍ عليها؛ ليمتنع عن ارتكابه.

﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ الزوجُ الثاني بعد الوطء ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ﴾: على الزوج الأول وعليها ﴿أَن يَتَرَاجَعَآ﴾: أن يرجع كلٌّ واحدٍ منهما إلى صاحبه بالزواج ﴿إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾: إن كان في ظنِّهما أنهما يقيمان حقوقَ الزوجية، ولم يقل: إن علما أنهما يقيمان؛ لأن اليقين مُغيَّبٌ عنهما، لا يعلمه إلا الله، ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا﴾ وبالنون: المفضَّلُ[2]، ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾﴾: يفهمون ما بُيِّنَ لهم.

《٢٣١》 ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: آخرَ عدتِهن، وشارَفْنَ مُنتهاها، والأجلُ يقع على المدة كلِّها، وعلى آخرِها، يقال لعُمُرِ الإنسان: أجلٌ، وللموت الذي ينتهي به: أجلٌ، ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ﴾ أي: فإما أن يراجعها من غير طلبِ ضرارٍ بالمراجعة، وإما أن يخليَها حتى تنقضيَ عدتُها وَتَبِيْنَ من غير ضرارٍ، ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا﴾: مفعولٌ له، أو: حالٌ؛ أي: مُضارِّين، وكان الرجل يطلِّقُ المرأةَ ويتركُها حتى يَقْرُبَ انقضاءُ عدتِها، ثم يراجعُها لا عن حاجةٍ، ولكن ليطوِّلَ العدةَ عليها، فهو الإمساكُ ضراراً ﴿لِّتَعْتَدُواْ﴾: لتظلموهن، أو: لتلجئوهنَّ إلى الافتداءِ.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ يعني: الإمساكَ؛ للضرار ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ بتعريضها لعقاب الله، ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ﴾ أي: جِدُّوا في الأخذ بها، والعملِ بما فيها، وارعَوها حقَّ رعايتِها، وإلَّا.. فقد اتخذتموها هزواً؛ يقال لمن لم يَجِدَّ في الأمر: إنما أنت لاعبٌ وهازئٌ.

﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بالإسلام، وبنبوة محمدٍ عليه السلام، ﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ

---

(١) عن عائشة رضي الله عنها: جاءت امرأة رفاعة القرظي النبي ﷺ، فقالت: كنت عند رفاعة، فطلقني، فأَبَتَّ طلاقي، فتزوجت عبد الرحمن بن الزبير إنما معه مثل هدبة الثوب، فقال: «أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة؟ لا، حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك» رواه البخاري (٢٦٣٩) ومسلم (١٤٣٣)، والعُسيلةُ: تصغيرُ عسلةٍ، وهي كناية عن الجماع، شبه لذته بلذة العسل وحلاوته. انظر «شرح مسلم للنووي» (١٠/٣).

(٢) انظر «تفسير الثعلبي» (٢/١٧٧).

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾ . . . .

﴿وَٱلْحِكْمَةِ﴾: من القرآن والسنة، وذِكْرُها: مُقابلَتُها بالشكرِ والقيامُ بحقِّها، ﴿يَعِظُكُم بِهِۦ﴾: بما أنزل عليكم، وهو حالٌ، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فيما امتحنكم به، ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾﴾: من الذكر والاتقاء والاتعاظ وغيرِ ذلك، وهو أبلغُ وعدٍ ووعيدٍ.

《٢٣٢》 ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: انقضت عدتُهن، فدلَّ سياقُ الكلامين على افتراق البلوغين؛ لأن النكاح يعقبُه هنا، وذا يكون بعد العدة، وفي الأولى الرجعةُ، وذا يكون في العدة[1]، ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾: فلا تمنعوهن، والعضلُ: المنعُ والتضييقُ، ﴿أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ﴾: من أن ينكحن أزواجهن الذين يرغبْنَ فيهم، ويصلحون لهن، وفيه إشارةٌ إلى انعقاد النكاح بعبارة النساء.

والخِطابُ: للأزواج الذين يعضُلون نساءهم بعد انقضاء العدة ظلماً، ولا يتركونَهن يتزوجْن من شِئْنَ من الأزواج؛ سُمُّوا أزواجاً باسم ما يؤول إليه، أو: للأولياء في عَضْلِهِنَّ أن يرجعن إلى أزواجهن الذين كانوا أزواجاً لهن؛ سُمُّوا أزواجاً باعتبار ما كان، نزلت في معقِلِ بنِ يسارٍ حين عَضَلَ أختَه أن ترجع إلى الزوج الأولِ[2]، أو: للناس؛ أي: لا يوجدْ فيما بينكم عضلٌ؛ لأنه إذا وجد بينهم وهم راضون.. كانوا في حكم العاضِلِين، ﴿إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم﴾: إذا تراضى الخُطّابُ والنساءُ ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: بما يَحْسُنُ في الدين والمروءةِ من الشرائط، أو: بمهر المثلِ والكفءِ؛ لأن عند عدم أحدهما.. للأولياء أن يعترضوا، والخطابُ في ﴿ذَٰلِكَ﴾ للنبي ﷺ، أو: لكلِّ أحدٍ، ﴿يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ فالمواعظُ إنما تنجح فيهم، ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: تركُ العضلِ والضِّرارِ ﴿أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ أي: لكم من أدناس الآثام، أو: أزكى وأطهرُ: أفضلُ وأطيبُ، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما في ذلك من الزَّكاءِ والطُّهرِ، ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾ ذلك.

---

(١) أي: أن قوله تعالى: (فبلغن أجلهن) له معنيان، ففي الآية السابقة: معناه: قاربن انتهاء العدة؛ بدليل قوله بعده: (فأمسكوهن) والرجعة تكون في العدة، وفي هذه الآية: معناه: انتهاء العدة؛ بدليل ذكر النكاح بعده، والنكاح يكون بعد العدة.

(٢) رواه البخاري (٤٥٢٩) عن سيدنا معقلِ بنِ يسارٍ رضي الله عنه.

﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ ....﴾

《٢٣٣》 ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾: خبرٌ في معنى الأمر المؤكَّدِ، كـ (يتربصن)، وهذا الأمرُ على وجه الندب، أو: على وجه الوجوبِ إذا لم يقبل الصبيُّ إلا ثَدْيَ أمِّه، أو لم توجد له ظِئْرٌ، أو كان الأب عاجزاً عن الاستئجار، أو: أراد الوالداتِ المطلقاتِ، وإيجابُ النفقة والكسوة لأجل الرضاع، ﴿حَوْلَيْنِ﴾: ظرفٌ ﴿كَامِلَيْنِ﴾: تامَّين، وهو تأكيدٌ؛ لأنه مما يُتسامح فيه؛ فإنك تقول: أقمت عند فلان حولين ولم تستكملهما، ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾: بيانٌ لمن توجَّه إليه الحكمُ؛ أي: هذا الحكم لمن أراد إتمام الرضاعة.

والحاصلُ: أن الأب يجب عليه إرضاعُ ولده دون الأم، وعليه أن يتخذ له ظئراً إلا إذا تطوعت الأم بإرضاعه، وهي مندوبةٌ إلى ذلك، ولا تجبر عليه، ولا يجوز استئجار الأم ما دامت زوجة أو معتدة.

﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ﴾ الهاءُ يعودُ إلى اللام الذي بمعنى: الذي، والتقدير: وعلى الذي يولد له، وهو الوالدُ، و(له) في محل الرفع على الفاعلية[1]، كـ (عليهم) في ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾.

وإنما قيل: (على المولود له) دون: الوالدِ؛ ليعلم أن الوالدات إنما وَلَدْنَ لهم؛ إذ الأولادُ للآباءِ، والنسبُ إليهم، لا إليهن، فكان عليهم أن يرزقوهن ويكسوهن إذا أرضعن ولدَهم كالأظآر، ألا ترى أنه ذَكَرَهُ باسم الوالدِ حيث لم يكن هذا المعنى وهو قوله: ﴿وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [لقمان: ٣٣]، ﴿رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: بلا إسرافٍ ولا تقتيرٍ، أو: تفسيرُه ما يَعْقُبُه؛ وهو ألّا يُكَلَّفَ واحدٌ منهما ما ليس في وُسْعِه، ولا يَتَضارّا، ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾: وُجْدَها وقدرَ إمكانِها، والتكليفُ: إلزامُ ما يؤثِّرُ في الكلفة، وانتصابُ (وسعها): على أنه مفعولٌ ثانٍ لـ(تكلف)، لا على الاستثناء، ودخلت (إلا) بين المفعولين، ﴿لا تُضارُّ﴾: مكيٌّ، وبصريٌّ: بالرفع على الإخبار، ومعناه النهيُ، وهو يَحتمِل البناءَ للفاعل والمفعول، وأن يكون الأصل تضارِرُ بكسر الراء، أو تضارَرُ، بفتحها،

---

(١) أي: نائبٌ عن الفاعل.

....

الباقون: ﴿لَا تُضَارَّ﴾: على النهي[١]، والأصل: تضارِرْ، أُسْكِنَتِ الأولى، وأدغمت في الثانية، فالتقى ساكنان، ففتحت الثانيةُ؛ لالتقاء الساكنين، ﴿وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا﴾ أي: لا تضارَّ والدةٌ زوجَها بسبب ولدِها؛ وهو أن تعنِّفَ به وتطلب منه ما ليس بِعَدْلٍ من الرزق والكسوةِ، وأن تَشْغَلَ قلبَه بالتفريط في شأن الولدِ، وأن تقول بعد ما أَلِفَها الصبيُّ: اطلبْ له ظِئراً، وما أشبه ذلك، ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ أي: ولا يضارَّ مولودٌ له امرأتَه بسبب ولده، بأن يمنعَها شيئاً مما وجب عليه من رزقها وكسوتِها، أو يأخذَه منها وهي تريدُ إرضاعَه، وإذا كان مبنيّاً للمفعول.. فهو نهيٌ عن أن يُلْحَقَ بها الضرارُ من قِبَلِ الزوج، وعن أن يُلحقَ الضرارُ بالزوج من قِبَلِها بسبب الولد، أو: (تُضارَّ) بمعنى: تَضرُّ، والباءُ من صلتِه؛ أي: لا تَضُرُّ والدةٌ ولدَها؛ فلا تُسِيْءُ غذاءَه وتعهُّدَه، ولا تدفعْه إلى الأب بعد ما أَلِفَها، ولا يَضُرُّ الوالدُ به؛ بأن ينتزعَه من يدها، أو يقصرَ في حقها فتقصرَ هي في حقِّ الولدِ، وإنما قيل: (بولدها) و(بولده)؛ لأنه لما نهيت المرأةُ عن المضارة.. أضيفَ إليها الولدُ استعطافاً لها عليه، وكذلك الوالدُ.

﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ﴾: عطفٌ على قولِه: (وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن)، وما بينَهما تفسيرٌ للمعروف، معترضٌ بين المعطوفِ والمعطوفِ عليه؛ أي: وعلى وارث الصبيِّ عندَ عدمِ الأب ﴿مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ أي: مثلُ الذي كان على أبيه في حياته من الرزق والكسوةِ.

واختلف فيه؛ فعند ابن أبي ليلى: كلُّ مَن ورثه، وعندنا: مَن كان ذا رحم محرم منه؛ لقراءة ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿وعلى الوارث ذي الرحمِ المحرمِ مثلُ ذلك﴾[٢]، وعند الشافعيِّ رحمه الله: لا نفقةَ فيما عدا الولادَ[٣].

﴿فَإِنْ أَرَادَا﴾ يعني: الأبوين ﴿فِصَالًا﴾: فطاماً صادراً ﴿عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ﴾ بينهما ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ في ذلك، زادَا على الحولين أو نَقَصا، وهذه توسعةٌ بعد التحديدِ، والتشاورُ: استخراجُ الرأيِ؛ مِن شُرتُ العسلَ: إذا استخرجتَه، وذَكَرَه؛ ليكون التراضي عن تفكرٍ، فلا يضرَّ الرضيعَ، فسبحان الذي أدبَ الكبيرَ، ولم يُهملِ الصغيرَ، واعتَبَرَ اتفاقَهما؛ لما للأب النسبة والولاية، وللأم الشفقة والعناية[٤].

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٥٠).
(٢) ذكر هذه القراءة السرخسي في «المبسوط» (٥/٢٠٩).
(٣) انظر «حاشية ابن عابدين» (٣/٦٢٧)، و«نهاية المحتاج» (٧/٢١٨).
(٤) كذا في الأصل، ولعل الصواب: لما كان للأب...

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾﴾ ....

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ أي: لأولادكم: عن الزجاج[1]، وقيل: استرضعَ: منقولٌ مِن: أرضعَ؛ يقال: أرضعت المرأةُ الصبيَّ، واسترضعتُها الصبيَّ: مُعَدّىً إلى مفعولين؛ أي: أن تسترضعوا المراضعَ أولادكم، فَحُذِفَ أحدُ المفعولين؛ يعني: غيرَ الأمِّ عند إبائِها، أو عجزها، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم﴾ إلى المراضعِ ﴿مَّا آتَيْتُم﴾: ما أردتم إيتاءه من الأجرة، ﴿أتيتم﴾: مكيٌّ[2]؛ مِن: أتى إليه إحساناً: إذا فَعَلَهُ، ومنه قولُه: ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾ [مريم: ٦١] أي: مفعولاً، والتسليمُ ندبٌ، لا شرطٌ للجواز، ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾: متعلقٌ بـ (سلمتم) أي: سلمتم الأجرةَ إلى المراضعِ بطيبِ نفسٍ وسرورٍ، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾: لا تخفى عليه أعمالُكم، فهو يجازيكم عليها.

《٢٣٤》 ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾ تقول: تَوَفَّيْتُ الشيءَ واستوفيتُه: إذا أخذتَه وافياً تامّاً؛ أي: تُستوفَى أرواحُهم، ﴿وَيَذَرُونَ﴾: ويتركون ﴿أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ أي: وزوجاتُ الذين يتوفون منكم يتربصن؛ أي: يَعْتَدِدْنَ، أو: معناه: يتربصن بَعْدَهم بأنفسهن، فحُذِفَ: بعدهم؛ للعلم به، وإنما احتيج إلى تقديره؛ لأنه لا بدَّ من عائد يرجعُ إلى المبتدأ في الجملة التي وقعت خبراً، ﴿يَتَوَفَّوْنَ﴾: المفضَّل[3]؛ أي: يستوفون آجالَهم، ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ أي: وعشرَ ليالٍ، والأيامُ داخلةٌ معها، ولا يستعملُ التذكير فيه ذهاباً إلى الأيام، تقول: صمت عشراً، ولو ذَكَّرْتَ.. لخرجت من كلامهم[4]، ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾: فإذا انقضت عدتُهن ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها الأئمةُ والحكامُ ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ﴾ من التعرض للخُطّاب ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾: بالوجه الذي لا ينكرُه الشرعُ، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾﴾: عالمٌ بالبواطنِ.

---

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (١/ ٢١٠).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٥١).

(٣) انظر «الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها» (ص٥٠٥).

(٤) العدد (عشرة) تلحقه التاء مع المعدود المذكر، وتحذف مع المعدود المؤنث، وقد ورد هنا بلا تاء، فلذا قدر النسفي المعدود مؤنثاً وهو: ليالٍ، ولكن ذكر أبو حيان أنه إذا حُذِفَ المعدودُ المذكرُ.. جاز دخولُ التاء وحذفها. انظر «تفسير البحر المحيط» (٢/ ٢٣٤).

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾ ....

«٢٣٥» ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾ الخِطبةُ: الاستنكاحُ، والتعريضُ: أن تقول لها: إنك لجميلةٌ، أو صالحةٌ، ومن غرضي أن أتزوجَ، ونحوَ ذلك من الكلام الموهم أنه يريد نكاحَها، حتى تحبسَ نفسَها عليه إن رغبت فيه، ولا يصرحُ بالنكاح، فلا يقول: إني أريد أن أتزوجك. والفرقُ بين الكنايةِ والتعريضِ: أن الكناية: أن تذكر الشيءَ بغير لفظِه الموضوعِ له، والتعريضَ: أن تذكر شيئاً تدلُّ به على شيء لم تذكرْهُ، كما يقول المحتاجُ للمحتاجِ إليه: جئتك لأسلمَ عليك؛ ولأنظرَ إلى وجهك الكريمِ؛ ولذلك قالوا[1]: [من: الطويل]

.... وحسبك بالتسليم مني تقاضيا

وكأنه إمالةُ الكلامِ إلى غرضٍ يدلُّ على الغرضِ.

﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾: أو سَترتم وأضمَرتم في قلوبكم، فلم تذكروه بألسنتكم، لا معرِّضين، ولا مصرحين، ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ لا محالةَ، ولا تنفكون عن النطقِ برغبتِكم فيهن، فاذكروهن ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾: جماعاً؛ لأنه مما يُسَرُّ؛ أي: لا تقولوا في العدة: إني قادر على هذا العمل، ﴿إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ وهو: أن تُعَرِّضُوا ولا تصرحُوا، و(إلا): متعلقٌ بـ(لا تواعدوهن) أي: لا تواعدوهن مواعدةً قطُّ، إلا مواعدةً معروفةً غيرَ مُنكرةٍ ﴿وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ﴾: مِن عَزَمَ الأمرَ، وعَزَمَ عليه، وذكرُ العزم مبالغةٌ في النهي عن عَقْدِ النكاحِ؛ لأن العزمَ على الفعل يتقدمُه، فإذا نَهى عنه.. كان عن الفعل أَنْهى، ومعناه: ولا تعزموا عَقْدَ عُقْدَةِ النكاح، أو: ولا تقطعُوا عقدةَ النكاحِ؛ لأن حقيقةَ العزمِ القطعُ، ومنه الحديث: «لا صيام لمن لم يعزم الصيام من الليل»[2]، وروي: «لمن لم يبيت الصيام»[3] أي: ولا تعزمُوا

---

(١) هذا عجز بيت لتوبة بن الحُمَيِّر، في «ديوانه» (ص٨٦) وصدره:

أروح بتسليم عليك وأغتدي

(٢) ورد بلفظ: «لم يُجْمِعْ» عند أبي داود (٢٤٥٤)، والترمذي (٧٣٠)، والنسائي في «المجتبى» (٤/ ١٩٦)، وبلفظ: «لم يفرضه» عند ابن ماجه (١٧٠٠) كلهم عن سيدتنا حفصة رضي الله عنها، وقال الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (١/ ١٥٠): لفظة: «يعزم» لم أجدها.

(٣) رواه النسائي (٢٣٣١) عن سيدتنا حفصة رضي الله عنها.

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾ ....

على عقدة النكاح ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾: حتى تنقضيَ عدتُها؛ وسُميت العدةُ كتاباً؛ لأنها فُرِضَتْ بالكتاب؛ يعني: حتى يبلغَ التربصُ المكتوبُ عليها أجلَه؛ أي: غايتَه، ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ من العزم على ما لا يجوزُ، ﴿فَٱحْذَرُوهُ﴾ ولا تعزموا عليه، ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾: لا يعاجلكم بالعقوبة.

《٢٣٦》 ونزل فيمن طلق امرأتَه ولم يكن سمّى لها مهراً ولا جامعها:

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: لا تَبِعَةَ عليكم من إيجاب مهرٍ ﴿إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾: شرطٌ، ويدلُّ على جوابه: (لا جناح عليكم)، والتقدير: إن طلقتم النساء.. فلا جناح عليكم، ﴿مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾: ما لم تجامعوهن، و(ما): شرطيةٌ؛ أي: إن لم تمسُّوهنَّ، (تُماسُّوهنَّ): حمزةُ، وعليٌّ، حيث وقع[1]؛ لأن الفعل واقع بين اثنين، ﴿أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾: إلا أن تفرضوا لهن فريضة، أو: حتى تفرضوا، وفرضُ الفريضةِ: تسميةُ المهرِ، وذلك أن المطلقة غيرَ الموطوءةِ لها نصفُ المسمَّى إن سُمِّيَ لها مهرٌ، وإن لم يسمَّ لها مهرٌ.. فليس لها نصفُ مهر المثل، بل تجب المُتعةُ؛ والدليلُ على أن الجناحَ تَبِعَةُ المهر: قولُه: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ إلى قوله: ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ فقولُه: (فنصف ما فرضتم): إثباتٌ للجُناح المنفيِّ ثمةَ، ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾: معطوفٌ على فِعْلٍ محذوفٍ تقديرُه: فطلقوهن ومتعوهن. والمُتعةُ: دِرْعٌ ومِلْحَفَةٌ وخِمارٌ[2]، ﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ﴾: الذي له سَعَةٌ، ﴿قَدَرُهُۥ﴾: مِقدارُه الذي يطيقه، ﴿قَدْرُهُۥ﴾: فيهما: كوفيٌّ غيرَ أبي بكرٍ[3]، وهما لغتان، ﴿وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ﴾: الضيقِ الحالِ ﴿قَدَرُهُۥ﴾، ولا تجبُ المُتعةُ عندنا إلا لهذه، وتستحبُّ لسائر المطلقاتِ ﴿مَتَٰعًۢا﴾: تأكيدٌ لـ (متعوهن) أي: تمتيعاً ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: بالوجه الذي يحسنُ في الشرع والمروءةِ ﴿حَقًّا﴾: صفةٌ لـ (متاعاً) أي: متاعاً واجباً عليهم، أو: حقَّ ذلك حقاً ﴿عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾: على المسلمين، أو: على الذين يُحسنون إلى المطلقات بالتمتيع، وسمّاهم قبل الفعل مُحسنين، كقوله عليه السلام: «من قتل قتيلاً فله سلبه»[4]، وليس هذا الإحسان هو التبرعَ بما ليس عليه؛ إذ هذه المُتعةُ واجبةٌ.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٥١).

(٢) الدرع: القميص، والملحفة: ما تلتحف به من رأسها إلى قدمها.

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص٥١).

(٤) رواه البخاري (٣١٤٢)، ومسلم (١٧٥١) عن سيدنا أبي قتادة رضي الله عنه.
وتسميتُه قتيلاً مجازٌ باعتبار ما سيكون، وكذا في الآية تسميتهم محسنين.

﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾ ....

《٢٣٧》 ثم بَيّنَ حكم التي سَمَّى لها مهراً في الطلاق قبل المسِّ فقال: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾: (أنْ) مع الفعل بتأويل المصدر: في موضع الجرِّ؛ أي: من قبل مسِّكم إيّاهن، ﴿وَقَدْ فَرَضْتُمْ﴾: في موضع الحال، ﴿لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾: مهراً ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ﴾ يريد: المطلقاتِ، و(أنْ) مع الفعل: في موضع النصب على الاستثناء، كأنه قيل: فعليكم نصفُ ما فرضتم في جميع الأوقات إلا وقتَ عفوهن عنكم من المهر، والفرقُ بين: الرجالُ يعفون، والنساءُ يعفون: أن الواوَ في الأول: ضميرُهم، والنونَ: عَلَمُ الرفع، والواوَ في الثاني: لامُ الفعلِ، والنونَ: ضميرُهن، والفعلُ: مبنيٌّ لا أثرَ في لفظه للعامل.

﴿أَوْ يَعْفُوَا۟﴾: عطفٌ على محله، ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ هو: الزوجُ، كذا فسَّره عليٌّ رضيَ الله عنه، وهو قولُ سعيدِ بنِ جُبيرٍ، وشريحٍ، ومجاهدٍ، وأبي حنيفةَ، والشافعيِّ على الجديد رضي الله عنهم[١]، وهذا لأن الطلاق بيده، فكان إبقاءُ العقد بيده؛ والمعنى: أن الواجب شرعاً هو النصفُ، إلا أن تُسقطَ هي الكلَّ، أو يعطيَ هو الكلَّ تفضلاً.

وعند مالكٍ والشافعيِّ في القديم: هو الولي[٢]، قلنا: هو لا يملك التبرعَ بحق الصغيرِ، فكيف يجوز حمله عليه[٣]؟

﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟﴾: مبتدأٌ خبرُه: ﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ والخطابُ للأزواج والزوجاتِ على سبيل التغليب، ذَكَرَهُ الزجاجُ[٤]؛ أي: عفوُ الزوج بإعطاء كل المهر خيرٌ له، وعفوُ المرأة بإسقاط كلِّه خيرٌ لها، أو: للأزواج.

﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ﴾: التفضُّلَ ﴿بَيْنَكُمْ﴾ أي: ولا تنسوا أن يتفضلَ بعضُكم على بعض ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾ فيجازيْكم على تفضّلِكم.

---

(١) انظر «المبسوط» للسرخسي (٦/ ٦٣) و«الأم» للشافعي (٥/ ٨٠).

(٢) انظر «الذخيرة» للقرافي (٤/ ٣٧١) و«كفاية النبيه» (١٣/ ٢٧٨).

(٣) ذكر القرافي أن حكم الولاية بتصرف الولي بما هو أحسن للمُوَلَّى عليه، وقد يكون العفوُ أحسنَ؛ لاطلاع الولي على ذلك. انظر «الذخيرة للقرافي» (٤/ ٣٧١).

(٤) ذكر الزجاج في «معاني القرآن وإعرابه» (١/ ٣١٩) أن ظاهر الخطاب للرجال، ويحتمل أن يكون للفريقين.

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾﴾ ....

《٢٣٨》 ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾: داوِموا عليها بمواقيتِها وأركانِها وشرائِطها ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ بينَ الصلواتِ؛ أي: الفُضلَى؛ من قولهم للأفضل: الأوسطُ، وإنما أُفردت وعطفت على الصلوات؛ لانفرادِها بالفضلِ، وهي: صلاة العصر عند أبي حنيفة رحمه الله[١]، وعليه الجمهور؛ لقوله عليه السلام يوم الأحزاب: «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله بيوتهم ناراً»[٢]، وقال عليه السلام: «إنها الصلاة التي شغل عنها سليمان حتى توارت بالحجاب»[٣]، وفي مصحف حفصة: ﴿والصلاة الوسطى صلاة العصر﴾[٤]؛ ولأنها بين صلاتَي الليلِ وصلاتَي النهار، وفضلُها لما في وقتها من اشتغال الناس بتجاراتِهم ومعايِشِهم، وقيل: صلاةُ الظهر؛ لأنها في وسط النهار، أو: صلاةُ الفجر؛ لأنها بين صلاتي النهار، وصلاتي الليل، أو: صلاةُ المغرب؛ لأنها بين الأربع والمثنى؛ ولأنها بين صلاتَي مُخافتةٍ، وصلاتَي جَهْرٍ، أو: صلاةُ العشاء؛ لأنها بين وِتْرَيْنِ، أو: هي غيرُ معينة كليلة القدر؛ ليحْفَظُوا الكلَّ، ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ في الصلاةِ ﴿قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾: حالٌ؛ أي: مطيعين خاشعين، أو: ذاكرين الله في قيامكم، والقنوتُ: أن تذكرَ الله قائماً، أو: مطيلين القيام.

《٢٣٩》 ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾: فإن كان بكم خوفٌ من عدوٍ أو غيرِه ﴿فَرِجَالًا﴾: حالٌ؛ أي: فصلُّوا راجلين، وهو جمعُ راجلٍ، كقائم وقيام، ﴿أَوْ رُكْبَانًا﴾: وُحداناً بإيماءٍ، ويسقطُ عنه التوجهُ إلى القبلة، ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾: فإذا زالَ خوفُكم ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾: فصلُّوا صلاةَ الأمنِ ﴿كَمَا عَلَّمَكُم﴾ أي: ذكراً مثلَ ما علمكم ﴿مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾ من صلاةِ الأمنِ.

《٢٤٠》 ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم﴾: بالنصبِ: شاميٌّ، وأبو عمرٍو، وحمزةُ، وحفصٌ؛ أي: فليوصوا وصيةً، عن الزجاج، غيرُهم: بالرفع[٥]؛ أي:

---

(١) انظر «شرح معاني الآثار» (١/ ١٧٦).

(٢) رواه البخاري (٢٩٣١) ومسلم (٦٢٧) عن سيدنا علي رضي الله عنه.

(٣) رواه ابن عدي في «الكامل» (٨/ ١٨٨) عن سيدنا علي رضي الله عنه، وفي «المصنف» لابن أبي شيبة (٢/ ٢٤٥) عن سيدنا علي رضي الله عنه قال: «الصلاة الوسطى التي فَرَّطَ فيها سليمان صلاة العصر».

(٤) رواه مالك في «الموطأ» (٢٥) وفيه: (والصلاةِ الوسطى، وصلاةِ العصر).

(٥) انظر «البدور الزاهرة» (ص٥١).

﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾ ....

فعليهم وصيةٌ، ﴿مَّتَٰعًا﴾: نصبٌ بالوصيةِ؛ لأنها مصدر، أو: تقديرُه: متعوهن متاعاً ﴿إِلَى ٱلْحَوْلِ﴾: صفةٌ لـ (متاعاً)، ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾: مصدرٌ مؤكِّدٌ، كقولك: هذا القولُ غيرُ ما تقول، أو: بدلٌ مِن (متاعاً) والمعنى: أن حقَّ الذين يُتوفون عن أزواجهم أن يوصُوا قبل أن يُحْتَضَرُوا بأن تُمَتَّعَ أزواجُهم بعدهم حولاً كاملاً؛ أي: يُنْفَقَ عليهن من تركتِه، ولا يُخْرَجْنَ من مساكنهن، وكان ذلك مشروعاً في أول الإسلام، ثم نسخ بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا﴾ إلى قوله: ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾، والناسخُ متقدمٌ عليه تلاوةً، ومتأخرٌ نزولاً، كقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾، مع قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾.

﴿فَإِنْ خَرَجْنَ﴾ بعدَ الحولِ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ﴾ من التزين والتعرضِ للخُطّاب ﴿مِن مَّعْرُوفٍ﴾: مما ليس بمنكرٍ شرعاً، ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾﴾ فيما حكم.

《٢٤١》 ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ﴾ أي: نفقةُ العدةِ ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا﴾: نصبٌ على المصدر، ﴿عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾﴾.

《٢٤٢》 ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾: هو في موضع الرفع؛ لأنه خبرُ لعلَّ، وإن أريد به المُتعةُ. فالمراد: غيرُ المُطَلَّقَةِ المذكورةِ، وهي على سبيل الندب[1].

《٢٤٣》 ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: تقريرٌ لمن سمع بقصتهم من أهل الكتابِ وأخبار الأولين، وتعجيبٌ من شأنهم، ويجوز أن يخاطَبَ به مَن لم يرَ ولم يسمعْ؛ لأن هذا الكلام جَرى مَجرى المثلِ في معنى التعجيبِ، ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾: من قريةٍ قَبلَ واسطٍ، وقع فيهم الطاعون فخرجوا هاربين، فأماتهم الله ثم أحياهم بدعاءِ حِزْقِيلَ عليه السلام، وقيل: هم قوم من بني إسرائيل دعاهم ملكُهم إلى الجهادِ فهربُوا حذراً من الموت، فأماتهم الله ثمانيةَ أيام، ثم أحياهم.

﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾: في موضع النصبِ على الحال، وفيه دليلٌ على الألوفِ الكثيرةِ؛ لأنها جمعُ كثرة، وهي جمع أَلْفٍ، لا آلِفٍ؛ ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾: مفعولٌ له، ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟﴾ أي:

---

(١) عند الحنفية: تجب المُتعة لمن لم يُسم لها مهر وطلقت قبل الدخول، وتستحب لغيرها. انظر «حاشية ابن عابدين» (٣/ ١١٠).

وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ ....

فأماتهم، وإنما جيءَ به على هذه العبارةِ؛ للدلالة على أنهم ماتوا مِيْتَةَ رجلٍ واحدٍ بأمر الله ومشيئته، وتلك ميتةٌ خارجةٌ عن العادة، وفيه تشجيعٌ للمسلمين على الجهادِ، وأن الموت إذا لم يكن منه بدٌّ، ولم يَنفع منه مَفرٌّ.. فأولى أن يكون في سبيل الله، ﴿ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾؛ ليعتبروا ويعلموا أنه لا مفرَّ من حكم الله وقضائِه، وهو: معطوفٌ على فِعْلٍ محذوفٍ تقديرُه: فماتوا ثم أحياهم، أو: لما كان معنى قوله: (فقال لهم الله موتوا): فأماتهم.. كان عطفاً عليه معنىً، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ حيثُ يبصِّرُهم ما يعتبرون به، كما بَصَّرَ أولئك، وكما بَصَّرَكم باقتصاصِ خبرِهم، أو: لذو فضل على الناس حيث أحيا أولئك؛ ليعتبروا فيفوزوا، ولو شاء.. لَتركهم موتى إلى يوم النشور، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾ ذلك.

《٢٤٤》 والدليل على أنه ساق هذه القصة بعثاً على الجهاد: ما أتبعه من الأمر بالقتال في سبيل الله، وهو قوله:

﴿وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فحَضَّ على الجهاد بعد الإعلام بأن الفرار من الموت لا يُغني، وهذا الخطابُ لأمة محمد عليه السلام، أو: لمن أحياهم، ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ يسمعُ ما يقوله المتخلفون والسابقون، ﴿عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾﴾ بما يضمرونه.

《٢٤٥》 ﴿مَّن﴾: استفهامٌ في موضع رفع بالابتداء، ﴿ذَا﴾: خبرُه، ﴿ٱلَّذِى﴾: نعتٌ لـ (ذا)، أو: بدلٌ منه، ﴿يُقْرِضُ ٱللَّهَ﴾: صلةُ (الذي) سَمَّى ما ينفقُ في سبيل الله قرضاً؛ لأن القرض ما يقبضُ ببدلٍ مثلِه من بعدُ؛ سُمِّيَ به؛ لأن المقرِضَ يقطعُه من ماله، فيدفعه إليه، والقرضُ: القطعُ، ومنه المِقراضُ، وقَرْضُ الفأرِ، والانقراضُ، فنبهَهُم بذلك على أنه لا يَضيعُ عنده، وأنه يَجزيهم عليه لا محالةَ، ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾: بطيبةِ النفسِ من المال الطيبِ، والمرادُ: النفقةُ في الجهاد؛ لأنه لما أَمَرَ بالقتال في سبيل الله، ويُحتاجُ فيه إلى المال.. حثَّ على الصدقة؛ ليتهيأ أسبابُ الجهادِ، ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ﴾: بالنصبِ: عاصمٌ، على جواب الاستفهامِ، وبالرفع: أبو عمرٍو ونافعٌ وحمزةُ وعليٌّ؛ عطفاً على (يقرض)، أو هو مستأنفٌ؛ أي: فهو يضاعفه، ﴿فيُضَعِّفَه﴾: شاميٌّ، ﴿فيُضَعِّفُه﴾: مكيٌّ[1]، ﴿أَضْعَافًا﴾: في موضع المصدرِ، ﴿كَثِيرَةً﴾: لا يعلم كُنْهَهَا

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٥١).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾

إلا الله، وقيل: الواحدُ بسبع مئة، ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾: يُقَتِّرُ الرزق على عباده، ويوسعُه عليهم، فلا تبخلوا عليه بما وَسَّعَ عليكم، لا يُبْدِلُكم الضيقَ بالسعةِ، ﴿ويبسط﴾: حجازيٌّ، وعاصمٌ، وعليٌّ[1]، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ فيجازيْكم على ما قدمتم.

《٢٤٦》 ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ﴾: الأشرافِ؛ لأنهم يملؤون القلوبَ جلالةً، والعيونَ مهابةً، ﴿مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ (من): للتبعيض، ﴿مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ﴾: من بعد موته، و(من): لابتداء الغاية، ﴿إِذْ قَالُوا۟﴾: حينَ قالوا ﴿لِنَبِىٍّ لَّهُمُ﴾ هو: شَمْعُوْنُ، أو: يُوْشَعُ، أو إِشْمَوِيْلُ: ﴿ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا﴾: أَنْهِضْ للقتال معنا أميراً نَصْدُرُ في تدبير الحرب عن رأيِه، ونَنْتَهِي إلى أمره، ﴿نُّقَٰتِلْ﴾: بالنون والجزمِ على الجواب، ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: صلةُ (نقاتل)، ﴿قَالَ﴾ النبيُّ: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ﴾، ﴿عسِيتم﴾ حيث كان: نافعٌ، ﴿إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ﴾: شرطٌ فاصلٌ بين اسم عسى وخبرِه، وهو: ﴿أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟﴾ والمعنى: هل قاربتم ألّا تقاتلُوا؛ يعني: هل الأمرُ كما أتوقعُه أنكم لا تقاتلون، وتجبُنُون؟ فأدخل (هل) مستفهِماً عمّا هو متوقَّعٌ عنده، وأراد بالاستفهام: التقريرَ وتثبيتَ أن المتوقَّعَ كائنٌ، وأنه صائبٌ في توقعه، ﴿قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: وأيُّ داعٍ لنا إلى ترك القتال؟ وأيُّ غَرَضٍ لنا فيه؟ ﴿وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾ الواوُ في (وقد): للحال، وذلك أن قومَ جالوتَ كانوا يسكنُون بين مصرَ وفلسطينَ، فأسرُوا من أبناء ملوكِهم أربعَ مئة وأربعين؛ يعنون: إذا بلغ الأمر منا هذا المبلغَ. . فلا بدَّ من الجهاد، ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ﴾ أي: أُجيبوا إلى مُلْتَمَسِهم ﴿تَوَلَّوْا۟﴾: أعرضُوا عنه، ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ وهم كانوا ثلاثَ مئةٍ وثلاثةَ عشرَ، على عددِ أهلِ بدرٍ[2]، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾: وعيدٌ لهم على ظلمهم بترك الجهاد.

---

(١) انظر المرجع السابق (ص٥٢)، وما ذكره النسفيُّ أن قراءة عاصم بالصاد. . فهي رواية شعبة عن عاصم، وأما حفص عن عاصم. . فبالسين. والقراءةُ الآتيةُ في الموضع نفسه.

(٢) روى البخاري (٣٩٥٧) عن سيدنا البراء رضي الله عنه قال: حدثني أصحاب محمد ﷺ ممن شهد بدراً: أنهم كانوا عدة أصحاب طالوت، الذين جازوا معه النهر، بضعة عشر وثلاث مئة.

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ ....

«٢٤٧» ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ﴾ هو: اسمٌ أعجميٌّ كجالوتَ وداودَ، ومنع من الصرف؛ للتعريف والعُجمة، ﴿مَلِكًا﴾: حالٌ ﴿قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ أي: كيف؟ ومن أين؟ وهو إنكارٌ لتملكه عليهم، واستبعادٌ له، ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ﴾ الواوُ: للحال، ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾ أي: كيف يتملك علينا والحال أنه لا يستحق التملكَ؛ لوجود من هو أحق بالملك، وأنه فقير، ولا بدَّ للمَلِكِ من مالٍ يعتضدُ به، وإنما قالوا ذلك؛ لأن النبوة كانت في سِبطِ لاوِي بنِ يعقوبَ عليه السلام، والملكَ في سِبْطِ يهوذا، وهو كان من سِبطِ بِنيامينَ، وكان رجلاً سَقّاءً، أو دَبّاغاً فقيراً، وروي: أن نبيَّهم دعا الله حين طلبُوا منه مَلِكاً، فَأَتى بِعصاً يقاسُ بها من يملكُ عليهم، فلم يُساوِها إلا طالوتُ، ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ﴾ الطاءُ في (اصطفاه): بدلٌ من التاء؛ لمكان الصادِ الساكنةِ؛ أي: اختاره عليكم، وهو أعلم بالمصالح منكم، ولا اعتراضَ على حُكمِه، ثم ذكر مَصلحتين أنفعَ مما ذكروا من النسب والمالِ، وهما: العلمُ المبسوطُ والجَسامةُ، فقال: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً﴾: مفعولٌ ثانٍ، ﴿فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ قالوا: كان أعلمَ بني إسرائيل بالحرب والديانات في وقته، وأطولَ من كل إنسان برأسِه ومنكبِه، والبَسْطةُ: السَّعَةُ والامتدادُ، والمَلِكُ لا بدَّ أن يكون من أهل العلم؛ فإن الجاهل ذليلٌ مُزْدَرىً غيرُ منتفَع به، وأن يكون جَسيماً؛ لأنه أعظم في النفوس، وأَهْيَبُ في القلوب، ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾ أي: الملكُ له غيرُ منازَعٍ فيه، وهو يؤتيه من يشاء إيتاءَه، وليس ذلك بالوراثةِ، ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ أي: واسعُ الفضلِ والعطاءِ، يوسعُ على من ليس له سعة من المال، ويُغنيه بعد الفقر، ﴿عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾ بمن يَصْطَفِيْه للملك.

«٢٤٨» فثَمَّةَ طلبُوا من نبيهم آيةً على اصطفاءِ اللهِ طالوتَ، ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ أي: صندوقُ التوراةِ، وكان موسى عليه السلام إذا قاتل.. قدَّمَه، فكانت تسكنُ نفوسُ بني إسرائيلَ ولا يَفِرُّون، ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: سكون وطُمأنينةٌ، ﴿وَبَقِيَّةٌ﴾ هي: رُضاضُ الألواحِ[1]، وعصا موسَى وثيابُه، وشيءٌ من التوراة، ونعلا

(١) رضاضُ الشيءِ: فُتاتُه.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩)﴾ ....

موسى، وعمامةُ هارون عليهما السلام، ﴿مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾ أي: مما تركَه موسى وهارون، والآلُ مقحمٌ؛ لتفخيم شأنِهما، ﴿تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ يعني: التابوتَ، وكان رَفعَهُ الله بعد موسى، فنزلت به الملائكةُ تحمله وهم ينظرون إليه، والجملةُ: في موضع الحالِ، وكذا (فيه سكينة)، و(من ربكم): نعتٌ لـ (سكينة)، و(مما ترك): نعتٌ لـ (بقية)، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٤٨)﴾: إن في رجوع التابوت إليكم علامةً أن الله قد ملَّكَ طالوتَ عليكم إن كنتم مصدقين.

《٢٤٩》 ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ﴾: خرج بالجنود عن بلده إلى جهاد العدوِّ، و(بالجنود): في موضع الحال؛ أي: مختلطاً بالجنود، وهم ثمانون ألفاً، وكان الوقت قَيْظاً، وسألوا أن يُجريَ الله لهم نَهراً، ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم﴾: مختبرُكم؛ أي: يعاملُكم معاملة المختبِر، ﴿بِنَهَرٍ﴾ وهو: نَهَرُ فلسطينَ؛ ليتميزَ المحقُّ في الجهاد من المُعَذِّرِ[1] ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ﴾ كرعاً ﴿فَلَيْسَ مِنِّي﴾: فليس من أتباعِي وأشياعي، ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ﴾: ومن لم يذقْه؛ مِنْ: طَعِمَ الشيءَ: إذا ذاقَه، ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾، وبفتح الياء: مدنيٌّ، وأبو عمروٍ[2]، واستثنَى ﴿إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ﴾ من قولِه: (فمن شرب منه فليس مني)، والجملةُ الثانيةُ في حكم المتأخرة عن الاستثناء، إلا أنها قُدِّمَتْ للعناية، ﴿غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾، ﴿غَرْفَةً﴾: حجازيٌّ، وأبو عمرو؛ بمعنى: المصدرِ، وبالضمِّ بمعنى: المغروف، ومعناه: الرخصةُ في اغتراف الغَرْفَةِ باليد دون الكرع؛ والدليلُ عليه: ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ﴾ أي: فكرعُوا ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ وهم ثلاثُ مئةٍ وثلاثةَ عشرَ رجلاً، ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ﴾ أي: النهرَ ﴿هُوَ﴾: طالوتُ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ أي: القليلُ ﴿قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ﴾ أي: لا قوةَ لنا ﴿بِجَالُوتَ﴾ هو: جبارٌ من العمالقةِ مِن أولاد عِمْلِيق بن عاد، وكان في بَيْضَتِه ثلاثُ مئةِ رِطْلٍ من الحديد، ﴿وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا اللَّهِ﴾: يوقنون بالشهادة، قيل: الضميرُ في (قالوا) للكثير الذين انخذلوا، و(الذين يظنون) هم: القليل الذين ثبتوا معه، وروِيَ: أن

---

(١) المُعَذِّر: الذي يوهم أن له عذراً ولا عذرَ له.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٥٢) وكذا القراءتانِ الآتيتانِ.

وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾

الغرفةَ كانت تكفي الرجلَ لِشُربِه وإداوتِه، والذين شربُوا منه اسودَّت شفاهُهم، وغلبهم العطش، ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ﴾ (كم): خبريةٌ، وموضعُها: رفعٌ بالابتداء، ﴿غَلَبَتْ﴾: خبرُها، ﴿فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: بنصره، ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ بالنصر.

《٢٥٠》 ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾: خرجوا لقتالهم ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ﴾: اصْبُبْ ﴿عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ على القتال ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ بتقويةِ قلوبنا، وإلقاءِ الرُّعْبِ في صدور عدوِّنا، ﴿وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾: أعِنّا عليهم.

《٢٥١》 ﴿فَهَزَمُوهُم﴾ أي: طالوتُ والمؤمنون جالوتَ وجنودَه ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: بقضائِه، ﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ﴾ كان إيشي أبو داودَ في عسكرِ طالوتَ مع ستة من بنيه، وكان داودُ سابعَهم، وهو صغير يرعى الغنم، فأوحى اللهُ إلى نبيهم أن داود هو الذي يقتل جالوتَ فطلبه من أبيه، فجاء وقد مرَّ في طريقِه بثلاثةِ أحجارٍ دعاه كل واحد منها أن يحملَه، وقالت له: إنك تقتلُ بنا جالوتَ، فحملها في مِخْلاتِه، ورمَى بها جالوتَ فقتلَه، وزوَّجه طالوتُ بِنْتَهُ، ثم حَسَدَه وأراد قتلَه، ثم مات تائباً، ﴿وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ في مشارق الأرضِ المقدسةِ ومغاربِها، وما اجتمعت بنو إسرائيل على ملك قطُّ قبل داود، ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾: والنبوة، ﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ من صنعة الدُّروعِ وكلام الطيورِ والدوابِّ وغيرِ ذلك، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ﴾ هو: مفعولٌ به، ﴿بَعْضَهُم﴾: بدلٌ من الناس، ﴿دفاع﴾: مدنيٌّ؛ مصدرُ: دَفَعَ، أو: دافَعَ، ﴿بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ أي: ولولا أن الله تعالى يدفعُ بعضَ الناسِ ببعض، ويكفُّ بهم فسادَهم.. لغلب المفسدون، وفسدت الأرض، وبَطَلَت منافعُها من الحرث والنسل، أو: ولولا أن الله تعالى ينصرُ المسلمين على الكافرين.. لفسدت الأرض بغلبة الكفارِ وقتلِ الأبرارِ وتخريبِ البلادِ وتعذيبِ العبادِ، ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ بإزالة الفسادِ عنهم، وهو دليلٌ على المعتزلة في مسألة الأصلح[1].

(١) في «تأويلات أهل السنة» (١/ ٢١١): على قول المعتزلة ليس هو بذي فضل على أحد؛ لأن عليه أن يفعل ذلك، وأن يدفع ذلك كلَّه عن المسلمين على قولهم، فإذا كان عليه ذلك.. لا يصير هو بما يدفع مفضِّلاً ولا مُمتنّاً، فنعوذ بالله من السرف في القول.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾ ....

《٢٥٢》 ﴿تِلْكَ﴾: مبتدأٌ، خبرُه: ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ يعني: القصصَ التي اقتصَّها من حديث الألوفِ وإماتتِهم وإحيائِهم وتمليكِ طالوتَ وإظهارِه على الجبابرة على يد صبيٍّ ﴿نَتْلُوهَا﴾: حالٌ من آيات الله، والعاملُ فيه: معنى الإشارة، أو: (آياتُ الله): بدلٌ من (تلك) و(نتلوها): الخبرُ، ﴿عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾: باليقين الذي لا يَشُكُّ فيه أهلُ الكتاب؛ لأنه في كتبهم كذلك، ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾: حيث تُخبِرُ بها من غير أن تَعرِفَ بقراءة كتابٍ، أو سماعٍ من أهله.

《٢٥٣》 ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ﴾: إشارةٌ إلى جماعة الرسل التي ذُكرت قِصَصُها في هذه السورةِ، من آدمَ إلى داود، أو التي ثبتَ علمُها عند رسول الله عليه السلام، ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ بالخصائصِ وراءَ الرسالة؛ لاستوائهم فيها، كالمؤمنين يستوون في صفة الإيمان، ويتفاوتون في الطاعات بعد الإيمان، ثم بيَّنَ ذلك بقوله: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ أي: كلَّمَه اللهُ، حذفَ العائدَ من الصلةِ؛ يعني: منهم من فضَّلَه اللهُ بأن كلَّمَه من غير سفيرٍ، وهو موسى عليه السلام، ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ﴾: مفعولٌ أولُ، ﴿دَرَجَٰتٍ﴾: مفعولٌ ثانٍ؛ أي: بدرجاتٍ، أو: إلى درجاتٍ؛ يعني: ومنهم من رَفَعَه على سائر الأنبياء، فكان بعدَ تفاوتِهم في الفضل أفضلَ منهم بدرجاتٍ كثيرةٍ، وهو محمد ﷺ؛ لأنه هو المفضَّلُ عليهم بإرساله إلى الكافَّةِ، وبأنه أوتي ما لم يؤته أحد من الآيات المتكاثرة المرتقيةِ إلى ألفٍ أو أكثر وأكبرُها القرآنُ؛ لأنه المعجزةُ الباقيةُ على وجهِ الدهر، وفي هذا الإبهامِ تفخيمٌ، وبيانُ أنه العَلَمُ الذي لا يشتبه، وقيل: أريد به محمدٌ وإبراهيمُ وغيرهما من أولي العزمِ من الرسل.

﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: كإحياء الموتى، وإبراء الأكمهِ والأبرصِ، وغيرِ ذلك، ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾: قوَّيناه بجبريل، أو بالإنجيلِ، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ﴾ أي: ما اختلفَ؛ لأنه سببه، ﴿ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم﴾: من بعد الرسل ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾: المعجزاتُ الظاهراتُ، ﴿وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟﴾ بمشيئتي، ثم بيَّنَ الاختلافَ فقال: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ بمشيئتي، يقول: أجريتُ أمورَ رُسلي على هذا؛ أي: لم يجتمعْ لأحدٍ منهم طاعةُ جميعِ أمته في حياته، ولا بعدَ وفاته، بل اختلفوا عليه، فمنهم من آمن، ومنهم من كفر، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٥٤ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥﴾ . . . .

﴿مَا ٱقۡتَتَلُواْ﴾: كرَّره للتأكيد؛ أي: لو شئت ألّا يقتتلوا.. لم يقتتلوا؛ إذْ لا يجري في ملكي إلا ما يوافقُ مشيئتي، وهذا يُبطلُ قول المعتزلة؛ لأنه أخبر أنه لو شاء ألّا يقتتلوا.. لم يقتتلوا، وهم يقولون: شاء ألا يقتتلوا فاقتتلوا، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ٢٥٣﴾ أثبتَ الإرادةَ لنفسه كما هو مذهب أهل السنة.

《٢٥٤》 ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾ في الجهاد في سبيل الله، أو: هو عامٌّ في كل صدقة واجبةٍ، ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ﴾ أي: من قبل أن يأتي يومٌ لا تقدرون فيه على تدارك ما فاتكم من الإنفاق؛ لأنه لا بيعَ فيه حتى تبتاعوا ما تنفقونه، ﴿وَلَا خُلَّةٞ﴾ حتى يسامِحكم أخِلّاؤُكم به، ﴿وَلَا شَفَٰعَةٞۗ﴾ أي: للكافرين، فأما المؤمنون.. فلهم شفاعة، أو: إلّا بإذنه، ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٥٤﴾ أنفسَهم بتركهم التقديمَ ليومِ حاجتِهم، أو: الكافرون بهذا اليومِ هم الظالمون، ﴿لا بيعَ فيه ولا خلةَ ولا شفاعةَ﴾: مكيٌّ، وبصريٌّ[1].

《٢٥٥》 ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ (لا) مع اسمه وخبرِه وما أبدل من موضعِه[2]: في موضع الرفعِ خبرُ المبتدأِ وهو (الله)، ﴿ٱلۡحَيُّ﴾: الباقي الذي لا سبيلَ عليه للفناء، ﴿ٱلۡقَيُّومُۚ﴾: الدائمُ القيامِ بتدبيرِ الخلقِ وحفظِه، ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ﴾: نعاسٌ، وهو ما يتقدم النومَ من الفتورِ، ﴿وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ عن المفضَّلِ: السِّنةُ: ثِقَلٌ في الرأس، والنعاسُ: في العين، والنومُ: في القلب، وهو تأكيدٌ لـ (القيوم)؛ لأن من جازَ عليه ذلك.. استحالَ أن يكون قيوماً، وقد أوحَى إلى موسى عليه السلام: قل لهؤلاء: إني أمسكُ السموات بقدرتي، فلو أخذني نومٌ، أو نُعاسٌ.. لزالتا.

﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾: مِلكاً ومُلكاً، ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾: ليس لأحد أن يشفع عنده إلا بإذنه، وهو بيانٌ لملكوتِه وكبريائه، وأن أحداً لا يتمالك أن يتكلم يوم القيامة إلا إذا أذن له في الكلام، وفيه ردٌّ لزعم الكفار أن الأصنام تشفعُ لهم، ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ﴾: ما كان قبلهم، وما يكون بعدهم، والضميرُ لـ(ما في السموات والأرض) لأن فيهم

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٥٣).
(٢) أي: (هو): بدلٌ مِن (لا إله) على محله وهو الرفع؛ لأنه مركب في محل رفع مبتدأ.

العقلاءَ، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾: مِن معلومِه؛ يقال في الدعاء: اللهم اغفرْ عِلْمَكَ فينا؛ أي: معلومَك، ﴿إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾: إلا بما علمَ.

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي: علمُه، ومنه: الكُرّاسَةُ؛ لتضمنها العلمَ، والكراسيُّ: العلماءُ، وسُمي العلمُ كُرسيّاً؛ تسميةً بمكانه الذي هو كُرسي العالم، وهو كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]، أو: مُلكُه؛ تسميةً بمكانه الذي هو كرسيُّ الملكِ، أو: عرشُه، كذا عن الحسنِ، أو: هو: سريرٌ دون العرشِ؛ في الحديث: «ما السمواتُ السبعُ في الكرسيِّ إلا كحلقةٍ مُلقاةٍ بفلاةٍ، وفضلُ العرشِ على الكرسيِّ كفضل الفلاة على تلك الحلقةِ»[1]، أو: قُدْرَتُهُ؛ بدليل قوله: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ﴾: ولا يُثْقِلُه ولا يَشُقُّ عليه ﴿حِفْظُهُمَا﴾: حفظُ السموات والأرضِ، ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ في مُلكِه وسلطانِه، ﴿ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ في عزِّهِ وجلالِه، أو: العليُّ: المتعالي عن الصفات التي لا تليقُ به، العظيمُ: المتصفُ بالصفات التي تليقُ به، فهما جامعان لكمالِ التوحيدِ.

وإنما ترتبت الجملُ في آية الكرسيِّ بلا حرفِ عطفٍ؛ لأنها وردت على سبيل البيانِ، فالأولى: بيانٌ لقيامه بتدبير الخلقِ، وكونِه مهيمناً عليه، غيرَ ساهٍ عنه، والثانيةُ: لكونه مالكاً لما يدبِّرُه، والثالثةُ: لكبرياء شأنِه، والرابعةُ: لإحاطته بأحوال الخلقِ، والخامسةُ: لسَعَةِ علمه، وتعلقِه بالمعلومات كلِّها، أو: لجلالِه وعظمِ قدرِه.

وإنما فُضِّلَت هذه الآيةُ حتى وردَ في فضلِها ما ورد، منه ما رُويَ عن علي رضيَ الله عنه عن النبي ﷺ: «من قرأ آية الكرسيِّ في دبر كل صلاة مكتوبةٍ.. لم يمنعه من دخول الجنة إلا الموتُ، ولا يواظب عليها إلا صِدِّيقٌ، أو عابدٌ، ومن قرأها إذا أخذ مَضْجِعَهُ.. آمنه الله على نفسه، وجاره، وجارِ جارِه، والأبياتِ حولَه»[2]، وقال: «سيدُ البشرِ آدمُ، وسيدُ العرب محمدٌ، ولا فخرَ، وسيدُ الفُرس سلمانُ، وسيدُ الروم صهيبٌ، وسيدُ الحبشةِ بلالٌ، وسيدُ الجبالِ الطورُ، وسيدُ الأيامِ الجمعةِ، وسيدُ الكلام القرآنُ، وسيدُ القرآن البقرةُ، وسيدُ البقرة آيةُ الكرسيِّ»[3]، وقال ﷺ: «ما قرئت هذه الآيةُ في دار إلا هجرتها الشياطينُ ثلاثين يوماً، ولا يدخلُها ساحرٌ ولا ساحرةٌ أربعين

---

(١) جزء من حديث طويل رواه ابن حبان في «صحيحه» (٣٦١) عن سيدنا أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤/ ٥٧) عن سيدنا علي رضي الله عنه.

(٣) ذكره الديلمي في «الفردوس» (٢/ ٣٢٤).

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ ....

ليلةً»، وقال ﷺ: «من قرأ آية الكرسيِّ عند منامه.. بُعث إليه ملك يحرُسه حتى يصبح»، وقال: «من قرأ هاتين الآيتين حين يمسي.. حُفِظَ بهما حتى يصبح، وإن قرأهما حين يصبح.. حُفِظَ بهما حتى يمسي: آيةُ الكرسي، وأولُ ﴿حمٓ﴾ المؤمنِ، إلى ﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [غافر: ١-٣]»[1]؛ لاشتمالهما على توحيد الله وتعظيمِه وتمجيدِه، وصفاتِه العظمى، ولا مذكورَ أعظمُ من ربِّ العزةِ، فما كان ذكراً له كان أفضلَ من سائرِ الأذكار، وبه يُعلمُ أن أشرف العلوم علمُ التوحيدِ.

《٢٥٦》 ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ أي: لا إجبارَ على الدين الحقِّ، وهو الإسلام، وقيل: هو إخبار في معنى النهي، وروي: أنه كان لأنصاري ابنان، فتنصرا، فلزمَهما أبوهما وقال: والله لا أدعُكُما حتى تُسلما، فأبيا، فاختصما إلى رسول الله ﷺ، فقال الأنصاري: يا رسول الله أيدخل بَعضي في النار وأنا أنظر؟ فنزلت، فخلاهما[2]، قال ابن مسعود وجماعة: كان هذا في ابتداء الإسلام، ثم نسخ بالأمر بالقتال.

﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾: قد تميَّزَ الإيمانُ من الكفر بالدلائل الواضحة، ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾: بالشيطانِ، أو: الأصنامِ ﴿وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ﴾: تمسكَ ﴿بِٱلۡعُرۡوَةِ﴾ أي: المعتصَمِ والمتعلَّقِ ﴿ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾: تأنيثُ الأوثَقِ؛ أي: الأشدِّ؛ من الحبلِ الوثيقِ المحكمِ المأمون، ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ﴾: لا انقطاعَ للعروة، وهذا تمثيلٌ للمعلوم بالنظر والاستدلال.. بالمشاهدِ المحسوسِ حتى يتصوَّرَه السامع كأنه ينظر إليه بعينه، فيُحكمُ اعتقادَه؛ والمعنى: فقد عقدَ لنفسه من الدين عقداً وثيقاً لا تَحُلُّهُ شبهةٌ، ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لإقراره، ﴿عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ باعتقاده.

《٢٥٧》 ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: أرادُوا أن يؤمنوا؛ أي: ناصرُهم، ومُتَوَلِّي أمورِهم، ﴿يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: من ظلمات الكفرِ والضلالةِ، وجمعت؛ لاختلافها، ﴿إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾: إلى الإيمان والهدايةِ، وَوُحِّدَ لاتحاد الإيمان، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾: مبتدأٌ، والجملةُ وهي: ﴿أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾: خبرُه، ﴿يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ وجُمِعَ؛ لأن الطاغوتَ في معنى

---

(١) رواه الترمذي (٢٨٧٩) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) روى نحوه الطبري في «تفسيره» (٥/ ٤٠٩).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ ....

الجمع؛ يعني: والذين صمَّمُوا على الكفر أمرُهم على عكس ذلك، أو: اللهُ وليُّ المؤمنين يخرجهم من الشبهة في الدين إن وقعت لهم.. بما يَهديهم ويُوفقهم له من حَلِّها حتى يخرجوا منها إلى نور اليقين، والذين كفروا أولياؤُهم الشياطينُ يخرجونهم من نور البينات الذي يظهر لهم إلى ظلمات الشك والشبهة، ﴿أُولَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾.

《٢٥٨》 ثم عَجَّبَ نبيَّه عليه السلام، وسَلّاه بمجادلة إبراهيم عليه السلام نُمْرُودَ الذي كان يدعي الربوبية بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾: في معارضتِه ربوبيةَ ربِّهِ، والهاءُ في (ربه) يرجعُ إلى (إبراهيم)، أو: الذي حاجَّ، فهو ربُّهما، ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾؛ لِأَنْ آتاه الله؛ يعني: أن إيتاءَ الملكِ أبطرَه وأورثَه الكبرَ، فحاجَّ لذلك، وهو دليل على المعتزلة في الأصلحِ، أو: حاجَّ وقتَ أن أتاه الله الملك، ﴿إِذْ قَالَ﴾: نصبٌ بـ(حاجَّ)، أو: بدلٌ مِن (أن آتاه) إذا جُعل بمعنى: الوقت، ﴿إبراهيمْ رَبِّيْ﴾: حمزةُ[1]، ﴿ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ كأنه قال له: من ربك؟ قال: (ربيَ الذي يحيي ويميت)، ﴿قَالَ﴾ نمرودُ: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ يريد: أعْفُو عن القتلِ وأقتلُ، فانقطعَ اللعينُ بهذا عن[2] المخاصمةِ، فزاد إبراهيم عليه السلام ما لا يتأتَّى فيه التلبيسُ على الضَّعَفَةِ حيث ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ وهذا ليس بانتقالٍ من حجةٍ إلى حجةٍ كما زعم البعضُ؛ لأن الحجة الأولى كانت لازمةً، ولكن لما عاندَ اللعينُ حجةَ الإحياء بتخليةِ واحدٍ وقتلِ آخرَ.. كلَّمَه من وجهٍ لا يُعانَدُ، وكانوا أهل تنجيم، وحركةُ الكواكبِ من المغرب إلى المشرقِ معلومةٌ لهم، والحركةُ الشرقيةُ المحسوسةُ لنا قسريةٌ، كتحريك الماءِ النملَ على الرَّحى إلى غير جهةِ حركةِ النملِ، فقال: إن ربي يحركُ الشمسَ قسراً على غير حركتِها، فإن كنت ربّاً.. فحركها بحركتها فهو أهون[3]، ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾: تحيَّرَ ودَهِشَ[4]، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ أي: لا يوفقهم.

---

(١) قرأ حمزةُ بإسكان الياء وصلاً ووقفاً، والباقون بفتحها وصلاً وإسكانِها وقفاً. انظر «البدور الزاهرة» (ص٥٣).

(٢) في الأصل: (عند المخاصمة) وما أثبته من المطبوع (١/ ١٩٩) وهو أولى.

(٣) لا حاجة إلى فرض أن الشمس تحرك قسراً على غير حركتها؛ إذ يكفي في إقامة الحجة على نمرود عجزُه عن تغيير اتجاه حركتها.

(٤) الفعل (بُهِتَ): مبنيٌّ للمعلوم ولكنه جاء على صورة المبني للمفعول، فالموصول بعده: فاعلٌ؛ ولذا فسره بـ: تَحَيَّرَ المبنيِّ للمعلوم. انظر «الإكليل» (٢/ ٢٦٠).

﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ ....

وقالوا: إنما لم يقل نُمرودُ: فليأت ربك بالشمس من المغربِ؛ لأن الله تعالى صرفه عنه، وقيل: إنه كان يدعي الربوبية لنفسه، وما كان يعترفُ بالربوبية لغيره[١]، ومعنى قولِه: (أنا أحيي وأميت): أن الذي يُنسَبُ إليه الإحياءُ والإماتةُ أنا لا غيري.

والآيةُ تدلُّ على إباحة التكلم في علم الكلام والمناظرة فيه؛ لأنه قال: (ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم في ربه)، والمحاجةُ تكون بين اثنين، فدلَّ على أن إبراهيم حاجَّه أيضاً، ولو لم يكن مباحاً.. لما باشرَها إبراهيم عليه السلام؛ لكون الأنبياء عليهم السلام معصومين عن ارتكاب الحرام؛ ولأنا أُمرنا بدعاء الكفرة إلى الإيمان بالله تعالى وتوحيده، وإذا دعوناهم إلى ذلك.. لا بدَّ أن يطلبوا منّا الدليلَ على ذلك، وذا لا يكون إلا بعد المناظرةِ، كذا في «شرح التأويلات»[٢].

《٢٥٩》 ﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ﴾ معناه: أو أرأيت مثلَ الذي، فحذف؛ لدلالة: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ عليه؛ لأن كِلْتَيْهِما كلمةُ تعجيبٍ، أو: هو محمول على المعنى دون اللفظِ، تقديره: أرأيت كالذي حاجَّ إبراهيم، أو كالذي مرَّ، وقال صاحب «الكشف» فيه: الكافُ: زيادةٌ، و(الذي): عطفٌ على قوله: (إلى الذي حاجَّ)[٣].

عن الحسن: إن المارَّ كان كافراً بالبعث[٤]؛ لانتظامه مع نُمرودَ في سِلكٍ، ولكلمة الاستبعادِ التي هي: (أنَّى يحيي)، والأكثرُ: أنه عُزَيْرٌ؛ أراد أن يُعايِنَ إحياءَ الموتى؛ ليزدادَ بصيرةً، كما طلبَه إبراهيمُ عليه السلام و(أنى يحيي): اعترافٌ بالعجز عن معرفة طريقة الإحياءِ، واستعظامٌ لقدرة المحيي، ﴿عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ هي: بيتُ المقدِسِ حيثُ خَرَّبَهُ بُخْتَنَصَّرُ، أو: هي التي خرج منها

(١) لو قال نمرود ذلك.. لكان من الممكن أن يقال له: من يأتي بالشمس من المشرق؟ فإن قال: ربُّكم.. فقد اعترف بربوبية الله، وإن قال: أنا، فيقال له: إذن غَيِّرْ حركتَها.
(٢) «تأويلات أهل السنة» (١/ ٢١٨).
(٣) انظر «كشف المشكلات وإيضاح المعضلات» للباقولي (١/ ١٨٣).
(٤) ذكره أبو القاسم الكرماني في «غرائب التفسير» (١/ ٢٢٧).

الأُلوف، ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾: ساقطةٌ مع سقوفِها، أو: سقطت السقوفُ، ثم سقطت عليها الحيطانُ، وكلُّ مُرتَفِعٍ: عرشٌ، ﴿قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ﴾ أي: كيف، ﴿هَٰذِهِ﴾ أي: أهلَ هذه، ﴿ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ أي: أحياه، ﴿قَالَ﴾ له ملَكٌ: ﴿كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ بناءً على الظنِّ، وفيه دليلُ جوازِ الاجتهادِ.

روي: أنه مات ضُحىً، وبُعِثَ بعدَ مئةِ سنةٍ، قبلَ غيبوبةِ الشمسِ، فقال قبلَ النظر إلى الشمس: يوماً، ثم التفتَ فرأى بقيةً من الشمس فقال: أو بعضَ يوم، ﴿قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ﴾ رويَ: أن طعامَه كان تيناً وعنباً، وشرابَه عصيراً ولبناً، فوجدَ التينَ والعنبَ كما جُنيا، والشرابَ على حاله ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾: لم يتغيَّرْ، والهاءُ أصليةٌ، أو: هاءُ سكتٍ، واشتقاقُه من السَّنَةِ على الوجهين؛ لأن لامَها هاءٌ؛ لأن الأصلَ: سَنْهَةٌ، والفعلُ: سانَهْتُ، يقال: سانَهتُ فلاناً؛ أي: عاملتُه سنةً، أو: واوٌ؛ لأن الأصلَ: سَنْوَةٌ، والفعلُ: سانَيْتُ، ومعناه: لم تُغَيِّرْهُ السِّنونَ، ﴿لم يَتَسَنَّ﴾: بحذف الهاء في الوصلِ، وبإثباتها في الوقفِ: حمزةُ، وعليٌّ[1]، ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ كيف تفرقَتْ عظامُه ونَخِرَتْ، وكان له حمارٌ قد ربطه، فمات وتفتتت عظامُه، أو: وانظر إليه سالماً في مكانِه كما ربطته، وذلك من أعظم الآياتِ أن يعيش مئةَ عام من غير عَلَفٍ ولا ماءٍ، كما حُفِظَ طعامُه وشرابُه من التغيُّرِ، ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ فعَلْنا ذلك، يريدُ إحياءَه بعد الموتِ، وحِفْظَ ما معَه، وقيل: الواوُ: عطفٌ على محذوفٍ؛ أي: لتعتبرَ ولنجعلَك.

قيل: أتى قومَه راكباً حماراً وقال: أنا عُزيرٌ، فكذبوه، فقال: هاتُوا التوراةَ، فأخذ يقرؤها عن ظهرِ قلبِه، ولم يقرأ التوراةَ ظاهراً أحدٌ قبلَ عُزيرٍ، فذلك كونُه آيةً، وقيل: رجع إلى منزلِه فرأى أولادَه شُيوخاً وهو شابٌّ.

﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ﴾ أي: عظامِ الحمارِ، أو: عظامِ الموتى الذين تَعجبُ من إحيائِهم، ﴿كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾: نُحرِّكُها ونرفعُ بعضَها إلى بعضٍ؛ للتركيب، ﴿نُنْشِرُها﴾ بالراء: حجازيٌّ، وبصريٌّ؛ نُحييها، ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا﴾ أي: العظامَ ﴿لَحْمًا﴾ جعلَ اللحمَ كاللباس مجازاً، ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ﴾ فاعلُه مضمرٌ، تقديرُه: فلمّا تبين له أن الله على كل شيء قدير ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٥٤) وكذا القراءاتُ الأربعُ الآتية.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ ....

كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ فحُذِفَ الأولُ؛ لدلالة الثاني عليه، كقولهم: ضربني وضربت زيداً، ويجوز: فلما تبينَ له ما أشكلَ عليه؛ يعني: أمرَ إحياءِ الموتَى، ﴿قال اعلمْ﴾: على لفظ الأمر: حمزةُ، وعليٌّ؛ أي: قال الله له: اعلم، أو: هو خاطبَ نفسَه.

《٢٦٠》 ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى﴾: بَصِّرْني، ﴿كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ موضعُ (كيف) نصبٌ بـ (تحيي)، ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ وإنما قال له: أولم تؤمن، وقد علم أنه أثبتُ الناسِ إيماناً؛ ليجيب بما أجاب به؛ لما فيه من الفائدة الجليلةِ للسامعين، و(بلى): إيجابٌ لما بعد النفي، معناه: بلى آمنتُ ولكن ليطمئن قلبي: لِيزيْدَ سكوناً وطمأنينةً بِمُضامَّةِ علم الضرورةِ علمَ الاستدلالِ، وتظاهرُ الأدلةِ أسكنُ للقلوبِ، وأَزْيَدُ للبصيرةِ، فعِلمُ الاستدلالِ يجوزُ معه التشكيكُ، بخلاف الضروريِّ، واللامُ: تتعلقُ بمحذوفٍ تقديرُه: ولكن سألت ذلك إرادةَ طُمأنينةِ القلبِ، ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ﴾: طاووساً ودِيكاً وغُراباً وحَمامةً، ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ وبكسر الصادِ: حمزةُ؛ أي: أَمِلْهُنَّ واضْمُمْهنَّ، ﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾: ثم جَزِّئْهُنَّ وفرقْ أجزاءَهن على الجبال التي بحضرتِك، وفي أرضِك، وكانت أربعةَ أَجْبُلٍ، أو سبعةً، ﴿جُزُءاً﴾: بضمتين وهمزٍ: أبو بكرٍ، ﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ﴾: قل لهن: تعالَين بإذن الله، ﴿يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾: مصدرٌ في موضع الحال؛ أي: ساعياتٍ مسرعاتٍ في طَيَرانهن، أو في مشيِهن على أرجلِهن، وإنما أَمَرَه بضمِّها إلى نفسه بعد أَخْذِها؛ ليتأملها ويعرفَ أشكالَها وهيآتِها وحُلاها؛ لئلا تلتبسَ عليه بعد الإحياءِ، ولا يَتَوَهَّمَ أنها غيرُ تلك.

وروي: أنه أُمِرَ بأن يذبحها، ويَنْتِفَ ريشَها، ويقطعَها، ويفرقَ أجزاءَها، ويَخْلِطَ ريشَها ودماءَها ولحومَها، وأن يُمسك رؤوسَها، ثم أُمِرَ أن يجعل أجزاءَها على الجبال، على كل جبل رُبُعاً من كل طائر، ثم يصيحَ بها: تعالين بإذن الله، فجعلَ كلُّ جزءٍ يطيرُ إلى الآخر، حتى صارت جُثَثاً، ثم أَقبلن فانضَمَمْنَ إلى رؤوسِهن، كلُّ جُثة إلى رأسها، ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾: لا يمتنع عليه ما يريده، ﴿حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ فيما يدبرُ، لا يفعل إلا ما فيه الحكمةُ.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾ ....

《٢٦١》 ولما بَرْهَنَ على قُدرته على الإحياء.. حثَّ على الإنفاق في سبيل الله، وأَعْلَمَ أن من أنفقَ في سبيله.. فله في نفقتِه أجرٌ عظيمٌ، وهو قادر عليه فقال:

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لا بدَّ مِن حذفِ مضافٍ؛ أي: مثلُ نفقتِهم ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾ أو: مثلُهم كمثل باذرِ حبةٍ ﴿أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ﴾ المنبتُ هو اللهُ، ولكنَّ الحبةَ لما كانت سبباً.. أُسند إليها الإنباتُ، كما يُسنَدُ إلى الأرض، وإلى الماء، ومعنى إنباتِها سبعَ سنابلَ: أن تُخرج ساقاً يتشعبُ منه سبعُ شُعَبٍ، لكلِّ واحدٍ سُنْبُلَةٌ، وهذا التمثيل تصويرٌ للأضعافِ كأنها ماثلةٌ بين عَيني الناظرِ، والممثَّلُ به موجودٌ في الدُّخْنِ والذُّرةِ، وربما فرَّخت ساقُ البُرَّةِ في الأرضِ القويةِ المُغِلَّةِ، فيبلغُ حبُّها هذا المبلغَ، على أن التمثيل يصحُّ وإن لم يوجد، على سبيل الفَرْضِ والتقديرِ، ووضعُ سنابلَ موضعَ سنبلاتٍ كوضع قروءٍ موضعَ أقراءٍ[١]، ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ أي: يضاعفُ تلك المضاعفةَ لمن يشاءُ، لا لكلِّ منفقٍ؛ لتفاوت أحوالِ المنفقين، أو: يزيدُ على سبع مئةٍ لمن يشاءُ، ﴿يُضَعِّفُ﴾: شاميٌّ، ومكيٌّ[٢]، ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾: واسعُ الفضلِ والجودِ، ﴿عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ بنيّاتِ المنفقين.

《٢٦٢》 ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا﴾ هو: أن يَعْتَدَّ على مَن أحسن إليه بإحسانه، ويُريَه أنه اصطنعه وأوجبَ عليه حقّاً له، وكانوا يقولون: إذا صنعتم صنيعة.. فانْسَوها، ﴿وَلَآ أَذًى﴾ هو: أن يتطاول عليه بسبب ما أعطاه، ومعنى (ثم): إظهارُ التفاوت بين الإنفاقِ وتركِ المنِّ والأذى، وأن تركَهما خيرٌ من نفسِ الإنفاقِ، كما جَعَلَ الاستقامةَ على الإيمان خيراً من الدخول فيه بقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ [فصلت: ٣٠]، ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: ثوابُ إنفاقِهم، ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ مِن بَخْسِ الأجرِ، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾ مِن فَوْتِهِ، أو: لا خوفٌ من العذاب، ولا حزنٌ بفوات الثوابِ، وإنما قال هنا: (لهم أجرهم)، وفيما بعدُ: (فلهم أجرهم)؛ لأن الموصول هنا لم يضمَّن معنى الشرط، وضُمِّنَهُ ثَمَّ[٣].

---

(١) أي: هذا الموضع يناسبه جمع القلة، ولكن ذكر جمع الكثرة (سنابل) موضع جمع القلة (سنبلات) لأن صيغ الجمع يقع بعضها موضع الآخر كما في «الكشاف» (١/ ٣٣٨).

(٢) انظر «النشر في القراءات العشر» (٢/ ٢٢٨).

(٣) المراد بتضمينه معنى الشرط هو: اعتبار السببية، ففي نحو: من يقومُ.. فله هدية: يدل دخول الفاء على أن القيام سبب استحقاق الهدية، فإن لم تدخل الفاء.. لم يدل الكلام على السببية. انظر «الإكليل» (٢/ ٢٦٩).

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾

《٢٦٣》 ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ : ردٌّ جميلٌ، ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ : وعفْوٌ عن السائل إذا وُجِدَ منه ما يُثْقِلُ على المسؤولِ، أو: ونَيْلُ مغفرةٍ من الله بسبب الردِّ الجميل ﴿خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ وصحَّ الإخبارُ عن المبتدأِ النكرةِ؛ لاختصاصه بالصفة، ﴿وَٱللَّهُ غَنِىٌّ﴾ : لا حاجةَ له إلى منفق يَمُنُّ ويؤذي، ﴿حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾﴾ عن معاجلته بالعقوبة، وهذا وعيدٌ له.

《٢٦٤》 ثم أكَّد ذلك بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى﴾ الكافُ: نصبٌ صفةُ مصدرٍ محذوفٍ، والتقديرُ: إبْطالاً مثلَ إبطالِ الذي ﴿يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أي: لا تبطلوا ثوابَ صدقاتِكم بالمنِّ والأذى كإبطال المنافقِ الذي ينفقُ مالَه رئاءَ الناسِ ولا يريدُ بإنفاقِه رضا اللهِ، ولا ثوابَ الآخرةِ، و(رئاءَ): مفعولٌ له، ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾ مثَّلَه ونفقتَه التي لا يُنتفع بها البتةَ بحجرٍ أملسَ عليه ترابٌ ﴿فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ﴾ : مطرٌ عظيمُ القطر، ﴿فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا﴾ : أجردَ نقيّاً من التراب الذي كان عليه، ﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟﴾ : لا يجدون ثوابَ شيءٍ مما أنفقوا، أو: الكافُ في محل النصب على الحالِ؛ أي: لا تبطلوا صدقاتكم مُماثِلين الذي ينفقُ، وإنما قال: (لا يقدرون) بعدَ قوله: (كالذي ينفق)؛ لأنه أراد بـ (الذي ينفق) الجنسَ، أو: الفريقَ الذي ينفقُ، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾ ما داموا مُختارين الكفر.

《٢٦٥》 ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: وتصديقاً للإسلامِ، وتحقيقاً للجزاء من أصل أنفسِهم؛ لأنه إذا أنفق المسلم مالَه في سبيل الله.. عُلِمَ أن تصديقه وإيمانه بالثواب من أصل نفسِه، ومِن إخلاصِ قلبه، و(من): لابتداءِ الغايةِ، وهو: معطوفٌ على المفعول له؛ أي: للابتغاءِ وللتثبيتِ؛ والمعنى: ومثلُ نفقةِ هؤلاءِ في زكاتها عندَ الله ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ﴾ : بستانٍ ﴿بِرَبْوَةٍ﴾ : مكانٍ مرتفعٍ، وخصَّها؛ لأن الشجر فيها أزكى، وأحسنُ ثمراً، ﴿بِرُبْوَةٍ﴾ : غيرُ عاصمٍ وشاميٍّ[1]، ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا﴾ : ثمرتَها،

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٥٥) وكذا القراءة الآتية.

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾ ....

﴿أُكْلَها﴾: نافعٌ ومكيٌّ، وأبو عمرو، ﴿ضِعْفَيْنِ﴾: مِثْلَي ما كانت تُثْمِرُ قبلُ بسبب الوابلِ، ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾: فمطرٌ صغيرُ القطرِ يكفيها؛ لِكَرَمِ مَنْبِتِها، أو: مَثَّلَ حالَهم عند الله بالجنة على الرَّبوةِ، ونفقتَهم الكثيرةَ والقليلةَ بالوابل والطلِّ، وكما أن كلَّ واحدٍ من المطرين يُضَعِّفُ أُكُلَ الجنةِ.. فكذلك نفقتُهم كثيرةً كانت أو قليلةً بعدَ أن يُطْلَبَ بها رضا الله تعالى زاكيةٌ عند الله، زائدةٌ في زُلْفاهم وحُسْنِ حالِهم عنده، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾: يرى أعمالَكم على إكثارٍ وإقلالٍ، ويعلم نيّاتِكم فيهما من رياءٍ وإخلاصٍ.

《٢٦٦》 الهمزةُ في ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾: للإنكارِ ﴿أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾: بستانٌ ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ﴾: لصاحب البستانِ، ﴿فِيهَا﴾: في الجنة، ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ يريد بالثمراتِ: المنافعَ التي كانت تحصلُ له فيها، ولأن النخيلَ والأعنابَ لمّا كانا أكرمَ الشجرِ وأكثرَها منافعَ.. خصّهما بالذكر، وجعل الجنة منهما وإن كانت محتويةً على سائر الأشجارِ؛ تغليباً لهما على غيرِهما، ثم أردَفَهُما ذكرَ كلِّ الثمراتِ، ﴿وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ﴾ الواوُ: للحالِ، ومعناه: أن تكون له جنةٌ وقد أصابه الكبرُ، والواوُ في: ﴿وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ﴾: أولادٌ صغارٌ.. للحالِ أيضاً، والجملةُ في موضع الحالِ من الهاء في (أصابه)، ﴿فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ﴾: ريحٌ تستديرُ في الأرضِ، ثم تسطَعُ نحوَ السماءِ كالعَمود، ﴿فِيهِ﴾: في الإعصارِ، وارتفعَ ﴿نَارٌ﴾ بالظرفِ؛ إذْ جرَى الظرفُ وصفاً لـ (إعصارٌ)، ﴿فَٱحْتَرَقَتْ﴾ الجنةُ، وهذا مَثَلٌ لمن يعملُ الأعمالَ الحسنةَ رياءً، فإذا كان يومُ القيامةِ.. وَجدَها مُحْبَطَةً، فيتحسَّرُ عند ذلك حسرةَ مَنْ كانت له جنةٌ جامعةٌ للثمارِ، فبلغَ الكبرَ وله أولادٌ ضِعافٌ، والجنةُ معاشُهم، فهلكت بالصاعقة، ﴿كَذَٰلِكَ﴾: كهذا البيانِ الذي بُيِّنَ فيما تقدمَ ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ في التوحيدِ والدينِ؛ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾ فتَنْتَبِهُوا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةً مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٦٨﴾ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ ....

《٢٦٧》 ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ﴾: من جيادِ مكسُوباتِكم، وفيه دليلُ وجوب الزكاة في أموال التجارةِ، ﴿وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ﴾: من الحبِّ والثمرِ والمعادنِ وغيرِها، والتقديرُ: ومن طيبات ما أخرجنا لكم، إلَّا أنه حُذِفَ؛ لذكرِ الطيباتِ، ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ﴾: ولا تقصُدُوا المالَ الرديءَ ﴿مِنۡهُ تُنفِقُونَ﴾: تخصُّونَه بالإنفاق[١]، وهو في محلِّ الحالِ؛ أي: ولا تيمَّمُوا الخبيثَ مُنْفِقِيْنَ؛ أي: مُقدرين النفقة[٢]، ﴿وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ﴾: وحالُكم أنكم لا تأخذونه في حقوقِكم ﴿إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ﴾: إلا بأن تَتَسامَحُوا في أخذِه، وتَتَرَخَّصُوا فيه؛ مِن قولك: أَغْمَضَ فلانٌ عن بعض حقِّه: إذا غضَّ بصرَه، ويقال للبائع: أَغْمِضْ؛ أي: لا تستقْصِ، كأنك لا تبصرُ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كانوا يتصدقون بِحَشَفِ التَّمرِ وشِرارِه، فنهوا عنه[٣]، ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عن صدقاتكم، ﴿حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾﴾: مستحقٌّ للحمدِ، أو: محمودٌ[٤].

《٢٦٨》 ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ﴾ في الإنفاق ﴿ٱلۡفَقۡرَ﴾ ويقول لكم: إن عاقبة إنفاقِكم أن تَفْتَقِرُوا، والوعدُ يستعملُ في الخير والشر، ﴿وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾: ويُغريكم على البخلِ، ومنعِ الصدقاتِ إغراءَ الآمرِ للمأمورِ، والفاحشُ عند العربِ: البخيلُ، ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم﴾ في الإنفاق ﴿مَّغۡفِرَةً مِّنۡهُ﴾ لذنوبكم، وكفارةً لها، ﴿وَفَضۡلٗاۗ﴾: وأن يُخلف عليكم أفضلَ مما أنفقتم، أو: ثواباً عليه في الآخرة، ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾: يوسعُ على من يشاءُ، ﴿عَلِيمٞ ﴿٢٦٨﴾﴾ بأفعالكم ونيّاتِكم.

《٢٦٩》 ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ﴾: عِلْمَ القرآنِ والسنةِ، أو: العلمَ النافعَ الموصلَ إلى رضا اللهِ، والعملِ به، والحكيمُ عند الله هو: العالمُ العاملُ، ﴿وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ﴾ ﴿ومن يؤتِ﴾: يعقوبُ[٥]؛ أي: ومن يؤتِه اللهُ الحكمةَ ﴿فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ﴾ تَنْكِيرُ تعظيمٍ؛ أي:

---

(١) استفيد معنى تخصيصه بالإنفاق من تقديم الجار والمجرور (منه) على الفعل؛ إذ تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر.
(٢) أي: أنها حال مقدرة، لا مقارنة.
(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٥/ ٥٦٢)، والحشف: أردأ التمر.
(٤) أي: هو مستحق للحمد بذاته وإن لم يحمَدْه حامدٌ، أو: يحمَدُه كلُّ مخلوقٍ بلسان الحال. انظر «تفسير أبي السعود» (٨/ ٢٥٦).
(٥) انظر «البدور الزاهرة» (ص٥٥).

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾ ....

أوتي أيَّ خيرٍ كثيرٍ، ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾: وما يتعظُ بمواعظ الله إلا ذوو العقول السليمةِ، أو: العُلَّامُ العمالُ، والمرادُ به: الحثُّ على العمل بما تضمنت الآيُ في معنى الإنفاقِ.

《٢٧٠》 ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ﴾ في سبيل الله، أو في سبيل الشيطانِ ﴿أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ﴾ في طاعة الله، أو في معصيته ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾: لا يخفى عليه، وهو مجازيكم عليه، ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين يمنعون الصدقاتِ، أو: ينفقون أموالَهم في المعاصي، أو: يَنْذُرُون في المعاصي، أو: لا يَفُون بالنذور ﴿مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾﴾: ممن ينصرُهم من الله، ويمنعُهم من عقابه.

《٢٧١》 ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ﴾: فنعم شيئاً إبداؤُها، و(ما): نكرةٌ غيرُ موصولةٍ ولا موصوفةٍ، والمخصوص بالمدح: هي[1]، ﴿فنِعْما هي﴾: بكسر النونِ، وإسكانِ العينِ: أبو عمرٍو، ومدنيٌّ غيرَ ورشٍ، وبفتح النونِ وكسر العينِ: شاميٌّ وحمزةُ وعليٌّ، وبكسر النون والعينِ: غيرُهم[2]، ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ﴾: وتصيبُوا بها مصارفَها مع الإخفاء ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾: فالإخفاءُ خيرٌ لكم، قالوا: المرادُ: صدقاتُ التطوعِ، والجهرُ في الفرائضِ أفضلُ؛ لنفْيِ التهمةِ، حتى إذا كان المزكِّي ممن لا يُعرفُ باليسار.. كان إخفاؤه أفضلَ، والمتطوعُ إن أراد أن يُقْتَدَى به.. كان إظهاره أفضلَ، ﴿ونُكفرْ﴾: بالنونِ وجزمِ الراءِ: مدنيٌّ وحمزةُ وعليٌّ، وبالياءِ ورفعِ الراءِ: شاميٌّ وحفصٌ، وبالنونِ والرفعِ: غيرُهم[3]، فمن جزم.. فقد عطف على محلِّ الفاءِ وما بعده؛ لأنه جواب الشرط، ومن رفع.. فعلى الاستئناف، والياءُ على معنى: يكفر الله ﴿عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾، والنونُ على معنى: نحن نكفرُ، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الإبداء والإخفاء ﴿خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾: عالمٌ.

《٢٧٢》 ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾: لا يجب عليك أن تجعلهم مَهْدِيِّينَ إلى الانتهاء عمّا نُهوا

---

(١) ولكن يقدر قبله مضافٌ؛ ولذا قال: فنعم شيئاً إبداؤُها.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٥٥).

(٣) انظر المرجع السابق (ص٥٦).

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾﴾ ....

عنه من المنِّ والأذى والإنفاقِ من الخبيثِ وغيرِ ذلك، وما عليك إلا أن تبلِّغَهم النواهيَ فَحَسْبُ، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾، أو: ليس عليك التوفيقُ على الهدى، أو: خلقُ الهدى، وإنما ذلك إلى الله، ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ﴾: من مال ﴿فَلِأَنفُسِكُمْ﴾: فهو لأنفسكم، لا ينتفع به غيرُكم، فلا تَمُنُّوا به على الناس، ولا تؤذُوهم بالتطاول عليهم، ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾: وليست نفقتُكم إلا ابتغاءَ وجهِ الله؛ أي: رضا الله، ولطلب ما عندَه، فما بالُكم تَمُنُّونَ بها، وتُنفقون الخبيثَ الذي لا يُوَجَّهُ مثلُه إلى الله؟ أو: هذا نفيٌ ومعناه: النهيُ؛ أي: ولا تنفقوا إلا ابتغاء وجه الله، ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ ثوابُه أضعافاً مضاعفةً؛ فلا عذرَ لكم في أن ترغبوا عن إنفاقه، وأن يكون على أحسنِ الوجوهِ وأجملِها، ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾: ولا تُنْقَصُون، كقوله: ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: ٣٣] أي: لم تَنْقُصْ.

《٢٧٣》 الجارُّ في ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾: متعلقٌ بمحذوف؛ أي: اعمَدُوا للفقراء، أو: هو خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ؛ أي: هذه الصدقاتُ للفقراء ﴿ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هم: الذين أحصرَهم الجهادُ، فمنعَهم من التصرُّفِ، ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ لاشتغالهم به ﴿ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: للكسب، وقيل: هم أصحابُ الصُّفَّةِ، وهم نحوٌ من أربعِ مئةِ رجلٍ من مُهاجري قريشٍ، لم تكن لهم مساكنُ في المدينة، ولا عشائرُ، فكانوا في صُفَّةِ المسجدِ؛ وهي: سقيفتُه، يتعلمون القرآنَ بالليل، ويَرْضَخُون النوى بالنهار[1]، وكانوا يخرجون في كل سَرِيَّةٍ بعثَها رسولُ الله ﷺ فمن كان عنده فَضْلٌ.. أتاهم به إذا أمسى[2]، ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ﴾ بحالهم، ﴿يحسَبهم﴾ وبابُه: شاميٌّ، ويزيدُ، وحمزةُ، وعاصمٌ غيرَ الأعشَى وهبيرةَ، والباقون: بكسرِ السين[3]، ﴿أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾: مستغنين من أجل تعففِهم عن المسألة، ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾: من صُفْرَةِ الوجوهِ، ورَثاثَةِ الحالِ، ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾: إلحاحاً، قيل: هو نفيُ السؤالِ والإلحاحِ جميعاً، كقوله[4]: [من: الطويل]

(١) يرضخون النوى: يكسِرون النوى، ويأخذون أجرة على ذلك. انظر «الإكليل» (٢/ ٢٨٢).

(٢) ذكره البغوي في «تفسيره» (١/ ٣٣٧).

(٣) انظر «الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها» (ص٥١١).

(٤) هذا صدر بيت لامرئ القيس، وهو في «ديوانه» (ص٦٤)، وتمامه:

=

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾

على لاحبٍ لا يُهتدَى بمناره ....

يريدُ نفيَ المنارِ والاهتداءِ به، والإلحاحُ هو: اللزومُ، وألّا يفارقَ إلّا بشيءٍ يُعطاه، وفي الحديث: «إن الله يحب الحَيِيَّ الحليمَ المتعففَ، ويبغضُ البذيَّ السآلَ الملحِفَ»[1]، وقيل: معناه أنهم إن سألوا.. سألوا بتلطُّفٍ ولم يُلِحُّوا، ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾﴾ لا يضيعُ عندَه.

«٢٧٤» ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ هما حالان؛ أي: مُسرين ومُعلنين؛ يعني: يعُمُّون الأوقاتَ والأحوالَ بالصدقات؛ لحرصهم على الخير، فكلما نزلت بهم حاجةُ محتاجٍ.. عجَّلوا قضاءَها، ولم يؤخروه، ولم يتعلَّلُوا بوقتٍ ولا حالٍ، وقيل: نزلت في أبي بكرٍ الصديق رضيَ الله عنه حين تصدقَ بأربعين ألفَ دينارٍ، عشرةٍ بالليل، وعشرةٍ بالنهار، وعشرةٍ في السرِّ، وعشرةٍ في العلانيةِ، أو: في عليٍّ رضيَ الله عنه، لم يملك إلا أربعةَ دراهمَ، تصدقَ بدرهم ليلاً، وبدرهم نهاراً، وبدرهم سرّاً، وبدرهم علانيةً[2]، ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾.

«٢٧٥» ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ هو: فضلُ مالٍ خالٍ عن العوض، في معاوضةِ مالٍ بمالٍ، وكُتِبَ (الربوا) بالواو على لغةِ من يُفخم، كما كُتب (الصلوة) و(الزكوة)، وزِيدتِ الألفُ بعدَها تشبيهاً بواو الجمع، ﴿لَا يَقُومُونَ﴾ إذا بُعثوا من قبورهم، ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: المصروعُ؛ لأنه تَخبَّطَ في المعاملةِ فجُوزيَ على المقابلةِ، والخبطُ: الضربُ على غير استواءٍ، كخَبْطِ العَشْواءِ، ﴿مِنَ ٱلْمَسِّ﴾: من الجنون، وهو يتعلق بـ(لا يقومون) أي:

= إذا سافَه العودُ النباطي جرجرا

اللاحبُ: الطريق الواضح، **لا يُهتدى بمناره**: ليس له منارٌ يُهتدى به، **المنار**: العلامةُ، **سافَهُ**: شَمَّهُ، **العَوْدُ النُّباطيُّ**: الجملُ المسنُّ الضخمُ، **جَرْجَرَ**: رَغا وضَجَّ.

(١) رواه للطبراني في «المعجم الكبير» (١٠/١٩٦) عن سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) رواه الواحدي في «أسباب النزول» (ص٩٤) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنه.

﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ۝٢٧٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٢٧٧ ......﴾

لا يقومون من المسِّ الذي بهم إلا كما يقومُ المصروعُ، أو بـ (يقوم) أي: كما يقوم المصروعُ من جنونِه؛ والمعنى: أنهم يقومون يومَ القيامةِ مُخْبَلِيْنَ كالمصروعِين، تلك سِيْماهم يُعرفُون بها عند أهلِ الموقفِ، وقيل: الذين يخرجون من الأجداث يُوفضُون[1]، إلا أَكَلَةَ الربا، فإنهم ينهضون ويَسقطون كالمصروعِين؛ لأنهم أكلوا الربا فأرباه اللهُ في بطونهم حتى أَثْقَلَهُم، فلا يقدرون على الإِيْفاض، ﴿ذَٰلِكَ﴾ العقابُ ﴿بِأَنَّهُمْ﴾: بسبب أنهم ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ﴾ ولم يقل: إنما الربا مثلُ البيعِ مع أن الكلام في الربا لا في البيع؛ لأنه جيءَ به على طريقة المبالغةِ، وهو أنه قد بلغَ من اعتقادِهم في حِلِّ الربا أنهم جعلُوه أصلاً وقانوناً في الحِلِّ؛ حتى شَبَّهُوا به البيعَ، ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ﴾: إنكارٌ لتسويتِهم بينهما؛ إذ الحِلُّ معَ الحرمةِ ضِدّانِ، فأنَّى يتماثلان! ودلالةٌ على أن القياس يَهْدِمُه النصُّ؛ لأنه جعلَ الدليلَ على بطلان قياسِهم إحلالَ اللهِ وتحريمَه، ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾: فمن بَلَغَهُ وعظٌ من الله وزجرٌ بالنهي عن الربا ﴿فَٱنتَهَىٰ﴾: فتبعَ النهيَ وامتنعَ ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾: فلا يؤاخذُ بما مضى منه؛ لأنه أخذَ قبلَ نزولِ التحريمِ، ﴿وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾: يحكمُ في شأنه يومَ القيامةِ، وليس من أمره إليكم شيءٌ؛ فلا تطالبُوه به، ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى استحلال الربا: عن الزجاج[2]، أو: إلى الربا مستحلاً ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢٧٥﴾ لأنهم بالاستحلال صارُوا كافرين؛ لأن من أحلَّ ما حرمَ اللهُ عزَّ وجلَّ.. فهو كافر؛ فلذا استحق الخلودَ، وبهذا تبينَ أنه لا تعلقَ للمعتزلة بهذه الآية في تخليد الفساقِ.

《٢٧٦》 ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾: يذهبُ ببركته، ويهلك المال الذي يدخلُ فيه، ﴿وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾: يُنميها ويزيدُها؛ أي: يزيدُ المال الذي أُخرجت منه الصدقةُ ويباركُ فيه، وفي الحديث: «ما نقصت زكاةٌ من مال قط»[3]، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ﴾: عظيمِ الكفرِ باستحلال الربا، ﴿أَثِيمٍ ۝٢٧٦﴾: متمادٍ في الإثمِ بأكله.

《٢٧٧》 ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٢٧٧﴾ قيل: المراد به: الذين آمنوا بتحريم الربا.

---

(١) **الأجداث**: القبور، **يوفضون**: يسرعون.

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (١/٣٥٨).

(٣) رواه مسلم (٢٥٨٨) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ ....

《٢٧٨》 ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟﴾ أَخذُوا ما شرطُوا على الناس من الربا، وبقيت لهم بقايا، فأُمِرُوا أن يتركُوها، ولا يطالبوا بها، رويَ: أنها نزلت في ثقيفٍ، وكان لهم على قوم من قريش مالٌ، فطالبوهم عند المحِلِّ بالمال والربا[١]، ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾: كاملي الإيمان؛ فإن دليل كمالِه امتثالُ المأمورِ به.

《٢٧٩》 ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾: فاعلَمُوا بها؛ مِن أَذِنَ بالشيءِ: إذا علمَ؛ يؤيده قراءةُ الحسن: ﴿فأيقِنُوا﴾[٢]، ﴿فآذِنُوا﴾: حمزةُ، وأبو بكرٍ غيرَ ابنِ غالبٍ[٣]، فأعلموا بها غيرَكم، ولم يقل بحربِ اللهِ ورسولِه؛ لأن هذا أبلغُ؛ لأن المعنى: فأذَنُوا بنوعٍ من الحرب عظيمٍ من عندِ اللهِ ورسولِه[٤]، ورويَ: أنها لما نزلت.. قالت ثقيفٌ: لا يَدَيْ لنا بحرب الله ورسوله، ﴿وَإِن تُبْتُمْ﴾ من الارتباءِ ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ﴾ المدْيُونين بطلب الزيادةِ عليها، ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ بالنقصان منها.

《٢٨٠》 ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾: وإن وقع غريمٌ من غُرَمائِكم ذو عُسْرَةٍ: ذو إعسارٍ ﴿فَنَظِرَةٌ﴾: فالحكمُ، أو: فالأمرُ نظرةٌ؛ أي: إنظارٌ ﴿إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾: يسارٍ، ﴿ميسُرة﴾: نافعٌ[٥]، وهما لغتان، ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا۟﴾: بالتخفيفِ: عاصمٌ؛ أي: تتصدقوا برؤوس أموالِكم، أو ببعضها على مَن أعْسَرَ من غُرمائكم، وبالتشديد: غيرُه، فالتخفيفُ: على حذف إحدى التاءين، والتشديدُ: على الإدغام، ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في القيامة، وقيل: أريد بالتصدق: الإنظارُ؛ لقوله عليه السلام: «لا يَحِلُّ دَيْنُ رجلٍ مسلمٍ فيؤخرَه إلا كان له بكل يوم صدقةٌ»[٦]، ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾ أنه خير لكم فتعملُوا به، جُعلَ مَن لا يعمل به وإن علمه كأنه لا يعلمُه.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٦/ ٢٣) عن ابن جريج.

(٢) انظر «تفسير الرازي» (٧/ ٨٤).

(٣) انظر «الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها» (ص٣٧٧).

(٤) لأن تنكير (حرب) للتعظيم. انظر «تفسير البيضاوي» (١/ ١٦٣).

(٥) انظر «البدور الزاهرة» (ص٥٦) وكذا القراءة الآتية.

(٦) رواه ابن ماجه (٢٤١٨) عن سيدنا بريدة الأسلمي رضي الله عنه، وفي «مسند أحمد» (٥/ ٣٦٠) عنه مرفوعاً: «له بكل يوم صدقة قبل أن يحل الدين، فإذا حل الدين فأنظره.. فله بكل يوم مثليه صدقة».

﴿وَاتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾ ....

《٢٨١》 ﴿وَاتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ : ﴿تَرْجِعُون﴾ : أبو عمرٍو[١]، فـ: رجعَ: لازمٌ، ومُتعَدٍّ، قيل: هي آخرُ آيةٍ نزلَ بها جبريلُ عليه السلام[٢]، وقال: ضَعها في رأس المئتين والثمانين من البقرةِ[٣]، وعاش رسول الله بعدها أحداً وعشرين يوماً، أو: أحداً وثمانين، أو: سبعةَ أيام، أو: ثلاثَ ساعاتٍ[٤]، ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ أي: جزاءَ ما كسبت، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ بنُقصان الحسناتِ، وزيادةِ السيئات.

《٢٨٢》 ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾ أي: إذا داينَ بعضُكم بعضاً؛ يقال: داينتُ الرجلَ: إذا عاملتَه بدينٍ معطياً أو آخذاً، ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ : مدةٍ معلومةٍ لا كالحصادِ، أو الدياسِ، أو رجوعِ الحاجِّ، وإنما احتيجَ إلى ذكر الدَّين ولم يُقلْ: إذا تداينتم إلى أجل مسمّىً.. ليرجعَ الضميرُ إليه في قوله: ﴿فَٱكْتُبُوهُ﴾؛ إذ لو لم يُذكر.. لوجبَ أن يُقال: فاكتبوا الدَّين، فلم يكن النظمُ بذلك الحسنِ؛ ولأنه أَبيَنُ لتنويعِ الدينِ إلى مؤجلٍ وحالٍّ، وإنما أُمِرَ بكتابة الدين؛ لأن ذلك أوثقُ وآمنُ من النسيان، وأبعدُ من الجحود؛ والمعنى: إذا تعاملتم بدين مؤجل.. فاكتبوه.

والأمر للندب[٥]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن المراد به السلمُ، وقال: لما حرم الله

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٥٦).

(٢) رواه البخاري (٤٥٤٤) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) رواه الفراء في «معاني القرآن» (١/ ١٨٣).

(٤) في تفسير الطبري (٦/ ٤١): قال ابن جريج: «يقولون إن النبيﷺ مكث بعدها تسع ليال».

(٥) إذ لم ينقل عن الصحابة والتابعين وفقهاء الأمصار أنهم كانوا يتشددون فيهما، بل كانت تقع المداينات=

....

الربا.. أباح السلم المضمونَ إلى أجل معلومٍ في كتابه، وأنزل فيه أطولَ آيةٍ[١]، وفيه دليلٌ على اشتراطِ الأجلِ في السَّلَم.

﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ﴾: بين المتداينين ﴿كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ﴾ هو متعلق بـ (كاتب) صفةٌ له؛ أي: كاتبٌ مأمونٌ على ما يَكتبُ، يَكتبُ بالاحتياط، لا يزيدُ على ما يجب أن يُكتبَ ولا يَنْقُصُ.

وفيه دليلٌ أن يكون الكاتب فقيهاً عالماً بالشروط حتى يجيءَ مكتوبُه معدَّلاً بالشرع، وهو أمر للمتداينين بتخيُّر الكاتبِ، وألا يَستكتِبُوا إلا فقيهاً ديِّناً حتى يكتبَ ما هو متفق عليه.

﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ﴾: ولا يمتنعْ واحدٌ من الكُتاب ﴿أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ﴾: مثلَ ما علمه اللهُ كتابةَ الوثائقِ، لا يبدلُ ولا يغيرُ، و(كما): متعلقٌ بـ (أن يكتب)، ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾ تلك الكتابةَ، لا يعدلْ عنها، ﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾: ولا يكن المملِي إلا من وجبَ عليه الحقُّ[٢]؛ لأنه هو المشهودُ على ثباته في ذمته، وإقرارِه به، فيكون ذلك إقراراً على نفسه بلسانه، والإملالُ والإملاءُ: لغتان، ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾: وليتق الذي عليه الدينُ ربَّه، فلا يمتنعْ عن الإملاء فيكونَ جَحُوداً لكلِّ حقِّه، ﴿وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾: ولا يُنقص من الحق الذي عليه شيئاً في الإملاءِ فيكونَ جَحُوداً لبعض حقِّه.

﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا﴾ أي: مجنوناً؛ لأن السَّفَهَ خفةٌ في العقل، أو محجوراً عليه؛ لتبذيره وجهلِه بالتصرف، ﴿أَوْ ضَعِيفًا﴾: صبيّاً، ﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ﴾ لِعِيٍّ به، أو خَرَسٍ ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ﴾: الذي يَلِي أمرَه ويقومُ به ﴿بِٱلْعَدْلِ﴾: بالصدقِ والحقِّ.

﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ﴾: واطلبوا أن يشهدَ لكم شهيدان على الدَّين، ﴿مِن رِّجَالِكُمْ﴾: من رجال المؤمنين، والحريةُ والبلوغُ شرطٌ مع الإسلامِ، وشهادةُ الكفار بعضهم على بعض مقبولة عندنا[٣]، ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا﴾: فإن لم يكن الشهيدان ﴿رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ﴾: فليشهد رجلٌ

= والمبايعات بينهم من غير كتابة ولا إشهاد، ولم يقع إنكار منهم، فدل ذلك على أن الأمر للندب. انظر «تفسير آيات الأحكام» للسايس (ص١٨٧).

(١) روى نحوه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٢/ ٢٠٥).

(٢) يشير إلى أن الجملة تفيد الحصر، وفُهِمَ الحصرُ من تعليق الحكم بالوصف؛ فإن ترتيب الحكم على الوصف مشعرٌ بالعلية، والأصلُ عدم علة أخرى، والحكم هو: (ليملل)، والوصف هو: (الذي عليه الحق). انظر «تفسير الآلوسي» (٢/ ٥٥).

(٣) انظر «حاشية ابن عابدين» (٥/ ٤٧٢).

....

وامرأتان، وشهادةُ الرجال مع النساء تقبلُ فيما عدا الحدودَ والقصاصَ[(١)]، ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَآءِ﴾: ممن تعرفون عدالتهم، وفيه دليلٌ: على أن غير المرضيِّ شاهدٌ[(٢)]، ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾: لأجل أن تنسى إحداهما الشهادةَ فتذكرَها الأخرى، ﴿إن تضل إحداهما﴾: على الشرط، ﴿فتُذَكِّرُ﴾: بالرفع والتشديدِ: حمزةُ، كقوله: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾ [المائدة: ٩٥][(٣)]، ﴿فتُذْكِرَ﴾: بالنصب: مكيٌّ، وبصريٌّ[(٤)]؛ من الذِّكرِ، لا من الذَّكَرِ[(٥)]، ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ﴾ لأداء الشهادةِ، أو: للتحمل؛ لئلا تَتْوَى حقوقُهم[(٦)]، وسماهم شهداءَ قبلَ التحملِ تنْزيلاً لما يشارفُ منزلةَ الكائنِ، فالأولُ: للفرض، والثاني: للندب[(٧)]، ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ﴾: ولا تَملُّوا؛ قال:[(٨)]: [من الطويل]

سئمتُ تكاليفَ الحياةِ ومن يعشْ ... ثمانينَ حولاً لا أبا لكَ يَسأمِ

والضميرُ في ﴿أَن تَكْتُبُوهُ﴾: للدَّين، أو: الحقِّ، ﴿صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا﴾ على أيِّ حال كان الحقُّ؛ من صِغَرٍ، أو كِبَرٍ.

وفيه دلالةُ جوازِ السلمِ في الثياب؛ لأن ما يُكال أو يُوزن لا يُقال فيه: الصغيرُ والكبيرُ، وإنما يقال في الذَّرْعِي، ويجوزُ أن يكون الضميرُ لـ (الكتاب)، وأن يكتبوه مختصراً أو مُشبَعاً،

---

(١) انظر «الاختيار لتعليل المختار» (٢/ ١٤٠).

(٢) أي: أن غير المرضي وهو الفاسق يسمى شاهداً، فيصح تحمله للشهادة؛ ولذا ينعقد النكاح عند الحنفية بشهادة الفاسقين. انظر «المبسوط للسرخسي» (٥/ ٣١).

(٣) إذا وقع المضارع جواباً للشرط.. لم يقترن بالفاء، فإن دخلت الفاء.. قُدِّرَ مبتدأٌ بعد الفاء لتكون الجملة اسميةً ويصحَّ اقترانُها بالفاء؛ والتقدير في (فينتقم): فهو ينتقم، وفي (فتذكر): فهي تذكر، و(إحْداهُما) بدل من الضمير: هي، أو من الضمير المستتر في (فَتُذَكِّرُ). انظر «تفسير الآلوسي» (٢/ ٥٨).

(٤) انظر «البدور الزاهرة» (ص٥٧).

(٥) أي: ليست بمعنى: أن تجعل إحداهما الأخرى ذكراً؛ يعني: أنهما إذا اجتمعتا كانتا بمنزلة الذكر، وهذا تفسير مردود، والصواب: أن القراءتين بمعنىً واحد، وهو تَذَكُّرُ ما نَسِيَتْهُ. انظر «تفسير الآلوسي» (٢/ ٥٧).

(٦) تتوى: تتلف.

(٧) الأول: أداء الشهادة، والثاني: تحملها، والحكم فيه تفصيلٌ؛ وهو أن مَن تعين لتحملها.. وجب عليه إذا طولب بالتحمل، وإن لم يتعين.. فهو مخير، فإذا تحملها وطلب لأدائها.. يفترض عليه، إلا أن يقوم الحق بغيره. انظر «الاختيار لتعليل المختار» (٢/ ١٣٩).

(٨) هو زهير بن أبي سلمى. انظر «ديوانه» (ص١١٠).

....

﴿إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾: إلى وقته الذي اتفقَ الغريمانِ على تسميته، ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾: إشارةٌ إلى (أن تكتبوه)؛ لأنه في معنى المصدرِ؛ أي: ذلكم الكَتْبُ ﴿أَقۡسَطُ﴾: أعدلُ؛ مِن: القِسطِ، وهو العدلُ، ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾: ظرفٌ لـ (أَقْسَطُ)، ﴿وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ﴾: وأعْوَنُ على إقامة الشهادةِ، وبُنيَ (أفْعَلا) التفضيلِ؛ أي: (أقسطُ)، و(أقْومُ) مِن: أقسطَ وأقامَ؛ على مذهب سيبويه[١]، ﴿وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ﴾: وأقربُ من انتفاءِ الريب للشاهدِ والحاكمِ وصاحبِ الحقِّ؛ فإنه قد يقع الشكُّ في المقدار والصفاتِ، وإذا رجعوا إلى المكتوب. . زال ذلك، وأَلِفُ (أدنى) منقلبةٌ من واوٍ؛ لأنه من الدُّنُوِّ.

﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً﴾: عاصمٌ؛ أي: إلا أن تكون التجارة تجارةً، أو: إلا أن تكون المعاملة تجارةً حاضرةً، غيرُه: ﴿تجارةٌ حاضرةٌ﴾[٢]: على: كان التامةِ؛ أي: إلا أن تقع تجارةٌ حاضرةٌ، أو: هي ناقصةٌ، والاسمُ: (تجارةٌ حاضرةٌ) والخبرُ: ﴿تُدِيرُونَهَا﴾، وقوله: ﴿بَيۡنَكُمۡ﴾: ظرفٌ لـ (تديرونها)؛ ومعنى إدارتِها بينهم: تَعاطِيها يداً بيدٍ، ﴿فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ﴾ يعني: إلا أن تَتبايَعُوا بيعاً ناجزاً يداً بيدٍ، فلا بأسَ ألا تكتبوها؛ لأنه لا يتوهمُ فيه ما يتوهمُ في التداين، ﴿وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ﴾: أمرٌ بالإشهاد على التبايع مطلقاً؛ ناجزاً أو كالئاً؛ لأنه أحوطُ وأبعدُ من وقوع الاختلاف، أو: أريدَ به: وأشهدوا إذا تبايعتم هذا التبايعَ؛ يعني: التجارةَ الحاضرةَ؛ على أن الإشهاد كافٍ فيه دون الكتابةِ؛ والأمرُ للندب[٣]، ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ﴾: يحتمل البناءَ للفاعل؛ لقراءة عمرَ رضي الله عنه: ﴿ولا يضارِرْ﴾، وللمفعول؛ لقراءة ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿ولا يضارَر﴾[٤]؛ والمعنى: نهيُ الكاتب والشهيدِ عن ترك الإجابة إلى ما يُطلبُ منهما، وعن التحريف والزيادةِ والنقصانِ، أو: النهيُ عن الضِّرار بهما؛ بأن يُعْجَلا

---

(١) صوغُ (أفعلِ) التفضيلِ من الفعل الرباعي (أَفْعَلَ) أجازه ابنُ مالكٍ وقال: هذا هو مذهب سيبويه والمحققين من أصحابه. انظر «شرح التسهيل» لابن مالك (٣/ ٤٦).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٥٧).

(٣) إذ لو كان واجباً. . لكان فيه أعظمُ التشديد على الناس والتغليظ. انظر «التفسير البسيط» للواحدي (٤/ ٤٨٦)، وفي سنن أبي داود: (٣٦٠٧) أن النبي ﷺ ابتاع فرساً ولم يشهد، قال الإمام الشافعي في «الأم» (٣/ ٨٩): فلو كان حتماً - أي: لو كان الإشهاد واجباً- لم يبايع رسولُ الله ﷺ بلا بينة.

(٤) قراءتان شاذتان، والقراءة بفتح الراء الأولى نسبها ابن عطية ومكي لسيدنا عمر، ونسب الزمخشري قراءة الكسر لسيدنا عمر، وقراءة الفتح لسيدنا ابن عباس رضي الله عنهم. انظر «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١/ ٩٢٤)، و«المحرر الوجيز» (١/ ٣٨٥)، و«الكشاف» (١/ ٣٢٧).

وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا تَكْتُمُوا ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ . . .

عن مُهِمٍّ، ويُلَزّا[(١)] ، أو: لا يُعطى الكاتبُ حقَّه من الجُعْلِ[(٢)] ، أو: يُحَمَّلَ الشهيدُ مؤنةَ مجيئِه من بلدٍ، ﴿وَإِن تَفْعَلُوا﴾ : وإن تضارُّوا ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ : فإن الضرارَ ﴿فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ : مأثمٌ، ﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾ في مخالفة أمره، ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ شرائعَ دينه، ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾ : لا يلحقُه سهوٌ، ولا قُصورٌ.

《٢٨٣》 ﴿وَإِن كُنتُمْ﴾ أيُّها المتداينون ﴿عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ : مسافرين ﴿وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ﴾ ﴿فرُهُنٌ﴾: مكيٌّ وأبو عمرٍو[(٣)] ؛ أي: فالذي يُستوثق به رُهُنٌ، وكلاهما جمعُ رَهْنٍ، كسَقْفٍ وسُقُفٍ، وبَغْلٍ وبِغالٍ، ورَهْنٌ في الأصل: مصدرٌ سُمِّيَ به، ثم كُسِّرَ تكسيرَ الأسماءِ، ولما كان السفر مَظِنَّةً لإعوازِ الكَتْبِ والإشهادِ[(٤)] . . أُمِرَ على سبيل الإرشاد إلى حفظ المال مَنْ كان على سفر بأن يُقيمَ التوثقَ بالارتهان مُقامَ التوثقِ بالكَتْبِ والإشهادِ؛ لا أنَّ السفرَ شرطُ تجويزِ الارتهانِ، وقولُه: ﴿مَّقْبُوضَةٌ﴾ : يدلُّ على اشتراط القبضِ، لا كما زعم مالكٌ أن الرهن يصحُّ بالإيجاب والقبول بدونِ القبضِ[(٥)] ، ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ : فإن أمن بعضُ الدائنين بعضَ المديونين بحُسن ظنِّه به فلم يَتَوَثَّقْ بالكتابة والشهودِ والرهنِ ﴿فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾ : دَيْنَه، و(ائتمن): (افْتُعِلَ) مِن الأَمْنِ، وهو حثٌّ للمدين على أن يكون عندَ ظنِّ الدائنِ، وأَمْنِهِ منه، وائْتِمانِه له، وأن يؤديَ إليه الحقَّ الذي ائْتَمَنَه عليه، فلم يَرْتَهِنْ منه، وسُمِّيَ الدَّينُ أمانةً وهو مضمون؛ لائْتِمانِه عليه بترك الارتهانِ منه، ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ في إنكار حقِّهِ.

﴿وَلَا تَكْتُمُوا ٱلشَّهَٰدَةَ﴾ : هذا خطابٌ للشهودِ، ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ ارتفعَ (قلبه) بـ (آثمٌ) على الفاعلية؛ كأنه قيل: فإنه يأثمُ قلبُه، أو: بالابتداءِ، و(آثمٌ): خبرٌ مقدمٌ، والجملةُ: خبرُ إنَّ، وإنما أُسند إلى القلب والجملةُ هي الآثمةُ لا القلبُ وحدَه؛ لأن كِتمانَ

---

(١) لَزَّ الشيءَ بالشَّيْءِ يَلُزُّه لَزّاً وألَزَّه: ألزمه إياه.

(٢) **الجُعل** : الأجرة.

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٥٧).

(٤) **الإعواز** : الفَقْدُ.

(٥) عند المالكية: القبض ليس بشرط في انعقاد الرهن وصحته ولا في لزومه، بل ينعقد ويصح ويلزم، ثم يطالِبُ المرتهنُ بالإقباض، ويجبرُ الراهنُ عليه، لكن يشترط القبض في استقرار الوثيقة ليكون أولى من الغرماء في الفلس أو الموت. انظر «الذخيرة» للقرافي (٨/ ١٠٠).

﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾ ....

الشهادةِ أن يُضمرَها في القلب، ولا يتكلمَ بها، فلما كان إثماً مقتَرَفاً مكتسَباً بالقلب.. أُسْنِدَ إليه؛ لأن إسنادَ الفعلِ إلى الجارحةِ التي يُعملُ بها أبلغُ، كما تقول: هذا مما أَبْصَرَتْهُ عيني، ومما سَمِعَتْهُ أُذني، ومما عَرَفَهُ قلبي؛ ولأن القلبَ رئيسُ الأعضاءِ، والمُضغةُ التي إن صَلَحت.. صَلح الجسدُ كلُّه، وإن فَسَدَت.. فَسَدَ الجسدُ كلُّه، فكأنه قيل: فقد تمكَّنَ الإثمُ في أصلِ نفسِه، وملكَ أشرفَ مكانٍ منه، ولأن أفعالَ القلوبِ أعظمُ من أفعالِ سائرِ الجوارحِ؛ ألا ترى أن أصلَ الحسناتِ والسيئاتِ الإيمانُ والكفرُ، وهما من أفعالِ القلوبِ، وإذا جُعلَ كِتمانُ الشهادة من آثامِ القلوب.. فقد شُهِدَ له بأنه من مَعاظِمِ الذنوبِ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أكبر الكبائر الإشراكُ بالله، وشهادةُ الزورِ، وكِتمانُ الشهادة[1]، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٢٨٣﴾﴾ من كِتمانِ الشهادةِ وإظهارِها ﴿عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه شيءٌ.

《٢٨٤》 ﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً، ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ يعني: من السوء ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾: يكافئُكم ويجازيكم، ولا تدخلُ الوساوسُ وحديثُ النفس فيما يخفيه الإنسان؛ لأن ذلك مما ليس في وُسْعِهِ الخُلوُّ منه، ولكن ما اعتقده وعزمَ عليه.

والحاصلُ: أن عزمَ الكفرِ كفرٌ، وخَطْرَةُ الذنوبِ من غير عزمٍ مَعْفُوَّةٌ، وعزمُ الذنوب إذا ندم عليه ورجعَ عنه واستغفرَ منه مغفورٌ، فأما إذا هَمَّ بسيئة وهو ثابتٌ على ذلك إلا أنه مُنِعَ عنه بمانعٍ لا باختياره.. فإنه لا يُعاقبُ على ذلك عقوبةَ فعلِه؛ أي: بالعزم على الزنا لا يُعاقبُ عقوبةَ الزنا، وهل يُعاقبُ عقوبةَ عزمِ الزنا؟ قيل: لا؛ لقوله عليه السلام: «إن الله عَفا عن أُمتي ما حَدَّثت به أنفسَها ما لم تعملْ، أو تتكلم به»[2].

والجمهورُ على أن الحديث في الخَطْرَةِ دون العزمِ، وأن المؤاخذة في العزم ثابتةٌ، وإليه مالَ الشيخُ أبو منصور[3]، وشمسُ الأئمةِ الحَلْواني رحمهما اللهُ، والدليلُ عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ﴾ الآيةَ [النور: ١٩]، وعن عائشةَ رضي الله عنها: ما هَمَّ العبدُ بالمعصية من غير عمل.. يعاقَبْ على ذلك بما يلحقُه من الهمِّ والحزنِ في الدنيا.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٦/ ١٠٠).

(٢) رواه البخاري (٥٢٦٩)، ومسلم (١٢٧) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) انظر «تأويلات أهل السنة» (١/ ٢٤٠).

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ....

وفي أكثر التفاسيرِ: أنه لما نزلت هذه الآية.. جَزعَتِ الصحابةُ رضي الله عنهم وقالوا: أنؤاخذُ بكلِّ ما حَدَّثت به أنفسُنا؟ فنزل قولُه[1]: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾ إلى قوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ﴾ فتعلقَ ذلك بالكسب دونَ العزمِ، وفي بعضِها: أنها نُسخت بهذه الآية[2]، والمحققون على أن النسخَ يكون في الأحكام، لا في الأخبار[3].

﴿فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ﴾: برفعِهما: شاميٌّ وعاصمٌ؛ أي: فهو يغفرُ، ويعذبُ، ويجزمِهما: غيرُهم؛ عطفاً على جواب الشرطِ، وبالإدغامِ أبو عمرٍو[4]، كذا في «الإشارة والبشارة»[5]، وقال صاحب «الكشاف»: مُدْغِمُ الراءِ في اللام لاحنٌ مُخطئٌ؛ لأن الراءَ حرفٌ مكررٌ فيصيرُ بمنزلة المضاعَفِ، ولا يجوز إدغامُ المضاعفِ، وراويه عن أبي عمرٍو مخطئٌ مرتين؛ لأنه يَلحنُ، ويَنْسُبُ إلى أعلمِ الناسِ بالعربية ما يُؤذنُ بجهلٍ عظيمٍ[6]، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ من المغفرة والتعذيبِ وغيرِهما ﴿قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾: قادرٌ.

《٢٨٥》 ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ﴾: إن عُطِفَ (المؤمنون) على (الرسول) كان الضميرُ الذي التنوينُ نائبٌ عنه في ﴿كُلٌّ﴾ راجعاً إلى (الرسول) و(المؤمنون) أي: كلُّهم ﴿ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾، ووُقِفَ عليه، وإن كان مبتدأً.. كان (كلٌّ) مبتدأً ثانياً، والتقديرُ: كلٌّ منهم، و(آمن): خبرُ المبتدأ الثاني، والجملةُ: خبرُ الأول، وكان الضمير

---

(١) رواه مسلم (١٢٥) بنحوه مطولاً عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) روى البخاري (٤٥٤٦) عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾ قال: (نسختها الآية التي بعدها).

(٣) ذكر الحافظ ابن حجر أنه خبرٌ يتضمن حكماً فأمكن دخول النسخ فيه كسائر الأحكام، والذي لا يدخله النسخ من الأخبار ما كان خبراً محضاً لا يتضمن حكماً، كالأخبار عما مضى من أحاديث الأمم ونحوِ ذلك. انظر «فتح الباري» (٨/ ٢٠٧).

(٤) انظر «النشر في القراءات العشر» (٢/ ٢٣٧).

(٥) كتاب في القراءات العشر. انظر الإكليل (٢/ ٣١٧).

(٦) انظر «الكشاف» للزمخشري (١/ ٣٥٧)، وكلامه هذا مردود بأنّ قراءة أبي عمرو بالإدغام متواترة لا يمكن الطعن فيها، مع أنّ القول بامتناع إدغام الراء في اللام إنما هو مذهب البصريين، وأمّا الكوفيون بل وبعض البصريين كأبي عمرو.. فقائلون بالجواز، ونقل أبو عمرٍو والكسائيُّ وأبو جعفرٍ صحةَ إدغامِ: صار لي، وصار لك.. عن العرب، ومن حفظ.. حجةٌ على من لم يحفظ. انظر «السراج المنير» للخطيب الشربيني (١/ ١٩٠).

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾

للمؤمنين، ووُحِّد ضميرُ (كلٌّ) في (آمن) على معنى: كلُّ واحدٍ منهم آمنَ، ﴿وكتابِه﴾: حمزةُ وعليٌّ[١]؛ يعني: القرآنَ، أو الجنسَ، ﴿لَا نُفَرِّقُ﴾ أي: يقولون: لا نفرق، بل نؤمن بالكل، ﴿بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ (أحد): في معنى الجمع؛ ولذا دخل عليه (بين)، وهو لا يدخل إلا على اسمٍ يدل على أكثرَ من واحدٍ؛ تقول: المالُ بينَ القومِ، ولا تقول: المالُ بينَ زيدٍ، ﴿وَقَالُواْ سَمِعْنَا﴾: أجبنا قولَكَ، ﴿وَأَطَعْنَا﴾ أمرَك، ﴿غُفْرَانَكَ﴾ أي: اغفرْ لنا غفرانَك، فهو منصوبٌ بفعلٍ مضمرٍ، ﴿رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾: المرجعُ، وفيه إقرارٌ بالبعث والجزاءِ، والآيةُ تدلُّ على بطلان الاستثناءِ في الإيمانِ، وعلى بقاء الإيمانِ لمرتكب الكبائرِ[٢].

《٢٨٦》 ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا﴾: محكيٌّ عنهم، أو: مستأنف، ﴿إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾: إلا طاقتَها وقدرتَها؛ لأن التكليف لا يَرِدُ إلا بفعل يَقْدِرُ عليه المكلفُ، كذا في «شرح التأويلات»، وقال صاحب «الكشاف»: الوسعُ: ما يسعُ الإنسانَ، ولا يضيقُ عليه، ولا يُحرجُ فيه؛ أي: لا يكلفُها إلا ما يتسعُ فيه طَوْقُه، ويتيسر عليه، دون مدَى الطاقةِ والمجهودِ، فقد كان في طاقة الإنسان أن يصليَ أكثرَ من الخمس، ويصومَ أكثرَ من الشهرِ، ويحجَّ أكثرَ من حَجَّةٍ[٣].

﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ﴾: ينفعها ما كسبت من خير، ويضرُّها ما اكتسبت من شرٍّ، وخُصَّ الخيرُ بالكسبِ، والشرُّ بالاكتساب؛ لأن (الافتعال) للانكماشِ، والنفسُ تنكمشُ في الشرِّ، وتتكلفُ للخير[٤].

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٥٨).

(٢) الاستثناءُ في الإيمانِ أن يقول: أنا مؤمن إن شاء الله، وجه الاستدلال على عدم جوازه: أن الله شهد للمؤمنين بالإيمان، فالاستثناء إما شك في الإتيان بما أمروا به، أو شك في خبر الله. كذا في «تأويلات أهل السنة» (١/ ٢٤٠).
وعند الأشاعرة: يجوز أن يقول: إن شاء الله، لا شَكّاً، ولكن خيفةَ ما فيه من تزكية النفس، أو للتأدب بذكر الله تعالى في كل حال، أو للشك في كمال إيمانه، وذلك ليس بكفر؛ لأنه يكمل بأعمال الطاعات، ولا يدري وجودها على الكمال. انظر «إحياء علوم الدين» (١/ ١٢٢).

(٣) «الكشاف» (١/ ٣٥٩).

(٤) الانكماش: الإسراع، وفي «تفسير البيضاوي» (١/ ١٦٦): وتخصيص الكسب بالخير، والاكتساب بالشر؛ لأن الاكتساب فيه احتمالٌ، والشر تشتهيه النفس، وتنجذب إليه، فكانت أجدَّ في تحصيله وأَعْمَلَ، بخلاف الخير.

....

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ﴾: تركنا أمراً من أوامرك سهواً، ﴿أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ ودلَّ هذا على جواز المؤاخذةِ في النسيانِ والخطأِ، خلافاً للمعتزلة؛ لإمكان التحرزِ عنهما في الجملةِ، ولولا جوازُ المؤاخذة بهما.. لم يكن للسؤال معنىً، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾: عِبْأً يَأْصِرُ حامله؛ أي: يَحْبِسُهُ مكانَه لِثِقَلِه، استُعيرَ للتكليف الشاقِّ، مِن نحو قتلِ الأنفسِ، وقطعِ موضعِ النجاسة من الجلد والثوبِ، وغير ذلك، ﴿كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ كاليهود، ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ من العقوبات النازلةِ بمن قبلَنا، ﴿وَٱعْفُ عَنَّا﴾: امْحُ سيئاتِنا، ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾: واسترْ ذنوبَنا، وليس بتكرارٍ، فالأولُ للكبائر، والثاني للصغائر، ﴿وَٱرْحَمْنَآ﴾ بتثقيل ميزانِنا مع إفلاسِنا، أو: الأولُ: من المسخ، والثاني: من الخسف، والثالث: من الغرق، ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾: سيدُنا ونحن عبيدك، أو: ناصرُنا، أو: متولي أمورِنا، ﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ فمن حقِّ المولَى أن ينصرَ عبيدَه، في الحديث: «من قرأ ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾ إلى آخره في ليلة.. كفتاه»(١)، وفيه: «من قرأهما بعد العشاء الآخرة.. أجزأتاه عن قيام الليل»(٢)، ويجوز أن يقال: قرأت (سورة البقرة)، أو قرأت (البقرة) لما روي عن علي رضي الله عنه: خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش(٣)، وقال بعضهم: يكره ذلك، بل يقال: قرأت السورة التي تذكرُ فيها البقرةُ(٤).



---

(١) رواه البخاري (٤٠٠٨) ومسلم (٨٠٧) عن سيدنا أبي مسعود البدري رضي الله عنه.

(٢) رواه ابن عدي في «الكامل في ضعفاء الرجال» (٨/ ٣٦٩)، قال المناوي في «الفتح السماوي» (١/ ٣٣٦): وفي إسناده: الوليد بن عباد، وهو مجهول، عن أبانِ بنِ أبي سلمة عياش، وهو متروك.

(٣) رواه النسائي في «السنن الكبرى» (٧٩٦٨) عن سيدنا حذيفة رضي الله عنه مرفوعاً.

(٤) قال الإمام النووي: الصواب الأول - أي: أن يقال: (سورة البقرة) - وهو قول جماهير علماء المسلمين من سلف الأمة وخلفها، والأحاديث فيه عن رسول الله ﷺ أكثر من أن تحصر، وكذلك عن الصحابة فمن بعدهم. انظر «الأذكار» للإمام النووي (ص ١٠٩).



﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٣﴾ ....

سورة آل عمران

نزلت بالمدينة، وهي مئتا آيةٍ.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١، ٢》 ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ﴾ حركت الميمُ؛ لالتقاء الساكنين؛ أعني: سكونَها وسكونَ لامِ (اللهِ)، وفتحت؛ لخفةِ الفتحةِ، ولم تكسر؛ للياءِ، وكسرِ الميمِ قبلَها؛ تحامياً عن توالي الكسراتِ، وليس فتحُ الميمِ لسكونِها وسكونِ ياءٍ قبلَها؛ إذْ لو كان كذلك.. لوجبَ فتحُها في ﴿حم﴾، ولا يصحُّ أن يقال: إن فتحَ الميمِ هو فتحةُ همزةِ (الله) نقلت إلى الميم؛ لأن تلك الهمزةَ همزةُ وصلٍ تسقطُ في الدَّرْجِ، وتسقطُ معها حركتُها، ولو جاز نقلُ حركتِها.. لجاز إثباتُها، وإثباتُها غيرُ جائزٍ، وأسكنَ يزيدُ والأعشى الميمَ، وقَطَعا الألفَ، والباقون: بوصلِ الألفِ، وفتحِ الميمِ[1].

و(الله): مبتدأٌ، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: خبرُه، وخبرُ (لا): مضمرٌ، التقديرُ: لا إله في الوجود إلا هو، و(هو): في موضع الرفعِ: بدلٌ من موضع (لا) واسمِه، ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢﴾: خبرُ مبتدأٍ؛ أي: هو الحي، أو: بدلٌ من (هو)، و(القيوم): (فيعول) من: قام، وهو القائم بالقسطِ، والقائمُ على كل نفس بما كسبت.

《٣》 ﴿نَزَّلَ﴾ أي: هو نزل[2] ﴿عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾: القرآنَ ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾: حالٌ؛ أي: نزَّلَهُ حقاً ثابتاً ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾: لما قبلَه، ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٣﴾ هما: اسمانِ أعجميانِ، وتَكَلُّفُ اشتقاقِهما من الوَرْيِ، والنَّجْلِ[3]، ووزنِهما بـ(تَفْعِلة)، و(إِفْعِيل).. إنما يصحُّ بعد كونهما عربيين.

وإنما قيل: (نَزَّلَ الكتاب)، و(أنزل التوراة والإنجيل) لأن القرآن نَزَلَ مُنَجَّماً، ونَزَلَ الكتابان جُملةً.

---

(١) انظر «المحرر الوجيز» (١/ ٣٩٧).

(٢) فجملة (نزل): خبر مبتدأ محذوف، والأولى إعرابها خبراً ثانياً لاسم الجلالة؛ لسلامته من التقدير.

(٣) **الوَرْيُ**: مصدر: وَرَى، يقال: وَرَى الزَّنْدَ؛ أي: أخرج ناره، و**الزند**: العود الذي يُقْدَح به النارُ، و**النجل**: الأصلُ، فالإنجيل: هو الأصل المرجوع إليه في دينهم.

﴿مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ ....﴾

«٤» ﴿مِن قَبْلُ﴾ : من قبلِ القرآنِ، ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ : لقومِ موسى وعيسى، أو لجميعِ الناسِ[١]، ﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ أي: جنسَ الكتبِ؛ لأن الكلَّ يُفرِّقُ بين الحقِّ والباطلِ، أو: الزبورَ، أو: كرَّرَ ذكرَ القرآنِ بما هو نعتٌ له؛ تفخيماً لشأنه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ من كتبِه المنْزَلَةِ وغيرِها﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾﴾ : ذو عقوبةٍ شديدةٍ، لا يقدرُ على مثلِها منتقمٌ.

«٥» ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾﴾ أي: في العالم، فعبَّرَ عنه بالسماء والأرضِ؛ أي: هو مطلعٌ على كُفْرِ من كَفَرَ، وإيمانِ من آمنَ، وهو مجازيهم عليه.

«٦» ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ من الصور المختلفةِ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في سلطانِه، ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾﴾ في تدبيرِه.

روي: أنه قدِمَ وفدُ بني نجرانَ وهم سِتون راكباً، أميرُهم: العاقبُ، وعُمدتُهم: السَّيدُ، وأُسْقُفُهم وحَبْرُهم: أبو حارثةَ، خاصمُوا في أن عيسى إن لم يكن ولداً لله.. فمن أبوه؟ فقال عليه السلام: «ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا وهو يشبه أباه؟» قالوا: بلى، قال: «ألم تعلموا أن الله تعالى حيٌّ لا يموت، وعيسى يموتُ، وأن ربنا قيِّمٌ على العباد يحفظُهم ويرزقُهم، وعيسى لا يقدرُ على ذلك، وأنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وعيسى لا يعلمُ إلا ما عُلِّمَ، وأنه صَوَّرَ عيسى في الرحم كيف شاء، فحملته أمُّه ووضعتْه وأرضعتْه، وكان يأكل ويُحْدِثُ، وربُّنا مُنزَّهٌ عن ذلك كلِّه، فانقطعوا، فنزل فيهم صدرُ (سورة آل عمران) إلى بضعٍ وثمانين آيةً[٢].

«٧» ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ : القرآنَ، ﴿مِنْهُ﴾ : من الكتاب﴿ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ : أُحكمت عبارتُها؛ بأن حُفظت من الاحتمال والاشتباه، ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ : أصلُ الكتابِ، تُحمَلُ

(١) هدىً لجميع الناس إن قلنا: إن شرعَ مَن قبلَنا شرعٌ لنا. انظر «تفسير البيضاوي» (٢/ ٥).
(٢) رواه نحوه الطبري في «تفسيره» (٦/ ١٥٤).

....

المتشابهاتُ عليها، وتُرَدُّ إليها، ﴿وَأُخَرُ﴾: وآياتٌ أخرُ ﴿مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾: مشتبهاتٌ محتملاتٌ، ومثالُ ذلك: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]: فالاستواءُ يكون بمعنى الجلوسِ، وبمعنى القدرةِ والاستيلاءِ، ولا يجوز الأولُ على الله تعالى؛ بدليل المحكم وهو قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

أو: المحكمُ: ما أمر الله به في كلِّ كتابٍ أنزلَه، نحوُ قوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ...﴾ [الأنعام: ١٥١] الآياتِ، ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ...﴾ [الإسراء: ٢٣] الآياتِ، والمتشابهُ: ما وراءَه، أو: ما لا يحتملُ إلا وجهاً واحداً، وما احتملَ أوْجُهاً، أو: ما يُعلمُ تأويلُه، وما لا يُعلمُ تأويلُه، أو: الناسخُ الذي يُعملُ به، والمنسوخُ الذي لا يُعملُ به.

وإنما لم يكن كلُّ القرآنِ مُحكماً؛ لما في المتشابهِ من الابتلاءِ والتمييزِ بين الثابت على الحقِّ، والمتزلْزِلِ فيه، ولما في تقادُحِ العلماءِ وإتعابِهم القرائحَ في استخراجِ معانيْهِ[1]، وردِّهِ إلى المحكم من الفوائدِ الجليلةِ، والعلومِ الجَمَّةِ، ونَيْلِ الدرجاتِ عندَ اللهِ تعالى.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾: ميلٌ عن الحقِّ، وهم أهل البدع ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ﴾: فيتعلقون بالمتشابه الذي يحتملُ ما يَذهبُ إليه المبتدعُ مما لا يطابقُ المحكمَ، ويحتملُ ما يطابقُه من قولِ أهلِ الحقِّ، ﴿مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾: طلبَ أن يفتنُوا الناسَ عن دينهم ويُضلوهم، ﴿وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾: وطلبَ أن يُؤولُوه التأويلَ الذي يشتهونه، ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي: لا يهتدي إلى تأويله الحقِّ الذي يجبُ أن يُحملَ عليه إلا اللهُ، ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾: والذين رسخُوا؛ أي: ثبتُوا فيه وتمكنُوا، وعضُّوا فيه بِضِرْسٍ قاطعٍ.

مستأنفٌ عند الجمهور، والوقفُ عندهم على قوله: (إلا الله)، وفسرُوا المتشابهَ بما استأثر اللهُ بعلمه، وهو مبتدأٌ عندهم، والخبرُ: ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾، وهو ثناءٌ منه تعالى عليهم بالإيمان على التسليم، واعتقادِ الحقِّيَّةِ بلا تكييفٍ.

وفائدةُ إنزالِ المتشابهِ: الإيمانُ به، واعتقادُ حقِّيَّةِ ما أراد الله به، ومعرفةُ قصورِ أَفهامِ البشرِ عن الوقوف على ما لم يجعلْ لهم إليه سبيلاً.

---

(١) القريحة: مَلَكَةٌ يستطيع بها ابتداع الكلام وإبداء الرأي.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾﴾ ....

ويعضدُه قراءةُ أُبيٍّ: ﴿ويقول الراسخون﴾، وعبدِ اللهِ: ﴿إن تأويله إلا عند الله﴾[١].

ومنهم من لا يقفُ عليه، ويقول: بأن الراسخين في العلم يعلمون المتشابهَ، و(يقولون): كلامٌ مستأنَفٌ موضحٌ لحال الراسخين؛ بمعنى: هؤلاء العالمون بالتأويل يقولون: آمنّا به؛ أي: بالمتشابه، أو بالكتاب، ﴿كُلٌّ﴾ من متشابِهِهِ ومُحْكَمِهِ ﴿مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾: من عند الله الحكيمِ الذي لا يَتناقضُ كلامُه، ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾: وما يتعظُ، وأصلُه: يتذكر، ﴿إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾﴾: أصحابُ العقولِ، وهو مدحٌ للراسخين بإلقاءِ الذهنِ وحسنِ التأمُّلِ، وقيل: (يقولون): حالٌ من الراسخين.

﴿٨﴾ ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾: لا تُمِلْها عن الحقِّ بخلقِ الميلِ في القلوبِ ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ للعملِ بالمحكمِ، والتسليمِ للمتشابِهِ، ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾: من عندك نعمةً بالتوفيق والتثبيت، ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾: كثيرُ الهبةِ، والآيةُ من مَقولِ الراسخين، ويحتملُ الاستئنافَ؛ أي: قُولُوها، وكذا التي بعدها، وهي:

﴿٩﴾ ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ﴾ أي: تجمعُهم لحسابِ يومٍ، أو: لجزاءِ يوم ﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾: لا شكَّ في وقوعه؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٩﴾﴾: الموعدَ، والمعنى: أن الإلهيةَ تُنافي خُلْفَ الميعادِ، كقولك: إن الجوّادَ لا يُخَيِّبُ سائلَه؛ أي: لا يخلفُ ما وعدَ المسلمين والكافرين من الثواب والعقابِ.

﴿١٠﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ برسول الله ﴿لَن تُغْنِيَ﴾: تنفعَ، أو: تدفعَ ﴿عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ﴾: من عذابه ﴿شَيْئًا﴾ من الإغناءِ، ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿١٠﴾﴾: حَطَبُها.

﴿١١﴾ ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الدأبُ: مصدرُ: دأبَ في العملِ: إذا كَدَحَ فيه، فوُضِعَ موضعَ ما عليه الإنسانُ من شأنه وحالِه، والكافُ: مرفوعُ المحلِّ، تقديرُه: دَأْبُ هؤلاءِ الكفرةِ في تكذيب الحقِّ كدأبِ مَن قبلَهم من آل فرعونَ وغيرِهم، أو: منصوبُ المحلِّ

(١) انظر القراءتين في «تفسير الطبري» (٦/ ٢٠٤).

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾ ....

بـ(لن تغني) أي: لن تغنيَ عنهم مثلَ ما لم تُغنِ عن أولئك، ﴿كداب﴾: بلا همزٍ حيث كان: أبو عمرٍو [1]، ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾: تفسيرٌ لدأبهم مما فعلوا وفُعِلَ بهم، على أنه جوابُ سؤالٍ مقدرٍ مِن حالهم، ويجوز أن يكون حالاً؛ أي: قد كذبوا ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾: بسبب ذنوبِهم؛ يقال: أخذتُه بكذا؛ أي: جازيتُه عليه، ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾﴾: شديدٌ عقابُه، فالإضافةُ غيرُ محضةٍ.

«١٢» ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ هم: مشركو مكةَ ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ يومَ بدرٍ، ﴿وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾: من الجِهِنّامِ وهي: بئرٌ عميقةٌ، وبالياء فيها: حمزةُ، وعليٌّ، ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾: المستقرُّ جهنمُ.

«١٣» ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ﴾ الخطابُ لمشركي قريشٍ، ﴿فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا﴾ يومَ بدرٍ، ﴿فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهم المؤمنون ﴿وَأُخْرَىٰ﴾: وفئةٌ أخرى ﴿كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ﴾: يرى المشركون المسلمين مِثْلَيْ عددِ المشركين: ألفين، أو: مِثْلَيْ عددِ المسلمين: سِتَّ مئةٍ ونيفاً وعشرين، أراهم الله إياهم مع قِلَّتِهم أضعافَهم؛ ليهابُوهم ويَجْبُنُوا عن قتالهم، ﴿ترونهم﴾: نافعٌ؛ أي: تَرون يا مشركي قريشٍ المسلمين مِثْلَيْ فئتِكم الكافرةِ، أو: مِثْلَيْ أنفسِهم.

ولا يناقضُ هذا ما قال في (سورة الأنفال): ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ [الأنفال: ٤٤] لأنهم قُلِّلُوا أولاً في أعينهم حتى اجترؤُوا عليهم، فلما اجتمعوا.. كَثُرُوا في أعينهم حتى غُلِبُوا، فكان التقليل والتكثيرُ في حالتين مختلفتين.

ونظيرُه من المحمول على اختلاف الأحوالِ: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩]، ﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤][2].

وتقليلُهم تارةً وتكثيرُهم أخرى في أعينهم أبلغُ في القدرةِ وإظهارِ الآيةِ، و(مثليهم): نصبٌ على الحال؛ لأنه من رؤية العين؛ بدليل قولِه: ﴿رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾؛ يعني: رؤيةً ظاهرةً مكشوفةً

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٥٩) وكذا القراءتان الآتيتان.

(٢) الجمع بينهما: أن يوم القيامة متسع الزمان، ففيه مواطن لا يُسأل أهل الذنوب عن ذنوبهم، وفيه مواطن يُسألون فيها سؤالَ تقريرٍ وتوبيخٍ. انظر «التحرير والتنوير» (٢٧/ ٢٦٢).

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ....

لا لبسَ فيها، ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ كما أيَّدَ أهلَ بدرٍ بتكثيرهم في أعين العدوِّ، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾: في تكثير القليلِ ﴿لَعِبْرَةً﴾: لعظةً ﴿لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾﴾: لذوي البصائر.

«١٤» ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ المزينُ هو الله عند الجمهور؛ للابتلاء، كقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ﴾ [الكهف: ٧] دليله: قراءةُ مجاهدٍ: ﴿زَيَّنَ للناس﴾: على تسميةِ الفاعلِ[1]، وعن الحسن: الشيطان، ﴿حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ الشهوةُ: تَوَقانُ النفسِ إلى الشيءِ، جَعَلَ الأعيان التي ذكرها شهواتٍ؛ مبالغةً في كونها مشتهاةً، كأنه أراد تخسيسَها بتسميتها شهواتٍ؛ إذ الشهوةُ مسترذلةٌ عندَ الحكماءِ؛ مذمومٌ من اتبعَها، شاهدٌ على نفسه بالبهيمية، ﴿مِنَ النِّسَاءِ﴾ والإماءُ داخلةٌ فيها، ﴿وَالْبَنِينَ﴾: جمعُ ابنٍ، وقد يقعُ في غير هذا الموضعِ على الذكور والإناثِ، وهنا أُريدَ به الذكورُ، فهم المشتَهَوْنَ في الطباعِ، والمُعَدُّوْنَ للدفاعِ، ﴿وَالْقَنَاطِيرِ﴾: جمعُ قِنطارٍ، وهو المال الكثيرُ، قيل: مِلءُ مَسْكِ ثَوْرٍ، أو: مئةُ ألفِ دينارٍ، ولقد جاء الإسلام وبمكةَ مئةُ رجلٍ قد قَنْطَرُوا، ﴿الْمُقَنْطَرَةِ﴾: المُنَضَّدَة، أو: المدْفُوْنَة، ﴿مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾ سمي ذهباً؛ لسرعةِ ذهابِهِ بالإنفاقِ، وفضةً؛ لأنها تَتَفرَّقُ بالإنفاق، والفضُّ: التفريقُ، ﴿وَالْخَيْلِ﴾ سميت به؛ لاختيالِها في مَشْيِها، ﴿الْمُسَوَّمَةِ﴾: المعَلَّمَةِ؛ من السُّومةُ، وهي العلامةُ، أو: المَرْعِيَّةُ؛ مِن: أَسامَ الدابةَ، وسَوَّمَها، ﴿وَالْأَنْعَامِ﴾ هي: الأزواجُ الثمانيةُ، ﴿وَالْحَرْثِ﴾: الزرع، ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكورُ ﴿مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يُتَمتَّعُ بها في الدنيا، ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾﴾: المرجعُ.

«١٥» ثم زهَّدهم في الدنيا فقال: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَٰلِكُمْ﴾: من الذي تقدمَ ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ﴾: كلامٌ مستأنَفٌ، فيه دلالةٌ على بيان ما هو خيرٌ من ذلكم، فـ (جنات): مبتدأٌ، و(للذين اتقوا): خبرُه، ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾: صفةٌ لـ (جنات)، ويجوز أن يتعلق اللامُ بـ(خير)، واختصَّ المتقين؛ لأنهم هم المنتفعون به، ويرتفعُ (جناتٌ) على: هو جناتٌ؛ وتنصرُه قراءةُ مَن قرأ: ﴿جناتٍ﴾: بالجرِّ، على البدلِ مِن (خير)[2]، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ

(١) انظر «الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها» (ص٥٠٣).
(٢) انظر المرجع السابق (ص٥١٤).

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٦) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ (١٧) شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)﴾ ....

﴿مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: رِضا اللهِ، ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥)﴾: عالمٌ بأعمالِهم فيجازيْهم عليها، أو: بصير بالذين اتقوا وبأحوالِهم؛ فلذا أعدَّ لهم الجناتِ.

《١٦》 ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ﴾: نصبٌ على المدح، أو: رفعٌ، أو: جرٌّ صفةٌ لـ (المتقين) أو لـ(العباد)، ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا﴾؛ إجابةً لدعوتِك، ﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾؛ إنجازاً لوعدِك، ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٦)﴾ بفضلِك.

《١٧》 ﴿الصَّابِرِينَ﴾ على الطاعاتِ والمصائبِ، وهو: نصبٌ على المدح، ﴿وَالصَّادِقِينَ﴾ قولاً بإخبار الحقِّ، وفعلاً بإحكام العملِ، ونيةً بإمضاء العزمِ، ﴿وَالْقَانِتِينَ﴾: الداعين، أو: المطيعين، ﴿وَالْمُنْفِقِينَ﴾: المتصدقين، ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ (١٧)﴾: المصلين، أو: طالبين المغفرةَ، وخصَّ الأسحارَ؛ لأنه وقت إجابةِ الدعاءِ؛ ولأنه وقت الخلوةِ، قال لقمان لابنه: يا بنيَّ لا يكن الديكُ أكيسَ منك، ينادي بالأسحار وأنت نائمٌ، والواوُ المتوسطةُ بين الصفاتِ للدلالةِ على كمالِهم في كلِّ واحدةٍ منها؛ وللإشعار بأن كل صفةٍ مستقلةٌ بالمدح.

《١٨》 ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾ أي: حكمَ، أو: قال ﴿أَنَّهُ﴾ أي: بأنه ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ بما عاينُوا من عظيم قدرتِهِ، ﴿وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ أي: الأنبياءُ والعلماءُ، ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾: مقيماً للعدل فيما يقسمُ من الأرزاق والآجالِ، ويثيبُ ويعاقبُ، وما يأمرُ به عبادَه من إنصافِ بعضِهم لبعضٍ، والعملِ على السويةِ فيما بينهم.

وانتصابُه على أنه حال مؤكِّدةٌ من اسم اللهِ، أو: مِن (هو)، وإنما جاز إفرادُه بلفظ الحالِ دون المعطوفَيْنِ عليه - ولو قلت: جاء زيد وعمرٌو راكباً.. لم يجزْ- لعدم الإلباسِ؛ فإنك لو قلت: جاءني زيد وهند راكباً.. جازَ؛ لتميُّزِهِ بالذكورة، أو: على المدحِ، وكرَّرَ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ للتأكيدِ، ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)﴾: رفعٌ على الاستئناف؛ أي: هو العزيزُ، وليس بوصفٍ لـ (هو)؛ لأن الضمير لا يوصفُ؛ يعني: أنه العزيز الذي لا يُغالبُ، الحكيمُ الذي لا يَعْدِلُ عن العدل.

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾ ....

《١٩》 ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾: جملةٌ مستأنفةٌ، ﴿أنَّ الدينَ﴾: عليٌّ[١]، على البدل من قوله: (أنه لا إله إلا هو) أي: شهد الله أن الدين عند الله الإسلام.

قال عليه السلام: «من قرأ الآية عند منامه.. خلق الله تعالى منها سبعين ألف خلق يستغفرون له إلى يوم القيامة»، و«من قال بعدها: وأنا أشهدُ بما شهد اللهُ به، وأستودعُ الله هذه الشهادةَ، وهي لي عند الله وديعةٌ.. يقول الله تعالى يوم القيامة: إن لعبدي عندي عهداً، وأنا أحقُّ مَن وَفَّى بالعهدِ، أدخلوا عبدي الجنةَ»[٢].

﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: أهلُ الكتاب من اليهود والنصارى، واختلافُهم: أنهم تركوا الإسلامَ وهو التوحيد، فثلَّثَتِ النصارى، وقالت اليهود: عزيرٌ ابن الله، ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ أنه الحق الذي لا محيدَ عنه؛ ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ أي: ما كان ذلك الاختلافُ إلا حسداً بينهم؛ وطلباً منهم للرياسةِ، وحظوظِ الدنيا، واستتباعِ كلِّ فريقٍ ناساً، لا شُبهةً في الإسلام، وقيل: هو اختلافُهم في نبوة محمد عليه الصلاة والسلام؛ حيث آمن به بعضٌ، وكفر به بعضٌ، وقيل: هم النصارى، واختلافُهم في أمر عيسى بعد ما جاءهم العلم أنه عبد الله ورسولُه، ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: بحُججِه ودلائله ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾: سريعُ المجازاةِ.

《٢٠》 ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ﴾: فإن جادلوك في أن دين اللهِ الإسلامُ، والمرادُ بهم: وفدُ بني نجرانَ عند الجمهورِ ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيْ للهِ﴾ أي: أخلصتُ نفسي وجُملتي لله وحدَه، لم أجعل فيها لغيره شريكاً؛ بأن أعبدَه وأدعوَ إلهاً معه؛ يعني: أن ديني دينُ التوحيدِ، وهو الدين القديمُ الذي ثبتت عندكم صحتُه، كما ثبتت عندي، وما جئتُ بشيءٍ بديعٍ حتى تجادلوني فيه، ونحوُه: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ فهو دفعٌ للمحاجّةِ بأن ما هو عليه ومن معه من المؤمنين هو الحقُّ واليقينُ الذي لا شكَّ فيه، فما معنى

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٦١).

(٢) روى نحوه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٠/١٩٩) عن سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ ....

المحاجة؟! ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ﴾: عطفٌ على التاء في (أسلمتُ) أي: أسلمتُ أنا ومن اتبعني، وحسنَ للفاصلِ[1]، ويجوز أن يكون الواو بمعنى: مع، فيكون مفعولاً معه، ﴿ومن اتبعني﴾: في الحالين: سهلٌ ويعقوبُ، وافق أبو عمرو في الوصل[2]، ﴿وَجْهِيَ﴾: مدنيٌّ وشاميٌّ وحفصٌ والأعشى والبُرْجُمِيُّ، ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾: من اليهود والنصارى، ﴿وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾: والذين لا كتابَ لهم من مشركي العربِ: ﴿ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ﴾: بهمزتين: كوفيٌّ؛ يعني: أنه قد أتاكم من البينات ما يقتضي حصولَ الإسلام، فهل أسلمتم أم أنتم بعدُ على كفركم؟ وقيل: لفظُه لفظُ الاستفهامِ ومعناه الأمرُ؛ أي: أسلمُوا، كقوله: ﴿فهل أنتم منتهون﴾ أي: انتهوا.

﴿فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ﴾: فقد أصابُوا الرشدَ حيث خرجُوا من الضلال إلى الهدى، ﴿وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ أي: لم يضروك؛ فإنك رسول مُنَبِّهٌ، ما عليك إلا أن تبلغَ الرسالةَ، وتنبهَ على طريق الهدى، ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾ فيجازيْهم على إسلامهم وكفرهم.

《٢١》 ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ هم أهلُ الكتاب، راضون بقتل آبائهم الأنبياءَ ﴿بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾: حالٌ مؤكِّدةٌ؛ لأن قتلَ النبيِّ لا يكون حقّاً، ﴿وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ﴾: ﴿ويقاتلون﴾: حمزةُ، ﴿بِٱلۡقِسۡطِ﴾: بالعدل، ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: سوَى الأنبياءِ، قال عليه السلام: «قتلت بنو إسرائيلَ ثلاثةً وأربعين نبيّاً من أول النهار في ساعة واحدةٍ، فقام مئةٌ واثنا عشر رجلاً من عُبّاد بني إسرائيلَ فأمرُوا قَتَلَتَهم بالمعروف، ونَهَوْهم عن المنكر، فقُتِلُوا جميعاً في آخر النهارِ من ذلك اليوم»[3]، ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ دخلت الفاءُ في خبر (إنَّ) لتضمنِ اسمِها معنى الجزاء، كأنه قيل: الذين يكفرون فبشرهم؛ بمعنى: من يكفر.. فبشرهم، وهذا لأنَّ إنَّ: لا تُغيِّرُ معنى الابتداء، فهي للتحقيق، فكأن دخولها كَلَا دخولٍ، ولو كان مكانَها: ليتَ، أو لعلَّ.. لامتنعَ دخولُ الفاءِ.

《٢٢》 ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ أي: ضاعت ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ فلهم اللعنةُ

---

(١) أي: حسن العطف على الضمير المرفوع المتصل لوجود الفاصل وهو المفعول به.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٦١) وكذا القراءات الثلاث الآتية.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٦/ ٢٨٦) عن سيدنا أبي عبيدة رضي الله عنه.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٥)﴾ ....

والخِزْيُ في الدنيا، والعذابُ في الآخرة، ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٢)﴾: جُمِعَ لوقفِ رؤوسِ الآيِ، وإلا.. فالواحدُ النكرةُ في النفي يَعُمُّ.

《٢٣》 ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ يريدُ: أحبارَ اليهودِ، وأنهم حصَّلوا نصيباً وافراً من التوراة، و(مِن): للتبعيض، أو: للبيان، ﴿يُدْعَوْنَ﴾: حالٌ من (الذين)، ﴿إِلَى كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي: التوراةِ، أو القرآنِ؛ ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ جُعلَ حاكماً حيثُ كان سبباً للحكم، أو: ليحكمَ النبيُّ.

روي: أنه عليه السلام دخل مِدْراسَهم[1]، فدعاهم، فقال له نُعَيْمُ بنُ عمرٍو، والحارثُ بنُ زيدٍ: على أيِّ دينٍ أنت؟ قال النبي: «على ملة إبراهيمَ»، قالا: إن إبراهيم كان يهودياً، قال لهما: «إن بيننا وبينكم التوراةَ فهلمُّوا إليها» فأَبَيا[2]، ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾: استبعادٌ لتوليْهم بعد علمِهم أن الرجوع إلى كتاب الله واجبٌ، ﴿وَهُم مُّعْرِضُونَ (٢٣)﴾: وهم قومٌ لا يزال الإعراضُ دَيْدَنَهم[3].

《٢٤》 ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ أي: ذلك الإعراضُ والتولي بسبب تسهيلِهم على أنفسهم أمرَ العقابِ، وطمعِهم في الخروج من النارِ بعد أيام قلائلَ، وهي أربعون يوماً، أو سبعةُ أيام، و(ذلك): مبتدأٌ، و(بأنهم): خبرُه، ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤)﴾ أي: غَرَّهُمُ افتراؤُهم على الله، وهو قولهم: نحن أبناءُ اللهِ وأحباؤُه، فلا يعذبُنا بذنوبنا إلا مدةً يسيرةً.

《٢٥》 ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ﴾: فكيف يكون حالُهم في ذلك الوقت، ﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾: لا شكَّ فيه، ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾: جزاءَ ما كسبت ﴿وَهُمْ﴾: يرجعُ إلى (كلُّ نفسٍ) على المعنى؛ لأنه في معنى: كلُّ الناس، ﴿لَا يُظْلَمُونَ (٢٥)﴾: بزيادة في سيئاتهم، ونقصانٍ في حسناتهم.

---

(١) أي: مكان دِراستهم.
(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٦/ ٢٨٨) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنه.
(٣) أي: عادَتَهم.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾ ....

«٢٦» ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ﴾ الميمُ عِوَضٌ مِنْ: يا؛ ولذا لا يجتمعان، وهذا بعضُ خصائصِ هذا الاسمِ، كما اختصَّ بالتاء في القَسَمِ، وبدخول حرفِ النداءِ عليه وفيه لامُ التعريفِ، وبقطع همزتِه في: يا ألله، وبالتفخيم، ﴿مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾: تملكُ جنسَ الملكِ، فتتصرفُ فيه تصرفَ المُلّاكِ فيما يملكونَ، وهو نداءٌ ثانٍ؛ أي: يا مالكَ الملكِ، ﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾: تعطي من تشاءُ النصيبَ الذي قَسَمْتَ له من الملك، ﴿وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ أن تَنْزِعَهُ، فالملكُ الأولُ عامٌّ، والمُلكانِ الآخرانِ خاصّانِ بعضانِ من الكلِّ.

رويَ: أنه عليه السلام حين فتح مكةَ وعدَ أُمَّتَه ملكَ فارسَ والرومِ، فقالت اليهودُ والمنافقون: هيهاتَ هيهاتَ! مِنْ أين لمحمدٍ ملكُ فارسَ والرومِ، هُمْ أَعَزُّ وأَمْنَعُ من ذلك[1]، ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾ بالملك، ﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ بنزعه منه، ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ أي: الخيرُ والشرُّ، فاكتُفِيَ بذكر أحد الضدين عن الآخر، ولأن الكلامَ وقعَ في الخير الذي يسوقُه إلى المؤمنين، وهو الذي أنكرتْه الكفرةُ، فقال: بيدك الخيرُ تؤتيه أولياءَك، على رَغْمٍ من أعدائك؛ ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ ولا يقدرُ على شيءٍ أحدٌ غيرُك إلا بإقدارك، وقيل: المرادُ بالملكِ: ملكُ العافيةِ، أو: ملكُ القناعةِ، قال عليه السلام: «ملوك الجنة من أمتي القانعون بالقوت يوماً فيوماً»، أو: ملكُ قيامِ الليلِ، وعن الشِّبليِّ: الاستغناء بالمكوِّنِ عن الكونين. تُعِزُّ بالمعرفة، أو: بالاستغناء بالمكوِّنِ، أو: بالقناعة، وتذلُّ بأضدادها.

ثم ذكر قدرتَه الباهرةَ بذكر حالِ الليلِ والنهارِ في المعاقبة بينهما، وحالِ الحيِّ والميتِ في إخراجِ أحدِهما من الآخر، وعطفَ عليه رزقَه بغير حسابٍ بقوله:

«٢٧» ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ فالإيلاجُ: إدخالُ الشيءِ في الشيءِ، وهو مجازٌ هنا؛ أي: تُنقصُ من ساعات الليلِ، وتزيدُ في النهارِ، وتُنقصُ من ساعات النهار، وتزيد في الليل ﴿وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾: الحيوانَ من النطفةِ، أو: الفرخَ من البيضةِ، أو: المؤمنَ من الكافر، ﴿وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾: النطفةَ من الإنسان، أو: البيضَ من الدجاج، أو: الكافرَ

---

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص١٠٢).

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ ....

من المؤمن، ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾: لا يُعرِّفُ الخلقَ عددَه ومقدارَه وإن كان معلوماً عندَ الله؛ ليدلَّ على أن مَن قَدَرَ على تلك الأفعالِ العظيمةِ المحيِّرَةِ للأفهام، ثم قدرَ أن يرزقَ بغيرِ حسابٍ مَنْ يشاءُ من عباده.. فهو قادر على أن يَنْزِعَ الملكَ من العجمِ ويُذِلَّهم، ويعطيَه العربَ ويعزَّهم، وفي بعض الكتب: «أنا الله ملكُ الملوكِ، قلوبُ الملوكِ ونواصيْهم بيدِي، فإنِ العبادُ أطاعوني.. جعلتُهم عليهم رحمةً، وإنِ العبادُ عصَوني.. جعلتهم عليهم عقوبةً، فلا تشتغلُوا بسبِّ الملوك، ولكنْ توبوا إليَّ أُعطِّفهم عليكم»[1]، وهو معنى قوله عليه السلام: «كما تكونوا.. يولَّ عليكم»[2]، ﴿الحيَّ من الميِّتِ﴾ و﴿الميتَ من الحيِّ﴾: بالتشديد حيث كان: مدنيٌّ، وكوفيٌّ غيرَ أبي بكرٍ[3].

《٢٨》 ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾: نُهُوا أن يُوالُوا الكافرين؛ لقرابةٍ بينهم، أو لصداقةٍ قبلَ الإسلام، أو غيرِ ذلك، وقد كُرِّرَ ذلك في القرآنِ، والمحبةُ في الله، والبغضُ في الله بابٌ عظيمٌ في الإيمان، ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: أن لكم في موالاةِ المؤمنين مندوحةً عن موالاة الكافرين، فلا تُؤْثِرُوهم عليهم، ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾: ومن يوالِ الكفرةَ.. فليس من ولاية اللهِ في شيء؛ لأن موالاةَ الوَلِيِّ وموالاةَ عدوِّه متنافيان، ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾: إلا أن تخافُوا من جهتهم أمراً يجبُ اتقاؤه؛ أي: إلا أن يكون للكافر عليك سلطانٌ فتخافَه على نفسك ومالك، فحينئذٍ يجوزُ لك إظهارُ الموالاة وإبطانُ المعاداةِ، ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ أي: ذاتَه، فلا تتعرضوا لسخطِه بموالاة أعدائِه، وهذا وعيدٌ شديدٌ، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾ أي: مصيرُكم إليه، والعذاب مُعَدٌّ لديهِ، وهو وعيدٌ آخرُ.

《٢٩》 ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ﴾ من ولاية الكفارِ أو غيرِها مما لا يُرضِي الله ﴿يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ ولم يخفَ عليه، وهو أبلغُ وعيدٍ، ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: استئنافٌ وليس بمعطوفٍ على جواب الشرطِ؛ أي: هو الذي يعلم ما في السموات وما في الأرض، فلا يخفى عليه سرُّكم وعَلَنُكم، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ فيكونُ قادراً على عقوبتكم.

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ٣٧٨) عن مالك بن دينار، قال: قرأت في بعض الحكمة... فذكره.
(٢) رواه الشهاب القضاعي في «مسنده» (١/ ٣٣٦)، وفي سنده مجاهيل. انظر «المقاصد الحسنة» (ص٥٢٠).
(٣) أي: بتشديد الياء في (الميِّت). انظر «البدور الزاهرة» (ص٦١).

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ ....

《٣٠》 ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ (يومَ): منصوبٌ بـ(تودُّ) والضمير في (بينه): لليوم؛ أي: يومَ القيامةِ حينَ تجدُ كلُّ نفسٍ خيرَها وشرَّها حاضرَينِ تتمنَّى لو أن بينها وبين ذلك اليوم وهولِه أمداً بعيداً؛ أي: مسافةً بعيدةً، أو: بـ: اذكر، ويقعُ على (ما عملت) وحدَه[1]، ويرتفعُ (وما عملت): على الابتداء، و(تودُّ): خبرُه؛ أي: والذي عملته مِن سُوءٍ تودُّ هي لو تباعدَ ما بينها وبينه، ولا يصحُّ أن تكون (ما): شرطيةً؛ لارتفاعِ (تودُّ)، نعمْ، الرفعُ جائزٌ إذا كان الشرط ماضياً، لكنَّ الجزمَ هو الكثيرُ، وعن المبرد: أن الرفع شاذٌّ[2]، وكرَّرَ قولَه: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾؛ ليكونَ على بالٍ منهم، لا يغفُلُون عنه، ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾ ومِن رأفتِه بهم أن حذَّرَهم نفسَه حتى لا يتعرضُوا لِسَخَطِه، ويجوز أن يريد أنه مع كونه محذوراً لكمال قدرتِه مرجوٌّ لِسَعَةِ رحمتِه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ [فصلت: ٤٣].

《٣١》 ونزل حين قال اليهود: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨][3]:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ محبةُ العبدِ لله: إيثارُ طاعتِه على غيرِ ذلك، ومحبةُ اللهِ العبدَ: أن يرضَى عنه ويحمَدَ فعلَه، وعن الحسن: زعمَ أقوامٌ على عهد رسول الله ﷺ أنهم يحبُّون الله، فأراد أن يجعل لقولِهم تصديقاً مِن عملٍ، فمن ادَّعى محبتَه وخالفَ سنةَ رسولِه.. فهو كذابٌ، وكتابُ الله يكذبُه، وقيل: محبةُ الله: معرفتُه، ودوامُ خشيتِه، ودوامُ اشتغالِ القلبِ به، وبذكرِه، ودوامُ الأنسِ به، وقيل: هي: اتباعُ النبيِّ عليه السلام في أقواله وأفعالِه وأحوالِه إلا ما خُصَّ به، وقيل: علامةُ المحبةِ: أن يكون دائمَ التفكيرِ، كثيرَ الخلوةِ، دائمَ الصمتِ، لا يبصرُ إذا نظرَ، ولا يسمعُ إذا نوديَ، ولا يحزنُ إذا أصيبَ، ولا يفرحُ إذا أصابَ، ولا يخشى أحداً ولا يرجُوه، ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾.

---

(١) أي: ويقعُ (تجدُ) على (ما عملت) وحدَه.

(٢) إذا كان الشرط ماضياً، والجزاء مضارعاً.. جاز جزمُ الجزاءِ ورفعُه، وكلاهما حسنٌ، فتقول: إن قام زيد.. يقمْ عمرو، ويقومُ عمرو، ففي الرفع يكون التقدير: يقوم عمرو إن قام زيد، وقال المبرد: وهذا - أي: رفعُ المضارع - حسنٌ في الإعراب إذا كان الفعل الأول في المجازاة ماضياً. انظر «الكامل في اللغة والأدب» (١/ ١١٢)، و«شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك» (٤/ ٣٥).

(٣) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص١٠٦).

﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ ....

《٣٢》 ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ قيل: هي علامةُ المحبةِ، ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾: أعرضوا عن قبول الطاعةِ، ويحتملُ أن يكون مضارعاً؛ أي: فإن تتولوا ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ أي: لا يحبهم.

《٣٣》 ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾: اختار ﴿ءَادَمَ﴾: أبا البَشرِ، ﴿وَنُوحًا﴾: شيخَ المرسلين، ﴿وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ﴾: إسماعيلَ وإسحقَ وأولادَهما، ﴿وَءَالَ عِمْرَٰنَ﴾: موسى، وهارون هما ابنا عمرانَ بنِ يَصْهُرَ، وقيل: عيسى ومريمُ بنتُ عمرانَ بنِ ماثانَ، وبين العِمرانين ألفٌ وثمانُ مئةِ سنةٍ، ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾: على عالَمِي زمانِهم.

《٣٤》 ﴿ذُرِّيَّةًۢ﴾: بدلٌ من آل إبراهيمَ، وآلِ عمرانَ، ﴿بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ﴾: مبتدأٌ، وخبرُه في موضع النصبِ صفةٌ لـ (ذرية) يعني: أن الآلَينِ ذريةٌ واحدةٌ متسلسلةٌ، بعضُها متشعبٌ من بعضٍ، موسى وهارون: من عمرانَ، وعمرانُ: من يَصهُرَ، ويصهرُ: من قاهثَ، وقاهثُ: من لاوِي، ولاوي: من يعقوبَ، ويعقوبُ: من إسحقَ، وكذلك عيسى بنُ مريمَ بنتِ عمرانَ بنِ ماثان، وهو يتصلُ بيهوذا بنِ يعقوبَ بنِ إسحقَ، وقد دخلَ في آل إبراهيمَ رسولُ الله ﷺ، وقيل: بعضُها من بعض في الدين، ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾: يعلمُ من يَصلُحُ للاصطفاء.

《٣٥》 أو: سميعٌ عليمٌ لقول امرأةِ عمرانَ ونيتِها ﴿إِذْ قَالَتِ﴾ و(إذ): منصوبٌ به، أو بإضمارِ: اذكر، ﴿ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ﴾ هي: امرأةُ عمرانَ بنِ ماثانَ أمُّ مريمَ جدةُ عيسى، وهي حَنَّةُ بنتُ فاقُوذا ﴿رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ﴾: أوجبْتُ ﴿مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا﴾ هو: حالٌ من (ما) وهي بمعنى: الذي؛ أي: مُعتَقاً لخدمة بيتِ المقدسِ، لا يَدَ لِي عليه، ولا أستخدمُه، وكان هذا النوعُ من النذر مشروعاً عندهم، أو: مُخلَصاً للعبادةِ؛ يقال: طينٌ حُرٌّ؛ أي: خالصٌ، ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ﴾: مدنيٌّ، وأبو عمرٍو[1]، والتقبلُ: أخذُ الشيءِ على الرِّضا به ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾.

《٣٦》 ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾ الضميرُ: لـ (ما في بطني)، وإنما أُنِّثَ على تأويل الحَبْلَةِ،

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٦٢) وكذا القراءة الآتية.

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾

أو: النفسِ، أو: النَّسَمةِ، ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾: حالٌ من الضمير في (وضعتها)؛ أي: وضعتُ الحَبْلَةَ، أو: النَّسَمَةَ أنثى، وإنما قالت هذا القولَ؛ لأن التحريرَ لم يكن إلا للغِلمانِ، فاعتذرت عمّا نذرتْ، وتحزَّنَتْ إلى ربها، ولتكلُّمِها بذلك على وجه التحزُّنِ والتحسُّرِ.. قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ تعظيماً لموضوعِها؛ أي: والله أعلمُ بالشيءِ الذي وضعتْ، وما عُلِّقَ به من عظائمِ الأمورِ، ﴿وَضَعْتُ﴾: شاميٌّ وأبو بكرٍ؛ بمعنى: ولعل للهِ فيه سرّاً وحكمةً، وعلى هذا يكون داخلاً في القولِ، وعلى الأول: يوقفُ عند قوله: (أنثى)، وقوله: (والله أعلم بما وضعتْ): ابتداءُ إخبارٍ من الله تعالى، ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ﴾ الذي طَلَبَتْ ﴿كَٱلْأُنثَىٰ﴾ التي وُهِبتْ لها، واللامُ فيهما: للعهد، ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾: معطوفٌ على (إني وضعتها أنثى)، وما بينهما جملتانِ معترضتانِ، وإنما ذَكَرَتْ تسميتَها مريمَ لربِّها؛ لأن مريمَ في لغتهم: العابدةُ، فأرادتْ بذلك التقربَ والطلبَ إليه أن يعصِمَها حتى يكون فعلُها مطابقاً لاسمِها، وأن يصدقَ فيها ظنُّها بها؛ ألا ترى كيف أتبعتْه طلبَ الإعاذةِ لها ولولدِها من الشيطان بقوله[1]: ﴿وإنيَ﴾: مدنيٌّ[2]، ﴿أُعِيذُهَا بِكَ﴾: أجيرُها ﴿وَذُرِّيَّتَهَا﴾: أولادَها ﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾: الملعونِ، في الحديث: «ما من مولود يولد إلا والشيطان يَمَسُّهُ حين يولدُ فيستهلُّ صارخاً من مسِّ الشيطانِ إياه إلا مريم وابنَها»[3].

《٣٧》 ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا﴾: قَبِلَ اللهُ مريمَ، ورضيَ بها في النذرِ مكانَ الذَّكَرِ، ﴿بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ قيلَ: القَبولُ: اسمُ ما يُقْبَلُ به الشيءُ، كالسَّعُوْطِ لما يُسعَطُ به[4]، وهو اختصاصُه لها بإقامتها مُقامَ الذَّكَرِ في النذرِ، ولم تُقْبَلْ قبلَها أنثى في ذلك، أو: بأن تَسلَّمَها من أمِّها عَقِيبَ الولادةِ قبلَ أن تنشأَ وتصلحَ للسَّدانةِ.

رويَ: أن حنَّةَ حين ولدت مريمَ.. لفَّتْها في خِرْقَةٍ، وحملتها إلى المسجدِ، ووضعتْها عند

---

(١) كذا في الأصول، ولعل الصواب: (بقولها).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٦٢).

(٣) رواه البخاري (٣٤٣١)، ومسلم (٢٣٦٦) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أي: أن قوله تعالى: (بقبول) ليس مصدراً؛ لوجود الباءِ، ومعناها: الآلة. انظر «حاشية القونوي على البيضاوي» (٦/ ١٢٣)، وقيل: الباء: زائدةٌ، والقَبول: مصدرٌ مؤكدٌ للفعل السابق؛ أي: تقبلها قبولاً حسناً. انظر «تفسير أبي السعود» (٢/ ٢٩).

الأحبارِ أبناءِ هارونَ، وهم في بيت المقدس كالحَجَبَةِ في الكعبةِ، فقالت لهم: دونكم هذه النذيرةَ، فتنافسوا فيها؛ لأنها كانت بنتَ إمامِهم، وصاحبَ قُربانهم[1]، وكانت بنو ماثانَ رؤوسَ بني إسرائيلَ وأحبارَهم، فقال لهم زكريا: أنا أحقُّ بها، عندي أختُها، فقالوا: لا، حتى نقترعَ عليها، فانطلقُوا، وكانوا سبعةً وعشرينَ إلى نَهرٍ، فألقَوا فيه أقلامَهم، فارتفعَ قلمُ زكريا فوقَ الماءِ، ورَسَبَتْ أقلامُهم، فتكفَّلَها.

وقيل: هو مصدرٌ على تقديرِ حذفِ المضافِ؛ أي: فتقبلها بذي قَبُوْلٍ حسنٍ؛ أي: بأمرٍ ذي قبولٍ حَسَنٍ، وهو الاختصاصُ، ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾: مجازٌ عن التربيةِ الحسنةِ، قال ابن عطاء: ما كانت ثمرتُه مثلَ عيسى.. فذاك أحسنُ النبات.

و(نباتاً): مصدرٌ على خلافِ الصدرِ، أو: التقدير: فنبتت نباتاً[2]، ﴿وكفلها﴾: قَبِلَها، أو: ضَمِنَ القيامَ بأمرها، ﴿وَكَفَّلَهَا﴾: كوفيٌّ[3]؛ أي: كفَّلَها اللهُ زكريا؛ يعني: جَعَلَه كافلاً لها، وضامناً لمصالحها، ﴿زَكَرِيَّا ۝٣﴾: بالقصر: كوفيٌّ غيرَ أبي بكرٍ في كل القرآن، وقرأ أبو بكر: بالمدِّ والنصبِ هنا، غيرُهم: بالمدِّ والرفعِ، كالثانية والثالثةِ[4]، ومعناه في العِبريِّ: دائمُ الذكرِ والتسبيحِ، ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ﴾ قيل: بنَى لها زكريا محراباً في المسجدِ؛ أي: غرفةً تصعدُ إليها بِسُلَّم، وقيل: المحرابُ: أشرفُ المجالسِ ومُقدَّمُها، كأنها وُضِعَتْ في أشرفِ موضعٍ من بيت المقدس، وقيل: كانت مساجدهم تسمَّى المحاريبَ، وكان لا يدخلُ عليها إلا هو وحدَه، ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقًا﴾ كان رزقُها ينزلُ عليها من الجنة، ولم ترضع ثدياً قطُّ، فكان يجدُ عندها فاكهةَ الشتاءِ في الصيفِ، وفاكهةَ الصيفِ في الشتاءِ، ﴿قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ﴾: من أين لكِ هذا الرزقُ الذي لا يشبهُ أرزاقَ الدنيا، وهو آتٍ في غيرِ حِيْنِه؟ ﴿قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ فلا تستبعدْ، قيل: تكلمت وهي صغيرةٌ كما تكلم عيسى وهو في المهد، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ﴾: من جملة كلام مريمَ، أو: من كلام ربِّ العالمين العزة جلَّ جلالُه، ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٍ ۝٣٧﴾: بغير تقديرٍ؛ لكثرته، أو: تفضلاً بغير محاسبةٍ ومجازاةٍ على عملٍ.

---

(١) قربانهم: ما يتقربون به إلى الله، وهو: ما يقدمونه من بقر وغنم، فتنزل نار تأكله، وصاحب قربانهم: من يتولى هذا الأمر من المتقرِّب. انظر «فتوح الغيب» (٤/ ٩٤).

(٢) أي: الأصلُ: أنبتها إنباتاً، فوضع: نباتاً موضع إنباتاً، أو: نقول: (نباتاً): مفعولٌ مطلقٌ لفعل محذوف، والتقديرُ: فنبتت نباتاً.

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص٦٢).

(٤) انظر «النشر في القراءات العشر» (٢/ ٢٣٩).

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ ....

《٣٨》 ﴿هُنَالِكَ﴾: في ذلك المكان حيث هو قاعد عند مريم في المحراب، أو: في ذلك الوقتِ؛ فقد يُستعارُ: هنا، وحيثُ، وثُمَّ: للزمانِ، لمّا رأى حال مريم في كرامتها على الله ومنزلتِها.. رغبَ أن يكون له من إيشاعَ ولدٌ مثلُ ولدِ أمِّها حَنَّةَ في الكرامة على الله وإن كانت عاقراً عجوزاً، فقد كانت أمُّها كذلك، وقيل: لمّا رأى الفاكهة في غير وقتِها.. انتبهَ على جوازِ ولادةِ العاقرِ، ﴿دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً﴾: ولداً والذريةُ يقعُ على الواحد والجمع، ﴿طَيِّبَةً﴾: مباركةً، والتأنيثُ: للفظِ الذريةِ، ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾: مُجيبُه.

《٣٩》 ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ قيل: ناداه جبريلُ عليه السلام، وإنما قيل: الملائكة؛ لأن المعنى: أتاه النداءُ من هذا الجنسِ، كقولهم: فلان يركب الخيلَ، ﴿فناديه﴾: بالياء والإمالةِ: حمزةُ وعليٌّ[1]، ﴿وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى الْمِحْرَابِ﴾ وفيه دليلٌ على أن المراداتِ تطلبُ بالصلواتِ، وفيها إجابةُ الدعواتِ، وقضاءُ الحاجاتِ، قال ابن عطاءٍ: ما فتح اللهُ تعالى على عبدٍ حالةً سَنِيَّةً إلا باتباعِ الأوامرِ، وإخلاصِ الطاعاتِ، ولزومِ المحاريب، ﴿إِنَّ اللهَ﴾: بكسر الألفِ: شاميٌّ وحمزةُ، على إضمار القولِ، أو: لأن النداءَ قولٌ، الباقون: بالفتح[2]؛ أي: بأن الله ﴿يُبَشِّرُكَ﴾ ﴿يَبْشُرُكِ﴾ وما بعده: حمزةُ، وعليٌّ؛ مِنْ بَشَرَهُ، والتخفيفُ والتشديدُ لغتانِ، ﴿بِيَحْيَىٰ﴾: هو غيرُ منصرفٍ، إن كان أعجمياً وهو الظاهر.. فللتعريفِ والعجمةِ، كموسى وعيسى، وإن كان عربياً.. فللتعريفِ ووزنِ الفعلِ كيَعْمُرَ، ﴿مُصَدِّقًا﴾: حالٌ منه، ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: مصدقاً بعيسى مؤمناً به، فهو أول من آمن به، وسُمِّيَ عيسى كلمةَ الله؛ لأن تكوُّنَه بـ: كن، بلا أبٍ، أو: مصدقاً بكلمة من الله، مؤمناً بكتاب منه، ﴿وَسَيِّدًا﴾ هو: الذي يَسُوْدُ قومَه؛ أي: يفوقُهم في الشرف، وكان يحيى فائقاً على قومه؛ لأنه لم يركب سيئةً قطُّ، ويا لَها مِن سيادةٍ، وقال الجُنيد: هو: الذي جادَ بالكونين عِوضاً عن المُكوِّنِ، ﴿وَحَصُورًا﴾ هو: الذي لا يَقْرَبُ النساءَ مع القدرة؛ حصراً لنفسه؛ أي: منعاً لها من الشهوات، ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾: ناشئاً من الصالحين؛ لأنه كان من أصلاب الأنبياءِ، أو: كائناً من جملة الصالحين.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٦٤).

(٢) انظر المرجع السابق (ص٦٣) وكذا القراءتان الآتيتان.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِي وَٱرْكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ ....

《٤٠》 ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾: استبعادٌ من حيث العادةُ، واستعظامٌ للقدرة، لا تَشَكُّكُ، ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾: كقولهم: أدركته السنُّ العاليةُ؛ أي: أَثَّر فيَّ الكبرُ وأضعفني، وكان له تسعٌ وتسعون سنةً، ولامرأتِه ثمانٌ وتسعون، ﴿وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾: لا تلدُ، ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾﴾ من الأفعال العجيبةِ.

《٤١》 ﴿قالَ ربِّ اجعلْ ليَ﴾: مدنيٌّ، وأبو عمرٍو، ﴿ءَايَةً﴾: علامةً أعرفُ بها الحَبَلَ لأَتَلَقَّى النعمةَ بالشكرِ إذا جاءت، ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: لا تقدرُ على تكليم الناسِ، ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾: إلا إشارةً بيدٍ أو رأسٍ أو عينٍ أو حاجبٍ، وأصلُه التحركُ؛ يقال: ارتَمَزَ: إذا تحركَ، واستثنى الرمزَ، وهو ليس مِن جنسِ الكلام؛ لأنه لمّا أدى مؤدَّى الكلامِ، وفُهِمَ منه ما يفهم منه.. سُمِّيَ كلاماً، أو: هو استثناءٌ منقطعٌ، وإنما خُصَّ تكليمُ الناسِ؛ ليعلمَ أنه يُحبَسُ لسانُه عن القدرة على تكليمهم خاصةً، مع إبقاءِ قدرتِه على التكلُّمِ بذكرِ اللهِ؛ ولذا قال: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾ أي: في أيامِ عجزِك عن تكليم الناسِ، وهي من الآيات الباهرةِ، والأدلةِ الظاهرةِ، وإنما حُبِسَ لسانُه عن كلام الناسِ؛ لِيُخَلِّصَ المدةَ لذكرِ اللهِ، لا يَشْغَلُ لسانَه بغيره، كأنه لمّا طلب الآيةَ من أجل الشكرِ.. قيل له: آيتك: أن تحبسَ لسانَك إلا عن الشكرِ، وأحسنُ الجوابِ ما كان مُنتزعاً من السؤالِ، والعشيُّ: من حين الزوال إلى الغروب، والإبكارُ: من طلوع الفجر إلى وقت الضحى.

《٤٢》 ﴿وَإِذْ﴾: عطفٌ على ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ﴾، أو: التقدير: واذكر إذْ ﴿قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ﴾ رويَ: أنهم كلمُوها شِفاهاً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ﴾ أولاً حينَ تقبَّلَكِ من أمكِ، وربّاكِ، واختصكِ بالكرامةِ السَّنيَّةِ، ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ مما يُستقذَرُ من الأفعال، ﴿وَٱصْطَفَىٰكِ﴾ آخِراً ﴿عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ بأن وهبَ لك عيسى من غير أبٍ، ولم يكن ذلك لأحدٍ من النساء.

《٤٣》 ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِي لِرَبِّكِ﴾: أديمي الطاعةَ، أو: أَطيلي قيامَ الصلاةِ، ﴿وَٱسْجُدِي﴾، وقيل: أُمِرَتْ بالصلاة بذكرِ القنوتِ والسجودِ؛ لكونهما من هيئات الصلاةِ، ثم قيل لها: ﴿وَٱرْكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ أي: ولتكنْ صلاتُك مع المصلين؛ أي: في الجماعة، أو: وانْظِمي نفسَكِ في جملة المصلين، وكوني في عدادِهم، ولا تكوني في عدادِ غيرِهم.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ ....﴾

《٤٤》 ﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارةٌ إلى ما سبق من قصةِ حَنَّةَ وزكريا ويحيى ومريمَ، ﴿مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾؛ يعني: أن ذلك من الغُيوب التي لم تعرفْها إلا بالوحْيِ، ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ﴾: أزْلامَهم، وهي قِداحُهم التي طرحوها في النهر مُقترعين، أو: هي الأقلام التي كانوا يكتبون التوراةَ بها، اختارُوها للقرعة؛ تبركاً بها، ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾: متعلقٌ بمحذوفٍ دلَّ عليه (يلقون) كأنه قيل: يلقونها ينظرون أيُّهم يكفلُ، أو: ليعلموا، أو: يقولون، ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ في شأنها؛ تنافساً في التكفُّلِ بها.

《٤٥》 ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: اذكرْ، ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ﴾ أي: بعيسى، ﴿مِّنْهُ﴾: في موضع جرٍّ صفةٌ لـ (كلمةٍ)، ﴿ٱسْمُهُ﴾: مبتدأٌ، وذُكِّرَ ضميرُ الكلمةِ؛ لأن المسمَّى بها مذكرٌ، ﴿ٱلْمَسِيحُ﴾: خبرُه، والجملةُ: في موضع جرٍّ، صفةٌ لـ(كلمةٍ)، والمسيحُ: لقبٌ من الألقاب المشرَّفَةِ، كالصِّدِّيقِ والفاروقِ، وأصلُه: مَشِيْحا، بالعبرانية، ومعناه: المباركُ، لقوله: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١]، وقيل: سُمِّيَ مسيحاً؛ لأنه كان لا يمسحُ ذا عاهةٍ إلا بَرَأَ، أو: لأنه كان يمسحُ الأرض بالسياحة لا يستوطنُ مكاناً، ﴿عِيسَى﴾: بدلٌ من المسيح، ﴿ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾: خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ؛ أي: هو ابن مريمَ، ولا يجوز أن يكون صفةً لعيسى؛ لأنه اسمه عيسى فَحَسْبُ، وليس اسمُه عيسى بنَ مريمَ، وإنما قال: ابن مريم إعلاماً لها أنه يولدُ من غير أبٍ، فلا ينسب إلا إلى أمه[1]، ﴿وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾: ذا جاهٍ وقدرٍ ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾: بالنبوة والطاعةِ، ﴿وَٱلْءَاخِرَةِ﴾: بعُلُوِّ الدرجةِ والشفاعةِ، ﴿وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾: برفعه إلى السماء، وقوله: (وجيهاً): حالٌ من (كلمة)؛ لكونها موصوفةً، وكذا: (ومن المقربين) أي: وثابتاً من المقربين.

《٤٦》 وكذا: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ﴾ أي: ومكلماً الناسَ ﴿فِى ٱلْمَهْدِ﴾: حالٌ من الضمير في (يكلم) أي: ثابتاً في المهد، وهو: ما يُمَهَّدُ للصبي من مَضْجَعِهِ؛ سميَ بالمصدر،

---

(١) الصحيح جواز إعرابه صفة، ولعل النسفيَّ تابعٌ لأبي البقاء العكبري في ذلك، فقد قال في: «التبيان في إعراب القرآن» (١/ ٢٦٠): ولا يجوز أن يكون بدلاً مما قبله ولا صفة؛ لأن «ابن مريم» ليس باسم، ألا ترى أنك لا تقول: اسم هذا الرجل ابن عمرو إلا إذا كان قد عُلِّقَ علماً عليه. وقد اعترض عليه السمين بأن هذا التعليل الذي ذكره يمنع كونَه بدلاً، وأما كونه صفة.. فلا يمنع ذلك، بل إذا كان علماً.. امتنع كونه صفةً، إذِ الأعلامُ لا يوصف بها. انظر «الدر المصون» (٣/ ١٧٥).

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٤٧) وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ (٤٨) وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٤٩)﴾ ....

﴿وَكَهْلًا﴾: عطفٌ عليه؛ أي: ويكلمُ الناسَ طفلاً وكهلاً؛ يعني: يكلم الناسَ في هاتين الحالتين كلامَ الأنبياءِ من غير تفاوتٍ بين حالِ الطفولةِ وحالِ الكهولةِ التي يستحكمُ فيها العقلُ، ويُسْتَنْبأُ فيها الأنبياءُ، ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦)﴾: حالٌ أيضاً، والتقدير: يبشرك به موصوفاً بهذه الصفاتِ.

《٤٧》 ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٤٧)﴾ أي: إذا قَدَّر تكوُّنَ شيءٍ.. كَوَّنَهُ من غيرِ تأخيرٍ، لكنَّه عبَّر بقوله: (كنْ) إخباراً عن سرعةِ تكوُّنِ الأشياءِ بتكوينِهِ.

《٤٨》 ﴿وَيُعَلِّمُهُ﴾: مدنيٌّ، وعاصمٌ، وموضعُه: حالٌ معطوفةٌ على (وجيهاً)، الباقون: بالنون، على أنه كلامٌ مبتدأٌ[١]، ﴿الْكِتَابَ﴾ أي: الكتابةَ، وكان أحسنَ الناسِ خطّاً في زمانه، وقيل: كُتُبَ اللهِ، ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾: بيانَ الحلالِ والحرامِ، أو: الكتابُ: الخطُّ باليدِ، والحكمةُ: البيانُ باللسانِ، ﴿وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ (٤٨)﴾.

《٤٩》 ﴿وَرَسُولًا﴾ أي: ونجعلُه رسولاً، أو: يكونُ في موضع الحالِ؛ أي: وجيهاً في الدنيا والآخرةِ ورسولاً ﴿إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي﴾: بأني ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: بدلالةٍ تدلُّ على صِدْقِي فيما أَدَّعِيهِ من النبوةِ، ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم﴾: نصبٌ، بدلٌ مِن (أني قد جئتكم)، أو: جرٌّ، بدلٌ مِن (آية)، أو: رفعٌ على: هي أني أخلق لكم، ﴿إني﴾: نافعٌ، على الاستئناف، ﴿مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ أي: أُقدِّرُ لكم شيئاً مثلَ صورةِ الطيرِ[٢]، ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾ الضميرُ: للكاف؛ أي: في ذلك الشيءِ المماثلِ لهيئةِ الطيرِ، ﴿فَيَكُونُ طَيْرًا﴾: فيصيرُ طيراً كسائر الطيورِ، ﴿طائراً﴾: مدنيٌّ[٣]، ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: بأمره، قيل: لم يخلق غيرَ الخُفّاشِ، ﴿وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ﴾: الذي وُلِدَ

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٦٣) وكذا القراءة الآتية.

(٢) فمعنى (أخلق): أُقدِّرُ، وليس معناه: أُوجِدُ المعدومَ.

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص٦٤).

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ۞ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ۖ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ ....

أعمى، ﴿وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ كرَّر بإذن الله؛ دفعاً لوهم مَن توهَّم فيه اللاهُوتِيَّة[1]، روي: أنه أحيا سامَ ابنَ نوحٍ وهم ينظرون إليه، فقالوا: هذا سحرٌ فأرِنا آيةً، فقال: يا فلان أكَلْتَ كذا، ويا فلان خُبِّئَ لك كذا، وهو قوله: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ و(ما) فيهما بمعنى: الذي، أو: مصدرية، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾: فيما سبق ﴿لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

《٥٠》 ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ أي: قد جئتكم بآيةٍ، وجئتكم مصدقاً، ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾: ردٌّ على قوله: (بآية من ربكم)[2] أي: جئتكم بآية من ربكم، ولأحلَّ لكم، وما حرَّمَ اللهُ عليهم في شريعة موسى عليه السلام: الشحومُ، ولحومُ الإبلِ والسمكِ، وكلُّ ذي ظُفُرٍ، فأحلَّ لهم عيسى بعضَ ذلك، ﴿وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: كُرِّرَ للتأكيدِ، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في تكذيبي وخِلافِي، ﴿وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾ في أمري.

《٥١》 ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾: إقرارٌ بالعبودية، ونفيٌ للربوبية عن نفسِهِ، بخلافِ ما يزعُمُ النصارى، ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ دُوني، ﴿هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾: يؤدِّي صاحبَه إلى النعيمِ المقيمِ.

《٥٢》 ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾: عَلِمَ مِن اليهود كفراً عِلماً لا شُبهةَ فيه، كعِلْمِ ما يُدرك بالحواسِّ ﴿قالَ مَنْ أَنْصارِيَ﴾: مدنيٌّ[3]، هو: جمعُ ناصرٍ، كأصحابٍ، أو: جمعُ نصيرٍ كأشرافٍ، ﴿إِلَى اللَّهِ﴾: يتعلقُ بمحذوفٍ حالٌ من الياء، أي: مَن أنصاري ذاهباً إلى اللهِ ملتجأً إليه؟ ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ حواريُّ الرجلِ: صفوتُه وخالصتُه: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾: أعوانُ دينِه، ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ﴾ يا عيسى ﴿بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ إنما طلبوا شهادتَه بإسلامهم تأكيداً

---

(١) أي: الألوهية.

(٢) أي: معطوفٌ على (بآية) من قوله: ﴿جِئْتُكُم بِآيَةٍ﴾؛ لأنه في معنى: لأظهر لكم آيةً، ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم﴾، فلا يردُ أنه لا يصح عطفُ المفعول له على المفعول به. انظر «حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي» (٣/ ٢٧).

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص٦٤).

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ ....﴾

لإيمانِهم؛ لأن الرسل يَشهدون يومَ القيامةِ لقومهم وعلَيْهم، وفيه دليلٌ على أن الإيمان والإسلام واحدٌ[1].

«٥٣» ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾ أي: رسولَك عيسى ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾: مع الأنبياء الذين يشهدون لأممهم، أو: مع الذين يشهدون لك بالوحدانيةِ، أو: مع أمة محمد عليه السلام؛ لأنهم شهداءُ على الناس.

«٥٤» ﴿وَمَكَرُوا۟﴾ أي: كفارُ بني إسرائيلَ الذين أحسَّ عيسى منهم الكفرَ حين أرادُوا قتلَه وصَلْبَهُ، ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ أي: جازاهم على مكرهم بأن رفعَ عيسى إلى السماءِ، وألقى شَبَهَهُ على من أراد اغتيالَه حتى قُتِلَ، ولا يجوز إضافةُ المكرِ إلى الله تعالى إلا على معنى الجزاءِ؛ لأنه مذمومٌ عندَ الخلقِ؛ وعلى هذا الخداعُ والاستهزاءُ، كذا في «شرح التأويلات»[2]، ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾: أقوى المُجازِينَ وأَقْدَرُهُمْ على العقاب من حيث لا يشعرُ المعاقَبُ.

«٥٥» ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ﴾: ظرفٌ لـ (مكرَ اللهُ) ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ أي: مُستوفِي أجلِكَ، ومعناه: أني عاصمُك من أن يقتلَكَ الكفارُ، ومُميتُكَ حَتْفَ أَنْفِكَ[3]، لا قتلاً بأيديهم، ﴿وَرَافِعُكَ

---

(١) عند جمهور الأشاعرة: الإيمان والإسلام مختلفان في المفهوم، وعند جمهور الماتريدية: متحدان. انظر «تحفة المريد» (ص٩٦)، وذكر الإمام الغزالي أن الإسلام في اللغة أعمُّ من الإيمان، فالإيمانُ هو: التصديق بالقلب، والإسلام هو: التسليم والانقياد بالقلب واللسان والجوارح، وقد ورد الشرع باستعمال الإيمان والإسلام على سبيل الترادف، كقوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]، وورد على سبيل الاختلاف، كقوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤] ومعناه: استسلمنا في الظاهر، فأراد بالإيمان ههنا: التصديق بالقلب فقط، وبالإسلام: الاستسلام ظاهراً باللسان والجوارح، وورد على سبيل التداخلِ، كحديثِ: أي الإسلام أفضل؟ قال: «الإيمان» رواه أحمد (٤/ ١١٤). انظر «إحياء علوم الدين» (١/ ١١٦).

(٢) «تأويلات أهل السنة» (١/ ٢٧٣).

(٣) الحتف: الهلاكُ، يقال: مات حتفَ أنفِه؛ إذا مات على فراشه، فيتنفسُ حتى ينقضيَ رمقُه؛ ولهذا خُصَّ الأنفُ، وقيل: لأن نفسَه تخرج مِنْ فِيْهِ وأنفِهِ، فغُلِّبَ أحدُ الاسمين. انظر «غريب الحديث» لابن الجوزي (١/ ١٩١)، و«المصباح المنير» (١/ ١٢٠).

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾ ....

﴿إِلَىَّ﴾: إلى سمائي ومَقَرِّ ملائكتي، ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: من سُوءِ جِوارِهم، وخُبْثِ صُحبتِهم، وقيل: متوفيك: قابضُك من الأرض؛ مِن: تَوَفَّيْتُ مالي على فلان: إذا استوفيتَه، أو: مميتُك في وقتِك بعدَ النزول من السماء، ورافعك الآنَ؛ إذِ الواوُ لا توجبُ الترتيبَ.

قال النبي عليه السلام: «ينزل عيسى خليفةً على أمتي، يَدُقُّ الصليبَ، ويقتل الخنازيرَ، ويلبَثُ أربعين سنةً، ويتزوجُ ويولدُ له، ثم يُتَوفَّى، وكيف تهلِكُ أمةٌ أنا في أولها، وعيسى في آخرها، والمهديُّ من أهل بيتي في وَسَطِها»[(١)].

أو: متوفي نفسِكَ بالنوم، ورافعُك وأنت نائمٌ حتى لا يلحقَكَ خوفٌ، وتستيقظُ وأنت في السماء آمنٌ مُقَرَّبٌ، ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ﴾ أي: المسلمين؛ لأنهم متبعُوه في أصل الإسلام وإن اختلفت الشرائعُ دون الذين كذَّبُوه وكَذَبُوا عليه من اليهود والنصارى، ﴿فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ بك ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يَعْلُونَهم بالحجة، وفي أكثرِ الأحوالِ بها وبالسيف، ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ في الآخرة ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

《٥٦، ٥٧》 ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ، وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَنُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ وتفسيرُ الحكمِ: هاتانِ الآيتانِ، ﴿فَيُوَفِّيهِمْ﴾: حفصٌ[(٢)].

《٥٨》 ﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارةٌ إلى ما سبق من نبأ عيسى وغيرِه، وهو: مبتدأٌ، ﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾: خبرُه، ﴿مِنَ ٱلْءَايَٰتِ﴾: خبرٌ بعدَ خبرٍ، أو: خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، ﴿وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾: القرآنِ؛ يعني: المحكمَ، أو: كأنه يَنطِقُ بالحكمة؛ لكثرةِ حِكَمِهِ.

---

(١) روى البخاري (٢٢٢٢) ومسلم (١٥٥) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «والذي نفسي بيده، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد»، وفي «المسند» لأبي داود الطيالسي (٤/ ٢٧٣): «يمكث عيسى عليه السلام في الأرض بعد ما ينزل أربعينَ سنةً»، وروى ابن الجوزي في «المنتظم» (٢/ ٣٩): «فيتزوج ويولد له، ويمكث خمساً وأربعين سنةً، ثم يموت...»، وفي «المعجم» لابن عساكر (١/ ٤٥٢): «كيف تهلك أمة أنا في أولها وعيسى في آخرها». قال ابن عساكر: هذا حديث غريب جداً.

(٢) وباقي السبعة بالنون. انظر «البدور الزاهرة» (ص٦٥).

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝٦٠ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٦١﴾ ....

《٥٩》 ونزلَ لما قال وفدُ بني نجرانَ: هل رأيت ولداً بلا أبٍ[١]:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ أي: إن شأنَ عيسى وحالَه الغريبةَ كشأن آدمَ عليه السلامُ ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾: قَدَّرَه جسداً من طينٍ، وهي جملةٌ مفسِّرةٌ لِما له شُبِّهَ عيسى بآدمَ[٢]، ولا موضعَ لها؛ أي: خلقَ آدمَ من تراب ولم يكن ثَمَّةَ أبٌ، ولا أمٌّ، فكذلك حالُ عيسى، مع أن الوجودَ من غيرِ أبٍ وأمٍّ أغربُ وأَخْرَقُ للعادةِ من الوجودِ من غيرِ أبٍ، فشُبِّهَ الغريبُ بالأغربِ؛ ليكونَ أقطعَ للخصمِ، وأحسمَ لمادةِ شُبْهَتِهِ إذا نظرَ فيما هو أغربُ مما استغربَه.

وعن بعض العلماء: أنه أُسِرَ بالروم فقال لهم: لمَ تعبدون عيسى؟ قالوا: لأنه لا أبَ له، قال: فآدمُ أولى؛ لأنه لا أبوين له، قالوا: كان يحيي الموتى، قال: فحِزْقِيلُ أولى؛ لأن عيسى أحيا أربعةَ نفرٍ، وحِزْقِيلُ ثمانيةَ آلافٍ، فقالوا: كان يُبرِئُ الأكمهَ والأبرصَ، قال: فجِرْجِيسُ أولى؛ لأنه طُبِخَ وأُحْرِقَ ثم قام سالماً، ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن﴾ أي: أَنْشَأَهُ بشراً ﴿فَيَكُونُ ۝٥٩﴾ أي: فكان، وهو حكايةُ حالٍ ماضيةٍ، و(ثم) لترتيب الخبر على الخبرِ، لا لترتيب المخبَرِ عنه[٣].

《٦٠》 ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾: خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ؛ أي: هو الحقُّ ﴿فَلَا تَكُن﴾ أيُّها السامعُ ﴿مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝٦٠﴾: الشاكِّين، ويحتملُ أن يكون الخطابُ للنبي عليه السلام، ويكونُ من باب التهييجِ لزيادة الثباتِ؛ لأنه عليه السلام معصومٌ عن الامتراءِ.

《٦١》 ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ﴾ من النصارى ﴿فِيهِ﴾: في عيسى، ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾: من البيناتِ الموجبةِ للعلمِ[٤]، و(ما) بمعنى: الذي، ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا۟﴾: هلمُّوا، والمرادُ: المجيءُ بالعزم والرأيِ، كما تقول: تعالَ لنفكرَ في هذه المسألةِ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٦/ ٤٦٩).

(٢) أي: للأمر الذي لأجله كان ذلك التشبيه. انظر «فتوح الغيب» (٤/ ١٢٤).

(٣) لترتيب الخبر؛ أي: للإخبار بتكوينه بعد الإخبار بخلقه، لا لإفادة أن تكوينه متأخر عن خلقه، فالمخبَر عنه هو خلقُه من تراب وتكوينه، ويمكن أن تكون لترتيب المخبر عنه، ويكون معنى: خلقِ آدمَ من تراب تصويرَ جسدِهِ من تراب ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن﴾ أي: أنشأه بشراً، بأن نفخ فيه الروح. انظر «السراج المنير» (١/ ٢٢٢).

(٤) ففي الآية مجازٌ مرسلٌ، من إطلاق المسبَّب، وهو العلم، وإرادةِ السبب، وهو البينات.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾﴾ ....

﴿نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ أي: يدعُ كلٌّ منّا ومنكم أبناءَه ونساءَه ونفسَه إلى المباهلةِ، ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾: ثم نتباهلْ؛ بأن نقول: بَهْلَةُ اللهِ على الكاذب منا ومنكم، والبَهْلَةُ بالفتح والضمِّ: اللعنةُ، وبَهَلَهُ اللهُ: لَعَنَهُ وأبعدَه من رحمته، وأصلُ الابتهالِ: هذا، ثم يستعملُ في كل دعاءٍ يُجتهدُ فيه وإن لم يكن التعاناً.

وروي: أنه لما دعاهم إلى المباهلة.. قالوا: حتى ننظرَ، فقال العاقبُ وكان ذا رأيِهم: والله لقد عرفتم يا معشرَ النصارى أنّ محمداً نبيٌّ مرسلٌ، وما باهلَ قومٌ نبيهم قطُّ فعاشَ كبيرُهم، ولا نبتَ صغيرُهم، ولئن فعلتم.. لتَهْلِكُنَّ، فإن أبيتم إلا إِلْفَ دينِكم.. فوادِعُوا الرجلَ وانصرفُوا إلى بلادكم، فأتَوا رسولَ الله ﷺ وقد غدا محتضِناً للحسين، آخذاً بيدِ الحسنِ وفاطمةُ تمشي خلفَه، وعليٌّ خلفَها وهو يقول: «إذا أنا دعوتُ.. فأمِّنُوا»، فقال أُسْقُفُ نجرانَ: يا معشرَ النصارى إني لأرى وجوهاً لو شاء اللهُ أن يزيل جبلاً من مكانه.. لأزاله بها، فلا تُباهلُوا فتهلِكُوا، ولا يبقى على وجه الأرض نصرانيٌّ، فقالوا: يا أبا القاسمِ رأينا ألا نباهلَك، فصالحَهم النبيُّ على ألفَي حُلَّةٍ كلَّ سنةٍ، فقال عليه السلام: «والذي نفسي بيده إن الهلاك قد تدلَّى على أهلِ نجرانَ، ولو لاعَنُوا.. لَمُسِخُوا قِردةً وخنازيرَ»[١].

وإنما ضَمَّ الأبناءَ والنساءَ وإن كانت المباهلةُ تختصُّ به وبمن يكاذبُه؛ لأن ذلك آكدُ في الدلالة على ثقتِه بحاله، واستيقانِه بصدقه، حيث استَجْرأ على تعريضِ أَعِزَّتِهِ وأفلاذِ كبدِه لذلك، ولم يقتصرْ على تعريض نفسِه له، وعلى ثقتِه بكذب خصمِه حتى يُهلِكَ خصمَه مع أحبتِه وأعزته إن تمت المباهلة، وخَصَّ الأبناءَ والنساءَ؛ لأنهم أعزُّ الأهلِ، وألصقُهم بالقلوبِ، وقدَّمَهم في الذكر على الأنفس؛ لينبهَ على قرب مكانِهم ومنزلتِهم، وفيه دليلٌ واضحٌ على صحة نبوةِ النبيِّ ﷺ؛ لأنه لم يَروِ أحدٌ من موافقٍ أو مخالفٍ أنهم أجابوا إلى ذلك، ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾ منا ومنكم في شأن عيسى، و(نبتهل) و(نجعل): معطوفان على (ندع).

《٦٢》 ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي قُصَّ عليك من نبأ عيسى ﴿لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ هو: فصلٌ بين اسم إنَّ وخبرِها، أو: مبتدأٌ، و(القصصُ الحقُّ): خبرُه، والجملةُ: خبرُ (إنَّ) وجاز دخولُ اللامِ على الفصل؛ لأنه إذا جاز دخولُها على الخبر.. كان دخولها على الفصل أَجْوَزَ؛ لأنه أقرب

---

(١) روى نحوه الطبري في «تفسيره» (٦/ ٤٨٠) وسعيد بن منصور في «التفسير» (٣/ ١٠٤٤).

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾﴾ ....

إلى المبتدأ منه، وأصلُها أن تدخل على المبتدأِ، و(مِن) في ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾: بمنزلةِ البناءِ على الفتح في: لا إله إلا الله؛ في إفادة معنى الاستغراقِ[1]، والمرادُ: الردُّ على النصارى في تثليثِهم، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في الانتقامِ، ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾﴾ في تدبير الأحكامِ.

«٦٣» ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾: أعرضوا ولم يقبلُوا ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾: وعيدٌ لهم بالعذابِ المذكورِ في قوله: ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

«٦٤» ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ هم أهلُ الكتابَين، أو: وفدُ نجرانَ، أو: يهودُ المدينةِ، ﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ﴾: مستويةٍ ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾: لا يَخْتَلِفُ فيها القرآنُ والتوراةُ والإنجيلُ، وتفسيرُ الكلمةِ قوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يعني: تعالَوا إليها حتى لا نقولَ: عزيرٌ ابنُ اللهِ، ولا المسيحُ ابنُ اللهِ؛ لأن كل واحدٍ منهما بعضُنا، بشرٌ مثلُنا، ولا نطيعَ أحبارَنا فيما أحدثُوا من التحريم والتحليلِ من غير رجوعٍ إلى ما شرع الله.

وعن عدي بن حاتم: ما كنا نعبدُهم يا رسول الله، قال: «أليس كانوا يحلُّون لكم ويحرِّمون، فتأخذون بقولِهم؟» قال: نعم، قال: «هو ذاك»[2].

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ عن التوحيدِ ﴿فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ أي: لَزِمَتْكُمُ الحجةُ، فوجب عليكم أن تعترفُوا وتُسلِّمُوا بأنا مسلمون دونكم، كما يقول الغالبُ للمغلوب في جدال أو صِراعٍ: اعترفْ بأني أنا الغالبُ، وسلِّمْ إليَّ الغلبةَ.

«٦٥» ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ زعم كلُّ فريقٍ من اليهود والنصارى أن إبراهيم كان منهم، وجادلُوا رسولَ الله ﷺ والمؤمنين فيه، فقيل لهم: إن اليهوديةَ إنما حَدَثَتْ بعدَ نزولِ التوراةِ، والنصرانيةَ بعدَ نزولِ الإنجيلِ، وبين إبراهيمَ وموسى ألفُ سنةٍ، وبينه وبين عيسى ألفان، فكيف يكون إبراهيم على دينٍ لم يحدثْ إلا بعدَ عهدِه بأزمنةٍ متطاولةٍ؟ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾﴾ حتى لا تجادلُوا مثلَ هذا الجدالِ المحالِ.

---

(١) قوله: في إفادة معنى الاستغراقِ؛ أي: في إفادة ذلك قطعاً؛ لأن النكرة في سياق النفي تفيد الاستغراق ظناً، ويصير الاستغراق قطعياً إذا دخلت عليها مِن الزائدة، أو: لا النافيةُ للجنس.

(٢) رواه البيهقي في «المدخل إلى السنن الكبرى» (ص٢١٠).

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٦٦ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٦٧ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٦٨ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٦٩ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ۝٧٠﴾ ....

《٦٦》 ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ (ها): للتنبيه، و(أنتم): مبتدأٌ، و(هؤلاءِ): خبرُه، ﴿حَٰجَجْتُمْ﴾: جملةٌ مستأنفةٌ مبينةٌ للجملة الأولى؛ يعني: أنتم هؤلاءِ الأشخاصُ الحمقى، وبيانُ حماقتِكم، وقلةِ عقولِكم أنكم جادلتم ﴿فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ مما نطقَ به التوراةُ والإنجيلُ، ﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ ولا ذكرَ له في كتابَيْكم من دين إبراهيمَ؟ وقيل: (هؤلاء) بمعنى الذين، و(حاججتم): صلتُه، ﴿ها انتم﴾: بالمدِّ وغيرِ الهمزِ، حيث كان: مدنيٌّ وأبو عمرو[1]، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ عَلِمَ ما حاجَجْتم فيه، ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٦٦﴾: وأنتم جاهلون به.

《٦٧》 ثم أَعْلَمَهُم بأنه بريءٌ من دينِهم فقال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٦٧﴾ كأنه أراد بـ(المشركين): اليهودَ والنصارى؛ لإشراكِهم به عزيراً والمسيحَ، أو: ما كان من المشركين، كما لم يكن منهم.

《٦٨》 ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ﴾: إن أَخصَّهم به، وأقربَهم منه؛ مِن الوَلْيِ، وهو القربُ، ﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ في زمانِه وبعدَه ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾ خصوصاً، خُصَّ بالذكر؛ لخصوصيتِه بالفضل، والمرادُ: محمدٌ عليه السلام، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ من أمته، ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٦٨﴾: ناصرُهم.

《٦٩》 ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ هم: اليهودُ، دَعَوا حذيفةَ وعماراً ومعاذاً إلى اليهودية، ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾: وما يعودُ وبالُ الإضلالِ إلا عليهم؛ لأن العذابَ يضاعف لهم بضلالهم وإضلالِهم، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٦٩﴾ بذلكَ.

《٧٠》 ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: بالتوراة والإنجيلِ، وكفرُهم بها: أنهم لا يؤمنون بما نطقَتْ به من صحةِ نبوةِ رسولِ الله ﷺ وغيرِها، ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ۝٧٠﴾: تعترفون

---

(١) قرأ قالون والبصري وأبو جعفر: بإثبات ألف بعد الهاء وهمزة مسهلة، وقرأ ورش: بحذف الألف بعد الهاء، وتسهيل الهمزة، وله وجه آخر وهو: إبدال الهمزة ألفاً محضة وهي ساكنة فتجتمع مع النون الساكنة فيمدُّ لأجل هذا مدّاً طويلاً، وقرأ قنبل: بحذف الألف مع تحقيق الهمزة، وقرأ البزي والشامي والكوفيون ويعقوب: بإثبات الألفِ وهمزةٍ محققة بعدها. انظر «البدور الزاهرة» (ص٦٥).

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ ....

بأنها آياتُ اللهِ، أو: تكفرون بالقرآنِ ودلائلِ نبوةِ الرسولِ، وأنتم تشهدون نعتَه في الكتابين، أو: تكفرون بآيات الله جميعاً، وأنتم تعلمون أنها حقٌّ.

«٧١» ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾: تخلِطون الإيمانَ بموسى وعيسى بالكفرِ بمحمدٍ ﷺ، ﴿وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾: نعتَ محمدٍ عليه السلام، ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾ أنه حقٌّ.

«٧٢» ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ فيما بينهم ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: القرآنِ ﴿وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾: ظرفٌ؛ أي: أوَّلَه؛ يعني: أَظْهِروا الإيمانَ بما أُنزلَ على المسلمين في أولِ النهارِ، ﴿وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ﴾: واكفروا به آخرَه؛ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾: لعلَّ المسلمين يقولون: ما رجعُوا وهم أهلُ كتابٍ وعلمٍ إلا لأمرٍ قد تبيَّنَ لهم، فيرجعون برجوعِكم.

«٧٣» ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾: (ولا تؤمنوا): متعلقٌ بقوله: ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾، وما بينهما اعتراضٌ[١]؛ أي: ولا تُظْهِرُوا إيمانكم بأن يؤتَى أحدٌ مثلَ ما أوتيتم إلا لأهلِ دينِكم دونَ غيرِهم، أرادُوا: أَسِرُّوا تصديقَكم بأن المسلمين قد أُوتُوا من كتبِ اللهِ مثلَ ما أوتيتم، ولا تُفشوه إلا إلى أشياعِكم وحدَهم دون المسلمين؛ لئلا يزيدَهم ثباتاً، ودون المشركين؛ لئلا يدعوَهم إلى الإسلام، ﴿أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾: عطفٌ على (أن يؤتى)، والضميرُ في (يحاجوكم): لـ (أحدٌ)؛ لأنه في معنى الجمع؛ بمعنى: ولا تؤمنوا لغيرِ أتباعِكم أن المسلمين يحاجُّونكم يوم القيامة بالحقِّ، ويغالبونكم عند الله بالحجةِ، ومعنى الاعتراض: أن الهدى هدى اللهِ، مَن شاءَ هُداه حتى أسلمَ، أو ثبتَ على الإسلام.. كان ذلك، ولم ينفع كيدُكم وحِيَلُكم وزَيُّكم تصديقَكم عن المسلمين والمشركين[٢]، وكذلك قوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ يريد: الهدايةَ والتوفيقَ.

أو: يَتِمُّ الكلامُ عند قوله: (إلا لمن تبع دينكم) أي: ولا تؤمنوا هذا الإيمانَ الظاهرَ، وهو

---

(١) أي: قوله: (لا تؤمنوا): مرتبط من حيث المعنى بقوله: (أن يؤتى)، وعامل فيه بتقدير حرف جر؛ ولذا قدر النسفي: (ولا تُظْهِرُوا إيمانكم بأن يؤتَى أحد...).

(٢) زيُّكم تصديقَكم: كتمانُه؛ يقال: زَوَى سِرَّهُ عن غيره: طواهُ وأخفاه.

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًاۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ ....

إيمانُهم وجهَ النهار إلا لمن تبعَ دينَكم: إلا لمن كانوا تابعين لدينِكم ممن أسلموا منكم؛ لأن رجوعهم كان أرجَى عندَهم من رجوعِ مَن سِواهم، ومعنى قولِه: (أن يؤتى): لأن يؤتَى أحدٌ مثلَ ما أوتيتم قلتُم ذلك ودبرتُموه، لا لشيءٍ آخرَ؛ يعني: أن ما بِكُمْ من الحسدِ والبغيِ أن يؤتى أحدٌ مثلَ ما أوتيتم من العلمِ والكتابِ.. دعاكم إلى أن قلتُم ما قلتُم؛ ويدلُّ عليه قراءةُ ابنِ كثيرٍ: ﴿آن﴾ بالمدِّ والاستفهام[1]؛ يعني: أَأَنْ يُؤتَى أحدٌ مثلَ ما أوتيتم من الكتاب تَحسدُونهم؟ وقولُه: (أو يحاجوكم) على هذا معناه: دَبَّرتُم ما دَبَّرتم؛ لأن يؤتى أحدٌ مثلَ ما أوتيتم، ولما يتصلُ به عندَ كفرِكم به من مُحاجَّتِهم لكم عندَ ربِّكم، ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ أي: واسعُ الرحمةِ، ﴿عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ بالمصلحةِ.

«٧٤» ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ﴾: بالنبوة، أو: بالإسلام ﴿مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾.

«٧٥» ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ هو: عبدُ الله بنُ سَلامٍ، استودَعه رجلٌ من قريش ألفاً ومئتَيْ أُوقيةٍ ذهباً، فأداه إليه، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ هو: فِنْحاصُ بنُ عازُوراءَ، استودعه رجلٌ من قريش ديناراً فجحدَه وخانَه[2]، وقيل: المأمونون على الكثيرِ: النصارى؛ لغلبة الأمانةِ عليهم، والخائنون في القليلِ: اليهودُ؛ لغلبة الخيانةِ عليهم، ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾: إلا مدةَ دوامِك عليه يا صاحبَ الحقِّ قائماً على رأسه، ملازماً له، ﴿يُؤَدِّهِۦ﴾، و﴿لَا يُؤَدِّهِۦ﴾: بكسر الهاءِ مشبعةً: مكيٌّ ونافعٌ وشاميٌّ وعليٌّ وحفصٌ، واختلس أبو عمرٍو في روايةٍ، غيرُهم: بسكون الهاء[3]، ﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارةٌ إلى ترك الأداءِ الذي دلَّ عليه: (لا يؤده)، ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ﴾ أي: تركُهم أداءَ الحقوقِ بسببِ قولِهم: (ليس علينا في الأميين سبيل) أي: لا يتطرقُ علينا إثمٌ وذمٌّ في شأن الأميين؛ يعنون: الذين ليسوا من أهل الكتاب، وما فعلْنا بهم مِن حَبْسِ أموالِهم والإضرارِ بهم؛ لأنهم ليسوا على ديننا، وكانوا يستحلُّون ظلمَ مَن خالفَهم، وكانوا يقولون: لم يُجْعَلْ لهم في كتابنا حرمةٌ، وقيل: بايع اليهودُ

---

(١) قرأ ابنُ كثيرٍ بزيادة همزةٍ قبلَ أنْ، على الاستفهام، مع تسهيلِ همزةِ أنْ. انظر «البدور الزاهرة» (ص٦٦).

(٢) ذكره البغوي في «تفسيره» (٢/ ٥٦).

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص٦٦)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (٢/ ١٠٥١).

بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ ...

رجالاً من قريش، فلما أسلموا.. تقاضوهم، فقالوا: ليس لكم علينا حقٌّ؛ حيث تركتم دينكم، وادَّعوا أنهم وجدوا ذلك في كتابهم، ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ بادعائهم أن ذلك في كتابهم، ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ أنهم كاذبون.

《٧٦》 ﴿بَلَىٰ﴾: إثباتٌ لما نَفَوْهُ من السبيل عليهم في الأميين؛ أي: بلى عليهم سبيلٌ فيهم، وقوله: ﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ﴾: جملةٌ مستأنفةٌ مقرِّرةٌ للجملة التي سدت (بلى) مسدَّها، والضميرُ في (بعهده): يرجع إلى الله تعالى؛ أي: كلُّ مَن أوفى بعهد الله واتقاه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾ أي: يحبُّهم، فوُضِعَ الظاهرُ موضعَ الضميرِ، وعمومُ المتقين قامَ مَقامَ الضميرِ الراجعِ من الجزاء إلى (من)، ويدخلُ في ذلك الإيمانُ وغيرُه من الصالحات، وما وجب اتقاؤه من الكفر، وأعمالِ السوءِ، قيل: نزلت في عبد الله بنِ سلامٍ ونحوِه من مُسلِمي أهلِ الكتابِ، ويجوزُ أن يرجعَ الضميرُ إلى (من أوفى) أي: كلُّ مَن أوفى بما عاهد اللهَ عليه، واتقى الله في تركِ الخيانةِ والغدرِ.. فإن الله يحبُّه.

《٧٧》 ونزل فيمن حَرَّفَ التوراةَ وبدَّلَ نعتَه عليه السلام من اليهودِ وأخذَ الرِّشوةَ على ذلك:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ﴾: يستبدلون ﴿بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾: بما عاهدوه عليه من الإيمان بالرسولِ المصدقِ لما معَهم، ﴿وَأَيْمَٰنِهِمْ﴾: وبما حلفُوا به من قولهم: والله لنؤمنن به ولننصرنه، ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: متاعَ الدنيا من الترؤُّسِ والارتشاءِ ونحوِ ذلك، وقولُه: (بعهد الله): يقوِّي رجوعَ الضميرِ في (بعهده) إلى الله، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: لا نصيبَ، ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ بما يَسُرُّهم[1]، ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ نظرَ رحمةٍ، ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾: ولا يُثني عليهم، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾: مؤلم.

《٧٨》 ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ﴾: من أهلِ الكتابِ ﴿لَفَرِيقًا﴾ هم: كعبُ بنُ الأشرفِ، ومالكُ بنُ الصَّيْفِ، وحُيَيُّ بنُ أخطبَ، وغيرُهم، ﴿يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ﴾: يفتِلُونها بقراءتِه عن الصحيحِ إلى المحرَّفِ، واللَّيُّ: الفتلُ، وهو الصَّرفُ، والمرادُ: تحريفُهم، كآيةِ الرجمِ، ونعتِ محمدٍ

(١) أي: أن المرادَ نفيُ كلامِ التكريم، فلا ينافي قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣]. انظر «التحرير والتنوير» (٢/ ١٢٤).

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾ ....

ﷺ، ونحوِ ذلك، والضميرُ في ﴿لِتَحْسَبُوهُ﴾: يرجعُ إلى ما دلَّ عليه (يلوون ألسنتهم بالكتاب)، وهو المحرَّفُ، ويجوز أن يُرادَ: يعطِفُون ألسنتَهم بِشِبْهِ الكتابِ؛ لتحسبُوا ذلك الشِّبْهَ ﴿مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي: التوراةِ، ﴿وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾: وليس هو من التوراة، ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾: تأكيدٌ لقولِه: (هو من الكتاب)، وزيادةُ تشنيعٍ عليهم، ﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ أنهم كاذبون.

《٧٩》 ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ﴾: تكذيبٌ لمن اعتقد عبادةَ عيسى عليه السلام، وقيل: قال رجلٌ: يا رسول الله نسلمُ عليك كما يسلمُ بعضُنا على بعضٍ، أفلا نسجدُ لك؟ قال: «لا ينبغي أن يُسجدَ لأحدٍ من دون اللهِ، ولكن أكرمُوا نبيَّكم، واعرفوا الحقَّ لأهله»[١]، ﴿وَالْحُكْمَ﴾: والحكمةَ - وهي: السنةُ - أو: فصلَ القضاءِ، ﴿وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ﴾: عطفٌ على (يؤتيَه)، ﴿لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾: ولكن يقول: كونوا، والربانيُّ: منسوبٌ إلى الربِّ، بزيادة الألف والنون، وهو: شديدُ التمسكِ بدين اللهِ وطاعتِه، وحين مات ابنُ عباسٍ قال ابنُ الحنفيةِ رضي الله عنه: مات ربانيُّ هذه الأمةِ[٢]، وعن الحسن: ربانيين: علماءَ فقهاءَ، وقيل: علماءَ معلمين، وقالوا: الربانيُّ: العالمُ العاملُ المعلِّم، ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ﴾: كوفيٌّ وشاميٌّ؛ أي: غيرَكم، غيرُهم: بالتخفيف[٣]، ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾ أي: تقرؤون؛ والمعنى: بسبب كونِكم عالمين، وبسببِ كونِكم دارسين للعلم، كانت الربانيةُ التي هي قوةُ التمسكِ بطاعةِ الله مسبَّبةً عن العلمِ والدارسةِ، وكفى به دليلاً على خيبةِ سَعْيِ مَنْ جَهَدَ نفسَه، وكَدَّ روحَه في جمع العلمِ ثم لم يجعلْه ذريعةً إلى العمل، فكان كمن غرسَ شجرةً حسناءَ تُؤْنِقُهُ بمظهرِها، ولا تنفعُه بثمرِها[٤]، وقيل: معنى (تدرسون): تَدْرُسُونَه على الناس، كقوله: ﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ﴾ [الإسراء: ١٠٦]، فيكون معناه معنى (تُدَرِّسُون) من التدريس، كقراءةِ ابنِ جُبير[٥].

---

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص١١٦) عن الحسن البصري.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٦/ ٣٨٣).

(٣) بالتخفيف؛ أي: ﴿تَعْلَمُون﴾. انظر «البدور الزاهرة» (ص٦٧).

(٤) تُؤْنِقُه: تعجبه.

(٥) أي: ﴿تُدَرِّسُون﴾، نسبها في «الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها» (ص٥١٧) لأبي حيوةَ.

وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ....

«٨٠» ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ﴾: بالنصبِ؛ عطفاً على (ثم يقولَ)؛ ووجهُه: أن تجعل (لا) مزيدةً لتأكيد معنى النفيِ في قولِه: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾، والمعنى: ما كان لبشر أن يستنبئَه اللهُ، ويَنْصِبَه للدعاء إلى اختصاصِ اللهِ بالعبادةِ، وتركِ الأندادِ، ثم يأمرَ الناسَ بأن يكونوا عباداً له، ويأمركم ﴿أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا﴾، كما تقول: ما كان لزيد أن أُكْرِمَه ثم يُهينَني، ولا يستخفَّ بي، وبالرفع: حجازيٌّ وأبو عمرٍو وعليٌّ؛ على ابتداء الكلام[1]، والهمزةُ في ﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ﴾: للإنكارِ، والضميرُ في (لا يأمركم) و(أيأمركم): للبشر، أو: لله، وقولُه: ﴿بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾: يدلُّ على أن المخاطبين كانوا مسلمين، وهم الذين استأذنوه أن يسجدوا له.

«٨١» ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ هو على ظاهره من أخذ الميثاقِ على النبيين بذلك، أو: المرادُ: ميثاقُ أولادِ النبيين، وهم بنو إسرائيلَ، على حذف المضافِ، واللامُ في ﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ﴾: لامُ التوطئةِ؛ لأن أخذ الميثاقِ في معنى الاستحلافِ، وفي (لتؤمننَّ): لامُ جوابِ القسمِ، و(ما): يجوز أن تكون متضمنةً لمعنى الشرطِ، و(لتؤمنن): سادٌّ مسدَّ جوابِ القسمِ والشرطِ جميعاً[2]، وأن تكون موصولة بمعنى: الذي آتيتكموه لتؤمنن به[3]، ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ﴾: معطوفٌ على الصلةِ، والعائدُ منه إلى (ما): محذوفٌ، والتقديرُ: ثم جاءكم به ﴿رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾: للكتاب الذي معكم، ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ﴾: بالرسول، ﴿وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ أي: الرسولَ، وهو محمد ﷺ، ﴿لِما آتيتكم﴾: حمزةُ[4]، و(ما) بمعنى: الذي، أو: مصدريةٌ؛ أي: لأجلِ إيتائي إياكم بعضَ الكتابِ والحكمةِ، ثم لمجيءِ رسولٍ مصدقٍ لما معكم، واللامُ:

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٦٧)، وفيه: وقرأ أبو عمرو بِخُلفٍ عن الدوري: بإسكانها، والوجه الثاني للدوري: اختلاسُ ضمتها.

(٢) الأولى أن يقال: اللام موطئة، و(ما): شرطية، و(لتؤمنن): جوابُ قوله: ﴿أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، لأنه كالقَسَم، وجوابُ الشرطِ محذوفٌ دل عليه جوابُ القسم. انظر «الدر المصون» (٣/ ٢٨٥).

(٣) لكن اعترض هذا الوجه بأن اللام الموطئة إنما تدخل على أدوات الشرط، لا على الموصول، فإن اعتبرت (ما) موصولة.. فالأولى أن تكون اللام في (لما) لامَ الابتداء، وتفيد توكيدَ معنى القسم الذي في أخذِ الميثاقِ. انظر «الدر المصون» (٣/ ٢٨٥)، و«السراج المنير» (١/ ٢٢٨).

(٤) انظر «البدور الزاهرة» (ص٦٧) وكذا القراءة الآتية.

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾

للتعليل؛ أي: أخذ الله ميثاقَهم لتؤمنن بالرسول ولتنصرنَّه؛ لأجل أني آتيتُكم الحكمةَ، وأن الرسول الذي آمركم بالإيمان به ونُصرتِه موافقٌ لكم، غيرُ مخالفٍ، ﴿آتيناكم﴾: مدنيٌّ، ﴿قَالَ﴾ أي: الله ﴿ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي﴾ أي: قبلتم عهدي؟ وسميَ إصراً؛ لأنه مما يُؤصَرُ؛ أي: يشدُّ ويُعقدُ، ﴿قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟﴾: فليشهد بعضُكم على بعض بالإقرار، ﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾: وأنا معكم على ذلك من إقراركم وتَشاهُدِكُم من الشاهدين، وهذا توكيدٌ عليهم، وتحذيرٌ من الرجوع إذا علموا بشهادة اللهِ، وشهادةِ بعضهم على بعضٍ، وقيل: قال الله للملائكة: اشهدوا.

《٨٢》 ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ الميثاقِ والتوكيدِ ونَقَضَ العهدَ بعدَ قبولِه، وأعرضَ عن الإيمان بالنبيِّ الجائي ﴿فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾: المتمردون من الكفار.

《٨٣》 ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾ دخلت همزةُ الإنكار على الفاء العاطفةِ جملةً على جملةٍ؛ والمعنى: فأولئك هم الفاسقون فغيرَ دين الله يبغون؟ ثم توسطت الهمزة بينهما، ويجوز أن يعطفَ على محذوفٍ، تقديرُه: أيتولون فغيرَ دين الله يبغون؟ وقُدِّمَ المفعولُ وهو (غيرَ دين الله) على فعله؛ لأنه أهمُّ؛ من حيثُ إن الإنكار الذي هو معنى الهمزةِ متوجهٌ إلى المعبود بالباطل، ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: الملائكةُ، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: الإنسُ والجنُّ ﴿طَوْعًا﴾: بالنظر في الأدلةِ، والإنصافِ من نفسِه، ﴿وَكَرْهًا﴾: بالسيفِ، أو بمعاينةِ العذابِ، كنَتْقِ الجبلِ على بني إسرائيلَ، وإدراكِ الغرقِ فرعونَ، والإشفاءِ على الموتِ[1]، ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ﴾ [غافر: ٨٤]، وانتصبَ (طوعاً وكَرهاً) على الحال؛ أي: طائعين ومكرهين، ﴿وإليهِ تُرْجَعُوْنَ﴾ فتُجازَوْنَ على الأعمال، ﴿يَبْغُونَ﴾ و﴿يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ بالياء فيهما: حفصٌ، وبالتاء في الثاني، وفتح الجيم: أبو عمرٍو؛ لأن الباغِين هم المتولُّون، والراجعون جميعُ الناس، وبالتاءِ فيهما وفتحِ الجيم: غيرُهما[2].

《٨٤》 ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ أُمِرَ رسولُ الله ﷺ بأن يُخبِرَ عن نفسه وعمَّن معه

---

(١) الإشفاءُ على الموتِ: القربُ منه.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٦٧).

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾﴾

بالإيمانِ؛ فلذا وُحِّدَ الضميرُ في (قل)، وجُمِعَ في (آمنّا)، أو: أُمِرَ بأن يتكلمَ عن نفسه كما يتكلمُ الملوكُ إجلالاً من اللهِ لقدرِ نبيِّه، وعُدِّيَ (أنزل) هنا بحرف الاستعلاءِ، وفي (البقرة) بحرف الانتهاءِ[1]؛ لوجود المعنيين؛ إذ الوحيُ ينزلُ من فوقُ، وينتهي إلى الرسولِ، فجاء تارةً بأحد المعنيين، وأخرى بالآخر.

وقال صاحب «اللباب»: والخطابُ في البقرة للأمة؛ لقوله: ﴿قُولُوٓا۟﴾ فلم يصحَّ إلا إلى؛ لأن الكتب منتهيةٌ إلى الأنبياء، وإلى أمتِهم جميعاً، وهنا قال: (قل)، وهو خطابٌ للنبيِّ عليه السلام دون أمتِه، فكان اللائق به: على؛ لأن الكتب منزلةٌ عليه، لا شركةَ للأمة فيه[2]، وفيه نظرٌ؛ لقوله تعالى: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [آل عمران: ٧٢].

﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾: أولادِ يعقوبَ، وكان فيهم أنبياءُ، ﴿وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ﴾ كَرَّرَ في (البقرة): (وما أوتي)، ولم يكرر هنا؛ لتقدم ذكرِ الإيتاءِ؛ حيثُ قال: ﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم﴾، ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾: من عندِ ربِّهم، ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ في الإيمان بهم كما فعلت اليهود والنصارى، ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾: مُوحِّدُون مخلصون أنفسَنا له، لا نجعلُ له شريكاً في عبادتِنا.

《٨٥》 ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ يعني: التوحيدَ، وإسلامَ الوجه لله، أو: غيرَ دينِ محمدٍ عليه السلام ﴿دِينًا﴾: تمييزٌ ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾: **من الذين وقعُوا في الخُسران.**

《٨٦》 ونزلَ في رهطٍ أسلموا، ثم رجعُوا عن الإسلام، ولَحِقُوا بمكةَ:

﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ والواوُ في ﴿وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ﴾: للحال، وقدْ: مضمرة؛ أي: كفروا وقد شهدوا أن الرسول؛ أي: محمداً حقٌّ، أو: **للعطفِ على ما في** (إيمانهم) من معنى الفعلِ؛ لأن معناه: بعدَ أن آمنوا، ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ **أي: الشواهدُ**، كالقرآن، وسائرِ المعجزات، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ **أي: ما داموا مختارين الكفرَ، أو: لا يهديْهم طريقَ الجنةِ إذا ماتُوا كفاراً.**

---

(١) حرف الاستعلاء: على، وحرف الانتهاء: إلى.

(٢) ذكر هذا الفرقَ الراغبُ الأصفهاني في «تفسيره» (٢/ ٦٨٩).

أُولَٰئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾

«٨٧» ﴿أُولَٰئِكَ﴾: مبتدأٌ، ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾: مبتدأٌ ثانٍ، خبرُه: ﴿أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ﴾ وهما: خبرُ (أولئك)، أو: (جزاؤهم): بدلُ الاشتمالِ من (أولئك)، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

«٨٨» ﴿خَٰلِدِينَ﴾: حالٌ من الهاءِ والميمِ في (عليهم)، ﴿فِيهَا﴾: في اللعنةِ، ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

«٨٩» ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾الكفرِ العظيمِ والارتدادِ، ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾ ما أفسدُوا، أو: دخلوا في الصلاح[1]، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لكفرِهم، ﴿رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ بهم.

«٩٠» ونزل في اليهود:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بعيسى والإنجيل بعدَ إيمانهم بموسى والتوراة، ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا﴾ بمحمد ﷺ والقرآنِ، أو: كفروا برسول الله بعد ما كانوا به مؤمنين قبلَ مبعثِه، ثم ازدادوا كفراً بإصرارهم على ذلك، وطعنِهم فيه في كلِّ وقتٍ، أو: نزل في الذين ارتدوا ولحقوا بمكةَ، وازديادُهم الكفر أن قالوا: نقيمُ بمكةَ نتربصُ بمحمد ريبَ المنونِ، ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ أي: إيمانُهم عند البأسِ؛ لأنهم لا يتوبون إلا عند الموت، قال الله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥]، ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾﴾.

«٩١» ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ﴾ الفاءُ في (فلن يقبل): يؤذنُ بأن الكلام بنيَ على الشرط والجزاء، وأن سبب امتناعِ قبولِ الفديةِ هو الموتُ على الكفرِ، وتركُ الفاءِ فيما تقدمَ يشعرُ بأن الكلام مبتدأٌ وخبرٌ، ولا دليلَ فيه على التسبيب، ﴿ذَهَبًا﴾: تمييزٌ، ﴿وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ أي: فلن يقبلَ من أحدهم فديةٌ ولو افتدى بملءِ الأرض ذهباً، قال عليه السلام: «يُقالُ للكافر يومَ القيامةِ: لو كان لك ملءُ الأرضِ ذهباً أكنت مفتدياً به؟ فيقول: نعم،

---

(١) فالهمزة في (أصلحوا): إما للتعدية؛ فالمعنى: أصلحوا ما أفسدُوا، أو: للدخول في الشيء؛ فالمعنى: دخلوا في الصلاح.

﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾ ....

فيقال له: لقد سُئلتَ أيسرَ من ذلك»[1]، قيل: الواوُ لتأكيد النفي، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: مؤلم، ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾: معينين دافعين للعذاب.

《٩٢》 ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ﴾: لن تبلغوا حقيقةَ البِرِّ، أو: لن تكونوا أبراراً، أو: لن تنالوا برَّ الله، وهو ثوابُه ﴿حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾: حتى تكونَ نفقتُكم من أموالكم التي تُحبونها وتُؤثرونَها.

وعن الحسن: كلُّ من تصدقَ ابتغاءَ وجهِ اللهِ بما يحبُّه ولو تمرةً.. فهو داخلٌ في هذه الآية، قال الواسطي: الوصولُ إلى البرِّ بإنفاق بعضِ المحابِّ، وإلى الربِّ بالتخلي عن الكونين، وقال أبو بكر الوراق: لن تنالوا بِرِّي بكم إلا بِبِرِّكُم بإخوانكم، والحاصلُ: أنه لا وصولَ إلى المطلوب إلا بإخراج المحبوبِ، وعن عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ: أنه كان يشتري أعدالَ السُّكَّرِ ويتصدقُ بها، فقيل له: لِمَ لا تتصدقُ بثمنِها؟ قال: لأن السُّكَّرَ أحبُّ إلي، فأردتُ أن أنفقَ مما أحبُّ.

﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾ أي: هو عليم بكلِّ شيءٍ تنفقونه، فمجازيكم بحسَبِهِ، و(مِن) الأولى: للتبعيض؛ لقراءةِ عبد الله: ﴿حتى تنفقوا بعضَ ما تحبُّون﴾[2]، والثانيةُ: للتبيين؛ أي: مِن أيِّ شيءٍ كان الإنفاق؛ طَيِّبٌ تُحبونَه، أو خبيثٌ تكرهونَه.

《٩٣》 ولما قالت اليهود للنبي عليه السلام: إنك تدعي أنك على ملة إبراهيمَ وأنت تأكلُ لحومَ الإبلِ وألبانَها، فقال عليه السلام: «كان ذلك حلالاً لإبراهيمَ، فنحن نُحِلُّهُ»، فقالت اليهود: إنها لم تزلْ محرمةً في ملة إبراهيمَ ونوحٍ عليهما السلام.. نزل تكذيباً لهم[3]:

﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ﴾ أي: المطعوماتِ التي فيها النِّزاعُ؛ فإن منها ما هو حرام قبلَ ذلك؛ كالميتة والدم، ﴿كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: حلالاً، وهو مصدرٌ؛ يقال: حلَّ الشيءُ حِلّاً؛ ولذا استوى في صفتِه المذكرُ والمؤنثُ، والواحدُ والجمعُ، قال الله تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ [الممتحنة: ١٠]، ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ﴾ أي: يعقوبُ ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ وبالتخفيف: مكيٌّ وبصريٌّ[4]، وهو لحومُ الإبلِ وألبانُها، وكانا أحبَّ الطعامِ إليه، والمعنى: أن المطاعم كلَّها لم تزل

---

(١) رواه البخاري (٦٥٣٨) ومسلم (٢٨٠٥) عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

(٢) انظر «تفسير الرازي» (٨/ ٢٩٠).

(٣) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص ١١٨).

(٤) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٦٨).

﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ ....﴾

حلالاً لبني إسرائيلَ من قبل إنزال التوراةِ سوى ما حرم إسرائيلُ على نفسه، فلما نزلت التوراة على موسى.. حُرِّمَ عليهم لحومُ الإبل وألبانُها؛ لتحريم إسرائيلَ ذلك على نفسه، ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾ أُمِرَ بأن يُحاجَّهم بكتابهم، ويُبكِّتَهم بما هو ناطقٌ به؛ من أن تحريم ما حُرِّمَ عليهم تحريمٌ حادثٌ بسبب ظلمِهم وبغْيِهم، لا تحريمٌ قديمٌ كما يدَّعونه، فلم يجسروا على إخراج التوراةِ، وبُهِتُوا، وفيه دليلٌ بيِّنٌ على صدق النبيِّ عليه السلام، وعلى جواز النسخِ الذي يُنكرونه.

《٩٤》 ﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ بزعمه أن ذلك كان محرماً في ملةِ إبراهيمَ ونوح عليهما السلام ﴿مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾: من بعدِ ما لَزِمَهم من الحجةِ القاطعةِ ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾﴾: المكابرون، الذين لا يُنصفون من أنفسهم، ولا يلتفتون إلى البينات.

《٩٥》 ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ في إخباره أنه لم يُحَرِّمْ، وفيه تعريضٌ بكذبِهم؛ أي: ثبتَ أن الله صادقٌ فيما أنزل، وأنتم الكاذبون، ﴿فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وهي ملةُ الإسلامِ التي عليها محمدٌ ﷺ ومَن آمن معه حتى تتخلصوا من اليهودية التي وَرَّطَتْكم في فسادِ دينِكم ودنياكم؛ حيث اضْطَرَّتْكم إلى تحريف كتابِ اللهِ لِتَسْوِيَةِ أغراضِكم، وأَلْزَمَتْكم تحريمَ الطيباتِ التي أحلَّها اللهُ لإبراهيمَ ولمن تبعَه، ﴿حَنِيفًا﴾: حالٌ من إبراهيمَ؛ أي: مائلاً عن الأديان الباطلةِ، ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾.

《٩٦》 ولما قالت اليهودُ للمسلمين: قِبْلَتُنا قبلَ قِبْلَتِكم.. نزل:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ والواضعُ هو اللهُ عزَّ وجلَّ؛ ومعنى: وضعَ اللهُ بيتاً للناس: أنه جعله مُتعبداً لهم، فكأنه قال: إن أول متعبَّدٍ للناس الكعبةُ، وفي الحديث: «أن المسجد الحرامَ وضعَ قبلَ بيتِ المقدسِ بأربعين سنةً»[1]، قيل: أولُ مَن بناه إبراهيمُ، وقيل: هو أول بيتٍ حُجَّ بعد الطُّوفانِ، وقيل: هو أول بيتٍ ظهرَ على وجه الماءِ عند خلق السماء والأرضِ، وقيل: هو أول بيتٍ بناه آدمُ عليه السلام في الأرض، وقولُه: (وضع للناس): في موضعِ جرٍّ، صفةٌ لـ (بيت)، والخبرُ: ﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ أي: لَلْبَيْتُ الذي ببكةَ، وهي عَلَمٌ للبلد الحرامِ، ومكةُ وبكَّةُ: لغتان فيه، وقيل: مكةُ: البلدُ، وبكَّةُ: موضعُ المسجدِ، وقيل: اشتقاقُها من: بَكَّهُ: إذا زَحَمَهُ؛ لازدحامِ

---

(١) رواه البخاري (٣٣٦٦) عن سيدنا أبي ذر رضي الله عنه.

﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ ....

الناسِ فيها، أو: لأنها تَبُكُّ أعناقَ الجبابرةِ؛ أي: تدقُّها، لم يَقصِدْها جبارٌ إلا قَصَمَه اللهُ، ﴿مُبَارَكًا﴾: كثيرَ الخيرِ لِما يحصلُ للحاجِ والمعتمِرِ من الثوابِ وتكفيرِ السيئاتِ، ﴿وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ لأنه قبلتُهم، ومتعبدُهم، و(مباركاً) و(هدىً): حالانِ من الضمير في (وضع).

《٩٧》 ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾: علاماتٌ واضحاتٌ لا تلتبسُ على أحدٍ، ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾: عطفُ بيانٍ لقوله: (آياتٌ بيناتٌ)، وصحَّ بيانُ الجماعةِ بالواحدِ؛ لأنه وَحْدَهُ بمنزلة آياتٍ كثيرةٍ؛ لظهور شأنِه، وقوةِ دلالتِه على قدرةِ اللهِ تعالى، ونبوةِ إبراهيمَ عليه السلام؛ من تأثيرِ قدمِه في حجرٍ صَلْدٍ، أو: لاشتمالِه على آياتٍ؛ لأن أثرَ القدمِ في الصخرة الصَّماء آيةٌ، وغَوْصَهُ فيها إلى الكعبين آيةٌ، وإلَانةَ بعضِ الصخرةِ دونَ بعضٍ آيةٌ، وإبقاؤُه دون سائر آياتِ الأنبياءِ عليهم السلام آيةٌ لإبراهيمَ خاصةً.

على أنَّ ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾: عطفُ بيانٍ لـ(آياتٌ) وإن كان جملةً ابتدائيةً أو شرطيةً.. من حيث المعنى؛ لأنه يدلُّ على أَمْنِ داخلِه، فكأنه قيل: فيه آياتٌ بيناتٌ مقامٌ لإبراهيمَ، وأمنُ داخلِه، والاثنانِ في معنى الجمعِ.

ويجوز أن يُذكر هاتانِ الآيتانِ ويُطوَى ذكرُ غيرهما؛ دلالةً على تكاثرِ الآياتِ، كأنه قيل: فيه آياتٌ بيناتٌ مقامُ إبراهيمَ، وأمنُ مَن دخلَه، وكثيرٌ سواهما، نحوُ انْمِحاقِ الأحجارِ مَعَ كثرةِ الرماةِ[١]، وامتناعِ الطيرِ من العُلُوِّ عليه[٢]، وغيرِ ذلك.

ونحوُه في طيِّ الذِّكرِ: قولُه عليه السلام: «حُببَ إليَّ من دنياكم ثلاثٌ؛ الطيبُ، والنساءُ، وقرةُ عيني في الصلاة»[٣]، فـ(قرةُ عيني): ليس من الثلاثِ، بل هو ابتداءُ كلامٍ؛ لأنها ليست من الدنيا، والثالثُ يُطوَى، وكأنه عليه السلام تركَ ذكرَ الثالثِ؛ تنبيهاً على أنه لَمْ يكن من شأنه أن يذكر شيئاً من الدنيا، فذكرَ شيئاً هو من الدين.

---

(١) الانمحاق: الذهاب والفناء؛ يقصدُ أن الأحجار تفنى في رمي الجمار في الحج مع كثرة الرماة، ولكن المعلوم أن الناس هم يُنظِّفون المرمَى من الحصى.

(٢) الواقع المشاهدُ مرورُ الطير فوق الكعبة.

(٣) رواه النسائي في «السنن الكبرى» (٨٨٣٦) عن سيدنا أنس رضي الله عنه، دون «ثلاث»، قال السخاوي في «المقاصد الحسنة» (ص٢٩٣): وما رأيتها - أي: كلمة ثلاث - في شيء من طرق هذا الحديث بعد مزيد التفتيش.

....

وقيل في سببِ هذا الأثرِ: أنه لما ارتفعَ بُنيانُ الكعبةِ وضعفَ إبراهيمُ عليه السلام عن رفعِ الحجارةِ.. قام على هذا الحجرِ، فغاصت فيه قدماه، وقيل: إنه جاء زائراً من الشام إلى مكةَ، فقالت له امرأةُ إسمعيلَ عليه السلام: انزلْ حتى تغسلَ رأسَكَ، فلم ينزل، فجاءته بهذا الحجرِ فوضعتْه على شقِّهِ الأيمنِ، فوضعَ قدمَه عليه حتى غسلتْ شقَّ رأسِه، ثم حوَّلَتْهُ إلى شقِّه الأيسرِ حتى غسلت الشِّقَّ الآخرَ، فبقي أثرُ قدميه عليه.

وأمانُ مَن دخلَه بدعوةِ إبراهيمَ عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا﴾ [إبراهيم: ٣٥]، وكان الرجل لو جَنى كلَّ جنايةٍ ثم التجأَ إلى الحرم.. لم يُطْلَبْ، وعن عمر رضي الله عنه: لو ظَفِرْتُ بقاتلِ الخطّاب.. ما مسستُه حتى يخرجَ منه[١]، ومن لزمه القتلُ في الحِلِّ بقَوَدٍ أو رِدَّةٍ أو زناً فالتجأَ إلى الحرم.. لم يُتعرض له، إلا أنه لا يُؤوَى، ولا يُطعمُ، ولا يُسقَى، ولا يُبايعُ حتى يُضطرَّ إلى الخروج[٢].

وقيل: آمناً من النار؛ لقوله عليه السلام: «من مات في أحد الحرمين.. بُعثَ يومَ القيامةِ آمناً»[٣]، وعنه عليه السلام: «الحَجُونُ والبقيعُ يؤخذُ بأطرافهما ويُنثرانِ في الجنة»[٤]، وهما مقبَرتا مكةَ والمدينةِ، وعنه عليه السلام: «من صبر على حرِّ مكةَ ساعةً من نهار.. تباعدت منه جهنمُ مسيرةَ مئتي عامٍ»[٥].

﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حَجُّ الْبَيْتِ﴾ أي: استقرَّ له عليهم فرضُ الحجِّ، ﴿حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ﴾: كوفيٌّ غيرَ أبي بكرٍ[٦]، وهو: اسمٌ، وبالفتح: مصدرٌ، وقيل: هما لغتان في مصدرِ: حجَّ، ﴿مَنِ﴾: في موضع جرٍّ على أنه بدلُ البعضِ من الكلِّ، ﴿ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ﴾: فسَّرها النبي عليه السلام بالزاد

---

(١) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٥/ ١٥٣).

(٢) انظر «حاشية ابن عابدين» (٦/ ٥٤٧).

(٣) رواه الطبراني في «المعجم الصغير» (٢/ ٨٥) عن سيدنا جابر رضي الله عنه، وانظر «تخريج أحاديث الكشاف» (١/ ١٩٧).

(٤) ذكره الزمخشري في «الكشاف» (١/ ٤١٧)، وقال الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (١/ ١٩٩): غريب جداً.

(٥) رواه العقيلي في «الضعفاء الكبير» (١/ ٢٢٥) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً، وقال: هذا حديث باطل لا أصل له.

(٦) انظر «البدور الزاهرة» (ص٦٨).

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾﴾ ....

والراحلة[1]، والضميرُ في (إليه): للبيت، أو: للحج، وكلُّ مَأتىً إلى الشيءِ.. فهو سبيلٌ إليه[2].

ولما نزل قولُه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ جمعَ رسولُ الله ﷺ أهلَ الأديانِ كلَّهم فخطبهم فقال: «إن الله كتب عليكم الحج فحُجُّوا»، فآمنت به ملةٌ واحدةٌ وهم المسلمون، وكفرت به خمسُ مِلَلٍ قالوا: لا نؤمنُ به، ولا نصلي إليه، ولا نحجُّه فنزل[3]:

﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي: جحدَ فرضيةَ الحجِّ، وهو قول ابنِ عباسٍ، والحسنِ، وعطاءٍ[4]، ويجوز أن يكون من الكُفرانِ؛ أي: ومن لم يشكرْ ما أنعمتُ عليه من صحةِ الجسمِ، وسَعَةِ الرزقِ ولم يحجَّ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾: مستغنٍ عنهم وعن طاعتِهم.

وفي هذه الآية أنواعٌ من التأكيدِ والتشديدِ:

منها: اللامُ وعلى؛ أي: أنه حقٌّ واجبٌ لله في رِقاب الناسِ.

ومنها: الإبدالُ، ففيه تثنيةٌ للمرادِ وتكريرٌ له؛ ولأن الإيضاحَ بعد الإبهامِ، والتفصيلَ بعد الإجمالِ إيرادٌ له في صورتين مختلفتين.

ومنها: قولُه: (ومن كفر) مكانَ (ومن لم يحجَّ) تغليظاً على تاركِي الحجِّ.

ومنها: ذكرُ الاستغناءِ، وذلك دليلٌ على المقتِ والسخطِ.

ومنها: قولُه: (عن العالمين) وأنْ لم يقل: عنه، وما فيه من الدلالة على الاستغناءِ عنه ببرهانٍ؛ لأنه إذا استغنى عن العالمين.. تناولَه الاستغناءُ لا محالةَ، ولأنه يدلُّ على الاستغناءِ الكاملِ، فكانَ أدلَّ على عِظَمِ السخطِ الذي وقعَ عبارةً عنه.

《٩٨》 ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾﴾ الواوُ: للحال،

---

(١) روى الترمذي (٨١٣)، وابن ماجه (٢٨٩٦) عن سيدنا ابن عمر رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ما يوجب الحج؟ قال: «الزاد والراحلة».

(٢) أي: كل ما تأتي به إلى الشيء من الأسباب.. فهو سبيل إليه. انظر «فتوح الغيب» (٤/ ١٩٢).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٦/ ٤٩) عن الضحاك.

وروى مسلم (١٣٣٧) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ، فقال: «أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج، فحجوا».

(٤) روى أقوالهم الطبري في «تفسيره» (٦/ ٤٧).

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ ....

والمعنى: لِمَ تكفرون بآيات الله الدالةِ على صدقِ محمد ﷺ والحالُ أن الله شهيدٌ على أعمالكم فيجازيكم عليها؟

«٩٩» ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ﴾ الصدُّ: المنعُ، ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ﴾: عن دينِ حقٍّ عُلِمَ أنه سبيل الله التي أمرَ بسلوكها وهو الإسلام، وكانوا يمنعون من أرادَ الدخولَ فيه بجَهدِهم، ومحلُّ ﴿تَبْغُونَهَا﴾: تطلبون لها: نصبٌ على الحال، ﴿عِوَجًا﴾: اعوجاجاً وميلاً عن القصد والاستقامةِ بتغييرِكم صفةَ رسولِ الله ﷺ عن وجهها، ونحوِ ذلك، ﴿وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾ أنها سبيلُ الله التي لا يصدُّ عنها إلا ضالٌّ مضلٌّ، ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ من الصدِّ عن سبيلِه، وهو وعيدٌ شديدٌ.

«١٠٠» ثم نهى المؤمنين عن اتباع هؤلاء الصادِّين عن سبيله بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾.

قيل: مرَّ شاسُ بنُ قيسٍ اليهوديُّ على نفرٍ من الأنصار من الأوس والخزرجِ في مجلسٍ لهم يتحدثون، فغاظَه تآلفُهم، فأمرَ شاباً من اليهود أن يُذَكِّرَهم يومَ بُعاثٍ لعلهم يَغضبون، وكان يوماً اقتتلت فيه الأوسُ والخزرجُ، وكان الظَّفَرُ فيه للأوس، ففعلَ، فتنازعَ القومُ عند ذلك وقالوا: السلاحَ السلاحَ، فبلغَ النبيَّ عليه السلام، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين والأنصار، فقال: «أتَدْعُونَ الجاهليةَ وأنا بين أظهُرِكُم بعدَ إذْ أكرمكم اللهُ بالإسلامِ وألَّفَ بينكم؟» فعرفَ القومُ أنها نَزْغةٌ من الشيطان، فألقَوُا السلاحَ، وعانقَ بعضُهم بعضاً باكين، فنزلت الآيةُ[1].

«١٠١» ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ معنى الاستفهام فيه: الإنكارُ والتعجيبُ؛ أي: من أين يتطرقُ إليكم الكفرُ ﴿وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾: والحالُ أن آياتِ الله وهي القرآنُ المعجزُ تتلَى عليكم على لسان الرسولِ غضَّةً طريةً[2]، ﴿وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾: وبين أظهُرِكم رسولُ الله، ينبهُكم ويعظُكم

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٦/ ٥٥)، وقال الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (١/ ٢٠٩) بعد أن ذكر من رووه: وكلهم قالوا فيه: «أبِدَعوى الجاهلية»، ليس عند أحد منهم: أتَدْعُون. ودعوى الجاهلية: قولهم: يا لفلان، كانوا يدعون بعضهم بعضاً عند الأمر الحادثِ الشديدِ.

(٢) الغَضُّ: الطري الذي لم يتغير.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ ....

ويُزيحُ شُبَهَكُم، ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ﴾: ومن يتمسكْ بدينِه، أو بكتابِه، أو: هو حثٌّ لهم على الالتجاءِ إليه في دفع شرورِ الكفارِ ومَكايِدِهم، ﴿فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾: أُرشِدَ إلى الدين الحقِّ، أو: ومن يجعلْ ربَّه ملجأً ومفزعاً عند الشُّبَهِ.. يحفظْه عن الشُّبَهِ.

《١٠٢》 ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾: واجبَ تقواه وما يحقُّ منها، وهو القيامُ بالمَواجبِ، والاجتنابُ عن المحارم، وعن عبد الله: هو أن يطاعَ فلا يُعصى، ويُشكرَ فلا يكفرَ، ويُذكرَ فلا يُنسى[1]، أو: هو ألا تأخذَه في الله لومةُ لائم، ويقومَ بالقسطِ ولو على نفسه، أو ابنه، أو أبيه، وقيل: لا يَتَّقي اللهَ عبدٌ حقَّ تُقاتِه حتى يَخْزُنَ لسانَه، والتقاةُ: مِن: اتقى، كالتُّؤدةِ مِن: اتَّأدَ، ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾: ولا تكونُنَّ على حالٍ سوى حالِ الإسلامِ إذا أدرككُم الموتُ.

《١٠٣》 ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾: تمسكوا بالقرآن؛ لقوله عليه السلام: «القرآنُ حبلُ اللهِ المتينُ، لا تنقضي عجائبُه، ولا يَخْلَقُ عن كثرة الرَّدِّ، من قال به.. صدقَ، ومن عملَ به.. رَشَدَ، ومن اعتصمَ به.. هُدِيَ إلى صراط مستقيم»[2]، ﴿جَمِيعًا﴾: حالٌ من ضمير المخاطَبين، وقيل: تمسكوا بإجماعِ الأمةِ؛ دليلُه: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ أي: ولا تتفرقوا؛ يعني: ولا تفعلُوا ما يكون عنه التفرقُ ويزول معه الاجتماعُ، أو: ولا تتفرقوا عن الحقِّ بوقوع الاختلافِ بينكم كما اختلف اليهودُ والنصارَى، أو: كما كنتم متفرقين في الجاهليةِ يحاربُ بعضُكم بعضاً.

﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ كانوا في الجاهلية بينهم العداوات والحروبُ، فألَّفَ اللهُ بين قلوبهم بالإسلام، وقذفَ في قلوبهم المحبةَ فتحابُّوا وصارُوا إخواناً، ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾: وكنتم مُشْفِين على أن تقعُوا في نارِ جهنمَ لِمَا كنتم عليه من الكفر، ﴿فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ بالإسلام، وهو ردٌّ على المعتزلة، فعندهم: هم الذين يُنقذون أنفسَهم، لا اللهُ تعالى، والضميرُ: للحُفرةِ، أو: للنارِ، أو: للشَّفا، وأُنِّثَ؛ لإضافتِه إلى الحفرة، وشفا الحفرةِ: حرفُها، ولامُها: واوٌ، فلهذا يُثَنَّى شَفَوانِ، ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

---

(١) رواه النسائي في «السنن الكبرى» (١١٨٤٧) من قول سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) رواه الترمذي (٢٩٠٦) عن سيدنا علي رضي الله عنه، وانظر «تخريج أحاديث الكشاف» (١/ ٢١١).

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦)﴾ ..

مثلَ ذلك البيانِ البليغِ ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي: القرآنَ الذي فيه أمرٌ ونهيٌ، ووعدٌ ووعيدٌ؛ ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣)﴾: لتكونوا على رجاءِ الهدايةِ، أو: لتهتدوا به إلى الصوابِ وما ينال به الثواب.

《١٠٤》 ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾: بما استحسنه الشرعُ والعقلُ، ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾: عما استقبحه الشرعُ والعقلُ، أو: المعروفُ: ما وافق الكتابَ والسنةَ، والمنكرُ: ما خالفهما، أو: المعروفُ: الطاعات، والمنكرُ: المعاصي، والدعاءُ إلى الخير عامٌّ في التكاليف من الأفعال والتروكِ، وما عطفَ عليه خاصٌّ، و(من): للتبعيض؛ لأن الأمرَ بالمعروفِ، والنهيَ عن المنكر من فروض الكفايات؛ ولأنه لا يصلحُ له إلا من علمَ المعروف والمنكرَ، وعلمَ كيف يُرتبُ الأمرُ في إقامتِه؛ فإنه يَبدأُ بالسهل، فإن لم ينفع.. تَرقّى إلى الصعبِ، قال الله تعالى: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩] ثم قال: ﴿فَقَاتِلُوا﴾ [الحجرات: ٩]، أو: للتبيين؛ أي: وكونوا أمةً تأمرون، كقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾، ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤)﴾ أي: هم الأَخِصّاءُ بالفلاح الكاملِ، قال عليه السلام: «من أمر بالمعروفِ، ونهى عن المنكر.. فهو خليفةُ الله في أرضه، وخليفةُ رسولِه، وخليفةُ كتابِه»(١)، وعن علي رضي الله عنه: أفضلُ الجهادِ الأمرُ بالمعروفِ، والنهيُ عن المنكر(٢).

《١٠٥》 ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا﴾ بالعداوة، ﴿وَاخْتَلَفُوا﴾ في الديانةِ، وهم اليهود والنصارى، فإنهم اختلفوا، وكفَّر بعضُهم بعضاً ﴿مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ الموجبةُ للاتفاق على كلمة واحدةٍ، وهي كلمة الحقِّ، ﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥)﴾.

《١٠٦》 ونصبُ ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ أي: وجوهُ المؤمنين: بالظرف، وهو ﴿لَهُمْ﴾(٣)، أو بـ﴿عَظِيمٌ﴾، أو بـ: اذكروا، ﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ أي: وجوهُ الكافرين، والبياضُ من النور، والسوادُ

---

(١) رواه نعيم بن حماد في «الفتن» (١/ ١٠٣).

(٢) روى أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٧٤) عن سيدنا علي رضي الله عنه مرفوعاً: «للجهاد أربع شعب: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصدق في المواطن، وشنآن الفاسقين».

(٣) أيْ: بالاستقرار الذي تعلق به (لهم)، والتقدير: وأولئك استقر لهم عذاب يومَ تبيض.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ....

من الظلمة، ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ فيقال لهم: ﴿أَكَفَرْتُم﴾ فحذف الفاءُ والقولُ جميعاً للعلم به، والهمزة: للتوبيخ والتعجيبِ من حالهم، ﴿بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ يوم الميثاقِ[1]، فيكون المراد به جميعَ الكفار، وهو قول أُبيٍّ[2]، وهو الظاهر، أو: هم المرتدون، أو: المنافقون؛ أي أكفرتم باطناً بعد إيمانكم ظاهراً، أو: أهلُ الكتاب، وكفرُهم بعد الإيمان: تكذيبُهم برسول الله بعد اعترافهم به قبلَ مجيئه، ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾﴾.

﴿١٠٧﴾ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ﴾: ففي نعمته، وهي: الثواب المخلَّدُ، ثم استأنف فقال: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾: لا يظعَنون عنها، ولا يموتون.

﴿١٠٨﴾ ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ الواردةُ في الوعد والوعيدِ وغيرِ ذلك ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ ملتبسةً ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ والعدلِ من جزاءِ المحسنِ والمسيءِ، ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ أي: لا يشاءُ أن يظلمَ هو عبادَه، فيأخذَ أحداً بغير جُرْمٍ، أو يزيدَ في عقابِ مجرمٍ، أو ينقُصَ من ثواب محسنٍ.

﴿١٠٩﴾ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾﴾ فيجازي المحسنَ بإحسانه، والمسيءَ بإساءته، ﴿تَرْجِعُ﴾: شاميٌّ وحمزةُ وعليٌّ[3].

﴿١١٠﴾ كان: عبارةٌ عن وجود الشيءِ في زمانٍ ماضٍ على سبيل الإبهام، ولا دليلَ فيه على عدمٍ سابقٍ، ولا على انقطاعٍ طارئٍ، ومنه قولُه:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ كأنه قيل: وُجِدْتُم خيرَ أمةٍ، أو: كنتم في علم الله، أو: في اللوحِ خيرَ أمةٍ، أو: كنتم في الأمم قبلَكم مذكورين بأنكم خيرُ أمةٍ موصوفين به، ﴿أُخْرِجَتْ﴾: أُظهرت ﴿لِلنَّاسِ﴾ اللامُ: يتعلقُ بـ (أخرجت)، ﴿تَأْمُرُونَ﴾: كلامٌ مستأنَفٌ بُيِّنَ به كونُهم خيرَ أمة، كما تقول: زيد كريمٌ، يطعم الناسَ، ويكسوهم، بَيَّنْتَ بالإطعامِ والإلباسِ وجهَ الكرمِ فيه، ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: بالإيمان وطاعةِ الرسولِ، ﴿وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾: عن الكفرِ، وكلِّ محظور،

---

(١) أي: حين قال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٧/ ٩).

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص٤٨).

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ....﴾

﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾: وتدومون على الإيمان به، أو: لأن[1] الواوَ لا تقتضِي الترتيبَ[2]، ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ بمحمد عليه السلام ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾: لكان الإيمانُ خيراً لهم مما هم فيه؛ لأنهم إنما آثروا دينَهم على دين الإسلام حبّاً للرياسةِ، واستتباعِ العوامِّ، ولو آمنوا.. لكان خيراً لهم من الرياسة، والأتباعِ، وحظوظِ الدنيا، مع الفوزِ بما وُعدُوه على الإيمان به من إيتاء الأجرِ مرتين، ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: كعبدِ اللهِ بنِ سلامٍ وأصحابِه، ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾: المتمردون في الكفر.

《١١١》 ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾: إلا ضرراً مقتصراً على أذىً بقولٍ؛ من طعنٍ في الدين، أو تهديدٍ، أو نحو ذلك، ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ منهزمين، ولا يضرُّوكم بقتلٍ، أو أسرٍ، ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾﴾: ثم لا يكنْ لهم نصرٌ من أحد، ولا يُمنعون منكم، وفيه تثبيتٌ لمن أسلم منهم؛ لأنهم كانوا يؤذونهم بتوبيخِهم وتهديدِهم، وهو ابتداءُ إخبارٍ معطوفٌ على جملة الشرط والجزاءِ، وليس بمعطوفٍ على (يولوكم)؛ إذ لو كان معطوفاً عليه.. لقيل: (ثم لا ينصروا)، وإنما استؤنفَ؛ ليؤذِنَ أن الله لا ينصرهم، قاتلُوا أو لم يقاتِلُوا، وتقديرُ الكلامِ: أُخبرُكم أنهم إن يقاتِلُوكم.. ينهزموا، ثم أخبرُكم أنهم لا ينصرون، و(ثم): للتراخي في المرتبة؛ لأن الإخبارَ بتسليط الخِذلانِ عليهم أعظمُ من الإخبارِ بتوليتِهم الأدبارَ.

《١١٢》 ﴿ضُرِبَتْ﴾: أُلزمت ﴿عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ أي: على اليهودِ ﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟﴾: وجدُوا ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾: في محلِّ النصبِ على الحالِ، والباءُ: متعلقةٌ بمحذوفٍ تقديرُه: إلا معتصمين أو متمسكين بحبلٍ من الله، ﴿وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ والحبلُ: العهدُ والذمةُ؛ والمعنى: ضربت عليهم الذلةُ في كلِّ حالٍ، إلا في حال اعتصامِهم بحبلِ اللهِ، وحبلِ الناسِ؛ يعني: ذمةَ الله وذمةَ

---

(١) في الأصل: (ولأن)، وما أثبته من المطبوع (١/ ٢٨٩) وهو أولى.

(٢) أي: أن قوله: (تؤمنون بالله) ذكر بعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيكون المراد المداومةَ على الإيمان، فإن أريد أصلُ الإيمان.. فهو سابق على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يضرُّ تأخيرُه في الذكر؛ لأن الواو ليست للترتيب، ويكون تقديمهما عليه لأنهما الأهمُّ في هذا المقام المسوق للتنويه بفضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الحاصلة من قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾. انظر «التحرير والتنوير» (٤/ ٥٠).

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾ ....

المسلمين؛ أي: لا عزَّ لهم قطُّ إلا هذه الواحدةُ، وهي: التجاؤهم إلى الذمةِ لمَا قبلُوه من الجزية، ﴿وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾: استوجبوه، ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾: الفقرُ؛ عقوبةً لهم على قولهم: إن الله فقير ونحن أغنياء، أو: خوفُ الفقر مع قيامِ اليسارِ، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ (ذلك): إشارةٌ إلى ما ذكر؛ من ضربِ الذلةِ والمسكنةِ والبوءِ بغضب الله؛ أي: ذلك كائنٌ بسبب كفرهم بآيات الله، وقتلِهم الأنبياءَ، ثم قال: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾ أي: ذلك الكفرُ، وكذا القتلُ كائنٌ بسبب عصيانِهم لله، واعتدائِهم لحدوده.

«١١٣» ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾: ليس أهلُ الكتاب مستوين، ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾: كلامٌ مستأنفٌ لبيان قولِه: (ليسوا سواء)، كما وقع قولُه: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بياناً لقوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾، ﴿أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾: جماعةٌ مستقيمةٌ عادلةٌ؛ من قولك: أقمتُ العودَ فقامَ؛ أي: استقام، وهم الذين أسلمُوا منهم، ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ﴾: القرآنَ، ﴿آنَاءَ اللَّيْلِ﴾: ساعاتِه، واحدُها: إِنىً، كمِعىً، أو: إِنْوٌ، كَقِنْوٍ، أو: إِنْيٌ، كنِحْيٍ[1]، ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾﴾: يصلون، قيل: يريدُ صلاةَ العشاءِ؛ لأن أهلَ الكتاب لا يصلونها، وقيل: عُبِّرَ عن تهجدهم بتلاوة القرآنِ في ساعاتِ الليلِ مع السجود.

«١١٤» ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾: بالإيمان وسائرِ أبوابِ البرِّ، ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾: عن الكفرِ ومنهياتِ الشرعِ، ﴿وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾: يبادِرون إليها خشيةَ الفَوتِ، وقولُه: (يتلون) و(يؤمنون): في محلِّ الرفعِ، صفتانِ لـ (أمةٌ) أي: أمةٌ قائمةٌ تالون مؤمنون، ووصفَهم بخصائصَ ما كانت في اليهودِ؛ من تلاوةِ آياتِ الله بالليلِ ساجدين، ومن الإيمان بالله؛ لأن إيمانهم به كَلَا إيمانٍ، لإشراكِهم به عُزيراً، وكفرِهم ببعضِ الكتبِ والرسلِ، ومن الإيمان باليوم الآخر؛ لأنهم يصفونه بخلاف صفتِه، ومن الأمرِ بالمعروف والنهيِ عن المنكر؛ لأنهم كانوا مداهِنين، ومن المسارعةِ في الخيراتِ؛ لأنهم كانوا متباطئين عنها، غيرَ راغبين فيها، والمسارعةُ في الخير: فَرْطُ الرغبةِ فيه؛ لأن مَن رغبَ في الأمر.. سارعَ بالقيام به، ﴿وَأُولَئِكَ﴾ الموصوفون بما وصفُوا به ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾: من المسلمين، أو: من جملة الصالحين، الذين صَلُحت أحوالُهم عندَ الله ورضيَهم.

---

(١) القِنْوُ: غصنُ النخلة له شُعَبٌ، النِّحْيُ: وعاء من جلد.

وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ ....

«١١٥» ﴿وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾: بالياء فيهما: كوفيٌّ غيرَ أبي بكر، أبو عمرٍو: مخيَّرٌ، غيرُهم: بالتاء[1]، وعُدِّيَ (يكفروه) إلى مفعولين وإن كان: شكر، وكفر: لا يتعديان إلا إلى واحدٍ، تقول: شكر النعمةَ وكفرَها؛ لتضمنِه معنى الحِرمانِ، كأنه قيل: فلن تحرموه؛ أي: فلن تُحرموا جزاءَه، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾: بشارةٌ للمتقين بجزيل الثوابِ.

«١١٦» ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي: من عذاب الله ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾﴾.

«١١٧» ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ في المفاخرِ والمكارمِ وكسبِ الثناءِ وحسنِ الذكرِ بين الناسِ، أو: ما يتقربون به إلى الله مع كُفْرِهِمْ ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ﴾: كمثلِ مُهْلِكِ ريحٍ وهو الحرثُ، أو: مَثَلُ إهلاكِ ما ينفقون كمثلِ إهلاكِ ريحٍ ﴿فِيهَا صِرٌّ﴾: بردٌ شديدٌ، عن ابن عباس رضي الله عنهما[2]، وهو مبتدأٌ وخبرٌ: في موضع جرٍّ صفةٌ لـ(ريح)، مِثْلُ: ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بالكفرِ[3]، ﴿فَأَهْلَكَتْهُ﴾؛ عقوبةً على كفرِهم، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بإهلاكِ حرثِهم، ﴿وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾ بارتكابِ ما استحقُّوا به العقوبةَ.

أو: يكون الضمير لـ (المنفقين) أي: وما ظلمهم الله بأن لم يَقبل نفقاتِهم، ولكنهم ظلموا أنفسهم حيث لم يأتُوا بها لائقةً للقبول.

«١١٨» ونزل نهياً للمؤمنين عن مصافاةِ المنافقين[4]:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً﴾ بِطانةُ الرجلِ وَوَلِيْجَتُهُ: خَصِيْصُهُ وصَفِيُّهُ، شُبِّهَ ببطانةِ

---

(١) انظر «النشر في القراءات العشر» (٢/ ٢٤١)، وفيه أن تاء الخطاب أكثر وأشهر عن أبي عمرو.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٧/ ١٣٦).

(٣) أي: جملة (أصابت) صفة أيضاً لـ(ريح).

(٤) انظر «تفسير ابن أبي حاتم» (٣/ ٧٤٣).

﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾ ....

الثوبِ، كما يقال: فلانٌ شعاري، وفي الحديث: «الأنصار شِعار، والناسُ دِثار»[1]، ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾: من دون أبناءِ جنسِكم، وهم المسلمون، وهو صفةٌ لـ (بطانةً) أي: بطانةً كائنةً من دونكم، مجاوزةً لكم، ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾: في موضعِ النصبِ صفةٌ لـ (بطانةً) يعني: لا يُقصِّرون في فسادِ دينِكم؛ يقال: ألَا في الأمر يألُو ألْواً: إذا قَصَّرَ فيه، والخَبالُ: الفسادُ، وانتصبَ (خبالاً) على التمييزِ، أو: على حذفِ: في؛ أي: في خبالِكم، ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: عَنَتَكم، فـ (ما): مصدريةٌ، والعَنَتُ: شدةُ الضَّرَرِ والمشقةُ؛ أي: تمنَّوا أن يَضُرُّوكم في دينكم ودنياكم أشدَّ الضررِ وأبلَغَهُ، وهو مستأنفٌ على وجه التعليلِ للنهيِ عن اتخاذِهم بطانةً، كقوله: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾؛ لأنهم لا يتمالكون مع ضبطِهم أنفسَهم أن يَنْفَلِتَ من ألسنتِهم ما يُعْلَمُ به بُغْضُهُمْ للمسلمين، ﴿وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ﴾ من البُغْضِ لكم ﴿أَكْبَرُ﴾ مما بدا، ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ الدالةَ على وجوبِ الإخلاصِ في الدينِ، وموالاةِ أولياءِ اللهِ، ومعاداةِ أعدائه ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ ما بُيِّنَ لكم.

《١١٩》 ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ﴾ (ها): للتنبيهِ، و(أنتم): مبتدأٌ، و(أولاءِ): خبرُه؛ أي: أنتم أولاءِ الخاطئون في موالاةِ منافقي أهلِ الكتابِ ﴿تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾: بيانٌ لخطئِهم في موالاتِهم؛ حيث يبذلون محبتَهم لأهلِ البغضاءِ، أو: (أولاء): موصولٌ، صلتُهُ: (تحبونهم)، والواوُ في ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾: للحالِ[2]، وانتصابُها مِنْ (لا يحبونكم) أي: لا يحبونكم والحالُ أنكم تؤمنون بكتابِهم كلِّه، وهم مع ذلك يُبغضونكم، فما بالُكم تحبونهم وهم لا يؤمنون بشيءٍ من كتابِكم، وفيه توبيخٌ شديدٌ بأنهم في باطلهم أصلبُ منكم في حَقِّكِمْ، وقيل: الكتابُ للجنس، ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾: أظهرُوا كلمةَ التوحيدِ، ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ﴾: فارقُوكم، أو: خلا بعضُهم ببعضٍ ﴿عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ يُوصَفُ المغتاظُ والنادمُ بِعَضِّ الأناملِ والبَنانِ والإبهامِ، ﴿قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ﴾: دعاءٌ عليهم بأن يزدادَ غيظُهم حتى يَهلِكُوا به، والمرادُ بزيادة الغيظِ: زيادةُ ما يَغِيْظُهُمْ من قوةِ الإسلامِ، وعِزِّ أهلِه، وما لهم في ذلك من الذلِّ والخزيِ؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ

(١) رواه البخاري (٤٣٣٠) ومسلم (١٠٦١) عن سيدنا عبد الله بن زيد بن عاصم رضي الله عنهما.

(٢) إن جعلت الواو للحال.. فلا بد من تقدير مبتدأ؛ أي: وأنتم تؤمنون؛ لأن واو الحال لا تدخل على المضارع المثبت، فالأولى أن تكون عاطفة لـ (تؤمنون) على (تحبونهم). انظر «تفسير البحر المحيط» (٣/ ٤٣).

إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ....

الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾ فهو يعلمُ ما في صدور المنافقين من الحَنَقِ والبغضاءِ[1]، وما يكون منهم في حالِ خُلُوِّ بعضِهم ببعضٍ، وهو داخلٌ في جملةِ المقولِ؛ أي: أَخْبِرْهُمْ بما يُسِرُّونه من عَضِّهِمُ الأناملَ غيظاً إذا خَلَوا، وقل لهم: إن الله عليمٌ بما هو أخفَى مما تُسرونه بينكم، وهو مُضمراتُ الصدورِ، فلا تَظُنُّوا أن شيئاً من أسرارِكم يخفَى عليه، أو: خارجٌ عن المقولِ؛ أي: قل لهم ذلك يا محمدُ، ولا تتعجب من إطلاعي إياك على ما يُسرون؛ فإني أعلمُ بما هو أخفَى مِن ذلك، وهو ما أضمرُوه في صدورهم.

«١٢٠» ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ﴾: رخاءٌ وخِصْبٌ ونُصرةٌ وغنيمةٌ ﴿تَسُؤْهُمْ﴾: تُحْزِنْهُمْ إصابتُها، ﴿وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ﴾: أضدادُ ما ذكرنا، والمسُّ: مستعارٌ من الإصابةِ، فكان المعنى واحداً؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾ [التوبة: ٥٠]، ﴿يَفْرَحُوا بِهَا﴾: بإصابتها، ﴿وَإِن تَصْبِرُوا﴾ على عَداوتِهم، ﴿وَتَتَّقُوا﴾ ما نُهيتُم عنه من مُوالاتِهم، أو: وإن تصبروا على تكاليفِ الدينِ ومَشاقِّهِ، وتتقُوا اللهَ في اجتنابِكم محارمَهُ ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾: مكرُهم، وكنتُم في كَنَفِ اللهِ، وهذا تعليمٌ من الله وإرشادٌ إلى أن يُستعانَ على كيدِ العدوِّ بالصبرِ والتقوى، وقال الحكماء: إذا أردتَ أن تَكْبِتَ من يحسُدُكَ.. فازددْ فضلاً في نفسِك[2]، ﴿لا يَضِرْكُم﴾: مكيٌّ وبصريٌّ ونافعٌ[3]، مِنْ: ضارَه يَضِيْرُه؛ بمعنى: ضَرَّهُ، وهو واضحٌ، والمشكلُ: قراءةُ غيرِهم؛ لأنه جواب الشرطِ، وجوابُ الشرطِ مجزومٌ، فكان ينبغي أن يكون بفتح الراءِ كقراءةِ المفضَّلِ عن عاصمٍ[4]، إلا أن ضمةَ الراءِ؛ لإتباعِ ضمةِ الضادِ، نحوُ: مدُّ يا هذا[5]، ﴿إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُوْنَ﴾: بالتاء: سهلٌ؛ أي: من الصبرِ والتقوى وغيرِهما، ﴿مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ ففاعلٌ بكم ما أنتم أهلُه، وبالياء: غيرُه[6]؛ أي: أنه عالم بما يعملون في عداوتكم فمعاقبُهم عليه.

---

(١) الحَنَق: الحقدُ.

(٢) تكبِتُ: تُذِلُّ وتهينُ.

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٦٩).

(٤) انظر «المحرر الوجيز» (١/ ٤٩٩).

(٥) لأن القاعدة أن الفعل المضعف إذا وليه ساكن، أو لم يَلِهِ شيءٌ.. يثلثُ آخره في المضارع المجزوم والأمر، إذا كانا مضمومَيِ الفاء، نحو رُدَّ القوم، ولم يَغُضِّ الطرْفَ. انظر «شذا العرف في فن الصرف» (ص١٤٣).

(٦) انظر «الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها» (ص٥١٨)، وقراءة سهل شاذة.

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ ....

《١٢١》 ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾: واذكر يا محمدُ إذ خرجت غُدْوَةً من أهلك بالمدينة، والمراد: غُدُوُّهُ من حُجرةِ عائشةَ رضي الله عنها إلى أُحُدٍ، ﴿تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: تُنزلهم، وهو حالٌ، ﴿مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾: مواطنَ ومواقفَ، من المَيْمَنَةِ والمَيْسَرَةِ والقلبِ والجناحينِ والساقَةِ[1]، و(للقتال): يتعلقُ بـ (تبوئُ)، ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ سميعٌ لأقوالكم، ﴿عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾﴾ بنياتكم وضمائركم.

روي: أن المشركين نزلوا بأحدٍ يومَ الأربعاءِ، فاستشار رسولُ الله ﷺ أصحابَه، ودعا عبد الله بنَ أبيٍّ فاستشاره، فقال: أقم بالمدينة؛ فما خرجنا على عدوٍّ قطُّ إلا أصاب منا، وما دخلُوا علينا إلا أصبنا منهم، فقال عليه السلام: «إني رأيت في منامي بقراً مذبحةً حولي، فأوَّلتها خيراً، ورأيت في ذُباب سيفي ثُلمةً فأولتها هزيمةً، ورأيت كأني أدخلت يدي في درعٍ حصينةٍ، فأولتُها المدينة»[2]، فلم يزلْ به قومٌ يُنشطون في الشهادة حتى لبسَ لأْمَتَهُ، ثم ندموا فقالوا: الأمرُ إليك يا رسول الله، فقال عليه السلام: «لا ينبغي لنبيٍّ أن يلبَسَ لأْمَتَهُ فيضعَها حتى يقاتلَ»[3]، فخرج بعد صلاة الجمعة، وأصبحَ بالشِّعْبِ من أُحدٍ يومَ السبتِ للنصف من شوال[4].

《١٢٢》 ﴿إِذْ هَمَّت﴾: بدلٌ من (إذ غدوت)، أو: عملَ فيه معنى ﴿عَلِيمٌ﴾، ﴿طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ﴾: حيانِ من الأنصار؛ بنو سَلِمةَ من الخَزْرَجِ، وبنو حارثةَ من الأوسِ، وكان عليه السلام خرجَ إلى أُحُدٍ في ألفٍ، والمشركون في ثلاثة آلافٍ، ووعدَهم الفتحَ إن صبروا، فانخذل ابنُ أبيٍّ بثلثِ الناسِ، وقال: علامَ نقتلُ أنفسَنا وأولادَنا؟ فهمَّ الحيانِ باتّباعِه فعصمَهم اللهُ فمضَوا مع رسول الله[5]، ﴿أَن تَفْشَلَا﴾ أي: بأن تفشلا؛ أي: تَجْبُنا وتضعُفا، والفشلُ: الجُبْنُ والخَوَرُ، ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾: محبُّهما، أو: ناصرُهما ومتولي أمرِهما، فما لهما تفشلانِ ولا تتوكلانِ على الله؟ ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾: أَمَرَهم بألا يتوكلوا إلا عليه، ولا يُفوضُوا أمورَهم إلا إليه، قال جابر: والله ما يسرُّنا أنا لم نَهُمَّ بالذي هممْنا به وقد أخبرَنا اللهُ بأنه وَلِيُّنا[6].

---

(١) الجيش خمسة أقسام: المقدمة: أوله، والميمنة والميسرة وهما الجناحان: جانباه يميناً ويساراً، والقلب: وسطه، والساقة: مؤخَّره.

(٢) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٣/ ٢٠٥) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) رواه ابن الجارود في «المنتقى» (ص٢٦٦)، وذكره البخاري (٩/ ١١٢) معلَّقاً بصيغة الجزم.

(٤) انظر «سيرة ابن هشام» (٢/ ٦٣).

(٥) روى نحوه الطبري في «تفسيره» (٧/ ١٦٦، و٣٧٩).

(٦) رواه الطبري في «تفسيره» (٧/ ١٦٦).

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ ....

«١٢٣» ثم ذَكَّرَهم ما يوجبُ عليهم التوكلَ مما يَسَّرَ لهم من الفتح يومَ بدرٍ وهم في حالِ قِلَّةٍ وذِلَّةٍ فقال: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ وهو: اسم ماءٍ بين مكةَ والمدينةِ، كان لرجل يسمَّى بدراً، فسميَ به، أو: ذكرَ بدراً بعدَ أحدٍ للجمع بينَ الصبرِ والشكرِ، ﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ لقلةِ العددِ؛ فإنهم كانوا ثلاثَ مئةٍ وبضعةَ عشرَ[1]، وكان عدوُّهم زُهاءَ ألفِ مقاتلٍ[2]، والعُدَدِ؛ فإنهم خرجوا على النواضحِ، يَعْتَقِبُ النفرُ منهم على البعير الواحدِ، وما كان معهم إلا فرسٌ واحدٌ، ومع عدوِّهم مئةُ فرسٍ[3]، والشِّكَّةُ، والشَّوكةُ[4]، جاء بجمع القلة وهو الأذلة؛ ليدلَّ على أنهم على ذلتِهم كانوا قليلاً، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في الثبات مع رسوله؛ ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ بتقواكم ما أنعمَ به عليكم من النصرِ.

«١٢٤» ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾: ظرفٌ لـ﴿نَصَرَكُمُ﴾ على أن يقولَ لهم ذلك يوم بدر؛ أي: نصركم الله وقت مقالتكم هذه، أو: بدلٌ ثانٍ من ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ﴾ على أن يقولَ لهم يومَ أحدٍ: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ ﴿مُنَزَّلِينَ﴾: شاميٌّ[5]، ﴿مُنْزِلِينَ﴾: أبو حيوةَ[6]؛ أي: النصرةَ[7]، ومعنى: (ألن يكفيكم): إنكارُ ألا يكفيَهم الإمدادُ بثلاثة آلافٍ من الملائكة، وجيءَ بـ(لن) الذي هو لتأكيد النفيِ؛ للإشعارِ بأنهم كانوا لقلتِهم وضعفِهم وكثرةِ عدوِّهم وشوكتِه كالآيسين من النصر.

«١٢٥» ﴿بَلَىٰ﴾: إيجابٌ لما بعدَ ﴿لن﴾؛ أي: يكفيكم الإمدادُ بهم، فأوجب الكفايةَ ثم قال: ﴿إِن تَصْبِرُوا﴾ على القتالِ، ﴿وَتَتَّقُوا﴾ خلافَ الرسولِ عليه السلام، ﴿وَيَأْتُوكُم﴾ يعني: المشركين ﴿مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾: هو من: فارتِ القِدْرُ: إذا غَلَتْ، فاستعيرَ للسرعةِ، ثم سُميت بها

---

(١) رواه البخاري (٣٩٥٩) عن سيدنا البراء رضي الله عنه.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٦/ ٢٣٦).

(٣) انظر «سيرة ابن هشام» (١/ ٦٦٦).

(٤) **الشكة**: السلاح، **والشوكة**: شدة البأس.

(٥) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٦٩).

(٦) انظر «تفسير الثعلبي» (٣/ ١٤٣)، وهي شاذة.

(٧) النصرة: مفعول به لـ(مُنْزِلين) على القراءة الشاذة.

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ ....

الحالةُ التي لا ريثَ فيها، ولا تعريجَ على شيءٍ مِن صاحبِها، فقيل: خرجَ مِن فَوْرِهِ، كما تقول: مِن ساعتِه لم يلبث، ومنه قولُ الكرخيِّ: الأمرُ المطلقُ على الفورِ، لا على التراخي[١]؛ والمعنى: إن يأتوكم من ساعتهم هذه ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ في حالِ إتيانِهم، لا يتأخرُ نزولُهم عن إتيانهم؛ يعني: أن الله تعالى يعجلُ نُصرتَكم، ويُيَسِّرُ فتحَكم إن صبرتم واتقيتُم، ﴿مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾: بكسر الواوِ: مكيٌّ وأبو عمرٍو وعاصمٌ وسهلٌ؛ أي: مُعَلِّمِين أنفسَهم، أو خيلَهم بعلامةٍ يعرفُ بها في الحربِ، والسُّومةُ: العلامةُ، عن الضحاك: مُعَلِّمِين بالصوف الأبيضِ في نواصي الدوابِّ وأذنابِها، غيرُهم: بفتح الواوِ؛ أي: مُعَلَّمِين، قال الكلبي: معلَّمين بعمائمَ صُفرٍ مُرخاةٍ على أكتافِهم، وكانت عمامةُ الزبير يوم بدر صفراءَ، فنزلت الملائكةُ كذلك، قال قتادة: نَزَلَتْ ألفاً، فصاروا ثلاثةَ آلافٍ، ثم خمسةَ آلافٍ[٢].

《١٢٦》 ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ الضميرُ: يرجعُ إلى الإمداد الذي دلَّ عليه ﴿أَن يُمِدَّكُمْ﴾ ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾ أي: وما جعل الله إمدادَكم بالملائكة إلا بشارةً لكم بأنكم تُنصرون، ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ كما كانت السكينةُ لبني إسرائيلَ بشارةً بالنصر، وطمأنينةً لقلوبهم.

﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ لا من عند المقاتِلَةِ، ولا من عند الملائكةِ، ولكن ذلك مما يُقوِّي به اللهُ رجاءَ النصرةِ، والطمعَ في الرحمةِ، ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾: الذي لا يُغالَبُ في أحكامه، ﴿ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾: الذي يُعطي النصر لأوليائه، ويَبتليهم بجهاد أعدائِه.

《١٢٧》 واللامُ في ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾: ليهلك طائفةً منهم بالقتل والأسرِ، وهو ما كان يومَ بدرٍ من قتلِ سبعينَ، وأسرِ سبعين من رؤساء قريشٍ.. متعلقةٌ بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾، أو بقوله: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، أو بـ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم﴾، ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾: أو يُخزيَهم ويَغيظَهم بالهزيمة، وحقيقة الكبتِ: شدةُ وهنٍ تقعُ في القلبِ فيُصرَعُ في الوجهِ لأجله، ﴿فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾﴾: فيرجعوا غيرَ ظافرين بمبتغاهم.

《١٢٨》 ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ اسمُ (ليس): (شيءٌ)، والخبرُ: (لك)، و(من الأمر):

---

(١) انظر «كشف الأسرار شرح أصول البزدوي» (١ / ٣٧٣).
(٢) أي: أُمدُّوا بألفٍ، ثم زيد ألفان فصاروا ثلاثة آلاف، ثم زيدت ألفان آخران فصاروا خمسة آلاف.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠) وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١)﴾ ....

حالٌ من (شيء)؛ لأنها صفةٌ مقدَّمةٌ[١]، ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾: عطفٌ على ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾، و﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾: اعتراضٌ بين المعطوف والمعطوف عليه؛ والمعنى: أن الله تعالى مالكُ أمرِهم، فإما أن يُهلكَهم، أو يَهزِمَهم، أو يتوبَ عليهم إن أسلموا، ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ إن أصرُّوا على الكفرِ، وليس لك من أمرهم شيءٌ، إنما أنت عبدٌ مبعوثٌ لإنذارهم ومجاهدتِهم.

وعن الفراء: (أو) بمعنى: حتى[٢]، وعن ابن عيسى: بمعنى: إلا أن، كقولك لألزمنك أو تعطيَني حقِّي؛ أي: ليس لك من أمرهم شيءٌ إلا أن يتوبَ الله عليهم فتفرحَ بحالِهم، أو يعذبَهم فتَتَشفَّى منهم، وقيل: أراد أن يدعوَ عليهم، فنهاه الله تعالى؛ لعلمِه أن فيهم مَن يؤمنُ، ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨)﴾: مستحقون للتعذيب.

《١٢٩》 ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: الأمرُ له، لا لك؛ لأن ما في السموات وما في الأرض مُلكُهُ، ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾: للمؤمنين، ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾: الكافرين، ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢٩)﴾.

《١٣٠》 ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ ﴿مُضَعَّفَةً﴾: مكيٌّ وشاميٌّ[٣]، هذا نهيٌ عن الربا مع التوبيخ بما كانوا عليه من تضعيفِه، كان الرجل منهم إذا بلغ الدينُ مَحِلَّهُ.. يقول: إما أن تقضيَ حقِّي، أو تُرْبِيَ وأزيدَ في الأجل[٤]، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في أكْلِهِ؛ ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠)﴾.

《١٣١》 ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١)﴾ كان أبو حنيفة رضي الله عنه يقول: هي أخوفُ آيةٍ في القرآن؛ حيث أوعدَ اللهُ المؤمنين بالنار المعدةِ للكافرين إن لم يَتَّقُوه في اجتناب محارمِه، وقد أمدَّ ذلك بما أتبعه من تعليق رجاءِ المؤمنين لرحمتِه بِتَوَفُّرِهم على طاعته وطاعة رسوله[٥] بقوله:

---

(١) وصفة النكرة إذا تقدمت عليها صارت حالاً، نحو: جاء راكباً رجل.

(٢) «معاني القرآن» للفراء (١/ ٢٣٤).

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص٧٠).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٧/ ٢٠٥).

(٥) تَوَفَّرَ على الشيء: صرف همتَه إليه.

وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ....

《١٣٢》 ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ وفيه ردٌّ على المرجئةِ في قولهم: لا يضر مع الإيمان ذنبٌ، ولا يعذَّب بالنار أصلاً، وعندنا: غيرُ الكافرين من العصاة قد يدخلُها، ولكن عاقبةُ أمره الجنةُ.

وفي ذكره تعالى لعلَّ، وعسى في نحو هذه المواضعِ وإن قال أهلُ التفسير: إنَّ لعلَّ وعسى من الله للتحقيق.. ما لا يخفى على العارفِ من دِقَّةِ مسلكِ التقوى، وصعوبةِ إصابةِ رضا اللهِ تعالى، وعزةِ التوصلِ إلى رحمتِه وثوابه.

《١٣٣》 ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ ﴿سارعوا﴾: مدنيٌّ وشاميٌّ[١]، فمن أثبت الواوَ.. عطفها على ما قبلها، ومن حذفها.. استأنفها، ومعنى المسارعةِ إلى المغفرة والجنةِ: الإقبالُ على ما يوصل إليهما، ثم قيل: هي الصلوات الخمس، أو: التكبيرةُ الأولى، أو: الطاعة، أو: الإخلاص، أو: التوبة، أو: الجمعة والجماعات، ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أي: عرضُها عرضُ السماوات والأرض، كقوله تعالى: ﴿عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١]، والمرادُ: وصفُها بالسَّعَةِ والبسطِ، فشبهت بأوسعِ ما علمه الناسُ من خلقِه وأبسطِه.

وخُصَّ العرضُ؛ لأنه في العادة أدْنَى من الطولِ؛ للمبالغةِ، وعن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما: كسبع سمواتٍ، وسبعِ أرضين، لو وُصِلَ بعضُها ببعض. وما روي: أن الجنة في السماء[٢]، أو في السماء الرابعة.. فمعناه: أنها في جهتِها، لا أنها فيها، أو في بعضها، كما يقال: في الدار بستانٌ وإن كان يزيد عليها؛ لأن المرادَ أن بابَه إليها، ﴿أُعِدَّتْ﴾: في موضعِ جرٍّ صفةٌ لـ(جنةٍ) أيضاً؛ أي: جنةٍ واسعةٍ معدةٍ ﴿لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾، ودلت الآيتان على أن الجنةَ والنارَ مخلوقتان، ثم المتقي: مَن يتقي الشركَ، كما قال: ﴿عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [الحديد: ٢١]، أو: من يتقي المعاصي، فإن كان المرادُ الثاني.. فهي لهم بغيرِ عقوبةٍ، وإن كان الأولُ.. فهي لهم أيضاً في العاقبةِ، ويوقفُ عليه إن جعلَ:

《١٣٤》 ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾: في حالِ اليُسرِ والعُسرِ: مبتدأً، وعطفَ عليه

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٧٠).

(٢) في المطبوع (١/ ٣٠٠): في السماء السابعةِ.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ....

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾، وجعلَ الخبرُ ﴿أُولَئِكَ﴾، وإن جعلَ وصفاً لـ ﴿الْمُتَّقِينَ﴾، وعطف عليه: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ أي: أعدت للمتقين والتائبين. . فلا وقف.

فإن قلت: الآيةُ تدلُّ على أن الجنة معدةٌ للمتقين والتائبين، دون المصرِّين.

قلت: جاز أن تكون معدةً لهما، ثم يدخلُها بفضل الله وعفوه غيرُهما، كما يقال: أعدت هذه المائدةُ للأمير، ثم قد يأكلُها أتباعه؛ ألا ترى أنه قال: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١]، ثم قد يدخلُها غيرُ الكافرين بالاتفاق.

وافْتَتَحَ بذكر الإنفاق؛ لأنه أشقُّ شيءٍ على النفسِ، وأَدَلُّه على الإخلاصِ، ولأنه كان في ذلك الوقتِ أعظمَ الأعمالِ؛ للحاجة إليه في مجاهدة العدوِّ، ومواساةِ فقراءِ المسلمين، وقيل: المرادُ: الإنفاقُ في جميع الأحوالِ؛ لأنها لا تخلُو من حالِ مسرَّةٍ ومَضَرَّةٍ.

﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾: والممسكين الغيظَ عن الإمضاءِ؛ يقال: كظمَ القِربةَ: إذا مَلأَها وشدَّ فاها، ومنه كظمُ الغيظِ، وهو: أن يمسك على ما في نفسه منه بالصبرِ ولا يظهرَ له أثراً، والغيظ: تَوَقُّدُ حرارةِ القلبِ من الغضبِ، وعن النبي عليه السلام: «من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه.. ملأَ الله قلبَه أمناً وإيماناً»[(١)]،

﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ أي: إذا جنى عليهم أحدٌ.. لم يؤاخذوه، وروي: «ينادي منادٍ يوم القيامة أين الذين كانت أجورُهم على الله؟ فلا يقومُ إلا من عفا»[(٢)]، وعن ابن عيينة: أنه رواه للرشيد وقد غضب على رجل فخلّاه، ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ اللامُ: للجنس، فيتناول كلَّ محسنٍ، ويدخل تحته هؤلاءِ المذكورون، أو: للعهد، فيكونُ إشارةً إلى هؤلاء، عن الثوري: الإحسانُ: أن تحسن إلى المسيءِ، فإن الإحسان إلى المحسن متاجرة.

《١٣٥》 ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾: فِعلةً متزايدةَ القبحِ، ويجوز أن يكون (والذين): مبتدأ، خبرُه: (أولئك)، ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ قيل: الفاحشةُ: الكبيرةُ، وظلمُ النفس: الصغيرةُ، أو: الفاحشةُ: الزنا، وظلمُ النفسِ: القُبلةُ واللمسةُ ونحوُهما ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ﴾ بلسانِهم، أو بقلوبهم؛

---

(١) رواه أبو داود (٤٧٧٨).

(٢) روى نحوه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٩/ ٢٠٤) من قول الحسن البصري.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ١٣٧﴾ . . .

ليبعثَهم على التوبة، ﴿فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ﴾: فتابوا عنها؛ لقبحها نادمين، قيل: بكى إبليسُ حين نزلت هذه الآية.

﴿وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ (مَن): مبتدأٌ، (يغفر): خبرُه، وفيه ضميرٌ يعود إلى (من)، و(إلا الله): بدلٌ من الضمير في (يغفر)، والتقدير: ولا أحدَ يغفرُ الذنوبَ إلا اللهُ، وهذه جملة معترضةٌ بين المعطوف والمعطوف عليه، وفيه تطييبٌ لنفوس العباد، وتنشيطٌ للتوبة، وبعثٌ عليها، وردعٌ عن اليأس والقنوط، وبيانٌ لِسَعَةِ رحمتِه، وقربِ مغفرتِه من التائب، وإشعارٌ بأن الذنوب وإن جلَّت فإن عفوَه أجلُّ، وكرمَه أعظم.

﴿وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ﴾: ولم يقيموا على قبيح فعلِهم، والإصرارُ: الإقامةُ، قال عليه السلام: «ما أصرَّ من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة»[1]، وروي: «لا كبيرةَ مع الاستغفارِ، ولا صغيرةَ مع الإصرار»[2]، ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥﴾: حالٌ من الضمير في: (يُصِرُّوا) أي: وهم يعلمون أنهم أساؤوا، أو: وهم يعلمون أنه لا يغفر ذنوبهم إلا الله.

《١٣٦》 ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون ﴿جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ بتوبتِه، ﴿وَجَنَّٰتٞ﴾ برحمتِه، ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦﴾ المخصوصُ بالمدح محذوفٌ؛ أي: ونعم أجرُ العاملين ذلك؛ يعني: المغفرةَ والجناتِ، نزلت في تمّارٍ قال لامرأةٍ تريد التمر: في بيتي تمرٌ أجودُ، فأدخلها بيتَه وضمَّها إلى نفسه وقبَّلها فندم[3]، أو: في أنصاريٍّ استخلفَه ثقفيٌّ وقد آخى بينهما النبيُّ عليه السلام في غَيبةِ غزوةٍ، فأتى أهلَه لكفايةِ حاجةٍ، فرآها فقبَّلَها، فندمَ فساحَ في الأرض صارخاً فاستعتبَه الله تعالى[4].

《١٣٧》 ﴿قَدۡ خَلَتۡ﴾: مضت ﴿مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ﴾ يريدُ: ما سنَّه اللهُ في الأمم المكذبين من

---

(١) رواه أبو داود (١٥١٤) والترمذي (٣٥٥٩) عن سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

(٢) رواه الشهاب القضاعي في «المسند» (٢/ ٤٤) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) انظر «التفسير البسيط» للواحدي (٥/ ٦٠٠)، وروى الترمذي (٣١١٥) هذه الحادثة عن سيدنا أبي اليسر رضي الله عنه، وفيه أن الآية التي نزلت في حقه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ١١٤﴾، ولعلهما قصتان.

(٤) ذكر نحوَه مقاتل بن سليمان في «تفسيره» (١/ ٣٠١).

﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ۝١٣٨ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٣٩ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ۝١٤٠﴾ ....

وقائعِه[1]، ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ۝١٣٧﴾: فتعتبروا بها.

《١٣٨》 ﴿هَٰذَا﴾ أي: القرآنُ، أو: ما تقدم ذكرُه ﴿بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى﴾ أي: إرشادٌ، ﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾: ترغيبٌ وترهيبٌ ﴿لِّلْمُتَّقِينَ ۝١٣٨﴾ عن الشركِ.

《١٣٩》 ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾: ولا تضعُفوا عن الجهاد لِما أصابكم من الهزيمة، ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ على ما فاتكم من الغنيمةِ، أو: على مَن قُتل منكم وجُرح، وهو تسليةٌ من الله لرسوله وللمؤمنين عمّا أصابهم يومَ أحدٍ، وتقويةٌ لقلوبهم، ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾: وحالُكم أنكم أعلى منهم وأغلب؛ لأنكم أَصبتم منهم يومَ بدرٍ أكثرَ مما أصابُوا منكم يومَ أحدٍ، أو: وأنتم الأعلَون بالنصر والظَّفَرِ في العاقبةِ، وهي بشارةٌ لهم بالعُلُوِّ والغَلَبَةِ، ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣]، أو: وأنتم الأعلون شأناً؛ لأن قتالَكم لله، ولإعلاءِ كلمتِه، وقتالُهم للشيطان، ولإعلاءِ كلمةِ الكفرِ، أو: لأن قتلاكم في الجنة، وقتلاهم في النار، ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٣٩﴾: متعلقٌ بالنهيِ؛ أي: ولا تَهِنوا إن صح إيمانُكم؛ يعني: أن صحة الإيمان توجبُ قوةَ القلبِ والثقةَ بوعد الله، وقلةَ المبالاةِ بأعدائه، أو بـ (الأعلون) أي: إن كنتم مصدقين بما يعدُكم الله، ويُبشركم به من الغَلَبَةِ.

《١٤٠》 ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قُرْحٌ﴾: بضم القاف حيث كان: كوفيٌّ غيرَ حفصٍ، وبفتح القافِ: غيرُهم[2]، وهما لغتان، كالضُّعْفِ والضَّعْفِ، وقيل: بالفتح: الجراحةُ، وبالضمِّ: أَلَمُها، ﴿فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ أي: إن نالُوا منكم يومَ أحدٍ.. فقد نِلْتُمْ منهم قبلَه يومَ بدرٍ، ثم لم يُضعفْ ذلك قلوبَهم، ولم يمنعْهم عن معاودتِكم إلى القتال، فأنتم أولى ألا تضعُفوا، ﴿وَتِلْكَ﴾: مبتدأٌ، ﴿الْأَيَّامُ﴾: صفتُه[3]، والخبرُ: ﴿نُدَاوِلُهَا﴾: نُصَرِّفُها ﴿بَيْنَ النَّاسِ﴾ أي: نُصَرِّفُ ما فيها من النِّعَمِ والنِّقَمِ، نعطي لهؤلاء تارةً، وطوراً لهؤلاء، كبيتِ «الكتابِ»[4]: [من: المتقارب]

---

(١) في «التحرير والتنوير» (٤/ ٩٧) المعنى: قد مضت مِن قبلكم أحوالٌ للأمم، جاريةٌ على طريقة واحدة، هي عادة الله في الخلق، وهي أن قوة الظالمين وعتوهم على الضعفاء أمرٌ زائل، والعاقبة للمتقين المحقين.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٧٠).

(٣) الأولى أن يقال: بدل، أو عطف بيان؛ لأنه جامد.

(٤) البيت لسيدنا النَّمِر بنِ تَوْلَبٍ رضي الله عنه، وجاء في «ديوانه» (ص٦٥) هكذا:

فَيَومٌ عَلَينا ويومٌ لنا ... ويومٌ نُسَاءُ ويومٌ نُسَرْ

وانظر «الكتاب» لسيبويه (١/ ٨٦).

وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ ....

فيوماً علينا ويوماً لنا ويوماً نُساءُ ويوماً نُسَرّْ

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: نداولُها لضروبٍ من التدبيرِ؛ وليعلمَ الله المؤمنين مميَّزين بالصبرِ والإيمانِ من غيرِهم، كما عَلِمهم قبلَ الوجودِ، ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾: وليكرمَ ناساً منكم بالشهادةِ؛ يريد المستشهدين يومَ أحدٍ، أو: ليتخذ منكم من يصلحُ للشهادة على الأمم يومَ القيامةِ؛ مِن قولِه: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾: اعتراضٌ بين بعضِ التعليلِ وبعضٍ؛ ومعناه: والله لا يحبُّ مَن ليس من هؤلاء الثابتين على الإيمان، المجاهدين في سبيلِه، وهم: المنافقون والكافرون.

《١٤١》 ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ التمحيصُ: التطهيرُ والتصفيةُ، ﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾: ويهلكَهم؛ يعني: إن كانت الدولةُ على المؤمنين.. فللتمييزِ والاستشهادِ والتمحيصِ، وإن كانت على الكافرين.. فلِمَحْقِهم ومَحْوِ آثارِهم.

《١٤٢》 ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ﴾ (أم): منقطعةٌ، ومعنى الهمزةِ فيها: الإنكارُ؛ أي: لا تحسبُوا، ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ﴾ أي: ولمّا تجاهدوا؛ لأن العلمَ متعلقٌ بالمعلوم، فنُزِّلَ نفيُ العلمِ منزلةَ نفيِ متعلَّقِهِ؛ لأنه منتفٍ بانتفائه، تقول: ما علم الله في فلان خيراً؛ أي: ما فيه خيرٌ حتى يعلمَه، ولما: بمعنى: لم، إلا أن فيه ضرباً من التوقُّعِ، فدلَّ على نفيِ الجهاد فيما مضى، وعلى توقعِه فيما يُستقبَلُ، ﴿وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾: نصبٌ بإضمار: أنْ، والواوُ: بمعنى الجمعِ، نحو: لا تأكل السمك وتشرب اللبن، أو: جزمٌ للعطفِ على (يعلم الله)، وإنما حركت الميمُ؛ لالتقاء الساكنين، واختيرت الفتحةُ للفتحةِ قبلها.

《١٤٣》 ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ﴾: خوطبَ به الذين لم يشهدُوا بدراً، وكانوا يتمنَّون أن يحضُرُوا مشهداً مع رسول الله ﷺ؛ لينالُوا كرامةَ الشهادةِ، وهم الذين ألحُّوا على رسول الله في الخروج إلى المشركين، وكان رأيُه في الإقامةِ بالمدينةِ؛ يعني: وكنتم تمنَّون الموت قبلَ أن تشاهدُوه وتعرفُوا شدَّته، ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾ أي: رأيتُموه معايِنين مشاهِدين له حين قُتِلَ إخوانُكم بين أيديكم وشارَفتُم أن تُقتَلُوا، وهذا توبيخٌ لهم على تمنيهم الموتَ، وعلى ما تسببُوا له من خروج رسولِ الله ﷺ بإلحاحِهم عليه، ثم انهزامِهم عنه، وإنما

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًاۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَاۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

تمنَّوا الشهادةَ؛ لينالوا كرامةَ الشهداءِ من غيرِ قصدٍ إلى ما يتضمنُه من غلبةِ الكفارِ، كمن شرب الدواءَ من طبيبٍ نصرانيٍّ؛ فإنَّ قصدَه حصولُ الشفاءِ، ولا يخطرُ بباله أن فيه جرَّ منفعةٍ إلى عدوِّ الله وتنفيقاً لصناعته.

«١٤٤» لما رمَى ابنُ قَمِيئةَ رسولَ الله ﷺ بحجرٍ فكسرَ رَباعِيَتَهُ.. أقبلَ يريدُ قتلَه، فذبَّ عنه مصعبُ بنُ عميرٍ، وهو صاحبُ الرايةِ، حتى قتله ابنُ قَمِيئةَ وهو يرى أنه رسولُ الله ﷺ فقال: قتلتُ محمداً، وصرخ صارخٌ، قيل: هو الشيطان: ألا إنَّ محمداً قد قُتلَ، فَفَشا في الناس خبرُ قتلِه، فانكفؤوا، وجعل رسولُ الله ﷺ يدعو: «إليَّ عبادَ الله»، حتى انحازت إليه طائفةٌ من أصحابِه، فلامَهم على هربِهم فقالوا: يا رسولَ الله فديناك بآبائنا وأمهاتِنا، أتانا خبرُ قتلِك فولَّيْنا مُدبرين، فنزل[1]:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ﴾: مضت ﴿مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ﴾ فَسَيَخْلُو كما خَلَوْا، وكما أن أتباعَهم بَقُوا متمسكين بدينهم بعد خُلُوِّهم.. فعليكم أن تتمسكوا بدينه بعد خُلُوِّه؛ لأن المقصود من بعثة الرسلِ تبليغُ الرسالةِ، وإلزامُ الحجةِ، لا وجودُه بين أظهرِ قومِه، ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ﴾ الفاءُ: معلّقةٌ للجملة الشرطيةِ بالجملةِ التي قبلَها على معنى التسبيبِ، والهمزةُ: لإنكارِ أن يجعلُوا خُلُوَّ الرسلِ قبلَه سبباً لانقلابِهم على أعقابِهم بعدَ هلاكِه بموتٍ، أو قتلٍ، مع علمِهم أن خُلُوَّ الرسلِ قبلَه وبقاءَ دينِهم متمسَّكاً به يجبُ أن يجعلَ سبباً للتمسك بدين محمدٍ عليه السلام، لا للانقلابِ عنه، والانقلابُ على العَقِبَيْنِ مجازٌ عن الارتدادِ، أو عن الانهزام، ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ﴾ وإنما ضرَّ نفسَه، ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾: الذين لم ينقلبُوا، وسماهم شاكرين؛ لأنهم شكرُوا نعمةَ الإسلامِ فيما فعلُوا.

«١٤٥» ﴿وَمَا كَانَ﴾: وما جازَ ﴿لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بعلمِه، أو: بأن يأذن لملكِ الموت في قبض روحِه؛ والمعنى: أن موت الأنفس محالٌ أن يكون إلا بمشيئة الله،

(١) روى نحوه الطبري في «التاريخ» (٢/ ٥١٩).

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ ....

وفيه تحريضٌ على الجهاد، وتشجيعٌ على لقاء العدوِّ، وإعلامٌ بأن الحذرَ لا ينفعُ، وأن أحداً لا يموت قبل بلوغِ أجلِه وإن خاض المهالكَ، واقتحم المعارك، ﴿كِتَٰبًا﴾: مصدرٌ مؤكِّدٌ؛ لأن المعنى: كتبَ الموتَ كتاباً ﴿مُّؤَجَّلًا﴾: مؤقتاً، له أجلٌ معلومٌ لا يتقدمُ ولا يتأخرُ، ﴿وَمَن يُرِدْ﴾ بقتالِه ﴿ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: الغنيمة، وهو تعريضٌ بالذين شَغَلَتْهم الغنائمُ يومَ أُحُدٍ، ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾: من ثوابِها، ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: إعلاءَ كلمةِ اللهِ والدرجةَ في الآخرةِ ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِي ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾: وسنجزي الجزاءَ المبهمَ الذين شكرُوا نعمةَ اللهِ، فلم يَشْغَلْهُم شيء عن الجهاد.

《١٤٦》 ﴿وَكَأَيِّن﴾: أصلُه: أيٌّ، دخلَ عليه كافُ التشبيهِ، وصارا في معنى: كم التي للتكثيرِ، ﴿وَكَائِنْ﴾: بوزنِ: كارع، حيثُ كان: مكيٌّ[1]، ﴿مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ﴾ ﴿قُتِلَ﴾: مكيٌّ وبصريٌّ ونافعٌ[2]، ﴿مَعَهُۥ﴾: حالٌ من الضمير في: قُتِلَ؛ أي: قُتِلَ كائناً معه ﴿رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ والرِّبِّيون: الرَّبانيون، وعن الحسن: بضمِّ الراءِ، وعن البعض: بفتحها[3]، فالفتحُ على القياس؛ لأنه منسوب إلى الربِّ، والضمُّ والكسرُ من تغييرات النَّسَبِ، ﴿فَمَا وَهَنُواْ﴾: فما فتَرُوا عند قتلِ نبيِّهم ﴿لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ﴾ عن الجهاد بعدَه، ﴿وَمَا ٱسْتَكَانُواْ﴾: وما خضعُوا لعدوِّهم، وهذا تعريضٌ بما أصابهم من الوَهْنِ عند الإرجافِ بقتلِ رسول الله ﷺ[4]، واستكانتِهم لهم؛ حيث أرادُوا أن يَعْتَضِدُوا بابنِ أُبيٍّ في طلب الأمانِ من أبي سفيانَ، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ على جهادِ الكافرين.

《١٤٧》 ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أي: وما كان قولَهم إلا هذا القولُ، وهو إضافةُ الذنوبِ إلى أنفسهم مع كونهم ربانيين؛ هضماً لها، ﴿وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا﴾:

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٧٠)، وكارع: اسم فاعل من: كَرَعَ في الماء؛ أي: تناوله بِفِيْهِ من موضعه من غير أن يشرب بكفَّيه ولا بإناءٍ.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٧١).

(٣) انظر «المحرر الوجيز» (١/ ٥٢٠).

(٤) الإرجاف: الخبر الكاذب المثير للفتن والاضطراب.

﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ ....

تَجاوُزَنا حدَّ العبوديةِ، ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ في القتال ﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ بالغلبةِ، وقَدَّمَ الدعاءَ بالاستغفار من الذنوب على طلب تثبيتِ الأقدامِ في مواطن الحربِ والنصرةِ على الأعداء؛ لأنه أقرب إلى الإجابة؛ لما فيه من الخضوع والاستكانة.

《١٤٨》 ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: النصرةَ والظفرَ والغنيمةَ، ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾: المغفرةَ والجنةَ، وخُصَّ بالحُسْنِ دلالةً على فضلِه وتقدمِه، وأنه هو المعتدُّ به عنده، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ أي: هم محسنون والله يحبُّهم.

《١٤٩》 ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾: يُرجعوكم إلى الشركِ ﴿فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ قيل: هو عامٌّ في جميع الكفارِ، وعلى المؤمنين أن يجانبُوهم، ولا يطيعُوهم في شيءٍ حتى لا يَسْتَجِرُّوهم إلى مُوافقَتِهم، وعن السدي: إن تستكينُوا لأبي سفيانَ وأصحابِه وتستأمنُوهم.. يردُّوكم إلى دينِهم، وقال علي رضي الله عنه: نزلت في قول المنافقين للمؤمنين عندَ الهزيمةِ: ارجعُوا إلى إخوانِكم، وادخلُوا في دينهم.

《١٥٠》 ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾: ناصرُكم، فاستغنُوا عن نصرةِ غيرِه، ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾.

《١٥١》 ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ ﴿الرُّعُبَ﴾: شاميٌّ وعليٌّ[1]، وهما لغتانِ، قيل: قذف اللهُ في قلوب المشركين الخوفَ يومَ أحدٍ، فانهزموا إلى مكةَ من غيرِ سببٍ ولهم القوةُ والغلبةُ، ﴿بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ﴾: بسبب إشراكِهم؛ أي: كان السببُ في إلقاء اللهِ الرعبَ في قلوبِهم إشراكَهم به ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا﴾: آلهةً لم ينزل الله بإشراكها حجةً، ولم يُرِدْ أن هناك حجةً إلا أنها لم تُنَزَّلْ عليهم؛ لأن الشرك لا يستقيمُ أن تقوم عليه حجةٌ، وإنما المرادُ: نفيُ الحجةِ ونزولِها جميعاً، كقوله[2]: [من: السريع]

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٧١).

(٢) هذا عجز بيت لعمرو بن أحمرَ في وصف مفازة، وأولُه:

لا تُفْزِعُ الأرْنَبَ أهْوالُها

فهو لم يرد أن بها أرنباً لا يفزع، ولا ضَبّاً لا ينجحر، ولكنه نَفَى أن يكون فيها حيوانٌ، ومعنى: ينجحر: يدخل =

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ ....

.... ولا تَرى الضَّبَّ بها يَنْجَحِرْ

أي: ليس بها ضبٌّ فَيَنْجَحِرَ، ولم يَعْنِ أن بها ضبّاً ولكن لا ينجحرُ، ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ﴾: ومرجعُهم ﴿ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ النارُ، فالمخصوصُ بالذمِّ محذوفٌ.

《١٥٢》 ولما رجع رسول الله ﷺ مع أصحابه إلى المدينة.. قال ناسٌ من أصحابه: من أين أصابنا هذا وقد وَعَدَنا اللهُ النصرَ؟ فنزل[1]:

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾ أي: حقق ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم﴾: تقتلُونَهم قتلاً ذريعاً، وعن ابن عيسى: حَسَّهُ: أبطلَ حِسَّه بالقتل، ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾: بأمره وعلمِه، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾: جَبُنْتُم، ﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ أي: اختلفتُم، ﴿وَعَصَيْتُم﴾ أمرَ نبيِّكم بتركِكم المَرْكَزَ واشتغالِكم بالغنيمة، ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ من الظَفرِ وقهرِ الكفارِ، ومتعلَّقُ (إذا): محذوفٌ، تقديرُه: حتى إذا فشلتم.. مَنَعَكُم نصرَه، وجاز أن يكون المعنى: صدقَكم الله وعدَه إلى وقتِ فَشَلِكم[2]، ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: الغنيمةَ، وهم الذين تركُوا المركزَ لطلبِ الغنيمةِ.

روي: أن رسول الله ﷺ جعلَ أُحُداً خلفَ ظهرِه، واستقبل المدينةَ، وأقام الرماة عند الجبلِ، وأمرهم أن يثبتُوا في مكانهم ولا يبرحُوا، كانت الدولةُ للمسلمين أو عليهم، فلما أقبل المشركون.. جعل الرماةُ يرشُقُون خيلَهم، والباقون يضربونَهم بالسيوف حتى انهزمُوا، والمسلمون على آثارهم يقتلونهم، حتى إذا فشلوا وتنازعوا فقال بعضهم: قد انهزمَ المشركون فما موقفُنا ههنا، فادخلُوا عسكرَ المسلمين وخذُوا الغنيمةَ مع إخوانِكم، وقال بعضهم: لا نخالفُ أمرَ رسولِ الله ﷺ، فممَّنْ ثبتَ مكانَه عبدُ الله بنُ جُبيرٍ أميرُ الرماة في نفرٍ دون العشرةِ، وهم المعنيُّون بقوله: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾، فَكَرَّ المشركون على الرماةِ، وقتلوا عبدَ الله بن

= الجُحْرَ، وهذا الذي سلكه الشاعر يسمَّى في البلاغة عكسَ الظاهرِ، وهو: أن تذكرَ كلاماً يدلُّ ظاهرُه أنه نفيٌ لصفةِ الموصوف، ولكنه نفيٌ للموصوف أصلاً. انظر «شرح ديوان المتنبي» للعكبري (١/ ٣٠٤)، و«خزانة الأدب» (١٠/ ١٩٢)، و«المثل السائر» (٢/ ٢٠٣).

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص١٢٩).

(٢) فعلى التقدير الأول: (حتى): ابتدائية، و(إذا): ظرفية شرطية حذف جوابها، وعلى التقدير الثاني: (حتى): حرف جر متعلق بـ(صدقكم)، و(إذا): ظرفيةٌ فقط، فلا تحتاج إلى جواب. انظر «فتوح الغيب» (٤/ ٣٠١).

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ ....

جُبيرٍ رضي الله عنه، وأقبلوا على المسلمين حتى هزموهم، وقَتلوا مَن قَتلوا[1]، وهو قوله: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ أي: كفَّ معونتَه عنكم فغلبُوكم؛ ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾: ليمتحنَ صبرَكم على المصائبِ، وثباتَكم عندَها، وحقيقتُه: ليعاملَكم معاملةَ المختبرِ؛ لأنه يجازي على ما يعملُه العبدُ، لا على ما يعلمُه منه، ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ﴾ حيثُ ندمتم على ما فَرَطَ منكم من عِصيانِ رسولِ الله ﷺ، ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ بالعفو عنهم، وقبولِ توبتِهم، أو: هو متفضلٌ عليهم في جميع الأحوالِ؛ سواءٌ أُدِيْلَ لهم، أو أُدِيْلَ عليهم[2]؛ لأن الابتلاءَ رحمةٌ، كما أن النصرةَ رحمةٌ.

《١٥٣》 وانتصب ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾: تبالغون في الذهاب في صعيدِ الأرضِ، والإصعادُ: الذهابُ في صعيدِ الأرضِ، والإبعادُ فيهِ.. بـ﴿صَرَفَكُمْ﴾، أو بقوله: ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾، أو بإضمار: اذكر، ﴿وَلَا تَلْوُنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾: ولا تلتفون، وهو: عبارةٌ عن غايةِ انهزامهم، وخوفِ عدوِّهم، ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾: يقول: «إليَّ عبادَ اللهِ، أنا رسولُ اللهِ، مَن يَكُرُّ.. فله الجنة»، والجملةُ: في موضع الحالِ، ﴿فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾: في ساقَتِكم، وجماعَتِكم الأخرى، وهي: المتأخرةُ؛ يقال: جئتُ في آخرِ الناسِ، وأُخراهم، كما تقول: في أوَّلِهم، وأُولاهم، بتأويلِ مقدمتِهم، وجماعتِهم الأُولى[3]، ﴿فَأَثَٰبَكُمْ﴾: عطفٌ على (صرفكم) أي: فجازاكم الله ﴿غَمًّۢا﴾ حينَ صرفَكم عنهم وابتلاكم، ﴿بِغَمٍّ﴾: بسبب غَمٍّ أذَقْتُمُوه رسولَ اللهِ ﷺ بعصيانِكم أمرَه، أو: غمّاً مُضاعفاً، غَمّاً بعدَ غمٍّ، وغَمّاً متصلاً بِغَمٍّ؛ من الاغتمامِ بما أُرْجِفَ به من قتلِ رسولِ الله ﷺ، والجَرْحِ والقتلِ، وظَفَرِ المشركين، وفوتِ الغنيمةِ والنصرِ، ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾: لتتمَرَّنُوا على تَجَرُّعِ الغُمومِ فلا تحزنُوا فيما بعدُ على فائتٍ من المنافعِ، ﴿وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ﴾: ولا على مُصيبٍ من المضارِّ، ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾: عالمٌ بعملِكم، لا يخفى عليه شيءٌ من أعمالِكم، وهذا ترغيبٌ في الطاعةِ، وترهيبٌ عن المعصيةِ.

---

(١) انظر «تفسير الطبري» (٧/ ٢٩٠)، و«سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد» (٤/ ١٩٥).

(٢) **الإدالة**: الغلبة؛ يقال: أُديل لنا على عدونا؛ أي: نُصرنا عليهم.

(٣) أو المعنى: يدعوكم من ورائكم. انظر «تفسير الآلوسي» (٢/ ٣٠٤).

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾

«١٥٤» ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾: ثم أنزلَ اللهُ الأمنَ على المؤمنين، وأزالَ عنهم الخوفَ الذي كان بهم، حتى نَعَسُوا، وغلبَهم النومُ، عن أبي طلحةَ: غَشِيَنا النعاسُ ونحن في مَصافِّنا، فكان السيفُ يسقطُ من يدِ أحدِنا فيأخذُه، ثم يسقطُ فيأخذُه، والأَمَنَةُ: الأمنُ، و(نعاساً): بدلٌ من (أمنةً)، أو: هو مفعولٌ، و(أمنةً): حالٌ منه مقدمةٌ عليه، نحو: رأيت راكباً رجلاً، والأصلُ: أنزل عليكم نعاساً ذا أَمَنَةٍ؛ إذ النعاسُ ليس هو الأمنَ، ويجوز أن يكونَ (أمنةً): مفعولاً له، أو حالاً من المخاطبين؛ بمعنى: ذَوي أَمَنَةٍ، أو: على أنه جمعُ آمنٍ، كَبَارٍّ، وبَرَرَةٍ، ﴿يَغْشَىٰ﴾ يعني: النعاسَ، ﴿تغشى﴾: بالتاءِ والإمالةِ: حمزةُ، وعليٌّ[1]؛ أي: الأَمَنَةُ، ﴿طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾: هم أهلُ الصدقِ واليقينِ، ﴿وَطَآئِفَةٌ﴾: هم المنافقون، ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾: ما بِهِمْ إلا هَمُّ أنفسِهم وخلاصُها، لا هَمُّ الدينِ، ولا هَمُّ رسولِ اللهِ ﷺ والمسلمين، ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾: في حُكْمِ المصدرِ[2]؛ أي يظنون باللهِ غيرَ الظنِّ الحقِّ الذي يجبُ أن يُظَنَّ به، وهو ألا ينصر محمداً ﷺ، ﴿ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾: بدلٌ منه، والمرادُ: الظنُّ المختصُّ بالملةِ الجاهليةِ، أو: ظنُّ أهلِ الجاهليةِ؛ أي: لا يَظُنُّ مثلَ ذلك الظنِّ إلا أهلُ الشركِ الجاهلون باللهِ، ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ﴾: هل لنا معاشرَ المسلمين من أمرِ اللهِ نصيبٌ قطُّ؛ يعنون: النصرَ والغَلَبَةَ على العدوِّ، ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ﴾ أي: النصرَ والغلبةَ ﴿كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ ولأوليائِه المؤمنين، ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣]، (كلَّه): تأكيدٌ لـ (الأمر)، و(لله): خبرُ (إنَّ)، (كلُّه): بصريٌّ[3]، وهو مبتدأٌ، و(لله): خبرُه، والجملةُ: خبرُ (إنَّ)، ﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾: خوفاً من السيفِ، ﴿يَقُولُونَ﴾ في أنفسِهم، أو: بعضُهم لبعضٍ منكرين لقولك لهم: (إن الأمر كله لله): ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ أي: لو كان الأمر كما قال محمدٌ: إن الأمر كله لله

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٧٢، و٧٣).

(٢) أي: (غيرَ): مفعولٌ مطلقٌ؛ لأنه مضاف إلى مصدرٍ محذوفٍ.

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص٧٢).

إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿١٥٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١٥٦﴾

ولأوليائه وأنهم الغالبون.. لما غُلبنا قطُّ، ولما قُتلَ من المسلمين مَن قُتلَ في هذه المعركة، (قد أهمتهم): صفةٌ لـ (طائفة)، و(يظنون): خبرٌ لـ (طائفة)، أو: صفةٌ أخرى، أو: حالٌ؛ أي: قد أهمتهم أنفسُهم ظانِّين، و(يقولون): بدلٌ من (يظنون)، و(يخفون): حالٌ مِن (يقولون)، و(قل إن الأمر كله لله): اعتراضٌ بين الحالِ وذي الحالِ، و(يقولون): بدلٌ من (يخفون)، أو: استئنافٌ، ﴿قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ﴾ أي: من عَلِمَ اللهُ منه أنه يُقتلُ في هذه المعركةِ، وكتبَ ذلك في اللوحِ.. لم يكن بدٌّ من وجوده، فلو قعدتُم في بيوتِكم ﴿لَبَرَزَ﴾ من بينِكم ﴿ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ﴾: مصارِعهم بأُحُدٍ؛ ليكونَ ما علمَ اللهُ أنه يكونُ؛ والمعنى: أن الله كتب في اللوح قتلَ من يُقتلُ من المؤمنين، وكتبَ مع ذلك أنهم الغالبون؛ لعلمِه أن العاقبةَ في الغلبةِ لهم، وأن دينَ الإسلام يظهرُ على الدين كلِّه، وأن ما يُنكَبُون به في بعض الأوقاتِ تمحيصٌ لهم؛ ﴿وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ﴾: وليمتحنَ ما في صدورِ المؤمنين من الإخلاصِ، ويمحصَ ما في قلوبهم من وَساوسِ الشيطانِ.. فَعَلَ ذلك، أو: فعلَ ذلك لمصالحَ جمةٍ وللابتلاءِ والتمحيصِ، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾: بخفيّاتِها.

«١٥٥» ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ﴾: انهزمُوا ﴿يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾: جمعُ محمدٍ ﷺ، وجمعُ أبي سفيانَ للقتال بأُحُدٍ ﴿إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾: دعاهم إلى الزَّلَّةِ وحَمَلَهم عليها ﴿بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ﴾: بتركِهم المركزَ الذي أمرَهم رسولُ اللهِ بالثباتِ فيه، فالإضافةُ إلى الشيطان: لطفٌ وتقريبٌ، والتعليلُ بكسبِهم: وعظٌ وتأديبٌ، وكان أصحابُ محمدٍ عليه السلام تولوا عنه يومَ أُحُدٍ إلا ثلاثةَ عشرَ رجلاً، منهم أبو بكرٍ وعليٌّ وطلحةُ وابنُ عوفٍ وسعدُ بنُ أبي وقاصٍ، والباقون من الأنصار، ﴿وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ﴾: تجاوزَ عنهم؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ للذنوبِ، ﴿حَلِيمٞ ﴿١٥٥﴾﴾: لا يعاجلُ بالعقوبةِ.

«١٥٦» ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: كابْنِ أُبيٍّ وأصحابِه، ﴿وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ﴾ في النسبِ، أو في النفاقِ ﴿إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: سافروا فيها للتجارةِ، أو غيرِها، ﴿أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى﴾: جمعُ غازٍ؛ كَعافٍ، وعُفّىً، وأصابهم موتٌ، أو قتلٌ: ﴿لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾

﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ ....

﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ اللامُ: يتعلقُ بـ(لا تكونوا) أي: لا تكونوا كهؤلاءِ في النطقِ بذلك القولِ واعتقادِه؛ ليجعلَ اللهُ ذلك حسرةً في قلوبِهم خاصةً، ويصونَ منها قلوبَكم، أو بـ(قالوا) أي: قالُوا ذلك واعتقدُوه؛ ليكون ذلك حسرةً في قلوبِهم، والحسرةُ: الندامةُ على فَوْتِ المحبوبِ، ﴿وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾: ردٌّ لقولهم: إن القتال يقطع الآجال؛ أي: الأمرُ بيدِه؛ قد يُحيي المسافرَ والمقاتلَ، ويميتُ المقيمَ والقاعدَ، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾﴾ فيجازيْكم على أعمالِكم، ﴿يعملون﴾: مكيٌّ وحمزةُ وعليٌّ[1]؛ أي: الذين كفروا.

《١٥٧》 ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ﴾ ﴿مِتُّمْ﴾ وبابُه: بالكسر: نافعٌ وكوفيٌّ غير عاصم، تابَعهم حفصٌ إلا في هذه السورة؛ كأنه أرادَ الوِفاقَ بينَه وبينَ (قتلتم)، غيرُهم: بضمِّ الميم في جميع القرآن، فالضمُّ مِن: مات يموت، والكسر مِن: مات يَمات، كخافَ يَخاف، فكما تقول: خِفت.. تقول: مِتُّ[2]، ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا تَجْمَعُونَ﴾ (ما) بمعنى: الذي، والعائدُ محذوفٌ، وبالياء: حفصٌ[3].

《١٥٨》 ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾: لَإِلَى الرحيمِ الواسعِ الرحمةِ، المثيبِ العظيمِ الثوابِ تُحشرون، ولوقوعِ اسمِ الله في هذا الموضعِ، مع تقديمِه، وإدخالِ اللامِ على الحرفِ المتصلِ به شأنٌ غنيٌّ عن البرهان[4].

(لمغفرةٌ): جوابُ القسمِ، وهو سادٌّ مسدَّ جوابِ الشرطِ، وكذلك: (لإلى الله تحشرون).

كَذَّبَ الكافرين أولاً في زعمِهم أنَّ مَن سافر من إخوانهم، أو غزا: لو كان بالمدينة.. لما مات، ونهى المسلمين عن ذلك؛ لأنه سبب التقاعد عن الجهادِ، ثم قال لهم: ولئن تَمَّ عليكم ما

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٧٢) وكذا القراءة الآتية.

(٢) الفعل الأجوف إذا اتصل بضمير رفع متحرك.. فإن كان أصل العين واواً غير مكسورة.. ضمَّ أولُه، نحو: قُلتُ، وإن كان أصلها واواً مكسورة، أو ياءً.. كسر أولُه، نحو: خِفت، وبِعت، فالفعلُ: مات: إن كان مضارعه: يَمات.. فعينه مكسورة، وأصله: مَوِتَ، فيقال: مِتُّ، وإن كان مضارعه: يموت.. فعينه مفتوحةٌ، وأصله: مَوَتَ، فيقال: مُتُّ. انظر «شذا العرف في فن الصرف» (ص٥١).

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص٧٢).

(٤) إدخال لام القسم على المعمول المقدم مشعرٌ بتأكيد الحصر والاختصاص بأن ألوهيته تعالى هي التي تقتضي ذلك، ويزيده حسناً وقوعُ ما بعده فاصلةً. انظر «تفسير الآلوسي» روح المعاني (٢/ ٣١٧).

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ ....

تخافونه من الهلاك بالموتِ أو القتلِ في سبيل الله.. فإن ما تنالونه من المغفرةِ والرحمةِ بالموتِ في سبيل اللهِ خيرٌ مما تجمعون من الدنيا؛ لأن الدنيا زادُ المعادِ، فإذا وصل العبدُ إلى المرادِ.. لم يحتجْ إلى الزاد.

《١٥٩》 ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ (ما): مزيدةٌ للتوكيدِ والدلالةِ على أنَّ لِيْنَهُ لهم ما كان إلا برحمةٍ من الله[١]، ومعنى الرحمةِ: رَبْطُهُ على جَأْشِهِ[٢]، وتوفيقُه للرفقِ والتلطفِ بهم، ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا﴾: جافياً ﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾: قاسيَه ﴿لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾: لتفرقُوا عنك حتى لا يبقَى حولَك أحدٌ منهم، ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ﴾ ما كان منهم يومَ أُحُدٍ مما يختصُّ بك، ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ فيما يختصُّ بحقِّ اللهِ؛ إتماماً للشفقةِ عليهم، ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ أي: في أمر الحربِ ونحوِه؛ مما لم ينزلْ عليك فيه وحيٌ؛ تطييباً لنفوسِهم؛ وترويحاً لقلوبِهم؛ ورفعاً لِأقدارِهم؛ ولتقتديَ بك أمتُك فيها.

في الحديث: «ما تشاورَ قومٌ قطُّ إلا هُدُوا لأرشدِ أمرِهم»[٣]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه: ما رأيت أحداً أكثرَ مشاورةً من أصحابِ رسول الله ﷺ[٤].

ومعنى: شاورتُ فلاناً: أظهرتُ ما عندي وما عنده من الرأيِ، وشُرْتُ الدابةَ: استخرجتُ جَرْيَها[٥]، وشُرْتُ العسلَ: أخذتُه من مآخذِه، وفيه دلالةُ جوازِ الاجتهادِ وبيانُ أن القياس حجةٌ.

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾: فإذا قطعت الرأيَ على شيءٍ بعدَ الشُورى ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ في إمضاء أمرِك على الأرشدِ، لا على المشُورةِ؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ عليه، والتوكلُ: الاعتمادُ على اللهِ، وتفويضُ الأمرِ إليه، وقال ذو النون: خلعُ الأربابِ وقطعُ الأسبابِ.

---

(١) الحصر مستفاد من تقديم الجار والمجرور، وزيادةُ ما لزيادة الدلالة على الحصر؛ فإن التقديم قد يخلو عن الحصر، وزيادةُ ما لدفع هذا الاحتمال ولتأكيد الحصر. انظر «حاشية القونوي على تفسير البيضاوي» (٦/ ٣٨١) و«فتوح الغيب» (٤/ ٣٢١).

(٢) **الجاش**: نفس الإنسان، فلانٌ رابطُ الجاش؛ أي: يربطُ نفسه عن الفرار؛ لشجاعته، وقيل: الجاشُ: قلب الإنسان.

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٥/ ٢٩٨) من قول الحسن البصري.

(٤) رواه ابن حبان في «صحيحه» (٤٨٧٢) بلفظ: ما رأيت أحداً أكثرَ مشاورةً لأصحابه من رسول الله ﷺ.

(٥) أي: أجْرَيتَها لتعرف قُوَّتَها.

إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ . .

《١٦٠》 ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ﴾ كما نصرَكم يومَ بدرٍ ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾: فلا أحدَ يغلبُكم، وإنما يدركُ نصرَ اللهِ من تبرأَ من حولِه وقوتِه، واعتصمَ بربِّه وقدرتِه، ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ كما خذلَكم يومَ أُحُدٍ، ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾: من بعدِ خِذْلانِه، وهو: تركُ المعونةِ، أو: هو من قولك: ليس لك مَن يُحسنُ إليك من بعدِ فلانٍ؛ تريد: إذا جاوزتَه، وهذا تنبيهٌ على أن الأمر كلَّه لله، وعلى وجوب التوكلِ عليه، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾: ولْيَخُصَّ المؤمنون ربَّهم بالتوكل والتفويض إليه؛ لعلمهم أنه لا ناصرَ سواه، ولأن إيمانَهم يقتضي ذلك.

《١٦١》 ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ﴾: مكيٌّ، وأبو عمرٍو وعاصمٌ؛ أي: يَخون، وبضم الياءِ وفتح الغين: غيرُهم[(١)]، يقال: غَلَّ شيئاً من المغنمِ غُلولاً، وأَغَلَّ إغلالاً: إذا أَخَذَهُ في خِفيةٍ، ويقال: أَغَلَّه: إذا وَجَدَه غالّاً؛ والمعنى: وما صحَّ له ذلك؛ يعني: أن النبوةَ تُنافي الغُلولَ، وكذا مَن قرأَ على البناء للمفعول.. فهو راجع إلى هذا؛ لأن معناه: وما صحَّ له أن يُوجدَ غالّاً، ولا يُوجدُ غالّاً إلا إذا كان غالّاً، روي: أن قطيفةً حمراءَ فُقدت يومَ بدرٍ مما أُصيبَ من المشركين، فقال بعض المنافقين: لعلَّ رسول الله ﷺ أخذَها، فنزلت الآية[(٢)]، ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: يأتِ بالشيءِ الذي غلَّه بعينِه حاملاً له على ظهرِه، كما جاء في الحديث[(٣)]، أو: يأتِ بما احتملَ من وَبالِه وإثمِه، ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾: تُعطى جزاءَها وافياً، ولم يقل: ثم يُوفَّى ما كسب؛ ليتصلَ بقوله: (ومن يغلل)، بل جِيءَ بِعامٍّ؛ ليدخلَ تحتَه كلُّ كاسبٍ؛ مِن الغالِّ وغيرِه، فاتصلَ به من حيث المعنى، وهو أبلغُ؛ لأنه إذا عَلِمَ الغالُّ أن كلَّ كاسبٍ خيراً أو شرّاً مَجْزِيٌّ فَمُوَفّىً جزاءَه.. علمَ أنه غيرُ مُتَخَلِّصٍ من بينهم مع عِظَمِ ما اكتسب، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾﴾ أي: جزاءُ كلٍّ على قدرِ كَسْبِه.

《١٦٢》 ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي: رضا اللهِ، قيل: هم: المهاجرون والأنصار، ﴿كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وهم: المنافقون والكفار، ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾﴾: المرجعُ.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٧٢).

(٢) رواه أبو داود (٣٩٧١) والترمذي (٣٠٠٩) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) رواه البخاري (٣٠٧٣)، ومسلم (١٨٣١) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ ....

«١٦٣» ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ﴾: هم متفاوتون كما تتفاوت الدرجات، أو: ذوو درجاتٍ؛ والمعنى: تفاوتُ منازلِ المثابين منهم ومنازلِ المعاقَبين، أو: التفاوتُ بين الثواب والعقاب، ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾: عالم بأعمالهم ودرجاتِها، فيجازيهم على حسابها.

«١٦٤» ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: على مَن آمن مع رسول الله ﷺ من قومه، وخَصَّ المؤمنين منهم؛ لأنهم هم المنتفعون بمبعثِه، ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾: من جنسهم عربياً مثلَهم، أو: من ولدِ إسماعيلَ كما أنهم من ولدِه، والمنَّةُ في ذلك من حيث إنه إذا كان منهم.. كان اللسان واحداً، فيسهلُ أخذُ ما يجب عليهم أخذُه عنه، وكانوا واقفين على أحواله في الصدق والأمانةِ، فكان ذلك أقربَ لهم إلى تصديقِه، وكان لهم شرفٌ لكونه منهم، وفي قراءةِ رسولِ الله ﷺ: ﴿من أَنْفَسِهم﴾[1]؛ أي: من أشرفِهم، ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: القرآنَ بعد ما كانوا أهلَ جاهليةٍ، لم يَطْرُقْ أسماعَهم شيءٌ من الوحي، ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾: ويطهرُهم بالإيمان من دَنَسِ الكفرِ والطغيانِ، أو: يأخذُ منهم الزكاةَ، ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾: القرآنَ والسنة، ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ﴾: من قبلِ بعثةِ الرسولِ ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ﴾: عمىً وجهالةٍ، ﴿مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾: ظاهرٍ لا شبهةَ فيه، (إن): مخففةٌ من الثقيلة، واللامُ: فارقةٌ بينها وبين النافية، والتقديرُ: وإنَّ الشأنَ والحديثَ كانوا من قبلُ في ضلال مبين.

«١٦٥» ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾: يريدُ ما أصابهم يومَ أحدٍ من قتلِ سبعين منهم، ﴿قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ يومَ بدرٍ؛ من قتل سبعين، وأسرِ سبعين، وهو في موضع رفعٍ صفةٌ لـ (مصيبةٌ)، ﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ﴾: من أين هذا؟ ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْۗ﴾؛ لاختياركم الخروجَ من المدينة، أو: لتركِكُم المركَزَ، (لمّا): نصبٌ بـ (قلتم)، و(أصابتكم): في محلِّ الجرِّ بإضافةِ (لما) إليه، وتقديرُه: أقُلتُم حينَ أصابتكم[2]؟ و(أنّى) هذا: نصبٌ؛ لأنه مقولٌ، والهمزةُ: للتقرير والتقريع، وعطفت الواوُ هذه الجملةَ على ما مضى من قصة أُحُدٍ من قوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾

---

(١) هي قراءة شاذة. انظر «الدر المصون» (٣/ ٤٧١).

(٢) نصبُ (لمّا) هو مذهب الفارسي، وعند سيبويه: هي حرف شرط لا محل لها. انظر «همع الهوامع» (٢/ ٢٢٢).

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ١٦٧ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٦٨﴾ ....

أو: على محذوفٍ، كأنه قيل: أفعلتم كذا؟ وقلتم حينئذ كذا؟ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥﴾: يقدرُ على النصرِ، وعلى منعه.

《١٦٦》 ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ﴾ (ما): بمعنى الذي، وهو مبتدأٌ، ﴿يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾: جمعُكم وجمعُ المشركين بأُحُدٍ، والخبرُ: ﴿فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾: فكائنٌ بإذن الله؛ أي: بعلمِه وقضائِه ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦﴾.

《١٦٧》 ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ﴾ وهو كائنٌ؛ ليتميزَ المؤمنون والمنافقون، وليظهرَ إيمانُ هؤلاءِ، ونفاقُ هؤلاءِ، ﴿وَقِيلَ لَهُمۡ﴾: للمنافقين، وهو كلامٌ مبتدأٌ، ﴿تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: جاهدُوا للآخرة، كما يقاتلُ المؤمنون، ﴿أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ﴾ أي: قاتلُوا دفعاً عن أنفسِكم وأهليْكم وأموالِكم إن لم تُقاتلوا للآخرة، وقيل: أو: ادفعوا العدوَّ بتكثيرِكم سوادَ المجاهدين إن لم تقاتلُوا؛ لأن كثرةَ السوادِ مما تُروِّعُ العدوَّ، ﴿قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ﴾ أي: لو نعلم ما يصحُّ أن يسمَّى قتالاً.. لاتبعناكم؛ يعنون: أنَّ ما أنتم فيه لخطأِ رأيِكم ليس بشيءٍ، ولا يقال لمثله: قتالٌ، إنما هو إلقاءُ النفسِ في التَّهلُكةِ، ﴿هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ﴾ يعني: أنهم كانوا يتظاهرون بالإيمان قبلَ ذلك، وما ظهرت منهم أمارةٌ تؤذنُ بكفرهم، فلما انخذلُوا عن عسكرِ المؤمنين وقالوا ما قالوا.. تباعدُوا بذلك عن الإيمان المظنون بهم، واقتربُوا من الكفر، أو: هم لِأهلِ الكفرِ أقربُ نصرةً منهم لِأهلِ الإيمانِ؛ لأن تقليلَهم سوادَ المؤمنين بالانخذال تقويةٌ للمشركين، ﴿يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ﴾ أي: يُظهرون خلافَ ما يضمرُون من الإيمان وغيرِه، والتقييدُ بالأفواهِ للتأكيدِ ونفيِ المجازِ، ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ١٦٧﴾ من النفاقِ.

《١٦٨》 ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ﴾ أي: ابنُ أُبَيٍّ وأصحابُه، وهو في موضع رفعٍ على: همُ الذين قالوا، أو: على الإبدالِ من واوِ ﴿يَكۡتُمُونَ﴾، أو: نصبٌ بإضمار: أعني، أو: على البدل من ﴿ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ﴾، أو: جرٌّ على البدل من الضميرِ في ﴿بِأَفۡوَٰهِهِم﴾، أو ﴿قُلُوبِهِمۡۚ﴾، ﴿لِإِخۡوَٰنِهِمۡ﴾: لأجل إخوانِهم من جنس المنافقين المقتولين يومَ أحدٍ، ﴿وَقَعَدُواْ﴾ أي: قالوا وقد قعدوا عن القتال ﴿لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ﴾: لو أطاعَنا إخوانُنا فيما أمَرْناهم به من الانصرافِ عن رسول الله ﷺ والقعودِ،

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ ....

ووافقونا فيه.. لما قتلوا كما لم نُقتل، ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ بأن الحذرَ ينفعُ من القدرِ، فخُذُوا حِذْرَكم من الموت، أو: معناه: قلْ: إن كنتم صادقين في أنكم وجدتم إلى دفع القتل سبيلاً وهو القعودُ عن القتال.. فخذُوا إلى دفع الموت سبيلاً، وروي: أنه مات يومَ قالوا هذه المقالة سبعون منافقاً.

《١٦٩》 ونزل في قتلى أُحُدٍ[1]: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾: شاميٌّ وحمزةُ وعاصمٌ، وبكسرِ السينِ: غيرُهم[2]، والخطابُ لرسول الله ﷺ، أو: لكلِّ أحدٍ، ﴿ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟﴾ ﴿قُتِّلُوا﴾: شاميٌّ، ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ﴾: بل هم أحياءٌ ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾: مقربون عنده ذَوُو زُلْفى، ﴿يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ مثلَ ما يُرزقُ سائرُ الأحياءِ، يأكلون ويشربون، وهو تأكيدٌ لكونهم أحياءً، ووصفٌ لحالهم التي هم عليها من التنعم برزقِ اللهِ.

《١٧٠》 ﴿فَرِحِينَ﴾: حالٌ من الضمير في ﴿يُرْزَقُونَ﴾، ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ وهو: التوفيقُ في الشهادةِ، وما ساقَ إليهم من الكرامةِ والتفضيلِ على غيرهم؛ من كونِهم أحياءً مُقرَّبين، مُعجلاً لهم رزقُ الجنةِ ونعيمُها، وقال النبي عليه السلام: «لما أصيبَ إخوانُكم بأحدٍ.. جعلَ اللهُ أرواحَهم في أجوافِ طيرٍ خضرٍ تدورُ في أنهارِ الجنةِ، وتأكلُ من ثمارها، وتأوي إلى قناديلَ من ذهبٍ معلقةٍ في ظلِّ العرشِ»[3]، وقيل: هذا الرزقُ في الجنة يومَ القيامةِ، وهو ضعيفٌ؛ لأنه لا يبقى للتخصيصِ فائدةٌ، ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ﴾: بإخوانِهم المجاهدين الذين ﴿لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم﴾: لم يُقتلُوا فيلحقوا بهم ﴿مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ يريد: الذين من خلفهم قد بقُوا من بعدهم، وهم قد تقدَّموهم، أو: (لم يلحقوا بهم): لم يُدركوا فضلَهم ومنزلتَهم، ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾: بدلٌ من (الذين)؛ والمعنى: ويستبشرون بما تبينَ لهم من حالِ مَن تَركوا خلفَهم من المؤمنين، وهو: أنهم يُبعثون آمنين يوم القيامة، بَشَّرَهم اللهُ بذلك، فهم مُستبشرون به، وفي ذكر حالِ الشهداءِ واستبشارِهم بمن خلفَهم بعثٌ للباقين بعدَهم على الجِدِّ في الجهادِ، والرغبةِ في نيل منازلِ الشهداءِ، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾.

---

(١) رواه أبو داود (٢٥٢٠) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٧٢) وكذا القراءة الآتية.

(٣) رواه أبو داود (٢٥٢٠) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٧١ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝١٧٢ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ۝١٧٣﴾ ....

《١٧١》 ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾: يُسرُّون بما أنعم الله عليهم، وبما تفضلَ عليهم من زيادةِ الكرامةِ، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾: عطفٌ على النعمة والفضلِ، ﴿وإن الله﴾: عليٌّ[1]، بالكسر على الاستئناف، وعلى أن الجملة اعتراضٌ، ﴿لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٧١﴾: بل يُوَفِّرُ عليهم[2].

《١٧٢》 ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾: مبتدأٌ، خبرُه: (للذين أحسنوا)، أو: صفةٌ لـ (المؤمنين)، أو: نصبٌ على المدح، ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾: الجُرْحُ، روي: أن أبا سفيانَ وأصحابَه لمّا انصرفوا من أُحُدٍ فبلغُوا الرَّوحاءَ.. ندمُوا وهمُّوا بالرجوعِ، فبلغَ ذلك رسولَ الله ﷺ، فأراد أن يُرهِبَهم ويُريَهم من نفسه وأصحابِه قوةً، فندب النبيُّ أصحابَه للخروجِ في طلبِ أبي سفيانَ، فخرجَ يومَ الأحدِ من المدينة مع سبعين رجلاً، حتى بلغوا حمراءَ الأسدِ، وهي من المدينة على ثمانيةِ أميالٍ[3]، وكان بأصحابه القَرْحُ، فألقى اللهُ الرُّعْبَ في قلوب المشركين فذهبُوا، فنزلت[4]، ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟﴾ مِن: للتبيين، مثلها في قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً﴾ [الفتح: ٢٩]؛ لأن الذين استجابوا لله والرسول قد أحسنُوا كلُّهم واتقَّوا، لا بعضُهم، ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝١٧٢﴾ في الآخرة.

《١٧٣》 ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾: بدلٌ مِن ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟﴾ ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾.

روي: أن أبا سفيانَ نادى عند انصرافِه من أُحُدٍ: يا محمدُ موعدُنا موسمُ بدرٍ لقابلٍ، فقال عليه السلام: «إن شاء الله»، فلمّا كان القابلُ.. خرج أبو سفيانَ في أهل مكةَ، فألقى الله الرعبَ في قلبِه، فَبَدا له أن يرجعَ، فلقيَ نُعيمَ بنَ مسعودٍ الأشجعيَّ وقد قدمَ معتمِراً، فقال: يا نُعيمُ إني واعدتُ محمداً أن نلتقيَ بموسمِ بدرٍ، وقد بدا لي، فالْحَقْ بالمدينةِ فَثَبِّطْهُم ولك عندي عشرةٌ من الإبلِ، فخرج نُعيمٌ فوجد المسلمين يتجهزون، فقال لهم: أتريدون أن تخرجُوا وقد جمعُوا لكم؟

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٧٣).

(٢) **يُوَفِّرُ عليهم**: يُتمُّ لهم أجرَهم.

(٣) الميل: (١٨٤٨م). انظر «الفقه الإسلامي وأدلته» للزحيلي (١/ ١٤٢).

(٤) انظر «السيرة النبوية» لابن كثير (٣/ ٩٧)، وأصل الحادثة في «البخاري» (٤٠٧٧) عن سيدتنا عائشة رضي الله عنها.

﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ....﴾

فو اللهِ لا يُفْلِتُ منكم أحدٌ، فقال عليه السلام: «والله لأخرجنَّ ولو لم يخرجْ معي أَحَدٌ» فخرج في سبعين راكباً وهم يقولون: حسبنا الله ونعم الوكيل، حتى وافَوا بدراً، وأقامُوا بها ثمانيَ ليالٍ، وكانت معهم تجارةٌ فباعوها، وأصابُوا خيراً، ثم انصرفوا إلى المدينة سالمين غانمين، ولم يكن قتالٌ، ورجعَ أبو سفيانَ إلى مكةَ، فسمَّى أهلُ مكةَ جيشَه جيشَ السويقِ، وقالوا: إنما خرجتم؛ لتأكلوا السويقَ[1]، فالناس الأول: نُعيم بن مسعود، وهو جمعٌ أُريدَ به الواحدُ، أو: كان له أتباعٌ يُثَبِّطُون مثلَ تثبيطِهِ، والثاني: أبو سفيانَ وأصحابُه، ﴿فَاخْشَوْهُمْ﴾: فخافوهم، ﴿فَزَادَهُمْ﴾ أي: المقولُ الذي هو: (إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم)، أو: القولُ، أو: نُعيمٌ، ﴿إِيمَانًا﴾: بصيرةً وإيقاناً، ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾: كافينا اللهُ؛ أي: الذي يكفينا اللهُ؛ يقال: أَحْسَبَهُ الشيءُ: إذا كفاه، وهو بمعنى المُحْسِبِ؛ بدليل أنك تقول: هذا رجل حَسْبُكَ، فتصفُ به النكرة؛ لأن إضافته غيرُ حقيقةٍ؛ لكونه في معنى اسمِ الفاعلِ، ﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾: ونعم الموكولُ إليه هو.

《١٧٤》 ﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ وهي: السلامةُ، وحذرُ العدوِّ منهم، ﴿وَفَضْلٍ﴾ وهو: الربحُ في التجارة، فأصابُوا بالدرهمِ درهمين، ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾: لم يَلْقَوا ما يسوؤُهم من كيدِ عدوٍّ، وهو حالٌ من الضمير في (انقلبوا)، وكذا (بنعمةٍ)، والتقديرُ: فرجعُوا من بدرٍ مُنعَّمين بَريئينَ من سُوءٍ، ﴿وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾: بجَراءَتِهم وخروجِهم إلى وجه العدوِّ على أَثَرِ تثبيطِه، وهو معطوفٌ على: انقلبوا، ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾: قد تفضلَ عليهم بالتوفيق فيما فعلُوا.

《١٧٥》 ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ هو: خبرُ (ذلكم) أي: إنما ذلكم المثبِّطُ هو الشيطان، وهو نُعيمٌ، ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ أي: المنافقين، وهو جملةٌ مستأنفةٌ، بيانٌ لِشَيْطَنَتِهِ، أو: الشيطانُ: صفةٌ لاسمِ الإشارةِ، و(يخوف): الخبرُ، ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ أي: أولياءه، ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾؛ لأن الإيمان يقتضي أن يُؤْثِرَ العبدُ خوفَ اللهِ على خوفِ غيرِه، ﴿وخافُونِي﴾: في الوصلِ والوقفِ: سهلٌ، ويعقوبُ، وافقهما أبو عمرٍو في الوصل[2].

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٣/ ٢٠٩) عن مجاهد وعكرمة.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٧٣).

﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ ...﴾

《١٧٦》 ﴿وَلَا يَحْزُنكَ﴾ ﴿يُحزِنْكَ﴾: في كل القرآن: نافعٌ، إلا في سورةِ الأنبياءِ: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣][١]، ﴿ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ يعني: لا يُحزنُونك لخوف أن يَضرُّوك؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ أي: أولياءَ اللهِ؛ يعني: أنهم لا يضرون بمسارعتهم في الكفر غيرَ أنفسِهم، وما وَبَالُ ذلك عائداً على غيرِهم، ثم بيَّنَ كيف يعودُ وبالُه عليهم بقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي: نصيباً من الثواب، ﴿وَلَهُمْ﴾ بدلَ الثوابِ ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾، وذلك أبلغُ ما ضرَّ به الإنسانُ نفسَه، والآيةُ تدلُّ على إرادة الكفرِ والمعاصِي؛ لأن إرادته ألّا يكونَ لهم ثوابٌ في الآخرة لا تكون بدون إرادةِ كفرِهم ومعاصيْهم.

《١٧٧》 ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي: استبدلوه به ﴿لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ هو: نصبٌ على المصدر؛ أي: شيئاً من الضررِ، الآيةُ الأولى فيمن نافقَ مِن المتخلفين، أو ارتدَّ عن الإسلام، والثانيةُ في جميع الكفارِ، أو: على العكس، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾﴾.

《١٧٨》 ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ وثلاثةٌ بعدها[٢] مع ضمِّ الباء في ﴿يحسبُنهم﴾: بالياءِ: مكيٌّ وأبو عمرٍو، وكلُّها بالتاءِ: حمزةُ، وكلُّها بالياءِ: مدنيٌّ وشاميٌّ، إلا ﴿فلا تحسبنهم﴾ فإنها بالتاءِ، الباقون: الأُوليان: بالياءِ، والأُخريان: بالتاءِ[٣]، ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ فيمن قرأ بالياءِ: رفعٌ؛ أي: ولا يَحسبَنَّ الكافرون، و(أنَّ) مع اسمه وخبرِه في قوله: ﴿أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾: في موضع المفعولين لـ(يحسبن)، والتقدير: ولا يحسبن الذين كفروا إملاءَنا خيراً لأنفسهم، و(ما): مصدريةٌ، وكان حقُّها في قياس علم الخطِّ أن تكتبَ مفصولةً، ولكنها وقعت في الإمام متصلةً، فلا يخالَفُ، وفيمن قرأ بالتاءِ: نصبٌ؛ أي: ولا تحسبن الكافرين، و(أنما نملي لهم خير لأنفسهم): بدلٌ من الكافرين؛ أي: ولا تحسبنَّ أن ما نملي للكافرين خيرٌ لهم، و(أنَّ) مع ما في حيزه ينوبُ عن المفعولين، والإملاءُ لهم: إمهالُهم، وإطالةُ عُمرِهم، ﴿إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا﴾ (ما) هذه:

---

(١) انظر «النشر في القراءات العشر» (٢/ ٢٤٤).
(٢) هي: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾، و﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ﴾ ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾.
(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص٧٣ و٧٤).

﴿مَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾ ....

حقُّها أن تُكتبَ متصلةً؛ لأنها كافةٌ، دونَ الأولى، وهذه جملةٌ مستأنفةٌ، تعليلٌ للجملة قبلَها، كأنه قيل: ما بالُهم لا يَحسَبون الإملاءَ خيراً لهم؟ فقيل: إنما نُملي لهم ليزدادوا إثماً، والآيةُ حجةٌ لنا على المعتزلةِ في مسألتَي الأصلحِ وإرادةِ المعاصي، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾.

《١٧٩》 واللامُ في ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ منِ اختلاطِ المؤمنين الخُلَّصِ والمنافقين.. لتأكيد النفي، ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾: حتى يَعْزِلَ المنافقَ عن المخلصِ، ﴿يُمَيِّزَ﴾: حمزةُ وعليٌّ[1]، والخطابُ في (أنتم): للمصدقين من أهل الإخلاصِ والنفاقِ؛ كأنه قيل: ما كان الله ليذرَ المخلِصين منكم على الحال التي أنتم عليها منِ اختلاطِ بعضِكم ببعضٍ حتى يَميْزَهُمْ منكم بالوحيِ إلى نبيِّه وإخبارِه بأحوالِكم، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾: وما كان اللهُ ليؤتيَ أحداً منكم علمَ الغيوبِ، فلا تتوهَّمُوا عند إخبارِ الرسولِ بنفاقِ الرجلِ وإخلاصِ الآخرِ أنه يَطَّلِعُ على ما في القلوب اطِّلاعَ اللهِ، فيخبرُ عن كفرها وإيمانِها، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي: ولكن اللهَ يرسلُ الرسولَ فيوحيْ إليه، ويخبرُه بأن في الغيب كذا، وأن فلاناً في قلبه النفاقُ، وفلاناً في قلبه الإخلاصُ، فيعلمُ ذلك من جهةِ إخبارِ اللهِ، لا مِن جهةِ نفسِه، والآيةُ حجةٌ على الباطنيةِ، فإنهم يَدَّعُون ذلك لإمامهم، فإن لم يُثبتوا النبوةَ له.. صاروا مخالفين للنص؛ حيث أثبتُوا علمَ الغيبِ لغير الرسلِ، وإن أثبتُوا النبوةَ له.. صارُوا مخالفين لنصٍّ آخرَ، وهو قولُه: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ بصفةِ الإخلاصِ، ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾ النفاقَ ﴿فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾ في الآخرةِ.

《١٨٠》 ونزلَ في مانِعِي الزكاةِ[2]:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم﴾ مَن قرأ بالتاء.. قَدَّرَ مُضافاً محذوفاً؛ أي: ولا تحسبن بُخْلَ الباخلين، و(هو): فصلٌ، و(خيراً لهم): مفعولٌ ثانٍ، وكذا مَن

---

(١) انظر المرجع السابق (ص٧٤).

(٢) رواه البخاري (١٤٠٣) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾

قرأ بالياءِ وجعلَ فاعلَ (يحسبن) ضميرَ رسولِ اللهِ، أو ضميرَ أحَدٍ[1]، ومَن جعل فاعله (الذين يبخلون) كان التقديرُ: ولا يحسبن الذين يبخلون بُخْلَهم هو خيراً لهم، و(هو): فصلٌ، و(خيراً لهم): مفعولٌ ثانٍ، ﴿بَلْ هُوَ﴾ أي: البخلُ ﴿شَرٌّ لَّهُمْ﴾ لأن أموالَهم ستزولُ عنهم، ويبقى عليهم وَبالُ البخلِ، ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: تفسيرٌ لقوله: (بل هو شر لهم) أي: سيجعلُ مالَهم الذي منعُوه عن الحقِّ طوقاً في أعناقهم، كما جاء في الحديث: «من منع زكاة ماله.. يصيرُ حيةً ذكراً أقرعَ له نابانِ فيطوَّقُ في عُنقِه فينهَشُه ويدفعُه إلى النار»[2]، و﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: وله ما فيهما مما يتوارثُه أهلُهما من مالٍ وغيرِه، فما لَهم يبخلون عليه بملكِه، ولا ينفقونه في سبيل الله؟ والأصلُ في (ميراث): مِوْراثٌ، فَقُلِبَت الواوُ ياءً؛ لانكسارِ ما قبلها، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾ وبالياءِ: مكيٌّ وأبو عمرٍو[3]، فالتاءُ: على طريقة الالتفات، وهو أبلغُ في الوعيدِ، والياءُ: على الظاهر.

《١٨١》 ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ قال ذلك اليهودُ حين سمعُوا قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥]، وقالوا: إنَّ إلهَ محمدٍ يستقرضُ منّا، فنحنُ إذاً أغنياءُ، وهو فقيرٌ؛ ومعنى سماعِ اللهِ له: أنه لم يخفَ عليه، وأنه أعدَّ له كُفْأَهُ من العقابِ، ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾: سنأمرُ الحفظةَ بكتابةِ ما قالوا في الصحائف، أو سنحفظُه؛ إذ الكتابُ من الخَلْقِ لحفظِ ما فيه، فسمِّيَ به مجازاً، و(ما): مصدريةٌ، أو بمعنى الذي، ﴿وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾: معطوفٌ على (ما)، جعلَ قتلَهم الأنبياءَ قرينةً له؛ إيذاناً بأنهما في العِظَمِ أخوانِ، وأن من قتلَ الأنبياءَ.. لم يُستبعدْ منه الاجتراءُ على مثل هذا القولِ، ﴿وَنَقُولُ﴾ لهم يومَ القيامةِ: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾ أي: عذاب النار، كما أذقتم المسلمين الغُصَصَ، قال الضحاك: يقول لهم ذلك خزنةُ جهنمَ، وإنما أضيف إلى الله تعالى؛ لأنه بأمره، كما في قوله: (سنكتب)، ﴿سيكتب﴾، ﴿وقتلهم﴾ ﴿ويقول﴾: حمزةُ.

《١٨٢》 ﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارةٌ إلى ما تقدم من عقابهم، ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: ذلك

---

(١) أي: ولا يحسبن أحدٌ.

(٢) رواه البخاري (١٤٠٣) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص٧٤) وكذا القراءة الآتية.

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٨٣ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ جَآءُو بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ١٨٤ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ١٨٥﴾

العذابُ بما قدمتم من الكفر والمعاصي، والإضافةُ إلى اليد لأن أكثر الأعمالِ يكون بالأيدي، فجُعِلَ كلُّ عملٍ كالواقع بالأيدي على سبيل التغليب؛ ولأنه يقال للآمر بالشيءِ: فاعلُه، فذِكْرُ الأيدي للتحقيق؛ يعني: أنه فَعلَ نفسُه، لا غيرُه بأمرِه، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ١٨٢﴾: وبأن الله لا يظلمُ عبادَه، فلا يعاقبُهم بغير جُرْمٍ.

«١٨٣» ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ﴾: في موضعِ جرٍّ على البدل من (الذين قالوا)، أو: نصبٍ بإضمار: أعني، أو: رفعٍ بإضمارِ: هُمْ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ﴾: أَمَرَنا في التوراة وأوصانا ﴿أَلَّا نُؤۡمِنَ﴾: بألا نؤمنَ ﴿لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ﴾ أي: يُقَرِّبَ قرباناً فتنْزلُ نارٌ من السماء فتأكلُه، فإن جئتَنا به.. صدَّقناكَ، وهذه دعوى باطلةٌ، وافتراءٌ على الله؛ لأن أكل النارِ القربانَ سببُ الإيمانِ للرسولِ الآتي به؛ لكونه معجزة، فهو إذاً وسائرُ المعجزات سواءٌ، ﴿قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾: بالمعجزاتِ سوى القُربانِ، ﴿وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ﴾ أي: بالقربان؛ يعني: قد جاءَ أسلافَكم الذين أنتم على مِلَّتِهم، وراضُونَ بفعلِهم، ﴿فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ﴾ أي: كان امتناعُكم عن الإيمان لأجلِ هذا، فلِمَ لَمْ تؤمنوا بالذين أتَوا به؟ ولِمَ قتلتموهم ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٨٣﴾ في قولكم: إنما نُؤخرُ الإيمانَ لهذا؟

«١٨٤» ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ﴾: فإن كذبك اليهودُ.. فلا يَهُولَنَّكَ[1]؛ فقد فعلتِ الأممُ بأنبيائها كذلك، ﴿جَآءُو بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾: بالمعجزات الظاهراتِ، ﴿وَٱلزُّبُرِ﴾: الكتبِ، جمعُ زَبُورٍ؛ مِن الزَّبْرِ، وهو الكتابةُ، ﴿وبِالزُّبُرِ﴾: شاميٌّ[2]، ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ﴾: جنسِه ﴿ٱلۡمُنِيرِ ١٨٤﴾: المضيءِ، قيل: هما واحدٌ في الأصل، وإنما ذُكرا لاختلافِ الوصفين، فالزبورُ: كتابٌ فيه حكمٌ زاجِرةٌ، والكتابُ المنيرُ هو: الكتابُ الهادي.

«١٨٥» ﴿كُلُّ نَفۡسٖ﴾: مبتدأٌ، والخبرُ: ﴿ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾، وجاز الابتداءُ بالنكرةِ؛ لما فيه من

---

(١) هاله الشيءُ: أفزعه.
(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٧٤).

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ ....

العمومِ؛ والمعنى: لا يَحزنك تكذيبُهم إياك، فمرجعُ الخلقِ إليَّ فأجازيْهم على التكذيب، وأجازيك على الصبر، وذلك قوله: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي: تُعطون ثوابَ أعمالِكم على الكمالِ يوم القيامة؛ فإن الدنيا ليست بدارِ الجزاءِ، ﴿فَمَن زُحْزِحَ﴾: بُعِّدَ، والزحزحةُ: الإبعادُ، ﴿عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾: ظَفِرَ بالخير، وقيل: فقد حصل له الفوزُ المطلقُ، وقيل: الفوزُ: نيلُ المحبوبِ، والبعدُ عن المكروه، ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾: شَبَّهَ الدنيا بالمتاع الذي يُدَلَّسُ به على المستامِ ويُغَرُّ حتى يشتريَه[١]، ثم يتبينُ له فسادُه ورداءتُه، والشيطانُ هو المدلِّسُ الغَرورُ، وعن سعيد بن جبير: إنما هذا لمن آثرها على الآخرةِ، فأما مَن طلب الآخرةَ بها.. فإنها متاعُ بلاغٍ[٢]، وعن الحسن: كخُضْرَةِ النباتِ ولَعِبِ البناتِ لا حاصلَ لها.

﴿١٨٦﴾ ﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾: والله لتبلون؛ أي: لتُختبرُنَّ ﴿فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾: بالإنفاقِ في سبيل الله، وبما يقعُ فيها من الآفات، ﴿وَأَنفُسِكُمْ﴾: بالقتل والأسرِ والجراحِ، وما يردُ عليها من أنواع المخاوفِ والمصائبِ، وهذه الآية دليلٌ على أن النفسَ هي الجسمُ المعايَنُ، دون ما فيه من المعنى الباطنِ، كما قال بعضُ أهلِ الكلامِ والفلاسفةُ، كذا في «شرح التأويلات»، ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يعني: اليهودَ والنصارى، ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا﴾: كالطعنِ في الدينِ، وصدِّ مَن أراد الإيمانَ، وتخطئةِ من آمن، ونحوِ ذلك، ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟﴾ على أذاهم، ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ مخالفةَ أمرِ الله ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ﴾: فإن الصبرَ والتقوى ﴿مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾: من معزوماتِ الأمورِ؛ أي: مما يجبُ العزمُ عليه من الأمور، خوطبَ المؤمنون بذلك؛ ليوطِّنُوا أنفسَهم على احتمال ما سيلقون من الشدائدِ والصبرِ عليها، حتى إذا لقُوها وهم مستعدُّون.. لا يَرْهَقُهم ما يَرْهَقُ مَن تُصيبه الشِّدَّةُ بغتةً، فينكرُها وتشمئزُّ منها نفسُه.

﴿١٨٧﴾ ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾: واذكر وقتَ أخذَ اللهُ ميثاقَ أهلِ الكتابِ، ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ عن الناس: بالتاءِ فيهما على حكايةِ مخاطبتِهم، كقوله: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ

---

(١) التَّدْليسُ في البيع: كِتمانُ عَيبِ السِلعة عن المشتري، والمستام: من يكلم البائع في سلعة ليشتريها.

(٢) روى نحوه ابنُ المبارك في «الزهد والرقائق» (ص٣٥).

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٨٨﴾ ....

بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ﴾ [الإسراء: ٤]، وبالياء: مكيٌّ وأبو عمرٍو وأبو بكرٍ[١]؛ لأنهم غيبٌ، والضميرُ: للكتاب، أكّدَ عليهم إيجابَ بيانِ الكتابِ، واجتنابَ كتمانِه، ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾: فنبذوا الميثاقَ، وتأكيدَه عليهم؛ أي: لم يراعُوه، ولم يلتفتوا إليه، والنبذُ وراءَ الظهرِ: مَثَلٌ في الطرحِ وتركِ الاعتدادِ، وهو دليلٌ على أنه يجبُ على العلماء أن يُبيِّنُوا الحقَّ للناس وما عَلِمُوه، وألَّا يكتموا منه شيئاً لغرضٍ فاسدٍ؛ مِن تسهيلٍ على الظلمةِ، وتطييبٍ لنفوسهم، أو لِجَرِّ منفعةٍ، أو دفعِ أذيّةٍ، أو لبُخلٍ بالعلم، وفي الحديث: «من كتم علماً عن أهله.. ألجمه اللهُ بلجامٍ من نار»[٢]، ﴿وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: عَرَضاً يسيراً، ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ١٨٧﴾.

《١٨٨》والخطابُ في ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾: لرسول الله، وأحدُ المفعولين: ﴿ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ﴾، والثاني: (بمفازة)، وقوله: (فلا تحسبنهم): تأكيدُه، تقديره: لا تحسبنهم فلا تحسبنهم فائزين، ﴿بِمَآ أَتَوا۟﴾: بما فعلُوا، وهي قراءةُ أبيٍّ[٣]، وأتى وجاءَ: يستعملان بمعنى: فَعَلَ، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾ [مريم: ٦١]، ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٧]، وقرأ النخعيُّ: ﴿بما آتوا﴾[٤] أي: أعْطوا، ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾: بمنجاة منه، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٨٨﴾: مُؤْلم.

روي: أن رسول الله ﷺ سألَ اليهودَ عن شيء مما في التوراة، فكتموا الحقَّ وأخبروه بخلافه، وأرَوْهُ أنهم قد صَدَقُوه، واستحمدُوا إليه، وفرحُوا بما فعلوا، فأطلعَ اللهُ رسولَه على ذلك، وسلّاه بما أنزل من وعيدِهم[٥]؛ أي: لا تحسبنَّ اليهودَ الذين يفرحون بما فعلوا من تدليسهم عليك، ويحبون أن تَحمَدَهم بما لم يفعلوا؛ من إخبارك بالصدق عما سألتهم عنه.. ناجين من العذاب، وقيل: هم المنافقون، يفرحون بما أَتَوا من إظهار الإيمان للمسلمين، وتوصلِهم بذلك إلى أغراضِهم، ويَستحمدُون إليهم بالإيمان الذي لم يفعلوه على الحقيقة[٦]، وفيه وعيدٌ لمن يأتي بحسنةٍ فيفرحُ بها فرحَ إعجابٍ، ويحبُّ أن يحمَدَه الناسُ بما ليس فيه.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٧٤).

(٢) رواه أبو داود (٣٦٥٨) والترمذي (٢٦٤٩) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) انظر «الكشاف» (١/ ٤٧٩).

(٤) انظر «المحرر الوجيز» (١/ ٥٥٣).

(٥) رواه البخاري (٤٥٦٨) ومسلم (٢٧٧٨) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦) روى البخاري (٤٥٦٧) ومسلم (٢٧٧٧) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رجالاً من المنافقين على =

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ ....

«١٨٩» ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فهو يملك أمرَهم، وفيه تكذيبٌ لمن قال: إن الله فقير، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾ فهو يقدرُ على عقابِهم.

«١٩٠» ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ﴾: لأدلةٍ واضحةٍ على صانعٍ قديمٍ عليمٍ حكيمٍ قادرٍ، ﴿لِّأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾: لمن خَلَصَ عقلُه عن الهوى خُلُوصَ اللُّبِّ عن القِشرِ، فيرى أن العرضَ المحدثَ في الجواهرِ يدلُّ على حدوثِ الجواهر؛ لأن جوهراً ما.. لا ينفكُّ عن عَرَضٍ حادثٍ، وما لا يخلو عن الحادث.. فهو حادثٌ، ثم حُدوثُها يدلُّ على محدثِها، وذا قديمٌ، وإلا.. لاحتاج إلى محدثٍ آخرَ إلى ما لا يتناهى، وحُسْنُ صنعِه يدلُّ على علمِه، وإتقانُه يدلُّ على حكمتِه، وبقاؤه يدلُّ على قدرتِه.

قال عليه السلام: «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها»[1]، وحكي: أنه كان في بني إسرائيل مَن إذا عبد الله ثلاثين سنةً.. أظلتْه سحابةٌ، فعبدَها فتىً فلم تُظلَّه، فقالت له أمه: لعل فَرْطَةً فَرَطَتْ منك في مُدتِك، قال: ما أذكر، قالت: لعلك نظرت مرةً إلى السماء ولم تعتبرْ، قال: لعلَّ، قالت: فما أُتيتَ إلا من ذاك.

«١٩١» ﴿ٱلَّذِينَ﴾: في موضعِ جرٍّ نعتٌ لـ (أُولي)، أو: نصبٍ بإضمار: أعني، أو: رفعٍ بإضمارِ: هُمْ، ﴿يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ﴾: يُصلُّون ﴿قِيَٰمًا﴾: قائمين عند القدرةِ، ﴿وَقُعُودًا﴾: قاعدين، ﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ أي: مضطجعين عند العجزِ، و(قياماً وقعوداً): حالانِ من ضمير الفاعل في (يذكرون)، و(على جنوبهم): حالٌ أيضاً، أو المرادُ: الذكرُ على كلِّ حالٍ؛ لأن الإنسانَ لا يخلو عن هذه الأحوال، في الحديث: «من أحب أن يرتعَ في رياض الجنة.. فليكثِرْ ذكرَ الله»[2]، ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وما يدلُّ عليه اختراعُ هذه الأجرامِ العظامِ، وإبداعُ صنعتِها،

= عهد رسول الله ﷺ كان إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو.. تخلفوا عنه، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ، فإذا قدم رسول الله ﷺ.. اعتذروا إليه، وحلفوا وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فنزلت: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟﴾.

(١) رواه ابن حبان في «صحيحه» (٦٢٠) عن سيدتنا عائشة رضي الله عنها.

(٢) رواه ابن أبي شيبة «المصنف» (٦/٥٨) عن سيدنا معاذ رضي الله عنه.

رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ﴿١٩٣﴾ ..

وما دَبَّرَ فيها؛ مما تَكِلُّ الأفهامُ عن إدراكِ بعضِ عجائبِه.. على عظمِ شأنِ الصانعِ، وكبرياءِ سلطانِه، وعن النبي عليه السلام: «بينما رجلٌ مستلقٍ على فراشِه؛ إذْ رفعَ رأسَه فنظرَ إلى النجوم وإلى السماءِ فقال: أشهدُ أن لكِ ربّاً وخالقاً، اللهمَّ اغفرْ لي، فنظرَ اللهُ إليه فغفرَ له»، وقال عليه السلام: «لا عبادة كالتفكر»[١]، وقيل: الفكرةُ تذهبُ الغفلةَ، وتُحدِثُ للقلبِ الخشيةَ، وما جُلِيَتِ القلوبُ بمثلِ الأحزانِ، ولا استنارتْ بمثلِ الفكرِ، ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا﴾ أي: يقولون ذلك، وهو في محلِّ الحالِ؛ أي: يتفكرون قائلين؛ والمعنى: ما خلقتَه خلقاً باطلاً بغير حكمةٍ، بل خلقتَه لحكمةٍ عظيمةٍ، وهو أن تجعلَها مساكنَ للمكلفين، وأدلةً لهم على معرفتِك، و(هذا): إشارةٌ إلى الخلق، على أنَّ المرادَ به: المخلوقُ، أو: إلى السموات والأرض؛ لأنها في معنى المخلوق؛ كأنه قيل: ما خلقت هذا المخلوقَ العجيبَ باطلاً، ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾: تنْزيهاً لك عن الوصف بخلقِ الباطلِ، وهو اعتراضٌ، ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ الفاءُ دخلت لمعنى الجزاءِ، تقديره: إذا نزهناك.. فقنا.

«١٩٢» ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥ﴾[٢]: أهنتَه، أو: أهلكتَه، أو: فضحتَه، واحتجَّ أهلُ الوعيدِ بالآيةِ، مع قوله: ﴿يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ﴾ [التحريم: ٨]: في أن مَن يدخلُ النار.. لا يكونُ مؤمناً، ويخلدُ؛ قلنا: قال جابرٌ: إخزاءُ المؤمنِ تأديبُه، وإن فوق ذلك لَخِزياً[٣]، ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ اللامُ: إشارةٌ إلى مَن يدخلُ النار، والمرادُ: الكفارُ، ﴿مِنۡ أَنصَارٖ ﴿١٩٢﴾﴾: مِن أعوانٍ وشفعاءَ يشفعون لهم، كما للمؤمنين.

«١٩٣» ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا﴾ تقول: سمعت رجلاً يقولُ: كذا، فتوقعُ الفعلَ على الرجلِ، وتحذفُ المسموعَ؛ لأنك وصفته بما يُسمَعُ، فأغناك عن ذكره، ولولا الوصفُ.. لم يكن منه بدٌّ وأن يقال: سمعت كلامَ فلانٍ، والمنادي هو: الرسولُ عليه السلامُ، أو: القرآن،

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٣٥٨/٦) عن سيدنا علي رضي الله عنه.

(٢) أي: فقد أخزيته خزياً لا غاية وراءه؛ وإنما قيد الخزي بهذا؛ لأن جواب الشرط إذا كان أمراً ظاهرَ اللزوم للشرط كما في هذه الآية.. يُحمل على أعظم أفرادِه وأخصِّها؛ لتربية الفائدة. انظر «تفسير الألوسي» (٣٧٢/٢).

(٣) أهل الوعيد هم: المعتزلة، احتجوا بهذه الآية على أن صاحب الكبيرة ليس بمؤمن؛ لأنه إذا أدخله الله تعالى النار.. فقد أخزاه، والمؤمن لا يُخزى، والجواب: أن كل مَن يدخلُها مُخزىً، ولكن خزي المؤمن تأديبه ثم يخرج، وخزي الكافر إهلاكه. انظر «تفسير الألوسي» (٣٧٢/٢).

﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾ ....

﴿يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ﴾: لأجلِ الإيمانِ باللهِ، وفيه تفخيمٌ لشأنِ المنادي؛ إذْ لا مناديَ أعظمُ من منادٍ ينادِي للإيمان، ﴿أَنْ ءَامِنُوا﴾: بأن آمنوا، أو: أي: آمنوا[١] ﴿بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾ قال الشيخ أبو منصور رحمه الله: فيه دليل بطلان الاستثناء في الإيمان[٢]، ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾: كبائرَنا، ﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾: صغائرَنا، ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾﴾: مَخصوصين بصحبتِهم، معدودين في جملتهم[٣]، والأبرارُ: المتمسكون بالسنةِ، جمعُ: بَرٍّ، أو: بارٍّ، كَرَبٍّ وأربابٍ، وصاحبٍ وأصحابٍ.

《١٩٤》 ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ أي: على تصديقِ رسلِك، أو: ما وعدتَّنا مُنْزلاً على رسلِك، أو: على ألسنةِ رسلِك، و(على): متعلقٌ بـ (وعدتنا)، والموعودُ هو: الثوابُ، أو: النصرةُ على الأعداءِ، وإنما طلبُوا إنجازَ ما وعدَ اللهُ، واللهُ لا يخلف الميعاد؛ لأن معناه طلبُ التوفيق فيما يحفظ عليهم أسباب إنجازِ الميعادِ، أو: المرادُ: اجعلنا ممن لهم الوعدُ؛ إذ الوعدُ غير مبيَّنٍ لمن هو، أو: المرادُ: ثَبِّتْنا على ما يوصلُنا إلى عِدَتِك؛ يؤيدُه: قولُه: ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، أو: هو إظهارٌ للخضوع والضراعة؛ ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾ هو: مصدرٌ بمعنى: الوعدِ.

《١٩٥》 ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي: أجابَ؛ يقال: استجاب له واستجابَه، ﴿أَنِّى لَآ أُضِيعُ﴾: بِأنِّي لا أضيع ﴿عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم﴾ (منكم): صفةٌ لـ (عامل)، ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾: بيانٌ لـ (عامل)، ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾: الذكرُ من الأنثى، والأنثى من الذكرِ، وكلُّكم بنو آدمَ، أو:

---

(١) يشير إلى أنَّ (أنْ) إما مصدرية، أو حرف تفسير.

(٢) تأويلات أهل السنة (٢/ ٥٦٢).

(٣) الاختصاصُ مستفادٌ من طلب التوفي مع الأبرار، وذلك أن التوفيَ مع الأبرار في زمن واحد غير ممكن؛ لأن بعضاً منهم تقدم، وبعضاً لم يوجد، فالمراد: الانخراطُ في سِلْكِهم، وإذا كان منخرطاً في سِلكهم.. لا يكون مع غيرهم، فليست المعية زمانية؛ وإنما هي معية في الاتصاف بصفة الأبرار حين الوفاة. انظر «فتوح الغيب» (٤/ ٣٨٧)، و«الإكليل» (٢/ ٥١٦).

بعضُكم من بعضٍ في النصرة والدينِ، وهذه جملةٌ معترضةٌ بُيِّنَتْ بها شركةُ النساءِ مع الرجالِ فيما وعدَ اللهُ عبادَه العاملين، عن جعفرٍ الصادقِ رضي الله عنه: مَن حَزَبَهُ أمرٌ فقال خمسَ مراتٍ: ربنا.. أنجاهُ اللهُ مما يخافُ، وأعطاه ما أراد، وقرأ الآياتِ، ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾: مبتدأٌ، وهو تفصيلٌ لعملِ العاملِ منهم على سبيل التعظيم له؛ كأنه قال: فالذين عملُوا هذه الأعمالَ السنيةَ الفائقةَ، وهي المهاجَرَةُ عن أوطانِهم فارِّين إلى الله بدينِهم إلى حيث يأمنُون عليه، فالهجرةُ كائنةٌ في آخرِ الزمانِ كما كانت في أولِ الإسلامِ، ﴿وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ التي وُلِدُوا فيها ونَشَؤُوا ﴿وَأُوذُواْ فِى سَبِيلِى﴾: بالشتمِ والضربِ ونهبِ المال، يريدُ: سبيلَ الدينِ، ﴿وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ﴾: وغَزَوُا المشركين واستشهدوا، ﴿وقُتِّلُوا﴾: مكيٌّ وشاميٌّ، ﴿وقُتِلُوا وقَاتَلُوا﴾: على التقديم والتأخير: حمزةُ وعليٌّ[1]، وفيه دليلٌ على أن الواوَ لا تُوجبُ الترتيبَ، والخبرُ: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، وهو جوابُ قسمٍ محذوفٍ[2]، ﴿ثَوَابًا﴾: في موضع المصدرِ المؤكِّدِ؛ يعني: إثابةً، أو تثويباً ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾؛ لأن قوله: (لأكفرن عنهم ولأدخلنهم): في معنى: لأثيبنهم، ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾ أي: يختصُّ به، ولا يقدرُ عليه غيرُه.

﴿١٩٦﴾ ورويَ: أن طائفةً من المؤمنين قالُوا: إن أعداء الله فيما نَرى من الخير، وقد هلَكنا من الجوع، فنزلَ:

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾﴾ والخطابُ لكلِّ أحدٍ، أو: للنبي عليه السلام والمرادُ به غيرُه؛ ولأن مِدْرَهَ القومِ ومُقدَّمَهم يُخاطبُ بشيءٍ فيقومُ خطابُه مَقامَ خطابِهم جميعاً[3]، فكأنه قيل: لا يغرنكم؛ ولأن رسول الله ﷺ كان غيرَ مغرورٍ بحالهم، فأُكِّدَ عليه ما كان عليه، وثُبِّتَ على التزامِه، كقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [القصص: ٨٦]، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤] وهذا في النهي نظيرُ قوله في الأمر: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ﴾ [النساء: ١٣٦]..

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٧٥).

(٢) أي: (فالذين هاجروا): مبتدأ، وقوله: (لأكفرن): جواب قسم محذوف؛ أي: والله لأكفرن، وهذا القسم وجوابُه: خبرٌ للمبتدأ.

(٣) مِدْرَهُ القوم: زعيمهم وخطيبهم والمتكلم عنهم والدافع عنهم، والجمع: مداره.

﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًاۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾

《١٩٧》 ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾: خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ؛ أي: تقلبُهم في البلادِ متاعٌ قليلٌ، وأراد: قِلَّته في جنبِ ما فاتَهم من نعيم الآخرةِ، أو في جنبِ ما أعدَّ اللهُ للمؤمنين من الثواب، أو: أراد أنه قليلٌ في نفسِه؛ لانقضائِه، وكلُّ زائلٍ قليلٌ، ﴿ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾: وساءَ ما مَهَّدُوا لأنفسهم.

《١٩٨》 ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ﴾ عن الشركِ ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا﴾ النُّزُلُ والنُّزْلُ: ما يُقام للنازل، وهو حالٌ من (جنات)؛ لتخصصِها بالصفة، والعاملُ: اللامُ في (لهم)[1]، أو: هو مصدرٌ مؤكِّدٌ؛ كأنه قيل: رزقاً أو عطاءً ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۗ﴾: صفةٌ له، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾: من الكثير الدائمِ ﴿خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾ مما يتقلبُ فيه الفجارُ من القليلِ الزائلِ، ﴿لكنَّ﴾: بالتشديد: يزيدُ[2]، وهو للاستدراك؛ أي: لا بقاءَ لتمتعهم، لكنْ ذلك للذين اتقوا.

《١٩٩》 ونزلت في ابن سلام وغيرِه من مسلمي أهلِ الكتاب، أو: في أربعين من أهلِ نجرانَ، واثنين وثلاثين من الحبشةِ، وثمانيةٍ من الروم، وكانوا على دين عيسى عليه السلامُ فأسلموا:

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ دخلت لامُ الابتداء على اسم إنَّ؛ لفصلِ الظرف بينهما، ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ من القرآنِ، ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ من الكتابين، ﴿خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾: حالٌ من فاعل (يؤمن)؛ لأن (من يؤمن): في معنى الجمعِ، ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًاۗ﴾ كما يفعلُ من لم يُسلم من أحبارِهم وكبارِهم، وهو حالٌ بعدَ حالٍ؛ أي: غيرَ مشترين، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْۗ﴾ أي: ما يختصُّ بهم من الأجر، وهو ما وُعِدُوه في قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ [القصص: ٥٤]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾ لنفوذِ علمِه في كل شيءٍ.

《٢٠٠》 ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟﴾ على الدِّينِ وتكاليفِه، قال الجنيد رضي الله عنه:

---

(١) أي: العاملُ هو ما تعلقت به اللامُ، والتقدير: جنات كائنة لهم.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٧٥).

الصبرُ: حبسُ النفسِ على المكروه بنفي الجزع، ﴿وَصَابِرُواْ﴾ أعداءَ اللهِ في الجهادِ؛ أي: غالبُوهم في الصبر على شدائدِ الحربِ، لا تكونُوا أقلَّ صبراً منهم وثباتاً، ﴿وَرَابِطُواْ﴾: وأقيموا في الثُّغور رابطين خيلَكم فيها مُتَرَصِّدِينَ مُستعدينَ للغزوِ، ﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ الفلاحُ: البقاءُ مع المحبوبِ بعدَ الخلاصِ عن المكروهِ، ولعلَّ: لتغييبِ المآلِ؛ لئلا يتكلُوا على الآمالِ عن تقديم الأعمالِ، وقيل: اصبرُوا في محبتي، وصابرُوا في نعمتي، ورابطُوا أنفسَكم في خدمتي؛ لعلكم تفلحون: تَظفرُون بِقُرْبَتِي، قال النبي ﷺ: «اقرؤوا الزهراوين: البقرةَ وسورةَ آلِ عمرانَ؛ فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غَمامتان، أو غَيايتانِ، أو فرقان من طير صوافَّ، تُحاجّانِ عن أصحابهما»[1].



---

(١) رواه مسلم (٨٠٤) عن سيدنا أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه، وسميتا الزهراوين؛ لنورهما وهدايتهما وعظيم أجرهما، والغَمامة والغَيابة: كلُّ شيء أظل الإنسان فوق رأسه من سحابة وغيرها، والمرادُ: أن ثوابهما يأتي كغمامتين، والفِرقانِ: الجماعتان، والصوافُّ: الباسطات أجنحتَها في الطيران. انظر «شرح صحيح مسلم» للنووي (٦/ ٩٠).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾ ....

سورةُ النساءِ

مدنية، وهي مئةٌ وستٌّ وسبعون آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾: يا بني آدمَ ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾: فَرَّعَكم من أصلٍ واحدٍ، وهو: نفسُ آدمَ أبيْكم، ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾: معطوفٌ على محذوفٍ، كأنه قيل: من نفسٍ واحدةٍ أنشأها، وخلقَ منها زوجها؛ والمعنى: شَعَّبَكم من نفس واحدةٍ هذه صفتُها، وهي: أنه أنشأها من ترابٍ، وخلقَ منها زوجَها حواءَ من ضِلَعٍ من أضلاعِه، ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا﴾: ونشرَ من آدمَ وحواءَ ﴿رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ كثيرةً؛ أي: وبثَّ منهما نوعَي جنسِ الإنسِ، وهما: الذكورُ والإناثُ، فوصفَها بصفةٍ هي بيانٌ وتفصيلٌ لكيفيةِ خلقِهم منها، أو: على (خلقَكم).

والخطابُ في (يا أيها الناس): للذين بُعِثَ إليهم رسولُ الله ﷺ، والمعنى: خلقكم من نفسِ آدمَ، وخلقَ منها أمَّكم حواءَ، وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً غيرَكم من الأممِ الفائتةِ للحصرِ.

فإن قلت: الذي تقتضيه جزالةُ النظمِ أن يُجاءَ عقيبَ الأمرِ بالتقوى بما يدعو إليها، فكيف كان خلقُه إياهم من نفسٍ واحدةٍ على التفصيل الذي ذكرَه داعياً إليها؟

قلت: لأن ذلك مما يدل على القدرة العظيمةِ، ومن قدرَ على نحوه.. كان قادراً على كلِّ شيءٍ، ومن المقدورات عقابُ الكفارِ والفجارِ، فالنظرُ فيه يؤدي إلى أن يتقي القادرَ عليه، ويخشى عقابَه؛ ولأنه يَدُلّ على النعمةِ السابقةِ عليهم، فحقُّهم أن يتقُوه في كفرانها، قال عليه السلام عند نزول الآية: «خلقت المرأة من الرجلِ، فَهَمُّها في الرجل، وخلقَ الرجلُ من التراب فَهَمُّهُ في التراب»[(١)].

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَّاءَلُونَ بِهِ﴾ والأصلُ: تتساءلون، فأدغمت التاءُ في السينِ بعد إبدالِها سيناً لِقربِ التاءِ من السينِ للهمس، ﴿تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾: بالتخفيفِ: كوفيٌّ[(٢)]، على حذف التاءِ الثانيةِ؛ استثقالاً لاجتماع التاءين؛ أي: يسألُ بعضُكم بعضاً فيقول: باللهِ وبالرحمِ افعلْ كذا؛

---

(١) روى نحوه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٠/ ٢٢١) من قول سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٧٥) وكذا القراءة الآتية.

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾﴾ ....

على سبيل الاستعطافِ، ﴿وَٱلْأَرْحَامَ﴾: بالنصب، على أنه معطوفٌ على اسم الله؛ أي: واتقوا الأرحامَ أن تقطعُوها، أو: على موضع الجارِّ والمجرورِ، كقولك: مررت بزيدٍ وعمراً، و: بالجرِّ: حمزةُ، على عطف الظاهرِ على المضمرِ، وهو ضعيفٌ؛ لأن الضميرَ المتصلَ كاسمِه متصلٌ، والجارُّ والمجرورُ كشيءٍ واحدٍ، فأشبهَ العطفَ على بعضِ الكلمةِ[1]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾: حافظاً أو عالماً.

《٢》 ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ يعني: الذين ماتت آباؤهم فانفردُوا عنهم، واليُتْمُ: الانفرادُ، ومنه الدرةُ اليتيمةُ، وقيل: اليتمُ في الأناسيِّ من قبل الآباءِ، وفي البهائمِ من قبلِ الأمهاتِ، وحقُّ هذا الاسمِ أن يقع على الصغار والكبارِ؛ لبقاء معنى الانفرادِ عن الآباءِ، إلا أنه قد غلبَ أن يُسمَّوا به قبلَ أن يبلغُوا مبلغَ الرجالِ، فإذا استغنَوا بأنفسهم عن كافلٍ وقائمٍ عليهم.. زال هذا الاسمُ عنهم، وقولُه عليه السلام: «لا يُتْمَ بعدَ الحُلُم»[2] تعليمُ شريعةٍ لا لغةٍ؛ يعني: أنه إذا احتلمَ.. لم تَجْرِ عليه أحكامُ الصغارِ؛ والمعنى: وآتُوا اليتامى أموالَهم بعدَ البلوغِ، وسماهم يتامَى؛ لِقُرْبِ عهدِهم إذا بلغُوا.. بالصغرِ[3]، وفيه إشارةٌ إلى ألا يؤخرَ دفعُ أموالِهم إليهم عن حدِّ البلوغِ إن أُونِسَ منهم الرُّشْدُ، وأنْ يُؤْتَوها قبلَ أن يزولَ عنهم اسمُ اليتامى والصغارِ، ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ﴾: ولا تستبدلُوا الحرامَ، وهو مال اليتامى.. بالحلالِ، وهو مالُكم، أو: لا تستبدلُوا الأمرَ الخبيثَ، وهو اختزالُ أموالِ اليتامى[4].. بالأمرِ الطيبِ، وهو حفظُها والتورعُ عنها، و(التفعُّلُ) بمعنى: (الاستفعال): غيرُ عزيزٍ، ومنه التعجُّل بمعنى: الاستعجالِ، ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ (إلى): متعلقةٌ بمحذوفٍ، وهو في موضع الحالِ؛ أي: مضافةً إلى أموالكم؛ المعنى: ولا تضمُّوها إليها في الإنفاقِ حتى لا تُفرقُوا بين أموالكم وأموالهم؛ قِلَّةَ مبالاةٍ بما لا يحلُّ لكم؛ وتسويةً بينه وبين الحلالِ؛ ﴿إِنَّهُۥ﴾: إن أكلَها ﴿كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾﴾: ذنباً عظيماً.

---

(١) مذهب جمهور البصريين: أنه لا يعطف على الضمير المتصل المجرور إلا بإعادة حرف الجر، وذهب الكوفيون ويونس والأخفش إلى جواز العطف عليه بدون إعادة الخافض، واختاره الشلوبين وابن مالك، وقراءةُ الجرِّ: (والأرحامِ): متواترةٌ، فلا وجهَ للقول بضعف هذا العطف. انظر «شرح الكافية الشافية» لابن مالك (٣/ ١٢٥٤)، و«توضيح المقاصد» للمرادي (٢/ ١٠٢٦).

(٢) رواه أبو داود (٢٨٧٣) عن سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٣) فهو مجاز مرسل باعتبار ما كان.

(٤) اختزالُ أموالِ اليتامى: اقتطاعُها وسرقتُها.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾﴾ ....

《٣》 ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟﴾ أي: لا تعدلوا، أقسط؛ أي: عدَلَ، ﴿فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ يقال للإناث: اليتامَى، كما يقال للذكور، وهو: جمعُ يتيمةٍ ويتيم، والأصل: يَتايِم فقلب، وأما أيتامٌ.. فجمعُ يتيمٍ لا غيرُ، ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم﴾: ما حل لكم ﴿مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾؛ لأن منهن ما حَرُمَ، كاللاتي في آيةِ التحريم، وقيل: (ما)؛ ذهاباً إلى الصفة؛ لأن (ما): يجيءُ في صفات مَن يعقلُ، فكأنه قيل: الطيباتُ من النساء، ولأن الإناثَ من العقلاء يَجرين مَجرَى غيرِ العقلاءِ، ومنه: قولُه تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ قيلَ: كانوا لا يتحرجون من الزنا، ويتحرجُون من ولاية اليتامَى، فقيل: إن خفتم الجَوْرَ في حقِّ اليتامَى.. فخافُوا الزنا، فانكحُوا ما حلَّ لكم من النساءِ، ولا تحومُوا حولَ المحرماتِ، أو: كانُوا يتحرجُون من الولايةِ في أموالِ اليتامَى، ولا يتحرجُون من الاستكثارِ من النساءِ، مع أن الجَورَ يقعُ بينهن إذا كَثُرْنَ، فكأنه قيل: إذا تحرجتم من هذا.. فتحرجُوا من ذلك، وقيل: وإن خفتم أن لا تقسطُوا في نكاح اليتامَى.. فانكحُوا من البالغات[1]، يقال: طابت الثمرةُ؛ أي: أدركَتْ، ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾: نكراتٌ، وإنما مُنعتِ الصرفَ؛ للعَدْلِ والوصفِ، وعليه دلَّ كلام سيبويهِ[2]، ومحلُّهنَّ: النصبُ على الحال من (النساء)، أو من (ما طابَ)، تقديره: فانكحوا الطيباتِ لكم معدوداتٍ هذا العددَ: ثِنتين ثِنتين، وثلاثاً ثلاثاً، وأربعاً أربعاً.

فإن قلت: الذي أُطلقَ للناكح في الجمعِ أن يجمعَ بين اثنتين أو ثلاث أو أربع، فما معنى التكريرِ في (مثنى وثلاث ورباع)؟

قلت: الخطابُ للجميعِ، فوجبَ التكريرُ ليصيبَ كلَّ ناكحٍ يريد الجمعَ ما أراد من العدد الذي أُطلقَ له، كما تقول للجماعة: اقتسمُوا هذا المالَ، وهو ألفُ درهم: درهمين درهمين، وثلاثةً ثلاثةً، وأربعةً أربعةً، ولو أَفردْتَ.. لم يكن له معنىً، وجيءَ بالواوِ؛ لتدلَّ على تجويزِ

---

(١) روى البخاري (٤٥٧٤) ومسلم (٣٠١٨) عن سيدنا عروة بن الزبير رضي الله عنه، أنه سأل سيدتنا عائشة رضي الله عنها عن قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ فقالت: يا ابن أختي، هذه اليتيمة تكون في حَجْرِ وليِّها، تَشْرَكه في ماله، ويعجبه مالها وجمالها، فيريد وليُّها أن يتزوجها بغير أن يُقسِط في صداقها، فيعطيَها مثل ما يعطيها غيرُه، فنُهوا عن أن ينكحوهن إلا أن يُقسطوا لهن، ويَبلغوا لهن أعلى سُنّتهن في الصداق، فأُمِروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن.

(٢) انظر «الكتاب» لسيبويه (٣/ ٢٢٥).

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾﴾ ....

الجمعِ بين الفِرَقِ، ولو جيء بـ: أو مكانَها.. لذهبَ معنى التجويز[١]، ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ بين هذه الأعدادِ ﴿فَوَاحِدَةً﴾: فالزموا، أو: فاختاروا واحدةً، ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ سَوَّى في اليُسرِ بين الحرةِ الواحدةِ وبين الإماءِ من غيرِ حصرٍ، ﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارةٌ إلى اختيار الواحدةِ والتَّسَرِّي، ﴿أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾﴾: أقربُ منْ ألا تميلُوا، ولا تجورُوا؛ يقال: عالَ الميزانُ عولاً: إذا مالَ، وعالَ الحاكمُ في حكمِه: إذا جارَ.

ويُحكَى عن الشافعي رحمه الله أنه فسَّرَ (أن لا تعولوا): أن لا تكثرَ عيالُكم[٢]، واعترضُوا عليه: بأنه يقالُ: أعالَ الرجل يُعيلُ: إذا كَثُرَ عيالُه، وأُجيبَ: بأن يجعلَ مِن قولك: عالَ الرجلُ عيالَه يعولُهم، كقولك: مانَهم يمونُهم: إذا أنفقَ عليهم؛ لأن من كثُرَ عيالُه.. لزمَه أن يعولَهم، وفي ذلك ما يُصَعِّبُ عليه المحافظةَ على حدود الورعِ، وكسبِ الحلالِ، وكلامُ مثلِه من أعلامِ العلمِ حقيقٌ بالحمل على السَّدادِ، وألا يُظنَّ به تحريفُ: تُعِيلوا إلى (تعولوا)، كأنه سلكَ في تفسير هذه الكلمةِ طريقةَ الكناياتِ[٣].

《٤》 ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ﴾: مهورَهن ﴿نِحْلَةً﴾: مِن: نَحَلَهُ كذا: إذا أعطاه إياه، ووهبَه له عن طِيبةٍ من نفسه نِحْلة ونَحْلاً، وانتصابُها: على المصدر؛ لأن النحلةَ والإيتاءَ بمعنى: الإعطاءِ، فكأنه قال: وانحلُوا النساءَ صدقاتِهن نِحلةً؛ أي: أعطوهن مهورَهن عن طِيبةِ أنفسِكم، أو: على الحال من المخاطبين؛ أي: آتوهن صدقاتِهن ناحلينَ طَيِّبَي النفوسِ بالإعطاءِ، أو: من الصدقات؛ أي: منحولةً معطاةً عن طيبةِ الأنفسِ، وقيل: نِحلةً من الله، عطيةً من عنده، وتفضلاً منه عليهن، وقيل: النِّحلةُ: المِلةُ، وفلانٌ ينتحلُ كذا؛ أي: يدين به؛ يعني: وآتوهن مهورَهن ديانةً، على أنها مفعولٌ لها، والخطابُ للأزواجِ، وقيل: للأولياء؛ لأنهم كانوا يأخذون مهورَ بناتِهم، ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ﴾: للأزواج ﴿عَن شَىْءٍ مِّنْهُ﴾ أي: من الصداقِ؛ إذ هو في معنى الصدقاتِ ﴿نَفْسًا﴾: تمييزٌ، وتوحيدُها لأن الغرضَ بيانُ الجنسِ، والواحدُ يدلُّ عليه، والمعنى: فإن وَهَبْنَ

---

(١) أي: لو عطف بـ: أو.. لفات تجويزُ الاختلافِ في العددِ؛ بأن ينكِحَ واحدٌ اثنتين، وآخرُ ثلاثاً أو أربعاً.

(٢) «الأم» للشافعي (٥/ ١١٤).

(٣) نقل الأزهري عن الكسائي أنه قال: سمعت كثيراً من العرب يقول: عال الرجل: إذا كثر عياله، ثم قال: وأعال: أكثرُ من: عال، ثم وجَّه الأزهريُّ تفسيرَ الشافعي بتقدير مفعول به؛ أي: ألا تعولوا عيالاً كثيراً تعجِزون عن القيام بكفايتهم، وهو من قولك: فلان يعولُ عيالَه؛ أي: ينفقُ عليهم. انظر «الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي» (ص٢٣٢).

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ۝٥﴾ ....

لكم شيئاً من الصداق، وتجافت عنه نفوسُهن طيباتٍ غيرَ مُخْبَثاتٍ بما يَضْطَرُّهُنَّ إلى الهبةِ من شَكاسةِ أخلاقِكم، وسوءِ معاشرتِكم.

وفي الآية دليل: على ضيق المسلكِ في ذلك، ووجوبِ الاحتياطِ؛ حيث بُنِيَ الشرطُ على طِيبِ النفسِ فقيل: (فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً)، ولم يُقلْ: فإن وَهبنَ لكم؛ إعلاماً بأن المُراعى هو تجافي نفسِها عن الموهوبِ طَيِّبةً، ﴿فَكُلُوهُ﴾ الهاءُ: يعودُ على (شيءٍ)، ﴿هَنِيٓـًٔا﴾: لا إثمَ فيه، ﴿مَّرِيٓـًٔا ۝٤﴾: لا داءَ فيه، فسرهما النبي عليه السلام[1]، أو: هنيئاً: في الدنيا بلا مطالبةٍ، مريئاً: في العقبى بلا تَبِعَةٍ، وهما صفتان؛ من هَنُؤَ الطعامُ ومَرُؤَ: إذا كان سائغاً لا تنغيصَ فيه، وهما: وصفُ مصدرٍ؛ أي: أكلاً هنيئاً مريئاً، أو: حالٌ من الضمير؛ أي: كلوه وهو هنيءٌ مريءٌ، وهذه عبارةٌ عن المبالغةِ في الإباحةِ، وإزالةِ التَّبِعَةِ. ﴿هَنِيًّا مَرِيًّا﴾: بغير همزٍ: يزيدُ[2]، وكذا حمزةُ في الوقف، وهَمَزَهما الباقون[3]، وعن علي رضي الله عنه: إذا اشتكى أحدُكم شيئاً.. فليسأل امرأتَه ثلاثةَ دراهمَ من صداقِها، ثم ليشترِ بها عسلاً، فليشربْه بماء السماءِ، فيجمعُ اللهُ له هنيئاً ومريئاً، وشفاءً، ومباركاً[4].

《٥》 ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ﴾: المبذرين أموالَهم، الذين ينفقونها فيما لا ينبغي، ولا قدرةَ لهم على إصلاحها وتثميرِها والتصرفِ فيها، والخطابُ للأولياءِ، وأضاف إلى الأولياء أموالَ السفهاءِ بقوله: ﴿أَمْوَالَكُمُ﴾؛ لأنهم يَلُونَها ويمسكونها، ﴿الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ أي: قِواماً لأبدانِكم، ومعاشاً لأهلكم وأولادِكم، ﴿قِيَماً﴾ بمعنى قياماً: نافعٌ، وشاميٌّ[5]، كما جاء: عُوذاً بمعنى: عِياذاً، وأصلُ قيام: قِوامٌ، فجعلت الواوُ ياءً؛ لانكسارِ ما قبلَها، وكان السلف يقولون: المالُ سلاحُ المؤمنِ، ولَأَنْ أتركَ مالاً يحاسبُني الله عليه.. خيرٌ من أن أحتاجَ إلى الناسِ، وعن سفيانَ

---

(١) روى الواحدي في «التفسير الوسيط» (٢/ ١١) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما: عن النبي ﷺ أنه سئل عن هذه الآية: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ۝٤﴾ قال: «إذا جادت المرأة لزوجها بالعطية غيرَ مُكرهةٍ، لا يقضي به عليه سلطان، ولا يؤاخذ الله به في الآخرة».

(٢) هذه الرواية عن يزيدَ أبي جعفر ليست من القراءات المتواترة، وقال في «إتحاف فضلاء البشر» (ص٨١): (قرأه أبو جعفر بالبدل مع الإدغام بِخُلْفٍ عنه من الروايتين).

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص٧٦).

(٤) رواه ابن المنذر في «تفسيره» (٢/ ٥٦٠).

(٥) انظر «البدور الزاهرة» (ص٧٦).

﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (٦)﴾ ....

وكان له بضاعةٌ يُقَلِّبُها: لولاها.. لَتَمَنْدَلَ بي بنو العباس[١]، ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾: واجعلوها مكاناً لِرزقهم؛ بأن تَتَّجِروا فيها وتربحُوا حتى تكون نفقتُهم من الأرباح، لا مِن صُلب المال، فيأكلُها الإنفاقُ، ﴿وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٥)﴾: قال ابنُ جريج: عدةٌ جميلةٌ: إن صَلحتُم ورشدْتُم.. سَلَّمنا إليكم أموالَكم، وكلُّ ما سكنت إليه النفسُ لحسنِه عقلاً أو شرعاً من قولٍ أو عملٍ.. فهو معروفٌ، وما أنكرَتْه؛ لقبحِه.. فهو منكرٌ.

《٦》 ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى﴾: واختبروا عقولَهم، وذُوقُوا أحوالَهم ومعرفتَهم بالتصرف قبلَ البلوغِ، فالابتلاءُ عندنا: أن يُدفع إليه ما يَتصرفُ فيه حتى تستبينَ حالُه فيما يَجيءُ منه، وفيه دليلٌ: على جوازِ إذنِ الصبيِّ العاقلِ في التجارة[٢]. ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ أي: الحُلُمَ؛ لأنه يصلحُ للنكاح عنده، ولطلبِ ما هو مقصودٌ به وهو التوالد، ﴿فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ﴾: تَبَيَّنْتُم ﴿رُشْدًا﴾: هدايةً في التصرفاتِ، وصلاحاً في المعاملاتِ ﴿فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ من غيرِ تأخيرٍ عن حدِّ البلوغ.

ونظمُ هذا الكلام: أن ما بعد (حتى) إلى (فادفعوا إليهم أموالهم) جُعلَ غايةً للابتلاءِ، وهي: حتى التي تقع بعدها الجملُ، كالتي في قوله[٣]: [من: الطويل]

.... حتى ماءُ دِجلةَ أَشْكَلُ

والجملةُ الواقعة بعدها جملةٌ شرطيةٌ؛ لأن (إذا) متضمنةٌ معنى الشرطِ، وفعلُ الشرط: (بلغوا النكاح)، وقولُه: (فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم): جملةٌ مِن شرطٍ وجزاءٍ واقعةٌ جواباً للشرط الأولِ الذي هو (إذا بلغوا النكاح)، فكأنه قيل: وابتلُوا اليتامَى إلى وقتِ بلوغِهم واستحقاقِهم دفعَ أموالِهم إليهم، بشَرْطِ إيناسِ الرشدِ منهم، وتنكيرُ الرشدِ يفيدُ أن المراد رُشْدٌ

---

(١) هو سفيان الثوري، رواه عنه البيهقي في «المدخل إلى السنن الكبرى» (ص٣٣٧) بنحوه.
لتمندل بي: لأهانني وجعلني كالمنديل تمسح به الأيدي، وبنو العباس: الخلفاء العباسيون.

(٢) انظر «المبسوط» للسرخسي (٢٥/ ٢١).

(٣) هذا بعض بيت لجرير في «ديوانه» (ص٣٦٧) وهو بتمامه:

فما زالتِ القتلى تَمُور دِماؤُها ... بدِجلةَ حتى ماءُ دجلةَ أشكَلُ

تمج: تقذف، وتمور: تسيل، وأشكَلُ: لونُه أحمرُ مختلطٌ ببياضٍ؛ والمعنى: أن ماءَ دِجلةَ تغيَّرَ من كثرةِ دماءِ القتلى.

﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ⑦﴾ ....

مخصوصٌ، وهو الرشدُ في التصرفِ والتجارةِ، أو: يفيدُ التقليلَ؛ أي: طرفاً من الرشدِ حتى لا يُنتظرُ به تمامُ الرشدِ، وهو دليلٌ لأبي حنيفةَ رحمه الله: في دفع المالِ عندَ بلوغِ خمسٍ وعشرين سنةً[1]، ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟﴾: ولا تأكلُوها مسرفين ومبادِرين كِبَرَهم، فـ (إسرافاً وبداراً): مصدران في موضع الحالِ، و(أن يكبُروا): في موضع المصدرِ منصوبُ الموضعِ بـ (بداراً)، ويجوزُ أن يكونا مفعولاً لهما؛ أي: لإسرافِكم ومبادرتِكم كِبَرَهم تُفرِّطُون في إنفاقها، وتقولون: ننفقُ فيما نَشتهي قبلَ أن يكبُرَ اليتامَى، فينتزعوها من أيدينا، ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: قسمَ الأمرَ بينَ أن يكونَ الوصيُّ غنيّاً، وبين أن يكون فقيراً؛ فالغنيُّ يستعففُ من أكلها؛ أي: يحترزُ من أكلِ مالِ اليتيمِ، واستعفَّ: أبلغُ مِن: عَفَّ، كأنه طالبٌ زيادةَ العفةِ، والفقيرُ يأكلُ قُوتاً مقدراً محتاطاً في أكلِه، عن إبراهيم: ما سدَّ الجَوعةَ، ووارَى العورةَ، ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ بأنهم تَسَلَّمُوها وقبضُوها؛ دفعاً للتجاحدِ؛ وتفادياً عن تَوَجُّهِ اليمين عليكم عند التخاصمِ والتناكرِ، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ⑥﴾: محاسِباً، فعليكم بالتصادقِ، وإياكم والتكاذبَ، أو: هو راجعٌ إلى قوله: (فليأكل بالمعروف) أي: ولا يسرفْ؛ فإن الله يحاسبُه عليه ويُجازيْه به، وفاعلُ (كفى): لفظةُ (الله) والباءُ: زائدةٌ، وكفى: يتعدَّى إلى المفعولين؛ دليلُه: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٣٧].

《٧》 ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ هم: المتوارثون من ذوي القراباتِ دونَ غيرِهم، ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾: بدلٌ من (ما ترك) بتكريرِ العاملِ، والضميرُ في (منه): يعودُ إلى (ما ترك)، ﴿نَصِيبًا﴾: نصبٌ على الاختصاص؛ بمعنى: أعني نصيباً ﴿مَّفْرُوضًا ⑦﴾: مقطوعاً لا بدَّ لهم من أن يَحُوزوه.

روي: أن أوسَ بنَ ثابتٍ تركَ امرأتَه أمَّ كُجَّةَ[2]، وثلاثَ بناتٍ، فَزَوَى ابنا عمِّه ميراثَه عنهنَّ، وكان أهلُ الجاهليةِ لا يُوَرِّثُون النساءَ والأطفالَ، ويقولون: لا يرثُ إلا مَن طاعنَ بالرماحِ وحازَ

---

(١) عند الإمام أبي حنيفة رحمه الله: إذا بلغ الغلام غيرَ رشيدٍ. . لم يسلم إليه ماله، فإذا بلغ خمساً وعشرين سنةً. . يسلم إليه ماله وإن لم يؤنس منه الرشد؛ لأن منع المال عنه بطريق التأديب، ولا يتأدب بعد هذا ظاهراً وغالباً؛ ألا ترى أنه قد يصير جَدّاً في هذا السن، فلا فائدة للمنع. انظر «البناية شرح الهداية» (١١/ ٩٥).

(٢) ضبطها في «الإصابة في تمييز الصحابة» (٨/ ٤٥٧): أم كُجَّة، بضم الكاف وتشديد الجيم.

﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينُ فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٨ وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا ٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ١٠﴾ ....

الغنيمةَ، فجاءت أمُّ كُحَّةَ إلى رسول الله ﷺ فشكتْ، فقال عليه السلام: ارجعي حتى أنظرَ ما يُحدثُ اللهُ، فنزلتِ الآيةُ، فبعث إليهما: لا تُفرِّقا من مالِ أوسٍ شيئاً؛ فإن الله تعالى قد جعلَ لهن نصيباً ولم يُبَيِّنْ.. حتى يبينَ، فنزلت: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ﴾، فأعطى أمَّ كُحَّةَ الثمنَ، والبناتِ الثلثين، والباقيَ ابني العمِّ[1].

《٨》 ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ﴾ أي: قسمةَ التركةِ ﴿أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ ممن لا يرثُ، ﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينُ﴾ من الأجانبِ ﴿فَٱرۡزُقُوهُم﴾: فأعطوهم ﴿مِّنۡهُ﴾: مما ترك الوالدان والأقربون، وهو أمرُ ندبٍ، وهو باقٍ لم ينسخْ، وقيل: كان واجباً في الابتداءِ، ثم نسخ بآية الميراث، ﴿وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٨﴾: عذراً جميلاً، وعدةً حسنةً، وقيل: القولُ المعروفُ: أن يقولوا لهم: خُذُوا، باركَ الله عليكم، ويَسْتَقِلُّوا ما أعطوهم، ولا يمنُّوا عليهم.

《٩》 ﴿وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا ٩﴾ المرادُ بهم: الأوصياءُ، أُمِرُوا بأن يَخشَوُا اللهَ، فيخافُوا على مَن في حُجُورِهم من اليتامَى فيُشْفِقُوا عليهم خَوْفَهم على ذريتِهم لو تركوهم ضِعافاً، وأن يُقَدِّرُوا ذلك في أنفسهم، ويُصَوِّرُوه حتى لا يَجْسُروا على خلافِ الشفقةِ والرحمةِ، و(لو) مع ما في حَيِّزِه: صلةٌ لـ(الذين) أي: وليخش الذين صفتُهم وحالُهم أنهم لو شارفُوا أن يتركُوا خلفَهم ذريةً ضعافاً وذلك عندَ احتضارِهم.. خافُوا عليهم الضياعَ بعدَهم؛ لِذهابِ كافِلِهم، وجوابُ (لو): (خافوا)، والقولُ السديدُ من الأوصياء: أن يُكلموهم كما يُكلمون أولادَهم بالأدب الحسنِ، والترحيبِ، ويدعوهم بـ: يا بُنيَّ، ويا ولدي.

《١٠》 ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا﴾: ظالمين، فهو مصدرٌ في موضع الحالِ، ﴿إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ﴾: مِلءَ بطونِهم[2] ﴿نَارٗا﴾ أي: يأكلون ما يَجُرُّ إلى النار، فكأنه نارٌ[3]، رويَ: أنه يبعثُ آكلُ مالِ اليتيم يومَ القيامةِ والدخانُ يخرجُ من قبرِه، ومِن فِيهِ، وأذنيْهِ، فيعرفُ

(١) روى نحوه الطبري في «تفسيره» (٧/ ٥٩٨)، وذكر نحوَه الثعلبي في «تفسيره» (٣/ ٢٦١).
(٢) فسره بقوله: (مِلءَ بطونهم) أخذاً من استعمال العرب؛ فإنهم إن أرادوا بعض البطن.. صرحوا بلفظ البعض، وذلك لأن حقيقة الظرف هو ما شُغِل بتمام المظروف. انظر «حاشية القونوي على تفسير البيضاوي» (٧/ ٥٠).
(٣) فهو مجاز مرسل، أطلق المسبب وأريد السبب. انظر «حاشية القونوي على تفسير البيضاوي» (٧/ ٥٠).

يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَآ أَوْ دَيْنٍۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًاۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ ...

الناسُ أنه كان يأكلُ مالَ اليتيم في الدنيا، ﴿وسيُصلون﴾: شاميٌّ وأبو بكرٍ[١]؛ أي: سيُدخلون ﴿سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾: ناراً من النيران مبهمةَ الوصفِ[٢].

《١١》 ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ﴾: يعهدُ إليكم، ويأمرُكم ﴿فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْۖ﴾: في شأنِ ميراثِهم، وهذا إجمالٌ، تفصيلُه: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ أي: للذكر منهم؛ أي: من أولادكم، فحُذفَ الراجعُ إليه؛ لأنه مفهومٌ، كقولهم: السمنُ مَنَوانِ بدرهم[٣]، وبدأ بِحظِّ الذكرِ ولم يقلْ: للأُنثيين مثلُ حظِّ الذكرِ، أو: للأنثى نصفُ حظِّ الذكرِ؛ لفضلِه؛ كما ضُوعفَ حظُّه؛ لذلك[٤]؛ ولأنهم كانوا يُورثُون الذكرَ دون الإناث، وهو السببُ لِورودِ الآية، فقيل: كفَى الذكورَ أن ضُوعفَ لهم نصيبُ الإناثِ، فلا يُتمادَى في حظِّهن حتى يُحرمن مع إدلائِهن من القرابة بمثلِ ما يُدلون به، والمرادُ: حالُ الاجتماعِ؛ أي: إذا اجتمعَ الذكرُ والأنثيان.. كان له سَهمان، كما أن لهما سهمين، وأما في حالِ الانفرادِ.. فالابنُ يأخذُ المالَ كلَّه، والبنتان تأخذان الثلثين؛ والدليلُ عليه أنه أتبعه حكمَ الانفرادِ بقوله:

﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً﴾ أي: فإن كانت الأولادُ نساءً خُلَّصاً؛ يعني: بناتٍ ليس معهن ابنٌ، ﴿فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ﴾: خبرٌ ثانٍ لـ: كان، أو: صفةٌ لـ (نساءً) أي: نساءً زائداتٍ على اثنتين ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ﴾ أي: الميتُ؛ لأن الآيةَ لما كانت في الميراث.. عُلِمَ أن التارك هو الميتُ، ﴿وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُۚ﴾ أي: وإن كانت المولودةُ منفردةً، ﴿واحدةٌ﴾: مدنيٌّ[٥]؛ على: كان التامةِ، والنصبُ أَوْفَقُ لقولِه: (فإن كن نساء).

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٧٦).

(٢) فالتنوين للتفخيم.

(٣) التقدير: منوان منه بدرهم، ومَنَوانِ: تثنية مَنا، وهو مما يُوزن به.

(٤) لعل الحكمة في جعلِ نصيب الذكر أكثر أن التكاليف المالية على الأنثى أقل؛ فالرجل مكلف بالنفقة على نفسه، وعلى أولاده، وعلى زوجته، وعلى كلِّ من يعولهم، وأما المرأة فنصيبُها من الميراث لها خاصةً لا يشاركُها فيه أحد. انظر «التفسير الوسيط» لسيد طنطاوي (٣/ ٦٥).

(٥) انظر «البدور الزاهرة» (ص٧٦).

فإن قلت: قد ذُكِرَ حكمُ البنتين في حال اجتماعهما مع الابنِ، وحكمُ البناتِ والبنتِ في حال الانفرادِ، ولم يُذكرْ حكمُ البنتين في حال الانفرادِ، فما حكمُهما؟

قلت: حكمُهما مختَلَفٌ فيه:

فابنُ عباسٍ رضي الله عنهما نَزَّلَهما منزلةَ الواحدةِ، لا منزلةَ الجماعةِ[1]، وغيرُه من الصحابة رضي الله عنهم أعطوهما حكمَ الجماعةِ[2]؛ بمقتضَى قولِه: للذكر مثلُ حظِّ الأنثيين، وذلك لأن من مات وخَلَّفَ بِنتاً وابناً.. فالثلثُ للبنتِ، والثلثان للابن، فإذا كان الثلثُ لبنتٍ واحدةٍ.. كان الثلثان للبنتين؛ ولأنه قال في آخر السورة: ﴿إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞۚ فَإِن كَانَتَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ﴾ والبنتانِ أَمَسُّ رحماً بالميت من الأختين، فأوجبُوا لهما ما أوجبَ اللهُ للأختين، ولم يُنقصُوا حظَّهما عن حظِّ مَن هو أبعدُ منهما؛ ولأن البنت لما وجبَ لها مع أخيها الثلثُ.. كان أحرى أن يجبَ لها الثلثُ إذا كانت مع أختٍ مثلِها، ويكونُ لأختها معها مثلُ ما كان يجب لها أيضاً مع أخيها لو انفردت معه، فوجب لهما الثلثان.

وفي الآية دلالةٌ على أن المال كلَّه للذكر إذا لم يكن معه أنثَى؛ لأنه جُعِلَ للذكر مثلُ حظِّ الأنثيين، وقد جُعِلَ للأنثى النصفُ إذا كانت منفردةً، فعلم أن للذكر في حال الانفرادِ ضعفَ النصفِ، وهو الكلُّ.

والضميرُ في ﴿وَلِأَبَوَيۡهِ﴾: للميت، والمرادُ الأب والأمُّ، إلا أنه غُلِّبَ الذكرُ، ﴿لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾: بدلٌ مِن (لأبويه) بتكرير العاملِ، وفائدةُ هذا البدلِ: أنه لو قيل: ولأبويه السدسُ.. لكان ظاهرُه اشتراكَهما فيه، ولو قيل: ولأبويه السدسان.. لأوهمَ قسمةَ السدسين عليهما على التسوية، وعلى خلافِها، ولو قيل: ولكلِّ واحدٍ من أبويه السدسُ.. لذهبت فائدةُ التأكيدِ، وهو التفصيل بعد الإجمالِ، و(السدسُ): مبتدأٌ، خبرُه: (لأبويه)، والبدلُ متوسطٌ بينهما للبيانِ، وقرأ الحسن ﴿السدْس﴾، و﴿الربْع﴾، و﴿الثمْن﴾، و﴿الثلْث﴾: بالتخفيف[3]، ﴿مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ﴾ وهو يقع على الذكرِ والأنثى.

---

(١) قال ابن عبد البر في «الاستذكار» (٥/ ٣٢٣): وهذه الرواية منكرةٌ عند أهل العلم قاطبةً، كلُّهم ينكرها ويدفعها بما رواه ابن شهاب عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن ابن عباس أنه جعل للبنتين الثلثين.

(٢) ودليل ذلك: حديث سيدنا جابر رضي الله عنه أن النبي الله ﷺ قال لعم ابنتي سعدٍ: «أعط ابنتي سعد الثلثين، وأعط أمهما الثمن، وما بقي.. فهو لك» رواه أبو داود (٢٨٩١)، والترمذي (٢٠٩٢)، وابن ماجه (٢٧٢٠).

(٣) أي: بسكون وسطِ كلٍّ منها. انظر «الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها» (ص٥٢٥).

....

﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾ أي: مما ترك، والمعنى: وَوَرِثَهُ أبواه فحسبُ؛ لأنه إذا وَرِثَهُ أبواه مع أحدِ الزوجين.. كان للأم ثلثُ ما يبقى بعدَ إخراجِ نصيبِ الزوجِ، لا ثلثُ ما ترك؛ لأن الأبَ أقوى من الأم في الإرث؛ بدليل: أن له ضعفَ حظِّها إذا خَلَصا، فلو ضُرِبَ لها الثلثُ كملاً.. لأدَّى إلى حطِّ نصيبِه عن نصيبِها؛ فإن امرأةً لو تَركت زوجاً وأبوين، فصار للزوج النصفُ، وللأم الثلثُ، والباقي للأبِ.. حازت الأمُّ سهمين، والأبُ سَهماً واحداً، فينقلب الحكمُ إلى أن يكون للأنثى مثلُ حظِّ الذكرين، ﴿فَلِإِمِّهِ﴾: بكسرِ الهمزةِ: حمزةُ وعليٌّ[1]؛ لمجاروةِ كسرِ اللامِ.

﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ﴾ أي: للميتِ ﴿إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾: إذا كانت للميت اثنان مِن الإخوة والأخوات فصاعداً.. فلأمِّهُ السدسُ، والأخُ الواحد لا يَحْجُبُ، والأعيانُ والعَلّات والأَخْيافُ في حجبِ الأمِّ سواءٌ[2]، ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ﴾: متعلقٌ بما تقدمه من قسمةِ المواريثِ كلِّها، لا بما يليه وحدَهُ، كأنه قيل: قسمةُ هذه الأنصباءِ من بعد وصيةٍ ﴿يُوْصَى بِهَا﴾ وما بعده: بفتح الصادِ: مكيٌّ وشاميٌّ وحمادٌ ويحيى، وافق الأعشى في الأولى، وحفصٌ في الثانية؛ لمجاورةِ ﴿يُورَثُ﴾، وكَسَرَ الأولى؛ لمجاورةِ ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ﴾ الباقون: بكسر الصادَين[3]؛ أي: يوصِي الميتُ، ﴿أَوْ دَيْنٍ﴾ والإشكالُ: أن الدَّين مقدمٌ على الوصية في الشرع، وقدمت الوصيةُ على الدين في التلاوةِ، والجواب: أنَّ (أو) لا تدلُّ على الترتيب؛ ألا ترى أنك إذا قلت: جاءني زيد أو عمرو.. كان المعنى: جاءني أحدُ الرجلين، فكان التقدير في قوله: (من بعد وصية يوصَى بها أو دين): من بعد أحدِ هذين الشيئينِ: الوصيةِ أو الدَّين، ولو قيل بهذا اللفظِ.. لم يُدْرَ فيه الترتيبُ، بل يجوز تقديمُ المؤخرِ، وتأخيرُ المقدم، كذا هنا، وإنما قدمنا الدينَ على الوصيةِ بقوله عليه السلام: «ألا إن الدين قبل الوصية»[4]؛ ولأنها تشبه الميراثَ؛ من حيث إنها صِلَةٌ بلا عِوَضٍ، فكان إخراجها مما يَشُقُّ على الورثةِ، وكان أداؤها مَظِنَّةً للتفريطِ، بخلاف الدَّينِ، فقُدمت على الدَّين؛ ليسارعوا إلى إخراجِها مع الدَّينِ.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٧٦).

(٢) الأعيان: الإخوة والأخوات لأب وأم، والعلات: الإخوة والأخوات لأب، والأخياف: الإخوة والأخوات لأم.

(٣) انظر «الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها» (ص ٥٢٥)، و«البدور الزاهرة» (ص٧٦، ٧٧).

(٤) روى ابن ماجه (٢٧١٥) عن سيدنا علي رضي الله عنه قال: قضى رسول الله ﷺ بالدين قبل الوصية.

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوٓا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِي الثُّلُثِ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

﴿ءَابَآؤُكُمْ﴾: مبتدأٌ، ﴿وَأَبْنَآؤُكُمْ﴾: عطفٌ عليه، والخبرُ: ﴿لَا تَدْرُونَ﴾، وقولُه: ﴿أَيُّهُمْ﴾: مبتدأٌ، خبرُه: ﴿أَقْرَبُ لَكُمْ﴾، والجملةُ: في موضعِ نصبٍ بـ (تدرون)، ﴿نَفْعًا﴾: تمييزٌ؛ والمعنى: فرضَ اللهُ الفرائضَ على ما هو عنده حكمةٌ، ولو وَكَلَ ذلك إليكم.. لم تعلمُوا أيُّهم لكم أنفعُ، فوضعتُم أنتم الأموالَ على غيرِ حكمةٍ، والتفاوتُ في السهام بتفاوتِ المنافعِ، وأنتم لا تدرون تفاوُتَها، فتولَّى اللهُ ذلك؛ فضلاً منه، ولم يَكِلْها إلى اجتهادِكم؛ لعجزكم عن معرفةِ المقاديرِ، وهذه الجملةُ: اعتراضيةٌ مؤكدةٌ، لا موضعَ لها من الإعراب، ﴿فَرِيضَةً﴾: نُصِبَتْ نَصْبَ المصدرِ المؤكِّدِ؛ أي: فرضَ ذلك فرضاً ﴿مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بالأشياءِ قبلَ خلقِها، ﴿حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾ في كلِّ ما فرضَ وقسمَ من المواريثِ وغيرِها.

«١٢» ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾ أي: زوجاتُكم[1]، ﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ﴾ أي: ابنٌ، أو: بنتٌ، ﴿فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾ منكم، أو من غيرِكم ﴿فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ والواحدُ والجماعةُ سواءٌ في الربعِ والثمنِ، جُعِلَ ميراثُ الزوجِ ضعفَ ميراثِ الزوجةِ؛ لدلالةِ قولِه: (للذكرِ مثلُ حظِّ الأنثيين).

﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ﴾ يعني: الميتَ، وهو اسمُ (كان)، ﴿يُورَثُ﴾ مِن وُرِثَ؛ أي: يُوْرَثُ منه، وهو صفةٌ لـ (رجلٌ)، ﴿كَلَالَةً﴾: خبرُ (كان) أي: وإن كان رجلٌ موروثٌ منه كلالةً، أو (يورث): خبرُ (كان)، و(كلالةً): حالٌ من الضمير في (يورث)، والكلالةُ: تطلقُ على مَن لم يُخلِّفْ ولداً ولا والداً، وعلى مَن ليس بولدٍ ولا والدٍ من المخلَّفين، وهو في الأصل: مصدرٌ

(١) يقال للمرأة: زوج، والجمع: أزواج. وزوجةٌ، والجمع: زوجات.

....

بمعنى الكلالِ، وهو ذهابُ القوةِ من الإعياءِ، ﴿أَوِ ٱمۡرَأَةٞ﴾: عطفٌ على (رجلٌ)، ﴿وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ﴾ أي: لأمٍّ.

فإن قلت: قد تقدم ذِكرُ الرجلِ والمرأةِ، فلمَ أَفْرَدَ الضميرَ وذَكَّرَهُ؟

قلت: أما إفرادُه.. فلأَنَّ (أو): لأحدِ الشيئين، وأما تذكيرُه.. فلأنه يرجعُ إلى (رجلٌ)؛ لأنه مذكرٌ مبدوءٌ به[(١)]، أو يرجعُ إلى أحدهما، وهو مذكرٌ[(٢)].

﴿فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾: من واحدٍ ﴿فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ﴾ لأنهم يستحقون بقرابةِ الأمِّ، وهي لا ترثُ أكثرَ من الثلث، ولهذا لا يُفَضَّلُ الذكرُ منهم على الأنثى.

﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ﴾ إنما كُرِّرَتِ الوصيةُ؛ لاختلافِ الموصِين، فالأولُ: الوالدان والأولادُ، والثاني: الزوجةُ، والثالثُ: الزوجُ، والرابعُ: الكلالةُ، ﴿غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ﴾: حالٌ؛ أي: يوصِي بها وهو غيرُ مضارٍّ لورثتِه، وذلك بأن يوصي زيادةً على الثلثِ، أو لوارثٍ.

﴿وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾: مصدرٌ مؤكِّدٌ؛ أي: يوصيكم بذلك وصيةً، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمن جارَ أو عَدَلَ في وصيتِه، ﴿حَلِيمٞ ١٢﴾ على الجائرِ لا يعاجلُه بالعقوبة، وهذا وعيدٌ.

فإن قلت: فأين ذو الحالِ فيمن قرأَ (يوصَى بها)؟

قلت: يُضمَرُ: يوصي، فينتصبُ عن فاعله[(٣)]؛ لأنه لما قيل: (يوصَى بها) عُلِمَ أن ثَمَّ مُوصِياً، كما كان ﴿رِجَالٞ﴾ فاعلَ ما يدلُّ عليه ﴿يُسَبَّحُ﴾ لأنه لما قيل: ﴿يُسَبَّحُ لَهُۥ﴾ عُلِمَ أنَّ ثَمَّ مُسبِّحاً، فأُضمِرَ: يُسبِّحُ[(٤)].

واعلم أن الورثة أصنافٌ:

أصحابُ الفرائضِ، وهم الذين لهم سهامٌ مقدرةٌ:

كالبنتِ، ولها النصفُ، وللأكثر: الثلثان.

---

(١) واكتفي بحكمه عن حكم المرأة؛ لدلالة العطف على تشاركهما فيه. انظر «تفسير البيضاوي» (٢/ ٦٤).

(٢) أي: يعود على لفظ مقدر مذكر، وهو: أحدُهما.

(٣) والتقدير: يوصَى بها، يوصِي غيرَ مُضارٍّ، فصاحبُ الحال: الضميرُ المستترُ في: يوصي المقدر.

(٤) أي: في قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ٣٦ رِجَالٞ﴾ [النور: ٣٦ - ٣٧] وذلك في قراءة ﴿يُسَبَّحُ﴾ بفتح الباء، وهي للشامي وشعبة. انظر «البدور الزاهرة» (ص٢٢٤).

....

وبنتِ الابنِ وإن سَفَلَتْ، وهي عند عدمِ الولدِ كالبنتِ، ولها مع البنت الصُّلْبِيَّةِ: السدسُ، وتسقطُ بالابنِ وبِنتَي الصُّلْبِ، إلا أن يكون معها غلامٌ فيعصبُها.

والأخواتِ لأبٍ وأمٍّ، وهنَّ عند عدم الولدَ وولدِ الابنِ كالبناتِ.

والأخواتِ لأبٍ، وهن كالأخواتِ لأبٍ وأمٍّ عند عدمِهنَّ، ويصيرُ الفريقانِ عصبةً بالبنتِ، أو بنتِ الابنِ، ويسقطْنَ بالابنِ وابنِه وإن سَفَلَ، والأبِ، وبالجدِّ عند أبي حنيفةَ رحمه الله.

وولدِ الأمِّ، وللواحدِ: السدسُ، وللأكثرِ: الثلثُ، وذَكَرُهم كأُنْثاهم، ويسقطون بالولدِ وولدِ الابنِ وإن سَفَلَ، والأبِ والجدِّ.

والأبِ، وله: السدسُ مع الابنِ، أو ابنِ الابنِ وإن سَفَلَ، ومع البنتِ، أو بنتِ الابنِ وإن سَفَلَتِ: السدسُ والباقي.

والجدِّ، وهو أبُو الأبِ، وهو كالأبِ عند عدمِه، إلا في ردِّ الأمِّ إلى ثُلُثِ ما يبقَى.

والأمِّ، ولها: السدسُ مع الولدِ، أو ولدِ الابنِ وإن سَفَلَ، أو الاثنين من الإخوةِ والأخواتِ فصاعداً من أيِّ جهةٍ كانا، وثلثُ الكلِّ عند عدمِهم، وثلثُ ما يبقَى بعد فرضِ أحدِ الزوجين في: زوجٍ وأبوين، أو زوجةٍ وأبوين.

والجدةِ، ولها: السدسُ وإن كَثُرَتْ، لأمٍّ كانت، أو لأبٍ، والبُعدَى تُحْجَبُ بالقربى، والكلُّ بالأمِّ، والأبوياتُ بالأبِ.

والزوجِ، وله: الربعُ مع الولدِ، أو ولدِ الابنِ وإن سَفَلَ، وعندَ عدمِه: النصفُ.

والزوجةِ، ولها: الثمنُ مع الولدِ أو ولدِ الابنِ وإن سَفَلَ، وعندَ عدمِه: الربعُ.

والعصباتُ، وهم: الذين يرثون ما بَقِي من الفرضِ، وأولاهم الابنُ، ثم ابنُه وإن سفلَ، ثم الأبُ، ثم أبوه وإن علا، ثم الأخُ لأبٍ وأمٍّ، ثم الأخُ لأبٍ، ثم ابنُ الأخِ لأبٍ وأمٍّ، ثم ابنُ الأخِ لأبٍ، ثم الأعمامُ، ثم أعمامُ الأبِ، ثم أعمامُ الجدِّ، ثم المعتِقُ، ثم عصبتُه على الترتيب.

واللاتي فرضُهن النصفُ والثلثان: يَصِرْنَ عصبةً بإخوتِهن لا غيرُهن.

وذوو الأرحامِ، وهم: الأقارب الذين ليسوا من العصباتِ، ولا من أصحابِ الفرائضِ، وترتيبُهم كترتيب العصباتِ.

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾﴾

«١٣» ﴿تِلْكَ﴾: إشارةٌ إلى الأحكام التي ذُكرت في باب اليتامَى، والوصايا، والمواريثِ، ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ سمّاها حدوداً؛ لأن الشرائعَ كالحدود المضروبةِ للمكلفين، لا يجوزُ لهم أن يتجاوزوها، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾﴾.

«١٤» ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا﴾ انتصبَ ﴿خَٰلِدِينَ﴾ و(خالداً): على الحال، وجُمِعَ مرةً، وأُفْرِدَ أخرى؛ نظراً إلى معنى (مَن) ولفظِها، ﴿نُدخله﴾: فيهما مدنيٌّ وشاميٌّ[1]، ﴿وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ لهوانِه عند الله، ولا تعلقَ للمعتزلة والخوارج بالآيةِ؛ فإنها في حقِّ الكفارِ؛ إذ الكافرُ هو الذي تَعَدَّى الحدودَ كلَّها، فأما المؤمنُ العاصي.. فهو مطيعٌ بالإيمانِ، غيرُ متعدٍ حدَّ التوحيدِ؛ ولهذا فسرَ الضحاكُ المعصيةَ هنا بالشركِ، وقال الكلبي: ومن يعصِ اللهَ ورسولَه: يكفرْ بقسمةِ المواريثِ، ويتعدَّ حدودَه؛ استحلالاً.

«١٥» ثم خاطب الحكامَ فقال: ﴿وَٱلَّٰتِى﴾ هي جمعُ التي، وموضعُها: رفعٌ بالابتداء، ﴿يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ أي: الزنا؛ لزيادتها في القبح على كثيرٍ من القبائح؛ يقال: أتى الفاحشةَ، وجاءَها، ورَهِقَها، وغَشِيَها: بمعنىً، ﴿مِن نِّسَآئِكُمْ﴾ (مِن): للتبعيضِ، والخبرُ: ﴿فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ﴾: فاطلبُوا الشهادةَ، ﴿أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾: من المؤمنين، ﴿فَإِن شَهِدُوا۟﴾ بالزنا ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ﴾: فاحبِسُوهنَّ ﴿حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ﴾ أي؛ ملائكةُ الموتِ، كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [النحل: ٢٨]، أو: حتى يأخذَهن الموتُ، ويستوفيَ أرواحَهنَّ، ﴿أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ﴾ قيل: (أو) بمعنى: إلا أن، ﴿سَبِيلًا ﴿١٥﴾﴾ غيرَ هذه، عن ابن عباس رضي الله عنهما: السبيلُ للبكر: جلدُ مئةٍ، وللثيبِ: الرجمُ[2]؛ لقوله عليه السلام: «خذوا عني، خذوا عني، قد جعل الله لهن

---

(١) انظر المرجع السابق (ص٢٩٩).

(٢) روى ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٨٩٥) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما: السبيل الذي جعل الله لهن: الجلد والرجم.

﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾﴾ ....

سبيلاً، البكرُ بالبكرِ: جلدُ مئةٍ وتغريبُ عامٍ، والثيبُ بالثيبِ: جلدُ مئةٍ ورجمٌ بالحجارة»[1].

《١٦》 ﴿وَٱلَّذَانِ﴾ يريدُ: الزانيَ والزانيةَ، وبتشديد النونِ: مكيٌّ[2]، ﴿يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ﴾ أي: الفاحشةَ، ﴿فَـَٔاذُوهُمَا﴾ بالتوبيخ والتعييرِ، وقولوا لهما: أما استحيَيْتُما؟ أما خِفْتُما الله؟ ﴿فَإِن تَابَا﴾ عن الفاحشةِ ﴿وَأَصْلَحَا﴾: وغيَّرا الحالَ ﴿فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ﴾: فاقطعُوا التوبيخَ والمذمةَ؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾ يقبلُ توبةَ التائبِ ويرحمُه، قال الحسن: أولُ ما نزلَ من حدِّ الزنا: الأذى، ثم الحبسُ، ثم الجلدُ، أو الرجمُ، فكان ترتيبُ النزولِ على خلافِ ترتيبِ التلاوةِ.

والحاصلُ: أنهما إذا كانا محصنين.. فحدُّهما الرجمُ لا غيرُ، وإذا كانا غيرَ محصنين.. فحدُّهما الجلدُ لا غيرُ، وإن كان أحدُهما محصناً، والآخرُ غيرَ محصنٍ.. فعلى المحصن منهما الرجمُ، وعلى الآخرِ الجلدُ.

وقال ابنُ بحرٍ: الآيةُ الأولى في السَّحَّاقاتِ، والثانيةُ في اللَّوَّاطين، والتي في (النور) في الزاني والزانيةِ، وهو دليلٌ ظاهرٌ لأبي حنيفةَ رحمه الله: في أنه يُعزَّرُ في اللواطةِ ولا يحدُّ[3]، وقال مجاهد: آيةُ الأذى في اللواطةِ.

《١٧》 ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ﴾ هي مِن: تاب اللهُ عليه: إذا قَبِلَ توبتَه؛ أي: إنما قَبُولها ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾، وليس المرادُ به الوجوبَ؛ إذ لا يجبُ على الله شيءٌ، ولكنَّه تأكيدٌ للوعد؛ يعني: أنه يكون لا محالةَ كالواجب الذي لا يُترك، ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ﴾: الذنبَ؛ لسوءِ عقابِه، ﴿بِجَهَـٰلَةٍ﴾: في موضع الحالِ؛ أي: يعملون السوءَ جاهلين سفهاءَ؛ لأن ارتكابَ القبيح مما يدعُو إليه السَّفَهُ، وعن مجاهدٍ: مَن عصى اللهَ.. فهو جاهلٌ حتى يَنْزِعَ عن جهالتِه[4]، وقيل: جهالتُه: اختيارُه اللذةَ الفانيةَ على الباقية، وقيلَ: لم يجهل أنه ذنبٌ ولكنه جَهِلَ كُنْهَ عقوبتِه، ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾: من زمانٍ قريبٍ، وهو: ما قبلَ حضرةِ الموتِ؛ ألا ترى إلى قولِه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ

---

(١) رواه مسلم (١٦٩٠) عن سيدنا عبادة بن الصامت رضي الله عنه.
(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٧٧).
(٣) ولكن للحاكم قتله إن اعتاد ذلك. انظر «حاشية ابن عابدين» (٤/ ٢٧).
(٤) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٨٩٧).

﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ ......

أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ فبيَّنَ أن وقتَ الاحتضارِ هو الوقتُ الذي لا تُقبلُ فيه التوبةُ، وعن الضحاك: كلُّ توبةٍ قبلَ الموت فهو قريب، وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: قبلَ أن ينظرَ إلى ملكِ الموتِ[١]، وعنه ﷺ: «إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يُغَرْغِرْ»[٢]، و(من): للتبعيض؛ أي: يتوبون بعضَ زمانٍ قريبٍ، كأنه سَمَّى ما بين وجودِ المعصيةِ وبين حضرةِ الموتِ زماناً قريباً، ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾: عدةٌ بأنه يَفِي بذلك، وإعلامٌ بأن الغُفران كائنٌ لا محالةَ، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بعزمِهم على التوبةِ، ﴿حَكِيمًا ﴿١٧﴾﴾ حكمَ بكونِ الندمِ توبةً.

《١٨》 ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾ أي: ولا توبةَ للذين يُذنبون ويُسَوِّفُون توبتَهم إلى أن يزولَ حالُ التكليفِ بحضورِ أسبابِ الموتِ، ومعاينةِ ملكِ الموتِ؛ فإن توبةَ هؤلاءِ غيرُ مقبولةٍ؛ لأنها حالةُ اضطرارٍ، لا حالةُ اختيارٍ، وقبولُ التوبةِ ثوابٌ، ولا وعدَ به إلا لِمُختارٍ، ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ﴾: في موضع جرٍّ بالعطف على (للذين يعملون السيئات) أي: ليست التوبةُ للذين يعملون السيئاتِ، ولا للذين يموتون ﴿وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ قال سعيدُ بنُ جبيرٍ: الآيةُ الأولى في المؤمنين، والوُسطى في المنافقين، والأخرى في الكافرين، وفي بعض المصاحف: بلامين[٣]، وهو مبتدأٌ، خبرُه: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾ أي: هيَّأنا؛ من العتيدِ، وهو الحاضر، أو الأصلُ: أَعْدَدْنا، فقلبت الدالُ تاءً.

《١٩》 كان الرجلُ يرثُ امرأةَ مورثِه، بأن يُلقيَ عليها ثوبَه، فيتزوجُها بلا مهرٍ، فنزلت[٤]: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾ أي: أن تأخذوهنَّ على سبيلِ

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٨٩٨).

(٢) رواه الترمذي (٣٥٣٧) وابن ماجه (٤٢٥٣) عن سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما، ومعنى: «ما لم يغرغر»: مالم تبلُغ روحُه حلقومَه، والغرغرة: أن يجعل المشروبَ في الفم، ويُرَدِّدَ إلى أصل الحلق ولا يبلع.

(٣) أي: ﴿ولَلذين﴾: بلام الابتداء، فيعرب مبتدأً. انظر «غرائب التفسير وعجائب التأويل» (١/ ٢٨٨).

(٤) رواه البيهقي «السنن الكبرى» (٧/ ١٣٨) عن مقاتل بن حيان، وفي «البخاري» (٤٥٧٩) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانوا إذا مات الرجل.. كان أولياؤه أحقَّ بامرأته، إن شاء بعضهم.. تزوجها، وإن شاءوا.. زوجوها، وإن شاءوا.. لم يزوجوها فهم أحقُّ بها من أهلها، فنزلت هذه الآية في ذلك.

الإرثِ، كما تُحازُ المواريثُ وهن كارهاتٌ لذلك، أو مُكرَهاتٌ، (كَرهاً): بالفتحِ؛ من الكراهة، وبالضمِّ: حمزةُ، وعليٌّ[1]؛ من الإكراهِ: مصدرٌ في موضعِ الحالِ من المفعول، والتقييدُ بالكُرهِ لا يدلُّ على الجواز عند عدمِه؛ لأن تخصيصَ الشيءِ بالذكر لا يدلُّ على نفيِ ما عداه، كما في قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ﴾ [الإسراء: ٣١]، وكان الرجلُ إذا تزوجَ امرأةً ولم تكن من حاجتِه.. حبسَها مع سُوءِ العِشرةِ؛ لتفتديَ منه بمالِها، وتختلعَ، فقيل[2]: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ وهو: منصوبٌ عطفاً على (أن ترثوا)، و(لا): لتأكيد النفي؛ أي: لا يحل لكم أن ترثوا النساءَ ولا أن تعضلوهنَّ، أو: مجزومٌ بالنهي على الاستئناف، فيجوزُ الوقفُ حينئذٍ على (كرهاً)، والعَضْلُ: الحبسُ والتضييقُ؛ ﴿لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ من المهرِ، واللامُ: متعلقةٌ بـ (تعضلوا)، ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ﴾ هي: النشوزُ وإيذاءُ الزوجِ، وأهلِه بالبَذاءِ[3]؛ أي: إلا أن يكونَ سوءُ العِشرةِ من جهتهنَّ فقد عُذِرْتُم في طلبِ الخلع، وعن الحسن: الفاحشةُ: الزنا، فإن فَعَلَتْ.. حلَّ لزوجِها أن يَسألها الخلعَ، ﴿مُّبَيِّنَةٍ﴾ وبفتحِ الياءِ: مكيٌّ وأبو بكرٍ[4]، والاستثناءُ من أعمِّ عامِّ الظرفِ، أو المفعولِ له[5]، كأنه قيل: ولا تعضلوهن في جميع الأوقاتِ إلا وقتَ أن يأتين بفاحشةٍ، أو: ولا تعضلوهن لعلةٍ من العللِ إلا لِأن يأتين بفاحشة.

وكانوا يسيئون معاشرةَ النساءِ فقيل لهم: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ وهو النَّصَفَةُ في المبيتِ والنفقةِ، والإجمالُ في القول، ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ لقبحِهن، أو سوءِ خُلُقِهن ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾: في ذلك الشيءِ، أو في الكُرْهِ ﴿خَيْرًا كَثِيرًا ۝١٩﴾: ثوباً جزيلاً، أو: ولداً صالحاً؛ والمعنى: فإن كرهتموهن.. فلا تفارقُوهن؛ لكراهةِ الأنفسِ وحدَها، فربما كَرِهَتِ النفسُ ما هو أصلحُ في الدينِ، وأدنى إلى الخيرِ، وأحبَّتْ ما هو بضدِّ ذلك، ولكن للنظرِ في أسبابِ الصلاحِ، وإنما صحَّ قولُه: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ﴾ جزاءً للشرطِ؛ لأن المعنى: فإن كرهتموهن.. فاصبروا عليهن مع الكراهة، فلعل لكم فيما تكرهونه خيراً كثيراً ليس فيما تحبونه.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٧٧).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٩٠٣).

(٣) البذاءُ: الكلامُ القبيحُ.

(٤) انظر «البدور الزاهرة» (ص٧٧).

(٥) أي: أن المستثنى منه المقدر: إما ظرف عام، أو علة عامة.

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾

«٢٠» وكان الرجلُ إذا رأى امرأةً فأعجبته. . بَهَتَ التي تحته ورماها بفاحشةٍ حتى يُلجئَها إلى الافتداء منه بما أعطاها، فقيل[1]:

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾ أي: تطليقَ امرأةٍ وتزوُّجَ أخرى، ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ﴾: وأعطيتم إحدى الزوجات، فالمراد بالزوج: الجمعُ؛ لأن الخطاب لجماعةِ الرجالِ، ﴿قِنطَارًا﴾: مالاً عظيماً، كما مرَّ في (آل عمران)، وقال عمر رضي الله عنه على المنبر: لا تُغالُوا بصدقات النساءِ، فقالت امرأةٌ: أنتبعُ قولَك أم قولَ الله: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾؟ فقال عمر: كلُّ أحدٍ أعلمُ من عمرَ، تزوجُوا على ما شئتم[2]، ﴿فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ﴾: من القنطار ﴿شَيْـًٔا أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾﴾ أي: بيِّناً، والبهتانُ: أن تستقبلَ الرجلَ بأمرٍ قبيحٍ تقذفُه به، وهو بريءٌ منه؛ لأنه يُبْهَتُ عند ذلك؛ أي: يَتحيَّرُ، وانتصب (بهتانا): على الحال؛ أي: باهتين وآثمين.

«٢١» ثم أنكر أخذَ المهرِ بعدَ الإفضاءِ فقال: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: خَلا بلا حائلٍ، ومنه الفَضاءُ، والآيةُ حجةٌ لنا في الخلوةِ الصحيحةِ أنها تُؤَكِّدُ المهرَ؛ حيث أنكرَ الأخذَ، وعَلَّلَ بذلك، ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾: عهداً وثيقاً، وهو قولُ الله تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَـٰنٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، والله تعالى أخذَ هذا الميثاقَ على عبادِه؛ لأجلهن، فهو كأخذِهنَّ، أو: قولُ النبيِّ عليه السلام: «استوصُوا بالنساء خيراً؛ فإنهنَّ عوانٍ في أيديكم، أخذتموهن بأمانةِ اللهِ، واستحللتم فروجَهن بكلمة الله»[3].

«٢٢» ولما نزل ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾ قالوا: تركنا هذا، لا نرثُهن كَرهاً، ولكن نخطبُهن فننكحُهنَّ برضاهنَّ، فقيل لهم:

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ وقيل: المرادُ بالنكاح: الوطءُ؛ أي: لا تطؤوا

---

(١) انظر «الكشاف» (١/ ٥٢٣).

(٢) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (٧/ ٢٣٣)، ورواه - دون سؤال المرأة وجوابها - أبو داود (٢١٠٦)، والترمذي (١١١٤) والنسائي في «المجتبى» (٦/ ١١٧) وابن ماجه (١٨٨٧).

(٣) رواه الترمذي (١١٦٣) عن سيدنا عمرو بن الأحوص رضي الله عنه.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ....

ما وطئَ آباؤكُم، وفيه تحريمُ وطءِ موطوءةِ الأبِ بنكاحٍ، أو بملكِ يمينٍ، أو بزناً، كما هو مذهبُنا، وعليه كثيرٌ من المفسرين، ولما قالُوا: كنا نفعلُ ذلك فكيف حالُ ما كان منا؟ قال: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أي: لكن ما قد سلفَ.. فإنكم لا تؤاخذُون به، والاستثناءُ منقطعٌ، عن سيبويهِ[1]، ثم بَيَّنَ صفةَ هذا العقدِ في الحال فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾: بالغةً في القبحِ، ﴿وَمَقْتًا﴾: وبُغضاً عند الله، وعند المؤمنين، وناسٌ منهم يمقتُونه من ذوي مُروآتِهم، ويسمونه نكاحَ المقتِ، وكان المولود عليه يقال له: المَقْتِيُّ، ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾: وبئسَ الطريقُ طريقاً ذلك.

《٢٣》 ولما ذُكر في أول السورة نكاحَ ما طاب؛ أي: حلَّ من النساءِ، وذَكر بعضَ ما حُرِّمَ قبلَ هذا، وهو نساءُ الآباءِ.. ذَكَرَ المحرماتِ الباقياتِ، وهن سبعٌ من النسبِ، وسبعٌ من السببِ، وبدأ بالنسب فقال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ والمرادُ: تحريمُ نكاحِهن عندَ البعضِ، وقد ذكرنا المختارَ في «شرح المنار»[2]، والجدةُ من قبل الأمِّ أو الأبِ ملحقةٌ بهنَّ، ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾ وبناتُ الابنِ، وبناتُ البنتِ ملحقاتٌ بهنَّ، والأصلُ: أن الجمع إذا قوبلَ بالجمع ينقسمُ الآحادُ على الآحادِ، فتحرمُ على كلِّ واحدٍ أمُّه وبنتُه.

---

(١) وقيل: الاستثناء متصلٌ، وهو استثناء من المعنى اللازم للنهي، وكأنه قيل: وتستحقون العقاب بنكاح ما نكح آباؤكم إلا ما قد سلف. انظر «تفسير البيضاوي» (٢/ ٦٧).

(٢) هذه مسألة التحريم المضاف للأعيان كما في هذه الآية، وخلاصة ما ذكره أن التحريم نوعان: تحريم يلاقي نفس الفعل مع كون المحلِّ قابلاً، كأكل مال الغير، وتحريمٌ يُخرجُ المحلَّ شرعاً من أن يكون قابلاً لذلك الفعل، فيُعدَمُ الفعلُ فيه لعدم المحلِّ، ويصير الفعل تابعاً، كالخمر، فإنها بالتحريم المضاف إليها لم تبقَ محلاً المشرب شرعاً، وهذا في غاية التحقيق لتوكيد النفي؛ إذْ عدمُ الفعل باعتبار عدم محلِّه أقوى من عدمِه مع بقاءِ المحلِّ، ومَن جعل العينَ غيرَ محرَّم، وحرم الفعلَ حتى صارَ مشروعاً بأصله، فقد حوَّل الحرمة من محلٍّ أضيفت إليه إلى محلٍّ لم تُضف إليه، وهو غلطٌ بَيِّنٌ. انظر «كشف الأسرار» (١/ ٢٧٦)، وقال البيضاوي في «تفسيره» (٢/ ٦٧): ليس المراد تحريم ذواتِهن، بل تحريمَ نكاحِهن؛ لأنه معظم ما يقصد منهن؛ ولأنه المتبادر إلى الفهم... ولأن ما قبله وما بعده في النكاح.

﴿وَأَخَوَٰتُكُمْ﴾ لأب وأم، أو لأب، أو لأم، ﴿وَعَمَّٰتُكُمْ﴾: من الأوجه الثلاثة، ﴿وَخَٰلَٰتُكُمْ﴾: كذلك، ﴿وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ﴾: كذلك، ﴿وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾: كذلك، ثم شرعَ في السبب فقال: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ الله تعالى نَزَّل الرضاعة منزلةَ النسبِ، فسمَّى المرضعةَ أُمّاً للرضيع، والمراضعة أختاً، وكذلك زوجُ المرضعةِ أبوه، وأبواه جدّاه، وأختُه عمتُه، وكلُّ ولدٍ وُلدَ له من غيرِ المرضعةِ قبلَ الرضاع وبعدَه فهم إخوتُه وأخواتُه لأبيه، وأمُّ المرضعة جدتُه، وأختُها خالته، وكلُّ مَن ولد لها من هذا الزوج فهم إخوتُه وأخواتُه لأبيه وأمّه، ومَن ولد لها من غيره فهم إخوته وأخواته لأمٍّ، وأصلُه قولُه عليه السلام: «يحرمُ من الرضاع ما يحرمُ من النسب»[1]، ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾ وهن محرماتٌ بمجردِ العقدِ، ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ﴾ سُمّيَ ولدُ المرأة من غيرِ زوجِها ربيباً وربيبةً؛ لأنه يَرُبُّهما كما يَرُبُّ ولدَه في غالبِ الأمرِ، ثم اتُّسعَ فيه فَسُمِّيا بذلك وإن لم يَرُبَّهما، ﴿ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾ قال داود: إذا لم تكن في حَجْرِه.. لا تَحرمُ[2]، قلنا: ذكرُ الحَجْرِ على غلبةِ الحالِ دونَ الشرطِ، وفائدتُه: التعليلُ للتحريم، وأنهن لاحتضانِكم لهنَّ، أو لكونِهن بصددِ احتضانِكم.. كأنَّكم في العقد على بناتِهن عاقدون على بناتِكم، ﴿مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾: متعلقٌ بـ(ربائبُكم) أي: الربيبةُ من المرأة المدخولِ بها حرامٌ على الرجلِ، حلالٌ له إذا لم يَدخُلْ بها، والدخولُ بهنَّ كنايةٌ عن الجماع، كقولهم: بَنَى عليها، وضَرَبَ عليها الحجاب؛ أي: أدخلتموهن السِّتْرَ، والباءُ: للتعدية، واللمسُ ونحوُه يقومُ مَقامَ الدخولِ، وقد جعل بعضُ العلماءِ (اللاتي دخلتم بهن) وصفاً للنساءِ المتقدمةِ والمتأخرةِ[3]، وليس كذلك؛ لأن الوصفَ الواحدَ لا يقع على موصوفين مُختلفَي العاملِ، وهذا لأن النساء الأولى مجرورةٌ بالإضافةِ، والثانيةُ بـ(مِن)، ولا يجوز أن تقول: مررت بنسائِك وهربت من نساءِ زيدٍ الظريفاتِ؛ على أن تكون الظريفاتُ نعتاً لهؤلاء النساءِ وهؤلاء النساءِ، كذا قاله الزجاج وغيرُه[4]، وهذا أولى مما قاله صاحب «الكشاف» فيه[5]، ﴿فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم

---

(١) رواه البخاري (٢٦٤٥) ومسلم (١٤٤٧) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) وهو ما ذهب إليه ابن حزم الظاهري. انظر «المحلى بالآثار» (٩/ ١٤٠).

(٣) فيكون المعنى: وأمهات نسائكم اللاتي دخلتم بهن، فلا تحرم أم الزوجة إلا بالدخول، ويروى هذا القول عن بعض السلف. انظر «تفسير القرطبي» (٥/ ١٠٦).

(٤) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ٣٤).

(٥) جعل الزمخشري المانعَ من كون (اللاتي دخلتم بهن) وصفاً لـ(نسائكم) الأولى والثانية.. اختلافَ معنى (من)، =

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾﴾ ....

بِهِنَّ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾: فلا حرجَ عليكم في أن تتزوَّجوا بناتِهن إذا فارقتموهن، أو مِتْنَ، ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ﴾: جمعُ حليلةٍ، وهي الزوجة؛ لأن كل واحد منهما يَحِلُّ للآخر، أو: يَحُلُّ فراشَ الآخرِ؛ من الحِلِّ، أو من الحُلولِ، ﴿الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ دون من تبنَّيْتُم، فقد تزوج رسولُ الله ﷺ زينبَ حين فارقَها زيدٌ، وقال تعالى: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وليس هذا لنفي الحرمةِ عن حليلةِ الابنِ من الرضاع[١]، ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ أي: في النكاحِ، وهو في موضع الرفعِ عطفٌ على المحرماتِ؛ أي: وحرمَ عليكم الجمعُ بين الأختين ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾: ولكن ما مضى مغفورٌ؛ بدليل قولِه: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾، وعن محمدِ بنِ الحسنِ رحمه الله: أن أهل الجاهليةِ كانوا يَعرفُون هذه المحرماتِ إلا نكاحَ امرأةِ الأبِ، ونكاحَ الأختين؛ فلذا قال فيهما: (إلا ما قد سلف)[٢].

«٢٤» ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ أي: ذواتُ الأزواجِ؛ لأنهن أحصنَّ فروجَهن بالتزويج، قرأ الكسائي: بفتحِ الصادِ هنا، وفي سائرِ القرآنِ بكسرها، وغيرُه: بفتحها في جميع القرآن[٣]، ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ بالسَّبْيِ، وزوجُها في دار الحرب؛ والمعنى: وحرمَ عليكم نكاحَ المنكوحاتِ؛ أي: اللاتي لهن أزواجٌ إلا ما ملكتموهن بسبْيِهِنَّ وإخراجِهن بدون أزواجِهن؛ لوقوعِ الفُرقةِ بتباينِ الدارين، لا بالسبْيِ، فتحلُّ الغنائمُ بملكِ اليمينِ بعدَ الاستبراءِ، ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾: مصدرٌ مؤكِّدٌ؛ أي: كتبَ اللهُ ذلك عليكم كتاباً، وفَرَضَهُ فريضةً، وهو تحريمُ ما حَرَّمَ.

وعُطِفَ ﴿وأُحلَّ لكم﴾: على الفعلِ المضمرِ الذي نَصَبَ (كتابَ الله)؛ أي: كتبَ اللهُ عليكم

= فلو قيل: (أمهات نسائكم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن) كانت (من) لبيان النساء، وإذا قيل: (وربائبكم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن) كانت (من) لابتداء الغاية، ولا يصح أن تستعمل الكلمة الواحدة في خطاب واحد في معنيين مختلفين. انظر «الكشاف» (١/ ٥٢٦).

(١) تحرم زوجة الابن من الرضاع؛ لحديث البخاري (٢٦٤٦) ومسلم (١٤٤٤): «إن الرضاعة تحرم ما يحرم من الولادة».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٨/ ١٣٣) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٧٨، ٧٨، ٨٩، ٢٢١).

تحريم ذلك، وأحلَّ لكم ﴿مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾: ما سوى المحرماتِ المذكورةِ، ﴿وَأُحِلَّ﴾: كوفيٌّ غيرَ أبي بكرٍ[1]، عطفٌ على (حرمت)، ﴿أَن تَبْتَغُوا﴾: مفعولٌ له؛ أي: بيَّنَ لكم ما يَحلُّ مما يحرمُ؛ لأن تبتغوا، أو: بدلٌ من (ما وراء ذلكم)، ومفعولُ (تبتغوا): مقدرٌ، وهو النساءُ، والأجودُ ألا يُقدرَ[2]، ﴿بِأَمْوَٰلِكُم﴾ يعني: المهورَ، وفيه دليلٌ: على أن النكاح لا يكون إلا بمهرٍ، وأنه يجبُ وإن لم يسمَّ، وأن غيرَ المالِ لا يصلحُ مهراً، وأن القليل لا يصلح مهراً؛ إذ الحبَّةُ لا تُعَدُّ مالاً عادةً[3]، ﴿مُّحْصِنِينَ﴾: في حالِ كونِكم محصنين، ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾؛ لئلا تُضيعوا أموالَكم وتُفْقِرُوا أنفسَكم فيما لا يحلُّ لكم فتخسرُوا دينَكم ودنياكم، ولا فسادَ أعظمُ من الجمع بين الخُسرانين، والإحصانُ: العِفَّةُ، وتحصينُ النفسِ من الوقوعِ في الحرامِ، والمسافحُ: الزاني؛ من السَّفْحِ، وهو صبُّ المنيِّ، ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ﴾: فما نكحتموه منهن ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾: مهورَهن؛ لأن المهر ثوابٌ على البُضْعِ، فـ (ما): في معنى النساء، و(مِن): للتبعيض، أو: للبيان، ويرجعُ الضميرُ إليه على اللفظ في (به)، وعلى المعنى في (فآتوهن)، ﴿فَرِيضَةً﴾: حالٌ من الأجورِ؛ أي: مفروضةً، أو وُضِعَتْ موضعَ: إيتاءً؛ لأن الإيتاء مفروضٌ، أو: مصدر مؤكِّدٌ؛ أي: فرضَ ذلك فريضةً، ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ﴾: فيما تَحُطُّ عنه من المهرِ، أو تهبُ له من كلِّه، أو يزيدُ لها على مقدارِه، أو: فيما تراضيا به من مُقام أو فِراقٍ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بالأشياء قبلَ خلقِها، ﴿حَكِيمًا ﴿٢٤﴾﴾ فيما فرضَ لهم من عقدِ النكاحِ الذي به حُفظتِ الأنسابُ، وقيل: إن قوله: (فما استمتعتم) نزلت في المُتعةِ التي كانت ثلاثةَ أيامٍ حين فتحَ اللهُ مكةَ على رسولِه ثم نُسخت[4].

---

(١) انظر المرجع السابق (ص ٧٨).

(٢) لأن القصدَ إلى الفعل من غير تقديرِ مفعول يتناولُ إعطاءَ المهورِ الحرائرَ، وأثمانَ السراري، والإنفاقَ عليهن، وغيرَها. انظر «حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي» (٣/ ١٢٣).

(٣) الحبة هي جزء من (٧٢) جزءاً من الدينار، والدينار: (٤،٢٥)غ. انظر «الفقه الإسلامي وأدلته» (١/ ٧٦).

(٤) القولُ بأنها نزلت في المتعة غلطٌ، وتفسيرُ البعض لها بذلك غيرُ مقبول؛ لأن نظم القرآن الكريم يأباه. انظر «تفسير الألوسي» (٣/ ٨)، ونكاح المتعة كان جائزاً في أول الإسلام، ثم ثبت بالأحاديث الصحيحة أنه نسخ، وانعقد الإجماع على تحريمه. انظر «شرح الإمام النووي على صحيح مسلم» (٩/ ١٧٩).

﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۚ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

《٢٥》 ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا﴾: فضلاً؛ يقال: لفلانٍ عليَّ طَوْلٌ؛ أي: فضلٌ وزيادةٌ، وهو مفعولُ (يستطع)، ﴿أَن يَنكِحَ﴾: مفعولُ الطَّوْلِ؛ فإنه مصدرٌ، فيعملُ عملَ فعلِه، أو: بدلٌ من (طولاً)، ﴿الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾: الحرائرَ المسلماتِ، ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي: فلينكحْ مملوكةً من الإماء المسلماتِ، وقوله: (من فتياتِكم) أي: فَتياتِ المسلمين؛ والمعنى: ومن لم يستطع زيادةً في المالِ وسَعَةً يبلغُ بها نكاحَ الحرةِ.. فلينكِحِ الأمةَ، ونكاحُ الأمةِ الكتابيةِ يَجُوزُ عندنا[١]، والتقييدُ في النصِّ للاستحباب؛ بدليل: أن الإيمان ليس بشرط في الحرائرِ اتفاقاً مع التقييد به[٢]، وقال ابن عباس رضي الله عنه: ومما وسع الله على هذه الأمةِ نكاحُ الأمةِ واليهوديةِ والنصرانيةِ[٣] وإن كان موسراً، وفيه دليلٌ لنا في مسألةِ الطَّوْلِ[٤]، ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم﴾: فيه تنبيهٌ على قبولِ ظاهرِ إيمانِهن، ودليلٌ على أن الإيمان هو التصديق دونَ عملِ اللسانِ؛ لأن العلم بالإيمان المسموعِ لا يختلف، ﴿بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾ أي: لا تستنكفوا من نكاح الإماءِ، فكلُّكم بنو آدمَ، وهو تحذير عن التعييرِ بالأنساب، والتفاخرِ بالأحسابِ[٥]، ﴿فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾: سادتهن، وهو حجةٌ لنا في أن لهن أن يُباشِرنَ العقدَ بأنفسِهن؛ لأنه اعتبرَ إذنَ الموالي لا عقدَهم، وأنه ليس للعبد أو للأمة أن يتزوج إلا بإذن المولى[٦]، ﴿وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾: وأدُّوا إليهن مهورَهن بغير مَطْلٍ وضِرارٍ، ومُلّاكُ

---

(١) انظر «المبسوط» للسرخسي (٥/ ١١٠).

(٢) في قوله: ﴿الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾.

(٣) كذا في الأصول، والصواب: (الأمة اليهودية والنصرانية) إذ هو الموافق للاستدلال بهذا الأثر.

(٤) يجوز عند الحنفية نكاح الأمة لمن ليس عنده زوجة حرة وإن كان قادراً على نكاح الحرة، ولم يأخذوا بمفهوم الشرط في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا﴾ لأن مفهوم المخالفة ليس حجة عندهم، وحملوا الشرط على الندب. انظر «المبسوط» للسرخسي (٥/ ١٠٨).

(٥) الحَسَبُ: ما يعدُّه الإنسان من مفاخر آبائه.

(٦) انظر «الاختيار لتعليل المختار» (٣/ ١٠٩).

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ ...﴾

مهورِهن مواليْهن، فكان أداؤها إليهن أداءً إلى الموالي؛ لأنهن وما في أيديهن مالُ الموالي، أو التقدير: فآتوا مواليَهن، فحُذفَ المضافُ، ﴿مُحْصَنَاتٍ﴾: عفائفَ: حالٌ من المفعولِ في (وآتوهن)، ﴿غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ﴾: زوانٍ علانيةً، ﴿وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾: زوانٍ سِرّاً، والأخدان: الأخِلّاءُ في السرِّ، ﴿فَإِذَا أُحْصِنَّ﴾ بالتزويجِ، ﴿أَحْصَنَّ﴾: كوفيٌّ غيرَ حفصٍ[1]، ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ﴾: زناً، ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ﴾ أي: الحرائرِ، ﴿مِنَ الْعَذَابِ﴾: من الحدِّ؛ يعني: خمسين جلدةً، وقولُه: (نصفُ): يدلُّ على أنه الجلدُ؛ لأن الرجمَ لا يتنصَّفُ، وأن المحصناتِ هنا: الحرائرُ اللاتي لم يزوجنَ، ﴿ذَلِكَ﴾ أي: نكاحُ الإماءِ ﴿لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ﴾: لمن خافَ الإثمَ الذي تؤدي إليه غلبةُ الشهوةِ، وأصلُ العنتِ: انكسارُ العظمِ بعدَ الجبرِ، فاستعيرَ لكلِّ مشقةٍ وضررٍ، ولا ضررَ أعظمُ مِن مُواقعةِ المأثمِ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هو الزنا[2]؛ لأنه سبب الهلاك، ﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا﴾: في محل الرفع على الابتداء؛ أي: وصبرُكم عن نكاح الإماء متعففين ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ لأن فيه إرقاقَ الولدِ؛ ولأنها خَرَّاجةٌ وَلّاجةٌ مُمتهنةٌ مُبْتَذَلةٌ، وذلك كلُّه نقصانٌ يَرجعُ إلى الناكحِ ومهانةٌ، والعِزَّةُ من صفات المؤمنين، وفي الحديث: «الحرائرُ صلاحُ البيتِ، والإماءُ هلاكُ البيتِ»[3]، ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾: يسترُ المحظورَ، ﴿رَحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾: يكشف المحذورَ.

《٢٦》 ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ أصلُه: يريدُ الله أن يبينَ لكم، فزيدت اللام مؤكدةً؛ لإرادة التبيينِ، كما زيدت في: لا أبا لك؛ لتأكيد إضافة الأبِ[4]؛ والمعنى: يريدُ الله أن يبينَ لكم ما هو خفيٌّ عليكم من مصالِحكم، وأفاضلِ أعمالِكم، ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾: وأن يهديَكم مناهجَ من كان قبلَكم من الأنبياء والصالحين، والطرقَ التي سلكُوها في دينِهم؛ لتقتدوا

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٧٨) والمعنى على هذه القراءة: أَحْصَنَّ فروجَهن أو أزواجَهن. انظر «تفسير أبي السعود» (٢/ ١٦٧).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٢٠٥).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٣/ ٢٩٠)، وانظر «المقاصد الحسنة» (ص٣٠٤).

(٤) والدليل على أنه مضاف: نصبُه بالألف، ولو كان غير مضاف.. لبني على الفتح.
وهذه العبارة أكثرُ ما تذكر في المدح؛ أي: لا كافيَ لك غيرُ نفسك، وقد تذكر في الذم، وفي التعجب ودفعاً للعين، كقولهم: لله دَرُّك، وقد تذكر بمعنى جِدَّ في أمرك وشَمِّرْ؛ لأن من له أبٌ اتكلَ عليه في بعضِ شأنِه. انظر «النهاية في غريب الحديث والأثر» (١/ ١٩).

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ ...﴾

بهم، ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾: ويوفقكم للتوبة عما كنتم عليه من الخلافِ، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمصالحِ عبادِه، ﴿حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ فيما شرعَ لهم.

«٢٧» ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ التكريرُ للتأكيد والتقريرِ والتقابلِ، ﴿وَيُرِيدُ﴾ الفجرةُ ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾ وهو: الميل عن القصدِ والحقِّ، ولا ميلَ أعظمُ منه بمساعدتِهم وموافقتِهم على اتباعِ الشهواتِ، وقيل: هم اليهودُ؛ لاستحلالهم الأخواتِ لأبٍ، وبناتِ الأخِ، وبناتِ الأختِ، فلما حرمَهن اللهُ.. قالوا: فإنكم تُحلُّون بنتَ الخالةِ والعمةِ، والخالةُ والعمةُ عليكم حرامٌ، فانكِحوا بناتِ الأختِ والأخِ، فنزلت، يقول: يريدون أن تكونوا زناةً مثلَهم.

«٢٨» ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ بإحلال نكاحِ الأمةِ وغيرِه من الرُّخصِ، ﴿وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾: لا يصبرُ عن الشهواتِ وعلى مشاقِّ الطاعاتِ.

«٢٩» ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾: بما لم تُبِحْهُ الشريعةُ؛ من نحوِ السرقةِ والخيانةِ والغصبِ والقمارِ وعقودِ الربا، ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةٌ﴾: إلا أن تقعَ تجارةٌ، ﴿تِجَارَةً﴾: كوفيٌّ؛ أي: إلا أن تكونَ التجارةُ تجارةً ﴿عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾: صفةٌ لـ (تجارة) أي: تجارةٌ صادرةٌ عن تراضٍ بالعقد، أو بالتعاطي، والاستثناءُ منقطعٌ؛ معناه: ولكن اقصِدُوا كونَ تجارةٍ عن تراضٍ، أو: ولكن كونُ تجارةٍ عن تراضٍ غيرُ منهيٍّ عنه، وخَصَّ التجارةَ بالذكر؛ لأن أسبابَ الرزقِ أكثرُها متعلقٌ بها.

والآيةُ تدلُّ على جوازِ البيعِ بالتعاطي، وعلى جوازِ البيعِ الموقوفِ إذا وُجدت الإجازةُ؛ لوجودِ الرضا، وعلى نفيِ خيارِ المجلسِ؛ لأن فيها إباحةَ الأكلِ بالتجارةِ عن تراضٍ من غيرِ تقييدٍ بالتفرقِ عن مكانِ العقدِ، والتقييدُ به زيادةٌ على النصِّ.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾: مَن كان مِن جنسِكم من المؤمنين؛ لأن المؤمنين كنفس واحدةٍ، أو: لا يقتلِ الرجلُ نفسَه كما يفعله بعضُ الجَهَلَةِ، أو: معنى القتلِ: أكلُ الأموالِ بالباطل، فظالمُ غيرِه كمهلكِ نفسِه، أو: لا تتبعوا أهواءَها فتقتلوها، أو ترتكبوا ما يوجبُ القتلَ؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ ولرحمتِه بكم نَبَّهَكُم على ما فيه صيانةُ أموالِكم، وبقاءُ أبدانِكم، وقيل: معناه:

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ۝٣٠ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ۝٣١﴾ ....

أنه أمرَ بني إسرائيلَ بقتلِهم أنفسَهم؛ ليكون توبةً لهم وتمحيصاً لخطاياهم، وكان بكم يا أمةَ محمدٍ رحيماً؛ حيث لم يكلفكم تلك التكاليفَ الصعبةَ.

《٣٠》 ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي: القتلَ؛ أي: ومَن يُقْدِمْ على قتلِ الأنفسِ ﴿عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا﴾ لا خطأً، ولا اقتصاصاً، وهما مصدران في موضعِ الحالِ، أو: مفعولٌ لهما، ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾: ندخلُه ناراً مخصوصةً شديدةَ العذابِ، ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي: إصلاؤه النارَ ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ۝٣٠﴾: سهلاً، وهذا الوعيدُ في حقِّ المستَحِلِّ: للتخليد، وفي حقِّ غيرِه: لبيان استحقاقِه دخولَ النارِ، مع وعدِ اللهِ بمغفرتِه.

《٣١》 ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ عن ابن مسعودٍ رضي الله عنهما: الكبائرُ: كلُّ ما نهى الله عنه من أولِ (سورةِ النساءِ) إلى قولِه: (إن تجتنبوا)[١]، وعنه أيضاً: الكبائر ثلاثٌ: الإشراكُ بالله، واليأسُ من رَوحِ الله، والأمنُ من مكرِ اللهِ[٢]، وقيل: المرادُ بها أنواعُ الكفرِ؛ بدليلِ قراءةِ عبدِ الله: ﴿كَبِيْرَ ما تُنهون عنه﴾[٣]، وهو الكفر، ﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا﴾ ﴿مَدْخَلاً﴾: مدنيٌّ[٤]، وكلاهما بمعنى المكانِ والمصدرِ[٥]، ﴿كَرِيمًا ۝٣١﴾: حسناً.

وعن ابن عباسٍ رضي اللهُ عنهما: ثمانِ آياتٍ في سورة النساء هي خيرٌ لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمسُ وغربت: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾ ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾[٦].

وتَشَبَّثُ المعتزلةِ بالآية: على أن الصغائر واجبةُ المغفرةِ باجتناب الكبائرِ، وعلى أن الكبائر غيرُ

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٢٣٤).
(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٢٤٦)، وذكر: القنوط من رحمة الله. بدل: الإشراك بالله.
(٣) انظر «الكشاف» (١/ ٥٣٤).
(٤) انظر «البدور الزاهرة» (ص٧٨).
(٥) ولكن المضموم من الرباعي، والمفتوح من الثلاثي.
(٦) رواه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٢٥٧).

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٣٢) وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٣٣)﴾ ....

مغفورةٍ.. باطلٌ؛ لأن الكبائرَ والصغائرَ في مشيئتِه تعالى، إن شاء.. عذَّبَ عليهما، وإن شاء.. عفا عنهما؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، فقدَ وعدَ المغفرةَ لِما دونَ الشركِ، وقَرَنَها بمشيئتِه؛ وقوله: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤] فهذه الآيةُ تدلُّ على أن الصغائرَ والكبائرَ يجوز أن يذهبا بالحسنات؛ لأن لفظَ السيئاتِ ينطلقُ عليهما.

«٣٢» ولما كان أخذُ مالِ الغيرِ بالباطلِ، وقتلُ النفسِ بغيرِ حقٍّ بِتَمَنِّي مالِ الغيرِ وَجاهِهِ.. نهاهم عن تمنِّي ما فضلَ اللهُ به بعضَ الناسِ على بعضٍ؛ من الجاهِ والمالِ بقوله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾؛ لأن ذلك التفضيلَ قسمةٌ من الله، صادرةٌ عن حكمةٍ وتدبيرٍ وعلمٍ بأحوالِ العبادِ، وبما ينبغي لكلٍّ؛ مِن بسطٍ في الرزقِ، أو قبضٍ، فعلى كلِّ واحدٍ أن يرضى بما قُسِمَ له، ولا يَحسُدَ أخاه على حظِّه، فالحسدُ: أن يتمنى أن يكون ذلك الشيءُ له، ويزولَ عن صاحبه، والغِبطةُ: أن يتمنَّى مثلَ ما لغيرِه، وهو مرخصٌ فيه، والأولُ منهيٌّ عنه.

ولما قال الرجالُ: نرجو أن يكون أجرُنا على الضعف من أجرِ النساءِ كالميراثِ، وقالت النساءُ: يكونُ وِزْرُنا على نصف وِزْرِ الرجالِ كالميراث.. نزل:

﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ وليس ذلك على حسبِ الميراثِ، ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ فإن خزائنَه لا تَنْفَدُ، ولا تتمنوا ما للناس من الفضل؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٣٢)﴾ فالتفضيلُ عن علمٍ بمواضعِ الاستحقاقِ، قال ابن عيينة: لم يأمر بالمسألة إلا ليعطي، وفي الحديث: «من لم يسألِ اللهَ من فضلِه.. غضبَ عليه»[١]، وفيه: «إن الله تعالى ليمسك الخيرَ الكثير عن عبده ويقول: لا أعطي عبدي حتى يسألَني»[٢]، ﴿وَسَلُوا﴾: مكيٌّ وعليٌّ[٣].

«٣٣» ﴿وَلِكُلٍّ﴾: المضافُ إليه محذوفٌ، تقديرُه: ولكلِّ أحدٍ، أو: لكلِّ مالٍ ﴿جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾: وُرّاثاً يَلُونَهُ ويُحرِزُونه، ﴿مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ هو: صفةُ مالٍ محذوفٍ؛ أي: من

---

(١) رواه الترمذي (٣٣٧٣) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه الديلمي في «الفردوس بمأثور الخطاب» (١/ ١٦٩) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص٧٨) وكذا القراءة الآتية.

﴿الرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ فَالصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَالَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ ....

مالٍ تركه الوالدان، أو: هو متعلقٌ بفعلٍ محذوفٍ دلَّ عليه الموالي؛ تقديرُه: يرثون مما ترك، ﴿والذين عَاقَدَتْ أيمانُكم﴾: عاقدَتْهم أيديْكم، وهو: مبتدأٌ ضُمِّنَ معنى الشرط، فوقع خبرُه وهو: ﴿فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ مع الفاء، ﴿عَقَدَتْ﴾: كوفيٌّ؛ أي: عَقَدَتْ عهودَهم أيمانُكم؛ والمرادُ به: عقدُ الموالاةِ، وهي مشروعة، والوِراثةُ بها ثابتةٌ عند عامةِ الصحابةِ رضي الله عنهم، وهو قولُنا، وتفسيرُه: إذا أسلم رجلٌ أو امرأةٌ لا وارثَ له، وليس بعربيٍّ ولا معتَقٍ فيقول لآخرَ: والَيْتُكَ على أن تَعقِلَني إذا جنيتُ، وترثَ مني إذا مِتُّ، ويقول الآخر: قبلت.. انعقدَ ذلك، ويرثُ الأعلى من الأسفلِ[1]، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾ أي: هو عالم الغيبِ والشهادةِ، وهو أبلغُ وعدٍ ووعيدٍ.

《٣٤》 ﴿الرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾: يقومون عليهنَّ آمرين ناهين، كما يقوم الولاةُ على الرعايا، وسُمُّوا قُوّاماً لذلك، ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ الضميرُ في (بعضهم): للرجال والنساء؛ يعني: إنما كانوا مسيطرين عليهن؛ لسبب تفضيلِ اللهِ بعضَهم، وهم الرجال.. على بعضٍ، وهم النساء؛ بالعقلِ والعزمِ والحزمِ والرمي والقوةِ والغزْوِ، وكمالِ الصومِ والصلاةِ، والنبوةِ، والخلافةِ، والإمامةِ والأذانِ والخُطبةِ والجماعةِ والجمعةِ، وتكبيرِ التشريقِ عند أبي حنيفة رحمه الله[2]، والشهادةِ في الحدودِ والقصاصِ، وتضعيفِ الميراثِ والتعصيبِ فيه، وملكِ النكاحِ والطلاقِ، وإليهم الانتسابُ، وهم أصحابُ اللِّحَى والعمائمِ، ﴿وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾: وبأن نفقتهن عليهم، وفيه دليلُ وجوبِ نفقتِهن عليهم، ثم قسمَهن على نوعين:

النوعُ الأولُ: ﴿فَالصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ﴾: مطيعاتٌ قائماتٌ بما عليهن للأزواج، ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ﴾: لمَواجِبِ الغيب[3]، وهو خلافُ الشهادةِ؛ أي: إذا كان الأزواج غيرَ شاهدين لهنَّ..

---

(١) ولهذا العقد شروط أخرى. انظر «حاشية ابن عابدين» (٦/ ١٢٥).

(٢) عند أبي حنيفة رحمه الله: لا يجب تكبير التشريق على المرأة إلا إن اقتدت برجل. انظر «حاشية ابن عابدين» (٢/ ١٧٩).

(٣) مواجب الغيب: ما توجب غيبةُ الزوج حفظَه.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ۝٣٥﴾ ....

حفظنَ ما يجب عليهن حفظُه في حال الغيبةِ من الفروجِ والبيوتِ والأموالِ، وقيل: (للغيب): لأسرارِهم، ﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾: بما حفظهن اللهُ حين أوصَى بهن الأزواجَ بقوله: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾، أو: بما حفظهن اللهُ وعصمَهن ووفقَهن لحفظِ الغيبِ، أو: بحفظِ اللهِ إياهن حيثُ صبَّرَهن كذلك.

والثاني: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾: عصيانَهن وترفُّعَهن عن طاعة الأزواجِ، والنَّشْزُ: المكانُ المرتفعُ، عن ابن عباس رضي الله عنهما: هو أن تستخفَّ بحقوقِ زوجِها ولا تطيعَ أمرَه[1]، ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾: خوِّفوهن عقوبةَ اللهِ تعالى والضربَ، والعِظةُ: كلامٌ يُلَيِّنُ القلوبَ القاسيةَ، ويرغبُ الطبائعَ النافرةَ، ﴿وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾: في المراقدِ؛ أي: لا تُداخلوهن تحت اللُّحُفِ، أو: هو كنايةٌ عن الجماعِ، أو: هو: أن يُوَلِّيَها ظهرَه في المضجعِ؛ لأنه لم يَقُلْ: عن المضاجعِ، ﴿وَاضْرِبُوهُنَّ﴾ ضرباً غيرَ مبرِّحٍ، أَمَرَ بوعظِهن أولاً، ثم بهجرانِهن في المضاجعِ، ثم بالضربِ إن لم ينجحْ فيهن الوعظُ والهِجرانُ، ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ﴾: بتركِ النشوزِ ﴿فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾: فأزيلُوا عنهن التعرضَ بالأذى، و(سبيلاً): مفعولُ (تبغُوا)، وهو مِن: بَغَيْتُ الأمرَ؛ أي: طلبتُه، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ۝٣٤﴾ أي: إن عَلَتْ أيديكم عليهن.. فاعلمُوا أن قدرتَه عليكم أعظمُ من قدرتِكم عليهنَّ، فاجتنبُوا ظلمَهن، أو: (إن الله كان علياً كبيراً) وإنكم تعصونَه على علوِّ شأنِه وكبرياءِ سلطانِه، ثم تتوبون فيتوب عليكم، فأنتم أحقُّ بالعفو عمَّن يجني عليكم إذا رجع.

《٣٥》 ثم خاطب الوُلاةَ بقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ أصلُه: شقاقاً بينَهما، فأضيف الشقاقُ إلى الظرفِ على سبيل الاتساعِ، كقوله: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣]، وأصلُه: بل مكرٌ الليلَ والنهارَ، والشقاقُ: العداوةُ والخلافُ؛ لأن كلّاً منهما يفعل ما يَشُقُّ على صاحبِه، أو يميلُ إلى شِقٍّ؛ أي: ناحيةٍ غيرِ شقِّ صاحبِه، والضميرُ للزوجين، ولم يجرِ ذكرُهما؛ لجري ذكرِ ما يدلُّ عليهما، وهو الرجال والنساء، ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ﴾: رجلاً يَصلُحُ للحكومةِ والإصلاحِ بينهما، ﴿وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾ وإنما كان بَعْثُ الحكمين من أهلِهما؛ لأن الأقارب أعرفُ ببواطنِ الأحوالِ، وأطْلَبُ للصلاحِ، ونفوسُ الزوجين أسكَنُ إليهم، فيُبرزانِ ما في ضمائرِهما من الحبِّ والبغضِ، وإرادةِ الصحبةِ والفرقةِ، والضميرُ في ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا﴾:

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٩٤١).

﴿وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾﴾ ....

للحكمين، وفي ﴿يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾: للزوجين؛ أي: إن قَصَدا إصلاحَ ذاتِ البَينِ، وكانت نيتُهما صحيحةً.. بُورِكَ في وَساطتِهما، وأوقعَ اللهُ بحسن سعيِهما بين الزوجين الأُلفةَ والوفاقَ، وألقى في نفوسهما المودةَ والاتفاقَ، أو الضميران: للحكمين؛ أي: إن قصدا إصلاحَ ذاتِ البين، والنصيحةَ للزوجين.. يوفقِ اللهُ بينهما، فيتفقان على الكلمةِ الواحدةِ، ويتساندان في طلب الوفاقِ، حتى يتمَّ المرادُ، أو الضميران: للزوجين؛ أي: إن يريدا إصلاحَ ما بينَهما، وطلبَا الخيرَ، وأن يزولَ عنهما الشقاقُ.. يُلْقِ اللهُ بينهما الألفةَ، وأبدلهما بالشقاق الوفاقَ، وبالبغضاءِ المودةَ؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بإرادةِ الحكمين، ﴿خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ بالظالم من الزوجين، وليس لهما ولايةُ التفريقِ عندنا، خلافاً لمالكٍ رحمه الله[1].

《٣٦》 ﴿وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ﴾ قيل: العبوديةُ أربعةٌ: الوفاءُ بالعهودِ، والرضا بالموجودِ، والحفظُ للحدودِ، والصبرُ على المفقودِ، ﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا﴾: صنماً وغيرَه، ويحتملُ المصدرَ؛ أي: إشراكاً، ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾: وأحسنوا بهما إحساناً بالقول والفعلِ والإنفاقِ عليهما عند الاحتياجِ، ﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾: وبكلِّ مَنْ بينَكم وبينه قُربى؛ مِن أخٍ، أو عمٍّ، أو غيرِهما، ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾: الذي قَرُبَ جِوارُه، ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾: الذي جوارُه بعيدٌ، أو: الجارُ القريبُ: النسيبُ، والجارُ الجنبُ: الأجنبيُّ، ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ أي: الزوجةِ؛ عن عليٍّ رضي الله عنه، أو: الذي صَحِبَكَ؛ بأن حصلَ بجنبِك: إما رفيقاً في سفرٍ، أو شريكاً في تَعلُّم علم، أو غيرِه، أو قاعداً إلى جنبك في مجلسٍ، أو مسجدٍ، ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: الغريبِ، أو الضيفِ، ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾: العبيدِ والإماءِ؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا﴾ متكبراً يأْنَفُ عن قرابتِه وجيرانِه، فلا يلتفتُ إليهم، ﴿فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾: يعددُ مناقبَه كِبْراً، فإن عدَّها اعترافاً.. كان شكوراً.

《٣٧》 ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾: نصبٌ على البدل مِنْ (من كان مختالاً فخوراً)، وجمعَ على معنى (مَن)، أو: على الذمِّ، أو: رفعٌ على أنه خبرُ مبتدإٍ، تقديرُه: هم الذين يبخلون، ﴿وَيَأْمُرُونَ

---

(١) انظر «الشرح الكبير للشيخ الدردير على مختصر خليل» (٢/ ٣٤٤).

﴿وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾

النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ ﴿بِالبَخَلِ﴾: حمزةُ وعليٌّ[1]، وهما لغتان، كالرُّشْدِ والرَّشَدِ؛ أي: يبخلون بذاتِ أيديهم، وبما في أيدي غيرِهم، فيأمرونَهم بأن يبخلُوا به؛ مقتاً للسخاء، قيل: البخلُ: أن يأكل بنفسه ولا يُؤْكِلَ غيرَه، والشحُّ: ألا يأكلَ، ولا يُؤْكِلَ غيرَه، والسخاءُ: أن يأكلَ ويُؤْكِلَ، والجودُ: أن يُؤْكِلَ ولا يأكلَ، ﴿وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾: ويخفون ما أنعمَ الله عليهم به من المالِ وسَعَةِ الحالِ، وفي الحديث: «إذا أنعم الله على عبده نعمة.. أحبَّ أن يرى نعمتَه على عبده»[2]، وبنى عاملٌ للرشيد قصراً حِذاءَ قصرِه، فَنُمَّ به، فقال الرجل: يا أمير المؤمنين، إن الكريم يَسُرُّهُ أن يرى أثرَ نعمتِه، فأحببتُ أن أَسُرَّكَ بالنظر إلى آثارِ نعمتِك، فأعجبَه كلامُه، قيل: نزلت في شأن اليهودِ الذين كتموا صفةَ محمدٍ عليه السلام، ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾﴾ أي: يهانون به في الآخرة.

«٣٨» ﴿وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾: معطوفٌ على ﴿الَّذِينَ﴾ الأولى، أو: على ﴿الْكَافِرِينَ﴾، ﴿رِئَاءَ النَّاسِ﴾: مفعولٌ له؛ أي: للفَخار؛ وليقال: ما أجودَهم، لا لابتغاءِ وجهِ الله، وهم المنافقون، أو: مشركو مكةَ، ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾﴾ حيثُ حملَهم على البخل والرياءِ وكلِّ شرٍّ، ويجوز أن يكون وعيداً لهم بأن الشيطان يُقْرَنُ بهم في النار.

«٣٩» ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾: وأيُّ تبعةٍ ووبالٍ عليهم في الإيمان والإنفاق في سبيل الله؟ والمرادُ الذمُّ والتوبيخُ، وإلا.. فكلُّ منفعةٍ ومصلحةٍ في ذلك، وهذا كما يقال للعاقِّ: ما ضرك لو كنت بارّاً؟ وقد عُلِمَ أنه لا مضرةَ في البرِّ، ولكنه ذمٌّ وتوبيخٌ، ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾﴾: وعيدٌ.

«٤٠» ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ هي: النملةُ الصغيرةُ، وعن ابن عباس رضي الله

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٧٩).

(٢) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (٣/ ٢٧١) عن سيدنا عمران بن حصين رضي الله عنه.
وفي «الترمذي» (٢٨١٩) عن سيدنا عبد الله بن عَمْرو رضي الله عنهما مرفوعاً: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده».

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ۝٤١ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ۝٤٢﴾ ....

عنهما: أنه أدخل يدَه في التراب فرفعَه ثم نفخَ فيه فقال: كلُّ واحدةٍ من هؤلاءِ ذرةٌ، وقيل: كلُّ جزءٍ من أجزاءِ الهباءِ في الكُوَّةِ ذرةٌ، ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً﴾: وإن يكُ مثقالُ الذرةِ حسنةً، وإنما أنَّث ضميرُ المثقالِ؛ لكونه مضافاً إلى مؤنثٍ، ﴿حسنةٌ﴾: حجازيٌّ[1]، على: كان التامةِ، وحذفت النونُ من: تكن؛ تخفيفاً لكثرة الاستعمال، ﴿يُضَٰعِفْهَا﴾: يضاعفْ ثوابَها، ﴿يُضَعِّفْهَا﴾: مكيٌّ وشاميٌّ، ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٤٠﴾: ويعطِ صاحبَها مِن عنده ثواباً عظيماً، وما وصفَه الله بالعِظَمِ.. فمن يعرفُ مقدارَه؟ مع أنه سمَّى متاعَ الدنيا قليلاً، وفيه إبطالُ قولِ المعتزلةِ في تخليدِ مرتكبِ الكبيرةِ، مع أن له حسناتٍ كثيرةً.

《٤١》 ﴿فَكَيْفَ﴾ يصنعُ هؤلاءِ الكفرةُ من اليهود وغيرِهم ﴿إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ يشهدُ عليهم بما فعلوا، وهو: نبيُّهم، ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا محمدُ ﴿عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: أمتِك ﴿شَهِيدًا ۝٤١﴾: حالٌ؛ أي: شاهداً على مَن آمن بالإيمان، وعلى مَن كفر بالكفرِ، وعلى مَن نافق بالنفاق، وعن ابن مسعود رضي الله عنه: أنه قرأ (سورةَ النساء) على رسول الله ﷺ حتى بلغَ قولَه: (وجئنا بك على هؤلاء شهيداً) فبكى رسولُ الله ﷺ، وقال: «حسبُنا»[2].

《٤٢》 ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: ظرفٌ لقوله: ﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله، ﴿وَعَصَوُا ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾: لو يدفنون فتسوَّى بهم الأرض، كما تسوَّى بالموتى، أو: يودُّون أنهم لم يُبعثوا، وأنهم كانوا والأرضَ سواءً، أو: تصيرُ البهائم تراباً فيودُّون حالَها، ﴿تَسَوَّى﴾: بفتح التاء وتخفيف السين والإمالة وحذف إحدى التاءين مِن: تَتَسَوَّى: حمزةُ وعليٌّ، ﴿تَسَّوَّى﴾: بإدغام التاء في السين: مدنيٌّ، وشاميٌّ[3]، ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ۝٤٢﴾: مستأنفٌ؛ أي: ولا يقدرون على كتمانِه؛ لأن جوارحَهم تشهدُ عليهم.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٧٩) وكذا القراءة الآتية.
(٢) رواه البخاري (٤٥٨٣) ومسلم (٨٠٠).
(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص٨٠).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ٤٣﴾ ....

《٤٣》 ولما صنع عبد الرحمن بنُ عوفٍ طعاماً وشراباً، ودَعا نفراً من الصحابة رضي الله عنهم حينَ كانت الخمرُ مباحةً، فأكلوا وشربوا، فقدموا أحدَهم؛ ليصليَ بهم المغربَ، فقرأ: قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون وأنتم عابدون ما أعبد.. نزل[١]:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ﴾ أي: لا تقربوها في هذه الحالة ﴿حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ أي: تقرؤون، وفيه دليلٌ على أن رِدّةَ السكرانِ ليست بِرِدَّةٍ؛ لأن قراءة (سورة الكافرين) بطرحِ اللاماتِ كفرٌ، ولم يَحكم بكفره، حتى خاطبَهم باسم الإيمان، وما أمرَ النبي عليه السلام بالتفريق بينه بين امرأته، ولا بتجديدِ الإيمانِ؛ ولأن الأمة اجتمعت على أنَّ مَن أجرى كلمةَ الكفرِ على لسانه مخطئاً.. لا يُحكم بكفره، ﴿وَلَا جُنُبًا﴾: عطف على (وأنتم سكارى)؛ لأن محل الجملةِ مع الواوِ: النصبُ على الحال، كأنه قيل: لا تقربوا الصلاةَ سُكارَى، ولا جُنباً؛ أي: ولا تُصلوا جنباً، والجنبُ: يستوي فيه الواحدُ والجمعُ والمذكرُ والمؤنثُ؛ لأنه اسمٌ جرى مجرى المصدرِ الذي هو الإجنابُ، ﴿إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾: صفةٌ لقولِه: (جنباً)؛ أي: لا تقربوا الصلاةَ جنباً غيرَ عابري سبيلٍ؛ أي: جنباً مقيمين غيرَ مسافرين، والمرادُ بالجنب: الذين لم يغتسلوا، كأنه قيل: لا تقربوا الصلاة غيرَ مغتسلين، ﴿حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْ﴾: إلا أن تكونوا مسافرين عادِمِينَ الماءَ، مُتيمِّمِينَ، عَبّرَ عن المتيممِ بالمسافرِ؛ لأن غالبَ حالِه عدمُ الماءِ، وهذا مذهبُ أبي حنيفةَ، وهو مرويٌّ عن عليٍّ رضي الله عنه[٢]، وقال الشافعيُّ رحمه الله: (لا تقربوا الصلاةَ)؛ أي: مواضعَ الصلاةِ، وهي المساجدُ، (ولا جنباً)؛ أي: ولا تقربُوا المسجدَ جنباً (إلا عابري سبيلٍ): إلا مُجتازين فيه، فيجوز للجنب العبورُ في المسجد عندَ الحاجة[٣].

﴿وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ﴾ أي: المطمئنّ من الأرضِ، وكانوا يأتونَه لقضاءِ الحاجةِ، فكنّى به عن الحدثِ، ﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾: جامعتموهنَّ، كذا عن

---

(١) رواه أبو داود (٣٦٧١)، والترمذي (٣٠٢٦) والنسائي في «الكبرى» (١١٠٤١) عن سيدنا علي رضي الله عنه.

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٩٥٩).

(٣) عند الحنفية لا يجوز للجنب عبورُ المسجد إلا لضرورة، وعند الشافعية: عبورُهُ خلافُ الأولى.
انظر «حاشية ابن عابدين» (١/ ١٧١) و«نهاية المحتاج» (١/ ٢١٩).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ ....

علي وابنِ عباسٍ رضي الله عنهم[1]، ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ تقدرون على استعمالِه؛ لعدمه، أو بُعْدِه، أو فَقْدِ آلةِ الوصولِ إليه، أو لمانعٍ من حيةٍ أو سبعٍ أو عدوٍّ ﴿فَتَيَمَّمُوا﴾ أدخل في حكم الشرط أربعةً، وهم المرضى والمسافرون والمحدِثون وأهلُ الجنابة، والجزاءُ الذي هو الأمرُ بالتيمم متعلقٌ بهم جميعاً، فالمرضى إذا عَدِمُوا الماءَ لضعفِ حركتِهم وعجزِهم عن الوصول إليه، والمسافرون إذا عَدِمُوه لِبُعْدِهِ، والمحدِثون وأهلُ الجنابةِ إذا لم يجدوه.. فلهم أن يتيمموا، ﴿لمستم﴾: حمزةُ وعليٌّ[2]، ﴿صَعِيدًا﴾ قال الزجاج: هو: وجهُ الأرضِ تراباً كان أو غيرَه، وإن كان صخراً لا ترابَ عليه لو ضرب المتيمم يده ومسحَ.. لكان ذلك طهورَه، و﴿مِنْ﴾ في (سورة المائدة): لابتداء الغاية، لا للتبعيض[3]، ﴿طَيِّبًا﴾: طاهراً، ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ قيل: الباءُ: زائدةٌ[4]، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا﴾ بالترخيصِ والتيسيرِ، ﴿غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾ عن الخطأِ والتقصيرِ.

«٤٤» ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: من رؤيةِ القلبِ، وعُدِّيَ بـ (إلى) على معنى: ألم يَنْتَهِ علمُك إليهم؟ أو: بمعنى: ألم تنظرْ إليهم؟ ﴿إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾: حظّاً من علمِ التوراةِ، وهم أحبار اليهودِ، ﴿يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ﴾: يستبدلونها بالهدى، وهو البقاءُ على اليهودية بعدَ وُضُوحِ الآياتِ لهم على صحةِ نبوةِ رسولِ اللهِ ﷺ، وأنه هو النبي العربي المبشَّرُ به في التوراة والإنجيل، ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا﴾ أنتم أيُّها المؤمنون ﴿السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾﴾ أي: سبيلَ الحقِّ كما ضلُّوه.

«٤٥» ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ﴾ منكم ﴿بِأَعْدَائِكُمْ﴾ وقد أخبركم بعداوةِ هؤلاءِ فاحذروهم، ولا تستنصحوهم في أمورِكم، ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا﴾ في النفعِ، ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ في الدفعِ، فَثِقُوا بولايتِه ونصرتِه دونَهم، أو: لا تُبالُوا بهم؛ فإن الله ينصرُكم عليهم، ويكفيكم مكرَهم، و(وليّاً)، و(نصيراً): منصوبان على التمييزِ، أو: على الحالِ.

---

(١) رواه عنهما الطبريُّ في «تفسيره» (٨/ ٣٩٢).
(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٨٠).
(٣) أي: أن الاكتفاء بالمسح على الحجر دون أن يَعْلَقَ منه تراب باليد.. مبنيٌّ على كون (مِن) لابتداء الغاية، لا للتبعيض، في قوله تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾.
(٤) ومن النحاة من يرى أنها ليست زائدة، ذلك لأن الفعل قد يستعمل بالتعدي واللزوم على السواء، فيصلح لذلك أن يسمى متعدياً ولازماً، فما تعدى تارة بنفسه وتارة بحرف جر ولم يكن أحدُ الاستعمالين مُستنَدراً فيه.. قيل فيه: متعدٍّ بوجهين، نحو: شكرته وشكرت له، ونصحته ونصحت له، ومسحت رأسي ومسحت برأسي. انظر «تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد» (٤/ ١٧٢٣).

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾ ....

《٤٦》 ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾: بيانٌ لـ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، أو: بيانٌ لـ﴿بِأَعْدَآئِكُمْ﴾، وما بينهما اعتراضٌ، أو: يتعلقُ بقوله: ﴿نَصِيرًا﴾ أي: ينصرُكم من الذين هادُوا، كقوله: ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ [الأنبياء: ٧٧]، أو: يتعلقُ بمحذوفٍ تقديرُه: من الذين هادُوا قومٌ يحرفون الكلم، فقومٌ: مبتدأٌ، و(يحرفون): صفةٌ له، والخبرُ: (من الذين هادوا) مقدمٌ عليه، وحُذِفَ الموصوفُ وهو قومٌ، وأقيمَ صفتُه - وهو: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾: يُميلونه عنها، ويُزيلونه؛ لأنهم إذا بدلُوه ووضعُوا مكانَه كَلِماً غيرَه.. فقد أمالُوه عن مواضعه في التوراة التي وَضَعَهُ الله فيها، وأزالُوه عنها - مُقامَه، وذلك نحوُ تحريفِهم: أسمر رَبْعَة عن موضعه في التوراةِ؛ بوضعِهم: آدم طُوال مكانَه، ثم ذكر هنا (عن مواضعه)، وفي (المائدة): ﴿مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: ٤١]؛ فمعنى: (عن مواضعه): على ما بَيَّنَّا؛ من إزالتِه عن مواضعِه التي أوجبت حكمةُ الله وضعَه فيها، بما اقتضت شهواتُهم من إبدال غيرِه مكانَه، ومعنى (من بعد مواضعه): أنه كان له مواضعُ هو جديرٌ بأن يكون فيها، فحينَ حرَّفُوه.. تركوه كالغريب الذي لا موضعَ له بعدَ مواضعِه ومَقارِّهِ، والمعنيانِ متقاربان، ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا﴾ قولَك ﴿وَعَصَيْنَا﴾ أمرَك، قيل: أسرُّوا به، ﴿وَٱسْمَعْ﴾ قولَنا ﴿غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾: حالٌ من المخاطب؛ أي: اسمع وأنت غيرُ مُسمَعٍ، وهو قولٌ ذو وجهين؛ يحتملُ الذمَّ؛ أي: اسمع منا مَدعُوّاً عليك بـ: لا سمعتَ؛ لأنه لو أُجيبت دعوتُهم عليه.. لم يَسمع شيئاً، فكان أصمَّ غيرَ مُسمَعٍ، قالوا ذلك اتكالاً على أن قولهم: لا سمعتَ دعوةٌ مستجابةٌ، أو: اسمعْ غيرَ مجابٍ إلى ما تدعوا إليه، ومعناه: غيرَ مسمَعٍ جواباً يوافقُك، فكأنك لم تُسمَع شيئاً، أو: اسمع غيرَ مُسمَعٍ كلاماً ترضاه، فسَمْعُكَ عنه نابٍ، ويحتملُ المدحَ؛ أي: اسمع غيرَ مُسمَعٍ مكروهاً؛ من قولك: أسمعَ فلانٌ فلاناً: إذا سَبَّهُ، وكذلك قولُه: ﴿وَرَٰعِنَا﴾: يحتملُ: راعنا نكلمْك؛ أي: ارقُبْنا، وانتظِرْنا، ويحتملُ: شِبْهَ كلمةٍ عِبرانيةٍ، أو سِريانيةٍ كانوا يتسابُّون بها، وهي: راعينا، فكانوا سُخريةً بالدين، وهُزُؤاً برسول الله ﷺ يكلمونه بكلامٍ محتمِلٍ، يَنْوُونَ به الشتيمةَ والإهانةَ، ويُظهرون به التوقيرَ والإكرامَ، ﴿لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾: فتلاً بها وتحريفاً؛ أي: يفتِلون بألسنتهم الحقَّ إلى الباطل؛ حيث يضعون (راعنا) موضعَ: (انظرنا)، و(غيرَ مسمعٍ) موضعَ: لا أُسمعتَ مكروهاً، أو: يفتِلون بألسنتهم ما يضمرونَه من الشتمِ إلى ما

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾﴾ ....

يظهرونه من التوقيرِ نِفاقاً، ﴿وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾ هو: قولُهم: لو كان نبيّاً حقّاً.. لأخبر بما نعتقدُ فيه، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ ولم يقولوا: وعصينا، ﴿وَٱسْمَعْ﴾ ولم يلحقوا به (غيرَ مُسمَعٍ)، ﴿وَٱنظُرْنَا﴾ مكانَ (راعنا) ﴿لَكَانَ﴾ قولُهم ذاكَ ﴿خَيْرًا لَّهُمْ﴾ عندَ الله، ﴿وَأَقْوَمَ﴾: وأعدلَ وأسدَّ، ﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾: طردَهم، وأبعدَهم عن رحمته بسببِ اختيارِهم الكفرَ، ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾ منهم قد آمنوا، كعبدِ الله ابنِ سلامٍ وأصحابِه، أو: إلا إيماناً قليلاً ضعيفاً لا يُعبأُ به، وهو إيمانُهم بمن خلقَهم مع كفرِهم بغيرِه[1].

《٤٧》 ولما لم يؤمنوا.. نزَل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا﴾ يعني: القرآنَ ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾ يعني: التوراةَ ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾ أي: نَمْحُو تخطيطَ صُوَرِها من عينٍ وحاجبٍ وأنفٍ وفمٍ، ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ﴾: فنجعلَها على هيئةِ أدبارِها، وهي الأقفاءُ مطموسةً مثلَها، والفاءُ: للتسبيب، وإن جعلتَها للتعقيبِ على أنهم تُوُعِّدُوا بعقابين، أحدُهما عقيبَ الآخر، رَدُّها على أدبارها بعدَ طَمْسِها.. فالمعنى: أن نطمسَ وجوهاً، فننكسَ الوجوهَ إلى خلفٍ، والأقفاءَ إلى قُدّامٍ، وقيل: المرادُ بالطمسِ: القلبُ والتغييرُ، كما طَمَسَ أموالَ القِبْطِ فقلبَها حجارةً، وبالوجوهِ: رُؤُوسُهم ووُجَهاؤُهم؛ أي: من قبلِ أن نُغيِّرَ أحوالَ وجهائِهم فنسلُبَهم إقبالَهم ووجاهتَهم، ونكسوَهم صَغارَهم وإدبارَهم، ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾ أي: نُخزيَهم بالمسخ كما مسخنا أصحابَ السبتِ، والضميرُ يرجعُ إلى الوجوه إن أريد الوُجهاءُ، أو: إلى الذين أوتوا الكتاب؛ على طريقة الالتفاتِ، والوعيدُ كان معلَّقاً بألا يؤمنَ كلُّهم وقد آمن بعضُهم؛ فإن ابنَ سلام قد سمع الآية قافلاً من الشام فأتى النبيَّ ﷺ مسلماً قبلَ أن أتى أهلَه وقال: ما كنتُ أرى أن أصلَ إلى أهلي قبلَ أن يَطْمِسَ اللهُ وجهي، ولأن الله تعالى أوعدَهم بأحد الأمرين: بطمسِ الوجوهِ، أو بلعنِهم، فإن كان الطمسُ تبديلَ أحوالِ رؤسائِهم.. فقد كان أحدُ الأمرين، وإن كان غيرَه.. فقد حصلَ اللعنُ؛ فإنهم ملعونون بكلِّ لسانٍ، وقيل: هو مُنتظرٌ في اليهود، ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: المأمورُ به وهو العذاب الذي وُعِدُوا به ﴿مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾﴾: كائناً لا محالةَ، فلا بدَّ أن يقعَ أحدُ الأمرين إن لم يؤمنُوا.

---

(١) كالأنبياء واليوم الآخر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾﴾ ....

《٤٨》 ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ إن مات عليه، ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما دون الشرك وإن كان كبيرةً مع عدم التوبة.

والحاصلُ: أن الشركَ مغفورٌ عنه بالتوبة، وأنَّ وعدَ غُفرانِ ما دونَه لمن لم يتبْ؛ أي: لا يغفرُ لمن يُشْرِكُ وهو مشركٌ، ويغفرُ لمن يذنبُ وهو مذنبٌ، قال عليه السلام: «من لقي الله تعالى لا يشركُ به شيئاً.. دخل الجنةَ، ولم تَضُرَّهُ خطيئتُه»(١)، وتقييدُه بقوله: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ لا يخرجُه عن عمومِه، كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ [الشورى: ١٩]، قال علي رضي الله عنه: ما في القرآن آيةٌ أحبُّ إليَّ من هذه الآيةِ(٢)، وحملُ المعتزلةِ على التائبِ باطلٌ؛ لأن الكفرَ مغفورٌ عنه بالتوبة؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، فما دونَه أولى أن يُغفرَ بالتوبة، والآيةُ سيقت لبيانِ التفرقةِ بينهما، وذا فيما ذكرنا، ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾: كذبَ كذباً عظيماً استحقَّ به عذاباً أليماً.

《٤٩》 ونزلَ فيمن زكَّى نفسَه من اليهود والنصارى حيث قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨]، وقالوا: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾ ويدخلُ فيها كلُّ من زكَّى نفسَه ووصفَها بزكاءِ العملِ وزيادةِ الطاعةِ والتقوى، ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾: إعلامٌ بأن تزكيةَ اللهِ هي التي يُعتدُّ بها، لا تزكيةَ غيرِه؛ لأنه هو العالم بمن هو أهلٌ للتزكية، ونحوُه: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾ [النجم: ٣٢]، ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: الذين يزكون أنفسَهم يعاقبون على تزكيةِ أنفسِهم حقَّ جزائِهم، أو: مَنْ يشاءُ يثابون على زكائِهم، ولا يُنقصُ من ثوابِهم ﴿فَتِيلًا ﴿٤٩﴾﴾: قدرَ فتيلٍ، وهو ما يحدُثُ بفتلِ الأصابعِ من الوسخِ.

《٥٠》 ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ في زعمهم أنهم عند الله أزكياءُ، ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ﴾: بزعمهم هذا ﴿إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾﴾ من بين سائرِ آثامِهم.

(١) رواه الإمام أحمد (٢/ ١٧٠) عن سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.
(٢) رواه الترمذي (٣٠٣٧).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ ....

«٥١» ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني: اليهودَ، ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ﴾ أي: الأصنامِ، وكلِّ ما عُبِدَ من دون الله، ﴿وَٱلطَّٰغُوتِ﴾: الشيطانِ، ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾ وذلك أن حُيَيَّ بنَ أخطبَ، وكعبَ بنَ الأشرفِ اليهوديين خرجا إلى مكةَ مع جماعةٍ من اليهود يحالفون قريشاً على محاربةِ رسول الله ﷺ، فقالوا: أنتم أهل الكتابِ، وأنتم إلى محمدٍ أقربُ منكم إلينا، فلا نأمنُ مكرَكم، فاسجدُوا لآلهتنا حتى نطمئنَّ إليكم، ففعلُوا، فهذا إيمانُهم بالجبتِ والطاغوتِ؛ لأنهم سجدُوا للأصنامِ وأطاعوا إبليسَ عليه فيما فعلوا، وقال أبو سفيان: أنحن أهدى سبيلاً أم محمدٌ؟ فقال كعب: أنتم أهدى سبيلاً.

«٥٢» ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾: أبعدَهم من رحمتِه، ﴿وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ يُعتدُّ بنصره.

«٥٣» ثم وصفَ اليهودَ بالبخلِ والحسدِ، وهما من شرِّ الخصالِ، يمنعون مالَهم، ويتمنَّون مالَ غيرِهم، فقال: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ﴾ فـ(أم): منقطعةٌ، ومعنى الهمزةِ: الإنكارُ أن يكون لهم نصيبٌ من الملك، ﴿فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾﴾ أي: لو كان لهم نصيبٌ من الملك؛ أي: ملكِ أهلِ الدنيا، أو: ملكِ اللهِ.. فإذاً لا يُؤتون أحداً مقدارَ نقيرٍ؛ لفرطِ بُخلِهم، والنقيرُ: النُّقرةُ في ظهر النواةِ، وهو مثلٌ في القلةِ، كالفَتيل.

«٥٤» ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾: بل أيحسدون رسولَ الله والمؤمنين على إنكارِ الحسدِ واستقباحِه[1]، وكانوا يحسدونهم على ما آتاهم الله من النصرةِ والغلبةِ وازديادِ العِزِّ والتقدمِ كلَّ يوم، ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التوراةَ، ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾: الموعظةَ والفقهَ، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ يعني: ملكَ يوسفَ وداود وسليمانَ، وهذا إلزامٌ لهم بما عرفوه؛ من إيتاءِ اللهِ الكتابَ والحكمةَ آلَ إبراهيمَ الذين هم أسلافُ محمدٍ عليه السلام، وأنه ليس ببدعٍ أن يُؤتيَه اللهُ مثلَ ما أوتي أسلافُه.

---

(١) أي: مع إنكارِ الحسدِ واستقباحِه.

فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ ....

《٥٥》 ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾: فمن اليهود من آمن بما ذُكرَ من حديثِ آلِ إبراهيمَ، ﴿وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُۚ﴾ وأنكرَه مع علمِه بصحتِه، أو: من اليهود من آمن برسول الله ﷺ، ومنهم من أنكرَ نبوته وأعرض عنه، ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ للصادِّين.

《٥٦》 ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ﴾: ندخلُهم ﴿نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم﴾: أُحرقَتْ ﴿بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾: أعَدْنا تلكَ الجلودَ غيرَ محترقةٍ، فالتبديلُ والتغييرُ لتغاير الهيئتين، لا لتغايرِ الأصلين عند أهلِ الحقِّ، خلافاً للكرّاميَّةِ، وعن فُضيلٍ: يُجْعَلُ النضيجُ غيرَ نضيجٍ؛ ﴿لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَۗ﴾: ليدوم لهم ذَوْقُه ولا ينقطعَ، كقولك للعزيز: أعزَّكَ اللهُ؛ أي: أدامَك على عِزِّكَ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا﴾: غالباً بالانتقام، لا يمتنعُ عليه شيءٌ مما يريدُه بالمجرمين، ﴿حَكِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ فيما يفعلُ بالكافرين.

《٥٧》 ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌۖ﴾ من الأنجاسِ والحيضِ والنفاسِ، ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ هو: صفةٌ مشتقةٌ من لفظ الظلِّ؛ لتأكيدِ معناه، كما يقال: ليلٌ أَلْيَلُ[١]، وهو: ما كان فيناناً، لا جُوَبَ فيه، ودائماً لا تنسخُه الشمسُ، وسَجْسَجاً لا حرَّ فيه ولا بردَ[٢]، وليس ذلك إلا ظلَّ الجنة.

《٥٨》 ثم خاطب الولاةَ بأداءِ الأماناتِ والحكمِ بالعدلِ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ وقيل: قد دخلَ في هذا الأمرِ أداءُ الفرائضِ التي هي أمانةُ الله تعالى التي حَمَلَها الإنسانُ، وحفظُ الحواسِّ التي هي ودائعُ الله، ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾: قضيتم ﴿أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِۚ﴾: بالسويةِ والإنصافِ، وقيل: إن عثمانَ بنَ طلحةَ بنِ عبدِ الدارِ كان سادِنَ الكعبةِ[٣]، وقد

---

(١) أي: شديد الظلمة.

(٢) ظِلٌّ فَيْنانٌ: واسعٌ ممتدٌّ، والجُوَبُ: جمع جَوْبَةٍ، وهي الفُرجة؛ أي: ظِلٌّ متصلٌ لا فُرَجَ فيه، والسجسج: المعتدل.

(٣) أي: خادم الكعبة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ۝٥٩﴾ ....

أخذَ رسولُ الله ﷺ منه مفتاحَ الكعبةِ، فلما نزلت الآيةُ.. أمرَ عليّاً رضي الله عنه بأن يَرُدَّهُ إليه، وقال ﷺ: «لقد أنزل الله تعالى في شأنك قرآناً»، وقرأ عليه الآيةَ، فأسلمَ عثمانُ، فهبط جبريل عليه السلام وأخبر رسولَ الله ﷺ أن السِّدانةَ في أولادِ عثمانَ أبداً[1]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ﴾ (ما): نكرةٌ منصوبةٌ موصوفةٌ بـ (يعظكم به)، كأنه قيل: نعم شيئاً يعظُكم به، أو: موصولةٌ مرفوعةُ المحلِّ صلتُها ما بعدها؛ أي: نعمَ الشيءُ الذي يعظُكم به، والمخصوصُ بالمدح محذوفٌ؛ أي: نِعِمّا يعظُكم به ذاك، وهو المأمور به من أداءِ الأماناتِ والعدلِ في الحكمِ، وبكسر النونِ وسكون العينِ: مدنيٌّ وأبو عمرٍو، وبفتح النونِ وكسرِ العينِ: شاميٌّ وحمزةُ وعليٌّ[2]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا﴾ لأقوالِكم، ﴿بَصِيرٗا ۝٥٨﴾ بأعمالِكم.

《٥٩》 ولما أَمَرَ الولاةَ بأداء الأماناتِ، والحكمِ بالعدل.. أَمَرَ الناسَ بأن يُطيعوهم بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ أي: الولاةَ، أو: العلماءَ؛ لأن أمرهم ينفذُ على الأمراءِ، ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ﴾: فإن اختلفتم أنتم وأولو الأمرِ في شيءٍ من أمورِ الدينِ ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ أي: ارجعوا فيه إلى الكتابِ والسنةِ ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ أي: إن الإيمان يوجبُ الطاعةَ دون العصيانِ، ودلَّتِ الآيةُ على أن طاعة الأمراءِ واجبةٌ إذا وافقُوا الحقَّ، فإذا خالفُوه.. فلا طاعةَ لهم؛ لقوله عليه السلام: «لا طاعة لمخلوقٍ في معصيةِ الخالقِ»[3]، وحُكِيَ أن مَسْلَمَةَ بنَ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ قال لأبي حازمٍ: ألستم أُمِرْتُم بطاعتِنا بقوله: (وأولي الأمر منكم) فقال أبو حازمٍ: أليس قد نُزِعَتِ عنكم إذا خالفتم الحقَّ بقوله[4]: (فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول): إلى القرآنِ والرسولِ في حياتِه، وإلى أحاديثِه بعد وفاتِه، ﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارةٌ إلى الردِّ؛ أي: الردُّ إلى الكتابِ والسنةِ ﴿خَيۡرٞ﴾ لكم عاجلاً، ﴿وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ۝٥٩﴾: عاقبةً.

---

(١) روى نحوَه الواحدي في «أسباب النزول» (ص١٦٢) عن مجاهد.

(٢) اختلف عن قالون والبصري وشعبة، فروي عنهم وجهان: الأول: كسر النون واختلاسُ كسرة العين، والثاني: كسرُ النون وإسكانُ العين. انظر «البدور الزاهرة» (ص٥٥).

(٣) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٨/ ١٧٠) عن سيدنا عمران بن حصين رضي الله عنه.

(٤) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٨/ ٤٢).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ ......﴾

《٦٠》 كان بينَ بشرِ المنافقِ ويهوديٍّ خصومةٌ، فدعاه اليهوديُّ إلى النبي ﷺ لعلمه أنه لا يرتشي، ودعاه المنافقُ إلى كعبِ بنِ الأشرفِ؛ لِيرشُوَه، فاحتكما إلى النبي عليه السلام فقضى لليهوديِّ، فلم يرضَ المنافقُ، وقال تعالَ نتحاكمْ إلى عمرَ، فقال اليهوديُّ لعمرَ رضي الله عنه: قَضى لي رسولُ الله ﷺ فلم يرضَ بقضائِه، فقال عمر للمنافق: أكذلك؟ قال: نعم، فقال عمرُ: مكانكما حتى أخرجَ إليكما، فدخل عمرُ وأخذَ سيفَه ثم خرجَ فضربَ به عنقَ المنافق فقال: هكذا أَقضي لمن لم يرضَ بقضاءِ الله ورسولِه، فنزل:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ وقال جبريلُ عليه السلام: إن عمر فرّقَ بين الحقِّ والباطلِ، فقال له رسول الله ﷺ: «أنت الفاروق»، ﴿يُرِيدُونَ﴾: حالٌ من الضمير في (يزعمون) ﴿أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ أي: كعبِ بنِ الأشرفِ؛ سمّاه اللهُ طاغوتاً؛ لإفراطِه في الطغيانِ وعداوةِ رسول الله ﷺ، أو: على التشبيهِ بالشيطانِ، أو: جعلَ اختيارَ التحاكمِ إلى غيرِ رسولِ الله ﷺ على التحاكمِ إليه تحاكماً إلى الشيطان؛ بدليل قولِه: ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ﴾ عن الحقِّ ﴿ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾: مستمراً إلى الموت.

《٦١》 ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾: للمنافقين: ﴿تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ للتحاكم، ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾: يُعرضون عنك إلى غيرك؛ ليُغْرُوه بالرِّشْوَةِ فيقضيَ لهم.

《٦٢》 ﴿فَكَيْفَ﴾ تكون حالُهم، وكيف يصنعون ﴿إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ﴾ من قتلِ عمرَ بِشْراً ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾: من التحاكم إلى غيرِك، واتهامِهم لك في الحكم، ﴿ثُمَّ جَاءُوكَ﴾ أي: أصحابُ القتيلِ من المنافقين، ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾: حالٌ، ﴿إِنْ أَرَدْنَا﴾: ما أردنا بتحاكمِنا إلى غيرك ﴿إِلَّا إِحْسَانًا﴾ لا إساءةً، ﴿وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾ بين الخصمينِ، ولم نُردْ مخالفةً لك، ولا تَسَخُّطاً لحكمِك، وهذا وعيدٌ لهم على فعلِهم، وأنهم سيندمون عليه حين لا ينفعهم الندمُ، ولا يغني عنهم الاعتذارُ، وقيل: جاء أولياءُ المنافقِ يطلُبون بدمِه، وقد أهدره اللهُ فقالوا: ما أردنا بالتحاكم إلى عمرَ إلا أن يحسنَ إلى صاحِبِنا بحكومةِ العدلِ، والتوفيقِ بينه وبين خصمِه، وما خطرَ ببالِنا أنه يحكمُ له بما حكمَ به.

﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ﴿٦٤﴾ ....

«٦٣» ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ من النفاقِ، ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ﴿٦٣﴾﴾: فأعرضْ عن قبولِ الأعذارِ، وعِظْ بالزجرِ والإنكارِ، وبالغْ في وعظِهم بالتخويفِ والإنذارِ، أو: أعرضْ عن عقابِهم، وعِظهم في عتابِهم، وبَلِّغْ كُنْهَ ما في ضميرِك من الوعظِ بارتكابِهم، والبلاغةُ: أن يبلغَ بلسانه كُنْهَ ما في جَنانِه، و(في أنفسهم): يتعلقُ بـ (قل لهم) أي: قل لهم في معنى أنفسِهم الخبيثةِ، وقلوبِهم المطويةِ على النفاقِ قولاً بليغاً، يبلغُ منهم، ويؤثرُ فيهم.

«٦٤» ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ﴾ أي: رسولاً قطُّ، ﴿إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾: بتوفيقه في طاعته وتيسيرِه، أو: بسببِ إذنِ الله في طاعتِه، وبأنه أمرَ المبعوثَ إليهم بأن يطيعوه؛ لأنه مؤدٍّ عن الله، فطاعتُه طاعةُ الله، ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾، ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ بالتحاكمِ إلى الطاغوتِ ﴿جَآءُوكَ﴾ تائبين من النفاقِ، معتذرين عمّا ارتكبُوا من الشِّقاق، ﴿فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ﴾ من النفاقِ والشقاقِ، ﴿وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ بالشفاعةِ لهم، والعاملُ في (إذ ظلموا): خبرُ أنَّ، وهو (جاءوك)؛ والمعنى: ولو وقعَ مجيئُهم في وقت ظلمِهم مع استغفارِهم واستغفارِ الرسولِ ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا﴾: لعلموه تواباً؛ أي: لتابَ عليهم، ولم يقل: واستغفرتَ لهم، وعدلَ عنه إلى طريقةِ الالتفاتِ؛ تفخيماً لشأنِ رسول الله ﷺ؛ وتعظيماً لاستغفاره؛ وتنبيهاً على أن شفاعةَ من اسمُه الرسولُ من الله بمكانٍ، ﴿رَّحِيمٗا ﴿٦٤﴾﴾ بهم، قيل: جاء أعرابيٌّ بعدَ دفنِه عليه السلام فرمَى بنفسِه على قبرِه، وحثا من ترابِه على رأسه، وقال: يا رسول الله قلتَ فسمعْنا، وكان فيما أنزل عليك: (ولو أنهم إذْ ظلموا أنفسَهم) الآيةَ، وقد ظلمتُ نفسِي، وجئتُك أستغفرُ الله من ذنبي، فاستغفرْ لي مِنْ ربي، فنوديَ من قبرِه قد غُفِرَ لك[1].

---

(١) روى نحو هذه القصة البيهقي في «شعب الإيمان» (٦/ ٦٠)، وفي «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٤٠): أن هذا الأعرابي قال:

يا خيرَ من دُفنت بالقاعِ أعظمُه	فطابَ من طيبهن القاعُ والأكمُ
نفسي الفداءُ لقبرٍ أنت ساكنُه	فيه العفافُ وفيه الجودُ والكرمُ

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾﴾

《٦٥》 ﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾ أي: فوربِّكَ، كقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ﴾ [الحجر: ٩٢]، و(لا): مزيدةٌ لتأكيدِ معنى القسم، وجوابُ القسم: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾، أو: التقديرُ: (فلا) أي: ليس الأمرُ كما يقولون، ثم قال: وربك لا يؤمنون ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾: فيما اختلفَ بينَهم واختلطَ، ومنه الشجرُ؛ لتداخلِ أغصانِه، ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا﴾: ضِيقاً ﴿مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ أي: لا تضيقُ صدورُهم من حكمِك، أو شكّاً؛ لأن الشاكَّ في ضيقٍ من أمرِه، حتى يلوحَ له اليقينُ، ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾: وينقادوا لقضائِك انقياداً، وحقيقتُه: سلَّمَ نفسَه له وأسْلَمَها؛ أي: جعلَها سالمةً له خالصةً، و(تسليماً): مصدرٌ مؤكِّدٌ للفعل، بمنزلةِ تكريرِه، كأنه قيل: وينقادُوا لحكمِك انقياداً لا شبهةَ فيه بظاهرِهم وباطنِهم؛ والمعنى: لا يكونون مؤمنين حتى يرضَوا بحكمِك وقضائِك.

《٦٦》 ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾: على المنافقين؛ أي: لو وقعَ كَتْبُنا عليهم[1]، ﴿أَنِ اقْتُلُوا﴾ (أن): هي المفسرةُ، ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ أي: تَعرَّضُوا للقتل بالجهادِ، أو: ولو أَوْجَبْنا عليهم مثلَ ما أوجبنا على بني إسرائيلَ مِن قتلِهم أنفسَهم[2]، ﴿أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم﴾ بالهجرةِ ﴿مَّا فَعَلُوهُ﴾ لنفاقِهم، والهاءُ: ضميرُ أحدِ مصدرَي الفعلين، وهو: القتلُ، أو الخروجُ، أو: ضميرُ المكتوبِ؛ لدلالةِ (كتبنا) عليه، ﴿إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ ﴿قليلاً﴾: شاميٌّ[3]: على الاستثناء، والرفعُ: على البدل مِن واوِ (فعلوه).

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾ مِن اتباعِ رسولِ الله ﷺ والانقيادِ لحكمِه ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾ في الدارينِ، ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾﴾ لإيمانِهم، وأبعدَ من الاضطراب فيه.

《٦٧》 ﴿وَإِذًا﴾: جوابٌ لسؤالٍ مقدرٍ؛ كأنه قيل: وماذا يكون لهم بعد التثبيت؟ فقيل: وإذاً لو ثبتُوا ﴿لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾﴾ أي: ثواباً كثيراً لا ينقطعُ.

---

(١) فالمصدر بعد (لو): فاعل لفعل محذوف.

(٢) أي: أن المراد بقوله: (اقتلوا أنفسكم): إمّا فعل ما يؤدّي إلى القتل وهو الجهاد، أو قتلُ النفس مباشرة. انظر «حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي» (٣/ ١٥٠).

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص٨١).

وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ ....

《٦٨》 ﴿وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا﴾: مفعولٌ ثانٍ، ﴿مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾ أي: لثبتناهم على الدين الحقِّ.

《٦٩》 ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾: كأفاضلِ صحابةِ الأنبياءِ، والصدِّيقُ: المبالِغُ في صِدْقِ ظاهرِه بالمعاملةِ، وباطنِه بالمراقبةِ، أو الذي يصدقُ قولَه بفعلِه، ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾: والذين استُشْهِدُوا في سبيل الله، ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾: ومن صَلُحَتْ أحوالُهم، وحسنت أعمالُهم، ﴿وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ أي: وما أحسنَ أولئك رفيقاً، وهو كالصَّدِيْقِ والخليطِ؛ في استواءِ الواحدِ والجمعِ فيه.

《٧٠》 ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأٌ، خبرُه: ﴿ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ﴾، أو: الفضلُ: صفتُه، و(من الله): خبرُه؛ والمعنى: أن ما أُعْطِيَ المطيعون من الأجرِ العظيمِ ومرافقةِ المنعَمِ عليهم من الله لأنه تفضلَ به عليهم، أو: أرادَ أن فضلَ المنعَمِ عليهم ومرتبتَهم من الله، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ بعبادِه، وبمن هو أهلُ الفضلِ، ودلت الآيةُ على أن ما يفعلُ الله بعباده فهو فضلٌ منه، بخلاف ما يقوله المعتزلةُ[1].

《٧١》 ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾ الحِذْرُ والحَذَرُ: بمعنىً؛ وهو التحرزُ، وهما كالإِثْرِ والأَثَرِ؛ يقال: أَخَذَ حِذْرَهُ: إذا تيقظ واحترز من المَخُوْفِ، كأنه جعلَ الحذرَ آلتَه التي يَقِيْ بها نفسَه، ويَعْصِمُ روحَه؛ والمعنى: احذرُوا واحترِزُوا من العدوِّ، ﴿فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ﴾: فاخرُجوا إلى العدوِّ جماعاتٍ متفرقةً، سَرِيَّةً بعدَ سريةٍ، فالثُّباتُ: الجماعاتُ، واحدُها: ثبةٌ، ﴿أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴿٧١﴾﴾ أي: مجتمعين، أو: مع النبي عليه السلام؛ لأن الجمع بدون السمعِ لا يَتِمُّ، والعِقدَ بدون الواسطةِ لا ينتظمُ[2]، أو: انفروا ثُباتٍ إذا لم يعمَّ النفيرُ، أو: انفروا جميعاً إذا عمَّ النفيرُ، و(ثباتٍ): حالٌ، وكذا (جميعاً).

《٧٢》 واللامُ في ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن﴾: للابتداء، بمنزلتِها في ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ﴾ [النحل: ١٨]، و(مَن): موصولةٌ، وفي ﴿لَّيُبَطِّئَنَّ﴾: جوابُ قسمٍ محذوفٍ، تقديرُه: وإن منكم لمن أُقسم بالله

---

(١) قالوا: يجب عليه الأصلح لعباده، سبحانه وتعالى عما يقولون.

(٢) السمع: الطاعةُ، وواسطةُ العِقْد: أفضلُ ما نُظمَ منه في وسطه.

﴿وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾﴾ ....

ليبطئن، والقسمُ وجوابُه: صلةُ (مَن)، والضميرُ الراجعُ منها إليه ما استكَنَّ في (ليبطئن) أي: ليتثاقَلَنَّ، وليتخلفنَّ عن الجهادِ، وبَطُؤَ بمعنى: أبطأَ؛ أي: تأخرَ[1]، ويقال: ما بَطُؤَ بك؟ فيتعدَّى بالباء، والخطابُ لعسكرِ رسولِ الله ﷺ، وقولُه: (منكم)؛ أي: في الظاهرِ دون الباطنِ؛ يعني: المنافقين، يقولون: لِمَ تقتلون أنفسَكم؟ تأنَّوا حتى يظهرَ الأمرُ، ﴿فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾: قتلٌ أو هزيمةٌ.. ﴿قَالَ﴾ المُبَطِّئُ: ﴿قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾﴾: حاضراً فيصيبَني مثل ما أصابَهم.

«٧٣» ﴿وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾: فتحٌ أو غنيمةٌ ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ هذا المبَطِّئُ متلهِّفاً على ما فاته من الغنيمة، لا طلباً للمثوبةِ ﴿كَأَن﴾: مخففةٌ من الثقيلةِ، واسمُها محذوفٌ؛ أي: كأنَّهُ ﴿لَّمْ يَكُنۢ﴾ وبالتاءِ: مكيٌّ وحفصٌ[2]، ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ﴾ وهي اعتراضٌ بين الفعلِ وهو (ليقولن)، وبين مفعوله وهو: ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ﴾؛ والمعنى: كأن لم يتقدم له معكم مُوادَّةٌ؛ لأن المنافقين كانوا يُوادُّون المؤمنين في الظاهر، وإن كانوا يبغون لهم الغوائلَ في الباطن، ﴿فَأَفُوزَ﴾: بالنصبِ؛ لأنه جوابُ التمني، ﴿فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ فآخذَ من الغنيمةِ حظّاً وافراً.

«٧٤» ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ﴾: يبيعون ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ والمرادُ: المؤمنون الذين يستحبُّون الآجلةَ على العاجلةِ، ويستبدلونَها بها؛ أي: إن صدَّ الذين مرضت قلوبُهم، وضعُفت نياتُهم عن القتال.. فليقاتلِ الثابتون المخلِصون، أو: يشترون، والمرادُ: المنافقون الذين يشترون الحياةَ الدنيا بالآخرةِ، وُعِظُوا بأن يُغيِّروا ما بهم من النفاقِ، ويُخلصُوا الإيمان بالله ورسولِه، ويجاهدُوا في سبيل الله حقَّ جهادِه، ﴿وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾﴾ وعدَ المقاتلَ في سبيل الله ظافراً، أو مظفوراً به إيتاءَ الأجرِ العظيمِ على اجتهادِه في إعزازِ دينِ الله.

---

(١) الفعل (يُبَطِّئَنَّ): مضارع: بَطَّأَ، وهو منقول من بَطُؤَ، وكذا: أبطأ: منقول من: بَطُؤَ، وكلٌّ مِن: بَطَّأَ، وأبطأ يكون لازماً ومتعدياً، وقد اختار الإمام النسفي في الآية كونه لازماً؛ لذا فسره باللازم وهو: ليتثاقَلَنَّ، وعلى أنه متعدٍّ يكون المعنى: ليبطئنَّ غيرَه وليُثَبِّطَنَّهُ عن الغزو. انظر «الدر المصون» (٤/ ٢٩).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٨١).

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ ....

《٧٥》 ﴿وَمَا لَكُمْ﴾: مبتدأٌ وخبرٌ، وهذا الاستفهامُ في النفي للتنبيه على الاستبطاءِ وفي الإثباتِ للإنكارِ[١]، ﴿لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: حالٌ، والعاملُ فيها: الاستقرارُ، كما تقول: ما لَكَ قائماً؛ والمعنى: وأيُّ شيءٍ لكم تاركين القتالَ وقد ظهرت دَواعِيْهِ؟ ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾: مجرورٌ بالعطف على سبيلِ اللهِ؛ أي: في سبيلِ اللهِ، وفي خلاص المستضعفين، أو: منصوبٌ على الاختصاص؛ أي: وأختصُّ من سبيلِ الله خلاصَ المستضعَفين؛ لأن سبيل الله عامٌّ في كلِّ خيرٍ، وخلاصُ المستضعفين من المسلمين من أيدي الكفار من أعظمِ الخيرِ وأَخَصِّهِ، والمستضعفون هم الذين أسلموا بمكةَ، وصدَّهم المشركون عن الهجرة، فبقُوا بين أَظْهُرِهم مستَذَلِّين مستضعفينَ، يَلقون منهم الأذى الشديدَ، ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ ذَكَرَ الوِلدانَ تسجيلاً بإفراط ظلمِهم؛ حيث بلغَ أذاهم الوِلدانَ غيرَ المكلفين إرغاماً لآبائِهم وأمَّهاتِهم؛ ولأن المستضعفين كانوا يُشرِكون صبيانَهم في دعائِهم؛ استنْزالاً لرحمةِ اللهِ بدعاءِ صغارِهم الذين لم يُذنِبُوا، كما فعل قومُ يونسَ عليه السلام، وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: كنت أنا وأمي من المستضعفين من النساء والولدان[٢]، ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ يعني: مكةَ، ﴿ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ (الظالم): وصفٌ للقرية إلا أنه مسنَدٌ إلى أهلها، فأُعطيَ إعرابَ القريةِ؛ لأنه صفتُها، وذُكِّرَ لإسناده إلى الأهل، كما تقول: مِن هذه القريةِ التي ظَلَمَ أهلُها، ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ يتولى أمرَنا، ويستنقذُنا من أعدائِنا، ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ ينصرُنا عليهم، كانوا يدعون اللهَ بالخلاصِ، ويستنصرونَه، فيَسَّرَ اللهُ لبعضهم الخروجَ إلى المدينة، وبقيَ بعضُهم إلى الفتح حتى جعل الله لهم من لَدُنْهُ خيرَ وليٍّ وناصرٍ، وهو محمد عليه السلام، فتولّاهم أحسنَ التَّوَلِّي، ونصرَهم أقوى النصرِ، ولما خرج.. استعملَ عتابَ بنَ أَسِيْدٍ، فرأوا منه الوِلايةَ والنصرةَ كما أرادُوا، قال ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: كان ينصرُ الضعيفَ من القوي حتى كانُوا أعزَّ بها من الظَّلَمة[٣].

---

(١) في «تفسير أبي السعود» (٢/ ٢٠١): والاستفهامُ للإنكار والنفي، أي: أيُّ شيءٍ لكم غيرَ مقاتلين؟ أي: لا عذرَ لكم في ترك المقاتلة.

(٢) رواه البخاري (١٣٥٧).

(٣) روى الفاكهي في «أخبار مكة» (٣/ ١٣٤) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما: استعمل رسول الله ﷺ عتاب ابن أسيد رضي الله عنه على مكة، فانتصر للمظلوم من الظالم.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ ....﴾

«٧٦» ثم رَغَّبَ اللهُ المؤمنين بأنهم يقاتلون في سبيل الله، فهو وليُّهم وناصرُهم، وأعداؤُهم يقاتلون في سبيل الشيطان، فلا وليَّ لهم إلا الشيطانُ بقوله:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ أي: الشيطانِ، ﴿فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي: الكفارَ؛ ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي: وساوسَه، وقيل: الكيدُ: السعيُ في فسادِ الحالِ على جهةِ الاحتيالِ، ﴿كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾؛ لأنه غُرُورٌ، لا يَؤُول إلى محصولٍ، أو: كيدُه في مقابلة نصرِ اللهِ ضعيفٌ.

«٧٧» كان المسلمون مكفوفين عن القتال مع الكفار ما دامُوا بمكةَ، وكانوا يتمنَّون أن يُؤذنَ لهم فيه، فَنزلَ[١]:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ﴾ أي: عن القتال ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ﴾ أي: فُرِضَ بالمدينة ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾: يخافون أن يقاتلهم الكفارُ، كما يخافون أن يُنْزِلَ الله عليهم بأسَه، لا شكّاً في الدين، ولا رغبةً عنه، ولكن نُفوراً عن الإخطارِ بالأرواحِ؛ وخوفاً من الموت، قال الشيخُ أبو منصورٍ رحمه الله: هذه خشية طَبْعٍ، لا أن ذلك منهم كراهةٌ لحكم اللهِ وأمرِه اعتقاداً[٢]، فالمرءُ مجبولٌ على كراهةِ ما فيه خوفُ هلاكِه غالباً، و(خشيةِ الله): من إضافة المصدرِ إلى المفعولِ، ومحلُّه النصبُ على الحال من الضمير في (يخشون) أي: يَخشون الناس مثلَ أهل خشيةِ اللهِ؛ أي: مُشبهين لأهلِ خشيةِ اللهِ، ﴿أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ هو معطوفٌ على الحال؛ أي: أو أشدَّ خشيةً من أهلِ خشيةِ الله، و (أو): للتخيير؛ أي: إن قلت: خشيتُهم الناسَ كخشية الله.. فأنت مصيب، وإن قلت: إنها أشدُّ.. فأنت مصيب؛ لأنه حصل لهم مثلُها وزيادة[٣]، ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾: هلا

(١) روى نحوه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٥٤٩).
(٢) انظر «تأويلات أهل السنة» (١/ ٤٥٦).
(٣) وتحتمل التنويع؛ أي: أن خشية بعضهم كخشية الله، وخشية بعضهم أشدُّ منها. انظر «تفسير أبي السعود» (٢/ ٢٠٤).

أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ . . . . . .

أمهلتَنا إلى الموت فنموتَ على الفُرُشِ، وهو سؤالٌ عن وجه الحكمة في فرض القتال عليهم، لا اعتراضٌ لحكمِه؛ بدليل أنهم لم يُوَبَّخُوا على هذا السؤال، بل أجيبوا بقوله: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾: متاعُ الدنيا قليلٌ زائلٌ؛ ومتاعُ الآخرة كثيرٌ دائمٌ، والكثيرُ إذا كان على شرفِ الزوالِ.. فهو قليل، فكيف القليلُ الزائلُ! ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾: ولا تُنقصون أدنى شيءٍ من أُجوركم على مشاقِّ القتل، فلا ترغبُوا عنه، وبالياء: مكيٌّ وحمزةُ وعليٌّ[1].

《٧٨》 ثم أخبر أن الحذر لا يُنجي من القدر بقوله: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ﴾ ما: زائدةٌ لتوكيدِ معنى الشرطِ في: أين، ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ﴾: حُصُونٍ، أو قصورٍ ﴿مُّشَيَّدَةٍ﴾: مُرفَّعةٍ، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ﴾: نعمةٌ من خِصْبٍ ورَخاءٍ ﴿يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ نسبُوها إلى الله، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾: بَلِيَّةٌ من قحطٍ وشدةٍ ﴿يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ أضافُوها إليك، وقالوا: هي من عندك، وما كانت إلا بِشُؤمك، وذلك أن المنافقين واليهود كانوا إذا أصابَهم خيرٌ.. حَمِدُوا الله، وإذا أصابَهم مكروهٌ.. نسبُوه إلى محمد ﷺ، فكذبهم الله بقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، والمضافُ إليه محذوفٌ؛ أي: كلُّ ذلك، فهو يبسطُ الأرزاقَ ويقبِضُها، ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ﴾: يفهمون ﴿حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾ فيعلمون أن الله هو الباسطُ القابضُ، وكلُّ ذلك صادرٌ عن حكمةٍ.

《٧٩》 ثم قال: ﴿مَّآ أَصَابَكَ﴾ يا إنسانُ خطاباً عامّاً، وقال الزجاج: المخاطبُ به النبيُّ عليه السلام والمرادُ غيرُه[2]؛ ﴿مِنْ حَسَنَةٍ﴾: من نعمةٍ وإحسانٍ ﴿فَمِنَ ٱللَّهِ﴾: تفضلاً منه وامتناناً، ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ﴾: من بليةٍ ومصيبةٍ ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾: فمن عندِك؛ أي: فبما كَسَبت يداك، ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ لا مُقدَّراً حتى نسبُوا إليك الشدةَ، أو: أرسلناك للناس رسولاً، فإليك تبليغُ الرسالةِ، وليس إليك الحسنةُ والسيئةُ، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾ بأنك رسولُه، وقيل: هذا متصلٌ بالأول؛ أي: لا يكادون يفقهون حديثاً، يقولون: ما أصابك، وحملُ المعتزلةِ الحسنةَ والسيئةَ في الآيةِ الثانيةِ على الطاعة والمعصية تَعَسُّفٌ بَيِّنٌ؛ وقد نادى عليه: (ما أصابك) إذ يقال في الأفعال: ما أَصَبْتَ؛ ولأنهم لا يقولون: الحسناتُ من الله خلقاً وإيجاداً، فأنى يكونُ لهم حجةٌ في ذلك؟ و(شهيداً): تمييزٌ.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٨٢).
(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٢/ ٧٩).

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ....﴾

《٨٠》 ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾؛ لأنه لا يأمرُ ولا ينهى إلا بما أمرَ اللهُ به ونهى عنه، فكانت طاعتُه في أوامره ونواهيه طاعةً لله، ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ﴾ عن الطاعةِ فَأَعْرِضْ عنه؛ ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾: تحفظُ عليهم أعمالَهم، وتحاسبُهم عليها، وتعاقبُهم.

《٨١》 ﴿وَيَقُولُونَ﴾: ويقول المنافقون إذا أمرتَهم بشيءٍ: ﴿طَاعَةٌ﴾: خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ؛ أي: أمرُنا وشأنُنا طاعةٌ، ﴿فَإِذَا بَرَزُوا۟﴾: خرجُوا ﴿مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾: زوَّر وسوَّى، فهو من البيتوتةِ؛ لأنه قضاءُ الأمرِ وتدبيرُه بالليل، أو: من أبياتِ الشِّعْرِ؛ لأن الشاعر يُديرها ويُسوِّيها، وبالإدغامِ: حمزةُ وأبو عمرٍو[1]، ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ﴾: خلافَ ما قلتَ وما أمرت به، أو خلافَ ما قالت وما ضَمِنَت من الطاعة؛ لأنهم أبطنُوا الردَّ لا القبولَ، والعصيانَ لا الطاعةَ، وإنما ينافقون بما يقولون ويظهرون، ﴿وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾: يثبته في صحائفِ أعمالِهم، ويجازيهم عليه، ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ولا تحدث نفسَكَ بالانتقام منهم، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ في شأنِهم؛ فإن الله يكفيك مَضَرَّتَهم، وينتقمُ لك منهم إذا قويَ أمرُ الإسلامِ، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾: كافياً لمن توكَّلَ عليه.

《٨٢》 ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾: أفلا يتأملُون في معانيه ومبانيه؟ والتدبرُ: التأملُ والنظرُ في أدبارِ الأمرِ، وما يؤولُ إليه في عاقبتِه، ثم استُعمل في كلِّ تأمُّلٍ، والتفكُّرُ: تَصرُّفُ القلب بالنظر في الدلائلِ، وهذا يردُّ قول من زعم من الروافض: أن القرآن لا يُفهمُ معناه إلا بتفسير الرسول والإمامِ المعصومِ، ويدلُّ على صحةِ القياسِ، وعلى بطلانِ التقليدِ[2]، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ﴾ كما زعمَ الكفارُ ﴿لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ أي: تناقضاً من حيث التوحيدُ والتشريكُ والتحليلُ والتحريمُ، أو: تفاوُتاً من حيث البلاغةُ، فكان بعضُه بالغاً حدَّ الإعجازِ، وبعضُه قاصراً عنه يمكن معارضتُه، أو: من حيثُ المعاني، فكان بعضُه إخباراً بغيبٍ قد وافقَ المخبَرَ عنه، وبعضُه إخباراً مخالفاً للمخبَرِ عنه، وبعضُه دالاً على معنىً صحيحٍ عند علماء

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٨٣).

(٢) يجب على غير المجتهد التقليدُ في الفروع، والراجحُ: جواز التقليد في العقيدة إن كان المقلِّدُ جازماً. انظر «شرح مختصر ابن الحاجب» للأصفهاني (٣/ ٣٥٨) و«شرح جوهرة التوحيد» للباجوري (ص٧٧).

﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٣﴾ فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ﴿٨٤﴾﴾ . . . .

المعاني، وبعضُه دالّاً على معنىً فاسدٍ غيرِ مُلْتَئِم، وأما تعلقُ الملحدةِ بآيات يَدَّعُون فيها اختلافاً، من نحوِ قولِه: ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ﴾ [الأعراف: ١٠٧]، ﴿كَأَنَّهَا جَآنّٞ﴾ [النمل: ١٠]، ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢]، ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ﴾ [الرحمن: ٣٩]. . فقد تفصَّى عنها أهلُ الحقِّ[1]، وستجدُها مشروحةً في كتابنا هذا في مَظانِّها إن شاء الله تعالى.

《٨٣》 ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ﴾ هم: ناسٌ من ضَعَفَةِ المسلمين الذين لم يكن فيهم خِبْرَةٌ بالأحوالِ، أو: المنافقون، كانوا إذا بَلَغَهم خبرٌ من سرايا رسول الله ﷺ من أمنٍ وسلامةٍ أو خوفٍ وخَلَلٍ ﴿أَذَاعُواْ بِهِۦۖ﴾: أَفْشَوْهُ، وكانت إذاعتُهم مَفْسَدَةً؛ يقال: أذاعَ السرَّ، وأذاعَ به، والضميرُ: يعودُ إلى الأمر، أو إلى الأمنِ، أو الخوف؛ لأنَّ (أو): تقتضي أحدَهما، ﴿وَلَوۡ رَدُّوهُ﴾ أي: ذلك الخبرَ ﴿إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ أي: رسولِ الله ﷺ، ﴿وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ﴾ يعني: كبراءَ الصحابةِ البصراءَ بالأمورِ، أو الذين كانوا يُؤَمَّرُون منهم، ﴿لَعَلِمَهُ﴾: لعلمَ تدبيرِ ما أُخبِرُوا به ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ﴾: يستخرجون تدبيرَه بفطنِهم وتجارِبِهم ومعرفتِهم بأمور الحرب ومكايِدِها، وقيل: كانوا يقفون من رسول الله ﷺ وأولي الأمرِ على أمنٍ وَوُثُوقٍ بالظهور على بعضِ الأعداءِ، أو على خوفٍ واستشعارٍ فيذيعونَه فيُنْشَرُ فيبلغُ الأعداءَ فتعودُ إذاعتُهم مفسدةً، ولو ردُّوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر، وفوَّضُوه إليهم، وكانوا كأن لم يسمعُوا. . لَعَلِمَ الذين يستنبطون تدبيرَه كيف يدبرونَه، وما يأتون ويذرون فيه، والنَّبَطُ: الماءُ يخرجُ من البئرِ أولَ ما تحفرُ، واستنباطُه: استخراجُه، فاستعير لما يستخرجُه الرجلُ بفضلِ ذهنِه من المعاني والتدابيرِ فيما يُعْضِلُ، ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ بإرسالِ الرسولِ، ﴿وَرَحۡمَتُهُۥ﴾ بإنزال الكتابِ ﴿لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾: لبقيتم على الكفرِ ﴿إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٣﴾﴾ لم يتبعُوه، ولكن آمَنُوا بالعقلِ، كزيدِ بن عمرِو بنِ نُفَيْلٍ، وقِسِّ بنِ ساعِدةَ، وغيرِهما[2].

《٨٤》 لما ذكرَ في الآيِ قبلَها تَثَبُّطَهم عن القتالِ، وإظهارَهم الطاعةَ، وإضمارَهم خلافَها. . قال: ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إن أفردُوك وتركُوك وحدَك، ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ﴾: غيرَ

---

(١) تفصَّى: تخلَّصَ؛ أي: أجاب عنها أهلُ الحق.

(٢) ويحتمل أن يُرادَ بقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلٗا﴾: أولو الأمر الواقفون على أسرار الكتاب، الراسخون في معرفة أحكامه. انظر «تفسير أبي السعود» (٢/ ٢٠٩).

﴿مَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾

نفسِك وحدَها أن تُقدِّمَها إلى الجهاد؛ فإن الله هو ناصرُك لا الجنودُ، وقيل: دعا الناس في بدرٍ الصغرى إلى الخروجِ، وكان أبو سفيان واعدَ رسولَ الله ﷺ اللقاءَ فيها، فكره بعضُ الناس أن يخرجُوا، فنزلت، فخرجَ وما معه إلا سبعون، ولو لم يَتْبَعْهُ أحدٌ.. لخرجَ وحدَه[١]، ﴿وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: وما عليك في شأنهم إلا التحريضُ على القتال فحسبُ، لا التعنيفُ بهم، ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: بطشَهم وشدَّتَهم، وهم قريشٌ، وقد كفَّ بأسَهم بالرعبِ فلم يخرجُوا، و(عسى): كلمةٌ مُطمِعةٌ، غيرَ أن إطماعَ الكريم أعْوَدُ من إنجازِ اللئيم، ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا﴾ من قُريشٍ، ﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾﴾: تعذيباً، وهو تمييزٌ، كـ(بأساً).

《٨٥》 ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً﴾ هي الشفاعةُ في دفع شرٍّ، أو جلب نفعٍ، مع جوازِها شرعاً، ﴿يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾: من ثواب الشفاعةِ، ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً﴾ هي خلافُ الشفاعةِ الحسنةِ، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما لها مفسِّرٌ غيري؛ معناه: مَن أَمَرَ بالتوحيد، وقاتلَ أهلَ الكفرِ، وضدُّه: من أمر بالشرك وقاتل أهل الإسلام، وقال الحسن: هو المشيُ بالصلح، وضدُّه النميمةُ، ﴿يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ﴾: نصيبٌ ﴿مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾﴾: مُقتدراً؛ مِن: أقاتَ على الشيءِ: اقتدر عليه، أو: حفيظاً؛ من القُوت؛ لأنه يمسك النفسَ ويحفظُها.

《٨٦》 ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم﴾ أي: سُلِّمَ عليكم؛ فإن التحية في ديننا بالسلامِ في الدارين، ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٦١]، ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤]، وكانت العربُ تقول عندَ اللقاءِ: حيّاكَ اللهُ؛ أي: أطالَ الله حياتَك، فأُبْدِلَ ذلك بعد الإسلام بالسلام، ﴿بِتَحِيَّةٍ﴾ هي (تَفْعِلَة) مِن حيّا يُحيِّيْ تَحِيَّةً، ﴿فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ﴾ أي: قُولوا: وعليكم السلام ورحمة الله؛ إذا قال: السلام عليكم، وأن تزيدُوا: وبركاتُه؛ إذا قال: ورحمةُ الله، ويقال: لكلِّ شيءٍ مُنتهىً، ومُنتهَى السلام: وبركاتُه[٢]، ﴿أَوْ رُدُّوهَآ﴾ أي: أجيبُوها بمثلِها، وردُّ السلامِ: جوابُه بمثلِه؛ لأن المجيب يردُّ قولَ المسلِّم، وفيه حذفُ مضافٍ؛ أي: رُدُّوا مثلَها.

والتسليمُ سنةٌ، والردُّ فرضٌ؛ والأحسنُ فَضْلٌ، وما من رجلٍ يمرُّ على قوم مسلمين فيسلمُ عليهم ولا يردُّون عليه.. إلا نَزَعَ عنهم روحُ القدسِ[٣]، ورَدَّتْ عليه الملائكةُ، ولا يردُّ السلامَ

---

(١) انظر «تفسير الثعلبي» (٣/ ٣٥٢).

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١١/ ٢٤٦) من قول سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) قيل: معناه: نزعَ عنهم التأييدَ والتوفيقَ والبركةَ، وروحُ القدسِ: سيدُنا جبريل عليه السلام.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴿٨٧﴾ فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ﴿٨٨﴾﴾ ....

في الخطبةِ، وقراءةِ القرآنِ جهراً، وروايةِ الحديثِ، وعند مذاكرةِ العلم، والأذانِ، والإقامةِ، وعندَ أبي يوسفَ رحمه الله: لا يسلِّمُ على لاعبِ الشِّطرنجِ، والنَّرْدِ، والمغنِّي، والقاعدِ لحاجتِه، ومُطَيِّرِ الحمامِ، والعاري من غير عذرٍ في حمّامٍ أو غيرِه، ويسلِّمُ الرجلُ إذا دخل على امرأتِه، والماشي على القاعدِ، والراكبُ على الماشي، وراكبُ الفرسِ على راكب الحمارِ، والصغيرُ على الكبيرِ، والأقلُّ على الأكثرِ، وإذا التقيا.. ابْتَدَرا.

وقيل: بأحسنَ منها لأهل الملةِ، أو رُدُّوها لأهل الذمةِ، وعن النبي ﷺ: «إذا سلم أهلُ الكتابِ.. فقولوا: وعليكم»[1]؛ أي: وعليكم ما قلتم؛ لأنهم كانوا يقولون: السامُ عليكم، وقوله عليه السلام: «لا غِرارَ في تسليم»[2]؛ أي: لا يقال: عليك، بل: عليكم؛ لأن كاتِبَيْهِ معه؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾ أي: يحاسبُكم على كل شيءٍ؛ من التحيةِ وغيرِها.

《٨٧》 ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأٌ، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: خبرُه، أو اعتراضٌ والخبر: ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ﴾ ومعناه: اللهُ واللهِ ليجمعنَّكم ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أي: ليحشرنَّكم إليه، والقيامةُ والقيامُ: كالطَّلابةِ والطِّلابِ، وهي: قيامُهم من القُبور، أو: قيامُهم للحساب يومَ يقوم الناس لرب العالمين، ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِۗ﴾ هو: حالٌ من (يوم القيامة)، والهاءُ يعود إلى اليوم، أو: صفةٌ لمصدر محذوف؛ أي: جمعاً لا ريب فيه، والهاءُ يعودُ إلى الجمعِ، ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴿٨٧﴾﴾: تمييزٌ، وهو استفهام بمعنى النفي؛ أي: لا أحدَ أصدقُ منه في إخبارِه ووعدِه ووعيدِه؛ لاستحالة الكذب عليه؛ لقبحه؛ لكونه إخباراً عن الشيءِ بخلاف ما هو عليه.

《٨٨》 ﴿فَمَا لَكُمۡ﴾: مبتدأٌ وخبرٌ، ﴿فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ﴾ أي: ما لكم اختلفتم في شأنِ قوم قد نافقُوا نفاقاً ظاهراً، وتَفرَّقْتُم فيهم فِرقتين؟ وما لكم لم تقطعوا القولَ بكفرِهم؟

وذلك أن قوماً من المنافقين استأذنُوا رسول الله ﷺ في الخروج إلى البدْوِ؛ مُعْتَلِّين باجتواءِ المدينةِ[3]؛ فلما خرجُوا.. لم يزالوا راحلين مرحلةً مرحلةً حتى لحقُوا بالمشركين، فاختلف

---

(١) رواه البخاري (٦٢٥٨) ومسلم (٢١٦٣) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) رواه أبو داود (٩٢٩) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه، والغِرار: النقصان.

(٣) اجتواء المدينة: كراهية الإقامة فيها.

﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾﴾

المسلمون فيهم؛ فقال بعضهم: هم كفارٌ، وقال بعضهم: هم مسلمون[١]، و(فئتين): حالٌ، كقولك: ما لك قائماً، قال سيبويه: إذا قلت ما لك قائماً؟ فمعناه: لِمَ قمت؟ ونصبُه على تأويل: أيُّ شيءٍ يستقرُّ لك في هذه الحال[٢]؟ ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم﴾: ردَّهم إلى حكمِ الكفار ﴿بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾ من ارتدادِهم، ولحوقِهم بالمشركين، فرُدُّوهم أيضاً، ولا تختلفوا في كفرهم، ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ﴾: أن تجعلوا من جملة المهتدين ﴿مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾: من جعله الله ضالاً؟ أو: أتريدون أن تسمُّوهم مهتدين وقد أظهر الله ضلالَهم؟ فيكونُ تعييراً لمن سمّاهم مهتدين، والآيةُ تدلُّ على مذهبِنا في إثبات الكسبِ للعبدِ، والخلقِ للربِّ جلَّت قدرتُه، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾﴾: طريقاً إلى الهداية.

《٨٩》 ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ﴾ الكافُ: نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ، وما: مصدريةٌ؛ أي: ودُّوا لو تكفرون كفراً مثلَ كفرِهم ﴿فَتَكُونُونَ﴾: عطفٌ على (تكفرون) ﴿سَوَآءً﴾ أي: مُستوين أنتم وهم في الكفر، ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: فلا توالُوهم حتى يؤمنوا؛ لأن الهجرةَ في سبيل الله بالإسلام[٣]، ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ عن الإيمان ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ كما كان حكم سائر المشركين، ﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾﴾ وإن بذلُوا لكم الولايةَ والنصرةَ.. فلا تقبلوا منهم.

《٩٠》 ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ﴾ أي: ينتهون إليهم، ويتصلون بهم، والاستثناءُ من قولِه: ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ﴾، دونَ الموالاةِ، ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ القومُ همُ الأَسْلَمِيُّون، كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهدٌ، وذلك أنه وادعَ قبلَ خروجِه إلى مكةَ هلالَ بنَ عُوَيمِرٍ الأسلميَّ؛ على ألا يُعينَه ولا يُعينَ عليه، وعلى أن مَن وَصَلَ إلى هلالٍ والتجأ إليه.. فله من الجِوارِ مثلُ

---

(١) روى نحوه الطبري في «تفسيره» (٨/ ١٢).

(٢) انظر «الكتاب» لسيبويه (٢/ ٦١).

(٣) في «تفسير أبي السعود» (٢/ ٢١٣): حتى يؤمنوا ويحققوا إيمانهم بهجرة كائنة لله تعالى ورسوله ﷺ لا لغرض من أغراض الدنيا.

﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾

الذي لِهلالٍ[1]؛ أي: فاقتلوهم إلا من اتصلَ بقومٍ بينكم وبينهم ميثاقٌ، ﴿أَوْ جَاءُوكُمْ﴾: عطفٌ على صِفةِ قومٍ؛ أي: إلا الذين يصلون إلى قومٍ معاهِدين، أو قومٍ مُمسِكين عن القتالِ، لا لَكم، ولا عليكم، أو: على صلةِ (الذين) أي: إلا الذين يتصلون بالمعاهِدين، أو الذين لا يقاتِلونكم، ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾: حالٌ بإضمارِ قد، والحَصَرُ: الضيقُ والانقباضُ، ﴿أَن يُقَاتِلُوكُمْ﴾: عن أن يقاتلُوكم؛ أي: عن قتالِكم، ﴿أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾ معكم، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾ بتقويةِ قلوبِهم، وإزالةِ الحَصَرِ عنها، ﴿فَلَقَاتَلُوكُمْ﴾: عطفٌ على (لسلطهم)، ودخولُ اللامِ للتأكيد، ﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ﴾: فإن لم يتعرضُوا لكم، ﴿فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ﴾ أي: الانقيادَ والاستسلامَ ﴿فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾﴾: طريقاً إلى القتال.

《٩١》 ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ﴾ بالنفاقِ، ﴿وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ﴾ بالوِفاقِ، هم قومٌ من أَسدٍ وغَطَفانَ، كانوا إذا أتَوُا المدينةَ.. أسلمُوا وعاهدُوا؛ ليأمنوا المسلمين، فإذا رجعُوا إلى قومِهم.. كفروا ونكثُوا عهودَهم، ﴿كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ﴾: كلما دعاهم قومُهم إلى قتال المسلمين ﴿أُرْكِسُوا فِيهَا﴾: قُلِبُوا فيها أقبحَ قَلْبٍ وأشنعَه، وكانُوا شرّاً فيها من كلِّ عدوٍّ، ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ﴾: فإن لم يعتزلُوا قتالَكم، ﴿وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ﴾: عطفٌ على (لم يعتزلوكم) أي: ولم ينقادُوا لكم بطلبِ الصلحِ، ﴿وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ﴾: عطفٌ عليه أيضاً؛ أي: ولم يمسكُوا عن قتالِكم ﴿فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾: حيث تَمكَّنتم منهم، وظَفِرتُم بهم، ﴿وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾﴾: حُجَّةً واضحةً لظهور عداوتِهم، وانكشافِ حالِهم في الكفرِ والغدرِ، وإضرارِهم بالمسلمين، أو: تسلُّطاً ظاهراً؛ حيثُ أذِنّا لكم في قتلِهم.

《٩٢》 ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾: وما صحَّ له، ولا استقامَ، ولا لاقَ بحالِه ﴿أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٣/ ٣٥٧).

....

ابتداءً غيرَ قِصاصٍ؛ أي: ليس المؤمنُ كالكافر الذي تقدمَ في إباحةِ دمِه، ﴿إِلَّا خَطَـًٔا﴾: إلا على وجهِ الخطأِ، وهو: استثناءٌ منقطعٌ؛ بمعنى: لكن؛ أي: لكن إن وقع خطأً، ويحتملُ أن يكون صفةً لمصدرٍ؛ أي: إلا قتلاً خطأً؛ والمعنى: أنَّ مِن شأن المؤمنِ أن ينتفيَ عنه وجودُ قتلِ المؤمنِ ابتداءً البتةَ، إلا إذا وجد منه خطأً من غير قصدٍ؛ بأن يرميَ كافراً فيصيبَ مسلماً، أو يرميَ شخصاً على أنه كافرٌ فإذا هو مسلمٌ، ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا﴾: صفةُ مصدرٍ محذوفٍ؛ أي: قتلاً خطأً ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾: مبتدأٌ، والخبرُ محذوفٌ؛ أي: فعليه تحريرُ رقبةٍ، والتحريرُ: الإعتاقُ، والحُرُّ والعتيقُ: الكريمُ؛ لأن الكرمَ في الأحرار، كما أن اللؤمَ في العبيدِ[١]، ومنه عِتاقُ الطير وعتاق الخيل لِكرامِها، والرقبةُ: النَّسَمَةُ، ويعبَّرُ عنها بالرأسِ في قولهم: فلانٌ يملكُ كذا رأساً من الرقيق، ﴿مُؤْمِنَةٍ﴾ قيل: لما أخرجَ نفساً مؤمنةً عن جملة الأحياءِ.. لزمه أن يُدخلَ نفساً مثلها في جملةِ الأحرارِ؛ لأن إطلاقَها من قيدِ الرقِّ كإحيائِها؛ من قِبَلِ أن الرقيق ملحقٌ بالأموات؛ إذ الرقُّ أثرٌ من آثارِ الكفرِ، والكفرُ موتٌ حكماً، ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢]؛ ولذا مُنِعَ من تصرفِ الأحرارِ؛ وهذا مشكلٌ؛ إذ لو كان كذلك.. لوجب في العمد أيضاً[٢]، لكنْ يحتملُ أن يقال: إنما وجب عليه ذلك؛ لأن الله تعالى أبقَى للقاتلِ نفساً مؤمنةً، حيث لم يُوجب القصاصَ، فأوجبَ عليه مثلَها رقبةً مؤمنةً، ﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾: مؤداةٌ إلى ورثتِه يقتسمونَها كما يقتسمون الميراثَ، لا فرقَ بينها وبين سائرِ التركةِ في كلِّ شيءٍ، فيُقضَى منها الدينُ، وتنفذُ الوصيةُ، وإذا لم يبقَ وارثٌ.. فهي لبيت المال، وقد وَرَّثَ رسولُ الله ﷺ امرأةَ أشيمَ الضِّبابيِّ من عَقْلِ زوجِها أشيمَ[٣]، لكنَّ الديةَ على العاقلة، والكفارةَ على القاتل، ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾: إلا أن يتصدقُوا عليه بالدية؛ أي: يَعفُوا عنه، والتقديرُ: فعليه ديةٌ في كلِّ حالٍ إلا في حالِ التصدقِ عليه بها.

﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ﴾: فإن كان المقتولُ خطأً من قوم أعداءٍ لكم؛ أي: كفرةٍ، فالعدوُّ يطلقُ على الجمعِ، ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي: المقتولُ مؤمنٌ ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ يعني:

---

(١) وليس هذا عاماً في العبيد، فقد كان كثيرٌ منهم من العلماء الكبار الصلحاء.

(٢) عند الشافعية: تجب الكفارة في العمد أيضاً. انظر «نهاية المحتاج» (٧/ ٣٨٥).

(٣) رواه أبو داود (٢٩٢٧) والترمذي (١٤١٥)، والنسائي في «الكبرى» (٦٣٢٩)، وابن ماجه (٢٦٤٢) عن سيدنا الضحاك بن سفيان رضي الله عنه.

وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾

إذا أسلم الحربيُّ في دار الحرب ولم يهاجر إلينا، فقتله مسلمٌ خطأً.. تجب الكفارةُ بقتله للعصمةِ المُؤثِّمَةِ، وهي الإسلام، ولا تجب الدية؛ لأن العصمة المقوِّمةَ بالدار، ولم توجد، ﴿وَإِن كَانَ﴾ أي: المقتولُ ﴿مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ﴾: بين المسلمين ﴿وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾: عهدٌ ﴿فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ أي: وإن كان المقتولُ ذميّاً.. فحكمُه حكمُ المسلم، وفيه دليلٌ: على أن دية الذميِّ كديةِ المسلمِ، وهو قولُنا[1]، ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ رقبةً؛ أي: لم يَملِكْها، ولا ما يُتوصلُ به إليها ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ﴾: فعليه صيامُ شهرين ﴿مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾: قبولاً من الله ورحمةً منه؛ مِنْ: تاب اللهُ عليه: إذا قَبِلَ توبتَه؛ يعني: شرعَ ذلك توبةً منه، أو: فليتبْ توبةً، فهي نصبٌ على المصدر، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بما أمر، ﴿حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾ فيما قَدَّرَ.

«٩٣» ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾: حالٌ من ضميرِ القاتلِ؛ أي: قاصداً قتلَه؛ لإيمانه، وهو كفرٌ، أو: قَتَلَهُ مُستحلّاً لقتلِه، وهو كفرٌ أيضاً ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ أي: إن جازاه، قال عليه السلام: «هي جزاؤه إن جازاه»[2]، والخلودُ قد يُرادُ به طولُ المقام[3]، وقولُ المعتزلةِ بالخروج من الإيمان يُخالفُ قولَه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ [البقرة: ١٧٨]، ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ﴾ أي: انتقمَ منه وطردَه من رحمتِه، ﴿وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾؛ لارتكابِه أمراً عظيماً، وخَطباً جسيماً، في الحديث: «لزوالُ الدنيا أهونُ على الله من قتلِ امرئٍ مسلم»[4].

«٩٤» ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: سِرتم في طريق الغزو ﴿فَتَبَيَّنُوا۟﴾

---

(١) انظر «الاختيار لتعليل المختار» (٥/ ٣٦).

(٢) رواه الطبراني في «الأوسط» (٨٦٠٦) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) هذا التأويل لقوله: (فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا) إنما هو في حق القاتلِ العاصي بقتلِه، فأما إن كان القاتلُ كافراً كأن استحلَّ القتلَ.. فهو على ظاهره؛ لأن الكافر مخلد في النار.

(٤) رواه الترمذي (١٣٩٥)، والنسائي في «المجتبى» (٧/ ٨٢)، عن سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، وابن ماجه (٢٦١٩) عن سيدنا البراء بن عازب رضي الله عنه.

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾﴾

﴿فتثبّتوا﴾: حمزةُ وعليٌّ[1]، وهما: من (التَّفعُّل) بمعنى (الاستفعال) أي: اطلُبوا بيانَ الأمرِ وثباتَه، ولا تتهوَّكُوا فيه[2]، ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ﴾ ﴿السَّلَم﴾: مدنيٌّ وشاميٌّ وحمزةُ[3]، وهما: الاستسلامُ، وقيل: الإسلامُ، وقيل: التسليمُ الذي هو تحيةُ أهلِ الإسلامِ ﴿لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾: في موضعِ النصبِ بالقولِ.

وروي: أن مرداسَ بنَ نُهَيْكٍ أسلمَ ولم يسلمْ من قومِه غيرُه، فَغَزَتْهم سريةٌ لرسول الله ﷺ فهربُوا وبقي مِرداسُ لِثقتِه بإسلامِه، فلما رأى الخيلَ.. ألجأَ غنمَه إلى مُنْعَرَجٍ من الجبلِ، وصَعِدَ، فلما تلاحقُوا وكبرُوا.. كَبَّرَ ونَزَلَ، وقال: لا إله إلا الله، محمدٌ رسولُ الله، السلامُ عليكم، فقتله أسامةُ بنُ زيدٍ، واستاقَ غنمَه، فأخبرُوا رسولَ الله ﷺ، فَوَجَدَ وَجْداً شديداً وقال: قتلتمُوه إرادةَ ما معَه، ثم قرأ الآية على أسامةَ[4]، ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: تطلبون الغنيمةَ التي هي حُطامٌ سريعُ النفاد، فهو الذي يدعُوكم إلى تركِ التثبُّتِ، وقلةِ البحثِ عن حالِ مَن تقتلونَه، والعَرَضُ: المالُ، سُمِّيَ به؛ لِسرعةِ فَنائِه، و(تبتغون): حالٌ من ضمير الفاعلِ في (تقولوا)، ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ يُغَنِّمْكُمُوها تُغْنِيْكم عن قتلِ رجلٍ يُظهرُ الإسلامَ ويتعوَّذُ به من التعرضِ له؛ لتأخذوا مالَه، ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ﴾ أولَ ما دخلتُم في الإسلامِ، سُمِعَتْ من أفواهِكم كلمةُ الشهادةِ فحصَّنت دماءَكم وأموالَكم من غيرِ انتظارِ الاطِّلاعِ على مُواطأةِ قلوبِكم لألسنتِكم، والكافُ في (كذلك): خبرُ كانَ، وقد تقدم عليها وعلى اسمِها، ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بالاستقامةِ والاشتهارِ بالإيمانِ، فافعلُوا بالداخلين في الإسلامِ كما فُعِلَ بكم، ﴿فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾: كَرَّرَ الأمرَ بالتَّبيُّنِ؛ ليؤكِّدَ عليهم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾: فلا تتهافتُوا في القتلِ، وكونُوا محترِزين محتاطِين في ذلك.

《٩٥》 ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ﴾ عن الجهادِ ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولِي الضَّرَرِ﴾: بالنصبِ: مدنيٌّ وشاميٌّ وعليٌّ؛ لأنه استثناء من القاعدين، أو حالٌ منهم، وبالجرِّ: عن حمزةَ: صفةٌ

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٨٣).

(٢) التهوك: التحير.

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص٨٣).

(٤) روى نحوه الطبريُّ في «تفسيره» (٩/ ٧٨) عن السدي، وأصلُه في «البخاري» (٤٥٩١) و«مسلم» (٣٠٢٥) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ٩٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ٩٧﴾ ....

لـ (المؤمنين)، وبالرفعِ: غيرُهم: صفةٌ لـ (القاعدين)[(١)]، والضررُ: المرضُ، أو العاهةُ مِن عمىً أو عَرَجٍ أو زَمانَةٍ أو نحوِها، ﴿وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ﴾: عطفٌ على (القاعدون)، ونَفَى التساويَ بين المجاهد والقاعد بغير عُذر وإن كان معلوماً؛ توبيخاً للقاعد عن الجهادِ؛ وتحريكاً له عليه، ونحوُه: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾ [الزمر: ٩] فهو تحريكٌ لطلبِ العلم، وتوبيخٌ على الرضا بالجهل، ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ ذكَرَ هذه الجملةَ بياناً للجملة الأولى، موضِّحَةً لما نُفِيَ مِن استواءِ القاعدين والمجاهدين، كأنه قيل: ما لَهم لا يستوون؟ فأجيبَ بذلك، ﴿دَرَجَةٗۚ﴾: نصبٌ على المصدرِ؛ لوقوعها موقع المرَّةِ من التفضيلِ، كأنه قيل: فَضَّلهم تَفْضِيلَةً، كقولك: ضربَه سوطاً، ونُصِبَ ﴿وَكُلّٗا﴾ أي: وكلَّ فريقٍ من القاعدين والمجاهدين؛ لأنه مفعولٌ أولُ لقولِه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ﴾، والثاني: ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ أي: المثوبة الحسنَى، وهي: الجنةُ وإن كان المجاهدون مفضَّلِين على القاعدين درجةً، ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ بغير عذرٍ ﴿أَجۡرًا عَظِيمٗا ٩٥﴾.

«٩٦» ﴿دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ﴾ انتصبَ ﴿أَجۡرًا﴾ بـ ﴿فَضَّلَ﴾؛ لأنه في معنى: أجَرَهم أجراً، و(درجاتٍ) و(مغفرةً ورحمةً): بدل من (أجراً)، أو: انتصبَ (درجاتٍ) نصبَ ﴿دَرَجَةٗۚ﴾، كأنه قيل: فضَّلهم تفضيلاتٍ، كقولك: ضربه أسواطاً؛ أي: ضَرَباتٍ، و﴿أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾: على أنه حالٌ من النكرةِ التي هي (درجاتٍ) مقدمةٌ عليها، و(مغفرةً ورحمةً) بإضمارِ فعلِهما؛ أي: وغفرَ لهم ورحِمَهم مغفرةً ورحمةً، وحاصلُه: أن الله فضَّلَ المجاهدين على القاعدين بعذرٍ درجةً، وعلى القاعدين بغير عذرٍ بأمرِ النبيِّ عليه السلام اكتفاءً بغيرِهم درجاتٍ؛ لأن الجهاد فرضُ كفايةٍ، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا﴾ بتكفيرِ العذرِ، ﴿رَّحِيمًا ٩٦﴾ بتوفيرِ الأجرِ.

«٩٧» ونزلَ فيمن أسلمَ ولم يهاجر حينَ كانت الهجرةُ فريضةً وخرجَ مع المشركين إلى بدرٍ مرتدّاً فقُتلَ كافراً:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يجوزُ أن يكون ماضياً؛ كقراءةِ مَن قرأ ﴿تَوَفَّتۡهُمُ﴾[(٢)]، ومضارعاً

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٨٣)، وقراءة الجرِّ غيرُ متواترة، تروى عن ابن محيصن. انظر «الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها» (ص٥٣٠).

(٢) انظر «الكشاف» (١/ ٥٨٧).

﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾ ....

بمعنى: تتوفاهم، وحذفت التاء الثانية؛ لاجتماع التاءين، والتوفّي: قبضُ الروح، والملائكةُ: ملكُ الموتِ وأعوانُه، ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾: حالٌ من ضميرِ المفعولِ في (توفاهم) أي: في حال ظلمهم أنفسَهم بالكفرِ وتركِ الهجرةِ، ﴿قَالُوا۟﴾: قال الملائكةُ للمتوفَّيْنَ: ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾: في أيِّ شيءٍ كنتم من أمرِ دينِكم؟ ومعناه التوبيخُ بأنهم لم يكونوا في شيءٍ من الدينِ، ﴿قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ﴾: عاجزين عن الهجرةِ، ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أرضِ مكةَ، فأخرجُونا كارهين، ﴿قَالُوٓا۟﴾ أي: الملائكةُ موبِّخين لهم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ أرادُوا: أنكم كنتم قادرين على الخروجِ من مكةَ إلى بعضِ البلادِ التي لا تُمنعون فيها من إظهارِ دينِكم، ومن الهجرة إلى رسول الله ﷺ، ونصب (فتهاجروا) على جواب الاستفهام، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ خبرُ (إن): (فأولئك)، ودخولُ الفاءِ لما في (الذين) من الإبهام المشابه بالشرطِ، أو: (قالوا فيم كنتم)، والعائدُ محذوفٌ؛ أي: قالوا لهم، والآيةُ تدلُّ على أن من لم يتمكن من إقامةِ دينِه في بلدٍ كما يجبُ، وعلمَ أنه يتمكن من إقامتِه في غيرِه.. حقَّت عليه المهاجَرَةُ، وفي الحديث: «من فرَّ بدينِه من أرضٍ إلى أرضٍ وإن كان شِبراً من الأرضِ.. استوجبت له الجنةُ، وكان رفيقَ أبيه إبراهيمَ ونبيِّه محمدٍ عليهما السلام».

《٩٨》 ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ استثنى من أهل الوعيدِ المستضعفين الذين ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ في الخروج منها؛ لفقرِهم وعجزِهم، ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾﴾: ولا معرفةَ لهم بالمسالكِ، (ولا يستطيعون): صفةٌ للمستضعفين، أو لـ (الرجال والنساء والولدان)، وإنما جاز ذلك والجملُ نكراتٌ؛ لأن الموصوف وإن كان فيه حرفُ التعريفِ.. فليس بشيءٍ بعينِه، كقوله[1]: [من: الكامل]

ولقد أمرُّ على اللئيم يسبُّني ....

《٩٩》 ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ و(عسى) وإن كان للإطماع فهو من الله واجبٌ؛ لأن الكريم إذا أطمعَ.. أنجز، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ لعبادِه قبلَ أن يخلقهم.

《١٠٠》 ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا﴾: مهاجراً وطريقاً يُراغِمُ بسلوكِه قومَه؛

---

(١) قائله: شِمْرُ بن عمرٍ الحنفيُّ، وتتمته:

فمضيتُ ثُمَّتَ قلتُ لا يعنيني.

انظر «الأصمعيات» (ص ١٢٦).

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾﴾ ....

أي: يفارقُهم على رَغْمِ أنوفِهم، والرَّغْمُ: الذلُّ والهَوانُ، وأصلُه لُصوقُ الأنفِ بالرَّغام، وهو الترابُ؛ يقال: راغمتُ الرجلَ: إذا فارقتَه وهو يكرَه مفارقتَك؛ لمذلةٍ تلحقُه بذلك، ﴿كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ في الرزقِ، أو في إظهارِ الدينِ، أو في الصدرِ؛ لتبدل الخوفِ بالأمنِ.

﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا﴾: حالٌ من الضميرِ في (يخرج) ﴿إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: إلى حيثُ أمرَ اللهُ ورسولُه، ﴿ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ﴾ قبلَ بلوغِه مُهاجَرَه، وهو عطفٌ على (يخرج)، ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: حصلَ له الأجرُ بوعدِ اللهِ، وهو تأكيدٌ للوعدِ؛ فلا شيءَ يجبُ على الله لأحدٍ من خلقِه، ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾ قالوا: كلُّ هجرةٍ لطلبِ علمٍ، أو حجٍّ، أو جهادٍ، أو فِرارٍ إلى بلدٍ يزدادُ فيه طاعةً، أو قناعةً وزهداً، أو ابتغاءَ رزقٍ طيبٍ.. فهي هجرةٌ إلى الله ورسولِه، وإن أدركه الموت في طريقه.. فقد وقعَ أجرُه على الله.

«١٠١» ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾: سافرتم فيها، فالضربُ في الأرض هو: السفرُ، ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾: حَرَجٌ ﴿أَن تَقْصُرُوا﴾: في أن تقصروا ﴿مِنَ الصَّلَاةِ﴾: من أعدادِ ركعاتِ الصلاةِ، فتصلُّوا الرباعيةَ ركعتين، وظاهرُ الآيةِ يقتضي: أن القصر رخصةٌ في السفرِ، والإكمالَ عزيمةٌ كما قال الشافعيُّ رحمه الله؛ لأن (لا جناح) يستعملُ في موضعِ التخفيفِ والرخصةِ، لا في موضعِ العزيمةِ، وقلنا: القصرُ عزيمةٌ غيرُ رخصةٍ، ولا يجوز الإكمالُ؛ لقولِ عمرَ رضي الله عنه: صلاةُ السفرِ ركعتان تمامٌ غيرُ قصرٍ على لسان نبيِّكم[1]، وأما الآيةُ.. فكأنَّهم أَلِفُوا الإتمامَ فكانُوا مَظِنَّةً لأن يخطرَ ببالِهم أن عليهم نُقصاناً في القصرِ، فنفَى عنهم الجُناحَ لتطيبَ أنفسُهم بالقصرِ، ويطمئنُّوا إليه، ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: إن خشيتم أن يقصِدَكم الكفارُ بقتلٍ، أو جَرْحٍ، أو أخذٍ، والخوفُ شرطُ جوازِ القصرِ عند الخوارجِ بظاهرِ النصِّ، وعند الجمهور: ليس بشرطٍ؛ لما روي عن يَعلى بنِ أميةَ: أنه قال لعمر: ما بالُنا نقصرُ وقد أَمِنَّا؟ فقال: عجبتُ مما تعجبتَ منه، فسألتُ رسولَ الله ﷺ عن ذلك فقال: «صدقةٌ تصدقَ اللهُ بها عليكم فاقْبَلُوا صدقتَه»[2]، وفيه دليلٌ على أنه لا يجوزُ الإكمالُ في السفرِ؛ لأن التصدق بما لا يحتملُ التمليكَ إسقاطٌ محضٌ

---

(١) رواه النسائي في «المجتبى» (٣/ ١١١) وابن ماجه (١٠٦٣)، وانظر «نهاية المحتاج» (٢/ ٢٤٧)، و«حاشية ابن عابدين» (٢/ ١٢٣).

(٢) رواه مسلم (٦٨٦).

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾ ....

لا يحتمل الردَّ وإن كان المتصدِّقُ ممن لا تلزمُ طاعتُه كوليِّ القصاصِ إذا عفا، فمن تلزمُ طاعتُه أولى؛ ولأن حالَهم حين نزول الآيةِ كذلك، فنزلت على وَفْقِ الحالِ، وهو كقوله: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ [النور: ٣٣]؛ دليلُه: قراءةُ عبدِ الله ﴿من الصلاة أن يفتنكم﴾[1] أي: لئلا يفتنَكم، على أن المرادَ بالآيةِ قصرُ الأحوالِ، وهو أن يومئَ على الدابةِ عند الخوفِ، أو يخففَ القراءةَ والركوعَ والسجودَ والتسبيحَ، كما روي عن ابنِ عباسٍ رضيَ الله عنهما؛ ﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾﴾: فتحرزوا عنهم.

《١٠٢》 ﴿وَإِذَا كُنتَ﴾ يا محمدُ ﴿فِيهِمْ﴾: في أصحابِك ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: فأردتَ أن تقيمَ بهم الصلاةَ، وبظاهره تعلقَ أبو يوسفَ رحمه الله، فلا يرى صلاةَ الخوفِ بعده عليه السلام، وقالا: الائمةُ نُوّابٌ عن رسول الله ﷺ في كلِّ عصرٍ، فكان الخطابُ له متناولاً لكلِّ إمامٍ، كقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]؛ دليلُهُ: فعلُ الصحابةِ رضي الله عنهم بعدَه عليه السلام[2]، ﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾: فاجعلهم طائفتين، فلتقم إحداهما معكَ، فصلِّ بهم، وتقومُ طائفةٌ تِجاهَ العدوِّ، ﴿وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ﴾ أي: الذين تِجاهَ العدوِّ، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وإن كان المرادُ به المصلِّيْنَ. فقالوا: يأخذون من السلاح ما لا يشغلُهم عن الصلاةِ، كالسيفِ والخِنْجَرِ ونحوِهما، ﴿فَإِذَا سَجَدُوا۟﴾ أي. قيَّدُوا ركعتَهم بسجدتين، فالسجودُ على ظاهرِه عندنا، وعند مالك: بمعنى الصلاةِ[3]، ﴿فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ﴾ أي: إذا صلت هذه الطائفةُ التي معكَ ركعةً. فليرجعُوا؛ ليقفوا بإزاءِ العدوِّ، ﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟﴾: في موضع رفعٍ صفةٌ لـ (طائفةٌ)، ﴿فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ﴾ أي: ولتحضُرِ الطائفةُ الواقعةُ بإزاءِ العدوِّ،

---

(١) انظر «المحرر الوجيز» (٢/ ١٠٤).

(٢) انظر «حاشيه ابن عابدين» (٢/ ١٨٦).

(٣) في «الكشاف» (١/ ٥٩٣): وعند مالك بمعنى الصلاة؛ لأن الإمام يصلي عنده بطائفة ركعة، ويقف قائماً حتى تتمَّ صلاتَها وتسلم وتذهبَ، ثم يصلي بالثانية ركعةً ويقفُ قاعداً حتى تُتمَّ صلاتَها ويسلمَ بهم. وانظر «مختصر خليل» (ص٤٧).

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾ ....

فليصلُّوا معكَ الركعةَ الثانيةَ، ﴿وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ﴾: ما يتحرزُون به من العدوِّ كالدِّرعِ ونحوِه، ﴿وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾: جمعُ سلاحٍ، وهو ما يقاتَلُ به، وأَخذُ السلاحِ شرطٌ عند الشافعي رحمه الله، وعندنا: مستحبٌّ، وكيفيةُ صلاةِ الخوفِ معروفةٌ، ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾ أي: تمنَّوا أن ينالُوا منكم غِرَّةً في صلاتِكم، ﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ﴾: فيشدُّون عليكم شَدَّةً واحدةً، ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟﴾: في أن تضعُوا ﴿أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾: رخصَ لهم في وضعِ الأسلحةِ إن ثقُلَ عليهم حملُها بسببِ ما يَبُلُّهم من مطرٍ أو يضعفُهم مِن مرضٍ، وأمرَهم مع ذلك بأخذِ الحِذْرِ؛ لئلا يغفُلوا فيهجُمَ عليهم العدوُّ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾: أخبرَ أنه يُهينُ عدوَّهم؛ لتقوَى قلوبُهم؛ وليعلموا أن الأمرَ بالحذرِ ليس لِتوقعِ غَلَبَتِهم عليهم، وإنما هو تعبدٌ من الله تعالى.

«١٠٣» ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: فرغتم منها ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ﴾ أي: دُوموا على ذكر الله في جميع الأحوالِ، أو: فإذا أردتم أداءَ الصلاةِ.. فصلُّوا قياماً إن قدرتم عليه، وقعوداً إن عجزتم عن القيام، ومضطجعين إن عجزتم عن القعودِ، ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ﴾: سكنتم بزوالِ الخوفِ، ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: فأتمُّوها بطائفة واحدةٍ، أو: إذا أقمتم.. فأتمُّوا، ولا تَقْصُروا، أو: إذا اطمأنَنْتُم بالصحةِ.. فأتمُّوا بالقيامِ والركوعِ والسجودِ، ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾: مكتوباً محدوداً بأوقاتٍ معلومةٍ.

«١٠٤» ﴿وَلَا تَهِنُوا۟﴾: ولا تضعُفُوا ولا تَتوانَوا، ﴿فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ﴾: في طلبِ الكفارِ بالقتالِ، والتعرضِ به لهم، ثم ألزمهم الحجةَ بقوله: ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ﴾ أي: ليس ما تجدون من الألم بالجَرحِ والقتلِ مختصّاً بكم، بل هو مشترك بينكم وبينهم، يصيبُهم كما يصيبُكم، ثم إنهم يصبِرون عليه، فما لكم لا تصبرون مثلَ صبرِهم؟ مع أنكم أجدرُ منهم بالصبرِ؛ لأنكم ترجون من الله ما لا يرجون؛ مِن إظهارِ دينِكم على سائرِ الأديان، ومن الثواب العظيم في الآخرة، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بما يجدُ المؤمنون من الألم، ﴿حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾ في تدبير أمورهم.

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾﴾ ....

«١٠٥» روي: أن طُعمةَ بنَ أُبَيْرِقَ أحدَ بني ظَفَرٍ سرقَ دِرعاً من جارٍ له اسمُه قتادةُ بنُ النعمانِ في جِرابِ دقيقٍ، فجعل الدقيقُ ينتثرُ من خَرْقٍ فيه، وخبّأها عندَ زيدِ بنِ السَّمينِ؛ رجلٍ من اليهودِ، فالتُمست الدِّرْعُ عندَ طُعمةَ فلم تُوجدْ، وحلفَ ما أخذها، وما له بها علمٌ، فتركوه واتبعُوا أثرَ الدقيقِ حتى انتهى إلى منزلِ اليهوديِّ، فأخذوها، فقال: دفعها إليَّ طُعمةُ، وشهد له ناسٌ من اليهود، فقالت: بنو ظَفَرٍ: انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ، فسألُوه أن يُجادلَ عن صاحبهم، وقالوا: إن لم تفعل.. هلكَ صاحبُنا وافْتُضِحَ، وبَرِئَ اليهوديُّ، فَهَمَّ رسولُ الله ﷺ أن يفعلَ[١]، فنزل[٢]:

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أي: مُحِقّاً؛ ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾: بما عَرَّفَكَ، وأوحَى به إليك، وقال الشيخ أبو منصور رحمه الله: بما أَلْهَمَكَ بالنظرِ في الأصولِ المنزلةِ، وفيه دلالةُ جوازِ الاجتهادِ في حقه[٣]، ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ﴾: لأجل الخائنين ﴿خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾: مخاصماً؛ أي: ولا تخاصم اليهودَ؛ لأجلِ بني ظَفَرٍ.

«١٠٦» ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾ مما هممتَ به؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾﴾.

«١٠٧» ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾: يخونُونها بالمعصية، جُعلت معصيةُ العصاةِ خيانةً منهم لأنفسِهم؛ لأن الضررَ راجعٌ إليهم، والمرادُ به: طُعمةُ ومن عاونَه من قومِه، وهم يعلمون أنه سارق، أو: ذُكِرَ بلفظ الجمع لِتناوُلِ طُعمةَ وكلِّ مَن خان خيانتَه؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾﴾.

وإنما قيل بلفظ المبالغةِ؛ لأنه تعالى عالمٌ من طُعمةَ أنه مُفَرِّطٌ في الخيانةِ وركوبِ المآثمِ، وروي: أن طُعمةَ هربَ إلى مكةَ وارتدَّ ونَقَبَ حائطاً بمكة ليسرقَ أهلَه فسقطَ الحائطُ عليه فقتلَه،

---

(١) أي: همَّ بأن يحكم بظاهرِ الحالِ؛ اعتماداً على صدقهم، لا أنه علم براءة اليهودي وهمَّ باتهامه، فهذا لا يليق بجنابه الشريف ﷺ. انظر «الإكليل» (٢/ ٦٦٣).

(٢) روى نحوه الترمذي (٣٠٣٦) عن سيدنا قتادة بن النعمان رضي الله عنه.

(٣) وذكر أيضاً أنها تدل على أن اجتهاد النبي ﷺ كالنص، فلا يخطئ في اجتهاده؛ لأن الله لا يريه إلا الصواب. انظر «تأويلات أهل السنة» (١/ ٤٩٨).

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ ....

وقيل: إذا عثرت مِن رجلٍ على سيئة.. فاعلم أن لها أخواتٍ، وعن عمرَ رضي الله عنه: أنه أمرَ بقطعِ يدِ سارقٍ، فجاءت أمُّه تبكي وتقول: هذه أول سرقةٍ سرقَها فاعفُ عنه، فقال: كذبت؛ إن الله لا يؤاخذُ عبدَه في أولِ مرةٍ.

«١٠٨» ﴿يَسْتَخْفُونَ﴾: يستترون ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ حياءً منهم وخوفاً من ضَرَرِهم، ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾: ولا يستحيون منه، ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾: وهو عالم بهم، مطلع عليهم، لا يخفَى عليه خافٍ من سِرِّهم، وكفى بهذه الآية ناعيةً على الناس ما هم فيه من قِلةِ الحياءِ والخشيةِ من ربِّهم، مع علمِهم أنهم في حضرتِه، لا سُترةَ ولا غَيبةَ، ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ﴾: يُدَبِّرون، وأصلُه أن يكون ليلاً، ﴿مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ﴾ وهو تدبيرُ طعمةَ أن يرميَ بالدرعِ في دارِ زيدٍ؛ لِيُسَرَّقَ دونَه[1]، ويحلفُ أنه لم يسرقْها، وهو دليلٌ على أن الكلام هو المعنى القائم بالنفس؛ حيث سمَّى التدبيرَ قولاً، ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾﴾: عالماً علمَ إحاطةٍ.

«١٠٩» ﴿هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ﴾ (ها): للتنبيه في (أنتم) و(أولاء)، وهما: مبتدأٌ وخبرٌ، ﴿جَادَلْتُمْ﴾: خاصمتم، وهي جملةٌ مبينةٌ لوقوعِ (أولاءِ) خبراً، كقولك لبعضِ الأسخياءِ: أنت حاتِمٌ تجودُ بمالِك، أو: (أولاء): اسمٌ موصولٌ بمعنى: الذين، و(جادلتم): صلتُه؛ والمعنى: هَبُوا أنكم خاصمتم ﴿عَنْهُمْ﴾: عن طُعمةَ وقومِه ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: فمن يُخاصمُ عنهم في الآخرةِ إذا أخذَهم اللهُ بعذابِه؟ وقرئ ﴿عنه﴾[2] أي: عن طُعمةَ، ﴿أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾﴾: حافظاً ومحامياً من بأس الله وعذابِه.

«١١٠» ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا﴾: ذنباً دون الشرك، ﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾ بالشركِ، أو: سوءاً قبيحاً يتعدَّى ضررُه إلى الغير كما فعل طُعمةُ بقتادةَ واليهوديِّ، أو: يظلم نفسَه بما يختصُّ به كالحلف الكاذب، ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾: يسألُ مغفرتَه ﴿يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ له، وهذا بعثٌ لِطُعمةَ على الاستغفار والتوبة.

---

(١) لِيُسَرَّقَ: لينسب زيد للسرقة.

(٢) انظر «تفسير البغوي» (٢/ ٢٨٥).

﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ ۚ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ ....

《١١١》 ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۚ﴾ لأن وَبالَه عليها، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾﴾ فلا يعاقبُ بالذنب غيرَ فاعلِه.

《١١٢》 ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً﴾: صغيرةً، ﴿أَوْ إِثْمًا﴾: أو كبيرةً، أو: الأولُ: ذنبٌ بينه وبين الله، والثاني: ذنبٌ في مظالم العباد، ﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا﴾ كما رَمى طعمةُ زيداً ﴿فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا﴾: كذباً عظيماً، ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾﴾: ذنباً ظاهراً، وهذا لأنه بِكسبِ الإثمِ آثمٌ، وبِرَمْيِ البريءِ باهتٌ، فهو جامعٌ بين الأمرين، والبهتانُ: كذبٌ يَبْهَتُ مَن قيلَ عليه ما لا علمَ له به.

《١١٣》 ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ﴾ أي: عصمتُه ولطفُه من الاطِّلاعِ على سِرِّهم ﴿لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾: من بني ظَفرٍ، أو: المرادُ بالطائفةِ: بنو ظَفرٍ، والضميرُ في (منهم): يعودُ إلى الناس، ﴿أَن يُضِلُّوكَ﴾ عن القضاءِ بالحقِّ، وتَوخِّي طريقِ العدلِ مع علمِهم بأن الجانيَ صاحبُهم، ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾ لأن وَبالَه عليهم، ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ ۚ﴾ لأنك إنما عملت بظاهرِ الحالِ، وما كان يخطرُ ببالِك أن الحقيقة على خلاف ذلك، ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾: القرآنَ، ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾: والسنةَ، ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ﴾ من أمور الدينِ والشرائعِ، أو: من خَفِيّاتِ الأمورِ، وضمائرِ القلوبِ، ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ فيما علَّمَكَ، وأنعمَ عليك.

《١١٤》 ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾: من تَناجِي الناسِ، ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾: إلا نَجوى مَن أَمَرَ، وهو: مجرورٌ بدلٌ من (كثير)، أو: من (نجواهم)، أو: منصوبٌ على الانقطاع[1]؛ بمعنى: ولكن مَن أمرَ بصدقة.. ففي نجواه الخيرُ، ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ أي: قرضٍ، أو:

(١) أي: على الاستثناء المنقطع.

وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا ﴿١١٧﴾ ....

إغاثةِ ملهوفٍ، أو: كلُّ جميلٍ، أو: المرادُ بالصدقة: الزكاةُ، وبالمعروفِ: التطوعُ، ﴿أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ أي: إصلاحُ ذاتِ البينِ، ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾ المذكورَ ﴿ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾: طلبَ رضا اللهِ، وخرج عنه مَن فعلَ ذلك رياءً، أو تَرَؤُّساً، وهو: مفعولٌ له.

والإشكالُ: أنه قال: (إلا من أمر)، ثم قال: (ومن يفعل ذلك).

والجواب: أنه ذكرَ الأمرَ بالخير؛ ليدلَّ به على فاعلِه؛ لأنه إذا دخل الآمرُ به في زمرة الخيِّرينَ. كان الفاعلُ فيهم أدْخَلَ، ثم قال: (ومن يفعلْ ذلك) فذكرَ الفاعلَ وقرنَ به الوعدَ بالأجر العظيم، أو: المراد: ومن يأمرْ بذلك، فعبَّرَ عن الأمرِ بالفعل.

﴿فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿١١٤﴾﴾ ﴿يؤتيه﴾: أبو عمرٍو، وحمزةُ[1].

《١١٥》 ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾: ومن يخالفِ الرسولَ من بعد وضوحِ الدليلِ وظهورِ الرُّشْدِ، ﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: السبيلَ الذي عليه مِن الدينِ الحنيفيِّ؛ وهو دليلٌ على أن الإجماع حجةٌ، لا تجوز مخالفتُها، كما لا تجوزُ مخالفةُ الكتابِ والسنةِ؛ لأن الله تعالى جمعَ بين اتباعِ غيرِ سبيلِ المؤمنين، وبين مُشاقةِ الرسولِ في الشرطِ، وجعلَ جزاءه الوعيدَ الشديدَ، فكان اتباعُهم واجباً كمُوالاةِ الرسولِ، ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾: نجعلْه والياً لما تولَّى من الضلال، وندعْه وما اختاره في الدنيا، ﴿وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ﴾ في العُقبى، ﴿وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ قيل: هي في طُعمةَ وارتدادِه.

《١١٦》 ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾: مرَّ تفسيرُه في هذه السورةِ، ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ عن الصوابِ.

《١١٧》 ﴿إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ﴾: ما يعبدون من دون الله ﴿إِلَّآ إِنَٰثٗا﴾: جمعُ أُنثى، وهي اللاتُ والعزَّى ومَناةُ، ولم يكن حيٌّ من أحياء العرب إلا ولهم صنمٌ يعبدونه يسمُّونه أنثى بني فلانٍ، وقيل: كانوا يقولون في أصنامهم: هنَّ بناتُ الله، ﴿وَإِن يَدۡعُونَ﴾: يعبدون ﴿إِلَّا شَيۡطَٰنٗا﴾؛ لأنه هو الذي أغراهم على عبادة الأصنامِ فأطاعوه، فجُعلت طاعتُهم له عبادةً، ﴿مَّرِيدٗا ﴿١١٧﴾﴾: خارجاً عن الطاعةِ، عارياً عن الخيرِ، ومنه الأمردُ.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٨٥).

﴿لَعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنۡهَا مَحِيصٗا ﴿١٢١﴾﴾ ....

«١١٨» ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ﴾: صفتان؛ يعني: شيطاناً مريداً جامعاً بينَ لعنةِ اللهِ وهذا القولِ الشنيعِ، ﴿مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ﴿١١٨﴾﴾: مقطوعاً واجباً لي؛ مِن كلِّ ألفٍ تسعُ مئةٍ وتسعةٌ وتسعون، وواحدٌ لله[1].

«١١٩» ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ﴾ بالدعاءِ إلى الضلالةِ، والتزيينِ والوسوسةِ، ولو كان إنفاذُ الضلالةِ إليه.. لأضلَّ الكلَّ، ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ﴾: ولألقينَّ في قلوبهم الأمانيَّ الباطلةَ؛ من طولِ الأعمارِ، وبلوغِ الآمالِ، ﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾: البَتكُ: القطعُ، والتَّبْتِيْكُ: للتكثير والتكرير؛ أي: لأحملنهم على أن يقطعُوا آذانَ الأنعامِ، وكانوا يشقُّون أذنَ الناقةِ إذا وَلَدت خمسةَ أبطنٍ وجاءَ الخامسُ ذكراً، وحرَّمُوا على أنفسِهم الانتفاعَ بها، ﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ﴾ بفَقْءِ عينِ الحامِي[2]، وإعفائِه عن الركوبِ، أو: بالخِصاءِ[3]، وهو مباحٌ في البهائمِ[4]، محظورٌ في بني آدمَ، أو: بالوشم، أو: بنفيِ الأنسابِ واستلحاقِها، أو: بتغييرِ الشيبِ بالسوادِ، أو: بالتحريم والتحليلِ، أو: بالتخنُّثِ، أو: بتبديلِ فطرةِ الله التي هي دينُ الإسلام؛ لقوله: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾ [الروم: ٣٠]، ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وأجابَ إلى ما دعاه إليه ﴿فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ﴿١١٩﴾﴾ في الدارين.

«١٢٠» ﴿يَعِدُهُمۡ﴾: يوسوسُهم أنْ لا جنةَ ولا نارَ، ولا بعثَ ولا حسابَ، ﴿وَيُمَنِّيهِمۡۖ﴾ ما لا ينالون، ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ هو أن يَرى شيئاً يظهرُ خلافُه.

«١٢١» ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنۡهَا مَحِيصٗا ﴿١٢١﴾﴾: مَعدِلاً ومَفرّاً.

---

(١) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «يقول الله تعالى: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك، والخير في يديك، فيقول: أخرج بعثَ النار، قال: وما بعثُ النار؟ قال: من كل ألفٍ تسعَ مئةٍ وتسعةً وتسعين...» رواه البخاري (٣٣٤٨)، ومسلم (٢٢٢).

(٢) **الحامي**: الفحل من الإبل الذي طال مكثه عندهم، فيقولون: هذا حامٍ؛ أي: حمَى ظهرَه فيتركُ فلا يُنتفع منه بشيء ولا يمنع من ماء ولا مرعى.

(٣) **الخصاء**: نزعُ الخصيتين.

(٤) مباح إن كان فيه منفعة، وإلا.. فهو حرام. انظر «الدر المختار» (٦/ ٣٨٨).

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ ....

«١٢٢» ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ولم يتبعُوا الشيطانَ في الأمرِ بالكفرِ ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ وقرأ النَّخعيُّ: ﴿سيُدْخِلُهم﴾[1]، ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾: مصدران، الأولُ: مؤكِّدٌ لنفسه، والثاني: مؤكِّدٌ لغيره[2]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾: قولاً، وهو استفهامٌ بمعنى النفيِ؛ أي: لا أحدَ أصدقُ منه، وهو تأكيدٌ ثالثٌ، وفائدةُ هذا التوكيد: مقابلةُ مواعيدِ الشيطانِ الكاذبةِ لقُرنائِه بوعد اللهِ الصادقِ لأوليائِه.

«١٢٣» ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾: ليس الأمر على شهواتِكم وأمانيِّكم أيُّها المشركون أن تنفعَكم الأصنامُ، ﴿وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾: ولا على شهواتِ اليهودِ والنصارى؛ حيثُ قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨]، ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]، ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ أي: من المشركين وأهلِ الكتاب؛ بدليلِ قولِه: ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾ وهذا وعيدٌ للكفار؛ لأنه قال بعدَه:

«١٢٤» ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ فقولـه: (وهو مؤمن): حالٌ، و(مِن) الأولى: للتبعيض، والثانيةُ: لبيان الإبهام في (مَن يعمل)، وفيه إشارةٌ إلى أن الأعمالَ ليست من الإيمان[3]، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ ﴿يُدخَلون﴾: مكيٌّ وأبو عمرو وأبو بكرٍ[4]، ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾: قدرَ النقيرِ، وهو: النُّقْرَةُ في ظهرِ النواةِ، والراجعُ

---

(١) انظر «اللباب في علوم الكتاب» (٦/ ٤٣١).

(٢) المصدر المؤكد لنفسه هو: الواقعُ بعد جملةٍ هي نصٌّ في معناه، وسمي بذلك؛ لأنه بمنزلة إعادة الجملة؛ فكأنه نفسها، نحو: (وَعْدَ اللهِ)، فهو توكيد لقوله: (سيدخلهم) لأنه وعدٌ، والمؤكدُ لغيره هو: الواقع بعد جملة تحتمل غيرَه، فتصير به نصاً، وسمي بذلك؛ لأنه أثَّر في الجملة، فكأنه غيرها؛ لأن المؤثِّرَ غيرُ المؤثَّرِ فيه، نحو: (حقاً) فهو: توكيد لقوله: (سيدخلهم)؛ لأنه خبر يحتمل الحق وخلافَه بالنظر لذاته، وإن كان مقطوعاً بِحَقِّيَّتِهِ لكونه كلامَ الله، فأفاد (حقّاً) نفيَ احتمال الباطل، فكان مؤكداً لغيره. انظر «شرح الأشموني لألفية ابن مالك» (١/ ٤٧٧)، و«حاشيه الشهاب على تفسير البيضاوي» (٣/ ١٧٩).

(٣) لأنه جعلَ الإيمان شرطَ صحةِ الأعمالِ، والمشروط لا يدخل في الشرطِ؛ لامتناع اشتراطِ الشيءِ لنفسِه؛ إذ جزءُ الشرطِ شرطٌ. انظر «تفسير الآلوسي» (١/ ١١٥).

(٤) انظر «البدور الزاهرة» (ص٨٥).

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ ....

في (ولا يظلمون): لعُمّالِ السوءِ وعُمّالِ الصالحات جميعاً، وجاز أن يكون ذكرُه عند أحد الفريقين دليلاً على ذكرِه عندَ الآخرِ، وقولُه: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾، وقولُه: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّٰلِحَٰتِ﴾ بعدَ ذكرِ تمنِّي أهلِ الكتابِ.. كقولِه: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ [البقرة: ٨١]، وقولِه: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ الصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: ٨٢] عقيبَ قولِه: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠][1].

《١٢٥》 ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾: أخلصَ نفسَه لله، وجعلَها سالمةً له، لا يعرفُ لها ربّاً ولا معبوداً سواه، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾: عاملٌ للحسنات، ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾: مائلاً عن الأديان الباطلةِ، وهو حالٌ من المتَّبعِ، أو: من (إبراهيم)، ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ هو في الأصلِ: المُخالُّ، وهو الذي يُخالُّك؛ أي: يوافقُك في خِلالِك، أو يُداخِلُك خلالَ منازلِك، أو يسدُّ خَلَلَك، كما يَسُدُّ خَلَلَهُ، فالخُلَّةُ: صفاءُ مَوَدَّةٍ توجبُ الاختصاصَ بتخللِ الأسرارِ، والمحبةُ أصفَى؛ لأنها من حَبَّةِ القلبِ، وهي: جملة اعتراضيةٌ لا محلَّ لها من الإعرابِ، كقوله[2]: [من: الطويل]

........والحـوادثُ جَـمَّـةٌ ....

وفائدتُها: تأكيدُ وجوبِ اتباعِ ملتِه وطريقتِه؛ لأن مَن بلغَ من الزلفى عندَ اللهِ أن اتخذه خليلاً.. كان جديراً بأن تُتبعَ مِلتُه وطريقتُه، ولو جعلتها معطوفة على ما قبلها.. لم يكن لها معنىً، وفي الحديث: «اتخذ الله إبراهيم خليلاً؛ لإطعامه الطعامَ، وإفشائِه السلامَ، وصلاتِه

---

(١) أي: أن هذين الموضعين متشابهان:
﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾.
﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ الصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

(٢) البيت لامرئ القيس في «ديوانه» (ص٦٢)، وهو بتمامه:

ألا هل أتاها والحوادثُ جَمَّةٌ … بأنَّ امرأَ القيسِ بنَ تَمْلِكَ بَيْقَرا

وتملك: قيل: اسم أمه، وبَيْقَرَ: أقام بالحضر وترك قومَه بالبادية.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا ﴿١٢٦﴾ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾﴾ ....

بالليل والناسُ نيامٌ»[1]، وقيل: أوحَى إليه: إنما اتخذتك خليلاً؛ لأنك تحبُّ أن تُعطِي ولا تُعطَى، وفي رواية: لأنك تُعطِي الناسَ ولا تسألُهم.

《١٢٦》 وفي قولِه: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: دليلٌ على أن اتخاذَه خليلاً لاحتياجِ الخليلِ إليه؛ لا لاحتياجِه تعالى؛ لأنه مُنزَّهٌ عن ذلك، ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا ﴿١٢٦﴾﴾: عالماً.

《١٢٧》 ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾: ويسألونك الإفتاءَ في النساءِ، والإفتاءُ: تبيينُ المبهمِ، ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ﴾ أي: اللهُ يفتيكم، والمتلوُّ في الكتاب؛ أي: القرآنِ في معنى اليتامَى؛ يعني: قولَه: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾، وهو من قولِك: أعجبني زيدٌ وكرمُه[2]، فـ (ما يُتلَى): في محلِّ الرفعِ بالعطف على الضميرِ في (يُفتيكم)، أو على لفظ (اللهُ)، و(في يتامى النساء): صلةُ (يُتلَى)؛ أي: يُتلَى عليكم في معناهن، ويجوزُ أن يكون (في يتامَى النساءِ): بدلاً مِن (فيهن)، والإضافةُ بمعنى: مِنْ[3]، ﴿اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾: ما فُرض لهن من الميراث، وكان الرجل منهم يَضُمُّ اليتيمةَ إلى نفسه ومالَها، فإن كانت جميلةً.. تزوجَها وأكلَ المالَ، وإن كانت دَميمةً.. عَضَلَها عن التزوُّجِ حتى تموتَ فيرثَها[4]، ﴿وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾أي: في أن تنكحوهن؛ لجمالِهن، أو: عن أن تنكحوهن؛ لدمامتهن[5]، ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ﴾ أي: اليتامَى، وهو مجرورٌ معطوفٌ على

---

(١) في «شعب الإيمان» للبيهقي (١٢/ ١٣٧) عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «يا جبريل، لم اتخذ الله إبراهيم خليلاً؟ قال: لإطعامه الطعام يا محمد».

(٢) أي: أن الفعل الواحد قد ينسب إلى فاعلين مختلفين باعتبارين مختلفين؛ كأن يكون أحدهما فاعلاً حقيقياً للفعل، كنسبة الإفتاء لله هنا، والآخر سببياً ككلامه المتلوّ الذي هو فاعل مجازيٌّ. انظر «تفسير البيضاوي وحاشية الشهاب الخفاجي عليه» (٣/ ١٨٢).

(٣) أي: يتامى من النساء.

(٤) روى نحوه البخاري ومسلم (٣٠١٨) عن سيدتنا عائشة رضي الله عنها.

(٥) شرط حذف حرف الجر قبل (أنْ) ألا يؤديَ إلى لبسٍ، وهنا لا لبسَ؛ لأن المعنيين هنا صالحان، فصار كلٌّ من =

﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٢٨﴾ ....

يتامى النساءِ، وكانوا في الجاهلية إنما يورِّثون الرجالَ القُوَّامَ بالأمورِ دون الأطفالِ والنساءِ، ﴿وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ﴾: مجرورٌ كالمستضعفين؛ بمعنى: يفتيكم في يتامى النساءِ، وفي المستضعفين، وفي أن تقوموا، أو: منصوبٌ بمعنى: ويأمرُكم أن تقوموا، وهو خطابٌ للأئمةِ في أن ينظروا لهم، ويستوفُوا لهم حقوقَهم، ﴿بِٱلۡقِسۡطِ﴾: بالعدلِ في ميراثِهم ومالِهم، ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ﴾: شرطٌ، جوابُه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا ١٢٧﴾ أي: فيجازيكم عليه.

《١٢٨》 ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا﴾: توقَّعَتْ منه ذلك لِما لاح لها من مخايلِه وأماراتِه، والنُّشوزُ: أن يتجافَى عنها؛ بأن يمنعَها نفسَه ونفقتَه، وأن يؤذيَها بسبٍّ أو ضَرْبٍ، ﴿أَوۡ إِعۡرَاضٗا﴾ عنها؛ بأن يُقلَّ محادثتَها ومؤانَستَها بسببِ كِبَرِ سنٍّ، أو دَمامةٍ، أو شيءٍ في خَلْقٍ أو خُلُقٍ، أو مَلالٍ، أو طُموحِ عينٍ إلى أخرى، أو غيرِ ذلك، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا﴾: كوفيٌّ، ﴿يَصَّالحا﴾: غيرُهم[1]؛ أي: يَتَصالحا، وهو أصلُه، فأُبدلت التاءُ صاداً، وأدغمت، ﴿صُلۡحٗاۚ﴾: في معنى مصدرِ كلِّ واحدٍ من الفعلين[2]، ومعنى الصلحِ: أن يَتصالحا على أن تطيبَ له نفساً عن القسمةِ، أو عن بعضِها، أو تهبَ له بعضَ المهرِ أو كلَّه، أو النفقةَ، ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ﴾ من الفُرقةِ، أو: من النشوزِ، أو: من الخصومةِ في كلِّ شيءٍ[3]، أو: الصلح خيرٌ من الخيورِ[4]، كما أن الخصومةَ شرٌّ من الشرورِ، وهذه الجملة اعتراضٌ، كقوله: ﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾ أي: جُعِلَ الشحُّ حاضراً لها لا يغيب عنها أبداً، ولا تنفكُّ عنه؛ يعني: أنها مطبوعةٌ عليه، والمرادُ: أن المرأة لا تكادُ تسمحُ بِقَسْمِها، والرجلُ لا تكادُ نفسه تسمحُ بأن يَقْسِمَ لها إذا رغبَ عنها، فكلُّ واحدٍ منهما يطلبُ ما فيه راحتُه، و(أحضرت): يتعدَّى إلى مفعولين، والأولُ: (الأنفسُ)، ثم حثَّ على مخالفةِ الطبعِ، ومتابعةِ الشرعِ بقولِه: ﴿وَإِن تُحۡسِنُواْ﴾ بالإقامةِ

= الحرفين مراداً على سبيل البدل؛ أي: تقديرُ كلٍّ منهما صحيح. انظر «حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي» (٣/ ١٨٣).

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٨٥).

(٢) أي: وليس مصدراً لواحد منهما؛ لأن مصدر (يُصلحا): إصلاح، ومصدر (يَصَّالحا): تصالح.

(٣) وإثباتُ الخيريةِ للمفضَّلِ عليه، وهو الفرقة أو النشوز أو الخصومة على سبيل الفَرْضِ؛ أي: إن يكن فيها خيرٌ.. فهذا أَخْيَرُ منها؛ إذ لا خيريةَ فيها. انظر «تفسير الآلوسي» (٣/ ١٥٦).

(٤) فعلى هذا المعنى لا يكون (خير) اسم تفضيل.

﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ١٢٩﴾ ....

على نسائِكم وإن كرهتموهنَّ وأحببتُم غيرَهن، وتصبرُوا على ذلك مراعاةً لحقِّ الصحبةِ، ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ النشوزَ والإعراضَ وما يؤدِّي إلى الأذى والخصومةِ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الإحسان والتقوى ﴿خَبِيرًا ١٢٨﴾ فيثيبُكم عليه.

وكان عِمرانُ الخارجيُّ مِن آدَمِ بني آدمَ، وامرأتُه من أجملِهم، فنظرت إليه وقالت: الحمدُ لله على أني وإياكَ من أهل الجنة، قال: كيف؟ فقالت: لأنك رزقتَ مثلي فشكرتَ، ورُزقتُ مثلَك فصبرتُ، والجنةُ موعودةٌ للشاكرين والصابرين.

《١٢٩》 ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ﴾: ولن تستطيعُوا العدلَ بين النساءِ والتسويةَ حتى لا يقعَ ميلٌ البتةَ، فتمامُ العدلِ: أن يُسويَ بينهن في القسمةِ والنفقةِ والتعهدِ والنظرِ والإقبالِ والممالحةِ والمفاكهةِ وغيرِها[(١)]، وقيل: معناه: أن تعدلُوا في المحبةِ، وكان عليه السلام يقسمُ بين نسائِه فيعدلُ، ويقول: «هذه قِسمتي فيما أملِك، فلا تؤاخذني فيما تَملكُ ولا أملك»[(٢)]؛ يعني: المحبةَ؛ لأن عائشة رضي الله عنها كانت أحبَّ إليه[(٣)]، ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْۖ﴾: بَالَغْتُم في تَحَرِّي ذلك، ﴿فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾: فلا تَجورُوا على المرغوبِ عنها كلَّ الجَورِ فتمنعُوها قَسْمَها من غيرِ رضاً منها؛ يعني: أن اجتنابَ كلِّ الميلِ في حدِّ اليُسر، فلا تُفرِّطُوا فيه إن وقع منكم التفريطُ في العدل كلِّه[(٤)]، وفيه ضربٌ مِن التوبيخِ، و(كلَّ): نصبٌ على المصدر؛ لأن له حكمَ ما يُضافُ إليه، ﴿فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِۚ﴾ وهي: التي ليست بذاتِ بعلٍ ولا مطلقةً، ﴿وَإِن تُصْلِحُواْ﴾ بينهن، ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ الجَوْرَ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ١٢٩﴾ يغفرُ لكم ميلَ قلوبِكم، ويرحمُكم فلا يعاقبُكم.

---

(١) **المُلحةُ**: الكلمة الجميلة، **فالممالحة**: المشاركة بالكلام الجميل، **والمفاكهة**: الممازحة.

(٢) رواه أبو داود (٢١٣٤)، والترمذي (١١٤٠)، والنسائي في «المجتبى» (٧/ ٦٣) وابن ماجه (١٩٧١) عن سيدتنا عائشة رضي الله عنها.

(٣) روى الترمذي (٣٨٨٦) عن سيدنا عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله من أحبُّ الناس إليك؟ قال: «عائشة»، قال: مِن الرجالِ؟ قال: «أبوها».

(٤) في «تفسير الألوسي» (٣/ ١٥٧): أي فلا تجوروا على المرغوبِ عنها كلَّ الجَور فتمنعوها حقَّها من غير رضاً منها، واعدِلوا ما استطعتم، فإنَّ عجزكم عن حقيقة العدل لا يمنعُ من تكليفكم بما دونها من المراتب التي تستطيعونها.

وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ ....

《١٣٠》 ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا﴾ أي: إن لم يصطلح الزوجانِ على شيءٍ وتفرقا بالخُلعِ، أو بتطليقِه إياها وإيفائِه مهرَها ونفقةَ عدتِها ﴿يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا﴾ كلَّ واحدٍ منهما ﴿مِّن سَعَتِهِۦ﴾: من غناه؛ أي: يرزقْه زوجاً خيراً مِن زوجِه، وعَيشاً أهنأَ مِن عَيشِه، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا﴾ بتحليلِ النكاحِ، ﴿حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾ بالإذن في السَّراحِ، فالسَّعَةُ: الغنى والقدرةُ، والواسعُ: الغنيُّ المقتدرُ.

《١٣١》 ثم بَيَّنَ غِناه وقدرتَه بقوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خلقاً، والمتملَّكون عبيدُه رقّاً، ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ هو: اسمٌ للجنس، فيتناولُ الكتبَ السماويّةَ، ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ من الأمم السالفةِ، وهو متعلقٌ بـ (وصينا)، أو: بـ (أوتوا)، ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾: عطفٌ على (الذين أوتوا)، ﴿أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾: بأن اتقوا، أو تكونُ (أن) المفسرةَ؛ لأن التوصيةَ في معنى القول؛ والمعنى: أن هذه وصيةٌ قديمةٌ ما زال يوصِي اللهُ بها عبادَه، ولستم بها مخصوصين؛ لأنهم بالتقوى يَسْعدُون عندَه، ﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟﴾: عطفٌ على (اتقوا)؛ لأن المعنى: أمرناهم وأمرناكم بالتقوى، وقلنا لهم ولكم: إن تكفروا ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا﴾ عن خلقِهِ، وعن عبادتِهم، ﴿حَمِيدًا ﴿١٣١﴾﴾: مستحِقّاً لِأَنْ يُحمدَ لكثرةِ نعمِه وإن لم يَحمده أحدٌ، وتكريرُ قولِه: ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: تقريرٌ لما هو موجِبُ تقواه؛ لأن الخلقَ لما كان كلُّه له، وهو خالقُهم ومالكُهم.. فحقُّه أن يكون مُطاعاً في خلقِه غيرَ مَعْصِيٍّ، وفيه دليلٌ على أن التقوى أصلُ الخيرِ كلِّه، وقولُه: (وإن تكفروا) عقيبَ التقوى.. دليلٌ على أن المرادَ الاتقاءُ عن الشركِ.

《١٣٢》 ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾﴾ فاتخذُوه وكيلاً، ولا تَتَّكِلُوا على غيرِه.

《١٣٣》 ثم خوَّفهم وبيَّنَ قدرتَه بقولِه: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾: يُعدمْكم ﴿أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ﴾: ويوجدْ إِنْساً آخرين مكانَكم، أو خلقاً آخرين غيرَ الإنسِ، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾: بليغَ القدرةِ.

مَن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُۥٓا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا ءَامِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ ....

《١٣٤》 ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ كالمجاهدِ يريدُ بجهادِه الغنيمةَ ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ﴾ فما لَه يطلبُ أحدَهما دونَ الآخرِ والذي يطلُبُه أخسُّهما، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا﴾ للأقوالِ ﴿بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾ بالأفعالِ، وهو وعدٌ ووعيدٌ.

《١٣٥》 ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾: مجتهدينَ في إقامةِ العدلِ حتى لا تَجورُوا، ﴿شُهَدَآءَ﴾: خبرٌ بعدَ خبرٍ، ﴿لِلَّهِ﴾ أي: تقيمون شهاداتِكم لوجهِ اللهِ، ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾: ولو كانت الشهادةُ على أنفسِكم، والشهادةُ على نفسِه هي: الإقرارُ على نفسِه؛ لأنه في معنى الشهادة عليها بإلزام الحقِّ، وهذا لأن الدعوى والشهادةَ والإقرارَ يشترك جميعُها في الإخبارِ عن حقٍّ لأحدٍ على أحدٍ، غيرَ أن الدعوَى إخبارٌ عن حقٍّ لنفسه على الغيرِ، والإقرارَ للغيرِ على نفسِه، والشهادةَ للغيرِ على الغيرِ، ﴿أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ أي: ولو كانت الشهادة على آبائِكم وأمهاتِكم وأقاربِكم، ﴿إِن يَكُنْ﴾ المشهودُ عليه ﴿غَنِيًّا﴾ فلا يَمْنَعِ الشهادةَ عليه لِغناهُ طلباً لرضاه، ﴿أَوْ فَقِيرًا﴾ فلا يمنعُها تَرَحُّماً عليه، ﴿فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾: بالغنيِّ والفقيرِ؛ أي: بالنظرِ لهما والرحمةِ، وإنما ثُنِّيَ الضميرُ في (بهما) وكان حقُّه أنْ يُوَحَّدَ؛ لأن المعنى: إن يكنْ أحدُ هذين؛ لأنه يرجعُ إلى ما دلَّ عليه قولُه: (غنياً أو فقيراً)، وهو جنسُ الغنيِّ والفقيرِ، كأنه قيل: فاللهُ أولَى بِجِنْسَي الغنيِّ والفقيرِ؛ أي: بالأغنياءِ والفقراءِ، ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا ٱلْهَوَىٰٓ﴾ إرادةَ ﴿أَن تَعْدِلُوا﴾ عن الحقِّ؛ من العُدولِ، أو: كراهةَ أن تعدلُوا بين الناسِ؛ من العَدْلِ، ﴿وإنْ تَلُوا﴾: بواوٍ واحدةٍ وضَمِّ اللامِ: شاميٌّ وحمزةُ؛ من الولاية، ﴿أَوْ تُعْرِضُوا﴾ أي: وإن وَلِيْتُم إقامةَ الشهادةِ أو أعرضتُم عن إقامتِها، غيرُهما: ﴿تَلْوُۥٓا﴾: بواوينِ وسكونِ اللامِ؛ من اللَّيِّ؛ أي: وإن تَلْوُوا ألسنَتكم عن شهادةِ الحقِّ، أو حكومةِ العدلِ، أو تُعرضُوا عن الشهادة بما عندَكم وتمنعُوها ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ فيجازيْكم عليه.

《١٣٦》 ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا﴾: خطابٌ للمسلمين، ﴿ءَامِنُوا﴾: اثبتُوا على الإيمانِ ودُومُوا عليه، أو: لأهل الكتابِ؛ لأنهم آمنُوا ببعضِ الكتبِ والرسلِ، وكفرُوا ببعضٍ، أو:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْكَـٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ ....

للمنافقين؛ أي: يا أيها الذين آمنوا نفاقاً آمِنوا إخلاصاً، ﴿بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: محمدٍ ﷺ، ﴿وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ أي: القرآنِ، ﴿وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ أي: جنسِ ما أنزلَ على الأنبياءِ قبلَه من الكتبِ، ويدلُّ عليه قولُه: (وكتبه)، ﴿نُزِّلَ﴾، و﴿أُنزِلَ﴾: مكيٌّ وشاميٌّ وأبو عمرٍو، وعلى البناء للفاعلِ فيهما: غيرُهم[1]، وإنما قيل: (نزل على رسوله) و(أنزل من قبل)؛ لأن القرآن نَزَلَ مُفرقاً مُنجماً في عشرين سنةً، بخلافِ الكتبِ قبلَه، ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ أي: ومن يكفرْ بشيءٍ من ذلك ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾؛ لأن الكفرَ ببعضِه كفرٌ بكلِّه.

«١٣٧» ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بموسى ﷺ، ﴿ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾ حين عبدُوا العجلَ، ﴿ثُمَّ ءَامَنُوا۟﴾ بموسى عليه السلام بعدَ عودِه، ﴿ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾ بعيسى عليه السلامُ، ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا﴾ بكفرِهم بمحمدٍ ﷺ ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾﴾ إلى النجاةِ، أو: إلى الجنة، أو: هم المنافقون؛ آمَنُوا في الظاهرِ، وكفرُوا في السرِّ مرةً بعدَ أُخرى، وازديادُ الكفرِ منهم: ثَباتُهم عليه إلى الموت؛ يؤيدُه قولُه:

«١٣٨» ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾ أي: أخبرْهم، وَوَضَعَ (بَشِّرْ) مكانَه؛ تهكماً بهم، ﴿بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾﴾: مُؤْلماً.

«١٣٩» ﴿ٱلَّذِينَ﴾: نصبٌ على الذمِّ، أو: رفعٌ؛ بمعنى: أُرِيدُ الذينَ، أو: هم الذينَ ﴿يَتَّخِذُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾ كان المنافقون يُوالُون الكفرةَ يَطْلُبُون منهم المَنعَةَ والنُّصرةَ، ويقولون: لا يَتِمُّ أمرُ محمدٍ ﷺ، ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ ولمن أعزَّهُ كالنبيِّ ﷺ والمؤمنين، كما قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

«١٤٠» ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ﴾: بفتح النونِ: عاصمٌ، وبضمِّها: غيرُه، ﴿فِى ٱلْكِتَـٰبِ﴾: القرآنِ، ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾:

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٨٦) وكذا القراءة الآتية.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾ ....

حتى يَشرعُوا في كلامٍ غيرِ الكفرِ والاستهزاءِ بالقرآنِ، والخوضُ: الشروعُ، و(أنْ): مخففةٌ من الثقيلةِ؛ أي: أنه إذا سمعتم؛ أي: نزلَ عليكم أن الشأنَ كذا، والشأنُ: ما أفادته الجملةُ بشرطِها وجزائِها، و(أنْ) مع ما في حَيِّزِها: في موضعِ الرفعِ بـ (نُزِّلَ)، أو: في موضعِ النصبِ بـ (نَزَّلَ)، والمُنَزَّلُ عليهم في الكتاب هو: ما نَزَّلَ عليهم بمكةَ من قولِه: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الأنعام: ٦٨]، وذلك أن المشركين كانُوا يخوضون في ذكرِ القرآنِ في مجالسِهم، فيستهزِئُون به، فنُهيَ المسلمون عن القعودِ معَهم ما دامُوا خائضين فيه، وكان المنافقون بالمدينة يفعلون نحوَ فعلِ المشركين بمكة، فنُهُوا أن يقعدوا معهم كما نُهُوا عن مجالسةِ المشركين بمكةَ؛ ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ أي: في الوِزْرِ إذا مَكثتم معهم، ولم يُرِدْ به التمثيلَ من كلِّ وجهٍ؛ فإن خوضَ المنافقين فيه كُفْرٌ، ومُكْثُ هؤلاءِ معهم معصيةٌ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾؛ لاجتماعِهم في الكفرِ والاستهزاءِ.

«١٤١» ﴿ٱلَّذِينَ﴾: بدلٌ من ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ﴾، أو: صفةٌ للمنافقين، أو: نصبٌ على الذمِّ منهم، ﴿يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾: ينتظرون بكم ما يَتجدَّدُ لكم من ظَفَرٍ أو إخفاقٍ، ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾: نُصْرَةٌ وغنيمةٌ ﴿قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ مُظاهِرين فأشرِكُونا في الغنيمة، ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ﴾ سَمَّى ظَفرَ المسلمين فتحاً؛ تعظيماً لشأنهم؛ لأنه أمرٌ عظيمٌ تُفتحُ له أبوابُ السماء، وظفرَ الكافرين نصيباً؛ تخسيساً لحظِّهم؛ لأنه لُمظَةٌ من الدنيا يُصيبونها[1]، ﴿قَالُوٓاْ﴾ للكافرين: ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾: ألم نَغْلِبْكُم ونتمكنْ من قتلِكم فأبقينا عليكم؟ والاستحواذُ: الاستيلاءُ والغلبةُ، ﴿وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بأن ثَبَّطْناهم عنكم، وخَيَّلْنا لهم ما ضَعُفَتْ قلوبُهم به، ومَرِضُوا عن قتالِكم، وتَوانَيْنا في مُظاهرتِهم عليكم، فهاتُوا نصيباً لنا مما أَصبْتم، ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ أيُّها المؤمنون والمنافقون ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فيُدخلُ المنافقين النارَ، والمؤمنين الجنةَ، ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾ أي: في القيامة؛ بدليلِ أولِ الآيةِ، كذا عن عليٍّ رضي الله عنه[2]، أو: حجةً، كذا عن ابن عباس رضي الله عنهما[3].

---

(١) لُمظَةٌ: شيءٌ يسير.
(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٠٩٥).
(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٣٢٨) عن السدي.

إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ ....

《١٤٢》 ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ أي: يفعلون ما يَفعلُ المخادِعُ من إظهار الإيمانِ وإبطانِ الكفرِ، فالمنافقُ: مَن أظهرَ الإيمانَ وأبطنَ الكفرَ، أو: أولياءَ اللهِ، وهم المؤمنون، فأضافَ خِداعَهم إلى نفسِه؛ تشريفاً لهم، ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ وهو فاعلٌ بهم ما يَفعلُ الغالِبُ في الخداعِ؛ حيثُ تركَهم معصومِي الدماءِ والأموالِ في الدنيا، وأعدَّ لهم الدركَ الأسفلَ من النارِ في العُقبَى، والخادِعُ: اسمُ فاعلٍ مِن خادَعتُه فخدعتُه: إذا غلبتَه وكنتَ أخدعَ منه، وقيل: يَجزيهم جزاءَ خداعِهم، ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾: مُتثاقلين كراهةً، أمّا الغفلةُ.. فقد يُبتلَى بها المؤمنُ، وهو جمعُ كسلانَ، كسُكارَى في: سَكرانَ، ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾: حالٌ؛ أي: يقصِدُون بصلاتِهم الرياءَ والسُّمعةَ، والمراءاةُ: (مفاعلة) من الرؤيةِ؛ لأن المرائيَ يريهِم عملَه، وهم يُرُوْنَه استحساناً، ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾: ولا يُصلُّون إلا قليلاً؛ لأنهم لا يُصلُّون قطُّ غائبين عن عيونِ الناسِ، أو: لا يذكرون الله بالتسبيحِ والتهليلِ إلا ذِكراً قليلاً نادراً، قال الحسن: لو كان ذلك القليلُ لله تعالى.. لكان كثيراً.

《١٤٣》 ﴿مُّذَبْذَبِينَ﴾: نصبٌ على الذمِّ؛ أي: مردَّدِين؛ يعني: ذَبْذَبَهم الشيطانُ والهوى بين الإيمانِ والكفرِ، فهم متردِّدُون بينهما متحيِّرُون، وحقيقةُ المذبذَبِ: الذي يُذَبُّ عن كلا الجانبين؛ أي: يُدفَعُ، فلا يَقَرُّ في جانبٍ واحدٍ، إلا أن الذبذبةَ فيها تكريرٌ ليس في الذَّبِّ، ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾: بين الكفرِ والإيمانِ، ﴿لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾: لا منسوبين إلى هؤلاءِ فيكونُوا مؤمنين، ﴿وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾: ولا منسوبين إلى هؤلاءِ فيسمَّوا مشركين، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾: طريقاً إلى الهدى.

《١٤٤》 ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾﴾: حجةً بينةً في تعذيبكم.

《١٤٥》 ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أي: في الطبقِ الذي في قَعْرِ جهنمَ، والنارُ سبعُ دَرَكَاتٍ؛ سميت بذلك؛ لأنها مُتداركَةٌ متتابعةٌ بعضُها فوق بعضٍ، وإنما كان المنافقُ أشدَّ عذاباً من الكافرِ؛ لأنه أَمِنَ السيفَ في الدنيا، فاستحقَّ الدركَ الأسفلَ في العُقْبَى؛ تعديلاً؛

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ١٤٦ مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمٗا ١٤٧ ۞لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ١٤٨﴾ ....

ولأنه مثلُه في الكفرِ، وضَمَّ إلى كفرِه الاستهزاءَ بالإسلامِ وأهلِه، و﴿الدَّرْك﴾: بسكون الراء: كوفيٌّ غيرَ الأعشى، وبفتحِ الراءِ: غيرُهم[١]، وهما لغتانِ، وذكر الزجاجُ أن الاختيارَ فتحُ الراءِ[٢]، ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ١٤٥﴾: يمنعُهم من العذاب.

«١٤٦» ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾: من النفاق، وهو استثناءٌ من الضميرِ المجرورِ في ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ﴾، ﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾ ما أفسدُوا من أسرارِهم وأحوالِهم في حالِ النفاقِ، ﴿وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ﴾: ووَثِقُوا به كما يَثِقُ المؤمنون الخُلّصُ، ﴿وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ﴾: لا يَبتغون بطاعتهم إلا وجهه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾: فهُم أصحاب المؤمنين ورفاقُهم في الدارين، ﴿وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ١٤٦﴾ فيشاركونَهم فيه، وحذفت الياءُ في الخطِّ هنا؛ إتباعاً لِلَّفْظِ.

«١٤٧» ثم استفهمَ مُقرِّراً أنه لا يُعذبُ المؤمنَ الشاكرَ فقال: ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ﴾ للهِ، ﴿وَءَامَنتُمۡ﴾ به، فـ (ما): منصوبةٌ بـ (يفعل)؛ أي: أيَّ شيءٍ يفعلُ بعذابِكم؟ فالإيمانُ: معرفةُ المنعمِ، والشُّكرُ: الاعترافُ بالنعمةِ، والكفرُ بالمنعمِ والنعمةِ عنادٌ؛ فلذا استحقَّ الكافرُ العذابَ، وقَدَّمَ الشكرَ على الإيمانِ؛ لأن العاقلَ ينظرُ إلى ما عليه من النِّعمةِ العظيمةِ في خلقِه وتعريضِه للمنافعِ، فيشكرُ شكراً مبهماً، فإذا انتهى به النظر إلى معرفة المنعمِ.. آمن به، ثم شكرَ شكراً مفصَّلاً، فكان الشكرُ متقدماً على الإيمان، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا﴾: يَجزيكم على شُكرِكم، أو: يقبلُ اليسيرَ من العملِ، ويعطي الجزيلَ من الثوابِ، ﴿عَلِيمٗا ١٤٧﴾: عالماً بما تصنعون.

«١٤٨» ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ ولا غيرَ الجهرِ، ولكنَّ الجهرَ أفحشُ، ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَۚ﴾: إلا جهرَ من ظُلِمَ، استثنَى من الجهرِ الذي لا يحبُّه اللهُ جَهْرَ المظلومِ، وهو: أن يدعوَ على الظالمِ ويذكرَه بما فيه من السوءِ، وقيل: الجهرُ بالسوءِ من القولِ هو: الشتمُ، إلا مَن ظُلِمَ فإنه إن ردَّ عليه مثلَه.. فلا حرجَ عليه، ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ﴾ [الشورى: ٤١]، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا﴾ لِشكوَى المظلومِ، ﴿عَلِيمًا ١٤٨﴾ بظلمِ الظالمِ.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٨٦).
(٢) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ١٢٤).

﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾

«١٤٩» ثم حثَّ على العفوِ، وألا يجهرَ أحدٌ لأحدٍ بسوءٍ وإن كان على وجه الانتصارِ بعدَ ما أطلقَ الجهرَ به؛ حثّاً على الأفضلِ، وذكَرَ إبداءَ الخيرِ وإخفاءَه؛ تسبُّباً للعفوِ فقال:

﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا﴾ مكانَ جهرِ السوءِ، ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ فتعملُوه سرّاً، ثم عطفَ العفوَ عليهما فقال: ﴿أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ﴾ أي: تمحُوه عن قلوبِكم؛ والدليلُ على أن العفوَ هو المقصودُ بذكرِ إبداءِ الخيرِ وإخفائِه: قولُه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾ أي: إنه لم يزلْ عفوّاً عن الآثام، مع قدرتِه على الانتقام، فعليكم أن تقتدُوا بسنتِه.

«١٥٠» ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ كاليهودِ كفرُوا بعيسى ومحمَّدٍ ﷺ، والإنجيلِ والقرآنِ، وكالنصارى كفروا بمحمدٍ ﷺ والقرآنِ، ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾﴾ أي: ديناً وسطاً بين الإيمان والكفر، ولا واسطةَ بينهما.

«١٥١» ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾: هم الكاملون في الكفرِ؛ لأن الكفرَ بواحدٍ كفرٌ بالكلِّ، ﴿حَقًّا﴾: تأكيدٌ لمضمون الجملةِ، كقولك: هذا عبدُ الله حقّاً؛ أي: حقَّ ذلك حقّاً، وهو كونُهم كاملين في الكفرِ، أو: هو صفةٌ لمصدرِ الكافرين؛ أي: هم الذين كفروا كفراً حقّاً ثابتاً يقيناً لا شكَّ فيه، ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾ في الآخرة.

«١٥٢» ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ وإنما جازَ دخولُ (بين) على أحدٍ؛ لأنه عامٌّ في الواحدِ المذكرِ والمؤنثِ وتثنيتِهما وجمعِهما، ﴿أُولَئِكَ سَوْفَ نُؤْتِيهِمْ﴾، وبالياءِ: حفصٌ[1]، ﴿أُجُورَهُمْ﴾ أي: الثوابَ الموعودَ لهم، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾: يسترُ السيئاتِ، ﴿رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾: يقبلُ الحسناتِ، والآيةُ تدلُّ على بطلانِ قولِ المعتزلةِ في تخليدِ مرتكبِ الكبيرةِ؛ لأنه أخبرَ أنَّ مَن آمن بالله ورسلِه، ولم يفرقْ بينَ أحدٍ منهم.. يؤتيه أجرَه، ومرتكبُ الكبيرةِ ممن آمن بالله ورسلِه ولم يفرقْ بين أحدٍ، فيدخلُ تحتَ الوعدِ، وعلى بطلان قولِ من لا يقول بقدمِ

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٨٧).

﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ ....

صفاتِ الفعلِ؛ من المغفرةِ والرحمةِ؛ لأنه قال: وكان الله غفوراً رحيماً، وهم يقولون: ما كان الله غفوراً رحيماً في الأزل، ثم صار غفوراً رحيماً[١].

﴿١٥٣﴾ ولما قال فِنْحَاصُ وأصحابُه للنبيِّ ﷺ: إن كنت نبيّاً صادقاً؛ فأتِنا بكتابٍ من السماءِ جملةً كما أتى به موسى.. نزلَ[٢]:

﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ﴾ وبالتخفيفِ: مكيٌّ وأبو عمرٍو[٣]، ﴿كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: جملةً كما نَزَلَتِ التوراةُ جملةً، وإنما اقترحوا ذلك على سبيل التعنُّتِ، قال الحسن: ولو سألوه مسترشدين.. لأعطاهم؛ لأن إنزالَ القرآنِ جملةً ممكنٌ، ﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾: هذا جوابُ شرطٍ مقدرٍ؛ معناه: إن استكبرت ما سألوه منك.. فقد سألوا موسى أكبرَ من ذلك، وإنما أَسْنَدَ السؤالَ إليهم وقد وُجِدَ من آبائهم في أيام موسى عليه السلام وهم النقباءُ السبعون؛ لأنهم كانوا على مذهبهم، وراضين بسؤالهم، ﴿فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾: عِياناً؛ أي: أَرِنا نَرَهُ جهرةً، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ﴾: العذابُ الهائلُ، أو: النارُ المحرِقةُ، ﴿بِظُلْمِهِمْ﴾ على أنفسهم بسؤالِ شيءٍ في غير موضعِه، أو: بالتحكمِ على نبيِّهم في الآيات، وتعنتِهم في سؤالِ الرؤيةِ، لا بسؤالِ الرؤيةِ؛ لأنها ممكنة كإنزال القرآنِ جملةً، ولو كان ذلك بسبب سؤالِ الرؤيةِ.. لكان موسى بذلك أحقَّ؛ فإنه ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] وما أخذته الصاعقةُ، بل أَطْمَعَهُ، وقيَّدَهُ بالممكنِ، ولا يُعَلَّقُ بالممكن إلا ما هو ممكنُ الثبوت، ثم أحياهم، ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ﴾ إلهاً ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ﴾: التوراةُ والمعجزاتُ التسعُ، ﴿فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ﴾ تفضلاً ولم نَستأصِلهم، ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾﴾: حجةً ظاهرةً على من خالفه.

---

(١) عند الماتريدية: صفاتُ الأفعال كالإحياء والإماتة قديمة؛ لأنها هي صفة التكوين، وهي صفة قديمة قائمة بذاته تعالى، وعند الأشاعرة: صفاتُ الأفعال حادثة؛ لأنها عبارة عن التعلقات الحادثة للقدرة، ولم يثبتوا لله صفةَ التكوين. انظر «شرح جوهرة التوحيد» للباجوري (ص١٣٥).

(٢) روى نحوه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٢٢) عن محمد بن كعب القرظي.

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص٨٧).

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ ....﴾

«١٥٤» ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ﴾: بسببِ ميثاقِهم؛ ليخافُوا فلا ينقضُوه، ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ﴾ والطورُ مُظِلٌّ عليهم: ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ أي: ادخلُوا بابَ إيلِياءَ مُطأطِئينَ عند الدخولِ رؤوسَكم، ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا﴾: لا تُجاوزُوا الحدَّ، ﴿تَعَدُّوا﴾: ورشٌ، ﴿تَعْدُّوا﴾: بإسكانِ العينِ وتشديدِ الدالِ: مدنيٌّ غيرَ ورشٍ[١]، وهما مُدغما ﴿تَعْتَدُوا﴾ وهي قراءةُ أُبيٍّ[٢]، إلا أنه أدغمَ التاءَ في الدالِ وأبقَى العينَ ساكنةً في روايةٍ، وفي رواية: نقلَ فتحَ التاءِ إلى العينِ، ﴿فِي السَّبْتِ﴾: بأخذِ السمكِ، ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾﴾: عهداً مؤكَّداً.

«١٥٥» ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾: فبنقضهم، وما: مزيدةٌ للتوكيد، والباءُ: يتعلق بقولِه: ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ﴾، تقديرُه: حرمنا عليهم طيباتٍ بنقضِهم ميثاقَهم، وقولُه: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾: بدلٌ من قولِه: (فبما نقضِهم) ﴿مِّيثَٰقَهُمْ﴾ ومعنى التوكيدِ: تحقيقُ أن تحريم الطيباتِ لم يكن إلا بنقضِ العهدِ وما عطف عليه؛ من الكفرِ وقتلِ الأنبياءِ وغيرِ ذلك، ﴿وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ﴾ أي: معجزاتِ موسى عليه السلام، ﴿وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَآءَ﴾: كزكريا، ويحيى، وغيرهما، ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾: بغيرِ سببٍ يستحقون به القتلَ، ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾: جمعُ أغلفَ؛ أي: محجوبةٌ لا يَتوَصَّلُ إليها شيءٌ من الذكرِ والوعظِ، ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾: هو ردٌّ وإنكارٌ لقولهم: (قلوبنا غلف)، ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾﴾: كعبدِ اللهِ بنِ سلامٍ وأصحابِه.

«١٥٦» ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾: معطوفٌ على ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾، أو: على ما يليه مِن قولِه: (بكفرهم)، ولمَّا تكرَّرَ منهم الكفرُ؛ لأنهم كفرُوا بموسى ثم بعيسى ثم بمحمدٍ ﷺ.. عطفَ بعضَ كفرِهم على بعضٍ، ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾ هو: النسبةُ إلى الزِّنا.

«١٥٧» ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ﴾ سُمِّيَ مسيحاً؛ لأن جبريل عليه السلام مَسَحَهُ بالبركةِ،

---

(١) لقالون وجهان: الأول: اختلاس فتحة العين مع تشديد الدال، والثاني: إسكان العين مع تشديد الدال، والوجهان عنه صحيحان. انظر المرجع السابق (ص٨٧).

(٢) نسبها في «المحرر الوجيز» (٢/ ١٣٢) للأعمش والحسن.

بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ ....

فهو ممسوحٌ، أو: لأنه كان يمسحُ المريضَ والأكمهَ والأبرصَ فيبرأُ، فسمِّيَ مسيحاً بمعنى الماسحِ، ﴿عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ هم لم يعتقدوه رسولَ اللهِ، لكنَّهم قالُوه استهزاءً، كقول الكفارِ لرسولِنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ﴾ [الحجر: ٦]، ويحتملُ أن الله وصفَه به وإن لم يقولُوا ذلك، ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ﴾ رويَ: أنَّ رهطاً من اليهود سبُّوه وسبُّوا أمَّه، فدعا عليهم: اللهمَّ أنت ربي، وبكلمتِك خلقتَني، اللهم العَنْ من سَبَّني وسبَّ والدتِي، فمسخَ اللهُ من سبَّهما قِردةً وخنازيرَ، فأجمعت اليهودُ على قتلِه، فأخبره اللهُ بأنه يرفعُه إلى السماء، ويطهرُه من صحبةِ اليهودِ، فقال لأصحابه: أيُّكم يرضى أن يُلقَى عليه شَبَهي فيُقتلَ ويُصلبَ ويدخلَ الجنةَ؟ فقال رجلٌ منهم: أنا، فألقَى الله عليه شَبَهَهُ، فقُتلَ وصُلبَ، وقيل: كان رجلٌ ينافقُ عيسَى، فلما أرادُوا قتلَه قال: أنا أدلُّكم عليه، فدخلَ بيتَ عيسى، ورُفِعَ عيسَى، فأُلقيَ شبَهُه على المنافقِ، فدخلُوا عليه فقتلُوه وهم يظنون أنه عيسى، وجازَ هذا على قوم متعنِّتين حكمَ اللهُ بأنهم لا يؤمنون[1]، و(شُبِّهَ): مسندٌ إلى الجار والمجرور، وهو (لهم)، كقولك: خُيِّلَ إليه، كأنه قيل: ولكن وقعَ لهم التشبيهُ، أو: مسندٌ إلى ضميرِ المقتولِ؛ لدلالة (إنا قَتَلْنا) عليه، كأنه قيل: ولكن شُبِّهَ لهم مَن قتلوه، ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾: في عيسى؛ يعني: اليهودَ؛ قالوا: إن الوجهَ وجهُ عيسى، والبدنَ بدنُ صاحبِنا، أو: اختلفَ النصارى؛ قالوا: إلهٌ، وابنُ إلهٍ، وثالثُ ثلاثةٍ، ﴿لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ﴾: استثناءٌ منقطعٌ؛ لأن اتباع الظنِّ ليس من جنسِ العلمِ؛ يعني: ولكنهم يتبعون الظنَّ، وإنما وُصِفُوا بالشكِّ، وهو: ألّا يترجحَ أحدُ الجانبين، ثم وُصِفُوا بالظنِّ، وهو: أن يترجحَ أحدُهما؛ لأن المرادَ أنهم شاكُّون، ما لَهم به من علمٍ، ولكن إنْ لاحت لهم أمارةٌ فظنُّوا.. فذاك[2]، وقيل: وإن الذين اختلفوا فيه؛ أي: في قتلِه لفي شكٍّ منه؛ أي: من قتلِه؛ لأنهم كانوا يقولون: إن كان هذا عيسى.. فأين صاحبُنا؟ وإن كان هذا صاحبَنا.. فأينَ عيسى؟ ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ﴿١٥٧﴾﴾ أي: قتلاً يقيناً، أو: ما قتلوه مُتيقنين، أو: ما قتلُوه حقّاً، فيجعلُ يقيناً تأكيداً لقوله: (وما قتلوه) أي: حقَّ انتفاءُ قتلِه حقّاً.

«١٥٨» ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾ إلى حيثُ لا حكمَ فيه لغيرِ اللهِ، أو: إلى السماءِ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾ في انتقامِه من اليهود، ﴿حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ فيما دبَّر من رفعِه إليه.

---

(١) أي: قد يقال: كيف يُلقى شبه سيدنا عيسى على غيره والإيمان به واجب؟ والجواب: أنه ألقي الشبه على غيره لِعِلْمِ اللهِ بأنهم لا يؤمنون. انظر «الإكليل» (٢/ ٦٨٧).

(٢) وقيل: المراد بالشك هنا مطلقُ التردُّدِ، فيشمل الظن. انظر «السراج المنير» (١/ ٣٤٣).

﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾ ....

《١٥٩》 ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ (ليؤمنن به): جملةٌ قسميةٌ واقعةٌ صفةً لموصوفٍ محذوفٍ، تقديرُه: وإنْ من أهل الكتاب أحدٌ إلا ليؤمنن به، ونحوُه: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤][1] والمعنى: وما من اليهودِ والنصارى أحدٌ إلا ليؤمننَّ قبلَ موته بعيسى، وبأنه عبدُ اللهِ ورسولُه؛ يعني: إذا عاينَ قبلَ أن تَزْهَقَ روحُه حين لا ينفعُه إيمانُه؛ لانقطاعِ وقتِ التكليفِ، أو: الضميران لعيسى؛ يعني: وإنْ منهم أحدٌ إلا ليؤمننَّ بعيسى قبلَ موتِ عيسى، وهم أهلُ الكتاب الذين يكونون في زمانِ نزولِه، روي: أنه ينزل من السماء في آخرِ الزمانِ فلا يبقَى أحدٌ من أهلِ الكتابِ إلا يؤمنُ به، حتى تكون الملةُ واحدةً، وهي ملةُ الإسلام[2]، أو: الضميرُ في (به): يرجعُ إلى (الله)، أو: إلى محمد ﷺ، والثاني: إلى الكتابي، ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ يشهدُ على اليهودِ بأنهم كذبُوه، وعلى النصارى بأنهم دَعَوْهُ ابنَ اللهِ.

《١٦٠》 ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ وهي: ما ذكر في (سورة الأنعام): ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ [الأنعام: ١٤٦] الآيةَ؛ والمعنى: ما حرمنا عليهم الطيباتِ إلّا بظلمٍ عظيمٍ ارتكبوه، وهو ما عَدَّدَ قبلَ هذا، ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: وبمنعِهم عن الإيمان ﴿كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾﴾: خلقاً كثيراً، أو صَدّاً كثيراً.

《١٦١》 ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ كان الربا محرماً عليهم كما حُرِّمَ علينا، وكانوا يتعاطَوْنَهُ، ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾: بالرِّشْوَةِ وسائرِ الوجوهِ المحرمةِ، ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ﴾ دونَ مَن آمنَ ﴿عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾ في الآخرةِ.

---

(١) فالجار والمجرور (منا) متعلق بصفة موصوف محذوف؛ أي: ما أحدٌ كائنٌ منّا.

(٢) روى البخاري (٣٤٤٨) ومسلم (١٥٥) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «والذي نفسي بيده، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها»، ثم يقول أبو هريرة: واقرؤوا إن شئتم: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾.

﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ ....

«١٦٢» ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾ أي: الثابتون فيه المتقون، كابنِ سلامٍ وأضرابِه، ﴿مِنْهُمْ﴾: من أهل الكتابِ، ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: المؤمنون منهم، أو: المؤمنون من المهاجرين والأنصارِ، وارتفعَ (الراسخون): على الابتداءِ، ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: خبرُه، ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي: القرآنِ، ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ أي: سائرِ الكتبِ، ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: منصوبٌ على المدحِ؛ لبيان فضلِ الصلاةِ، وفي مصحف عبدِ اللهِ ﴿والمقيمون﴾: بالواو، وهي قراءة مالكِ بنِ دينارٍ وغيره[1]، ﴿وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: مبتدأٌ، ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾: عطفٌ عليه، والخبرُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾ وبالياءِ: حمزةُ[2].

«١٦٣» ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾: جوابٌ لأهل الكتابِ عن سؤالِهم رسولَ اللهِ ﷺ أن يُنَزِّلَ عليهم كتاباً من السماء، واحتجاجٌ عليهم بأن شأنَه في الوحيِ إليه كشأن سائرِ الأنبياءِ الذين سلفُوا، ﴿كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ﴾: كهودٍ وصالحٍ وشعيبٍ وغيرِهم، ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ أي: أولادِ يعقوبَ، ﴿وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ ﴿زُبُوراً﴾: حمزةُ[3]، مصدرٌ بمعنى (مفعول)؛ سُمِّيَ به الكتابُ المنزلُ على داود عليه السلام.

«١٦٤» ﴿وَرُسُلًا﴾: نصبٌ بمضمرٍ في معنى (أوحينا إليك)، وهو: أرسلنا، ونبأنا[4]، ﴿قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾: من قبلِ هذه السورةِ، ﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَۚ﴾ سأل أبو ذرٍّ رسولَ الله ﷺ عن الأنبياءِ قال: «مئةُ ألفٍ وأربعةٌ وعشرون ألفاً»، قال: كم الرسلُ منهم؟ قال: «ثلاثُ مئةٍ وثلاثةَ عشرَ، أولُ الرسلِ آدمُ، وآخرُهم نبيُّكم محمدٌ عليه السلام، وأربعةٌ من العربِ:

---

(١) انظر «المحرر الوجيز» (٢/ ١٣٥).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٨٧).

(٣) انظر المرجع السابق (ص٨٨).

(٤) ويجوز أن يكون منصوباً على الاشتغال؛ أي: وقصصنا رسلاً، ويقدرُ مضافٌ؛ أي: قصصنا أخبارَهم. انظر «الدر المصون» (٤/ ١٥٩).

﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾﴾ ....

هودٌ وصالحٌ وشعيبٌ ومحمدٌ عليه السلام»[١]، والآيةُ تدلُّ على أن معرفة الرسل بأعيانهم ليست بشرطٍ لصحةِ الإيمانِ، بل مِن شرطِه أن يُؤمن بهم جميعاً؛ إذ لو كان معرفة كلِّ واحدٍ منهم شرطاً.. لقصَّ علينا كلَّ ذلك، ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ أي: بلا واسطةٍ.

«١٦٥» ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ الأوجَهُ: أن ينتصب على المدحِ؛ أي: أعني رسلاً، ويجوز أن يكون بدلاً من الأول، وأن يكون مفعولاً، أي: أرسلنا رسلاً، واللامُ في ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾: يتعلقُ بـ (مبشرين ومنذرين)؛ والمعنى: أن إرسالهم إزاحةٌ للعِلةِ، وتتميمٌ لإلزامِ الحجةِ؛ لئلا يقولوا: لولا أرسلتَ إلينا رسولاً فيوقظَنا من سِنَةِ الغفلةِ، وينبهَنا بما وجبَ الانتباهُ له، ويعلمَنا ما سبيلُ معرفته السمعُ، كالعباداتِ والشرائعِ؛ أعني: في حقِّ مقاديرِها وأوقاتِها وكيفياتِها دون أصولها؛ فإنها مما يعرف بالعقل[٢]، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾ في العقابِ على الإنكارِ، ﴿حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ في بعث الرسلِ للإنذار.

«١٦٦» ولما نزل: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ قالوا: ما نشهدُ لك بهذا، فنزلَ: ﴿لَٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾ ومعنى شهادةِ الله بما أنزل إليه: إثباتُه لصحتِه بإظهارِ المعجزاتِ، كما يثبت الدعاوَى بالبيناتِ؛ إذ الحكيمُ لا يؤيدُ الكاذبَ بالمعجزة، ﴿أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ أي: أنزله وهو عالم بأنك أهلٌ لإنزالِه إليك، وأنك مبلغُه، أو: أنزله بما علمَ من مصالحِ العبادِ، وفيه: نفيُ قولِ المعتزلةِ في إنكارِ الصفات؛ فإنه أثبت لنفسه العلمَ، ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ لكَ بالنبوةِ، ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾: شاهداً وإن لم يشهدْ غيرُه.

«١٦٧» ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بتكذيبِ محمدٍ ﷺ وهم اليهودُ، ﴿وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾: ومنعوا الناسَ عن سبيل الحقِّ بقولهم للعرب: إنا لا نجدُه في كتابِنا ﴿قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾﴾ عن الرشدِ.

---

(١) رواه ابن حبان في «صحيحه» (٣٦١)، وانظر «موارد الظمآن» (ص٥٤).

(٢) عند الماتريدية: يجب على الإنسان الإيمان بالله بالعقل وإن لم تبلغه الدعوة إذا مضت مدةٌ يتمكن فيها من التأمل والاستدلال بالكون على معرفة الخالق؛ لأن الإمهال وإدراك مدة التأمل بمنزلة دعوة الرسل في حقِّ تنبيهِ القلب عن الغفلة، وروي عن أبي حنيفة رحمه الله: أنه لا عذرَ لأحدٍ في الجهلِ بالخالقِ لما يرى في العالم من آثار الخلق. انظر «كشف الأسرار شرح أصول البزدوي» (٤/ ٢٣٤).

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ ....

«١٦٨» ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ باللهِ، ﴿وَظَلَمُوا۟﴾ محمداً ﷺ بتغييرِ نعتِه، وإنكارِ نبوتِه ﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ ما داموا على الكفرِ، ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾﴾.

«١٦٩» ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾: وكان تخليدُهم في جهنمَ سهلاً عليه، والتقديرُ: يعاقبهم خالدين، فهو حالٌ مقدرةٌ، والآيتان في قومٍ علمَ اللهُ أنهم لا يؤمنون، ويموتون على الكفر.

«١٧٠» ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي: بالإسلامِ، أو: هو حالٌ؛ أي: مُحِقّاً، ﴿فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ﴾ وكذلك (انتهوا خيراً لكم): انتصابُه بمضمرٍ، وذلك أنه لما بَعثَهم على الإيمان، وعلى الانتهاءِ عن التثليث.. عُلِمَ أنه يحملُهم على أمرٍ، فقال: (خيرا لكم) أي: اقصِدُوا وائتُوا أمراً خيراً لكم مما أنتم فيه من الكفر والتثليثِ، وهو الإيمان به والتوحيدُ، ﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ فلا يضرُّه كفرُكم، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بمن يؤمنُ، وبمن يكفرُ، ﴿حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾﴾ لا يُسوِّي بينهما في الجزاء.

«١٧١» ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾: لا تجاوزُوا الحدَّ، فغلَتِ اليهودُ في حطِّ المسيحِ عن منزلتِه حتى قالوا: إنه ابن الزنا، وغلَتِ النصارى في رفعِه عن مِقدارِه حيث جعلوه ابنَ الله، ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ﴾ وهو تنزيهُهُ عن الشريكِ والولدِ، ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ لا ابنُ اللهِ ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾: خبرُ المبتدأِ وهو (المسيحُ)، و(عيسى): عطفُ بيانٍ، أو: بدلٌ، ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ﴾: عطفٌ على رسولِ اللهِ، وقيل له: كلمتُه؛ لأنه يُهتدَى به كما يُهتدَى بالكلام، ﴿أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾: حالٌ، وقد: معَهُ مُرادَةٌ؛ أي: أَوْصَلَها إليها، وحَصَّلَها فيها، ﴿وَرُوحٌ﴾: معطوفٌ على الخبرِ أيضاً، وقيل له: روحٌ؛ لأنه كان يُحيي الموتَى، كما سَمَّى القرآنَ رُوحاً بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ﴾ [الشورى: ٥٢] لِما أنه يُحيي القلوبَ، ﴿مِّنْهُ﴾ أي: بتخليقِه وتكوينِه، كقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]، وبه

لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ ....

أجابَ عليُّ بنُ الحسينِ بنِ واقدٍ غلاماً نصرانيّاً كان للرشيدِ في مجلسِه حيث زعمَ أن في كتابِكم حجةً على أن عيسى من الله، ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ﴾: خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ؛ أي: ولا تقولوا الآلهةُ ثلاثةٌ، ﴿ٱنتَهُوا۟﴾ عن التثليثِ ﴿خَيْرًا لَّكُمْ﴾ والذي يدلُّ عليه القرآنُ التصريحُ منهم بأن اللهَ والمسيحَ ومريمَ ثلاثةُ آلهةٍ، وأن المسيحَ ولدُ اللهِ من مريمَ؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦]، ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿إِلَٰهٌ﴾: خبره، ﴿وَٰحِدٌ﴾: توكيدٌ، ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾: أسبحُه تسبيحاً من أن يكون له ولدٌ، ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: بيانٌ لتنزُّهِهِ مما نُسبَ إليه؛ يعني: أن كلَّ ما فيهما خَلْقُهُ ومُلكُه، فكيف يكونُ بعضُ ملكِه جُزأً منه؛ إذ البُنُوَّةُ والمُلكُ لا يجتمعان، على أن الجزءَ إنما يصحُّ في الأجسامِ، وهو يتعالى عن أن يكون جسماً، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾: حافظاً ومدبِّراً لهما، ولما فيهما، ومن عَجزَ عن كِفايةِ أمرٍ.. يحتاجُ إلى ولدٍ يعينُه.

《١٧٢》 ولما قال وفدُ نجرانَ لرسول الله عليه السلام: لمَ تعيبُ صاحبَنا عيسَى؟ قال: «وأيَّ شيءٍ أقولُ؟» قالوا: تقولُ: إنه عبدُ اللهِ ورسولُه، قال: «إنه ليس بِعارٍ أن يكون عبدَ اللهِ» قالوا: بلى.. نزلَ قولُه تعالى:

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ﴾ أي: لن يأنفَ ﴿أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾: هو ردٌّ على النصارى، ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: ردٌّ على من يعبدُهم من العربِ، وهو: عطفٌ على المسيحِ، ﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ أي: الكُرُوبيُّون الذين حولَ العرشِ كجبريلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ ومَنْ في طبقتِهم؛ والمعنى: ولا الملائكةُ المقربون أن يكونوا عباداً للهِ، فَحُذِفَ ذلك؛ لدلالةِ (عبداً للهِ) عليه؛ إيجازاً.

وتَشَبَّثَتِ المعتزلةُ والقائلونَ بتفضيلِ الملكِ على البشرِ بهذه الآيةِ، وقالوا: الارتقاءُ إنما يكون إلى الأعلى؛ يقال: فلانٌ لا يستنكفُ عن خدمتي ولا أبوه، ولو قال: ولا عبدُه.. لم يَحْسُنْ، وكان معنى قولِه: (ولا الملائكة المقربون): ولا مَن هو أعلى منه قدراً، وأعظمُ منه خَطَراً؛ ويدلُّ عليه تخصيصُ المقربين.

والجواب: أنا نُسلمُ تفضيلَ الثاني على الأول، لكن هذا لا يمسُّ ما تَنازعْنا فيه؛ لأن الآيةَ تدلُّ على أن الملائكة المقربين بأجمعِهم أفضلُ من عيسى، ونحن نسلم بأن جميع الملائكةِ المقربين

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾ ....

أفضلُ من رسولٍ واحدٍ من البشر، إلى هذا ذهبَ بعضُ أهلِ السنةِ، ولأن المرادَ أن الملائكةَ مع ما لهم من القدرةِ الفائقةِ قَدْرَ البشرِ، والعلومِ اللَّوحِيَّةِ، وتجردِهم عن التولدِ الازدواجيِّ رأساً[1] .. لا يستنكفون عن عبادتِه، فكيف بمن يتولدُ من آخَرَ، لا يقدِرُ على ما يقدرون، ولا يعلمُ ما يعلمون، وهذا لأن شدةَ البطشِ، وسَعَةَ العلومِ، وغرابةَ التكوُّنِ هي التي تُورثُ الحمقَى أمثالَ النصارى وَهْمَ الترفُّعِ عن العبوديةِ؛ حيث رأَوا المسيحَ وُلِدَ من غيرِ أبٍ، وهو يبرئُ الأكمهَ والأبرصَ، ويحيي الموتى، ويُنْبِئُ بما يأكلون ويدَّخرون في بيوتِهم، فَبَرَّؤُوه من العبوديةِ، فقيل لهم: هذه الأوصافُ في الملائكةِ أتمُّ منها في المسيحِ، ومع هذا لم يستنكفُوا من العبوديةِ، فكيف المسيحُ.

والحاصلُ: أن خواصَّ البشرِ وهم الأنبياءُ عليهم السلامُ أفضلُ من خواصِّ الملائكةِ وهم الرسلُ منهم، كجبريلَ ومكائيلَ وعزرائيلَ ونحوِهم، وخواصَّ الملائكةِ أفضلُ من عوامِّ المؤمنين من البشر، وعوامَّ المؤمنين من البشر أفضلُ من عوامِّ الملائكةِ.

ودليلنا على تفضيلِ البشرِ على الملك ابتداءً: أنهم قَهَرُوا نوازعَ الهوى في ذاتِ اللهِ تعالى، مع أنهم جُبِلُوا عليها، فضاهتِ الأنبياءُ عليهم السلام الملائكةَ عليهم السلام في العصمةِ، وتَفَضَّلُوا عليهم في قهرِ البواعثِ النفسانيةِ، والدواعِي الجَسَدانيةِ، فكانت طاعتُهم أشقَّ؛ لكونِها مع الصوارفِ، بخلافِ طاعةِ الملائكةِ؛ لأنهم جُبِلُوا عليها، فكانت أزيدَ ثواباً بالحديث[2]، ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ﴾: يترفعْ ويطلُبِ الكبرياءَ ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾﴾: فيجازيْهم على استنكافِهم واستكبارِهم.

«١٧٣» ثم فصَّل فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾.

---

(١) أي: لا يتوالدون من زوجين.

(٢) روى البخاري (١٧٨٧) ومسلم (١٢١١) عن سيدتنا عائشة رضي الله عنها أن النبي قال لها عن عمرتها: «... ولكنها على قدر نفقتك أو نصبك»، وفي «المستدرك» للحاكم (١/ ٤٧٠): «إن لكِ من الأجرِ على قدرِ نصبِكِ ونفقتِكِ»، وقال النووي في «شرح صحيح مسلم» (٨/ ١٥٢): هذا ظاهر في أن الثواب والفضل في العبادة يكثر بكثرة النصبِ والنفقةِ، والمرادُ: النَّصَبُ الذي لا يذمه الشرع، وكذا النفقة. وانظر «الموافقات» للشاطبي (٢/ ٢١٠) ففيه تفصيل مهم في زيادة الأجر بحسب زيادة المشقة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾﴾

فإن قلت: التفصيلُ غيرُ مطابقٍ للمفصَّلِ؛ لأن التفصيلَ اشتمل على الفريقين، والمفصَّلَ على فريق واحدٍ.. قلتُ: هو مثلُ قولِك: جمع الإمامُ الخوارجَ؛ فمن لم يخرجْ عليه.. كساه وحملَه، ومن خرجَ عليه.. نكَّلَ به.

وصحةُ ذلك لوجهين:

أحدهما: أنه حُذفَ ذكرُ أحدِ الفريقين؛ لدلالةِ التفصيلِ عليه؛ ولأن ذكرَ أحدِهما يدلُّ على ذكر الثاني، كما حُذِفَ أحدُهما في التفصيل في قولِه تعالى بعدَ هذا: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ﴾.

والثاني: أن الإحسانَ إلى غيرهم مما يَغُمُّهم، فكان داخلاً في جملةِ التنكيلِ بهم، فكأنَّه قيل: ومن يستنكفْ عن عبادته ويستكبرْ.. فسيعذبُ بالحسرةِ إذا رأى أجورَ العاملين، وبما يصيبه من عذاب الله.

«١٧٤» ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: رسولٌ يَبهَرُ المنكرَ بالإعجازِ، ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾: قرآناً يُستضاءُ به في ظلماتِ الحَيْرَةِ.

«١٧٥» ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ﴾: باللهِ، أو بالقرآنِ ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: جنةٍ، ﴿وَفَضْلٍ﴾: زيادةِ النعمةِ، ﴿وَيَهْدِيهِمْ﴾: ويرشدُهم ﴿إِلَيْهِ﴾: إلى اللهِ، أو: إلى الفضلِ، أو: إلى صراطه، ﴿صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾: فـ(صراطاً): حالٌ من المضاف المحذوفِ[1].

«١٧٦» ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ كان جابرُ بنُ عبدِ اللهِ مريضاً، فعادَه رسولُ الله ﷺ، فقال: إني كلالةٌ فكيف أصنعُ في مالي؟ فنزلت[2]، ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ﴾ ارتفع

(١) أو مفعول به ثان لـ(يهديهم). انظر «الدر المصون» (٤/ ١٧١).
(٢) روى نحوه البخاري (١٩٤)، ومسلم (١٦١٦).

....

(امرؤ) بمضمرٍ يفسرُه الظاهرُ، ومحلُّ ﴿لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾: الرفعُ على الصفةِ؛ أي: إن هلكَ امرؤٌ غيرُ ذي وَلَدٍ، والمرادُ بالولدِ: الابنُ، وهو مشترَكٌ يقعُ على الذكر والأنثى؛ لأن الابن يُسقِطُ الأختَ، ولا تُسقطُها البنتُ، ﴿وَلَهُۥٓ أُخْتٌ﴾ أي: لأبٍ وأمٍّ، أو لأبٍ ﴿فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ أي: الميتُ، ﴿وَهُوَ يَرِثُهَآ﴾ أي: الأخُ يرثُ الأختَ جميعَ مالِها إن قُدِّرَ الأمر على العكس؛ مِن موتِها وبقائِه بعدها ﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾ أي: ابنٌ؛ لأن الابن يُسقطُ الأخَ دونَ البنتِ.

فإن قلت: الابنُ لا يُسقِطُ الأخَ وحدَه، فالأبُ نظيرُه في الإسقاطِ، فلم اقتَصَرَ على نفيِ الولد؟

قلتُ: بَيَّنَ حكمَ انتفاءِ الولدِ، وَوَكَلَ حكمَ انتفاءِ الوالدِ إلى بيان السنةِ، وهو قولُه عليه السلام: «ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي.. فلِأَولى عصبةٍ ذكرٍ»[1]، والأبُ أولَى من الأخ.

﴿فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ أي: فإن كانت الأختان اثنتين، دلَّ على ذلك: ﴿وَلَهُۥٓ أُخْتٌ﴾، ﴿فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوٓاْ إِخْوَةً﴾ أي: وإن كان من يرثُ بالأُخُوَّةِ، والمرادُ بالإخوةِ: الإخوةُ والأخواتُ تغليباً لحكم الذكورةِ، ﴿رِّجَالًا وَنِسَآءً﴾: ذكوراً وإناثاً ﴿فَلِلذَّكَرِ﴾ منهم ﴿مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ الحقَّ، فهو: مفعولُ (يبينُ)؛ ﴿أَن تَضِلُّواْ﴾: كراهةَ أن تَضلُّوا، ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾﴾: يعلمُ الأشياءَ بِكُنْهِها قبلَ كونِها وبعدَه.



(١) رواه البخاري (٦٧٣٢)، ومسلم (١٦١٥) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: «لأولى رجل ذكر».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٢﴾ ....

سورة المائدة

وهي مئةٌ وعشرون آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ يقال: وَفَّى بالعهدِ وأوفَى به، والعقد: العهد الموثَّقُ، شُبِّهَ بعقدِ الحبلِ ونحوِه، وهي: عقودُ الله تعالى التي عقدَها على عباده وألْزَمَها إياهم؛ من مَواجبِ التكليفِ، أو: ما عقدَ اللهُ عليكم، وما تعاقدتم بينكم، والظاهرُ: أنها عقودُ الله عليهم في دينِه؛ من تحليلِ حلالِه، وتحريمِ حرامِه، وأنه كلامٌ قُدِّمَ مُجملاً، ثم عُقِّبَ بالتفصيل، وهو قوله:

﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ والبهيمةُ: كلُّ ذاتِ أربعِ قوائمَ في البرِّ والبحرِ، وإضافتُها إلى الأنعام: للبيان، وهي بمعنى: مِن، كخاتَمِ فضةٍ؛ ومعناه: البهيمةُ من الأنعام، وهي الأزواجُ الثمانيةُ، وقيل: بهيمةُ الأنعام: الظِّباءُ وبقرُ الوحشِ ونحوُهما، ﴿إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ آيةُ تحريمِه، وهو قولُه: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾ الآيةَ، ﴿غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ﴾: حالٌ من الضمير في (لكم)؛ أي: أحلت لكم هذه الأشياءُ، لا مُحِلِّينَ الصيدَ ﴿وَأَنتُمۡ حُرُمٌ﴾: حالٌ من مُحلي الصيدِ، كأنه قيل: أَحْلَلْنا لكُم بعضَ الأنعامِ في حالِ امتناعِكم من الصيدِ وأنتم محرمون؛ لئلا يضيقَ عليكم، والحُرُمُ: جمعُ حرامٍ، وهو المحرمُ؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ۝١﴾ من الأحكامِ، أو: من التحليلِ والتحريمِ.

《٢》 ونزل نهياً عن تحليلِ ما حُرِّمَ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾: جمعُ شعيرةٍ، وهي: اسمُ ما أُشْعِرَ؛ أي: جُعِلَ شعاراً وعَلَماً للنسكِ مِن مَواقفِ الحجِّ، ومَرامِي الجمارِ، والمطافِ، والمسعَى، والأفعالِ التي هي علاماتُ الحاجِّ يُعرَفُ بها؛ مِن الإحرامِ والطوافِ والسعْيِ والحلقِ والنحرِ، ﴿وَلَا ٱلشَّهۡرَ

....

﴿الحَرَامَ﴾ أي: أشهرَ الحجِّ، ﴿وَلَا الْهَدْيَ﴾ وهو: ما أهديَ إلى البيتِ، فتُقُرِّبَ به إلى الله من النَّسائِكِ، وهو: جمعُ هَدْيَةٍ، ﴿وَلَا الْقَلَائِدَ﴾: جمعُ قِلادةٍ، وهي: ما قُلِّدَ به الهديُ من نعلٍ، أو عُروةِ مَزادةٍ، أو لِحاءِ شجرٍ أو غيرِه[(١)]، ﴿وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾: ولا تُحلُّوا قوماً قاصدين المسجدَ الحرامَ، وهم: الحجاجُ والعمَّار، وإحلالُ هذه الأشياءِ: أن يُتهاونَ بحُرمةِ الشعائرِ، وأن يُحالَ بينها وبين المتنسِّكين بها، وأن يُحدثُوا في شهر الحجِّ ما يَصدُّون به الناس عن الحجِّ، وأن يُتعرضَ للهَدْيِ بالغصبِ، أو بالمنع من بلوغِ مَحِلِّه، وأما القلائدُ.. فجازَ أن يُرادَ بها ذواتُ القلائدِ، وهي: البدنُ، وتُعطفَ على الهَدْيِ للاختصاصِ؛ لأنها أشرفُ الهديِ، كقوله: ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ [البقرة: ٩٨]، كأنه قيل: والقلائدُ منها خُصوصاً، وجاز أن يُنهَى عن التعرضِ لقلائدِ الهديِ؛ مبالغةً في النهيِ عن التعرض للهديِ؛ أي: ولا تُحلُّوا قلائدَها فضلاً أن تُحلُّوها، كما قال: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ [النور: ٣١] فنهَى عن إبداءِ الزينةِ؛ مبالغةً في النهي عن إبداءِ مواقعِها، ﴿يَبْتَغُونَ﴾: حالٌ من الضمير في (آمِّين)، ﴿فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي: ثواباً، ﴿وَرِضْوَانًا﴾: وأن يرضَى عنهم؛ أي: لا تتعرضُوا لقومٍ هذه صفتُهم؛ تعظيماً لهم، ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ﴾: خرجتم من الإحرامِ ﴿فَاصْطَادُوا﴾: إباحةٌ للاصطياد بعدَ حظرِهِ عليهم بقوله: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾.

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾ جرَمَ: مثلُ: كَسَبَ في تعديتِه إلى مفعولٍ واحدٍ واثنين؛ تقول: جَرَمَ ذنباً؛ نحو: كَسَبَهُ، وجَرَمْتُه ذنباً؛ نحو: كَسَبْتُه إياه، وأوّلُ المفعولين: ضميرُ المخاطبِين، والثاني: (أن تَعتدُوا)، و(أن صدوكم): متعلقٌ بالشنآنِ؛ بمعنى العلةِ، وهو شدةُ البغضِ، وبسكون النونِ: شاميٌّ وأبو بكرٍ[(٢)]؛ والمعنى: ولا يَكْسِبَنَّكُم بغضُ قومٍ؛ لأن صدوكم.. الاعتداءَ، ولا يَحمِلنَّكم عليه، ﴿إِنْ صدوكم﴾: على الشرط: مكيٌّ وأبو عمرٍو[(٣)]؛ ومعنى صَدِّهم إياهم عن المسجد الحرام: منعُ أهلِ مكةَ رسولَ الله والمؤمنين يومَ الحديبيةِ عن العمرةِ؛ ومعنى الاعتداءِ: الانتقامُ منهم بإلحاقِ مكروهٍ بهم، ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾: على العفوِ والإغضاءِ، ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾: على الانتقامِ والتَّشَفِّي، أو: البِرُّ: فعلُ المأمورِ، والتقوى: تركُ المحظورِ، والإثمُ: تركُ المأمورِ، والعدوانُ: فعلُ المحظورِ،

---

(١) المزادة: وعاءٌ يحمل فيه الماء في السفر، ولحاء الشجر: قِشرُه.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٨٩) وكذا القراءة الآتية.

(٣) والتقدير على هذه القراءة: إن صدوكم.. فلا يجرمنكم.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾ ....

ويجوزُ أن يُرادَ العمومُ لكلِّ بِرٍّ وتقوى، وكلِّ إثمٍ وعُدوانٍ، فيتناولُ بعمومه العفوَ والانتصارَ، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾ لمن عَصاه، وما اتَّقاه.

《٣》 ثم بَيَّنَ ما كان أهلُ الجاهلية يأكلونه فقال:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ أي: البهيمةُ التي تموتُ حَتْفَ أنفِها، ﴿وَٱلدَّمُ﴾ أي: المسفوحُ، وهو: السائلُ، ﴿وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾ وكلُّه نجسٌ، وإنما خُصَّ اللحمُ؛ لأنه معظمُ المقصودِ، ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ أي: رُفِعَ الصوتُ به لغيرِ اللهِ، وهو قولُهم: باسم اللاتِ والعُزَّى عند ذبحه، ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ﴾: التي خنقُوها حتى ماتت، أو انخنقت بالشبكةِ، أو بغيرِها، ﴿وَٱلْمَوْقُوذَةُ﴾: التي أَثْخَنُوْها ضرباً بعصاً أو حجرٍ حتى ماتت، ﴿وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ﴾: التي تَرَدَّتْ من جبلٍ، أو في بئرٍ فماتت، ﴿وَٱلنَّطِيحَةُ﴾: المنطوحةُ، وهي: التي نطحتْها أُخرى فماتت بالنطحِ، ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ بعضَه وماتَ بِجَرْحِهِ، ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾: إلا ما أدركتم ذكاتَه وهو يَضْطَرِبُ اضطرابَ المذبوحِ، والاستثناءُ يرجعُ إلى المنخنقةِ وما بعدَها، فإنه إذا أدركها وبها حياةٌ فذبحها وسَمَّى عليها.. حَلَّتْ، ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ كانت لهم حجارةٌ منصوبةٌ حولَ البيت يذبحون عليها، يعظمونها بذلك، ويتقربون به إليها، تُسمَّى الأنصابَ، واحدُها: نُصُبٌ، أو: هو جمعٌ والواحدُ: نِصابٌ، ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾: في موضع الرفعِ بالعطفِ على الميتةِ؛ أي: حرمت عليكم الميتةُ، وكذا وكذا والاستقسامُ بالأزلامِ، وهي: القداحُ المعَلَّمَةُ، واحدُها: زَلَمٌ، وزُلَمٌ.

كان أحدهم إذا أراد سفراً أو غزواً أو تجارةً أو نِكاحاً أو غيرَ ذلك.. يعمِدُ إلى قداحٍ ثلاثةٍ، على واحدٍ منها مكتوبٌ: أَمَرَنِي ربي، وعلى الآخر: نهانِي ربي، والثالثُ: غُفْلٌ، فإن خرج الآمرُ.. مضَى لحاجته، وإن خرج الناهي.. أمسك، وإن خرج الغُفْلُ.. أعادَه[1].

فمعنى الاستقسامِ بالأزلامِ: طلبُ معرفةِ ما قُسِمَ له مما لم يقسم له بالأزلامِ، قال الزجاج: لا فرقَ بين هذا وبين قولِ المنجمين: لا تخرجْ من أجلِ نجمِ كذا، واخرجْ لطلوعِ نجمِ كذا[2]،

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٥١١) عن الحسن البصري.
(٢) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ١٤٧).

....

وفي «شرح التأويلات» رَدَّ هذا وقال: لا يقولُ المنجمُ: إن نجم كذا يأمرُ بكذا، ونجمُ كذا ينهى عن كذا، كما كان فِعْلُ أولئك، ولكن المنجمَ جعلَ النجومَ دلالاتٍ وعلاماتٍ على أحكامِ اللهِ تعالى، ويجوزُ أن يَجعلَ اللهُ تعالى في النجوم معانيَ وأعلاماً يدركُ بها الأحكامُ ويستخرجُ بها الأشياءُ ولا لائمةَ في ذلك، إنما اللائمةُ عليه فيما يحكمُ على اللهِ ويشهدُ عليه[1]، وقيل: هو الميسِرُ، وقسمتُهم الجَزورَ على الأنصباءِ المعلومةِ.

﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ أي: الاستقسامُ بالأزلام خروجٌ عن الطاعةِ، ويحتملُ أن يعود إلى كلِّ محرَّمٍ في الآيةِ.

﴿ٱلْيَوْمَ﴾: ظرفٌ لـ (يئس)، ولم يُرَدْ به يومٌ بعينه، وإنما معناه: الآنَ، وهذا كما تقول: أنا اليومَ قد كَبِرْتُ؛ تريدُ: الآنَ، وقيل: أريدَ يومُ نزولِها، وقد نزلت يومَ الجمعةِ، وكان يومَ عرفةَ بعدَ العصرِ في حَجَّةِ الوداعِ[2]، ﴿يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ﴾: يئسوا منه أن يُبطلُوه، أو: يئسوا من دينكم أن يَغلبُوه؛ لأن الله تعالى وَفَّى بوعدِه؛ من إظهارِه على الدينِ كلِّه، ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ بعدَ إظهارِ الدينِ وزوالِ الخوف من الكفارِ وانقلابِهم مغلوبين بعدَ ما كانُوا غالبين، ﴿وَٱخْشَوْنِ﴾: بغيرِ ياءٍ في الوصل والوقفِ[3]؛ أي: أَخْلِصُوا إليَّ الخشيةَ، ﴿ٱلْيَوْمَ﴾: ظرفٌ لقوله: ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ بأن كفيتُكم خوفَ عدوِّكم، وأظهرتُكم عليهم، كما يقول الملوكُ: اليومَ كملَ لنا الملكُ؛ أي: كُفينا مَن كنا نَخافُه، أو: أكملتُ لكم ما تحتاجون إليه في تكليفِكم من تعليم الحلالِ والحرامِ والتوقيفِ على شرائعِ الإسلامِ، وقوانين القياسِ، ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ بفتحِ مكةَ ودخولِها آمنين ظاهرين، وهدمِ منارِ الجاهليةِ ومناسكِهم، ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾: حالٌ؛ أي: اخترتُه لكم من بين الأديان، وآذنتُكم بأنه هو الدينُ المرضيُّ وحدَه، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]، ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾: متصلٌ بذكر المحرماتِ، وقولُه: (ذلكم فسق): اعتراضٌ أُكِّدَ به معنى التحريم، وكذا ما بعده؛ لأن تحريم هذه الخبائث من جملة الدين الكاملِ، والنعمةِ التامَّةِ، والإسلامِ المرضيِّ دون غيره من المللِ؛ ومعناه: فمن اضطر إلى الميتةِ أو إلى غيرِها ﴿فِى مَخْمَصَةٍ﴾: مجاعةٍ، ﴿غَيْرَ﴾: حالٌ، ﴿مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ﴾: مائلٍ إلى إثمٍ؛ أي:

---

(١) «تأويلات أهل السنة» (٢/ ١١).

(٢) روى البخاري (٧٢٦٨) ومسلم (٣٠١٧) عن سيدنا عمر رضي الله عنه أنها نزلت يوم عرفة، في يوم جمعة.

(٣) ووقف يعقوب بالياء. انظر «البدور الزاهرة» (ص٨٩).

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾﴾ ....

غيرَ مُتجاوزٍ سدَّ الرَّمَقِ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لا يؤاخذُه بذلك، ﴿رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾ بإباحةِ المحظورِ للمعذور.

《٤》 ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ في السؤالِ معنى القول؛ فلذا وقعَ بعدَه: ﴿مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ﴾ كأنه قيل: يقولون لك: ماذا أحل لهم؟ وإنما لم يقل: ماذا أحلَّ لنا؟ حكايةً لما قالوا؛ لأن (يسألونك): بلفظِ الغَيبةِ، كقولك: أَقسمَ زيدٌ ليفعلن، ولو قيل: لأفعلنَّ، وأُحلَّ لنا.. لكان صواباً، و(ماذا): مبتدأٌ، و(أحل لهم): خبرُه، كقولك: أيُّ شيءٍ أحلَّ لهم؟ ومعناه: ماذا أحلَّ لهم من المطاعم، كأنهم حين تُليَ عليهم ما حُرِّمَ عليهم من خبيثاتِ المآكلِ.. سألوا عما أُحِلَّ لهم منها فقال: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۙ﴾ أي: ما ليس بخبيثٍ منها، وهو كلُّ ما لم يأتِ تحريمُه في كتاب الله أو سنةٍ أو إجماعٍ أو قياسٍ، ﴿وَمَا عَلَّمْتُم﴾: عطفٌ على (الطيباتُ) أي: أُحلَّ لكم الطيباتُ وصيدُ ما عَلَّمتُم، فحُذفَ المضافُ، أو: تُجعلُ (ما): شرطيةً، وجوابُها: (فكلوا)، ﴿مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ﴾: من الكواسبِ للصيدِ من سباعِ البهائمِ والطيرِ، كالكلبِ والفهدِ والعُقابِ والصَّقْرِ والبازِيِّ والشاهين، وقيل: هي من الجراحةِ، فيشترطُ للحِلِّ الجَرْحُ، ﴿مُكَلِّبِينَ﴾: حالٌ من (عَلَّمْتُم)، وفائدةُ هذه الحال مع أنه استُغنيَ عنها بـ (عَلَّمْتُم): أن يكون من يُعَلِّمُ الجوارحَ موصوفاً بالتكليبِ، والمُكَلِّبُ: مؤدبُ الجوارحِ ومعلمُها، مشتقٌّ مِن الكَلْبِ؛ لأن التعليم في الكلابِ أكثرُ، فاشتُقَّ من لفظِه؛ لكثرتِه في جنسِه، أو: لأن السبعَ يسمَّى كَلْباً، ومنه الحديث: «اللهم سَلِّطْ عليه كلباً من كلابِك»، فأكله الأسدُ[1]، ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ﴾: حالٌ، أو: استئنافٌ ولا موضعَ له، وفيه دليلٌ على أنَّ على كلِّ آخذٍ علماً ألّا يأخذَه إلا مِنْ أنْحرِهم درايةً[2]، فكم من آخذٍ عن غيرِ متقنٍ قد ضيَّعَ أيامَه، وعضَّ عند لقاءِ النَّحاريرِ أناملَه، ﴿مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ﴾ من التكليبِ، ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ الإمساكُ على صاحبه: ألّا يأكلَ منه، فإن أكلَ منه.. لم يُؤكلْ إذا كان صيدَ كلبٍ ونحوِه، فأما صيدُ البازيِّ ونحوِه.. فأكْلُه لا يُحرمُه، وقد عُرِفَ في موضعِه[3]، والضميرُ في ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ

---

(١) روى الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٥٣٩) عن سيدنا أبي عقرب رضي الله عنه قال: كان لهبُ بنُ أبي لهبٍ يسبُّ النبيَّ ﷺ، فقال النبي ﷺ: «اللهم سلط عليه كلبك» فخرج في قافلة يريد الشام، فنزل منزلاً فقال: إني أخاف دعوة محمد ﷺ، قالوا له: كلّا، فحطُّوا متاعهم حوله وقعدوا يحرُسونه، فجاء الأسدُ فانتزعه فذهب به.

(٢) أَنْحرهم درايةً: أكثرُهم إتقاناً.

(٣) انظر «حاشية ابن عابدين» (٦/ ٤٦٧).

﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٦﴾

﴿عَلَيْهِ﴾: يرجعُ إلى (ما أمسكن)؛ على معنى: وسَمُّوا عليه إذا أدركتم ذكاته، أو: إلى (ما علمتم من الجوارح)؛ أي: سَمُّوا عليه عند إرساله، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾: واحذروا مخالفةَ أمرِه في هذا كلِّه؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٤﴾: إنه محاسبُكم على أفعالكم، ولا يلحقُه فيه لُبْثٌ.

«٥» ﴿ٱلْيَوْمَ﴾: الآنَ ﴿أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ كرَّره؛ تأكيداً للمنَّةِ، ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ أي: ذبائحُهم؛ لأن سائرَ الأطعمةِ لا يختصُّ حِلُّها بالمِلَّةِ، ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ فلا جرم عليكم أن تُطعمُوهم؛ لأنه لو كان حراماً عليهم طعامُ المؤمنين.. لما ساغَ لهم إطعامُهم، ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ هي: الحرائرُ أو العفائفُ، وليس هذا بشرطٍ لصحةِ النكاحِ، بل هو للاستحبابِ؛ لأنه يصحُّ نكاحُ الإماءِ من المسلماتِ، ونكاحُ غيرِ العفائفِ، وتخصيصُهن بَعْثٌ على تَخيُّرِ المؤمنين لِنُطَفِهم، وهو معطوفٌ على الطيبات، أو: مبتدأٌ، والخبرُ محذوفٌ؛ أي: والمحصناتُ من المؤمناتِ حِلٌّ لكم، ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ هي الحرائرُ الكتابياتُ، أو: العفائفُ الكتابياتُ، ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾: أعطيتموهنَّ مهورَهن ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾: متزوِّجين غيرَ زانين، ﴿وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾: صدائق، والخِدْنُ: يقعُ على الذكرِ والأنثى، ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾: بشرائعِ الإسلامِ وما أحلَّ الله وحرَّمَ ﴿فَقَدْ حَبِطَ﴾: بطلَ ﴿عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٥﴾.

«٦» ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ أي: إذا أردتم القيام إلى الصلاة، كقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النحل: ٩٨] أي: إذا أردتَ أن تقرأَ القرآنَ، فعبَّرَ عن إرادة الفعلِ بالفعلِ؛ لأن الفعلَ مسببٌ عن الإرادةِ، فأقيمَ المسببُ مُقامَ السببِ؛ لملابسةٍ بينهما؛ طلباً للإيجازِ، ونحوُه: «كما تَدينُ تُدانُ»[1]، عبَّر عن الفعلِ المبتدأِ الذي هو سببُ الجزاءِ بلفظِ الجزاءِ

(١) رواه البيهقي في «الأسماء والصفات» (١/١٩٧) عن أبي قلابة مرفوعاً.

....

الذي هو مُسببٌ عنه، وتقديرُه: وأنتم مُحدِثون، عن ابن عباس رضي الله عنهما، أو: من النوم[١]؛ لأنه دليلُ الحدثِ، وكان رسول الله ﷺ والخلفاءُ يتوضؤُون لكلِّ صلاةٍ[٢]، وقيلَ: كان الوضوءُ لكلِّ صلاةٍ واجباً أولَ ما فُرِضَ ثم نُسِخَ[٣]، ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ (إلى): تفيد معنى الغاية مطلقاً، فأمّا دخولُها في الحكم وخروجُها.. فأمرٌ يدورُ مع الدليلِ، فمِمّا فيه دليلٌ على الخروج: ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠]؛ لأن الإعسار علةُ الإنظار، وبوجودِ الميسرة تزولُ العلةُ، ولو دخلت الميسرةُ فيه.. لكان مُنظراً في الحالتين: معسِراً وموسِراً، وكذلك: ﴿أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ [البقرة: ١٨٧] لو دخل الليلُ.. لوجب الوصالُ، ومما فيه دليلٌ على الدخول قولُك: حفظت القرآن من أوله إلى آخره؛ لأن الكلام مسوقٌ لحفظ القرآن كلِّه، ومنه قولُه تعالى: ﴿مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١]؛ لوقوع العلمِ بأنه لا يُسرَى به إلى بيت المقدسِ من غيرِ أن يدخلَه.

وقولُه: (إلى المرافق): لا دليلَ فيه على أحدِ الأمرين، فأخذ الجمهورُ بالاحتياط، فحكمُوا بدخولِها في الغَسل، وأخذ زفرُ وداود بالمتيقَّن فلم يُدخِلاها[٤]، وعن النبيِّ ﷺ: أنه كان يُدير الماءَ على مِرفَقيه[٥]، ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ المرادُ: إلصاقُ المسحِ بالرأس، وماسحُ بعضِه ومستوعبُه بالمسح كِلاهما مُلصقٌ للمسح برأسِه، فأخذ مالكٌ بالاحتياطِ، فأوجبَ الاستيعابَ، والشافعيُّ باليقين فأوجبَ أقلَّ ما يقعُ عليه اسمُ المسحِ، وأخذنا ببيانِ النبيِّ عليه السلام، وهو ما روي: أنه مسحَ على ناصيتِه[٦]، وقدرت الناصيةُ بِرُبُعِ الرأسِ[٧]، ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾:

---

(١) أي: إذا قمتم من النوم.

(٢) روى البخاري (٢١٤) عن عمرو بن عامر عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: كان النبي ﷺ يتوضأ عند كل صلاة، قلت: كيف كنتم تصنعون؟ قال: يجزئ أحدَنا الوضوءُ ما لم يحدث. وروى القاسم بن سلام في «الطهور» (ص١٣٧) عن ابن سيرين قال: كانت الخلفاء يتوضؤون لكل صلاة.

(٣) روى ابن خزيمة في «صحيحه» (١/ ١١) عن عبد الله بن حنظلة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان أُمِرَ بالوضوء عند كل صلاة، طاهراً كان أو غيرَ طاهر، فلما شق ذلك على رسول الله ﷺ.. أُمِرَ بالسواك عند كلِّ صلاة، ووُضِعَ عنه الوضوءُ إلا مِن حَدَثٍ.

(٤) انظر قول زفر في «بدائع الصنائع» (١/ ٤).

(٥) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (١/ ٥٦) عن سيدنا جابر رضي الله عنه.

(٦) رواه مسلم (٢٧٤) عن سيدنا المغيرة رضي الله عنه.

(٧) انظر «مواهب الجليل» (١/ ٢٠٢)، و«نهاية المحتاج» (١/ ١٧٤)، و«حاشية ابن عابدين» (١/ ٩٩).

بالنصبِ: شاميٌّ ونافعٌ وعليٌّ وحفصٌ؛ والمعنى: فاغسلوا وجوهَكم وأيديَكم إلى المرافق، وأرجلَكم إلى الكعبين، وامسحوا برؤوسِكم، على التقديم والتأخيرِ، غيرُهم: بالجرِّ[١]، بالعطف على الرؤوسِ؛ لأن الأرجل من بين الأعضاءِ الثلاثةِ المغسولةِ تُغسلُ بصبِّ الماءِ عليها، فكانت مظنةً للإسراف المنهيِّ عنه، فعطفت على الممسوحِ لا لِتُمْسَحَ، ولكن لِيُنَبَّهَ على وجوبِ الاقتصادِ في صبِّ الماءِ عليها، وقيل: (إلى الكعبين) فجيءَ بالغايةِ؛ إماطةً لِظَنِّ ظانٍّ يَحْسَبُها ممسوحةً؛ لأن المسحَ لم تُضربْ له غايةٌ في الشريعة، وقال «جامع العلوم»: إنها مجرورةٌ للجوارِ[٢]، وقد صحَّ أنه ﷺ رأى قوماً يمسحون على أرجلِهم فقال: «ويل للأعقاب من النار»[٣]، وعن عطاءٍ: والله ما علمت أن أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ مسحَ على القدمين[٤].

وإنما أُمِرَ بغسل هذه الأعضاء؛ ليطهرها من الأوساخ التي تتصل بها؛ لأنها تبدو كثيراً، والصلاةُ خدمةُ الله تعالى، والقيامُ بين يديه متطهراً من الأوساخ أقربُ إلى التعظيم، فكان أكملَ في الخدمةِ كما في الشاهد إذا أرادَ أن يقومَ بينَ يديِ الملكِ، ولهذا قيل: إن الأَولى أن يصليَ الرجلُ في أحسنِ ثيابه، وإن الصلاة متعمِّماً أفضلُ من الصلاة مكشوفَ الرأسِ؛ لما أن ذلك أبلغُ في التعظيم، ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾: فاغسلوا أبدانَكم، ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم﴾ قال الرازي: معناه: وجاءَ، حتى لا يلزمُ المريضَ والمسافرَ التيممُ بلا حدثٍ[٥]، ﴿مِّنَ الْغَائِطِ﴾: المكانِ المطمئنِّ، وهو كنايةٌ عن قضاء الحاجةِ، ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾: جامعتم، ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ في بابِ الطهارةِ، حتى لا يُرَخِّصَ لكم في التيمم، ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ بالترابِ إذا أَعْوَزَكم التطهُّر بالماءِ[٦]، ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾: وليتمَّ بِرُخَصِه إنعامَه عليكم بعزائمِه؛ ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ⁦(٦)⁩﴾ نعمتَه فيثيبَكم.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٨٩).

(٢) أي: جُرَّ (وأرجلِكم)؛ لوقوعه في جوار المجرور، كقولهم: هذا جُحْرُ ضَبٍّ خربٍ، فَجُرَّ: خربٍ، وكان من حقه الرفع؛ لأنه صفة للجحر، وإنما جَرَّهُ على الجوارِ. انظر «الدر المصون» (٤/ ٢١٠).

(٣) رواه البخاري (٦٠)، ومسلم (٢٤١) عن سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

(٤) روى نحوه الطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١/ ٤١).

(٥) «أحكام القرآن» للرازي الجصاص (٢/ ١٣٦).

(٦) أَعْوَزَ الشيءُ: عَزَّ فلم يوجدْ.

وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ ....

«٧» ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بالإسلامِ، ﴿وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي: عاقدكم به عقداً وثيقاً، وهو الميثاق الذي أخذه على المسلمين حين بايعَهم رسولُ الله ﷺ على السمعِ والطاعةِ في حال اليُسرِ والعُسْرِ، والمَنْشَطِ والمَكْرَهِ[1]، فقبلُوا وقالُوا: سمعنا وأطعنا، وقيل: هو الميثاق ليلةَ العقبةِ، وفي بيعةِ الرِّضوانِ، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في نقضِ الميثاقِ؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾: بسرائرِ الصدورِ من الخيرِ والشرِّ، وهو وعدٌ ووعيدٌ.

«٨» ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾: بالعدلِ، ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾: عُدِّيَ (يجرمنَّكم) بحرف الاستعلاءِ مُضمَّناً معنى فعلٍ يتعدَّى به، كأنه قيل: ولا يحملنَّكم بُغْضُ قوم على تركِ العدلِ فيهم، ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي: العدلُ أقربُ إلى التقوى؛ نهاهم أوَّلاً أن تحملَهم البغضاءُ على تركِ العدلِ، ثم استأنفَ فصرَّحَ لهم الأمرَ بالعدلِ[2]؛ تأكيداً وتشديداً، ثم استأنفَ فذكرَ لهم وجهَ الأمرِ بالعدل، وهو قولُه: ﴿هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾، وإذا كان وجوبُ العدل مع الكفار بهذه الصفةِ من القوةِ.. فما الظنُّ بوجوبه مع المؤمنين الذين هم أولياؤُه، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيما أمرَ ونهى؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾: وعدٌ ووعيدٌ؛ ولِذا ذَكَرَ بعدَها آيةَ الوعدِ، وهو قولُه:

«٩» ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ (وَعَدَ): يتعدَّى إلى مفعولين، فالأولُ: (الذين آمنوا)، والثاني: محذوفٌ، استغنيَ عنه بالجملة التي هي قولُه: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾﴾.

«١٠» والوعيدِ، وهو قولُه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾﴾ أي: لا يفارقونَها.

---

(١) روى حديثَ هذه البيعةِ البخاريُّ (٧٠٥٥) ومسلمٌ (١٧٠٩) عن سيدنا عبادة بن الصامت رضي الله عنه.
(٢) الأولى: فصرح لهم بالأمر.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾

«١١» ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ﴾ روي: أن رسول الله ﷺ أتى بني قُرَيظةَ ومعه الشيخان أبو بكرٍ وعمرُ، والختنان[1]، يستقرضهم دية مسلمَين قتلهما عمرو بن أمية الضمري خطأ يحسَبهما مشركين، فقالوا: نعم يا أبا القاسم، اجلس حتى نطعمك ونقرضك، فأجلسوه في صُفَّةٍ وهمُّوا بالفتك به، وعمد عمرو بنُ جِحَاشٍ إلى رَحىً عظيمةٍ يطرحُها عليه، فأمسك الله يده، ونزل جبريل فأخبره بذلك، فخرج النبيُّ ﷺ ونزلت الآية[2]، (إذ): ظرفٌ للنعمة، ﴿أَن يَبْسُطُوٓا۟﴾: بأن يبسطوا ﴿إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ بالقتلِ؛ يقال: بسطَ إليه لسانَه: إذا شتَمه، وبسطَ إليه يدَه: إذا بطشَ به، ﴿وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ [الممتحنة: ٢]؛ ومعنى بَسْطِ اليدِ: مَدُّها إلى المبطوشِ به، ﴿فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾: فمنعَها أن تُمَدَّ إليكم، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ فإنه الكافي والدافعُ والمانعُ.

«١٢» ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ هو: الذي يُنقبُ عن أحوالِ القوم ويفتشُ عنها، ولما استقرَّ بنو إسرائيلَ بمصرَ بعدَ هلاكِ فرعونَ.. أمرهم اللهُ بالمسيرِ إلى أَرِيحاءَ أرضِ الشامِ، وكان يسكنُها الكنعانيون الجبابرةُ، وقال لهم: إني كتبتُها لكم داراً وقراراً فاخرجُوا إليها وجاهدُوا مَن فيها، وإني ناصركم، وأمر الله موسى عليه السلام بأن يأخذَ مِن كل سِبْطٍ نقيباً يكونُ كفيلاً على قومه بالوفاء بما أُمروا به، فاختار النقباءَ، وأخذَ الميثاقَ على بني إسرائيلَ، وتكفَّلَ لهم به النقباءُ، وسارَ بهم، فلما دنا من أرضِ كنعانَ.. بعث النقباءَ يتجسسون، فرَأَوا أجراماً عظيمةً، وقوةً وشوكةً، فهابُوا ورجعُوا، وحدَّثُوا قومَهم وقد نهاهم أن يُحدِّثوهم، فنكثُوا الميثاقَ إلا كالَبَ بنَ يُوْفَنّا، ويوشَعَ بنَ نونٍ، وكانا من النقباء[3]، ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ﴾ أي: ناصرُكم ومعينُكم، وتقفُ هنا؛ لابتدائِك بالشرطِ الداخلِ عليه

---

(١) هما سيدنا عثمان وعلي رضي الله عنهما، والختن: كلُّ من كان من قِبَلِ المرأة، كأبيها وأخيها، وكذا زوجُ البنت، أو زوجُ الأخت.

(٢) روى نحوه أبو نعيم في «دلائل النبوة» (ص٤٨٩)، وفيه: أنه مضى إلى بني النضير.

(٣) روى نحوه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ١١١) عن السدي.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ ....

اللامُ الموطِّئةُ للقسم؛ وهو: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وكانتا فريضتين عليهم، ﴿وَءَامَنتُم بِرُسُلِى﴾ من غيرِ تفريقٍ بين أحدٍ منهم، ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾: عظمتوهم، أو: نصرتموهم؛ بأن تردُّوا عنهم أعداءَهم، والعزْرُ في اللغة: الردُّ؛ ويقال: عزَّرتُ فلاناً؛ أي: أدَّبْتُه؛ يعني: فعلتُ به ما يردعُه عن القبيح، كذا قاله الزجاجُ[١]، ﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾: بلا منٍّ، قيل: هو كلُّ خيرٍ، واللامُ في ﴿لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾: جوابٌ للقسم، وهذا الجوابُ سادٌّ مسدَّ جوابِ القسم والشرطِ جميعاً، ﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ﴾ أي: بعدَ ذلك الشرطِ المؤكَّدِ المتعلِّقِ[٢] بالوعدِ العظيمِ ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾: أخطأ طريقَ الحقِّ، نعمْ، مَن كفر قبلَ ذلك.. فقد ضلَّ سواءَ السبيلِ أيضاً، ولكنَّ الضلالَ بعدَه أظهرُ وأعظمُ.

《١٣》 ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ ما: زائدة أفادت تفخيمَ الأمرِ، ﴿لَعَنَّٰهُمْ﴾: طردناهم، وأخرجناهم من رحمتنا، أو: مَسخناهم، أو: ضربنا عليهم الجزيةَ، ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾: يابسةً لا رحمةَ فيها ولا لينَ، ﴿قَسِيَّةً﴾: حمزةُ وعليٌّ[٣]؛ أي: رَدِيئةً؛ مِن قولهم: دِرهمٌ قَسِيٌّ؛ أي: رديءٌ، ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾: يفسِّرونه على غيرِ ما أنزلَ، وهو بيانٌ لقسوةِ قلوبِهم؛ لأنه لا قسوةَ أشدُّ من الافتراء على الله، وتغييرِ وحيه، ﴿وَنَسُوا۟ حَظًّا﴾: وتركوا نصيباً جزيلاً، وقِسطاً وافياً ﴿مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾: من التوراةِ؛ يعني: إنَّ تركَهم وإعراضَهم عن التوراةِ إغفالُ حظٍّ عظيم، أو: قستْ قلوبُهم وفسدت، فحرفُوا التوراةَ، وزلَّت أشياءُ منها عن حفظهم، عن ابن مسعود رضي الله عنه: قد ينسى المرءُ بعضَ العلمِ بالمعصية، وتلا هذه الآيةَ[٤]، أو: تركوا نصيبَ أنفسِهم مما أُمِروا به من الإيمان بمحمد ﷺ وبيانِ نعتِه، ﴿وَلَا تَزَالُ﴾: يا محمدُ ﴿تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: هذه عادتُهم، وكان عليها أسلافُهم، كانوا يخونون الرسلَ، وهؤلاءِ يخونونك، ويهمُّون بالفتك بكَ، وقولُه: (على خائنةٍ)؛ أي: على خيانةٍ،

---

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٢/ ١٥٩).
(٢) في الأصول: (المعلَّق)، وما أثبته من المطبوع (١/ ٤٧٦)، وهو أولى.
(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص٩٠).
(٤) روى نحوه أبو داود في «الزهد» (ص١٦٨).

وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٦﴾ ....

أو: على فَعْلَةٍ ذاتِ خيانةٍ، أو: على نفسٍ أو فرقةٍ خائنةٍ، ويقال: رجلٌ خائنةٌ، كقولِهم: رجلٌ راويةٌ للشعرِ؛ للمبالغة، ﴿إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ﴾ وهم: الذين آمنوا منهم، ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ﴾: بعثٌ على مخالفتِهم، أو: فاعفُ عن مؤمنيهم، ولا تؤاخذْهم بما سلفَ منهم، ﴿وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾.

«١٤» و(مِن) في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ﴾ وهو: الإيمانُ بالله والرسلِ، وأفعالُ الخيرِ.. يتعلقُ بـ (أخذنا)؛ أي: وأخذنا من الذين قالوا: إنا نصارى ميثاقَهم، فقُدِّمَ على الفعلِ الجارُّ والمجرورُ، وفُصِلَ بين الفعلِ والواوِ بالجارِّ والمجرورِ، وإنما لم يَقُلْ: من النصارى؛ لأنهم إنما سَمَّوا أنفسهم بذلك ادعاءً لنصرِ اللهِ، وهم الذين قالوا لعيسى: نحنُ أنصارُ اللهِ، ثم اختلفوا بعدُ نِسطوريةً ويَعقوبيةً ومَلكانيةً أنصاراً للشيطان، ﴿فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا﴾: فألصقْنا وألزمْنا؛ مِن: غَرِيَ بالشيءِ: إذا لَزِمَه ولَصِقَ به، ومنه: الغِراءُ الذي يُلصقُ به، ﴿بَيۡنَهُمُ﴾: بين فرقِ النصارى المختلفين ﴿ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ بالأهواءِ المختلفةِ، ﴿وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾ أي: في القيامةِ بالجزاءِ والعقابِ.

«١٥» ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: خطابٌ لليهود والنصارى، والكتابُ: للجنس، ﴿قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا﴾: محمدٌ عليه السلام، ﴿يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: من نحوِ صفةِ رسولِ اللهِ ﷺ، ومن نحوِ الرجمِ، ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ﴾ مما تخفونَه لا يُبيِّنُه، أو: يعفو عن كثيرٍ منكم لا يؤاخذُه، ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾﴾ يريدُ: القرآنَ؛ لكشفه ظلماتِ الشركِ والشكِّ؛ ولإبانتِه ما كان خافياً على الناس من الحقِّ، أو لأنه ظاهرُ الإعجازِ، أو: النورُ: محمدٌ عليه السلام؛ لأنه يُهتدَى به، كما سُمِّيَ سراجاً.

«١٦» ﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ﴾ أي: بالقرآن ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ﴾: من آمن منهم ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾: طرقَ السلامةِ والنجاةِ من عذاب الله، أو: سبلَ اللهِ، فالسلامُ: السلامةُ أو: اللهُ،

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ ....

﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾: من ظلماتِ الكفرِ إلى نورِ الإسلامِ ﴿بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾.

《١٧》 ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ معناه: بَتُّ القولِ على أن اللهَ هو المسيحُ لا غيرُ[١]، قيل: كان في النصارى قومٌ يقولون ذلك، أو: لأن مذهبَهم يؤدي إليه؛ حيث اعتقدُوا أنه يخلقُ ويحيي ويميت، ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾: فمن يمنعُ من قدرتِه ومشيئتِه شيئاً؟ ﴿إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي: إن أراد أن يهلك من دَعَوه إلهاً من المسيحِ وأمِّه؛ يعني: أن المسيحَ عبدٌ مخلوقٌ كسائر العباد، وعطفَ (من في الأرض) على المسيحِ وأمِّه؛ إبانةً أنهما من جنسِهم، لا تفاوتَ بينهما وبينهم، والمعنى: أنَّ من اشتملَ عليه رحمُ الأمومية.. متى يُفارقُه نقصُ البشرية؟ ومَن لاحتْ عليه شواهدُ الحَدَثِيَّةِ.. أنَّى يليقُ به نعتُ الربوبيةِ، ولو قطعَ البقاءَ عن جميع ما أوجدَ.. لم يَعُدْ نقصٌ إلى الصمدية، ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: يخلق مِن ذكرٍ وأنثى، ويخلقُ مِن أنثى بلا ذكرٍ، كما خلقَ عيسى[٢]، ويخلقُ من غيرِ ذكرٍ وأنثى، كما خلقَ آدمَ، أو: يخلق كما يشاء، كخلقِ الطيرِ على يدِ عيسى معجزةً له، فلا اعتراضَ عليه؛ لأنه الفعّال لما يريد، ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾.

《١٨》 ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ أي: أعزةٌ عليه كالابنِ على الأبِ، أو: أشياعُ ابنَي اللهِ: عزيرٍ والمسيحِ، كما قيل لأشياعِ أبي خُبَيْبٍ، وهو عبدُ الله بنُ الزبيرِ: الخُبَيبيُّون، كما كان يقول رهطُ مسيلمةَ: نحن أبناءُ اللهِ، ويقول أقرباءُ الملكِ وحَشَمُهُ[٣]: نحن الملوكُ[٤]، أو: نحنُ أبناءُ رسلِ اللهِ، ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ أي: فإن صحَّ أنكم أبناءُ اللهِ

---

(١) بَتُّوا القولَ: قطعُوا به.

(٢) في المطبوع (١/٤٧٨) زيادة: (ويخلقُ مِن ذكرٍ من غير أنثى، كما خلَقَ حواءَ من آدمَ).

(٣) الحَشَمُ: الخدمُ.

(٤) في المطبوع (١/٤٧٨): (نحن أبناء الملوك).

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٩ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٠﴾ . . . .

وأحباؤه. . فلمَ تُعذَّبون بذنوبكم بالمسخِ والنارِ أياماً معدودةً على زعمكم؟ وهل يَمسخُ الأب ولدَه؟ وهل يُعذِّبُ الوالدُ ولدَه بالنار؟ ثم قال ردّاً عليهم: ﴿بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ﴾ أي: أنتم خلقٌ من خلقِه، فلا بُنُوَّةَ، ﴿يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾: لمن تابَ عن الكفر فضلاً، ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ﴾: من مات عليه عدلاً، ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٨﴾ فيه تنبيهٌ على عبوديةِ المسيحِ؛ لأن الملكَ والنبوةَ متنافيان.

«١٩» ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا﴾ محمدٌ عليه السلام ﴿يُبَيِّنُ لَكُمۡ﴾ أي: الشرائعَ، وحذفَ لظهوره، أو: ما كنتم تخفون، وحذفَ لتقدمِ ذكرِه، أو: لا يُقدَّرُ المبيَّنُ، ويكونُ المعنى: يبذلُ لكم البيانَ، وهو: حالٌ؛ أي: مبيِّناً لكم، ﴿عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾: متعلقٌ بـ (جاءكم) أي: جاءكم على حينِ فتورٍ من إرسالِ الرسلِ، وانقطاعٍ من الوحْيِ، وكان بين عيسى ومحمدٍ عليهما السلام ستُّ مئةِ سنةٍ، أو خمسُ مئةِ سنةٍ وستون سنةً، ﴿أَن تَقُولُواْ﴾: كراهةَ أن تقولوا: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ﴾، والفاءُ في ﴿فَقَدۡ جَآءَكُم﴾: متعلقٌ بمحذوفٍ؛ أي: لا تعتذرُوا فقد جاءكم ﴿بَشِيرٞ﴾ للمؤمنين، ﴿وَنَذِيرٞۗ﴾ للكافرين؛ والمعنى: الامْتِنانُ عليهم بأن الرسولَ بُعثَ إليهم حين انطمست آثارُ الوحْيِ أحْوَجُ ما يكونون إليه[1]؛ لِيَهُشُّوا إليه[2]، ويَعُدُّوه أعظمَ نعمةٍ من الله، وتلزمَهم الحجةُ فلا يعتلُّوا غداً بأنه لم يرسل إليهم من يُنبِّهُهُم من غفلاتِهم.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٩﴾ فكان قادراً على إرسالِ محمد ﷺ ضرورةً.

«٢٠» ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ﴾؛ لأنه لم يَبعث في أمة ما بَعث في بني إسرائيلَ من الأنبياء، ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا﴾؛ لأنه مَلَّكَهم بعد فرعون ملكَه، وبعد الجبابرة ملكَهم؛ ولأن الملوك تكاثرُوا فيهم تكاثرَ الأنبياء، وقيل: المَلِكُ: من له مسكنٌ واسعٌ فيه ماءٌ جارٍ، وكانت منازلهم واسعةً، فيها مياهٌ جاريةٌ، وقيل: مَن له بيتٌ وخدمٌ، ولأنهم كانوا مملوكين في أيدي القِبْطِ، فأنقذهم الله، فسمَّى إنقاذَهم مُلْكاً، ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٠﴾: من فَلْقِ البحر، وإغراقِ العدوِّ، وإنزالِ المنِّ والسلوى، وتظليلِ الغمامِ، ونحوِ ذلك من الأمور العظام، أو: أرادَ: عالَمِي زمانِهم.

---

(١) أي: وهم أحوجُ. . .

(٢) لِيَهُشُّوا إليه: ليفرحوا به.

يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾

«٢١» ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ﴾ أي: المطهرةَ، أو: المباركةَ، وهي: أرضُ بيتِ المقدسِ، أو: الشامِ، ﴿ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾: قسمَها لكم، أو: سمّاها، أو: كتبَ في اللوح المحفوظ أنها مساكنُ لكم، ﴿وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ﴾: ولا ترجعُوا على أعقابِكم مُدبرين مُنهزمين من خوفِ الجبابرةِ؛ جُبناً، أو: لا ترتدُّوا على أدباركم في دينكم ﴿فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾: فترجعُوا خاسرين ثوابَ الدنيا والآخرةِ.

«٢٢» ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ﴾ الجبارُ: (فَعّالٌ) مِن جَبَرَهُ على الأمرِ؛ بمعنى: أجبرَه عليه، وهو: العاتِي الذي يُجبرُ الناس على ما يُريد، ﴿وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا﴾ بالقتال ﴿حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا﴾ بغيرِ قتالٍ، ﴿فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا﴾ بلا قتالٍ ﴿فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ بلادَهم حينئذٍ.

«٢٣» ﴿قَالَ رَجُلَانِ﴾: كالبُ ويُوشَعُ ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ الله ويخشونَه، كأنه قيل: رجلان من المتقين، وهو في محلِّ الرفع، صفةٌ لـ(رجلانِ)، وكذا ﴿أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا﴾[١] بالخوفِ منه: ﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ﴾ أي: بابَ المدينةِ، ﴿فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ﴾ أي: انهزمُوا وكانت الغَلَبَةُ لكم، وإنما عَلِمَا ذلك بإخبار موسى عليه السلام، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ إذِ الإيمانُ به يقتضِي التوكلَ عليه، وهو قطعُ العلائقِ، وتركُ التملُّقِ للخلائق.

«٢٤» ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ﴾: هذا نفيٌ لدخولِهم في المستقبل على وجهِ التوكيدِ ﴿أَبَدٗا﴾: تعليقٌ للنفيِ المؤكَّدِ بالدهر المتطاولِ، ﴿مَّا دَامُواْ فِيهَا﴾: بيانٌ للأبدِ، ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ﴾: من العلماءِ مَن حمله على الظاهر وقال: إنه كفر منهم، وليس كذلك؛ إذْ لو قالوا ذلك اعتقاداً وكفروا به.. لَحارَبَهم موسى، ولم تكن مقاتلةُ الجبارين أولى من مقاتلةِ هؤلاءِ، لكنَّ الوجهَ فيه أن يقال: فاذهب أنت، وربُّك يعينك على قتالك، أو: وربُّك؛ أي: وسيدُك، وهو أخوك الأكبرُ هارونُ، أو: لم يُرِدْ به حقيقةُ الذهاب، ولكن كما نقول: كلمتُه فذهب يُجيبُني،

---

(١) وقدم الوصف بالجار والمجرور على الوصف بالجملة لقربه من المفرد، وهذه الجملة يحتمل كونها دعائية اعتراضية. انظر «مغني اللبيب» (ص٥٦٢).

قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْۛ أَرْبَعِينَ سَنَةًۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ....

تريدُ معنى الإرادةِ، كأنهم قالُوا: أَرِيْدا قتالَهم، ﴿فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾: ماكثون لا نقاتلُهم لنصرة.

《٢٥》 فلما عصَوه وخالفُوه ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ﴾ لنصرةِ دينِك ﴿إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ﴾ وهو: منصوبٌ بالعطف على (نفسِي)، أو: على اسمِ إنَّ؛ أي: لا أملك إلا نفسي، وإن أخي لا يملك إلا نفسه، أو: مرفوع بالعطف على محلِّ إنَّ واسمِها، أو: على الضمير في (لا أملك)، وجازَ للفصل؛ أي: ولا يملك أخي إلا نفسَه، أو: هو مبتدأٌ، والخبرُ محذوفٌ؛ أي: وأخي كذلك، وهذا من البثِّ والشكوى إلى الله ورِقَّةِ القلبِ التي بمثلِها تُستجلبُ الرحمةُ، وتُستنزل النصرةُ، وكأنه لم يثقْ بالرجلين المذكورين كلَّ الوُثوقِ، فلم يذكرْ إلا النبيَّ المعصومَ، أو: أرادَ ومَن يؤاخيني على ديني، ﴿فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾: فافْصِلْ بيننا وبينهم؛ بأن تحكمَ لنا بما وعدتَنا، وتحكمَ عليهم بما هم أهلُه، وهو في معنى الدعاء عليهم، أو: فباعدْ بيننا وبينهم، وخلِّصنا من صحبتِهم، كقوله: ﴿وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: ١١].

《٢٦》 ﴿قَالَ فَإِنَّهَا﴾ أي: الأرضَ المقدسةَ ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْۛ﴾: لا يدخلونها، وهو تحريمُ منع، لا تحريمُ تَعبُّدٍ، كقوله: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾ [القصص: ١٢]، والمرادُ بقوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: بشرطِ أن تجاهدُوا أهلَها، فلما أَبَوُا الجهادَ. . قيل: فإنها محرمة عليهم، أو: المرادُ: فإنها محرمة عليهم ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةًۛ﴾، فإذا مضى الأربعون. . كان ما كُتِبَ، فقد سارَ موسى عليه السلام بمن بقيَ من بني إسرائيلَ، وكان يُوشَعُ على مقدمتِه ففتحها، وأقام فيها ما شاء اللهُ، ثم قُبِضَ، و(أربعين): ظرفُ التحريم، والوقفُ على (سنةً)، أو: ظرفُ ﴿يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾ أي: يسيرون فيها متحيرين، لا يهتدون طريقاً أربعين سنةً، والوقفُ على (عليهم)، وإنما عوقبُوا بالحبسِ؛ لاختيارهم المكثَ، فكانوا مع شدةِ سيرِهم يصبحون حيث أَمْسَوا، ويُمسون حيث أصبحوا، في ستةِ فراسخَ، ولما ندمَ على الدعاء عليهم. . قيل له: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾: فلا تحزن عليهم؛ لأنهم فاسقون، قيل: لم يكن موسى وهارونُ معهم في التِّيْهِ؛ لأنه كان عقاباً، وقد سأل موسى ربَّه أنه يَفْرُقَ بينهما وبينهم، وقيل: كانا معهم، إلا أنه كان ذلك رَوْحاً لهما وسلاماً، لا عقوبةً، ومات هارونُ في التيهِ، وموسى فيه بعدَه بسنة، ومات النُّقباءُ في التيهِ إلا كالبَ ويُوشَعَ.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ ءَادَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ ....

﴿٢٧﴾ ثم أمرَ الله تعالى محمداً ﷺ أن يقصَّ على حاسدِيه ما جرَى بسببِ الحسدِ ليتركُوه ويؤمنُوا. . بقولِه: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ﴾: على أهل الكتابِ ﴿نَبَأَ ابْنَيْ ءَادَمَ﴾ من صُلْبِهِ: هابيلَ وقابيلَ، أو: هما رجلان من بني إسرائيلَ، ﴿بِالْحَقِّ﴾: نبأً ملتبِساً بالصدقِ، مُوافقاً لما في كتب الأولين، أو: تلاوةً ملتبسةً بالحق والصحةِ، أو: واتلُ عليهم وأنت محقٌّ صادقٌ، ﴿إِذْ قَرَّبَا﴾: نصبٌ بالنبإِ؛ أي: قصتَهما وحديثَهما في ذلك الوقتِ، أو: بدلٌ من النبإِ؛ أي: اتل عليهم النبأَ نبأَ ذلك الوقتِ، على تقديرِ حذفِ المضافِ، ﴿قُرْبَانًا﴾: ما يُتقربُ به إلى الله؛ من نَسِيكةٍ، أو صدقةٍ؛ يقال: قَرَّبَ صدقةً وتقرَّبَ بها؛ لأنَّ: تَقَرَّبَ: مطاوعُ: قَرَّبَ؛ والمعنى: إذْ قربَ كلُّ واحدٍ منهما قُرباناً؛ دليلُه: ﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا﴾ أي: قُربانُه، وهو هابيلُ، ﴿وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾ قُربانُه، وهو قابيلُ.

روي: أنه أوحى الله إلى آدمَ أن يُزوجَ كلَّ واحدٍ منهما توأمةَ الآخرِ، وكانت توأمةُ قابيلَ أجملَ، واسمها إقْلِيما، فحسد عليها أخاه، فقال لهما آدمُ: قَرِّبا قُرباناً، فَمِنْ أيِّكُما قُبِلَ. . يتزوجُها، فَقُبِلَ قُربانُ هابيلَ؛ بأن نزلت نارٌ فأكلتْه، فازدادَ قابيلُ حسداً وسُخْطاً، وتوعدَه بالقتلِ، وهو قولُه: ﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ﴾ أي: هابيل ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾، وتقديرُه: قال: لِمَ تقتلُني؟ قال: لأن الله قَبِلَ قُربانَك ولم يقبلْ قُرباني، فقال: إنما يتقبل الله من المتقين، وأنتَ غيرُ مُتَّقٍ؛ فإنما أُتيتَ من قِبَلِ نفسِك؛ لانسلاخِها من لباسِ التقوى، لا من قِبَلِي، وعن عامر بنِ عبدِ الله أنه بكى حين حضرته الوفاةُ فقيل له: ما يبكيك وقد كنتَ وكنتَ؟ قال: إني أسمع الله يقول: (إنما يتقبل الله من المتقين)[1].

﴿٢٨﴾ ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ﴾: مددت ﴿إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ﴾: بماذٍّ ﴿يَدِيَ﴾: مدنيٌّ، وأبو عمرٍو، وحفصٌ[2]، ﴿إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ قيل: كان أقوى من القاتلِ وأَبْطَشَ منه، ولكنْ تَحَرَّجَ عن قتلِ أخيه واستسلمَ له؛ خوفاً من الله تعالى؛ لأن الدفعَ لم يكن مباحاً في ذلك الوقتِ، وقيل: بل كان ذلك واجباً؛ فإن فيه إهلاكَ نفسِه ومشاركةً للقاتلِ

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٢١٢).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٩١).

إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾

في إثمِه، وإنما معناه: ما أنا بباسط يدي إليك مبتدأً كقصدك ذلك مني، وكان عازماً على مدافعته إذا قصد قتله، وإنما قتله فَتْكاً على غفلةٍ منه، ﴿إنيَ أخافُ﴾: حجازيٌّ وأبو عمرٍو[1].

《٢٩》 ﴿إنيَ أريدُ﴾: مدنيٌّ[2]، ﴿أَن تَبُوٓأَ﴾: أن تَحْتَمِلَ، أو: تَرْجِعَ ﴿بِإِثْمِي﴾: بإثم قتلِي إذا قتلتَني، ﴿وَإِثْمِكَ﴾ الذي لأجلِه لم يُتقبلْ قُربانُك، وهو: عقوقُ الأبِ، والحسدُ والحقدُ، وإنما أراد ذلك لكفرِه بردِّه قضيةَ اللهِ تعالى، أو كان ظالماً، وجزاءُ الظالمِ جائزٌ أن يُرادَ، ﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

《٣٠》 ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ﴾: فَوَسَّعَتْهُ ويَسَّرَتْهُ؛ مِن: طاعَ له المرتعُ: إذا اتَّسعَ، ﴿فَقَتَلَهُۥ﴾ عند عقبةِ حِراءَ، أو: بالبصرةِ، والمقتولُ ابنُ عشرين سنةً، ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

《٣١》 ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ﴾ أي: اللهُ، أو: الغُرابُ ﴿كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾: عورةَ أخيه، وما لا يجوز أن ينكشفَ مِنْ جسده.

روي: أنه أولُ قتيلٍ قُتلَ على وجهِ الأرض من بني آدمَ، ولما قتله.. تركه بالعَراءِ لا يدري ما يصنع به، فخاف عليه السباعَ فحملَه في جِرابٍ على ظهره سنةً حتى أَرْوَحَ وعكفت عليه السباعُ، فبعثَ اللهُ غُرابَين فاقتتلا، فقتلَ أحدُهما الآخرَ، فحفر له بمنقارِه ورجليه، ثم ألقاه في الحفرةِ، فحينئذٍ ﴿قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ﴾: عطفٌ على (أكونَ)، ﴿سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾: على قتلِه لِما تَعِبَ فيه مِن حملِه، وتَحيُّرِه في أمره، ولم يندم ندمَ التائبين، أو: كان الندمُ توبةً لنا خاصَّةً، أو: على حملِه لا على قتلِه، ورويَ: أنه لما قتله.. اسْوَدَّ جسدُه، فسأله آدمُ عن أخيه فقال: ما كنت عليه وكيلاً، فقال: بل قتلتَه؛ ولذا اسودَّ جسدُك، فالسودانُ من ولدِه، وما رويَ: أن آدمَ رثاه بشعرٍ.. فلا يصحُّ؛ لأن الأنبياء عليهم السلام معصومون من الشعر.

---

(١) انظر المرجع السابق (ص١٠٠).

(٢) انظر المرجع السابق (ص٩١).

مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ ....

《٣٢》 ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ﴾: بسببِ ذلك وبِعِلَّتِه، وذلك إشارةٌ إلى القتلِ المذكورِ، قيل: هو متصلٌ بالآية الأولى، فيوقفُ على ذلك؛ أي: فأصبح من النادمين؛ لأجل حمله؛ أو: لأجل قتله، وقيل: هو مستأنفٌ، والوقفُ على ﴿ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾، و(مِن): يتعلق بـ(كتبنا)، لا بـ﴿ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾، ﴿كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: خصَّهم بالذكر وإن اشترك الكل في ذلك؛ لأن التوراةَ أولُ كتابٍ فيه الأحكامُ، ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا﴾ الضميرُ: للشأنِ، و(مَن): شرطيةٌ، ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾: بغيرِ قتلِ نفسٍ، ﴿أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: عطفٌ على (نفسٍ)؛ أي: بغيرِ فسادٍ في الأرض، وهو الشركُ، أو: قطعُ الطريقِ، أو: كلُّ فسادٍ يوجب القتل، ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ أي: في الذنب، عن الحسن؛ لأن قاتل النفس جزاؤه جهنمُ، وغضبُ الله، والعذابُ العظيمُ ولو قتل الناس جميعاً.. لم يزدْ على ذلك، ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾: ومن استنقذها من أسبابِ الهَلَكةِ مِن قتلٍ أو غَرَقٍ أو حَرَقٍ أو هَدْمٍ أو غيرِ ذلك ﴿فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ جعلَ قتلَ الواحدِ كقتلِ الجميعِ، وكذلك الإحياءُ؛ ترغيباً وترهيباً؛ لأن المتعرضَ لقتلِ النفسِ إذا تصوَّر أن قتلَها كقتلِ الناسِ جميعاً.. عظمَ ذلك عليه، فثبَّطه، وكذا الذي أرادَ إحياءَها إذا تصورَ أن حكمَه حكمُ إحياءِ جميعِ الناسِ.. رَغِبَ في إحيائِها، ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ﴾ أي: بني إسرائيلَ ﴿رُسُلُنَا﴾ ﴿رُسْلُنا﴾: أبو عمرٍو[1]، ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: بالآياتِ الواضحاتِ، ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾: بعد ما كتبنا عليهم، أو: بعد مجيءِ الرسلِ بالآياتِ، ﴿فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ في القتل، لا يُبالُون بعظمتِه.

《٣٣》 ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: أولياءَ اللهِ، في الحديث: «يقول الله تعالى: من أهان لي وليّاً.. فقد بارزَني بالمحاربةِ»[2]، ﴿وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾: مفسدين،

---

(١) انظر المرجع السابق (ص٩٢).

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٦٠٩) عن سيدنا أنس رضي الله عنه.
وفي «البخاري» (٦٥٠٢): «من عادى لي وليّاً.. فقد آذنته بالحرب».

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾

ويجوز أن يكون مفعولاً له؛ أي: للفساد، وخبرُ (جزاءُ): ﴿أَن يُقَتَّلُوٓا۟﴾ وما عُطِفَ عليه، وأفاد التشديدُ الواحدَ بعدَ الواحدِ[1]؛ ومعناه: أن يقتلُوا من غير صلبٍ إن أَفْرَدُوا القتلَ، ﴿أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟﴾ مع القتل إن جمعُوا بينَ القتلِ وأخذِ المالِ، ﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾ إن أخذُوا المالَ ﴿مِّنْ خِلَٰفٍ﴾: حالٌ من الأيدي والأرجلِ؛ أي: مختلفةً، ﴿أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ بالحبسِ إذا لم يزيدُوا على الإخافةِ، ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكورُ ﴿لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾: ذلٌّ وفضيحةٌ، ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾.

《٣٤》 ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ فتسقطُ عنهم هذه الحدودُ، لا ما هو حقُّ العبادِ، ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾: يغفرُ لهم بالتوبةِ، ويرحمُهم، فلا يعذبُهم.

《٣٥》 ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فلا تؤذُوا عبادَ اللهِ ﴿وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾: هي: كلُّ ما يُتوسلُ به؛ أي: يتقربُ؛ من قرابةٍ، أو صنيعةٍ أو غيرِ ذلك، فاستعيرت لما يُتوسل به إلى الله تعالى؛ من فعل الطاعاتِ وترك السيئاتِ، ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

《٣٦》 ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من صنوفِ الأموالِ، ﴿وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ وأنفقُوه؛ ﴿لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ﴾: ليجعلُوه فديةً لأنفسِهم، و(لو) مع ما في حَيِّزِهِ: خبرُ (إنَّ)، وَوُحِّدَ الراجعُ في (ليفتدوا به) وقد ذُكِرَ شيئان؛ لأنه أُجْرِيَ الضميرُ مُجرَى اسمِ الإشارةِ، كأنه قيل: ليفتدوا بذلك ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ فلا سبيلَ لهم إلى النجاةِ بوجهٍ.

《٣٧》 ﴿يُرِيدُونَ﴾: يطلُبون، أو: يتمنَّون ﴿أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾: دائمٌ.

---

(١) في «تفسير الآلوسي» (٣/ ٢٨٩): الإتيان بصيغة التفعيل لما فيه من الزيادة على القصاص من أنه لا يسقط بعفو الولي؛ لكونه حق الشرع. وفي «التحرير والتنوير» (٦/ ١٨٣): قُصد من المبالغة هنا إيقاعُه بدون لين ولا رفق تشديداً عليهم، وكذلك الوجهُ في قوله: (يصلبوا).

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ ....﴾

《٣٨》 ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾: ارتفعا بالابتداءِ، والخبرُ محذوفٌ، تقديرُه: وفيما يُتلى عليكم السارقُ والسارقةُ، أو: الخبرُ: ﴿فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ أي: يَدَيْهما، والمرادُ: اليمينان؛ بدليلِ قراءةِ عبدِ الله[1]، ودخولُ الفاءِ لتضمنهما معنى الشرطِ؛ لأن المعنى: والذي سرقَ والتي سرقتْ.. فاقطعوا أيديَهما، والاسمُ الموصولُ يُضَمَّنُ معنى الشرطِ، وبدأ بالرجلِ؛ لأن السرقةَ من الجَراءَةِ، وهي في الرجالِ أكثرُ، وأخَّرَ الزاني[2]؛ لأن الزنا ينبعثُ من الشهوةِ، وهي في النساءِ أوفرُ، وقُطعت اليدُ؛ لأنها آلةُ السرقةِ، ولم تقطع آلةُ الزنا؛ تفادياً عن قطعِ النسلِ؛ ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا﴾: مفعولٌ له؛ ﴿نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: عقوبةً منه، وهو بدلٌ من (جزاءً)، ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾: غالبٌ لا يُعارَضُ في حكمه، ﴿حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾ فيما حكمَ من قطعِ يدِ السارقِ والسارقةِ.

《٣٩》 ﴿فَمَن تَابَ﴾ من السُّرَّاق ﴿مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ﴾: سَرِقَتِهِ، ﴿وَأَصْلَحَ﴾ بردِّ المسروقِ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾: يقبلُ توبتَه؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾: يغفرُ ذنبَه ويرحمُه.

《٤٠》 ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ يا محمدُ، أو: يا مخاطبُ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾: من ماتَ على الكفرِ، ﴿وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾: لمن تاب عن الكفرِ، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من التعذيبِ والمغفرةِ وغيرِهما ﴿قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾: قادرٌ، وقَدَّمَ التعذيبَ على المغفرةِ هنا؛ لتقدمِ السرقةِ على التوبةِ.

《٤١》 ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ أي: لا تهتمَّ ولا تُبالِ

---

(١) وهي: ﴿فاقطعوا أيمانهما﴾. انظر «تفسير الماتريدي» (٢/ ٣٦).
(٢) أي في قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾.

بمسارعةِ المنافقين في الكفرِ؛ أي: في إظهارِه بما يَلُوحُ منهم من آثارِ الكيدِ للإسلامِ، ومن مُوالاةِ المشركين؛ فإني ناصرُك عليهم، وكافيك شرَّهم؛ يقال: أسرعَ فيه الشيبُ؛ أي: وقعَ فيه سريعاً، فكذلك مسارعتُهم في الكفر: وُقُوعُهم فيه أَسْرَعَ شيءٍ، إذا وَجدُوا فُرصةً.. لم يُخطئُوها، ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ﴾: تَبْيِيْنٌ لقوله: (الذين يسارعون في الكفر)، ﴿ءَامَنَّا﴾: مفعولُ (قالوا)، ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾: متعلقٌ بـ(قالوا) أي: قالوا بأفواههم: آمنا، ﴿وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾: في محلِّ النصبِ على الحالِ، ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾: معطوفٌ على (من الذين قالوا) أي: من المنافقين واليهودِ، ويرتفعُ ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾: على أنه خبرُ مبتدأٍ مضمرٍ؛ أي: هم سماعون، والضميرُ: للفريقين، أو: (سماعون): مبتدأٌ، وخبرُه: (من الذين هادُوا)، وعلى هذا يوقفُ على (قلوبهم)، وعلى الأول: على (هادُوا)؛ ومعنى (سماعون للكذب): يسمعون منك؛ ليكذبُوا عليك بأن يَمْسَخُوا ما سمعُوا منك بالزيادةِ والنقصانِ والتبديلِ والتغييرِ[1]، ﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ أي: سمّاعون منك لأجلِ قوم آخرين من اليهودِ وَجَّهُوهم عُيوناً ليبلغوهم ما سمعُوا منك، ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ أي: يُزِيْلُونَه، ويُمِيْلُونه عن مواضعِه التي وضعَه الله فيها، فيهملُونه بغيرِ مواضعَ بعدَ أن كان ذا مواضعَ، (يحرفون): صفةٌ لـ(قوم)، كقوله: (لم يأتوك)، أو: خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ؛ أي: هم يُحرفون، والضميرُ مردودٌ على لفظِ الكلمِ[2]، ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا﴾ المحرفَ المزالَ عن مواضعِه، و(يقولون): مثلُ (يحرفون)، وجازَ أن يكون حالاً من الضمير في (يحرفون)، ﴿فَخُذُوهُ﴾ واعلمُوا أنه الحقُّ واعملُوا به، ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ﴾ وأفتاكم محمدٌ بخلافِه ﴿فَٱحْذَرُواْ﴾: وإيّاكم وإيّاه، فهو الباطل.

روي: أن شريفاً زنى بشريفةٍ بخيبرَ وهما مُحصنان، وَحَدُّهما الرجمُ في التوراة، فكرهُوا رجمَهما لشرفِهما، فبعثُوا رهطاً منهم؛ ليسألوا رسولَ الله ﷺ عن ذلك وقالوا: إنْ أمركم بالجلدِ والتحميمِ.. فاقبلوا[3]، وإن أمَركم بالرجمِ.. فلا تقبلُوا، فأمرهم بالرجم فأبَوا أن يأخذُوا به[4].

﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ﴾: ضلالَه، وهو حجةٌ على من يقول: يريد الله الإيمانَ ولا يريدُ

---

(١) فاللام في (للكذب): للتعليل، ويحتمل أنها زائدة للتقوية؛ والمعنى: قابلون لما يفتريه الأحبارُ من الكذب على الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام وتحريف كتابه.

(٢) أي: جاء الضمير في (مواضعه) مذكراً مراعاة للفظ الكلم.

(٣) التحميمُ: تسويدُ الوجهِ.

(٤) روى نحوه البيهقي في «دلائل النبوة» (٦/ ٢٦٩) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ ....

الكفر، ﴿فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾: قطعَ رجاءَ محمدٍ ﷺ عن إيمانِ هؤلاءِ، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ﴾ عن الكفرِ؛ لعلمِه منهم اختيارَ الكفرِ، وهو حجةٌ لنا عليهم أيضاً، ﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾: للمنافقين فضيحةٌ، ولليهود خِزيةٌ، ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ أي: التخليدُ في النارِ.

《٤٢》 ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ كُرِّرَ للتأكيدِ؛ أي: هم سماعون، ومثلُه: ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ﴾ وهو: كلُّ ما لا يَحِلُّ كسبُه، وهو من سَحَتَهُ: إذا استأصلَه؛ لأنه مسحوتُ البركةِ، وفي الحديث: «هو الرِّشوةُ في الحكم»[(١)]، وكانوا يأخذون الرِّشا على الأحكام وتحليل الحرام، وبالتثقيل: مكيٌّ، وبصريٌّ، وعليٌّ[(٢)]، ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ﴾ قيل: كان رسولُ الله ﷺ مُخيراً إذا تحاكم إليه أهل الكتاب بين أن يحكم بينهم، وبين ألا يحكمَ، وقيل: نُسِخَ التخييرُ بقوله: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، ﴿وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ﴾: فلن يقدروا على الإضرار بك؛ لأن الله يَعصِمُك من الناس، ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ﴾: بالعدل؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾: العادلين.

《٤٣》 ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ﴾: تعجيبٌ من تحكيمِهم لمن لا يؤمنون به وبكتابه، مع أن الحكمَ منصوصٌ في كتابِهم الذي يدَّعون الإيمان به، (فيها حكمُ الله): حالٌ من التوراة، وهي: مبتدأٌ، وخبرُه: (عندهم)، ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ﴾: عطفٌ على (يحكمونك) أي: ثم يعرضون من بعد تحكيمِك عن حُكمِك الموافقِ لما في كتابِهم، لا يرضون به، ﴿وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾ بك، أو بكتابِهم كما يدَّعون.

《٤٤》 ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى﴾ يهدي للحقِّ، ﴿وَنُورٌ ۚ﴾ يُبينُ ما استبهَمَ من الأحكام،

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١١٣٤) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنه.

(٢) التثقيل: (السُّحُت): بضم الحاء. انظر «البدور الزاهرة» (ص٩٣).

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ ....

﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟﴾: انقادُوا لحكم الله في التوراةِ، وهو صفةٌ أُجريت للنبيين على سبيلِ المدحِ، وأريدَ بإجرائِها التعريضُ باليهودِ؛ لأنهم بُعداءُ من ملةِ الإسلامِ التي هي دينُ الأنبياء كلِّهم، ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾: تابُوا من الكفرِ، واللامُ: يتعلقُ بـ (يحكم)، ﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾: معطوفان على (النبيون) أي: الزهادُ والعلماءُ، ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟﴾: استودعوا، قيل: ويجوز أن يكون بدلاً من (بها) في (يحكم بها)، ﴿مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ (من): للتبيين، والضميرُ في (استحفظوا): للأنبياءِ والربانيين والأحبارِ جميعاً، والاستحفاظُ من الله؛ أي: كلَّفهم اللهُ حفظَه، أو: لـ (الربانيون والأحبار) والاستحفاظُ من الأنبياءِ ﴿وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾: رقباءَ لئلا يُبدلَ ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ﴾: نهيٌ للحكامِ عن خشيتِهم غيرَ اللهِ في حُكوماتِهم، وإمضائِها على خلافِ ما أُمِرُوا به من العدل لخشيةِ سلطانٍ ظالمٍ، أو خِيفةِ أذيةِ أحدٍ، ﴿وَٱخْشَوْنِ﴾ في مخالفةِ أمري، وبالياء فيهما: سهلٌ[1]، ووافقه أبو عمرٍو في الوصلِ[2]، ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى﴾: ولا تستبدلُوا بآيات الله وأحكامِه ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: وهو الرِّشوةُ وابتغاءُ الجاهِ ورضا الناسِ، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ مستهيناً به، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: من لم يحكم جاحداً.. فهو كافرٌ، وإن لم يكن جاحداً.. فهو فاسق ظالم[3]، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: هو عامٌّ في اليهود وغيرهم.

《٤٥》 ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ﴾: وفرضنا على اليهود في التوراة ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ﴾ مأخوذةٌ ﴿بِٱلنَّفْسِ﴾ مقتولةٌ بها إذا قتلتْها بغيرِ حقٍّ، ﴿وَٱلْعَيْنَ﴾ مفقوءةٌ ﴿بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ﴾ مجدوعٌ ﴿بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ﴾ مقطوعةٌ ﴿بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ﴾ مقلوعةٌ ﴿بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ أي: ذاتُ قصاصٍ، وهو المُقاصَّةُ؛ ومعناه: ما يمكن فيه القصاصُ، وإلا.. فحُكومةُ عدلٍ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كانوا لا يقتلون الرجل بالمرأة فنزلت[4]، وقوله: ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾: يدلُّ على أن

---

(١) في «الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها» (ص٤٣٦) أن سهلاً يثبت الياء في الوصل دون الوقف.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٩٣).

(٣) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/١١٤٢).

(٤) المرجع السابق (١/٢٩٤).

وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ ....

المسلم يُقتلُ بالذميِّ، والرجلَ بالمرأةِ، والحرَّ بالعبدِ، نَصَبَ نافعٌ، وعاصمٌ، وحمزةُ المعطوفاتِ كلَّها للعطف على ما عملت فيه أنَّ، ورَفَعَها عليٌّ للعطف على محلِّ (أن النفس)؛ لأن المعنى: وكتبنا عليهم النفسُ بالنفس؛ إجراءً لـ(كتبنا) مُجرَى قلنا، ونصبَ الباقون الكلَّ، ورفعوا (الجروح)[1]، و(الأذْن): بسكون الذال حيث كان: نافعٌ، والباقون: بضمها، وهما لغتانِ، كالسُّحْتِ، والسُّحُتِ، ﴿فَمَن تَصَدَّقَ﴾ من أصحابِ الحقِّ ﴿بِهِۦ﴾: بالقصاصِ وعفا عنه ﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾: فالتصدقُ به كفارةٌ للمتصدِّقِ بإحسانِه، قال عليه السلام: «من تصدق بدم فما دونَه.. كان كفارةً له مِن يومَ ولدته أمه»[2]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ بالامتناعِ عن ذلك.

《٤٦》 ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ معنى قَفَّيْتُ الشيءَ بالشيءِ: جعلتُه في أَثَرِه، كأنه جُعِلَ في قفاه، يقال: قَفاه يَقْفُوه: إذا تَبِعَهُ، ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾: على آثارِ النبيين الذين أسلمُوا ﴿بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا﴾: هو حالٌ من عيسى، ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أي: وآتيناه الإنجيلَ ثابتاً فيه هدى ونورٌ، ومصدقاً، فَنُصِبَ (مصدقاً) بالعطف على: ثابتاً الذي تعلق به (فيه)، وقام مَقامه (فيه)، وارتفعَ (هدىً ونورٌ) بـ: ثابتاً الذي قام مَقامه (فيه).

﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً﴾: انتصبا على الحالِ؛ أي: هادياً وواعظاً ﴿لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾؛ لأنهم ينتفعون به.

《٤٧》 ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾: وقلنا لهم: احكمُوا بموجَبِه، فاللامُ: لامُ الأمرِ، وأصلُه الكسرُ، وإنَّما سُكِّنَ استثقالاً لفتحِه وكسرِه وفتحِه، ﴿وَلِيَحْكُمَ﴾: بكسرِ اللام وفتح الميم: حمزةُ[3]، على أنها لامُ كي؛ أي: وقفَّينا ليؤمنوا، وليحكمَ، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾: الخارجون عن الطاعة، قال الشيخ أبو منصور رحمه الله: يجوز أن يحمل على الجُحود في الثلاثِ، فيكونُ كافراً ظالماً فاسقاً؛ لأن الفاسقَ المطلقَ والظالمَ المطلقَ

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٩٣) وكذا القراءة الآتية.

(٢) رواه أبو يعلى الموصلي في «مسنده» (١٢/ ٢٨٤).

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص٩٣).

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ ....

هو الكافرُ[1]، وقيل: ومن لم يحكم بما أنزل الله.. فهو كافرٌ بنعمةِ اللهِ، ظالمٌ في حكمه، فاسقٌ في فعلِه.

《٤٨》 ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: القرآنَ، فحرفُ التعريفِ فيه للعهدِ، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: بسببِ الحقِّ وإثباتِه، وتبيينِ الصوابِ من الخطأِ، ﴿مُصَدِّقًا﴾: حالٌ من الكتابِ، ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: لما تقدَّمه نزولاً، وإنما قيل: لما قبل الشيءِ: هو بينَ يديه؛ لأن ما تأخر عنه.. يكون وراءَه وخلفَه، فما تقدمَ عليه.. يكونُ قُدَّامَه وبينَ يديه، ﴿مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: المرادُ به: جنسُ الكتبِ المنزلةِ؛ لأن القرآنَ مصدقٌ لجميعِ كتبِ اللهِ، فكان حرفُ التعريفِ فيه للجنسِ؛ ومعنى تصديقِه الكتبَ: موافقتُها في التوحيدِ والعبادةِ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾: وشاهداً؛ لأنه يشهد له بالصحة والثباتِ، ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي: بما في القرآنِ، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾: نُهِيَ أن يحكمَ بما حرفُوه وبدَّلُوه اعتماداً على قولِهم، ضُمِّنَ (ولا تتبع) معنى: ولا تنحرفْ؛ فلذا عُدِّيَ بـ: عن، فكأنه قيل: ولا تنحرفْ عمّا جاءك من الحق مُتَّبِعاً أهواءَهم، أو: التقديرُ: عادلاً عمّا جاءك، ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ﴾ أيُّها الناسُ ﴿شِرْعَةً﴾: شريعةً، ﴿وَمِنْهَاجًا﴾: وطريقاً واضحاً، واستدلَّ به من قال: إن شريعة من قبلنا لا تلزمُنا[2].

ذكرَ إنزالَ التوراةِ على موسى، ثم إنزالَ الإنجيلِ على عيسى، ثم إنزالَ القرآنِ على محمد عليه السلام، وبيّن أنه ليس للسماع فحسبُ، بل للحكم به فقال في الأول: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ﴾، وفي الثاني: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ﴾، وفي الثالث: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ﴾.

---

(١) «تأويلات أهل السنة» (٢/ ٤٤).

(٢) يرى كثير من الأصوليين أن ما ثبت بالكتاب أو السنة أنه شرع من قبلنا يكون شريعةً لنا ما لم يظهر ناسخُه، والجوابُ عن الاستدلال بهذه الآية: أن الشرائع وإن اشتركت في شيءٍ.. فهي مختلفةٌ في أشياء؛ فكانت شرائعَ مختلفة، كما يقال: لكل فقيه مذهبٌ باعتبار اختلاف المذاهب في بعض الأحكام وإن وقع الاتفاق بينهم في كثير منها. انظر «الإحكام» للآمدي (٤/ ١٤٨)، و«كشف الأسرار شرح أصول البزدوي» (٣/ ٢١٣).

وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ....

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾: جماعةً متفقةً على شريعةٍ واحدةٍ، ﴿وَلَٰكِن﴾ أرادَ ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ﴾: ليعاملَكم معاملةَ المختبِرِ، ﴿فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ من الشرائعِ المختلفةِ، فتَعَبَّدَ كلَّ أمةٍ بما اقتضته الحكمةُ، ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾: فابتدِرُوها، وتسابَقُوا نحوَها قبلَ الفواتِ بالوفاةِ، والمرادُ بالخيرات: كلُّ ما أمر الله تعالى به، ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾: استئنافٌ في معنى التعليل لاستباقِ الخيراتِ، ﴿جَمِيعًا﴾: حالٌ من الضميرِ المجرورِ، والعاملُ: المصدرُ المضافُ؛ لأنه في تقديرِ: إليه تُرجعون ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾: فيُخبِرُكم بما لا تَشُكُّون معه من الجزاءِ الفاصلِ بينَ مُحِقِّكم ومُبطِلِكم، وعاملِكم ومفرطِكم في العمل.

«٤٩» ﴿وَأَنِ ٱحْكُم﴾: معطوفٌ على ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: أنزلنا إليك الكتابَ بالحقِّ، وبأن احكم ﴿بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ﴾ أي: يصرفوك، وهو مفعولٌ له؛ أي: مخافةَ أن يفتنوك[1]، وإنما حذَّره وهو مأمونٌ؛ لقطعِ أطماعِ القوم، ﴿عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ عن الحكمِ بما أنزلَ اللهُ إليكم، وأرادُوا غيرَه ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ أي: بذنبِ التولِّي عن حكمِ اللهِ وإرادةِ خلافِه، فوُضِعَ (ببعض ذنوبهم) موضعَ ذلك، وهذا الإبهامُ لتعظيمِ التولِّي، وفيه تعظيمُ الذنوبِ؛ فإن بعضَها مُهلِكٌ، فكيفَ بِكُلِّها، ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾: لخارجون عن أمرِ الله.

«٥٠» ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾: يطلبون، وبالتاء: شاميٌّ[2]، يخاطبُ بني النضيرِ في تفاضُلِهم على بني قريظةَ، وقد قال لهم رسول الله ﷺ: «القتلى سواء»، فقال بنو النضير: نحن لا نرضى بذلك فنزلت[3].

---

(١) ويحتمل أنه بدل اشتمال من المفعول به؛ أي: واحذرهم فتنتَهم. انظر «الدر المصون» (٤/ ٢٩٤).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٩٣).

(٣) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان قريظة والنضير، وكان النضير أشرف من قريظة، فكان إذا قتل رجل من قريظة رجلاً من النضير.. قتل به، وإذا قتل رجل من النضير رجلاً من قريظة.. فُودِيَ بمئة وسق من تمر، فلما بعث النبي ﷺ.. قتل رجل من النضير رجلاً من قريظة، فقالوا: ادفعوه إلينا نقتله، فقالوا: بيننا وبينكم النبي ﷺ، فأتوه، فنزلت: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾، والقسطُ: النفس بالنفس، ثم نزلت: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ رواه أبو داود (٤٤٩٤)، والنسائي في «المجتبى» (٨/ ١٨). قوله: (كان قريظة والنضير) =

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ ....

وسُئِلَ طاووسُ عن الرجلِ يُفضل بعضَ ولدِه على بعضٍ فقرأ هذه الآية[1]، وناصبُ الحكم: (يبغونَ)، ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ﴾: مبتدأٌ وخبرُه، وهو استفهامٌ في معنى النفيِ؛ أي: لا أحدَ أحسنُ ﴿مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا﴾: هو تمييزٌ، واللامُ في ﴿لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾: للبيان، كاللامِ في (هيتَ لك)؛ أي: هذا الخطاب وهذا الاستفهام: لقومٍ يوقنون؛ فإنهم هم الذين يَتَبَيَّنُون أنْ لا أعدلَ من الله، ولا أحسنَ حكماً منه، وقال أبو علي: معنى (لقوم): عندَ قومٍ؛ لأن اللامَ، وعندَ: يتقاربان في المعنى.

《٥١》 ونزل نهياً عن موالاةِ أعداءِ الدين:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ أي: لا تتخذوهم أولياءَ تنصرونَهم، وتستنصرونَهم، وتؤاخُونهم، وتعاشرونهم معاشرةَ المؤمنين، ثم عَلَّلَ النهيَ بقوله: ﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ وكلُّهم أعداءُ المؤمنين، وفيه دليلٌ على أن الكفرَ كلَّه ملةٌ واحدةٌ[2]، ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾: من جملتِهم، وحكمُه حكمُهم، وهذا تغليظٌ من الله، وتشديدٌ في وجوب مجانبةِ المخالفِ في الدين، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾: لا يرشدُ الذين ظلموا أنفسَهم بموالاةِ الكفرةِ.

《٥٢》 ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾: نفاقٌ، ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾: حالٌ، أو: مفعولٌ ثانٍ؛ لاحتمال أن يكون (فترى) من رؤيةِ العينِ، أو القلبِ، ﴿فِيهِمۡ﴾: في معاونتِهم على المسلمين وموالاتِهم، ﴿يَقُولُونَ﴾ أي: في أنفسهم؛ لقوله: (على ما أسروا): ﴿نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ﴾ أي: حادثةٌ تدور بالحالِ التي يكونون عليها، ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ﴾: لرسولِ الله ﷺ على أعدائِه، وإظهارِ المسلمين، ﴿أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾ أي: يُؤمرُ النبيُّ عليه السلام بإظهارِ إسرارِ المنافقين وقتلِهم ﴿فَيُصۡبِحُواْ﴾ أي: المنافقون، ﴿عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾: من النفاقِ، ﴿نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾: خبرُ (فيصبحوا).

= خبرُ كان محذوف؛ أي: في المدينة، أو بينهما فرق في الشرف، ونحو ذلك. انظر «حاشية السندي على سنن النسائي» (٨/ ١٨).

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١١٥٥).

(٢) أي: يُعتبرون ملةً واحدةً في الأحكام، فتقبل شهادة بعضهم على بعض، ويتوارثون وإن اختلفت مللهم، كاليهودي مع النصراني. انظر «العناية شرح الهداية» (٧/ ٤١٦) و«حاشية ابن عابدين» (٦/ ٧٦٧).

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ٥٣ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٥٤﴾ . .

«٥٣» ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أي: يقول بعضُهم لبعضٍ عند ذلك، ﴿ويقولَ﴾: بصريٌّ؛ عطفاً على (أن يأتي)، ﴿يقولُ﴾: بغير واوٍ: شاميٌّ وحجازيٌّ[(١)]، على أنه جواب قائلٍ يقول: فماذا يقولُ المؤمنون حينئذ؟ فقيل: يقول الذين آمنوا: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ﴾ أي: أقسموا لكم بأغلاظِ الأيمانِ أنهم أولياؤكُم ومعاضِدُوكم على الكفارِ، و(جهدَ أيمانهم): مصدرٌ في تقديرِ الحالِ؛ أي: مجتهدين في توكيدِ أيمانِهم، ﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾: ضاعت أعمالُهم التي عملُوها رياءً وسمعةً، لا إيماناً وعقيدةً، وهذا من قول الله عزَّ وجلَّ؛ شهادةً لهم بحُبوطِ الأعمالِ، وتعجيباً من سوءِ حالِهم، ﴿فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ٥٣﴾ في الدنيا والعقبى؛ لفواتِ المعونةِ، ودوامِ العقوبةِ.

«٥٤» ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ﴾: من يرجعْ منكم عن دينِ الإسلامِ إلى ما كان عليه من الكفرِ، ﴿يَرْتَدِدْ﴾: مدنيٌّ وشاميٌّ، ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾: يرضى عنهم أعمالَهم ويثني عليهم بها، ويطيعُونه ويؤثرون رضاه، وفيه دليلُ نبوتِه عليه السلامُ؛ حيث أخبرَ بما لم يكنْ فكانَ، وإثباتُ خلافةِ الصديقِ؛ لأنه جاهدَ المرتدينَ، وفي صحة خلافتِه خلافةُ عمرَ رضي الله عنهما، وسئل النبيُّ ﷺ عنهم فضربَ على عاتقِ سلمانَ وقال: «هذا وذووه، لو كان الإيمانُ معلقاً بالثريّا . . لنالَه رجالٌ من أبناءِ فارسَ»[(٢)]، والراجعُ من الجزاء إلى الاسم المتضمنِ لمعنى الشرطِ محذوفٌ؛ معناه: فسوف يأتي الله بقوم مكانَهم، ﴿أَذِلَّةٍ﴾: جمعُ ذليلٍ، وأمّا ذَلُولٌ . . فجمعُه: ذُلُلٌ، ومن زعمَ أنه من الذِّلِّ، الذي هو ضِدُّ الصُّعوبةِ . . فقد سَها؛ لأن ذَلولاً لا يُجمعُ على أذِلَّةٍ، قال الجوهريُّ: الذُّلُّ: ضِدُّ العِزِّ، ورَجُلٌ ذليلٌ: بَيِّنُ الذُّلِّ، وقومٌ أذلاءُ وأذِلَّةٌ، والذِّلُّ بالكسر: اللينُ، وهو ضِدُّ الصُّعوبةِ؛ يقال: دابَّةٌ ذَلولٌ، ودوابُّ ذُلُلٌ[(٣)]، ﴿عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ولم يقل للمؤمنين؛ لتضمنِ الذلِّ معنى الحُنُوِّ والعطفِ، كأنه قيل: عاطفين عليهم على

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٩٤) وكذا القراءة الآتية.

(٢) رواه الترمذي (٣٢٦١) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه رضي الله عنه.

والذي في «البخاري» (٤٨٩٧) و«مسلم» (٢٥٤٦) أن هذا الحديث قاله لما سئل عن قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ﴾.

(٣) «الصحاح» (٤/١٧٠١).

وجهِ التذلُّلِ والتواضُعِ، ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَٰفِرِينَ﴾: أَشِدَّاءُ عليهم، والعَزازُ: الأرضُ الصُّلبة، فهُمْ مع المؤمنين كالولدِ لوالدِه، والعبدِ لسيدِه، ومع الكافرين كالسَّبُعِ على فريستِه، ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: يقاتلون الكفارَ، وهو صفةٌ لقومٍ، كـ(يحبهم)، و(أذلة) و(أعزة)، ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ الواوُ: يحتمل أن تكون للحال؛ أي: يجاهدون وحالُهم في المجاهدة خلافُ حالِ المنافقين؛ فإنهم كانوا مُوالين لليهودِ، فإذا خرجُوا في جيش المؤمنين.. خافُوا أولياءَهم اليهودَ، فلا يعملون شيئاً مما يعلمون أنه يلحقُهم فيه لومٌ من جهتِهم، وأما المؤمنون.. فمجاهدتُهم لله، لا يخافون لومةَ لائمٍ، وأن تكونَ للعطف؛ أي: من صفتهم المجاهدةُ في سبيل الله، وهم صِلَابٌ في دينِهم، إذا شَرعُوا في أمرٍ من أمورِ الدين.. لا تَزَعُهم لومةُ لائمٍ[1]، واللَّومةُ: المرةُ مِن اللوم، وفيها وفي التنكير مبالغتان؛ كأنه قيل: لا يخافون شيئاً قطُّ من لومِ أحدٍ من اللُّوام[2]، ﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارةٌ إلى ما وصفَ به القومُ من المحبةِ والذلةِ والعزةِ والمجاهدةِ وانتفاءِ خوفِ اللومةِ ﴿فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَاللَّهُ وَٰسِعٌ﴾: كثيرُ الفواضلِ، ﴿عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ بمن هو من أهلِها.

《٥٥》 عَقِبَ النهي عن موالاة من تجب معاداتُهم.. ذَكَرَ من تجبُ موالاتُهم بقولِه: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ و(إنما): يفيدُ اختصاصَهم بالموالاة، ولم يجمع الوليُّ وإن كان المذكورُ جماعةً؛ تنبيهاً على أن الولايةَ لله أصلٌ، ولغيرِه تَبَعٌ، ولو قيل: إنما أولياؤُكم اللهُ ورسولُه والذين آمنوا.. لم يكن في الكلام أصلٌ وتبعٌ، ومحلُّ ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ﴾: الرفعُ على البدلِ من (الذين آمنوا)، أو: على: هم الذين، أو: النصبُ على المدح، ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾، والواوُ في ﴿وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾: للحال؛ أي: يؤتونها في حالِ ركوعِهم في الصلاةِ[3]، قيل: إنها نزلت في عليٍّ رضي الله عنه حين سأله سائلٌ وهو راكعٌ في صلاته فطرحَ له خاتمَه[4]،

---

(١) لا تَزَعُهم: لا تمنعهم.

(٢) لأنه نَفَى عنهم مخافةَ اللوم من أيِّ لائم كان، وبانتفاءِ الخوف من اللومةِ الواحدةِ ينتفي خوفُ جميع اللومات؛ لأنّ النكرة في سياق النفي تعمُّ، فإذا انضم إليها تنكير فاعلها.. استوعب خوفَ جميعِ اللوّام. انظر «فتوح الغيب» (٥/ ٣٩٨).

(٣) في جملة (وهم راكعون) وجهان آخران: أحدهما: أنها معطوفة على (يقيمون الصلاة)، والمراد بالركوع النوافل؛ أي: الذين يقيمون الصلوات المفروضة ويتقربون بالنوافل، والثاني: أنها حال من فاعل (يؤتون) والمراد بالركوع الخضوع؛ أي: يؤتون الصدقة وهم متواضعون للفقراء الذين يتصدقون عليهم. انظر «الدر المصون» (٤/ ٣١٤)، و«التحرير والتنوير» (٦/ ٢٤٠)، و«السراج المنير» (١/ ٣٨٢).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٤٢٥)، وانظر «تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٦٧) ففيه اعتراض على هذه القصة.

﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾ ....

كأنه كان مَرِجاً في خِنْصَرِه[1]، فلم يتكلفْ لِخلعِه كثيرَ عملٍ يُفسدُ صلاتَه، وورد بلفظِ الجمعِ وإن كان السبب فيه واحداً؛ ترغيباً للناس في مثل فعلِه؛ لينالُوا مثلَ ثوابِه؛ والآيةُ تدلُّ على جوازِ الصدقةِ في الصلاةِ، وعلى أن الفعل القليلَ لا يُفسدُ الصلاةَ[2].

《٥٦》 ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: يتخذْه وليّاً، أو: يكنْ وليّاً ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾: من إقامةِ الظاهرِ مُقامَ الضميرِ؛ أي: فإنهم هم الغالبون، أو: المرادُ بحزبِ اللهِ: الرسولُ والمؤمنونَ؛ أي: ومن يتولَّهم.. فقد تولى حزبَ الله واعتضدَ بمن لا يُغالب، وأصلُ الحزبِ: القومُ يجتمعون لِأَمرٍ حَزَبَهم؛ أي: أصابَهم.

《٥٧》 ورويَ: أن رِفاعةَ بنَ زيدٍ، وسويدَ بنَ الحارثِ قد أظهرا الإسلامَ ثم نافَقا، وكان رجالٌ من المسلمين يوادُّونهما، فنزل[3]:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ يعني: اتخاذُهم دينكم هُزواً ولعباً لا يصحُّ أن يقابلَ باتخاذِكم إياهم أولياءَ، بل يقابلُ ذلك بالبغضاءِ والمنابذةِ، ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ (مِن): للبيان، ﴿مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ﴾ أي: المشركين، وهو: عطفٌ على (الذين) المنصوبةَ، ﴿والكفارِ﴾: بصريٌّ وعليٌّ، عطفٌ على (الذين) المجرورةِ[4]؛ أي: من الذين أوتوا الكتاب من قبلِكم ومن الكفارِ ﴿أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في موالاةِ الكفارِ ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ حقّاً؛ لأن الإيمانَ حقّاً يأبى موالاةَ أعداءِ الدين.

《٥٨》 ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا﴾ أي: الصلاةَ، أو: المناداةَ ﴿هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾ لأن لعبَهم وهُزْوَهم من أفعال السفهاءِ والجهلةِ، فكأنْ لا عقلَ لهم، وفيه دليلٌ على ثبوتِ الأذانِ بنصِّ الكتابِ، لا بالمنام وحدَه.

---

(١) مَرِجَ الخاتم: قَلِقَ وتحركَ لِسَعَتِهِ.

(٢) هذا الاستدلال مبني على أن (وهم راكعون): حال من الواو في (يؤتون)، وعلى أن المراد ركوع الصلاة.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٤٢٩).

(٤) انظر «البدور الزاهرة» (ص٩٤).

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾ ....

《٥٩》 ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ يعني: هل تعيبون منا وتنكرون إلا الإيمانَ باللهِ وبالكتبِ المنزلةِ كلِّها، ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ وهو: عطفٌ على المجرورِ؛ أي: وما تنقمون منا إلا الإيمانَ بالله، وبما أنزلَ، وبأن أكثرَكم فاسقون، والمعنى: أعادَيْتُمونا لأنا اعتقدْنا توحيدَ اللهِ وصدقَ أنبيائِه وفسقَكم لمخالفتِكم لنا في ذلك؟ ويجوزُ أن يكونَ الواو بمعنى: مع؛ أي: وما تنقمون منا إلا الإيمانَ مع أنكم فاسقون.

《٦٠》 ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: ثواباً، وهو: نصبٌ على التمييز، والمثوبةُ وإن كانت مختصةً بالإحسانِ ولكنها وُضعت موضعَ العقوبةِ، كقولِه: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١]، وكان اليهودُ يزعُمون أن المسلمين مُستوجبون للعقوبةِ، فقيل لهم: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ شرٌّ عقوبةً في الحقيقة من أهل الإسلام في زعمكم، و(ذلك): إشارةٌ إلى المنقوم؛ أي: الإيمانِ؛ أي: بِشَرٍّ مما نَقِمتم من إيماننا ثواباً؛ أي: جزاءً، ولا بدَّ من حذفِ مضافٍ قبلَه، أو قبلَ (مَن)؛ تقديرُه: بِشَرٍّ مِن أهلِ ذلك، أو: دينُ من لَعَنَهُ الله[1]، ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ﴾ يعني: أصحابَ السبتِ، ﴿وَٱلْخَنَازِيرَ﴾ أي: كفارَ أهلِ مائدةِ عيسى عليه السلام، أو: كلا المَسْخَيْنِ من أصحاب السبتِ، فشُبّانُهم مُسخوا قردةً، ومشايخُهم مُسخُوا خنازيرَ، ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ أي: العجلَ، أو: الشيطانَ؛ لأن عبادتَهم العجلَ بتزيينِ الشيطانِ، وهو: عطفٌ على صلةِ (مَن)، كأنه قيل: ومن عبدَ الطاغوتَ، ﴿وَعَبُدَ الطاغوتِ﴾: حمزةُ[2]، جعلَه اسماً موضوعاً للمبالغةِ، كقولِهم: رجلٌ حَذُرٌ، وفَطُنٌ للبليغ في الحذرِ والفطنةِ، وهو: معطوفٌ على القردةِ والخنازيرِ؛ أي: جعل الله منهم عَبُدَ الطاغوتِ، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾: الممْسُوخون الملعونُون ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾: جُعلت الشَّرارةُ للمكان، وهي لأهلِه مبالغةً، ﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾: عن قصدِ الطريقِ الموصلِ إلى الجنة.

---

(١) واستعمال اسم التفضيل (بِشَرٍّ من ذلك) إنما هو على حسب قولهم واعتقادهم، فإنهم حكموا بأنّ الإيمان الذي عليه المسلمون شرٌّ، فقيل لهم: هَبُوا أنّ الأمر كذلك لكن لعنةُ الله وغضبُه ومسخُ الصور شرٌّ من ذلك. انظر «السراج المنير» (١/ ٣٨٣).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٩٤).

﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ (٦١) وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٢) لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (٦٣) وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٦٤)﴾ ....

《٦١》 ونزل في ناسٍ من اليهود كانوا يدخلُون على النبي ﷺ، ويُظهرون له الإيمانَ نفاقاً(١):

﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ الباءُ: للحال؛ أي: دخلوا كافرين وخرجوا كافرين، وتقديرُه: ملتبسين بالكفر، وكذلك: (قد دخلوا) (وهم قد خرجوا)؛ ولذا دخلت: قد؛ تقريباً للماضي من الحال، وهو متعلق بـ (قالوا آمنا) أي: قالوا ذلك وهذه حالهم، ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ (٦١)﴾ من النفاقِ.

《٦٢》 ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾: من اليهود، ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ﴾: الكذبِ، ﴿وَالْعُدْوَانِ﴾: الظلم، أو: الإثمُ: ما يختص بهم، والعُدوانُ: ما يتعداهم إلى غيرِهم، والمسارعةُ في الشيءِ: الشروعُ فيه بسرعةٍ، ﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾: الحرامَ، ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٢)﴾: لبئس شيئاً عملوه.

《٦٣》 ﴿لَوْلَا﴾: هلّا، وهو تحضيضٌ، ﴿يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (٦٣)﴾: هذا ذمٌّ للعلماء، والأولُ للعامَّةِ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هي أشدُّ آيةٍ في القرآن؛ حيثُ أُنزلَ تاركُ النهيِ عن المنكر منزلةَ مرتكبِ المنكرِ في الوعيدِ.

《٦٤》 ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ رويَ: أن اليهودَ لعنَهم الله لما كذبُوا محمداً عليه السلام.. كفَّ اللهُ ما بسطَ عليهم من السَّعةِ، وكانوا من أكثرِ الناسِ مالاً، فعند ذلك قال فِنْحاصُ: يدُ الله مغلولةٌ، ورضيَ بقوله الآخرون، فأُشْرِكُوا فيه، وغلُّ اليدِ وبسطُها مجازٌ عن البخلِ والجودِ، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩]، ولا يقصدُ المتكلمُ به إثباتَ يدٍ ولا غَلٍّ ولا بَسْطٍ، حتى إنه

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٤٤٥) عن قتادة.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ ....

يُستعملُ في ملكٍ يُعطي ويمنعُ بالإشارةِ من غيرِ استعمالِ اليدِ، ولو أعطى الأقطعُ إلى المنكبِ عطاءً جزلاً.. لقالُوا: ما أبسَطَ يدَه بالنَّوالِ، وقد استعملَ حيثُ لا تصحُّ اليدُ؛ يقال: بسطَ البأسُ كفَّيه في صدري، فَجُعِلَ للبأس الذي هو من المعاني كَفَّانِ، ومن لم ينظرْ في علم البيانِ.. يتحيرُ في تأويلِ أمثالِ هذه الآيةِ، وقولُه: (غُلَّتْ أيديهم): دعاءٌ عليهم بالبخلِ، ومن ثَمَّ كانُوا أبخلَ خلقِ اللهِ، أو: تُغَلُّ في جهنمَ، فَهَبْ كأنها غُلَّتْ، وإنما ثُنِّيتِ اليدُ في (بل يداه مبسوطتان) وهي مفردةٌ في (يد الله مغلولة)؛ ليكونَ ردُّ قولِهم وإنكارُه أبلغَ وأدلَّ على إثباتِ غايةِ السخاءِ له، ونفيِ البخلِ عنه، فغايةُ ما يبذلُه السخيُّ أن يُعطيَه بيديه، ﴿يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾: تأكيدٌ للوصفِ بالسخاءِ، ودلالةٌ على أنه لا ينفقُ إلا على مقتضَى الحكمةِ، ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾: من اليهودِ، ﴿مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ أي: يزدادون عند نزولِ القرآنِ؛ لِحَسدِهم تمادياً في الجحود، وكفراً بآياتِ اللهِ، وهذا من إضافةِ الفعلِ إلى السببِ، كما قال: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥]، ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ فكلمتُهم أبداً مختلفةٌ، وقلوبُهم شتَّى، لا يقعُ بينهم اتفاقٌ ولا تعاضدٌ، ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾: كلَّما أرادُوا محاربةَ أحدٍ.. غُلبُوا وقُهروا، لم يقم لهم نصرٌ من الله على أحدٍ قطُّ، وقد أتاهم الإسلامُ وهم في ملكِ المجوسِ، وقيل: كلَّما حاربُوا رسولَ الله ﷺ.. نُصِرَ عليهم، عن قتادة: لا تلقى يهودياً ببلدٍ إلا وجدتَه من أذلِّ الناسِ، ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾: ويجتهدون في دفعِ الإسلامِ، ومَحْوِ ذكرِ النبي عليه السلام من كتبِهم، ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

《٦٥》 ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا﴾ برسولِ الله ﷺ وبما جاء به، معَ ما عَدَّدْنا من سيئاتهم، ﴿وَاتَّقَوْا﴾: وقرنُوا إيمانَهم بالتقوى ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ ولم نُؤاخذْهم بها، ﴿وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾﴾ مع المسلمين.

《٦٦》 ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ أي: أقامُوا أحكامَهما وحدودَهما، وما فيهما من نعتِ رسول الله ﷺ ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾: من سائرِ كتبِ اللهِ؛ لأنهم مكلفون الإيمانَ بجميعِها، فكأنها أُنزلت إليهم، وقيل: هو القرآن، ﴿لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ﴾ يعني: الثمارَ من فوقِ رؤوسِهم، ﴿وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ يعني: الزروعَ، أو: هذه عبارةٌ عن التوسعةِ، كقولهم: فلانٌ في النعمة من فرقِه إلى قدمِه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾ ....

ودلَّت الآيةُ على أن العملَ بطاعةِ الله تعالى سَبَبٌ لِسَعَةِ الرِّزقِ، وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٦٦]، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣]، ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ الآيات [نوح: ١٠]، ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦].

﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾: طائفةٌ حالُها أَمَمٌ في عداوةِ رسولِ اللهِ ﷺ[١]، وقيل: هي: الطائفةُ المؤمنةُ، وهم عبدُ الله بنُ سلامٍ وأصحابُه، وثمانيةٌ وأربعون من النصارى، ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾: فيه معنى التعجبِ، كأنه قيل: وكثيرٌ منهم ما أسوأَ عملَهم، وقيل: هم كعبُ بنُ الأشرفِ وأصحابُه وغيرُهم.

«٦٧» ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾: جميعَ ما أُنزلَ إليك، وأيَّ شيءٍ أنزلَ إليك، غيرَ مراقبٍ في تبليغِه أحداً، ولا خائفٍ أن ينالَك مكروهٌ، ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ﴾: وإن لم تُبلغْ جميعَه كما أمرتُك ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ ﴿رسالاتِه﴾: مدنيٌّ، وشاميٌّ، وأبو بكرٍ[٢]؛ أي: فلم تُبلغ إذاً ما كُلِّفْتَ من أداءِ الرسالات، ولم تؤدِّ منها شيئاً قطُّ، وذلك أن بعضَها ليس بأولى بالأداءِ من بعضٍ، فإذا لم تُؤدِّ بعضَها.. فكأنك أغفلتَ أداءَها جميعاً، كما أن مَن لم يُؤمن ببعضِها.. كان كمَن لم يؤمن بِكُلِّها؛ لكونِها في حكم شيءٍ واحدٍ؛ لدخولِها تحتَ خطابٍ واحدٍ، والشيءُ الواحدُ لا يكون مُبَلَّغاً غيرَ مبلَّغٍ، مُؤمَناً به غيرَ مُؤمَنٍ به.

قالت المُلحدةُ لعنَهم اللهُ: هذا كلامٌ لا يفيدُ، وهو كقولك لغلامك: كلْ هذا الطعامَ، فإن لم تأكلْه.. فإنك ما أكلته.

قلنا: هذا أمرٌ بتبليغ الرسالة في المستقبل؛ أي: بلغ ما أنزل إليك من ربك في المستقبل، وإن لم تفعلْ؛ أي: وإن لم تبلغ الرسالةَ في المستقبل.. فكأنك لم تُبلغِ الرسالةَ أصلاً، أو: بلغْ ما أنزلَ إليك من ربك الآن، ولا تنتظرْ به كثرةَ الشَّوكةِ والعُدَّةِ، فإن لم تبلغْ.. كنتَ كمن لم يُبلغْ أصلاً، أو: بلغْ ذلك غيرَ خائفٍ أحداً، فإن لم تُبلغْ على هذا الوصفِ.. فكأنَّكَ لم تبلغِ الرسالةَ أصلاً.

---

(١) أَمَمٌ: وَسَطٌ.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٩٥).

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾

ثم قال مُشجعاً له في التبليغ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾: يحفظُك منهم قتلاً، فلم يُقدرْ عليه وإن شُجَّ في وجهه يومَ أُحدٍ، وكُسرت رَباعيَتُه، أو: نزلت بعدَ ما أصابَه ما أصابَه، والناسُ: الكفارُ؛ بدليلِ قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾: لا يمكنُهم مما يُريدون إنزالَه بك من الهلاكِ.

«٦٨» ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾: على دينٍ يُعتدُّ به حتى يُسمَّى شيئاً لبطلانِه، ﴿حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يعني: القرآنَ، ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ إضافةُ زيادةِ الكفرِ والطغيانِ إلى القرآن بطريقِ التَّسْبيبِ[1]، ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾: فلا تتأسفْ عليهم؛ فإن ضررَ ذلك يعودُ إليهم، لا إليك.

«٦٩» ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بألسنتهم وهم المنافقون، ودلَّ عليه قولُه: ﴿لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ قال سيبويهِ وجميعُ البصريين: ارتفعَ (الصابئون): بالابتداءِ، وخبرُه محذوفٌ، والنيةُ به التأخيرُ عمّا في حَيِّزِ (إن) من اسمِها وخبرِها[2]، كأنه قيل: إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾، والصابئون كذلك؛ أي: من آمن بالله واليوم الآخر.. فلا خوفٌ عليهم، فقدمه وحَذَفَ الخبرَ، كقوله[3]: [من: الطويل]

فمن يكُ أمسى بالمدينة رحلُه فإني وقَيَّارٌ بها لَغريبُ

أي: فإني لغريبٌ، وقَيّارٌ كذلك، ودلَّ اللامُ على أنه خبرُ إنَّ.

---

(١) أي: فيزدادون على كفرهم وطغيانهم طغياناً وكفراً بسبب ما يسمعون من القرآن؛ إذ كلما نزلت آية.. كفروا بها، فيزداد طغيانهم وكفرهم، كما يزداد المريض مرضاً من تناولِ الغذاءِ الصالحِ للأصحاءِ. انظر «السراج المنير» (١/ ٣٨٥)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ٥٨).

(٢) انظر «الكتاب» لسيبويه (٢/ ١٥٥).

(٣) قائلُه: ضابئُ البُرجميُّ. انظر «الكتاب» لسيبويه (١/ ٧٥).

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾﴾ ....

ولا يرتفعُ بالعطفِ على محل إنَّ واسمِها؛ لأن ذا لا يصحُّ قبلَ الفراغِ من الخبرِ، لا تقولُ: إن زيداً وعمرٌو منطلقان، وإنما يجوزُ إن زيداً منطلقٌ وعمروٌ.

و(الصابئون) معَ خبرِه المحذوفِ جملةٌ معطوفةٌ على جملةِ قولِه: (إن الذين آمنوا) إلى آخره، ولا محلَّ لها، كما لا محلَّ للتي عُطفت عليها، وفائدةُ التقديم: التنبيهُ على أن الصابئين، وهم أَبْيَنُ هؤلاءِ المعدودين ضلالاً، وأشدُّهم غيّاً.. يُتابُ عليهم إن صحَّ منهم الإيمانُ، فما الظنُّ بغيرهم؟ ومحلُّ (من آمن): الرفعُ على الابتداءِ، وخبرُه: (فلا خوفٌ عليهم)، والفاءُ لتضمن المبتدأِ معنى الشرطِ[1]، ثم الجملةُ كما هي: خبرُ (إنَّ)، والراجعُ إلى اسم (إنَّ) محذوفٌ، تقديرُه: من آمن منهم.

«٧٠» ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ بالتوحيدِ، ﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾ لِيَقِفُوهم على ما يأتُون ويذرُون في دينِهم، ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ﴾: جملةٌ شرطيةٌ وقعت صفةً لـ (رسلاً)، والراجعُ محذوفٌ؛ أي: رسولٌ منهم ﴿بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ﴾: بما يخالفُ هواهم، ويُضادُّ شهواتِهم؛ من مشاقِّ التكليفِ والعملِ بالشرائع، وجوابُ الشرطِ محذوفٌ دلَّ عليه ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾﴾ كأنه قيل: كلما جاءهم رسول منهم.. ناصَبوه، وقولُه: (فريقاً كذبُوا): جوابٌ مستأنفٌ لقائلٍ يقول: كيف فعلوا برسلهم؟ وقال: (يقتلون) بلفظ المضارع على حكايةِ الحالِ الماضيةِ؛ استفظاعاً للقتلِ؛ وتنبيهاً على أن القتل من شأنِهم، وانتصب (فريقاً) و(فريقاً) على أنه مفعولُ (كذبُوا) و(يقتلون)، وقيل: التكذيبُ مشتَرَكٌ بين اليهودِ والنصارى، والقتلُ مختصٌّ باليهودِ، فهم قتلُوا زكريا ويحيى.

«٧١» ﴿وحَسِبُوا أَلَّا تكونُ﴾: حمزةُ وعليٌّ وأبو عمرٍو[2]، على أنَّ (أنْ): مخففةٌ من الثقيلةِ، أصلُه: أنَّه لا تكونُ، فَخُفِّفَتْ (أنَّ) وحذفَ ضميرُ الشأنِ، ونُزِّلَ حِسبانُهم؛ لِقُوَّتِه في صدورهم منزلةَ العلمِ؛ فلذا دخلَ فعلُ الحِسبان على (أن) التي هي للتحقيق، ﴿فِتْنَةٌ﴾: بلاءٌ وعذابٌ؛ أي: وحسبَ بنو إسرائيلَ أنهم لا يصيبُهم من الله عذابٌ بقتلِ الأنبياءِ، وتكذيبِ

(١) ويجوز أن تكون (مَن) اسمَ شرطٍ مبتدأ، وخبره: جملة (آمن)، وجوابُ الشرط: (فلا خوف عليهم).
(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص٩٦).

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ ....

الرسلِ، وسدَّ ما يشتملُ عليه صلةُ (أنْ)، و(أنْ)[1]؛ من المسندِ والمسندِ إليه مسدَّ مفعولَي: حَسِبَ، ﴿فَعَمُوا وَصَمُّوا﴾: فلم يعملُوا بما رأوا، ولا بما سمعُوا، أو فَعَمُوا عن الرُّشْدِ، وصَمُّوا عن الوعظِ، ﴿ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾: رَزَقَهم التوبةَ، ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾: هو بدلٌ من الضميرِ؛ أي: الواوِ، وهو بدلُ البعضِ من الكلِّ، أو: هو خبرُ مبتدإٍ محذوفٍ؛ أي: أولئك كثيرٌ منهم، ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾﴾ فيجازيْهم بِحَسَبِ أعمالِهم.

«٧٢» ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾: لم يُفرِّقْ عيسى عليه السلام بينَه وبينَهم في أنه عبدٌ مربوبٌ؛ فيكونُ حجةً على النصارى، ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ في عبادتِه غيرَ اللهِ ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ التي هي دارُ الموحِّدين؛ أي: حرَمَه دخولَها، ومنعَه منه، ﴿وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ أي: مرجعُه، ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ للكافرين ﴿مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾: وهو من كلامِ اللهِ تعالى، أو: من كلامِ عيسى عليه السلام.

«٧٣» ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ أي: ثالثُ ثلاثةِ آلهةٍ.

والإشكال: أنه تعالى قال في الآية الأولى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾، وقال في الثانية: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾.

والجواب: أن بعضَ النصارى كانُوا يقولون: كان المسيح بعينِه هو اللهُ؛ لأن الله تعالى ربما يتجلى في بعض الأزمانِ في شخصٍ، فتجلَّى في ذلك الوقتِ في شخصِ عيسى؛ ولهذا كان يظهرُ من شخصِ عيسى أفعالٌ لا يقدرُ عليها إلا اللهُ، وبعضُهم ذهبُوا إلى آلهةٍ ثلاثةٍ: اللهِ ومريمَ والمسيحِ، وأنه ولدُ اللهِ من مريمَ، و(مِن) في قولِه: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾: للاستغراقِ؛ أي: وما إلهٌ قطُّ في الوجودِ إلا إلهٌ موصوف بالوحدانيةِ لا ثانيَ له، وهو اللهُ وحدَه لا شريكَ له،

---

(١) أي: (أن) المخففةِ من الثقيلة على قراءةٍ، و(أن) الناصبةِ على قراءة، وكلامُه يفيدُ أن الذي سدَّ مسدَّ المفعولين هو صلةُ (أن) أي: جملةُ (تكون فتنة)، والمعروف في النحو أن الذي يسدُّ مسدَّ المفعولين هو المصدرُ المنسبكُ مِن (أن) وما دخلت عليه.

﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧٤ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَاتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٧٥ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٧٦﴾ ....

وفي قولِه: ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾: للبيان، كالتي في ﴿فَٱجْتَنِبُوا ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠]، ولم يقل: ليمسنَّهم؛ لأن في إقامة الظاهر مُقام المضمرِ تكريراً للشهادةِ عليهم بالكفر، أو: للتبعيض؛ أي: ليمسنَّ الذين بَقُوا على الكفر منهم؛ لأن كثيراً منهم تابوا عن النصرانية، ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٧٣﴾: نوعٌ شديدُ الألمِ من العذاب.

《٧٤》 ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ﴾: ألا يتوبون بعدَ هذه الشهادةِ عليهم بالكفر، وهذا الوعيدِ الشديدِ مما هم عليه؟! وفيه تعجيبٌ من إصرارِهم، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧٤﴾ يغفرُ لهؤلاءِ إن تابوا ولغيرهم.

《٧٥》 ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ﴾: فيه نفيُ الألوهيةِ عنه، ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾: صفةٌ لـ (رسولٌ)؛ أي: ما هو إلا رسولٌ من جنسِ الرسلِ الذين خَلَوا من قبلِه، وإبراؤُه الأكمهَ والأبرصَ وإحياؤُه الموتى لم يكن منه لأنه إلهٌ، بل اللهُ أبرأ الأكمهَ والأبرصَ، وأحيا الموتى على يدِه، كما أحيا العصا وجعلها حيةً تسعَى على يدِ موسى، وخَلْقُه من غير ذَكَرٍ كخلقِ آدمَ من غيرِ ذَكَرٍ ولا أنثى، ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ أي: وما أمُّه أيضاً إلا كبعضِ النساءِ المصدِّقاتِ للأنبياءِ، المؤمناتِ بهم، ووقعَ اسمُ الصدِّيقةِ عليها؛ لقولِه تعالى: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾ [التحريم: ١٢]، ثمَّ بعَّدهما عمّا نُسبَ إليهما بقوله: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾؛ لأن من احتاجَ إلى الاغتذاءِ بالطعامِ وما يتبعُه من الهضمِ والنقضِ.. لم يكن إلا جسماً مركباً من لحمٍ وعظمٍ وعروقٍ وأعصابٍ وغيرِ ذلك، مما يدلُّ على أنه مصنوعٌ مؤلَّفٌ كغيره من الأجسام، ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَاتِ﴾ أي: الأعلامَ من الأدلةِ الظاهرةِ على بطلانِ قولِهم، ﴿ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٧٥﴾: كيف يُصرفون عن استماعِ الحقِّ وتأمُّلِه بعدَ هذا البيانِ، وهذا تعجيبٌ من الله تعالى في ذهابِهم عن الفرقِ بين الربِّ والمربوبِ.

《٧٦》 ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ هو: عيسى عليه السلام؛ أي: شيئاً لا يستطيعُ أن يضرَّكم بمثلِ ما يضرُّكم به اللهُ من البلايا والمصائبِ في الأنفس والأموالِ، ولا أن ينفعَكم بمثلِ ما ينفعُكم به من صحةِ الأبدانِ، والسَّعةِ والخِصبِ، ولأن كلَّ

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ....﴾

ما يستطيعُه البشرُ من المضارِّ والمنافعِ فبتخليقِه تعالى، فكأنه لا يملك منه شيئاً، وهذا دليلٌ قاطعٌ على أن أمرَه منافٍ للربوبيةِ؛ حيث جعله لا يستطيعُ ضرّاً ولا نفعاً، وصفةُ الربِّ أن يكون قادراً على كل شيءٍ، لا يخرج مقدورٌ عن قدرتِه، ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾: متعلقٌ بـ (أتعبدون) أي: أتشركون بالله ولا تخشونه وهو الذي يسمعُ ما تقولونه، ويعلم ما تعتقدونه!

《٧٧》 ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ الغُلُوُّ: مجاوزةُ الحدِّ، فغُلُوُّ النصارى: رَفْعُهُ فوقَ قدرِه باستحقاقِ الألوهيةِ، وغُلُوُّ اليهودِ: وضعُه عن استحقاقِ النبوةِ، ﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾: صفةٌ لمصدرٍ محذوفٍ؛ أي: غَلَوا غيرَ الحقِّ؛ يعني: غُلُوّاً باطلاً، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ﴾ أي: أسلافَكم وأئمتَكم الذين كانوا على الضلالِ قبلَ مبعثِ النبي ﷺ، ﴿وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾ ممن تابعَهم، ﴿وَضَلُّوا۟﴾ لما بُعِثَ رسولُ الله ﷺ ﴿عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ حين كذبُوه وحسدُوه وبَغَوا عليه.

《٧٨》 ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾: قيل: إن أهلَ أيلةَ لما اعتدَوا في السبت.. قال داود: اللهمَّ العنْهم واجعلْهم آيةً، فمُسِخُوا قردةً، ولما كفرَ أصحابُ عيسى بعدَ المائدةِ.. قال عيسى: اللهمَّ عذبْ من كفرَ بعدَ ما أكلَ من المائدةِ عذاباً لم تعذبه أحداً من العالمين، والعنْهم كما لعنتَ أصحابَ السبتِ، فأصبحُوا خنازيرَ، وكانوا خمسةَ آلافِ رجلٍ، ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾﴾: ذلك اللعنُ بعصيانِهم واعتدائِهم.

《٧٩》 ثم فسرَ المعصيةَ والاعتداءَ بقولِه: ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ﴾: لا ينهَى بعضُهم بعضاً ﴿عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾: عن قبيحٍ فعلُوه، ومعنى وصفِ المنكرِ بـ(فعلوه) ولا يكونُ النهيُ بعد الفعلِ: أنهم لا يتناهَون عن مُعاودةِ منكرٍ فعلُوه، أو: عن مثلِ منكرٍ فعلُوه، أو: عن منكرٍ أرادُوا فعلَه، أو: المرادُ: لا ينتهون عن منكرٍ فعلوه، بل يُصرون عليه؛ يقال: تَناهى عن الأمر وانتَهى عنه: إذا امتنعَ منه وتركَه، ثم عَجَّبَ من سوءِ فعلِهم مؤكِّداً لذلك بالقسم بقولِه: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾، وفيه دليلٌ على أن تركَ النهيِ عن المنكر من العظائم، فيا حسرةً على المسلمين في إعراضِهم عنه.

﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ ....

«٨٠» ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ هم: منافقُو أهلِ الكتابِ، كانوا يُوالُون المشركين ويُصافُونَهم، ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾: لبئسَ شيئاً قدَّمُوه لأنفسِهم سُخْطُ اللهِ عليهم؛ أي: مُوجِبُ سُخْطِ اللهِ، ﴿وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ أي: في جهنَّمَ.

«٨١» ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ إيماناً خالصاً بلا نفاقٍ، ﴿وَٱلنَّبِىِّ﴾ أي: محمدٍ ﷺ، ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾ يعني: القرآنَ ﴿مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾: ما اتخذوا المشركين أولياءَ؛ يعني: أن مُوالاةَ المشركين تدلُّ على نفاقِهم، ﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾: مستمرُّون في كفرِهم ونفاقِهم، أو: معناه: ولو كان هؤلاء اليهودُ يؤمنون باللهِ، وبموسى، وما أُنزلَ إليه؛ يعني: التوراةَ.. ما اتخذوا المشركين أولياءَ، كما لم يُوالِهم المسلمون، ولكن كثيراً منهم فاسقون: خارجون عن دينِهم، فلا دينَ لهم أصلاً.

«٨٢» ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ﴾: هو مفعولٌ ثانٍ لـ(تجدنَّ)، و(عداوةً): تمييزٌ، ﴿وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾: عطفٌ عليهم، ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ اللامُ: تتعلق بـ(عداوةً) و(مودةً)، وَصَفَ اليهودَ بشدةِ الشكيمةِ، والنصارى بِلِيْنِ العَريكةِ[1]، وَجَلُّ اليهودِ قُرناءُ المشركين في شِدَّةِ العداوةِ للمؤمنين، ونبَّهَ على تقدُّمِ قَدَمِهم فيها بتقديمِهم على المشركين، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾ أي: علماءَ وعُبَّاداً، ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ علَّلَ سُهولةَ مأخذِ النصارى وقُرْبَ مودَّتِهم للمؤمنين بأن منهم قسيسين ورُهباناً، وأن فيهم تَواضُعاً واستكانةً، واليهودُ على خلافِ ذلك، وفيه دليلٌ على أن العلمَ أنفعُ شيءٍ، وأهداه إلى الخير وإن كان علمَ القِسِّيسين، وكذا غَمُّ الآخرةِ وإن كان في راهبٍ[2]، والبراءةُ من الكبرِ وإن كانت في نصرانيٍّ.

---

(١) يقال: فلانٌ شديدُ الشكيمةِ: إذا كان شديدَ النَّفْسِ أنِفاً أبِيّاً.

(٢) غَمُّ الآخرةِ؛ أي: الغمُّ خوفاً من الآخرة.

وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ . . . .

《٨٣》 ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾: وَصَفَهُم بِرِقَّةِ القلوبِ، وأنهم يَبْكُون عند استماعِ القرآنِ، كما رُوِيَ عن النجاشيِّ أنه قال لجعفرِ ابنِ أبي طالبٍ حين اجتمعَ في مجلسِه المهاجرون إلى الحبشةِ والمشركون وهم يقرؤونه عليهم: هل في كتابِكم ذِكْرُ مريمَ؟ قال جعفرٌ: فيه سورةٌ تُنسبُ إلى مريمَ، فقرأها إلى قولِه: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [مريم: ٣٤]، وقرأ (سورةَ طه) إلى قولِه: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ [طه: ٩]، فبكى النجاشيُّ، وكذلك فعل قومُه الذين وفدُوا على رسول الله ﷺ، وهم سبعون رجلاً حين قرأ عليهم (سورة يس) فَبَكَوا[1].

(تفيضُ من الدمعِ): تمتلئُ من الدمعِ حتى تفيضَ؛ لأن الفيضَ أن يمتلئَ الإناءُ أو غيرُه حتى يَطلُعَ ما فيه مِن جوانبِه، فوُضِعَ الفيضُ الذي هو من الامتلاءِ موضعَ الامتلاءِ، أو: قصدتِ المبالغةُ في وصفِهم بالبكاءِ، فجعلت أعينُهم كأنها تفيضُ بأنفسِها؛ أي: تسيلُ من أجلِ البكاءِ، و(مِن) في (مما عرفوا): لابتداءِ الغايةِ، على أن فيضَ الدمعِ ابتدأ ونشأ من معرفة الحقِّ، وكان من أجله[2]، و(مِن) في (مِن الحق): لتبيين الموصولِ الذي هو (ما عرفوا)، أو: للتبعيض، على أنهم عرفوا بعضَ الحقِّ فأبكاهم، فكيف إذا عرفوا كلَّه، وقرؤوا القرآنَ، وأحاطُوا بالسنة؟ ﴿يَقُولُونَ﴾: حالٌ من ضميرِ الفاعلِ في (عرفوا)، ﴿رَبَّنَا آمَنَّا﴾ بمحمدٍ ﷺ، والمرادُ: إنشاءُ الإيمانِ والدخولُ فيه، ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾: مع أمةِ محمدٍ عليه السلام، الذين هم شهداءُ على سائرِ الأممِ يومَ القيامةِ ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقالوا ذلك؛ لأنهم وجدُوا ذكرَهم في الإنجيلِ كذلك.

《٨٤》 ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾: إنكارٌ واستبعادٌ لانتفاءِ الإيمانِ مع قيامِ موجبِه، وهو الطمع في إنعامِ اللهِ عليهم بصحبة الصالحين، وقيل: لما رجعُوا إلى قومهم.. لامُوهم، فأجابُوهم بذلك، (وما لنا): مبتدأٌ وخبرٌ، و(لا نؤمنُ): حالٌ؛ أي: غيرَ مؤمنين، كقولك: ما لك قائماً؟

---

(١) روى الطبري في «تفسيره» (١٠/٥٠٨) عن سيدنا عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما أن هذه الآية نزلت في النجاشي وأصحابه.

(٢) ويجوز أن تكون تعليلية.

﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٨٦﴾﴾ ....

﴿وَمَا جَآءَنَا﴾: وبما جاءنا ﴿مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ يعني: محمداً والقرآن، ﴿وَنَطۡمَعُ﴾: حالٌ من ضمير الفاعل في (نؤمن)، والتقديرُ: ونحن نطمعُ[1] ﴿أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا﴾ الجنة ﴿مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾﴾: الأنبياءِ والمؤمنين.

《٨٥》 ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ﴾ أي: بقولِهم: (ربنا آمنا)، وتصديقِهم ذلك، ﴿جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ وفيه دليلٌ على أن الإقرارَ داخلٌ في الإيمانِ كما هو مذهبُ الفقهاءِ، وتَعَلَّقَتِ الكرّاميةُ في أن الإيمان مجردُ القولِ بقوله: (بما قالوا)، لكنَّ الثناءَ بفيضِ الدمعِ في السِّباقِ، وبالإحسانِ في السِّياقِ يدفعُ ذلك[2]، وأنى يكونُ مجردُ القولِ إيماناً وقد قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨] نفَى الإيمانَ عنهم مع قولِهم: (آمنا بالله)؛ لعدمِ التصديقِ بالقلب، وقال أهلُ المعرفةِ: الموجودُ منهم ثلاثةُ أشياء[3]: البكاءُ على الجفاءِ[4]، والدعاءُ على العطاءِ، والرضا بالقضاءِ، فمن ادعى المعرفةَ ولم يكن فيه هذه الثلاثةُ.. فليس بصادقٍ في دعواه.

《٨٦》 ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٨٦﴾﴾: هذا أثرُ الردِّ في حق الأعداءِ، والأولُ أثرُ القبولِ للأولياءِ.

ونزلَ في جماعةٍ من الصحابة رضي الله عنهم، حَلَفُوا أن يَتَرَهَّبُوا ويَلْبَسُوا المُسوحَ، ويقوموا الليلَ، ويصوموا النهار، ويَسِيْحُوا في الأرض، ويَجُبُّوا مَذاكيرَهم، ولا يأكلُوا اللحمَ والوَدَكَ[5]، ولا يقربُوا النساءَ والطيبَ[6]:

---

(١) قَدَّرَ: ونحن نطمع؛ لتكون واو الحال داخلة على جملة اسمية؛ لأن المضارع المثبت لا تدخل عليه واو الحال.

(٢) السِّباقُ: ما كان قبل الكلام، واللَّحاقُ: ما كان بعده، والسِّياقُ: ما كان قبل الكلام أو بعده. انظر «الإكليل» (٣/ ٨٢).

(٣) أي: المؤمنون الكاملون هم من وجد فيهم هذه الأشياء الثلاثة.

(٤) الجفاء: سوءُ المعاشرةِ، والمرادُ هنا: الغفلة والمعصية.

(٥) المُسوحُ: الغليظ من اللباس، يجبوا: يقطعوا، المذاكير: جمع ذكر، الودك: الشحم.

(٦) روى نحوه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٥١٩) عن مجاهد.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْۚ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ ....

«٨٧» ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾: ما طابَ ولذَّ من الحلالِ؛ ومعنى (لا تحرموا): لا تمنعوها أنفسَكم كمنعِ التحريمِ، أو: لا تقولوا: حرمناها على أنفسنا؛ مبالغةً منكم في العزمِ على تركِها؛ تزهداً منكم وتقشُّفاً.

وروي: أن رسول الله ﷺ كان يأكلُ الدجاجَ[1]، والفالوذَ[2]، وكان يعجبُه الحلواءُ والعسلُ[3]، وقال: «إن المؤمن حُلْوٌ يحبُّ الحلاوةَ»[4]، وعن الحسن: أنه دُعِيَ إلى طعامٍ ومعه فرقدٌ السَّبخي وأصحابُه، فقعدُوا على المائدة وعليها الألوانُ من الدجاجِ المسمَّنِ والفالوذِ وغيرِ ذلك، فاعتزلَ فرقدٌ ناحيةً، فسأل الحسنُ أهو صائمٌ؟ قالوا: لا، ولكنه يكره هذه الألوانَ، فأقبل الحسنُ عليه وقال: يا فُرَيْقِدُ أترى لُعابَ النحلِ بِلُبابِ البُرِّ بخالصِ السَّمْنِ يَعيبُه مسلمٌ؟!، وعنه أنه قيل له: فلانٌ لا يأكلُ الفالوذَ، ويقولُ: لا أُؤَدِّي شكرَه، فقال: أفَيشربُ الماءَ الباردَ؟ قالوا: نعم، قال: إنه جاهلٌ أن نعمة الله عليه في الماءِ الباردِ أكبرُ من نعمتِه عليه في الفالوذِ[5]، ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾: ولا تُجاوزُوا الحدَّ الذي حُدَّ عليكم في تحريمٍ أو تحليلٍ، أو: ولا تتعدَّوا حدودَ ما أُحلَّ لكم إلى ما حُرِّمَ عليكم، أو: ولا تُسرفُوا في تناولِ الطيباتِ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾﴾ حدودَه.

«٨٨» ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ﴾ (حلالاً): حالٌ من (ما رزقكم الله)، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾: توكيدٌ للتوصيةِ بما أمر به، وزاده توكيداً بقولِه: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾؛ لأن الإيمان به يوجب التقوى فيما أمرَ به ونهى.

«٨٩» ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ اللغوُ في اليمين: الساقطُ الذي لا يتعلقُ به حكمٌ،

---

(١) رواه البخاري (٥٥١٨)، ومسلم (١٦٤٩) عن سيدنا أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) **الفالُوذ، والفالوذَج**: حلواءُ تُصنعُ من الدقيق والماء والعسل، وجاء في «المستدرك» (٤/ ١٠٩) أن النبي ﷺ كان في بعض أصحابه فصنع طعاماً من الدقيق والسمن والعسل فأكل وأكلوا معه.

(٣) رواه البخاري (٥٤٣١) ومسلم (١٤٧٤) عن سيدتنا عائشة رضي الله عنها.

(٤) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٨/ ٨٨)، وانظر «المقاصد الحسنة» (ص٤٩١).

(٥) روى نحوه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٧/ ١٧٦).

وهو أن يحلفَ على شيءٍ يرى أنه كذلك وليس كما ظنَّ، وكانوا حلفُوا على تحريمِ الطيباتِ على ظنٍّ أنه قربةٌ، فلما نزلت الآية.. قالُوا: فكيف أيْمانُنا؟ فنزلت، وعند الشافعي رحمه الله: ما يجري على اللسان بلا قصدٍ[١]، ﴿وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ﴾ أي: بتعقيدِكم الأيمانَ، وهو توثيقُها، وبالتخفيفِ: كوفيٌّ غيرَ حفصٍ[٢]، والعقدُ: العزمُ على الوفاءِ، وذا لا يُتصورُ في الماضي، فلا كفارةَ في الغَموس، وعند الشافعي رحمه الله: القصدُ بالقلبِ، ويمينُ الغموسِ مقصودةٌ، فكانت معقودةً، فكانت الكفارة فيها مشروعةً[٣]؛ والمعنى: ولكن يؤاخذُكم بما عقدتم إذا حَنِثْتُم، فحُذفَ وقتُ المؤاخذةِ؛ لأنه كان معلوماً عندهم، أو: بِنَكْثِ ما عقدتم، فحُذف المضافُ، ﴿فَكَفَّارَتُهُ﴾ أي: فكفارةُ نَكْثِهِ، أو: فكفارةُ معقودِ الأيمانِ، والكفارةُ: الفِعْلَةُ التي مِن شأنها أن تُكَفِّرَ الخطيئةَ؛ أي: تَسْتُرَها، ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ﴾ هو: أن يُغدِّيَهم ويُعَشِّيَهم، ويجوزُ أن يعطيَهم بطريقِ التمليكِ، وهو لكلِّ واحدٍ نصفُ صاعٍ من بُرٍّ، أو صاعٌ من شعيرٍ، أو صاعٌ من تمرٍ، وعند الشافعي رحمه الله: مدٌّ لكلِّ مسكينٍ[٤]، ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ أي: غَداءً وعَشاءً؛ مِن بُرٍّ؛ إذ الأوسعُ: ثلاثُ مراتٍ مع الإدامِ، والأدنى: مرةٌ من تمرٍ أو شعيرٍ[٥]، ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾: عطفٌ على (إطعامُ)، أو على محلِّ (من أوسط)؛ ووجْهُهُ: أنَّ (من أوسط): بدلٌ من (إطعام)، والبدلُ هو المقصودُ في الكلام، وهو ثوبٌ يُغطي العورةَ، وعن ابن عمر رضي الله عنه: إزارٌ وقميصٌ أو رِداءٌ[٦]، ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾: مؤمنةٍ أو كافرةٍ؛ لإطلاقِ النصِّ، وشرطَ الشافعيُّ رحمة الله الإيمانَ؛ حملاً للمطلق على المقيدِ في كفارةِ القتلِ[٧]، ومعنى (أو): التخييرُ، وإيجابُ إحدى الكفاراتِ الثلاثِ، ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ إحداها ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾

---

(١) انظر «حاشية ابن عابدين» (٣/ ٧٠٦)، و«نهاية المحتاج» (٨/ ١٧٩).

(٢) قرأ ابن ذكوان: ﴿عاقَدْتم﴾، وشعبةُ وحمزة والكسائي وخلف: ﴿عَقَدْتُم﴾، والباقون: ﴿عَقَّدْتُم﴾. انظر «البدور الزاهرة» (ص٩٦).

(٣) انظر «حاشية ابن عابدين» (٣/ ٣٨١) و«حاشية الجمل على شرح منهج الطلاب» (٥/ ٢٩٣)، وسميت غَموساً؛ لأنها تغمس صاحبها في الإثم، ثم في النار.

(٤) انظر «حاشية ابن عابدين» (٣/ ٧٢٥)، و«نهاية المحتاج» (٨/ ١٨٢).

(٥) أي: فالوسط: مرتان.

(٦) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٥٥٠) والرواية فيه: (ورداء).

(٧) انظر «المبسوط» للسرخسي (٧/ ٢)، و«نهاية المحتاج» (٨/ ١٨٢).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ ....

متتابعات؛ لقراءة أُبَيٍّ وابنِ مسعودٍ كذلك[1]، ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكورُ ﴿كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ﴾ وحَنِثْتُم، فتركَ ذكرَ الحنثِ؛ لوقوعِ العلم بأن الكفارةَ لا تجب بنفسِ الحلفِ؛ ولذا لم يجزِ التكفيرُ قبلَ الحنثِ[2]، ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ﴾: فَبَرُّوا فيها ولا تحنثوا إذا لم يكن الحنثُ خيراً، أو: ولا تحلفُوا أصلاً، ﴿كَذَٰلِكَ﴾: مثلَ ذلك البيانِ ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾: أعلامَ شريعتِه وأحكامَه؛ ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ نعمتَه فيما يعلمُكم ويُسَهِّلُ عليكم المخرجَ منه.

«٩٠» ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ﴾ أي: القمارُ، ﴿وَٱلۡأَنصَابُ﴾: الأصنامُ؛ لأنها تُنصبُ فتعبدُ، ﴿وَٱلۡأَزۡلَٰمُ﴾ وهي: القداحُ التي مرَّتْ، ﴿رِجۡسٞ﴾: نَجَسٌ، أو: خبيثٌ مستقذَرٌ ﴿مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾؛ لأنه يَحْمِلُ عليه، فكأنه عملُه، والضميرُ في ﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾: يرجعُ إلى الرجسِ، أو: إلى عملِ الشيطانِ، أو: إلى المذكورِ، أو: إلى المضافِ المحذوفِ، كأنه قيل: إنما تعاطِي الخمرِ والميسرِ؛ ولذا قال: (رجسٌ)، ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ أكدَ تحريمَ الخمرِ والميسرِ من وجوه؛ حيث صدَّرَ الجملةَ بـ(إنما)، وقرنَهما بعبادةِ الأصنامِ، ومنه الحديث: «شارب الخمر كعابدِ الوثن»[3]، وجعلَهما رجساً من عمل الشيطان، ولا يأتي منه إلا الشرُّ البحتُ، وأمرَ بالاجتنابِ، وجعلَ الاجتنابَ من الفلاح، وإذا كان الاجتنابُ فلاحاً.. كان الارتكابُ خساراً.

«٩١» ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ﴾: ذكرَ ما يتولدُ منهما من الوَبالِ، وهو وقوعُ التعادي والتباغضِ بين أصحابِ الخمرِ والقمارِ، وما يُؤدِّيان إليه من الصدِّ عن ذكرِ اللهِ، وعن مراعاةِ أوقاتِ الصلاةِ، وخصَّ الصلاةَ من بينِ الذكرِ لزيادةِ درجتِها، كأنه قال: وعن الصلاةِ خصوصاً، وإنما جمعَ الخمرَ والميسرَ مع الأنصابِ والأزلامِ أوَّلاً ثم أفردَهما آخراً؛ لأن الخطابَ مع المؤمنين، وإنما نهاهم عمّا كانوا يتعاطَوْنَه من شربِ الخمرِ واللعبِ بالميسرِ، وذكرَ الأنصابَ والأزلامَ؛ لتأكيدِ تحريمِ الخمرِ

---

(١) روى هذه القراءة عنهما: البيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/ ٦٠).

(٢) يجوز عند الشافعية تقديمُ الكفارةِ بغيرِ الصومِ على الحنث. انظر «نهاية المحتاج» (٨/ ١٨١).

(٣) رواه الهيثمي في «بغية الباحث» (٢/ ٥٩١) عن سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وعند ابن ماجه (٣٣٧٥) من رواية سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه: «مدمن الخمر كعابد وثن».

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾ ....

والميسرِ، وإظهارِ أن ذلك جميعاً من أعمالِ أهلِ الشركِ، وكأنه لا مباينةَ بين عابدِ الصنمِ وشاربِ الخمرِ والمقامرِ، ثم أفردَهما بالذكرِ؛ ليُعلم أنهما المقصودُ بالذكرِ، ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾: مِن أبلغِ ما يُنْهَى به، كأنه قيل: قد تُلِيَ عليكم ما فيهما من الصوارفِ والزواجرِ فهل أنتم مع هذه الصوارفِ منتهون؟ أم أنتم على ما كنتم عليه كأنْ لم تُوعظُوا، ولم تُزجرُوا؟

《٩٢》 ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ۚ﴾: وكونُوا حَذِرين خاشعين؛ لأنهم إذا حَذِرُوا.. دعاهم الحذرُ إلى اتقاءِ كلِّ سيئةٍ، وعملِ كلِّ حسنةٍ، ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن ذلك ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾ أي: فاعلموا أنكم لم تضرُّوا بتوليكم الرسولَ؛ لأنه ما كلفَ إلا البلاغَ المبينَ بالآياتِ، وإنما ضَرَرْتُم أنفسَكم حين أعرضتم عما كُلِّفْتُموه.

《٩٣》 ونزل فيمن تعاطَى شيئاً من الخمر والميسر قبلَ التحريم[1]:

﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟﴾ أي: شربُوا من الخمرِ، وأكلوا من مال القمار قبلَ تحريمهما ﴿إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟﴾ الشركَ، ﴿وَّءَامَنُوا۟﴾ باللهِ، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بعد الإيمانِ، ﴿ثُمَّ ٱتَّقَوا۟﴾ الخمرَ والميسرَ بعدَ التحريمِ، ﴿وَّءَامَنُوا۟﴾ بتحريمهما، ﴿ثُمَّ ٱتَّقَوا۟﴾ سائرَ المحرماتِ، أو: الأولُ: عن الشرك، والثاني: عن المحرمات، والثالثُ: عن الشبهات، ﴿وَّأَحْسَنُوا۟ۗ﴾ إلى الناسِ، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

《٩٤》 ولما ابتلاهم الله بالصيد عامَ الحديبيةِ وهم محرمون، وكثرَ عندهم حتى كان يَغشاهم في رحالهم فيستمكنون من صيدِه أخذاً بأيديهم، وطعناً برماحِهم.. نزل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ ومعنى يبلو: يختبرُ، وهو من الله تعالى لإظهارِ ما عَلِمَ من العبد على ما عَلِمَ، لا ليعلم ما لم يعلمْ، و(مِن): للتبعيض؛ إذ لا يحرمُ كلُّ صيدٍ، أو: لبيان الجنسِ، ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِۚ﴾: ليعلمَ اللهُ خوفَ الخائفِ منه بالامتناع عن الاصطياد موجوداً كما كان يعلمُ قبل وجوده أنه يُوجدُ؛ لِيُثِيبَهُ على عمله، لا على

---

(١) رواه البخاري (٢٤٦٤) ومسلم (١٩٨٠) عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَـٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّـٰرَةٌ طَعَامُ مَسَـٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾﴾ ....

عِلْمِه به، ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ﴾ فصادَ ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ الابتلاءِ ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾ قَلَّلَ في قوله (بشيءٍ من الصيد)؛ لِيُعْلَمَ أنه ليس من الفتنِ العظامِ، و(تناله): صفةٌ لـ (شيء).

《٩٥》 ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ﴾ أي: المصيدَ؛ إذ القتلُ إنما يكون فيه، ﴿وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ أي: محرمون، جمعُ حرامٍ، كرُدُحٍ في جمعِ رَداحٍ[1]، في محلِّ النصبِ على الحال من ضمير الفاعل في (تقتلوا)، ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا﴾: حالٌ من ضميرِ الفاعلِ؛ أي: ذاكراً لإحرامِه، أو عالماً أن ما يقتلُه مما يحرمُ قتلُه عليه، فإن قتله ناسياً لإحرامه، أو رمَى صيداً وهو يظنُّ أنه ليس بصيدٍ.. فهو مخطئٌ، وإنما شُرِطَ التعمدُ في الآية مع أن محظوراتِ الإحرامِ يستوي فيها العمدُ والخطأُ؛ لأن مَوْرِدَ الآية فيمن تَعَمَّدَ، فقد روي: أنه عنَّ لهم في عمرة الحديبيةِ حمارُ وحشٍ[2]، فحملَ عليه أبو اليَسَرِ، فقتلَه، فقيل له: إنك قتلت الصيدَ وأنت مُحرمٌ، فنزلت[3]، ولأن الأصلَ فعلُ المتعمد، والخطأُ ملحقٌ به للتغليظ، وعن الزهري: نزل الكتاب بالعمدِ، ووردت السنةُ بالخطأ، ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ﴾: كوفيٌّ؛ أي: فعليه جزاءٌ يماثلُ ما قتل من الصيد، وهو قيمة الصيد، يُقَوَّمُ حيث صِيْدَ، فإن بلغت قيمتُه ثمنَ هَدْيٍ.. خُيِّرَ بين أن يُهديَ من النَّعَمِ ما قيمته قيمةُ الصيد، وبين أن يشتريَ بقيمتِه طعاماً فيعطيَ كلَّ مسكينٍ نصفَ صاعٍ من بُرٍّ، أو صاعاً من غيرِه، وإن شاء.. صامَ عن طعامِ كلِّ مسكينٍ يوماً، وعندَ محمدٍ والشافعيِّ رحمهما الله تعالى مثلُه: نظيرُه من النَّعَمِ، فإن لم يوجد له نظيرٌ من النَّعَمِ.. فكما مرَّ[4]، ﴿فجزاءُ مثلِ﴾ على

---

(١) يقال: بَيتٌ رداح؛ أي: وَاسع.

(٢) عَنَّ لهم: ظهر.

(٣) قال الطيبي في «فتوح الغيب» (٥/ ٤٨٢): ما وجدت حديث أبي اليسر في الأصول. وذكره الشافعي في «مسنده» (١/ ٣٣٦) بلا إسناد، وفي «البخاري» (١٨٢٣) ومسلم (١١٩٦) عن سيدنا أبي قتادة رضي الله عنه أنه صاد حمار وحش عام الحديبية ولم يكن محرماً.

(٤) عند الإمام محمد: يجب المثل من حيث الصورةُ والجثةُ، وما لا نظير له تجب فيه القيمة، وعند الشافعية: يتخير في الصيد المثلي بين ذبح مثله والصدقةِ به على مساكين الحرم، وبين أن يقوم المثلي دراهم ويشتري به طعاماً لهم، أو يصوم عن كل مدٍّ يوماً، وغير المثلي يتصدق بقيمته طعاماً أو يصوم. انظر «الاختيار لتعليل المختار» (١/ ١٦٧)، و«منهاج الطالبين» (ص٩٢).

....

الإضافة: غيرُهم[١]، وأصلُه: فجزاءٌ مثلَ ما قتلَ؛ أي: فعليه أن يَجْزِيَ مثلَ ما قتلَ، ثم أضيفَ، كما تقول: عجبتُ من ضربٍ زيداً، ثم: مِن ضربِ زيدٍ[٢]، ﴿مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾: حالٌ من الضمير في (قتل)؛ إذ المقتولُ يكون من النَّعَم، أو: صفةٌ لـ (جزاء)، ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ﴾: بمثل ما قتلَ ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾: حكمانِ عادلانِ من المسلمين؛ وفيه دليلٌ على أن المثلَ: القيمةُ؛ لأن التقويم مما يَحتاج إلى النظر والاجتهادِ دون الأشياء المشاهدةِ؛ ولأن المثل المطلقَ في الكتاب والسنة والإجماع مقيدٌ بالصورة والمعنى، أو بالمعنى لا بالصورة، أو بالصورة بلا معنى[٣]، ولأن القيمةَ أُريدت فيما لا مثلَ له صورةً إجماعاً، فلم يبقَ غيرُها مراداً؛ إذ لا عمومَ للمشترك.

فإن قلت: قولُه: (من النعم): ينافي تفسيرَ المثلِ بالقيمةِ

قلت: مَن أوجبَ القيمةَ.. خَيَّرَ بين أن يشتريَ بها هدياً، أو طعاماً، أو يصومَ، كما خيَّرَ الله تعالى في الآية، فكان (من النعم) بياناً للهدْيِ المشترَى بالقيمةِ في أحدِ وجوهِ التخييرِ؛ لأن مَنْ قوَّمَ الصيدَ واشترى بالقيمة هدياً فأهداه.. فقد جَزَى بمثلِ ما قتل من النعم، على أن التخييرَ الذي في الآية بين أن يَجْزِيَ بالهدي، أو يكفرَ بالإطعامِ، أو الصومِ.. إنما يستقيم إذا قَوَّمَ وَنَظَرَ بعدَ التقويم أيَّ الثلاثةِ يختارُ؟ فأمّا إذا عَمَدَ إلى النظيرِ وجعلَه الواجبَ وَحْدَهُ من غيرِ تخييرٍ، فإذا كان شيئاً لا نظيرَ له قَوَّمَ حينئذٍ، ثم تخيَّرَ بين الإطعامِ والصيامِ.. ففيه نُبُوٌّ عمّا في الآية؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ كيف خَيَّرَ بينَ الأشياءِ الثلاثةِ؟ ولا سبيلَ إلى ذلك إلا بالتقويم.

﴿هَدْيًۢا﴾: حالٌ من الهاء في (به)؛ أي: يحكمُ به في حالِ الهدي، ﴿بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾: صفةٌ لـ(هدياً)؛ لأن إضافتَه غيرُ حقيقيةٍ[٤]، ومعنى بلوغِه الكعبةَ: أن يُذبح بالحرمِ، فأمّا التصدقُ به.. فحيث شئت، وعند الشافعي رحمه الله: في الحرم[٥]، ﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ﴾: معطوفٌ على (جزاءٌ) ﴿طَعَامُ﴾: بدلٌ من (كفارةٌ)، أو: خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ؛ أي: هي طعامٌ، ﴿أو كفارةُ طعامٍ﴾ على

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٩٦).

(٢) فهو من إضافة المصدر إلى مفعوله، ومعنى يَجزي: يُعطي.

(٣) المثلُ صورةً: المماثلُ في الشكل، والمثل معنى: القيمة، فقيمة الشيء مماثلة له حُكماً.

(٤) أي: هي إضافة لفظية للتخفيف؛ لأنها من إضافة اسم الفاعل إلى مفعوله، والأصل: (بالغاً الكعبةَ) وهذه الإضافة لا تفيدُ تعريف المضاف، فصحَّ كونُ (بالغَ) صفةً للنكرةِ.

(٥) انظر «البناية شرح الهداية» (٤/٣٨٦)، و«نهاية المحتاج» (٣/٣٥٩).

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾ ....

الإضافة: مدنيٌّ وشاميٌّ[1]، وهذه الإضافةُ لتبيينِ المضافِ، كأنه قيل: أو كفارةٌ من طعام ﴿مَسَٰكِينَ﴾، كما تقول: خاتمُ فضةٍ؛ أي: خاتمٌ من فضةٍ، ﴿أَوْ عَدْلُ﴾ وقرئ بكسرِ العينِ[2]، قال الفراء: العَدل: ما عدلَ الشيءَ من غيرِ جنسِه، كالصومِ والإطعامِ، والعِدلُ: مثلُه من جنسه، ومنه: عِدلا الحِمْلِ؛ يقال: عندي غلامٌ عِدلُ غلامِك، بالكسر: إذا كان من جنسِه، فإن أُريدَ أن قيمتَه كقيمتِه ولم يكن من جنسه.. قيل: هو عَدلُ غلامِك، بالفتح، ﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارةٌ إلى الطعام ﴿صِيَامًا﴾: تمييزٌ، نحوُ: لي مثلُه رجلاً، والخيارُ في ذلك إلى القاتلِ، وعند محمدٍ رحمه الله: إلى الحَكَمَين[3]؛ ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾: متعلقٌ بقولِه: (فجزاء) أي: فعليه أنْ يُجازَى أو يكفِّرَ؛ ليذوقَ سوءَ عاقبةِ هتكِه لحُرمةِ الإحرامِ، والوبالُ: المكروهُ والضَّررُ الذي يُنالُ في العاقبةِ من عملِ سوءٍ؛ لِثِقَلِه عليه؛ مِن قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٦] أي: ثقيلاً شديداً، والطعامُ الوَبيلُ: الذي يثقلُ على المعدةِ فلا يُستمرأُ، ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ لكم من الصيدِ قبلَ التحريمِ، ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى قتلِ الصيدِ بعدَ التحريمِ، أو: في ذلك الإحرامِ ﴿فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾ بالجزاءِ، وهو: خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، تقديرُه: فهو ينتقمُ اللهُ منه[4]، ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ بإلزامِ الأحكامِ، ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾﴾ لمن جاوزَ حدودَ الإسلامِ.

《٩٦》 ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾: مَصِيداتُ البحرِ مما يؤكلُ، ومما لا يُؤكلُ، ﴿وَطَعَامُهُۥ﴾: وما يُطعَمُ من صيدِه؛ والمعنى: أُحِلَّ لكم الانتفاعُ بجميعِ ما يُصادُ في البحر، وأُحلَّ لكم أكلُ المأكولِ منه، وهو السمكُ وحدَه؛ ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ﴾: مفعولٌ له؛ أي: أُحِلَّ لكم؛ تمتيعاً لكم، ﴿وَلِلسَّيَّارَةِ﴾: وللمسافرين؛ والمعنى: أُحِلَّ لكم طعامُه؛ تمتيعاً لِتُنَّائِكُمْ يأكلونَه طريّاً[5]، ولسيّارتِكم يتزوَّدُونه قَدِيداً[6]، كما تزودَ موسى عليه السلام الحوتَ في مسيرِه إلى الخضرِ،

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٩٦).

(٢) قراءة شاذة. انظر «الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها» (ص٥٣٦).

(٣) انظر «البناية شرح الهداية» (٤/ ٣٨٣).

(٤) الفاء الرابطة لجواب الشرط إذا دخلت على المضارع الذي يصح وقوعه بعد أداة الشرط.. وجب رفعه، وقُدِّرَ بعدها مبتدأ، فتكون الفاء داخلةً على جملة اسمية. انظر «شرح التسهيل» لابن مالك (٤/ ٧٩).

(٥) التُّنَّاءُ: جمع تَانِئٍ، وهو المقيم.

(٦) القديد: المجفف.

جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ ....

﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ﴾: ما صِيدَ فيه، وهو ما يُفرِّخُ فيه وإن كان يعيشُ في الماء في بعض الأوقات كالبطِّ، فإنه برِّيٌّ؛ لأنه يتولدُ في البرِّ، والبحرُ له مَرعىً، كما للناس مَتْجَرٌ، ﴿مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾: محرمين، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في الاصطياد في الحرم، أو في الإحرام، ﴿ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾: تُبعثون فيَجْزيْكم على أعمالكم.

《٩٧》 ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ﴾ أي: صَيَّرَ ﴿ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾: بدلٌ أو عطفُ بيانٍ، ﴿قِيَٰمًا﴾: مفعولٌ ثانٍ، أو: (جعل) بمعنى: خلَقَ، و(قياماً): حالٌ، ﴿لِّلنَّاسِ﴾ أي: انتعاشاً لهم في أمرِ دينِهم، ونُهوضاً إلى أغراضِهم في معاشِهم ومعادِهم؛ لِما يُتِمُّ لهم من أمرِ حجِّهم وعُمرتِهم، وأنواعِ منافعِهم، قيل: لو تركُوه عاماً.. لم يُنظَروا ولم يُؤَخَّروا[1]، ﴿وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾: والشهرَ الذي يُؤدَّى فيه الحجُّ، وهو ذو الحِجَّة؛ لأن لاختصاصه من بينِ الأشهرِ بإقامةِ موسمِ الحجِّ فيه شأناً قد علمه اللهُ، أو: أُريدَ به جنسُ الأشهرِ الحرمِ، وهو رجبٌ، وذو القَعدةِ، وذو الحِجَّةِ، والمحرمُ، ﴿وَٱلْهَدْىَ﴾: ما يُهدَى إلى مكةَ، ﴿وَٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾: والمقلَّدَ منه خصوصاً وهو البُدْنُ، فالثوابُ فيه أكثرُ، وبَهاءُ الحجِّ معه أظهرُ، ﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارةٌ إلى جعلِ الكعبةِ قِياماً، أو: إلى ما ذُكرَ من حفظِ حُرمةِ الإحرامِ بتركِ الصيدِ وغيرِه؛ ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾ أي: لتعلموا أن الله يعلمُ مصالحَ ما في السمواتِ وما في الأرضِ، وكيف لا وهو بكل شيءٍ عليمٌ؟

《٩٨》 ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن استخفَّ بالحرمِ والإحرامِ، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لآثامِ مَن عَظَّمَ المشاعرَ العِظامَ، ﴿رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾ بالجاني الملتجئِ إلى البلدِ الحرامِ.

《٩٩》 ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾: تشديدٌ في إيجابِ القيامِ بما أمرَ به، وأن الرسولَ قد فرغَ مما وجب عليه من التبليغ، وقامت عليكم الحجةُ، ولَزِمَتكم الطاعةُ، فلا عذرَ لكم في التفريطِ، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾﴾ فلا يخفَى عليه نِفاقُكم ووِفاقُكم.

---

(١) أي: لو تركوا الحج عاماً.. لأهلكهم الله.

﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ ....

《١٠٠》 ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ لمّا أخبرَ أنه يعلمُ ما يُبدون وما يكتمون.. ذكرَ أنه لا يستوي خبيثُهم وطَيِّبُهم، بل يُمَيِّزُ بينهما، فيعاقبُ الخبيثَ؛ أي: الكافرَ، ويثيبُ الطيبَ؛ أي: المسلمَ، ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وآثِروا الطيبَ وإن قلَّ، على الخبيثِ وإن كثُرَ، وقيلَ: هو عامٌّ في حلالِ المالِ وحرامِه، وصالحِ العملِ وطالِحِه، وجَيِّدِ الناسِ ورديئِهم، ﴿يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: العقولِ الخالصةِ؛ ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

《١٠١》 كانوا يَسألون النبيَّ عليه السلام عن أشياءَ امتحاناً، فنزل[1]:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ﴾ قال الخليلُ وسيبويهِ وجمهورُ البصريين: أصله: شَيْئَاءُ[2]، بهمزتين بينهما ألف، وهي (فَعْلاء) من لفظِ: شَيْءٍ، وهمزتُها الثانيةُ للتأنيث؛ ولذا لم تَنصرفْ كحمراءَ، وهي مفردةٌ لفظاً، جمعٌ معنىً، ولما استُثقلتِ الهمزتانِ المجتمعتانِ.. قُدِّمَتِ الأولى التي هي لامُ الكلمةِ، فجعلت قبلَ الشينِ، فصارَ وزنُها (لفعاءَ)، والجملةُ الشرطيةُ والمعطوفةُ عليها؛ أي: قولُه: ﴿إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾: صفةٌ لـ (أشياءَ)؛ أي: وإن تسألوا عن هذه التكاليفِ الصعبةِ في زمانِ الوحيِ وهو ما دامَ الرسولُ بينَ أظهُرِكم.. تُبْدَ لكم تلك التكاليفُ التي تسوؤُكم؛ أي: تَغُمُّكُم، وتَشُقُّ عليكم، تُؤمرون بتحمّلِها فتُعرِّضُون أنفسَكم لغضبِ اللهِ بالتفريطِ فيها، ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا﴾: عفا الله عما سلفَ من مسألتِكم، فلا تعودُوا إلى مثلِها، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ لا يعاقبُكم إلا بعد الإنذارِ.

《١٠٢》 والضميرُ في ﴿قَدْ سَأَلَهَا﴾: لا يرجعُ إلى (أشياءَ) حتى يُعدَّى بـ: عن، بل يرجعُ إلى المسألةِ التي دلَّت عليها (لا تسألوا) أي: قد سألَ هذه المسألةَ[3] ﴿قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾: من الأولين، ﴿ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا﴾: صارُوا بسببِها ﴿كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ كما عُرفَ في بني إسرائيلَ.

---

(١) انظر «تفسير الطبري» (١١/ ٩٨).

(٢) «الكتاب» لسيبويه (٤/ ٣٨٠).

(٣) فالضمير مفعول مطلق؛ والمرادُ: سأل مثلَها في كونها محظورةً ومستتبعةً للوبال قومٌ. انظر «تفسير الآلوسي» (٤/ ٤٠).

مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ....

«١٠٣» ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ كان أهلُ الجاهليةِ إذا نُتِجَتِ الناقةُ خمسةَ أبطنٍ آخرُها ذكرٌ.. بَحَرُوا أُذُنَها؛ أي: شَقُّوها وامتنعُوا من ركوبِها وذَبْحِها، ولا تُطردُ عن ماءٍ ولا مرعىً، واسمُها البَحيرةُ، وكان يقول الرجلُ: إذا قَدِمتُ من سفري، أو بَرَأْتُ من مرضي.. فناقتي سائبةٌ، وجعلَها كالبَحيرةِ في تحريمِ الانتفاعِ بها، وقيل: كان الرجلُ إذا أعتقَ عبداً.. قال: هو سائبةٌ، فلا عَقْلَ بينهما ولا ميراثَ[1]، وكانت الشاةُ إذا ولدت سبعةَ أبطنٍ؛ فإن كان السابعُ ذَكراً.. أكلَه الرجالُ، وإن كان أنثى.. أُرسلت في الغنم، وكذا إن كان ذكراً وأنثى، وقالوا: وَصَلَت أخاها[2]، فالوصيلةُ بمعنى: الواصلة، وإذا نُتِجَتِ من صُلب الفحل عشرةُ أبطنٍ.. قالُوا: قد حَمَى ظهرَه، فلا يُركبُ، ولا يُحمل عليه، ولا يمنعُ من ماءٍ ولا مرعىً؛ ومعنى (ما جعل): ما شرعَ ذلك، ولا أمرَ به، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بتحريمِهم ما حَرَّمُوا ﴿يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ في نِسبتِهم هذا التحريمَ إليه، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ أن الله لم يحرمْ ذلك، وهم عوامُّهم.

«١٠٤» ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ أي: هَلُمُّوا إلى حكمِ اللهِ ورسولِه بأن هذه الأشياءَ غيرُ محرمةٍ ﴿قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ أي: كافِينا ذلك، (حسبُنا): مبتدأٌ، والخبرُ: (ما وجدنا)، و(ما): بمعنى الذي، والواو في: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ﴾: للحال، قد دخلت عليها همزةُ الإنكارِ، وتقديرُه: أَحَسْبُهُم ذلك ولو كان آباؤُهم ﴿لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ أي: الاقتداءُ إنما يصحُّ بالعالم المهتدِي، وإنما يُعرفُ اهتداؤُه بالحُجَّةِ.

«١٠٥» ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ انتصبَ (أنفسَكم) بـ(عليكم)، وهو من أسماءِ الفعلِ؛ أي: الزموا إصلاحَ أنفسِكم، والكافُ والميمُ في (عليكم): في موضعِ جرٍّ؛ لأن اسمَ الفعلِ هو الجارُّ والمجرورُ، لا (على) وحدَها، ﴿لَا يَضُرُّكُم﴾: رفعٌ على الاستئناف، أو: جزمٌ على جوابِ الأمرِ، وإنما ضُمَّتِ الراءُ؛ إتباعاً لضمةِ الضادِ، ﴿مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ كان

---

(١) العَقْلُ: الديةُ.

(٢) أي: مَنَعَتْه من الذبح. انظر «الهداية إلى بلوغ النهاية» (٣/١٨٩٦).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ١٠٦﴾ ....

المؤمنون تذهبُ أنفسُهم حسرةً على أهلِ العنادِ من الكفرةِ، يَتَمَنَّون دخولَهم في الإسلام، فقيل لهم: عليكم أنفسَكم، وما كُلِّفْتم من إصلاحها، لا يضرُّكم الضُّلَّالُ من دينِكم إذا كنتم مُهتدين[1]، وليس المرادُ تركَ الأمرِ بالمعروفِ، والنهيِ عن المنكرِ؛ فإن تركَهما مع القدرة عليهما لا يجوزُ[2]، ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا﴾: رجوعُكم، ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥﴾ ثُمَّ يَجزيكم على أعمالكم.

《١٠٦》 روي: أنه خرجَ بُدَيلُ مولى عمرِو بنِ العاصِ، وكان من المهاجرين، مع عَدِيِّ وتَميمٍ وكانا نصرانيين إلى الشامِ، فمرض بُدَيلٌ، وكتب كتاباً فيه ما معَه، وطرحَه في متاعِه ولم يُخبِر به صاحبَيهِ، وأوصَى إليهما أنْ يدفَعا متاعَه إلى أهله، ومات، فَفَتَّشا متاعَه، فأخذا إناءً من فضةٍ، فأصابَ أهلُ بُدَيلٍ الصحيفةَ، فطالبُوهما بالإناءِ فجَحَدا، فرفعُوهما إلى رسول الله ﷺ، فنزل[3]:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ﴾ ارتفعَ (اثنان)؛ لأنه خبرُ المبتدأِ وهو (شهادةُ) بتقدير: شهادةُ بينِكم شهادةُ اثنين، أو: لأنه فاعلُ (شهادةُ بينِكم) أي: فيما فُرِضَ عليكم أن يشهدَ اثنان، واتُّسِعَ في (بين) فأضيف إليه المصدرُ، و(إذا): ظرفٌ للشهادة، و(حين الوصية): بدلٌ منه، وفي إبدالِه منه: دليلٌ على وجوبِ الوصيةِ؛ لأن حضورَ الموتِ من الأمورِ الكائنةِ، وحينَ الوصيةِ: بدلٌ منه، فيدلُّ على وجودِ الوصيةِ، ولو وجدت بدونِ

---

(١) في «الكشاف» (١/ ٧١٨): لا يضركم الضُّلّالُ عَن دينكم إذا كنتم مهتدين.

(٢) عن قيس بن أبي حازم، عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: أيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوُا الظالمَ فلم يأخذُوا على يديه.. أوشكَ أن يَعُمَّهم الله بعقاب منه». رواه أبو داود (٤٣٣٨)، والترمذي (٢١٦٨).

(٣) روى البخاري (٢٧٨٠) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما قال: خرج رجلٌ من بني سهم مع تميم الداري، وعديِّ بن بَدّاءٍ، فمات السَّهميُّ بأرضٍ ليس بها مسلم، فلما قدما بتركته.. فقدُوا جاماً من فضةٍ مُخَوَّصاً من ذهب، فأحلفهما رسول الله ﷺ، ثم وُجِدَ الجامُ بمكةَ، فقالوا: ابتعناه من تميم وعديٍّ، فقام رجلان من أوليائه، فحلفا لشهادتُنا أحقُّ من شهادتهما، وإنَّ الجامَ لصاحبِهم، قال: وفيهم نزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾.

الاختيارِ.. لسقطَ الابتلاءُ، فنقلَ إلى الوجوبِ[١]، وحضورُ الموتِ: مشارفتُه وظهورُ أماراتِ بلوغِ الأجلِ، ﴿ذَوَا عَدْلٍ﴾: صفةٌ لـ: اثنين، ﴿مِنكُمْ﴾: من أقاربِكم؛ لأنهم أعلمُ بأحوالِ الميتِ، ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ﴾: عطفٌ على (اثنان)، ﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾: من الأجانبِ، ﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: سافرتم فيها، و(أنتم): فاعلُ فعلٍ يفسرُه الظاهرُ، ﴿فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ﴾، أو: (منكم): من المسلمين، و(من غيركم): من أهلِ الذمة، وقيل: هو منسوخٌ؛ إذ لا يجوزُ شهادةُ الذميِّ على المسلمِ، وإنما جازت في أولِ الإسلامِ؛ لقلةِ المسلمينِ، ﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾: تقِفُونهما للحلف، وهو: استئنافُ كلامٍ، أو: صفةٌ لقولِه: (أو آخران من غيركم) أي: أو آخران من غيرِكم محبوسان، و(إن أنتم ضربتم في الأرض فأصابتكم مصيبة الموت): اعتراضٌ بين الصفة والموصوف، ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾: من بعدِ صلاةِ العصرِ؛ لأنه وقتُ اجتماعِ الناسِ، وعن الحسن: بعد العصر، أو الظهر؛ لأن أهلَ الحجازِ كانوا يَقعدُون للحكومة بعدَهما، وفي حديث بُدَيْلٍ: أنها لما نزلت.. صلَّى رسول الله ﷺ صلاةَ العصرِ، ودعا بِعَدِيٍّ وتميمٍ، فاستحلفهما عند المنبر، فحلفا، ثم وُجِدَ الإناءُ بمكةَ، فقالُوا: إنا اشتريناه من تميمٍ وعديٍّ[٢]، ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾: فيحلفان به ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾: شككتم في أمانتِهما، وهو اعتراضٌ بين (يقسمان) وجوابِه، وهو: ﴿لَا نَشْتَرِى﴾، وجوابُ الشرطِ محذوفٌ، أغنى عنه معنى الكلام، والتقديرُ: إن ارتبتم في شأنِهما.. فحلِّفُوهما، ﴿بِهِۦ﴾: بالله، أو: بالقسمِ، ﴿ثَمَنًا﴾: عوضاً من الدنيا ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ أي: المقسمُ له ﴿ذَا قُرْبَىٰ﴾ أي: لا نحلفُ كاذبين لأجلِ المالِ ولو كان مَن نُقسمُ له قريباً منّا، ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ﴾ أي: الشهادةَ التي أمرَ الله بحفظِها وتعظيمِها؛ ﴿إِنَّآ إِذًا﴾: إنْ كَتَمْنا ﴿لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ وقيل: إن أريدَ بهما الشاهدان.. فقد نُسِخَ تحليفُ الشاهدين، وإن أريدَ الوصيّان.. فلم يُنسخْ تحليفُهما.

---

(١) المؤلفُ تَبِعَ الزمخشريَّ في هذا الاستدلال، قال في «الكشاف» (١/ ٧١٩): حين الوصية: بدلٌ منه، وفي إبداله منه دليلٌ على وجوب الوصية، وأنها من الأمور اللازمةِ التي لا ينبغي أن يتهاونَ بها مسلمٌ ويذهلَ عنها. ويرى الطيبي في «فتوح الغيب» (٥/ ٥١٤) أن مراد الزمخشري التأكيد، وليس الوجوبَ المتعارف عند الفقهاء. وقال ابن عبد البر في «التمهيد» (١٤/ ٢٩٢): أجمع العلماء على أن الوصية غيرُ واجبةٍ على أحدٍ إلا أن يكون عليه دينٌ أو تكونَ عنده وديعةٌ، أو أمانةٌ فيوصي بذلك.

(٢) لم أعثر على روايةٍ أن تحليف النبيِّ ﷺ لهما كان بعد العصر، وورد في سنن أبي داود (٣٦٠٥) عن الشعبي: أن رجلاً من المسلمين حضرته الوفاةُ ولم يجد أحداً من المسلمين يُشهده على وصيته، فأشهدَ رجلين من أهل الكتاب، فقدما الكوفة، فأتيا أبا موسى الأشعري، فأخبراه وقدما بتركته ووصيته، فقال الأشعري: هذا أمرٌ لم يكن بعد الذي كان في عهد رسول الله ﷺ، فأحلفَهما بعدَ العصر.

﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَـٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ ....

《١٠٧》 ﴿فَإِنْ عُثِرَ﴾: فإن اطُّلِعَ ﴿عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا﴾: فَعَلا ما أَوْجَبَ إثماً، واستوجبا أن يقال: إنهما لمن الآثمين ﴿فَـَٔاخَرَانِ﴾: فشاهدان آخرانِ ﴿يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتُحِقَّ عَلَيْهِمُ﴾ أي: من الذين استُحِقَّ عليهم الإثمُ؛ ومعناه: من الذين جُنِيَ عليهم، وهم: أهلُ الميتِ وعشيرتُه، وفي قصة بُدَيلٍ: أنه لما ظهرتْ خيانةُ الرجلين.. حلَفَ رجلانِ من ورثتِه: إنه إناءُ صاحبِهما، وإن شهادتَهما أحقُّ من شهادتِهما، ﴿ٱلْأَوْلَيَـٰنِ﴾: الأَحقّانِ بالشهادةِ؛ لقرابتِهما، ومعرفتِهما، وارتفاعُهما على: هما الأوليان، كأنه قيل: ومَنْ هما؟ فقيل: الأوليانِ، أو: هما بدلٌ من الضميرِ في (يقومان)، أو: من (آخران)، ﴿ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ﴾: حفصٌ؛ أي: من الورثةِ الذين استَحَقَّ عليهم الأوليانِ من بينهم بالشهادةِ أن يُجَرِّدُوهما للقيام بالشهادةِ، ويُظهروا بهما كذبَ الكاذِبَينِ، ﴿الأَوَّلِينَ﴾: حمزةُ وأبو بكرٍ[1]، على أنه وصفٌ لـ (الذين استحق عليهم) مجرورٌ، أو منصوبٌ على المدحِ، وسُمُّوا أَوَّلِين؛ لأنهم كانوا أَوَّلِين في الذكرِ في قوله: (شهادةُ بينِكم)، ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا﴾ أي: لَيَمِينُنا أحقُّ بالقبولِ من يمينِ هذين الوصيَّيْنِ الخائنين، ﴿وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ﴾: وما تجاوَزْنا الحقَّ في يمينِنا، ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ أي: إن حَلفنا كاذِبَيْنِ.

《١٠٨》 ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي مرَّ ذكرُه من بيانِ الحكم ﴿أَدْنَىٰٓ﴾: أقربُ ﴿أَن يَأْتُوا۟﴾ أي: الشهداءُ على نحوِ تلك الحادثةِ ﴿بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾ كما حَمَلُوها بلا خيانةٍ فيها، ﴿أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَـٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ﴾ أي: تكرَّ أيمانُ شهودٍ آخرينَ بعدَ أيمانِهم، فيَفْتَضِحُوا بِظُهورِ كذبِهم[2]، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في الخيانةِ واليمينِ الكاذبةِ، ﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾ سمعَ قبولٍ وإجابةٍ، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾﴾: الخارجينَ عن الطاعةِ.

فإن قلتَ: ما معنى (أو) هنا؟

قلتُ: معناه: ذلك أقربُ من أن يُؤدُّوا الشهادةَ بالحقّ والصدقِ؛ إما لله، أو لخوفِ العارِ والافتضاحِ بِردِّ الأيمانِ.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٩٧، ٩٨).

(٢) **تكرُّ**: تَرْجعُ، أي: أو يخافوا أن ترجع أيمانٌ إلى ورثةِ الموصِي بعد أيمانِ الشاهدين.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْۖ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًاۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِىۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِىۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِىۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾ ....

وقد احتجَّ به مَن يرى ردَّ اليمين على المدعِي[1]، والجوابُ: أن الورثة قد ادَّعوا على النصرانِيَّيْنِ أنهما قد اخْتانا، فحلَفا، فلما ظهرَ كذبُهما.. ادعيا الشراءَ فيما كَتَما، فأنكرت الورثةُ، فكانت اليمينُ على الورثةِ؛ لإنكارهما الشراءَ.

«١٠٩» ﴿يَوْمَ﴾: منصوبٌ بـ: اذكروا، أو احذروا ﴿يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْۖ﴾: ما الذي أجابتكم أُمَمُكم حينَ دعوتُموهم إلى الإيمانِ، وهذا السؤالُ توبيخٌ لمن أنكرَهم، و(ماذا): منصوبٌ بـ (أجبتم) نصبَ المصدرِ، على معنى: أيَّ إجابة أُجبتم؟ ﴿قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآۖ﴾ بإخلاصِ قومِنا؛ دليلُه: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾، أو: بما أحدثُوا بعدَنا؛ دليلُه: ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْۚ﴾، أو: قالُوا ذلك تأدباً؛ أي: علمُنا ساقطٌ مع علمِك، ومغمورٌ به، فكأنّه لا علمَ لنا.

«١١٠» ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ﴾: بدلٌ مِن (يومَ يجمع)، ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ حيثُ طَهَّرْتُها واصطفيتُها على نساءِ العالمين، والعاملُ في ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ﴾ أي: قويتك: (نعمتي)، ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾: بجبريلَ عليه السلام، أُيِّدَ به لتثبيتِ الحجةِ عليهم، أو: بالكلامِ الذي يحيا به الدينُ، وأضافه إلى القُدُسِ؛ لأنه سببُ الطُّهرِ من أوضار الآثام؛ دليلُه: ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ﴾: حالٌ؛ أي: تكلمُهم طفلاً؛ إعجازاً، ﴿وَكَهْلًا﴾: تبليغاً، ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ﴾: معطوفٌ على (إذ أيدتك)، ونحوُه: (وإذ تخلق)، (وإذ تخرج)، (وإذ كففت)، ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ﴾، ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: الخطَّ، ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾: الكلامَ المحكمَ الصوابَ، ﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَۖ وَإِذْ تَخْلُقُ﴾: تُقَدِّرُ ﴿مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾: هيئةً مثلَ هيئةِ الطيرِ ﴿بِإِذْنِى﴾: بتسهيلِي، ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا﴾ الضميرُ: للكافِ؛ لأنها صفةُ الهيئةِ التي كان يَخلقُها عيسى، وينفخُ فيها، ولا يرجعُ إلى الهيئةِ المضافِ إليها؛ لأنها ليست من خلقِه، وكذا الضميرُ في ﴿فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِىۖ﴾، وعُطِفَ ﴿وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِىۖ﴾: على (تخلق)، ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ من القبورِ أحياءً ﴿بِإِذْنِى﴾ قيل: أخرجَ سامَ

(١) عند الشافعية ترد اليمين على المدعي. انظر «نهاية المحتاج» (٨/ ٣٥٨).

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (١١١) إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١١٢) قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤)﴾ ....

ابنَ نوحٍ، ورجلين، وامرأةً، وجاريةً، ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ﴾ أي: اليهودَ حينَ همُّوا بقتلِه، ﴿إِذْ جِئْتَهُمْ﴾: ظرفٌ لـ (كففتُ)، ﴿بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (١١٠)﴾ ﴿ساحرٌ﴾: حمزةُ وعليٌّ[١].

《١١١》 ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ﴾: ألهمتُ، ﴿إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾: الخواصِّ، أو: الأصفياءِ ﴿أَنْ آمِنُوا﴾ أي: آمنوا ﴿بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (١١١)﴾: مخلصون؛ مِن: أَسلمَ وجهَهُ.

《١١٢》 ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ أي: اذكروا إذْ، ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ (عيسى): نصبٌ على إتباعِ حركتِه حركةَ الابنِ، نحو: يا زيدَ بنَ عمرٍو[٢]، ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾: هل يفعلُ؟ أو: هل يطيعك ربُّك إن سألته؟ فاستطاعَ وأطاعَ: بمعنىً، كاستجابَ وأجابَ، ﴿هل تَستطيعُ ربَّكَ﴾: عليٌّ[٣]؛ أي: هل تستطيعُ سؤالَ ربِّكَ؟ فحُذِفَ المضافُ؛ والمعنى: هل تسألُه ذلك من غيرِ صارفٍ يصرفُك عن سؤاله؟ ﴿أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا﴾ ﴿يُنْزِلَ﴾: مكيٌّ وبصريٌّ، ﴿مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾: هي: الخِوانُ إذا كان عليه الطعامُ[٤]؛ من مادَه: إذا أعطاه، كأنها تَميدُ مَن تُقدَّمُ إليه، ﴿قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ في اقتراحِ المعجزاتِ بعدَ ظهورِ الآياتِ ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١١٢)﴾ إذِ الإيمانُ يوجب التقوى.

《١١٣》 ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ تبرُّكاً، ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾: ونزدادَ يقيناً، كقولِ إبراهيمَ عليه السلام: ﴿وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]، ﴿وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ أي: نعلمَ صدقَكَ عِياناً، كما عَلِمناه استدلالاً، ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣)﴾ بما عايَنَّا لِمن بعدَنا.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٩٨).

(٢) ويجوز كون (عيسى) مبنياً على الضم؛ لأن المنادى إذا كان مفرداً علماً، ووصف بـ: ابنٍ مضافٍ إلى عَلَم، ولم يُفصل بين المنادى وبين ابنٍ.. جاز في المنادى: البناءُ على الضم، والفتح إتباعاً. انظر «شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك» (٣/ ٢٦١).

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص٩٩) وكذا القراءة الآتية.

(٤) الخِوانُ: طاولةٌ يوضعُ عليها الطعام.

﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ ....

«١١٤» ولما كان السؤالُ لزيادةِ العلم لا للتَّعنُّتِ ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ﴾: أصلُه: يا اللهُ، فحذفَ: يا، وعُوِّضَ منه الميمُ، ﴿رَبَّنَآ﴾: نداءٌ ثانٍ، ﴿أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ أي: يكونُ يومُ نزولِها عيداً، قيل: هو يومُ الأحدِ، ومِن ثَمَّ اتخذه النصارى عيداً، أو: العيدُ: السرورُ العائدُ؛ ولذا يقال: يومُ عيدٍ، فكان معناه: تكونُ لنا سروراً وفرحاً، ﴿لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾: بدلٌ من (لنا) بتكريرِ العاملِ؛ أي: لمن في زماننا من أهل دينِنا، ولمن يأتي بعدَنا، أو: يأكلُ منها آخرُ الناس كما يأكلُ أولُهم، أو: للمتقدمين منا والأتباعِ، ﴿وَءَايَةً مِّنكَۖ﴾ على صحةِ نُبوتِي، ثم أكدَ ذلك بقولِه: ﴿وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾: وأعطِنا ما سألناك وأنت خيرُ المعطين.

«١١٥» ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْۖ﴾: بالتشديد: مدنيٌّ وشاميٌّ وعاصمٌ[(١)]، وَعَدَ الإنزالَ، وشرطَ عليهم شرطاً بقوله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ﴾: أي: بعدَ نزولِها ﴿مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا﴾ أي: تعذيباً، كالسلام بمعنى التسليم، والضميرُ في ﴿لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ﴾: للمصدرِ، ولو أُريدَ بالعذابِ ما يعذب به.. لم يكن بُدٌّ من الباءِ، ﴿أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾ عن الحسنِ: أن المائدة لم تنْزلْ، ولو نزلت.. لكانت عيداً إلى يوم القيامة؛ لقوله: (وآخرنا)، والصحيحُ أنَّها نزلت، فعن وهبٍ: نزلت مائدةٌ منكوسةٌ تطيرُ بها الملائكةُ عليها كلُّ طعامٍ إلا اللحمَ، وقيل: كانوا يجدون عليها ما شاؤوا، وقيل: كانت تنزلُ حيث كانوا بكرةً وعشياً.

«١١٦» ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ الجمهورُ على أن هذا السؤالَ يكونُ في يوم القيامةِ؛ دليلُه: سياقُ الآيةِ وسِباقُها، وقيل: خاطبه به حينَ رفعَه إلى السماءِ؛ دليلُه: لفظُ (إذ)[(٢)]، ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾ مِن أن يكون لك شريكٌ، ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ﴾: ما ينبغي لي ﴿أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾: أنْ أقولَ قولاً لا يَحِقُّ لي أن أقولَه، ﴿إِن

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص٩٩).

(٢) لأن (إذ) للزمن الماضي، وهذا يعني أن السؤالَ وقع، ولكن من يقولُ: السؤالُ يوم القيامة.. يقول: التعبيرُ بالماضي لتحقق الوقوع.

مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ ....

كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾: إنْ صحَّ أني قلتُه فيما مضى.. فقد علمتَه؛ والمعنى: أني لا أحتاجُ إلى الاعتذارِ؛ لأنك تعلمُ أني لم أقلْه، ولو قلتُه.. علمتَه؛ لأنك ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى﴾: ذاتي، ﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾: ذاتِك، فنفسُ الشيءِ: ذاتُه وهُويَّتُه؛ والمعنى: تعلمُ معلومِي، ولا أعلم معلومَك؛ ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾: تقريرٌ للجملتين معاً؛ لأن ما انطوت عليه النفوسُ من جملةِ الغيوبِ.

《١١٧》 ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ﴾ أي: ما أمرتُهم إلا بما أمرتَني به، ثم فَسَّرَ ما أُمِرَ به فقال: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ فـ(أنْ): مفسرةٌ؛ بمعنى: أي، ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾: رقيباً ﴿مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾: مدةَ كوني فيهم، ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾: الحفيظَ، ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾: مِن قولِي وفِعلي، وقولِهم وفعلِهم.

《١١٨》 ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ قال الزجاجُ: علِمَ عيسى عليه السلامُ أن منهم من آمن، ومنهم من أقام على الكفر، فقال في جملتهم: إن تعذبهم؛ أي: إن تعذب مَن كفرَ منهم.. فإنَّهم عبادُك الذين علمتَهم جاحدين لآياتِك، مُكذبين لأنبيائِك، وأنت العادلُ في ذلك؛ فإنهم قد كفرُوا بعد وجوبِ الحجةِ عليهم، وإن تغفرْ لهم؛ أي: لمن أقلعَ منهم وآمنَ.. فذاك تفضلٌ منك، وأنت عزيزٌ لا يمتنع عليك ما تريدُ، حكيمٌ في ذلك، أو: عزيزٌ: قويٌّ قادرٌ على الثوابِ، حكيمٌ: لا يعاقبُ إلا عن حكمةٍ وصوابٍ.

《١١٩》 ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ برفع اليوم والإضافةِ على أنه خبرُ (هذا) أي: يقولُ اللهُ تعالى: هذا يومٌ ينفعُ الصادقين فيه صدقُهم المستمرُّ في دنياهم وآخرتِهم، والجملةُ من المبتدأِ والخبرِ: في محلِّ النصبِ على المفعوليةِ، كما تقول: قال زيدٌ: عمرٌو منطلقٌ، وبالنصبِ: نافعٌ[١]، على الظرفِ؛ أي: قال الله هذا لعيسى يومَ ينفعُ الصادقين صدقُهم، وهو يومُ القيامةِ، ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بالسعيِ المشكورِ، ﴿وَرَضُوا۟

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٩٩).

﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾

عَنْهُ﴾ بالجزاءِ الموفورِ، ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾ لأنه باقٍ، بخلافِ الفوزِ في الدنيا، فهو غير باقٍ.

《١٢٠》 ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ﴾ عَظَّمَ نفسَه عمّا قالت النصارى: إن معه إلهاً آخرَ، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾ من المنعِ والإعطاءِ، والإيجادِ والإفناءِ، نسألُه أن يوفقَنا لمرضاتِه، ويجعلَنا من الفائزين بجناتِه.



﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ۝١﴾

سورةُ الأنعام

مكيةٌ، وهي مئةٌ وخمسٌ وستونَ آيةً: كوفيٌّ، أربعٌ وستونَ: بصريٌّ.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾: تعليمُ اللفظِ والمعنى، مع تعريضِ الاستغناءِ؛ أي: الحمدُ لله وإن لم تَحْمَدُوه، ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ جمعَ السموات؛ لأنها طباقٌ بعضُها فوق بعضٍ، والأرضُ وإن كانت سبعةً عند الجمهور.. فليسَ بعضُها فوقَ بعضٍ، بل بعضُها مُوالٍ لبعضٍ، (جعل): يتعدى إلى مفعولٍ واحدٍ إذا كان بمعنى: أحدثَ وأنشأَ، كقوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾، وإلى مفعولين إن كان بمعنى: صَيَّرَ، كقوله: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ﴾ [الزخرف: ١٩]، وفيه ردُّ قولِ الثَّنَويةِ بقدمِ النورِ والظلمةِ، وأُفردَ النورُ؛ لإرادةِ الجنسِ؛ ولأن ظلمةَ كلِّ شيءٍ تختلفُ باختلافِ ذلك الشيءِ، نظيرُه: ظلمةُ الليلِ، وظلمةُ البحرِ، وظلمةُ الموضعِ المظلم.. يخالفُ كلُّ واحدٍ منها صاحبَه، والنورُ ضربٌ واحدٌ لا يختلفُ، كما تختلفُ الظلماتُ، وقَدَّمَ الظلماتِ؛ لقوله عليه السلام: «خلق الله خلقَه في ظُلمةٍ، ثم رشَّ عليهم مِن نورِه، فمن أصابه ذلك النورُ.. اهتدى، ومن أخطأه.. ضلَّ»[1]، ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بعدَ هذا البيانِ ﴿بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ۝١﴾: يساوُون به الأوثانَ؛ تقول: عدلت هذا بذا؛ أي: ساويتُه به، والباءُ في (بربهم): صلةٌ للعدلِ، لا للكفرِ[2]، أو: (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) عنه؛ أي: يُعرضون عنه، فتكون الباءُ صلةَ الكفر، وصلةُ (يعدلون) أي: عنه: محذوفةٌ، وعُطِفَ (ثم الذين كفروا) على (الحمد لله) على معنى: أن الله حقيقٌ بالحمدِ على ما خلقَ؛ لأنه ما خَلقَه إلا نعمةً، ثم الذين كفروا به يعدِلون، فيكفرون نعمتَه، أو: على (خلق السموات) على معنى: أنه خلقَ ما خلقَ مما لا يَقدرُ عليه أحدٌ سواه، ثم هم يعدلون به ما لا يَقدرُ على شيءٍ منه، ومعنى (ثم): استبعادُ أن يَعدِلوا به بعدَ وضوحِ آياتِ قدرتِه.

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٤٢) عن سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.
فالظلمة هي: ظلمةُ النفسِ الأمارةِ بالسوءِ، المجبولةِ بالشهوات المرديةِ؛ والأهواءِ المضلةِ؛ والنورُ الملقى عليهم: ما نُصب من الشواهد والحجج؛ وما أنزل إليهم من الآيات والنذُر؛ فمن يشاءُ هدايتَه.. هو الذي أصابه ذلك النورُ، فتخلصَ من تلك الظلمةِ واهتدى، ومن لم يشأ هدايتَه.. بقيَ في الظلمات. انظر «شرح المشكاة» للطيبي (٢/ ٥٦٥).

(٢) أي: متعلقة بـ(يعدلون)، لا بـ(كفروا).

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾﴾ ....

《٢》 ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ (مِن): لابتداءِ الغايةِ؛ أي: ابتدأَ خلقَ أصلِكم؛ يعني: آدمَ، ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ أي: حكمَ أجلَ الموتِ، ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾: أجلُ القيامةِ، أو: الأولُ: ما بين أن يُخلقَ إلى أن يموتَ، والثاني: ما بين الموتِ والبعثِ، وهو البرزخُ، أو: الأولُ: النومُ، والثاني: الموتُ، أو: الثاني هو الأولُ، وتقديرُه: وهو أجلٌ مسمّىً؛ أي: معلومٌ، و(أجلٌ مسمّىً): مبتدأٌ، والخبرُ: (عنده)، وقدِّمَ المبتدأُ وإن كان نكرةً والخبرُ ظرفاً وحقُّه التأخيرُ؛ لأنه تَخصَّصَ بالصفةِ، فقاربَ المعرفةَ، ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾﴾: تَشُكُّون؛ من المِريةِ، أو: تجادلون؛ من المِراءِ؛ ومعنى: (ثم): استبعادُ أن يمترُوا فيه بعدَ ما ثبتَ أنه مُحييهم، ومُميتُهم، وباعثُهم.

《٣》 ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾: مبتدأٌ وخبرٌ، ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾: متعلقٌ بمعنى اسمِ اللهِ، كأنه قيل: وهو المعبودُ فيهما، كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤]، أو: هو المعروفُ بالإلهيةِ فيهما، أو: هو الذي يقال له: الله فيهما، والأولُ تفريعٌ على أنه مشتقٌّ، وغيرُه على أنه غيرُ مشتقٍّ[(١)]، ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾: خبرٌ بعدَ خبرٍ، أو: كلامٌ مبتدأٌ؛ أي: هو يعلمُ سرَّكم وجهرَكم ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾﴾ من الخيرِ والشرِّ، ويثيبُ عليه، ويعاقب.

《٤》 و(مِن) في ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ﴾: للاستغراقِ[(٢)]، وفي ﴿مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾: للتبعيض؛ أي: وما يظهر لهم دليلٌ قطُّ من الأدلةِ التي يجبُ فيها النظرُ والاعتبارُ ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾﴾: تاركين للنظرِ، لا يلتفتون إليه لِقلةِ خوفِهم وتدبُّرِهم في العواقب.

《٥》 ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟﴾: مردودٌ على كلامٍ محذوفٍ، كأنه قيل: إن كانوا معرضين عن الآيات.. فقد كذبوا ﴿بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أي: بما هو أعظمُ آيةً وأكبرُها، وهو القرآن الذي

---

(١) الأول: قولُه: وهو المعبودُ فيهما، فهذا مبني على أنه مشتق من: أله يأله: إذا عبد، فالإله بمعنى: المألوه؛ أي: المعبود، والثاني والثالث مبنيان على أنه غير مشتق؛ ولكن في قوله: هو المعروفُ بالإلهيةِ فيهما يكون العامل معنى شهرته في الإلهية، وفي قوله: هو الذي يقال له: الله فيهما يكون العامل معنى اختصاصه بهذا الاسم؛ إذ لا يطلق إلا عليه. انظر «فتوح الغيب» (٦/ ٢١)، و«حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي» (٤/ ١٥).

(٢) أي: زائدة لتأكيد الاستغراق، لأن الاستغراق حاصلٌ بدونها؛ لأن (آية) نكرة في سياق النفي فهي عامة، لكن بدخول (مِن) صار الاستغراق قطعياً.

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ..﴾

تُحدُّوا به فعجزُوا عنه، ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٥﴾﴾ أي: أنباءُ الشيءِ الذي كانوا به يستهزؤون، وهو القرآن؛ أي: أخبارُه وأحوالُه؛ يعني: سيعلمون بأيِّ شيءٍ استهزؤوا، وذلك عند إرسالِ العذابِ عليهم في الدنيا، أو: يومَ القيامةِ، أو: عندَ ظهورِ الإسلامِ، وعُلُوِّ كلمتِه.

《٦》 ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ يعني: المكذبين، ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾: هو مدةُ انقضاءِ أهلِ كلِّ عصرٍ، وهو ثمانون سنةً، أو: سبعون[1]، ﴿مَّكَّنَّاهُمْ﴾: في موضعِ جرٍّ صفةٌ لـ (قرن)، وجُمِعَ على المعنى، ﴿فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ التمكينُ في البلادِ: إعطاءُ المَكِنَةِ؛ والمعنى: لم نُعطِ أهلَ مكةَ نحوَ ما أعطينا عاداً وثمودَ وغيرَهم من البسطةِ في الأجسامِ، والسَّعةِ في الأموالِ، والاستظهارِ بأسبابِ الدنيا، ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ﴾: المطرَ ﴿عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾: كثيراً، وهو: حالٌ من (السماء)، ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ﴾: من تحتِ أشجارِهم؛ والمعنى: عاشُوا في الخِصبِ بين الأنهارِ والثمارِ، وسُقيا الغيثِ المِدرارِ، ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ ولم يغنِ ذلك عنهم شيئاً، ﴿وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾﴾: بدلاً منهم.

《٧》 ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا﴾: مكتوباً ﴿فِي قِرْطَاسٍ﴾: في وَرَقٍ، ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾: هو للتأكيدِ؛ لئلا يقولُوا: ﴿سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾ [الحجر: ١٥]، ومِن المحتجِّ عليهِمْ: الأعمى، ﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾ تعنتاً وعناداً للحقِّ بعدَ ظهورِه.

《٨》 ﴿وَقَالُوا لَوْلَا﴾: هلَّا ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾: على النبي ﷺ ﴿مَلَكٌ﴾ يكلمُنا أنه نبيٌّ، فقال الله: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ﴾: لقضِيَ أمرُ هلاكِهم، ﴿ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾﴾: لا يُمهلون بعدَ نزولِه طرفةَ عينٍ؛ لأنهم إذا شاهدُوا مَلَكاً في صورتِه.. زَهَقَتْ أرواحُهم من هولِ ما يُشاهدُون؛ ومعنى (ثم): بُعْدُ ما بينَ الأمرينِ: قضاءِ الأمرِ، وعدمِ الإنظارِ، جُعِلَ عدمُ الإنظارِ أشدَّ من قضاءِ الأمرِ؛ لأن مفاجأةَ الشدةِ أشدُّ من نفسِ الشدةِ.

《٩》 ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا﴾: ولو جعلنا الرسولَ مَلَكاً كما اقترحُوا؛ لأنهم كانُوا تارةً

---

(١) وقيل: القرنُ: مئةُ سنةٍ، واستدل بحديثِ سيدنا عبد الله بن بُسرٍ رضي الله عنه قال: وضع رسول الله ﷺ يده على رأسي وقال: «يعيش هذا الغلام قرناً» فعاش مئةَ سنةٍ. رواه الضياء في «الأحاديث المختارة» (٩/ ٩٠).

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾

يقولون: لولا أنزل على محمدٍ مَلَكٌ، وتارةً يقولون: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤]، و﴿لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [فصلت: ١٤]، ﴿لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾: لأرسلناه في صورةِ رجلٍ، كما كان ينزل جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ في أعمِّ الأحوالِ في صورةِ دِحيةَ[١]؛ لأنهم لا يَبْقَوْنَ مع رؤيةِ الملائكةِ في صورِهم، ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾: ولخلطْنا وأشكلْنا عليهم من أمرِه؛ إذاً كان سبيلُه كسبيلك يا محمدُ؛ فإنهم يقولون إذا رأَوُا الملَكَ في صورةِ الإنسانِ: هذا إنسانٌ وليس بملكٍ؛ يقال: لبَسْتُ الأمرَ على القومِ ألبسُه: إذا أشبهتَه عليهم وأشكلتَه عليهم.

«١٠» ثم سلَّى نبيَّه على ما أصابَه من استهزاءِ قومِه بقولِه: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾: فأحاطَ بهم الشيءُ الذي كانوا يستهزئون به، وهو الحقُّ؛ حيثُ أُهلِكوا من أجلِ الاستهزاءِ به، و(منهم): متعلقٌ بـ (سخروا)، كقولِه: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩]، والضميرُ: للرسلِ، والدالُ مكسورةٌ عند أبي عمرٍو وعاصمٍ؛ لالتقاءِ الساكنين، وضمَّها غيرُهما؛ إتباعاً لضمِّ التاءِ[٢].

«١١» ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾ والفرقُ بين (فانظروا)، وبينَ (ثم انظروا): أنَّ النظرَ جُعلَ مُسبباً عن السيرِ في (فانظروا)، فكأنه قيل: سيروا؛ لأجلِ النظرِ ولا تسيروا سيرَ الغافلين، ومعنى (سيروا في الأرض ثم انظروا): إباحةُ السيرِ في الأرضِ للتجارة وغيرِها، وإيجابُ النظرِ في آثارِ الهالكين، ونبَّهَ على ذلك بـ (ثم)؛ لتباعدِ ما بين الواجبِ والمباحِ.

«١٢» ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (من): استفهامٌ، و(ما) بمعنى: الذي، في موضعِ الرفعِ على الابتداءِ، و(لمن): خبرُه، ﴿قُل لِّلَّهِ﴾: تقريرٌ لهم؛ أي: هو لله لا خلافَ بيني وبينكم، ولا تَقدِرون أن تُضِيفُوا شيئاً منه إلى غيرِه، ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ أصل (كتب): أوجبَ،

(١) ثبت في «البخاري» (٣٦٣٤)، و«مسلم» (٢٤٥١) مجيء سيدِنا جبريل عليه الصلاة والسلام في صورة سيدنا دحيةَ رضي الله عنه، وروى الطبرانيُّ في «المعجم الأوسط» (٧) أن رسول الله ﷺ كان يقول: «يأتيني جبريلُ على صورةِ دحيةَ الكلبي».

(٢) أي: الدال في (لقد). انظر «البدور الزاهرة» (ص١٠٠).

﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝١٣ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝١٤﴾ ....

ولكن لا يجوزُ الإجراءُ على ظاهرِه؛ إذْ لا يجبُ على الله شيءٌ للعبد؛ فالمرادُ به: أنه وعد ذلك وعداً مؤكداً، وهو منجزُه لا محالةَ، وذكرُ النفسِ للاختصاصِ ورفعِ الوسائطِ، ثم أَوْعدَهم على إغفالِهم النظرَ وإشراكِهم به مَن لا يقدرُ على خلقِ شيءٍ بقوله: ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ فيجازيكم على إشراكِكم، ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِۚ﴾: في اليومِ، أو: في الجمعِ، ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾: نصبٌ على الذمِّ؛ أي: أريدُ الذين خسروا أنفسهم باختيارِهم الكفرَ، ﴿فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝١٢﴾، وقال الأخفشُ: (الذين): بدلٌ مِن (كُم) في (ليجمعنكم) أي: ليجمعنَّ هؤلاءِ المشركين الذين خسروا أنفسَهم[1]، والوجهُ هو الأولُ؛ لأن سيبويهِ قال: لا يجوز مررتَ بي المسكينِ، ولا بكَ المسكينِ، فتجعلُ المسكين بدلاً من الياءِ أو الكاف؛ لأنهما في غاية الوضوح، فلا يَحتاجان إلى البدلِ والتفسيرِ[2].

《١٣》 ﴿وَلَهُۥ﴾: عطفٌ على (لله)، ﴿مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾: من السُّكنَى حتى يتناول الساكنَ والمتحركَ، أو: من السكونِ؛ ومعناه: ما سكنَ وتحركَ فيهما، فاكتفَى بأحدِ الضدينِ عن الآخرِ[3]، كقوله: ﴿تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] أي: الحرَّ والبردَ، وذُكِرَ السكونُ؛ لأنه أكثرُ من الحركةِ، وهو احتجاجٌ على المشركين؛ لأنهم لم ينكروا أنه خالقُ الكلِّ ومدبرُه، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝١٣﴾ يسمعُ كلَّ مسموعٍ، ويعلمُ كلَّ معلومٍ، فلا يخفَى عليه شيءٌ مما يشتملُ عليه المَلَوانِ[4].

《١٤》 ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا﴾: ناصراً ومعبوداً، وهو: مفعول ثانٍ لـ (أتخذ)، والأولُ: (غيرَ)، وإنما أَدخلَ همزةَ الاستفهامِ على مفعولِ (أتخذ) لا عليه؛ لأن الإنكارَ في اتخاذِ غيرِ الله

---

(١) انظر «معاني القرآن» للأخفش (١/ ٢٩٣).

(٢) انظر «الكتاب» لسيبويه (٢/ ٧٦)، والقاعدة: أنه لا يبدل الاسم الظاهر من ضمير الحاضر إلا إن كان البدلُ بدلَ كلٍّ من كلٍّ واقتضى الإحاطةَ والشمولَ، أو كان بدلَ اشتمالٍ، أو بدلَ بعضٍ من كلٍّ. انظر «شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك» (٣/ ٢٥٠).

(٣) أي: إن كان الفعل سكن مصدره السكنى؛ أي: الإقامة في المكان.. فالآية تشمل كلَّ متحرك وساكن بلا تقدير، وإن كان مصدره السكونَ نقيضَ الحركةِ.. فلا بدَّ من تقدير: (وله ما سكن وتحرك) لتشمل المتحركات.

(٤) الملوان: الليل والنهار.

﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾ ....

وليّاً، لا في اتخاذِ الوليِّ، فكان أحقَّ بالتقديمِ، ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: بالجرِّ صفةٌ لله؛ أي: مخترعِهما، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ما عرفت معنى الفاطرِ حتى اختصمَ إلي أعرابيانِ في بئرٍ، فقال أحدُهما: أنا فطرتُها؛ أي: ابتدأتُها[1]، ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ وهو يَرزقُ ولا يُرزقُ؛ أي: المنافعُ كلُّها من عنده، ولا يجوزُ عليه الانتفاعُ، ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾؛ لأن النبيَّ سابقُ أمتِه في الإسلامِ، كقوله: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٣]، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾﴾: وقيل لي: لا تكونَنَّ من المشركين، ولو عطفَ على ما قبلَه لفظاً.. لقيلَ: (وألا أكونَ)؛ والمعنى: أمرتُ بالإسلامِ، ونهيتُ عن الشركِ.

《١٥》 ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ أي: إنـي أخـاف عـذابَ يـومٍ عظيمٍ، وهو القيامةُ إن عصيتُ ربي، فالشرطُ معترضٌ بين الفاعلِ والمفعولِ به محذوفُ الجوابِ.

《١٦》 ﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ﴾: العذابُ ﴿يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾ اللهُ الرحمةَ العُظمى، وهي: النجاةُ، ﴿مَن يَصْرِفْ﴾: حمزةُ وعليٌّ وأبو بكرٍ[2]؛ أي: من يَصرفِ اللهُ عنه العذابَ، ﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾: النجاةُ الظاهرةُ.

《١٧》 ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾: من مرضٍ أو فقرٍ، أو غيرِ ذلك من بلاياه ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾: فلا قادرَ على كشفِه إلا هو، ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ مِن غنىً أو صحةٍ، ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾: فكان قادراً على إدامتِه وإزالتِه.

《١٨》 ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ﴾: مبتدأٌ وخبرٌ؛ أي: الغالبُ المقتدرُ، ﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾: خبرٌ بعدَ خبرٍ؛ أي: عالٍ عليهم بالقدرةِ، والقهرُ: بلوغُ المرادِ بمنعِ غيرِه عن بلوغِه، ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ في تنفيذِ مرادِه، ﴿ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾ بأهلِ القهرِ من عبادِه.

《١٩》 ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾ (أيُّ شيءٍ): مبتدأٌ، و(أكبر): خبرُه، و(شهادةً): تمييزٌ،

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٣/ ٢١٢).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص١٠٠).

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾﴾ ....

وأيٌّ: كلمةٌ يُرادُ بها بعضُ ما تُضافُ إليه، فإذا كانت استفهاماً.. كان جوابُها مُسمّىً باسمِ ما أضيفت إليه، وقولُه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾: جوابٌ؛ أي: اللهُ أكبرُ شهادةً، فـ(اللهُ): مبتدأٌ، والخبرُ محذوفٌ، فيكونُ دليلاً على أنه يجوزُ إطلاقُ اسمِ الشيءِ على الله تعالى، وهذا لأن الشيءَ اسمٌ للموجودِ، ولا يُطلقُ على المعدوم، واللهُ تعالى موجودٌ، فيكونُ شيئاً؛ ولذا تقول: الله تعالى شيءٌ لا كالأشياءِ، ثم ابتدأ ﴿شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: هو شهيدٌ بيني وبينكم، ويجوزُ أن يكونَ الجوابُ: (الله شهيد بيني وبينكم)؛ لأنه إذا كان اللهُ شهيداً بينه وبينهم.. فأكبرُ شيءٍ شهادةً شهيدٌ له، ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ أي: ومن بلغه القرآنُ إلى قيامِ الساعةِ، في الحديث: من بَلَغَه القرآنُ.. فكأنما رأى محمداً ﷺ[(١)]، و(مَن): في محلِّ النصبِ بالعطفِ على كُمْ؛ والمرادُ به: أهلُ مكةَ، والعائدُ إليه محذوفٌ؛ أي: ومن بلغه، وفاعلُ (بلغ): ضميرُ القرآنِ، ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ﴾: استفهامُ إنكارٍ وتبكيتٍ، ﴿قُل لَّآ أَشْهَدُ﴾ بما تشهدون، وكرَّرَ ﴿قُلْ﴾ توكيداً، و﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ ما: كافةٌ لـ: إنَّ عن العمل، و(هو): مبتدأٌ، و(إلهٌ): خبرُه، و(واحدٌ): صفةٌ، أو: بمعنى: الذي في محلِّ النصبِ بـ: إن، و(هو): مبتدأٌ، و(إله) خبرُه، والجملةُ: صلةُ الذي، و(واحدٌ): خبرُ إنَّ، وهذا الوجهُ أَوْقَعُ[(٢)]، ﴿وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾ به.

《٢٠》 ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني: اليهودَ والنصارى، و(الكتاب): التوراةُ والإنجيل، ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾ أي: رسولَ الله ﷺ بِحِلْيَتِهِ ونَعْتِه الثابتِ في الكتابين، ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾ بِحُلاهم ونُعوتِهم، وهذا استشهادٌ لأهلِ مكةَ بمعرفة أهلِ الكتابِ به، وبصحةِ نبوتِه، ثم قال: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ من المشركين، ومن أهل الكتاب الجاحدين ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ بِهِ.

《٢١》 ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾: استفهامٌ يتضمن معنى النفيِ؛ أي: لا أحدَ أظلمُ لنفسِه، والظلمُ: وضعُ الشيءِ في غيرِ موضعِه، وأشنعُه اتخاذُ المخلوقِ معبوداً، ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ﴾: اختلقَ ﴿عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فيصفُه بما لا يليقُ به، ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾: بالقرآنِ والمعجزاتِ، ﴿إِنَّهُۥ﴾: إنَّ الأمرَ والشأنَ ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾﴾ جمعُوا بينَ أمرين باطلين، فكذَبُوا على الله ما لا حجةَ عليه، وكذَّبُوا بما ثبت بالحجة؛ حيث قالوا: الملائكةُ بناتُ الله، وسمَّوا القرآنَ والمعجزاتِ سحراً.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٢٩١) من قول محمد بن كعب القرظي.

(٢) قال أبو البقاء في «إملاء ما من به الرحمن» (١/ ٢٣٨) عن هذا الوجه: وهو أليق بما قبله. وقال السَّمينُ تعقيباً على عبارة أبي البقاء: ولا أدري ما وجهُ ذلك. انظر «الدر المصون» (٤/ ٥٦٩).

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾ ....

《٢٢》 ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾: هو مفعولٌ به، والتقديرُ: واذكر يومَ نحشرُهم ﴿جَمِيعًا﴾: حالٌ من ضميرِ المفعولِ، ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟﴾ معَ اللهِ غيرَه توبيخاً، وبالياءِ فيهما: يعقوبُ[1]، ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ﴾: آلهتُكم التي جعلتموها شركاءَ اللهِ، ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أي: تزعمونهم شركاءَ، فحُذِفَ المفعولان.

《٢٣》 ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن﴾ وبالياءِ: حمزةُ وعليٌّ[2]، ﴿فِتْنَتُهُمْ﴾: كفرَهم ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ يعني: ثمَّ لم تكن عاقبةُ كفرِهم الذي لزِمُوه أعمارَهم وقاتلُوا عليه إلا جحودَه والتبرؤَ منه، والحلفَ على الانتفاءِ من التدين به، أو: ثم لم يكن جوابُهم إلا أن قالوا، فسمِّيَ فتنةً؛ لأنه كذبٌ، وبرفع الفتنةِ: مكيٌّ وشاميٌّ وحفصٌ[3]، فمن قرأ (تكن): بالتاءِ ورَفَعَ الفتنةَ.. فقد جعلَ الفتنةَ اسمَ (تكن)، و(أن قالوا): الخبرَ؛ أي: لم تكن فتنتُهم إلا مقالتَهم، ومن قرأ بالياءِ ونَصَبَ الفتنةَ.. جعلَ (أن قالوا): اسمَ (يكن) أي: لم يكن فتنتَهم إلا قولُهم، ومن قرأ بالتاءِ ونَصَبَ الفتنةَ.. حملَ على المقالةِ، ﴿ربَّنا﴾: حمزةُ وعليٌّ؛ على النداءِ؛ أي: يا ربَّنا، وغيرُهما: بالجرِّ؛ على النعتِ من اسمِ اللهِ.

《٢٤》 ﴿ٱنظُرْ﴾ يا محمدُ ﴿كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ بقولهم: (ما كنا مشركين)، قال مجاهد: إذا جمعَ اللهُ الخلائقَ ورأى المشركون سَعَةَ رحمةِ اللهِ وشفاعة الرسول للمؤمنين.. قال بعضهم لبعض: تعالَوا نكتم الشركَ لعلَّنا ننجو مع أهل التوحيد، فإذا قال الله لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ قالوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾، فيختِمِ اللهُ على أفواههم، فتشهد عليهم جوارحُهم، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾: وغاب عنهم ﴿مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ إلهيتَه وشفاعتَه.

《٢٥》 ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ حين تتلُو القرآنَ، رويَ: أنه اجتمع أبو سفيان والوليدُ والنضرُ وأضرابُهم يستمعون تلاوةَ رسولِ الله ﷺ، فقالوا للنضر: ما يقول محمد؟ فقال: والله ما

---

(١) انظر «النشر في القراءات العشر» (٢/ ٢٥٧).

(٢) انظر المرجع السابق.

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص١٠١) وكذا القراءتان الآتيتان.

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ ....

أدري ما يقول، إلا أنه يحركُ لسانَه ويقول أساطيرَ الأولين، مثلَ ما حدثتُكم عن القرون الماضيةِ، فقال أبو سفيان: إني لأراه حقّاً، فقال أبو جهل: كلّا، فنزلت، ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾: أغطيةً، جمعُ كِنانٍ، وهو: الغِطاءُ، مثلُ عِنانٍ وأعِنَّةٍ، ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾: كراهةَ أن يفقهوه، ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾: ثِقَلاً يمنع من السمع، وَوُحِّدَ الوقْرُ؛ لأنه مصدرٌ، وهو: عطفٌ على (أكنةً)، وهو حجةٌ لنا في الأصلح على المعتزلةِ، ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَـٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ (حتى): هي التي تقعُ بعدها الجملةُ، والجملةُ: قولُه: إذا جاءوك.. يقول الذين كفروا، و(يجادلونك): في موضعِ الحالِ، ويجوز أن تكون جارَّةً، ويكونَ (إذا جاءوك): في موضع الجرِّ؛ بمعنى: وقتَ مجيئِهم، و(يجادلونك): حالٌ، و(يقول الذين كفروا): تفسيرٌ له؛ والمعنى: أنه بَلَغَ تكذيبُهم الآياتِ إلى أنهم يجادلونك، ويناكرونك، وفَسَّرَ مجادلتَهم بأنهم يقولون: ﴿إِنْ هَـٰذَآ﴾: ما القرآن ﴿إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾ فيجعلُون كلامَ اللهِ أكاذيبَ، وواحدُ الأساطيرِ: أُسطورةٌ.

《٢٦》 ﴿وَهُمْ﴾ أي: المشركون ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾: ينهَون الناسَ عن القرآنِ، أو: عن الرسولِ واتِّباعِه والإيمانِ به، ﴿وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾: ويَبْعُدُون عنه بأنفسِهم، فيُضِلُّون ويَضِلُّون، ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ﴾ بذلك ﴿إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أي: لا يتعدّاهم الضررُ إلى غيرِهم وإن كانوا يظنون أنهم يَضُرون رسولَ الله، وقيل: عُنِيَ به أبو طالب؛ لأنه كان ينهَى قريشاً عن التعرض لرسول الله ﷺ، وينأى عنه فلا يؤمنُ به، والأولُ أشبهُ.

《٢٧》 ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ حُذِفَ جوابُه؛ أي: ولو ترى.. لشاهدت أمراً عظيماً ﴿إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾: أُرُوْها حتى يُعايِنُوها، أو: حُبِسُوا على الصراطِ فوقَ النارِ، ﴿فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ إلى الدنيا، تَمَنَّوا الردَّ إلى الدنيا؛ ليؤمنوا، وتمَّ تمنيهم، ثم ابتدَؤُوا بقوله: ﴿ولا نكذبُ بآياتِ ربِّنا ونكونُ من المؤمنين﴾: واعِدِينَ الإيمانَ، كأنهم قالُوا: ونحنُ لا نكذبُ، ونؤمنُ، ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ﴾: حمزةُ وحفصٌ، على جواب التمني بالواوِ، بإضمارِ أنْ؛ ومعناه: إن رُدِدْنا.. لم نكذبْ ونكنْ من المؤمنين، وافقهما في ﴿ونكونَ﴾: شاميٌّ.

《٢٨》 ﴿بَلْ﴾: للإضرابِ عن الوفاءِ بما تمنَّوا، ﴿بَدَا لَهُم﴾: ظهرَ لهم ﴿مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ﴾ من

وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ ....

الناسِ ﴿مِن قَبْلُ﴾: في الدنيا من قبائِحِهم وفضائِحِهم في صحفِهم، وقيل: هو في المنافقين، وأنه يَظهرُ نفاقُهم الذي كانوا يُسرُّونه، أو: في أهل الكتاب، وأنه يَظهر لهم ما كانوا يُخفونه من صحةِ نبوةِ رسولِ اللهِ ﷺ، ﴿وَلَوْ رُدُّواْ﴾ إلى الدنيا بعدَ وقوفِهم على النارِ ﴿لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ من الكفرِ، ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ فيما وَعَدوا من أنفسِهم، لا يُوْفُون به.

﴿٢٩﴾ ﴿وَقَالُوٓاْ﴾: عطفٌ على ﴿لَعَادُواْ﴾ أي: ولو رُدُّوا.. لكفرُوا ولقالُوا: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ كما كانوا يقولون قبلَ مُعاينةِ القيامةِ، أو: على قوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾؛ أي: وإنهم لقومٌ كاذبُون في كلِّ شيءٍ، وهم الذين قالوا: إن هي إلا حياتُنا الدنيا، و(هي): كنايةٌ عن الحياةِ، أو: هو ضميرُ القصةِ، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿٣٠﴾ ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ﴾: مجازٌ عن الحبسِ للتوبيخِ والسؤالِ، كما يوقفُ العبدُ الجاني بين يدي سيدِه؛ ليعاتبَه، أو: وُقِفُوا على جزاءِ ربِّهم، ﴿قَالَ﴾: جوابٌ لسؤالٍ مقدرٍ، كأنه قيل: ماذا قال لهم ربهم إذْ وُقفوا عليه؟ فقيل: قال: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا﴾ أي: البعثُ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: بالكائنِ الموجودِ؟ وهذا تعييرٌ لهم على التكذيبِ للبعثِ، وقولِهم لِما كانُوا يسمعون من حديثِ البعثِ: ما هو بحقٍّ، ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ﴾: أقَرُّوا وأكدُوا الإقرارَ باليمينِ ﴿قَالَ﴾ اللهُ: ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾: بكفركم.

﴿٣١﴾ ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ﴾: ببلوغِ الآخرةِ وما يتصلُ بها، أو: هو مُجرىً على ظاهرِه؛ لأن منكرَ البعثِ منكرٌ للرؤيةِ، ﴿حَتَّىٰٓ﴾: غايةٌ لـ(كذبوا) لا لـ(خسر)؛ لأن خسرانَهم لا غايةَ له، ﴿إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي: القيامةُ؛ لأن مدةَ تأخرِها مع تأبُدِ ما بعدَها كساعةٍ، ﴿بَغْتَةً﴾: فَجْأَةً، وانتصابُها على الحالِ؛ يعني: باغتةً، أو: على المصدرِ؛ كأنه قيل: بَغَتَتْهُم الساعةُ بغتةً، وهي: وُرُوْدُ الشيءِ على صاحبِه من غيرِ علمِه بوقتِه، ﴿قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا﴾: نداءُ تفجُّعٍ؛ معناه: يا حسرةُ احضُري فهذا أوانُك، ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا﴾: قصَّرنا ﴿فِيهَا﴾: في الحياةِ الدنيا، أو: في الساعةِ؛ أي: قَصَّرنا في شأنِها، وفي الإيمانِ بها، ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ﴾: آثامَهم ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِمْۚ﴾ خَصَّ الظهرَ؛ لأن المعهودَ حملُ الأثقالِ على الظهور، كما عُهد الكسبُ بالأيدي، وهو مجازٌ عن اللزوم على وجهٍ لا يفارقُهم، وقيل: إن الكافر إذا خرجَ من قبرِه.. استقبلَه أقبحُ شيءٍ صورةً

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾

وأخبثُه ريحاً فيقول: أنا عملُك السَّيِّئُ فطالما ركبتَني في الدنيا، وأنا أركبُك اليومَ[1]، ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾﴾: بئس شيئاً يحملونه، وأفاد (ألا) تعظيمَ ما يُذكر بعده.

《٣٢》 ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾: جوابٌ لقولهم: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾، واللعبُ: تركُ ما ينفع بما لا ينفع، واللهوُ: الميلُ عن الجدِّ إلى الهزْلِ، قيل: ما أهلُ الحياةِ الدنيا إلا أهلُ لعبٍ ولهوٍ، وقيل: ما أعمالُ الحياةِ الدنيا إلا لعبٌ ولهوٌ؛ لأنها لا تَعْقُبُ منفعةً، كما تَعْقُبُ أعمالُ الآخرةِ المنافعَ العظيمة، ﴿وَلَلدَّارُ﴾: مبتدأٌ، ﴿ٱلْـَٔاخِرَةُ﴾: صفتُها، ﴿ولدارُ الآخرةِ﴾ بالإضافةِ: شاميٌّ[2]؛ أي: ولدارُ الساعةِ الآخرةِ؛ لأن الشيءَ لا يُضافُ إلى صفتِه، وخبرُ المبتدأِ على القراءتين: ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ وفيه دليلٌ على أن ما سِوى أعمالِ المتقين لعبٌ ولهوٌ، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾: بالتاءِ: مدنيٌّ وحفصٌ.

《٣٣》 ولمَّا قال أبو جهلٍ: ما نكذبك يا محمدُ، وإنك عندنا لمصدَّقٌ، وإنما نكذب ما جئتَنا به.. نزلَ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ﴾ الهاءُ: ضميرُ الشأنِ، ﴿لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾: لا ينسِبونك إلى الكذب، وبالتخفيفِ: نافعٌ وعليٌّ؛ مِن: أكذبَه: إذا وجدَه كاذباً، ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾: مِن إقامةِ الظاهرِ مُقامَ المضمرِ؛ وفيه دلالةٌ على أنهم ظلمُوا في جُحودِهم، والباءُ: يتعلقُ بـ (يجحدون)، أو بـ (الظالمين)، كقوله: ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٠٣] والمعنى: أن تكذيبَك أمرٌ راجعٌ إلى اللهِ؛ لأنك رسولُه المصدَّقُ بالمعجزاتِ، فهم لا يكذبونك في الحقيقةِ، وإنما يكذبون اللهَ؛ لأن تكذيبَ الرسولِ تكذيبُ المرسِلِ.

《٣٤》 ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾: تسليةٌ لرسولِ اللهِ ﷺ، وهو دليلٌ على أن قولَه: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ ليس بنفيٍ لتكذيبِه، وإنما هو من قولك لغلامِك إذا أهانه بعضُ الناس: إنهم لم يهينُوك، وإنما أهانوني، ﴿فَصَبَرُوا۟﴾ الصبرُ: حبسُ النفسِ على المكروهِ، ﴿عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟﴾: على تكذيبِهم وإيذائِهم، ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ﴾: لمواعيدِه؛ من قولِه: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٢]، ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٣٢٧) من قول عمرو بن قيس.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص١٠١) وكذا القراءتان الآتيتان.

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ ....

[غافر: ٥١]، ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾: بعضُ أنبائِهم وقِصَصِهم وما كابدُوا من مصابرةِ المشركين، وأجازَ الأخفشُ أن تكون (مِن) زائدةً، والفاعلُ (نبأ المرسلين)[١]، وسيبويهِ لا يجيزُ زيادتَها في الواجب[٢].

«٣٥» كان يكبرُ على النبيِّ ﷺ كفرُ قومِه وإعراضُهم، ويحبُّ مجيءَ الآياتِ ليسلمُوا، فنزلَ: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ﴾: عظمَ وشقَّ ﴿إِعْرَاضُهُمْ﴾ عن الإسلام، ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا﴾: منفذاً تنفذُ فيه إلى ما تحتَ الأرضِ حتى تُطْلِعَ لهم آيةً يؤمنون بها، ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: صفةٌ لـ (نفقاً)، ﴿أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم﴾ منها ﴿بِـَٔايَةٍ﴾ فافعلْ، وهو جوابُ: (فإن استطعت)، وهو وجوابُها: جوابُ: (وإن كانَ كبُر)؛ والمعنى: إنك لا تستطيع ذلك؛ والمرادُ: بيانُ حرصِه على إسلامِ قومِه، وأنه لو استطاع أن يأتيهم بآية من تحتِ الأرضِ، أو من فوقِ السماءِ.. لأتى بها رجاءَ إيمانِهم، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾: لجعلَهم بحيثُ يختارون الهدى، ولكن لما علم أنهم يختارون الكفر.. لم يشأْ أن يجمعَهم على ذلك، كذا قاله الشيخُ أبو منصورٍ رحمه الله[٣]، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾: من الذين يجهلون ذلك.

«٣٦» ثم أخبر أن حِرصَه على هدايتِهم لا ينفع؛ لعدمِ سمعِهم كالموتى بقولِه: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ أي: إنما يُجيبُ دعاءَك الذين يسمعون دعاءَك بقلوبِهم، ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ﴾: مبتدأٌ؛ أي: الكفارُ ﴿يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾ فحينئذٍ يسمعون، وأما قبلَ ذلك.. فلا.

«٣٧» ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ﴾: هلا أُنزلَ عليه ﴿ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ كما نقترحُ؛ مِن جعلِ الصفا ذهباً، وتوسيعِ أرضِ مكةَ، وتفجيرِ الأنهارِ خلالَها، ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ كما اقترحُوا، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ أنَّ اللهَ قادرٌ على أن ينزلَ تلك الآيةَ، أو: لا يعلمون ما عليهم في الآيةِ من البلاءِ لو أُنزلت.

---

(١) انظر «معاني القرآن» للأخفش (١/٢٩٨).
(٢) أي: في الإثبات. انظر «الكتاب» لسيبويه (١/٣٨).
(٣) انظر «تأويلات أهل السنة» (٢/١١٣).

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ۝٣٨ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٣٩ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤٠﴾

《٣٨》 ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ هي: اسمٌ لما يَدِبُّ، وتقعُ على المذكرِ والمؤنثِ، ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾: في موضعِ جرٍّ صفةٌ لـ (دابة)، ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ قُيِّدَ الطيرانُ بالجناحين؛ لنفيِ المجازِ؛ لأن غيرَ الطائرِ قد يُقالُ فيه: طارَ: إذا أسرعَ، ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ في الخلقِ والموتِ والبعثِ والاحتياجِ إلى مدبِّرٍ يُدبرُ أمرَ مَراشدِها، ﴿مَّا فَرَّطْنَا﴾: ما تركْنا ﴿فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾: في اللوحِ المحفوظِ، ﴿مِن شَىْءٍ﴾ من ذلك لم نكتبْه، ولم نُثبتْ ما وجبَ أن يُثبتَ، أو: الكتابُ: القرآنُ، وقولُه: (من شيء) أي: من شيءٍ يحتاجون إليه، فهو مشتملٌ على ما تَعَبَّدَنا به عبارةً وإشارةً ودلالةً واقتضاءً، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ۝٣٨﴾ يعني: الأممَ كلَّها؛ من الدوابِّ والطيورِ، فينصفُ بعضَها من بعضٍ، كما رويَ: أنه يَأخذُ للجمَّاءِ من القَرناءِ، ثم يقولُ: كوني تراباً[1]، وإنما قال: (إلا أمم) مع إفرادِ الدابةِ والطائرِ؛ لمعنى الاستغراق فيهما.

《٣٩》 ولما ذكرَ مِن خلائقِه وآثارِ قدرتِه ما يشهدُ لربوبيتِه، وينادِي على عظمتِه.. قال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ﴾: لا يسمعون كلامَ المنبِّهِ، ﴿وَبُكْمٌ﴾: لا ينطِقون بالحقِّ، خابِطون ﴿فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي: ظلمةِ الجهلِ والحَيْرةِ والكفرِ، غافلون عن تأمُّلِ ذلك والتفكر فيه، (صمٌّ وبكمٌ): خبرُ (الذين)، ودخولُ الواوِ لا يمنعُ من ذلك[2]، و(في الظلمات): خبرٌ آخرُ، ثم قال إيذاناً بأنه فعالٌ لما يريدُ: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ﴾ أي: من يشأ الله ضلالَه.. يضللْه، ﴿وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٣٩﴾ وفيه دلالةُ خاقِ الأفعالِ، وإرادةِ المعاصي، ونفيِ الأصلح.

《٤٠》 ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ﴾ وبتَلْيِينِ الهمزةِ: مدنيٌّ، وبتركِه: عليٌّ[3]؛ ومعناه: هل علمتم أن الأمرَ كما

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣١٧) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه موقوفاً، وفي «صحيح مسلم» (٢٥٨٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «لتؤدنَّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقادَ للشاةِ الجلحاءِ من الشاةِ القرناءِ». والجماء والجلحاء: التي لا قَرْنَ لها.

(٢) هذا الوجه ردَّه السمين بأن اعتبار الكلمتين خبراً واحداً إنما هو إذا كانا في معنى خبر واحد، مثلُ: هذا حلوٌ حامضٌ؛ أي: مُزٌّ، وأما هذان الخبران.. فكل منهما مستقلٌ بالفائدة. انظر «الدر المصون» (٤/ ٦١٣) فالأولى أن يقال: (صمٌّ): خبرٌ، و(بكمٌ): معطوف عليه.

(٣) قرأ نافع وأبو جعفر: بتسهيل الهمزة الثانية، ولورش وجهٌ ثانٍ، وهو إبدالها ألفاً خالصةً مع إشباع المدِّ للساكنين، وقرأ الكسائي: بحذف هذه الهمزة، والباقون: بإثباتها محققةً في الحالين، إلا حمزةَ فسهلها عند الوقف. انظر «البدور الزاهرة» (ص١٠٢).

﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ ....

يقال لكم؟ فأخبروني بما عندكم، والضميرُ الثاني: لا محلَّ له من الإعراب، والتاءُ: ضميرُ الفاعلِ، ومتعلَّقُ الاستخبارِ محذوفٌ، تقديرُه: أرأيتكم ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ مَن تدعون؟ ثم بكَّتَهم بقوله: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ﴾ أي: أَتَخُصُّون آلهتكم بالدعوةِ فيما هو عادتُكم إذا أصابكم ضُرٌّ أم تدعون الله دونَها؟ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾﴾ في أن الأصنامَ آلهةٌ.. فادعُوها لتخلصَكم.

《٤١》 ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾: بل تخصونه بالدعاء دون الآلهة، ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي: ما تدعونه إلى كشفِه ﴿إِن شَآءَ﴾: إن أرادَ أن يتفضلَ عليكم، ﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾: وتتركون آلهتَكم، أو: لا تذكرون آلهتَكم في ذلك الوقت؛ لأن أذهانكم مغمورةٌ بذكر ربِّكم وحدَه؛ إذْ هو القادر على كشف الضرِّ دون غيرِه، ويجوز أن يتعلق الاستخبارُ بقولِه: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ﴾ كأنه قيل: أرأيتكم أغيرَ اللهِ تدعون إن أتاكم عذاب الله؟

《٤٢》 ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ رسلاً، فالمفعولُ محذوفٌ، فكذبوهم ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾: بالبؤسِ والضرِّ، والأولُ: القحطُ والجوعُ، والثاني: المرضُ ونقصانُ الأنفسِ والأموالِ؛ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾﴾: يتذللون ويتخشَّعون لربِّهم، ويتوبون عن ذنوبِهم، فالنفوسُ تتخشعُ عندَ نزولِ الشدائدِ.

《٤٣》 ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟﴾ أي: هلّا تضرعوا بالتوبة، ومعناه: نفيُ التضرعِ، كأنه قيل: فلم يتضرعُوا إذ جاءهم بأسنا، ولكنه جاءَ بـ(لولا)؛ ليفيدَ أنه لم يكن لهم عذرٌ في ترك التضرع، ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فلم يَنْزَجِرُوا بما ابتُلُوا به، ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾: وصاروا معجَبين بأعمالِهم التي زيَّنَها الشيطانُ لهم.

《٤٤》 ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ من البأساءِ والضراءِ؛ أي: تركُوا الاتعاظَ به، ولم يزجُرْهم، ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من الصحةِ والسعةِ وصنوفِ النعمةِ، ﴿فَتَّحْنا﴾: شاميٌّ[1]، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟﴾ من الخيرِ والنعمِ ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾: آيِسون متحسِّرون؛ وأصلُه: الإطراقُ حزناً لما أصابه، أو: ندماً على ما فاته، و(إذا): للمفاجأة.

---

(١) انظر المرجع السابق (ص١٠٣).

فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ ....

《٤٥》 ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: أُهلِكوا عن آخرهم، ولم يُترك منهم أحدٌ، ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾: إيذانٌ بوجوبِ الحمدِ لله عندَ هلاكِ الظلمةِ، وأنه من أجلِّ النعمِ، وأجزلِ القِسَمِ، أو: احمَدُوا اللهَ على إهلاكِ مَن لم يَحمد الله.

《٤٦》 ثم دلَّ على قدرتِه وتوحيدِه بقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ﴾ بأن أَصَمَّكم وأعماكم، ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ فسلبَ العقولَ والتمييزَ، ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾: بما أَخَذَ وختمَ عليه، (مَن): رفعٌ بالابتداءِ، و(إلهٌ): خبرُه، و(غيرُ): صفةٌ لـ (إلهٌ)، وكذا (يأتيكم)، والجملةُ: في موضعِ مفعولَي (أرأيتم)، وجوابُ الشرطِ محذوفٌ، ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾: نُكرِّرُها، ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾: يُعرضون عن الآيات بعدَ ظهورِها، والصُّدُوفُ: الإعراضُ عن الشيءِ.

《٤٧》 ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً﴾: بأن لم تظهرْ أماراتُه، ﴿أَوْ جَهْرَةً﴾: بأن ظهرتْ أماراتُه، وعن الحسن: ليلاً أو نهاراً، ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾: ما يُهلكُ هلاكَ تعذيبٍ وسخطٍ إلا الذين ظلموا أنفسَهم بكفرِهم بربِّهم.

《٤٨》 ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾: بالجِنانِ والنيرانِ للمؤمنين والكفار، ولم نُرسلْهم؛ ليُقترحَ عليهم الآياتُ بعدَ وضوحِ أمرِهم بالبراهين القاطعةِ، والأدلةِ الساطعةِ، ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ﴾ أي: داومَ على إيمانِه ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾﴾ ﴿فلا خوفُ﴾: يعقوبُ[1].

《٤٩》 ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ جُعِلَ العذابُ ماسّاً كأنه حيٌّ يَفعلُ بهم ما يريدُ من الآلام[2]، ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾: بسببِ فسقِهم وخروجِهم عَنْ طاعةِ اللهِ تعالى بالكفر.

---

(١) انظر «إتحاف فضلاء البشر» (ص٢٦٣).

(٢) ففيه استعارةٌ مكنيةٌ. انظر «تفسير الآلوسي» (٤/١٤٦).

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

«٥٠» ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ أي: قَسْمُهُ بين الخلق وأرزاقُه، ومحلُّ ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾: النصبُ عطفاً على محلِّ (عندي خزائن الله)؛ لأنه من جملة المقولِ، كأنه قال: لا أقول لكم هذا القولَ ولا هذا القولَ، ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ أي: لا أدَّعي ما يُستبعدُ في العقول أن يكون لبشرٍ مِن ملكِ خزائنِ اللهِ وعلمِ الغيبِ ودعوى المَلَكِيَّةِ، وإنما أدَّعي ما كان لكثيرٍ من البشر، وهو النبوة، ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ أي: ما أخبرُكم إلا بما أنزل الله عليَّ، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾: مثلٌ للضالِّ والمهتدي، أو: لمن اتبعَ ما يُوحَى إليه ومن لم يتبع، أو: لمن يدَّعي المستقيمَ وهو النبوة، والمحالَ وهو الإلهية، ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾: فلا تكونوا ضالين أشباهَ العُميانِ، أو: فتعلموا أني ما ادَّعيت ما لا يليقُ بالبشر، أو: فتعلموا أن اتباعَ ما يُوحَى إليَّ ما لا بدَّ لي منه.

«٥١» ﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾: بما يوحَى ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾: هم المسلمون المقِرُّون بالبعث إلا أنهم مفرِّطون في العمل، فينذرهم بما أوحيَ إليه، أو: أهلُ الكتابِ؛ لأنهم مقرُّون بالبعث، ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾: في موضعِ الحالِ مِن (يحشرُوا) أي: يخافون أن يُحشروا غيرَ منصورينَ، ولا مشفوعاً لهم، ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾: يدخلون في زمرةِ أهلِ التقوى.

«٥٢» ولما أمر ﷺ بإنذارِ غيرِ المتقين ليتقوا.. أُمر بعد ذلك بتقريب المتقين، ونُهيَ عن طردِهم بقوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾ وأثنَى عليهم بأنهم يواصلُون دعاءَ ربِّهم؛ أي: عبادتَه، ويواظبُون عليها، والمرادُ بذكر الغداةِ والعشيِّ: الدوامُ، أو: معناه: يصلُّون صلاةَ الصبحِ والعصرِ، أو: الصلواتِ الخمسِ، ﴿بالغُدْوَةِ﴾: شاميٌّ[1]، ووَسَمَهم بالإخلاص في عبادتِهم بقوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ فالوجهُ يعبَّرُ به عن ذاتِ الشيْءِ وحقيقتِه، نزلت في الفقراءِ؛ بلالٍ وصهيبٍ وعمارٍ وأضرابِهم حين قال رؤساءُ المشركين: لو طردتَ هؤلاءِ السُّقاطَ.. لجالسناك، فقال عليه السلام: ما أنا بطاردِ المؤمنين، فقالوا: اجعل لنا يوماً ولهم يوماً، وطلبوا

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص١٠٣).

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ۝٥٣ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥٤﴾ ....

بذلك كتاباً، فدعا عليّاً رضي الله عنه ليكتب، فقام الفقراءُ وجلسُوا ناحيةً، فنزلت، فرمى عليه الصلاة والسلام بالصحيفةِ وأتى الفقراءَ فعانقَهم[1]، ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾: كقوله: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ﴾ [الشعراء: ١١٣]، ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ وذلك أنهم طعنُوا في دينِهم وإخلاصِهم فقال: حسابُهم عليهم، لازمٌ لهم، لا يتعدّاهم إليك، كما أن حسابَك عليك لا يتعدّاك إليهم، ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾: جوابُ النفيِ، وهو: (ما عليك من حسابهم)، ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٢﴾: جوابُ النهيِ، وهو: (ولا تطرد)، ويجوزُ أن يكون عطفاً على (فتطردهم) على وجه التسبيب؛ لأن كونَه ظالماً مسبَّبٌ عن طردِهم.

《٥٣》 ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾: ومثلَ ذلك الفَتْنِ العظيم ابتلينا الأغنياءَ بالفقراءِ؛ ﴿لِّيَقُولُوٓاْ﴾ أي: الأغنياءُ: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآۗ﴾ أي: أنعمَ الله عليهم بالإيمانِ ونحن المقدَّمون والرؤساءُ وهم الفقراءُ؛ إنكاراً لأن يكونَ أمثالُهم على الحقِّ وممنوناً عليهم من بينِهم بالخيرِ، ونحوُه: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِۚ﴾ [الأحقاف: ١١]، ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ۝٥٣﴾: بمن يشكرُ نعمتَه.

《٥٤》 ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْۖ﴾: إما أن يكون أمراً بتبليغِ سلامِ الله إليهم، وإما أن يكون أمراً بأن يبدأَهم بالسلام؛ إكراماً لهم وتطييباً لقلوبِهم، وكذا قولُه: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَۖ﴾: من جملةِ ما يقول لهم؛ ليبشرَهم بسعةِ رحمةِ الله، وقبولِه التوبةَ منهم؛ ومعناه: وعدَكم بالرحمة وعداً مؤكَّداً ﴿أَنَّهُۥ﴾: الضميرُ للشأن، ﴿مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا﴾: ذنباً ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾: في موضعِ الحالِ؛ أي: عملَه وهو جاهلٌ بما يتعلقُ به من المضرةِ، أو: جُعلَ جاهلاً؛ لإيثاره المعصيةَ على الطاعةِ، ﴿ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾: من بعدِ السوءِ، أو العملِ، ﴿وَأَصْلَحَ﴾: وأخلصَ توبتَه ﴿فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥٤﴾ ﴿أنه﴾ ﴿فأنه﴾: شاميٌّ، وعاصمٌ، الأولُ: بدلُ (الرحمة)، والثاني: خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ؛ أي: فشأنُه أنه غفورٌ رحيمٌ، ﴿أنه﴾ ﴿فإنه﴾: مدنيٌّ، الأولُ: بدلُ (الرحمة)، والثاني: مبتدأٌ، ﴿إنه﴾ ﴿فإنه﴾: غيرُهم[2]، على الاستئناف، كأن الرحمةَ استُفسِرت فقيلَ: (إنه من عمل منكم).

---

(١) روى نحوه ابن ماجه (٤١٢٧) عن سيدنا خباب رضي الله عنه.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٠٣) وكذا القراءات الثلاث الآتية.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ ....﴾

«٥٥» ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ﴾ وبالياء: حمزةُ وعليٌّ وأبو بكرٍ، ﴿سَبِيلَ المجرِمِيْنَ﴾: مدنيٌّ، غيرُه: بالرفع، فرفعُ السبيلِ مع التاءِ والياءِ؛ لأنها تُذكرُ وتؤنثُ، ونصبُ السبيل مع التاءِ على خطابِ الرسولِ ﷺ، يقال: استبانَ الأمرُ وتبينَ، واستبنتُه وتبيتُه، والمعنَى: ومثلَ ذلك التفصيلِ البيِّنِ نفصلُ آياتِ القرآنِ ونلخصُها في صفةِ أحوالِ المجرمين؛ مَن هو مطبوعٌ على قلبِه، ومن يُرجى إسلامُه، ولتستوضحَ سبيلَهم فتعاملَ كلّاً منهم بما يجب أن يعاملَ به فصلنا ذلك التفصيلَ.

«٥٦» ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: صُرفتُ وزُجرتُ بأدلةِ العقلِ والسمعِ عن عبادة ما تعبدون من دون اللهِ، ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ﴾ أي: لا أَجري في طريقتِكم التي سلكتُموها في دينكم؛ من اتباعِ الهوى دون اتباعِ الدليل، وهو بيانٌ للسببِ الذي منه وقعُوا في الضلال، ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا﴾ أي: إن اتبعتُ أهواءَكم.. فأنا ضالٌّ، ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾: وما أنا من الهدى في شيءٍ؛ يعني: أنكم كذلك.

«٥٧» ولما نفَى أن يكون الهوى مُتبعاً.. نبَّهَ على ما يجبُ اتباعُه بقوله: ﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ أي: إني من معرفةِ ربي وأنه لا معبودَ سواه.. على حجةٍ واضحةٍ، ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾ حيثُ أشركتُم به غيرَه، وقيل: (على بينة من ربي): على حجةٍ من جهةِ ربي، وهو القرآنُ، (وكذبتم به): بالبينةِ، وذُكّرَ الضميرُ على تأويلِ البرهانِ، أو: البيانِ، أو: القرآنِ، ثم عقَّبَه بما دلَّ على أنهم أحِقّاءُ بأن يُعاقبوا بالعذابِ فقال: ﴿مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾ يعني: العذابَ الذي استعجلُوه في قولِهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢]، ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ في تأخيرِ عذابِكم، ﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾: حجازيٌّ وعاصمٌ؛ أي: يتبعُ الحقَّ والحكمةَ فيما يحكمُ به ويقدِّرُه؛ مِن: قَصَّ أثرَه، الباقون: ﴿يَقْضِ الحقَّ﴾ أي: القضاءَ الحقَّ في كلِّ ما يقضِي من التأخيرِ والتعجيلِ، فـ (الحقَّ): صفةٌ لمصدرٍ يقضي، وقولُه: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾﴾ أي: القاضين بالقضاءِ الأليقِ؛ إذ الفصلُ هو: القضاءُ، وسقوطُ الياءِ من الخطِّ لاتِّباعِ اللفظِ، وسقوطُها في اللفظِ لالتقاءِ الساكنين.

﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٨ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٥٩ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٦٠﴾ ....

《٥٨》 ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى﴾ أي: في قدرتي وإمكاني ﴿مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ﴾ من العذابِ ﴿لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ﴾: لأهلكتُم عاجلاً؛ غضباً لربي، ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٨﴾ فهو ينزلُ عليكم العذابَ في وقتٍ يعلمُ أنه أردعُ.

《٥٩》 ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ﴾ المفاتحُ: جمعُ مِفْتَحٍ، وهو المفتاحُ، وهي: خزائنُ العذابِ والرزقِ، أو: ما غاب عن العبادِ من الثوابِ والعقابِ والآجالِ والأحوالِ، جُعلَ للغيبِ مفاتحُ على طريقِ الاستعارةِ[1]؛ لأنَّ المفاتحَ يتوصلُ بها إلى ما في المخازنِ المستوثَقِ منها بالأغلاقِ والأقفالِ، ومن علمَ مفاتِحَها وكيفيةَ فتحِها.. توصلَ إليها، فأراد أنه هو المتوصِّلُ إلى المغيَّباتِ وحدَه، لا يَتوصلُ إليها غيرُه، كمن عندَه مفاتحُ أقفالِ المخازنِ ويعلمُ فتحَها، فهو المتوصِّلُ إلى ما في المخازنِ، قيل: عندَه مفاتحُ الغيبِ، وعندك مفاتح العيب، فمن آمن بغيبِه.. أسبلَ اللهُ السترَ على عَيبِه، ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ﴾: من النباتِ والدوابِّ ﴿وَٱلْبَحْرِ﴾: من الحيوانِ والجواهرِ وغيرِهما، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ (ما): للنفي، و(مِن): للاستغراق؛ أي: يعلمُ عددَها وأحوالَها، قبلَ السقوطِ وبعدَه، ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾: عطفٌ على (ورقةٍ) وداخلٌ في حكمِها، وقولُه: ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٥٩﴾: كالتكريرِ لقولِه: (إلا يعلمُها)؛ لأن معنى (إلا يعلمُها) ومعنى (إلا في كتاب مبين) واحدٌ، وهو علمُ اللهِ، أو اللوحُ.

《٦٠》 ثم خاطب الكفرة بقولِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ أي: يقبضُ أنفسَكم عن التصرفِ بالتمامِ في المنامِ، ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾: كَسَبْتُم فيه من الآثامِ، ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾: ثم يوقظكم في النهار، أو التقدير: ثم يبعثكم في النهار، ويعلم ما جرحتم فيه، فقدَّمَ الكسبَ؛ لأنه أهمُّ، وليس فيه أنه لا يعلم ما جرحْنا بالليل، ولا أنه لا يَتوفَّانا بالنهار، فدلَّ أن تخصيصَ الشيءِ بالذكرِ لا يدلُّ على نفيِ ما عداه[2]، ﴿لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾: لِتُوَفَّرَ الآجالُ على

---

(١) شبه الغيب بالأشياء الموثقة بالأقفال، ورمز له بلازمه وهو المفتاح، فالاستعارة مكنية.

(٢) يريد الردَّ على القائلين بمفهوم المخالفة، ولكنهم يقولون: خُصَّ الليل بالنوم، والنهارُ بالكسب جرياً على المعتاد، ولذا لم يكن لهذا القيد مفهوم. انظر «تفسير البيضاوي» (٢/ ١٦٥).

وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ ....

الاستكمالِ[1]، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾: رجوعُكم بالبعث بعدَ الموتِ، ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ في ليلِكم ونهارِكم، قال بعضُ أهلِ الكلامِ: إن لكلِّ حاسَّةٍ من هذه الحواسِّ روحاً تُقبضُ عند النومِ ثم تُردُّ إليها إذا ذهبَ النومُ، فأما الروحُ التي تحيا بها النفسُ. . فإنها لا تقبضُ إلا عند انقضاءِ الأجلِ، والمرادُ بالأرواحِ: المعاني والقُوى التي تقوم بالحواسِّ ويكونُ بها السمعُ والبصرُ والأخذُ والمشيُ والشمُّ؛ ومعنى (ثم يبعثُكم فيه) أي: يوقظُكم ويردُّ إليكم أرواحَ الحواسِّ، فيُستدلُّ به على منكرِي البعثِ؛ لأنه بالنوم يُذهبُ أرواحَ هذه الحواسِّ ثم يردُّها إليها، فكذا يُحيي الأنفسَ بعدَ موتِها.

《٦١》 ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾: ملائكةً حافظين لأعمالِكم، وهم الكرامُ الكاتبون؛ ليكون ذلك أزجرَ للعبادِ عن ارتكابِ الفسادِ إذا تفكرُوا أن صحائفَهم تُعرضُ على رؤوسِ الأشهادِ، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ (حتى): لغايةِ حفظِ الأعمالِ؛ أي: ذلك دأبُ الملائكةِ مع المكلَّف مدةَ الحياةِ إلى أن يأتيَه المماتُ، ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ أي: استوفت روحَه وهم: ملكُ الموتِ وأعوانُه، ﴿تَوَفيه﴾ و﴿استهويه﴾[2]: بالإمالةِ: حمزةُ[3]، ﴿رُسْلُنا﴾: أبو عمرٍو، ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾: لا يتوانَون ولا يُؤخِّرون.

《٦٢》 ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾: إلى حكمِه وجزائِه؛ أي: رُدَّ المتوفَّون بردِّ الملائكةِ ﴿مَوْلَىٰهُمُ﴾: مالكِهم الذي يلي عليهم أمورَهم، ﴿ٱلْحَقِّ﴾: العدلِ الذي لا يَحكمُ إلا بالحقِّ، وهما صفتان لله، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ يومئذٍ، لا حكمَ فيه لغيرِه، ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾: لا يشغلُه حسابٌ عن حسابٍ، يحاسبُ جميعَ الخلقِ في مقدارِ حَلْبِ شاةٍ، وقيل: الردُّ إلى من ربّاك، خيرٌ من البقاء مع من آذاك.

《٦٣》 ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم﴾ ﴿يُنْجِيكُم﴾: عباس[4]، ﴿مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾: مجازٌ عن

---

(١) وَفَرْتُ الشيءَ: أتممتُه وأكملتُه. وفي «تفسير البيضاوي» (٢/ ١٦٥): ليبلغ المتيقظُ آخرَ أجلِه المسمَّى له في الدنيا. وفي «التحرير والتنوير» (٧/ ٢٧٧): قضاءُ الأجل: انتهاؤه، ومعنى كونه مسمىً: أنه معينٌ محددٌ.

(٢) في الآية الآتية قريباً: ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾.

(٣) قرأ حمزةُ وحدَه بألفٍ ممالةٍ بعدَ الفاء. انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٠٤) وكذا القراءة الآتية.

(٤) وهي أيضاً قراءة يعقوب فهي متواترة. انظر «الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها» (ص ٥٤١).

قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ﴿٦٦﴾ ....

مَخاوِفِهما وأهوالِهما، أو: ظلماتُ البرِّ: الصواعقُ، والبحرِ: الأمواجُ، وكلاهما في الغيمِ والليلِ، ﴿تَدۡعُونَهُۥ﴾: حالٌ من ضميرِ المفعولِ في (ينجيكم)، ﴿تَضَرُّعٗا﴾: معلنين الضراعةَ، وهو مصدرٌ في موضعِ الحالِ، وكذا ﴿وَخُفۡيَةٗ﴾ أي: مُسِرِّين في أنفسِكم، (خِفْيَةً) حيث كان: أبو بكرٍ، وهما لغتان[1]، ﴿لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا﴾: عاصمٌ، وبالإمالةِ: حمزةُ وعليٌّ، الباقون: ﴿أنجيتَنا﴾، والمعنى: يقولون: لئن خَلَّصنا ﴿مِنۡ هَٰذِهِۦ﴾ الظلماتِ ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾﴾ لله تعالى.

《٦٤》 ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم﴾: بالتشديدِ: كوفيٌّ، ﴿مِّنۡهَا﴾: من الظلماتِ، ﴿وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ﴾: غمٍّ وحزنٍ، ﴿ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾ ولا تشكُرون.

《٦٥》 ﴿قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ﴾: هو الذي عرفتُموه قادراً، أو: هو الكاملُ القدرةِ، فاللامُ يحتملُ العهدَ والجنسَ، ﴿عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ﴾ كما أمطرَ على قومِ لوطٍ، وعلى أصحابِ الفيلِ الحجارةَ، ﴿أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ﴾ كما أغرقَ فرعونَ، وخسفَ بقارونَ، أو: من قِبَلِ سلاطينِكم وسَفَلَتِكم، أو: هو حبسُ المطرِ والنباتِ، ﴿أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا﴾: أو يَخْلِطَكم فِرقاً مختلفين على أهواءٍ شتَّى، كلُّ فرقةٍ منكم مُشايِعةٌ لإمامٍ، ومعنى خلطِهم: أن يُنْشِبَ القتالَ بينهم فيختلطُوا ويشتبكُوا في ملاحمِ القتالِ، ﴿وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ﴾: يقتلُ بعضُكم بعضاً، والبأسُ: السيفُ، وعنه عليه الصلاة والسلام: «سألتُ الله تعالى ألا يبعثَ على أمتي عذاباً من فوقِهم أو من تحت أرجلِهم فأعطاني ذلك، وسألته ألا يجعلَ بأسَهم بينهم فمنعني، وأخبرني جبريلُ أن فناءَ أمتي بالسيف»[2]، ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ بالوعدِ والوعيدِ ﴿لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

《٦٦》 ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ﴾: بالقرآنِ، أو: بالعذابِ، ﴿قَوۡمُكَ﴾: قريشٌ، ﴿وَهُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ أي:

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٠٤) وكذا القراءتان الآتيتان.

(٢) روى نحوه الطبري في «تفسيره» (١١/٤٢٨) عن الحسن، وفي «صحيح مسلم» (٢٨٨٩): «إني سألت ربي لأمتي ألا يهلكها بسنة عامة، وألا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد إني إذا قضيت قضاء.. فإنه لا يردُّ، وإني أعطيتك لأمتك ألا أهلكهم بسنة عامة، وألا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم، يستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها - أو قال: من بين أقطارها - حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً»، وفي «سنن الترمذي» (٢٢٠٢): «إذا وضع السيف في أمتي لم يرفع عنها إلى يوم القيامة».

لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ....

الصدقُ، أو: لا بدَّ أن ينزلَ بهم، ﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾﴾: بحفيظٍ وُكِلَ إليَّ أمرُكم؛ إنما أنا منذر.

《٦٧》 ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ﴾: لكلِّ شيءٍ يُنبأ به؛ يعني: إنباءَهم بأنهم يعذبُون وإيعادَهم به، ﴿مُّسْتَقَرٌّ﴾: وقتُ استقرارٍ وحصولٍ لا بدَّ منه، ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾: تهديدٌ.

《٦٨》 ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: القرآنِ؛ يعني: يخوضون في الاستهزاءِ بها، والطعنِ فيها، وكانت قريشٌ في أنديتِهم يفعلون ذلك، ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ولا تجالِسهم وقمْ عنهم ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾: غيرِ القرآنِ مما يحلُّ، فحينئذٍ يجوزُ أن تجالسَهم، ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ ما نُهيت عنه، ﴿يُنَسِّيَنَّكَ﴾: شاميٌّ[1]، نَسَّى وأَنْسَى: واحدٌ، ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ﴾: بعد أن تذكرَ النهيَ ﴿مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

《٦٩》 ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم﴾: من حسابِ هؤلاءِ الذين يخوضون في القرآنِ؛ تكذيباً واستهزاءً ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ أي: وما يَلزمُ المتقين الذين يجالسُونهم شيءٌ مما يحاسَبون عليه من ذنوبِهم، ﴿وَلَٰكِن﴾ عليهم أن يُذكِّرُوهم ﴿ذِكْرَىٰ﴾ إذا سمعُوهم يخوضون؛ بالقيام عنهم، وإظهارِ الكراهةِ لهم، وموعظتِهم، ومحلُّ (ذكرى): نصبٌ؛ أي: ولكن يذكرونهم ذكرى؛ أي: تذكيراً، أو: رفعٌ، والتقديرُ: ولكن عليهم ذكرى، فذكرى: مبتدأٌ، والخبرُ محذوفٌ؛ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾: لعلهم يجتنبون الخوضَ حياءً، أو كراهةً لمساءتِهم.

《٧٠》 ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَهُمْ﴾ الذي كُلِّفُوه ودُعوا إليه، وهو دين الإسلام، ﴿لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ حيث سخرُوا به واستهزؤوا، ومعنى (ذَرْهم): أعرضْ عنهم، ولا تُبالِ بتكذيبِهم واستهزائِهم، واللهوُ: ما يشغلُ الإنسانَ من هوىً أو طربٍ، ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَذَكِّرْ

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٠٤).

﴿قُلۡ أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٌ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَاۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾

﴿بِهِۦٓ﴾: وَعِظْ بالقرآن؛ ﴿أَن تُبۡسَلَ نَفۡسُۢ بِمَا كَسَبَتۡ﴾: مخافةَ أن تُسْلَمَ إلى الهَلَكَةِ والعذابِ، وتُرتَهَنَ بسوءِ كسبِها، وأصلُ الإبسالِ: المنعُ، ﴿لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٞ﴾ ينصرُها بالقوة، ﴿وَلَا شَفِيعٞ﴾ يدفعُ عنها بالمسألةِ، ولا وقفَ على (كسبت) في الصحيح؛ لأن قوله: (ليس لها): صفةٌ لـ (نفس)؛ والمعنى: وذكر بالقرآن كراهةَ أن تُبسلَ نفسٌ عادِمةٌ وليّاً وشفيعاً بكسبِها، ﴿وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٖ﴾: نصبٌ على المصدرِ؛ أي: وإن تَفْدِ كلَّ فداءٍ، والعدلُ: الفديةُ؛ لأن الفاديَ يعدِلُ المفديَّ بمثلِه، وفاعلُ ﴿لَّا يُؤۡخَذۡ﴾: ﴿مِنۡهَآ﴾[1]، لا ضميرُ العدلِ؛ لأن العدل هنا مصدرٌ، فلا يُسند إليه الأخذُ، وأما في قوله: ﴿وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ﴾ [البقرة: ٤٨]: فبمعنى المَفْدِيِّ به، فصحَّ إسنادُه إليه، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: إشارةٌ إلى المتخذين دينَهم لعباً ولهواً، وهو مبتدأٌ، والخبرُ: ﴿ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ﴾، وقولُه: ﴿لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ﴾ أي: ماءٌ سخينٌ، خبرٌ ثانٍ لـ (أولئك)، والتقديرُ: أولئك المبْسَلون ثابتٌ لهم شرابٌ من حميمٍ، أو: مستأنفٌ، ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾: بكفرِهم.

《٧١》 ﴿قُلۡ﴾ لأبي بكرٍ يقلْ لابنِه عبدِ الرحمن وكان يدعو أباه إلى عبادةِ الأوثانِ[2]: ﴿أَنَدۡعُواْ﴾: أنعبدُ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الضارِّ النافعِ ﴿مَا لَا يَنفَعُنَا﴾: ما لا يقدرُ على نفعِنا إن دعوناه، ﴿وَلَا يَضُرُّنَا﴾ إن تركناه، ﴿وَنُرَدُّ﴾: وأُنردُّ ﴿عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا﴾ راجعين إلى الشركِ ﴿بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ للإسلامِ وأنقذنا من عبادة الأصنامِ ﴿كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾: كالذي ذهبت به الغِيلانُ ومردةُ الجنِّ، والكافُ: في محلِّ النصبِ على الحال من الضميرِ في (نردُّ على أعقابنا) أي: أَنَنْكُصُ مشبهين من استهوته الشياطين؟ وهو (استفعالٌ) مِن: هوَى في الأرض: إذا ذهب فيها، كأن معناه: طَلَبَتْ هُوِيَّهُ ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: في المَهْمهِ[3]، ﴿حَيۡرَانَ﴾: حالٌ من مفعولِ (استهوته) أي: تائهاً ضالّاً عن الجادةِ، لا يدري كيف يصنع، ﴿لَهُۥٓ﴾: لهذا المستهوَى ﴿أَصۡحَٰبٞ﴾: رُفقةٌ ﴿يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى﴾: إلى أن يَهدُوه الطريقَ؛ سمي الطريقُ المستقيمُ بالهدى، يقولون له: ﴿ٱئۡتِنَاۗ﴾ وقد

(١) أي: الجار والمجرور (منها): في محل رفع نائب فاعل، ويجوز أن يكون نائب الفاعل المعدولَ به المفهومَ من سياق الكلام. انظر «البحر المحيط» (٤/ ١٦٠).

(٢) أسلم سيدُنا عبد الرحمن في هدنة الحديبية، وحسن إسلامه رضي الله عنه. انظر «أسد الغابة» (٣/ ٣٦٣).

(٣) المهمه: المفازةُ البعيدةُ، والبلدُ الخالي.

﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَٰلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَٰدَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾ ....

اعتَسَفَ المهمهَ تابعاً للجنِّ[١]، لا يجيبهم ولا يأتيهم، وهذا مبنيٌّ على ما يقال: إن الجنَّ تستهوِي الإنسانَ، والغيلانَ تستولِي عليه، فشبه به الضالُّ عن طريقِ الإسلامِ التابعِ لخُطُواتِ الشيطانِ، والمسلمون يدعونه إليه فلا يلتفت إليهم، ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ﴾ وهو الإسلامُ ﴿هُوَ الْهُدَىٰ﴾ وحدَه، وما وراءه ضلالٌ، ﴿وَأُمِرْنَا﴾: محلُّه: نصبٌ بالعطف على محلِّ (إن هدى الله هو الهدى) على أنهما مقولان، كأنه قيل: قل هذا القولَ وقل: (أمرنا) ﴿لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾[٢].

«٧٢» ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾ والتقديرُ: وأمرنا لأن نسلمَ، ولأن أقيموا؛ أي: للإسلامِ ولإقامة الصلاةِ، ﴿وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ يومَ القيامةِ.

«٧٣» ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾: بالحكمةِ أو: مُحقّاً ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ﴾: على الخبرِ دونَ الجوابِ[٣]، ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾: مبتدأٌ، و(يومَ يقول): خبرُه مقدماً، كما تقول: يومَ الجمعةِ قولُك الصدقُ؛ أي: قولُك الصدقُ كائنٌ يومَ الجمعة، واليومُ بمعنى: الحينِ؛ والمعنى: أنه خلق السمواتِ والأرضَ بالحق والحكمةِ، وحين يقول لشيءٍ من الأشياء: كنْ فيكونُ ذلك الشيءُ، قولُه الحقُّ والحكمةُ؛ أي: لا يُكَوِّنُ شيئاً من السمواتِ والأرضِ وسائرِ المكوَّناتِ إلا عن حكمةٍ وصوابٍ، ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ﴾: مبتدأٌ وخبرٌ، ﴿يَوْمَ يُنفَخُ﴾: ظرفٌ لقوله: (وله الملك) ﴿فِي الصُّورِ﴾ هو القَرْنُ بلغةِ اليمنِ، أو جمعُ صورةٍ، ﴿عَٰلِمُ الْغَيْبِ﴾: هو عالمُ الغيبِ، ﴿وَالشَّهَٰدَةِ﴾: السرِّ والعلانيةِ، ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ في الإفناءِ والإحياءِ، ﴿الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ بالحسابِ والجزاءِ.

«٧٤» ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ هو: اسمُ أبيه، أو: لقبُه؛ لأنه لا خلاف بين النسَّابين أن اسم أبيه تارَح، وهو: عطفُ بيان لـ: أبيه، وزنه: (فاعَل) ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾: استفهامُ توبيخٍ؛ أي: أتتخذُها آلهةً وهي لا تستحق الإلهيةَ؟ ﴿إِنِّي أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾.

---

(١) اعتسف الطريق: سارَ فيه على غير هدىً.

(٢) في إعراب اللام في قوله تعالى: (لنسلم) وجوه، منها: أنها زائدة للتوكيد، والتقدير: أمرنا بأن نسلم. انظر «الدر المصون» (٤/ ٦٨٦).

(٣) أي: (فيكونُ): مرفوع وليس منصوباً بإضمار أنْ بعد الفاء.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨﴾ ....

《٧٥》 ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: وكما أريناه قبحَ الشركِ ﴿نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: نري بصيرتَه لطائفَ خلقِ السمواتِ والأرضِ، و(نري): حكايةُ حالٍ ماضيةٍ، والملكوتُ: أبلغُ من الملكِ؛ لأن الواوَ والتاءَ تُزادان للمبالغة؛ قال مجاهد: فُرِجَت له السمواتُ السبعُ فنظرَ إلى ما فيهن حتى انتهى نظرُه إلى العرشِ، وفُرِجت له الأرَضون السبعُ حتى نظر إلى ما فيهن، ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥﴾: فعلنا ذلك، أو ليستدلَّ وليكونَ من الموقنين عِياناً، كما أيقنَ بياناً.

《٧٦》 ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ﴾ أي: أظلمَ، وهو: عطفٌ على ﴿قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ﴾، وقولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾: جملةٌ اعتراضيةٌ بين المعطوف والمعطوفِ عليه، ﴿رَءَا كَوۡكَبٗاۖ﴾ أي: الزُّهرة أو: المشتريَ، وكان أبوه وقومُه يعبدون الأصنامَ والشمسَ والقمرَ والكوكبَ، فأراد أن ينبهَهم على الخطأِ في دينِهم، وأن يرشدهم إلى طريق النظرِ والاستدلالِ، ويعرفَهم أن النظرَ الصحيحَ مؤدٍّ إلى أن شيئاً منها ليس بإلهٍ؛ لقيامِ دليلِ الحدوثِ فيها؛ وأن لها محدِثاً أحدثَها، ومدبِّراً دبرَ طلوعَها وأُفولَها، وانتقالَها ومسيرَها وسائرَ أحوالِها، فلمّا رأى الكوكبَ الذي كانوا يعبدونه ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ﴾ أي: قال لهم: هذا ربي في زعمكم، أو: المرادُ: أهذا؟ استهزاءً بهم؛ وإنكاراً عليهم، والعربُ تكتفي عن حرف الاستفهامِ بنغمةِ الصوتِ، والصحيحُ: أن هذا قولُ من يُنصفُ خصمَه مع علمه أنه مبطلٌ، فيحكِي قولَه كما هو، غيرَ متعصبٍ لمذهبِه؛ لأنه أدعَى إلى الحقِّ، وأنجى من الشَّغْبِ، ثم يَكِرُّ عليه بعد حكايته فيبطلُه بالحجةِ، ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾: غابَ ﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ٧٦﴾ أي: لا أحبُّ عبادةَ الأربابِ المتغيِّرين عن حال إلى حالٍ؛ لأن ذلك من صفات الأجسامِ.

《٧٧》 ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا﴾: مبتدِئاً في الطلوعِ ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ٧٧﴾ نبَّهَ قومَه على أن مَن اتخذَ القمرَ إلهاً.. فهو ضالٌّ، وإنما احتجَّ عليهم بالأُفول دون البُزوغِ وكلاهما انتقالٌ من حال إلى حال؛ لأن الاحتجاجَ به أظهرُ؛ لأنه انتقالٌ مع خفاء واحتجاب.

《٧٨》 ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ وإنما ذكَّره لأنه أراد الطالعَ، أو: لأنه جعلَ المبتدأَ مثلَ الخبرِ؛ لأنهما شيءٌ واحدٌ معنىً، وفيه صيانةُ الربِّ عن شُبهةِ التأنيث؛ ولهذا قالوا

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾ ....

في صفات الله تعالى: علّامٌ، ولم يقولوا: علّامةٌ وإن كان الثاني أبلغَ؛ تفادِياً من علامةِ التأنيثِ، ﴿هَٰذَا أَكْبَرُ﴾: من باب استعمالِ النَّصفةِ أيضاً مع خصومِه، ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾ من الأجرامِ التي تجعلونَها شركاءَ لخالقِها، وقيل: هذا كان نظرَه واستدلالَه في نفسه، فحكاه الله تعالى، والأولُ أظهرُ؛ لقوله: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

«٧٩» ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي: للذي دلت هذه المحدثاتُ على أنه مُنشئُها، ﴿حَنِيفًا﴾: حالٌ؛ أي: مائلاً عن الأديان كلِّها إلا الإسلامَ، ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ بالله شيئاً من خلقِه.

«٨٠» ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ﴾ في توحيدِ الله، ونفي الشركاءِ عنه، ﴿قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ﴾: في توحيدِه، ﴿أتحاجُوني﴾: مدنيٌّ وابنُ ذكوان[1]، ﴿وَقَدْ هَدَانِ﴾ إلى التوحيدِ، وبالياءِ في الوصلِ: أبو عمرٍو، ولما خوَّفُوه أن معبوداتِهم تصيبُه بسوءٍ.. قال: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ أي: لا أخاف معبوداتِكم في وقتٍ قطُّ؛ لأنها لا تقدرُ على منفعةٍ ولا مضرةٍ، إلا إذا شاء ربي أن يصيبَني منها بضرٍّ فهو قادرٌ على أن يجعلَ فيما شاء نفعاً، وفيما شاءَ ضرّاً، لا الأصنامُ.

﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ فلا يصيبُ عبداً شيءٌ من ضرٍّ أو نفعٍ إلا بعلمِه، ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ فتميزُوا بين القادرِ والعاجزِ.

«٨١» ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾: معبوداتِكم، وهي مأمونةُ الخوفِ، ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ﴾: بإشراكِه ﴿عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾: حجةً؛ إذ الإشراكُ لا يكون عليه حجةٌ؛ والمعنى: وما لكم تُنكرون عليَّ الأمنَ في موضع الأمنِ، ولا تنكرون على أنفسكم الأمنَ في موضع الخوفِ؟ ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ﴾ أيْ: فريقَي الموحِّدين والمشركين، ﴿أَحَقُّ بِالْأَمْنِ﴾ من العذابِ ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾ ولم يقلْ: فأيُّنا؛ احترازاً من تزكيةِ نفسِه.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٠٥) وكذا القراءة الآتية.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ ....

«٨٢» ثم استأنفَ الجوابَ عن السؤال بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾: بشركٍ، عن الصِّدِّيقِ رضي الله عنه[1]، ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ تَمَّ كلامُ إبراهيمَ عليه السلام.

«٨٣» ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ﴾: إشارةٌ إلى جميعِ ما احتجَّ به إبراهيمُ عليه السلام على قومِه من قولِه: ﴿فَلَمَّا جَنَّ﴾ إلى ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾، ﴿ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ وهو خبرٌ بعدَ خبرٍ، ﴿نرفعُ درجاتِ مَن نشاءُ﴾ في العلمِ والحكمةِ، وبالتنوين: كوفيٌّ[2]، وفيه نقضُ قولِ المعتزلةِ في الأصلح، ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ بالرفع[3]، ﴿عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ بالأهلِ.

«٨٤» ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ﴾: لإبراهيمَ، ﴿إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا﴾ أي: كلَّهم، وانتصب (كلّاً) بـ (هدينا)، ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا﴾ وهدينا نوحاً ﴿مِن قَبْلُ﴾: من قبلِ إبراهيمَ، ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ الضميرُ لنوحٍ، أو لإبراهيمَ، والأولُ أظهرُ؛ لأن يونسَ ولوطاً لم يكونا من ذريةِ إبراهيمَ، ﴿دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ﴾ والتقديرُ: وهدينا من ذريتِه هؤلاءِ، ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾: ونجزي المحسنين جزاءً مثلَ ذلك، فالكافُ: في موضعِ نصبٍ نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ.

«٨٥» ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ﴾ أي: كلُّهم ﴿مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾ وذكرُ عيسى معهم دليلٌ على أن النسبَ يثبتُ من قبلِ الأمِّ أيضاً؛ لأنه جعله من ذرية نوحٍ عليه السلام، وهو لا يتصلُ به إلا بالأمِّ، وبذا أجيبَ الحجّاجُ حين أنكرَ أن يكون بنو فاطمةَ أولادَ النبيِّ عليه السلام.

«٨٦» ﴿وَإِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ﴾ ﴿واللَّيْسَعَ﴾ حيث كان: بلامين: حمزةُ، وعليٌّ[4]، ﴿وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ بالنبوةِ والرسالةِ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/٤٩٧).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٠٦).

(٣) أي: برفعِ درجاتِ مَن يشاءُ.

(٤) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٠٦) وكذا القراءة الآتية.

﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ ....

《٨٧》 ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ﴾: في موضعِ النصبِ؛ عطفاً على (كلّاً) أي: وفضلنا بعضَ آبائِهم ﴿وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾.

《٨٨》 ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما دانَ به هؤلاءِ المذكورون ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾: دينُ اللهِ ﴿يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾: فيه نقضُ قولِ المعتزلةِ؛ لأنهم يقولون: إن الله شاءَ هدايةَ الخلقِ كلِّهم لكنَّهم لم يهتدُوا، ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟﴾ مع فضلِهم وتقدمِهم وما رُفِعَ لهم من الدرجاتِ ﴿لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾: لبطلت أعمالهُم، كما قال: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥].

《٨٩》 ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يريدُ: الجنسَ، ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾: والحكمةَ، أو: فهمَ الكتابِ، ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ وهي أعلى مراتبِ البشرِ، ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا﴾: بالكتابِ والحكمِ والنبوةِ، أو: بالنبوة، أو: بآياتِ القرآنِ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: أهلُ مكةَ ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا﴾ هم: الأنبياءُ المذكورون ومن تابعَهم؛ بدليلِ قولِه: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾، أو: أصحابُ النبيِّ عليه السلام، أو: كلُّ من آمن به، أو: العجمُ؛ ومعنى توكيلِهم بها: أنهم وُفِّقُوا للإيمان بها، والقيامِ بحقوقِها، كما يُوكِّلُ الرجلُ بالشيءِ؛ ليقومَ به ويتعهدَه، ويحافظَ عليه، والباءُ في ﴿لَّيْسُوا۟ بِهَا﴾: صلةُ (كافرين)، وفي ﴿بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾: لتأكيدِ النفيِ.

《٩٠》 ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ أي: الأنبياءُ الذين مرَّ ذكرُهم ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾: فاختصَّ هداهم بالاقتداءِ، ولا تقتدِ إلا بهم، وهذا معنى تقديمِ المفعولِ، والمرادُ بهداهم: طريقتُهم في الإيمان بالله وتوحيدِه وأصولِ الدينِ دون الشرائعِ فهي مختلفة، والهاءُ في (اقتده): للوقفِ، تسقطُ في الوصلِ، واستُحسنَ إيثارُ الوقفِ لثباتِ الهاءِ في المصحفِ، ويحذفُها: حمزةُ وعليٌّ في الوصلِ، ويختلسُها شاميٌّ، ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾: على الوحيِ، أو: على تبليغِ الرسالةِ والدعاءِ إلى التوحيدِ ﴿أَجْرًا﴾: جُعلاً، وفيه دليلٌ على أن أخذَ الأجرِ على تعليمِ القرآنِ وروايةِ الحديثِ لا يجوزُ[1]، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾: ما القرآنُ إلا عظةٌ للجنِّ والإنسِ.

---

(١) عند الحنفية: المفتى به: جوازُ الاستئجارِ على تعليمِ القرآنِ والإمامةِ والأذانِ للضرورة. انظر «حاشية ابن عابدين» (١/ ٥٦٢).

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾ ....

《٩١》 ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ أي: ما عرفوه حقَّ معرفتِه في الرحمةِ على عبادِه حين أنكرُوا بعثةَ الرسلِ والوحيِ إليهم، وذلك من أعظمِ رحمتِه، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الانبياء: ١٠٧] رويَ: أن جماعةً من اليهود منهم مالكُ بنُ الصَّيفِ يُجادلون النبيَّ عليه السلام، فقال النبيُّ عليه السلام له: أليس في التوراة أن اللهَ يبغضُ الحَبْرَ السمين؟ قال: نعم، قال: فأنت الحبرُ السَّمينُ، فغضبَ وقال: ما أنزل اللهُ على بشرٍ من شيءٍ[١]، و(حقَّ قدرِه): منصوبٌ نصبَ المصدرِ، ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا﴾: حالٌ من الضميرِ في (به)، أو: من (الكتاب) ﴿وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ مما فيه نعتُ محمد عليه السلام؛ أي: بَعَّضُوه وجعلُوه قراطيسَ مقطعةً، وورقاتٍ مفرقةً؛ ليتمكنُوا مما رامُوا من الإبداءِ والإخفاءِ، بالياء في الثلاثة: مكيٌّ وأبو عمرٍو[٢]، ﴿وَعُلِّمْتُم﴾ يا أهلَ الكتابِ بالكتابِ ﴿مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾ من أمور دينِكم ودنياكم، ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾: جوابٌ؛ أي: أنزله اللهُ؛ فإنهم لا يقدِرون أن يُناكرُوك، ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ﴾ في باطلهم الذي يخوضُون فيه ﴿يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾: حالٌ من (ذرهم) أو: من (خوضهم).

《٩٢》 ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ على نبيِّنا محمد عليه السلام ﴿مُبَارَكٌ﴾: كثيرَ المنافعِ والفوائدِ، ﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتبِ، ﴿وَلِتُنذِرَ﴾ وبالياء: أبو بكرٍ؛ أي: الكتابُ، وهو: معطوفٌ على ما دلَّ عليه صفةُ الكتابِ، كأنه قيل: أنزلناه للبركاتِ وتصديقِ ما تقدمه من الكتبِ، ولإنذارِ ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾: مكةَ؛ وسميت أمَّ القرى؛ لأنها سُرَّةُ الأرضِ، وقبلةُ أهلِ القُرى، وأعظمُها شأناً؛ ولأن الناس يَؤُمُّونها، ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾: أهلَ الشرقِ والغربِ، ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾: يصدقون بالعاقبةِ ويخافُونها ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾: بهذا الكتابِ، فأصلُ الدينِ خوفُ العاقبةِ، فمن خافَها.. لم يزلْ به الخوفُ حتى يؤمنَ، ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾ خُصَّتِ الصلاةُ بالذكر؛ لأنها عَلَمُ الإيمانِ، وعمادُ الدين، فمن حافظ عليها.. يحافظُ على أخواتِها ظاهراً.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٢١) عن سعيد بن جبير.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٠٦) وكذا القراءة الآتية.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ ....

《٩٣》 ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ هو: مالكُ بنُ الصَّيفِ، ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ هو: مُسيلمةُ الكذابُ، ﴿وَمَن قَالَ﴾: في موضعِ جرٍّ، عطفٌ على (من افترى) أي: وممن قال: ﴿سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ أي: سأقولُ وأُمْلِي، هو: عبدُ الله بنُ سعدِ بنِ أبي سرحٍ كاتبُ الوحيِ، وقد أملَى عليه عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ﴾ [المؤمنون: ١٢] إلى ﴿خَلْقًا آخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤] فجرَى على لسانِه: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] فقال عليه السلام: «اكتبْها فكذلك نزلت»، فشكَّ وقال: إن كان محمدٌ صادقاً.. فقد أوحيَ إليَّ كما أوحي إليه، وإن كان كاذباً.. فقد قلت كما قال، فارتدَّ ولحقَ بمكةَ، أو: النضرُ بن الحارث، وكان يقول: والطاحناتِ طحناً، فالعاجناتِ عجناً، فالخابزاتِ خبزاً، كأنه يعارضُ، ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ جوابُه محذوفٌ؛ أي: لرأيت أمراً عظيماً ﴿إِذِ الظَّالِمُونَ﴾ يريدُ: الذين ذكرهم من اليهود والمتنبئةِ، فتكون اللامُ للعهد، ويجوزُ أن تكون للجنس، فيدخل فيه هؤلاءِ لاشتمالِه، ﴿فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾: شدائدِه وسكراتِه، ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ﴾ أي: يبسُطون إليهم أيديَهم يقولون: هاتُوا أرواحَكم أخرجُوها إلينا من أجسادِكم، وهذه عبارةٌ عن التشديد في الإزهاق من غير تنفيسٍ وإمهالٍ، ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ أرادوا: وقتَ الإماتةِ، وما يعذَّبون به من شدة النزعِ، والهُونُ: الهوانُ الشديدُ، وإضافةُ العذابِ إليه كقولك: رجلُ سوءٍ؛ يريدُ العَراقةَ في الهوان والتمكنَ فيه[1]، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ من أن له شريكاً وصاحبةً وولداً، و(غيرَ الحقِّ): مفعولُ (تقولون)، أو: وصفٌ لمصدرٍ محذوفٍ؛ أي: قولاً غيرَ الحقِّ، ﴿وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ فلا تؤمنون بها.

《٩٤》 ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ للحساب والجزاء ﴿فُرَادَىٰ﴾: منفردين بلا مالٍ ولا معينٍ، هو: جمعُ فريدٍ، كأسيرٍ وأسارى، ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ﴾: في محل النصبِ صفةٌ لمصدرٍ (جئتمونا) أي: مجيئاً مثلَ ما خلقناكم ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ على الهيئات التي وُلدتم عليها في الانفرادِ، ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ﴾:

---

(١) العراقة في الشيء: الأصالة والتمكن فيه، يقال: فلان مُعرق في الكرم: أصيل فيه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ ....﴾

ملَّكناكم ﴿وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ ولم تحتمِلوا منه نقيراً، ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ﴾ في استعبادِكم، ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنُكُمْ﴾: وَصْلُكُمْ، عن الزجاج[1]، والبينُ: الوصلُ والهجرُ، قال[2]: [من: الطويل]

فو اللهِ لولا البينُ لم يكنِ الهوى ولولا الهوى ما حنَّ للبينِ آلِفُ

﴿بَيْنَكُمْ﴾: مدنيٌّ وعليٌّ وحفصٌ[3]؛ أي: وقع التقطعُ بينكم، ﴿وَضَلَّ عَنكُم﴾: وضاع وبطل ﴿مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ أنها شفعاؤُكم عندَ الله.

«٩٥» ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ بالنباتِ والشجرِ؛ أو: فلقَ الحبَّ عن السنبُلةِ، والنواةَ عن النخلةِ، والفَلْقُ: الشقُّ، وعن مجاهدٍ: أراد الشِّقين اللذينِ في النواةِ والحنطةِ، ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾: النباتَ الغضَّ الناميَ من الحبِّ اليابسِ، ﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾: الحبِّ اليابسِ من النباتِ النامي، أو: الإنسانَ من النطفةِ، والنطفةِ من الإنسانِ، أو: المؤمنَ من الكافرِ، والكافرِ من المؤمنِ، فاحتجَّ اللهُ عليهم بما يشاهدونه من خلقِه؛ لأنهم أنكرُوا البعثَ، فأعلمَهم أنه الذي خلقَ هذه الأشياءَ، فهو يقدرُ على بعثِهم، وإنما قال: و(مخرجُ الميت) بلفظِ اسمِ الفاعلِ؛ لأنه معطوفٌ على (فالقُ الحبِّ) لا على الفعلِ[4]، و(يخرج الحي من الميت): موقعُه موقعَ الجملةِ المبيِّنةِ لقوله: (فالق الحب والنوى)؛ لأن فلقَ الحبَّ والنوى بالنبات والشجرِ الناميينِ من جنسِ إخراجِ الحيِّ من الميت؛ لأن الناميَ في حكم الحيوان؛ دليلُه: قوله: ﴿وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: ١٩]، ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾: ذلكم المحيي المميتُ هو الله الذي تحقُّ له الربوبيةُ لا الأصنامُ، ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾: فكيف تُصرفون عنه وعن تولِّيهِ إلى غيرِه بعدَ وضوحِ الأمرِ بما ذكرنا؟

---

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٢/ ٢٧٣).

(٢) البيت لجميل بثينة، وهو في «ديوانه» (ص٨٨)، ولكن أوله هكذا:

لعمرك لولا الذكرُ لانقطعَ الهوى

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٠٦).

(٤) ويجوز أن يكون معطوفاً على (يخرج) ويجعلُ الفعل في تأويل الاسم، أو الاسم في تأويل الفعل. انظر «الدر المصون» (٥/ ٥٧).

فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ ﴿٩٨﴾ ....

《٩٦》 ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ﴾: هو مصدرٌ سميَ به الصبحُ؛ أي: شاقُّ عمودِ الصبحِ عن سوادِ الليلِ، أو: خالقُ نورِ النهارِ، ﴿وجاعلُ الليلِ﴾ ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ﴾: كوفيٌّ[1]؛ لأن اسم الفاعل الذي قبلَه بمعنى المضيِّ، فلمّا كان (فالق) بمعنى: فلقَ.. عُطِفَ عليه (جعل)؛ لتوافقِهما معنىً، ﴿سَكَنٗا﴾: مسكوناً فيه؛ من قوله: ﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ [يونس: ٦٧] أي: يسكنُ فيه الخلقُ عن كدِّ المعيشةِ إلى نوم الغفلةِ، أو: عن وحشةِ الخلقِ إلى الأنسِ بالحقِّ، ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ انتصبا بإضمارِ فعلٍ يدلُّ عليه (جاعل الليل) أي: وجعلَ الشمسَ والقمرَ ﴿حُسۡبَانٗا﴾ أي: جعلَهما علَمَي حُسبانٍ؛ لأن حسابَ الأوقاتِ يُعلم بدورِهما وسيرِهما، والحُسبانُ بالضمِّ: مصدرُ: حسَبَ، كما أن الحِسبان بالكسر: مصدر: حسِبَ، ﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارةٌ إلى جعلهما حُسباناً؛ أي: ذلك التسييرُ بالحسابِ المعلومِ ﴿تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ﴾ الذي قهرَهما وسخرَهما، ﴿ٱلۡعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ بتدبيرِهما وتدويرِهما.

《٩٧》 ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ﴾: خلقَها ﴿لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ﴾ أي: في ظلماتِ الليلِ بالبرِّ والبحرِ، وأضافها إليهما؛ لملابستِها لهما، أو: شَبَّهَ مشتبهاتِ الطرقِ بالظلماتِ، ﴿قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾: قد بيَّنّا الآياتِ الدالةَ على التوحيدِ لقومٍ يفهمون.

《٩٨》 ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ هي: آدمُ عليه السلام، ﴿فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ﴾ ﴿فمستقِر﴾: بالكسرِ: مكيٌّ وبصريٌّ، فمن فتح القافَ.. كان المستودَعِ اسمَ مكان مثلَه، ومن كسرها.. كان اسمَ فاعلٍ، والمستودَعُ: اسمَ مفعولٍ؛ يعني: فلكم مستقَرٌّ في الرحمِ ومستودَعٌ في الصُّلْبِ، أو: مستقَرٌّ فوق الأرضِ ومستودَعٌ تحتَها، أو: فمنكم مستقِرٌّ، ومنكم مستودَعٌ، ﴿قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾ وإنما قيل: (يعلمون) ثَمَّ، و(يفقهون) هنا؛ لأن الدلالةَ ثمَّ أظهرُ، وهنا أدقُّ؛ لأن إنشاءَ الإنسِ من نفسٍ واحدةٍ وتصريفَهم بين أحوالٍ مختلفةٍ أدقُّ، فكان ذكرُ الفقهِ الدالِّ على تدقيقِ النظرِ أوفقَ.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٠٧) وكذا القراءة الآتية.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ ....

《٩٩》 ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾: من السحابِ مطراً، ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾: بالماء ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾: نبتَ كلِّ صنفٍ من أصنافِ النامي؛ أي: السببُ، وهو الماءُ واحدٌ، والمسبباتُ صنوفٌ مختلفةٌ، ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ﴾: من النبات ﴿خَضِرًا﴾ أي: شيئاً غضّاً أخضرَ؛ يقال: أخضرُ وخَضِرٌ، وهو: ما تشعَّبَ من أصل النباتِ الخارجِ من الحبةِ، ﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ﴾: من الخضرِ ﴿حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ وهو: السنبلُ الذي تراكبَ حَبُّهُ، ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ﴾ هو رفعٌ بالابتداء، و(من النخل): خبره، و(من طلعها): بدل منه، كأنه قيل: وحاصلةٌ من طلع النخل قنوانٌ، وهو: جمعُ قِنْوٍ، وهو: العِذقُ، ونظيرُه: صِنْوٌ وصِنوانٌ، ﴿دَانِيَةٌ﴾ من المجتَنِيْ؛ لانحنائِها بثقلِ حملِها، أو لِقصرِ ساقِها، وفيه اكتفاءٌ؛ أي: وغيرُ دانيةٍ لطولِها، كقوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]، ﴿وَجَنَّٰتٍ﴾: بالنصبِ عطفاً على (نباتَ كلِّ شيء) أي: وأخرجنا به جناتٍ ﴿مِّنْ أَعْنَابٍ﴾، وكذا ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾، ﴿وجناتٌ﴾: الأعشى[1]؛ أي: وثَمَّ جناتٌ من أعنابٍ؛ أي: مع النخلِ، ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ يقال: اشتبهَ الشيئانِ وتشابها؛ نحو: استويا وتساويا، و(الافتعال) و(التفاعل): يشتركان كثيراً، وتقديرُه: والزيتونَ متشابهاً وغيرَ متشابهٍ، والرمانُ كذلك؛ يعني: بعضُه متشابهٌ، وبعضُه غيرُ متشابهٍ في القدرِ واللونِ والطعمِ، ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾: إذا أخرجَ ثمرَه كيف يُخرجُه ضعيفاً لا يُنتفعُ به، ﴿وَيَنْعِهِۦٓ﴾: نُضجِه؛ أي: انظروا إلى حال نُضجِه كيفَ يعودُ شيئاً جامعاً لمنافعَ نظرَ اعتبارٍ واستدلالٍ على قدرةِ مُقدِّرِه ومدبرِه وناقلِه من حالٍ إلى حالٍ، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾، ﴿ثُمُرِهِۦ﴾ وكذا ما بعده: حمزةُ وعليٌّ[2]، جمعُ ثمارٍ، فهو جمعُ الجمعِ؛ يقال: ثَمَرةٌ وثَمَرٌ، وثِمارٌ وثُمُرٌ.

《١٠٠》 ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾ إن جعلت (لله شركاء) مفعولَي (جعلوا) كان (الجنَّ) بدلاً من (شركاء)، وإلا.. كان (شركاء الجن) مفعولَين، قُدِّمَ ثانيهما على الأول، وفائدةُ التقديم: استعظامُ أن يُتَّخذَ لله شريكٌ مَن كان؛ مَلَكاً، أو جنيّاً، أو غيرَ ذلك؛ والمعنى: أنهم أطاعوا

---

(١) انظر «الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها» (ص ٥٤٥).
(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٠٨).

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٠١ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ١٠٢ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٠٣﴾ ....

الجنَّ فيما سوَّلت لهم من شركِهم، فجعلوهم شركاءَ لله، ﴿وَخَلَقَهُمۡۖ﴾ أي: وقد خلقَ الجنَّ، فكيف يكونُ المخلوقُ شريكاً لخالِقِه؟ والجملةُ: حالٌ، أو: وخلقَ الجاعلين لله شركاءَ، فكيف يعبدون غيرَه؟ ﴿وَخَرَقُواْ لَهُۥ﴾ أي: اختلقُوا؛ يقال: خلقَ الإفكَ وخرقَه واختلقَه واخترقَه بمعنًى، أو: هو مِن: خَرَقَ الثوبَ: إذا شقَّهُ؛ أي: اشتقُّوا له ﴿بَنِينَ﴾ كقول أهلِ الكتابين في المسيحِ وعُزيرٍ، ﴿وَبَنَٰتِۭ﴾ كقولِ بعضِ العربِ في الملائكةِ، ﴿وخرَّقُوا﴾: بالتشديدِ للتكثيرِ: مدنيٌّ؛ لقولِه: (بنين وبناتٍ) ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ﴾: من غيرِ أن يعلمُوا حقيقةَ ما قالُوه من خطأٍ أو صوابٍ، ولكن رمياً بقولٍ عن جهالةٍ، وهو: حالٌ مِن فاعلِ (خرقوا) أي: جاهلين بما قالوا، ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ١٠٠﴾ من الشريكِ والولدِ.

《١٠١》 ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ يقال: بَدُعَ الشيءُ فهو بديعٌ، وهو من إضافة الصفةِ المشبهةِ إلى فاعلِها؛ يعني: بديعٌ سمواتُه وأرضُه، أو: هو بمعنى المبدِع؛ أي مبدِعُها، وهو: خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، أو: مبتدأٌ وخبرُه: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ﴾، أو: هو فاعلُ (تعالى)، ﴿وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ﴾ أي: من أين يكون له ولدٌ؟ والولدُ لا يكون إلا من صاحبة، ولا صاحبةَ له، ولأن الولادةَ من صفاتِ الأجسامِ، ومخترعُ الأجسامِ لا يكون جسماً حتى يكون له ولدٌ، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٠١﴾ أي: ما من شيءٍ إلا وهو خالقُه وعالِمُه، ومن كان كذلك.. كان غنيّاً عن كلِّ شيءٍ، والوالدُ إنما يطلُبه المحتاجُ.

《١٠٢》 ﴿ذَٰلِكُمُ﴾: إشارةٌ إلى الموصوف بما تقدم من الصفات، وهو: مبتدأٌ، وما بعده أخبارٌ مترادفةٌ، وهي: ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾، وقولُه: ﴿فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾: مسببٌ عن مضمون الجملةِ؛ أي: من استجمعَت له هذه الصفاتُ.. كان هو الحقيقَ بالعبادةِ، فاعبدُوه ولا تعبدُوا مَن دونَه مِن بعضِ خلقِه، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ١٠٢﴾ أي: هو مع تلك الصفاتِ مالكٌ لكلِّ شيءٍ من الأرزاقِ والآجالِ، رقيبٌ على الأعمال.

《١٠٣》 ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾: لا تحيطُ به، أو: أبصارُ من سبقَ ذكرُهم[1]، وتَشَبَّثُ

(١) أي: إن فسر الإدراك بالإحاطة.. فالمراد: لا تدركه كلُّ الأبصار، وإن فسر بالرؤية.. فالمراد: لا تراه أبصارُ مَن سبق ذكرهم، وهم الكفار.

﴿قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ ....

المعتزلةِ بهذه الآية لا يَسْتَتِبُّ[1]؛ لأنَّ المنفيَّ هو الإدراكُ لا الرؤيةُ، والإدراكُ هو: الوقوفُ على جوانبِ المرئيِّ وحدودِه، وما يستحيل عليه الحدودُ والجهاتُ يستحيلُ إدراكُه لا رؤيتُه، فنزلَ الإدراكُ من الرؤيةِ منزلةَ الإحاطةِ من العلمِ، ونَفْيُ الإحاطةِ التي تقتضِي الوقوفَ على الجوانبِ والحدودِ لا يقتضي نفيَ العلمِ به، فهكذا هذا، على أن موردَ الآيةِ وهو التمدُّحُ يوجبُ ثبوتَ الرؤيةِ؛ إذ نفيُ إدراكِ ما تستحيلُ رؤيتُه لا تمدُّحَ فيه؛ لأن كلَّ ما لا يُرى لا يُدركُ، وإنما التمدُّحُ بنفيِ الإدراكِ مع تحقيقِ الرؤيةِ؛ إذ انتفاؤُه مع تحققِ الرؤيةِ دليلُ ارتفاعِ نقيصةِ التناهي والحدودِ عن الذات، فكانت الآية حجةً لنا عليهم، ولو أَنْعَمُوا النظرَ فيها.. لاغتنموا التفصي عن عُهدتِها[2]، ومن ينفي الرؤيةَ.. يلزمُه نفيُ أنه معلومٌ موجودٌ، وإلا.. فكما يُعلمُ موجوداً بلا كيفيةٍ وجهةٍ بخلافِ كلِّ موجودٍ.. لِمَ لمْ يجزْ أن يُرى بلا كيفيةٍ وجهةٍ بخلافِ كل مرئيٍّ، وهذا لأن الرؤيةَ تحققُ الشيءِ بالبصر كما هو، فإن كان المرئيُّ في الجهةِ.. يُرى فيها، وإن كان لا في الجهةِ.. يُرى لا فيها، ﴿وَهُوَ﴾ لِلُطْفِ إدراكِه للمدركات ﴿يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ﴾: العالمُ بدقائق الأمورِ ومشكلاتِها، ﴿ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾: العليمُ بظواهرِ الأشياءِ وخفيّاتِها، أو: هو من قبيل اللفِّ والنشرِ[3].

«١٠٤» ﴿قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾ البصيرةُ: نورُ القلبِ الذي به يستبصرُ القلبُ، كما أن البصرَ نورُ العين الذي به تبصرُ؛ أي: جاءكم من الوحيِ والتنبيهِ ما هو للقلوب كالبصائرِ، ﴿فَمَنۡ أَبۡصَرَ﴾ الحقَّ وآمنَ ﴿فَلِنَفۡسِهِۦۖ﴾ أبصرَ، وإيّاها نفعَ ﴿وَمَنۡ عَمِيَ﴾ عنه وضلَّ ﴿فَعَلَيۡهَاۚ﴾: فعلى نفسه عميَ، وإياها ضرَّ بالعمى، ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴿١٠٤﴾﴾ أحفظُ أعمالَكم وأجازيكم عليها، إنما أنا منذرٌ، والله هو الحفيظُ عليكم.

«١٠٥» الكافُ في ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾: في موضعِ نصبٍ صفةٌ لمصدرٍ محذوفٍ؛

---

(١) لا يستتب: لا يستقيم ولا يصح.

(٢) أي: لو تأملوها وفهموها فهماً صحيحاً.. لاستفادوا الخروج عن تبعتها؛ أي: عن الأخذ بها، ولكنهم أساؤوا فهمها، فجعلوها دليلاً لنفي الرؤية، فلم يأخذوا بها.

(٣) فيكون المعنى: (لا تدركه الأبصار) لأنه اللطيف، (وهو يدرك الأبصار) لأنه الخبير، فيكون اللطيفُ مستعاراً من مقابل الكثيف لما لا يُدرك بالحاسة ولا ينطبع فيها. انظر «تفسير البيضاوي» (٢/ ١٧٦).

﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾ ....

أي: نصرفُ الآياتِ تصريفاً مثلَ ما تَلَونا عليك، ﴿وَلِيَقُولُوا۟﴾: جوابُه محذوفٌ؛ أي: وليقولوا ﴿دَرَسْتَ﴾ نُصرفُها؛ ومعنى (درست): قرأتَ كتبَ أهلِ الكتابِ، ﴿دارست﴾: مكيٌّ، وأبو عمرٍو[1]؛ أي: دارستَ أهلَ الكتابِ، ﴿دَرَسَتْ﴾: شاميٌّ؛ أي: قَدُمَتْ هذه الآيةُ ومضتْ، كما قالوا: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ﴾ أي: القرآنَ وإن لم يجرِ له ذكرٌ؛ لكونه معلوماً، أو: الآياتِ؛ لأنها في معنى القرآن، قيل: اللامُ الثانيةُ: حقيقةٌ[2]، والأولى: لامُ العاقبةِ والصيرورةِ؛ أي: لتصيرَ عاقبةُ أمرِهم إلى أن يقولوا: درست، وهو كقوله: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]، وهم لم يلتقطُوه للعداوةِ، وإنما التقطوه ليصيرَ لهم قرةَ عينٍ، ولكن صارت عاقبةُ أمرِهم إلى العداوة، فكذلك الآياتُ صُرِّفَتْ للتبيين، ولم تُصَرَّفْ ليقولوا: درستَ، ولكن حصلَ هذا القولُ بتصريف الآياتِ، كما حصل التبيينُ، فشبِّهَ به وقيل: (ليقولوا)، كما قيل: (لِنُبَيِّنَه)، وعندنا ليس كذلك؛ لما عُرِفَ[3]، ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ الحقَّ من الباطل.

«١٠٦» ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ ولا تتبعْ أهواءَهم، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: اعتراضٌ أكِّدَ به إيجاب اتباعِ الوحيِ، لا محلَّ له من الإعراب، أو: حالٌ من (ربك) مؤكدةٌ، ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ في الحال إلى أن يردَ الأمرُ بالقتالِ.

«١٠٧» ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: إيمانَهم، فالمفعولُ محذوفٌ ﴿مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ بينَ أنهم لا يُشركون على خلاف مشيئةِ اللهِ، ولو علمَ منهم اختيارَ الإيمانِ.. لهداهم إليه، ولكن علم منهم اختيارَ الشركِ فشاءَ شِركَهم فأشركوا بمشيئتِه، ﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾: مراعياً لأعمالِهم، مأخوذاً بإجرامِهم، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾: بمسلَّطٍ.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٠٨).

(٢) أي: للتعليل.

(٣) قرر الزمخشري في «الكشاف» (٢/ ٥٢) أن لام (ليقولوا درست): للعاقبة، وليست للتعليل؛ لأن من قواعد الاعتزال أن الله لا يضل الكافرين، وإنما هم الذين يضلون أنفسهم، لأنه يجب عليه الأصلح، فردَّ عليه النسفي بقوله: (وعندنا ليس كذلك) أي: عند أهل السنة: الله يضلُّ من يشاء، ولا يجب عليه شيء، ولا يسأل عما يفعل، فيجوز أن يكون تصريف الآيات ليقولوا درست فيزدادوا كفراً على كفر، ومن مفسري أهل السنة من ذهب إلى أن اللام للعاقبة، كالبيضاوي في «تفسيره» (٢/ ١٧٦)، لأنها تحتمل العاقبة بعيداً عن قواعد الاعتزال.

وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ....

《١٠٨》 وكان المسلمون يسبُّون آلهتهم، فنُهوا؛ لئلا يكونَ سبُّهم سبباً لسبِّ اللهِ بقولِه: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟﴾ آلهةَ ﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ﴾: منصوبٌ على جوابِ النهي ﴿عَدْوًۢا﴾: ظلماً وعُدواناً ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: على جهالةٍ باللهِ وبما يجب أن يذكر به، ﴿كَذَٰلِكَ﴾: مثلَ ذلك التزيينِ ﴿زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من أممِ الكفارِ ﴿عَمَلَهُمْ﴾ وهو كقوله: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [فاطر: ٨] وهو حجةٌ لنا في الأصلح، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ﴾: مصيرُهم، ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾: فيخبرُهم بما عملوا ويجزيهم عليه.

《١٠٩》 ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ (جهد): مصدرٌ وقعَ موقعَ الحالِ؛ أي: جاهدين في الإتيان بأوكدِ الأيمانِ ﴿لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ﴾ من مقترحاتِهم ﴿لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ وهو قادرٌ عليها، لا عندي، فكيف آتيكم بها؟ ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾: وما يدريكم ﴿أَنَّهَآ﴾: أن الآيةَ المقترحةَ ﴿إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ بها؛ يعني: أنا أعلمُ أنها إذا جاءت.. لا يؤمنون بها، وأنتم لا تعلمون ذلك، وكان المؤمنون يطمعُون في إيمانهم إذا جاءت تلك الآيةُ، ويتمنَّون مجيئَها، فقال تعالى: وما يدريكم أنهم لا يؤمنون، على معنى: إنكم لا تدرون ما سبقَ علمي به من أنهم لا يؤمنون، ﴿إنها﴾: بالكسرةِ: مكيٌّ وبصريٌّ وأبو بكرٍ[1]، على أن الكلام تمَّ قبلَه؛ أي: وما يشعرُكم ما يكون منهم؟ ثم أخبرَهم بعلمِه فيهم فقال: إنها إذا جاءت لا يؤمنون البتة، ومنهم من جعل (لا): مزيدةً في قراءةِ الفتحِ، كقوله: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٥]، ﴿لا تؤمنون﴾: شاميٌّ، وحمزةُ.

《١١٠》 ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ﴾ عن قبولِ الحقِّ، ﴿وَأَبْصَٰرَهُمْ﴾ عن رؤيةِ الحقِّ عند نزولِ الآيةِ التي اقترحُوها فلا يؤمنون بها، قيل: هو عطفٌ على (لا يؤمنون) داخلٌ في حكمِ (وما يشعركم) أي: وما يشعرُكم أنهم لا يؤمنون، وما يشعرُكم أنا نقلب أفئدتهم وأبصارهم، فلا يفقهون ولا يبصرون الحقَّ، ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: كما كانوا عند نزولِ آياتِنا أوّلاً لا يؤمنون بها، ﴿وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ قيل: وما يشعرُكم أنا نذرُهم في طغيانِهم يتحيرون.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٠٨) وكذا القراءة الآتية.

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَٰئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ ....﴾

《١١١》 ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَٰئِكَةَ﴾ كما قالوا: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَٰئِكَةُ﴾ [الفرقان: ٢١]، ﴿وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ﴾ كما قالوا ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا﴾ [الدخان: ٣٦]، ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾: جمعنا ﴿كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾: كُفَلاءَ بصحةِ ما بَشرنا به وأنذرنا، جمعُ قبيلٍ، وهو: الكفيلُ، ﴿قِبَلًا﴾: مدنيٌّ وشاميٌّ[1]؛ أي: عِياناً، وكلاهما: نصبٌ على الحال، ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ إيمانَهم فيؤمنوا، وهذا جوابٌ لقول المؤمنين: لعلهم يؤمنون بنزول الآية، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ أنَّ هؤلاءِ لا يؤمنون إذا جاءتهم الآيةُ المقترَحةُ.

《١١٢》 ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾: وكما جعلنا لك أعداءً من المشركين.. جعلنا لمن تقدمَك من الأنبياء أعداءً؛ لما فيه من الابتلاء الذي هو سببُ ظهورِ الثباتِ والصبرِ وكثرةِ الثوابِ والأجرِ، وانتصبَ ﴿شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ﴾: على البدلِ من (عدوّاً)، أو: على أنه المفعول الأول، و(عدوّاً): مفعولٌ ثانٍ، ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾: يوسوسُ شياطينُ الجنِّ إلى شياطينِ الإنسِ، وكذلك بعضُ الجنِّ إلى بعضٍ، وبعضُ الإنسِ إلى بعضٍ، وعن مالك بنِ دينارٍ: إن شيطانَ الإنسِ أشدُّ عليَّ مِن شيطانِ الجنِّ؛ لأني إذا تعوذت بالله.. ذهب شيطانُ الجنِّ عني، وشيطانُ الإنسِ يجيئني فيجرُّني إلى المعاصي عِياناً، وقال عليه السلام: «قرناءُ السوءِ شرٌّ من شياطينِ الجنِّ»، ﴿زُخْرُفَ الْقَوْلِ﴾: ما زيَّنوه من القولِ والوسوسةِ والإغراءِ على المعاصي، ﴿غُرُورًا﴾: خِداعاً، وأخذاً على غِرَّةٍ، وهو مفعولٌ له، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ أي: الإيحاءَ؛ يعني: ولو شاء الله.. لمنعَ الشياطينَ من الوسوسة، ولكنه امتحنَ بما يعلمُ أنه أجزلُ في الثوابِ، ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ عليك وعلى الله؛ فإن الله يُخزيهم، وينصرك ويَجزيهم.

《١١٣》 ﴿وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾: ولتميلَ إلى زُخرفِ القولِ قلوبُ الكفارِ، وهي: معطوفةٌ على ﴿غُرُورًا﴾ أي: لِيَغُرُّوه ولِتصغَى إليه، ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾ لأنفسِهم، ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ من الآثامِ.

---

(١) انظر المرجع السابق (ص ١٠٩) وكذا القراءتان الآتيتان.

أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ ....

《١١٤》 ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا﴾ أي: قلْ يا محمدُ: أفغيرَ الله أطلبُ حاكماً يحكمُ بيني وبينكم، ويَفصلُ المحقَّ منا من المبطل؟ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ المعجزَ ﴿مُفَصَّلًا﴾: حالٌ من (الكتاب) أي: مبيَّناً فيه الفصلُ بين الحقِّ والباطلِ، والشهادةُ لي بالصدق، وعليكم بالافتراء، ثم عَضَدَ الدلالةَ على أن القرآنَ حقٌّ بعلم أهلِ الكتابِ أنه حقٌّ؛ لتصديقِه ما عندهم، وموافقتِه له بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ أي: عبدُ اللهِ بنُ سلام وأصحابُه ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ﴾: شاميٌّ، وحفصٌ[1]، ﴿مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾: الشاكِّين فيه أيُّها السامعُ، أو: (فلا تكونن من الممترين) في أن أهلَ الكتاب يعلمون أنه منزلٌ بالحقِّ، ولا يُرِبْكَ جحودُ أكثرِهم وكفرُهم به.

《١١٥》 ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي: ما تكلمَ به، ﴿كلمات ربك﴾: حجازيٌّ، وشاميٌّ، وأبو عمرٍو؛ أي: تَمَّ كلُّ ما أخبرَ به وأمرَ ونهَى ووعدَ وأوعدَ ﴿صِدْقًا﴾ في وعدِه ووعيدِه، ﴿وَعَدْلًا﴾ في أمره ونهيه، وانتصبا على التمييزِ، أو: على الحال، ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ﴾: لا أحدَ يُبدلُ شيئاً من ذلك، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لإقرارِ مَن أقرَّ، ﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ بإصرارِ مَن أصرَّ، أو: السميعُ لما يقولون، العليمُ بما يُضمرون.

《١١٦》 ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: الكفارَ؛ لأنهم الأكثرون، ﴿يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: دينِه، ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾: وهو ظنُّهم أن آباءهم كانوا على الحقِّ، فهم يقلدونهم، ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾: يكذبون في أن اللهَ حرمَ عليهم كذا، وأحلَّ كذا.

《١١٧》 ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾ أي: هو يعلمُ الكفارَ والمؤمنين، (مَن): رفعٌ بالابتداء، ولفظُها لفظُ الاستفهام، والخبرُ: (يضلُّ)، وموضعُ الجملةِ: نصبٌ بـ (يعلمُ) المقدرِ، لا بـ (أعلمُ)؛ لأن (أفعل) لا يعملُ في الاسم الظاهرِ النصبَ، وقيل: تقديرُه: أعلمُ بمن يضلُّ؛ بدليلِ ظهورِ الباءِ بعده في (المهتدين)[2].

---

(١) والباقون: ﴿مُنْزَلٌ﴾.

(٢) وقيل: (من) اسم موصول مفعول به لفعل محذوف، أي: يعلم من يضل. انظر «الدر المصون» (٥/ ١٢٧).

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ ....

《١١٨》 ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾: هو مسببٌ عن إنكارِ اتباعِ المضلين الذين يُحِلُّون الحرامَ، ويُحَرِّمُون الحلالَ، وذلك أنهم كانوا يقولون للمسلمين: إنكم تزعُمُون أنكم تعبدُون اللهَ، فما قتلَ اللهُ أحقُّ أن تأكلوا مما قتلتم أنتم، فقيل للمسلمين: إن كنتم متحققين بالإيمان.. فكلُوا مما ذكر اسم اللهِ عليه خاصةً؛ أي: على ذبحِه دون ما ذكر عليه اسمُ غيرِه من آلهتهم، أو مات حتفَ أنفِه.

《١١٩》 ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟﴾ (ما): استفهامٌ في موضعِ رفعٍ بالابتداء، و(لكم): الخبرُ؛ أي: وأيُّ غرضٍ لكم في ألا تأكلُوا ﴿مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم﴾: بيَّنَ لكم ﴿مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ مما لم يُحرِّم بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣]، ﴿فَصَّلَ﴾ و﴿حُرِّمَ﴾: كوفيٌّ غيرَ حفصٍ، وبفتحهما: مدنيٌّ وحفصٌ، وبضمهما: غيرُهم[1]، ﴿إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ مما حرم عليكم فإنه حلالٌ لكم في حالِ الضرورةِ؛ أي: شدةِ المجاعةِ إلى أكلِه ﴿وإنَّ كثيراً ليَضِلُّون﴾ ﴿لَّيُضِلُّونَ﴾: كوفيٌّ، ﴿بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: يَضِلُّون فيحرِّمون ويحلِّلون بأهوائهم وشهواتِهم من غيرِ تعلقٍ بشريعة، ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾: بالمتجاوزين من الحقِّ إلى الباطل.

《١٢٠》 ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾: علانيتَه وسرَّه، أو: الزنا في الحوانيتِ والصديقة في السرِّ، أو: الشركَ الجليَّ والخفيَّ، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ﴾ يومَ القيامةِ ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾: يكتسبون في الدنيا.

《١٢١》 ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ عندَ الذبح ﴿وَإِنَّهُۥ﴾: وإنَّ أكلَه ﴿لَفِسْقٌ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ﴾: ليوسوسون ﴿إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ من المشركين ﴿لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ بقولهم: لا تأكلون مما قتلَه اللهُ، وتأكلون مما تذبحون بأيديكم!؟ والآيةُ: تُحرِّمُ متروكَ التسميةِ، وخُصَّتْ حالةُ النسيانِ

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٠٩) وكذا القراءة الآتية.

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ ....

بالحديث[1]، أو: يجعلُ الناسي ذاكراً تقديراً[2]، ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ في استحلالِ ما حرمَه اللهُ ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ لأن من اتبعَ غيرَ الله في دينه.. فقد أشركَ به، ومن حقِّ المتدينِ ألا يأكلَ مما لم يذكر اسمُ الله عليه لما في الآية من التشديدِ العظيم.

ومَن أَوّلَ الآيةَ بالميتة، وبما ذكر غيرُ اسمِ الله عليه؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾، وقال: إن الواوَ في (وإنه لفسقٌ): للحال؛ لأن عطفَ الجملةِ الاسميةِ على الفعليةِ لا يحسنُ، فيكون التقدير: ولا تأكلوا منه حالَ كونه فسقاً، والفسقُ مجملٌ فبُيِّنَ بقوله: ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾، فصار التقدير: ولا تأكلوا منه حالَ كونِه مُهَلّاً لغير الله به، فيكونُ ما سواه حلالاً بالعموماتِ المُحِلَّةِ، منها: قولُه: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ...﴾ الآيةَ.. فقدْ عدلَ عن ظاهرِ اللفظ[3].

《١٢٢》 ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ أي: كافراً فهديناه؛ لأن الإيمانَ حياةُ القلبِ، ﴿مَيْتًا﴾: مدنيٌّ[4]، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾: مستضيئاً به، والمرادُ به: اليقينُ، ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ﴾ أي: صفتُه ﴿فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي: خابطٌ فيها، ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾: لا يُفارقُها، ولا يتخلصُ منها، وهو: حالٌ، قيل: المرادُ بهما: حمزةُ، وأبو جهلٍ، والأصحُّ: أن الآية عامةٌ لكلِّ مَن هداه الله، ولكلِّ مَن أضلَّه الله، فبيَّنَ أن مثلَ المهتدي مثلُ الميتِ الذي أُحْيِيَ وجعلَ مستضيئاً يمشي في الناس بنورِ الحكمةِ والإيمانِ، ومثلُ الكافرِ مثلُ مَن هو في الظلماتِ التي لا يَتخلصُ منها، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كما زُيِّنَ للمؤمنِ إيمانُه ﴿زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ بتزيين الله تعالى، كقوله: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [النمل: ٤] ﴿مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ أي: أعمالَهم.

---

(١) وهو ما رواه ابن ماجه (٢٠٤٣) عن سيدنا أبي ذر الغفاري رضي الله عنه مرفوعاً: «إن الله قد تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه».

(٢) أي: أن الشرعَ جعلَ الناسيَ ذاكراً لعذرِ النسيان، والنسيان ليس بفعل العبد، فأقام الشرع الملة مُقامَ الذكرِ دفعاً للحرجِ، كما أقام الأكلَ ناسياً مقامَ الإمساكِ في الصوم لذلك. انظر «العناية شرح الهداية» (٩/ ٤٩١).

(٣) هذا التأويل سلكه الشافعية، فعندهم تسن التسمية عند الذبح، ويكره تعمدُ تركِها، فلو تركها ولو عمداً.. حلَّ؛ لأن الله أباح ذبائحَ أهلِ الكتابِ بقوله: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ [المائدة: ٥] وهم لا يذكرونها. انظر «نهاية المحتاج» (٨/ ١١٩).

(٤) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١١٠).

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ ....﴾

«١٢٣» ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: وكما جعلنا في مكةَ صناديدَها ليمكرُوا فيها، ﴿جَعَلْنَا﴾: صيرْنا ﴿فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾: ليتجبرُوا على الناس فيها، ويعملُوا بالمعاصي، واللامُ على ظاهرِها عند أهل السنة، وليست بلام العاقبةِ، وخُصَّ الأكابرُ وهم الرؤساءُ؛ لأن ما فيهم من الرِّياسةِ والسَّعةِ أدعَى لهم إلى المكرِ والكفرِ من غيرِهم؛ دليلُه: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٢٧]، ثمَّ سلَّى رسولَه عليه السلام، ووعدَ له النُّصرةَ بقوله: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾ لأن مكرَهم يَحيقُ بهم، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أنه يحيقُ بهم، (أكابرَ): مفعولٌ أولُ، والثاني: (في كل قرية)، و(مجرميها): بدلٌ من (أكابر) أو: الأولُ: (مجرميها)، والثاني: (أكابر)، والتقديرُ: مجرميها أكابر[١].

«١٢٤» ولمّا قال أبو جهل: زاحَمَنا بنو عبدِ مناف في الشرفِ، حتى إذا صِرْنا كَفَرَسَي رِهان[٢].. قالُوا: منا نبيٌّ يوحَى إليه، والله لا نرضَى به إلا أن يأتيَنا وحيٌ كما يأتيه.. نَزَلَ[٣]:

﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ﴾ أي: الأكابرَ ﴿ءَايَةٌ﴾: معجزةٌ، أو: آيةٌ من القرآنِ تأمرُهم بالإيمان ﴿قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ أي: نُعطَى من الآياتِ مثلَ ما أُعطيَ الأنبياءُ، فأعلم الله تعالى أنه أعلمُ بمن يصلحُ للنبوةِ فقال: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾: مكيٌّ وحفصٌ، ﴿رِسَالاتِهِ﴾: غيرُهما[٤]، (حيث): مفعولٌ به، والعاملُ محذوفٌ، والتقديرُ: يعلمُ موضعَ رسالتِه، ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ من أكابرِها ﴿صَغَارٌ﴾: ذُلٌّ وهَوانٌ ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ في القيامةِ، ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ﴾ في الدارين؛ من القتلِ والأسرِ وعذابِ النارِ ﴿بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ في الدنيا.

---

(١) في «الدر المصون» (٥/ ١٣٤): والصحيح أن تكون (في كل قرية) مفعولاً ثانياً قُدِّمَ على الأولِ، والأولُ: (أكابر) مضافاً لـ (مجرميها).

(٢) هذا مثل يضرب للرجلين يتسابقان فيما يُحمدُ، وقيل: يضرب للمتسابقين إلى غاية فيستويان، وهذا التشبيه يقع في الابتداء، لا في الانتهاء؛ لأن النهاية تُجَلِّي عن سبقِ أحدِهما لا محالةَ. انظر «جمهرة الأمثال» (٢/ ٣٦٩)، و«مجمع الأمثال» (٢/ ٣٩١).

(٣) انظر «تفسير البغوي» (٣/ ١٨٥).

(٤) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٩٥).

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

《١٢٥》 ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾: يوسعه وينور قلبه، قال عليه السلام: «إذا دخل النورُ في القلب.. انشرحَ وانفتحَ»، قيل: وما علامةُ ذلك؟ قال: «الإنابةُ إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعدادُ للموت قبلَ نزولِ الموت»[1]، ﴿وَمَن يُرِدْ﴾ أي: الله ﴿أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا﴾ ﴿ضَيْقاً﴾: مكيٌّ[2]، ﴿حَرِجاً﴾: مدنيٌّ وأبو بكرٍ؛ بالغاً في الضيق ﴿حَرَجًا﴾: غيرُهما؛ وصفاً بالمصدر، ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾: كأنه كُلِّفَ أن يصعدَ إلى السماء إذا دعي إلى الإسلام مِن ضِيقِ صدرِه عنه، أو: ضاقت عليه الأرضُ فطلب مصعداً في السماء، أو: كعازبِ الرأيِ طائرِ القلبِ في الهواء[3]، ﴿يَصْعَدُ﴾: مِن: صَعِدَ: مكيٌّ، ﴿يَصَّاعَدُ﴾: أبو بكرٍ، وأصلُه: يتصاعدُ، الباقون: ﴿يَصَّعَّدُ﴾[4]، وأصلُه: يَتَصَعَّدُ، ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ﴾: العذابَ في الآخرةِ، واللعنةَ في الدنيا ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ والآيةُ: حجةٌ لنا على المعتزلةِ في إرادةِ المعاصي.

《١٢٦》 ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ﴾ أي: طريقُه الذي اقتضتْه الحكمةُ، وسنتُه في شرحِ صدرِ من أرادَ هدايتَه وجعلِه ضيقاً لمن أرادَ ضلالَه، ﴿مُسْتَقِيمًا﴾: عادِلاً مطرِداً، وهو حالٌ مؤكِّدةٌ[5]، ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾: يتعظون.

《١٢٧》 ﴿لَهُمْ﴾: لقوم يذكرون ﴿دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾: دارُ اللهِ؛ يعني: الجنةَ، أضافها إلى نفسه تعظيماً لها، أو: دارُ السلامةِ من كل آفةٍ وكدرٍ، أو: السلامُ: التحيةُ وسُمِّيت دارَ السلامِ؛ لقوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [ابراهيم: ٢٣]، ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة: ٢٦]، ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾: في ضمانِه، ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾: محبُّهم، أو: ناصرُهم على أعدائهم، ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾: بأعمالِهم، أو: متوليهم بجزاءِ ما كانوا يعملون، أو: هو ولينا في الدنيا بتوفيقِ الأعمال، وفي العقبى بتحقيقِ الآمال.

---

(١) رواه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (١/ ٤١٥) عن سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١١٠) وكذا القراءة الآتية.

(٣) عازب الرأي: غائبه.

(٤) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١١٠).

(٥) لأن صراط الله لا يكون إلا مستقيماً.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ ....

《١٢٨》 ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُم جميعاً﴾ وبالياء: حفصٌ[1]؛ أي: واذكر يوم نحشرهم، أو: ويومَ نحشرُهم قلنا: ﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾: أضللتم منهم كثيراً، وجعلتموهم أتباعَكم، كما تقول: استكثرَ الأميرُ من الجنودِ، ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ الذين أطاعُوهم واستمعُوا إلى وَسْوَستِهم: ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ أي: انتفعَ الإنسُ بالشياطين؛ حيثُ دلُّوهم على الشهوات، وعلى أسبابِ التوصُّلِ إليها، وانتفع الجنُّ بالإنسِ؛ حيث أطاعوهم وساعدُوهم على مرادِهم في إغوائِهم، ﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ يعنون: يومَ البعثِ، وهذا الكلامُ اعترافٌ بما كان منهم من طاعة الشياطينِ، واتباعِ الهوى والتكذيبِ بالبعثِ، وتحسرٌ على حالهم، ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾: منزلُكم ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَآ﴾: حالٌ، والعاملُ: معنى الإضافةِ[2]، كقوله: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٦٦] فـ(مصبحين) حالٌ من (هؤلاء)، والعاملُ في الحال: معنى الإضافةِ[3]؛ إذ معناه: الممازجةُ والمضامَّةُ، والمثوَى ليس بعاملٍ؛ لأن المكانَ لا يعمل في شيءٍ[4]، ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: يخلدون في عذاب النارِ الأبدَ كلَّه إلا ما شاءَ الله، إلا الأوقاتَ التي يُنقلون فيها من عذاب السعير إلى عذاب الزمهريرِ[5]، ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ فيما يفعلُ بأوليائِه وأعدائِه، ﴿عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ بأعمالِهم، فيَجزي كلّاً على وَفْقِ عِلْمِه.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١١٠).

(٢) ذكر الشهاب الخفاجي في «حاشيته على البيضاوي» (٥/ ٢٩٥) أن عملَ معنى الإضافة غيرُ صحيح عند المحققين من أهل العربية؛ لأنّ الإضافة من المعاني لا تنصب الحال.

(٣) وعند أبي حيان هو حالٌ من الضمير المستكِنّ في (مقطوع) الراجع إلى (دابر) وجاز ذلك مع الاختلاف إفراداً وجمعاً رعايةً للمعنى؛ لأن ذلك في معنى: دابِريْ هؤلاءِ، فيتفقُ الحالُ وصاحبُها جمعيةً. انظر «البحر المحيط» (٥/ ٤٤٩) و«تفسير الألوسي» (٧/ ٣١٤).

(٤) وعند الفارسي: (مثواكم): اسم مصدر، وهو العامل في الحال؛ والمعنى: النارُ ذاتُ إقامتِكم فيها خالدين. انظر «الدر المصون» (٥/ ١٤٩).

(٥) أولى ما قيل: أن هذا الاستثناء معلّق بمشيئة الله تعالى رفعَ العذاب؛ أي: يخلدون إلى أن يشاء الله تعالى لو شاء، وفائدتُه: إظهارُ القدرة، والإذعان بأن خلودهم إنما كان لأن الله تعالى شأنه قد شاءه، وكان من الجائز العقلي في مشيئته ألا يعذبهم، ولو عذبهم.. لا يخلدهم، وأن ذلك ليس بأمر واجب عليه وإنما هو مقتضى مشيئته وإرادته عزّ وجل. انظر «تفسير الألوسي» (٤/ ٢٧٢).

وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ ....

«١٢٩» ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا﴾: نُتبعُ بعضَهم بعضاً في النار، أو: نسلطُ بعضهم على بعضٍ، أو: نجعلُ بعضَهم أولياءَ بعضٍ ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾: بسبب ما كسبُوا من الكفر والمعاصي، ثم يقال لهم يوم القيامة على جهة التوبيخ:

«١٣٠» ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ عن الضحاك: بعثَ إلى الجنِّ رسلاً منهم[١]، كما بعثَ إلى الإنس رسلاً منهم؛ لأنهم به آنسُ، وعليه ظاهر النص، وقال آخرون: الرسلُ من الإنسِ خاصةً[٢]، وإنما قيل: (رسل منكم)؛ لأنه لما جمعَ الثقلين في الخطاب.. صحَّ ذلك وإن كان من أحدهما، كقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢]، أو: رسلُهم: رسلُ نبيِّنا، كقوله: ﴿وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الاحقاف: ٢٩]، ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾: يقرؤون كتبي، ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ يعني: يومَ القيامةِ، ﴿قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾ بوجوبِ الحجةِ علينا، وتبليغِ الرسلِ إلينا، ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ بالرسلِ.

«١٣١» ﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارةٌ إلى ما تقدم؛ من بعثة الرسل إليهم، وهو: خبرُ مبتدإٍ محذوفٍ؛ أي: الأمرُ ذلك، ﴿أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾: تعليلٌ؛ أي: الأمرُ ما قصصنا عليك؛ لانتفاءِ كونِ ربِّك مهلكَ القرى بظلم؛ على أنَّ (أنْ) مصدريةٌ، ويجوزُ أن تكون مخففةً من الثقيلة؛ والمعنى: لأن الشأنَ والحديثَ (لم يكن ربك مهلكَ القرى بظلم)؛ بسببِ ظلم أقدمُوا عليه، أو: ظالماً؛ على أنه لو أهلكهم وهم غافلون لم يُنَبَّهُوا برسولٍ وكتابٍ.. لكان ظالماً، وهو متعالٍ عنه.

«١٣٢» ﴿وَلِكُلٍّ﴾ من المكلفين ﴿دَرَجَٰتٌ﴾: منازلُ ﴿مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ من جزاءِ أعمالِهم، وبه استدلَّ أبو يوسفَ، ومحمدٌ رحمهما الله على أن للجنِّ الثوابَ بالطاعات؛ لأنه ذُكرَ عقيبَ ذكرِ الثقلين[٣]، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾: بِساهٍ عنه، وبالتاء: شاميٌّ[٤].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٢١).

(٢) وهو قول الأكثرين كما في «تفسير الرازي» (١٣/ ١٥١).

(٣) انظر «تأويلات أهل السنة» (٢/ ١٧٧).

(٤) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١١٠) وكذا القراءتان الآتيتان.

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ ....

«١٣٣» ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ﴾ عن عبادِه، وعن عبادتِهم ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ عليهم بالتكليفِ ليعرضهم للمنافع الدائمةِ ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أيُّها الظلمةُ، ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ من الخلقِ المطيعِ، ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾﴾: من أولادِ قومٍ آخرين لم يكونوا على مثلِ صفتِكم، وهم أهلُ سفينةِ نوحٍ عليه السلام.

«١٣٤» ﴿إِنَّ مَا﴾: (ما) بمعنى: الذي ﴿تُوعَدُونَ﴾ من البعث والحساب والثواب والعقاب ﴿لَءَاتٍ﴾: خبرُ (إنَّ) أي: لكائنٌ، ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾: بفائتين، ردٌّ لقولهم: مَن ماتَ.. فقد فاتَ.

«١٣٥» المكانةُ: تكونُ مصدراً؛ يقال: مَكُنَ مكانةً: إذا تمكنَ أبلغَ التمكنِ، وبمعنى المكان؛ يقال: مكانٌ ومكانةٌ، ومقامٌ ومقامةٌ، وقولُه: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾: يحتملُ: اعملُوا على تمكنكم من أمرِكم، وأقصى استطاعتِكم وإمكانِكم، واعملوا على جهتِكم وحالِكم التي أنتم عليها، يقال للرجل إذا أُمِرَ أن يثبتَ على حالِه: على مكانَتِك يا فلان، أي: اثبت على ما أنت عليه، ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ على مكانتي التي أنا عليها؛ أي: اثبتُوا على كفرِكم وعداوتِكم لي؛ فإني ثابتٌ على الإسلام، وعلى مصابرتِكم، وهو أمرُ تهديدٍ ووعيدٍ؛ ودليلُه: قولُه: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ أي: فسوف تعلمون أيُّنا تكون له العاقبةُ المحمودةُ، وهذا طريقٌ لطيفٌ في الإنذار، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ أي: الكافرون، ﴿مكاناتكم﴾ حيث كان: أبو بكرٍ، ﴿يكون﴾: حمزةُ وعليٌّ، وموضعُ (مَن): رفعٌ إذا كان بمعنى: أيّ، وعُلّقَ عنه فعلُ العلمِ، أو: نصبٌ إذا كان بمعنى: الذي.

«١٣٦» ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ أي: وللأصنام نصيباً، فاكتفِيَ بدلالة قولِه: ﴿فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ ﴿بزُعمِهم﴾: عليٌّ، وكذا ما

﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ ....

بعده[1]؛ أي: زعمُوا أنه لله، واللهُ لم يأمرْهم بذلك، ولا شرعَ لهم تلك القسمةَ. ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: لا يصلُ إلى الوجوهِ التي كانوا يصرفونه إليها؛ مِن قِرى الضيفانِ، والتصدقِ على المساكين، ﴿وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ﴾ مِن إنفاقٍ عليها، والإجراءِ على سَدَنَتِها، رويَ: أنهم كانوا يُعيِّنون أشياءَ من حرثٍ ونتاجٍ لله، وأشياءَ منهما لآلهتهم، فإذا رأَوا ما جعلُوا لله زاكياً نامياً.. رجعُوا فجعلُوه للأصنام، وإذا زكا ما جعلوه للأصنام.. تركُوه لها، وقالوا بأن اللهَ غني، وإنما ذاك لحبهم آلهتَهم، وإيثارِهم لها، وفي قوله: ﴿مِمَّا ذَرَأَ﴾: إشارةٌ إلى أن اللهَ كان أولى بأن يُجعلَ له الزاكي؛ لأنه هو الذي ذرأه، ثم ذمَّ صنيعَهم بقوله: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ في إيثارِ آلهتِهم على اللهِ، وعملِهم على ما لم يَشرع لهم، وموضعُ (ما): رفعٌ؛ أي: ساءَ الحكمُ حكمُهم، أو: نصبٌ؛ أي: ساءَ حكماً حكمُهم.

《١٣٧》 ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: كما زينَ لهم تجزئةَ المالِ.. زينَ وَأْدَ البناتِ، ﴿قَتْلَ﴾: مفعولُ (زين)، ﴿أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾: هو فاعلُ (زين)، ﴿زُيِّنَ﴾: بالضمِّ، ﴿قتلُ﴾: بالرفعِ، ﴿أولادَهم﴾: بالنصبِ، ﴿شركائِهم﴾: بالجرِّ: شاميٌّ، على إضافةِ القتلِ إلى الشركاءِ؛ أي: الشياطينِ، والفصلِ بينهما بغيرِ الظرفِ، وهو المفعولُ، وتقديرُه: زُيِّنَ لكثيرٍ من المشركين قتلُ شركائِهم أولادَهم[2]، ﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾: ليهلكوهم بالإغواء، ﴿وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾: وليخلطُوا عليهم ويشبِّهوه[3]، ودينُهم: ما كانوا عليه من دينِ إسماعيلَ، حتى زلُّوا عنه إلى الشرك، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ وفيه دليلٌ على أن الكائناتِ كلَّها بمشيئةِ الله تعالى، ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾: وما يفترونه من الإفكِ، أو: وافتراءَهم؛ لأن ضررَ ذلك الافتراءِ عليهم، لا عليك ولا علينا.

《١٣٨》 ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ﴾ للأوثانِ، ﴿حِجْرٌ﴾: حرامٌ، (فِعلٌ) بمعنى (مفعول)،

---

(١) انظر المرجع السابق (ص ١١١) وكذا القراءة الآتية.

(٢) وهي قراءة متواترة صحيحة، ولها شواهد في العربية، فلا التفات إلى قول من اعترض عليها. انظر «شرح التسهيل» لابن مالك (٣/ ٢٧٧).

(٣) شَبَّهَ عليه الأمرَ: أبهمَه عليه حتى اشتبه بغيره.

وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ....

كالذِّبح والطِّعن، ويستوي في الوصفِ به المذكرُ والمؤنثُ والواحدُ والجمعُ؛ لأن حكمه حكمُ الأسماءِ غيرِ الصفاتِ، وكانوا إذا عَيَّنُوا أشياءَ من حرثِهم وأنعامِهم لآلهتِهم.. قالُوا: ﴿لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ﴾ يعنون: خدمَ الأوثانِ والرجالِ دون النساءِ، والزعمُ: قولٌ بالظنِّ يشوبُه الكذبُ، ﴿وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ هي: البحائرُ والسوائبُ والحوامي، ﴿وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾ حالةَ الذبحِ، وإنما يذكرون عليها أسماءَ الأصنامِ، ﴿ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ﴾ هو مفعولٌ له، أو حالٌ؛ أي: قسمُوا أنعامَهم، قِسمٌ حِجرٌ، وقِسمٌ لا يُركب، وقسمٌ لا يُذكر عليها اسمُ الله، ونسبوا ذلك إلى الله افتراءً عليه، ﴿سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾﴾: وعيدٌ.

«١٣٩» ﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ كانوا يقولُون في أجنةِ البحائرِ والسوائبِ: ما وُلد منها حيّاً.. فهو خالصٌ للذكور، لا يأكلُ منه الإناثُ، وما وُلدَ ميتاً.. اشتركَ فيه الذكورُ والإناثُ، وأنث (خالصةٌ) وهو خبرُ (ما) للحملِ على المعنى؛ لأن (ما) في معنى الأجنةِ، وذُكِّرَ (محرمٌ) حملاً على اللفظِ، أو: التاءُ للمبالغةِ، كنَسَّابةٍ، ﴿وَإِن يَكُن مَّيْتَةً﴾: وإن يكن ما في بطونها ميتةً، ﴿وإن تكن ميتةً﴾: أبو بكرٍ؛ أي: وإن تكن الأجنةُ ميتةً، ﴿وإن تكنْ ميتةٌ﴾: شاميٌّ؛ على: كان التامةِ، ﴿يكنْ ميتةٌ﴾: مكي[1]؛ لتقدمِ الفعلِ[2]، وتذكير الضمير في ﴿فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ﴾ لأن الميتة اسمٌ لكلِّ ميتٍ ذكرٍ أو أنثى، فكأنه قيل: وإن يكن ميتٌ.. فهم فيه سواءٌ ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ جزاءَ وصفِهم الكذبَ على الله في التحليل والتحريم، ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ﴾ في جزائِهم، ﴿عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾ باعتقادِهم.

«١٤٠» ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ﴾ كانوا يَئِدُون بناتِهم مخافةَ السبْيِ والفقرِ، ﴿قتَّلوا﴾: مكيٌّ وشاميٌّ[3]، ﴿سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ لخفة أحلامهم وجهلهم بأن الله هو رازق أولادِهم لا هم ﴿وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ من البحائر والسوائب وغيرها ﴿ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ﴾: مفعولٌ له، ﴿قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ إلى الصواب.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص١١١).

(٢) أي: الفعل (يكن) تقدم على (ميتة) فجاز تذكير الفعل؛ لأن الفاعل اسم ظاهر مجازي التأنيث.

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص١١١).

وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿١٤٢﴾ ....

《١٤١》 ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ﴾: خلقَ ﴿جَنَّٰتٖ﴾ من الكروم ﴿مَّعۡرُوشَٰتٖ﴾: مسموكاتٍ[1]، ﴿وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ﴾: متروكاتٍ على وجه الأرضِ لم تُعرَّشْ؛ يقال: عَرَّشْتُ الكرمَ: إذا جعلتَ له دعائمَ وسَمْكاً تَعطفُ عليه القُضبانُ، ﴿وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا﴾ في اللونِ والطعمِ والحجمِ والرائحةِ، وهو: حالٌ مقدرةٌ؛ لأن النخلَ وقتَ خروجِه لا أُكُلَ فيه حتى يكون مختلفاً، وهو كقوله: ﴿فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]، ﴿أُكُلُهُۥ﴾: حجازيٌّ[2]، وهو: ثمرُه الذي يُؤكلُ، والضميرُ للنخلِ، والزرعُ داخلٌ في حكمِه؛ لأنه معطوفٌ عليه، أو: لكلِّ واحدٍ، ﴿وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا﴾ في اللونِ، ﴿وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ﴾ في الطعمِ، ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ﴾: من ثمرِ كلِّ واحدٍ، وفائدةُ: ﴿إِذَآ أَثۡمَرَ﴾: أن يُعلَمَ أن أولَ وقتِ الإباحةِ وقتُ إطلاعِ الشجرِ الثمرَ، ولا يُتوهمَ أنه لا يُباحُ إلا إذا أدركَ، ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ﴾: عُشْرَه، وهو حجةُ أبي حنيفةَ رحمه الله في تعميمِ العُشرِ[3]، ﴿يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ﴾: بصريٌّ وشاميٌّ وعاصمٌ، وبكسرِ الحاءِ: غيرُهم[4]، وهما لغتانِ، ﴿وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ﴾ بإعطاءِ الكلِّ، وتضييعِ العيالِ، وقولُه: (كلوا) إلى ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾: اعتراضٌ.

《١٤٢》 ﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ﴾: عطفٌ على (جناتٍ)؛ أي: وأنشأ من الأنعامِ ما يحملُ الأثقالَ، وما يُفرشُ للذبحِ، أو: الحَمولةُ: الكبارُ التي تَصلحُ للحملِ، والفَرشُ: الصغارُ، كالفُصلانِ والعَجاجيلِ والغنمِ؛ لأنها دانيةٌ من الأرضِ، مثلُ الفُرُشِ المفروشِ عليها، ﴿كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: ما أحلَّ لكم منها، ولا تُحرِّمُوها كما في الجاهلية، ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾: طرقَه في التحليلِ والتحريمِ كفعلِ أهلِ الجاهليةِ، ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿١٤٢﴾﴾ فاتَّهِموه على دينِكم.

---

(١) أي: مرفوعات.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١١١).

(٣) انظر «حاشية ابن عابدين» (٢/ ٣٢٦).

(٤) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١١٢) وكذا القراءتان الآتيتان.

﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٤٤)﴾ ....

«١٤٣» ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾: بدلٌ من (حمولة وفرشاً) ﴿مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾: زوجين اثنين؛ يريد: الذكرَ والأنثى، والواحدُ إذا كان معه غيرُه من جنسِه.. سمي كلُّ واحدٍ منهما زوجاً، وهما زوجان؛ بدليل قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٤٥]، ويدلُّ عليه قولُه: (ثمانية أزواج)، ثم فسَّرَها بقوله: (من الضأن اثنين ومن المعز اثنين) (ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين)، والضأنُ والمعز: جمعُ ضائنٍ وماعزٍ، كتاجرٍ وتَجْرٍ، وفتحَ عينَ ﴿المعَزِ﴾: مكيٌّ وشاميٌّ وأبو عمرٍو، وهما لغتان، والهمزةُ في ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾: للإنكارِ؛ والمرادُ بـ (الذكرين): الذكرُ من الضأنِ، والذكرُ من المعزِ، وبـ (الأنثيين): الأنثى من الضأنِ، والأنثى من المعزِ؛ والمعنى: إنكارُ أن يحرم الله من جِنْسَي الغنمِ ضأنِها ومعزِها شيئاً من نَوْعَي ذكورِها وإناثِها، ولا مما تَحمِلُ الإناثُ، وذلك أنهم كانوا يُحرمون ذكورَ الأنعامِ تارةً، وإناثَها طوراً، وأولادَها كيفما كانت، ذكوراً، أو إناثاً، أو مختلطةً تارة، وكانوا يقولون: قد حرمَها اللهُ، فأنكر ذلك عليهم، وانتصبَ (آلذكرين) بـ (حرم)، وكذا (أم الأنثيين) أي: أم حرَّمَ الأنثيين، وكذا (ما) في (أم ما اشتملت)، ﴿نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ﴾: أخبروني بأمرٍ معلوم من جهةِ اللهِ يدلُّ على تحريمِ ما حرَّمتم، ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (١٤٣)﴾ في أنَّ الله حرمَه.

«١٤٤» ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ﴾ منهما ﴿حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ منهما، ﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾: أم ما تحملُ إناثُها، ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾ (أم): منقطعة؛ أي: بل أكنتم شهداءَ ﴿إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾ يعني: أم شاهدتم ربَّكم حين أمركم بهذا التحريم، ولما كانوا لا يؤمنون برسولٍ وهم يقولون: اللهُ حرمَ هذا الذي نحرمُه.. تهكَّمَ بهمْ في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾ على معنى: أعرفتم التوصيةَ به مشاهدين؛ لأنكم لا تؤمنون بالرسل، ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فنسبَ إليه تحريمَ ما لم يُحرمْ؛ ﴿لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٤٤)﴾ أي: الذين في علمه أنهم يُختمون على الكفرِ، ووقعَ الفاصلُ بين بعضِ المعدودِ وبعضِه اعتراضاً غيرَ أجنبيٍّ من المعدودِ، وذلك أن الله تعالى منَّ على

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾

عبادِه بإنشاءِ الأنعامِ لمنافعِهم، وبإباحتِها لهم، فالاعتراضُ بالاحتجاج على مَن حرَّمَها يكون تأكيداً للتحليل، والاعتراضاتُ في الكلام لا تساقُ إلا للتوكيد.

«١٤٥» ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾ أي: في ذلك الوقتِ، أو: في وحيِ القرآنِ؛ لأن وحيَ السنةِ قد حرمَ غيرَه، أو: من الأنعام؛ لأن الآيةَ في ردِّ البحيرةِ وأخواتِها، وأما الموقوذةُ والمترديةُ والنطيحةُ.. فمن الميتة، وفيه تنبيهٌ على أن التحريمَ إنما يثبت بوحي اللهِ وشرعِه، لا بهوى الأنفسِ، ﴿مُحَرَّمًا﴾: حيواناً حرمَ أكلُه ﴿عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾: على آكلٍ يأكلُه، ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً﴾: إلا أن يكونَ الشيءُ المحرمُ ميتةً، ﴿أن تكونَ﴾: مكيٌّ وشاميٌّ وحمزةُ، ﴿مَيْتَةٌ﴾: شاميٌّ، ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾: مصبوباً سائلاً، فلا يحرمُ الدمُ الذي في اللحمِ والكبدِ والطحالِ، ﴿أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾: نجسٌ، ﴿أَوْ فِسْقًا﴾: عطفٌ على المنصوبِ قبلَه، وقولُه: ﴿فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾: اعتراضٌ بين المعطوف والمعطوف عليه، ﴿أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾: منصوبُ المحلِّ، صفةٌ لـ(فسقاً)؛ أي: رفعُ الصوتِ على ذبحِه باسمِ غيرِ اللهِ، وسميَ بالفسقِ؛ لتوغُّلِه في باب الفسقِ، ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾: فمن دعته الضرورةُ إلى أكلِ شيءٍ من هذه المحرماتِ ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ على مضطرٍّ مثلِه تاركٍ لمواساتِه، ﴿وَلَا عَادٍ﴾: متجاوزٍ قدرَ حاجتِه من تناولِه، ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ لا يؤاخذُه.

«١٤٦» ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ أي: ما له أُصْبُعٌ من دابةٍ أو طائرٍ، ويدخلُ فيه الإبلُ والنعامُ، ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ﴾ أي: حُرِّمَ عليهم لحمُ كلِّ ذي ظُفُرٍ، وشحمُه، وكلُّ شيءٍ منه، ولم يحرَّمْ من البقر والغنمِ إلا الشحومُ، وهي: الثُّروبُ[1]، وشحومُ الكُلى، ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾: إلا ما اشتمل على الظهور والجُنوبِ من السَّحْفة[2]، ﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ﴾: أو ما اشتملَ على الأمعاءِ، واحدُها: حاوِياءُ، أو حَوِيَّةٌ، ﴿أَوْ مَا

---

(١) الثُّروب: جمع ثَرْبٍ، وهو: شحم رقيق على الكرش والأمعاء.
(٢) السَّحْفة: الشحمةُ التي على الظهر، الملتزقةُ بالجلد فيما بين الكتفين إلى الوركين.

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ۝١٤٧ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ۝١٤٨﴾ ..

﴿اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾: وهو الألْيَةُ، أو المُخُّ، ﴿ذَٰلِكَ﴾: مفعولٌ ثانٍ لقوله: ﴿جَزَيْنَاهُم﴾، والتقديرُ: جزيناهم ذلك ﴿بِبَغْيِهِمْ﴾: بسببِ ظلمِهم، ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ۝١٤٦﴾ فيما أخبرْنا به.

وكيف نشكرُ من سَبَّبَ معصيتَهم لتحريم الحلالِ، ومعصيةَ سابقِينا لتحليلِ الحرامِ حيث قال: ﴿وَعَفَا عَنكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧][1].

《١٤٧》 ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ فيما أوحيتُ إليك من هذا ﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ بها يُمهِلُ المكذبين ولا يعاجلُهم بالعقوبة، ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ﴾: عذابُه مع سعةِ رحمتِه ﴿عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ۝١٤٧﴾ إذا جاءَ، فلا تغترُّوا بسعةِ رحمتِه عن خوف نِقمتِه.

《١٤٨》 ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾: إخبارٌ بما سوف يقولونه، ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ ألّا نشرك ﴿مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ ولكن شاءَ، فهذا عذرُنا؛ يعنون: أن شركهم وشركَ آبائِهم وتحريمَهم ما أحلَّ الله لهم بمشيئة الله تعالى، ولولا مشيئتُه.. لم يكن شيءٌ من ذلك، ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: كتكذيبهم إياك كان تكذيبُ المتقدمين رسلَهم، وتشبثُوا بمثل ذلك، فلم ينفعْهم ذلك إذ لم يقولوه عن اعتقادٍ، بل قالوا ذلك استهزاءً، ولأنهم جعلُوا مشيئتَه حجةً لهم على أنهم معذورون به، وهذا مردودٌ، لا الإقرارُ بالمشيئة، أو: معنى المشيئةِ هنا: الرضا، كما قال الحسن رحمه الله تعالى؛ أي: رضي الله منا ومن آبائنا الشركَ، والشركُ مرادٌ لكنه غيرُ مرضيٍّ، ألا ترى أنه قال: ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، أخبرَ أنه لو شاء منهم الهدى.. لآمن كلُّهم، ولكن لم يشأ من الكلِّ الإيمانَ، بل شاء من البعض الإيمانَ، ومن البعض الكفرَ، فيجبُ حملُ المشيئةِ هنا على ما ذكرنا؛ دفعاً للتناقض، ﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾: حتى أنزلنا عليهم العذابَ، ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ﴾: من أمرٍ معلومٍ يصحُّ الاحتجاجُ به فيما قلتم ﴿فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾: فتظهرُوه، ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ۝١٤٨﴾: تكذبون.

---

(١) أي: كيف نستطيع أن نشكر الله على نعمته علينا أن جعلَ معصيةَ مَن قبلَنا سبباً لتحريم الحلال، كما في هذه الآية، وجعل معصية سابقِينا وهم الصحابة رضوان الله عليهم سبباً لتحليل الحرام، كما أباح الجماع في ليل رمضان بعد تحريمه.

﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝١٤٩ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١٥٠ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓا أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝١٥١﴾ ......

《١٤٩》 ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ عليكم بأوامرِه ونواهيه، ولا حجةَ لكم على الله بمشيئته، ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝١٤٩﴾ أي: فلو شاء هدايتكم، وبه تبطلُ صَوْلَةُ المعتزلةِ.

《١٥٠》 ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ﴾: هاتُوا شهداءَكم وقربُوهم، ويستوي في هذه الكلمةِ الواحدُ والجمعُ والمذكرُ والمؤنثُ عند الحجازيين، وبنو تميم تؤنِّثُ وتجمعُ[1]، ﴿ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا﴾ أي: زعمُوه محرماً، ﴿فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾: فلا تُسلِّمْ لهم ما شهدُوا به، ولا تصدقْهم؛ لأنه إذا سلمَ لهم.. فكأنه شهدَ معهم مثلَ شهادتِهم، وكان واحداً منهم، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا﴾: مِن وضعِ الظاهرِ موضعَ المضمرِ؛ للدلالةِ على أن مَن كذبَ بآيات الله.. فهو متبعٌ للهوى؛ إذ لو تبعَ الدليلَ.. لم يكن إلا مصدقاً بالآيات موحداً لله، ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾: هم المشركون، ﴿وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١٥٠﴾: يسوون الأصنام.

《١٥١》 ﴿قُلْ﴾ للذين حرمُوا الحرثَ والأنعامَ: ﴿تَعَالَوْا﴾: هو من الخاصِّ الذي صار عامّاً، وأصلُه أن يقولَه مَن كان في مكان عالٍ لمن هو أسفلُ منه، ثم كثر حتى عمَّ، ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾: الذي حرمه ربُّكم ﴿عَلَيْكُمْ﴾: من صلةِ (حرَّم) ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ (أنْ): مفسرةٌ لفعلِ التلاوةِ، و(لا): للنهي، ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾: وأحسنوا بالوالدين إحساناً، ولما كان إيجابُ الإحسانِ تحريماً لترك الإحسان.. ذُكِرَ في المحرمات، وكذا حكمُ ما بعدَه من الأوامر، ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾: من أجلِ فقرٍ، ومن خشيتِه، كقولِه: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ [الإسراء: ٣١]، ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ لأن رزق العبيدِ على مولاهم، ﴿وَلَا تَقْرَبُوا ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾: ما بينك وبينَ الخلقِ، ﴿وَمَا بَطَنَ﴾: ما بينك وبين الله، (ما ظهر): بدلٌ من (الفواحش)، ﴿وَلَا تَقْتُلُوا ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ كالقصاص، والقتلِ على الردةِ، والرجم، ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ أي: المذكورُ مفصلاً أمرَكُم ربُّكم بحفظه ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝١٥١﴾: لتعقلُوا عظمَها عند الله.

---

(١) فيقولون: هلمي، وهلموا، وهلما.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ ....

《١٥٢》 ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾: إلا بالخَصلةِ التي هي أحسنُ، وهي حفظُه وتثميرُه ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾: مبلغَ حُلُمِهِ، فادفعوه إليه، وواحدُه: شَدٌّ، كفَلْسٍ، وأفْلُسٍ، ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾: بالسويةِ والعدلِ، ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾: إلا ما يسعُها ولا تعجزُ عنه، وإنما أتبعَ الأمرَ بإيفاءِ الكيلِ والميزانِ ذلك؛ لأن مراعاةَ الحدِّ من القسطِ الذي لا زيادةَ فيه ولا نقصانَ.. مما فيه حرجٌ، فأمرَ ببلوغِ الوُسْعِ، وأن ما وراءه معفوٌّ عنه، ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟﴾: فاصدُقوا ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾: ولو كان المقولُ له أو عليه في شهادةٍ أو غيرِها من أهلِ قرابةِ القائل، كقوله: ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥]، ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾: يومَ الميثاقِ، أو: في الأمرِ والنهيِ والنذرِ واليمينِ ﴿أَوْفُوا۟ ذَٰلِكُمْ﴾ أي: ما مرَّ ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾: بالتخفيفِ حيث كان: حمزةُ وعليٌّ وحفصٌ، على حذفِ إحدى التاءين، غيرُهم: بالتشديدِ[1]، أصلُه: (تتذكرون)، فأُدغمَ؛ أي: أمرَكم به لتتعظوا.

《١٥٣》 ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى﴾: ولأن هذا صراطي، فهو علةٌ للاتباعِ بتقديرِ اللامِ، ﴿وأنْ﴾: بالتخفيفِ: شاميٌّ، وأصلُه: وأنَّهُ: على أن الهاءَ ضميرُ الشأنِ والحديثِ، ﴿وإنَّ﴾: على الابتداءِ: حمزةُ وعليٌّ، ﴿مُسْتَقِيمًا﴾: حالٌ، ﴿فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾: الطرقَ المختلفةَ في الدينِ من اليهوديةِ والنصرانيةِ والمجوسيةِ وسائرِ البدعِ والضلالاتِ، ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾: فتفرِّقَكم أياديَ سَبا عن صراط الله المستقيم، وهو دين الإسلام[2].

روي: أن رسول الله ﷺ خطَّ خطّاً مستوياً ثم قال: هذا سبيلُ الرُّشدِ وصراطُ الله فاتبعوه، ثم خطَّ على كلِّ جانبٍ ستةَ خطوطٍ مُمالةٍ، ثم قال: هذه سبلٌ، على كلِّ سبيلٍ منها شيطانٌ يدعو إليه فاجتنوها، وتلا هذه الآيةَ، ثم يصيرُ كلُّ واحدٍ من الاثني عشرَ طريقاً ستةَ طرقٍ، فتكون اثنين وسبعين[3].

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١١٣) وكذا القراءة الآتية.

(٢) أيادي سبا اليدُ: الطريقُ، يقال للقوم إذا تفرقوا في جهاتٍ مختلفةٍ: ذهبوا أيادي سبا؛ أي: فرقتهم طرقُهم التي سلكوها، كما تفرقَ أهل سبإٍ في مذاهبَ شتَّى.

(٣) في «سنن ابن ماجه» (١١) عن سيدنا جابر رضي الله عنه قال: كنا عند النبي ﷺ فخطَّ خطّاً، وخطَّ خطين عن يمينه، وخطَّ خطين عن يساره، ثم وضع يدَه في الخطِّ الأوسطِ، فقال: «هذا سبيلُ الله» ثم تلا هذه الآيةَ.

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾﴾ ....

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هذه الآياتُ محكماتٌ لم يَنسخهن شيءٌ من جميعِ الكتبِ، وعن كعبٍ: إنَّ هذه الآياتِ لَأولُ شيءٍ في التوراة.

﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾: لتكونوا على رجاءِ إصابةِ التقوى، ذكرَ أولاً (تعقلون)، ثم (تذكرون)، ثم (تتقون)؛ لأنهم إذا عقلُوا.. تفكروا، فتذكروا، أي: اتعظُوا، فاتقَوُا المحارمَ.

«١٥٤» ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا﴾ أي: ثم أخبرُكم أنا آتينا[1]، أو: هو عطف على (قل) أي: ثم قل: آتينا، أو: (ثم) مع الجملة تأتي بمعنى الواو، كقوله: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ﴾، ﴿عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾: على من كان محسناً صالحاً؛ يريد: جنسَ المحسنين؛ دليلُه: قراءةُ عبدِ اللهِ: ﴿على الذين أحسنوا﴾[2]، أو: أرادَ به موسى عليه السلام؛ أي: تتمةً للكرامة على العبدِ الذي أحسنَ الطاعةَ في التبليغ وفي كلِّ ما أُمر به، ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾: وبياناً مفصلاً لكلِّ ما يحتاجون إليه في دينهم، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ أي: لبني إسرائيل ﴿لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾﴾: يصدقون.

«١٥٥» ﴿وَهَٰذَا﴾؛ أي: القرآن ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾: كثيرُ الخيرِ ﴿فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟﴾ مخالفته ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾: لترحَمُوا.

«١٥٦» ﴿أَن تَقُولُوٓا۟﴾: كراهةَ أن تقولُوا؛ أو لئلا تقولُوا: ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ أي: أهلِ التوارةِ، وأهلِ الإنجيلِ، وهذا دليلٌ على أن المجوسَ ليسوا بأهل كتابٍ، ﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ﴾: عن تلاوةِ كتبهم ﴿لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾﴾: لا علمَ لنا بشيءٍ من ذلك، (إن): مخففةٌ من الثقيلة، واللامُ: فارقةٌ بينها وبين النافية، والأصلُ: وإنَّه كنا عن دراستهم غافلين، على أن الهاء ضميرُ الشأنِ، والخطابُ لأهل مكةَ، والمرادُ: إثباتُ الحجةِ عليهم بإنزالِ القرآنِ على محمدٍ ﷺ كيلا يقولوا يومَ القيامةِ: إن التوراةَ والإنجيلَ أُنزلا على طائفتين من قبلنا، وكنا غافلين عمّا فيهما.

---

(١) أي: أنّ (ثم) لترتيب الإخبار، لا لتأخير النزول؛ لأن إيتاءَ موسى الكتاب كان قبلَ مجيءِ القرآنِ. انظر «السراج المنير» (١/ ٤٥٩).

(٢) انظر «المحرر الوجيز» (٢/ ٣٦٤).

﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ (١٥٧) هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٥٨) إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ۚ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (١٥٩)﴾ ....

《١٥٧》 ﴿أَوْ تَقُولُوا﴾: أو كراهةَ أن تقولوا: ﴿لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ لِحِدَّةِ أذهانِنا وثقابةِ أفهامِنا وغزارةِ حفظِنا لأيامِ العربِ، ﴿فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: إن صدقتم فيما كنتم تَعِدُون من أنفسكم.. فقد جاءكم ما فيه البيانُ الساطعُ، والبرهانُ القاطعُ، فحُذفَ الشرطُ، وهو من أحاسنِ الحُذوفِ، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ بعدَ ما عرفَ صحتَها وصدقَها، ﴿وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ أي: أعرضَ، ﴿سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ﴾: وهو النهايةُ في النكايةِ، ﴿بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ (١٥٧)﴾: بإعراضِهم.

《١٥٨》 ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي: أقمنا حُجَجَ الوحدانيةِ وثبوتِ الرسالةِ، وأبطلْنا ما يعتقدون من الضلالةِ، فما ينتظرون في ترك الإيمان بعدَها ﴿إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي: ملائكةُ الموتِ لقبضِ أرواحِهم، ﴿يأتيهم﴾: حمزةُ وعليٌّ[1]، ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ أي: أمرُ ربِّكم، وهو العذاب، أو القيامةُ، وهذا لأن الإتيان متشابهٌ، وإتيانُ أمرِه منصوصٌ عليه محكمٌ، فيُرَدُّ إليه، ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ أي: أشراطُ الساعةِ، كطلوعِ الشمسِ من مغربِها وغيرِ ذلك، ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا﴾ لأنه ليسَ بإيمانِ اختيارٍ، بل هو إيمانُ دفعِ العذابِ والبأسِ عن أنفسِهم، ﴿لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ﴾: صفةُ (نفساً) ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ أي: إخلاصاً؛ أي: كما لا يُقبلُ إيمانُ الكافرِ بعد طلوع الشمس من مغربِها.. لا يقبلُ إخلاصُ المنافقِ أيضاً، أو توبةً، وتقديرُه: لا ينفعُ إيمانُ مَن لم يؤمنْ، ولا توبةُ مَن لم يتبْ قبلُ، ﴿قُلِ انتَظِرُوا﴾ إحدى الآياتِ الثلاثِ ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٥٨)﴾ بكم إحداها.

《١٥٩》 ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾: اختلفوا فيه وصارُوا فِرَقاً، كما اختلفت اليهود والنصارى[2]، وفي الحديث: «افترقت اليهودُ على إحدى وسبعين فرقةً كلُّها في الهاويةِ إلا واحدةً وهي الناجية، وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة كلُّها في الهاوية إلا واحدة،

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص١١٣).

(٢) وقيل: فرقوا دينهم: بَدَّدُوه، فآمنوا ببعض وكفروا ببعض. انظر «تفسير البيضاوي» (٢/ ١٩١).

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ ....﴾

وتفترقُ أمتي على ثلاثٍ وسبعين فِرقةً كلُّها في الهاوية إلا واحدةً، وهي السوادُ الأعظمُ»[١]، وفي روايةٍ: «وهي ما أنا عليه وأصحابي»[٢]، ﴿فارقُوا دينَهم﴾: حمزةُ، وعليٌّ[٣]؛ أي: تركوه، ﴿وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾: فِرقاً، كلُّ فرقةٍ تُشيِّعُ إماماً لها[٤]، ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ أي: من السؤال عنهم وعن تفرقهم، أو: من عقابِهم، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ فيجازيْهم على ذلك.

《١٦٠》 ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ تقديرُه: عشرُ حسناتٍ أمثالِها، إلا أنه أقيمَ صفةُ الجنسِ المميِّزِ مُقامَ الموصوفِ، ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ بنقصِ الثوابِ، وزيادةِ العقاب.

《١٦١》 ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ﴾ ﴿ربيَ﴾: أبو عمرٍو ومدنيٌّ[٥]، ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا﴾: نصبٌ على البدلِ من محلِّ (إلى صراط مستقيم)؛ لأن معناه: هداني صراطاً؛ بدليلِ قولِه: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢٠]، ﴿قيِّماً﴾: (فَيْعِل) مِن: قام، كـ: سيِّدٍ من: سادَ، وهو أبلغُ من القائم، ﴿قِيَمًا﴾: كوفيٌّ وشاميٌّ، وهو مصدرٌ؛ بمعنى القيامِ، وُصفَ به، ﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾: عطفُ بيانٍ، ﴿حَنِيفًا﴾: حالٌ من (إبراهيم)، ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ بالله يا معشرَ قريشٍ.

《١٦٢》 ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى﴾ أي: عبادتي، والناسكُ: العابدُ، أو: ذَبحي، أو: حَجِّي، ﴿وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى﴾: وما أتيتُه في حياتي، وأموتُ عليه؛ من الإيمانِ والعملِ الصالحِ ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾: خالصةً لوجهه، ﴿ومحيايْ ومماتيَ﴾: بسكونِ الياءِ الأولِ، وفتحِ الثاني: مدنيٌّ، وبعكسِه: غيرُه.

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٨/ ٢٧٣) عن سيدنا أبي أمامة رضي الله عنه.

(٢) هذه الرواية في «سنن الترمذي» (٢٦٤١) عن سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص١١٣).

(٤) تشيع: تتبع.

(٥) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١١٣) وكذا القراءتان الآتيتان.

﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾

«١٦٣» ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ في شيءٍ من ذلك، ﴿وَبِذَٰلِكَ﴾ الإخلاصِ ﴿أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ لأن إسلامَ كلِّ نبيٍّ متقدمٌ على إسلامِ أمتِه.

«١٦٤» ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا﴾: جوابٌ عن دعائِهم له إلى عبادةِ آلهتِهم، والهمزةُ للإنكار؛ أي: مُنكرٌ أن أطلبَ ربّاً غيرَه، وتقديمُ المفعولِ للإشعار بأنه أهمُّ، ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ وكلُّ مَن دونَه مربوبٌ، ليس في الوجودِ مَن له الربوبيةُ غيرُه، ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾: جوابٌ عن قولِهم: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٢]، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: لا تؤخذُ نفسٌ آثمةٌ ذنبَ نفسٍ أخرى[١]، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ من الأديان التي فرَّقْتُموها.

«١٦٥» ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ لأن محمداً ﷺ خاتمُ النبيين، فأمتُه قد خلفَتْ سائرَ الأممِ، أو: لأن بعضَهم يَخْلُفُ بعضاً، أو: هم خلفاءُ اللهِ في أرضِه، يملكُونها ويتصرَّفُون فيها، ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ﴾ في الشرفِ والرزقِ وغيرِ ذلك ﴿دَرَجَٰتٍ﴾: مفعولٌ ثانٍ، أو التقديرُ: إلى درجاتٍ، أو: هي واقعةٌ موقعَ المصدرِ، كأنه قيل: رفعةً بعدَ رفعةٍ، ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾: فيما أعطاكم من نعمةِ الجاهِ والمالِ، كيف تشكرون تلك النعمةَ، وكيف يصنع الشريفُ بالوضيعِ، والغنيُّ بالفقير، والمالكُ بالمملوك، ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن كفرَ نعمتَه، ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾ لمن قامَ بِشُكْرِها، ووُصِفَ العقابُ بالسرعةِ؛ لأن ما هو آتٍ قريبٌ ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧].

عن النبيِّ ﷺ: «من قرأَ ثلاثَ آياتٍ من أول الأنعامِ حين يصبحُ.. وكَّلَ الله تعالى به سبعين ألفَ ملكٍ يحفظونه، وكتبَ له مثلَ أعمالِهم إلى يوم القيامة»[٢].



(١) في المطبوع (٢/ ٧٥): (بذنبِ نفسٍ أخرى)، وهو أولى.
(٢) رواه الواحدي في «التفسير الوسيط» (٢ / ٢٥٠).

﴿المٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾ ....

سورة الأعراف

سورةُ الأعرافِ مكيةٌ، وهي مئتان وخمسُ آياتٍ: بصريٌ، وستٌّ: كوفيٌّ، ومدنيٌّ.

بسم الله الرحمن الرحيم

《١》 ﴿المٓصٓ ۝١﴾: قال الزجاجُ: المختارُ في تفسيره: ما قال ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: أنا الله أعلمُ وأُفَصِّلُ[1].

《٢》 ﴿كِتَٰبٌ﴾: خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ؛ أي: هو كتابٌ ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾: صفتُه؛ والمرادُ بالكتابِ: السورةُ، ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾: شكٌّ منه، وسُمِّيَ الشكُّ حرجاً؛ لأن الشاكَّ ضَيِّقُ الصدرِ حَرِجُهُ، كما أن المتيقِّنَ مُنشرحُ الصدرِ مُنْفَسِحُهُ؛ أي: لا تشكَّ في أنه منزلٌ من الله، أو: حرجٌ منه بتبليغِه؛ لأنه كان يخافُ قومَه وتكذيبَهم له، وإعراضَهم عنه، وأذاهم، فكان يضيقُ صدرُه من الأذى، ولا يَنبسِطُ له، فأمَّنَه الله، ونهاه عن المبالاة بهم، والنهيُ متوجهٌ إلى الحرجِ، وفيه من البلاغةِ ما فيه[2]، والفاءُ للعطفِ؛ أي: هذا كتابٌ أنزلناه إليك، فلا يكنْ بعد إنزالِه حرجٌ في صدرك، واللامُ في ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾: متعلقٌ بـ (أنزل) أي: أنزل إليك لإنذارِك به، أو بالنهي؛ لأنه إذا لم يَخفْهُم.. أنذرَهم، وكذا إذا أيقنَ أنه من عندِ اللهِ.. شَجَّعَهُ اليقينُ على الإنذارِ؛ لأن صاحبَ اليقينِ جَسُورٌ متوكلٌ على ربِّه، ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾: في محلِّ النصبِ بإضمارِ فعلِها؛ أي: لتنذرَ به، وتُذَكِّرَ تذكيراً، فالذكرى: اسمٌ بمعنى التذكيرِ، أو: الرفعِ بالعطفِ على (كتابٌ) أي: هو كتابٌ وهو ذكرى للمؤمنين، أو بأنه خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، أو: الجرِّ بالعطف على محلِّ (لتنذر) أي: للإنذار وللذكرى.

《٣》 ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: القرآنَ والسنةَ، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِۦٓ﴾: من دونِ الله ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ أي: ولا تتولوا مَن دونه من شياطينِ الجنِّ والإنسِ فيحملُوكم على عبادةِ الأوثانِ والأهواءِ والبدعِ، ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾ حيثُ تتركون دينَ اللهِ وتتبعون غيرَه، و(قليلاً):

---

(١) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ٣١٣).

(٢) لما أُريدَ المبالغةُ في نهي المخاطب عن كونه في حرجٍ.. عُبِّرَ عن عدم كونه في حرجٍ بِعَدَمِ كونِ الحرجِ في صدرِه؛ على طريق ذكرِ اللازمِ وإرادةِ الملزوم؛ لأن الكناية أبلغ من الصريح. انظر «الإكليل» (٣/ ٢٨٢).

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝٤ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٥ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾ ....

نصبٌ بـ (تذكرون) أي: تذكرون تذكراً قليلاً، و(ما): مزيدةٌ لتوكيدِ القلةِ، ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾: شاميٌّ[1].

《٤》 ﴿وَكَم﴾: مبتدأٌ، ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾: تبيينٌ، والخبرُ: ﴿أَهْلَكْنَٰهَا﴾: أردنا إهلاكَها[2]، كقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: ٦]، ﴿فَجَآءَهَا﴾: فجاءَ أهلَها ﴿بَأْسُنَا﴾: عذابُنا ﴿بَيَٰتًا﴾: مصدرٌ واقعٌ موقعَ الحالِ؛ بمعنى: بائتين[3]؛ يقال: باتَ بَياتاً حسناً، ﴿أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝٤﴾: حالٌ معطوفةٌ على (بياتاً) كأنه قيل: فجاءهم بأسُنا بائتين، أو قائلين، وإنما قيل: (هم قائلون) بلا واوٍ، ولا يقال: جاءني زيدٌ هو فارسٌ، بغيرِ واوٍ؛ لأنه لما عُطِفَ على حالٍ قبلَها.. حُذِفَتِ الواوُ استثقالاً لاجتماعِ حَرْفَيْ عطفٍ؛ لأن واوَ الحالِ هي واوُ العطفِ استعيرت للوصلِ، وخُصَّ هذان الوقتانِ؛ لأنهما وقتا الغفلةِ، فيكون نزولُ العذابِ فيهما أشدَّ وأفظعَ، وقومُ لوطٍ عليه السلامُ أهلكوا بالليلِ وقتَ السحرِ، وقومُ شعيبٍ عليه السلام وقتَ القيلولةِ[4]، وقيل: (بياتاً): ليلاً؛ أي: ليلاً وهم نائمون، أو نهاراً وهم قائلون[5].

《٥》 ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ﴾: دعاؤُهم وتضرُّعُهم ﴿إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ﴾: لما جاءهم أوائلُ العذابِ ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٥﴾ اعترفُوا بالظلمِ على أنفسِهم والشركِ حين لم ينفعهم ذلك، و(دعواهم): اسمُ (كان)، و(أن قالوا): الخبرُ، ويجوز العكس.

《٦》 ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾: (أرسل): مسندٌ إلى (إليهم)[6] أي: فلنسألنَّ المرسلَ إليهم، وهم الأممُ عمّا أجابُوا به رسلَهم، ﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾ عمّا أجيبُوا به.

《٧》 ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم﴾: على الرسلِ والمرسَلِ إليهم ما كان منهم ﴿بِعِلْمٍ﴾: عالمين

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص١١٤).

(٢) ففي الآية مجاز مرسل، أطلق المسبب وهو الإهلاك، وأريد السبب وهو الإرادة، وإنما حُمِلَ على المجاز لأن مجيء البأس لا يكون بعد الإهلاك.

(٣) في «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٤/ ٧٥): كل من أدركه الليل فقد بات يبيت، نام أو لم ينم.

(٤) القيلولة: النوم في الظهيرة.

(٥) هذا القول الثاني يبين أن المراد من قوله: (بياتاً) أنهم نائمون في الليل؛ لأنه في مقابلة: (وهم قائلون).

(٦) فالجار والمجرور في محل رفع نائب فاعل.

وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ ....

بأحوالِهم الظاهرةِ والباطنةِ، وأقوالِهم، وأفعالِهم، ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٧﴾﴾ عنهم وعمّا وُجِدَ منهم، ومعنى السؤال: التوبيخُ والتقريعُ، والتقريرُ إذا فاهوا به بألسنتهم، وشهدَ عليهم أنبياؤُهم.

《٨》 ﴿وَالْوَزْنُ﴾ أي: وزنُ الأعمالِ، والتمييزُ بين راجحِها وخفيفِها، وهو مبتدأٌ، خبرُه: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يومَ يسألُ اللهُ الأممَ ورسلَهم، فحذفت الجملةُ، وعُوِّضَ عنها التنوينُ، ﴿الْحَقُّ﴾ أي: العدلُ: صفتُه، ثم قيل: تُوزنُ صحفُ الأعمالِ بميزانٍ له لسانٌ وكِفتانِ؛ إظهاراً للنَّصَفَةِ؛ وقطعاً للمعذرة، وقيل: هو عبارةٌ عن القضاءِ السويِّ، والحُكْمِ العادلِ، والله أعلم بكيفيتِه[1]، ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾: جمعُ ميزانٍ، أو موزونٍ؛ أي: فمن رَجَحَتْ أعمالُه الموزونةُ التي لها وزنٌ وقدرٌ وهي الحسناتُ، أو ما توزنُ به حسناتُهم ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾﴾: الفائزون.

《٩》 ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾: هم الكفارُ؛ فإنه لا إيمانَ لهم ليُعتبرَ معه عملٌ، فلا يكونُ في ميزانهم خيرٌ، فتخِفُّ موازينُهم، ﴿فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾: يجحدون، فالآياتُ: الحُجَجُ، والظلمُ بها: وضعُها في غيرِ موضعِها؛ أي: جحودُها وتركُ الانقيادِ لها.

《١٠》 ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾: جعلنا لكم فيها مكاناً وقراراً، أو ملَّكناكم فيها وأقدرناكم على التصرُّف فيها، ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾: جمعُ معيشةٍ، وهي ما يعاش به من المطاعمِ والمشاربِ وغيرِهما، والوجهُ: تصريحُ الياء؛ لأنها أصليةٌ، بخلاف صحائفَ، فالياءُ فيها زائدةٌ، وعن نافعٍ: أنه همزَ تشبيهاً بصحائفَ[2]، ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾: مثلُ (قليلاً ما تذكَّرون).

---

(١) مما ورد في إثبات الميزان: حديثُ البطاقةِ الطويلُ في «سنن الترمذي» (٢٦٣٩)، وفيه: «فتوضعُ السجلاتُ في كِفَّةٍ، والبطاقةُ في كِفَّةٍ، فطاشت السجلاتُ، وثقلت البطاقةُ، فلا يثقلُ مع اسم الله شيء».

(٢) من مواضع قلبِ الياءِ همزةً: أن تقعَ بعد ألفِ (مفاعل) وشبهِه، بشرطِ أن تكون في المفرد زائدةً، مثلُ صحيفةٍ وصحائفَ، والياءُ في: معيشةٍ: أصليةٌ، فلا تقلبُ همزةً، ومَن قلبها همزة.. فلتشبيهها بالزائدة، وقراءة ﴿معائش﴾: شاذةٌ، ولكنها مأخوذةٌ عن الفصحاء الثقات. انظر «شذا العرف» (ص ١٢٤)، و«إتحاف فضلاء البشر» (ص ٢٨٠)، و«حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي» (٤/ ١٥٢).

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ ......

«١١» ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ أي: خلقنا أباكم آدمَ طيناً غيرَ مصوَّرٍ ثم صوَّرناه بعد ذلك؛ دليلُه: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾﴾: ممن سجدَ لآدمَ عليه السلام.

«١٢» ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ (ما): رفعٌ؛ أي: أيُّ شيءٍ منعَك من السجود، و(لا): زائدةٌ؛ بدليلِ ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، ومثلُها: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ [الحديد: ٢٩] أي: ليعلمَ[١]، ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾: فيه دليلُ أن الأمرَ للوجوبِ، والسؤالُ عن المانعِ من السجودِ مع علمِه به: للتوبيخ؛ ولإظهارِ معاندتِه وكفرِه وكِبْرِه وافتخارِه بأصلِه، وتحقيرِه أصلَ آدمَ عليه السلام، ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ﴾ وهي جوهرٌ نُورانيٌّ، ﴿وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ وهو ظُلمانيٌّ، وقد أخطأ الخبيثُ، بل الطينُ أفضلُ لِرَزانتِه ووقارِه[٢]، ومنه الحلمُ والحياءُ والصبرُ، وذلك دعاه إلى التوبة والاستغفارِ، وفي النار الطَّيْشُ والحِدَّةُ والترفعُ[٣]، وذلك دعاه إلى الاستكبارِ، والترابُ عُمدةُ الممالكِ، والنارُ عُدَّةُ المهالكِ، والنارُ مَظِنَّةُ الخيانةِ والإفناءِ، والترابُ مَئِنَّةُ الأمانةِ والإنماءِ، والطينُ يطفئُ النارَ ويُتلفُها، والنارُ لا تُتلفُه، وهذه فضائلُ غَفَلَ عنها إبليسُ حتى زلَّ بفاسدِ من المقاييسِ، وقولُ نافي القياسِ: أولُ من قاسَ إبليسُ.. قياسٌ[٤]، على أن القياسَ عند مثبتِه مردودٌ عند وجودِ النصِّ، وقياسُ إبليس عنادٌ للأمر المنصوصِ، وكان الجواب لـ (ما منعك) أن يقولَ: منعني كذا، وإنما قال: أنا خيرٌ منه؛ لأنه قد استأنفَ قصةً، وأخبرَ فيها عن نفسه بالفضل على آدمَ عليه السلام، وبِعِلَّةِ فضلِه عليه، فعُلِمَ منها الجوابُ، كأنه قال: منعني

---

(١) وفائدةُ زيادتها: توكيدُ معنى الفعل الذي تدخل عليه وتحقيقُه، كأنه قيل: ليتحققَ علمُ أهلِ الكتابِ، وما منعك أن تُحققَ السجودَ وتُلزمَه نفسك؟ انظر «الكشاف» (٢/ ٨٦).

(٢) الرَّزانة: الوقار.

(٣) الطيش: الخفة.

(٤) أي: هذا القول في ردِّ القياس هو قياس، حيث قاسَ هذا القائلُ أقيسةَ الفقهاءِ على قياسِ إبليسَ، وقياسُ إبليسَ هو استعمال التعليلِ الفاسدِ لإبطالِ النصِّ، وكأنه قال: النارُ بما فيها من خاصيةِ الارتفاع والعلوِّ والنورِ أشرفُ من الطين الذي يتسمُ بالركودِ والخمودِ والذبولِ، والشريفُ لا يعظِّم مَن دونَه وإن خالفَ أمرَ ربِّهِ. ومقصودُ النسفيِّ الردُّ على من قال ذلك منكراً كلَّ قياس، لا الردُّ على من قاله وقصد ردَّ القياس الفاسد؛ ففي «تفسير الطبري» (١٢/ ٣٢٧): كان الحسن وابن سيرين يقولان: «أول مَنْ قاسَ إبليس»؛ يعنيان بذلك: القياسَ الخطأ. وانظر «التفسير المنير» للزحيلي (٨/ ١٥٥).

﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ ....﴾

من السجود فضلِي عليه، وزيادةٌ عليه وهي إنكارُ الأمرِ واستبعادُ أن يكون مثلُه مأموراً بالسجود لمثلِه؛ إذ سجودُ الفاضلِ للمفضولِ خارجٌ عن الصواب.

«١٣» ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾: من الجنةِ، أو من السماء؛ لأنه كان فيها، وهي مكان المطيعين والمتواضعين، والفاءُ في (فاهبط): جوابٌ لقولِه: (أنا خير منه) أي: إن كنتَ تتكبرُ.. فاهبطْ، ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ﴾: فما يصحُّ لك ﴿أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ وتعصيَ، ﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾: من أهلِ الصَّغارِ والهوانِ على الله، وعلى أوليائِه، يذمُّك كلُّ إنسانٍ ويلعنُك كلُّ لسان؛ لتكبرِك، وبه علمَ أن الصَّغارَ لازمٌ للاستكبارِ.

«١٤» ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾﴾: أمهِلْني إلى يوم البعثِ، وهو وقتُ النفخةِ الأخيرةِ.

«١٥» ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿١٥﴾﴾ إلى النفخةِ الأولى، وإنما أجيب إلى ذلك لما فيه من الابتلاءِ، وفيه تقريبٌ لقلوبِ الأحبابِ؛ أي: هذا بِرِّي بمن يُسيئُني، فكيف بمن يحبُّني، وإنما جَسَّرَهُ على السؤال مع وجودِ الزللِ منه في الحال علمُه بحلمِ ذي الجلالِ.

«١٦» ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾: أضْلَلْتَني؛ أي: فَبِسَبَبِ إغوائِك إيايَ، والباءُ تتعلقُ بفعلِ القسمِ المحذوفِ، تقديرُه: فبسببِ إغوائِك أقسمُ؛ أي: فأقسمُ بإغوائِك، ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾: لأعترضنَّ لهم على طريقِ الإسلامِ مترصداً للردِّ، متعرضاً للصدِّ، كما يتعرضُ العدوُّ على الطريق ليقطعَه على السابلةِ، وانتصابُه على الظرفِ، كقولك: ضُرِبَ زيدٌ الظهرَ؛ أي: على الظهرِ[1]، وعن طاووسٍ: أنه كان في المسجد الحرامِ فجاءَ رجلٌ قَدَرِيٌّ، فقال له طاووسُ: تقومُ أو تقامُ؟ فقامَ الرجلُ، فقيل له: إنه لفقيه، فقال: إبليسُ أفقهُ منه، قال: (رب بمآ أغويتني) وهو يقول: (أنا أُغوي نفسي).

«١٧» ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾: أُشَكِّكُهم في الآخرة، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾: أرغبُهم في الدنيا، ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾: من قِبَلِ الحسناتِ، ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾: من قِبَلِ السيئاتِ، وهو جمعُ: شِمالٍ؛ يعني: ثم لآتينهم من الجهاتِ الأربعِ التي يأتي منها العدوُّ في الأغلب.

---

(١) الأولى أن يعرب (الظهرَ) منصوباً بنزع الخافض؛ لأن الظرف يكون بمعنى: في، وهذا بمعنى: على الظهر.

﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾

وعن شقيقٍ: ما من صباحٍ إلا قعدَ لي الشيطانُ على أربعةِ مراصدَ؛ من بينِ يديَّ فيقول: لا تخفْ؛ فإن الله غفور رحيم، فأقرأ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [طه: ٨٢]، ومن خَلفِي فيخوفُني الضيعةَ على مُخَلَّفِي فأقرأ: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، وعن يميني فيأتيني من قِبَلِ الثناءِ فأقرأ: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، وعن شِمالي فيأتيني من قِبَلِ الشهواتِ فأقرأ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤].

ولم يقل: من فوقِهم ومن تحتِهم؛ لمكانِ الرحمةِ والسجدةِ[1]، وقال في الأولَين: (مِن)؛ لابتداءِ الغايةِ، وفي الآخَرين: (عن)؛ لأن (عن) تدلُّ على الانحرافِ[2]، ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾: مؤمنين، قالَه ظنّاً فأصابَ؛ لقولِه: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ [سبأ: ٢٠]، أو: سمعه من الملائكةِ بإخبارِ اللهِ تعالى إياهم.

«١٨» ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا﴾: من الجنةِ، أو: من السماءِ ﴿مَذْءُومًا﴾: مَعِيباً؛ مِن: ذَأَمَهُ: إذا ذَمَّهُ، والذَّأْمُ والذَّمُّ: العيبُ، ﴿مَدْحُورًا﴾: مطروداً مبعداً من رحمة الله، واللامُ في ﴿لَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾: مُوطئةٌ للقسمِ، جوابُه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ وهو سادٌّ مسدَّ جوابِ الشرطِ، ﴿مِنكُمْ﴾: منكَ ومنهم، فغُلِّبَ ضميرُ المخاطبِ، ﴿أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾.

«١٩» ﴿وَيَا آدَمُ﴾: وقلنا: يا آدمُ بعدَ إخراجِ إبليسَ من الجنة، ﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾: اتخذْها مَسْكناً، ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا﴾: فتصيرا ﴿مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾﴾.

«٢٠» ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾: وسوسَ: إذا تكلمَ كلاماً خفيّاً يُكررُه، وهو غيرُ متعدٍّ، ورجلٌ موسوِس: بكسرِ الواوِ، ولا يقال: موسوَس: بالفتح، ولكن: موسوَسٌ له، وموسوَسٌ إليه، وهو الذي يُلقى إليه الوسوسةُ، ومعنى: وَسْوَسَ له: فعلَ الوسوسةَ لأجله، ووسوس إليه: ألقاها إليه، ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا﴾: ليكشفَ لهما ما سُتِرَ عنهما من عوراتِهما؛ وفيه دليلٌ على أن كشفَ العورةِ من عظائمِ الأمورِ، وأنه لم يزلْ مستقبَحاً في الطِّباعِ والعقولِ.

(١) في «تفسير الألوسي» (٤/ ٣٣٥): لم يُذكَر الفوقُ والتحتُ؛ إذْ لا إتيانَ منهما.
(٢) فإن الآتي من جهة يمين الشخص وشماله كالمنحرف عنه المار على عَرْضه. انظر «تفسير الآلوسي» (٤/ ٣٣٦).

﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٢١ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٢٢﴾ ....

فإن قلت: ما للواو المضمومة في (ووري) لم تقلب همزة كما في: أُوَيْصِلٍ تصغيرِ واصلٍ، وأصلُه: وُوَيْصِلٌ، فقلبت الواو همزةً كراهةً لاجتماع الواوين؟

قلت: لأن الثانيةَ مدةٌ، كألفِ: وارى، فكما لم يجبْ همزُها في: واعدَ.. لم يجب في (ووري)، وهذا لأن الواوين إذا تحركتا.. ظهرَ فيهما من الثقل ما لا يكونُ فيهما إذا كانت الثانية ساكنةً، وذا مُدرَكٌ بالضرورةِ، فالتزموا إبدالَها في موضعِ الثقلِ لا في غيرِه، وقرأ عبدُ الله: ﴿أُوْرِيَ﴾: بالقلب[1]، ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ﴾: إلا كراهةَ أن تكونا ملكين، تَعلَمان الخيرَ والشرَّ، وتستغنيان عن الغذاء، وقرئ: ﴿مَلِكين﴾[2]؛ لقولِه: ﴿وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠]، ﴿أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ۝٢٠﴾: من الذين لا يموتون، ويبقَون في الجنة ساكنين.

《٢١》 ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾: وأقسمَ لهما ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٢١﴾ وأُخْرِجَ قسمُ إبليسَ على زِنَةِ (المفاعلةِ)؛ لأنه لما كان منه القسمُ ومنهما التصديقُ.. فكأنَّها من اثنين.

《٢٢》 ﴿فَدَلَّىٰهُمَا﴾: فنزَّلهما إلى الأكلِ من الشجرةِ ﴿بِغُرُورٖ﴾: بما غرَّهما به من القسمِ بالله، وإنما يُخدعُ المؤمنُ بالله، وعن ابن عمرَ رضي الله عنهما: من خَدَعَنا بالله.. انخدعنا له[3]، ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ﴾: وجدا طعمَها آخذين في الأكل منها، وهي السُّنْبُلَةُ، أو الكرمُ ﴿بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا﴾: ظهرت لهما عوراتُهما؛ لتهافُتِ اللباسِ عنهما، وكانا لا يريانِها من أنفسِهما، ولا أحدُهما من الآخرِ، وقيل: كان لباسُهما من جنسِ الأظفارِ؛ أي: كالظُّفُرِ بياضاً في غايةِ اللطفِ واللينِ، فبقيَ عندَ الأظفارِ؛ تذكيراً للنعم، وتجديداً للندم، ﴿وَطَفِقَا﴾: وجَعَلا؛ يقال: طَفِقَ يفعلُ كذا؛ أي: جعلَ، ﴿يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِ﴾: يجعلان على عورتِهما من ورقِ

---

(١) انظر «الكشاف» (٢/ ٩١).

(٢) انظر «الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها» (ص ٥٥١).

(٣) روى ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٤/ ١٦٧) عن نافع أن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كان إذا رأى من رقيقه أمراً يعجبه.. أعتقه، فكان رقيقُه قد عرفوا ذلك منه، قال نافع: فلقد رأيت بعض غِلمانِه ربَّما شمَّرَ ولزم المسجد، فإذا رآه على تلك الحال الحسنة.. أعتقه، فيقول له أصحابه: والله يا أبا عبد الرحمن ما هم إلا يخدعونك، قال: فيقول عبد الله: من خدعنا بالله.. انخدعنا له.

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ....

التينِ، أو الموزِ ورقةً فوقَ ورقةٍ؛ ليستتِرا بها، كما تُخْصَفُ النعلُ[1]، ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾: هذا عتابٌ من الله، وتنبيهٌ على الخطأ، ورويَ: أنه قال لآدمَ: ألم يكنْ لك فيما منحتُك من شجرِ الجنةِ مندوحةٌ عن هذه الشجرةِ؟ فقال: بلى، ولكن ما ظننتُ أن أحداً يحلفُ بك كاذباً، قال: فبعزتي لأهبطنَّك إلى الأرض، ثم لا تنالُ العيشَ إلا بكدِّ يمينٍ، وعرقِ جبينٍ، فأهبطَ وعلمَ صنعةَ الحديدِ، وأُمِرَ بالحرثِ، فحرثَ وسقَى وحصدَ ودرسَ وذَرى وعَجَنَ وخبزَ، ﴿وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾.

《٢٣》 ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾: فيه دليلٌ لنا على المعتزلة؛ لأن الصغائرَ عندهم مغفورةٌ.

《٢٤》 ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟﴾: الخطابُ لآدمَ وحواءَ بلفظ الجمعِ؛ لأن إبليسَ هبطَ من قبلُ، ويحتملُ أنه هبطَ إلى السماءِ، ثم هبطُوا جميعاً إلى الأرضِ، ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾: في موضعِ الحالِ؛ أي: مُتعادِينَ، يعاديهما إبليسُ ويُعادِيانِه، ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾: استقرارٌ، أو: موضعُ استقرارٍ، ﴿وَمَتَٰعٌ﴾: وانتفاعٌ بعيشٍ ﴿إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾: إلى انقضاءِ آجالِكم، وعن ثابتٍ البُنَانيِّ: لما أُهبطَ آدمُ عليه السلامُ وحضرته الوفاةُ، وأحاطت به الملائكةُ.. فجعلتْ حواءُ تدورُ حولَهم، فقال لها: خَلِّيْ ملائكةَ ربي؛ فإنما أصابَني ما أصابَني منك[2]، فلما تُوفِّيَ.. غَسَّلَتْه الملائكةُ بماءٍ وسِدرٍ وتراً، وحَنَّطَتْهُ وكفنته في وترٍ من الثيابِ، وحفرُوا له ولَحَدُوا، ودفنُوه بِسَرَنْدِيْبَ بأرضِ الهندِ، وقالوا لبنيه: هذه سُنَّتكم بعدَه.

《٢٥》 ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾: في الأرضِ، ﴿وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ للثوابِ والعقابِ، ﴿تَخْرُجُون﴾: حمزةُ، وعليٌّ[3].

---

(١) خَصْفُ النعلِ: إصلاحُها بأن توضع قطعة فوق قطعة وتخاط بها.

(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لولا بنو إسرائيل.. لم يخنز اللحم، ولولا حواء.. لم تخن أنثى زوجها» رواه البخاري (٣٣٣٠) ومسلم (١٤٧٠)، وخيانةُ حواءَ أنها ألجأت آدم إلى الأكل من الشجرة مطاوعة لعدوه إبليس، فنَزَعَ العرقُ في بناتها. انظر في «شرح السيوطي على صحيح مسلم» (٤/ ٨٠).

(٣) وكذا ابنُ ذكوان فَتْحَ التاءَ. انظر «البدور الزاهرة» (ص ١١٥) وكذا القراءة الآتية.

يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ......

《٢٦》 ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا﴾: جعلَ ما في الأرض مُنْزلاً من السماء؛ لأن أصلَه من الماء، وهو منها، ﴿يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾: يسترُ عوراتِكم، ﴿وَرِيشٗاۖ﴾: لباسَ الزينةِ، استعير من ريشِ الطيرِ؛ لأنه لباسُه وزينتُه؛ أي: أنزلْنا عليكم لباسَينِ؛ لباساً يواري سوآتِكم، ولباساً يُزيِّنكم، ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾: ولباسُ الورعِ الذي يقي العقابَ، وهو مبتدأٌ، وخبرُه: الجملةُ، وهي: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾، كأنه قيل: ولباسُ التقوى هو خيرٌ؛ لأن أسماءَ الإشارةِ تَقْرُبُ من الضمائرِ فيما يرجعُ إلى عودِ الذِّكْرِ، أو: (ذلك): صفةٌ للمبتدأِ، و(خيرٌ): خبرُ المتبدأِ، كأنه قيل: ولباسُ التقوى المشارُ إليه خيرٌ، أو: (لباس التقوى): خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ؛ أي: وهو لباسُ التقوى؛ أي: سترُ العورةِ لباسُ المتقين، ثم قال: (ذلك خير)، وقيل: ولباسُ أهلِ التقوى من الصوفِ والخشنِ، ﴿ولباسَ التقوى﴾: مدنيٌّ وشاميٌّ وعليٌّ؛ عطفاً على (لباساً) أي: وأنزلنا عليكم لباسَ التقوى، ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدالةِ على فضلِه ورحمتِه على عبادِه؛ يعني: إنزالَ اللباسِ؛ ﴿لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ فيعرفُوا عظيمَ النعمةِ فيه.

وهذه الآيةُ واردةٌ على سبيلِ الاستطرادِ عقيبَ ذكرِ بُدُوِّ السوءاتِ وخَصْفِ الوَرَقِ عليها؛ إظهاراً للمِنَّةِ فيما خلقَ من اللباس، ولما في العُرْيِ من الفضيحة؛ وإشعاراً بأن التسترَ من التقوى.

《٢٧》 ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾: لا يخدعنَّكم ولا يُضِلَّنَّكم بألا تدخلُوا الجنةَ، كما فتَنَ أبويكم؛ بأن أخرجَهما منها، ﴿يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾: حالٌ؛ أي: أخرجَهما نازعاً لباسَهما؛ بأن كان سبباً في أنْ نزعَ عنهما، والنهيُ في الظاهرِ للشيطان، وفي المعنى لبني آدمَ؛ أي: لا تتبعوا الشيطانَ فيفتنَكم، ﴿لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ﴾: عوراتِهما، ﴿إِنَّهُۥ﴾: الضميرُ للشأنِ والحديثِ[1]، ﴿يَرَىٰكُمۡ هُوَ﴾: تعليلٌ للنهي، وتحذيرٌ من فتنتِه؛ بأنه بمنزلةِ العدوِّ المداجي[2]، يكيدُكم من حيث لا تَشعرون، ﴿وَقَبِيلُهُۥ﴾: وذريتُه، أو: وجنودُه من الشياطين، وهو عطفٌ على الضميرِ في (يراكم) المؤكَّدُ بـ (هو)، ولم يُعطفْ عليه؛ لأن معمولَ

(١) ويجوز عوده على (الشيطان).

(٢) المداجي: الذي يُخفي عداوتَه.

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَٰحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَٱشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوٓا ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ ....

الفعلِ هو المستكِنُّ دون هذا البارزِ، وإنما يُعطفُ على ما هو معمولُ الفعل، ﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ قال ذو النون: إن كان هو يراك من حيث لا تراه.. فاستعنْ بمن يراهُ من حيثُ لا يراهُ، وهو اللهُ الكريمُ الستارُ الرحيمُ الغفارُ، ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾: فيه دلالةُ خلقِ الأفعالِ.

«٢٨» ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَٰحِشَةً﴾: ما يُبالَغُ في قبحه من الذنوب، وهو طوافُهم بالبيت عُراةً أو شِركُهم، ﴿قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ أي: إذا فعلُوها.. اعتذرُوا بأن آباءَهم كانوا يفعلُونها، فاقتدَوا بهم، وبأن اللهَ أمرهم بأن يفعلُوها، حيثُ أقرَّنا عليها؛ إذْ لو كَرِهَها.. لنقَلَنا عنها، وهما باطلان؛ لأن أحدَهما تقليدٌ للجهّال، والثاني افتراءٌ على ذي الجلال، ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾؛ إذ المأمورُ به لا بدَّ أن يكون حسناً وإن كان فيه على مراتب، على ما عُرِفَ في أصول الفقه، ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾: استفهامُ إنكارٍ وتوبيخٍ.

«٢٩» ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ﴾: بالعدلِ، وبما هو حسنٌ عندَ كلِّ عاقلٍ، فكيف يأمر بالفحشاء! ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾: وقل أقيمُوا وجوهَكم؛ أي: اقصُدُوا عبادتَه مستقيمين إليها غيرَ عادلين إلى غيرها في كلِّ وقتِ سجودٍ، أو: في كلِّ مكانِ سجودٍ، ﴿وَٱدْعُوهُ﴾: واعبدُوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: الطاعةَ مبتغين بها وجهَهُ خالصاً، ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾: كما أنشأكم ابتداءً.. يُعيدُكم، احتجَّ عليهم في إنكارِهم الإعادةَ بابتداءِ الخلقِ؛ والمعنى: أنه يُعيدُكم فيجازيكم على أعمالكم، فأخلصُوا له العبادةَ.

«٣٠» ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾: وهم المسلمون، ﴿وَفَرِيقًا﴾ أي: أضلَّ فريقاً ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾: وهم الكافرون، ﴿إِنَّهُمُ﴾: إن الفريقَ الذين حقَّ عليهم الضلالةُ ﴿ٱتَّخَذُوا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: أنصاراً، ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ والآيةُ حجةٌ لنا على الاعتزالِ في الهدايةِ والإضلالِ.

«٣١» ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾: لباسَ زينتِكم ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾: كلَّما صلَّيتم، وقيل: الزينةُ: المُشطُ والطيبُ، والسنةُ أن يأخذَ الرجلُ أحسنَ هيئاتِه للصلاةِ؛ لأن الصلاةَ مناجاةُ

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ ....

الربِّ، فيستحبُّ لها التزينُ والتعطرُ كما يَجِبُ التسترُ والتطهرُ، ﴿وَكُلُوا۟﴾ من اللحمِ والدسمِ، ﴿وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ۚ﴾ بالشروع في الحرامِ، أو: في مجاوزةِ الشبعِ، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: كلْ ما شئتَ، والبَسْ ما شئتَ ما أخطأتْكَ خصلتان: سَرَفٌ ومَخِيلَةٌ، وكان للرشيدِ طبيبٌ نصرانيٌّ حاذقٌ، فقال لعليِّ بنِ الحسين بنِ واقدٍ: ليس في كتابِكم من علم الطبِّ شيءٌ، والعلمُ علمان: علمُ الأبدانِ وعلمُ الأديان، فقال له عليٌّ: قد جمعَ اللهُ الطبَّ كلَّه في نصف آيةٍ من كتابِه، وهو قولُه: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ۚ﴾، فقال النصرانيُّ: ولم يُروَ مِن رسولِكم شيءٌ في الطبِّ، فقال: قد جمع رسولُنا الطبَّ في ألفاظٍ يسيرةٍ، وهي قولُه عليه السلام: «المعدةُ بيتُ الداءِ، والحِمْيةُ رأسُ كلِّ دواءٍ، وأعطِ كلَّ بدنٍ ما عودتَه»[1]، فقال النصراني: ما ترك كتابُكم ولا نبيُّكم لجالِيْنُوسَ طِبّاً.

《٣٢》 ثم استفهم إنكاراً على محرِّم الحلال بقوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ من الثيابِ وكلِّ ما يُتجملُ به، ﴿ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ أي: أصلَها؛ يعني: القُطنَ من الأرضِ، والقزَّ من الدودِ، ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ﴾: والمستلذاتِ من المآكلِ والمشاربِ، وقيل: كانوا إذا أحرمُوا.. حرَّمُوا الشاةَ وما يخرجُ منها؛ من لحمِها وشحمِها ولبنِها، ﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ غيرَ خالصةٍ لهم؛ لأن المشركين شركاؤُهم فيها، ﴿خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ﴾: لا يَشْرَكُهم فيها أحدٌ، ولم يقلْ: للذين آمنوا ولغيرِهم؛ لِينبهَ على أنها خُلقت للذين آمنوا على طريقِ الأصالةِ، والكفارُ تبعٌ لهم، ﴿خالصةٌ﴾: بالرفع: نافعٌ، فـ(هي): مبتدأٌ، خبرُه: (للذين آمنوا)، و(في الحياة الدينا): ظرفٌ للخبر، و(خالصةٌ): خبرٌ ثانٍ، أو: خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ؛ أي: هي خالصةٌ، وغيرُه: نصبها[2] على الحالِ من الضميرِ الذي في الظرفِ، الذي هو الخبرُ؛ أي: هي ثابتةٌ للذين آمنوا في الحياة الدنيا في حالِ خُلوصِها يومَ القيامةِ، ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾: نميزُ الحلالَ من الحرام، ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ أنه لا شريكَ له.

《٣٣》 ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ﴾ ﴿ربيْ﴾: حمزةُ، ﴿ٱلْفَوَٰحِشَ﴾: ما تفاحشَ قبحُه؛ أي: تزايدَ،

---

(١) ذكره السخاوي في «المقاصد الحسنة» (ص ٦١١) دون الجملة الأخيرة وقال: لا يصح رفعه إلى النبي ﷺ.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١١٦) وكذا القراءات الثلاث الآتية.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ ....

﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾: سِرُّها وعلانيتُها، ﴿وَالْإِثْمَ﴾ أي: شربَ الخمرِ، أو: كلَّ ذنبٍ، ﴿وَالْبَغْيَ﴾: والظلمَ والكبرَ ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾: متعلقٌ بالبغيِ، ومحلُّ: ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾: حجةً: النصبُ، كأنه قال: حرم الفواحشَ وحرم الشركَ، ﴿يُنْزِلْ﴾: بالتخفيفِ: مكيٌّ وبصريٌّ، وفيه تهكُّمٌ؛ إذْ لا يجوزُ أن يُنزلَ برهاناً على أن يُشرَكَ به غيرُه، ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾: وأن تتقولُوا عليه وتفتروا الكذبَ من التحريم وغيره.

《٣٤》 ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾: وقتٌ معينٌ يأتيهم فيه عذابُ الاستئصالِ إن لم يؤمنوا، وهو وعيدٌ لأهلِ مكةَ بالعذابِ النازلِ في أجلٍ معلومٍ عند الله، كما نزلَ بالأممِ، ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ قيّدَ بساعةٍ؛ لأنها أقلُّ ما يُستعمل في الإمهال.

《٣٥》 ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾: هي (إن) الشرطيةُ، ضُمَّتْ إليها (ما) مؤكدةً لمعنى الشرط؛ لأن (ما) للشرط، ولذا لَزِمَتْ فعلَها النونُ الثقيلةُ أو الخفيفةُ، ﴿رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾: يقرؤُون عليكم كُتُبِي، وهو في موضعِ رفعٍ صفةٌ لـ (رسلٌ)، وجوابُ الشرط: ﴿فَمَنِ اتَّقَى﴾ الشركَ، ﴿وَأَصْلَحَ﴾ العملَ منكم ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أصلاً.

《٣٦》 ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا﴾ منكم ﴿بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾: تعظَّموا عن الإيمانِ بها ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

《٣٧》 ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾: فمن أشنعُ ظلماً ﴿مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾: ممن تقوَّلَ على الله ما لم يقلْه، أو كذَّبَ ما قالَه، ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾: ما كتبَ لهم من الأرزاقِ والأعمارِ، ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾: ملكُ الموتِ وأعوانُه، و(حتى): غايةٌ لنيلِهم نصيبَهم، واستيفائِهم له، وهي: حتى التي يبتدأُ بعدَها الكلامُ، والكلامُ هنا: الجملةُ الشرطيةُ، وهي: (إذا جاءتهم رسلنا) ﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾: يقبضُون أرواحَهم، وهو: حالٌ من الرسل؛ أي: مُتَوَفِّيهِمْ، و(ما) في ﴿قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ﴾ موصولةٌ بـ (أين) في خطِّ المصحفِ، وحقُّها

﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ ....﴾

أن تكتبَ مفصولةً؛ لأنها موصولةٌ[1]؛ والمعنى: أين الآلهةُ الذين تعبدون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ لِيذُبُّوا عنكم؟ ﴿قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾: غابُوا عنا فلا نراهم، ﴿وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾: اعترفُوا بكفرِهم بلفظِ الشهادةِ التي هي لتحقيقِ الخبرِ.

«٣٨» ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟﴾ أي: يقولُ الله تعالى يوم القيامة لهؤلاء الكفارِ: ادخلوا ﴿فِىٓ أُمَمٍ﴾: في موضعِ الحالِ؛ أي: كائنين في جملةِ أممٍ مصاحبين لهم، ﴿قَدْ خَلَتْ﴾: مضت ﴿مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾: من كفارِ الجنِّ والإنسِ، ﴿فِى ٱلنَّارِ﴾: متعلقٌ بـ (ادخلوا) ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ﴾ النار ﴿لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾: شَكْلَها في الدين؛ أي: التي ضلت بالاقتداء بها، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا﴾ أصلُه: تداركُوا؛ أي: تلاحقُوا واجتمعوا في النار، فأُبدلتِ التاءُ دالاً، وسُكِّنَتْ للإدغامِ، ثم أدخلت همزةُ الوصل، ﴿جَمِيعًا﴾: حالٌ، ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ﴾ مَنْزِلَةً، وهي الأتباعُ والسفلةُ لـ ﴿لِأُولَىٰهُمْ﴾ منْزلةً، وهي: القادةُ والرؤوسُ؛ ومعنى (لأُولاهم): لِأجلِ أُولاهم؛ لأن خطابَهم مع الله، لا معَهم: ﴿رَبَّنَا﴾: يا ربَّنا ﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا﴾: مضاعفاً ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾: للقادةِ بالغَوايةِ والإغواءِ، وللأتباعِ بالكفرِ والاقتداءِ، ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ ما لكلِّ فريقٍ منكم من العذاب، ﴿لا يعلمون﴾: أبو بكرٍ[2]؛ أي: لا يعلمُ كلُّ فريقٍ مقدارَ عذابِ الفريقِ الآخرِ.

«٣٩» ﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ عطفُوا هذا الكلامَ على قولِ الله تعالى للسَّفَلَةِ: (لكلٍّ ضِعْفٌ) أي: فقد ثبتَ أنْ لا فضلَ لكم علينا، وأنا متساوون في استحقاقِ الضِّعْفِ، ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾: بكسبِكم وكفرِكم، وهو من قولِ القادةِ للسَّفَلَةِ، ولا وقفَ على (فضل)، أو: من قولِ اللهِ لهم جميعاً، والوقفُ على (فضل).

«٤٠» ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: لا يؤذن لهم

---

(١) الصواب أنها في خط المصحف مفصولة بالاتفاق. انظر «النشر في القراءات العشر» (٢/١٤٨)، و«نهاية القول المفيد في علم التجويد» للشيخ محمد مكي نصر. (٢٥٤).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص١١٦) وكذا القراءة الآتية.

﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ ....

في صعودِ السماءِ لِيدخلوا الجنة؛ إذْ هي في السماء، أو: لا تصعدُ أرواحُهم إذا ماتُوا كما تصعدُ أرواحُ المؤمنين إلى السماءِ، أو: لا يصعدُ لهم عملٌ صالحٌ، ولا تنزلُ عليهم البركةُ، وبالتاءِ مع التخفيف: أبو عمرٍو، وبالياء معه: حمزةُ وعليٌّ، ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾: حتى يدخلَ البعيرُ في ثَقْبِ الإبرةِ؛ أي: لا يدخلون الجنةَ أبداً؛ لأنه علَّقَه بما لا يكون، والخِياطُ والمخيطُ: ما يخاطُ به، وهو الإبرةُ، ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: ومثلَ ذلك الجزاءِ الفظيعِ الذي وصفنا ﴿نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ أي: الكافرين؛ بدلالةِ التكذيبِ بآياتِ اللهِ والاستكبارِ عنها.

«٤١» ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾: فراشٌ، ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾: أغطيةٌ: جمعُ غاشيةٍ، ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ أنفسَهم بالكفر.

«٤٢» ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾: طاقتَها، والتكليفُ: إلزامُ ما فيه كُلفةٌ؛ أي: مشقةٌ، ﴿أُولَٰئِكَ﴾: مبتدأٌ، والخبرُ: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾، والجملةُ: خبر (الذين)، و(لا نكلف نفساً إلا وُسعَها): اعتراضٌ بين المبتدأِ والخبرِ، ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

«٤٣» ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾: حقدٍ كان بينهم في الدنيا، فلم يبقَ بينهم إلا التوادُّ والتعاطفُ، وعن عليٍّ رضي اللهُ عنه: إني لأرجو أن أكون أنا وعثمانُ وطلحةُ والزبيرُ منهم[1]، ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾: حالٌ من (هم) في (صدورهم)، والعامل فيها: معنى الإضافة[2]، ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا﴾: لما هو وسيلةٌ إلى هذا الفوز العظيمِ وهو الإيمان، ﴿وَمَا كُنَّا﴾ ﴿ما كنا﴾: بغير واوٍ: شاميٌّ[3]؛ على أنها جملةٌ موضِّحة للأولى[4]، ﴿لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾: اللامُ لتوكيدِ النفيِ؛ أي: وما كان يصحُّ أن نكون مهتدين لولا هدايةُ اللهِ، وجوابُ

---

(١) رواه الإمام أحمد في «فضائل الصحابة» (٢/ ٦١٨).

(٢) تقدير الآية: ونزعنا ما يكون في صدورهم، فالأولى أن يكون العامل في الحال هو (يكون) المقدر، وهو العامل في محل المجرور المضاف إلى صاحب الحال. انظر «الدر المصون» (٥/ ٣٢٤).

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١١٧).

(٤) فبين الجملتين كمال الاتصال فيمتنع العطف. انظر «الإكليل» (٣/ ٤٠١).

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

(لولا): محذوفٌ دلَّ عليه ما قبله، ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ فكان لطفاً لنا؛ وتنبيهاً على الاهتداء فاهتدينا، يقولون ذلك سروراً بما نالوا؛ وإظهاراً لما اعتقدوا، ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ﴾ (أنْ): مخففةٌ من الثقيلة، واسمها محذوف، والجملةُ بعدها: خبرُها، تقديرُه: ونودُوا بأنّه تلكم الجنة، والهاءُ: ضميرُ الشأن، أو: بمعنى: أيْ، كأنه قيل: وقيل لهم: تلكمُ الجنةُ ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾: أعطيتُموها، وهو حالٌ من الجنة، والعاملُ فيها: ما في (تلك) من معنى الإشارةِ، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ سماها ميراثاً؛ لأنها لا تُستَحَقُّ بالعمل، بل هي محضُ فضلِ اللهِ وَعْدُهُ على الطاعاتِ، كالميراثِ من الميتِ ليس بعوضٍ عن شيءٍ، بل هو صلةٌ خالصةٌ، وقال الشيخ أبو منصورٍ رحمه الله: إن المعتزلةَ خالفُوا اللهَ فيما أخبرَ، ونوحاً عليه السلام، وأهلَ الجنةِ والنارِ، وإبليسَ؛ لأنه قال الله تعالى: ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [المدثر: ٣١]، وقال نوحٌ عليه السلام: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤]، وقال أهلُ الجنةِ: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾، وقال أهلُ النارِ: ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ [ابراهيم: ٢١] وقال إبليس: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾[1].

«٤٤» ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا﴾ (أنْ): مخففةٌ من الثقيلة، أو: مفسِّرةٌ، وكذلك: ﴿أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾، ﴿مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا﴾ من الثوابِ ﴿حَقًّا﴾: حالٌ، ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ﴾ من العذابِ ﴿حَقًّا﴾ وتقديرُه: وعدكم ربُّكم، فحذف: كم؛ لدلالةِ (وعدنا ربنا) عليه، وإنما قالوا لهم ذلك؛ شماتةً بأصحابِ النارِ؛ واعترافاً بنعمِ اللهِ تعالى، ﴿قَالُوا۟ نَعَمْ﴾ وبكسرِ العينِ حيث كان: عليٌّ[2]، ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ﴾: نادى منادٍ، وهو مَلَكٌ يُسمِعُ أهلَ الجنةِ والنارِ ﴿أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ ﴿أنَّ لعنةَ الله﴾: مكيٌّ وشاميٌّ وحمزةُ وعليٌّ.

«٤٥» ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ﴾: يمنعون ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: دينِه، ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾: مفعولٌ ثانٍ لـ: يبغون؛ أي: ويطلبون لها الاعوجاجَ والتناقضَ، ﴿وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾: بالدار الآخرةِ ﴿كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

---

(١) انظر «تأويلات أهل السنة» (٢/ ٢٣٢).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١١٧) وكذا القراءة الآتية.

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ ۚ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ ....﴾

《٤٦》 ﴿وَبَيْنَهُمَا﴾: وبين الجنةِ والنارِ، أو: بين الفريقين ﴿حِجَابٌ﴾: وهو السورُ المذكورُ في قوله: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾ [الحديد: ١٣]، ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ﴾: وعلى أعرافِ الحجابِ، وهو السورُ المضروبُ بين الجنةِ والنارِ، وهي: أعاليه، جمعُ عُرْفٍ، استعيرَ مِن عُرْفِ الفرسِ، وعُرفِ الديكِ، ﴿رِجَالٌ﴾ من أفاضلِ المسلمين، أو: من آخرِهم دخولاً في الجنة؛ لاستواءِ حسناتِهم وسيآتِهم، أو: مَن لم يرضَ عنه أحدُ أبويه، أو: أطفالُ المشركين، ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا﴾ من زمرةِ السعداءِ والأشقياءِ ﴿بِسِيمَاهُمْ﴾: بعلامتِهم، قيل: سيما المؤمنين: بياضُ الوجوهِ ونضارتُها، وسيما الكافرين: سوادُ الوجوهِ وزُرقةُ العيونِ، ﴿وَنَادَوْا﴾ أي: أصحابُ الأعرافِ ﴿أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾: أنه سلامٌ، أو: أيْ سلامٌ، وهو تهنئةٌ منهم لأهلِ الجنةِ، ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾ أي: أصحابُ الأعرافِ، ولا محلَّ له؛ لأنه استئنافٌ، كأن سائلاً سأل عن أصحابِ الأعرافِ فقيل: (لم يدخلوها) ﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ في دخولها، أو: له محلٌ، وهو صفةٌ لـ (رجالٌ).

《٤٧》 ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ﴾: أبصارُ أصحابِ الأعرافِ، وفيه أن صارفاً يصرفُ أبصارَهم؛ لينظروا فيستعيذوا، ﴿تِلْقَاءَ﴾: ظرفٌ؛ أي: ناحيةَ ﴿أَصْحَابِ النَّارِ﴾ ورأوا ما هم فيه من العذاب ﴿قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ فاستعاذُوا بالله، وفزِعُوا إلى رحمتِه ألا يجعلَهم معَهم.

《٤٨》 ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا﴾ من رؤوسِ الكفرةِ ﴿يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ المالَ، أو: كثرتُكم واجتماعُكم، و(ما): نافيةٌ، ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾: واستكبارُكم على الحقِّ، وعلى الناس.

《٤٩》 ثم يقولون لهم: ﴿أَهَٰؤُلَاءِ﴾: مبتدأٌ، ﴿الَّذِينَ﴾: خبرُ مبتدإٍ مضمرٍ، تقديرُه: أهؤلاءِ هم الذين[١]، ﴿أَقْسَمْتُمْ﴾: حلفتم في الدنيا، والمشارُ إليهم فقراءُ المؤمنين، كصهيبٍ وسلمانَ ونحوِهما، ﴿لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾: جوابُ (أقسمتم)، وهو داخلٌ في صلةِ (الذين)، تقديرُه: أقسمتم عليهم بألا ينالَهم الله برحمةٍ؛ أي: لا يدخلُهم الجنةَ، يحتقرونَهم لفقرِهم، فيقالُ

---

(١) الأولى أن يجعل (الذين) خبراً لاسم الإشارة؛ إذ لا ضرورة لتقدير مبتدأ.

وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ....

لأصحابِ الأعرافِ: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ وذلك بعد أن نظرُوا إلى الفريقين، وعَرَفوهم بسيماهم، وقالُوا ما قالُوا، ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

«٥٠» ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾ (أن): مفسرةٌ؛ وفيه دليلٌ على أن الجنةَ فوقَ النارِ، ﴿أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ من غيرِه من الأشربةِ؛ لدخولِه في حكمِ الإفاضةِ، أو: أريدَ: أو ألقُوا علينا مما رزقكم الله من الطعامِ والفاكهةِ[1]، كقولك:[2] [من: الرجز]

علفتُها تبناً وماءً بارداً ....

أي: وسقيتُها، وإنما سألوا ذلك مع يأسِهم عن الإجابةِ؛ لأن المتحيرَ ينطقُ بما يفيدُ، وبما لا يفيدُ، ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾ هو تحريمُ منعٍ، كما في: ﴿وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ﴾ [القصص: ١٢]، وتقفُ هنا إن رفعتَ أو نصبتَ ما بعدَه ذمّاً، وإن جررتَه وصفاً للكافرين.. فلا.

«٥١» ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا﴾ فحرمُوا وأحلُّوا ماشاؤوا، أو: دينُهم: عيدُهم، ﴿وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾: اغترُّوا بطولِ البقاءِ، ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ﴾: نتركُهم في العذاب ﴿كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾ أي: كنسيانِهم وجحودِهم.

«٥٢» ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ﴾: ميَّزْنا حلالَه وحرامَه ومواعظَه وقِصَصَه، ﴿عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾: عالمين بكيفيةِ تفصيلِ أحكامِه، ﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٗ﴾: حالٌ من منصوبِ (فصلناه)، كما أنَّ (على علم): حالٌ من مرفوعه، ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

---

(١) أي: أن (مما رزقكم) إن قصد به الشراب.. فيعطف على (الماء) بلا تقدير؛ لأنه يقال: أفضت الشراب، وإن كان المراد بقوله: (مما رزقكم) الطعام.. فيقدر فعلُ (ألقوا) ونحوه؛ لأنه لا يقال: أفضت الطعام.

(٢) هذا صدر بيت، وتتمته:

حتى شتتْ همّالةً عيناها.

انظر «شرح كتاب سيبويه» للسيرافي (١/ ٧٠).

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ ....

《٥٣》 ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾: ينتظرون ﴿إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾: إلا عاقبةَ أمرِه وما يؤولُ إليه من تبيينِ صدقِه، وظهورِ صحةِ ما نطقَ به من الوعدِ والوعيدِ، ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾: تركوه وأعرضوا عنه: ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: تَبيَّنَ وصحَّ أنهم جاؤوا بالحقِّ، فأقرُّوا حين لا ينفعُهم، ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ﴾: جوابُ الاستفهامِ، ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾: جملةٌ معطوفةٌ على جملةٍ قبلَها، داخلةٌ معها في حكمِ الاستفهامِ، كأنه قيل: فهل لنا من شفعاءَ، أو هل نردُّ؟ ورافعُه: وقوعُه موقعاً يصلحُ للاسمِ، كقولِك ابتداءً: هل يضربُ زيدٌ؟ أو: عطفٌ على تقديرِ: هل يشفعُ لنا شافعٌ، أو هل نُردُّ ﴿فَنَعْمَلَ﴾: جوابُ الاستفهامِ أيضاً، ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾: ما كانوا يعبدونَه من الأصنامِ.

《٥٤》 ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أرادَ السمواتِ والأرضَ وما بينهما، وقد فصَّلَها في (حم السجدة) أي: من الأحدِ إلى الجمعةِ؛ لاعتبارِ الملائكةِ شيئاً فشيئاً؛ وللإعلام بالتأني في الأمورِ؛ وأن لكلِّ عملٍ يوماً؛ ولأن إنشاءَ شيءٍ بعدَ شيءٍ أدلُّ على عالِمٍ مدبرٍ يُصرِّفُه على اختيارِه، ويُجريه على مشيئتِه، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ﴾: استولى ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾: أضافَ الاستيلاءَ إلى العرشِ وإن كان سبحانه مستولياً على جميعِ المخلوقاتِ؛ لأن العرشَ أعظمُها وأعلاها، وتفسيرُ العرشِ بالسريرِ، والاستواءِ بالاستقرارِ كما تقوله المُشبهةُ.. باطلٌ؛ لأنه تعالى كان قبلَ العرشِ ولا مكانَ، وهو الآنَ كما كان؛ لأن التغيُّرَ من صفاتِ الأكوانِ، والمنقولُ عن الصادقِ والحسنِ وأبي حنيفةَ ومالكٍ رضي الله عنهم: أن الاستواءَ معلومٌ، والتكييفَ فيه مجهولٌ، والإيمانَ به واجبٌ، والجحودَ له كفرٌ، والسؤالَ عنه بدعةٌ[1]، ﴿يُغْشِى

---

(١) روى البيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/ ٣٠٥) عن يحيى بن يحيى، يقول: كنا عند مالك بن أنس فجاء رجل فقال: يا أبا عبد الله، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] فكيف استوى؟ قال: فأطرق مالك برأسه حتى علاه الرُّحَضاءُ ثم قال: الاستواءُ غير مجهول، والكيفُ غير معقول، والإيمانُ به واجبٌ، والسؤالُ عنه بدعةٌ، وما أراك إلا مبتدعاً، فأمر به أن يخرج. وانظر «القول التمام في إثبات التفويض مذهباً للسلف الكرام» (ص٢٨٧) للدكتور سيف بن علي العصري، فقد شرح هذه العبارة شرحاً وافياً.

﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ ....

﴿ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ ﴿يُغَشِّي﴾: حمزةُ وعليٌّ وأبو بكرٍ[1]؛ أي: يُلحقُ الليلَ بالنهار، والنهارَ بالليل ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾: حالٌ من الليلِ؛ أي: سريعاً، والطالبُ هو الليل، كأنه لسرعة مُضيِّهِ يطلبُ النهارَ، ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ﴾ أي: وخلق الشمسَ والقمرَ والنجومَ ﴿مُسَخَّرَٰتٍ﴾: حالٌ؛ أي: مذللاتٍ، ﴿والشمس والقمر والنجوم مسخرات﴾: شاميٌّ، (الشمسُ): مبتدأٌ، والبقيةُ معطوفةٌ عليها، والخبرُ: (مسخراتٌ) ﴿بِأَمْرِهِۦٓ﴾: هو أمرُ تكوينٍ، ولما ذكرَ أنه خلقَهن مسخراتٍ بأمرِه.. قال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ أي: هو الذي خلقَ الأشياءَ، وله الأمرُ، ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾: كَثُرَ خيرُه، أو: دامَ بِرُّهُ؛ من البَرَكَةِ: النماءِ، أو: من البُرُوكِ الثباتِ، ومنه: البِرْكَةُ[2]، ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

«٥٥» ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾: نصبٌ على الحالِ؛ أي: ذوي تَضرعٍ وخِفْيَةٍ، والتضرُّعُ: (تَفَعُّلٌ) من الضراعةِ، وهي الذُّلُّ؛ أي: تذللاً وتَمَلُّقاً، قال عليه السلام: «إنكم لا تدعونَ أصمَّ ولا غائباً، إنما تدعون سميعاً قريباً، إنه معكم أينما كنتم»[3]، عن الحسن رضي الله عنه: بين دعوةِ السرِّ والعلانيةِ سبعون ضعفاً، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾: المجاوزين ما أمرُوا به في كلِّ شيءٍ من الدعاء وغيرِه، وعن ابن جريج: الرافعين أصواتهم بالدعاء، وعنه: الصياح في الدعاء مكروه وبدعة، وقيل: هو الإسهاب في الدعاء، وعن النبي ﷺ: «سيكون قومٌ يعتدون في الدعاء، وحسبُ المرءِ أن يقول: اللهم إني أسألك الجنةَ وما قرَّبَ إليها من قولٍ وعملٍ، وأعوذ بك من النار وما قرَّبَ إليها من قولٍ وعملٍ»، ثم قرأ: «إنه لا يحب المعتدين»[4].

«٥٦» ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ أي: بالمعصية بعدَ الطاعةِ، أو: بالشركِ

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١١٨) وكذا القراءة الآتية.

(٢) البِرْكَةُ: حوض الماء.

(٣) روى نحوه البخاري (٤٢٠٥) ومسلم (٢٧٠٤) عن سيدنا أبي موسى رضي الله عنه.

(٤) روى أبو يعلى في «المسند» (٢/ ٧١) عن مولى لسعد أن سعداً رأى ابناً له يصلي وهو يدعو... فلما قضى صلاته.. قال له سعد: لقد سألتَ نعيماً طويلاً، وتعوذتَ من شرٍّ طويل، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه سيكون قوم يعتدون في الدعاء» وقرأ سعدٌ: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ قال: فلا أدري عن النبي ﷺ رفعه أم من قول سعد: وإنه بحسبك أن تقول: أسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ....﴾

بعدَ التوحيدِ، أو: بالظلمِ بعدَ العدلِ، ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾: حالان؛ أي: خائفين من الردِّ طامعين في الإجابةِ، أو: من النيران وفي الجنان، أو: من الفراقِ وفي التلاق، أو: من غيبِ العاقبةِ وفي ظاهرِ الهدايةِ، أو: من العدل وفي الفضلِ، ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ ذُكِّرَ (قريب) على تأويلِ الرحمةِ بالرُّحْم أو الترحم، أو: لأنه صفةُ موصوفٍ محذوفٍ؛ أي: شيءٌ قريبٌ، أو: على تشبيهِهِ بـ(فعيل) الذي هو بمعنى مفعول[1]، أو: للإضافة إلى المذكر[2].

﴿٥٧﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ ﴿الريح﴾: مكيٌّ وحمزةُ وعليٌّ[3]، ﴿نَشْراً﴾: حمزةُ وعليٌّ؛ مصدرُ: نَشَرَ، وانتصابُه: إما لأن: أرسلَ ونَشَرَ متقاربان، فكأنه قيل: نَشَرَها نَشْراً، وإما على الحال؛ أي: منشوراتٍ، ﴿بُشْرًا﴾: عاصمٌ؛ تخفيفُ بُشُراً جَمْعُ بَشِيرٍ؛ لأن الرياح تُبَشِّرُ بالمطر، ﴿نُشْراً﴾: شاميٌّ؛ تخفيفُ نُشُرٍ، كَرُسْلٍ ورُسُلٍ، وهو قراءةُ الباقين[4]، جمعُ نَشُورٍ؛ أي: ناشرةٌ للمطر، ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾: أمامَ نعمتِه، وهو الغيث الذي هو من أجلِّ النعمِ، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ﴾: تحمّلت ورَفعت، واشتقاقُ الإقلالِ: من القِلَّةِ؛ لأن الرافعَ المطيقَ يرى ما يرفعُه قليلاً، ﴿سَحَابًا ثِقَالًا﴾ بالماءِ، جمعُ سحابةٍ، ﴿سُقْنَٰهُ﴾ الضميرُ للسحابِ على اللفظِ، ولو حُمِلَ على المعنى كالثِّقالِ.. لَأُنِّثَ، كما لو حُمِلَ الوصفُ على اللفظ.. لقيلَ: ثقيلاً[5]، ﴿لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾: لأجلِ بلدٍ ليس فيه مطرٌ ولسقيه، ﴿مَيِّتٍ﴾: مدنيٌّ وحمزةُ وعليٌّ وحفصٌ[6]، ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ﴾: بالسحابِ، أو: بالسَّوْقِ، وكذلك ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ﴾: مثلَ ذلك

---

(١) إذا كان (فعيل) بمعنى مفعول.. يستوي فيه المذكر والمؤنث، نحو: جريح.

(٢) المضاف يكتسب التذكير من المضاف إليه بشرط صحة الاستغناء بالمضاف إليه عن المضاف. انظر «أوضح المسالك» (٣/ ٨٦).

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١١٨) وكذا القراءة الآتية.

(٤) أي: ﴿نُشُراً﴾.

(٥) السحابُ: اسمُ جمعٍ لسحابةٍ؛ فلذلك جاز اعتبار التذكير فيه؛ لتجرد لفظِه عن علامة التأنيث، ولذا قيل: (سقناه)، وجاز اعتبار التأنيث فيه؛ لكونه في معنى الجمع، ولذا قيل: (ثقالاً) جمعُ ثقيلةٍ، وكلُّ جمعٍ مؤنثٌ إلا جمعَ المذكر السالم. انظر «التحرير والتنوير» (٨/ ١٨٢)، وكذلك لفظ السحاب مفرد، ومعناه الجمع، فَرُوعِيَ الجمعُ في (ثقالاً)، والإفرادُ في (سقناه).

(٦) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١١٨).

وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ ....

الإخراجِ، وهو إخراجُ الثمراتِ ﴿نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ فيؤدِّيكُم التذكرُ إلى الإيمان بالبعث؛ إذ لا فرقَ بين الإخراجين؛ لأن كلَّ واحدٍ منهما إعادةٌ للشيءِ بعد إنشائِه.

«٥٨» ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾: الأرضُ الطيِّبةُ الترابِ ﴿يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾: بتيسيرِه، وهو موضعُ الحالِ، كأنه قيل: يخرجُ نباتُه حسناً وافياً؛ لأنه واقعٌ في مقابلةِ (نَكِداً) ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾: صفةٌ للبلد؛ أي: والبلدُ الخبيثُ ﴿لَا يَخْرُجُ﴾ أي: نباتُه، فحذفَ للاكتفاء[1]، ﴿إِلَّا نَكِدًا﴾ هو: الذي لا خيرَ فيه، وهذا مثلٌ لمن يَنْجَعُ فيه الوعظُ وهو المؤمنُ، ولمن لا يؤثرُ فيه شيءٌ من ذلك، وهو الكافر، وهذا التمثيل واقعٌ على أَثَرِ ذكر المطرِ وإنزالِه بالبلدِ الميتِ، وإخراجِ الثمراتِ به، على طريقِ الاستطرادِ، ﴿كَذَٰلِكَ﴾: مثلَ ذلك التصرفِ ﴿نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾: نردِّدُها ونكرِّرُها ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ نعمة الله، وهم المؤمنون؛ ليتفكرُوا فيها، ويعتبرُوا بها.

«٥٩» ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾: جوابُ قسمٍ محذوفٍ؛ أي: والله لقد أرسلنا ﴿نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ أُرسلَ وهو ابنُ خمسين سنةً، وكان نجّاراً، وهو نوحُ بنُ لَمَكَ بنِ مَتُّوشَلَخَ بنِ أَخنُوخَ، وهو اسمُ إدريسَ عليه السلامُ ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ ﴿غيرِه﴾: عليٌّ[2]، فالرفعُ على المحلِّ، كأنه قيل: ما لكم إلهٌ غيرُه فلا تعبدوا معه غيرَه، والجرُّ على اللفظ، ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾ أي: يومِ القيامةِ، أو: يومِ نزولِ العذابِ عليهم، وهو الطُّوفان.

«٦٠» ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ أي: الأشرافُ والسادةُ ﴿مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾ في ذهابٍ عن طريقِ الصوابِ، والرؤيةُ: رؤيةُ القلبِ.

«٦١» ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ﴾ ولم يقل: ضلالٌ كما قالوا؛ لأن الضلالةَ أخصُّ من الضلال، فكانت أبلغَ في نفيِ الضلالِ عن نفسه، كأنه قال: ليس بي شيءٌ من الضلال[3]، ثم

---

(١) أي: أن الفاعل محذوف وليس ضميراً مستتراً؛ لأن جعله ضميراً مستتراً يعني عودَه إلى (نباته) المذكور مع الطيب، وهذا لا يصح، لأن نبات الطيب غير نبات الخبيث، وعود الضمير إليه يعني أنه نفسه، فلله در النسفي ما أدقَّ تعبيرَه.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١١٨).

(٣) لأن الأسماء المفردة الواقعة على الجنس التي يفرق بينها وبين واحدها بتاء التأنيث متى أُريد النفيُ.. كان =

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ ....

استدركَ لتأكيدِ نفيِ الضلالةِ فقال: ﴿وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾﴾؛ لأن كونَه رسولاً من الله مُبَلِّغاً لرسالاتِه.. في معنى كونِه على الصراط المستقيم، فكان في الغاية القُصوى من الهدى.

《٦٢》 ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾: ما أوحيَ إليَّ في الأوقات المتطاولةِ، أو في المعاني المختلفةِ؛ من الأوامر والنواهي والمواعظِ والبشائرِ والنذائرِ، ﴿أُبْلِغُكُمْ﴾: أبو عمرو[١]، وهو كلامٌ مستأنفٌ، بيانٌ لكونه رسولَ ربِّ العالمين، ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾: وأقصِدُ صلاحَكم بإخلاصٍ؛ يقال: نصحتُه ونصحتُ له، وفي زيادة اللامِ مبالغةٌ، ودلالةٌ على إمحاضِ النصيحةِ، وحقيقةُ النصحِ: إرادةُ الخيرِ لغيرِك مما تريدُه لنفسك، أو: النهايةُ في صدقِ العنايةِ، ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ أي: صفاتِه؛ يعني: قدرتَه الباهرةَ، وشدةَ بطشِه على أعدائِه، وأن بأسَه لا يُردُّ عن القوم المجرمين.

《٦٣》 ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾ الهمزةُ: للإنكارِ، والواوُ: للعطفِ، والمعطوفُ عليه محذوفٌ، كأنه قيل: أكذَّبتم وعجبتم[٢] ﴿أَن جَآءَكُمْ﴾: من أن جاءكم ﴿ذِكْرٌ﴾: موعظةٌ ﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾: على لسان رجلٍ منكم، وذلك أنهم كانوا يتعجبون من نبوة نوحٍ، ويقولون: ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين؛ يعنون: إرسالَ البشرِ، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المؤمنون: ٢٤]، ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾: ليحذركم عاقبةَ الكفرِ، ﴿وَلِتَتَّقُوا۟﴾: ولتوجدَ منكم التقوى، وهي: الخشيةُ بسبب الإنذارِ، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾﴾: ولترحمُوا بالتقوى إن وجدت منكم.

《٦٤》 ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾: فنسبُوه إلى الكذب، ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ وكانوا أربعين رجلاً وامرأةً، وقيل: تسعةٌ، بنوه سامٌ وحامٌ ويافِثٌ، وستةٌ ممن آمن به، ﴿فِى ٱلْفُلْكِ﴾: يتعلق بـ (معه)،

= استعمال واحدِها أبلغَ، ومتى أريد الإثبات.. كان استعمالها أبلغَ، وليس (الضلالة) مصدراً كالضلال، بل هي عبارةٌ عن المرة الواحدة، فإذا نفَى نوح عليه الصلاة والسلام عن نفسه المرة الواحدة من الضلال.. فقد نفى ما فوق ذلك. انظر «حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي» (٤/ ١٧٧).

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص١١٨).

(٢) جمهور النحاة أنه لا يُقَدَّرُ شيء بين الهمزة والواو؛ لأن أصل العبارة: وأعجبتم، ولكن قدمت الهمزة على الواو تنبيهاً على أصالتها في التصدير، فالواوُ تعطفُ جملةَ (أعجبتم) على ما قبلها. انظر «تفسير الآلوسي» (٤/ ٣٩١).

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾ ....

كأنه قيل: والذين صحبوه في الفلك[1]، ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ عن الحقِّ؛ يقال: أعمى في البصر، وعَمٍ في البصيرةِ.

«٦٥» ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ﴾: وأرسلنا إلى عادٍ، وهو عطفٌ على نوحٍ، ﴿أَخَاهُمْ﴾: واحداً منهم؛ من قولك: يا أخا العربِ، للواحدِ منهم، وإنما جُعل واحداً منهم لأنهم عن رجل منهم أفهَمُ، فكانت الحجةُ عليهم ألْزَم، ﴿هُودًا﴾: عطفُ بيانٍ لـ(أخاهم)، وهو هودُ بنُ شالخَ بنَ أرْفَخْشَدَ بنِ سامِ بنِ نوحٍ، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ وإنما لم يقل: فقال، كما في قصةِ نوح عليه السلام؛ لأنه على تقدير سؤالِ سائلٍ قال: فما قال لهم هودٌ؟ فقيل: (قال يا قوم اعبدوا الله).

«٦٦» وكذلك ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ وإنما وصف الملأَ بالذين كفروا، دون الملأِ من قوم نوحٍ؛ لأن في أشرافِ قومِ هودٍ من آمن به، منهم مرثدُ بنُ سعدٍ، فأُريدَ التفرقةُ بالوصف، ولم يكن في أشراف قومِ نوحٍ عليه السلام مؤمنٌ، ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾: في خفةِ حِلْم، وسخافةِ عقلٍ، حيثُ تهجرُ دينَ قومِك إلى دينٍ آخرَ، وجُعِلَت السفاهةُ ظرفاً مجازاً؛ يعني: أنه متمكنٌ فيها، غيرُ منفكٍّ عنها، ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ في ادعائِك الرسالةَ.

«٦٧» ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾﴾

«٦٨» ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ﴾ فيما أدعوكم إليه، ﴿أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾ على ما أقول لكم، وإنما قال هنا: (وأنا لكم ناصحٌ)؛ لقولِهم: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي: ليقابلَ الاسمُ الاسمَ، وفي إجابةِ الأنبياءِ عليهم السلام من نسبَهم إلى الضلالة والسفاهةِ بما أجابُوهم به من الكلامِ الصادرِ عن الحِلْمِ والإغضاءِ وتركِ المقابلةِ بما قالوا لهم مع علمِهم بأن خصومَهم أضلُّ الناسِ وأسفهُهُم.. أدبٌ حسنٌ، وخُلُقٌ عظيمٌ، وإخبارُ اللهِ تعالى ذلك تعليمٌ لعبادِه كيف يخاطِبون السفهاء، وكيف يُغْضُون عنهم، ويُسبِلُون أذيالَهم على ما يكونُ منهم.

---

(١) ذكر في «الدر المصون» (٥/ ٣٥٧) أن (في الفلك) يجوز أن يتعلق بـ(أنجيناه)، وتكون (في) للسببية؛ أي: بسبب الفلكِ، ويجوز أن يتعلق بما تعلق به (معه) أي: الذين استقروا في الفلك معه.

أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ ....

«٦٩» ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أي: خلفتمُوهم في الأرض، أو في مساكنِهم، و(إذ): مفعولٌ به وليس بظرفٍ؛ أي: اذكروا وقتَ استخلافِكم، ﴿وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾: طُولاً وامتداداتٍ، فكان أقصرُهم ستين ذراعاً، وأطولُهم مئةَ ذراعٍ، ﴿بَصْۜطَةً﴾: حجازيٌّ وعاصمٌ وعليٌّ[1]، ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ في استخلافِكم، وبَسْطَةِ أجرامِكم، وما سواهما من عطاياه، وواحدُ الآلاءِ: إِلْيٌ، نحو: إِنْيٌ والآناءِ، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

«٧٠» ومعنى المجيء في ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا﴾: أن يكون لهودٍ عليه السلام مُعتزَلٌ عن قومِه يتحنَّثُ فيه، كما كان يفعل رسول الله ﷺ بحراءَ قبلَ البعثِ، فلما أُوحيَ إليه.. جاءَ قومَه يدعوهم، ﴿لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ أنكرُوا واستبعدُوا اختصاصَ اللهِ وحدَه بالعبادةِ، وتركَ دينِ الآباءِ في اتخاذِ الأصنامِ شركاءَ معهم؛ حبّاً لما نَشَؤوا عليه، ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذاب ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾ أن العذابَ نازلٌ بنا.

«٧١» ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ﴾ أي: قد نزل ﴿عَلَيْكُم﴾ جعلَ المتوقعَ الذي لا بدَّ من نزولِه بمنزلةِ الواقعِ، كقولك: لمن طلبَ إليك بعضَ المطالبِ: قد كان، ﴿مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ﴾: عذابٌ، ﴿وَغَضَبٌ﴾: سُخْطٌ، ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾: في أشياءَ ما هي إلا أسماءٌ ليس تحتَها مسمياتٌ، لأنكم تُسمُّون الأصنامَ آلهةً، وهي خاليةٌ عن معنى الألوهيةِ، ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾: حجةٍ، ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟﴾ نزولَ العذابِ، ﴿إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ ذلك.

---

(١) قرأ نافعٌ والبزيُّ وابنُ ذكوان وشعبةُ والكسائيُّ وأبو جعفرٍ ورَوح وخلادٌ بخلفٍ عنه: بالصاد، والباقون: بالسين. انظر «البدور الزاهرة» (ص ١١٩).

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾ ....

《٧٢》 ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ أي: من آمن به، ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الدابرُ: الأصلُ، أو: الكائنُ خلفَ الشيءِ، وقطعُ دابرِهم استئصالُهم وتدميرُهم عن آخرِهم، ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾ فائدةُ نفي الإيمانِ عنهم مع إثباتِ التكذيبِ بآياتِ الله: الإشعارُ بأن الهلاكَ خصَّ المكذبين[1]، وقصتُهم أن عاداً قد تبسَّطُوا في البلادِ ما بين عُمانَ وحضرموتَ، وكانت لهم أصنامٌ يعبدونَها، صُداء وصَمود والهباء، فبعث الله إليهم هوداً فكذَّبوه، فأمسكَ القطرُ عنهم ثلاثَ سنين، وكانُوا إذا نزلَ بهم بلاءٌ.. طلبُوا إلى الله الفرجَ منه عندَ بيتِه الحرامِ، فأوفَدُوا إليه قَيْلَ بنَ عنز، ونعيمَ بنَ هزالٍ، ومرثدَ بنَ سعدٍ، وكان يكتم إيمانَه بهودٍ عليه السلام، وأهلُ مكةَ إذ ذاك العماليقُ أولادُ عِمْليقَ بنِ لاوزَ بنِ سامِ بنِ نوحٍ، وسيدُهم معاويةُ بنُ بكرٍ، فنَزلوا عليه بظاهرِ مكةَ[2]، فقال لهم مرثدُ: لن تُسقَوا حتى تؤمنوا بهودٍ، فخَلَّفُوا مرثداً وخرجُوا، فقال قَيْلٌ: اللهم اسقِ عاداً ما كنتَ تَسقيْهم، فأنشأَ اللهُ سحاباتٍ ثلاثاً بيضاءَ وحمراءَ وسوداءَ، ثم ناداه منادٍ من السماءِ يا قَيْلُ اخترْ لنفسكَ وقومِك، فاختارَ السوداءَ على ظنٍّ أنها أكثرُ ماءً، فخرجت على عادٍ من وادٍ لهم، فاستبشروا وقالوا: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤]، فجاءتهم منها ريحٌ عقيمٌ فأهلكتهم، ونجا هودٌ والمؤمنون معه، فأتَوا مكةَ فعبدُوا اللهَ فيها حتى ماتُوا.

---

(١) ذكر في «الكشاف» (٢/ ١١٣): أن فائدة نفي الإيمان عنهم مع إثبات التكذيب بآيات الله هي التعريضُ بمن آمن منهم، كأنه قال: وقطعنا دابر الذين كذبوا منهم ولم يكونوا مثل من آمن منهم، ليؤذِنَ أن الهلاك خصَّ المكذبين، ونجى الله المؤمنين.
قال الطيبي في «فتوح الغيب» (٦/ ٤٤٣): يعني: إذا سمع المؤمن أن الهلاك اختص بالمكذبين وعلم أن سبب النجاة هو الإيمان تزيد رغبته فيه ويعظم قدره عنده.
وذكر في «نظم الدرر» (٧/ ٤٤٣): أن جملة: ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾ جارية مجرى التعليل لأخذهم، مُؤذنة بأنه لا يحصل منهم صلاح؛ أي: أنا قطعنا دابرهم وهم مستحقون لذلك، لأنهم غير قابلين للإيمان لما فيهم من شدة العناد ولزوم الإلحاد.

(٢) أي: خارج مكة.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ ....

《٧٣》 ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ﴾: وأرسلنا إلى ثمود، وقرئ: ﴿وإلى ثمودٍ﴾[(١)]؛ بتأويل الحيِّ، أو باعتبارِ الأصلِ؛ لأنه اسمُ أبيهم الأكبرِ، ومنعُ الصرفِ بتأويلِ القبيلةِ[(٢)]، وقيل: سميت ثمودَ؛ لقلةِ مائِها؛ من الثَّمْدِ، وهو الماءُ القليلُ، وكانت مساكنُهم الحِجْرَ بين الحجازِ والشام، ﴿أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: آيةٌ ظاهرةٌ شاهدةٌ على صحةِ نبوتِي، وكأنه قيل: ما هذه البينة؟ فقال: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ وهذه إضافةُ تخصيصٍ وتعظيمٍ؛ لأنها بتكوينِه تعالى بلا صُلْبٍ ولا رحمٍ، ﴿لَكُمْ ءَايَةً﴾: حالٌ من الناقة، والعاملُ: معنى الإشارة في (هذه)، كأنه قيل: أشيرُ إليها آيةً، و(لكم): بيانٌ لمن هي له آيةٌ، وهي ثمودُ؛ لأنهم عاينُوها، ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ أي: الأرضُ أرضُ اللهِ، والناقةُ ناقةُ اللهِ، فذروها تأكلْ في أرضِ ربِّها من نباتِ ربِّها، فليس عليكم مُؤْنَتُها، ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾: ولا تضربُوها، ولا تعقِرُوها، ولا تطرُدُوها إكراماً لآيةِ اللهِ، ﴿فَيَأْخُذَكُمْ﴾: جوابُ النهي، ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾.

《٧٤》 ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ﴾: ونزَّلَكم، والمَباءةُ: المنزلُ، ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: في أرضِ الحِجْرِ بين الحجازِ والشام، ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾: غرفاً للصيف، ﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ للشتاءِ، و(بيوتاً): حالٌ مقدرةٌ، نحو: خِطْ هذا الثوبَ قميصاً؛ إذ الجبلُ لا يكون بيتاً في حالِ النحتِ، ولا الثوبُ قميصاً في حالِ الخياطةِ، ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ رويَ: أن عاداً لما أهلكتْ.. عَمَرَتْ ثمودُ بلادَها، وخَلَفُوهم في الأرضِ، وعُمِّرُوا أعماراً طِوالاً، فنحتُوا البيوتَ من الجبال خشيةَ الانهدام قبل المماتِ، وكانُوا في سَعَةٍ من العيشِ، فعتَوا على الله، وأفسدُوا في الأرضِ، وعبدُوا الأوثانَ فبعثَ اللهُ إليهم صالحاً، وكانُوا قوماً عرباً، وصالحٌ من أوسطِهم نسباً، فدعاهم إلى اللهِ، فلم

---

(١) هي قراءة شاذة. انظر «إتحاف فضلاء البشر» (ص ٢٨٥).

(٢) الحيُّ بمعنى القبيلةِ، ولكن الحيَّ مذكر، والقبيلةَ مؤنث، فإذا صرفت (ثمود).. فيُرادَ بها الحيُّ، وكأنه قيل: حيُّ ثمودٍ، وإذا مُنعت من الصرف.. فالمرادُ القبيلةُ، وكأنه قيل: قبيلةُ ثمودَ.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾

يتبعُه إلا قليلٌ منهم مستضعفون، فأنذرَهم، فسألُوه أن يُخرجَ من صخرةٍ بعينِها ناقةً عُشَراءَ[١]، فصلَّى ودعا ربَّه، فتمخَّضت تمخضَ النَّتُوجِ بولدِها[٢]، فخرجت منها ناقةٌ كما شاؤوا، فآمن به جُنْدُعٌ، ورهطٌ من قومِه.

﴿٧٥﴾ ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ ﴿وقال﴾: شاميٌّ[٣]، ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾: للذين استضعفَهم رؤساءُ الكفارِ، ﴿لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾: بدلٌ من (الذين استضعفوا) بإعادة الجارِّ، وفيه دليلٌ على أن البدل حيث جاءَ كان في تقديرِ إعادةِ العاملِ، والضميرُ في (منهم) راجعٌ إلى (قومه)، وهو يدلُّ على أن استضعافَهم كان مقصوراً على المؤمنين، أو: (إلى الذين استضعفوا)، وهو يدلُّ على أن المستضعفين كانوا مؤمنين وكافرين، ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ قالُوه على سبيل السُّخريةِ، ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾﴾ وإنما صارَ هذا جواباً عنه؛ لأنهم سألوهم عن العلمِ بإرسالِه، فجعلُوا إرسالَه أمراً معلوماً مُسَلَّماً، كأنهم قالُوا: العلمُ بإرسالِه وبما أرسل به لا شبهةَ فيه، وإنما الكلام في وجوبِ الإيمانِ به، فنخبركم أنا به مؤمنون.

﴿٧٦﴾ ولذلك ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ فوضعُوا (آمنتم به) موضع (أرسل به)؛ ردّاً لما جعلَه المؤمنون معلوماً مُسَلَّماً.

﴿٧٧﴾ ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ﴾: أَسْنَدَ العقرَ إلى جميعِهم وإن كان العاقرُ قُدارَ بنَ سالفٍ؛ لأنه كان برضاهم، وكان قُدارُ أحمرَ أزرقَ قصيراً، كما كان فرعونُ كذلك، وقال عليه السلام: «يا عليُّ أشقَى الأولين عاقرُ ناقةِ صالحٍ، وأشقَى الآخرين قاتلك»[٤]، ﴿وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾: وتولَّوا عنه واستكبرُوا، وأَمْرُ ربِّهم: ما أُمروا به على لسان صالحٍ عليه السلام من قولِه: (فذروها تأكلْ في أرضِ اللهِ)، أو: شأنُ ربِّهم، وهو دينُه، ﴿وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذابِ ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

---

(١) العُشَراءُ: التي مرَّ على حملِها عشرةُ أشهرٍ.
(٢) النَّتوجُ: الحامِلُ من الدَّوابِّ.
(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١١٩).
(٤) روى نحوه الإمام أحمد في «فضائل الصحابة» (٢/ ٥٦٦).

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٧٨ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٧٩ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٠﴾ ....

《٧٨》 ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾: الصيحةُ التي زلزلت لها الأرضُ، واضطربُوا لها، ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ﴾: في بلادِهم أو مساكنهم ﴿جَٰثِمِينَ ۝٧٨﴾: ميتين قُعوداً، يقال: الناسُ جُثَّمٌ؛ أي: قُعودٌ لا حراكَ بهم، ولا يتكلمون.

《٧٩》 ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ لما عقرُوا الناقةَ ﴿وَقَالَ يَٰقَوْمِ﴾ عندَ فراقِه إياهم ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٧٩﴾: الآمرين بالهدى؛ لاستحلاءِ الهوى، والنصيحةُ مَنيحةٌ تَدرأُ الفضيحةَ، ولكنها وَخِيمةٌ تُورثُ السخيمةَ[1]، وروي: أنَّ عقرَهم الناقةَ كان يومَ الأربعاءِ، فقال صالح: تعيشون بعدَه ثلاثةَ أيامٍ، تصفرُّ وجوهُكم أولَ يومٍ، وتحمرُّ في الثاني، وتسودُّ في الثالث، ويصيبُكم العذابُ في الرابع، وكان كذلك، روي: أنه خرج في مئةٍ وعشرةٍ من المسلمين وهو يبكي، فلما علم أنهم هلكُوا.. رجعَ بمن معه فسكنُوا ديارهم.

《٨٠》 ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ أي: واذكروا لوطاً، و(إذ): بدلٌ منه، ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾: أتفعلون السيئةَ المتماديةَ في القُبح، ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا﴾: ما عمِلها قبلَكم، والباءُ: للتعدية[2]، ومنه قولُه عليه السلام: «سبقَكَ بها عكاشةُ»[3]، ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾: (من): زائدةٌ لتأكيدِ النفيِ، وإفادةِ معنى الاستغراق[4]، ﴿مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٠﴾ (من): للتبعيضِ، وهذه جملةٌ مستأنفةٌ، أنكرَ عليهم أولاً بقولِه: (أتأتون الفاحشة)، ثم وَبَّخهم عليها فقال: أنتم أولُ مَن عملَها.

---

(١) منيحة: عطية، وخيمة: ثقيلة، السخيمة: الحقد.

(٢) فالفعل سبق: يتعدى إلى مفعولين، إلى الأول بنفسه، وإلى الثاني بحرف الجر.

(٣) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يدخل الجنة من أمتي زمرة هم سبعون ألفاً، تضيء وجوهُهم إضاءةَ القمرِ ليلةَ البدرِ» وقال أبو هريرة: فقام عكاشة بن محصن الأسدي يرفع نَمِرَةً عليه، فقال: يا رسول الله، ادعُ الله أن يجعلني منهم، قال: «اللهم اجعله منهم»، ثم قام رجل من الأنصار، فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «سبقك بها عكاشة» رواه البخاري (٦٥٤٢)، ومسلم (٢١٦).

(٤) الاستغراق حاصلٌ دون (مِن)؛ لأن (أحد) نكرةٌ في سياق النفيِ، فتفيدُ الاستغراقَ، فدخولُ (من) لتأكيد الاستغراقِ وجعله قطعياً. انظر هذه القاعدة في «شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع» (٢/ ١٠).

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ ....

«٨١» وقوله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾: بيانٌ لقولِه: (أتأتون الفاحشةَ)، والهمزةُ مثلُها في (أتأتون): للإنكار، ﴿إِنَّكُمْ﴾: على الإخبار: مدنيٌّ وحفصٌ[1]؛ يقال: أتى المرأةَ؛ إذا غَشِيَها، ﴿شَهْوَةً﴾: مفعولٌ له؛ أي: للاشتهاء، لا حاملَ لكم عليه إلا مجردُ الشهوةِ، ولا ذمَّ أعظمُ منه؛ لأنه وصفٌ لهم بالبهيميةِ، ﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: لا من النساءِ، ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾ أضربَ عن الإنكار إلى الإخبار عنهم بالحال التي توجبُ ارتكابَ القبائحِ، وهو أنهم قومٌ عادتهم الإسرافُ وتجاوزُ الحدودِ في كلِّ شيءٍ، فمِن ثَمَّ أسرفُوا في باب قضاءِ الشهوةِ حتى تجاوزُوا المعتادَ إلى غيرِ المعتاد.

«٨٢» ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ أي: لوطاً ومن آمن معه؛ يعني: ما أجابوه بما يكون جواباً عمّا كلمَهم به لوطٌ من إنكارِ الفاحشةِ، ووصفِهم بصفةِ الإسرافِ الذي هو أصلُ الشرِّ، ولكنَّهم جاؤوا بشيءٍ آخرَ لا يتعلقُ بكلامِه ونصيحتِه؛ من الأمرِ بإخراجِه ومن معه من المؤمنين من قريتِهم، ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾: يَدَّعُون الطهارةَ ويدعون فعلَنا الخبيثَ، عابُوهم بما يُتمدحُ به.

«٨٣» ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ﴾: ومن يختصُّ به من ذَويه، أو من المؤمنين ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾: من الباقين في العذاب، والتذكيرُ لتغليبِ الذكورِ على الإناثِ، وكانت كافرةً مواليةً لأهل سَدُومَ، وروِيَ: أنها التفتت فأصابَها حجرٌ فماتت.

«٨٤» ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾: وأرسلنا عليهم نوعاً من المطر عجيباً قالوا: أمطر اللهُ عليهم الكبريتَ والنارَ، وقيل: خُسفَ بالمقيمين منهم، وأُمطرت حجارةٌ على مسافريهم، وقال أبو عبيدة: أُمْطِرَ في العذاب، ومُطِرَ في الرحمة، ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾: الكافرين.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١١٩).

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ ....

«٨٥» ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾: وأرسلنا إلى مدينَ، وهو اسمُ قبيلةٍ، ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ يقال له: خطيبُ الأنبياءِ؛ لحسنِ مراجعتِه قومَه، وكانُوا أهلَ بَخسٍ للمكاييلِ والموازينِ، ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: معجزةٌ وإن لم تذكرْ في القرآن، ﴿فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾: أَتِمُّوهما، والمرادُ: فأوفوا الكيلَ وَوَزْنَ الميزانِ، أو: يكونُ الميزانُ كالميعادِ؛ بمعنى المصدرِ، ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾: ولا تُنقصُوا حقوقَهم بتطفيفِ الكيلِ ونُقصانِ الوزنِ، وكانوا يَبخسُون الناسَ كلَّ شيءٍ في مُبايعتهم، وبَخَسَ: يتعدَّى إلى مفعولين، وهما (الناس) و(أشياءهم) تقول: بَخستُ زيداً حقَّه؛ أي: نقصتُه إياه، ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا﴾: بعدَ الإصلاحِ فيها؛ أي: لا تفسدُوا فيها بعد ما أصلحَ فيها الصالحون من الأنبياءِ والأولياءِ، وإضافتُه كإضافةِ ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣] أي: بل مكرُكم في الليلِ والنهارِ[١]، ﴿ذَٰلِكُمْ﴾: إشارةٌ إلى ما ذُكِرَ من الوفاءِ بالكيلِ والميزانِ، وتركِ البخسِ والإفسادِ في الأرض، ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في الإنسانيةِ وحسنِ الأُحدُوثةِ[٢]، ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾: مصدقين لي في قولي.

«٨٦» ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ﴾: بكلِّ طريقٍ، ﴿تُوعِدُونَ﴾ من آمنَ بشعيبٍ بالعذابِ، ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: عن العبادةِ ﴿مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ بالله، وقيل: كانوا يقطعُون الطرقَ، وقيل: كانوا عَشَّارين[٣]، ﴿وَتَبْغُونَهَا﴾: وتطلبون لسبيلِ اللهِ ﴿عِوَجًا﴾ أي: تصفونَها للناس بأنها سبيلٌ مُعْوَجَّةٌ غيرُ مستقيمةٍ؛ لتمنعوهم عن سلوكِها، ومحلُّ ﴿تُوعِدُونَ﴾ وما عُطِفَ عليه: النصبُ على الحال؛ أي: لا تقعدُوا مُوعدين وصادِّين عن سبيلِ اللهِ، وباغينها عوجاً ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا﴾ (إذ): مفعولٌ به غيرُ ظرفٍ؛ أي: واذكروا على جهةِ الشكرِ وقتَ كونِكم قليلاً

---

(١) أي: أن الإضافة بمعنى: في.
(٢) حسنُ الأُحدُوثة: الذكر الجميل.
(٣) العشار: مَن يأخذ عشر المال.

وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ ....

عددُكم، ﴿فَكَثَّرَكُمْ﴾ اللهُ وَوَفَّرَ عددَكم، وقيل: إن مدينَ بنَ إبراهيمَ تزوجَ بنتَ لوطٍ فولدت، فرمَى اللهُ في نسلِها بالبركةِ والنماءِ فكثُرُوا، ﴿وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾: آخرُ أمرِ مَن أفسدَ قبلَكم من الأمم، كقومِ نوحٍ وهودٍ ولوطٍ عليهم السلام.

《٨٧》 ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟﴾: فانتظرُوا ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا﴾: أي: بين الفريقين؛ بأن ينصرَ المحقِّينَ على المبطلين، ويظهرَهم عليهم، وهذا وعيدٌ للكافرين بانتقامِ اللهِ تعالى منهم، أو: هو حثٌّ للمؤمنين على الصبرِ واحتمالِ ما كان يلحقُهم من المشركين إلى أن يحكمَ اللهُ بينهم وينتقمَ لهم منهم، أو: هو خطابٌ للفريقين؛ أي: ليصبرَ المؤمنون على أذى الكفار، والكافرون على ما يسوؤُهم من إيمانِ مَن آمن منهم حتى يحكمَ اللهُ فيَمِيْزَ الخبيثَ من الطيبِ، ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ لأن حكمه حق وعدل لا يُخاف فيه الجَورُ.

《٨٨》 ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ أي: ليكوننَّ أحدُ الأمرين: إمّا إخراجُكم، وإما عودكم في الكفر، ﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾ الهمزةُ: للاستفهام، والواوُ: للحالِ، تقديرُه: أتعيدُوننا في ملتِكم في حالِ كراهتِنا، ومع كونِنا كارهين؟ قالوا: نعم.

《٨٩》 ثم قال شعيبٌ: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم﴾ وهو قسمٌ على تقديرِ حذفِ اللام[١]؛ أي: واللهِ لقد افترينا على الله كذباً إن عُدْنا في ملتِكم ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾: خلَّصنا.

فإن قلت: كيف قال شعيبٌ: ﴿إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم﴾، والكفرُ على الأنبياء عليهم السلام محال؟

---

(١) وذكر في «الكشاف» (٢/ ١٢٤) وجهاً آخر وهو أن تكون جملة استئنافية فيها معنى التعجب، كأنهم قالوا: ما أكذبنا على الله إن عدنا في الكفر بعد الإسلام.
وهذا الوجه أولى لِخُلُوّه عن التقدير.

وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ ...

قلت: أرادَ عودَ قومِه، إلا أنه يَضُمُّ نفسَه في جملتِهم وإن كان بريئاً من ذلك؛ إجراءً لكلامِه على حكمِ التغليبِ، ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ﴾: وما ينبغي لنا، وما يصحُّ ﴿أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾: إلا أن يكون سبقَ في مشيئتِه أن نعودَ فيها؛ إذ الكائناتُ كلُّها بمشيئةِ اللهِ تعالى، خيرُها وشرُّها، ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾: تمييزٌ؛ هو عالم بكلِّ شيءٍ، فهو يعلمُ أحوالَ عبادِه كيف تتحولُ، وقلوبُهم كيف تتقلبُ، ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ في أن يُثبتَنا على الإيمان، ويوفقَنا لازديادِ الإيقانِ، ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: احكمْ، والفتاحةُ: الحكومةُ والقضاءُ بالحقِّ بفتحِ الأمرِ المنغلَقِ؛ فلذا سُمِّيَ فتحاً، ويسمِّي أهلُ عُمانَ القاضيَ فتّاحاً، ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾، كقوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧].

«٩٠» ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾: مغبونون؛ لفواتِ فوائدِ البَخْسِ والتطفيفِ باتّباعِه؛ لأنه ينهاكم عنهما، ويأمركم بالإيفاءِ والتسويةِ، وجوابُ القسمِ الذي وطّأتْهُ اللامُ في ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ﴾ وجوابُ الشرطِ: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾، فهو سادٌّ مسدَّ الجوابين[1].

«٩١» ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾: الزلزلةُ، ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾﴾: ميتين.

«٩٢» ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا﴾: مبتدأٌ، خبرُه: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ﴾: لم يقيمُوا فيها، غَنِيَ بالمكانِ: أقام، ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا﴾: مبتدأٌ، خبرُه: ﴿كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾، لا مَنْ قالُوا لهم: إنكم إذا لخاسرون، وفي هذا الابتداءِ معنى الاختصاص[2]، كأنه قيل: الذين كذبُوا شعيباً هم المخصوصون بأن أُهلِكُوا، كأن لم يُقيمُوا في دارهم؛ لأن الذين اتبعُوا شعيباً قد أنجاهم الله، الذين كذبوا شعيباً هم المخصوصون بالخُسرانِ العظيمِ دون أتباعِه فهم الرابحون، وفي التكرارِ مبالغةٌ واستعظامٌ لتكذيبِهم، ولما جرى عليهم.

«٩٣» ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ بعد أن نزلَ بهم العذابُ ﴿وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ

---

(١) الأولى أن يكون المذكور جوابَ القسم، وجوابُ الشرط محذوفاً؛ ففي «شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك» (٤/ ٤٤): إذا اجتمع شرط وقسمٌ.. حذف جواب المتأخر منهما لدلالة جواب الأول عليه.

(٢) لأن بناء الخبر على الموصول إيماءٌ إلى أن علة الحكم هي الصلة، فكأنه قيل: الذين كذبوا شعيباً هلكوا لتكذيبهم إياه هلاكَ الأبد، ويشعر ذلك هنا بأن مصدقيه عليه السلام نَجَوا نجاة الأبد. انظر «تفسير الآلوسي» (٥/ ٨).

وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ....

لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ﴾: أحزنُ ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾: اشتدَّ حزنُه على قومه، ثم أنكرَ على نفسِه فقال: كيف يشتدُّ حزني على قوم ليسوا بأهل للحزن عليهم؛ لكفرِهم واستحقاقِهم ما نَزل بهم؟ أو: أرادَ: لقد أعذرتُ لكم في الإبلاغ والتحذيرِ مما حلَّ بكم فلم تصدقوني، فكيف آسَى عليكم؟

《٩٤》 ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ﴾ يقال لكلِّ مدينةٍ: قريةٌ، وفيه حذفٌ؛ أي: فكذبوه، ﴿إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ﴾: بالبؤسِ والفقرِ، ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾: الضرِّ والمرضِ؛ لاستكبارِهم عن اتباعِ نبيِّهم، أو: هما نُقصانُ النفسِ والمالِ، ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾﴾: ليتضرعُوا ويتذلَّلُوا ويحطُّوا أرديةَ الكِبْرِ.

《٩٥》 ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾ أي: أعطيناهم بدلَ ما كانُوا فيه من البلاءِ، والمحنةِ الرخاءَ والسَّعَةَ والصحةَ، ﴿حَتَّىٰ عَفَوا۟﴾: كثرُوا ونمَوا في أنفسهم وأموالِهم؛ من قولهم: عَفا النباتُ: إذا كثُرَ، ومنه قولُه عليه السلام: «وأعفُوا اللِّحى»[1]، ﴿وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ أي: قالُوا: هذه عادةُ الدهرِ يعاقبُ في الناس بين الضراءِ والسراءِ، وقد مسَّ آباءَنا نحوُ ذلك، وما هو بعقوبةِ الذنبِ، فكونُوا على ما أنتم عليه، ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾: فجأةً ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾: بنزولِ العذابِ.

《٩٦》 اللامُ في ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾: إشارةٌ إلى أهلِ القرى التي دلَّ عليها ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ﴾ كأنه قال: ولو أن أهلَ تلك القرى الذين كذبوا وأُهْلِكُوا ﴿ءَامَنُوا۟﴾ بدلَ كفرِهم ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾ الشركَ مكانَ ارتكابِه ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم﴾ ﴿لفتّحنا﴾: شاميٌّ[2]، ﴿بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أرادَ: المطرَ والنباتَ، أو: لأتيناهم بالخيرِ من كلِّ وجهٍ، ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟﴾ الأنبياءَ ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾: بكفرِهم وسوءِ كسبِهم، ويجوزُ أن تكون اللامُ للجنسِ[3].

---

(١) رواه البخاري (٥٨٩٣)، ومسلم (٢٥٩) عن سيدنا ابن عمر رضي الله عنه.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص١٢٠).

(٣) أي: في كلمة: (القرى).

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ ....

《٩٧》《٩٨》 ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ يريدُ الكفارَ منهم ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا﴾: عذابُنا ﴿بَيَٰتًا﴾: ليلاً؛ أي: وقتَ بياتٍ، يقال: باتَ بياتاً ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى﴾: نهاراً، والضحى في الأصلِ: ضوءُ الشمس إذا أشرقتْ.

فالفاءُ والواوُ في (أفأمن)، و(أو أمن): حرفا عطفٍ دخلَ عليهما همزةُ الإنكار، والمعطوفُ عليه: (فأخذناهم بغتة)، وقولُه: (ولو أن أهل القرى) إلى (يكسبون): اعتراضٌ بين المعطوفِ والمعطوفِ عليه.

وإنما عُطفت بالفاء؛ لأن المعنى: فعلُوا وصنعُوا فأخذناهم بغتةً، أَبَعْدَ ذلك أَمِنَ أهلُ القرى أن يأتيَهم بأسُنا بياتاً، وأمنُوا أن يأتيَهم بأسناً ضُحىً، ﴿أَوْ أَمِنَ﴾: شاميٌّ وحجازيٌّ؛ على العطف بـ(أو)؛ والمعنى: إنكارُ الأمنِ من أحدِ هذين الوجهين؛ من إتيانِ العذابِ ليلاً أو ضُحىً.

فإن قلت: كيف دخلَ همزةُ الاستفهامِ على حرفِ العطفِ وهو ينافي الاستفهامَ؟

قلت: التنافي في المفردِ لا في عطفِ جملةٍ على جملةٍ؛ لأنه على استئناف جملةٍ بعد جملةٍ[1].

﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾: يشتغلُون بما لا يُجدِي لهم.

《٩٩》 ﴿أَفَأَمِنُوا۟﴾: تكريرٌ لقولِه: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ ﴿مَكْرَ ٱللَّهِ﴾: أخذَه العبدَ من حيث لا يشعر، وعن الشِّبليِّ قدس الله رُوحَه العزيزَ[2]: مكرُه بهم: تركُه إياهم على ما هم عليه، وقالت ابنةُ الربيعِ بنِ خيثمَ لأبيها: ما لي أرى الناس ينامون ولا أراك تنام؟ قال: يا بِنتاه إن أباك يخافُ البياتَ، أراد قولَه: ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا﴾، ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾: إلا الكافرون الذين خسرُوا أنفسَهم حتى صارُوا إلى النار.

---

(١) التنافي بين الاستفهام والعطف: أن الاستفهام يقتضي صدر الكلام، والعطف يقتضي وسط الكلام كما في «حاشية الشيخ زاده على تفسير البيضاوي» (٤/ ٥٩)، ولكن إذا دخل الاستفهام على جملة معطوفة.. فلا تنافي بينهما حينئذٍ؛ لأن الاستفهام يكون في صدر الجملة المعطوفة.

(٢) الروحُ يذكّر ويؤنّث.

أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ....

《١٠٠》 ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾: يُـبـيِّـنْ ﴿لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾، (أن لو نشآء): مرفوعٌ بأنه فاعلُ (يهد)، و(أن): مخففةٌ من الثقيلة؛ أي: أَوَلَم يهدِ للذين يخلُفون من خَلا قبلَهم في ديارِهم ويرثونَهم أرضَهم هذا الشأنُ، وهو أنا لو نشاءُ أصبناهم بذنوبهم كما أصبنا مَن قبلَهم، فأهكلنا الوارثين، كما أهلكنا الموروثِين، وإنما عُدِّيَ فعلُ الهدايةِ باللّام؛ لأنه بمعنى التبيين، ﴿وَنَطْبَعُ﴾: مسأنفٌ؛ أي: ونحن نختِمُ ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ الوعظَ.

《١٠١》 ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾، كقوله: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ [هود: ٧٢] في أنه مبتدأٌ وخبرٌ وحالٌ، أو: تكون (القرى): صفةَ (تلك)، و(نقص): خبراً؛ والمعنى: تلك القرى المذكورةُ من قوم نوحٍ إلى قومِ شعيبٍ نقصُّ عليك بعضَ أنبائِها، ولها أنباءٌ غيرُها لم نقصَّها عليك، ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: بالمعجزات، ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ عندَ مجيءِ الرسلِ بالبيناتِ ﴿بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ﴾: بما كذبوه من آيات الله من قبلِ مجيءِ الرسلِ، أو: فما كانوا ليؤمنوا إلى آخرِ أعمارِهم بما كذبوا به أوّلاً حين جاءتْهم الرسلُ؛ أي: استمرُّوا على التكذيب من لدن مجيءِ الرسلِ إليهم، إلى أن ماتُوا مُصِرِّين مع تتابع الآياتِ، واللامُ: لتأكيد النفي.

﴿كَذَٰلِكَ﴾: مثلَ ذلك الطبعِ الشديدِ ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾ لما علم منهم أنهم يختارون الثباتَ على الكفرِ.

《١٠٢》 ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ الضميرُ للناس على الإطلاق؛ يعني: أن أكثرَ الناسِ نقضُوا عهدَ اللهِ وميثاقَه في الإيمان، والآيةُ اعتراضٌ، أو: للأمم المذكورين؛ فإنهم كانوا إذا عاهدُوا اللهَ في ضُرٍّ ومخافةٍ: لئن أنجيتنا لنؤمنن، ثم أنجاهم.. نكثُوا، ﴿وَإِن وَجَدْنَآ﴾: وإنَّ الشأنَ والحديثَ ﴿أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾: خارجين عن الطاعةِ، والوجودُ بمعنى العلمِ؛ بدليلِ دخولِ (إن) المخففةِ، واللامِ الفارقةِ، ولا يجوز ذلك إلا في المبتدأِ والخبرِ والأفعالِ الداخلةِ عليهما.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَاۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾ ....

«١٠٣» ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم﴾ الضميرُ للرسلِ في قولِه: (ولقد جاءَتْهم رسلهم)، أو للأمم ﴿مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾: بالمعجزاتِ الواضحاتِ ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَا﴾: فكفروا بآياتنا، أجرى الظلمَ مُجرى الكفرِ؛ لأنهما من وادٍ واحدٍ ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، أو فظلموا الناس بسببِها حين آذَوا مَن آمن بها، أو: لأنه إذا وجب الإيمان بها فكفرُوا بدلَ الإيمانِ.. كان كفرُهم بها ظُلماً، حيث وضعُوا الكفرَ غيرَ موضعِه وهو موضع الإيمان، ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ حيث صارُوا مغرَقين.

«١٠٤» ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ﴾ يقالُ لملوكِ مصرَ: الفراعنةُ، كما يقال لملوكِ فارسَ: الأكاسرة، وكأنه قال: يا ملكَ مصرَ، واسمُه قابوسُ، أو الوليدُ بنُ مصعبِ بنِ الريانِ، ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ إليك، قال فرعون: كذبت، فقال موسى:

«١٠٥» ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ أي: أنا حقيقٌ على قولِ الحقِّ؛ أي: واجبٌ على قولِ الحقِّ أن أكون قائلَه والقائمَ به[1]، ﴿حقيق عليَّ﴾: نافعٌ[2]؛ أي: واجبٌ عليَّ تركُ القولِ على اللهِ إلا الحقَّ؛ أي: الصدقَ، وعلى هذه القراءةِ: تقفُ على (العالمين)، وعلى الأول: يجوزُ الوصلُ على جعل (حقيق) وصفَ الرسولِ، و(على) بمعنى الباءِ، كقراءةِ أُبيٍّ[3]؛ أي: إني رسولٌ خليقٌ بألّا أقولَ، أو يعلق (على) بمعنى الفعلِ في الرسولِ؛ أي: إني رسولٌ حقيقٌ جديرٌ بالرسالة، أُرسلتُ على ألّا أقولَ على الله إلا الحقَّ، ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: بما يبينُ رسالتِي، ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾: فخلِّهم يذهبُوا معي راجعين إلى الأرض المقدسةِ التي هي وطنُهم، وذلك أن يوسفَ عليه السلامُ لما توفِّيَ.. غلبَ فرعونُ على نسلِ الأسباطِ، واستعبدَهم، فأنقذهم اللهُ بموسى عليه السلام، وكان بين اليوم الذي دخلَ يوسفُ مصرَ، واليومِ الذي دخلَه موسى أربعُ مئةِ عام، ﴿مَعِيَ﴾: حفصٌ[4].

---

(١) أي: لو كان قولُ الحقِّ شخصاً عاقلاً لكان واجباً عليه أن يسعى في أن أكون قائلَه والناطقَ به، فكيف يُتصور مني الكذب، فهو استعارة مكنية؛ شُبه قولُ الحقِّ بالعقلاء الذين يختارون مواردَهم ومصادرَهم، ورمز إلى المشبه به بما هو من لوازمه، وهو كونُ ما يناسبُه متعيناً عليه. انظر «تفسير الألوسي» (٥/ ٢٠)، و«التحرير والتنوير» (٩/ ٣٩).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٢١).

(٣) أي: ﴿حقيق بأن لا أقول﴾. انظر «تفسير البغوي» (٣/ ٢٦٢).

(٤) والباقون بإسكان الياء. انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٢١).

قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ ....

《١٠٦》 ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ﴾ من عندِ مَن أرسلَك، ﴿فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾﴾: فأتِني بها؛ لتصحَّ دعواك ويثبتَ صدقُك فيها.

《١٠٧》 ﴿فَأَلْقَىٰ﴾ موسى ﴿عَصَاهُ﴾ من يدِه، ﴿فَإِذَا هِىَ﴾ (إذا) هذه: للمفاجأةِ، وهي من ظروف المكانِ، بمنزلةِ ثَمَّةَ، وهناك[١]، ﴿ثُعْبَانٌ﴾: حيةٌ عظيمةٌ ﴿مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾: ظاهرٌ أمرُه.

رويَ: أنه كان ذكراً فاغِراً فاه[٢]، بين لَحْيَيْهِ ثمانون ذراعاً، وضعَ لَحْيَهُ الأسفلَ في الأرضِ، والأعلى على سُورِ القصرِ، ثم توجه نحوَ فرعونَ فهربَ وأحدثَ ولم يكن أحدثَ قبلَ ذلك، وحملَ على الناسِ، فمات منهم خمسةٌ وعشرون ألفاً، قتلَ بعضُهم بعضاً، فصاح فرعون: يا موسى خذْه أومنْ بك، فأخذه موسى فعاد عصاً[٣].

《١٠٨》 ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ من جيبِه، ﴿فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ أي: فإذا هي بيضاءُ للنظّارة، ولا تكون بيضاءَ للنظّارة إلا إذا كان بياضاً عجيباً خارجاً عن العادةِ، يُجمعُ الناسُ للنظرِ إليه.

رويَ: أنه أَرَى فرعونَ يدَه وقال: ما هذه؟ فقال: يدُك، ثم أدخلَها في جيبِه ونزعَها فإذا هي بيضاءُ غلبَ شعاعُها شعاعَ الشمس، وكان موسى عليه السلام آدمَ شديدَ الأُدْمَةِ[٤].

《١٠٩》 ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾﴾: عالمٌ بالسحرِ، ماهرٌ فيه، قد خَيَّلَ إلى الناس العصا حيةً، والآدمَ أبيضَ.

وهذا الكلامُ قد عُزِيَ إلى فرعون في (سورة الشعراء)، وأنه قال للملأ، وهنا عُزِيَ إليهم، فيَحتمِلُ أنه قد قاله هو، وقالوه هم، فحُكِيَ قولُه ثمةَ، وقولُهم هنا، أو: قاله ابتداءً فتلقَّته منه الملأُ فقالُوه لأعقابِهم.

《١١٠》 ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ يعني: مصرَ، ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾﴾: تُشِيرون؛ مِن:

---

(١) في إذا الفجائية ثلاثةُ أقوالٍ: حرفٌ، أو ظرفُ مكان، أو ظرفُ زمان. انظر «همع الهوامع» (٢/ ١٨٢).

(٢) فَغَرَ فاهُ: فتحه.

(٣) الأولى ألا تُذْكَرَ هذه الرواياتُ التي لم تثبت، ولا فائدةَ منها.

(٤) روى البخاري (٣٢٣٩) ومسلم (١٦٥) عن النبي ﷺ قال: «رأيت ليلة أسري بي موسى رجلاً آدم»، والآدمُ: الأسمرُ.

﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُواْ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾ ....

آمرتُه فأمَرَني بكذا: إذا شاورتَه فأشار عليك برأيٍ، وهو من كلامِ فرعونَ، قالَه للملأ لما قالُوا له: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم﴾.

«١١١» ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ﴾: بسكون الهاء: عاصمٌ وحمزةُ[1]؛ أي: أَخِّرْ أو: احبسْ؛ أي: أخرْ أمرَه ولا تعجلْ، أو كأنه همَّ بقتلِه فقالُوا: أخرْ قتلَه، واحبسْه ولا تقتلْه؛ ليتبينَ سحرُه عند الخلق، ﴿وَأَخَاهُ﴾: هارونَ، ﴿وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾﴾: جامعين.

«١١٢» ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾ ﴿سحار﴾: حمزةُ وعليٌّ؛ أي: يأتوك بكلِّ ساحرٍ مثلِه في المهارةِ، أو بخيرٍ منه.

«١١٣» ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾ يريدُ: فأرسلَ إليهم فحضرُوا، ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾: على الخبرِ وإثباتِ الأجرِ العظيم[2]: حجازيٌّ وحفصٌ[3]، ولم يقل: فقالوا؛ لأنه على تقدير سؤالِ سائلٍ: ما قالوا إذ جاؤوه؟ فأجيب بقوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾: لَجُعلاً على الغَلَبَةِ، والتنكيرُ للتعظيم؛ كأنهم قالوا: لا بدَّ لنا من أجرٍ عظيم ﴿إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾﴾.

«١١٤» ﴿قَالَ نَعَمْ﴾ إن لكم لأجراً، ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾ عندي، فتكونون أولَ من يدخلُ، وآخرَ من يخرجُ، وكانوا ثمانين ألفاً، أو سبعين ألفاً، أو بضعةً وثلاثين ألفاً.

«١١٥» ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ﴾: عصاكَ، ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ ما معَنا، وفيه دلالةٌ على أن رغبتَهم في أن يُلقُوا قبلَه؛ حيث أُكِّدَ ضميرُهم المتصلُ بالمنفصلِ، وعُرِّفَ الخبرُ.

«١١٦» ﴿قَالَ﴾ لهم موسى: ﴿أَلْقُوٓاْ﴾ تخييرُهم إياه أدبٌ حسنٌ راعَوه معه، كما يفعل المناظرون قبلَ أن يتخاوضوا في الجدالِ[4]، وقد سوَّغ لهم موسى ما رغبُوا فيه؛ ازدراءً لشأنِهم؛

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٢١) وكذا القراءة الآتية.

(٢) استفيد تعظيم الأجر من تنكير (لأجراً)؛ فهو للتعظيم، كقول العرب: إنّ له لإبلاً، يقصدون الكثرة. انظر «الكشاف» (٢/ ١٣١).

(٣) وباقي السبعة: بهمزتين، الأولى مفتوحة، والثانية مكسورة على الاستفهام. انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٢١).

(٤) ويحتمل أنهم خيروه؛ إظهاراً للجلادة، وأنه لا يختلف عليهم الحال بالتقديم والتأخير. انظر «تفسير الآلوسي» (٥/ ٢٥).

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

وقلةَ مبالاةٍ بهم، واعتماداً على أن المعجزة لن يغلبَها سحرٌ أبداً، ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾: أَرَوْها بالحِيَلِ والشَّعْوَذَةِ وخيَّلُوا إليها ما الحقيقةُ بخلافِه، رويَ: أنهم ألقوا حِبالاً غِلاظاً، وخشباً طِوالاً، فإذا هي أمثالُ الحيّاتِ قد ملأت الأرضَ، وركبَ بعضُها بعضاً، ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾: وأرهبُوهم إرهاباً شديداً، كأنهم استدعَوا رَهْبَتَهم بالحيلة، ﴿وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾ في بابِ السحرِ، أو: في عينِ مَن رآه.

«١١٧» ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ﴾: تبتلعُ، ﴿تَلْقَفُ﴾: حفصٌ[1]، ﴿مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾﴾ (ما): موصولةٌ أو مصدريةٌ؛ يعني: ما يأفِكُونه؛ أي: يقلِبونَه عن الحقِّ إلى الباطلِ، ويزوِّرُونه، أو: إفكُهم؛ تسميةً للمأفوك بالإفكِ.

روي: أنها لما تَلَقَّفَتْ ملءَ الوادي من الخشبِ والحبالِ، ورفعَها موسى، فرجعت عصاً كما كانت، وأعدمَ اللهُ بقدرتِه تلكَ الأجرامَ العظيمةَ، أو فرَّقَها أجزاءً لطيفةً.. قالت السحرةُ: لو كان هذا سحراً.. لبقيت حبالُنا وعصيُّنا.

«١١٨» ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ﴾: فحصلَ وثبتَ، ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ من السحرِ.

«١١٩» ﴿فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ﴾ أي: فرعونُ وجنودُه والسحرةُ، ﴿وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾: وصارُوا أذلاءَ مبهوتين.

«١٢٠» ﴿وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾﴾: وخرُّوا سجداً لله، كأنما ألقاهم مُلْقٍ لشدة خُرُورِهم، أو: لم يتمالكُوا مما رأوا، فكأنهم أُلقُوا، فكانوا أولَ النهارِ كفاراً سحرةً، وفي آخره شهداءَ بررةً.

«١٢١» «١٢٢» ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾: هو بدلٌ مما قبلَه.

«١٢٣» ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾: على الخبر: حفصٌ، وهذا توبيخٌ منه لهم، وبهمزتين: كوفيٌّ غيرَ حفصٍ[2]، فالأولى همزةُ الاستفهامِ، ومعناه الإنكارُ والاستبعادُ، ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾:

---

(١) قرأ البزي ﴿تَلَقَّفُ﴾ مع تشديد التاء وصلاً، والباقون ما عدا حفصاً: ﴿تَلَقَّفُ﴾ مع تخفيف التاء مطلقاً. انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٢٢).

(٢) قرأ بحذف الهمزة: حفصٌ وقُنبلٌ ورُوَيسٌ، وبإثباتها: الباقون. انظر المرجع السابق (ص ٢٠٥).

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

قبلَ إذني لكم، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾: إن صنعَكم هذا لَحيلةٌ احتلتمُوها أنتم وموسى في مصرَ قبلَ أن تخرجُوا إلى الصحراء؛ لغرضٍ لكم وهو أن تُخرجُوا من مصرَ القِبط، وتُسكنوا بني إسرائيلَ ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾﴾: وعيدٌ أجملَه ثم فصَّلَه بقوله:

《١٢٤》 ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ﴾: من كلِّ شقٍّ طرفاً، ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ هو أولُ من قطعَ من خلافٍ وصلبَ.

《١٢٥》 ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ فلا نبالي بالموت؛ لانقلابِنا إلى لقاءِ ربِّنا ورحمتِه، أو إنا جميعاً يعنون أنفسَهم وفرعون نُقلبُ إلى الله فيحكمُ بيننا.

《١٢٦》 ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾: وما تعيبُ منا إلا الإيمانَ بآيات اللهِ، أرادُوا: وما تعيبُ منا إلا ما هو أصلُ المناقبِ والمفاخرِ وهو الإيمانُ، ومنه قولُه[1]: [من: الطويل]

ولا عيبَ فيهم غيرَ أن سيوفَهم ... بهنَّ فلولٌ من قراعِ الكتائبِ

﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أي: اصببْ صبّاً ذريعاً؛ والمعنى: هبْ لنا صبراً واسعاً، وأكثِرْهُ علينا حتى يفيضَ علينا ويغمُرَنا، كما يُفرَغُ الماءُ إفراغاً، ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾: ثابتين على الإسلام.

《١٢٧》 ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أرضِ مصرَ بالاستعلاءِ فيها وتغييرِ دينِ أهلِها؛ لأنه وافقَ السحرةَ على الإيمان ستُّ مئةِ ألفِ نفسٍ، ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾: عطفٌ على (ليفسدوا) قيل: صنعَ فرعون لقومِه أصناماً وأمرَهم أن يعبدُوها تقرباً إليه، كما يعبدُ عبدةُ الأصنامِ الأصنامَ ويقولون: ﴿لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، ولذلك ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، ﴿قَالَ﴾ فرعونُ مجيباً للملإ: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ ﴿سَنَقْتُلُ﴾: حجازيٌّ[2]؛ أي: سنعيدُ عليهم قتلَ الأبناءِ؛ ليعلموا أنّا على ما كنّا عليه من

---

(١) البيت للنابغة الذبياني في «ديوانه» ص (٣٢)، فلول: كسورٌ في حدِّ السيف، قراع الكتائب: قتال الجيوش ومحاربتها، وفي هذا البيت من البلاغة المدحُ بما يشبه الذم.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٢٢).

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾

الغلبةِ والقهرِ، وأنهم مقهورونَ تحتَ أيدِيْنا كما كانُوا؛ ولئلا يَتوهمَ العامةُ أنه هو المولودُ الذي تحدثَ المنجمون بذهابِ ملكنا على يدِه، فيثبطَهم ذلك عن طاعتِنا، ويدعوَهم إلى اتباعِه.

《١٢٨》 ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟﴾ قال لهم ذلك حين جَزِعُوا من قول فرعونَ: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ﴾؛ تسليةً لهم، ووعداً بالنصرِ عليهم، ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ﴾ اللامُ: للعهد؛ أي: أرضَ مصر، أو: للجنسِ، فيتناولُ أرضَ مصرَ تناولاً أوّليّاً، ﴿لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾: فيه تَمْنِيَتُه إياهم أرضَ مصرَ، ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾: بشارةٌ بأن الخاتمةَ المحمودةَ للمتقين منهم، ومن القِبْطِ، وأُخْلِيَتْ هذه الجملةُ عن الواو؛ لأنها جملةٌ مستأنفةٌ، بخلاف قوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ﴾؛ لأنّها معطوفةٌ على ما سبقَها من قوله: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾.

《١٢٩》 ﴿قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ يعنون: قتلَ أبنائِهم قبلَ مولدِ موسى إلى أن استُنبئَ وإعادتُه عليهم بعدَ ذلك، وذلكَ اشتكاءٌ من فرعون، واستبطاءٌ لوعدِ النصرِ، ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: تصريحٌ بما رَمَزَ إليه من البشارة قبلُ، وكشفٌ عنه، وهو إهلاكُ فرعونَ واستخلافُهم بعدَه في أرضِ مصرَ، ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾: فيرى الكائنَ منكم من العملِ حسنَه وقبيحَه وشكرَ النعمةِ وكفرانَها؛ ليجازيَكم على حسبِ ما يوجدُ منكم.

وعن عمرِو بنِ عبيدٍ أنه دخل على المنصورِ قبلَ الخلافةِ وعلى مائدتِه رغيفٌ أو رغيفان، فطلبَ المنصورُ زيادةً لعمرٍو فلم تُوجد، فقرأ عمرٌو هذه الآيةَ، ثم دخلَ عليه بعد ما استُخلفَ فذكر له ذلك وقال: قد بقي: (فينظر كيف تعملون).

《١٣٠》 ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾: سِنِيْ القحطِ، وهنَّ سبعُ سنين، والسَّنَةُ من الأسماءِ الغالبةِ، كالدابّةِ والنجمِ، ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾: قيل: السنونَ لأهلِ البوادي، ونقصُ الثمراتِ للأمصارِ، ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾: ليتعظوا فينتبهوا على أن ذلك لإصرارِهم على الكفرِ، ولأن الناسَ في حالِ الشدةِ أضرعُ خدوداً، وأرقُّ أفئدةً، وقيل: عاشَ فرعونُ أربعَ مئةِ سنةٍ لم يرَ مكروهاً في ثلاث مئةٍ وعشرين سنةً، ولو أصابه في تلك المدة وجعٌ أو جوعٌ أو حمّى، لما ادّعى الربوبيةَ.

﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾

《١٣١》 ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ﴾: الصحةُ والخِصْبُ ﴿قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ﴾ أي: هذه التي نستحقُّها، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾: جَدْبٌ ومرضٌ ﴿يَطَّيَّرُوا﴾: أصلُه: يتطيروا، فأُدغمت التاءُ في الطاءِ؛ لأنهما من طرفِ اللسانِ وأصولِ الثنايا، ﴿بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ﴾: تشاءمُوا بهم وقالُوا: هذه بشؤمِهم، ولولا مكانُهم.. لما أصابتنا، وإنما دخلَ (إذا) في الحسنةِ وعُرِّفَتِ الحسنةُ، و(إن) في السيئةِ، ونُكِّرَتِ السيئةُ؛ لأن جنسَ الحسنةِ وقوعُه كالكائن لكثرتِه، وأما السيئةُ.. فلا تقعُ إلا في الندرةِ، ولا يقع إلا شيءٌ منها، ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ﴾: سببُ خيرِهم وشرِّهم ﴿عِندَ اللَّهِ﴾: في حكمِه ومشيئتِه، والله هو الذي يقدرُ ما يصيبُهم من الحسنةِ والسيئةِ، ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨]، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾ ذلك.

《١٣٢》 ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ أصلُه: ما ما، فـ: ما الأولى: للجزاء، ضُمَّت إليها: ما المزيدةُ المؤكدةُ للجزاء في قولك: متى ما تخرجْ أخرجْ، ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا﴾ [البقرة: ١٤٨]، ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ [الزخرف: ٤١]، إلا أن الألفَ قلبت هاءً؛ استثقالاً لتكريرِ المتجانسين، وهو المذهبُ السديدُ البصريُّ، وهو في موضع النصب بـ (تأتنا) أي: أيَّما شيءٍ، و(من آية): تبيينٌ لـ (مهما)، والضميرُ في (به)، و(بها): يرجع إلى (مهما)، إلا أن الأولَ ذُكِّرَ على اللفظ، والثاني أُنِّثَ على المعنى؛ لأنها في معنى الآية، وإنما سمَّوها آيةً اعتباراً لتسميةِ موسى، أو: قصدوا بذلك الاستهزاءَ.

《١٣٣》 ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾: ما طاف بهم وغلبَهم من مطرٍ، أو سَيْلٍ، قيل: طفا الماءُ فوقَ حروثِهم، وذلك أنهم مُطِرُوا ثمانيةَ أيامٍ في ظلمةٍ شديدةٍ لا يرون شمساً ولا قمراً، ولا يقدرُ أحدٌ أن يخرجَ من دارِه، وقيل: دخل الماءُ في بيوتِ القِبطِ حتى قامُوا في الماء إلى تراقِيْهم[1]، فمن جلسَ.. غرقَ، ولم يدخل بيوتَ بني إسرائيلَ من الماءِ قطرةٌ، أو: هو الجُدَرِيُّ، أو: الطاعونُ، ﴿وَالْجَرَادَ﴾ فأكلت زروعَهم وثمارَهم وسقوفَ بيوتِهم وثيابَهم، ولم يدخلْ بيوتَ بني إسرائيلَ منها شيءٌ، ﴿وَالْقُمَّلَ﴾ وهي: الدَّبى، وهو أولادُ الجرادِ قبلَ نباتِ أجنحتِها، أو:

(١) التراقي: جمع تَرْقُوَة، وهي عظمةٌ مُشرِفةٌ بين ثغرة النحر والعاتق، وهما تَرْقُوتان، والمراد: أن الماء غمرهم حتى بلغَ أسفلَ أعناقِهم.

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾

البراغيثُ، أو: كِبارُ القُردانِ[1]، ﴿وَٱلضَّفَادِعَ﴾ وكانت تقعُ في طعامِهم وشرابِهم، حتى إذا تكلمَ الرجلُ.. تقعُ في فيه، ﴿وَٱلدَّمَ﴾ أي: الرُّعاف، وقيل: مياهُهم انقلبت دماً، حتى إن القِبطيَّ والإسرائيليَّ إذا اجتمعا على إناءٍ واحد.. فيكونُ ما يلي الإسرائيليَّ ماءً، وما يلي القِبطيَّ دماً، وقيل: سالَ عليهم النيلُ دماً، ﴿ءَايَٰتٍ﴾: حالٌ من الأشياءِ المذكورةِ، ﴿مُّفَصَّلَٰتٍ﴾: مبيناتٍ ظاهراتٍ لا يُشكلُ على عاقلٍ أنها من آياتِ اللهِ، أو: مفرقاتٍ بينَ كل آيتين شهرٌ، ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عن الإيمانِ بموسى، ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾.

«١٣٤» ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ﴾: العذابُ الأخيرُ وهو: الدمُ، أو: العذابُ المذكورُ واحداً بعدَ واحدٍ ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ (ما): مصدريةٌ؛ أي: بعهدِه عندك، وهو: النبوةُ، والباءُ تتعلق بـ (ادع) أي: ادعُ اللهَ لنا متوسلاً إليه بعهدِه عندك ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾﴾.

«١٣٥» ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ﴾: إلى حدٍّ من الزمان ﴿هُم بَٰلِغُوهُ﴾ لا محالةَ فمعذَّبون فيه لا ينفعُهم ما تقدم لهم من الإمهالِ وكشفِ العذابِ إلى حلولِه ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾: جوابُ (لما) أي: فلمّا كشفنا عنهم.. فاجَؤوا النَّكْثَ، ولم يُؤخروه.

«١٣٦» ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ هو: ضدُّ الإنعام، كما أن العقابَ: ضدُّ الثوابِ، ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾: هو: البحرُ الذي لا يُدركُ قعرُه، أو: هو: لُجةُ البحرِ ومعظمُ مائِه، واشتقاقُه من التيمم؛ لأن المستنفعين به يقصِدُونه، ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ أي: كان إغراقُهم بسببِ تكذيبِهم بالآيات، وغفلتِهم عنها، وقلةِ فكرِهم فيها.

«١٣٧» ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾ هم بنو إسرائيلَ، كان يستضعفُهم فرعونُ وقومُه بالقتلِ والاستخدامِ، ﴿مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ يعني: أرضَ مصرَ والشامِ ﴿ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا

(١) القُردان: جمع قُراد، وهي: دُويبةٌ ذاتُ أرجلٍ كثيرةٍ تعيشُ على الدوابِّ والطيورِ.

﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ١٣٨ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٣٩﴾ ....

﴿فِيهَا﴾ بالخِصبِ، وسَعةِ الأرزاقِ، وكثرةِ الأنهارِ والأشجارِ، ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ هو قولُه: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، أو: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [القصص: ٥] إلى ﴿مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ﴾ [القصص: ٦]، والحُسنى: تأنيثُ الأحسنِ، صفةٌ للكلمةِ، و(على): صلةُ (تمت) أي: مضت عليهم واستمرَّت؛ من قولِك: تمَّ عليَّ الأمرُ: إذا مضَى عليه، ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾: بسببِ صبرِهم، وحسبُكَ به حاثّاً على الصبرِ، ودالّاً على أنَّ مَن قابلَ البلاءَ بالجزعِ.. وَكَلَهُ اللهُ إليه، ومَن قابلَه بالصبرِ.. ضَمِنَ اللهُ له الفرجَ، ﴿وَدَمَّرۡنَا﴾: أهلكنا ﴿مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ﴾ من العِماراتِ وبناءِ القُصورِ، ﴿وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ١٣٧﴾ من الجناتِ، أو: وما كانوا يرفعون من الأبنيةِ المَشيدةِ في السماءِ، كصَرحِ هامانَ وغيرِه، وبضمِّ الراءِ: شاميٌّ، وأبو بكرٍ[1].

وهذا آخرُ قصةِ فرعونَ والقِبطِ، وتكذيبِهم بآياتِ اللهِ، ثم أتبعه قصةَ بني إسرائيل، وما أحدثوه بعد إنقاذهم من فرعونَ ومُعاينتِهم الآياتِ العظامَ، ومجاوزتِهم البحرَ؛ من عبادةِ البقرِ وغيرِ ذلك؛ ليتسلَّى رسولُ الله ﷺ مما رآه من بني إسرائيلَ بالمدينةِ.

«١٣٨» ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ رويَ: أنهم عبرَ بهم موسى ﷺ يومَ عاشوراءَ بعدَ ما أهلكَ اللهُ فرعونَ وقومَه، فصامُوه شكراً لله، ﴿فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ﴾: فمرُّوا عليهم، ﴿يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ﴾: يواظبُون على عبادتِها، وكانت تماثيلَ بقرٍ، وبكسرِ الكافِ: حمزةُ وعليٌّ[2].

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا﴾: صنماً نعكُفُ عليه ﴿كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾: أصنامٌ يعكُفون عليها، و(ما): كافةٌ للكافِ، ولذلك وقعت الجملةُ بعدَها، قال يهوديٌّ لعليٍّ رضي الله عنه: اختلفتُم بعد نبيِّكم قبلَ أن يجفَّ ماؤه، فقال: قلتُم: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا﴾ ولمّا تجفَّ أقدامُكم، ﴿قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ١٣٨﴾: تعجبٌ من قولِهم على أثر ما رأَوا من الآيةِ العُظمَى، فوصفَهم بالجهلِ المطلقِ وأكَّدَه.

«١٣٩» ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني: عبدةَ تلك التماثيلِ ﴿مُتَبَّرٞ﴾: مهلكٌ؛ من التَّبار، ﴿مَّا هُمۡ فِيهِ﴾ أي: يُتبِّرُ اللهُ ويَهدِمُ دينَهم الذي هم عليه على يدِي، وفي إيقاعِ (هؤلاء) اسماً لـ (إن)،

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٢٢).

(٢) انظر المرجع السابق (ص ١٢٣) وكذا القراءتان الآتيتان.

قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ ....

وتقديم خبرِ المبتدأِ من الجملةِ الواقعةِ خبراً لها. . وَسْمٌ لعبدةِ الأصنام بأنهم هم المعرَّضون للتبارِ، وأنه لا يعدُوهم البتةَ، ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ أي: ما عملُوا من عبادة الأصنام باطلٌ مضمحلٌّ.

《١٤٠》 ﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾: أغيرَ المستحقِّ للعبادةِ أطلبُ لكم معبوداً ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾: حالٌ؛ أي: على عالَمِي زمانِكم.

《١٤١》 ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ ﴿أنجاكم﴾: شاميٌّ، ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾: يبغونَكم شدةَ العذابِ؛ من سامَ السلعةَ: إذا طلبَها، وهو استئنافٌ لا محلَّ له، أو: حالٌ من المخاطبين، أو من (آل فرعون)، ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ ﴿يقْتُلُون﴾: نافعٌ، ﴿وَفِى ذَٰلِكُم﴾ أي: في الإنجاءِ، أو: في العذابِ ﴿بَلَآءٌ﴾: نعمةٌ أو محنةٌ ﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾.

《١٤٢》 ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً﴾ لإعطاءِ التوراةِ، ﴿وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ﴾ روي: أن موسى ﷺ وعدَ بني إسرائيلَ وهو بمصرَ إنْ أهلك الله عدوَّهم. . أتاهم بكتاب من عند الله، فلمّا هلكَ فرعونُ. . سأل موسى ربَّه الكتابَ، فأمره بصومِ ثلاثين يوماً، وهي شهرُ ذي القَعدةِ، فلمّا أتمَّ الثلاثين. . أنكرَ خُلُوفَ فيه فتسوَّكَ، فأوحى الله إليه أمَا علمتَ أن خُلُوفَ فمِ الصائمِ أطيبُ عندي من ريحِ المسك[1]، فأمرَه أن يزيدَ عليها عشرةَ أيامٍ من ذي الحِجةِ لذلك، ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ﴾: ما وَقَّتَ له من الوقت وضربَه له، ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾: نصبٌ على الحال؛ أي: تمَّ بالغاً هذا العددَ، ولقد أجملَ ذكرَ الأربعين في (البقرة)، وفصَّلها هنا، ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ﴾: هو عطفُ بيانٍ (لأخيه): ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى﴾: كن خليفتي فيهم، ﴿وَأَصْلِحْ﴾ ما يجبُ أن يصلحَ من أمورِ بني إسرائيلَ، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾: ومن دعاك منهم إلى الإفسادِ. . فلا تتبعْه ولا تطعْه.

---

(١) في «صحيح البخاري» (١٨٩٤) ومسلم (١١٥١) عن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله تعالى من ريح المسك».

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ ....

《١٤٣》 ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾: لوقتنا الذي وَقَّتْنا له، وحددْنا، ومعنى اللام: الاختصاصُ؛ أي: اختصَّ مجيئُه لميقاتنا[١]، ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ بلا واسطةٍ، ولا كيفيةٍ، وروِيَ: أنه كان يسمعُ الكلامَ من كلِّ جهةٍ، وذكر الشيخُ في «التأويلات»: أن موسى عليه السلام سمعَ صوتاً دالّاً على كلامِ اللهِ تعالى[٢]، وكان اختصاصُه باعتبارِ أنه أسمعَه صوتاً تولّى تخليقَه من غيرِ أن يكون ذلك الصوتُ مكتَسباً لأحد من الخلقِ، وغيرُه يسمعُ صوتاً مكتسباً للعباد، فيفهمُ منه كلامَ الله تعالى، فلمّا سمعَ كلامَه.. طمعَ في رؤيتِه لغلبةِ شوقِه فسألَ الرؤيةَ بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾: ثاني مفعولي (أرني) محذوفٌ؛ أي: أرني ذاتَك أنظرْ إليك؛ يعني: مَكِّنّي من رؤيتِك؛ بأن تَتَجَلّى لي حتى أراك، ﴿أَرْنِيْ﴾: مكيٌّ، وبكسرِ الراء مختلَسة: أبو عمرٍو، وبكسرِ الراءِ مشبعَةً: غيرُهما[٣]، وهو دليلٌ لأهلِ السنةِ على جوازِ الرؤيةِ؛ فإن موسى عليه السلام اعتقدَ أن الله تعالى يُرى حتى سألَه، واعتقادُ جوازِ ما لا يجوزُ على الله كفرٌ، ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِى﴾ بالسؤالِ بعينٍ فانيةٍ، بل بالعطاءِ والنوالِ بعينٍ باقيةٍ، وهو دليلٌ لنا أيضاً؛ لأنه لم يقل: لن أُرى؛ ليكونَ نفياً للجواز، ولو لم يكن مرئيّاً.. لأخبرَ بأنه ليس بمرئيٍّ؛ إذ الحالةُ حالةُ الحاجةِ إلى البيان، ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ﴾: بقيَ على حالِه ﴿فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾ وهو دليلٌ لنا أيضاً؛ لأنه علقَ الرؤيةَ باستقرارِ الجبلِ وهو ممكنٌ، وتعليقُ الشيءِ بما هو ممكنٌ يدلُّ على إمكانِه، كالتعليقِ بالممتنعِ يدلُّ على امتناعِه، والدليلُ على أنه ممكنٌ قولُه: (جعله دكّاً)، ولم يقل: انْدَكَّ، وما أَوْجَدَه تعالى.. كان جائزاً ألا يُوجدَ لو لم يُوجدْه؛ لأنه مختارٌ في فعلِه؛ ولأنه تعالى ما أيْأَسَهُ عن ذلك ولا عاتبه عليه، ولو كان ذلك مُحالاً.. لعاتَبَه كما عاتبَ نوحاً عليه السلامُ بقولِه: ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦] حيث سألَ إنجاءَ ابنِه من الغرقِ، ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ أي: ظهرَ وبانَ ظُهوراً بلا كيفٍ، قال الشيخ أبو منصورٍ رحمه الله: معنى التجلّي للجبل: ما قاله الأشعريُّ: إنه تعالى خلقَ في الجبلِ حياةً وعلماً ورؤيةً حتى رأى ربَّه، وهذا نصٌّ

---

(١) وقيل: اللام بمعنى: عند. انظر «تفسير الألوسي» (٥/ ٤٤).

(٢) انظر «تأويلات أهل السنة» (٢/ ٢٨١).

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ٥٤).

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾

في إثباتِ كونِه مرئيّاً، وبهذه الوجوه يتبينُ جهلُ منكري الرؤيةِ، وقولُهم بأن موسى عليه السلام كان عالماً بأنه لا يُرى ولكن طلبَ قومُه أن يُريَهم ربَّه كما أخبرَ اللهُ تعالى عنهم بقوله: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] فطلبَ الرؤيةَ ليبينَ اللهُ تعالى أنه ليس بمرئيٍّ.. باطلٌ؛ إذْ لو كان كما زعمُوا.. لقالَ: أَرِهم ينظروا إليك، ثم يقول لهم: لن تَروني؛ ولأنها لو لم تكن جائزةً.. لما أخَّر موسى عليه السلامُ الردَّ عليهم، بل كان يردُّ عليهم وقتَ قرعِ كلامِهم سمعَه؛ لما فيه من التقريرِ على الكفر، وهو عليه السلام بُعِثَ لتغييرِه، لا لتقريرِه، ألا تَرى أنهم لما قالُوا له: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ﴾.. لم يُمهلْهم، بل ردَّ عليهم من ساعتِه بقوله: ﴿إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ١٣٨﴾، ﴿جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾: مدكوكاً، مصدرٌ بمعنى المفعولِ، كضَرْبِ الأميرِ، والدقُّ، والدَّكُّ أخوانِ، ﴿دكاءَ﴾: حمزةُ وعليٌّ[1]؛ أي: مستويةً بالأرض، لا أكمةَ فيها، ناقةٌ دكاءُ: لا سَنامَ لها، ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ﴾: حالٌ؛ أي: سقطَ مغشيّاً عليه، ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ من صعقتِه ﴿قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾ من السؤال في الدنيا، ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣﴾ بعظمتِك وجلالِك، وبأنك لا تعطي الرؤيةَ في الدنيا مع جوازها.

وقال الكعبي والأصمُّ: معنى قولِه: (أرني أنظرْ إليك): أرني آيةً أعْلَمْكَ بها بطريقِ الضرورةِ كأني أنظرُ إليك، (لن تراني): لن تطيقَ معرفتي بهذه الصفةِ، (ولكن انظر إلى الجبل) فإني أظهرُ له آيةً، (فإن) ثبت الجبل لتجلِّيها، و(استقر مكانه) فسوف تثبتُ لها وتُطيقُها.

وهذا فاسد؛ لأنه قال: (أرني أنظر إليك) ولم يقل: إليها، وقال: (لن تراني)، ولم يقل: لن ترى آيتي، وكيف يكون معناه: لن ترى آيتي، وقد أراه أعظمَ الآياتِ؛ حيث جعلَ الجبلَ دكّاً.

«١٤٤» ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾: اخترتُك على أهل زمانِك ﴿بِرِسَٰلَٰتِي﴾: هي أسفارُ التوراة، ﴿برسالَتِيْ﴾: حجازيٌّ، ﴿وَبِكَلَٰمِي﴾: وبتكليمي إياك، ﴿فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ﴾: أعطيتك من شرف النبوة والحكمةِ، ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾ على النعمةِ في ذلك؛ فهي من أجلِّ النعمِ، قيل: خرَّ موسى صَعِقاً يومَ عرفةَ، وأعطيَ التوراةَ يومَ النحرِ، ولما كان هارونُ وزيراً وتابعاً لموسى.. تخصصَ الاصطفاءُ بموسى عليه السلامُ.

---

(١) انظر المرجع السابق (ص ١٢٣) وكذا القراءة الآتية.

﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ ....

«١٤٥» ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ﴾: ألواحِ التوراةِ: جمعُ لَوحٍ، وكانت عشرةَ ألواحٍ، وقيل: سبعةً، وكانت من زُمُرُّدٍ، وقيل: من خشبٍ، نزلت من السماء، فيها التوراةُ ﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾: في محلِّ النصبِ على أنه مفعولُ (كتبنا)، ﴿مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾: بدلٌ منه، والمعنى: كتبنا له كلَّ شيءٍ كان بنو إسرائيلَ محتاجين إليه في دينِهم من المواعظِ، وتفصيلِ الأحكامِ، وقيل: أُنزلت التوراةُ وهي سبعون وِقْرَ بعيرٍ[1]، لم يقرأها كلَّها إلا أربعةُ نفرٍ، موسى ويوشَعُ وعُزيزٌ وعيسى عليهم السلام، ﴿فَخُذْهَا﴾: فقلنا له: خذْها: عطفاً على (كتبنا)، والضميرُ لـ (الألواح)، أو: لـ (كلّ شيءٍ)؛ لأنه في معنى الأشياءِ، ﴿بِقُوَّةٍ﴾: بجدٍّ وعزيمةٍ، فِعْلَ أولي العزم من الرسلِ، ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ﴾ أي: فيها ما هو حسنٌ وأحسنُ، كالاقتصاصِ والعفْوِ والانتصارِ والصبرِ، فمُرْهُم أن يأخذُوا بما هو أدخلُ في الحُسْنِ، وأكثرُ للثواب، كقولِه: ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم﴾ [الزمر: ٥٥]، ﴿سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾: دارَ فرعونَ وقومِه، وهي: مصرُ أو: منازلُ عادٍ وثمودَ والقرونِ المهلَكَةِ كيف أَقْفَرَتْ منهم؛ لتعتبرُوا، فلا تفسُقوا مثلَ فسقِهم فينكلَ بكم مثلَ نكالِهم، أو: جهنمَ.

«١٤٦» ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ﴾: عن فهمِها، قال ذو النون قدسَ اللهُ روحَه: أبى اللهُ أن يكرمَ قلوبَ البطالين بمكنونِ حكمةِ القرآن، ﴿ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ﴾: يتطاولون على الخلقِ، ويأنفُون عن قبولِ الحقِّ، وحقيقتُه: التكلفُ للكبرياءِ التي اختصَّت بالباري عزَّت قدرتُه، ﴿فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾: هو حالٌ؛ أي: يتكبرون غيرَ محقِّين؛ لأن التكبرَ بالحقِّ لله تعالى وحدَه، ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ﴾ من الآياتِ المنزلةِ عليهم ﴿لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ﴾: طريقَ صلاحِ الأمرِ، أو: طريقَ الهدى، ﴿ٱلرَّشَدِ﴾: حمزةُ وعليٌّ[2]، وهما كالسُّقم والسَّقَم ﴿لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ﴾: الضلالِ ﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾، ومحلُّ ﴿ذَٰلِكَ﴾: الرفعُ؛ أي: الصرفُ ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾: بسببِ تكذيبِهم، ﴿وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾: غفلةَ عنادٍ وإعراضٍ، لا غفلةَ سهوٍ وجهلٍ.

---

(١) الوِقْرُ: الحِمْلُ.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٢٤) وكذا القراءة الآتية.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ ....

«١٤٧» ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾: هو من إضافةِ المصدرِ إلى المفعولِ به؛ أي: ولقائِهم الآخرةَ، ومشاهدتِهم أحوالَها، ﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ﴾: خبرُ (والذين)، ﴿هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ وهو: تكذيبُ الأحوالِ بتكذيبِ الإرسالِ.

«١٤٨» ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾: من بعدِ ذهابه إلى الطورِ ﴿مِنۡ حُلِيِّهِمۡ﴾: وإنما نُسبت إليهم مع أنها كانت عواريَ في أيديهم؛ لأن الإضافةَ تكون بأدنى مُلابسةٍ، وفيه دليلٌ على أن من حلفَ لا يدخلُ دارَ فلانٍ فدخلَ داراً استعارها.. يحنثُ، على أنَّهم قد مَلَكُوها بعد المهلَكين، كما ملكُوا غيرَها من أملاكِهم، وفيه دليلٌ على أن الاستيلاءَ على أموالِ الكفارِ يوجبُ زوالَ ملكِهم عنها، نعم المتخِذُ هو السامريُّ، ولكنهم رضُوا به، فأُسندَ إليهم، والحُلِيُّ: جمعُ حَلْيٍ، وهو: اسمُ ما يُتَحَسَّنُ به من الذهب والفضة، ﴿حِلِيِّهِم﴾: حمزةُ وعليٌّ؛ للإتباع، ﴿عِجۡلٗا﴾: مفعولُ (اتخذ)، ﴿جَسَدٗا﴾: بدلٌ منه؛ أي: بَدَناً ذا لحمٍ ودمٍ كسائرِ الأجسادِ[1]، ﴿لَّهُۥ خُوَارٌۚ﴾: هو صوتُ البقرِ، والمفعولُ الثاني محذوفٌ؛ أي: إلهاً، ثم عَجَّبَ من عقولهم السخيفةِ فقال: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ حين اتخذُوه إلهاً ﴿أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ﴾: لا يقدرُ على كلامٍ، ولا على هدايةِ سبيلٍ حتى لا يختارُوه على مَن لو كان البحر مداداً لكلماته.. لنفد البحر قبل أن تنفد كلماته، وهو الذي هدى الخلقَ إلى سبيل الحقِّ بما رَكَزَ في العقول من الأدلة، وبما أنزل في الكتب، ثم ابتدأ فقال: ﴿ٱتَّخَذُوهُ﴾ إلهاً، فأقدمُوا على هذا الأمرِ المنكرِ، ﴿وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾.

«١٤٩» ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ﴾: ولما اشتدَّ ندمُهم على عبادةِ العجلِ، وأصلُه: أن مَن اشتدَّ ندمُه أن يَعَضَّ يدَه غمّاً[2]، فتصيرَ يدُه مسقوطاً فيها؛ لأن فاه وقعَ فيها، و(سُقِطَ): مسندٌ إلى (في أيديهم)، وهو من باب الكنايةِ، وقال الزجاج: معناه: سَقَطَ الندمُ في أيديهم؛ أي:

---

(١) في «التحرير والتنوير» (٩/ ١١٠): وما وقع في القصص: أنه كان لحماً ودماً ويأكل ويشرب.. فهو من وضع القصاصين، وكيف والقرآن يقول: (من حليهم)، ويقول: (له خوار)، فلو كان لحماً ودماً.. لكان ذكره أدخلَ في التعجيب منه.

(٢) في «الكشاف» (٢/ ١٥١): لأنَّ مِن شأن مَن اشتدَّ ندمُه وحسرتُه أن يَعَضَّ يدَه غمّاً.
وهي أولى من عبارة الإمام النسفي رحمه الله.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ ....

في قلوبهم وأنفسِهم، كما يقال: حصل في يدِه مكروهٌ وإن استحالَ أن يكون في اليدِ؛ تشبيهاً لما يَحصُل في القلب وفي النفس بما يحصلُ في اليدِ ويُرى بالعين[1]، ﴿وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟﴾: وتبينُوا ضلالَهم تبيُّناً كأنهم أبصروه بعيونِهم ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ ﴿لإنْ لم تَرحمْنا ربَّنا وتَغفرْ لنا﴾: حمزةُ وعليٌّ[2]، وانتصابُ (ربَّنا) على النداء، ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾: المغبونين في الدنيا والآخرةِ.

﴿١٥٠﴾ ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ﴾: من الطور ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾: بني إسرائيلَ ﴿غَضْبَٰنَ﴾: حالٌ من (موسى) ﴿أَسِفًا﴾: حالٌ أيضاً؛ أي: حزيناً ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى﴾: قمتُم مَقامي وكنتُم خُلفائي ﴿مِنۢ بَعْدِىٓ﴾ والخطابُ لِعَبَدَةِ العجلِ من السامريِّ وأشياعِه، أو: لِهارونَ ومَن معَه من المؤمنين، ويدلُّ عليه قولُه: ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى﴾ والمعنى: بئسَما خلفتُموني حيثُ عبدتُم العجلَ مكانَ عبادةِ اللهِ، أو: حيث لم تَكُفُّوا مَن عَبَدَ غيرَ اللهِ، وفاعلُ (بئس): مضمرٌ يفسرُه: (ما خلفتموني)، والمخصوصُ بالذمِّ محذوفٌ، تقديرُه: بئس خلافةً خلفتمُونيها من بعدِي خلافتُكم.

ومعنى (من بعدي) بعدَ قولِه: (خَلَفْتُموني): من بعدِ ما رأيتم منّي من توحيدِ اللهِ ونفيِ الشركاءِ عنه، أو: من بعدِ ما كنت أحملُ بني إسرائيلَ على التوحيد، وأكُفُّهم عن عبادةِ البقرةِ حين قالُوا: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾، ومن حقِّ الخلفاءِ أن يسيرُوا بسيرةِ المستخلِفِ، ﴿أَعَجِلْتُمْ﴾: أَسَبَقْتُم بعبادةِ العجلِ ﴿أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ وهو: إتياني لكم بالتوراة بعدَ أربعين ليلةً، وأصلُ العجلةِ: طلبُ الشيءِ قبلَ حينِه، وقيل: عجلتم بمعنى: تركتم، ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾ ضَجَراً عند استماعِه حديثَ العجلِ غضباً لله، وكان في نفسِه شديدَ الغضبِ، وكان هارونُ أَلينَ منه جانباً، ولذلك كان أحبَّ إلى بني إسرائيل من موسى، فتكسَّرت، فرفعتْ ستةُ أسباعِها، وبقي سُبْعٌ واحدٌ، وكان فيما رفعَ تفصيلُ كلِّ شيءٍ، وفيما بقي هدىً ورحمةٌ، ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾: بشعرِ رأسِه غضباً عليه، حيث لم يمنعْهم عن عبادةِ العجلِ ﴿يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ عتاباً عليه، لا هَواناً به،

---

(١) انظر «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ٣٧٨).
(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص١٢٢).

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ ....

وهو: حالٌ من (موسى)، ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ﴾ بُنيَ الابنُ مع الأمِّ على الفتحِ ك: خمسةَ عشرَ[1]، وبكسرِ الميمِ: حمزةُ وعليٌّ وشاميٌّ[2]؛ لأن أصله: أُمِّي، فحذفَ الياءَ اجتزاءً عنها بالكسرةِ، وكان ابنَ أمِّهِ وأبيه، وإنما ذكرَ الأمَّ؛ لأنها كانت مؤمنةً؛ ولأن ذكرَها أدعى إلى العطف، ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِي﴾ أي: إني لم آلُ جهداً في كفِّهم بالوعظِ والإنذارِ، ولكنهم استضعفُوني وهمُّوا بقتلي، ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ الذين عبدُوا العِجلَ؛ أي: لا تفعل بي ما هو أمنيتُهم من الاستهانةِ بي والإساءةِ إليَّ، ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ أي: قريناً لهم بِغَضَبِكَ عليَّ، فلما اتضح له عذرُ أخيه:

《١٥١》 ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي﴾ لِيُرضيَ أخاه وينفيَ الشماتةَ عنه بإشراكِه معه في الدعاء، والمعنى: اغفرْ لي ما فرطَ مني في حقِّ أخي، ولأخي إن كان فرَّطَ في حُسنِ الخلافةِ، ﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾: عصمتِك في الدنيا، وجنتِك في الآخرة، ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾.

《١٥٢》 ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ﴾ إلهاً ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾: هو ما أُمروا به من قتلِ أنفسِهم توبةً، ﴿وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: خروجُهم من ديارِهم، فالغُربةُ تُذِلُّ الأعناقَ، أو: ضربُ الجزيةِ عليهم، ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾: الكاذبين على الله، ولا فِريةَ أعظمُ من قولِ السامريِّ: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ [طه: ٨٨].

《١٥٣》 ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ من الكفرِ والمعاصِي، ﴿ثُمَّ تَابُوا۟﴾: رجعوا إلى الله ﴿مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟﴾: وأخلصُوا الإيمانَ ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا﴾ أي: السيئاتِ، أو: التوبةِ ﴿لَغَفُورٌ﴾: لستُورٌ عليهم، محّاءٌ لِما كان منهم، ﴿رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾: منعمٌ عليهم بالجنةِ و(إنَّ) مع اسمِها وخبرِها: خبرُ (والذين)، وهذا حكمٌ عامٌّ يدخلُ تحتَه مُتخذُو العجلِ وغيرُهم، عَظَّمَ جناياتِهم أوّلاً، ثمَّ أردفَها بعظمِ رحمتِه؛ لِيُعْلِمَ أن الذنوبَ وإن عَظُمَتْ.. فعفوُه أعظمُ.

---

(١) وفيه وجهان آخران: الأول: أن يكون الأصل: يا ابن أُمّا، ثم حذفت الألف التي هي بدلٌ من ياءِ المتكلمِ تخفيفاً، والثاني: أن تكون فتحةُ الميمِ إتباعاً لفتحةِ النونِ في (ابن)، وموضعُ (أم): الجرُّ بالإضافة. انظر «شرح المفصل» لابن يعيش (١/ ٣٥٦).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٢٤).

وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾

«١٥٤» ولما كان الغضبُ لشدتِه كأنه هو الآمرُ لموسى بما فعلَ. قيل: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾[١]، وقال الزجاج: معناه: سكنَ[٢]، وقرئ به[٣]، ﴿أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾ التي ألقاها ﴿وَفِى نُسْخَتِهَا﴾: وفيما نُسِخَ منها؛ أي: كتب، (فُعْلَة) بمعنى (مفعول) كالخُطْبَة، ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ دخلت اللام؛ لتقدم المفعولِ، وضعفِ عملِ الفعلِ فيه باعتباره[٤].

«١٥٥» ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ أي: مِن قومِه، فحُذفَ الجارُّ وأُوصلَ الفعلُ، ﴿سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ قيل: اختارَ مِن اثني عشرَ سبطاً مِن كلِّ سِبطٍ ستةً فبلغُوا اثنين وسبعين رجلاً، فقال: ليتخلفْ منكم رجلانِ، فقعدَ كالبُ ويُوشَعُ ﴿لِّمِيقَـٰتِنَا﴾: لاعتذارِهم عن عبادةِ العجلِ، ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾: الزلزلةُ الشديدةُ ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ﴾ بما كان منهم من عبادةِ العجلِ ﴿وَإِيَّـٰىَ﴾ لقتلي القِبطيِّ، ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾: أتهلكُنا عقوبةً بما فعلَ الجُهّالُ منا وهم أصحاب العِجلِ، ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾: ابتلاؤُك، وهو راجعٌ إلى قولِه: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ﴾ [طه: ٨٥]، فقال موسى: هي تلك الفتنةُ التي أخبرتَني بها، وهي: ابتلاءُ اللهِ تعالى عبادَه بما شاءَ ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الانبياء: ٣٥] ﴿تُضِلُّ بِهَا﴾: بالفتنة ﴿مَن تَشَآءُ﴾: من علمت منهم اختيارَ الضلالةِ، ﴿وَتَهْدِى﴾ بها ﴿مَن تَشَآءُ﴾: من علمتَ منهم اختيارَ الهدى، ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾: مولانا القائم بأمورِنا ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾.

«١٥٦» ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا﴾: وأثبتْ لنا واقسِم ﴿فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾: عاقبةً وحياةً طيبةً، وتوفيقاً في الطاعة، ﴿وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾: الجنةَ ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾: تُبنا إليك، وهادَ إليه يَهُودُ: إذا رجعَ

---

(١) ففي الآية استعارةٌ مكنيةٌ حيث شبه الغضبُ بشخصٍ ناهٍ آمرٍ، ورمزَ له بشيء من لوازمِه، وهو السكوت.

(٢) انظر «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ٣٧٩).

(٣) انظر «تفسير الثعلبي» (٤/ ٢٨٧).

(٤) اللام في (لربهم): لامُ التقوية، زيدت في المفعول به؛ لتقويةِ الفعل؛ لأنه ضعفَ بتقديمِ معمولِه.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ ....

وتابَ، والهُودُ: جمعُ هائدٍ، وهو التائبُ، ﴿قَالَ عَذَابِيٓ﴾: من صفتِه أني ﴿أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾ أي: لا أعفو عنه، ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي: من صفةِ رحمتي أنها واسعةٌ تبلغُ كلَّ شيءٍ، ما مِن مسلم ولا كافرٍ إلا وعليه أثرُ رحمتي في الدنيا، ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ أي: هذه الرحمةَ ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الشركَ من أمةِ محمدٍ عليه السلام، ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ المفروضةَ ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا﴾: بجميعِ كتبِنا ﴿يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ لا يكفرون بشيءٍ منها.

«١٥٧» ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ﴾: الذي نُوحي إليه كتاباً مختصّاً به وهو القرآن، ﴿ٱلنَّبِيَّ﴾: صاحبَ المعجزاتِ ﴿ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ﴾ أي: يجدُ نعتَه أولئك الذين يتبعونَه من بني إسرائيلَ، ﴿مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: بخلعِ الأندادِ وإنصافِ العبادِ، ﴿وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾: عبادةِ الأصنامِ وقطيعةِ الأرحامِ، ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾: ما حرَّمَ عليهم من الأشياء الطيبةِ، كالشحوم وغيرِها، أو: ما طاب في الشريعةِ مما ذكر اسمُ الله عليه من الذبائح، وما خلا كسبُه من السُّحْتِ، ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾: ما يُستخبثُ كالدم والميتةِ ولحمِ الخنزيرِ، وما أهلَّ لغيرِ اللهِ به، أو: ما خبث في الحكمِ، كالرِّبا والرِّشوةِ ونحوِهما من المكاسبِ الخبيثةِ.

﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ هو: الثقلُ الذي يأصِرُ صاحبَه؛ أي: يحبسُه من الحراكِ لثقلِه، والمرادُ: التكاليفُ الصعبةُ، كقتلِ النفسِ في توبتِهم، وقطعِ الأعضاءِ الخاطئةِ، ﴿آصارَهم﴾: شاميٌّ: على الجمعِ[1]، ﴿وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ هي: الأحكامُ الشاقَّةُ نحوُ: بَتِّ القضاءِ بالقصاصِ عمداً كان أو خطأً من غيرِ شرعِ الديةِ، وقرضِ موضعِ النجاسةِ من الجلدِ والثوبِ، وإحراقِ الغنائمِ، وظهورِ الذنوبِ على أبوابِ البيوتِ، وشُبِّهت بالغُلِّ؛ للزومها لزومَ الغُلِّ، ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ﴾: بمحمدٍ عليه السلام، ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾: وعظَّموه، أو: منعُوه من العدوِّ حتى لا يقوَى عليه عدوٌّ، وأصلُ العَزْرِ: المنعُ، ومنه التعزيرُ؛ لأنه منعٌ عن معاودةِ القبيحِ، كالحدِّ وهو: المنعُ، ﴿وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ أي: القرآنَ و(مع): متعلقٌ بـ (اتبعوا) أي:

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٢٥).

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ ....

واتبعوا القرآنَ المنْزلَ، معَ اتباعِ النبيِّ والعملِ بسنتِه[١]، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾: الفائزون بكلِّ خيرٍ، والناجون من كلِّ شرٍّ.

《١٥٨》 ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ بُعِثَ كلُّ رسولٍ إلى قومِه خاصةً، وبُعِثَ محمدٌ عليه السلام إلى كافّةِ الإنسِ، وكافّةِ الجنِّ ﴿جَمِيعًا﴾: حالٌ مِن (إليكم)، ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: في محلِّ النصبِ بإضمارٍ: أعني، وهو: نصبٌ على المدحِ، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: بدلٌ من الصلةِ وهي (له ملك السموات والأرض)، وكذلك (يحيي ويميت) وفي (لا إله إلا هو): بيانٌ للجملة قبلها؛ لأن من ملك العالم كان هو الإله على الحقيقة، وفي (يحيي ويميت) بيانٌ لاختصاصِه بالإلهيةِ؛ إذْ لا يَقدرُ على الإحياءِ والإماتةِ غيرُه، ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي: الكتبِ المنزلةِ، ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾: ولم يقل: فآمنوا بالله وبي، بعدَ قوله: (إني رسول الله إليكم)؛ لتجري عليه الصفاتُ التي أُجريت عليه، ولِما في الالتفاتِ من مزيةِ البلاغةِ[٢]، وليعلمَ أن الذي وجب الإيمان به هو هذا الشخص الموصوفُ بأنه النبيُّ الأميُّ الذي يؤمنُ بالله وكلماتِه كائناً من كان، أنا أو غيري؛ إظهاراً للنَّصَفةِ، وتفادياً من العصبيةِ لنفسِه.

《١٥٩》 ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: يهدُون الناسَ مُحقِّينَ، أو: بسببِ الحقِّ الذي هم عليه[٣]، ﴿وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾: وبالحقِّ يعدِلون بينهم في الحكم، لا يجورُون، قيل: هم قومٌ وراءَ الصين، آمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام ليلةَ المعراج، أو: هم عبدُ اللهِ بنُ سلامٍ وأضرابُه.

---

(١) ويجوز أن يتعلق بـ(أنزل)، والمعنى: أنزلَ مع نبوّته، لأنّ استنباءه كان مصحوباً بالقرآن مشفوعاً به. انظر «الكشاف» (٢/ ١٥٧).

(٢) الالتفات هو: العدولُ عن الغيبة إلى الخطاب أو التكلم، أو على العكس، ومن فوائد الالتفات هنا: إعلانُ تحققِ الصفةِ الموعودِ بها في التوراة في ذات سيدنا محمدٍ ﷺ. انظر «التحرير والتنوير» (٩/ ١٤١).

(٣) أي: أن الباء للمصاحبة أو للسببية.

وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًاۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًاۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ ....

«١٦٠» ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ﴾: وصيَّرناهم قطعاً؛ أي: فِرقاً، وميَّزْنا بعضَهم من بعض، ﴿ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا﴾ كقولك اثنتي عشرةَ قبيلةً، والأسباطُ: أولادُ الولدِ، جمعُ سِبْطٍ، وكانوا اثنتي عشرةَ قبيلةً من اثني عشر ولداً من ولدِ يعقوبَ عليه السلامُ.

نَعَمْ مُمَيِّزُ ما عدا العشرةَ مفردٌ، فكان ينبغي أن يُقالَ: اثني عشرَ سِبطاً، لكن المراد: وقطعناهم اثنتي عشرةَ قبيلةً، وكلُّ قبيلةٍ أسباطٌ لا سِبْطٌ، فوُضعَ: أسباط موضعَ: قبيلة[1].

﴿أُمَمًا﴾: بدلٌ من ﴿ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ﴾ أي: وقطعناهم أُمماً؛ لأن كلَّ أسباطٍ كانت أمةً عظيمةً، وكلُّ واحدةٍ كانت تَؤُمُّ خلافَ ما تَؤُمُّه الأخرى.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ فضَرَبَ ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ﴾: فانفجرت ﴿مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًاۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ هو اسمُ جمعٍ غيرُ تكسيرٍ[2]، ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ﴾: وجعلناه ظليلاً عليهم في التيه، ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ وقلنا لهم: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْۚ وَمَا ظَلَمُونَا﴾: وما رجعَ إلينا ضررُ ظلمِهم بكفرانِهم النعمَ ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾: ولكن كانوا يَضُرُّون أنفسَهم، ويرجعُ وبالُ ظلمِهم إليهم.

«١٦١» ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ﴾: واذكر إذْ قيلَ لهم: ﴿ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾: بيتَ المقدسِ ﴿وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ﴾ ﴿تُغفَرْ لكم﴾: مدنيٌّ وشاميٌّ[3]، ﴿خَطِيئاتُكم﴾: مدنيٌّ، ﴿خطاياكم﴾: أبو عمرٍو، ﴿خَطِيئَتُكم﴾: شامي، ﴿سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾﴾.

---

(١) كل فرقة من الفرق المقطعة هي أسباط، فلو قيل: اثني عشر سبطاً.. لكان المعنى: اثني عشر ولداً، وليس هذا المراد، بل المراد: اثنتي عشرةَ قبيلةً أسباطاً، فحذف التمييز وهو قبيلة وأقيمت صفته وهي أسباطاً مقامَه، وأعربت إعرابه. انظر «الإكليل» (٣/ ٤٨٦).

(٢) أي: كلمة (أناس) ليست جمع تكسير؛ لأن (فُعالاً) ليست من أوزان الجموع، ولكنها اسمُ جمعٍ، واسم الجمع: ما لا مفرد له من لفظه.

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٢٥) وكذا القراءة الآتية.

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ١٦٢ وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ١٦٣﴾ ....

《١٦٢》 ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ١٦٢﴾.

ولا تناقضَ بين قولِه: ﴿ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ وَكُلُواْ مِنۡهَا﴾، وبين قولِه في (البقرة): ﴿ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ﴾ [البقرة: ٥٨]؛ لوجودِ الدخولِ والسُّكنى، وسواءٌ قدَّموا الحِطَّةَ على دخولِ البابِ أو أخرُوها فهم جامعون بينَهما، وتَرْكُ ذكرِ الرَّغَدِ لا يناقضُ إثباتَه، وقولُه: ﴿نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٦١﴾: مَوعدٌ بشيئين: بالغفرانِ وبالزيادةِ، وطَرْحُ الواوِ لا يُخِلُّ بذلك؛ لأنه استئنافٌ مرتبٌ على تقدير قول القائل: وماذا بعدَ الغفران؟ فقيل له: ﴿سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٦١﴾، وكذلك زيادةُ (منهم): زيادةُ بيان، و﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ و﴿أَنزَلۡنَا﴾ [البقرة: ٩٩]، و﴿يَظۡلِمُونَ﴾ و﴿يَفۡسُقُونَ﴾ [البقرة: ٥٩]: من وادٍ واحدٍ[1].

《١٦٣》 ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ﴾: واسأل اليهودَ ﴿عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾: أيلةَ، أو مَدْيَنَ، وهذا السؤال للتقريع بقديم كفرِهم، ﴿ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ﴾: قريبةً منه؛ ﴿إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ﴾: إذ يتجاوزون حدَّ اللهِ فيه، وهو اصطيادُهم في يوم السبتِ وقد نُهُوا عنه، ﴿إِذۡ يَعۡدُونَ﴾: في محلِّ الجرِّ بدلٌ من (القرية)، والمرادُ بالقرية: أهلُها، كأنه قيل: واسألهم عن أهلِ القريةِ وقتَ عُدوانِهم في السبت، وهو من بدلِ الاشتمال، ﴿إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ﴾: منصوبٌ بـ (يَعدُون)، أو: بدلٌ بعد بدلٍ، ﴿حِيتَانُهُمۡ﴾: جمعُ حوتٍ، أُبدلت الواوُ ياءً لِسكونها وانكسارِ ما قبلَها، ﴿يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا﴾: ظاهرةً على وجهِ الماءِ، جمعُ شارعٍ، حالٌ من الحيتانِ، والسبتُ: مصدرَ سَبَتَتِ اليهودُ: إذا عظَّمت سبتَها بتركِ الصيدِ والاشتغالِ بالتعبدِ؛ والمعنى: إذْ يعدُون في تعظيم هذا اليوم، وكذا قولُه: (يوم سبتِهم) معناه: يومَ تعظيمِهم أمرَ السبتِ، ويدلُّ عليه: ﴿وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡ﴾، و (يوم): ظرفُ (لا تأتيهم)، ﴿كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ١٦٣﴾: مثلَ ذلك البلاءِ الشديدِ نبلُوهم بفسقِهم.

---

(١) أي: لا يضر الاختلاف في هذه الألفاظ بين (البقرة) و(الأعراف) في القصة الواحدة؛ للتقارب في المعنى بينها.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾

«١٦٤» ﴿وَإِذْ قَالَتْ﴾: معطوفٌ على ﴿إِذْ يَعْدُونَ﴾، وحكمُه حكمُه في الإعراب، ﴿أُمَّةٌ مِّنْهُمْ﴾: جماعةٌ من صُلحاءِ القريةِ الذين أَيِسُوا من وعظِهم بعدَ ما ركبُوا الصعبَ والذَّلول في موعظتِهم[1].. لآخرينَ لا يُقلعون عن وعظِهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ وإنما قالُوا ذلك لِعلمِهم أن الوعظَ لا ينفعُ فيهم ﴿قَالُوا مَعْذِرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ﴾ أي: موعظتُنا إبلاءُ عذرٍ إلى الله[2]؛ لئلا نُنْسَبَ في النهي عن المنكر إلى التفريطِ ﴿مَعْذِرَةً﴾: حفصٌ[3]، على أنه مفعولٌ له؛ أي: وعظناهم للمعذرةِ ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾: ولطمعِنا في أن يتقُوا.

«١٦٥» ﴿فَلَمَّا نَسُوا﴾ أي: أهلُ القريةِ لما تَرَكُوا ﴿مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾: ما ذكَّرهم به الصالحون تَرْكَ الناسي لِما يَنساه ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾: عن العذابِ الشديدِ ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾: الراكبين للمنكرِ، والذين قالُوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ﴾ مِن الناجين، فعن الحسن: نجتْ فِرقتان، وهلكت فِرقةٌ، وهم الذين أخذوا الحيتانَ، ﴿بِعَذَابٍ بَـِٔيسٍ﴾: شديدٍ؛ يقال: بَؤُسَ يَبْؤُسُ بَأساً: إذا اشتدَّ، فهو بَئِيْسٌ، ﴿بِئْسٍ﴾: شاميٌّ، ﴿بِيسٍ﴾: مدنيٌّ، ﴿بَيْئَسٍ﴾ على وزن (فيعل): أبو بكرٍ غيرَ حماد، ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾.

«١٦٦» ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً﴾ أي: جعلناهم قردة أذلاء ﴿خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾: مبعدين، وقيل: (فلمّا عتوا) تكريرٌ لقولِه: (فلما نسوا)، والعذابُ البَئِيْسُ هو: المسخُ، قيل: صارَ الشُّبانُ قردةً، والشيوخُ خنازيرَ، وكانوا يعرفُون أقاربَهم ويبكون ولا يتكلمُون، والجمهورُ على أنها ماتت بعدَ ثلاثٍ، وقيل: بقيتْ وتناسلتْ.

«١٦٧» ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ أي: أعلمَ، وأُجريَ مُجرى فعلِ القسمِ؛ ولذا أُجيبَ بما يُجاب

---

(١) الصعبُ والذَّلول في الإبل، فالصعبُ: العَسِرُ المرغوبُ عنه، والذَّلولُ: السهلُ الطيبُ المحبوبُ المرغوبُ فيه، والمراد: أنهم سلكوا في وعظهم كل سبيل فلم يتعظوا.

(٢) أبلاه عُذراً: أدّاه إليه فَقَبِلَه.

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٢٥) وكذا القراءة الآتية.

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ ....

به القسمُ، وهو قولُه: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: كتبَ على نفسِه ليسلطَنَّ على اليهودِ ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ﴾: مَن يُوْلِيْهِم ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ فكانُوا يؤدُّون الجزيةَ إلى المجوسِ إلى أن بُعثَ محمدٌ عليه السلام فضربَها عليهم، فلا تزالُ مضروبةً عليهم إلى آخرِ الدهرِ، ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ للكفار، ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾ للمؤمنين.

«١٦٨» ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا﴾: وفرَّقْناهم فيها، فلا تخلُو بلدٌ عن فِرقةٍ منهم، ﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾: الذين آمنُوا منهم بالمدينة، أو: الذين وراءَ الصِّينِ، ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾: ومنهم ناسٌ دون ذلك الوصفِ مُنْحطُّونَ عنه، وهم الفسقةُ، ومحلُّ ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾: الرفعُ، وهو صفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ؛ أي: ومنهم ناسٌ مُنْحَطُّونَ عن الصلاحِ، ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: بالنعمِ والنقمِ والخِصبِ والجَدْبِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾: ينتهون فيُنيبون.

«١٦٩» ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾: من بعدِ المذكورين ﴿خَلْفٌ﴾: وهم الذين كانُوا في زمنِ رسولِ اللهِ عليه السلام، والخَلْفُ: بدلُ السوءِ، بخلافِ الخَلَفِ فهو الصالحُ، ﴿وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾: التوراةَ، ووقفُوا على ما فيها من الأوامر والنواهي، والتحليل والتحريم، ولم يعملُوا بها، ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ هو: حالٌ من الضميرِ في (ورثوا)، والعَرَضُ: المتاعُ؛ أي: حطامُ هذا الشيءِ الأدنى؛ يريدُ الدنيا، وما يُتمتعُ به منها، وهو من الدنوِّ؛ بمعنى القربِ؛ لأنه عاجلٌ قريبٌ، والمرادُ ما كانُوا يأخذونَه من الرِّشا في الأحكام وعلى تحريفِ الكلمِ، وفي قوله: (هذا الأدنى): تخسيسٌ وتحقيرٌ، ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾: لا يُؤاخذُنا اللهُ بما أخذنا، والفعلُ مسندٌ إلى الأخذِ، أو: إلى الجارِّ والمجرورِ؛ أي: (لنا)[1]، ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾ الواوُ: للحال؛ أي: يرجُون المغفرةَ وهم مصرُّون عائدون إلى مثلِ فعلِهم غيرُ تائبين، ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: الميثاقُ المذكورُ في الكتاب: ﴿أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ أي: قد أُخِذَ عليهم الميثاقُ في كتابِهم ألا يقولُوا على اللهِ إلا الصدقَّ، وهو عطفُ بيان لـ (ميثاق الكتاب) ﴿وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ﴾: وقرؤوا ما في الكتابِ، وهو عطفٌ على (ألم يؤخذ عليهم)؛ لأنه تقريرٌ، فكأنه قيل: أُخِذَ

---

(١) أي: نائب الفاعل: إما ضميرٌ عائدٌ على مصدرِ (يأخذون)، أو: هو الجارُّ والمجرور (لنا).

﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ الصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾

عليهم ميثاقُ الكتابِ ودرسُوا ما فيه، ﴿وَالدَّارُ الْءَاخِرَةُ خَيْرٌ﴾ من ذلك العَرَضِ الخسيسِ، ﴿لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الرِّشا والمحارمَ، ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أنه كذلك، وبالتاء: مدنيٌّ وحفصٌ[1].

«١٧٠» ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَٰبِ﴾ ﴿يُمْسِكُونَ﴾: أبو بكرٍ، والإمساكُ والتمسيكُ والتمسُّكُ: الاعتصامُ والتعلُّقُ بالشيءِ، ﴿وَأَقَامُوا۟ الصَّلَوٰةَ﴾: خَصَّ الصلاةَ مع أن التمسكَ بالكتابِ يشتملُ على كلِّ عبادةٍ؛ لأنها عمادُ الدينِ، و(الذين): مبتدأٌ، والخبرُ: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾ أي: إنا لا نضيع أجرهم، وجازَ أن يكون مجروراً عطفاً على (الذين يتقون)، و(إنا لا نضيع): اعتراضٌ[2].

«١٧١» ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾: واذكروا إذ قَلَعْناه ورفعناه، كقولِه: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ [البقرة: ٦٣] ﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾: هي كلُّ ما أظلَّكَ من سقيفةٍ أو سحابٍ، ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾: وعلمُوا أنه ساقطٌ عليهم، وذلك أنهم أبوا أن يقبلُوا أحكامَ التوراةِ؛ لغلظِها وثقلِها، فرفع اللهُ الطورَ على رؤوسِهم مقدارَ عسكرِهم، وكان فرسخاً في فرسخٍ، وقيل لهم: إن قبلتُمُوها بما فيها، وإلّا . . ليقعن عليكم، فلمّا نظرُوا إلى الجبل . . خرَّ كلُّ رجلٍ منهم ساجداً على حاجبِه الأيسرِ وهو ينظرُ بعينه اليمنى إلى الجبل فَرَقاً من سقوطِه، فلذلك لا تَرى يهودياً يسجدُ إلا على حاجبِه الأيسرِ، ويقولون هي السجدةُ التي رُفعت عنا بها العقوبةُ، وقلنا لهم: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم﴾ من الكتاب ﴿بِقُوَّةٍ﴾ وعزم على احتمالِ مشاقِّه وتكاليفِه، ﴿وَاذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ﴾: من الأوامرِ والنواهي، ولا تنسوه، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾ ما أنتم عليه.

«١٧٢» ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ أي: واذكروا إذْ أخذَ ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾: بدلٌ مِن (مِن بني آدمَ)، والتقديرُ: وإذ أخذَ ربُّك من ظهورِ بني آدمَ ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ ومعنى أخْذِ ذُرِّياتِهم من ظهورِهم: إخراجُهم من أصلابِ آبائِهم، ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾: هذا

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٢٥) وكذا القراءة الآتية.

(٢) أي: اعتراض تذييلي، والتذييلُ: تعقيبُ الجملة بجملةٍ أخرى تشتملُ على معناها توكيداً لمنطوقها، أو لمفهومِها. انظر «البلاغة العربية» (٢/ ٨٦).

﴿أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾ ....

من باب التمثيلِ، ومعنى ذلك: أنه نصبَ لهم الأدلةَ على ربوبيتِهِ ووحدانيتِه، وشهدت بها عقولُهم التي ركَّبَها فيهم، وجعلها مميِّزَةً بين الهدى والضلالةِ، فكأنه أشهدَهم على أنفسِهم وقرَّرَهم وقال لهم: ألست بربكم؟ وكأنهم قالوا: بلى أنت ربُّنا، شهدْنا على أنفسنا، وأقرَرْنا بوحدانيتِك، ﴿أَن تَقُولُوا۟﴾: مفعولٌ له؛ أي: فعلنا ذلك من نصبِ الأدلةِ الشاهدةِ على صحتِها العقولُ كراهةَ أن تَقولُوا ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾: لم نُنبَّهْ عليه.

«١٧٣» ﴿أَوْ تَقُولُوٓا۟﴾: أو كراهةَ أن تقولُوا: ﴿إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ فاقتدينا بهم؛ لأن نصبَ الأدلةِ على التوحيدِ وما نُبِّهُوا عليه قائمٌ معهم، فلا عذرَ لهم في الإعراض عنه، والاقتداءِ بالآباء، كما لا عذرَ لآبائِهم في الشركِ وأدلةُ التوحيدِ منصوبةٌ لهم، ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ أي: كانوا السببَ في شركِنا؛ لتأسيسِهم الشركَ وتركِه سنةً لنا.

«١٧٤» ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: ومثلَ ذلك التفصيلِ البليغ ﴿نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ لهم، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾ عن شركِهم نُفَصِّلُها.

إلى هذا ذهبَ المحققون من أهلِ التفسيرِ، منهم الشيخُ أبو منصورٍ، والزجاجُ، والزمخشريُّ[١].

وذهب جمهورُ المفسرين إلى أن اللهَ تعالى أخرجَ ذريةَ آدمَ من ظهرِ آدمَ مثلَ الذرِّ، وأخذَ عليهم الميثاقَ أنه ربُّهم بقولِه: (ألستُ بِربِّكم)، فأجابُوه بـ(بلى) قالوا: وهي الفطرةُ التي فطرَ اللهُ الناسَ عليها، وقال ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: أخرجَ اللهُ من ظهرِ آدمَ ذريتَه، وأراه إياهم كهيئةِ الذَّرِّ، وأعطاهم من العقلِ، وقال: هؤلاءِ ولدُكَ، آخذُ عليهم الميثاقَ أن يَعبدوني[٢].

قيل: كان ذلك قبلَ الدخولِ في الجنةِ بين مكةَ والطائفِ، وقيل: بعدَ النُّزول من الجنةِ، وقيل: في الجنةِ.

والحجةُ للأولين أنه قال: (من بني آدمَ من ظهورهم)، ولم يقل: من ظهرِ آدمَ، ولأنا لا نتذكرُ ذلك، فأنَّى يصيرُ حجةً!

---

(١) انظر «تأويلات أهل السنة» (٢/ ٣٠٥)، و«الكشاف» (٢/ ١٦٦).

(٢) روى نحوه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٢٣٧).

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ....﴾

﴿ذُرِّياتِهم﴾: مدنيٌّ وبصريٌّ وشاميٌّ[١]، ﴿أن يَقولُوا﴾ ﴿أو يَقولُوا﴾: أبو عمرٍو.

«١٧٥» ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ﴾: على اليهودِ ﴿نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾: هو عالمٌ من علماءِ بني إسرائيلَ، وقيل: هو بلعمُ بن باعوراءَ[٢]، أُوتيَ علمَ بعضِ كتبِ اللهِ ﴿فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾: فخرجَ من الآياتِ بأن كفرَ بها ونبذَها وراءَ ظهرِه، ﴿فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾: فلحقَه الشيطانُ وأدركه وصار قريناً له، ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾﴾: فصار من الضالين الكافرين، رويَ: أن قومَه طلبُوا منه أن يدعوَ على موسى ومن معه فأبى، فلم يزالُوا به حتى فعل، وكان عنده اسمُ اللهِ الأعظم.

«١٧٦» ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ﴾ إلى منازلِ الأبرارِ من العلماء ﴿بِهَا﴾: بتلك الآياتِ، ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾: مال إلى الدنيا ورغِبَ فيها، ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ في إيثارِ الدنيا ولذاتِها على الآخرةِ ونعيمِها ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ﴾: أي: تزجُرْه وتطردْه ﴿يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ﴾: غيرَ مطرودٍ ﴿يَلۡهَثۚ﴾ والمعنى: فصفتُه التي هي مَثَلٌ في الخِسةِ والضَّعةِ كصفةِ الكلبِ في أخسِّ أحوالِه وأذلِّها، وهي حال دوامِ اللَّهْث به، سواءٌ حُملَ عليه؛ أي: شُدَّ عليه وهِيْجَ فَطُرِدَ، أو تُرِكَ غيرَ متعرَّضٍ له بالحملِ عليه، وذلك أن سائرَ الحيوانِ لا يكونُ منه اللَّهْثُ إلا إذا حُرِّكَ، أما الكلب.. فيلهث في الحالين، وكان مقتضى الكلام أن يقال: ولكنه أخلدَ إلى الأرض فحطَطْناه ووضعْنا منزلتَه، فَوُضِعَ هذا التمثيلُ موضعَ فحططناه أبلغَ حطٍّ، ومحلُّ الجملةِ الشرطيةِ: النصبُ على الحال، كأنه قيل: كمثلِ الكلبِ ذليلاً دائمَ الذلةِ لاهثاً في الحالين.

وقيل: لما دعا بَلْعَمُ على موسى.. خرجَ لسانُه فوقعَ على صدره، وجعلَ يلهثُ كما يلهثُ الكلبُ، وقيل: معناه: هو ضالٌّ وُعِظَ أو تُرِكَ، وعن عطاءٍ: من علم ولم يعمل.. فهو كالكلب ينبحُ، طُرِدَ أو تُرِكَ، ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ﴾: من اليهودِ بعد ما قرؤوا نعتَ رسولِ اللهِ ﷺ في التوراة، وذكرَ القرآنِ المعجزِ وما فيه، وبَشَّرُوا الناسَ باقترابِ مبعثِه، ﴿فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ﴾ أي: قصصَ بلعمَ الذي هو نحوُ قَصَصِهم، ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ فيحذرون مثلَ عاقبتِه إذا سارُوا نحوَ سيرتِه.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٢٦) وكذا القراءة الآتية.

(٢) هذا قول سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، رواه عنه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٢٦).

﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ....﴾

《١٧٧》 ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ أي: مثلُ القومِ فحُذفَ المضافُ، وفاعلُ (ساء): مضمرٌ؛ أي: ساءَ المثلُ مثلاً، وانتصابُ (مثلاً) على التمييزِ، ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾: معطوفٌ على (كذبوا) فيدخلُ في حيِّزِ الصلةِ؛ أي: الذين جمعُوا بين التكذيبِ بآياتِ اللهِ وظلمِ أنفسِهم، أو: منقطعٌ عن الصلةِ؛ أي: وما ظلموا إلا أنفسَهم بالتكذيب، وتقديمُ المفعولِ به للاختصاصِ؛ أي: وخَصُّوا أنفسَهم بالظلمِ لم يتعدَّ إلى غيرها.

《١٧٨》 ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى﴾: حملَ على اللفظِ، ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ أي: ومن يضللْهُ ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾: حملٌ على المعنى، ولو كان الهدَى من الله البيانَ كما قالت المعتزلة.. لاستوَى الكافرُ والمؤمنُ؛ إذ البيانُ ثابتٌ في حقِّ الفريقين، فدلَّ أنه من الله تعالى التوفيقُ والعصمةُ والمعونةُ، ولو كان ذلك للكافر.. لاهتدى كما اهتدَى المؤمن.

《١٧٩》 ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ هم الكفارُ من الفريقين، المعرضون عن تدبرِ آياتِ اللهِ، واللهُ تعالى علمَ منهم اختيارَ الكفرِ فشاءَ منهم الكفرَ وخلق فيهم ذلك، وجعلَ مصيرَهم جهنمَ لذلك، ولا تنافيَ بين هذا وبين قولِه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذريات: ٥٦] لأنه إنما خلقَ منهم للعبادةِ مَن علمَ أنه يعبدُه، وأما من علمَ أنه يكفرُ به.. فإنما خلقَه لما علمَ أنه يكونُ منه، فالحاصلُ أن من علمَ منه في الأزلِ أنه يكونُ منه العبادةُ.. خلقَه للعبادةِ، ومن علمَ منه أن يكون منه الكفرُ.. خلقَه لذلك، وكمْ من عامٍّ يُرادُ به الخصوصُ، وقولُ المعتزلة بأن هذه لامُ العاقبةِ؛ أي: لما كان عاقبتُهم جهنمَ.. جُعِلَ كأنهم خُلِقُوا لها؛ فراراً عن إرادةِ المعاصي.. عدولٌ عن الظاهرِ، ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ الحقَّ ولا يتفكرون فيه، ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ الرشدَ، ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ الوعظَ، ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ في عدمِ الفقهِ والنظرِ للاعتبارِ، والاستماعِ للتفكرِ، ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ من الأنعام؛ لأنهم كابرُوا العقولَ، وعاندُوا الرسولَ، وارتكبُوا الفضولَ، فالأنعامُ تطلبُ منافعَها، وتهربُ عن مضارِّها، وهم لا يعلمون مضارَّها[1]؛ حيث اختارُوا النارَ، وكيف يستوي المكلفُ المأمورُ والمخلَّى المعذورُ؟ فالآدميُّ

(١) في المطبوع (١/ ١٦٢): (مَضارَّهم) وهو أولى.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾ ....

رُوحانيٌّ شهوانيٌّ، سماويٌّ أرضيٌّ، فإن غلبَ روحُه هواه.. فاقَ ملائكةَ السماواتِ، وإن غلبَ هواه روحَه.. فاقتْه بهائمُ الأرض، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾: الكاملون في الغفلةِ.

«١٨٠» ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾: التي هي أحسنُ الأسماءِ؛ لأنها تدلُّ على معانٍ حسنةٍ:

فمنها: ما يستحقُّه بحقائقِه كالقديم قبلَ كلِّ شيءٍ، والباقي بعدَ كلِّ شيءٍ، والقادرِ على كلِّ شيءٍ، والعالمِ بكلِّ شيءٍ، والواحدِ الذي ليس كمثلِه شيءٌ.

ومنها: ما تستحسنُه الأنفسُ لآثارِها، كالغفورِ والرحيمِ والشكورِ والحليمِ.

ومنها: ما يُوجِبُ التخلقَ به، كالفضلِ والعَفُوِّ.

ومنها: ما يُوجب مراقبةَ الأحوالِ، كالسميعِ والبصيرِ والمقتدرِ.

ومنها: ما يوجبُ الإجلالَ كالعظيمِ والجبارِ والمتكبرِ.

﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾: فسمُّوه بتلك الأسماءِ، ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾: واتركُوا تسميةَ الذين يَميلُون عن الحقِّ والصوابِ فيها فيسمُّونه بغيرِ الأسماءِ الحسنى، وذلك أن يسمُّوه بما لا يجوزُ عليه، نحوُ أن يقولوا: يا سخيُّ، يا رفيقُ، لأنه لم يسمِّ نفسه بذلك[1]، ومن الإلحادِ تسميتُه بالجسمِ والجوهرِ والعقلِ والعلةِ، ﴿يَلْحَدون﴾: حمزةُ[2]، لحدَ وألحدَ: مالَ، ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾.

«١٨١» ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ﴾ للجنةِ؛ لأنه في مقابلةِ ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ ﴿أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾ في أحكامِهم، قيل: هم العلماءُ والدعاةُ إلى الدين، وفيه دلالةٌ على أن إجماعَ كلِّ عصرٍ حجةٌ.

---

(١) المثالُ المناسب قولُهم خطاباً لله: يا أبا المكارم، يا أبيض الوجه، مما يوهم معنىً فاسداً، كما في «تفسير الآلوسي» (٥/ ١١٣)، وأما السخيُّ والرفيقُ.. فقد ورَدا في السنة، روى البخاري (٦٩٢٧) ومسلم (٢٥٩٣) عن النبي ﷺ قال: «يا عائشةُ، إن الله رفيقٌ يحب الرفق في الأمر كله». وروى ابن عدي في «الكامل» (٦/ ٥١٠) عن النبي ﷺ قال: «إن الله جميلٌ يحب الجمالَ، سخيٌّ يحب السخاء».
وقد ذكر ابن عاشور في «التحرير والتنوير» (٩/ ١٨٩) أنَّ معنى الإلحاد في أسماء الله جعلُها مظهراً من مظاهر الكفر، وذلك بإنكار تسميته تعالى بالأسماء الدالة على صفات ثابتة له، وهو الأحقُّ بكمال مدلولها؛ فإنهم أنكروا الرحمن، وجعلوا تسميتَه به في القرآن وسيلةً للتشنيع، ولَمْزِ النبي عليه الصلاة والسلام بأنه عدد الآلهة، ولا أعظمَ من هذا البهتان والجَوْرِ في الجدال، فحُقَّ بأن يسمى إلحاداً؛ لأنه عدول عن الحقِّ بقصد المكابرة والحسد.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٢٦).

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ ....

«١٨٢» ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾: سنستدنيهم قليلاً قليلاً إلى ما يهلكهم ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾ ما يُرادُ بهم، وذلك أن يُواترَ اللهُ نعمَه مع انهماكِهم في الغيِّ، فكلما جدَّدَ عليهم نعمةً.. ازدادُوا بطراً وجددُوا معصيةً فيتدرجُون في المعاصي بسببِ ترادفِ النعمِ ظانِّينَ أن مواترةَ النعمِ أُثْرَةٌ من الله تعالى وتقريبٌ[1]، وإنما هو خِذلانٌ منه وتبعيدٌ، وهو (استفعالٌ) من الدَّرجةِ بمعنى الاستصعادِ، أو الاستنزالِ درجةً بعدَ درجةٍ.

«١٨٣» ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾: عطفٌ على (سنستدرجُهم) أي: أمهِلُهُم، ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾: أَخْذِي شديدٌ، سمّاه كيداً؛ لأنه شبيهٌ بالكيدِ من حيث إنه في الظاهرِ إحسانٌ، وفي الحقيقةِ خذلانٌ.

ولما نسبُوا النبيَّ عليه السلام إلى الجنونِ.. نزل:

«١٨٤» ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم﴾: بمحمدٍ عليه السلام، و(ما): نافيةٌ بعد وقفٍ؛ أي: أوَلَم يتفكرُوا في قولِهم، ثم نفَى عنه الجنونَ بقولِه: (ما بصاحبهم) ﴿مِّن جِنَّةٍ﴾: جنونٍ، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾: منذرٌ من الله، مُوْضِحٌ إنذارَه.

«١٨٥» ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا﴾ نظرَ استدلالٍ ﴿فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الملكوتُ: الملكُ العظيمُ، ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾: وفيما خلقَ اللهُ مما يقعُ عليه اسمُ الشيءِ من أجناسٍ لا يحصرُها العددُ، ﴿وَأَنْ عَسَىٰ﴾ (أنْ): مخففةٌ من الثقيلةِ، وأصلُه: وأنّه عسى، والضميرُ: ضميرُ الشأنِ، وهو في موضعِ الجرِّ بالعطفِ على (ملكوت)، والمعنى: أوَلَم ينظرُوا في أنَّ الشأنَ والحديثَ عسى ﴿أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ ولعلَّهم يموتون عمّا قريبٍ فيسارعُوا إلى النظرِ وطلبِ الحقِّ وما ينجيهم قبلَ مفاجأةِ الأجلِ وحُلولِ العقابِ، ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ﴾: بعدَ القرآنِ ﴿يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ إذا لم يؤمنوا به، وهو متعلقٌ بـ (عسى أن يكون قد اقترب أجلُهم)، كأنه قيل: لعلَّ أجلَهم قد اقترب، فما لهم لا يُبادرون الإيمانَ بالقرآنِ قبلَ الفوتِ؟ وماذا ينتظرون بعدَ وضوحِ الحقِّ؟ وبأيِّ حديثٍ أحقَّ منه يريدون أن يؤمنوا؟

---

(١) الأثرة: المكرمةُ.

مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ ....

«١٨٦» ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ﴾ أي: يُضلله الله، ﴿وَيَذَرُهُمْ﴾ بالياء: عراقيٌّ، وبالجزم: حمزةُ وعليٌّ؛ عطفاً على محلِّ (فلا هاديَ له) كأنه قيل: من يضللِ اللهُ.. لا يهدِه أحدٌ، ويذرهم، والرفعُ على الاستئناف؛ أي: وهو يذرُهم، الباقون: بالنون[1]، ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾: كفرِهم، ﴿يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾: يتحيرون.

ولما سألت اليهودُ أو قريشٌ عن الساعةِ متى تكون[2]؟ نزلَ:

«١٨٧» ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾: وهي من الأسماءِ الغالبةِ، كالنجمِ للثريّا؛

وسميت القيامةُ بالساعةِ؛ لوقوعِها بغتةً، أو: لسرعةِ حسابِها، أو: لأنها عندَ اللهِ على طولِها كساعةٍ من الساعات عندَ الخلق، ﴿أَيَّانَ﴾: متى، واشتقاقُه من: أيٍّ (فعلان) منه؛ لأن معناه: أيُّ وقتٍ[3] ﴿مُرْسَىٰهَا﴾: إرساؤُها: مصدرٌ، مثلُ المُدخلِ؛ بمعنى: الإدخالِ، أو: وقتُ إرسائِها؛ أي: إثباتِها؛ والمعنى: متى يُرسيها اللهُ، ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ أي: علمُ وقتِ إرسائِها عندَه، قد استأثر به، لم يخبِر به أحداً من مَلَكٍ مقربٍ، ولا نبيٍّ مرسلٍ؛ ليكون ذلك أدعى إلى الطاعةِ، وأزجرَ عن المعصيةِ، كما أخفى الأجلَ الخاصَّ، وهو وقتُ الموتِ لذلك، ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾: لا يُظهرُ أمرَها، ولا يكشفُ خفاءَ علمِها إلا هو وحدَه، ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: كلٌّ مِن أهلِها من الملائكة والثقلين أهمَّه شأنُ الساعةِ، ويتمنَّى أن يتجلَّى له علمُها وشقَّ عليه خفاؤُها، وثقلَ عليه أو ثقلت فيها؛ لأن أهلها يخافون شدائدَها وأهوالَها، ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾: فجاةً على غفلةٍ منكم، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا﴾: كأنك عالمٌ بها، وحقيقتُه: كأنك بليغٌ في السؤال عنها؛ لأن مَن بالغَ في المسألةِ عن الشيءِ والتنقيرِ عنه.. استحكمَ علمُه فيه، وأصلُ هذا التركيبِ المبالغةُ، ومنه إحفاءُ الشاربِ، أو: (عنها): متعلقٌ بـ (يسألونك) أي: يسألونك عنها كأنك حفيٌّ؛ أي: عالمٌ بها، ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ وكرَّرَ (يسألونك)، و(إنما علمُها عند الله):

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٢٦).

(٢) الأول: عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما، والثاني: عن قتادة. روى ذلك عنهما الطبريُّ في «تفسيره» (١٣/ ٢٩٢).

(٣) قال ابن جني في «المحتسب» (٢/ ٢٨٨): وينبغي أن يكون أيان من لفظ أيٍّ، لا مِن لفظ أين؛ لأمرين: أحدهما: أن أينَ: مكانٌ، وأيان: زمانٌ، والآخر: أن يكون قلةُ (فَعّال) في الأسماء مع كثرة (فَعْلان).

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾﴾ ....

للتأكيدِ ولزيادةِ (كأنك حفيٌّ عنها)، وعلى هذا تكريرُ العلماءِ في كتبِهم، لا يُخْلُون المكرَّرَ من فائدةٍ، منهم محمدُ بنُ الحسنِ رحمه الله[1]، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ أنه المختصُّ بالعلمِ بها.

《١٨٨》 ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾: هو إظهارٌ للعبوديةِ، وبراءةٌ عمّا يختصُّ بالربوبيةِ من علمِ الغيبِ؛ أي: أنا عبدٌ ضعيفٌ، لا أملك لنفسي اجتلابَ نفعٍ، ولا دفعَ ضررٍ، كما المماليك، إلا ما شاء مالكِي من النفعِ لي والدفعِ عني، ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾ أي: لكانت حالي على خلافِ ما هي عليه من استكثارِ الخيرِ، واجتنابِ السوءِ والمضارِّ، حتى لا يمسَّني شيءٌ منها، ولم أكن غالباً مرةً ومغلوباً أخرى في الحروبِ.

وقيل: الغيبُ: الأجلُ، والخيرُ: العملُ، والسوءُ: الوجلُ، وقيل: (لاستكثرت): لأعْدَدْتُ من الخِصبِ للجدبِ، والسوءُ: الفقرُ، وقدْ رُدَّ.

﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾: إنْ أنا إلا عبدٌ أرسلتُ نذيراً وبشيراً، وما من شأني أن أعلمَ الغيبَ، واللامُ في ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾: يتعلقُ بالنذيرِ والبشيرِ؛ لأن النِّذارةَ والبِشارةَ إنما ينفعان فيهم، أو: بالبشيرِ وحدَه، والمتعلقُ بالنذير محذوفٌ؛ أي: إلا نذيرٌ للكافرين، وبشيرٌ لقوم يؤمنون.

《١٨٩》 ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ هي: نفسُ آدمَ عليه السلام، ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾: حواءَ، خلقَها من جسدِ آدمَ من ضِلَعٍ من أضلاعِه ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾: ليطمئنَّ ويميلَ؛

---

(١) ذكر السرخسي في «المبسوط» (١/ ٣) أن الإمام محمد بن الحسن جمع المبسوط لترغيب المتعلمين والتيسير عليهم ببسط الألفاظ وتكرار المسائل في الكتب ليحفظوها شاؤوا أو أبوا إلى أن رأى الحاكم الشهيد أبو الفضل إعراضاً من بعض المتعلمين عن قراءة المبسوط لبسط في الألفاظ وتكرار في المسائل فرأى الصواب في تأليفِ المختصر بذكرِ معاني كتب محمد بن الحسن رحمه الله المبسوطة فيه، وحذفِ المكرر من مسائله ترغيباً للمقتبسين.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ ....﴾

لأن الجنس إلى الجنس أَمْيَلُ، خصوصاً إذا كان بعضاً منه، كما يسكنُ الإنسان إلى ولده ويحبُّه محبةَ نفسِه؛ لكونه بَضعةً منه، وذَكَّرَ (ليسكن) بعدَ ما أَنَّثَ في قوله: ﴿وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ ذهاباً إلى معنى النفسِ؛ ليبينَ أن المراد بها آدمُ، ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾: جامعَها ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾: خفَّ عليها ولم تلقَ منه ما يَلقَى بعضُ الحَبالَى من حملهن من الكربِ والأذى، ولم تستثقلْه كما يستثقلْنه، ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾: فمضت به إلى وقتِ ميلادِه من غير إخداجٍ ولا إزلاقٍ[1]، أو: حملت حملاً خفيفاً؛ يعني: النطفةَ، فمرَّت به: فقامت به وقعدت، ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾: حان وقتُ ثقلِ حملِها ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾: دعا آدمُ وحواءُ ربَّهما ومالكَ أمرِهما الذي هو الحقيقُ بأن يُدعَى ويُلْتَجأَ إليه فقالا: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾: لئن وهبتَ لنا ولداً سوياً قد صلحَ بدنُه، أو ولداً ذكراً؛ لأن الذكورة من الصلاح ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾﴾ لك، والضميرُ في (آتيتَنا)، و(لنكونن): لهما ولكلِّ من يتناسلُ من ذريتِهما.

«١٩٠» ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾: أعطاهما ما طلباه من الولدِ الصالحِ السويِّ ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾ أي: جعلَ أولادُهما له شركاءَ على حذفِ المضافِ، وإقامةِ المضافِ إليه مُقامه، وكذلك ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَآ﴾: أي: آتى أولادَهما؛ دليلُه: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾ حيث جمعَ الضميرَ، وآدمُ وحواءُ بريئان من الشركِ، ومعنى إشراكِهم فيما آتاهم اللهُ: تسميتُهم أولادَهم بعبدِ العزَّى وعبدِ منافٍ وعبدِ شمسٍ ونحوِ ذلك، مكانَ عبدِ اللهِ وعبدِ الرحمنِ وعبدِ الرحيم، أو: يكونُ الخطابُ لقريشٍ الذين كانوا في عهدِ رسولِ اللهِ ﷺ، وهم آلُ قصيٍّ؛ أي: هو الذي خلقكم من نفس واحدةٍ: قصيٍّ، وجعل من جنسها زوجَها عربيةً قرشيةً؛ ليسكنَ إليها، فلما آتاهما ما طلبا من الولد الصالح السويِّ.. جعلا له شركاءَ فيما آتاهما، حيث سَمَّيا أولادَهما الأربعةَ بعبدِ منافٍ وعبدِ العزَّى وعبدِ قصيٍّ وعبدِ الدارِ.

والضميرُ في ﴿يُشْرِكُونَ﴾: لهما، ولأعقابِهما الذين اقتدَوا بهما في الشرك، ﴿شِرْكًا﴾: مدنيٌّ، وأبو بكرٍ[2]؛ أي: ذوِي شركٍ، وهم الشركاءُ.

«١٩١» ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا﴾ يعني: الأصنامَ، ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾: أُجريتِ الأصنامُ

---

(١) الإخداجُ: النقصُ، والإزلاقُ: الإسقاطُ قبل تمام الحمل.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص١٢٧) وكذا القراءات الثلاث الآتية.

وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾

مُجرى أولي العلمِ؛ بناءً على اعتقادِهم فيها، وتسميتِهم إياها آلهةً؛ والمعنى: أيشركون ما لا يقدرُ على خلقِ شيءٍ وهم يُخلقون؛ لأن اللهَ خالقُهم، أو: الضميرُ في (وهم يُخلقون): للعابدِين؛ أي: أيشركون ما لا يخلقُ شيئاً وهم مخلوقُو اللهِ، فليعبدُوا خالقَهم، أو: للعابدين والمعبودين، وجمعَهم كأُولي العلمِ تغليباً للعابِدين.

«١٩٢» ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ﴾: لعبدتِهم ﴿نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾ فيدفعُون عنها ما يعتريْها من الحوادثِ، كالكسرِ وغيرِه، بل عبدتُهم هم الذين يدفعُون عنهم.

«١٩٣» ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ﴾: وإن تدعُوا هذه الأصنامَ ﴿إِلَى الْهُدَىٰ﴾: إلى ما هو هدىً ورشادٌ، وإلى أنْ يهدُوكم؛ أي: وإن تطلبُوا منهم كما تطلبون من اللهِ الخيرَ والهدَى ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ إلى مرادِكم وطِلْبَتِكم، ولا يُجيبوكم كما يُجيبكم اللهُ، ﴿لا يَتْبَعُوكم﴾: نافع، ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾ عن دعائِهم في أنه لا فلاحَ معهم ولا يجيبونكم، والعدولُ عن الجملةِ الفعليةِ إلى الاسميةِ لرؤوسِ الآيِ.

«١٩٤» ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: تعبدونَهم وتسمُّونهم آلهةً ﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ أي: مخلوقون مملوكون أمثالُكم، ﴿فَادْعُوهُمْ﴾ لجلبِ نفعٍ أو دفعِ ضُرٍّ، ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾: فليجيبُوا ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ في أنهم آلهةٌ.

«١٩٥» ثم أبطلَ أن يكونوا عباداً أمثالَهم فقال: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا﴾ مشيَكم، ﴿أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا﴾: يتناولون بها، ﴿أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أي: فلِمَ تعبدون ما هو دونكم؟ ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ واستعينُوا بهم في عَداوتي، ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾ جميعاً أنتم وشركاؤُكم، وبالياءِ: يعقوبُ، وافقه أبو عمرٍو في الوصلِ، ﴿فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾﴾ فإني لا أُبالي بكم، وكانُوا قد خوَّفُوه آلهتَهم، فأُمِرَ أن يخاطبَهم بذلك، وبالياءِ: يعقوبُ.

«١٩٦» ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ﴾: ناصري عليكم ﴿اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾: أوحى إليَّ وأعزَّني برسالتِه، ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾: ومن سنتِه أن يَنصرَ الصالحين من عبادِه ولا يخذلَهم.

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ ....

«١٩٧» ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾: مـن دونِ اللهِ ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾﴾.

«١٩٨» ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾: يُشْبِهُون الناظرين إليك؛ لأنهم صوَّرُوا أصنامَهم بصورةِ مَن قَلَّبَ حدقتَه إلى الشيءِ ينظر إليه[١] ﴿وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾: المرئيَّ[٢].

«١٩٩» ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ هو: ضدُّ الجَهْدِ؛ أي: ما عفا لكَ من أخلاقِ الناسِ وأفعالِهم، ولا تطلبْ منهم الجَهدَ وما يَشُقُّ عليهم حتى لا ينفِرُوا، كقوله عليه السلام: «يسرُوا ولا تعسروا»[٣]، ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾: بالمعروفِ والجميلِ من الأفعال، أو هو: كلُّ خَصلةٍ يرتضيها العقلُ ويقبلُها الشرعُ، ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾: ولا تكافئِ السفهاءَ بمثلِ سَفَهِهِم، ولا تمارِهم، واحلُمْ عليهم، وفسرَها جبريلُ عليه السلام بقوله: «صِلْ مَن قَطَعَكَ، وأعطِ مَن حَرَمَكَ، واعفُ عمَّن ظلمَكَ»[٤]، وعن الصادقِ: أمرَ اللهُ نبيَّه عليه السلام بمكارمِ الأخلاقِ، وليس في القرآن آيةٌ أجمعُ لمكارمِ الأخلاقِ منها.

«٢٠٠» ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾: وإما ينخسنَّكَ منه نخسٌ؛ أي: بأن يحملَكَ بوسوستِه على خلافِ ما أُمرتَ به ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ ولا تُطِعْهُ، والنَّزْغُ: النَّخْسُ كأنه ينخسُ الناسَ حين يُغريهم على المعاصي، وجُعِلَ النَّزْغُ نازغاً كما قيل: جدَّ جِدُّهُ، أو: أريدَ بِنَزْغِ الشيطانِ: اعتراءُ الغضبِ، كقولِ أبي بكرٍ رضي الله عنه: إن لي شيطاناً يعتريني[٥]، ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ﴾ لنزغِهِ، ﴿عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ بدفعِهِ.

---

(١) الحدقة: سوادُ العين.

(٢) هذا على أن الأوصافَ المذكورةَ في الآية للأصنام، فإن أريدَ بها المشركون.. فالمعنى: أنهم وإن كانوا ينظرون إلى الناس إلا أنهم لشدةِ إعراضِهم عن الحقِّ لم ينتفعُوا بذلك النظرِ والرؤيةِ، فصارُوا كأنهم عُميٌ. انظر «تفسير الرازي» (١٥/ ٤٣٤).

(٣) رواه البخاري (٦٩) ومسلم (١٧٣٤) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٣٣٠).

(٥) رواه أبو داود في «الزهد» (ص ٥٦).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١ وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ ٢٠٢ وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٢٠٣ وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٢٠٤﴾ ....

《٢٠١》 ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾: ﴿طَيۡفٌ﴾ مكيٌّ وبصريٌّ وعليٌّ[١]؛ أي: لَمَّةٌ منه[٢]، مصدرٌ؛ من قولِهم: طافَ به الخيالُ يَطيفُ طيفاً، وعن أبي عمرٍو: هما واحدٌ[٣]، وهي الوسوسة، وهذا تأكيدٌ لما تقدمَ من وجوبِ الاستعاذةِ باللهِ عند نزغِ الشيطانِ، وأن عادةَ المتقين إذا أصابَهم أدنى نزغٍ من الشيطانِ وإلمامٍ بوسوستِه ﴿تَذَكَّرُواْ﴾ ما أمرَ اللهُ به ونهَى عنه ﴿فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١﴾: فأبصروا السدادَ، ودفعُوا وسوستَه، وحقيقتُه: أن يفِرُّوا منه إلى اللهِ فيزدادُوا بصيرةً من اللهِ باللهِ.

《٢٠٢》 ﴿وَإِخۡوَٰنُهُمۡ﴾: وأما إخوانُ الشياطينِ من شياطينِ الإنسِ.. فإن الشياطينَ ﴿يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ﴾ أي: يكونون مدداً لهم فيه ويعضُدُونَهم، ﴿يُمِدُّونهم﴾ من الإمداد: مدنيٌّ[٤]، ﴿ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ ٢٠٢﴾: ثم لا يُمسكون عن إغوائِهم حتى يُصرُّوا ولا يرجعُوا، وجاز أن يُرادَ بالإخوانِ: الشياطينُ، ويرجعُ الضميرُ المتعلقُ به إلى الجاهلين، والأولُ: أَوْجَهُ؛ لأن إخوانَهم في مقابلةِ الذين اتقوا، وإنما جمعَ الضميرُ في (إخوانهم) والشيطانُ مفرد؛ لأن المراد به الجنس.

《٢٠٣》 ﴿وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ﴾ مقترحةٍ ﴿قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ﴾: هلّا اخترتَها؛ أي: اختلقتَها كما اختلقتَ ما قبلَها، ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ﴾ ولست بمقترحٍ لها ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ﴾: هذا القرآنُ دلائلُ تُبصرُكُم وجوهَ الحقِّ، ﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٢٠٣﴾ به.

《٢٠٤》 ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٢٠٤﴾: ظاهرُه: وجوبُ الاستماعِ والإنصاتِ وقتَ قراءةِ القرآنِ في الصلاة وغيرِها، وقيل: معناه: إذا تلا عليكم الرسولُ

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٢٧).

(٢) اللمة: القرب والاتصال، والمراد بها: ما يقعُ في القلب بواسطةِ الشيطانِ. انظر «التيسير بشرح الجامع الصغير» (١/ ٣٣٧).

(٣) أي: الطائفُ والطيفُ معناهما واحد.

(٤) انظر «البدور الزاهرة» (ص١٢٨).

﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٢٠٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ٢٠٦﴾

القرآنَ عند نزولِه.. فاستمعوا له، وجمهورُ الصحابةِ رضي الله عنهم: على أنه في استماعِ المؤتمِّ، وقيل: في استماعِ الخطبةِ، وقيل: فيهما، وهو الأصحُّ.

《٢٠٥》 ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ﴾: هو عامٌّ في الأذكارِ؛ من قراءةِ القرآنِ والدعاءِ والتسبيحِ والتهليلِ وغيرِ ذلك، ﴿تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ﴾: متضرعاً وخائفاً، ﴿وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾: ومتكلماً كلاماً دون الجهر؛ لأن الإخفاءَ أَدْخَلُ في الإخلاص، وأقربُ إلى حسنِ التفكرِ ﴿بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ لفضلِ هذين الوقتينِ، وقيل: المرادُ: إدامةُ الذكرِ باستقامةِ الفكرِ، ومعنى (بالغدوِّ): بأوقاتِ الغدوِّ، وهي الغُدُواتُ، والآصالُ: جمعُ أُصُلٍ، والأُصُلُ: جمعُ أصيلٍ، وهو العَشِيُّ، ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٢٠٥﴾: من الذين يغفُلُون عن ذكرِ اللهِ ويلهَون عنه.

《٢٠٦》 ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ مكانةً ومنزلةً، لا مكاناً ومنزلاً؛ يعني: الملائكةَ ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ﴾: لا يتعظمُون عنها، ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾: وينزهونه عمّا لا يليقُ به، ﴿وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ٢٠٦﴾: ويختصونَه بالعبادةِ لا يُشركون به غيرَه.



﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ....

سورة الأنفال

مدنيةٌ، وهي خمسٌ، أو ستٌّ، أو سبعٌ وسبعون آيةً.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

《١》 ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾: النفَلُ: الغنيمةُ؛ لأنها من فضلِ اللهِ وعطائِه، والأنفالُ الغنائمُ، ولقد وقعَ اختلافٌ بين المسلمين في غنائمِ بدرٍ، وفي قسمتِها، فسألوا رسولَ اللهِ كيفَ تُقسمُ؟ ولمن الحكمُ في قسمتِها؟ للمهاجرين أم للأنصار أم لهم جميعاً؟ فقيل له: قلْ لهم: هي لرسولِ اللهِ، وهو الحاكمُ فيها خاصةً، يحكم فيها ما يشاءُ، ليس لأحدٍ غيرِه فيها حكمٌ.

ومعنى الجمع بين ذكرِ اللهِ والرسولِ: أن حكمَها مختصٌّ بالله ورسولِه، يأمرُ اللهُ بقسمتِها على ما تقتضيه حكمتُه، ويمتثلُ الرسولُ أمرَ اللهِ فيها، وليس الأمرُ في قسمتها مفوضاً إلى رأيِ أحدٍ، ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في الاختلافِ والتخاصمِ، وكونوا مُتآخين في اللهِ، ﴿وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾: أحوالَ بينِكم؛ يعني: ما بينَكم من الأحوال التي تكونُ أحوالَ أُلفةٍ ومحبةٍ واتفاقٍ، وقال الزجاج: معنى (ذات بينكم): حقيقةُ وَصْلِكُمْ، والبينُ: الوَصلُ؛ أي: فاتقوا الله وكونوا مجتمعين على ما أمرَ اللهُ ورسولُه به، قال عبادةُ بنُ الصامتِ: نزلت فينا يا معشرَ أصحابِ بدرٍ حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقُنا، فنزعَه الله من أيدينا، فجعلَه لرسولِ اللهِ عليه السلام، فقسمَه بين المسلمين على السواءِ[1]، ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ فيما أُمرتم به في الغنائم وغيرِها ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾: كاملي الإيمانِ.

《٢》 ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: إنما الكاملُو الإيمانِ ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾: فزعت لذكرِه؛ استعظاماً له، وتهيُّباً من جلالِه وعزةِ سلطانِه، ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي: القرآنُ ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾: ازدادُوا بها يقيناً وطمأنينةً؛ لأن تظاهرَ الأدلةِ أقوى للمدلولِ عليه، وأثبتُ

---

(١) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (٦/ ٢٩٢).

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥﴾.

لقدمِه، أو: زادتهم إيماناً بتلك الآياتِ؛ لأنهم لم يؤمنُوا بأحكامِها قبلُ، ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾: يعتمدون، ولا يفوضون أمورهم إلى غيرِ ربِّهم، لا يخشون ولا يرجون إلا إياه.

《٣》 ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ جمعَ بين أعمالِ القلوبِ من الوجلِ والإخلاصِ والتوكلِ، وبين أعمالِ الجوارحِ من الصلاةِ والصدقةِ.

《٤》 ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ هو صفةٌ لمصدرٍ محذوفٍ؛ أي: أولئك هم المؤمنون إيماناً حقّاً، أو: هو مصدرٌ مؤكِّدٌ للجملةِ التي هي (أولئك هم المؤمنون)، كقولك: هو عبدُ اللهِ حقّاً؛ أي: حقَّ ذلك حقّاً، وعن الحسن رحمه الله: أن رجلاً سألَه: أمؤمنٌ أنت؟ قال: إن كنتَ تسألُني عن الإيمان بالله وملائكتِه وكتبِه ورسلِه واليومِ الآخرِ والجنةِ والنارِ والبعثِ والحسابِ.. فأنا مؤمنٌ، وإن كنت تسألني عن قوله: (إنما المؤمنون) الآيةَ.. فلا أدري أَمِنْهُمْ أنا أم لا؟ وعن الثوريِّ: من زعم أنه مؤمنٌ بالله حقّاً ثم لم يشهدْ أنه من أهل الجنة.. فقد آمنَ بنصفِ الآيةِ، أي: كما لا يَقطعُ بأنه من أهلِ ثوابِ المؤمنين حقّاً.. فلا يقطعُ بأنه مؤمنٌ حقّاً، وبهذا يتشبثُ من يقولُ: أنا مؤمنٌ إن شاء اللهُ، وكان أبو حنيفةَ رحمه اللهُ لا يقولُ ذلك، وقال لقتادة: لِمَ تستثني في إيمانك؟ قال: اتّباعاً لإبراهيم في قوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢] فقال له: هلّا اقتديتَ به في قولِه: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ﴾ [البقرة: ٦٠]، وعن إبراهيمَ التيميِّ: قل: أنا مؤمنٌ حقّاً، فإن صدقت.. اثْبُتْ عليه، وإن كذبت.. فكفرُك أشدُّ من كذبِك، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: من لم يكنْ منافقاً.. فهو مؤمنٌ حقّاً، وقد احتجَّ عبدُ اللهِ على أحمدَ فقال: أَيْشٍ اسمُك؟ فقال: أحمدُ، فقال: أتقولُ: أنا أحمدُ حقّاً، أو: أنا أحمدُ إن شاء الله؟ فقال: أنا أحمدُ حقّاً، فقال: حيث سمّاك والداك.. لا تستثني، وقد سمّاك اللهُ في القرآن مؤمناً تستثني؟!

﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ﴾: مراتبُ بعضُها فوقَ بعضٍ على قدرِ الأعمالِ ﴿عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ﴾: وتجاوزٌ لسيئاتِهم، ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾: صافٍ عن كدِّ الاكتسابِ، وخوفِ الحسابِ.

《٥》 الكافُ في ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾: في محلِّ النصبِ على أنه صفةٌ لمصدرِ الفعلِ المقدرِ، والتقديرُ: قل: الأنفالُ استقرت للهِ والرسولِ، وثبتتْ مع كراهتِهم ثباتاً مثلَ ثباتِ إخراجِ ربِّك إياك من بيتِك وهم كارهون، ﴿مِنۢ بَيْتِكَ﴾: يريدُ بيتَه بالمدينةِ، أو: المدينةَ نفسَها؛ لأنها

مُهاجَرُهُ ومسكنهُ، فهي في اختصاصِها به كاختصاصِ البيتِ بساكنِه، ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾: إخراجاً متلبساً بالحكمة والصوابِ، ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥﴾: في موضعِ الحالِ؛ أي: أخرجك في حالِ كراهتِهم.

وذلك أن عيرَ قريشٍ أقبلت من الشامِ فيها تجارةٌ عظيمةٌ ومعها أربعون راكباً، منهم أبو سفيانَ، فأخبرَ جبريلُ النبيَّ عليه السلام، فأخبر أصحابَه فأعجبَهم تلقيْ العيرِ؛ لكثرةِ الخيرِ وقلةِ القومِ، فلمّا خرجُوا.. علمت بذلك قريشٌ، فخرج أبو جهلٍ بجميعِ أهلِ مكةَ وهو النفيرُ في المثل السائرِ: لا في العيرِ، ولا في النفيرِ[١]. فقيل له: إن العيرَ أخذتْ طريقَ الساحلِ ونجتْ، فأبى وسار بمن معه إلى بدرٍ؛ وهو ماءٌ كانت العرب تجتمع فيه لسوقِهم يوماً في السنة، ونزل جبريل عليه السلام فقال: يا محمد، إن الله وعدكم إحدى الطائفتين، إما العيرَ وإما قريشاً، فاستشار النبيُّ عليه السلام أصحابَه وقال: «العيرُ أحبُّ إليكم أم النفير؟»، قالوا: بل العيرُ أحبُّ إلينا من لقاء العدوِّ، فتغيرَ وجهُ رسولِ اللهِ عليه السلام، ثم ردّدَ عليهم فقالوا: يا رسول الله عليك بالعِيرِ، ودعِ العدوَّ.

فقام عند غضبِ النبيِّ عليه السلام أبو بكرٍ وعمرُ رضي الله عنهما فأحسنَا، ثم قامَ سعدُ بنُ عبادةَ فقال: انظرْ أمركَ فامضِ، فواللهِ لو سِرْتَ إلى عدنِ أَبْيَنَ[٢].. ما تخلفَ عنك رجلٌ من الأنصارِ، ثم قال المقدادُ بنُ عمرٍو: امضِ لما أمركَ اللهُ، فإنا معك حيثُما أحببتَ، لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، ولكن اذهب أنت وربُّك فقاتلا، إنا معكما مقاتلون ما دامت عينٌ منا تَطْرِفُ، فضحكَ رسولُ الله عليه السلام، وقال سعدُ بنُ معاذٍ: امضِ يا رسولَ اللهِ لِما أردتَ، فوالذي بعثك بالحقِّ لو استعرضت بنا هذا البحرَ فخضتَه.. لخضناه معك، ما تخلف منا رجلٌ واحدٌ، فَسِرْ بنا على بركةِ اللهِ، ففرح رسولُ الله عليه السلام، وبَسَطَه قولُ سعدٍ، ثم قال: «سِيرُوا على بركةِ اللهِ،

---

(١) يضرب هذا المثل لمن لا يصلح لمهمةٍ، أصله: أنّ رسول الله ﷺ لمّا نهض إلى عير قريش قافلةً من الشّام، وفيهم أبو سفيان، فنهض إليه عتبة بن ربيعة من مكّة مع قريش، ولقوه عليه السّلام ببدرٍ، ولم يكن تخلّف عن العير والقتال إلّا مَن لا خيرَ فيه، فقالوا: فلانٌ لا في العيرِ؛ أي: مع أبي سفيان، ولا في النّفير؛ أي: مع عتبة. انظر «الأمثال» للهاشمي (١/ ٢٨٦).

(٢) عدن: مدينة في اليمن نسبت إلى أَبْيَنَ، رجلٍ من حِمْيَرٍ؛ لأنه عدن به؛ أي: أقام.

﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧﴾ ....

وأبشروا فإن الله وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآنَ أنظرُ إلى مصارعِ القوم»[1]، وكانت الكراهةُ من بعضِهم؛ لقوله: (وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون) قال الشيخ أبو منصورٍ رحمه الله: يحتملُ أنهم منافقون كرهُوا ذلك اعتقاداً، ويحتمل أن يكونُوا مخلِصين، ويكونُ ذلك كراهةَ طبعٍ؛ لأنهم غيرُ متأهبين له[2].

《٦》 ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ﴾: الحقُّ الذي جادلُوا فيه رسولَ اللهِ عليه السلام تلقيْ النفيرِ؛ لإيثارهم عليه تلقيَ العيرِ، ﴿بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ﴾: بعدَ إعلامِ رسولِ اللهِ بأنهم يُنصرون، وجدالُهم: قولُهم: ما كان خروجُنا إلا للعِيرِ، وهلّا قلت لنا لنستعدَّ، وذلك لكراهتِهم القتالَ، ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦﴾ شبهَ حالَهم في فرطِ فزعِهم وهم يُسارُ بهم إلى الظفرِ والغنيمةِ بحالِ من يُعْتَلُ إلى القتل[3]، ويُساقُ على الصَّغار إلى الموت وهو مشاهِدٌ لأسبابِه، ناظرٌ إليها، لا يشكُّ فيها، وقيل: كان خوفُهم لقلةِ العددِ، وأنهم كانوا رَجَّالَةً، وما كان فيهم إلا فارسانِ.

《٧》 ﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ﴾: (إذ): منصوبٌ بـ: اذكر، و(إحدى): مفعولٌ ثانٍ ﴿أَنَّهَا لَكُمۡ﴾: بدلٌ من (إحدى الطائفتين)، وهما: العيرُ والنفيرُ، والتقديرُ: وإذْ يعدكم الله أن إحدى الطائفتين لكم، ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ﴾ أي: العيرَ، وذاتُ الشوكةِ: ذاتُ السلاحِ، والشوكةُ كانت في النفير؛ لعددِهم وعدتِهم؛ أي: تتمنون أن تكون لكم العيرُ؛ لأنها الطائفةُ التي لا سلاحَ لها، ولا تريدون الطائفةَ الأخرى، ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ﴾: أنْ يُثبتَه ويعليَه، ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾: بآياتِه المنزلةِ في محاربةِ ذاتِ الشوكةِ، وبما أمر الملائكةَ من نزولِهم للنُّصرةِ، وبما قضى من قتلِهم وطرحِهم في قليبِ بدرٍ، ﴿وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧﴾: آخرَهم، والدابرُ: الآخِرُ، (فاعِل) مِن: دَبَرَ: إذا أدبرَ، وقطعُ الدابرِ: عبارة عن الاستئصالِ؛ يعني: أنكم تريدون الفائدةَ العاجلةَ، وسفسافَ الأمورِ، والله تعالى يريدُ معاليَ الأمورِ، ونصرةَ الحقِّ، وعلوَّ الكلمةِ، وشتانَ ما بين المرادين، ولذلك اختار لكم الطائفةَ ذاتَ الشوكةِ، وكسرَ قوتَهم بضعفِكم، وأعزَّكم وأذلَّهم.

---

(١) انظر قصة غزوة بدر في «السيرة النبوية» لابن هشام (٣/ ١٦٢).
(٢) انظر «تأويلات أهل السنة» (٢/ ٣٣٣).
(٣) يعتل: يُجَرُّ جراً عنيفاً.

﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝١٠﴾ ....

«٨» ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾: متعلقٌ بـ (يقطع)، أو: بمحذوفٍ، تقديرُه: ليحقَّ الحقَّ ﴿وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾: فعلَ ذلك، والمقدَّرُ متأخرٌ؛ ليفيدَ الاختصاصَ؛ أي: ما فعله إلا لهما، وهو إثباتُ الإسلامِ وإظهارُه، وإبطالُ الكفرِ، ومَحْقُه، وليس هذا بتكرارٍ؛ لأن الأولَ تمييزٌ بين الإرادتين، وهذا بيانٌ لمرادِه فيما فعلَ من اختيار ذاتِ الشوكةِ على غيرِها لهم، ونصرتِهم عليها، ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾: المشركون ذلك.

«٩» ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾: بدلٌ من ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ﴾، أو متعلقٌ بقولِه: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾، واستغاثتُهم: أنهم لما علمُوا أنه لا بدَّ من القتال.. طفِقُوا يدعون اللهَ يقولون: أيْ ربِّ انصرْنا على عدوِّكَ، يا غياثَ المستغيثين أغثْنا، وهي: طلبُ الغوثِ، وهو: التخليصُ من المكروه، ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾: فأجابَ، وأصلُ ﴿أَنِّى مُمِدُّكُم﴾: بأني مُمدكم، فحُذفَ الجارُّ وسُلطَ عليه: استجاب، فنصبَ محلَّه، ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩﴾ ﴿مردَفين﴾: مدنيٌّ، غيرُه: بكسرِ الدالِ[1]، فالكسرُ: على أنهم أردفُوا غيرَهم، والفتحُ على أنه أردفَ كلُّ ملَكٍ ملَكاً آخرَ؛ يقال: رَدِفَه: إذا تبعَه، وأردفتُه إياه: إذا أتْبعْتَه.

«١٠» ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾: أي: الإمدادَ الذي دلَّ عليه ﴿مُمِدُّكُم﴾ ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ﴾: إلا بشارةً لكم بالنصر، ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾ يعني: أنكم استغثتم وتضرعتُم لقلتكم، فكان الإمدادُ بالملائكةِ بشارةً لكم بالنصر، وتسكيناً منكم، وربطاً على قلوبكم، ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: ولا تحسبُوا النصرَ من الملائكة؛ فإن الناصر هو الله لكم وللملائكة، أو: وما النصرُ بالملائكة وغيرِهم من الأسبابِ، إلا من عندِ الله، والمنصورُ مَن نصرَه اللهُ.

واختلفَ في قتالِ الملائكةِ يومَ بدرٍ؛ فقيل: نزل جبريلُ في خمسِ مئةِ ملكٍ على الميمنة، وفيها أبو بكر، وميكائيلُ في خمسِ مئةٍ على الميسرة، وفيها عليٌّ في صورة الرجالِ، عليهم ثيابٌ بيضٌ، وعمائمُ بيضٌ، قد أرخَوا أذنابَها بين أكتافِهم فقاتلت، حتى قال أبو جهلٍ لابنِ مسعودٍ: مِن أين كان يأتينا الضربُ ولا نرى الشخصَ؟ قال: مِن قِبَلِ الملائكةِ، قال: فهم غلبُونا لا أنتم،

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص١٢٨).

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ......﴾

وقيل: لم يقاتِلُوا، وإنما كانوا يُكَثِّرُون السوادَ، ويُثَبِّتُون المؤمنين، وإلا.. فملكٌ واحدٌ كافٍ في إهلاكِ أهلِ الدنيا، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ بنصرِ أوليائِه، ﴿حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ بقهرِ أعدائِه.

«١١» ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ﴾: بدلٌ ثانٍ من ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ﴾، أو: منصوب بالنصر، أو: بإضمار: اذكر، ﴿يُغْشِيْكُم﴾: مدنيٌّ، ﴿ٱلنُّعَاسَ﴾: النومَ، والفاعلُ هو اللهُ على القراءتين، ﴿يَغْشَاكُمُ النعاسُ﴾: مكيٌّ وأبو عمرٍو[1]، ﴿أَمَنَةً﴾: مفعولٌ له؛ أي: إذ تنعسُون أمنةً؛ بمعنى: أمناً؛ أي: لِأمنِكم، أو: مصدرٌ؛ أي: فأمنتم أمنةً، فالنومُ يزيحُ الرعبَ، ويريحُ النفسَ، ﴿مِّنْهُ﴾: صفةٌ لها؛ أي: أمنةً حاصلةً لكم من الله، ﴿وَيُنْزِلُ﴾: بالتخفيف: مكيٌّ وبصريٌّ، وبالتشديد: غيرُهم، ﴿عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾: مطراً، ﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾: بالماءِ من الحدثِ والجنابةِ، ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾: وسوستَه إليهم، وتخويفَه إياهم من العطش، أو الجنابةِ من الاحتلام؛ لأنه من الشيطان، وقد وسوس إليهم أنْ لا نصرةَ مع الجنابةِ، ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾: بالصبرِ، ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾ أي: بالماءِ؛ إذ الأقدامُ كانت تسوخُ في الرملِ، أو: بالربطِ؛ لأن القلب إذا تمكن فيه الصبرُ.. يُثَبِّتُ القدمَ في مواطنِ القتالِ.

«١٢» ﴿إِذْ يُوحِى﴾: بدلٌ ثالثٌ من ﴿يَعِدُكُمُ﴾، أو: منصوب بـ﴿يُثَبِّتَ﴾ ﴿رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ﴾: بالنصرِ، ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: بالبشرى، وكان الملَك يسيرُ أمامَ الصفِّ في صورةِ رجل ويقول: أبشروا، فإن الله ناصركم، ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ هو: امتلاءُ القلبِ من الخوفِ، ﴿الرُّعُبَ﴾: شاميٌّ وعليٌّ، ﴿فَٱضْرِبُوا۟﴾: أمرٌ للمؤمنين أو: للملائكةِ، وفيه دليلٌ على أنهم قاتلُوا، ﴿فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾: أي: أعاليَ الأعناقِ التي هي المذابحُ تطييراً للرؤوس، أو: أرادَ: الرؤوسَ؛ لأنها فوقَ الأعناقِ؛ يعني: ضربَ الهامِ، ﴿وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ هي: الأصابعُ؛ يريدُ: الأطرافَ؛ والمعنى: فاضربوا المقاتلَ والشَّوَى[2]؛ لأن الضربَ إما أن يقعَ على مقتلٍ أو غيرِ مقتلٍ، فأمرَهم أن يجمعُوا عليهم النوعين.

---

(١) انظر المرجع السابق (ص ١٢٩) وكذا القراءتان الآتيتان.

(٢) الشّوى: جمع شَواةٍ، وهي جلدةُ الرأس، والشَّوى: اليدانِ والرجلانِ والرأسُ من الآدميِّين، وكلُّ ما ليسَ مقتلاً، والمراد بالشوى هنا: ما ليس مقتلاً.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾ ....

«١٣ - ١٤» ﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارةٌ إلى ما أصابَهم من الضربِ والقتلِ والعقابِ العاجلِ، وهو مبتدأٌ، خبرُه: ﴿بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: ذلك العقابُ وقع عليهم بسببِ مشاقتِهم؛ أي: مخالفتِهم، وهي مشتقةٌ من الشِّقِّ؛ لأن كِلا المتعادِيين في شقٍّ خلافِ شِقِّ صاحبِه، وكذا المعاداةُ والمخاصمةُ؛ لأن هذا في عُدوةٍ وخُصْمٍ؛ أي: جانبٍ، وذاك في عُدوةٍ وخُصْمٍ[1]، ﴿وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾﴾.

والكافُ في (ذلك): لخطابِ الرسولِ، أو: لكلِّ أحدٍ، وفي (ذلكم): للكفرة، على طريقة الالتفات، ومحلُّه: الرفعُ على: ذلكم العقابُ، أو: العقابُ ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ﴾، والواوُ في ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾﴾ بمعنى: مع؛ أي: ذوقوا هذا العذابَ العاجلَ مع الآجل الذي لكم في الآخرة، فوضع الظاهرُ موضعَ الضمير.

«١٥» ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا﴾: حالٌ من ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، والزحفُ: الجيشُ الدَّهْمُ الذي يُرى لكثرتِه كأنه يزحفُ[2]؛ أي: يدِبُّ دبيباً؛ من: زحفَ الصبيُّ: إذا دبَّ على استِه قليلاً قليلاً؛ سمي بالمصدرِ، ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾﴾: فلا تنصرفُوا عنهم منهزمين؛ أي: إذا لقيتموهم للقتال وهم كثيرٌ وأنتم قليلٌ.. فلا تفروا فضلاً أن تُدانُوهم في العددِ أو تُساووهم، أو: حالٌ من المؤمنين، أو: من الفريقين؛ أي: إذا لقيتموهم متزاحفين هم وأنتم.

«١٦» ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا﴾: مائلاً ﴿لِّقِتَالٍ﴾ وهو: الكرُّ بعد الفرِّ، يُخيِّلُ عدوَّه أنه منهزمٌ ثم يعطِفُ عليه، وهو من خِدَعِ الحربِ، ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا﴾: منضماً ﴿إِلَىٰ فِئَةٍ﴾: إلى جماعةٍ أخرى من المسلمين سوى الفئةِ التي هو فيها، وهما حالان من ضميرِ الفاعل في (يولهم)، ﴿فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾ ووزن متحيز: (متفيعِل) لا (متفعِّل)؛ لأنه مِن: حازَ يحوزُ، فبناءُ (متفعِّل) منه: متحوِّز[3].

---

(١) العُدْوَةُ: جانب الوَادي، والخُصم: الجانبُ من كل شيء.
(٢) الدَّهمُ: الجماعةُ الكثيرةُ.
(٣) المصدر الذي وزنُه: (التَّفعُّل): فعلُه: تَفعَّلَ؛ لذا يقال: تَحوَّزَ يَتحوَّزُ فهو مُتحوِّزٌ.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾ ....

«١٧» ولما كسرُوا أهلَ مكة وقتلُوا وأسرُوا، وكان القاتلُ منهم يقول تفاخراً: قتلتُ وأسرتُ.. قيل لهم: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾[1]، والفاءُ: جوابُ شرطٍ محذوفٍ تقديرُه: إن افتخرتم بقتلِهم.. فأنتم لم تقتلُوهم، ولكن الله قتلَهم، ولما قال جبريلُ للنبي عليه السلام: خذْ قُبْضةً من ترابٍ فارمِهم بها، فرمَى بها في وجوهِهم وقال: «شاهت الوجوهُ»، فلم يبقَ مشركٌ إلا شُغِلَ بعينِه فانهزمُوا.. قيل: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ يا محمدُ ﴿إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾: يعني: أن الرميةَ التي رميتَها أنت لم ترمِها أنت على الحقيقة؛ لأنك لو رميتَها.. لما بلغَ أثرُها إلا ما يبلغُه أثرُ رميِ البشرِ، ولكنها كانت رميةَ اللهِ حيث أثَّرت ذلك الأثرَ العظيمَ، وفي الآية بيانُ أن فعلَ العبدِ مضافٌ إليه كسباً، وإلى الله تعالى خلقاً، لا كما تقول الجبريةُ والمعتزلة؛ لأنه أثبتَ الفعلَ من العبدِ بقولِه: (إذْ رميت)، ثم نَفَى عنه وأثبتَه لله تعالى بقولِه: (وما رميت... ولكنَّ الله رمى)، ﴿ولكنِ اللهُ قتلهم﴾، ﴿ولكنِ اللهُ رمَى﴾: بتخفيفِ (لكن): شاميٌّ وحمزةُ وعليٌّ[2]، ﴿وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: وليعطيَهم ﴿مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾: عطاءً جميلاً؛ والمعنى: وللإحسان إلى المؤمنين فعلَ ما فعلَ، وما فعل إلا لذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لدعائِهم، ﴿عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ بأحوالِهم.

«١٨» ﴿ذَٰلِكُمْ﴾: إشارةٌ إلى البلاءِ الحسنِ، ومحلُّه: الرفعُ؛ أي: الأمرُ ذلكم، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾﴾: معطوفٌ على (ذلكم) أي: المرادُ إبلاءُ المؤمنين، وتوهينُ كيدِ الكافرين، ﴿مُوْهِنٌ كيدَ﴾: شاميٌّ وكوفيٌّ غيرَ حفصٍ، ﴿مُوهِنُ كَيْدِ﴾: حفصٌ، ﴿مُوَهِّنٌ كيدَ﴾: غيرُهم.

«١٩» ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾: إن تستنصرُوا.. فقد جاءكم النصرُ عليكم، وهو خطابٌ لأهلِ مكةَ؛ لأنهم حين أرادُوا أن ينفِرُوا.. تعلقُوا بأستارِ الكعبةِ، وقالُوا: اللهمَّ إن كان محمدٌ على حقٍّ.. فانصرْهُ، وإن كنا على الحقِّ.. فانصرْنا، وقيل: (إن تستفتحوا): خطابٌ

---

(١) روى نحوه الطبريُّ في «تفسيره» (١٣/ ٤٤٢).
(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص١٢٩) وكذا القراءتان الآتيتان.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ ....

للمؤمنين، و﴿وَإِن تَنتَهُواْ﴾: للكافرين؛ أي: وإن تنتهوا عن عداوةِ رسول الله ﴿فَهُوَ﴾ أي: الانتهاءُ ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ وأسلمُ، ﴿وَإِن تَعُودُواْ﴾ لمحاربته ﴿نَعُدۡ﴾ لنصرته عليكم، ﴿وَلَن تُغۡنِيَ عَنكُمۡ فِئَتُكُمۡ﴾: جمعُكم ﴿شَيۡـٔٗا وَلَوۡ كَثُرَتۡ﴾ عدداً، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾: بالفتح: مدنيٌّ وشاميٌّ وحفصٌ؛ أي: ولأن الله مع المؤمنين بالنصر.. كان ذلك، وبالكسرِ: غيرُهم، ويؤيدُه قراءةُ عبدِ الله: ﴿واللهُ معَ المؤمنين﴾[1].

《٢٠》 ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ﴾: عن رسول الله؛ لأن المعنى: وأطيعوا رسولَ اللهِ، كقوله: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢]، ولأن طاعةَ الرسولِ وطاعةَ اللهِ شيءٌ واحدٌ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: ٨٠]، فكان رجوعُ الضميرِ إلى أحدِهما كرجوعِه إليهما، كقوله: الإحسانُ والإجمالُ لا ينفعُ في فلانٍ، أو: يرجعُ الضميرُ إلى الأمرِ بالطاعةِ؛ أي: ولا تولوا عن هذا الأمر وأمثالِه، وأصلُه: ولا تتولَّوا، فحذفَ إحدى التاءين تخفيفاً، ﴿وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴿٢٠﴾﴾ أي: وأنتم تسمعونه، أو: ولا تتولوا عن رسول الله عليه السلام ولا تخالفوه وأنتم تسمعون؛ أي: تُصدِّقون؛ لأنكم مؤمنون، لستم كالصُّمِّ المكذبين من الكفرة.

《٢١》 ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا﴾ أي: ادَّعَوُا السماعَ وهم المنافقون أو: أهلُ الكتاب، ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ لأنهم ليسُوا بمصدِّقين، فكأنهم غيرُ سامعين؛ والمعنى: أنكم تُصدقون بالقرآن والنبوةِ، فإذا توليتم عن طاعة الرسول في بعض الأمور؛ من قسمةِ الغنائمِ وغيرِها.. أشبهَ سماعُكم سماعَ من لا يؤمن.

《٢٢》 ثم قال: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أي: إنَّ شرَّ من يَدِبُّ على وجه الأرض البهائمُ، وإن شرَّ البهائم الذين هم صُمٌّ عن الحقِّ لا يعقِلونه، جعلهم من جنسِ البهائمِ، ثم جعلهم شرَّها؛ لأنهم عانَدُوا بعد الفهم، وكابرُوا بعدَ العقلِ.

《٢٣》 ﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ﴾: في هؤلاءِ الصمِّ والبكم ﴿خَيۡرٗا﴾: صدقاً ورغبةً ﴿لَّأَسۡمَعَهُمۡ﴾: لجعلهم سامعين حتى يسمعُوا سماعَ المصدقين، ﴿وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ﴾ عنه؛ أي: ولو أسمعهم وصدقُوا.. لارتدُّوا بعدَ ذلك ولم يستقيموا، ﴿وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ عن الإيمان.

---

(١) انظر «المحرر الوجيز» (٢/ ٥١٣).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةًۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ ....﴾

《٢٤》 ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ وَحَّدَ الضميرَ أيضاً كما وحَّده فيما قبله؛ لأن استجابةَ رسولِ اللهِ كاستجابتِه، والمرادُ بالاستجابة: الطاعةُ والامتثالُ، وبالدعوة: البعثُ والتحريضُ، ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ من علومِ الدياناتِ والشرائعِ؛ لأن العلمَ حياةٌ، كما أن الجهلَ موتٌ، قال:[1] [من: المنسرح]

لا تُعْجِبَنَّ الجَهولَ حُلتُه ... فذاك مَيْتٌ وثوبُه كفنُ

أو: لمجاهدةِ الكفارِ؛ لأنهم لو رفضُوها.. لغلبُوهم وقتلوهم، أو: للشهادة؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ أي: يُميتُه فتفوتُه الفرصةُ التي هو واجدُها، وهي التمكنُ من إخلاصِ القلبِ، فاغتنمُوا هذه الفرصةَ، وأخلصُوا قلوبَكم لطاعةِ اللهِ ورسولِه، أو: بينه وبين ما تمنّاه بقلبِه من طولِ الحياةِ، فيفسخُ عزائمَه ﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾: واعلموا أنكم إليه تحشرون، فيثيبُكم على حسب سلامةِ القلوبِ، وإخلاص الطاعةِ.

《٢٥》 ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً﴾: عذاباً ﴿لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾: هو جوابٌ للأمرِ؛ أي: إن أصابتكم.. لا تصبِ الظالمين منكم خاصةً، ولكنها تعمُّكم، وجازَ أن تدخلَ النونُ المؤكّدةُ في جواب الأمرِ؛ لأن فيه معنى النهيِ، كما إذا قلت: انزل عن الدابة.. لا تطرحْك، وجازَ: لا تطرحنَّك[2]، ومِن في (منكم): للتبعيض، ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾ إذا عاقب.

---

(١) البيت للزمخشري في «ديوانه» (ص٥٤٦).

(٢) كلمة (لا) في (لا تصيبنَّ): فيها وجهان، الأول: ناهيةٌ، فالجملة لا يجوز أن تكون صفة لـ(فتنة)؛ لأن الجملة الطلبية لا تقع صفة، ويجوز أن تكون معمولة لقولٍ مقدَّرٍ، وذلك القولُ هو الصفةُ؛ أي: فتنةً مقولاً فيها: (لا تصيبن)، الثاني: نافية، والجملة صفةُ (فتنة)، ويجوز أن يؤكد المضارعُ المنفي بـ: لا؛ تشبيهاً بالنهي، وأما جعل (لا تصيبن) جواباً للأمر.. فهو مشكل؛ إذ لا يستقيم المعنى لو قيل: إن تتقوا فتنة.. لا تصيبن، وأما في المثال.. فيصح المعنى لو قيل: إن تنزل عن الدابة.. لا تطرحْك. انظر «شرح الكافية الشافية» (٣/ ١٤٠٣)، و«الدر المصون» (٥/ ٥٩٠).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ....

《٢٦》 ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ﴾: (إذ): مفعولٌ به، لا ظرفٌ؛ أي: واذكرُوا وقتَ كونِكم أقلةً أذلةً، ﴿مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾: أرضِ مكةَ قبلَ الهجرةِ، يستضعفُكم قريشٌ، ﴿تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾ لأن الناس كانوا لهم أعداءً مضادِّين، ﴿فَآوَاكُمْ﴾ إلى المدينةِ، ﴿وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ﴾ بمظاهرةِ الأنصارِ، وبإمدادِ الملائكةِ يومَ بدرٍ، ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾: من الغنائمِ، ولم تحلَّ لأحد قبلَكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ هذه النعمَ.

《٢٧》 ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ﴾ بأن تعطلُوا فرائضَه ﴿وَالرَّسُولَ﴾ بألا تستنُّوا به، ﴿وَتَخُونُوا﴾: جزمٌ عطفٌ على (لا تخونوا) أي: ولا تخونوا ﴿أَمَانَاتِكُمْ﴾ فيما بينكم بألا تحفظُوها، ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾ تبعةَ ذلك ووبالَه، أو: وأنتم تعلمون أنكم تخونون؛ يعني: أن الخيانةَ توجدُ منكم عن تعمد، لا عن سهو، أو: وأنتم علماءُ، تعلمون حسنَ الحسنِ وقبحَ القبيحِ، ومعنى الخَونِ: النقصُ، كما أن معنى الوفاء: التمامُ، ومنه تَخَوَّنَه: إذا انتقصَه، ثم استعملَ في ضدِّ الأمانةِ والوفاء؛ لأنك إذا خُنْتَ الرجلَ في شيءٍ.. فقد أدخلت عليه النقصانَ فيه.

《٢٨》 ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي: سببُ الوقوعِ في الفتنة، وهي الإثم والعذاب، أو: محنةٌ من الله؛ ليبلوكم كيف تحافظون فيهم على حدوده، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ فعليكم أن تحرصُوا على طلب ذلك وتزهدُوا في الدنيا، ولا تحرصوا على جمع المال وحب الولد.

《٢٩》 ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾: نصراً؛ لأنه يفرقُ بين الحقِّ والباطل، وبين الكفرِ بإذلال حزبِه، والإسلامِ بإعزازِ أهلِه، أو: بياناً وظهوراً يَشْهَرُ أمرَكم، ويبثُّ صيتَكم وآثارَكم في أقطارِ الأرض؛ من قولِهم: سطع الفرقان؛ أي: طلع الفجرُ، أو: مَخرجاً من الشبهاتِ وشرحاً للصدور، أو: تفرقةً بينكم وبين غيرِكم من أهل الأديان، وفضلاً ومزيةً في الدنيا والآخرةِ، ﴿وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ أي: الصغائرَ، ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾: ذنوبَكم؛ أي: الكبائرَ، ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ على عبادِه.

《٣٠》 ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لما فتحَ اللهُ عليه.. ذَكَّرَهُ مكرَ قريشٍ به حين كان بمكةَ

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣١﴾

ليشكر نعمةَ اللهِ في نجاته من مكرِهم، واستيلائِه عليهم؛ والمعنى: واذكر إذْ يمكرون بك، وذلك أن قريشاً لما أسلمت الأنصارُ.. فرِقُوا أن يتفاقمَ أمرُه، فاجتمعُوا في دار الندوة متشاورين في أمره، فدخل عليهم إبليسُ في صورة شيخٍ وقال: أنا شيخٌ من نجدٍ، دخلت مكةَ فسمعت باجتماعِكم، فأردتُ أن أحضُرَكم ولن تَعْدَموا مني رأياً ونصحاً، فقال أبو البُحتُرِيِّ: رأيي أن تحبِسوه في بيت، وتشدُّوا وَثاقَه، وتسدُّوا بابَه غيرَ كَوَّةٍ تُلقون إليه طعامَه وشرابَه منها، وتتربصوا به ريبَ المنونِ، فقال إبليسُ: بئس الرأيُ، يأتيكم من يقاتلُكم من قومِه ويخلصُوه من أيديكم، فقال هشامُ بن عمرٍو: رأيي أن تحملُوه على جملٍ وتخرجُوه من بين أظهرِكم، فلا يضرُّكم ما صنع، واسترَحْتُم، فقال إبليس: بئسَ الرأيُ، يفسدُ قوماً غيرَكم، ويقاتلُكم بهم، فقال أبو جهل: أنا أرى أن تأخذوا من كلِّ بطنٍ غلاماً وتعطُوه سيفاً، فيضربُوه ضربةَ رجلٍ واحدٍ، فيتفرقُ دمُه في القبائل، فلا يقوَى بنو هاشمٍ على حربِ قريشٍ كلِّهم، فإذا طلبوا العقلَ.. عقلْناه واسترحنا[1]، فقال الشيخُ: صدق هذا الفتى، هو أجودُكم رأياً، فتفرقُوا على رأيِ أبي جهلٍ مجتمعين على قتلِه، فأخبر جبريل رسولَ الله ﷺ، وأمره ألا يبيتَ في مضجِعه، وأذن له الله في الهجرةِ، فأمر عليّاً فنام في مضجِعه وقال له: اتَّشِح ببُردتي؛ فإنه لن يخلصَ إليك أمرٌ تكرهُه، وباتوا مترصدين، فلما أصبحُوا.. ثارُوا إلى مضجِعه، فأبصرُوا عليّاً فبُهتوا وخيَّبَ اللهُ سعيَهم، واقتصُّوا أثرَه فأبطلَ مكرَهم[2]، ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾: ليحبِسوك ويُوثِقوك، ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ بسيوفهم، ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ من مكةَ، ﴿وَيَمْكُرُونَ﴾: ويُخفون المكايدَ له، ﴿وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾: ويُخفي اللهُ ما أعدَّ لهم حتى يأتيَهم بغتةً، ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٣٠﴾ أي: مكرُهُ أنفَذُ من مكرِ غيرِه وأبلغُ تأثيراً.

كان عليه السلام يقرأُ القرآنَ ويذكرُ أخبارَ القرونِ الماضيةِ في قراءتِه، فقال النضر بنُ الحارثِ: لو شئتُ.. لقلتُ مثلَ هذا، وهو الذي جاء من بلادِ فارسَ بنسخةِ حديثِ رستمَ، وأحاديثِ العجمِ، فنزل:

«٣١» ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ أي: القرآنُ ﴿قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣١﴾: وهذا صَلَفٌ منهم ووقاحةٌ[3]؛ لأنهم دُعوا إلى أن يأتوا بسورة واحدة من مثل هذا القرآنِ فلم يأتُوا به.

---

(١) العقل: الدية.

(٢) انظر «سيرة ابن هشام» (٢/ ٨٩).

(٣) الصلفُ: الكبر، والوقاحةُ: قلة الحياء.

﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣٢ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣٣ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٤﴾ ....

«٣٢» ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا﴾ أي: القرآنُ ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ (هذا): اسمُ (كان)، و(هو): فصلٌ، و(الحق): خبرُ (كان)، روي: أن النضر لما قال: إن هذا إلا أساطير الأولين.. قال له النبيُّ عليه الصلاة والسلام: «وَيْلَكَ إنَّ هذا كلامُ الله»، فرفع النضرُ رأسَه إلى السماء وقال: (إن كان هذا هو الحق من عندك)، ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: إن كان القرآن هو الحقَّ.. فعاقِبنا على إنكاره بالسِّجِّيلِ، كما فعلتَ بأصحابِ الفيلِ، ﴿أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣٢﴾: بنوعٍ آخرَ من جنسِ العذابِ الأليم، فقتل يومَ بدرٍ صبراً[1]، وعن معاويةَ أنه قال لرجل من سبأ: ما أجهلَ قومَك حين ملَّكُوا عليهم امرأةً، قال: أجهلُ من قومِي قومُك؛ قالوا لرسول الله عليه السلام حين دعاهم إلى الحق: (إن كان هذا هو الحقَّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السمآء)، ولم يقولوا: إن كان هذا هو الحقَّ.. فاهدِنا له.

«٣٣» ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ اللامُ لتأكيدِ النفيِ، والدلالةِ على أن تعذيبَهم وأنت بين أظهرهم غيرُ مستقيمٍ؛ لأنك بُعثتَ رحمةً للعالمين، وسنتُه ألّا يعذبَ قوماً عذابَ استئصالٍ ما دام نبيُّهم بين أظهُرِهم، وفيه إشعارٌ بأنهم مُرصَدُون بالعذابِ إذا هاجرَ عنهم، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣٣﴾: هو في موضعِ الحالِ، ومعناه: نفيُ الاستغفارِ عنهم؛ أي: ولو كانُوا ممن يؤمنُ ويستغفرُ من الكفرِ.. لما عذَّبَهم، أو: معناه: وما كان الله معذبَهم وفيهم من يستغفرُ وهم المسلمون بين أظهرِهم ممن تخلَّفَ عن رسولِ اللهِ من المستضعفين.

«٣٤» ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: وما كان الله ليعذبَهم وأنت فيهم وهو معذبُهم إذا فارقتَهم، وما لهم ألّا يعذبَهم اللهُ ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ وكيف لا يعذبُون وحالُهم أنهم يَصدُّون عن المسجد الحرام كما صدُّوا رسول الله عليه السلام عامَ الحديبية، وإخراجُهم رسولَ اللهِ والمؤمنين.. من الصدِّ، وكانوا يقولون: نحن وُلاةُ البيتِ والحرمِ، فنصدُّ من نشاءُ ونُدخلُ من نشاءُ، فقيل:

---

(١) قتل صبراً أي: شُدت يداه ورجلاه، أو امسكه رجلٌ آخرُ حتى تُضربَ عنقُه.

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾ ....

﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾: وما استحقُّوا مع إشراكهم وعداوتِهم للدين أن يكونوا ولاةَ أمرِ الحرم، ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ من المسلمين، وقيل: الضميران راجعان إلى الله، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ ذلك، كأنه استثنَى من كان يعلم وهو يعاندُ، أو: أراد بالأكثرِ الجميعَ، كما يُرادُ بالقلةِ العدمُ.

«٣٥» ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً﴾: صفيراً كصوتِ المُكّاءِ، وهو: طائرٌ مليحُ الصوتِ، وهو (فُعالٌ) مِن: مَكا يمكُو: إذا صَفَّرَ، ﴿وَتَصْدِيَةً﴾: وتصفيقاً (تَفْعِلَةٌ) من الصَّدَى، وذلك أنهم كانوا يطوفون بالبيت عُراةً وهم مشبِّكون بين أصابعِهم، ويصفرون فيها ويصفقون، وكانوا يفعلون نحو ذلك إذا قرأ رسولُ اللهِ عليه السلام في صلاتِه يُخَلِّطُون عليه، ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾: عذابَ القتلِ والأسرِ يومَ بدرٍ، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾: بسببِ كفرِكم.

ونزل في المطعِمين يومَ بدرٍ، وكانوا اثني عشر رجلاً، وكلُّهم من قريش، وكان يطعمُ كلُّ واحدٍ منهم كلَّ يومٍ عشرَ جُزُرٍ:

«٣٦» ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: كان غرضُهم في الإنفاق الصدَّ عن اتباع محمدٍ عليه السلام، وهو سبيل الله، ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾: ثم تكونُ عاقبةُ إنفاقِها ندماً وحسرةً، فكأن ذاتَها تصيرُ ندماً، وتنقلبُ حسرةً[1]، ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ آخرَ الأمرِ، وهو من دلائلِ النبوةِ؛ لأنه أخبرَ عنه قبلَ وقوعِه فكان كما أخبرَ، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾: والكافرون منهم ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ لأن منهم من أسلم وحَسُنَ إسلامُه.

«٣٧» واللامُ في ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ﴾: من الكفار ﴿مِنَ الطَّيِّبِ﴾ أي: من الفريقِ الطيبِ من المؤمنين.. متعلقةٌ بـ﴿يُحْشَرُونَ﴾، ﴿ليميز﴾: حمزةُ وعليٌّ[2]، ﴿وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ﴾: الفريقَ

---

(١) ففي الكلام تقديرُ مضافين، أو: هو مجازٌ في الإسناد؛ حيث أسند الفعل (تكون) إلى الأموال، وهو في الحقيقة لإنفاقها، أو: أطلقت الحسرة مجازاً على الإنفاق مبالغةً. انظر «حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي» (٤/ ٢٧٣).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٣٠).

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٨ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٣٩ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ۝٤٠ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٤١﴾ ....

الخبيث ﴿بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا﴾: فيجمعه، ﴿فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ﴾ أي: الفريق الخبيث، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: إشارةٌ إلى الفريقِ الخبيثِ ﴿هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٣٧﴾ أنفسَهم وأموالَهم.

《٣٨》 ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أي: أبي سفيانَ وأصحابِه: ﴿إِن يَنتَهُواْ﴾ عمّا هم عليه من عداوةِ رسولِ اللهِ عليه السلام وقتالِه بالدخول في الإسلام ﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ لهم من العداوةِ، ﴿وَإِن يَعُودُواْ﴾ لقتالِه ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٨﴾ بالإهلاكِ في الدنيا، والعذابِ في العُقبى، أو: معناه: أن الكفار إذا انتهَوا عن الكفر وأسلمُوا.. غُفِرَ لهم ما سلف من الكفر والمعاصي.

وبه احتج أبو حنيفة رحمه الله في أن المرتدَّ إذا أسلم.. لم يلزمْه قضاءُ العبادات المتروكةِ[1].

《٣٩》 ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾: إلى ألا يوجدَ فيهم شركٌ قطُّ، ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾: ويضمحلَّ عنهم كلُّ دينٍ باطلٍ، ويبقَى فيهم دين الإسلام وحدَه، ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ﴾ عن الكفر وأسلمُوا ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٣٩﴾ يثيبُهم على إسلامِهم.

《٤٠》 ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾: أعرضُوا عن الإيمان ولم ينتهوا ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ﴾: ناصرُكم ومعينُكم، فثقُوا بولايتِه ونصرتِه، ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ لا يضيعُ من تولّاه، ﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ۝٤٠﴾ لا يغلبُ من نصرَه، والمخصوصُ بالمدح محذوفٌ.

《٤١》 ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم﴾ (ما): بمعنى: الذي، ولا يجوزُ أن يكتب إلا مفصولاً؛ إذْ لو كتبَ موصولاً.. لوجبَ أن تكون (ما) كافةً[2]، و(غنمتم): صلتُه، والعائدُ محذوفٌ، والتقدير:

---

(١) عند الحنفية لا يقضي المرتد ما فاته زمن الردة، ولا ما قبلها، إلا الحج؛ لأنه بالردة يصير كالكافر الأصلي. انظر «حاشية ابن عابدين» (٢/ ٧٥).

(٢) هذه القاعدة لا تجري على رسم المصحف، والمصاحف التي كتبت في عهد سيدنا عثمان رضي الله عنه وأجمع عليها الصحابة رضوان الله عليهم كتبت هذه الآية في بعضها مفصولة وفي بعضها موصولة، والوصل هو الأكثر. انظر «المقنع في رسم مصاحف الأمصار» (ص ٧٨).

....

غنمتموه، ﴿مِّن شَيۡءٖ﴾: بيانه[١]، قيل: حتى الخيطِ والمِخْيَطِ ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ والفاءُ إنما دخلت لما في (الذي) من معنى المجازاة، و(أنَّ) وما عملت فيه: في موضع رفعٍ على أنه خبرُ المبتدأِ تقديرُه: فالحكمُ أن لله خُمُسَهُ[٢]، ﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ فالخُمُسُ كان في عهدِ رسولِ الله ﷺ يُقْسمُ على خمسةِ أسهمٍ: سهمٍ لرسول الله، وسهمٍ لذي قرباه من بني هاشم وبني عبد المطلب، دون بني عبد شمس وبني نوفلٍ، استحقُّوه حينئذٍ بالنصرةِ؛ لقصةِ عثمانَ وجبيرِ بنِ مطعمٍ[٣]، وثلاثةِ أسهمٍ لليتامى والمساكين وابن السبيل، وأما بعدَ رسولِ الله ﷺ.. فسهمُه ساقطٌ بموتِه، وكذلك سهمُ ذوي القربى، وإنما يعطَون لفقرهم، ولا يُعطَى أغنياؤُهم، فيقسَمُ على اليتامى والمساكينِ وابنِ السبيلِ، وعن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما: أنه كان على ستةٍ: لله والرسول سهمان، وسهمٌ لأقاربه، فأجرى أبو بكرٍ الخمسَ على ثلاثةٍ، وكذا عمرُ ومَن بعدَه من الخلفاء رضي الله عنهم[٤]، ومعنى: لله وللرسول: لرسولِ الله، كقوله: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢] ﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ فاعملُوا به وارْضوا بهذه القسمة، فالإيمانُ يوجب الرضا بالحكم، والعملَ بالعلمِ، ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا﴾: معطوفٌ على (بالله) أي: إن كنتم آمنتم بالله وبالمنزَلِ ﴿عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ﴾: يومَ بدرٍ، ﴿يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾: الفريقانِ من المسلمين والكافرين، والمرادُ: ما أنزلَ عليه من الآيات والملائكةِ والفتحِ يومئذٍ، وهو بدلٌ من (يوم الفرقان)[٥]، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٤١﴾ يقدرُ على أن ينصرَ القليلَ على الكثيرِ، كما فعلَ بكم يومئذٍ.

---

(١) أي: (من شيء): بيان (ما).

(٢) الفاء زائدة في الخبر؛ لأن المبتدأ ضمن معنى الشرط، وإنما قدر مبتدأ؛ لأن هذه الفاء لا تدخل على مفرد، بل على جملة. انظر «الدر المصون» (٥/ ٦٠٥).

(٣) روى البخاري (٣١٤٠) عن جبير بن مطعم قال: مشيت أنا وعثمانُ بنُ عفانَ إلى رسول الله ﷺ، فقلنا: يا رسول الله أعطيت بني المطلب وتركتنا، ونحن وهم منك بمنزلة واحدة؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنما بنو المطلب، وبنو هاشم شيء واحد»، وفي «السنن الكبرى للبيهقي» (٦/ ٣٤١): «إنهم لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام، إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيءٌ واحد»، ثم شبك رسول الله ﷺ يديه إحداهما في الأخرى.

(٤) ذكر الإمام محمد بن الحسن في «السير الصغير» (ص ١١٢): أنه بلغه أن أبا بكر الصديق وعمر وعلياً رضي الله عنهم كانوا يقسمون الخمس على ثلاثةِ أسهمٍ: لليتامى والمساكين وابن السبيل.

(٥) جمهور النحاة يمنعون تعدد البدل، كما في «حاشية الصبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك» (١/ ١٧)، فالأولى أن يعرب (إذ) مفعولاً به لـ: اذكروا مقدّراً. انظر «الدر المصون» (٥/ ٦٠٩).

﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ ....

«٤٢» ﴿إِذْ أَنتُم﴾: بدلٌ من (يوم الفرقان)، أو: التقدير: اذكروا إذ أنتم ﴿بِالْعُدْوَةِ﴾: شطُّ الوادي، وبالكسر فيهما: مكيٌّ وأبو عمرٍو[١]، ﴿الدُّنْيَا﴾: القُربى إلى جهة المدينةِ، تأنيثُ الأدنى، ﴿وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ﴾: البعدى عن المدينةِ، تأنيثُ الأقصى، وكلتاهما (فُعلَى) من بنات الواو، والقياسُ قلبُ الواوِ ياءً، كالعُليا تأنيثُ الأعلى، وأما القُصوى.. فكالقَوَدِ في مجيئه على الأصل[٢]، ﴿وَالرَّكْبُ﴾ أي: العيرُ، وهو جمعُ راكبٍ في المعنى، ﴿أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾: نصبٌ على الظرف؛ أي: مكاناً أسفلَ من مكانِكم؛ يعني: في أسفلِ الوادي بثلاثةِ أميالٍ، وهو: مرفوعُ المحلِّ؛ لأنه خبر المبتدأ[٣]، ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ﴾ أنتم وأهلُ مكةَ وتواضعتُم بينكم على موعدٍ تلتقون فيه للقتال ﴿لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾: لخالفَ بعضُكم بعضاً فثبطَكم قِلَّتُكم وكثرتُهم عن الوفاء بالموعدِ، وثبطَهم ما في قلوبِهم من تهيبِ رسولِ اللهِ والمسلمين، فلم يتفق لكم من التلاقي [ما وفقَه اللهُ وسبَّبَ له][٤]، ﴿وَلَٰكِن﴾ جمع بينكم بلا ميعادٍ ﴿لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ من إعزازِ دينِه وإعلاءِ كلمتِه، واللامُ تتعلقُ بمحذوفٍ؛ أي: ليقضي أمراً كان ينبغي أن يُفعلَ، وهو نصرُ أوليائِه، وقهرُ أعدائِه.. دبَّرَ ذلك، قال الشيخ أبو منصورٍ رحمه الله: القضاءُ يحتملُ الحكمَ؛ أي: ليحكمَ ما قد علم أنه يكون كائناً، أو: لِيُتِمَّ أمراً كان قد أراده[٥]، وما أراد كونَه.. فهو مفعولٌ لا محالةَ، وهو عِزُّ الإسلامِ وأهلِه، وذلُّ الكفرِ وحزبِه، ويتعلق بـ (يقضى): ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾ ﴿حَيِيَ﴾: نافعٌ وأبو بكرٍ[٦]، فالإدغامُ لالتقاءِ المثلين، والإظهارُ لأن حركة الثاني غيرُ لازمة؛ لأنك تقول في المستقبل: يحيا[٧]،

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص١٣١).

(٢) القود: القصاص، والواو متحركة وقبلها فتحة، فالقياس قلبها ألفاً فتصير: القاد، والقياس في القُصوَى: القُصْيا؛ لأن (فُعْلَى) وصفاً إن كانت لامها واواً.. تقلبُ ياءً، نحو: الدُّنيا والعُلْيا. انظر «شذا العرف» (ص ١٣٠).

(٣) الظرف (أسفل): متعلق بخبر محذوف، والتقدير: والركب كائنٌ أسفل منكم، فليس (أسفل) في محل رفع.

(٤) ما بين المعقوفين زيادة من المطبوع (١/ ١٩٨) ولا بدَّ منها، وهي مذكورة في «الكشاف» (٢/ ٢١٣).

(٥) انظر «تأويلات أهل السنة» (٢/ ٣٥٧).

(٦) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٣١).

(٧) وجه الإظهار: أنه الأصل، وأن الياء الأولى يتعين فيها الإظهار في بعض الصور، وذلك في مضارع هذا الفعل؛ لانقلاب الثانية ألفاً في: يحيا ويعيا، فحمل الماضي عليه طرداً للباب، ولأن الحركة في الثاني =

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾ ....

والإدغامُ أكثرُ، استعيرُ الهلاكُ والحياةُ للكفرِ والإسلامِ؛ أي: ليصدرَ كفرُ من كفرَ عن وضوحِ بينةٍ، لا عن مخالجةِ شبهةٍ، حتى لا يبقى على الله حجةٌ، ويصدرَ إسلامُ من أسلم أيضاً عن يقينٍ وعلمٍ بأنه دينُ الحقِّ الذي يجبُ الدخولُ فيه والتمسكُ به، وذلك أن وقعةَ بدرٍ من الآياتِ الواضحةِ التي من كفرَ بعدها.. كان مكابراً لنفسِه مغالطاً لها، ولهذا ذُكِرَ فيها مراكزُ الفريقين، وأن العِيرَ كانت أسفلَ منهم مع أنهم قد علمُوا ذلك كلَّه مشاهدةً؛ ليعلمَ الخلقُ أن النصرَ والغلبةَ لا تكون بالكثرةِ والأسبابِ، بل بالله تعالى، وذلك أن العُدوةَ القصوى التي أناخ بها المشركون كان فيها الماء، وكانت أرضاً لا بأسَ بها، ولا ماءَ بالعُدوة الدنيا، وهي خَبَارٌ تسوخُ فيها الأرجلُ[1]، ولا يُمشَى فيها إلا بتعبٍ، وكان العِيرُ وراءَ ظهورِ العدوِّ[2]، مع كثرةِ عددِهم وعُدتِهم، وقلةِ المسلمين وضعفِهم، ثم كان ما كان، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ﴾: لأقوالِهم، ﴿عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾ بكفرِ من كفرَ وعقابِه، وبإيمانِ مَن آمن وثوابِه.

《٤٣》 ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾: نصبُه بإضمارِ: اذكر، أو: هو متعلقٌ بقولِه: ﴿لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾ أي: يعلمُ المصالح إذْ يقللُهم في عينك، ﴿فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ أي: في رؤياك، وذلك أن الله عزَّ وجلَّ أراه إياهم في رؤياه قليلاً، فأخبر بذلك أصحابَه، فكان ذلك تشجيعاً لهم على عدوِّهم، ﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ﴾: لجبُنْتم وهِبْتُم الإقدامَ، ﴿وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾: أمرِ القتالِ وتردَّدْتُم بين الثباتِ والفِرارِ، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾: عصمَ وأنعمَ بالسلامةِ من الفشلِ والتنازعِ والاختلافِ، ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾﴾: يعلمُ ما سيكون فيها من الجَراءةِ والجُبنِ والصبرِ والجزعِ.

《٤٤》 ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ﴾: الضميران: مفعولان؛ أي: وإذْ يبصرُكم إياهم ﴿إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ﴾: وقتَ اللقاءِ ﴿فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ هو: نصبٌ على الحال، وإنما قللهم في أعينهم تصديقاً لرؤيا رسولِ الله عليه السلام، وليعاينُوا ما أخبرَهم به، فيزدادَ يقينُهم، ويَجِدُّوا ويثبتُوا، قال ابن مسعود

= عارضةٌ؛ لزوالها في نحو: حييت وبابِه، ولأن الحركتين مختلفتان، واختلاف الحركتين كاختلاف الحرفين. انظر «الدر المصون» (٥/ ٦١٤).

(١) الخَبَارُ: ما لانَ من الأرض واسترخى.

(٢) العير: الإبلُ بأحمالها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ ....﴾

رضي الله عنه: لقد قُلِّلُوا في أعيننا حتى قلتُ لرجلٍ إلى جنبي: أتراهم سبعين؟ قال: أراهم مائةً، وكانوا ألفاً[1]، ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ حتى قال قائلٌ منهم: إنما هم أَكَلَةُ جزورٍ[2]، قيل: قد قلَّلهم في أعينهم قبلَ اللقاءِ ثم كثَّرهم فيما بعدَه؛ ليجترئُوا عليه قلةَ مبالاةٍ بهم، ثم تَفْجأُهم الكثرةُ فيُبْهَتُوا ويَهابُوا، ويجوزُ أن يُبصروا الكثيرَ قليلاً؛ بأن يسترَ اللهُ بعضَهم بساترٍ، أو يُحدثَ في عيونِهم ما يستقلُّون به الكثيرَ، كما أحدثَ في أعينِ الحُوْلِ ما يَرَون به الواحدَ اثنين، قيل لبعضهم: إن الأحولَ يرى الواحدَ اثنين، وكان بين يديه ديكٌ واحدٌ فقال: ما لي لا أرى هذين الديكين أربعةً؟

﴿لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾ فيحكمُ فيها بما يريدُ، ﴿تَرْجِعُ﴾: شاميٌّ وحمزةُ وعليٌّ[3].

《٤٥》 ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾: إذا حاربتُم جماعةً من الكفار، وترك وصفَها؛ لأن المؤمنين ما كانوا يَلْقَون إلا الكفارَ، واللقاءُ: اسمٌ غالبٌ للقتال، ﴿فَٱثْبُتُواْ﴾ لقتالِهم ولا تَفِرُّوا، ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ في مواطنِ الحربِ مستظهرين بذكره، مستنصرين به، داعين له على عدوِّكم: اللهمَّ اخذلْهم، اللهم اقطعْ دابرَهم، ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾: تظفرون بمرادِكم من النصرةِ والمثوبةِ، وفيه إشعارٌ بأن على العبد ألا يفتُرَ عن ذكرِ ربِّه أَشْغَلُ ما يكونُ قلباً[4]، وأكثرُ ما يكون همّاً، وأن تكون نفسه مجتمعةً لذلك وإن كانت متوزعةً عن غيرِه.

《٤٦》 ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في الأمر بالجهادِ، والثباتِ مع العدوِّ، وغيرِهما، ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ﴾: فتجبُنُوا، وهو منصوبٌ بإضمارِ: أنْ، ويدلُّ عليه: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أي: دولتُكم؛ يقال: هبت رياح فلان: إذا دالت له الدولةُ، ونفذَ أمرُه، شُبِّهَتْ في نفوذ أمرِها وتمشيتِه بالريحِ وهبوبِها، وقيل: لم يكن نصرٌ قطُّ إلا بريحٍ يبعثُها اللهُ، وفي الحديث: «نصرتُ بالصَّبا،

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٧/ ٣٦٠).

(٢) قال ذلك أبو جهل، رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٧/ ٣٥٦) ومعنى: أَكَلَةُ جَزُورٍ: أنهم قليلون يشبعهم جزور.

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص١٣١).

(٤) أي: وهو أَشْغَلُ...

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾ ....

وأهلكت عادٌ بالدَّبور»[1]، ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟﴾ في القتالِ مع العدوِّ وغيرِه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ أي: معينُهم وحافظُهم.

《٤٧》 ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ هم: أهلُ مكةَ حين نفرُوا لحمايةِ العِيرِ، فأتاهم رسولُ أبي سفيان أن ارجعُوا فقد سلمت عيرُكم، فأبى أبو جهلٍ وقال: حتى نقدُمَ بدراً ونَشربَ بها الخمورَ، ونَنحرَ الجَزورَ، وتَعزِفَ علينا القِيانُ، ونُطعِمَ بها العربَ[2]، فذلك بطرُهم ورياؤُهم الناسَ بإطعامِهم، فوافَوها، فسُقُوا كأسَ المنايا مكانَ الخمرِ، وناحت عليهم النوائحُ مكان القِيانِ، فنهاهم أن يكونوا مثلَهم بَطِرين طَرِبين مُرائين بأعمالهم، وأن يكونُوا من أهلِ التقوى والكآبةِ والحزنِ من خشيةِ اللهِ، مخلصين أعمالهم لله، والبطرُ: أن يشغلَه سُكْرُ النعمةِ عن شُكرِها.

﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾: دينِ اللهِ، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾: عالمٌ، وهو وعيدٌ.

《٤٨》 ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾: واذكر إذْ زين لهم الشيطانُ أعمالَهم التي عملُوها في معاداةِ رسولِ اللهِ عليه السلام، ووسوسَ إليهم أنهم لا يُغلبون، و(غالبَ): مبنيٌّ نحو: لا رجلَ، و﴿لَكُمُ﴾: في موضعِ رفعِ خبرُ (لا)، تقديرُه: لا غالبَ كائنٌ لكم، ﴿وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ﴾ أي: مجيرٌ لكم، أَوْهَمَهُم أنَّ طاعةَ الشيطانِ مما يُجيرُهم، ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ﴾: فلمّا تلاقى الفريقانِ ﴿نَكَصَ﴾ الشيطانُ هارباً ﴿عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ أي: رجعَ القهقرى، ﴿وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ﴾ أي: رجعتُ عمّا ضمنتُ لكم من الأمانِ، رويَ: أن إبليسَ تمثلَ لهم في صورةِ سُراقةَ بنِ مالكِ بنِ جُعْشُمٍ في جندٍ من الشياطين، معه رايةٌ، فلمّا رأى الملائكةَ تنزلُ.. نكصَ، فقال له الحارثُ بنُ هشامٍ: أتخذُلُنا في هذه الحالةِ؟ فقال: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ أي: الملائكةَ، وانهزمُوا، فلما بلغُوا مكةَ.. قالوا: هزمَ الناسَ سراقةُ، فبلغ ذلك سُراقةَ فقال: واللهِ ما شعرتُ بمسيرِكم حتى بلغتْني هزيمتُكم، فلما أسلمُوا.. علمُوا أنه الشيطان، ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ﴾ أي: عقوبتَه، ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾.

---

(١) رواه البخاري (١٠٣٥) ومسلم (٩٠٠) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر «سيرة ابن هشام» (١/٦١٨).

إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ ....

《٤٩》 اذكروا ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ بالمدينةِ ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: هو من صفةِ المنافقين، أو: أريدَ: الذين هم على حرفٍ ليسُوا بثابتِي الأقدامِ في الإسلامِ: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ يعنون: أن المسلمين اغترُّوا بدينِهم فخرجُوا وهم ثلاثُ مئةٍ وبضعةَ عشرَ إلى زهاءِ ألفٍ،

ثم قال جواباً لهم: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾: يَكِلْ إليه أمرَه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾: غالبٌ يسلطُ القليلَ الضعيفَ على الكثيرِ القويِّ، ﴿حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾: لا يُسَوِّيْ بين وليِّه وعدوِّه.

《٥٠》 ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾: ولو عاينتَ وشاهدتَ؛ لأنَّ لو: تردُّ المضارعَ إلى معنى الماضي، كما تردُّ إنْ: الماضيَ إلى معنى الاستقبالِ ﴿إِذْ﴾: نصبٌ على الظرفِ ﴿يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بقبضِ أرواحِهم ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: فاعل، ﴿يَضْرِبُونَ﴾: حالٌ منهم، ﴿وُجُوهَهُمْ﴾ إذا أقبلُوا، ﴿وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾: ظهورَهم وأَسْتاهَهُم إذا أدبرُوا[١]، أو: وجوهَهم عند الإقدامِ، وأدبارَهم عند الانهزامِ، وقيل: في (يتوفى) ضميرُ الله تعالى، و(الملائكةُ): مرفوعةٌ بالابتداء، و(يضربون): خبرٌ، والأولُ الوجهُ؛ لأن الكفارَ لا يستحقُّون أن يكون اللهُ متوفيَهم بلا واسطةٍ؛ دليلُه: قراءةُ ابنِ عامرٍ ﴿تتوفى﴾: بالتاء[٢]، ﴿وَذُوقُوا۟﴾: ويقولون لهم: ذوقوا، معطوفٌ على (يضربون)، ﴿عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾ أي: مقدمةَ عذابِ النارِ، أو: ذوقوا عذابَ الآخرةِ بشارةً لهم به، أو: يقال لهم يوم القيامة: ذوقوا، وجوابُ (لو) محذوفٌ؛ أي: لرأيت أمراً فظيعاً.

《٥١》 ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: كسبت، وهو ردٌّ على الجبريةِ، وهو من كلامِ اللهِ تعالى، أو: من كلامِ الملائكةِ، و(ذلك): رفعٌ بالابتداء، و(بما قدمت): خبرُه، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾: عطفٌ عليه؛ أي: ذلك العذابُ بسببين: بسببِ كفرِكم ومعاصيكم، وبأن الله ﴿لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾ لأن تعذيب الكفار من العدل، وقيل: (ظلّام): للتكثير؛ لأجل العبيد، أو: لنفي أنواع الظلم[٣].

---

(١) الاستُ: الدُّبرُ، وجمعُه: أَسْتاهٌ.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٣٢).

(٣) هذا جوابُ ما يقال: إنّ نفي نفس الظلم أبلغ من نفي كثرته، ونفيُ الكثرة لا ينفي أصلَه بل ربما يُشعر بوجوده، وأجيب أيضاً أنّ (ظلام) للنسب؛ أي: لا ينسب إليه الظلم أصلاً. انظر «حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي» (٤/ ٢٨٣).

كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَابِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ ....

«٥٢» الكافُ في ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾: في محلِّ الرفع؛ أي: دأبُ هؤلاءِ مثلُ دأبِ آلِ فرعونَ، ودأبُهم: عادتُهم وعملُهم الذي دَأَبُوا فيه؛ أي: داوموا عليه، ﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: من قبلِ قريشٍ، أو من قبلِ آلِ فرعونَ، ﴿كَفَرُوا﴾: تفسيرٌ لدأبِ آلِ فرعون، ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾ والمعنى: جَرَوا على عادتِهم في التكذيب، فأجرَى عليهم مثلَ ما فعلَ بهم في التعذيبِ.

«٥٣» ﴿ذَٰلِكَ﴾ العذابُ أو الانتقامُ ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾: بسببِ أن الله لم يصحَّ في حكمتِه أن يُغيرَ نعَمَه عندَ قومٍ حتى يُغيِّرُوا ما بهم من الحالِ، نعمْ لم يكن لآلِ فرعونَ ومشركي مكةَ حالٌ مرضيةٌ فيُغيروها إلى حالٍ مسخوطةٍ، لكن كما تُغيرُ الحالُ المرضيةُ إلى المسخوطة.. تُغيرُ الحالُ المسخوطةُ إلى أسخطَ منها، وأولئك كانوا قبل بعثةِ الرسولِ إليهم كفرةً عبدةَ أصنامٍ، فلما بُعثَ إليهم بالآياتِ فكذبُوه وسعَوا في إراقةِ دمِه.. غيَّروا حالَهم إلى أسوأَ مما كانتْ، فغيَّرَ اللهُ ما أنعمَ به عليهم من الإمهالِ وعاجلَهم بالعذابِ، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لما يقولُ مكذبو الرسلِ، ﴿عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ بما يفعلون.

«٥٤» ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾: تكريرٌ للتأكيد، أو: لأن في الأولى الأخذَ بالذنوبِ بلا بيانِ ذلك، وهنا بيَّنَ أن ذلك هو الإهلاكُ والاستئصالُ، ﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ وفي قوله: (بآيات ربهم) زيادةُ دلالةٍ على كفرانِ النعمِ وجحودِ الحقِّ، ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ بماءِ البحرِ، ﴿وَكُلٌّ﴾: وكلُّهم من غرقَى القِبطِ وقتلَى قريشٍ ﴿كَانُوا ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ أنفسَهم بالكفرِ والمعاصِي.

«٥٥» ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَابِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾﴾ أي: أصَرُّوا على الكفرِ، فلا يُتوقعُ منهم الإيمانُ.

«٥٦» ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ﴾: بدلٌ من (الذين كفروا) أي: الذين عاهدتَهم من الذين كفروا، وجعلَهم شرَّ الدوابِّ؛ لأن شرَّ الناسِ الكفارُ، وشرَّ الكفارِ المصرُّون، وشرَّ المصرِّين

﴿فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ۝٥٧ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ۝٥٨ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ ۝٥٩﴾ ....

الناكثون للعهود، ﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ﴾: في كل معاهَدةٍ ﴿وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ۝٥٦﴾: لا يخافون عاقبةَ الغدرِ، ولا يُبالون بما فيه من العارِ والنارِ.

《٥٧》 ﴿فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ﴾: فإمّا تصادفنَّهم وتظفرَنَّ بهم ﴿فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ﴾: ففرِّق عَن مُحاربتكَ ومُناصبتك بقتلِهم شرَّ قِتلةٍ، والنكايةِ فيهم مَنْ وراءَهم من الكفرةِ حتى لا يَجْسُرَ عليك بعدَهم أحدٌ؛ اعتباراً بهم؛ واتعاظاً بحالهم، وقال الزجاجُ: افعلْ بهم ما تُفرِّقُ وتطردُ به مَن عداهم[1]، ﴿لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ۝٥٧﴾: لعل المشرَّدين مِن ورائِهم يتعظون.

《٥٨》 ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ﴾ معاهَدين ﴿خِيَانَةٗ﴾: نكثاً بأماراتٍ تلوحُ لك ﴿فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ﴾: فاطْرح إليهم العهدَ ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾: على استواءٍ منك ومنهم في العلم بنقضِ العهدِ، وهو حالٌ من النابذِ والمنبوذِ إليهم؛ أي: حاصِلَين على استواءٍ في العلم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ۝٥٨﴾: الناقضينَ للعهودِ.

《٥٩》 ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ﴾: بالياء وفتحِ السينِ: شاميٌّ وحمزةُ ويزيدُ وحفصٌ، وبالتاءِ وفتحِ السينِ: أبو بكرٍ، وبالتاءِ وكسرِ السينِ: غيرُهم[2]، ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ﴾: فاتُوا وأفلتُوا من أن يُظفرَ بهم، ﴿إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ ۝٥٩﴾: إنهم لا يَفوتون ولا يجدُون طالبَهم عاجزاً عن إدراكِهم، ﴿أنهم﴾: شاميٌّ؛ أي: لأنهم، وكلُّ واحدةٍ من المكسورةِ والمفتوحةِ تعليلٌ، غيرَ أن المكسورةَ على طريقةِ الاستئنافِ، والمفتوحةَ تعليلٌ صريحٌ، فمن قرأَ بالتاءِ فـ (الذين كفروا): مفعولٌ أولُ، والثاني: (سبقوا)، ومن قرأ بالياء فـ (الذين كفروا): فاعلٌ، و(سبقوا): تقديرُه: أنْ سبقُوا، فحذفَ أنْ، وأنْ: مخففةٌ من الثقيلةِ؛ أي: أنهم سبقُوا، فسدَّ مسدَّ المفعولين[3]، أو يكون الفاعلُ مضمراً؛ أي: ولا يحسبنَّ محمدٌ الكافرين سابقين، ومن ادَّعى تفردَ حمزةَ بالقراءةِ.. ففيه نظر؛ لما بيَّنا من عدمِ تفردِه بها[4]،

وعن الزهري: أنها نزلت فيمن أفلتَ من فَلِّ المشركين[5].

---

(١) انظر «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ٤٢٠).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٣٢) وكذا القراءة الآتية.

(٣) ويجوز كون جملة (سبقوا) مفعولاً ثانياً دون تقديرِ أنْ. انظر «الدر المصون» (٥/ ٦٢٣).

(٤) ولو فرض تفرده.. فلا إشكال؛ لأن قراءته متواترة.

(٥) الفَلُّ: القومُ المنهزمون.

﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ ....

《٦٠》 ﴿وَأَعِدُّوا۟﴾ أيُّها المؤمنون ﴿لَهُم﴾: لِناقِضي العهدِ، أو: لجميعِ الكفارِ ﴿مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾: من كلِّ ما يُتقوَّى به في الحربِ من عُدَدِها، وفي الحديثِ: «ألا إن القوةَ الرميُ» قالها ثلاثاً على المنبر[١]، وقيل: هي الحُصُونُ، ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ هو: اسمٌ للخيل التي تُربَطُ في سبيلِ اللهِ، أو: هو جمعُ ربيطٍ، كفَصيلٍ وفِصالٍ، وخصَّ الخيلَ من بينِ ما يُتقوَّى به، كقولِه:

﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨]، ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ﴾: بما استطعتم، ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ أي: أهلَ مكةَ ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾: غيرِهم، وهم: اليهودُ، أو: المنافقون، أو: أهلُ فارسَ، أو: كفرةُ الجنِّ، في الحديث: «إن الشيطان لا يَقربُ صاحبَ فرسٍ، ولا داراً فيها فرسٌ عتيقٌ»[٢]، وروي: أن صهيلَ الخيلِ يُرهِبُ الجنَّ، ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾: لا تعرفونهم بأعيانهم، ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾: يُوَفَّرْ عليكم جزاؤه، ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ في الجزاءِ، بل تُعطَون على التمام.

《٦١》 ﴿وَإِن جَنَحُوا۟﴾: مالُوا، جنحَ له وإليه: مالَ، ﴿لِلسَّلْمِ﴾: للصُّلْحِ، وبكسرِ السين: أبو بكرٍ[٣]، وهو مؤنثٌ تأنيثَ ضدِّها وهو الحرب، ﴿فَٱجْنَحْ لَهَا﴾: فملْ إليها، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾: ولا تخفْ من إبطانِهم المكرَ في جنوحِهم إلى السلْمِ؛ فإن الله كافيْك وعاصمُك من مكرِهم، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالِك، ﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾ بأحوالِك.

《٦٢》 ﴿وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ﴾: يمكرُوا بك ويغدِرُوا، ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ﴾: كافيك اللهُ، ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ﴾: قوّاك ﴿بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ جميعاً، أو: بالأنصارِ.

---

(١) رواه مسلم (١٩١٧) عن سيدنا عقبة بن عامر رضي الله عنه.

(٢) روى أبو الشيخ في «العظمة» (٥/ ١٦٤٥) عن النبي ﷺ في قوله تعالى: (وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم) قال: «هم الجنُّ، ولن يَخبِلَ الشيطانُ إنساناً في داره فرس عتيق».

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٣٢).

وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ....

«٦٣» ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾: قلوبِ الأوسِ والخزرجِ بعدَ تعاديهم مئةً وعشرين سنةً، ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: بلغتْ عداوتُهم مبلغاً لو أنفق منفقٌ في إصلاحِ ذاتِ بينِهم ما في الأرض من الأموالِ. . لم يقدر عليه ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ بفضلِه ورحمتِه، وجمعَ بينَ كلمتِهم بقدرتِه، وأحدث بينهم التحابَّ والتوادَّ، وأماطَ عنهم التباغضَ والتماقتَ، ﴿إِنَّهُ عَزِيزٌ﴾ يقهرُ من يخدعونَك، ﴿حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ ينصرُ من يتبعونَك.

«٦٤» ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ الواوُ بمعنى: معْ، وما بعدَه: منصوبٌ، والمعنى: كفاك وكفى تُبّاعَك من المؤمنين اللهُ ناصراً، ويجوز أن يكون في محلِّ الرفعِ؛ أي: كفاك اللهُ، وكفاك المؤمنون، قيل: أسلمَ مع النبيِّ عليه السلامُ ثلاثةٌ وثلاثون رجلاً وستُّ نسوةٍ، ثم أسلمَ عمرُ فنزلت[1].

«٦٥» ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ التحريضُ: المبالغةُ في الحثِّ على الأمرِ؛ من الحَرَضِ، وهو: أن يَنْهَكهُ المرضُ حتى يُشْفِيَ على الموت، ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: هذه عدةٌ من اللهِ وبشارةٌ بأن الجماعةَ من المؤمنين إن صبرُوا. . غَلَبُوا عشرةَ أمثالِهم من الكفارِ بعونِ اللهِ وتأييدِه، ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾: بسببِ أن الكفارَ قومٌ جهلةٌ يقاتلون على غيرِ احتسابٍ وطلبِ ثوابٍ كالبهائمِ، فيقلُّ ثباتُهم، ويَعْدَمُون لجهلِهم باللهِ نُصرتَه، خلافَ مَن يقاتلُ على بصيرةٍ وهو يرجو النصرَ من اللهِ.

قيل: كان عليهم ألّا يَفِرُّوا ويثبتَ الواحدُ للعشرةِ، ثم ثَقُلَ عليهم ذلك فنسخَ وخففَ عنهم بمقاومةِ الواحدِ الاثنينِ بقولِه:

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٢/ ٦٠) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما. فعلى هذا تكون هذه الآية مكيةً كُتبت بأمر رسول الله ﷺ في سورةٍ مدنيةٍ، ويشكل على هذا أن إسلام سيدِنا عمر رضي الله عنه كان بعد خروجِ المهاجرين إلى الحبشة، وكان عددهم سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم صغاراً أو وُلِدُوا بها اثنين وثمانين، أو ثلاثةً وثمانين رجلاً. وقال الكلبيُّ: نزلت هذه الآيةُ بالبيداء في غزوة بدر قبل القتال. انظر «تفسير القرطبي» (٨/ ٤٣).

﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾ ....

«٦٦» ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضُعْفاً﴾ ﴿ضَعْفًا﴾: عاصمٌ وحمزةُ[١]، ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ﴾: بالياءِ فيهما: كوفيٌّ، وافق البصريُّ في الأولى، والمرادُ: الضَّعفُ في البدنِ ﴿يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ وتكريرُ مقاومةِ الجماعةِ لأكثرَ منها مرتين قبل التخفيفِ وبعدَه للدلالة على أن الحالَ مع القلةِ والكثرةِ لا تتفاوت؛ إذ الحالُ قد تتفاوتُ بين مقاومةِ العشرين المئتينَ، والمئةِ الألفَ، وكذلك بين مقاومةِ المئةِ المئتينَ، والألفِ الألفينَ[٢].

«٦٧» ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ﴾: ما صحَّ له ولا استقامَ ﴿أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ ﴿أن تكون﴾: بصريٌّ[٣]، ﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الإثخانُ: كثرةُ القتلِ والمبالغةُ فيه؛ من الثَّخانةِ وهي: الغِلَظُ والكثافةُ؛ يعني: حتى يُذَلَّ الكفرُ بإشاعةِ القتلِ في أهلِه، ويُعَزَّ الإسلامُ بالاستيلاء والقهر، ثم الأسرُ بعدَ ذلك، روي: أن رسول الله ﷺ أُتيَ بسبعين أسيراً فيهم العباسُ عمُّه وعَقيلٌ، فاستشارَ أبا بكر فيهم فقال: قومُك وأهلُك، استبقِهم؛ لعلَّ اللهَ يتوبُ عليهم، وخذْ منهم فديةً تُقوِّي بها أصحابَك، وقال عمرُ رضي الله عنه: كذَّبوك وأخرجوك فقدمْهم واضربْ أعناقَهم؛ فإن هؤلاء أئمةُ الكفرِ، وإن الله أغناك عن الفداء، مَكِّنْ علياً من عَقيلٍ، وحمزةَ من العباسِ، ومَكِّنِّي من فلان - لنسيبٍ له - فلنضربْ أعناقهم، فقال عليه السلام: «مَثَلُكَ يا أبا بكر كمثلِ إبراهيمَ حيث قال: ﴿وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [ابراهيم: ٣٦]، ومَثَلُكَ يا عمرُ كمثلِ نوحٍ حيث قال: ﴿لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، ثم قال رسول الله لهم: «إن شئتم.. قتلتموهم، وإن شئتم.. فاديتموهم واستشهدَ منكم بعدتِهم»، فقالوا: بل نأخذ الفداءَ، فاستُشهِدُوا بأحدٍ، فلما أخذوا الفداءَ.. نزلت الآيةُ[٤]، ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾: متاعَها؛ يعني: الفداءَ؛ سماه عرضاً؛

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٣٢) وكذا القراءة الآتية.

(٢) أي: قد تكون مقاومة المئةِ الألفَ أسهلَ من مقاومةِ العشرين للمئتين، ولكن إذا أراد الله نصر المؤمنين.. فلا تفاوت، فيكون قتال العشرين للمئتين كقتال المئة للألف.

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٣٣).

(٤) روى نحوه مسلم (١٧٦٣) عن سيدنا عمر رضي الله عنه، وقوله: «إن شئتم.. قتلتموهم...» رواه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ١٤١) عن سيدنا علي رضي الله عنه.

﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٦٨ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٦٩﴾ ....

لقلةِ بقائِه، وسرعةِ فنائِه، ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ أي: ما هو سببُ الجنةِ؛ من إعزازِ الإسلامِ بالإثخانِ في القتل، ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ يقهرُ الأعداءَ، ﴿حَكِيمٌ ۝٦٧﴾ في عتابِ الأولياءِ.

《٦٨》 ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾: لولا حكمٌ من الله ﴿سَبَقَ﴾ ألا يعذبَ أحداً على العمل بالاجتهادِ، وكان هذا اجتهاداً منهم؛ لأنهم نظروا في أن استبقاءَهم ربما كان سبباً في إسلامهم، وأن فداءَهم يُتقوَّى به على الجهاد، وخفيَ عليهم أنَّ قتلَهم أعزُّ للإسلام، وأهيبُ لمن وراءَهم، أو: ما كتبَ اللهُ في اللوح ألّا يعذبَ أهلَ بدرٍ، أو ألا يؤاخذَ قبلَ البيانِ والإعذارِ، وفيما ذكرَ من الاستشارةِ: دلالةٌ على جوازِ الاجتهادِ، فيكون حجةً على منكري القياسِ، (كتاب): مبتدأٌ، و(من الله): صفتُه؛ أي: لولا كتابٌ ثابتٌ من الله، و(سبق): صفةٌ أخرى له، وخبرُ المبتدأِ محذوفٌ؛ أي: لولا كتابٌ بهذه الصفةِ في الوجودِ، و(سبق) لا يجوز أن يكون خبراً؛ لأنَّ لولا: لا يظهرُ خبرُها أبداً[1]، ﴿لَمَسَّكُمْ﴾: لَنالَكم وأصابَكم ﴿فِيمَآ أَخَذْتُمْ﴾ من فداءِ الأسرى ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٦٨﴾ روي: أن عمرَ رضي الله عنه دخلَ على رسولِ الله ﷺ فإذا هو وأبو بكر يبكيان، فقال: يا رسولَ اللهِ أخبرني، فإن وجدتُ بكاءً.. بكيتُ، وإن لم أجد بكاءً.. تباكيتُ فقال: «أبكي على أصحابِك في أخذهم الفداءَ، ولقد عُرِضَ عليَّ عذابُهم أدنى من هذه الشجرةِ» لشجرةٍ قريبةٍ منه[2]،

وروي: أنه قال: «لو نزل عذابٌ من السماءِ.. لما نجا منه غيرُ عمرَ وسعدِ بنِ معاذٍ» لقولِه: كان الإثخان في القتل أحبَّ إليَّ[3].

《٦٩》 ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ روي: أنهم أمسكُوا عن الغنائمِ ولم يَمدُّوا أيديَهم إليها فنزلت، وقيل: هو إباحةٌ للفداء؛ لأنه من جملةِ الغنائمِ، والفاءُ: للتسبيب، والسببُ محذوفٌ، ومعناه: قد أحْلَلْتُ لكم الغنائمَ فكلُوا ﴿حَلَٰلًا﴾: مطلقاً عن العتابِ والعقابِ؛ من حلِّ العِقالِ، وهو: نصبٌ على الحال من المغنومِ، أو: صفةٌ للمصدر؛ أي: أكلاً حلالاً ﴿طَيِّبًا﴾: لذيذاً هنيئاً،

---

(١) ويجوز إعراب جملة (سبق) خبراً للمبتدأ عند من يرى من النحاة جواز إظهار خبر لولا. انظر «شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك» (١/ ٢٥٠).

(٢) رواه مسلم (١٧٦٣) سيدنا عمر رضي الله عنه.

(٣) روى نحوه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٧١) عن ابنِ زيدٍ، وابنِ إسحاق.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٧١ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٧٢﴾ ....

أو: حلالاً بالشرع، طيباً بالطبع، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فلا تُقْدِمُوا على شيءٍ لم يُعهد إليكم فيه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ﴾ لما فعلتُم من قبلُ، ﴿رَّحِيمٞ ٦٩﴾ بإحلالِ ما غنمتم.

《٧٠》 ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم﴾: في مَلَكَتِكُم[1]، كأن أيديكم قابضةٌ عليهم ﴿مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾: جمعُ أسيرٍ، ﴿من الأُسارَى﴾: أبو عمرٍو[2]: جمعُ أَسْرَى، ﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا﴾: خلوصَ إيمانٍ، وصحةَ نيةٍ ﴿يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ﴾ من الفداء، إما أن يُخلفكم في الدنيا أضعافه، أو يثيبكم في الآخرة، ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠﴾ رويَ: أنه قَدِمَ على رسولِ اللهِ عليه السلام مالُ البحرين ثمانون ألفاً، فتوضأَ لصلاةِ الظهرِ وما صلّى حتى فرَّقه، وأمرَ العباس أن يأخذَ منه، فأخذَ منه ما قَدَرَ على حملِه وكان يقولُ: هذا خيرٌ مما أُخِذَ مني وأرجو المغفرةَ[3]، وكان له عشرون عبداً، إن أدناهم ليتجرُ في عشرين ألفاً، وكان يقول: أنجز اللهُ أحدَ الوعدين وأنا على ثقةٍ من الآخر[4].

《٧١》 ﴿وَإِن يُرِيدُواْ﴾ أي: الأسرى ﴿خِيَانَتَكَ﴾: نكثَ ما بايعوك عليه من الإسلام بالردةِ، أو: منعَ ما ضمنوا من الفداءِ ﴿فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ﴾ في كفرِهم به ونقضِ ما أُخذ على كل عاقلٍ من ميثاقِه، ﴿فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ﴾: فأمكنكَ منهم؛ أي: أظفرَكَ بهم، كما رأيتم يوم بدرٍ، فسيمكنُ منهم إن أعادُوا الخيانةَ، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بالمآل، ﴿حَكِيمٌ ٧١﴾ فيما أمرَ في الحالِ.

《٧٢》 ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ﴾ من مكةَ حبّاً لله ورسولِه، ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هم: المهاجرون، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾ أي: آووهم إلى ديارِهم، ونصروهم على أعدائهم، وهم: الأنصار، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾ أي: يتولّى بعضُهم بعضاً في الميراثِ،

(١) المَلَكَةُ: المِلكُ.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٣٣).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٧٤) عن الضحاك.

(٤) روى نحوه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٧٥).

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤)﴾ ....

وكان المهاجرون والأنصارُ يتوارثون بالهجرةِ وبالنصرةِ دون ذوي القراباتِ، حتى نسخَ ذلك بقولِه: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ [الأحزاب: ٦]، وقيل: أراد به النصرةَ والمعاونةَ، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا﴾ من مكةَ ﴿مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ﴾: من تولِّيهم في الميراث ﴿وِلايتِهم﴾: حمزةُ[1]، قيل: هما واحدٌ[2]، ﴿مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾ فكان لا يرثُ المؤمنُ الذي لم يهاجر ممن آمنَ وهاجرَ، ولما أبقَى للذين لم يهاجروا اسمَ الإيمانِ وكانت الهجرةُ فريضةً فصارُوا بتركِها مرتكبين كبيرةً.. دلَّ أن صاحبَ الكبيرةِ لا يخرجُ من الإيمان، ﴿وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ﴾ أي: من أسلمَ ولم يهاجرْ ﴿فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾ أي: إن وقع بينهم وبين الكفارِ قتالٌ وطلبُوا معونتكم.. فواجبٌ عليكم أن تنصرُوهم على الكافرين، ﴿إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ فإنه لا يجوزُ لكم نصرُهم عليهم؛ لأنهم لا يبتدئُون بالقتال؛ إذ الميثاقُ مانعٌ من ذلك، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢)﴾: تحذيرٌ عن تعدِّي حدِّ الشرعِ.

«٧٣» ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾: ظاهرُه إثباتُ الموالاةِ بينهم، ومعناه: نهيُ المسلمين عن موالاةِ الكفارِ وموارثتِهم وإيجابِ مباعدتِهم ومصارمتِهم وإن كانوا أقاربَ، وأن يُتركوا يتوارثون بعضُهم بعضاً، ثم قال: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ أي: إلا تفعلوا ما أمرتكم به من تواصلِ المسلمين وتولِّي بعضِهم بعضاً حتى في التوارثِ تفضيلاً لنسبةِ الإسلامِ على نسبةِ القرابةِ، ولم تجعلُوا قرابةَ الكفارِ كَلَا قرابةٍ ﴿تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣)﴾: تحصلْ فتنةٌ في الأرضِ ومفسدةٌ عظيمةٌ؛ لأن المسلمين ما لم يَصِيرُوا يداً واحدةً على الشرك.. كان الشركُ ظاهراً والفسادُ زائداً.

«٧٤» ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ لأنهم صدقُوا إيمانَهم وحقَّقُوه بتحصيلِ مقتضياتِه من هجرةِ الوطنِ، ومفارقةِ الأهل

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٣٣).

(٢) جاء في اللغة الولايةُ مصدراً بالفتح والكسر، فقيل: هما لغتان فيه بمعنى واحد، وهو القرب الحسي والمعنوي، وقيل: بالفتح: ولاية مولى النسب ونحوه، وبالكسر: ولاية السلطان، وقيل: بالفتح: من النصرة والنسب، وبالكسرِ: من الإمارة. انظر «حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي» (٤/ ٢٩٣).

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾﴾

والسكنِ، والانسلاخِ من المال والدنيا؛ لأجلِ الدين والعقبى ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾: لا مِنَّةَ فيه ولا تنغيصَ، ولا تكرارَ؛ لأن هذه الآيةَ واردةٌ للثناءِ عليهم مع الوعدِ الكريمِ، والأُولى للأمرِ بالتواصلِ.

《٧٥》 ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدُ﴾ يريدُ: اللاحقين بعد السابقين إلى الهجرة، ﴿وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ﴾ جعلَهم منهم تفضُّلاً وترغيباً، ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾: وأولُو القراباتِ أولى بالتوارثِ، وهو نسخٌ للتوارث بالهجرةِ والنصرةِ ﴿فِي كِتَٰبِ اللَّهِ﴾: في حكمِه وقسمتِه، أو: في اللوحِ، أو: في القرآن، وهو آية المواريث، وهو دليلٌ لنا على توريثِ ذوي الأرحامِ، ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾﴾ فيقضِي بينَ عبادِه بما شاء من أحكامِه.

قَسمَ الناسَ أربعةَ أقسامٍ:

قسمٌ آمنوا وهاجرُوا، وقسمٌ آمنوا ونصرُوا، وقسمٌ آمنوا ولم يهاجرُوا، وقسمٌ كفروا ولم يؤمنوا.



سورة التوبة

مدنيةٌ، وهي مئةٌ وتسعٌ وعشرون آيةً: كوفيٌّ، ومئةٌ وثلاثون: غيرُه.

لها أسماءٌ: براءةُ، التوبةُ، المقشقِشةُ، المبعثِرَةُ، المشرِّدةُ، المُخزيةُ، الفاضحةُ، المثيرةُ، الحافرةُ، المنكِّلَةُ، المدمدِمةُ؛ لأن فيها التوبةَ على المؤمنين، وهي تُقَشْقِشُ من النفاقِ؛ أي: تُبرئُ منه، وتُبعثِرُ عن أسرارِ المنافقين، وتبحثُ عنها، وتثيرُها، وتحفرُ عنها، وتفضحُهم، وتنكلُهم، وتشردُهم، وتُخزيهم، وتدمدمُ عليهم.

وفي ترك التسميةِ في ابتدائِها أقوالٌ؛ فعن عليٍّ وابنِ عباسٍ رضي الله عنهم: أن بسم الله أمانٌ، و(براءةُ) نزلت لرفعِ الأمانِ.

وعن عثمانَ رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ إذا نزلت عليه سورةٌ أو آيةٌ.. قال: اجعلوها في الموضع الذي يُذكر فيه كذا وكذا، وتوفي رسول الله عليه السلام ولم يبين لنا أين نضعُها، وكانت قصتُها تشبهُ قصةَ «الأنفالِ»؛ لأن فيها ذكرَ العهودِ، وفي «براءةَ» نبذُ العهودِ، فلذلك قَرَنْتُ بينهما[1].

وكانتا تُدعيان القَرينتين، وتُعدَّان السابعةَ من الطِّوال، وهي سبعٌ، وقيل: اختلفَ أصحابُ رسولِ اللهِ عليه السلام، فقال بعضُهم: الأنفالُ وبراءةُ سورةٌ واحدةٌ نزلت في القتال، وقال بعضُهم: هما سورتان، فتُركت بينهما فُرجةٌ؛ لقولِ مَن قال: هما سورتان، وتُركت (بسم الله)؛ لقولِ من قال: هما سورةٌ واحدةٌ.

《١》 ﴿بَرَآءَةٌ﴾: خبرُ مبتدإٍ محذوفٍ؛ أي: هذه براءةٌ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١﴾ (من): لابتداءِ الغايةِ، متعلقٌ بمحذوفٍ؛ أي: هذه براءةٌ واصلةٌ من اللهِ ورسولِه إلى الذين عاهدتم، كما تقول: كتابٌ من فلانٍ إلى فلانٍ، أو: مبتدأٌ؛ لتخصُّصِها بصفتِها،

---

(١) رواه بنحوه أبو داود (٧٨٦) والترمذي (٣٠٨٦). وقد بين أستاذنا الدكتور نور الدين عتر في «علوم القرآن الكريم» (ص ٤٣): أن الاستدلال بهذه الرواية غيرُ سديدٍ سنداً ومتناً، أما السند.. فإن إسناد هذا الحديث ضعيف، فيه يزيد الفارسي وهو ضعيفٌ ضعفه البخاري وغيرُه، وقالا: تفرد به فلا يصلح للاحتجاج، فضلاً عن أن يكون مرجعاً في قضية هامة كهذه، وأما المتن.. فإن الصحابة يقرؤون القرآن ويتلقونه، فكيف لا يوجد عند أحد منهم علمٌ بسورتين من القرآن الكريم... والأدلة على أن ترتيب السور كلها توقيفيٌّ كثيرةٌ جداً من السنة على وفق مصحف سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه.

﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢﴾ ....

والخبرُ: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم﴾ كقولك: رجلٌ من بني تميم في الدار؛ والمعنى: أن اللهَ ورسولَه قد برئا من العهدِ الذي عاهدتم به المشركين، وأنه منبوذٌ إليهم.

«٢» ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾: فسيرُوا في الأرضِ كيفَ شئتمْ، والسَّيحُ: السيرُ على مَهَلٍ، روي: أنهم عاهدُوا المشركين من أهلِ مكةَ وغيرِهم من العربِ فنكثُوا إلا ناساً منهم، وهم بنو ضمرةَ، وبنو كِنانةَ، فَنُبِذَ العهدُ إلى الناكثين، وأُمِروا أن يسيحوا في الأرض أربعةَ أشهرٍ آمنين أين شاؤوا لا يُتَعَرَّضُ لهم، وهي الأشهرُ الحرمُ في قوله: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾، وذلك لصيانةِ الأشهرِ الحرمِ من القتلِ والقتالِ فيها، وكان نزولها سنةَ تسعٍ من الهجرةِ، وفتحُ مكةَ سنةَ ثمانٍ، وكان الأميرُ فيها عَتّابَ بنَ أُسيدٍ، وأَمَّرَ رسولُ الله ﷺ أبا بكر على موسمِ سنةِ تسعٍ، ثم أتبعه عليّاً راكبَ العضباءِ؛ ليقرأها على أهلِ الموسمِ، فقيل له: لو بعثتَ بها إلى أبي بكرٍ، فقال: لا يؤدِّي عني إلا رجلٌ مني، فلما دنا عليٌّ.. سمعَ أبو بكرٍ الرُّغاءَ فوقفَ وقال: هذا رُغاءُ ناقةِ رسولِ الله فلما لحقَه.. قال: أميرٌ أو مأمورٌ؟ قال: مأمورٌ، فلما كان قبلَ الترويةِ.. خطبَ أبو بكرٍ وحدثَّهم عن مناسكِهم، وقامَ عليٌّ يومَ النحرِ عندَ جمرةِ العقبةِ فقالَ: يا أيها الناسُ، إني رسولُ رسولِ اللهِ إليكم، فقالوا: بماذا؟ فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آيةً، ثم قال: أمرتُ بأربعٍ: ألا يقربَ البيتَ بعدَ هذا العامِ مشركٌ، ولا يطوفَ بالبيت عُريانٌ، ولا يدخلُ الجنةَ إلا كلُّ نفسٍ مؤمنةٍ، وأن يُتَمَّ إلى كلِّ ذي عهدٍ عهدَه، فقالُوا عند ذلك: يا عليُّ أبلغ ابنَ عمِّكَ أنا قد نبذنا العهدَ وراءَ ظهورِنا، وأنه ليس بيننا وبينه عهدٌ إلا طعنٌ بالرماحِ وضربٌ بالسيوف[1]، والأشهرُ الأربعةُ: شوالٌ، وذو القَعدةِ، وذو الحِجَّةِ، والمحرمُ، أو: عشرون من ذي الحِجَّةِ والمحرمُ وصفرُ وشهرُ ربيعِ الأولُ وعشرٌ من ربيعِ الآخرِ، وكانت حُرُماً؛ لأنهم أمنُوا فيها وحَرُمَ قتلُهم وقتالُهم، أو: على التغليب؛ لأن ذا الحِجةِ والمحرمَ منها، والجمهورُ على إباحةِ القتالِ في الأشهرِ الحرمِ، وأن ذلك قد نسخَ.

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾: لا تفوتونه وإن أمهلكم، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢﴾: مُذِلُّهم في الدنيا بالقتل، وفي الآخرة بالعذاب.

---

(١) روى نحوه الترمذي (٣٠٩١) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٌ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٣﴾ ....

《٣》 ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ ارتفاعُه كارتفاعِ (براءة) على الوجهين، ثم الجملةُ معطوفةٌ على مثلِها، والأذانُ بمعنى: الإيذانِ، وهو: الإعلام، كما أن الأمانَ والعطاءَ بمعنى الإيمانِ والإعطاءِ، والفرقُ بين الجملةِ الأولى والثانيةِ: أن الأولى إخبارٌ بثبوتِ البراءةِ، والثانيةَ إخبارٌ بوجوبِ الإعلامِ بما ثبتَ، وإنما عُلِّقَتِ البراءةُ بالذين عُوهِدُوا من المشركين، وعُلِّقَ الأذانُ بالناس؛ لأن البراءةَ مختصةٌ بالمعاهدين والناكثين منهم، وأما الأذان.. فعامٌّ لجميعِ الناسِ؛ من عاهدَ ومن لم يعاهِد، ومن نكثَ من المعاهدين ومن لم ينكث، ﴿يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾: يومَ عرفةَ؛ لأن الوقوفَ بعرفةَ معظمُ أفعالِ الحجِّ، أو: يومَ النحر؛ لأن فيه تمامَ الحجِّ من الطواف والنحر والحلق والرمي، ووُصِفَ الحجُّ بالأكبرِ؛ لأن العمرةَ تُسمَّى الحجَّ الأصغرَ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ أي: بأنَّ اللهَ، حذفتْ صلةُ الأذانِ تخفيفاً[1]، ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾: عطفٌ على المنويِّ في (بريء)، أو: على الابتداءِ وحذفِ الخبرِ؛ أي: ورسولُه بريءٌ، وقرئَ بالنصبِ عطفاً على اسمِ (أن)[2]، وبالجرِّ على الجوارِ، أو على القسمِ كقولك: لعمرك[3]، وحكيَ: أن أعرابياً سمع رجلاً يقرؤها فقال: إن كان الله بريئاً من رسولِه.. فأنا منه بريءٌ، فلبَّبَهُ الرجلُ إلى عمرَ، فحكى الأعرابيُّ قراءتَه، فعندها أمرَ عمرُ بتعلُّمِ العربيةِ[4]، ﴿فَإِن تُبۡتُمۡ﴾ من الكفرِ والغدرِ ﴿فَهُوَ﴾ أي: التوبةُ ﴿خَيۡرٌ لَّكُمۡ﴾ من الإصرارِ على الكفرِ، ﴿وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ عن التوبةِ، أو: ثَبَتُّمْ على التولي والإعراضِ عن الإسلامِ ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ﴾: غيرُ سابقين اللهَ، ولا فائتين أخذَه وعقابَه، ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٣﴾ مكانَ بشارةِ المؤمنين بنعيمٍ مقيمٍ.

---

(١) صلة الأذان: الباء المتعلقة بقوله: (أذان).

(٢) انظر «الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها» (ص ٥٦١).

(٣) هذه القراءة تروى عن الحسن البصري، ولكن تبعدُ صحتُها عنه؛ لإبهامها غير المراد. انظر «الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (٦/ ٩). وقال الآلوسي في «تفسيره» (٥/ ٢٤٣): وهذه القراءة لعمري موهمة جداً، وهي في غاية الشذوذِ، والظاهر أنها لم تصحَّ.

(٤) روى نحو هذه القصة ابن الأنباري في «إيضاح الوقف والابتداء» (١/ ٣٦)، ومعنى: لَبَّبَه: جمعَ ثيابَه عند صدرِه ونحرِه ثم جرَّه.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ....

«٤» ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: استثناءٌ من قولِه: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ والمعنى: براءةٌ من اللهِ ورسولِه إلى الذين عاهدتم من المشركين فقولُوا لهم: سيحُوا إلا الذين عاهدتمْ منهم ﴿ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا﴾ من شروطِ العهدِ؛ أي: وَفَوا بالعهدِ ولم ينقضُوه، وقرئَ: ﴿لم ينقضوكم﴾[1] أي: عهدَكم، وهو رائقٌ، لكن المشهورةَ أبلغُ؛ لأنه في مقابلةِ التمام، ﴿وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾: ولم يعاونُوا عليكم عدوّاً ﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ﴾: فأدُّوه إليهم تامّاً كَمَلاً ﴿إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾: إلى تمامِ مدتِهم، والاستثناءُ بمعنى الاستدراكِ، كأنه قيل بعدَ أن أُمِرُوا في الناكثين: لكن الذين لم ينكثُوا.. فأتمُّوا إليهم عهدَهم، ولا تُجرُوهم مُجراهم، ولا تجعلوا الوفيَّ كالغادرِ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾: أي: أن قضيةَ التقوى ألّا يُسوَّى بين القبيلين، فاتقُوا اللهَ في ذلك.

«٥» ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ﴾: مضى، أو: خرجَ ﴿ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ التي أبيحَ فيها للناكثين أن يَسيحُوا ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الذين نقضُوكم وظاهروا عليكم ﴿حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ مِنْ حِلٍّ أو حَرَمٍ، ﴿وَخُذُوهُمْ﴾: وأْسِرُوهم، والأَخِيذُ: الأسيرُ، ﴿وَٱحْصُرُوهُمْ﴾: وقيدُوهم وامنعُوهم من التصرفِ في البلادِ، ﴿وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾: كلَّ مَمَرٍّ ومُجتازٍ ترصُدُونهم به، وانتصابُه: على الظرفِ، ﴿فَإِن تَابُوا۟﴾ عن الكفرِ ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾: فأطلقُوا عنهم بعدَ الأسرِ والحصرِ، أو: فكفُّوا عنهم ولا تتعرضُوا لهم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ بسترِ الكفرِ والغدرِ بالإسلام، ﴿رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ برفعِ القتلِ قبلَ الأداءِ بالالتزامِ.

«٦» ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾ (أحدٌ): مرتفعٌ بفعل الشرط مضمراً يفسرُه الظاهرُ؛ أي: وإن استجارك أحدٌ استجارك؛ والمعنى: وإن جاءك أحدٌ من المشركين بعد انقضاءِ الأشهرِ لا عهدَ بينَك وبينَه واستأمنكَ ليسمعَ ما تدعُو إليه من التوحيدِ والقرآنِ.. فأَمِنْهُ ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ

(١) قراءة شاذة. انظر «الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها» (ص ٥٦١).

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا الَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ فَمَا اسْتَقَٰمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ اشْتَرَوْا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾﴾ ....

﴿كَلَٰمَ اللَّهِ﴾ ويتدبرَهُ ويطلعَ على حقيقةِ الأمرِ، ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ﴾ بعد ذلك ﴿مَأْمَنَهُۥ﴾: داره التي يأمن فيها إن لم يسلم، ثم قاتله إن شئت، وفيه دليل على أن المستأمنَ لا يُؤذَى، وليس له الإقامةُ في دارِنا، ويُمَكَّنُ من العودِ، ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمرُ بالإجارةِ في قولِه: (فأجره) ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾: بسببِ أنهم قومٌ جهلةٌ لا يعلمون ما الإسلامُ، وما حقيقةُ ما تدعُو إليه، فلا بدَّ من إعطائِهم الأمانَ حتى يسمعُوا ويفهمُوا الحقَّ.

《٧》 ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾ (كيف): استفهامٌ في معنى الاستنكارِ؛ أي: مستَنْكرٌ أن يثبتَ لهؤلاءِ عهدٌ، فلا تطمعُوا في ذلك، ولا تحدثُوا به نفوسَكم، ولا تفكرُوا في قتلِهم، ثم استدركَ ذلك بقولِه: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ﴾ أي: ولكنَّ الذين عاهدتُم منهم ﴿عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ ولم يظهرْ منهم نكثٌ كبني كنانةَ، وبني ضَمْرَةَ.. فتربصُوا أمرَهم، ولا تقاتلُوهم، ﴿فَمَا اسْتَقَٰمُوا لَكُمْ﴾: فما أقامُوا على وفاءِ العهدِ ﴿فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ على الوفاءِ، وما: شرطيةٌ؛ أي: فإن استقامُوا لكم.. فاستقيمُوا لهم، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾﴾ يعني: أن التربصَ بهم من أعمالِ المتقين.

《٨》 ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ تكرارٌ لاستبعادِ ثباتِ المشركين على العهدِ، وحُذِفَ الفعلُ لكونِه معلوماً؛ أي: كيف يكونُ لهم عهدٌ وحالُهم أنهم إن يظهرُوا عليكم؛ أي: يظفرُوا بكم بعدَ ما سبقَ لهم من تأكيدِ الأيمانِ والمواثيقِ ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا﴾: لا يراعُوا حِلْفاً أو قرابةً، ﴿وَلَا ذِمَّةً﴾: عهداً، ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ بالوعدِ بالإيمانِ، والوفاءِ بالعهدِ، وهو كلامٌ مبتدأٌ في وصفِ حالِهم من مخالفةِ الظاهرِ الباطنَ، مقرِّرٌ لاستبعادِ الثباتِ منهم على العهد، ﴿وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ الإيمانَ والوفاءَ بالعهدِ، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾﴾: ناقضون العهدَ، أو: متمردون في الكفر، لا مروءةَ تزَعُهم عن الكذبِ، ولا شمائلَ تردعُهم عن النكْثِ، كما يوجدُ ذلك في بعضِ الكَفَرَةِ من التفادِي عنهما.

《٩》 ﴿اشْتَرَوْا﴾: استبدلُوا ﴿بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ﴾: بالقرآنِ ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: عَرَضاً يسيراً، وهو اتباعُ الأهواءِ والشهواتِ، ﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِۦٓ﴾: فعدلُوا عنه، وصرفُوا غيرَهم، ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾﴾ أي: بئسَ الصنيعُ صنيعُهم.

﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾ ....

«١٠» ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ ولا تكرارَ؛ لأن الأولَ على الخصوصِ حيث قال: ﴿فِيكُمْ﴾، والثاني على العموم؛ لأنه قال: (في مؤمن)، ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾: المجاوزون الغايةَ في الظلم والشَّرارة.

«١١» ﴿فَإِن تَابُوا﴾: عن الكفر، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ﴾: فهم إخوانُكم، على حذفِ المبتدأ، ﴿فِي الدِّينِ﴾ لا في النسبِ، ﴿وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾: ونبينُها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾: يفهمون فيتفكرون فيها، وهذا اعتراض، كأنه قيل: وإنَّ من تأملَ تفصيلَها.. فهو العالم؛ تحريضاً على تأملِ ما فُصِّلَ من أحكام المشركين المعاهِدين، وعلى المحافظةِ عليها.

«١٢» ﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ أي: نقضُوا العهودَ المؤكدةَ بالأيمانِ ﴿وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾: وعابوه ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾: فقاتِلُوهم، فوضعَ (أئمة الكفر) موضعَ ضميرِهم، وهم: رؤساءُ الشركِ، أو: زعماءُ قريشٍ الذين همُّوا بإخراجِ الرسولِ، وقالُوا: إذا طَعَنَ الذميُّ في دينِ الإسلامِ طعناً ظاهراً.. جازَ قتلُه؛ لأن العهدَ معقودٌ معه على ألا يطعنَ، فإذا طعنَ.. فقد نكثَ عهدَه، وخرجَ من الذمةِ، ﴿أَئِمَّة﴾: بهمزتين: كوفيٌّ وشاميٌّ، الباقون: بهمزةٍ واحدةٍ غيرِ ممدودةٍ، بعدَها ياءٌ مكسورةٌ[١]، أصلُها: أَأْمِمَة؛ لأنها جمعُ إمام، كعمادٍ وأَعْمِدَةٍ، فنقلت حركةُ الميمِ الأولى إلى الهمزةِ الساكنةِ، وأدغمتْ في الميمِ الأخرى، فمن حقق الهمزتين.. أخرجَهما على الأصل، ومن قلبَ الثانيةَ ياءً.. فلكسرتِها، ﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾ وإنما أثبت لهم الأيمانَ في قولِه: ﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم﴾ لأنه أرادَ أيمانَهم التي أظهرُوها، ثم قال: (لا أيمان لهم) على الحقيقةِ، وهو دليلٌ لنا على أن يمينَ الكافرِ لا تكون يميناً[٢]، ومعناه عند الشافعي رحمه الله: أنهم لا يُوفون بها؛ لأن يمينَهم يمينٌ عنده حيثُ وصفَها بالنَّكْثِ[٣]، ﴿لا إيمان﴾: شاميٌّ[٤]؛ أي: لا إسلامَ، ﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾: متعلقٌ بـ (فقاتلوا أئمةَ الكفرِ)، وما بينهما

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٣٣).

(٢) فلا كفارة بيمين كافرٍ وإن حنث مسلماً، ولو حلف مسلماً ثم ارتدَّ ثم أسلمَ ثم حنثَ.. فلا كفارة؛ لأن الكفرَ يبطل اليمين. انظر «حاشية ابن عابدين» (٣/ ٧٠٤).

(٣) انظر «روضة الطالبين» (١١/ ٨١).

(٤) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٣٤).

﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخْشَوْنَهُمْۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ١٣ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ١٤ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٥﴾ ....

اعتراضٌ؛ أي: ليكن غرضُكم في مقاتلتِهم انتهاءَهم عمّا هم عليه بعدَ ما وجدَ منهم من العظائمِ، وهذا من غايةِ كرمِه على المسيءِ.

《١٣》 ثم حرَّض على القتال فقال: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ﴾ التي حلفُوها في المعاهدةِ، ﴿وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ من مكةَ، ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ﴾ بالقتالِ، والبادئُ أظلمُ، فما يمنعُكم من أن تقاتلُوهم، وبَّخَهم بتركِ مقاتلتِهم، وحضَّهم عليها، ثم وصفَهم بما يوجبُ الحضَّ عليها من نكثِ العهدِ، وإخراجِ الرسولِ، والبَدءِ بالقتالِ من غير موجِب.

﴿أَتَخْشَوْنَهُمْۚ﴾: توبيخٌ على الخشيةِ منهم، ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾: بأن تخشَوه، فقاتلُوا أعداءَه ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ١٣﴾ فاخشَوه؛ أي: إن قضيةَ الإيمانِ الكاملِ ألا يَخشى المؤمنُ إلا ربَّه، ولا يُبالي بمن سواه.

《١٤》 ولما وبَّخهم اللهُ على تركِ القتالِ.. جرَّدَ لهم الأمرَ به بقولِه: ﴿قَٰتِلُوهُمْ﴾ ووعدَهم النصرَ؛ ليُثبِّتَ قلوبَهم، ويصححَ نياتِهم بقولِه: ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ قتلاً، ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾ أسراً، ﴿وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾: يغلبْكم عليهم، ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ١٤﴾: طائفةٍ منهم، وهم خُزاعةُ عَيْبَةُ رسولِ الله ﷺ[1].

《١٥》 ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْۗ﴾ لِما لقُوا منهم من المكروه، وقد حصَّلَ اللهُ هذه المواعيدَ كلَّها، فكان دليلاً على صحةِ نبوتِه، ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ﴾: ابتداءُ كلامٍ، وإخبارٌ بأن بعضَ أهلِ مكةَ يتوبُ عن كفرِه، وكان ذلك أيضاً، فقد أسلمَ ناسٌ منهم كأبي سفيانَ، وعكرمةَ بنِ أبي جهلٍ، وسهيلِ بنِ عمرٍو، وهي تَردُّ على المعتزلةِ قولَهم: إن الله تعالى شاءَ أن يتوبَ على جميعِ الكفرةِ، لكنهم لا يتوبُون باختيارهم، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ يعلمُ ما سيكون، كما يعلمُ ما قد كان، ﴿حَكِيمٌ ١٥﴾ في قبولِ التوبةِ.

---

(١) عيبةُ رسول الله: يحفظون أسراره عليه الصلاة والسلام.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾﴾ ....

《١٦》 ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ﴾ (أم): منقطعةٌ، والهمزةُ فيها للتوبيخ على وجودِ الحِسبانِ؛ أي: لا تُتْرَكون على ما أنتم عليه حتى يتبينَ الخُلَّصُ منكم، وهم الذين جاهدُوا في سبيل الله لِوَجْهِ اللهِ، ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ أي: بطانةً من الذين يُضادُّون رسولَ الله والمؤمنين[1]، و(لما) معناها: التوقعُ، وقد دلَّت على أن تَبيُّنَ ذلك متوقَّعٌ كائنٌ، وأن الذين لم يخلصُوا دينَهم لله يُمَيِّزُ بينهم وبين المخلصين.

(ولم يتخذوا): معطوفٌ على (جاهدوا)، داخلٌ في حَيِّزِ الصلةِ، كأنه قيل: ولما يعلمِ اللهُ المجاهدين منكم والمخلصين غيرَ المتخذين وليجةً من دونِ اللهِ، والمرادُ بنفيِ العلمِ نفيُ المعلومِ، كقولك: ما علم اللهُ مني ما قيل فيَّ؛ تريدُ: ما وجدَ ذلك مني، والمعنى: أحسبتم أن تُتركوا بلا مجاهدةٍ ولا براءةٍ من المشركين؟ ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ من خيرٍ أو شرٍّ فيجازيكم عليه.

《١٧》 ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ﴾: ما صحَّ لهم وما استقام ﴿أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ ﴿مسجد الله﴾: مكيٌّ وبصريٌّ[2]؛ يعني: المسجدَ الحرامَ، وإنما جمعَ في القراءةِ بالجمعِ؛ لأنه قبلةُ المساجدِ وإمامُها، فعامِرُه كعامرِ جميعِ المساجدِ، ولأن كل بُقعةٍ منه مسجدٌ، أو: أريدَ جنسُ المساجدِ، وإذا لم يصلُحوا لأن يعمُروا جنسَها.. دخلَ تحت ذلك ألا يعمُروا المسجدَ الحرام الذي هو صدرُ الجنسِ، وهو آكدُ؛ إذ طريقُه طريقُ الكنايةِ، كما تقول[3]: فلانٌ لا يقرأ كُتُبَ الله؛ كنت أنفَى لقراءتِه القرآن من تصريحِكَ بذلك[4]، ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ باعترافِهم بعبادةِ الأصنام، وهو: حالٌ من الواوِ في (يعمروا) والمعنى: ما استقامَ لهم أن يجمعوا بين أمرين متضادَّين: عمارةِ متعبَّداتِ الله، مع الكفرِ بالله وبعبادتِه، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾﴾: دائمون.

---

(١) بطانة الرجل: خاصته وأهلُ سرِّه ممن يَسكنُ إليه ويثقُ بمودتِه.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٣٤).

(٣) عبارة «الكشاف» (٢/ ٢٤٠): كما لو قلت. وهي أولى.

(٤) لأن نفيَ الجمعِ يدلُّ على النفيِ عن كلِّ فردٍ، فيلزمُ نفيُه عن الفردِ المعيَّنِ. انظر «تفسير الألوسي» (٥/ ٢٥٨).

إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ....

«١٨» ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ عمارتها: رَمُّ ما استرمَّ منها، وقَمُّها وتنظيفُها[1]، وتنويرُها بالمصابيحِ، وصيانتُها مما لم تُبْنَ له المساجدُ من أحاديثِ الدنيا؛ لأنها بُنيت للعبادة والذكرِ، ومن الذكر درسُ العلمِ، ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ ولم يذكر الإيمانَ بالرسولِ عليه السلامُ؛ لما علم أن الإيمان بالله.. قرينتُه الإيمانُ بالرسول؛ لاقترانِهما في الأذان والإقامة وكلمة الشهادة وغيرِها، أو: دلَّ عليه بقولِه: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾[2]، وفي قوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾: تنبيهٌ على الإخلاصِ، والمرادُ: الخشيةُ في أبوابِ الدينِ؛ بألا يختارَ على رضا اللهِ رضا غيرِه؛ لتوقُّعِ مَخُوْفٍ؛ إذ المؤمنُ قد يخشى المحاذيرَ، ولا يتمالكُ ألا يخشاها، وقيل: كانُوا يخشَون الأصنام ويرجُونها فأُرِيْدَ نفيُ تلك الخشيةِ عنهم، ﴿فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾: تبعيدٌ للمشركين عن مواقفِ الاهتداءِ، وحسمٌ لأطماعِهم في الانتفاعِ بأعمالِهم؛ لأن (عسى) كلمةُ إطماعٍ؛ والمعنى: إنما تستقيمُ عمارةُ هؤلاءِ وتكون مُعْتَدّاً بها عندَ اللهِ دون من سواهم.

«١٩» ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ السقايةُ والعِمارةُ: مصدران؛ مِن: سقَى وعَمَرَ، كالصِّيانةِ والوِقايةِ، ولا بدَّ مِن مضافٍ محذوفٍ تقديرُه: أجعلتم أهلَ سقايةِ الحاجِّ وعمارةِ المسجدِ الحرامِ كمن آمن بالله، وقيل: المصدرُ بمعنى الفاعلِ، يصدقُه قراءةُ ابنِ الزبيرِ: ﴿سُقَاةَ الحاج وعَمَرَةَ المسجدِ الحرام﴾[3]؛ والمعنى: إنكارُ أن يُشَبَّهَ المشركون بالمؤمنين، وأعمالُهم المحبَطَةُ بأعمالِهم المثبَتَةِ، وأن يُسوَّى بينهم، وجعلَ تسويتَهم ظلماً بعدَ ظلمِهم بالكفرِ؛ لأنهم وضعُوا المدحَ والفخرَ في غير موضعِهما.

---

(١) رَمُّ ما استرمَّ: إصلاح ما حان وقت إصلاحه، يقال: استرم الحائطُ: حانَ له أن يُرَمَّ، وذلك إذا بَعُدَ عهدُه بالتطيين، وقَمُّها: كَنْسُها وإزالةُ القُمامةِ منها.

(٢) لأن الإتيانَ بتلك الأعمالِ يستلزمُ الإيمانَ به عليه الصلاة والسلام؛ إذ هي لا تُتلقَّى إلا منه. انظر «حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي» (٤/ ٣١٠).

(٣) قراءة شاذة. انظر «المحرر الوجيز» (٣/ ١٦).

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾

نزلت جواباً لقولِ العباسِ حين أُسرَ وطَفِقَ عليٌّ رضي الله عنه يُوَبِّخُه بقتالِ رسولِ اللهِ ﷺ وقطيعةِ الرحمِ: تَذكرُ مساوينا وتدعُ محاسنَنا، فقيل: أَوَلكُم محاسنُ؟ فقال: نعمرُ المسجدَ، ونسقي الحاجَّ، ونفكُّ العانيَ[1]، وقيل: افتخرَ العباسُ بالسقايةِ، وشيبةُ بالعِمارةِ، وعليٌّ رضي الله عنه بالإسلامِ والجهادِ، فصَدَّقَ اللهُ تعالى عليّاً.

《٢٠》 ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ أولئك ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ من أهلِ السقايةِ والعِمارةِ ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ لا أنتم، والمختصُّون بالفوزِ دونكم.

《٢١》 ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم﴾ ﴿يَبْشُرُهم﴾: حمزةُ[2]، ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ﴾ تنكيرُ المبشَّرِ به لوقوعِه وراءَ صفةِ الواصفِ وتعريفِ المعرِّفِ، ﴿لَّهُمْ فِيهَا﴾: في الجناتِ ﴿نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾﴾: دائمٌ.

《٢٢》 ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ لا ينقطعُ.

《٢٣》 لما أُمِرَ رسولُ الله عليه السلام بالهجرةِ.. جعلَ الرجلُ يقولُ لابنِه ولأخيه ولقرابتِه: إنا قد أُمِرْنا بالهجرةِ، فمنهم من يسرعُ إلى ذلك ويعجبُه، ومنهم مَن تَتعلَّقُ به زوجتُه أو ولدُه فيقولُ: تدعُنا بلا شيءٍ فنضيعُ؟ فيجلسُ معهم ويدعُ الهجرةَ، فنزل[3]:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي: آثروه واختاروه، ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ﴾ أي: ومَنْ يتولَّ الكافرين ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

《٢٤》 ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾: أقاربُكم، ﴿وعشيراتكم﴾:

---

(١) انظر «أسباب النزول» للواحدي (ص ٢٤٦)، والعاني: الأسير.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٣٤).

(٣) انظر «أسباب النزول» للواحدي (ص ٢٤٨).

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ ....

أبو بكرٍ[١]، ﴿وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾: اكتسبتُموها، ﴿وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾: فواتَ وقتِ نَفاقِها، ﴿وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ وهو: عذابٌ عاجلٌ، أو عقابٌ آجلٌ، أو: فتحُ مكةَ، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ والآيةُ تَنْعَى على الناس ما هم عليه من رَخاوةِ عقدِ الدينِ[٢]، واضطرابِ حبلِ اليقينِ؛ إذْ لا تجدُ عندَ أورعِ الناسِ ما يَسْتَحِبُّ له دينَه على الآباءِ والأبناءِ والأموالِ وحظوظِ الدنيا[٣].

《٢٥》 ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾: كوقعةِ بدرٍ وقريظةَ والنضيرِ والحديبيةِ وخيبرَ وفتحِ مكةَ، وقيل: إن المواطنَ التي نصرَ اللهُ فيها النبيَّ عليه السلامُ والمؤمنين ثمانون موطناً، ومواطنُ الحربِ: مقاماتُها ومواقِفُها، ﴿وَيَوْمَ﴾ أي: واذكروا يومَ ﴿حُنَيْنٍ﴾: وادٍ بين مكةَ والطائفِ كانت فيه الوقعةُ بين المسلمين، وهم اثنا عشر ألفاً، وبين هوازنَ وثقيفٍ، وهم أربعةُ آلافٍ، فلما التقوا.. قال رجلٌ من المسلمين: لن نُغلبَ اليومَ من قِلَّةٍ، فساءت رسولَ الله[٤]، ﴿إِذْ﴾: بدلٌ من (يوم) ﴿أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ فأدركت المسلمين كلمةُ الإعجابِ بالكثرةِ، وزلَّ عنهم أن الله هو الناصرُ لا كثرةُ الجنودِ، فانهزمُوا حتى بلغ فَلُّهم مكةَ، وبقيَ رسولُ الله ﷺ وحدَه وهو ثابتٌ في مركزِه، ليس معه إلا عمُّه العباسُ آخذاً بِلِجامِ دابتِه، وأبو سفيانَ بنُ الحارثِ ابنُ عمِّه آخذاً بركابِه، فقال للعباس: «صِحْ بالناس» وكان صيِّتاً، فنادى: يا أصحابَ الشجرةِ، فاجتمعُوا وهم يقولُون: لبيك لبيك، ونزلت الملائكةُ عليهم البياضُ على خيولٍ بُلْقٍ[٥]، فأخذَ رسولُ الله عليه السلام كفّاً من ترابٍ فرماهم به ثم قال: «انهزِمُوا وربِّ الكعبة»، فانهزَمُوا[٦]،

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٣٥).

(٢) تنعى: تعيبُ.

(٣) فاعل (يستحبُّ): ضمير عائد على (ما)، والمراد بـ(ما): الثباتُ على الدين.
وعبارة «الكشاف» (٢/ ٢٤٥): فلينصف أورعُ الناس وأتقاهم من نفسه، هل يجدُ عنده من التصلبِ في ذات الله والثبات على دين الله ما يَستحبُّ له دينَه على الآباء والأبناء والإخوان والعشائر والمال والمساكن وجميع حظوظ الدنيا.

(٤) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ١٢٣).

(٥) بُلْقٌ: جمعُ أبلق، وهو ما فيه سوادٌ وبياضٌ.

(٦) روى نحوه مسلم (١٧٧٥) عن سيدنا العباس رضي الله عنه.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ ....

وكان من دعائه عليه السلام يومئذ: «اللهم لك الحمدُ، وإليك المشتكى، وأنت المستعانُ»، وهذا دعاءُ موسى عليه السلام يومَ انفلاقِ البحرِ[1]، ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ (ما): مصدريةٌ، والباءُ: بمعنى: مع؛ أي: مع رُحْبِها، وحقيقتُه: ملتبسةً برُحْبِها[2]، على أن الجارَّ والمجرورَ في موضعِ الحالِ، كقولك: دخلت عليه بثيابِ السفرِ؛ أي: متلبساً بها؛ والمعنى: لم تجدُوا موضعاً لِفرارِكم عن أعدائِكم، فكأنها ضاقت عليكم، ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾: ثم انهزمتم.

《٢٦》 ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾: رحمتَه التي سكنُوا بها وأَمِنُوا ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ يعني: الملائكةَ، وكانوا ثمانيةَ آلافٍ، أو: خمسةَ آلافٍ، أو: ستةَ عشرَ ألفاً، ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالقتلِ والأسرِ وسَبْيِ النساءِ والذراري، ﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

《٢٧》 ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ وهم: الذين أسلمُوا منهم، ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ بسترِ كفرِ العدوِّ بالإسلام، ﴿رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ بنصرِ الوليِّ بعدَ الانهزامْ.

《٢٨》 ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ أي: ذوو نجسٍ، وهو مصدرٌ، يقال: نَجُسَ نَجَساً، وقَذُرَ قَذَراً؛ لأن معهم الشركَ الذي هو بمنزلة النَّجَسِ؛ ولأنهم لا يتطهرُون ولا يغتسلون ولا يجتنبون النجاسات، فهي ملابِسةٌ لهم، أو: جُعِلُوا كأنهم النجاسةُ بعينِها مبالغةً في وصفهم بها.

﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾: فلا يَحُجُّوا ولا يعتمرُوا كما كانوا يفعلون في الجاهليةِ ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ وهو: عامُ تسعٍ من الهجرةِ حينَ أُمِّرَ أبو بكر رضي الله عنه على الموسِمِ، وهو مذهبُنا، ولا يُمنعون من دخولِ الحرمِ والمسجدِ الحرامِ وسائرِ المساجدِ عندنا، وعند الشافعي

---

(١) روى الطبراني في «المعجم الأوسط» (٣/ ٣٥٦) عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أعلمكم الكلمات التي تكلم بها موسى عليه السلام حين جاوز البحر ببني إسرائيل؟» فقلنا: بلى، يا رسول الله، قال: «قولوا: اللهم لك الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم».

(٢) أي: الجار والمجرور (بما): متعلقان بحال محذوف.

﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ٢٩﴾ ....

رحمه الله: يُمنعون من المسجدِ الحرامِ خاصةً، وعند مالكٍ: يُمنعون منه ومن غيره[1]، وقيل: نَهْيُ المشركين أن يقربوه.. راجعٌ إلى نهيِ المسلمين عن تمكينِهم منه[2]، ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ أي: فقراً بسببِ منعِ المشركين من الحجِّ وما كان لكم في قدومِهم عليكم من الإرفاقِ والمكاسبِ ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ من الغنائمِ، أو: المطرِ والنباتِ، أو: من مُتاجِرِ حَجيجِ الإسلامِ ﴿إِن شَآءَ﴾ هو تعليمٌ لتعليقِ الأمورِ بمشيئةِ اللهِ تعالى لتنقطعَ الآمالُ إليه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بأحوالِكم، ﴿حَكِيمٌ ٢٨﴾ في تحقيقِ آمالِكم، أو: عليمٌ بمصالحِ العبادِ، حكيم فيما حكمَ وأرادَ.

《٢٩》 ونزلَ في أهلِ الكتابِ: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ لأن اليهودَ مُثَنِّيَةٌ، والنصارى مُثَلِّثَةٌ، ﴿وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ لأنهم فيه على خلافِ ما يجبُ، حيث يزعُمون أنْ لا أكلَ في الجنةِ ولا شربَ، ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ لأنهم لا يُحَرِّمُون ما حَرَّمَ في الكتابِ والسنةِ، ولا يعملُون بما في التوراة والإنجيلِ، ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾: ولا يعتقدون دينَ الإسلامِ الذي هو الحقُّ، يقال: فلانٌ يَدِينُ بكذا: إذا اتخذَه دينَه ومعتقدَه، ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾: بيانٌ لـ (الذين) قبلَه، وأما المجوسُ.. فملحَقُون بأهلِ الكتابِ في قَبولِ الجزيةِ، وكذا التُّركُ والهُنودُ وغيرُهما، بخلافِ مشركي العربِ؛ لما رَوى الزهريُّ: أن النبي عليه السلام صالحَ عَبَدَةَ الأوثانِ على الجزيةِ إلا من كان من العربِ[3]، ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ﴾: إلى أن يقبلُوها، وسميت جزيةً؛ لأنه مما يجبُ على أهلِها أن يَجْزُوه؛ أي: يَقضُوه، أو: هي جزاءٌ على الكفرِ على التمهيلِ في تذليلٍ، ﴿عَن يَدٍ﴾ أي: عن يدٍ مواتيةٍ غيرِ ممتنعةٍ؛ ولذا قالوا: أعطى بيده: إذا انقادَ، وقالُوا: نزعَ يده عن الطاعةِ، أو: حتى يعطُوها عن يدٍ إلى يدٍ نقداً غيرَ نسيئةٍ، لا مبعوثاً على يدِ أحدٍ، ولكن عن يدِ المعطِي إلى يدِ الآخذِ ﴿وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ٢٩﴾ أي: تؤخذُ منهم على الصغارِ والذلِّ، وهو: أن يأتيَ بها بنفسِه ماشياً غيرَ راكبٍ، ويُسلِّمَها وهو قائمٌ، والمتسلمُ

---

(١) انظر «حاشية ابن عابدين» (٤/ ٢٠٩)، و«نهاية المحتاج» (٧/ ٣١٦)، و«الذخيرة» للقرافي (١/ ٣١٥).

(٢) هذا عند من يقول: إن الكفار غير مخاطبين بفروع الشريعة.

(٣) رواه عبد الرزاق الصنعاني في «المصنف» (٦/ ٨٦).

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ ....

جالسٌ، وأن يُتَلْتَلَ تَلْتَلَةً، ويؤخذَ بتلبيبه[1]، ويقال له: أدِّ الجزيةَ يا ذميُّ وإن كان يؤدِّيها، ويُزَخُّ في قفاه[2]، وتسقطُ بالإسلام.

«٣٠» ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ﴾ كلُّهم أو بعضُهم: ﴿عُزَيْرُ ابنُ اللهِ﴾: مبتدأٌ وخبرٌ، كقوله: ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾، وعزيرٌ: اسمٌ أعجميٌّ، ولِعُجْمَتِهِ وتعريفِه امتنعَ صرفُه، ومَن نَوَّنَ وهو عاصمٌ وعليٌّ.. فقد جعلَه عربيّاً[3]، ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي: قولٌ لا يعضُدُه برهانٌ، ولا يستندُ إلى بيانٍ، فما هو إلا لفظٌ يفوهون به، فارغٌ عن معنى تحتَه كالألفاظِ المهملةِ، ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ لا بدَّ فيه من حذفِ مضافٍ، تقديرُه: يضاهي قولُهم قولَهم، ثم حذفَ المضافُ وأقيمَ الضميرُ المضافُ إليه مُقامَه فانقلبَ مرفوعاً؛ يعني: أن الذين كانُوا في عهدِ رسولِ اللهِ ﷺ من اليهود والنصارى يضاهِي قولُهم قولَ قدمائِهم؛ يعني: أنه كفرٌ قديمٌ فيهم غيرُ مستحدَثٍ، أو: الضميرُ للنصارى؛ أي: يضاهي قولُهم: ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ قولَ اليهودِ: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ لأنهم أقدمُ منهم، ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾: عاصمٌ، وأصلُ المضاهاةِ المشابهةُ، والأكثرُ تركُ الهمزِ، واشتقاقُه من قولِهم: امرأةٌ ضَهياء، وهي: التي أشبهتِ الرجالَ بأنها لا تحيضُ، كذا قاله الزجاج[4]، ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: هم أحقاءُ بأن يقالَ لهم هذا، ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾: كيف يُصرَفُون عن الحقِّ بعد قيام البرهان.

«٣١» ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟﴾ أي: أهلُ الكتابِ ﴿أَحْبَارَهُمْ﴾: علماءَهم ﴿وَرُهْبَٰنَهُمْ﴾: نُسّاكَهم ﴿أَرْبَابًا﴾: آلهةً ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حيث أطاعوهم في تحليلِ ما حرَّمَ اللهُ، وتحريمِ ما أحلَّ اللهُ، كما

---

(١) تَلْتَلَه: حرَّكَه بشدةٍ، والتلبيب: ما في موضع اللَّبِّ من الثياب، وهو أعلى الصدر.

(٢) يُزَخُّ: يُدفعُ.
نقل الإمام النووي في «روضة الطالبين» (١٠/ ٣١٦) عن بعض الفقهاء شبيهاً بهذه الهيئة في إهانة الذمي ثم قال: قال جمهور الأصحاب: تؤخذ الجزية برفق كأخذ الديون، فالصواب الجزم بأن هذه الهيئة باطلة مردودة على من اخترعها، ولم ينقل أن النبي ﷺ ولا أحدٌ من الخلفاء الراشدين فعل شيئاً منها مع أخذهم الجزية.

(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٣٥) وكذا القراءة الآتية.

(٤) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ٤٤٣).

يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ ....

يُطاعُ الأربابُ في أوامرِهم ونواهيهم، ﴿وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾: عطفٌ على (أحبارهم) أي: اتخذوه ربّاً حيثُ جعلُوه ابنَ اللهِ، ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ يجوزُ الوقفُ عليه؛ لأن ما بعده يصلحُ ابتداءً، ويصلحُ وصفاً لـ (واحداً)، ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾: تنزيهٌ له عن الإشراك.

《٣٢》 ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ مَثَّلَ حالَهم في طلبهم أن يبطلوا نبوةَ محمدٍ عليه السلام بالتكذيبِ.. بحالِ مَن يريد أن ينفُخَ في نورٍ عظيمٍ منبثٍّ في الآفاق، يريدُ اللهُ أن يزيدَه ويُبَلِّغَه الغايةَ القُصوى من الإشراقِ؛ ليطفئه بنفخِه، أُجْرِيَ (ويأبى الله) مُجرَى لا يريد الله؛ ولذا وقع في مقابَلَةِ: (يريدون)، وإلا.. فلا يقال: كرهتُ أو أبغضتُ إلا زيداً[1].

《٣٣》 ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾: محمداً عليه السلام ﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾: بالقرآن، ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾: الإسلام، ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾: لِيُعْلِيَهُ ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾: على أهلِ الأديانِ كلِّهم، أو: ليظهرَ دينَ الحقِّ على كلِّ دينٍ ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

《٣٤》 ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ﴾: استعارَ الأكلَ للأخذِ، ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾: بالرِّشا في الأحكام، ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ سَفَلَتَهم ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: دينِه، ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾: يجوزُ أن يكون إشارةً إلى الكثيرِ من الأحبار والرهبان؛ للدلالةِ على اجتماعِ ذميمتين فيهم: أخذِ الرِّشا، وكنزِ الأموالِ والضنِّ بها عن الإنفاقِ في سبيلِ الخير.

ويجوزُ أن يُرادَ المسلمون الكانزون غيرُ المنفقين، ويُقرنُ بينهم وبين المرتشين من أهلِ الكتابِ تغليظاً، وعن النبي عليه السلام: «ما أُدِّيَ زكاتُه.. فليس بكنزٍ وإن كان باطناً، وما بلغَ

---

(١) أي: قوله: (ويأبى الله إلا أن يتم نوره): استثناء مفرغ، وهو مثبت، ولا تفريغ في الإثبات؛ لذا كان التقدير: لا يريد الله إلا أن يتم نوره.

﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ ....

أن يُزكّى فلم يُزكَّ.. فهو كنزٌ وإن كان ظاهراً»[١]، ولقد كان كثيرٌ من الصحابةِ رضي الله عنهم كعبدِ الرحمن بنِ عوفٍ، وطلحةَ.. يقتنُون الأموالَ ويتصرفون فيها، وما عابَهم أحدٌ ممن أعرض عن القُنْيَةِ؛ لأن الإعراضَ اختيارٌ للأفضل، والاقتناءُ مباحٌ لا يُذمُّ صاحبُه، ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الضميرُ راجعٌ إلى المعنى؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهما دنانيرُ ودراهمُ، فهو كقولِه: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ [الحجرات: ٩][٢]، أو: أريد به الكنوزُ والأموالُ، أو معناه: ولا ينفقونها والذهبَ، كما أن معنى قولِه[٣]: [من: الطويل]

.... فإنّي وقيّارٌ بها لغريبُ

وقيارٌ كذلك، وخُصّا بالذكر من بين سائر الأموال؛ لأنهما قانونُ التموُّلِ، وأثمانُ الأشياءِ، وذكرُ كنزِهما دليلٌ على ما سواهما، ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾﴾.

《٣٥》 ومعنى قوله: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾: أن النار تُحمَى عليها؛ أي: تُوْقَدُ، وإنما ذُكِّرَ الفعلُ؛ لأنه مسندٌ إلى الجارِّ والمجرور، أصله: يومَ تُحمَى النارُ عليها، فلما حُذِفَتِ النارُ.. قيل: (يحمى) لانتقالِ الإسنادِ عن النار إلى (عليها)، كما تقول: رفعتُ القصةَ إلى الأمير، فإن لم تذكرِ القصةَ.. قلتَ: رُفِعَ إلى الأمير، ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ وخُصَّتْ هذه الأعضاءُ؛ لأنهم كانوا إذا أبصروا الفقيرَ.. عبسُوا، وإذا ضمَّهم وإياه مجلسٌ.. ازْوَرُّوا عنه[٤]، وتولَّوا بأركانهم، وولَّوه ظهورَهم، أو: معناه: يُكْوَوْنَ على الجهات الأربعِ؛

---

(١) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (٤/ ٨٣)، عن سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً، ولكنّه رَجَّحَ وقفه عليه، وفي «موطأ مالك» (٢١) عن عبد الله بن دينار، أنه قال: سمعت عبد الله بن عمر وهو يسأل عن الكنز ما هو؟ فقال: هو المال الذي لا تُؤَدَّى منه الزكاةُ.

(٢) أي: أن الضمير في (ينفقونها) مفرد مؤنث، فكيف عاد على المثنى وهو: (الذهب والفضة)، والجواب: أنهما بمعنى الجمع؛ لأنهما عبارة عن الدنانير والدراهم، وجمعُ ما لا يعقل يصحُّ أن يعود عليه الضميرُ المفردُ المؤنثُ.

(٣) هذا عجز بيت لضابئ البُرْجُميّ، وصدره:

فمن يكُ أمسى بالمدينةِ رَحْلُهُ

وقيار: اسم جمل ضابئ، أو: اسم فرسه. انظر «الإنصاف في مسائل الخلاف» (١/ ٧٨).

(٤) أي: انحرفوا وعدلوا عنه.

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣٦ إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٧﴾ ....

مقاديمِهم ومآخيرِهم وجنوبِهم، ﴿هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ﴾: يقالُ لهم: هذا ما كنزتُموه؛ لتنتفعَ به نفوسُكم، وما علمتُم أنكم كنزتُموه؛ لتستضرَّ به أنفسُكم، وهو توبيخٌ، ﴿فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ٣٥﴾ أي: وبالَ المالِ الذي كنتم تكنزونه، أو: وبالَ كونِكم كانزين.

《٣٦》 ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا﴾ من غيرِ زيادةٍ، والمرادُ: بيانُ أن أحكامَ الشرعِ تَبْتَني على الشهورِ القمريةِ المحسوبةِ بالأهلةِ، دون الشمسيةِ، ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾: فيما أثبتَه وأوجبَه من حكمِه، أو: في اللوحِ، ﴿يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ﴾ ثلاثةٌ سَرْدٌ: ذو القَعدةِ؛ للقعودِ عن القتال، وذو الحِجةِ؛ للحج، والمحرَّمُ؛ لتحريمِ القتالِ فيه، وواحدٌ فردٌ وهو رجبٌ؛ لترجيبِ العربِ إياه؛ أي: تعظيمه، ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ﴾ أي: الدينُ المستقيمُ، لا ما يفعلُه أهلُ الجاهليةِ؛ يعني: أن تحريمَ الأربعةِ الأشهرِ هو الدينُ المستقيمُ، دينُ إبراهيمَ وإسماعيلَ، وكانت العربُ تمسكت به، فكانوا يعظمونَها وَيُحَرِّمُون القتالَ فيها، حتى أحدثتِ النسيءَ فغيَّرُوا، ﴿فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ﴾: في الحرمِ، أو: في الاثني عشرَ ﴿أَنفُسَكُمۡۚ﴾ بارتكابِ المعاصي، ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ﴾: حالٌ من الفاعل أو المفعول، ﴿كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ﴾: جميعاً، ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣٦﴾: أي: ناصرٌ لهم، حثَّهم على التقوى بضمانِ النصرةِ لأهلِها.

《٣٧》 ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ﴾: بالهمزةِ، مصدرُ: نَسَأَهُ: إذا أخرَه، وهو: تأخيرُ حرمةِ الشهرِ إلى شهرٍ آخرَ، وذلك أنهم كانوا أصحابَ حروبٍ وغاراتٍ، فإذا جاء الشهر الحرامُ وهم محاربون.. شقَّ عليهم تركُ المحاربة، فيُحِلُّونه وَيُحَرِّمُون مكانَه شهراً آخرَ، حتى رفضُوا تخصيصَ الأشهرِ الحرمِ بالتحريمِ، فكانُوا يحرِّمون من شِقِّ شهورِ العامِ أربعةَ أشهرٍ[1]، ﴿زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ﴾ أي:

(١) الشِّقُّ: النِّصف.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ ....﴾

هذا الفعلُ منهم زيادةٌ في كفرِهم، ﴿يُضَلُّ﴾: كوفيٌّ غيرَ أبي بكرٍ[١]، ﴿بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: بالنسيءِ، والضميرُ في ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾: للنسيء؛ أي: إذا أحلُّوا شهراً من الأشهرِ الحرمِ عاماً.. رجعُوا فحرَّمُوه في العامِ القابلِ؛ ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾: ليوافقُوا العِدةَ التي هي الأربعةُ ولا يخالفُوها، وقد خالفُوا التخصيصَ الذي هو أحدُ الواجبين، واللامُ: تتعلقُ بـ (يحلونه) و(يحرمونه)، أو بـ (يحرمونه) فحسبُ، وهو الظاهرُ[٢]، ﴿فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ﴾ أي: فيحلُّوا بمواطأةِ العدةِ وحدَها من غيرِ تخصيصٍ ما حرمَ اللهُ من القتال، أو: من تركِ الاختصاصِ للأشهرِ بعينِها، ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْۗ﴾: زينَ الشيطانُ لهم ذلك، فحسِبُوا أعمالَهم القبيحةَ حسنةً، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾: حالَ اختيارِهم الثباتَ على الباطل.

《٣٨》 ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ﴾: اخرُجوا ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ﴾: تثاقلتُم، وهو أصلُه، إلا أن التاء أُدغمت في الثاءِ فصارت تاءً ساكنةً، فدخلت ألفُ الوصلِ لئلا يُبتدأَ بالساكن؛ أي: تباطأتم ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ ضُمِّنَ معنى الميلِ والإخلادِ فعُدِّيَ بـ (إلى)[٣] أي: مِلتُم إلى الدنيا وشهواتِها، وكرهتم مشاقَّ السفرِ ومتاعبَه، أو: مِلتم إلى الإقامةِ بأرضكم وديارِكم، وكان ذلك في غزوةِ تبوكَ، استُنْفِرُوا في وقتِ عُسْرَةٍ وقحطٍ وقيظٍ مع بُعدِ الشُّقةِ وكثرةِ العدوِّ فشقَّ عليهم ذلك، وقيل: ما خرجَ رسولُ اللهِ عليه السلام في غزوةٍ إلا وَرَّى عنها بغيرِها، إلا في غزوةِ تبوكَ؛ ليستعدَّ الناسُ تمامَ العُدَّةِ[٤]، ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِۚ﴾: بدلَ الآخرةِ، ﴿فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾: في جنبِ الآخرةِ ﴿إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾.

---

(١) قرأ حفصٌ وحمزة والكسائي وخلف: بضم الياء وفتح الضاد، وقرأ يعقوب: بضم الياء وكسر الضاد، والباقون: بفتح الياء وكسر الضاد. انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٣٦).

(٢) ليس المراد التعلق من حيث الإعراب؛ لأن حرف الجر الواحد لا يتعلق بعاملين، ولكن يريد التعلق من حيث المعنى؛ أي: أن قوله: (ليواطئوا) علة للتحليل والتحريم، أو: للتحريم فقط.

(٣) والأصل أن يعدى بـ: عن، ولكن قال ابن منظور في «لسان العرب» (١١/٨٧): وحكى النضر بن شميل: ثَقُلَ إلى الأرض: أخلدَ إليها، واطمأنَّ فيها، فإذا صحَّ ذلك.. تعدى (اثاقلتم) بـ (إلى) بغير تأويل يخرجُه عن بابه.

(٤) عن سيدنا كعب بن مالك رضي الله عنه يقول: كان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة يغزوها إلا وَرَّى بغيرها، حتى كانت غزوة تبوك، فغزاها رسول الله ﷺ في حرٍّ شديدٍ، واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً، واستقبل غزوَ عدوٍّ كثيرٍ، فجلَّى للمسلمين أمرَهم؛ ليتأهبوا أهبةَ عدوِّهم، وأخبرهم بوجهه الذي يريد. رواه البخاري (٢٩٤٨)، ومعنى ورَّى بغيرها: سترَها، وكنَّى عنها، وأوهمَ أنه يريدُ غيرها.

إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ....

《٣٩》 ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ﴾ إلى الحربِ ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾: سُخْطٌ عظيمٌ على المتثاقلين حيث أَوْعَدَهم بعذابٍ أليمٍ مطلقٍ يتناولُ عذابَ الدارين، وأنه يُهلكهم ويستبدلُ بهم قوماً آخرين خيراً منهم وأطوعَ، وأنه غنيٌّ عنهم في نصرة دينِه، لا يقدحُ تثاقلُهم فيها شيئاً، وقيل: الضمير في (ولا تضروه) للرسول عليه السلام؛ لأن الله وعده أن يعصِمَه من الناس وأن ينصره، ووعدُه كائنٌ لا محالةَ، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من التبديلِ والتعذيبِ وغيرِهما ﴿قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

《٤٠》 ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾: إلا تنصروه.. فسينصرُه مَن نصرَه حين لم يكن معه إلا رجلٌ واحدٌ، فدل بقوله: (فقد نصره الله) على أنه ينصرُه في المستقبلِ، كما نصره في ذلك الوقتِ، ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: أسندَ الإخراجَ إلى الكفار؛ لأنهم حين همُّوا بإخراجه.. أذن اللهُ له في الخروج، فكأنهم أخرجوه، ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ﴾: أحدَ اثنين، كقوله: ﴿ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، وهما رسولُ الله وأبو بكر، وانتصابُه على الحال، ﴿إِذْ هُمَا﴾: بدلٌ مِن (إذ أخرجه) ﴿فِي ٱلْغَارِ﴾ هو نَقْبٌ في أعلى ثَورٍ، وهو: جبلٌ في يُمْنَى مكةَ على مسيرةِ ساعةٍ مَكَثا فيه ثلاثاً، ﴿إِذْ يَقُولُ﴾: بدلٌ ثانٍ، ﴿لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾: بالنصرةِ والحفظِ، قيل: طلعَ المشركون فوقَ الغارِ، فأشفقَ أبو بكرٍ على رسولِ الله ﷺ فقال: إن تُصَبِ اليومَ.. ذهب دينُ اللهِ، فقال عليه السلام: «ما ظنك باثنين اللهُ ثالثُهما؟»[1]، وقيل: لما دخل الغارَ.. بعثَ اللهُ حمامتين فباضتا في أسفلِه، والعنكبوتَ فنسجت عليه[2]، وقال رسول الله ﷺ: «اللهم أعمِ أبصارَهم»، فجعلوا يترددون حولَ الغارِ ولا يفطَنون، قد أخذَ اللهُ بأبصارِهم عنه، وقالوا: من أنكرَ صحبةَ أبي بكر.. فقد كفرَ؛ لإنكارِه كلامَ اللهِ، وليس ذلك لسائر الصحابةِ

(١) قوله: «ما ظنك باثنين اللهُ ثالثُهما» رواه البخاري (٤٦٦٣)، ومسلم (٢٣٨١) عن سيدنا أبي بكر رضي الله عنه.
(٢) رواه بنحوه البزار في «المسند» (١٠/ ٢٤٥) عن سيدنا زيد بن أرقم والمغيرة بن شعبة وأنس بن مالك رضي الله عنهم.
(٣) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٣٦).

﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ ....

رضي الله عنهم، ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾: ما ألقى في قلبه من الأَمَنَةِ التي سكنَ عندها، وعلمَ أنهم لا يَصلُون إليه، ﴿عَلَيْهِ﴾: على النبي عليه السلام، أو على أبي بكر؛ لأنه كان يخافُ، وكان عليه السلام ساكنَ القلبِ، ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ هم: الملائكةُ، صرفُوا وجوهَ الكفارِ وأبصارَهم عن أن يَرَوه، أو: أيدَه بالملائكةِ يومَ بدرٍ والأحزابِ وحنينٍ، ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: دَعْوَتَهم إلى الكفر ﴿ٱلسُّفْلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ﴾: دَعْوَتُه إلى الإسلام ﴿هِيَ﴾: فصلٌ ﴿ٱلْعُلْيَاۗ﴾، ﴿وكلمةَ اللهِ﴾: يعقوبُ بالعطفِ[1]، والرفعُ على الاستئناف أَوْجَهُ؛ إذْ هي لم تزلْ كانت عاليةً[2]، ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾: يُعِزُّ بنصرِه أهلَ كلمتِه، ﴿حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾: يذلُّ أهلَ الشركِ بحكمتِه.

《٤١》 ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا﴾: في النفورِ لنشاطِكم له، ﴿وَثِقَالًا﴾ عنه لمشقتِه عليكم، أو: خفافاً لقلةِ عيالِكم وثقالاً لكثرتِها، أو: خفافاً من السلاح وثقالاً منه، أو: رُكباناً ومشاةً، أو: شَباباً وشُيوخاً، أو: مهازيلَ وسِماناً، أو: صِحاحاً ومِراضاً، ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾: إيجابٌ للجهادِ بهما إن أمكنَ، أو بأحدِهما على حسبِ الحالِ والحاجةِ، ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ذلكم الجهاد خير من تركه ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ كونَ ذلك خيراً.. فبادِرُوا إليه.

《٤٢》 ونزلَ في المتخلِّفين عن غزوةِ تبوكَ من المنافقين:

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا﴾ هو: ما عرضَ لك من منافعِ الدنيا، يقال: «الدنيا عَرَضٌ حاضرٌ يأكلُ منه البرُّ والفاجرُ»[3]؛ أي: لو كان ما دُعُوا إليه غُنماً ﴿قَرِيبًا﴾: سهلَ المأخذِ، ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾: وسطاً مقارباً، والقاصدُ والقصدُ: المعتدلُ، ﴿لَّٱتَّبَعُوكَ﴾: لوافقُوك في الخروج، ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ﴾: المسافةُ الشاطَّةُ الشاقةُ، ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾: من دلائل النبوةِ؛ لأنه أخبرَ بما سيكونُ بعد القُفولِ فقالُوا كما أخبرَ، و(بالله): متعلقٌ بـ (سيحلفون)، أو: هو من جملةِ كلامِهم، والقولُ مرادٌ في الوجهين؛ أي: سيحلفون؛ يعني: المتخلفين.. عندَ

---

(١) الأولى أن يُقال: إذْ هي كانت ولم تزل عالية.

(٢) هو حديث مرفوع رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (٣/٢١٦) عن سيدنا شداد بن أوس رضي الله عنه.

(٣) في الآية مذهبان، أحدهما: أن (لخرجنا) جوابُ القسم، وجواب (لو): محذوفٌ، والثاني: أن (لخرجنا):

عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ ....

رجوعك من غزوةِ تبوكَ معتذرين يقولون: بالله لو استطعْنا.. لخرجنا معكم، أو: سيحلفون بالله يقولون: لو استطعنا، وقوله: (لخرجنا): سدَّ مسدَّ جوابَي القسمِ، و(لو) جميعاً[1]؛ ومعنى الاستطاعة: استطاعةُ العُدَّةِ، أو: استطاعةُ الأبدانِ، كأنهم تمارضُوا، ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾: بدلٌ من (سيحلفون)، أو: حالٌ منه؛ أي: مهلِكين؛ والمعنى: أنهم يهلِكونها بالحلفِ الكاذبِ، أو: حالٌ من (لخرجنا) أي: لخرجنا معكم وإن أهلكْنا أنفسَنا وألقيناها في التهلكةِ بما نحملُها على المسيرِ في تلك الشقةِ[2]، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ فيما يقولون.

《٤٣》 ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾: كنايةٌ عن الزَّلةِ؛ لأن العفوَ رادفٌ لها، وهو من لُطفِ العتابِ بتصديرِ العفوِ في الخطاب، وفيه دلالةُ فضلِه على سائرِ الأنبياءِ؛ حيث لم يُذكرْ مثلُه لسائر الأنبياءِ عليهم السلام، ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾: بيانٌ لما كَنَّى عنه بالعفو؛ ومعناه: ما لَكَ أذنت لهم في القعودِ عن الغزوِ حين استأذنوك واعتلُّوا لك بعلَلِهم؟ وهلا استأنيتَ بالإذن؟ ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾: حتى يتبينَ لك الصادقُ في العذر من الكاذب فيه، وقيل: شيئان فعلَهما رسولُ الله ﷺ ولم يؤمر بهما: إذنُه للمنافقين، وأخذُه الفديةَ من الأسارى، فعاتبَه اللهُ.

وفيه دليلُ جوازِ الاجتهادِ للأنبياء عليهم السلام؛ لأنه عليه السلام إنما فعل ذلك بالاجتهاد، وإنما عوتب مع أن له ذلك؛ لتركه الأفضلَ، وهم يعاتبون على ترك الأفضل[3].

جوابُ (لو)، و(لو) وجوابُها: جوابُ القسم، وأما قول النسفيُّ: (لخرجنا): سدَّ مسدَّ جوابَي القسمِ، و(لو) جميعاً.. فتأويلُه: أنه لما حذف جواب (لو)، ودلَّ عليه جوابُ القسم.. جُعِلَ كأنه سدَّ مسدَّ جوابِ القسمِ وجوابِ (لو). انظر «البحر المحيط في التفسير» (٥/ ٤٧).

(١) وعلى هذا الوجه فكان الظاهر أن يقال: خرجنا نهلك أنفسنا، ولكن جاء بلفظ الغائب (يهلكون) لأنه مخبِر عنهم، كما يقال: حلف بالله ليفعلنَّ، ولأفعلنَّ. انظر «البحر المحيط في التفسير» (٥/ ٤٧).

(٢) ذكر الزركشي أن القول المختار: أنه لا يتطرق الخطأ إلى اجتهاده ﷺ؛ لأنه لو جاز.. لوجب علينا اتباعه فيه، وهو ينافي كونَه خطأً، وقال ابنُ فورك: هو معصوم في اجتهاده كما هو معصوم في خبره، وقال الصفي الهندي: إنه الحق عندنا، وجزم به الحليمي، وقيل: يجوز عليه الخطأ بشرط ألا يقرَّ عليه، قال الزركشي: وهو قولٌ لا نورَ عليه. انظر «البحر المحيط في أصول الفقه» (٨/ ٢٥٣).

(٣) الديدن: العادة.

لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ ....

«٤٤» ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ﴾: ليس من عادةِ المؤمنين أن يستأذنوك في أن يُجاهِدوا ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾﴾: عدةٌ لهم بأجزلِ الثواب.

«٤٥» ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ يعني: المنافقين، وكانوا تسعةً وثلاثين رجلاً، ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾: شكُّوا في دينِهم، واضطربُوا في عقيدتِهم، ﴿فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾: يتحيَّرون؛ لأن الترددَ دَيْدَنُ المتحيِّرِ، كما أن الثباتَ ديدنُ المتبصِّرِ[1].

«٤٦» ﴿وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ﴾: للخروجِ أو للجهادِ ﴿عُدَّةً﴾: أهبةً؛ لأنهم كانوا مياسيرَ، ولما كان قوله: (ولو أرادوا الخروج) معطياً معنى نفيِ خروجِهم واستعدادهم للغزو.. قيلَ: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾: نهوضَهم للخروج؛ كأنه قيل: ما خرجُوا، ولكن تثبطُوا عن الخروج؛ لكراهةِ انبعاثِهم، ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾: فكَسَّلَهم وضعَّفَ رغبتَهم في الانبعاثِ، والتثبيطُ: التوقيفُ عن الأمرِ بالتزهيدِ فيه، ﴿وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ﴾ أي: قال بعضُهم لبعض، أو: قاله الرسول عليه السلام غضباً عليهم، أو: قالَه الشيطانُ بالوسوسةِ، ﴿مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾: هو ذمٌّ لهم، وإلحاقٌ بالنساء والصبيانِ والزَّمْنى الذين شأنُهم القعودُ في البيوت.

«٤٧» ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ﴾ بخروجِهم معكم ﴿إِلَّا خَبَالًا﴾: فساداً وشرّاً، والاستثناءُ متصلٌ؛ لأن المعنى: ما زادُوكم شيئاً إلا خبالاً، والاستثناءُ المنقطعُ: أن يكون المستثنى من غيرِ جنسِ المستثنى منه، كقولك: ما زداوكم خيراً إلا خبالاً، والمستثنى منه في هذا الكلام غيرُ مذكورٍ، وإذا لم يذكر.. وقعَ الاستثناءُ من الشيءِ، فكان استثناءً متصلاً؛ لأن الخبالَ بعضُه، ﴿وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ﴾: ولسعَوا بينكم بالتضريبِ والنمائمِ وإفسادِ ذاتِ البينِ، يقال: وضعَ البعيرُ وضعاً: إذا أسرعَ، وأوضعتُه أنا؛ والمعنى: ولأوضعوا ركائبَهم بينكم، والمرادُ: الإسراعُ بالنمائم؛ لأن الراكبَ أسرعُ من الماشي، وخُطَّ في المصحفِ: (ولاأوضعوا): بزيادةِ

(١) زيادة الألف في بعض المصاحف. انظر «المقنع في رسم مصاحف الأمصار» (ص ٥١).

﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾﴾ ....

الألفِ[1]؛ لأن الفتحةَ كانت تكتبُ ألفاً قبلَ الخطِّ العربيِّ، والخطُّ العربيُّ اخترعَ قريباً من نزولِ القرآنِ وقد بقي من تلك الألفِ أثرٌ في الطباعِ، فكتبُوا صورةَ الهمزةِ ألفاً، وفتحَها ألفاً أخرى، ونحوُه: ﴿أَوْ لَأَاذْبَحَنَّهُ﴾ [النمل: ٢١]، ﴿يَبْغُونَكُمُ﴾: حالٌ من الضمير في (أوضعوا)، ﴿الْفِتْنَةَ﴾ أي: يطلُبون أن يفتِنوكم؛ بأن يوقعُوا الخلافَ فيما بينكم، ويُفسدوا نياتِكم في مَغْزاكُم، ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ أي: نمّامون يسمعون حديثَكم فينقلونَه إليهم، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾: بالمنافقين.

《٤٨》 ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ﴾ بصدِّ الناسِ، أو: بأن يفتِكوا به عليه السلام ليلةَ العقبةِ، أو: بالرجوعِ يومَ أحدٍ، ﴿مِن قَبْلُ﴾: من قبلِ غزوةِ تبوكَ، ﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾: ودبَّرُوا لك الحيلَ والمكايدَ ودوَّرُوا الآراءَ في إبطالِ أمرِك ﴿حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ﴾ وهو: تأييدُكَ ونصرُكَ، ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ﴾: وغلبَ دينُه وعلا شرعُه ﴿وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾ أي: على رُغْمٍ منهم.

《٤٩》 ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي﴾: ولا تُوقِعني في الفتنةِ وهي: الإثمُ، بألا تأذنَ لي؛ فإني إن تخلفتُ بغيرِ إذنِك.. أثمتُ، أو: لا تُلقِني في الهَلَكَةِ؛ فإني إذا خرجتُ معكَ.. هلك مالي وعيالي، وقيل: قال الجِدُّ بنُ قيسٍ المنافقُ: قد علمتِ الأنصارُ أني مُستهتَرٌ بالنساء، فلا تفتني ببناتِ الأصفرِ؛ يعني: نساء الروم، ولكني أعينُك بمالٍ فاترُكني[2]، ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ يعني: أن الفتنةَ هي التي سقطُوا فيها، وهي فتنةُ التخلفِ، ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾ الآن؛ لأن أسبابَ الإحاطةِ معهم، أو: هي تحيطُ بهم يومَ القيامةِ.

《٥٠》 ﴿إِن تُصِبْكَ﴾ في بعضِ الغزواتِ ﴿حَسَنَةٌ﴾: ظَفَرٌ وغنيمةٌ ﴿تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾: نكبةٌ وشدةٌ في بعضِها، نحوُ ما جرى يومَ أحدٍ ﴿يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا﴾ الذي نحن مُتَّسِمُون به من الحَذَرِ والتَّيَقُّظِ والعملِ بالحزمِ ﴿مِن قَبْلُ﴾: من قبلِ ما وقعَ، ﴿وَيَتَوَلَّوا﴾ عن مقامِ التحدثِ بذلك إلى أهاليهم، ﴿وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾﴾: مسرورون.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٢٨٧).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٣٧).

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾﴾ ....

《٥١》 ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ أي: قَضى من خيرٍ أو شرٍّ، ﴿هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾ أي: الذي يتولانا ونتولاه، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ وحقُّ المؤمنين ألا يتوكلوا على غيرِ اللهِ.

《٥٢》 ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ﴾: تنتظرون بنا ﴿إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ وهما: النصرةُ والشهادةُ، ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾ إحدى السُّوءَيَيْنِ: إما ﴿أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ﴾ وهو: قارعةٌ من السماءِ كما نزلت على عادٍ وثمودَ، ﴿أو﴾ بعذابٍ ﴿بِأَيْدِينَا﴾ وهو: القتلُ على الكفرِ، ﴿فَتَرَبَّصُوٓا۟﴾ بنا ما ذكرنا، ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾ ما هو عاقبتُكم.

《٥٣》 ﴿قُلْ أَنفِقُوا۟﴾ في وجوهِ البرِّ ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾: طائعين أو مكرهين: نصبٌ على الحال، ﴿كُرْهاً﴾: حمزةُ وعليٌّ[١]، وهو أمرٌ في معنى الخبرِ؛ ومعناه: ﴿لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ أنفقتم طوعاً أو كرهاً، ونحوُه: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠]، وقوله[٢]: [من: الطويل]

أسيـئي بنـا أو أحسـنـي ....

أي: لن يغفرَ اللهُ لهم استغفرتَ لهم أم لم تستغفرْ لهم، ولا نلومُكِ أسأتِ إلينا أو أحسنتِ، وقد جاز عكسُه في قولك: رحمَ اللهُ زيداً[٣]، ومعنى عدمِ القبولِ: أنه عليه السلام يردُّها عليهم، ولا يقبلُها، أو: لا يثيبُها اللهُ، وقولُه: (طوعاً) أي: من غيرِ إلزامٍ من اللهِ ورسولِه، و(كرهاً) أي: ملزَمين، وسُمّيَ الإلزامُ إكراهاً؛ لأنهم منافقون، فكان إلزامُهم الإنفاقَ شاقّاً عليهم كالإكراهِ؛ ﴿إِنَّكُمْ﴾: تعليلٌ لردِّ إنفاقِهم، ﴿كُنتُمْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾﴾: متمرِّدين عاتين.

---

(١) هذا بعض بيتٍ قائلُه: كُثَيِّرُ عزةَ، وهو في «ديوانه» (ص ١٠١).
وتتمته:

... لا مـلـومـةً لـديـنـا ولا مـقـلـيـةً إن تـقـلـتِ

(٢) فهو خبرٌ ومعناه الدعاء؛ أي: اللهم ارحمه.

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ ....﴾

«٥٤» ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ﴾ وبالياء: حمزةُ وعليٌّ[١]، ﴿إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟﴾ (أنهم): فاعلُ (منعَ)، وهمْ، و(أن تُقبلَ): مفعولاه؛ أي: وما منعهم قبولَ نفقاتِهم إلا كفرُهم ﴿بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾: جمعُ كسلان، ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾ لأنهم لا يُريدون بها وجهَ اللهِ تعالى، وصفَهم بالطَّوعِ في قولِه: (طوعاً) وسَلَبَه عنهم ههنا؛ لأن المرادَ بطوعِهم أنهم يبذلونه من غيرِ إلزامٍ من رسولِ اللهِ عليه السلام، أو من رؤسائِهم، وما طوعُهم ذلك إلا عن كراهةٍ واضطرارٍ، لا عن رغبةٍ واختيارٍ.

«٥٥» ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: الإعجابُ بالشيءِ: أن تُسَرَّ به سرورَ راضٍ به، متعجبٍ من حُسنِه؛ والمعنى: فلا تستحسنْ ما أُوتُوا من زينةِ الدنيا؛ فإن اللهَ إنما أعطاهم ما أعطاهم؛ ليعذبَهم بالمصائب فيها، أو: بالإنفاقِ منه في أبوابِ الخيرِ وهم كارهون له، أو: بنهبِ أموالِهم وسبيِ أولادِهم، أو: بجمعِها وحفظِها وحبِّها والبخلِ بها والخوفِ عليها، وكلُّ هذا عذابٌ، ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾: وتخرجَ أرواحُهم، وأصلُ الزُّهُوقِ: الخروجُ بصعوبةٍ، ودلت الآيةُ على بطلانِ القولِ بالأصلحِ؛ لأنه أخبرَ أن إعطاءَ الأموالِ والأولادِ لهم للتعذيبِ والإماتةِ على الكفرِ، وعلى إرادة اللهِ تعالى المعاصي؛ لأن إرادةَ العذابِ إرادةُ ما يُعذبُ عليه، وكذا إرادةُ الإماتةِ على الكفرِ.

«٥٦» ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾: لمن جملةِ المسلمين، ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾﴾: يخافون القتلَ وما يُفعلُ بالمشركين، فيتظاهرون بالإسلامِ تَقِيَّةً.

«٥٧» ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا﴾: مكاناً يلجؤون إليه متحصنين؛ من رأس جبلٍ أو قلعةٍ أو جزيرةٍ، ﴿أَوْ مَغَٰرَٰتٍ﴾: أو غِيراناً، ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾: أو نفقاً يندسُّون فيه، وهو (مُفْتَعَلٌ) من الدُّخولِ، ﴿لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ﴾: لأقبلوا نحوَه ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾: يُسرعون إسراعاً لا يردُّهم شيءٌ؛ من الفَرَسِ الجَمُوحِ.

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٣٧).

وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ....

《٥٨》 ﴿وَمِنْهُم﴾: ومن المنافقين ﴿مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾: يعيبُك في قسمةِ الصدقاتِ ويطعنُ عليك، ﴿فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾﴾ (إذا): للمفاجأةِ؛ أي: وإن لم يُعطَوا منها.. فاجَؤوا السخطَ، وصفَهم بأن رضاهم وسخطَهم لأنفسهم، لا للدِّين وما فيه صلاحُ أهلِه؛ لأنه عليه السلام استعطفَ قلوبَ أهلِ مكةَ يومئذٍ بتوفيرِ الغنائمِ عليهم، فضجِرَ المنافقون منه.

《٥٩》 ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ جوابُ (لو): محذوفٌ، تقديرُه: ولو أنهم رضُوا.. لكان خيراً لهم؛ والمعنى: ولو أنهم رضوا ما أصابهم به الرسول من الغنيمةِ، وطابت به نفوسُهم وإن قلَّ نصيبُهم، وقالوا: كفانا فضلُ اللهِ وصنعُه، وحسبُنا ما قُسِمَ لنا سيرزقُنا غنيمةً أخرى فيؤتينا رسولُ اللهِ أكثرَ مما آتانا اليومَ، إنا إلى الله في أن يُغنِّمنا ويُخوِّلَنا فضلَه لراغبون.

《٦٠》 ثم بيَّنَ مَواضعها التي تُوضَع فيها فقال:

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾: قَصَرَ جنسَ الصدقاتِ على الأصنافِ المعدودةِ؛ أي: هي مختصةٌ بهم، لا تتجاوزُ إلى غيرِهم، كأنه قيل: إنما هي لهم لا لغيرِهم، كقولِك: إنما الخلافةُ لقريشٍ؛ تريدُ: لا تتعداهم، ولا تكونُ لغيرِهم، فيحتملُ أن تُصرفَ إلى الأصنافِ كلِّها، وأن تصرفَ إلى بعضِها، كما هو مذهبُنا[١]، وعن حذيفةَ وابنِ عباسٍ وغيرِهما من الصحابة والتابعين أنهم قالوا: في أيِّ صنفٍ منها وضعتَها.. أجزأك[٢]، وعند الشافعي رحمه الله: لا بدَّ من صرفِها إلى الأصنافِ، وهو المرويُّ عن عكرمةَ[٣].

---

(١) انظر «حاشية ابن عابدين» (٢/ ٣٤٤).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٣٢٢، ٣٢٣).

(٣) انظر «المجموع» (٦/ ١٦٥)، وفي «حاشية الجمل على شرح المنهج»: قال ابن عجيل اليمني: ثلاث مسائل في الزكاة نُفتي فيها على خلاف المذهب؛ أي: نقلد: في نقل الزكاة، ودفعها إلى صنف واحد، ودفع زكاة واحد إلى شخص واحد.

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ ....

ثم الفقيرُ: الذي لا يَسألُ؛ لأن عنده ما يكفيه للحال، والمسكينُ: الذي يَسألُ؛ لأنه لا يجدُ شيئاً، فهو أضعفُ حالاً منه، وعند الشافعيِّ: على العكسِ[١]، ﴿وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ هم: السُّعاةُ الذين يقبِضُونها، ﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾: على الإسلامِ، أشرافٌ من العرب كان رسولُ اللهِ عليه السلام يتألفُهم على أن يُسلمُوا، وقومٌ منهم أسلمُوا فيعطيْهم تقريراً لهم على الإسلام، ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ هم: المكاتَبون يُعانُون منها، ﴿وَٱلْغَٰرِمِينَ﴾: الذين ركبتْهم الديونُ، ﴿وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: فقراءُ الغزاةِ، أو: الحجيجُ المنقَطَعُ بهم، ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: المسافرُ المنقطِعُ عن مالِه، وعدلَ عن اللامِ إلى (في) في الأربعةِ الأخيرةِ؛ للإيذانِ بأنهم أرسخُ في استحقاقِ التصدقِ عليهم ممن سبق ذكرُه؛ لأن (في): للوعاءِ، فنبَّه على أنهم أحقاءُ بأن توضعَ فيهم الصدقاتُ، ويُجعلُوا مَظِنَّةً لها، وتكريرُ (في) في قولِه: (وفى سبيل الله وابن السبيل): فيه فضلٌ وترجيحٌ لهذين على الرقابِ والغارمينِ، وإنما وقعت هذه الآيةُ في تضاعيفِ ذكرِ المنافقين؛ ليدلَّ بكون هذه الأصنافِ مصارفَ الصدقاتِ خاصةً دون غيرِهم.. على أنهم ليسُوا منهم؛ حسماً لأطماعِهم؛ وإشعاراً بأنهم بُعداءُ عنها وعن مصارفِها، فما لَهم وما لَها؟ وما سلطَهم على التكلم فيها، ولَمْزِ قاسِمِها[٢]؟ وسهمُ المؤلفةِ قلوبُهم سقطَ بإجماعِ الصحابةِ في صدرِ خلافةِ أبي بكر رضي الله عنه؛ لأن الله أعزَّ الإسلامَ، وأغنى عنهم، والحكمُ متى ثبت معقولاً لمعنى خاصٍّ.. يرتفعُ وينتهي بذهابِ ذلك المعنى[٣]، ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾: في معنى المصدرِ المؤكِّدِ؛ لأن قولَه: (إنما الصدقات للفقرآء) معناه: فرضَ اللهُ الصدقاتِ لهم، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾: بالمصلحةِ، ﴿حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ في القسمةِ.

《٦١》 ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ الأذنُ: الرجلُ الذي يصدقُ كلَّ ما يسمعُ، ويقبلُ قولَ كلِّ أحدٍ، سُمِّيَ بالجارحة التي هي آلةُ السماعِ؛ كأن جملتَه أذنٌ سامعةٌ،

---

(١) عند الحنفية: الفقير: الذي له أدنى شيء، والمسكين: الذي لا شيء له، وعند الشافعية: الفقيرُ: مَن لا مالَ له، ولا كسبَ يقع موقعاً من حاجته، والمسكين: من قدر على مال أو كسب يقع موقعاً من كفايته، ولا يكفيه. انظر «الاختيار لتعليل المختار» (١/ ١١٨)، و«المنهاج» للنووي (ص ٢٩٧).

(٢) اللمزُ: العيبُ.

(٣) انظر «بدائع الصنائع» (٢/ ٤٥)، وعند الشافعية: المؤلفةُ إذا كانوا كفاراً.. لم يُعطَوا من زكاة ولا غيرها للإجماع، وإذا كانوا مسلمين أُعطُوا منها. انظر «أسنى المطالب في شرح روض الطالب» (١/ ٣٩٥).

يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ لِيُرۡضُوكُمۡ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدٗا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡخِزۡيُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ ....

وإيذاؤُهم له هو قولُهم فيه: (هو أذن) قصدوا به المذمةَ وأنه من أهلِ سلامةِ القلوبِ والغِرة[١]، ففسرَه اللهُ تعالى بما هو مدحٌ له وثناءٌ عليه فقال: ﴿قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ﴾ كقولك: رجلُ صِدقٍ؛ تريدُ الجَودةَ والصلاحَ، كأنه قيل: نَعم هو أذنٌ، ولكن نِعمَ الأذنُ، ويجوزُ أن يريدَ: هو أذنٌ في الخيرِ والحقِّ وفيما يجب سماعُه وقبولُه، وليس بأذنٍ في غيرِ ذلك، ثم فسرَ كونَه أذنَ خيرٍ بأنه ﴿يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ﴾ أي: يصدق بالله لما قام عندَه من الأدلةِ، ﴿وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: ويقبلُ من المؤمنين الخلَّصِ من المهاجرين والأنصار، وعُدِّيَ فعلُ الإيمانِ بالباءِ إلى اللهِ؛ لأنه قُصدَ به التصديقُ بالله الذي هو ضدُّ الكفرِ به، وإلى المؤمنين باللام؛ لأنه قصد السماعُ من المؤمنين، وأن يُسلِّمَ لهم ما يقولونه ويصدقَه؛ لكونهم صادقين عنده؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧] كيف ينبو عن الباء، ﴿وَرَحۡمَةٞ﴾: بالعطفِ على (أذن)، ﴿ورحمةٍ﴾: حمزةُ[٢]: عطفٌ على (خير) أي: هو أذنُ خيرٍ وأذنُ رحمةٍ لا يسمعُ غيرَهما ولا يقبلُه، ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡۚ﴾ أي: وهو رحمةٌ الذين آمنوا منكم؛ أي: أظهِروا الإيمانَ أيُّها المنافقون حيثُ يَقبل إيمانكم الظاهرَ، ولا يَكشفُ أسرارَكم، ولا يَفعل بكم ما يَفعل بالمشركين، أو: هو رحمةٌ للمؤمنين حيث استنقذَهم من الكفر إلى الإيمان، ويشفعُ لهم في الآخرة بإيمانِهم في الدنيا، ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٦١﴾﴾ في الدارين.

﴿٦٢﴾ ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ لِيُرۡضُوكُمۡ﴾ الخطابُ للمسلمين، وكان المنافقون يتكلمون بالمطاعنِ، أو يتخلفون عن الجهادِ، ثم يأتونهم فيعتذرون إليهم، ويؤكدون معاذيرَهم بالحلف؛ ليَعذُروهم ويرضَوا عنهم، فقيل لهم: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ أي: إن كنتم مؤمنين كما تزعمون. . فأحقُّ مَن أرضيتم اللهُ ورسولُه بالطاعةِ والوِفاقِ، وإنما وَحَّدَ الضميرَ؛ لأنه لا تفاوت بين رضا اللهِ ورضا رسولِ اللهِ، فكانا في حكمِ شيءٍ واحدٍ، كقولك: إحسانُ زيدٍ وإجمالُه رفعَني، أو: والله أحقُّ أن يُرضُوه، ورسولُه كذلك.

﴿٦٣﴾ ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ﴾: أن الأمرَ والشأنَ ﴿مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾: يُجاوزِ الحدَّ بالخلافِ، وهي (مفاعَلَةٌ) من الحدِّ[٣]، كالمشاقَّةِ من الشِّقِّ، ﴿فَأَنَّ لَهُۥ﴾: على حذفِ الخبرِ؛ أي: فحقٌّ أن له ﴿نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدٗا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡخِزۡيُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾.

---

(١) الغِرة: الغفلة.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص١٣٧).

(٣) قيل: هو حدُّ السلاحِ، وقيل: الجهةُ، كأن كل واحدٍ في جهةٍ غيرِ جهةِ صاحبِه. انظر «الدر المصون» (٦/ ٧٩).

يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ ....

《٦٤》 ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾: خبرٌ بمعنى الأمرِ؛ أي: لِيحذرِ المنافقون[١] ﴿أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ﴾ ﴿تُنْزَلَ﴾: بالتخفيف: مكيٌّ وبصريٌّ[٢]، ﴿تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ من الكفرِ والنفاقِ[٣]، والضمائرُ للمنافقين؛ لأن السورة إذا نزلت في معناهم.. فهي نازلة عليهم؛ أو: الأولان: للمؤمنين، والثالثُ: للمنافقين[٤]، وصحَّ ذلك؛ لأن المعنى يقودُ إليه[٥]، ﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟﴾: أمرُ تهديدٍ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾: مظهرٌ ما كنتم تحذرونه؛ أي: تحذرون إظهارَه من نفاقِكم، وكانوا يحذرون أن يفضحَهم الله بالوحي فيهم، وفي استهزائهم بالإسلام وأهلِه، حتى قال بعضهم: وددتُ أني قُدِّمْتُ فجُلدتُ مئةً وأنه لا يَنْزِلُ فينا شيءٌ يفضحُنا.

《٦٥》 ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ بَيْنا رسولُ اللهِ عليه السلام يسيرُ في غزوةِ تبوكَ وركبٌ من المنافقين يسيرون بين يديه.. فقالوا: انظروا إلى هذا الرجلِ يريدُ أن يفتحَ قصورَ الشامِ وحصونَها، هيهاتَ هيهاتَ، فأطلعَ اللهُ نبيَّه على ذلك فقال: احبِسُوا عليَّ الركبَ، فأتاهم فقال: قلتُم كذا وكذا، فقالوا: يا نبيَّ اللهِ لا واللهِ ما كنّا في شيءٍ من أمرك ولا من أمرِ أصحابِك، ولكن كنا في شيءٍ مما يخوضُ فيه الركبُ؛ لِيُقَصِّرَ بعضُنا على بعضٍ السفرَ[٦]؛ أي: ولئن سألتهم وقلت لهم: لم قلتم ذلك.. لقالوا: إنما كنا نخوضُ ونلعبُ، ﴿قُلْ﴾ يا محمدُ ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾﴾ لَمْ يَعبأْ باعتذارِهم؛ لأنهم كانوا كاذبين فيه، فجُعلُوا كأنهم معترفون باستهزائِهم، وبأنه موجودٌ فيهم حتى وُبِّخُوا بإخطائِهم موقعَ الاستهزاءِ، حيث جُعِلَ المستهزأُ به يلي حرفَ التقريرِ، وذلك إنما يستقيمُ بعد ثبوتِ الاستهزاءِ.

---

(١) الأولى أن يحمل على الخبر حقيقة؛ لقوله تعالى في آخر الآية: (إن الله مخرج ما تحذرون). انظر «تفسير الآلوسي» (٥/ ٣١٩).

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٣٧).

(٣) المراد أنها تُذيع ما كانوا يخفونه من أسرارهم فينتشر فيما بين الناس فيسمعونها من أفواه الرجال مُذاعةً فكأنها تخبرهم بها، وإلا.. فما في قلوبهم معلومٌ لهم، والمحذورُ عندهم أن يخبرهم به المؤمنون. انظر «تفسير الآلوسي» (٥/ ٣١٩).

(٤) أي: يحذر المنافقون أن تنزل على المؤمنين سورة تنبئ المؤمنين بما في قلوب المنافقين.

(٥) أي: صح اختلاف ما ترجعُ إليه الضمائر؛ لظهور المعنى بالقرينة.

(٦) روى نحوه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٣٣٤) عن قتادة.

لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾

«٦٦» ﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾: لا تَشتغلوا باعتذاراتِكم الكاذبةِ؛ فإنها لا تنفعكم بعد ظهور سرِّكم، ﴿قَدْ كَفَرْتُم﴾: قد أظهرتُم كفركم باستهزائِكم ﴿بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾: بعد إظهارِكم الإيمانَ، ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ بتوبتِهم وإخلاصِهم الإيمانَ بعد النفاقِ ﴿نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾: مصرِّين على النفاقِ، غيرَ تائبين منه.

﴿إنْ يُعْفَ﴾ ﴿تُعذَّبْ طائفةٌ﴾: غيرُ عاصمٍ[1].

«٦٧» ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ﴾ الرجالُ المنافقون كانوا ثلاثَ مئةٍ، والنساءُ المنافقاتُ مئةً وسبعين، ﴿بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ﴾ أي: كأنهم نفسٌ واحدةٌ، وفيه نَفْيُ أن يكونوا من المؤمنين، وتكذيبُهم في قولهم: (ويحلفون بالله إنهم لمنكم)، وتقرير لقوله: (وما هم منكم)، ثم وصفَهم بما يدلُّ على مُضادَّةِ حالِهم لحالِ المؤمنين فقال: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ﴾: بالكفرِ والعصيانِ، ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾: عن الطاعةِ والإيمانِ، ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ شُحّاً بالمَبارِّ والصدقاتِ والإنفاقِ في سبيلِ اللهِ، ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾: تركوا أمرَه، أو أغفلُوا ذكرَه ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾: فتركَهم من رحمتِه وفضلِه، ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾: هم الكاملون في الفِسْقِ الذي هو التمردُ في الكفرِ والانسلاخُ عن كلِّ خيرٍ، وكفى المسلمَ زاجراً أن يُلِمَّ بما يُكسبُه هذا الاسمَ الفاحشَ الذي وُصِفَ به المنافقون حين بالغَ في ذمِّهم.

«٦٨» ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾: مقدَّرين الخلودَ فيها[2]، ﴿هِيَ﴾ أي: النارُ ﴿حَسْبُهُمْ﴾: فيه دلالةٌ على عظمِ عذابِها، وأنه بحيث لا يُزادُ عليه، ﴿وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾: وأهانَهم مع التعذيب، وجعلَهم مذمومين مُلحَقين بالشياطين الملاعينِ، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾: دائمٌ معهم في العاجل لا ينفكون عنه، وهو: ما يُقاسُونَه من تعبِ النفاقِ، والظاهرِ المخالفِ للباطن خوفاً من المسلمين، وما يَحذرونه أبداً من الفضيحة ونزولِ العذابِ إن اطُّلعَ على أسرارهم.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٣٨).

(٢) أي: (خالدين): حال مقدرة لا مقارنة.

كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ....

«٦٩» الكافُ في ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ﴾: محلُّها: رفعٌ؛ أي: أنتم مثلُ الذين من قبلِكم، أو: نصبٌ على: فَعلتُم مثلَ فعلِ الذين من قبلكم، وهو أنكم استمتعتُم بخلاقِكم كما استمتعُوا بخلاقِهم؛ أي: تَلذَّذُوا بملاذِّ الدنيا، والخلاقُ: النصيبُ، مشتقٌّ من الخَلْقِ، وهو التقدير؛ أي: ما خُلِقَ للإنسان؛ بمعنى: قُدِّرَ من خيرٍ، ﴿وَخُضْتُمْ﴾ في الباطلِ ﴿كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾: كالفوجِ الذي خاضُوا، أو: كالخوضِ الذي خاضُوا، والخوضُ: الدخولُ في الباطلِ واللهوِ، وإنما قَدَّمَ (فاستمتعوا بخلاقهم)، وقولُه: (كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم): مُغْنٍ عنه؛ ليذمَّ الأولين بالاستمتاعِ بما أُوتُوا من حظوظِ الدنيا والْتِهائِهم بشهواتِهم الفانيةِ عن النظرِ في العاقبةِ وطلبِ الفلاحِ في الآخرة، ثم يُشَبِّهُ بعد ذلك حالَ المخاطبين بحالِهم، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾: في مقابلة قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]، ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

«٧٠» ثم ذكرَ نبأَ من قبلَهم فقال: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ﴾ هو: بدلٌ من (الذين)، ﴿وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ﴾: وأهلِ مدينَ، وهم: قومُ شعيبٍ، ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ﴾: مدائنِ قومِ لوطٍ، وائتفاكُهن: انقلابُ أحوالِهن عن الخيرِ إلى الشرِّ[1]، ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾: فما صحَّ منه أن يظلمَهم بإهلاكِهم؛ لأنه حكيمٌ فلا يعاقبُهم بغير جُرمٍ، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾ بالكفرِ وتكذيبِ الرسلِ.

«٧١» ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ في التناصرِ والتراحمِ، ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: بالطاعةِ والإيمانِ، ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾: عن الشركِ والعصيانِ، ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ

(١) الائتفاك: الانقلابُ.

وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ....

﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ السينُ مفيدةٌ وجودَ الرحمةِ لا محالةَ، فهي تؤكدُ الوعدَ، كما تؤكدُ الوعيدَ في: سأنتقمُ منك يوماً، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾: غالبٌ على كل شيءٍ، قادرٌ عليه، فهو يقدرُ على الثواب والعقاب، ﴿حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾: واضعٌ كلّاً موضعَه.

«٧٢» ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾: يطيبُ فيها العيشُ، وعن الحسن: قُصوراً من اللؤلؤِ والياقوتِ الأحمرِ والزَّبَرْجَدِ، ﴿فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ هو: عَلَمٌ؛ بدليلِ قولِه: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [مريم: ٦١]، وقد عرفتَ أنَّ الذي والتي: وُضِعا لوصفِ المعارفِ بالجملِ، وهي مدينةٌ في الجنةِ، ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾: وشيءٌ من رضوانِ اللهِ ﴿أَكْبَرُ﴾ من ذلك كلِّه؛ لأن رضاه سببُ كلِّ فوزٍ وسعادةٍ، ﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارةٌ إلى ما وَعَدَ، أو إلى الرضوانِ، ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ وحدَه دون ما يَعُدُّهُ الناسُ فوزاً.

«٧٣» ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ﴾ بالسيفِ، ﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ بالحجةِ، ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ في الجهادَين جميعاً ولا تُحابِهم، وكلُّ من وُقِفَ منه على فسادٍ في العقيدة.. فهذا الحكمُ ثابتٌ فيه، يُجاهَدُ بالحجةِ، وتُستعملُ معه الغِلظةُ ما أمكن منها، ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ جهنمُ.

«٧٤» أقام رسولُ الله ﷺ في غزوةِ تبوكَ شهرين ينزلُ عليه القرآنُ، ويَعيبُ المنافقين المتخلفين، فيَسمعُ مَن معه، منهم الجُلاسُ بنُ سويدٍ، فقال الجُلاسُ: والله لئن كان ما يقول محمدٌ حقّاً لإخوانِنا الذين خلَّفناهم وهم سادتُنا.. فنحنُ شرٌّ من الحمير، فقال عامرُ بنُ قيسٍ الأنصاريُّ للجُلاسِ: أجلْ واللهِ إن محمداً صادقٌ، وأنتَ شرٌّ من الحمارِ، وبلغ ذلك رسولَ اللهِ عليه السلام، فاستُحضِرَ فحلفَ باللهِ ما قال، فرفعَ عامرٌ يدَه فقال: اللهم أنزلْ على عبدِك ونبيِّك تصديقَ الصادقِ وتكذيبَ الكاذبِ، فنزل[1]:

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٢٦).

﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٧٥﴾ ....

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾ يعني: إن كان ما يقولُ محمدٌ حقّاً.. فنحنُ شرٌّ من الحمير، أو: هي استهزاؤُهم، فقال الجُلَاسُ: يا رسولَ اللهِ واللهِ لقد قلتُه وصدق عامرٌ، فتاب الجُلاسُ وحسنتْ توبتُه[1]، ﴿وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾: وأظهرُوا كفرَهم بعد إظهارِهم الإسلامَ، وفيه دلالةٌ على أن الإيمان والإسلامَ واحدٌ؛ لأنه قال: (وكفروا بعد إسلامهم)، ﴿وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟﴾ من قتلِ محمدٍ عليه السلامُ[2]، أو: قتلِ عامرٍ؛ لردِّهِ على الجُلاسِ، وقيل: أرادُوا أن يُتَوِّجُوا ابنَ أُبيٍّ وإن لم يرضَ رسولُ الله عليه السلام[3]، ﴿وَمَا نَقَمُوٓا۟﴾: وما أنكرُوا، وما عابوا ﴿إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾، وذلك أنهم كانوا حين قدم رسولُ الله عليه السلام المدينةَ في ضَنْكٍ من العيشِ، لا يركبون الخيلَ، ولا يَحُوزون الغنيمةَ، فأَثْرَوا بالغنائم، وقُتِلَ للجُلَاسِ مَولىً، فأمَرَ رسولُ الله عليه السلام بديتِهِ اثني عشرَ ألفاً فاستغنَى، ﴿فَإِن يَتُوبُوا۟﴾ عن النفاقِ ﴿يَكُ﴾ التَّوْبُ ﴿خَيْرًا لَّهُمْ﴾، وهي الآيةُ التي تاب عندها الجُلاسُ، ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْا۟﴾: يُصِرُّوا على النفاق ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ بالقتل والنارِ، ﴿وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝٧٤﴾ ينجيهم من العذابِ.

«٧٥» ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ رويَ: أن ثعلبةَ بنَ حاطِبٍ قال: يا رسولَ اللهِ ادعُ اللهَ يرزقُني مالاً فقال عليه السلام: «يا ثعلبةُ قليلٌ تُؤدي شكرَه خيرٌ من كثير لا تُطيقُه»، فراجعَه فقال: والذي بعثك بالحقِّ لئن رزقَني مالاً لأعطينَّ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، فدعا له فاتخذَ غنماً، فَنَمَتْ كما يَنْمِي الدودُ حتى ضاقت بها المدينةُ، فنزلَ وادياً وانقطعَ عن الجماعةِ والجمعةِ، فسألَ عنه رسولُ اللهِ ﷺ فقيل: كثرَ مالُه حتى لا يسعُه وادٍ فقال: «يا ويحَ ثعلبةَ»، فبعث رسولُ الله ﷺ مُصَدِّقَينِ لأخذِ الصدقاتِ فاستقبلَهما الناسُ بصدَقاتهم، ومرّا بثعلبةَ فسألاه الصدقةَ فقال: ما هي إلا جِزيةٌ، وقال: ارجعا حتى أرى رَأْيِي، فلما رجعا.. قال لهما رسولُ الله ﷺ قبلَ أن يُكلماه: «يا ويحَ ثعلبة» مرتين، فنزلت، فجاء ثعلبةُ بالصدقةِ فقال: «إن الله منعني أن أقبلَ منك، فجعلَ الترابَ على رأسِه، فقُبِضَ رسولُ الله عليه السلام، فجاء بها إلى أبي بكرٍ رضي الله عنه فلم يقبلْها، وجاء بها إلى عمرَ رضي الله عنه في خلافتِه فلم يقبلْها، وهلكَ في زمان عثمانَ رضي الله عنه[4]،

---

(١) روى نحوَه ابنُ أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٤٣).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٤٤) عن سيدنا عروة بن الزبير رضي الله عنه.

(٣) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٤٥) عن السدي.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٣٧٠) عن سيدنا أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه، قال القرطبي في «تفسيره» =

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ ....

﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: المالِ ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾: لنخرجنَّ الصدقةَ، والأصلُ: لنتصدقنَّ، ولكن التاءَ أُدغمت في الصاد؛ لقربها منها، ﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾ بإخراجِ الصدقةِ.

《٧٦》 ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾: أعطاهم اللهُ المالَ ونالُوا مُناهم ﴿بَخِلُوا۟ بِهِۦ﴾: مَنَعُوا حقَّ الله، ولم يفُوا بالعهدِ، ﴿وَتَوَلَّوا۟﴾ عن طاعةِ اللهِ ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾﴾: مُصرون على الإعراضِ.

《٧٧》 ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ﴾: فأورثَهم البخلُ نِفاقاً متمكناً في قلوبِهم؛ لأنه كان سبباً فيه، ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ أي: جزاءَ فعلِهم، وهو يومُ القيامة ﴿بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾: بسبب إخلافِهم ما وَعدُوا اللهَ من التصدقِ والصلاحِ، وكونِهم كاذبين، ومنه جُعِلَ خُلْفُ الوعدِ ثلثَ النفاق[1].

《٧٨》 ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟﴾ يعني: المنافقين ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ﴾: ما أسرُّوه من النفاق بالعزمِ على إخلافِ ما وَعدُوه، ﴿وَنَجْوَىٰهُمْ﴾: وما يتناجَون به فيما بينهم من المطاعن في الدين، وتسميةِ الصدقةِ جزيةً، وتدبيرِ منعِها، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾ فلا يخفى عليه شيء.

《٧٩》 ﴿ٱلَّذِينَ﴾: محلُّه النصبُ أو: الرفعُ على الذمِّ، أو: الجرُّ على البدلِ من الضميرِ في ﴿سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ﴾، ﴿يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ﴾: يَعيبُون المطوِّعين المتبرعين ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ﴾: متعلقٌ بـ (يلمزون)، رويَ: أن رسولَ الله عليه السلام حثَّ على الصدقةِ، فجاء عبدُ الرحمنِ بنُ عوفٍ بأربعةِ آلافِ درهمٍ، وقال: كان لي ثمانيةُ آلافٍ، فأقرضتُ ربي أربعةً،

= (٨/ ٢١٠): وثعلبةُ بدريٌّ أنصاريٌّ، وممن شهد الله له ورسولُه بالإيمان... فما رويَ عنه غيرُ صحيحٍ. وفي «الإصابة في تمييز الصحابة» (١/ ٥١٦): وفي كون صاحب هذه القصة- إن صحّ الخبر ولا أظنه يصحّ- هو البدري المذكور قبله.. نظرٌ... وقد ثبت أنه ﷺ قال: «لا يدخل النّارَ أحدٌ شهدَ بدراً والحديبيّة»، وحكَى عن ربّه أنه قال لأهل بدر: «اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» فمن يكون بهذه المثابة.. كيف يُعقِبُه الله نفاقاً في قلبه، وينزل فيه ما نزل؟ فالظاهر أنه غيره، والله أعلم.

(١) روى البخاري (٣٣) ومسلم (٥٩) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه، عن سيدنا النبي ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان».

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾ ....

وأمسكتُ أربعةً لعيالي، فقال عليه السلام: «بارك الله لك فيما أعطيت، وفيما أمسكت»، فبارك اللهُ له، حتى صُولحت تُماضِرُ امرأتُه عن رُبُعِ الثُّمُنِ على ثمانين ألفاً[1]، وتَصدق عاصمٌ بمئةِ وَسقٍ من تَمرٍ، ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: عطفٌ على (المطوعين) ﴿لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾: طاقتَهم، وعن نافع: ﴿جَهدهم﴾[2]، وهما واحدٌ، وقيل: الجُهدُ: الطاقةُ، والجَهدُ: المشقةُ، وجاء أبو عَقيلٍ بصاعٍ من تمر، فقال: بِتُّ ليلتي أَجُرُّ بالجريرِ على صاعين[3]، فتركتُ صاعاً لعيالي، وجئت بصاعٍ، فلمزَهم المنافقون وقالوا: ما أعطى عبدُ الرحمن وعاصمٌ إلا رياءً، وأما صاعُ أبي عَقيلٍ.. فالله غنيٌّ عنه[4]، ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾: فيهزؤون، ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾: جازاهم على سُخريتِهم، وهو خبرٌ غيرُ دعاءٍ، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾: مؤلمٌ.

《٨٠》 ولما سأل عبدُ اللهِ بنُ عبدِ اللهِ بنِ أبيٍّ رسولَ اللهِ ﷺ أن يستغفرَ لأبيه في مرضه.. نزل: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾، وقد مرَّ أن هذا الأمر في معنى الخبر، كأنه قيل: لن يغفرَ اللهُ لهم استغفرتَ لهم أم لم تستغفرْ لهم، ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ والسبعون: جارٍ مَجرى المثلِ في كلامِهم للتكثير وليس على التحديدِ والغايةِ؛ إذ لو استغفرَ لهم مدةَ حياتِه.. لن يغفرَ لهم؛ لأنهم كفارٌ، واللهُ لا يَغفرُ لمن كفر به؛ والمعنى: وإن بالغتَ في الاستغفار.. فلن يغفرَ اللهُ لهم، وقد وردت الأخبارُ بذكرِ السبعين، وكلُّها تدلُّ على الكثرة، لا على التحديد والغايةِ، ووجهُ تخصيصِ السبعين من بين سائرِ الأعدادِ: أن العددَ قليلٌ وكثيرٌ، فالقليلُ ما دون الثلاثِ، والكثيرُ الثلاثُ فما فوقَها، وأدنى الكثيرِ الثلاثُ، وليس لأقصاه غايةٌ،

---

(١) روى الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٣٨٦) عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ قال: «تصدقوا، فإني أريد أن أبعث بعثاً» قال: فقال عبد الرحمن بن عوف: يا رسول الله، إن عندي أربعة آلاف، ألفين أقرضهما الله، وألفين لعيالي، قال: فقال رسول الله ﷺ: «بارك الله لك فيما أعطيت، وبارك لك فيما أمسكت» فقال رجل من الأنصار: وإن عندي صاعين من تمرٍ، صاعاً لربي، وصاعاً لعيالي، قال: فلمز المنافقون وقالوا: ما أعطى ابن عوف هذا إلا رياءً، وقالوا: أو لم يكن الله غنياً عن صاع هذا، فأنزل الله: (الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين) إلى آخر الآية.

(٢) انظر «الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها» (ص ٥٦٣)، وليست هي الرواية المتواترة عنه؛ ولذا قال النسفي: (وعن نافع)، ولم يقل: (نافع، أو قرأ نافع)، وهذه من إشاراته اللطيفة.

(٣) أي: بات يجر البعير في عمله للناس بأجرة صاعين، والجرير: حبلٌ يجعلُ في عنقِ الناقةِ.

(٤) روى نحوه الطبري في «التفسير» (١٤/ ٣٨٧) والبزار في «المسند» (١٥/ ٢٣٤).

﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ ....

والعددُ أيضاً نوعان: شفعٌ، وَوِترٌ، وأولُ الأشفاعِ اثنان، وأولُ الأوتار ثلاثةٌ، والواحدُ ليس بعددٍ، والسبعةُ أولُ الجمعِ الكثيرِ من النوعين؛ لأن فيها أوتاراً ثلاثةً، وأشفاعاً ثلاثةً، والعشرةُ كمالُ الحسابِ؛ لأن ما جاوز العشرةَ.. فهو إضافةُ الآحادِ إلى العشرةِ، كقولك: اثنا عشرَ، وثلاثةَ عشرَ، إلى عشرين، والعشرون تكريرُ العشرةِ مرتين، والثلاثون تكريرُها ثلاثَ مراتٍ، وكذلك إلى مئةٍ، فالسبعون يجمعُ الكثرةَ، والنوعَ والكثرةَ منه، وكمالَ الحسابِ والكثرةَ منه، فصار السبعون أدنى الكثيرِ من العدد من كلِّ وجهٍ، ولا غايةَ لأقصاه، فجاز أن يكون تخصيصُ السبعين؛ لهذا المعنى، والله أعلم، ﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارةٌ إلى اليأسِ من المغفرةِ ﴿بِأَنَّهُمْ﴾: بسببِ أنهم ﴿كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ ولا غفرانَ للكافر، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾: الخارجين عن الإيمان ما داموا مختارين للكفر والطغيان.

《٨١》 ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾: المنافقون الذين استأذنُوا رسولَ اللهِ عليه السلام فأذنَ لهم وخلَّفَهم بالمدينة في غزوةِ تبوكَ، أو: الذين خلَّفَهم كسلُهم ونفاقُهم والشيطانُ ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾: بقعودِهم عن الغزوِ ﴿خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾: مخالفةً له، وهو: مفعولٌ له، أو: حالٌ؛ أي: قعدُوا لمخالفتِه، أو مخالفين له، ﴿وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: لم يفعلُوا ما فعله المؤمنون من بذلِ أموالِهم وأرواحِهم في سبيل الله، وكيف لا يكرهونَه وما فيهم ما في المؤمنين من باعثِ الإيمانِ، وداعِي الإيقانِ، ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ﴾: قال بعضُهم لبعض، أو: قالوا للمؤمنين تثبيطاً، ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾﴾: استجهالٌ لهم؛ لأن مَن تَصَوَّنَ من مشقةِ ساعةٍ فوقعَ بسببِ ذلك التصونِ في مشقةِ الأبدِ.. كان أجهلَ مِن كلِّ جاهلٍ.

《٨٢》 ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا﴾ أي: فيضحكون قليلاً على فرحِهم بتخلفِهم في الدنيا، ويبكون كثيراً جزاءً في العقبى، إلا أنه أُخرجَ على لفظِ الأمرِ؛ للدلالة على أنه حتمٌ واجبٌ، لا يكون غيرُه، يروى: أن أهلَ النفاقِ يبكون في النار عمرَ الدنيا، لا يرقأُ لهم دمعٌ، ولا يكتحلون بنومٍ، ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ من النفاق.

《٨٣》 ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ﴾ أي: ردَّكَ من تبوكَ، وإنما قال: ﴿إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ لأن منهم من

وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ ....

تاب من النفاقِ، ومنهم من هلكَ، ﴿فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ إلى غزوةٍ بعدَ غزوةِ تبوكَ ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا﴾ وبسكون الياء: حمزةُ وعليٌّ وأبو بكرٍ[1]، ﴿ولن تقاتلوا مَعِيْ عدواً﴾ ﴿مَعِىَ﴾: حفصٌ، ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: أولَ ما دُعيتُم إلى غزوةِ تبوكَ، ﴿فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾: مع مَن تخلفَ بعدُ.

《٨٤》 سألَ ابنُ عبدِ اللهِ بنِ أبيٍّ وكان مؤمناً أن يُكفِّنَ النبيُّ عليه السلام أباه في قميصِه ويصليَ عليه فقبل، فاعترضَ عمرُ رضي الله عنه في ذلك[2]، فقال عليه السلام: «ذلك لا ينفعُه، وكنت أرجو أن يؤمنَ به ألفٌ من قومِه»[3]، فنزلَ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم﴾: من المنافقين؛ يعني: صلاةَ الجنازةِ، رويَ: أنه أسلمَ ألفٌ من الخزرجِ لما رأوه يطلبُ التبركَ بثوبِ النبيِّ عليه السلام، ﴿مَّاتَ﴾: صفةٌ لـ(أحد)، ﴿أَبَدًا﴾: ظرفٌ لـ﴿تُصَلِّ﴾، وكان عليه السلام إذا دفنَ الميتَ.. وقفَ على قبرِه ودعا له، فقيل: ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾: تعليلٌ للنهي؛ أي: أنهم ليسوا بأهلٍ للصلاة عليهم؛ لأنهم كفروا بالله ورسوله.

《٨٥》 ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ التكريرُ للمبالغةِ والتأكيدِ، وأن يكونَ على بالٍ من المخاطبِ لا ينساه، وأن يعتقدَ أنه مُهِمٌّ، ولأن كلَّ آيةٍ في فِرقةٍ غيرِ الفرقةِ الأخرى.

《٨٦》 ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ يجوزُ أن يُرادَ سورةٌ بتمامِها، وأن يُرادَ بعضُها، كما يقعُ القرآنُ

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٣٨) وكذا القراءة الآتية.

(٢) روى البخاري (١٢٦٩) ومسلم (٢٤٠٠) عن سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما: أن عبد الله بن أبي لما توفي.. جاء ابنه إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، أعطني قميصك أكفنه فيه، وصلِّ عليه، واستغفرْ له، فأعطاه النبي ﷺ قميصه، فقال: «آذني أصلي عليه»، فآذنه، فلما أراد أن يصلي عليه.. جذبه عمر رضي الله عنه، فقال: أليس الله نهاك أن تصلي على المنافقين؟ فقال: «أنا بين خِيرتين، قال: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً ۞ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾﴾»، فصلى عليه، فنزلت: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ۞ وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٤١٠).

رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَـٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ ....

والكتابُ على كلِّه، وعلى بعضِه، ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾: بأن آمنوا، أو: هي (أن) المفسِّرةُ، ﴿وَجَـٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾: ذوو الفضلِ والسَّعةِ، ﴿وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾: مع الذين لهم عذرٌ في التخلفِ، كالمرضَى والزَّمْنَى.

«٨٧» ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ أي: النساءِ: جمعُ خالِفةٍ، ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: خُتِمَ عليها؛ لاختيارِهم الكفرَ والنفاقَ، ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾ ما في الجهاد من الفوز والسعادةِ، وما في التخلف من الهلاك والشقاوةِ.

«٨٨» ﴿لَـٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ﴾ أي: إن تخلفَ هؤلاءِ.. فقد نهضَ إلى الغزوِ مَن هو خيرٌ منهم، ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ﴾: تتناولُ منافعَ الدارين؛ لإطلاقِ اللفظِ، وقيل: الحورُ؛ لقوله: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ﴾ [الرحمن: ٧٠]، ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾﴾: الفائزون بكلِّ مطلوبٍ.

«٨٩» ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾ قولُه: (أعدَّ): دليلٌ على أنها مخلوقةٌ.

«٩٠» ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾: هو مِن: عَذَّرَ في الأمر[1]: إذا قَصَّرَ فيه وتوانَى، وحقيقتُه أن يُوهمَ أن له عذراً فيما فعلَ ولا عذرَ له، أو: المعتذرون: بإدغام التاءِ في الذال، ونقلِ حركتِها إلى العين، وهم: الذين يعتذرون بالباطل، قيل: هم أَسَدٌ وغَطَفانُ، قالوا: إن لنا عيالاً، وإن بنا جهداً، فَأْذَنْ لنا في التخلفِ، ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ﴾ هم: منافقو الأعرابِ الذين لم يجيئُوا، ولم يعتذرُوا، فظهر بذلك أنهم كذبوا الله ورسولَه في ادعائِهم الإيمانَ، ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ﴾: من الأعراب ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾ في الدنيا بالقتلِ، وفي الآخرةِ بالنارِ.

«٩١» ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾: الهَرمَى والزَّمْنَى، ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ

(١) التضعيف في (عَذَّرَ) يفيد التكلف؛ أي: يتكلف العذر، ولا عذر له. انظر «الدر المصون» (٦/ ٩٦).

لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ۚ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ ....

﴿مَا يُنفِقُونَ﴾ هم: الفقراءُ من مُزَيْنَةَ وجُهينةَ وبني عُذْرةَ ﴿حَرَجٌ﴾: إثمٌ وضيقٌ في التأخر ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: بأن آمنوا في السرِّ والعلنِ وأطاعوا، كما يفعلُ الناصحُ بصاحبِه، ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾: المعذورين الناصحين ﴿مِن سَبِيلٍ﴾ أي: لا جناحَ عليهم، ولا طريقَ للعتاب عليهم، ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾: يغفرُ تخلفَهم، ﴿رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾﴾ بهم.

«٩٢» ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾: لتُعطيَهم الحُمولةَ ﴿قُلْتَ﴾: حالٌ من الكاف في (أتوك)، وقدْ قبلَه مضمرةٌ؛ أي: إذا ما أتوك قائلاً: ﴿لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا﴾: هو جوابُ (إذا)، ﴿وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ أي: تسيلُ، كقولك: تفيضُ دمعاً، وهو أبلغُ مِن (يفيض دمعُها)؛ لأن العينَ جُعلت كأن كلَّها دمعٌ فائضٌ، و(مِن): للبيان، كقولك: أفديْك مِن رجلٍ، ومحلُّ الجارِّ والمجرورِ: النصبُ على التمييز، ويجوزُ أن يكون (قلت لا أجد): استئنافاً، كأنه قيل: إذا ما أتوك لتحملهم.. تولَّوا، فقيل: ما لهم تولَّوا باكين؟ فقيل: (قلت لا أجد ما أحملكم عليه)، إلا أنه وُسِّط بين الشرط والجزاءِ كالاعتراض، ﴿حَزَنًا﴾: مفعولٌ له، ﴿أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾: لئلا يجدُوا ما يُنفقون، ومحلُّه: نصبٌ على أنه مفعول له، وناصبُه: (حَزَناً)[1]، والمستحمِلون: أبو موسى الأشعريُّ وأصحابُه، أو: البكّاؤن، وهم ستةُ نفرٍ من الأنصار.

«٩٣» ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ﴾ في التخلفِ ﴿وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾، وقولُه: ﴿رَضُوا﴾: استئنافٌ، كأنه قيل: ما بالُهم استأذنُوا وهم أغنياءُ؟ فقيل: رضُوا ﴿بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ أي: بالانتظامِ في جملةِ الخوالفِ ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

«٩٤» ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ﴾: يُقيمون لأنفسهم عُذراً باطلاً ﴿إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ من هذه السفرة، ﴿قُل لَّا تَعْتَذِرُوا﴾ بالباطلِ، ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾: لن نُصدقَكم، وهو علةٌ للنهي عن

---

(١) وهذا من التداخل في المفعول له. انظر «فتوح الغيب» (١١/ ٣٢٨).

يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ إِنَّهُمۡ رِجۡسٞۖ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٩٧﴾

الاعتذارِ؛ لأن غرضَ المعتذرِ أن يُصدَّقَ فيما يَعتذرُ به، ﴿قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ﴾: علةٌ لانتفاءِ تصديقِهم؛ لأنه تعالى إذا أوحى إلى رسوله الإعلامَ بأخبارِهم وما في ضمائرهم.. لم يستقمْ مع ذلك تصديقُهم في معاذيرِهم، ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ﴾ أتُنيبُون أم تَثبتون على كفرِكم، ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: تُردون إليه، وهو عالمُ كلِّ سرٍّ وعلانيةٍ، ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٤﴾﴾ فيجازيْكم على حَسَبِ ذلك.

《٩٥》 ﴿سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ﴾: لتتركوهم ولا تُوبخوهم، ﴿فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ﴾: فأعطُوهم طِلْبتَهم، ﴿إِنَّهُمۡ رِجۡسٞۖ﴾: تعليلٌ لتركِ معاتبتِهم؛ أي: أن المعاتبةَ لا تنفعُ فيهم، ولا تصلحُهم؛ لأنهم أرجاسٌ لا سبيلَ إلى تطهيرِهم ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ﴾: ومصيرُهم النارُ؛ يعني: وكفتْهم النارُ عتاباً وتوبيخاً، فلا تتكلفُوا عِتابَهم، ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٩٥﴾﴾ أي: يُجزون جزاءً.

《٩٦》 ﴿يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ﴾ أي: غرضُهم بالحلفِ باللهِ طلبُ رِضاكُم لينفعَهم ذلك في دُنياهم، ﴿فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ أي: فإنَّ رضاكم وحدَكم لا ينفعُهم إذا كان اللهُ ساخطاً عليهم، وكانُوا عُرضةً لعاجلِ عقوبتِه وآجلِها، وإنما قيل ذلك؛ لئلا يُتوهمَ أن رضا المؤمنين يقتضِي رضا اللهِ عنهم.

《٩٧》 ﴿ٱلۡأَعۡرَابُ﴾: أهلُ البدْوِ ﴿أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا﴾ من أهلِ الحَضَرِ؛ لجفائِهم وقسوتِهم وبُعدِهم عن العلمِ والعلماءِ، ﴿وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ﴾: وأحقُّ بألا يَعلموا ﴿حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ﴾ يعني: حدودَ الدينِ وما أنزلَ اللهُ من الشرائعِ والأحكامِ، ومنه قولُه عليه السلام: «إن الجفاءَ والقسوةَ في الفَدّادين»[1]؛ يعني: الأَكَرَةَ[2]؛ لأنهم يَفِدُّون؛ أي: يَصيحون في حُروثِهم،

---

(١) رواه البخاري (٤٣٨٧) ومسلم (٥١) عن سيدنا أبي مسعود رضي الله عنه

(٢) الأَكَرَةُ: جمعُ أَكّار، وهو الزّارِعُ.

وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ ....

والقَدِيْدُ: الصياحُ، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوالِهم، ﴿حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾ في إمهالِهم.

«٩٨» ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ﴾ أي: يتصدقُ، ﴿مَغْرَمًا﴾: غرامةً وخُسراناً؛ لأنه لا ينفقُ إلا تَقِيَّةً من المسلمين ورياءً، لا لِوجهِ اللهِ وابتغاءِ المثوبةِ عندَه، ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾ أي: دوائرَ الزمانِ وتبدلَ الأحوالِ بِدَوْرِ الأيامِ لتذهبَ غلبتُكم عليه فيتخلصَ من إعطاءِ الصدقةِ، ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ أي: عليهم تدورُ المصائبُ والحروبُ التي يتوقعون وقوعَها في المسلمين، ﴿السُّوْءِ﴾: مكيٌّ وأبو عمرٍو[1]، وهو: العذابُ، و(السَّوء): بالفتحِ: ذمٌّ للدائرةِ، كقولك: رجلُ سَوْءٍ، في مقابلةِ قولِك: رجلُ صدقٍ، ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لما يقولون إذا توجهتْ عليهم الصدقةُ، ﴿عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾ بما يُضمرون.

«٩٩» ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ﴾ في الجهادِ والصدقاتِ ﴿قُرُبَٰتٍ﴾: أسباباً للقُرْبَةِ ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ وهو مفعولٌ ثانٍ لـ (يتخذ)، ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي: دعاءَه؛ لأنه عليه السلام كان يدعو للمتصدِّقين بالخيرِ والبركةِ ويستغفرُ لهم، كقوله: «اللهم صلِّ على آلِ أبي أوفى»[2]، ﴿أَلَآ إِنَّهَا﴾ أي: النفقةَ أو صلواتِ الرسولِ ﴿قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾، ﴿قُرُبَةٌ﴾: نافعٌ[3]، وهذا شهادةٌ من الله للمتصدِّقِ بصحةِ ما اعتقدَ من كونِ نفقتِه قرباتٍ وصلواتٍ، وتصديقٌ لرجائِه على طريقِ الاستئنافِ مع حَرْفَي التنبيهِ والتحقيقِ[4]، المؤْذِنَيْنِ بثباتِ الأمرِ وتمكنِه، وكذلك: ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ﴾: جنتِه، وما في السين من تحقيقِ الوعدِ[5]، وما أدلَّ هذا الكلامَ على رضا اللهِ من المتصدِّقين، وأن الصدقةَ منه بمكانٍ إذا خَلُصَت من صاحبِها، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾: يسترُ عيبَ المُخِلِّ، ﴿رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾: يقبلُ جُهْدَ المُقِلِّ.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٣٩).

(٢) رواه البخاري (١٤٩٧)، ومسلم (١٠٧٨) عن سيدنا عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه.

(٣) هي قراءة ورشٍ عن نافع. انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٣٩).

(٤) حرف التنبيه: (ألا)، وحرف التحقيق: (إن).

(٥) السين إذا دخلت على فعل محبوب أو مكروه.. أفادت أنه واقع لا محالة؛ لأنها تفيد الوعدَ بحصول الفعلِ، فدخولها على ما يفيد الوعدَ أو الوعيدَ مقتضٍ لتوكيدِه وتثبيتِ معناه. انظر «مغني اللبيب» (ص ١٨٥).

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ ....

«١٠٠» ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾: مبتدأٌ، ﴿ٱلْأَوَّلُونَ﴾: صفةٌ لهم، ﴿مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾: تبيينٌ لهم، وهم الذين صلَّوا إلى القِبلتين، أو: الذين شهدُوا بدراً أو بيعةَ الرِّضوان، ﴿وَٱلْأَنصَارِ﴾: عطفٌ على (المهاجرين) أي: ومن الأنصارِ، وهم أهلُ بيعةِ العقبةِ الأولى، وكانوا سبعةَ نفرٍ، وأهلُ العقبةِ الثانيةِ، وكانوا سبعين، ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ من المهاجرين والأنصار، وكانوا سائرَ الصحابةِ، وقيل: هم الذين اتبعوهم بالإيمان والطاعةِ إلى يومِ القيامةِ، والخبرُ: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بأعمالِهم الحسنةِ، ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ لما أفاض عليهم من نعمتِه الدينيةِ والدنيويةِ، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾: عطفٌ على (رضي)، ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ ﴿من تحتِها﴾: مكيٌّ[1]، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾.

«١٠١» ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم﴾ يعني: حولَ بلدتِكم، وهي المدينةُ، ﴿مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ﴾ وهم: جُهينةُ وأسلمُ وأشجعُ وغِفارُ، كانُوا نازلين حولَها، ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾: عطفٌ على خبرِ المبتدأِ الذي هو: (وممن حولكم)، والمبتدأُ: (منافقون)، ويجوز أن يكون جملةً معطوفةً على المبتدأِ والخبرِ إذا قُدِّرَتْ: ومن أهل المدينة قومٌ ﴿مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ أي: تَمَهَّرُوا فيه، على أن (مردُوا): صفةُ موصوفٍ محذوفٍ، وعلى الوجه الأولِ: لا يخلُو من أن يكون كلاماً مبتدأً، أو: صفةً لـ (منافقون)، فُصِلَ بينها وبينه بمعطوفٍ على خبرِه، ودلَّ على مهارتِهم فيه بقولِه: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ أي: يَخفَون عليك مع فِطنتِكَ وصدقِ فِراستِك؛ لفرطِ تَنَوُّقِهم في تَحامِي ما يُشكككُ في أمرِهم[2]، ثم قال: ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ أي: لا يعلمُهم إلا اللهُ، ولا يطلعُ على سرِّهم غيرُه؛ لأنهم يُبطنُون الكفرَ في سُويداءِ قلوبِهم، ويُبرزُون لك ظاهراً كظاهرِ المخلصين من المؤمنين، ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ هما: القتلُ وعذابُ القبرِ، أو: الفضيحةُ وعذابُ القبرِ، أو: أخذُ الصدقاتِ من أموالِهم ونَهْكُ أبدانِهم، ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ أي: عذابِ النارِ.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٣٩).

(٢) تَنَوَّقَ في الأمر: بالغ فيه؛ أي: أنهم يبذلون غاية جهدهم في ستر نفاقهم.

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ ..﴾

«١٠٢» ﴿وَءَاخَرُونَ﴾ أي: قومٌ آخرون سوى المذكورين ﴿ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: لم يعتذروا من تخلفِهم بالمعاذيرِ الكاذبةِ كغيرِهم، ولكن اعترفُوا على أنفسِهم بأنهم بئسَ ما فعلُوا نادمين، وكانوا عشرةً، فسبعةٌ منهم لما بلغهم ما نزلَ في المتخلفين أَوْثَقُوا أنفسَهم على سواري المسجدِ، فقدمَ رسولُ الله عليه السلام فدخلَ المسجدَ فصلى ركعتين، وكانت عادتَه كلما قَدِمَ من سفرٍ[١]، فرآهم مُوْثَقِينَ فسأل عنهم، فَذُكِرَ له أنهم أقسمُوا ألا يَحُلُّوا أنفسَهم حتى يكونَ رسولُ الله عليه السلام هو الذي يَحُلُّهم، فقال: «وأنا أقسمُ ألا أَحُلَّهم حتى أُومَرَ فيهم»، فنزلت، فأطلقَهم فقالوا: يا رسولَ اللهِ هذه أموالُنا التي خَلَّفَتْنا عنك فتصدقْ بها وطهرْنا، فقال: ما أُمِرْتُ أن آخذَ من أموالكم شيئاً، فنزل: (خذ من أموالهم صدقة)[٢]، ﴿خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾: خُروجاً إلى الجهاد، ﴿وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾: تخلفاً عنه، أو: التوبةَ والإثمَ، وهو من قولهم: بعتُ الشاءَ شاةً ودرهماً؛ أي: شاةً بدرهمٍ، فالواو: بمعنى الباءِ؛ لأن الواوَ للجمعِ، والباء للإلصاق، فيتناسبان، أو المعنى: خُلِطَ كلُّ واحدٍ منهما بالآخرِ، فكلُّ واحدٍ منهما مخلوطٌ ومخلوطٌ به، كقولك: خلطتُ الماءَ واللبنَ؛ تريدُ: خلطتُ كلَّ واحدٍ منهما بصاحبِه، بخلاف قولِك: خلطتُ الماءَ باللبنِ؛ لأنك جعلتَ الماءَ مخلوطاً، واللبنَ مخلوطاً به، وإذا قلتَه بالواو.. فقد جعلتَ الماءَ واللبنَ مخلوطين ومخلوطاً بهما، كأنك قلتَ: خلطتُ الماءَ باللبنِ، واللبنَ بالماءِ، ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾ ولم يذكرْ توبتَهم؛ لأنه ذكر اعترافَهم بذنوبهم، وهو دليلٌ على التوبة.

«١٠٣» ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾: كفارةً لذنوبِهم، قيل: هي الزكاةُ، ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ عن الذنوبِ، وهو صفة لـ(صدقة)، والتاءُ للخطابِ، أو لغَيبةِ المؤنثِ، والتاءُ في ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾: للخطابِ لا محالةَ[٣]، ﴿بِهَا﴾: بالصدقةِ، والتزكيةُ مبالغةٌ في التطهير وزيادةٌ فيه، أو: بمعنى الإنماءِ والبركةِ في المال، ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾: واعطِفْ عليهم بالدعاءِ لهم وترحمْ، والسنةُ أن يدعوَ

---

(١) روى مسلم (٢٧٦٩) عن سيدنا كعب بن مالك رضي الله عنه: أن النبي ﷺ كان إذا قدم من سفر.. بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين.

(٢) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٢٧٢) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنه.

(٣) لأن الضمير في قوله: (بها): يعودُ إلى الصدقة، فلا يمكن أن يعود الضمير من (تزكيهم) إلى الصدقة. انظر «الدر المصون» (٦/ ١١٦).

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ ....

المصَدِّقُ لصاحبِ الصدقةِ إذا أخذها، ﴿إن صلواتك﴾ ﴿صَلَوٰتَكَ﴾: كوفيٌّ غيرَ أبي بكرٍ[1]، قيل: الصلاةُ أكثرُ من الصلواتِ؛ لأنها للجنسِ، ﴿سَكَنٌ لَّهُمْ﴾: يسكنون إليه، وتطمئنُّ قلوبهم بأن الله قد تاب عليهم، ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لدعائِك، أو: يسمعُ اعترافَهم بذنوبهم ودعاءَهم، ﴿عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ بما في ضمائرِهم من الندم والغمِّ لما فَرَطَ منهم.

《١٠٤》 ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ﴾ المرادُ: المتوبُ عليهم؛ أي: ألم يعلموا قبلَ أن يُتابَ عليهم وتقبلَ صدقاتُهم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ إذا صَحَّتْ، ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾: ويقبلُها إذا صدرت على خُلُوصِ النيةِ، وهو للتخصيصِ؛ أي: إن ذلك ليس إلى رسولِ اللهِ، إنما الله هو الذي يقبلُ التوبةَ ويردُّها، فاقصدُوه بها، ووجهوها إليها، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾: كثيرُ قبولِ التوبةِ، ﴿ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾: يعفو الحَوْبَةَ.

《١٠٥》 ﴿وَقُلِ﴾ لهؤلاءِ التائبين: ﴿ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: فإن عملَكم لا يخفَى، خيراً كان أو شرّاً.. على اللهِ وعبادِه كما رأيتم وتبين لكم، أو: غيرِ التائبين؛ ترغيباً لهم في التوبة؛ فقد رويَ: أنه لما تِيْبَ عليهم.. قال الذين لم يتوبُوا: هؤلاء الذين تابوا كانوا بالأمسِ معَنا لا يُكَلَّمون ولا يُجالَسُون، فما لهم؟ فنزلت.

وقولُه: ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ﴾: وعيدٌ لهم وتحذيرٌ من عاقبةِ الإصرارِ والذهولِ عن التوبةِ، ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾: ما يغيبُ عن الناس، ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾: ما يُشاهدونه، ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾: تنبئةَ تذكيرٍ ومجازاةٍ عليه.

《١٠٦》 ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾: بغير همزٍ: مدنيٌّ وكوفيٌّ غيرَ أبي بكرٍ، ﴿مرجؤون﴾: غيرُهم؛ مِن: أرجيْتُه وأرجأتُه: إذا أخرتَه، ومنه المُرْجِئَةُ؛ أي: وآخرون من المتخلفين موقوفون إلى أن يظهرَ أمرُ الله فيهم، ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ﴾ إن أصرُّوا ولم يتوبوا، ﴿وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ إن تابُوا، وهم ثلاثةٌ: كعبُ بنُ مالكٍ، وهلالُ بنُ أميةَ، ومُرارةُ بنُ الربيعِ، والضابطُ: مكة[2]، تخلفوا عن غزوةِ تبوكَ، وهم الذين ذُكِرُوا في قوله: (وعلى الثلاثةِ الذين خُلِّفُوا)، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ برجائِهم،

---

(١) أي: بلفظ المفرد. انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٣٩) وكذا القراءة الآتية.

(٢) أي: حروف كلمة مكة تَرْمِزُ لأسمائهم.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ ....

﴿حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ في إرجائِهم، و(إما): للشكِّ، وهو راجعٌ إلى العبادِ؛ أي: خافُوا عليهم العذابَ، وارجُو لهم الرحمةَ.

روي: أنه عليه السلام أمر أصحابَه ألا يُسلِّمُوا عليهم، ولا يُكلِّمُوهم، ولم يفعلُوا كما فعلَ ذلك الفريقُ؛ مِن شدِّ أنفسِهم على السواري، وإظهارِ الجَزَعِ والغمِّ، فلما علمُوا أنَّ أحداً لا ينظرُ إليهم.. فوَّضُوا أمرَهم إلى الله، وأخلصُوا نياتِهم، ونصحَتْ توبتُهم، فرحمَهم اللهُ[1].

«١٠٧» ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا﴾ تقديرُه: ومنهم الذين اتخذوا، ﴿الذين﴾: بغير واوٍ: مدنيٌّ وشاميٌّ[2]، وهو مبتدأٌ، خبرُه محذوفٌ؛ أي: جازيناهم، روي: أن بني عمرِو بنِ عوفٍ لما بَنَوا مسجدَ قُباءَ.. بعثُوا إلى رسول الله عليه السلام أن يأتيَهم، فأتاهم فصلّى فيه، فحسدتْهم إخوتُهم بنو غَنْمِ بنِ عوفٍ، وقالوا: نبني مسجداً ونرسلُ إلى رسولِ الله يصلِّي فيه، ويصلِّي فيه أبو عامرٍ الراهبُ إذا قدم من الشام، وهو الذي قال لرسول الله عليه السلام يومَ أحدٍ: لا أجدُ قوماً يقاتلونَك إلا قاتلتُكَ معهم، فلم يزلْ يقاتلُه إلى يومِ حنينٍ، فبَنَوا مسجداً إلى جنبِ مسجدِ قباءَ، وقالوا للنبي عليه: بَنينا مسجداً لذي العلةِ والحاجةِ، ونحن نحب أن تصليَ لنا فيه، فقال: «إني على جَناحِ سَفَرٍ، وإذا قدمنا من تبوكَ إن شاء الله.. صلينا فيه»، فلما قَفَلَ من غزوةِ تبوكَ.. سألوه إتيانَ المسجدِ، فنزلت عليه، فقال لوحشيٍّ قاتلِ حمزةَ، ومعنِ بنِ عَدِيٍّ وغيرِهما: «انطلِقُوا إلى هذا المسجدِ الظالمِ أهلُه فاهدِموه وأحرِقُوه»، ففعلُوا، وأَمَرَ أن يُتخذَ مكانَه كُناسةٌ تُلقَى فيها الجِيَفُ والقُمامةُ، ومات أبو عامرٍ بالشام[3]، ﴿ضِرَارًا﴾: مفعولٌ له، وكذا ما بعده؛ أي: مُضارَّةً لإخوانهم أصحابِ مسجدِ قُباءَ، ﴿وَكُفْرًا﴾: وتقويةً للنفاقِ، ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنهم كانوا يصلون مجتمعين في مسجدِ قباءَ، فأرادُوا أن يتفرقُوا عنه وتختلفَ كلمتُهم، ﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ﴾: وإعداداً لأجلِ مَن ﴿حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ وهو: الراهبُ أعدُّوه له؛ ليصليَ فيه ويظهرَ على رسولِ الله ﷺ، وقيل: كلُّ مسجدٍ بُنيَ مباهاةً أو رياءً أو سمعةً أو لغرضٍ سوى ابتغاءِ وجهِ اللهِ،

---

(١) قصة توبة الله على كعب ورفيقيه رواها البخاري (٤٤١٨) ومسلم (٢٧٦٩)، وهي قصة طويلة فيها فوائد جليلة، جديرة بالتأمل والتدبر، واستنباط العبر والعظات منها.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٣٩).

(٣) روى نحوه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٤٦٨) عن الزهري.

لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ......

أو بمالٍ غيرِ طيبٍ.. فهو لاحقٌ بمسجدِ الضرارِ، ﴿مِن قَبْلُ﴾: متعلقٌ بـ(حارب) أي: من قبلِ بناءِ هذا المسجدِ؛ يعني: يومَ الخندقِ، ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ﴾ كاذبين: ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ﴾: ما أردنا ببناء هذا المسجدِ إلا الخَصْلَةَ الحُسنى، وهي الصلاةُ وذكرُ اللهِ والتوسعةُ على المصلين، ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ في حَلِفِهِم.

«١٠٨» ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ للصلاةِ، ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ﴾ اللامُ: للابتداءِ، و(أسس): نعتٌ له، وهو مسجدُ قباءَ، أسسه رسولُ اللهِ ﷺ، وصلى فيه أيامَ مُقامِهِ بِقُباءَ، أو: مسجدُ رسولِ اللهِ ﷺ بالمدينة، ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ من أيامِ وجودِه. **قيل**: القياسُ فيه: مُذْ؛ لأنه لابتداءِ الغايةِ في الزمان، و(من): لابتداءِ الغايةِ في المكان. **والجواب**: أن (مِن): عامٌّ في الزمانِ والمكانِ[1]، ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ مصلياً، ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ قيل: لما نزلت.. مشى رسولُ اللهِ عليه السلام ومعه المهاجرون، حتى وقفوا على بابِ مسجدِ قُباءَ، فإذا الأنصارُ جلوسٌ، فقال: «أمؤمنون أنتم؟» فسكت القوم، ثم أعادها فقال عمر: يا رسول الله إنهم لمؤمنون، وأنا معهم، فقال عليه السلام: «أترضون بالقضاء؟» قالوا: نعم، قال: «أتصبرون على البلاء؟» قالوا: نعم، قال: «أتشكرون في الرخاء؟» قالوا: نعم، قال عليه السلام: «مؤمنون وربِّ الكعبة»، فجلسَ ثم قال: «يا معشر الأنصار إن الله عزَّ وجلَّ قد أثنى عليكم، فما الذي تصنعون عند الوضوء وعند الغائط؟» فقالوا: يا رسول الله نُتْبِعُ الغائطَ الأحجارَ الثلاثةَ، ثم نُتْبِعُ الأحجارَ الماءَ، فتلا النبي عليه السلام[2]: ﴿رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾: قيل: هو عامٌّ في التطهرِ عن النجاساتِ كلِّها، وقيل: هو التطهرُ من الذنوبِ بالتوبةِ، ومعنى محبتِهم للتطهر: أنهم يؤثرونه ويحرصون عليه حرصَ المحبِّ للشيءِ، ومعنى محبةِ الله إياهم: أنه يَرضَى عنهم، ويحسنُ إليهم، كما يفعلُ المحبُّ بمحبوبِه.

«١٠٩» ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ﴾: وضعَ أساسَ ما يبنيه ﴿عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم

---

(١) الصحيح أن (مِن) تستعمل لابتداء الغاية المكانية والزمانية. انظر «مغني اللبيب» (ص ٤٢٠).

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٩٤٢٧) مختصراً، وذكر سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه هذه الآية ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر الأنصار، إن الله قد أثنى عليكم في الطهور، فما طهوركم؟» قالوا: نتوضأ للصلاة، ونغتسل من الجنابة، ونستنجي بالماء، قال: «فهو ذاك، فعليكموه» رواه ابن ماجه (٣٥٥).

لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ....

مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾: هذا سؤالُ تقريرٍ، وجوابُه مسكوتٌ عنه؛ لوضوحه، والمعنى: أفمن أسسَ بنيانَ دينِه على قاعدةٍ مُحكمةٍ، وهي تقوى الله ورضوانُه.. خيرٌ أمْ مَن أسَّسه على قاعدةٍ هي أضعفُ القواعدِ، وهو الباطلُ والنفاقُ الذي مَثَلُه مثلُ شَفا جُرُفٍ هارٍ في قلةِ الثباتِ والاستمساكِ، وُضِعَ شَفا الجُرُفِ في مقابلةِ التقوى؛ لأنه جعلَ مجازاً عمّا يُنافي التقوى، والشَّفا: الحرفُ والشَّفيرُ، وجُرُفُ الوادي: جانبُه الذي يَتحفَّرُ أصلُه بالماء وتجرِفُه السيولُ فيبقى واهياً، والهارِ: الهائِرُ وهو المتصدعُ الذي أشْفَى على التهدمِ والسقوطِ، ووزنُه: (فَعِلٌ) قُصِرَ عن (فاعل)، كخَلِفٍ مِن خالِفٍ، وألفُه ليس بألف فاعل، إنما هي عينُه، وأصلُه: هَوِرٌ، فقلبت ألفاً؛ لتحركِها وانفتاحِ ما قبلَها، ولا تَرى أبلغَ من هذا الكلامِ، ولا أدلَّ على حقيقةِ الباطلِ، وكُنْهِ أمرِه، ﴿أفَمَنْ أُسِّسَ بُنيانُه﴾ ﴿أمْ مَنْ أُسِّسَ بُنيانُه﴾: شاميٌّ ونافعٌ[(١)]، ﴿جُرْفٍ﴾: شاميٌّ وحمزةُ ويحيى، ﴿هارٍ﴾: بالإمالة: أبو عمرٍو، وحمزةُ في روايةٍ، ويحيَى[(٢)]، ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾: فطاحَ به الباطلُ في نارِ جهنمَ، ولما جعلَ الجُرُفُ الهائِرُ مجازاً عن الباطلِ.. رُشِّحَ المجازُ، فجيءَ بلفظِ الانهيارِ الذي هو للجُرُفِ؛ وليصورَ أن المبطلَ كأنه أَسَّسَ بنيانَه على شَفا جُرُفٍ هارٍ من أوديةِ جهنمَ، فانهارَ به ذلك الجُرُفُ، فهَوَى في قَعْرِها، قال جابرٌ: رأيت الدخانَ يخرجُ من مسجدِ الضرارِ حين انهارَ[(٣)]، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾: لا يوفقُهم للخيرِ عقوبةً لهم على نفاقِهم.

《١١٠》 ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾: لا يزالُ هدمُه سببَ شكٍّ ونفاقٍ زائدٍ على شكِّهم ونفاقِهم؛ لما غاظَهم من ذلك وعَظُمَ عليهم، ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾: شاميٌّ وحمزةُ وحفصٌ؛ أي: تَتقطع، غيرُهم: ﴿تُقَطَّعَ﴾[(٤)]؛ أي: إلا أن تُقْطَعَ قلوبُهم قِطَعاً، وتُفَرَّقَ أجزاءً، فحينئذٍ يَسْلُون عنه، وأما ما دامت سالمةً مجتمعةً.. فالريبةُ باقيةٌ فيها متمكنةٌ، ثم يجوزُ أن يكون ذكرُ التقطعِ تصويراً لحالِ زوالِ الريبةِ عنها، ويجوز أن يُرادَ حقيقةُ تقطيعِها، وما هو كائنٌ منه بقتلِهم، أو في القبور، أو في النار، أو معناه: إلا أن يتوبوا توبةً تتقطعُ بها قلوبُهم ندماً وأسفاً على تفريطِهم، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بعزائمِهم، ﴿حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ في جزاءِ جرائمِهم.

---

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٤٠) وكذا القراءة الآتية.
(٢) انظر «الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها» (ص ٣٣١).
(٣) رواه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٥٩٥).
(٤) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٤٠).

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ۚ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ..

《١١١》 ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ مثَّلَ اللهُ إثابتَهم بالجنة على بذلِهم أنفسَهم وأموالَهم في سبيله بالشراء، وروي: تاجَرَهم، فأغلَى لهم الثمنَ[1]، وعن الحسنِ: أنْفُساً هو خلقَها، وأموالاً هو رزقَها. ومرَّ برسولِ الله عليه السلام أعرابيٌّ وهو يقرؤُها فقال: بيعٌ واللهِ مُرْبِحٌ، لا نُقيلُه، ولا نَستقيلُه، فخرجَ إلى الغزوِ واستُشْهِدَ. ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: بيانُ محلِّ التسليم، ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ أي: تارةً يَقتلون العدوَّ، وطوراً يقتلُهم العدوُّ، ﴿فيُقتَلون ويَقتُلون﴾: حمزةُ وعليٌّ[2]، ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ﴾: مصدرٌ؛ أي: وَعَدَهم بذلك وعداً ﴿حَقًّا﴾: صفتُه، أخبرَ بأن هذا الوعدَ الذي وعدَه للمجاهدين في سبيلِه.. وعدٌ ثابتٌ قد أثبته ﴿فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ وهو دليلٌ على أن أهلَ كلِّ ملةٍ أُمِروا بالقتالِ، وَوُعِدُوا عليه، ثم قال: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ لأن إخلافَ الميعادِ قبيحٌ، لا يُقدِمُ عليه الكريم منا، فكيف بأكرمِ الأكرمين! ولا ترى ترغيباً في الجهادِ أحسنَ منه وأبلغَ، ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ﴾: فافرَحُوا به غايةَ الفرحِ؛ فإنكم تبيعون فانياً بباقٍ، ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ قال الصادقُ: ليس لأبدانِكم ثمنٌ إلا الجنةُ، فلا تبيعُوها إلا بها[3].

《١١٢》 ﴿التَّائِبُونَ﴾: رفعٌ على المدح؛ أي: هم التائبون؛ يعني: المؤمنين المذكورين، أو: هو مبتدأٌ، خبرُه: ﴿الْعَابِدُونَ﴾ أي: الذين عبدُوا اللهَ وحدَه، وأخلصُوا له العبادةَ، وما بعدَه خبرٌ بعدَ خبرٍ؛ أي: التائبون من الكفر على الحقيقةِ، الجامعون لهذه الخصالِ، وعن الحسنِ: هم الذين تابُوا من الشركِ، وتبرؤوا من النفاقِ، ﴿الْحَامِدُونَ﴾ على نعمةِ الإسلام، ﴿السَّائِحُونَ﴾: الصائمون؛ لقوله عليه السلام: «سياحةُ أمتي الصيامُ»[4]، أو: طَلَبَةُ العلمِ؛ لأنهم يَسيحُون في الأرض يطلُبونه في مظانِّه، أو: السائرون في الأرضِ؛ للاعتبار، ﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾:

---

(١) روى الطبري في «التفسير» (١٤/٤٩٩) عن الحسن قال: بايَعَهم فأغلَى لهم الثمنَ.

(٢) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٤٠).

(٣) لم أجده عن سيدنا جعفر الصادق، ولكن رواه ابن أبي الدنيا في «الزهد» (ص ١٤٤) عن محمد بن الحنفية.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/٥٠٦) موقوفاً على سيدنا عائشة رضي الله عنها.

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ....

المحافظون على الصلواتِ، ﴿الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾: بالإيمانِ والطاعةِ، ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾: عن الشركِ والمعاصي، ودخلت الواوُ؛ للإشعارِ بأن السبعةَ عقدٌ تامٌّ، أو: لتضادِّ بين الأمرِ والنهيِ، كما في قوله: ﴿ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم: ٥]، ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾: أوامرِه ونواهيْه، أو: معالمِ الشرعِ، ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾: المتصفين بهذه الصفاتِ.

《١١٣》 وهمَّ عليه السلام أن يستغفرَ لأبي طالبٍ فنزل[1]:

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ﴾ أي: ما صحَّ له الاستغفارُ في حكمِ اللهِ وحِكمتِه ﴿مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾: من بعدِ ما ظهرَ لهم أنهم ماتُوا على الشركِ.

《١١٤》 ثم ذكر عذرَ إبراهيمَ عليه السلام فقال: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ أي: وعدَ أبوه إياه أن يسلمَ، أو: هو وعدَ أباه أن يستغفرَ، وهو قولُه: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة: ٤]، دليلُه: قراءةُ الحسنِ: ﴿وعدها أباه﴾[2]، ومعنى استغفارِه: سؤالُه المغفرةَ له بعدَ ما أسلم، أو: سؤالُه إعطاءَ الإسلامِ الذي به يُغفرُ له، ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ﴾ من جهةِ الوحيِ ﴿له﴾: لإبراهيمَ ﴿أَنَّهُ﴾: أن أباه ﴿عَدُوٌّ لِّلَّهِ﴾: بأن يموتَ كافراً وانقطع رجاؤُه عنه ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ وقطعَ استغفارَه، ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ﴾ هو: المتأوِّهُ شَفَقاً وفَرَقاً، ومعناه: أنه لِفَرْطِ تَرَحُّمِهِ ورِقَّتِه كان يتعطفُ على أبيه الكافرِ، ﴿حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ هو: الصبورُ على البلاءِ، الصفوحُ عن الأذى؛ لأنه كان يستغفرُ لأبيه وهو يقولُ: لأرجمنك.

《١١٥》 ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ أي: ما أمرَ اللهُ باتقائِه واجتنابِه كالاستغفارِ للمشركين وغيرِه مما نَهى عنه وبَيَّنَ أنه محظور.. لا يؤاخذُ به عبادَه الذين هداهم للإسلامِ، ولا يخذلُهم إلا إذا أقدمُوا عليه بعدَ بيانِ حظرِه وعِلْمِهم بأنه واجبُ

---

(١) روى البخاري (١٣٦٠) ومسلم (٢٤) عن سيدنا المسيب بن حزن رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لأبي طالب: «أما والله لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك» فأنزل الله تعالى فيه: (ما كان للنبي...).

(٢) انظر «التفسير الوسيط» للواحدي (٢/٥٢٨).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ ....

الاجتناب، وأما قبلَ العلمِ والبيانِ.. فلا، وهذا بيانٌ لعذرِ من خاف المؤاخذةَ بالاستغفارِ للمشركين، والمراد بـ (ما يتقون): ما يجب اتقاؤه للنهي، فأما ما يُعلمُ بالعقل.. فغير موقوفٍ على التوقيف، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾.

《١١٦》 ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾.

《١١٧》 ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ أي: تاب عليه من إذنِه للمنافقين في التخلفِ عنه، كقوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ [التوبة: ٤٣] ﴿وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾: فيه بعثٌ للمؤمنين على التوبةِ، وأنه ما من مؤمن إلا وهو محتاجٌ إلى التوبة والاستغفارِ حتى النبيِّ والمهاجرين والأنصارِ، ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾: في غزوةِ تبوكَ؛ ومعناه: في وقتها، والساعةُ مستعملةٌ في معنى الزمان المطلقِ، وكانوا في عُسْرَةٍ من الظَّهْرِ، يَعتقِبُ العشرةُ على بعيرٍ واحدٍ؛ ومن الزادِ، تزودُوا التمرَ المُدَوِّدَ، والشعيرَ المسوِّسَ، والإهالةَ الزَّنِخَةَ[1]، وبلغت بهم الشدةُ حتى اقتسمَ التمرةَ اثنان، وربما مصَّها الجماعةُ؛ ليشربُوا عليها الماء، ومن الماءِ حتى نحرُوا الإبلَ، وعصرُوا كَرِشَها وشربُوه، وفي شدةِ زمانٍ من حمارَّةِ القيظِ[2]، ومن الجَدْبِ والقَحْطِ[3]، ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ تَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ عن الثباتِ على الإيمانِ، أو: عن اتباعِ الرسولِ في تلك الغزوةِ والخروجِ معه، وفي (كاد): ضميرُ الشأن، والجملةُ بعده في موضعِ النصبِ، وهو كقولهم: ليس خلق الله مثلَه؛ أي: ليس الشأنُ خلقَ اللهُ مثلَه، ﴿يَزِيغُ﴾: حمزةُ وحفصٌ[4]، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾: تكريرٌ للتوكيد، ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾.

---

(١) الإهالةُ الزَّنِخَةُ: الدهن المنتن.

(٢) أي: شدة الحر.

(٣) انظر «السيرة النبوية» لابن كثير (٤/ ١٦).

(٤) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٤١).

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ ....

«١١٨» ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ﴾ أي: وتابَ على الثلاثةِ وهم: كعبُ بنُ مالكٍ، ومُرارةُ بنُ الربيعِ، وهلالُ بنُ أميةَ[1]، وهو عطفٌ على ﴿ٱلنَّبِىِّ﴾، ﴿ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ عن الغزوِ[2]، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾: برُحْبِها؛ أي: مَعَ سَعَتِها، وهو مثلٌ للحَيرة في أمرهم، كأنهم لا يجدون فيها مكاناً يَقَرُّون فيه؛ قَلَقاً وجَزَعاً، ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ أي: قلوبُهم لا يسعُها أُنسٌ ولا سرورٌ؛ لأنها حَرِجَتْ من فَرْطِ الوحشةِ والغَمِّ، ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾: وعَلِمُوا أنْ لا ملجأَ من سخطِ اللهِ إلا إلى استغفارِه، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ بعدَ خمسين يوماً؛ ﴿لِيَتُوبُوٓاْ﴾: ليكونوا من جملةِ التوابين، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾.

عن أبي بكرٍ الوراقِ أنه قال: التوبةُ النَّصوحُ أن تضيقَ على التائبِ الأرضُ بما رَحُبتْ، وتضيقَ عليه نفسُه كتوبةِ هؤلاءِ الثلاثةِ.

«١١٩» ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ في إيمانهم دون المنافقين، أو: مع الذين لم يتخلفوا، أو: مع الذين صدقُوا في دينِ اللهِ نيةً وقولاً وعملاً.

والآيةُ تدلُّ على أن الإجماعَ حجةٌ؛ لأنه أَمَرَ بالكَوْنِ مع الصادقين، فلزمَ قَبولُ قولِهم.

«١٢٠» ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ المرادُ بهذا النفيِ: النهيُ، وخُصَّ هؤلاءِ بالذكرِ وإن استوَى كلُّ الناسِ في ذلك؛ لِقربِهم منه، ولا يخفى عليهم

---

(١) ويرمز لأسمائهم بكلمة (مكة).

(٢) فسر سيدنا كعب بن مالك قولَه تعالى: ﴿خُلِّفُواْ﴾ بمعنى: أُخِّرُوا حتى تابَ اللهُ عليهم، لا أن المراد أنهم خُلِّفُوا عن الغزو، روى البخاري (٤٤١٨) عن سيدنا كعب بن مالك قال: وكنا تخلفنا أيُّها الثلاثةُ عن أمرِ أولئك الذين قَبِلَ منهم رسولُ الله ﷺ حين حَلَفُوا له، فبايعَهم واستغفرَ لهم، وأرجأ رسولُ الله ﷺ أمرَنا حتى قضَى اللهُ فيه، فبذلك قال الله: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾، وليس الذي ذكرَ اللهُ مما خُلِّفْنا عن الغزوِ، إنما هو تخليفُه إيانا، وإرجاؤُه أمرَنا، عمن حَلَفَ له واعتذرَ إليه فقَبِلَ منه. وانظر «فتح الباري» (٨/ ١٢٣).

﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾ ....

خروجَه، ﴿وَلَا يَرْغَبُوا﴾: ولا أنْ يَضنُّوا ﴿بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ﴾: عمّا يُصيبُ نفسَه؛ أي: لا يختاروا إبقاءَ أنفسِهم على نفسِه في الشدائدِ، بل أُمِرُوا بأن يصحبُوه في البأساءِ والضراءِ، ويُلقُوا أنفسَهم بين يديه في كلِّ شديدةٍ، ﴿ذَٰلِكَ﴾ النهيُ عن التخلفِ ﴿بِأَنَّهُمْ﴾: بسببِ أنهم ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾: عطشٌ، ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾: تعَبٌ، ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾: مجاعةٌ ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: في الجهادِ، ﴿وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا﴾: ولا يدُوسون مكاناً من أمكنةِ الكفارِ بحوافرِ خيولِهم، وأخفافِ رواحلِهم وأرجلِهم، ﴿يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾: يُغضبُهم، ويُضيِّقُ صدورَهم، ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾: ولا يُصيبون منهم إصابةً بقتلٍ أو أَسْرٍ أو جَرْحٍ أو كَسْرٍ أو هَزيمةٍ ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما: لكلِّ رَوْعَةٍ سبعون ألفَ حسنةٍ. يقال: نالَ منه: إذا رَزَأَهُ ونَقَصَهُ، وهو عامٌّ في كلِّ ما يَسوؤُهم،

وفيه دليلٌ على أن من قصدَ خيراً.. كان سعيُه فيه مشكوراً من قيامٍ وقعودٍ ومشْيٍ وكلامٍ وغيرِ ذلك، وعلى أن المددَ يُشاركُ الجيشَ في الغنيمةِ بعدَ انقضاءِ الحربِ؛ لأن وطءَ ديارِهم مما يَغيظُهم، وقد أسهمَ النبيُّ عليه السلام لابنَي عامرٍ وقد قَدِما بعدَ تَقَضِّي الحربِ[١]، والمَوْطِئُ: إما مصدرٌ كالمَوْرِدِ، وإما مكانٌ، فإن كان مكاناً.. فمعنى (يَغيظُ الكفار): يَغيظُهم وطؤُه، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ أي: أنهم مُحسنون، واللهُ لا يُبطل ثوابَهم.

«١٢١» ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً﴾ في سبيلِ اللهِ ﴿صَغِيرَةً﴾: ولو تمرةً، ﴿وَلَا كَبِيرَةً﴾: مثلَ ما أنفقَ عثمانُ رضي الله عنه في جيشِ العُسْرَةِ، ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ أي: أرضاً في ذهابِهم ومجيئِهم، وهو: كلُّ مُنفرِجٍ بين جبالٍ وآكامٍ يكون مَنفذاً للسيلِ[٢]، وهو في الأصل: (فاعِل) مِن: وَدَى: إذا سال، ومنه الوَدْيُ، وقد شاع في الاستعمال بمعنى: الأرض، ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ ذلك من الإنفاقِ وقطعِ الوادي؛ ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ﴾: متعلقٌ بـ (كتب) أي: أُثْبِتَ في صحائفِهم؛ لأجل الجزاء، ﴿أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾ أي: يَجزيْهم على كلِّ واحدٍ جزاءَ أحسنِ عملٍ كان لهم، فيُلحِقُ ما دونه به؛ توفيراً لأجرهم.

---

(١) روى البخاري (٣١٣٦) عن سيدنا أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنه قدم من الحبشة مع أخويه، قال: فوافقنا النبيَّ ﷺ حين افتتح خيبر، فأسهم لنا، أو قال: فأعطانا منها، وما قسم لأحد غاب عن فتح خيبر منها شيئاً إلا لمن شهد معه، إلا أصحابَ سفينتنا مع جعفرٍ وأصحابه، قسم لهم معهم.

(٢) الآكام: جمعُ أكمةٍ، وهي المكان المرتفع.

وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ . . . .

«١٢٢» ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾ اللامُ لتأكيدِ النفيِ؛ أي: أن نفيرَ الكافةِ عن أوطانهم لطلبِ العلم غيرُ صحيحٍ؛ للإفضاء إلى المفسدة، ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ﴾: فحينَ لم يكن نفيرُ الكافةِ.. فهلّا نفرَ ﴿مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ أي: مِن كلِّ جماعةٍ كثيرةٍ جماعةٌ قليلةٌ منهم يَكفونَهم النفيرَ؛ ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾: ليتكلفُوا الفَقاهةَ فيه، ويَتجشَّمُوا المشاقَّ في تحصيلِها[1]، ﴿وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾: وليجعلُوا مَرمَى هِمتِهم إلى التفقهِ إنذارَ قومِهم وإرشادَهم ﴿إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ دون الأغراضِ الخسيسةِ؛ من التصدُّرِ والترؤُّسِ والتشبهِ بالظَّلَمةِ في المراكبِ والملابسِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ ما يجبُ اجتنابُه.

وقيل: إن رسول الله ﷺ كان إذا بعثَ بعثاً بعدَ غزوةِ تبوكَ بعد ما أنزلَ في المتخلفين من الآياتِ الشِّدادِ.. استبقَ المؤمنون عن آخرِهم إلى النفيرِ، وانقطعُوا جميعاً عن التفقهِ في الدين، فأُمِرُوا أن يَنْفِرَ من كلِّ فرقةٍ منهم طائفةٌ إلى الجهاد، ويبقَى سائرُهم يتفقهون حتى لا ينقطعُوا عن التفقه الذي هو الجهادُ الأكبرُ؛ إذ الجهادُ بالحِجاجِ أعظمُ أثراً من الجهادِ بالنصالِ[2].

والضميرُ في (ليتفقهوا): للفِرَقِ الباقيةِ بعدَ الطوائفِ النافرةِ من بينِهم، (ولينذروا قومهم): ولينذرَ الفِرَقُ الباقيةُ قومَهم النافرين إذا رجعُوا إليهم بما حصَّلُوا في أيامِ غيبتِهم من العلومِ.

وعلى الأول: الضميرُ للطائفةِ النافرةِ إلى المدينة للتفقهِ.

«١٢٣» ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم﴾: يَقْرُبُون منكم ﴿مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ القتالُ واجبٌ مع جميعِ الكفرةِ قريبِهم وبَعيدِهم، ولكنَّ الأقربَ فالأقربَ أوجبُ، وقد حارب النبيُّ عليه السلام قومَه، ثم غيرَهم من عربِ الحجازِ، ثم الشامِ، والشامُ أقربُ إلى المدينةِ من العراقِ وغيرِه، وهكذا المفروضُ على أهلِ كلِّ ناحيةٍ أن يقاتِلوا من وَلِيَهم، ﴿وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾: شِدَّةً وعُنفاً في المقالِ قبلَ القتالِ، ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ بالنصرةِ والغلبةِ.

«١٢٤» ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ (ما): صلةٌ مؤكِّدةٌ، ﴿فَمِنْهُم﴾: فمن المنافقين ﴿مَّن يَقُولُ﴾ بعضُهم لبعضٍ: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ﴾ السورةُ ﴿إِيمَـٰنًا﴾ إنكاراً واستهزاءً بالمؤمنين، و(أيُّكم):

---

(١) تجشمتُ الأمرَ: إذا تكلفتُه على مشقة.

(٢) روى نحوَ هذا البيهقيُّ في «المدخل إلى السنن الكبرى» (ص ٢٤٤) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ ....

مرفوعٌ بالابتداءِ، وقيل: هو قولُ المؤمنين؛ للحثِّ والتنبيهِ، ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا﴾: يقيناً وثباتاً، أو: خشيةً، أو: إيماناً بالسورةِ؛ لأنهم لم يكونوا آمنوا بها تفصيلاً، ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾: يَعُدُّون زيادةَ التكليفِ بشارةَ التشريفِ.

«١٢٥» ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: شكٌّ ونفاقٌ، فهو فسادٌ يحتاجُ إلى علاجٍ، كالفسادِ في البدنِ ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾: كُفراً مضموماً إلى كفرِهم، ﴿وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾: هو إخبارٌ عن إصرارِهم عليه إلى الموت.

«١٢٦» ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ﴾ يعني: المنافقين، وبالتاءِ: حمزةُ[1]، خطابٌ للمؤمنين، ﴿أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾: يُبتَلَون بالقحطِ والمرضِ وغيرِهما ﴿فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ عن نفاقِهم، ﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾: ولا يعتبرون، أو: بالجهاد مع رسولِ اللهِ عليه السلام، لا يتوبون بما يَرون من دولةِ الإسلامِ، ولا هم يذكرون بما يقعُ بهم من الاصطلامِ[2].

«١٢٧» ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾: تغامزُوا بالعيون إنكاراً للوحي، وسخريةً به قائلين: ﴿هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ من المسلمين لننصرفَ؛ فإنا لا نصبرُ على استماعِه، ويغلبُنا الضحكُ، فنخافُ الافتضاحَ بينهم، أو: إذا ما أنزلت سورةٌ في عيبِ المنافقين.. أشار بعضُهم إلى بعضٍ: هل يراكم من أحد إن قمتم من حضرته عليه السلام؟ ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟﴾ عن حضرةِ النبيِّ عليه السلام؛ مخافةَ الفضيحةِ، ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ عن فهمِ القرآنِ ﴿بِأَنَّهُمْ﴾: بسببِ أنهم ﴿قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾: لا يتدبرون حتى يفقهُوا.

«١٢٨» ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾: محمدٌ عليه السلام، ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾: من جنسِكم ومن نسبِكم، عربيٌّ قرشيٌّ مثلُكم، ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾: شديدٌ عليه شاقٌّ لكونِه بعضاً منكم.. عنتُكم ولقاؤُكم المكروهَ، فهو يخافُ عليكم الوقوعَ في العذابِ، ﴿حَرِيصٌ

(١) انظر «البدور الزاهرة» (ص ١٤١).
(٢) دولةُ الإسلامِ: انتصارُ المسلمين على أعدائهم، والاصطلام: الاستئصال.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾

﴿عَلَيْكُم﴾: على إيمانِكم ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ منكم ومن غيرِكم ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ قيل: لم يجمعِ اللهُ اسمين من أسمائِه لأحدٍ غيرِ رسولِ اللهِ ﷺ.

《١٢٩》 ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾: فإن أعرضُوا عن الإيمان بك وناصبوك ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾: فاستعنْ باللهِ وفوضْ إليه، فهو كافيك مَعَرَّتَهم، وناصرُك عليهم[1]، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾: فوضتُ أمري إليه، ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ﴾: هو أعظمُ خلقِ اللهِ خلق مَطافاً لأهل السماء وقبلةً للدعاء، ﴿ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾: بالجرِّ، وقرىء بالرفعِ على نعتِ الربِّ جلَّ وعزَّ[2].

عن أبيٍّ: آخرُ آيةٍ نزلت: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ الآيةَ[3].



(١) معرتهم: أذاهم.

(٢) انظر «إتحاف فضلاء البشر» (ص ٤٠٥).

(٣) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١/ ١٩٩)، وقد اختلفت الروايات في آخر ما نزل، ورجح شيخُنا العلّامة الدكتورُ نور الدين عتر في «علوم القرآن الكريم» (ص ٣٦) أن آخر ما نزل من القرآن مطلقاً قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

فهرس الموضوعات

